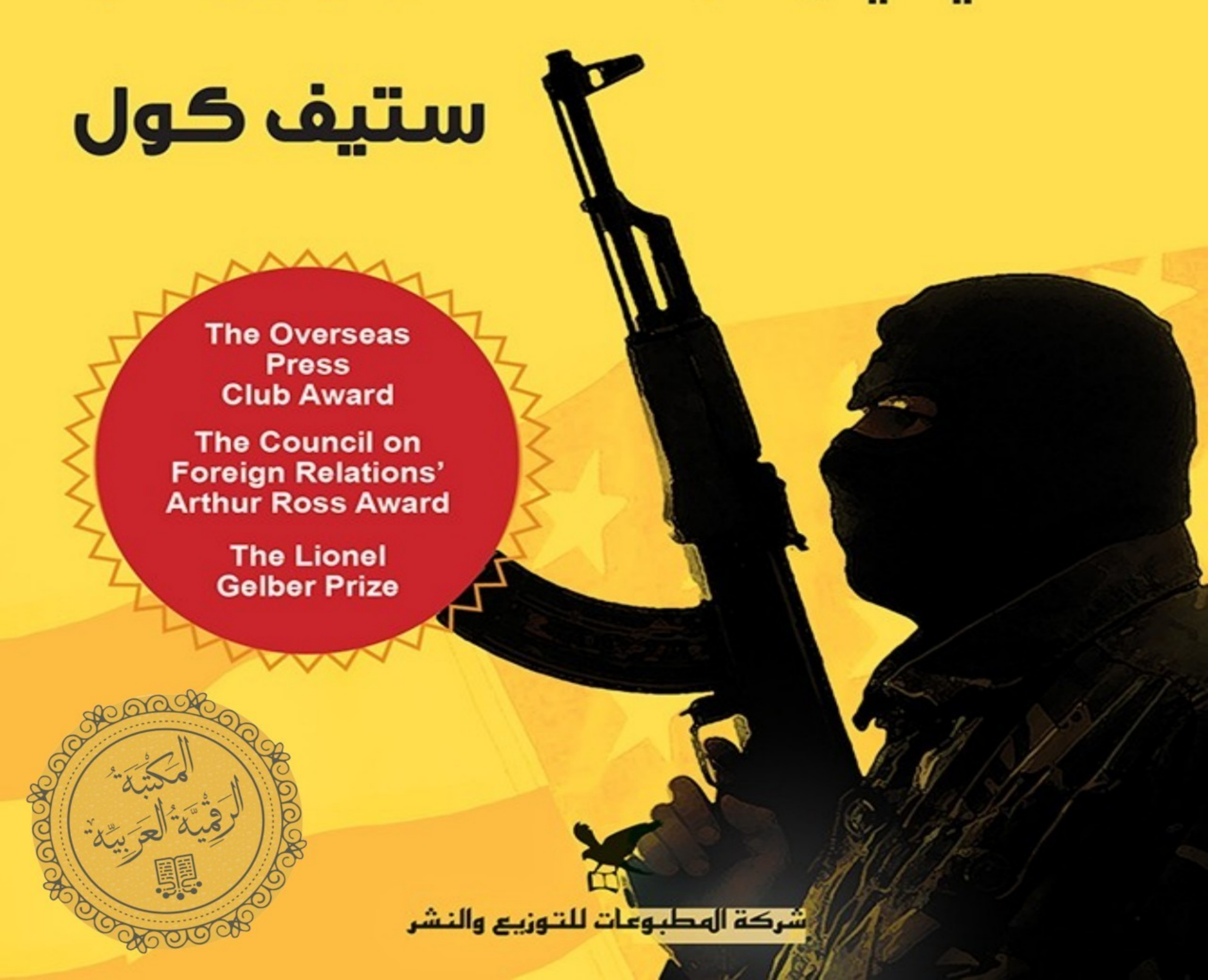
حائز جائزة Pulitzer المرموقة مرَّتين

# حروب الأشباح

## السجلّ الخفيّ
## للـ«سي. آي. إيه»، و«أفغانستان»، و«بن لادن»

ستيف كول




شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

ستيف كول

# حروب الأشباح: السجل الخفي للسي.آي.إيه، وأفغانستان، وبن لادن

«المكتبة الرقمية العربية»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

# الإهداء

إلى سوزان

# الشخصيّات الأساسية

**وكالة الاستخبارات المركزية**

فرانك أندرسون، مدير قوات المهام الخاصة في أفغانستان (1987 - 1989)، ورئيس قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات في «السي.آي.إيه.» (1991 - 1994).

ميلتون بيردان رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد (1986 - 1989).

ج. كوفر بلاك رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في الخرطوم، عاصمة السودان (1993 - 1995)، ومدير مركز مكافحة الإرهاب (1999 - 2002).

وليام ج. كايسي المدير الأوَّل (1981 - 1987). ومدير مركز مكافحة الإرهاب (1986 - 1988).

جون دوتش، مدير (1995 - 1997).

روبيرت غيتس، مدير (1991 - 1993).

هوارد هارت، رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد (1981 - 1984).

جيف أوكونيل، مدير مركز مكافحة الإرهاب (1997 - 1999).

جايمس بافيت، نائب مدير مكتب العمليات (1999).

وليام بيكني، رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد (1984 - 1986).

بول بيلار، رئيس التحاليل ثم نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب (1993 - 1999).

ريتش، رئيس وحدة بن لادن التابعة لمركز مكافحة الإرهاب (1999 - 2001).

مايكل شوير، رئيس وحدة بن لادن التابعة لمركز مكافحة الإرهاب (1996 - 1999).

غاري شروين، ضابط في الخدمات السرية لوكالة الاستخبارات في إسلام آباد (1978 - 1980)، رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في كابول (1988 - 1990)، رئيس مركز الوكالة في إسلام آباد (1996 - 1999)، نائب رئيس قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية عمليات «السي.آي.إيه.». (1999 - 2001).

جورج تينيت، مدير (1997).

توماس تويتن، نائب مدير قسم العمليات (1991 - 1993).

هاري، رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد (1989 - 1992).

جايمس ولسي، مدير (1993 - 1995).

**البيت الأبيض**

ساموبل بيرغر، نائب مستشار الأمن القومي (1993 - 1997)، مستشار الأمن القومي (1997 - 2000).

بريجنسكي، مستشار الأمن القومي (1977 - 1980).

ريتشارد كلارك، المنسق القومي لمكافحة الإرهاب (1998 - 2001).

أنطوني لايك، مستشار الأمن القومي (1993 - 1997).

**قسم الشؤون الخارجية**

مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية (1997 - 2000)

كارل إندرفيرث، مساعد وزيرة الخارجية لشؤون جنوبي آسيا (1997 - 2000).

إدموند ماك وليامز، المبعوث الأميركي الخاص لدى المقاومة الأفغانية (1988 - 1989).

ويليام ميلام، سفيراً إلى باكستان (1998 - 2001).

روبيرت أوكلي، سفيراً إلى باكستان (1988 - 1991).

توم بيكرنغ، مساعد وزيرة الخارجية (1997 - 2000).

روبين رافيل، مساعد وزير الخارجية لشؤون جنوبي آسيا (1993 - 1997).

جورج شولتز، وزير الخارجية (1982 - 1989).

توم سايمونز، سفير إلى باكستان (1996 - 1998).

بيتر تومسون، المبعوث الأميركي الخاص لدى المقاومة الأفغانية (1989 - 1992).

**في أفغانستان**

عبد الله، مساعد أحمد شاه مسعود في العلاقات الخارجية.

محمّد عاطف، قائد عسكري مصري في تنظيم القاعدة التابع لبن لادن.

عبد الله عزّام، داعية فلسطيني، ترأس جماعة الإخوان المسلمين في القاعدة حتى العام 1989.

عبد رشيد دوستوم، جنرال شيوعي سابق، قائد ميليشيا في مناطق الأوزبك، وحليف مسعود لبعض الوقت.

محمد فهيم، رئيس الاستخبارات والأمن لدى مسعود.

عبد الحقّ، زعيم ميليشيا الباشتون الأفغانية، لعب دور الوسيط مع «السي.آي.إيه.» في أواخر الثمانينيات.

جلال الدين حقّاني، زعيم ميليشيا أفغانية إسلامية متطرّفة، قائد عسكري ناجح، حليف لـ «السي.آي.إيه.» والاستخبارات السعودية خلال الثمانينيات. انضم إلى الطالبان في التسعينيات.

قلب الدين حكمتيار، زعيم قوات مقاتلة إسلامية راديكالية، حليف مسعود.

حامد قرظاي، زعيم قبيلة الباشتون الأفغانية وناشط، دعم الطالبان في إحدى المراحل، وانضم لاحقاً إلى حزب المعارضة في باشتون ضد الطالبان.

مسعود خليلي، زميل أحمد شاه مسعود في الدراسة ومساعده المقرّب.

أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة بعد العام 1989 من أصل سعودي.

أحمد شاه مسعود، قائد ميليشيا الطاجيك، قاد المقاومة المقاتلة لقوات الاحتلال السوفياتي في شمال شرق أفغانستان، وبنى تحالفاً في الشمال لاحقاً، وقاد المعارضة ضد طالبان.

الرئيس نجيب الله، قائد شيوعي أفغاني مدعوم من القوات السوفياتية.

الملّا محمد عمر، القائد الأعلى لطالبان، عين نفسه أميراً على أفغانستان العام 1996.

برهان الدين رباني، متخرج في جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة، قائد الميليشيا الداعمة للسعودية.

الملا محمد رباني، زعيم في مجلس شورى طالبان المفضل لدى السعودية.

أمر الله صالح، مساعد مسعود في الاستخبارات.

عبد الرب رسول سيّاف، متخرج في جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة، زعيم الثوار الجهاديين المدعوم من السعودية.

أيمن الظواهري، زعيم حركة الجهاد الإسلامي في مصر، من أصل مصري، وأبرز مساعدي بن لادن بعد العام 1998.

**في باكستان**

الجنرال محمود أحمد، رئيس وكالة الاستخبارات (1999 - 2001).

بنازير بوتو، رئيسة الوزراء (1988 - 1990).

الجنرال أسعد دوراني، رئيس وكالة «الآي.سي.آي» الاستخبارية (1990 - 1992).

الجنرال حميد غول، رئيس الاستخبارات الباكستانية (1986 - 1989).

الكولونيل إمام، مدير العمليات الأفغانية في وكالة الاستخبارات (الثمانينيات حتى منتصف التسعينيات).

الجنرال برويز مشرف، قائد الجيش (1998 - 1999). وزعيم عسكري في باكستان (1999 - 2001).

جنرال جافيد أشرف قاضي، رئيس وكالة «الآي.سي.آي» الاستخبارية (1993 - 1995).

الجنرال أخطار عبد الرحمن، رئيس الاستخبارات الدولية (1978 - 1987).

الجنرال نسيم رنا، رئيس وكالة «الآي.سي.آيه.» الاستخبارية (1995 - 1998).

نواز شريف، رئيس الوزراء (1990 - 1993) - (1997 - 1999).

بريغادير محمد يوسف، مدير العمليات الأفغانية في وكالة «الآي.سي.آيه.» الاستخبارية (1983 - 1987).

جنرال خواجة ضياء الدين، مدير الاستخبارات الباكستانية (1998 - 1999).

جنرال محمد ضياء الحق، قائد الجيش في باكستان (1977 - 1989).

**في المملكة العربية السعودية**

الأمير عبد الله، ولي عهد السعودية [الملك حالياً] (1996).

أحمد باديب، كبير موظفي الأمير تركي (1979 - 1997).

سعيد باديب، أخو أحمد، مدير قسم التحاليل في المخابرات السعودية (1983 - 2001 تقريباً).

الأمير بندر، سفير السعودية في الولايات المتحدة (1983).

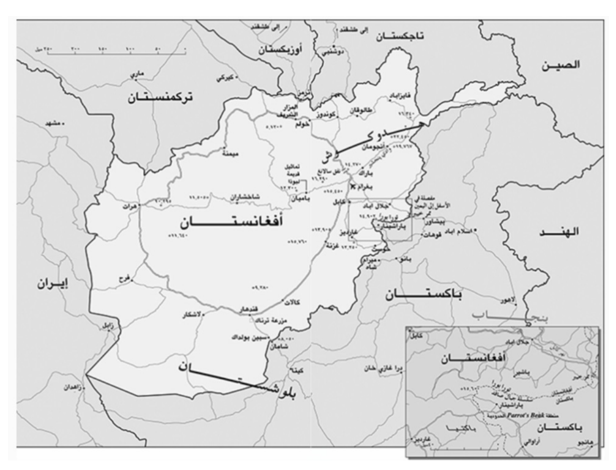
الملك فهد، عاهل المملكة العربية السعودية (1982).

الملك فيصل، عاهل المملكة العربية السعودية (1964 - 1975) ووالد الأمير تركي.

الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية السعودي (1975 -).

الأمير تركي الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية (1977 - 2001).

الملك عبد العزيز بن سعود، مؤسس السعودية الحديثة (1901 - 1953).




**حقوق الطبع: ريتشارد فورنو**

# المقدّمة
# ذمم مدينة أيلول/سبتمبر 1996

جلس رجل أميركي ضخم البنية وواسع الوجه داخل مقصورة طائرة متداعية تابعة لخطوط أريانا الجويّة الأفغانيّة، تحلّق فوق البنجاب في اتّجاه كابول، وتتوزّع فيها الحمولات في كلّ حدب وصوب. كان رجلاً ودوداً في أوائل الخمسينيات من العمر، يتكلّم بلهجة الغرب الأوسط الباردة. وقد أشار أحد معارفه إلى أنّه يوحي بأنّه طبيب أسنان. خدم غاري شروين ستّة وعشرين عاماً ضابطاً في الخدمات السرّية لوكالات الاستخبارات الأميركيّة. كان في ذلك الحين - أيلول/سبتمبر 1996 - رئيساً لمركز الوكالة في إسلام آباد، عاصمة باكستان. كان يتحدّث الفارسيّة واللغة الشبيهة بها، المعروفة باسم داري، وهي إحدى اللغتين الأساسيّتين في أفغانستان. في مصطلحات قاموس الجاسوسية، كان شروين مشغّلاً. كان يستخدم عملاء الاستخبارات المأجورين، ويديرهم، ويقود عمليّات تجسّس، ويشرف على الأعمال السرّية ضدّ الحكومات الأجنبيّة والمجموعات التي تَسِمُها الإدارة الأميركية بصفة «الإرهابيّة». وقبل بضعة أسابيع، بموافقة من مقرّ وكالة المخابرات في لانغلي، في فرجينيا، اتّصل عبر وسطاء بأحمد شاه مسعود؛ القائد الأفغاني الشهير للعمليّات الحربيّة ضدّ السوفيات، والذي بات وزير دفاع في حكومة أفغانيّة تمزّقها الحرب، وتتداعى من الداخل. طلب شروين موعداً، وحظي بموافقة مسعود(1).

لم يكونا قد تبادلا الكلام منذ خمس سنين. في أواخر الثمانينيّات وأوائل التسعينيّات، كانت الولايات المتحدة والمجاهدون الأفغان حلفاء يقاتلون قوات الاحتلال السوفياتي وعملاءهم الشيوعيّين الأفغان، وقد ضخّت وكالة الاستخبارات الأميركية مساعدات ماليّة وصلت إلى 200 ألف دولار شهريّاً، إلى مسعود ومجموعاته الإسلاميّة المقاتلة، بالإضافة إلى تزويده بالأسلحة وغيرها من المؤن. وما بين العامين 1989 و 1991، سلّم شروين شخصيّاً بعض الأموال. لكنّ المساعدات توقّفت في كانون الأوّل/ديسمبر 1991 مع اندثار الاتّحاد السوفياتي. قرّرت حينها الحكومة الأميركيّة أنّه لم يعد لها من مصالح في أفغانستان.

كانت البلاد في هذه الأثناء، تنهار. فكابول التي كانت ذات يوم مدينة أنيقة واسعة الشوارع، ومكتسية بالحدائق المزروعة بشكل يَبهر النظر بين المرتفعات الصخريّة القاحلة، قد تحوّلت بفعل أمراء الحرب فيها، إلى دولة لم يسلم فيها بشر أو حجر من الدمار أو البؤس، حتّى باتت تُعَدّ بين أسوأ أماكن الأرض على الإطلاق. كانت الفصائل المسلّحة تنبت موسميّاً ضمن الميليشيات المسلّحة في معارك مدينيّة شرسة تتفجّر داخل مربّعات مبنية من الاسمنت، واحداً تلو الآخر، وذلك سعياً وراء مكاسب تكتيكيّة لا يراها عادة أحد سواهم. وكانت الميليشيات، بقيادة رجال دين إسلاميّين يختلفون في العمق على تفاصيل صغيرة، تتسبّب في مقتل مئات أسرى الحرب بسبب الحرارة بعد حجزهم داخل مستوعبات شحن قديمة. كانت المدينة محرومة من الكهرباء منذ العام

1993. ويعتمد مئات الآلاف من أبنائها والقاطنين فيها، للحصول على خبزهم اليومي والشاي، على الجهود الكبيرة، لكن المحدودة، لمنظّمات الإغاثة الدوليّة. وفي بعض أجزاء الريف، مات آلاف اللاجئين المهجّرين بسبب سوء التغذية والأمراض القابلة للشفاء لأنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى العيادات ومحطّات التغذية. هذا كلّه بينما الدول المجاورة - باكستان، إيران، الهند، السعوديّة - تسلّم كمّيات ضخمة من الأسلحة والأموال إلى عملائها الأفغان. لقد سعت حكومات هذه البلدان إلى مكاسب على الأرض أمام جيرانها. وتدفّقت الأموال والأسلحة أيضاً من أشخاص أو جمعيات خيريّة إسلاميّة تسعى إلى توسيع نفوذها المعنوي ونفوذها السياسي، عبر التحوّل المذهبي لدى أبناء البلاد.

بقي أحمد شاه مسعود أشهر القادة العسكريّين في أفغانستان. بات هذا الرجل القويّ البنية، والخفيف الذقن، وصاحب العينين السوداوين الثاقبتين، قائداً شعبيّاً محبوباً، وخصوصاً في شمال شرق أفغانستان. فهناك قاتل وفاوض بالقدرة التخيّليّة نفسها في الثمانينيّات، حيث راح يعاقب الجنرالات السوفيات ويسبّب لهم الإحباط. نظر مسعود إلى السياسة والحرب على أنّهما صنوان. كان تلميذاً نبيهاً لماو وغيره من القادة التاريخيين والأسطوريين للمجموعات المقاتلة. تساءل البعض مع مرور الوقت، إذا كان بإمكانه أن يتخيّل الحياة من دون صراع مسلّح. إلّا أنّه أثبت أيضاً، عبر مختلف المجالس والتحالفات، أنّه قادر على الحصول على السلطة من خلال المشاركة فيها. وفي خلال حقبة الاحتلال السوفياتي المرعبة، بات مسعود يرمز، بالنسبة إلى الكثير من الأفغان - وخصوصاً أبناء قومه من الطاجيك -، إلى الروح والقدرة للمقاومة الباسلة. كان قبل كلّ شيء رجلاً مستقلاً. أحاط نفسه بالكتب. كان يصلّي بخشوع، ويقرأ الشعر الفارسي، ويدرس العلوم الدينيّة الإسلاميّة، وأغرق نفسه في تاريخ حروب العصابات. انجذب إلى عقائد الإسلام الثوري والسياسي، لكنّه أثبت نفسه أيضاً قومياً أفغانياً منفتح الذهن ومتسامح.

إلّا أنّه في شهر أيلول/سبتمبر ذاك، سقط صيت مسعود إلى درك سفلي. فانتقاله من التمرّد في الثمانينيّات إلى الحكم في التسعينيّات، قد تطوّر بشكل كارثي. بعد انهيار الحقبة الشيوعيّة الأفغانيّة، استلم حقيبة الدفاع في التحالف الإسلامي المنتصر حديثاً، وغير المستقر في الوقت نفسه. وقد تعرّض لهجوم مسلّح من خصومه في باكستان، فلم يتوان في شنّ هجوم مضاد، وأصبح بذلك يمثّل قوّة ملطّخة بالدم، تقف خلف حكومة فاشلة تقدم أسباب انهيارها بنفسها. راح حلفاؤه في الشمال يهرّبون الهيرويين. كان عاجزاً عن تحقيق الوحدة أو السلم في البلاد. وأظهرت قوّاته انضباطاً ضعيفاً، وراح بعضها يرتكب المجازر بدون رحمة بحقّ الخصوم، حين كانت تقاتل للسيطرة على أحياء كابول(2).

وابتداءً من العام 1994، راحت ميليشيا جديدة تتقدّم من جنوب أفغانستان، متوعّدة بتطهير الأمّة من أمراء الحرب فيها، بمن فيهم مسعود نفسه. وأعلن قادتها، معتمرو العمائم ومكحّلو العيون، أنّ القرآن سيبيد أسد بانشير، وهو لقب مسعود - حيث فشلت جميع الوسائل الأخرى.

كانوا يتنقّلون خلف رايات بيضاء مرفوعة باسم مدرسة صارمة، بشكل غير مسبوق في الإسلام، تدعو إلى قواعد مضنية وغريبة للسلوك الشخصي. بات هؤلاء «الطالبان»، أو التلامذة الدينيون، كما كانوا يطلقون على أنفسهم، يسيطرون على مناطق واسعة من غرب أفغانستان وجنوبها. أصيب مسعود بالصدمة من قوّتهم المتنامية. كان الطالبان يتنقّلون في شاحنات تويوتا رباعية الدفع، كبيرة الحجم، جديدة وبرّاقة، ويقتنون أسلحة حديثة، وكميات هائلة من الذخائر. وقد تمكّنوا بشكل غامض من إعادة صون طائرات سوفياتيّة مقاتلة قديمة العهد، والإقلاع بها، بالرغم من الخبرة العسكريّة البدائيّة لدى قادتهم.

كانت السفارة الأميركيّة في كابول مقفلة لأسباب أمنيّة منذ كانون الثاني/يناير 1989، لذا لم يتوافر مركز لوكالة المخابرات الأميركيّة يمكن منه جمع المعلومات حول الطالبان، أو مصادر قوّتهم الناشئة حديثاً. لم يعد المركز الأقرب، في إسلام آباد، قادراً على الاهتمام بالمصالح الأميركية داخل أفغانستان، ضمن التوجيه التشغيلي الخاص به، وهو اللائحة الرسميّة لأولويّات جمع المعلومات المرسلة كل سنة إلى مراكز وكالة الاستخبارات المركزيّة في أنحاء العالم(3). ومن دون الموافقة الرسميّة من التوجيه التشغيلي، كانت تنقص رئيس مركز، مثل غاري شروين، موارد الموازنة الضروريّة لتجنيد العملاء، وتوفير معدّات التواصل لهم، وإدارتهم في الميدان، ومعالجة تقاريرهم المخابراتيّة.

أبقت وكالة الاستخبارات على مجموعة من العملاء المأجورين في أفغانستان، لكن معظم هؤلاء كانوا مخصّصين لتعقّب مير آمال قاضي، وهو شاب باكستاني متمرد، عمد يوم 25 كانون الثاني/يناير 1993 إلى فتح النار على موظّفي وكالة الاستخبارات المركزيّة عند وصولهم إلى مقرّها في لانغلي. تسبّب قاضي في مقتل ثلاثة وجرح اثنين، ثمّ هرب إلى باكستان. بات الاعتقاد سائداً بحلول العام 1996، أنّه يتنقّل دخولاً وخروجاً إلى أفغانستان، لاجئاً في المناطق القبليّة، حيث لا تستطيع الاستخبارات الأميركيّة وجواسيسها وعملاؤها العمل بسهولة.

لم يرفع عملاء الوكالة الذين كانوا يطاردون قاضي، تقارير حول حرب طالبان المتنامية ضدّ أحمد شاه مسعود، إلّا بشكل عابر. كانت مهمّة جمع المعلومات عن التطوّرات العسكريّة والسياسيّة في أفغانستان، متروكة لمقرّ وكالة المخابرات الأميركيّة في فرجينيا البعيدة، وإحدى المهمّات العامّة لقسم الشرق الأدنى لمديريّة العمليّات(4).

بالكاد كان ذلك يشكّل تطوّراً غير اعتياديّ بين الوكالات الحكوميّة الأميركيّة. كانت الوكالة الأميركيّة للتنمية الدوليّة قد أقفلت برنامجها الأفغاني للمساعدة الإنسانيّة العام 1994. لم يكن لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، سياسة أفغانيّة أكثر من تمنّ غامض للسلام والازدهار. وكانت وزارة الخارجيّة أكثر انخراطاً في الشؤون الأفغانيّة، لكن في المستويات المتوسّطة حصراً

من بيروقراطيّتها. وبالكاد علّق وزير الخارجيّة وارن كريستوفر حول أفغانستان في خلال 4 سنين من عهده(5).

أرسل مسعود مستشاراً مقرّباً إليه يدعى مسعود خليلي، لمواكبة غاري شروين إلى داخل كابول. وقد عمدت شركة أريانا الجويّة الأفغانيّة إلى انتزاع معظم مقاعد الركّاب لفسح المزيد من المساحة للحمولات الضروريّة جدّاً، فامتلأت الأروقة بالصناديق والمستوعبات، ولم تكن أي منها موثقة أو في وضع آمن. وقد طمأن خليلي شروين قائلاً: «لم يسبق أن تحطّم أيّ منها».

ومع دخول أجواء أفغانستان، مرّت طائرتهم فوق القمم القاحلة السمراء النائمة، الواحدة على كتف الأخرى. امتدت الأرض العارية من أيّ أشجار في الأسفل متكتّلة في لوحة مصبوغة بالبني الرملي والأحمر الصلصالي. وفي اتّجاه الشمال، راحت الأنهار تشقّ خطوطاً عميقة في قلب جبال هندوكوش. وارتفعت في اتّجاه الجنوب، قمم على علو 11 ألف قدم
بشكل حلقة فوق وادي كابول الذي يصل ارتفاعه إلى أكثر من ألف قدم. وعلى طول الطرق المحيطة، تُركت الهياكل الصدئة لدبّابات وناقلات جند مدرّعة، محترقة ومهجورة، وقد اصطفّت على طول المضمار بقايا هياكل محطّمة لطائرات مقاتلة وطائرات نقل.

استقبل مسؤولون في جهاز استخبارات مسعود الطائرة بآليّات رباعيّة الدفع، أصعدوا إلى داخلها ضيفهم الأميركي، لتبدأ رحلة تنخر العظام عبر سهول شومالي في اتّجاه كابول. وفوجئ بعضهم بأنّ شروين ظهر ومعه مجرّد حقيبة صغيرة على كتفه، من دون معدّات اتّصال ولا أمن شخصي. انبهروا بتصرّفه المسترخي، وقدرته على تكلّم الداري، ومعرفته المفصّلة بأفغانستان.

كان شروين معروفاً بظهوره في الماضي حاملاً حقائب ملأى بالدولارات الأميركيّة. ولهذه الناحية، يسهل عليه وعلى زملائه في الوكالة كسب ودّ المقاتلين الأفغان. وقد مرّت ستّ عشرة سنة والوكالة تلاحق أهدافها في أفغانستان بواسطة صناديق كبيرة من الأموال. وشعر بعض ضبّاط الاستخبارات لدى مسعود، بالإحباط، إذ يبدو أنّ الوكالة تعتبر دائماً أنّ مسعود ورجاله محفّزون بالمال.

قد تكون حربهم الأهليّة معقّدة وضارية، لكنّهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنّهم مقاتلون من أجل قضية وطنيّة، يُجرَحون ويُقتلون كلّ يوم، مخاطرين بالقليل الذي يملكونه. تدفّق ما يكفي من الأوراق النقديّة غير القابلة للتعقّب إلى منظّمة مسعود عبر أعوام طويلة إلى درجة تكفي لتأمين تقاعد مريح لهم إن رغبوا في ذلك. وبرغم ذلك، فإنّ العديد منهم ما زالوا هنا في كابول، إلى جانب مسعود، بالرغم من المخاطر الكثيرة والحرمان الشديد. تساءل بعضهم باستياء لماذا كانت الوكالة غالباً تبدو أنّها تعاملهم كأنّ المال أهم من القرابة والوطن. بالطبع، لم يكن معروفاً عنهم أيضاً رفضهم المال.

رافقوا غاري شروين إلى أحد المنازل الخفيّة التي يحتفظ بها مسعود في كابول. انتظروا استدعاء القائد الذي ورد قبل حوالى ساعة من انتصاف الليل. وتم اللقاء داخل منزل كان في السابق مسكناً لسفير النمسا، قبل أن تدفع المعارك بالأسلحة والصواريخ، معظم الدبلوماسيّين الأوروبيّين إلى الهرب إلى خارج البلاد.

كان مسعود يرتدي رداءً أفغانيّاً تقليدياً أبيض، ويعتمر طاقية صوف خاصّة بالبانشيريين. كان طويل القامة، لكنّ طلته لم تكن مهيبة. كان هادئاً ووقوراً، يشعّ وجهه، وتشي حركاته بقوّة الشخصيّة.

سكب مساعده الشاي. جلسوا في ظل إضاءة خفيفة حول طاولة اجتماعات موقّتة. تحدّث مسعود بلغة الداري مع خليلي حول ضيفهما وخلفيّته وما يعرفه خليلي عنه.

بدا مسعود شكّاكاً في طلب الوكالة هذا اللقاء. كانت الوكالة الأميركية قد تجاهلت ما نظر إليه مسعود ورجاله على أنّه تهديد متنام تمثّله طالبان المتشددة. كان البعض في دائرة مسعود يشكّ في أنّ الوكالة قد مرّرت السلاح والمال بشكل سرّي إلى طالبان. صحيح أن أميركا كانت صديقة لمسعود على مدى سنين، لكنها صديقة متقلّبة. فما الذي تريده الوكالة الآن؟

بدأ شروين حديثه مذكّراً «بات لنا سجل أنا وأنت، بالرغم من أنّنا لم نلتق قط وجهاً لوجه». لم يكن ليبدأ بإطلاق الاتّهامات، لكن في الحقيقة، لم يكن ذلك السجل بمفرح، بشكل عام.

ذكّر شروين مسعود بأنّ الوكالة كانت تعمل من كثب مع القائد في شتاء العام 1990. كان مسعود يعمل وقتئذ في جبال شمال شرق أفغانستان. كانت كابول تحت سيطرة الرئيس نجيب الله، وهو رئيس سابق للشرطة السريّة، وشيوعي يتميّز بضخامة بنيته وبشاربيه، وقد بقي صامداً في السلطة بالرغم من انسحاب القوّات السوفياتيّة في العام 1989. دعمت موسكو نجيب الله، بينما سعت السياسة الأميركيّة إلى هزمه بالقوّة العسكريّة. وزوّد السوفيات عميلهم كمّيات كبيرة من المساعدات العسكريّة والاقتصاديّة، برّاً وجوّاً. وفي فصل الشتاء ذاك، توصّلت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركية بالتعاون مع المخابرات العسكريّة الباكستانيّة، إلى خطّة لإطلاق هجمات متزامنة على خطوط الإمداد الأساسيّة حول أفغانستان. كان ضبّاط الوكالة قد خطّطوا لدور حاسم لمسعود، لأنّ قوّاته كانت متمركزة قرب طريق سالانغ السريع، وهو الطريق الأساس بين الجنوب والشمال، المؤدي من الاتّحاد السوفياتي إلى كابول.

سافر غاري شروين في شهر كانون الثاني/يناير 1990، إلى بيشاور في باكستان، حيث كان أحد أشقّاء مسعود، ويدعى أحمد ضياء، يملك مجمّعاً مجهزاً بنظام اتّصال لاسلكي بمقرّ مسعود الشمالي

الشرقي. تحدّث شروين عبر الجهاز مع مسعود عن خطّة هجوم «السي.آي.إيه.»: لقد أرادت الوكالة من أسد بانشير أن يتّجه غرباً، ويقفل طريق سالانغ للشتاء.

وافق مسعود، لكنّه قال إنّه يحتاج إلى المساعدة الماليّة. سيضطر إلى شراء ذخيرة جديدة لقواته وملابس للشتاء لجنوده. وكان بحاجة أيضاً إلى نقل القروييّن الذين يسكنون المكان من منطقة الهجمات لئلا يكونوا عرضة لأعمال انتقاميّة من قوّات النظام. وقد طلب مساعدة لتسديد ثمن هذا كلّه، هي عبارة عن دفعة كبيرة فوق مساعدته الشهريّة من «السي.آي.إيه.». توافق شروين والقائد الأفغاني على دفعة واحدة كاملة لمبلغ 500 ألف دولار أميركي نقداً. ولم يتأخّر شروين في تسليم المال يداً بيد إلى شقيق مسعود في بيشاور.

مرّت أسابيع. وقعت بعض الاشتباكات المحدودة، وأقفل طريق سالانغ بضعة أيّام، لكنه سرعان ما فتح من جديد. وبحسب ما حدّدته «السي.آي.إيه.»، لم يحرّك مسعود أيّاً من قوّاته الأساسيّة، كما تمّ الاتّفاق عليه. وقد اشتبه ضبّاط «السي.آي.إيه.» المعنيون، في أنّهم تعرّضوا للخداع، ولسرقة بقيمة نصف مليون دولار. كانت سالانغ مصدراً حيويّاً للتجارة والإيرادات بالنسبة إلى المدنيّين في شمال أفغانستان، وقد تردّد مسعود في الماضي في إقفال هذا الطريق خوفاً من خسارة أتباعه المحلّيين، وخصوصاً أن قواته كانت تجبي الضرائب على طولها.

وفي تبادلات لاحقة مع ضبّاط «السي.آي.إيه.»، دافع مسعود عن نفسه قائلاً: إنّ قادته المساعدين قد باشروا الهجمات المخطّط لها، كما تمّ الاتّفاق عليه ذاك الشتاء، لكنّهم واجهوا إعاقات بسبب الشتاء ومشاكل أخرى. لم تجد «السي.آي.إيه.» أيّ إثباتات تدعم أقوال مسعود. وبحسب ما توصل عناصرها إليه، فإنّ قادة مسعود فضّلوا البقاء خارج المعارك في سالانغ. أمّا الآن، فقد ذكّر شروين مسعود باتّفاقهما قبل ست سنين، وذكر أنّه سلّم شخصيّاً شقيقه مبلغ 500 ألف دولار.

«كم؟»، سأله مسعود.

«خمسمئة ألف»، أجاب شروين.

بدأ مسعود ومساعدوه يتبادلون الأحاديث فيما بينهم. قال أحدهم بهدوء بلغة الداري: «لم نتلقّ 500 ألف دولار».

كرّر مسعود دفاعه السابق أمام شروين. كان المناخ مريعاً في شتاء 1990 ذاك، فعجز عن تحريك قوّاته بالفعاليّة التي كان يأملها. كانت تنقصه الذخيرة المناسبة، بالرغم من المبلغ الكبير

المدفوع.

«بات هذا كلّه من الماضي»، أجابه أخيراً شروين.

أطلق مسعود شكواه الخاصة. كان متحدّثاً مقنعاً وطلقاً، واضحاً وقويّاً، لا يرفع صوته أو يُكثر من الإشارات. قال إنّ الولايات المتّحدة و «السي.آي.إيه.» قد تخلّتا عن أفغانستان، تاركتين شعبها لمصيره. نعم، كان مسعود ورفاقه ممتنّين للمساعدة التي أمّنتها الولايات المتّحدة في سنيّ الاحتلال السوفياتي، لكنّهم باتوا يشعرون بالمرارة إزاء ما نظروا إليه على أنّه قرار أميركي بالتخلّي عن بلادهم.

«انظروا، نحن هنا»، أجاب شروين. «نريد إعادة فتح العلاقات. يزداد الاهتمام الأميركي بأفغانستان». حاول تبرير تخلي بلاده عن أفغانستان، متذرعاً بأنه قد تمرّ سنة أو ربّما سنتان، لكنّ «السي.آي.إيه.» ستعود. قال إنّ الأمور تتحرّك على هذا المنوال. فها قد بدأ يبرز همّ واحد بالتحديد: الإرهاب.

قبل أربعة أشهر، في شهر أيّار/مايو 1996، وصل أسامة بن لادن - وهو الابن السابع عشر لملياردير سعودي - إلى أفغانستان على متن طائرته الخاصّة عبر الخطوط الجويّة الأفغانيّة، أريانا. وعلى خلاف «السي.آي.إيه.»، كان باستطاعة بن لادن استئجار طائرة للاستخدام الشخصي. أحضر معه مجموعات من الإسلاميين العرب المتشدّدين، تؤجّجهم رؤى حرب إسلاميّة عالميّة. وصل في البداية إلى جلال آباد، وهي عاصمة مقاطعة تقع شرقي كابول ويغمرها الغبار، فكان هناك موضع ترحيب أمراء الحرب المحلّيين الذين عرفوا بن لادن متبرّعاً لحركة المقاومة ضد السوفيات، ومقاتلاً في بعض المناسبات، في خلال الجهاد ضدّ السوفيات(6).

عاد إلى أفغانستان هذه المرّة لأن خياراته كانت محدودة. عاش في السودان في السنين الأربع الأخيرة، لكنّ حكومة البلاد في الخرطوم قد طردته منها. وقد اشتكت بلدان عدّة، ومنها الولايات المتّحدة ومصر والجزائر، من أن بن لادن موّل مجموعات إسلاميّة في أنحاء الشرق الأوسط. وقد طلب السودانيّون من بن لادن الرحيل سعياً وراء الرضا الدولي. كان بلده الأصلي - المملكة العربيّة السعوديّة - قد جرّده من الجنسيّة. وباتت أفغانستان أحد الأماكن القليلة التي يمكن أن يجد فيها ملجأً، ذلك أنّ حكومتها بالكاد كانت موجودة، وأمراء حربها الإسلاميين كانوا يسرحون ويمرحون، ويرتكبون الفظائع بحرّية، وشعبها الغارق في
الفقر يرحّب بشيخ ميسور يحمل الهدايا والأموال.

كانت هذه المساكن أقسى بكثير من المجمّعات المدينيّة والمكاتب الإداريّة المكيّفة التي تمتع بها بن لادن في الخرطوم. حين وصل إلى أفغانستان، بدا في مزاج كَرِب، وكان يستشيط غضباً ضد

أولئك المسؤولين عن نفيه. وشهد ذاك الصيف أوّل موافقة علنيّة لبن لادن على القيام بموجة عنف واسعة النطاق ضدّ الأميركيّين.

وفي آب/أغسطس، أصدر دعوته إلى «حرب مفتوحة ضدّ احتلال الأميركيّين أرض الحرمين الشريفين»، أيّ السعوديّة، حيث يرابض أكثر من خمسة آلاف عسكري برّي وجوّي أميركي.
طلب بن لادن من أتباعه مهاجمة الإسرائيليّين والأميركيّين، والتسبّب لهم «في أكبر قدر ممكن من الأذى».

وأطلق بن لادن أيضاً رسالة وجهها إلى وزير الدفاع الأميركي، وليام بيري:

«يا وليام في الغد يأتيك الخبر وتعلم

أيّ شاب سيواجه أخاك المكابر

يدخل شاب غمار المعركة وهو يبتسم

وينسحب ورأس حربته مغمّسة بالدم».

وقد وقّع الرسالة بعبارة «من قمم هندوكوش، أفغانستان»(7).

كانت «السي.آي.إيه.» تتعقّب بن لادن منذ أعوام. حين كان مقيماً في السودان، تولّى مراقبته فريق من ضبّاط الوكالة العاملين في سفارة الخرطوم. اعتبرت الوكالة بشكل أساسي في ذلك الحين بن لادن مموّلاً لإسلاميين آخرين(8). وأوصت الوكالة في كانون الثاني/يناير 1996، بإقفال السفارة الأميركيّة في الخرطوم بسبب مخاوف من أنّ مجموعة بن لادن قد تهاجم ضبّاط «السي.آي.إيه.» أو دبلوماسيّين أميركيّين. وأنشأت الوكالة مع إقفال السفارة، وحدة جديدة مقرّها في فرجينيا لتعقّب هذا الرجل السعودي(9).

تمّ تبادل للأفكار بين مقر «السي.آي.إيه.» ومركزها في إسلام آباد، بعد أن نشر بن لادن رسالته المرعبة من أفغانستان، حول ما إذا كان من المفيد الاجتماع بمسعود في كابول، بين أمور أخرى، لإعادة إرساء جمع المعلومات ضدّ بن لادن بعد أن استقرّ في قمم هندوكوش.

كانت الأسباب وجيهة للتشكيك في قيمة رابط مماثل مع مسعود. أعجب معظم ضبّاط «السي.آي.إيه.»، الذين عرفوا أفغانستان، بشجاعة مسعود ودهائه. لكنّ فصولاً مُريبة، مثل دفع 500 ألف دولار لطريق سالانغ، أشارت إلى أنّ مسعود حليف لا يمكن توقّع تصرّفاته. بالإضافة إلى ذلك، ولئن يكن مسعود ليس إسلامياً راديكالياً من صنف بن لادن، إلّا أنّه رحّب ببعض المقاتلين العرب الذين قاتلوا إلى جانب قضيّته، وأبقى على اتّصالات مع شبكات راديكالية. هل يمكن مسعود وعناصر استخباراته أن يصبحوا شركاء موثوقاً بهم في تعقّب بن لادن ومواجهته؟ كانت الآراء منقسمة داخل «السي.آي.إيه.» في شهر أيلول/سبتمبر 1996. وستبقى منقسمة لخمس سنين مقبلة، برغم ترسّخ عمليّات التعاون السريّة بين الولايات المتّحدة ومسعود، حتّى حلول ذات شهر أيلول/سبتمبر، وقد تلازم فيه مصير الجانبين.

لم تكن لانغلي قد زوّدت غاري شروين أيّ أموال أو أوامر رسميّة لإرساء شراكة مع مسعود حول الإرهاب. فقد دعمت وحدة «السي.آي.إيه.» التي عملت على بن لادن وزيارته، وشجّع ضبّاطها شروين على مناقشة مسألة الإرهاب مع مسعود. لكنّهم لم يكن لديهم أي تمويل أو سلطة قانونيّة للقيام بالمزيد. إلّا أنّ شروين كانت لديه وسيلة أخرى لإعادة علاقة الوكالة مع مسعود، وإحيائها: صواريخ ستينغر.

تمّ إدخال صاروخ ستينغر أوّلاً إلى ساحات المعارك في أفغانستان من قبل «السي.آي.إيه.» العام 1986. كان صاروخاً محمولاً يُطلق من الكتف، أثبت جدواه وسهولة استخدامه. عمل نظام التحكم فيه الأوتوماتيكي المتعقّب للحرارة، بشكل غريب. استخدم المتمرّدون الأفغان المدعومون من «السي.آي.إيه.» الستينغر لإسقاط أعداد من الطوّافات وطائرات النقل السوفياتيّة ما بين العامين 1986 و 1989. وقد أجبر هذا الصاروخ الجنرالات السوفيات على تغيير تكتيكات الهجوم الجوّي. فقد زرعت قدرته الرعب في نفوس آلاف الطيّارين والجنود الروس.

بعد مغادرة القوّات الروسيّة، خشيت «السي.آي.إيه.» أن يتمّ شراء صواريخ الستينغر التي لم يتم استخدامها خلال المعارك مع السوفيات، من قبل مجموعات راديكالية، أو حكومات معادية لأميركا، مثل إيران، لاستخدامها ضد الطائرات المدنيّة أو المقاتلة الأميركيّة. كانت «السي.آي.إيه.» قد قدمت ما بين 2000 و 2500 صاروخ إلى المتمرّدين الأفغان في خلال الحرب. ووصل العديد منها إلى أيدي قادة مرتبطين بزعماء إسلاميّين راديكاليّين مناهضين للأميركيّين. وكانت إيران قد حصلت بالفعل على بعض من هذه الصواريخ.

أجاز الرئيس جورج بوش (الأب) وخَلَفه الرئيس بيل كلينتون، العمل ببرنامج سري جدّاً يقضي بأن تعيد «السي.آي.إيه.» شراء أكبر عدد ممكن من صواريخ ستينغر من أيّ شخص أو جهة تملكها. ووافق الكونغرس سرّياً على تخصيص عشرات ملايين الدولارات لتمويل عمليّات الشراء هذه. كان البرنامج بإدارة قسم الشرق الأدنى في مديريّة العمليّات في «السي.آي.إيه.»، التي أشرفت على مركز إسلام آباد. وقد أتاح حفظ سجلاّت مفصّلة مرتكزة على الأرقام التسلسليّة

للصواريخ لـ «السي.آي.إيه.»، الإبقاء على إحصاء شبه دقيق لصواريخ ستينغر التي سلّمتها. لكنّ الأسلحة خرجت عن إطار المراقبة بعد وصولها إلى أفغانستان. وقدّرت «السي.آي.إيه.» في العام 1996، أنّ حوالى 600 صاروخ ستينغر كانت لا تزال مجهولة المصير، ومجهولة الجهة التي تملكها(10).

تطوّر نظام إعادة الشراء من الوكالة إلى نوع من نظام استرداد ما بعد الحرب الباردة لأمراء الحرب الأفغان. راوح سعر الانطلاق لكلّ صاروخ ما بين 80 ألفاً و 150 ألف دولار. وتولّت المخابرات العسكريّة الباكستانيّة معظم عمليّات الشراء لمصلحة «السي.آي.إيه.» على قاعدة عقد فرعي(11). وقد أظهر القادة الممسكون بالصواريخ استعداداً للبيع، ويعود هذا الأمر جزئيّاً إلى أنّ القوّة الجويّة لم يكن لها شأن يُذكر في الحرب الأهليّة الطاحنة التي كانت تدور في أفغانستان. وقد نافس مجموع الأموال التي تمّ إنفاقها من قبل «السي.آي.إيه.» على عمليّات إعادة شراء الستينغر في أواسط التسعينيّات، مجموع المساعدات الماليّة من الأقسام الأخرى في الحكومة الأميركيّة للمساعدة الإنسانيّة في أفغانستان في خلال تلك الأعوام. وقد تكون عمليّات إعادة شراء الستينغر حسّنت أمن الملاحة الجويّة، لكنّها سلّمت أيضاً صناديق من الأموال إلى أمراء الحرب الذين كانوا لا يتوانون في تدمير مدن أفغانستان وبلداتها.

كان على أحمد شاه مسعود أن يسلّم صواريخ ستينغر هذه، ولم يكن قد تلقّى أيّ أموال. أملت «السي.آي.إيه.» تغيير هذا الأمر. كانت تلك ناحية أساسيّة من مهمّة غاري شروين إلى كابول في شهر أيلول/سبتمبر ذاك. لو شارك مسعود في معمعة الستينغر، لأمكنه أن يربح المال عبر بيع مخزونه الخاص، وربّما كسب مدخول عمولة إضافياً من خلال لعبه دور الوسيط. وقد أمل بعض ضبّاط «السي.آي.إيه.» أن يتيح هذا المال شراء النيّة الحسنة من مسعود للعمل المشترك في المستقبل على مشكلة بن لادن.

سلّم شروين إلى مسعود ورقة في غرفة اجتماعهما الخفيفة الإضاءة. كانت تُظهر تقديراً لأكثر بقليل من ألفي صاروخ وفرتها «السي.آي.إيه.» للمقاتلين الأفغان في خلال فترة الجهاد(12).

نظر مسعود إلى الرقم. «أتعرف كم تلقّيت من هذه الصواريخ؟»، كتب رقماً على الورقة وأظهره لشروين. كان مسعود قد كتب بخط يد واضح جدّاً «8». قال مسعود: «هذا كلّ شيء، ولم أتلقّها سوى بعد نهاية القتال ضد النظام الشيوعي».

ولاحقاً، حين أبلغ شروين عبر الكابل عن محادثاته إلى العديد من الأقسام في المقر الرئيسي في لانغلي، حدّدت «السي.آي.إيه.» أنّ مسعود كان على حق. بدا من غير المعقول لبعض الذين عايشوا الحرب الأفغانيّة ضدّ السوفيات، أن يكون مسعود قد تلقّى هذا العدد القليل. كان من أشرس قادة الحرب. إلّا أنّه لأسباب معقّدة، كانت المخابرات الباكستانيّة، شريكة «السي.آي.إيه.» في دعم المتمرّدين ضدّ السوفيات، لا تولي مسعود الثقة، وتحاول تحجيمه. كانت علاقات مسعود مهزوزة

أيضاً مع الحزب السياسي الإسلامي الذي ساعد على نقل المؤن والمساعدات العسكرية إليه. ونتيجة لذلك، حين تمّ توزيع أهمّ نظام سلاح في الحرب للقادة الأفغان، حصل مسعود على أقل من واحد في المئة منه، وذلك في العام 1991 فقط.

أرادت «السي.آي.إيه.» الآن من مسعود أن يعيد بيع صواريخه الخاصّة المخزّنة. كانت الصواريخ الثمانية لا تزال في حوزته كلّها. أرادوا منه أيضاً أن يعمل بصفة وسيط مع القادة الآخرين في شمال أفغانستان. كان للمخابرات الباكستانيّة بعض الاتّصالات في الشمال، وأعادت شراء بعض صواريخ ستينغر من هناك. وقال مسعود لشروين إنّهم يحتاجون إلى هذه المساعدة.

وافق مسعود على المشاركة. قال لشروين إنّه سيعيد بيع مخزونه، ويبدأ البحث عن صواريخ ستينغر لدى قادة ومقاتلين أفغان آخرين كان يعرفهم. اعتقد أنّ بعض القادة من حلفائه سيكونون على استعداد للبيع مقابل الأسعار المعروضة. وضع شروين ومسعود خطّة لوجستية: يتمّ جمع الصواريخ تحت سيطرة مسعود، وحين يتمّ تجميع كمّية كافية للقيام برحلة، تهيّئ «السي.آي.إيه.» طائرة نقل من طراز «سي 130»، لرحلة سرّية لنقلها.

ناقشا مسألة بن لادن. وصف مسعود النظرة السعوديّة المتزمّتة وغير المتسامحة إلى الإسلام، بأنها مقيتة بالنسبة إلى الأفغان. قال مسعود إنّ مجموعة بن لادن كانت مجرّد جزء من حركة أوسع يمثّلها الإسلام الراديكالي المسلّح، تتجمّع في أفغانستان حول الطالبان. ووصف هذه الحركة بأنّها تحالف سام: وكالات استخبارات عربيّة وباكستانيّة؛ طلاّب يافعون فقراء يتمّ سَوقهم إلى حتفهم، شأنهم شأن مقاتلين متطوّعين من المدارس الدينيّة الباكستانيّة؛ راديكاليّون إسلاميّون منفيّون من آسيا الوسطى يحاولون إرساء قواعد في أفغانستان لحركاتهم الثوريّة؛ بالإضافة إلى شيوخ ميسورين ودعاة حطّوا في هذه البلاد آتين من دول الخليج العربية، محمّلين بالأموال والمؤن والفتاوى. كان أسامة بن لادن ببساطة الأكثر طموحاً وإدراكاً لأهمّية الإعلام بين رجال الدين الأجانب هؤلاء.

باتت المنطقة الشرقيّة من جلال آباد، حيث وصل بن لادن، في الأساس، في حالة اضطراب. وبحسب إحدى الروايات، تعرّض أمير الحرب الذي استقبل بن لادن في أيّار/مايو للاغتيال، فبقي الشيخ السعودي بدون رعاية أفغانيّة واضحة(13). وكانت طالبان في هذه الأثناء، قد بدأت بالتنقّل في أرجاء جلال آباد، مطيحة أمراء الحرب الذين كانوا سابقاً متحالفين بشكل وثيق مع مسعود. كانت لحظات مشوّشة وصعبة.

سأل شروين مسعود عمّ إذا كان بإمكانه المساعدة على تطوير مصادر موثوق بها حول بن لادن، قد تفيد كلاً منهما. أملت «السي.آي.إيه.» أن يكون مسعود قادراً على الوصول إلى بعض القادة

الذين عرفهم منذ الثمانينيّات، والذين باتوا يعملون الآن في المناطق الأفغانية الشرقيّة، حيث استقرّ بن لادن وأتباعه «الأفغان العرب». قال مسعود إنّه سيحاول، فقال له شروين إنّها مجرّد بداية. لم يكن بحوزته أموال في هذه المرحلة لدعم جهود جمع المعلومات هذه، لكنّه قال إنّ آخرين في «السي.آي.إيه.» قد يرغبون في متابعة التعاون معه، وتعميقه.

انتهى الاجتماع حوالى الساعة الثانية فجراً. وفي اليوم التالي، قام شروين بجولة سياحيّة بالسيّارة إلى نفق سالانغ، وهو ممر صخري حيوي بين كابول وشمال أفغانستان، على ارتفاع أحد عشر ألف قدم فوق مستوى البحر. وقد قادته الرحلة الوعرة التي دامت أربعة أيّام، إلى أقسام من الطريق الذي أنفق الأميركيون 500 ألف دولار في محاولة فاشلة لإقفاله.

ودّعه مساعدو مسعود على طائرة أريانا الأفغانيّة التي عادت به إلى بلاده، حاملاً حقيبته الصغيرة على كتفه. كانوا سعداء لمجيئه. وبحسب اعتقاد ضبّاط استخبارات مسعود، قلّة من الأميركيّين اتّخذت عناء زيارة كابول، وقلّة قليلة كانت تتكلّم اللغة الأفغانية، أو تفهم تعقيدات أفغانستان، كما هي حال شروين، متسائلين عن سبب هذه المبادرة المفاجئة من «السي.آي.إيه.». تكهّنوا بأنّ شروين قد خطّط لمهمّته الخاصّة، ربّما متجاهلاً أوامر المقرّ الرئيسي لوكالة الاستخبارات الأميركية.

وبرغم ذلك، اعتبر مستشارو مسعود أنّها إن كانت مجرّد بداية، فهي متواضعة جدّاً. كانوا في خضمّ حرب شرسة وغير منتهية، وقد شعروا بالإهمال من جانب الولايات المتّحدة. احتاجوا إلى المؤن والدعم السياسي والشجب العلني القوي لطالبان. وبدلاً من ذلك، اقترحت «السي.آي.إيه.» تعاوناً وثيقاً حول استعادة صواريخ الستينغر.

وقد تذكّر أحد مستشاري مسعود المعنيّين باللقاء مع شروين، مقولة أفغانيّة بدت معبّرة كثيراً عن شعور الأفغان تجاه الأميركيين. يقول المثل: «لا يمكن أن تكون أفواهكم حلوة حين تتكلّمون على العسل، يجب أن يكون العسل في أفواهكم». قد يتكلّم ضبّاط «السي.آي.إيه.»، بشكل واعد، على علاقة سرّية جديدة مع مسعود تتمحور حول الستينغر والإرهاب، لكن أين العسل؟

لكن المتاعب كانت قادمة: واجه أحمد شاه مسعود أسوأ هزيمة في مسيرته العسكريّة بعد أسبوع من رحيل شروين.

اقتربت قوّات طالبان من جلال آباد. كان من الواضح أنّها تزخر بالمال الآتي من بن لادن، أو من مكان آخر. ويوم 25 أيلول/سبتمبر، سقط موقع ساروبي الأمامي الهام بين أيدي طالبان المعتمرين عمائم والمكحّلي العيون، والذين كانوا يسرحون ويمرحون في شاحنات رباعيّة الدفع مجهّزة بمدافع رشّاشة وصواريخ. وعند الساعة الثالثة من بعد الظهر من يوم 26 أيلول/سبتمبر، وفي اجتماع مع

كبار القادة، في مقر القسم المدرّع عند التخوم الشماليّة لكابول، استنتج مسعود أنّه محاصَر، وأنّ عليه الانسحاب لتفادي تدمير قواته(14).

انسحبت قوّاته الحكوميّة نحو الشمال على عَجَل، ساحبة معها ما أمكن من المعدّات العسكريّة القابلة للإنقاذ. ومع حلول الليل، كانت طالبان قد اجتاحت كابول. باتت ميليشيا يعتقد أميرها الأعور، صاحب العين اليتيمة، أنّه اختير من الله لإعداد المسلمين الأتقياء للمجد في الآخرة، تسيطر على معظم أراضي أفغانستان ومعظم مدنها الرئيسية ومقرّ حكومتها.

أمّا في واشنطن، فقد أعلن غلين ديفيس، وهو متحدّث باسم وزارة الخارجيّة، ردّ الفعل الرسميّ الأميركيّ، من على منبر غرفة اجتماعات إدارته، قائلاً: «نأمل أن يقدّم هذا الأمر فرصة بدء عمليّة مصالحة وطنيّة. نعلّق آمالاً كبيرة وتوقّعات على أنّ طالبان ستحترم حقوق الأفغان كافّة، وأنّ السلطات الجديدة ستتحرّك بسرعة لإعادة النظام والأمن، ولتشكيل حكومة تمثيليّة تمهيداً لشكل من أشكال المصالحة الوطنيّة». وعند سؤاله عمّا إذا كان من الممكن أن تدشّن علاقات دبلوماسيّة مع حكومة طالبان، أجاب ديفيس: «لن أطلق حكماً مسبقاً حول المدى الذي سنبلغه مع أفغانستان»(15).

كان ذلك نوع التفاهات التي يطلقها روتينيّاً، المتحدّثون باسم وزارة الخارجيّة عندما لا تكون لديهم سياسة حقيقيّة يصفونها. وخارج إطار بعض دوائر اختصاصيي الشؤون الأفغانيّة في الحكومة وخارجها، بالكاد كان المرء في واشنطن يسمع أمراً عن سقوط كابول. كان بيل كلينتون قد بدأ تواً حملته الجدّية لإعادة انتخابه، متقدّماً بسهولة على منافسه الأضعف منه بوب دول. وقف معدّل داو جونز الصناعي عند 872,5 بارتفاع يقارب 80 في المئة في أربع سنين. وكان معدّل البطالة يتناقص. وكانت الترسانتان النوويّتان الأميركيّة والروسيّة، اللتان هدّدتا العالم ذات فترة بالهلاك، تتفكّكان بثبات. اعتقدت الأمّة أنّها تعيش في سلام.

في أفغانستان والبلدان المجاورة مثل باكستان، تمّ تأويل كلمات ديفيس، وملاحظات مشابهة من مسؤولين آخرين في وزارة الخارجيّة صدرت في ذلك الأسبوع، على أنّها دعم أميركي لحكم طالبان.

لم تكن «السي.آي.إيه.» قد توقّعت سقوط كابول في شهر أيلول/سبتمبر ذاك(16). وعلى العكس من ذلك، تمّ السماح لرئيس أحد مراكزها بأن يسافر وحده إلى العاصمة قبل بضعة أيّام من سقوطها، ما كان يهدّد بحجزه هناك. قلّة من ضبّاط «السي.آي.إيه.»، في الميدان أو في لانغلي، فهمت موقف مسعود الضعيف، أو قوّة طالبان الهائلة.

قبل بضع سنين فقط، كانت أفغانستان الرابط لما نظر إليه معظم ضبّاط «السي.آي.إيه.» على أنّه مصدر الفخر الأكبر بين الإنجازات التي حقّقتها الوكالة في تاريخها: طرد قوّات الاحتلال السوفياتي بالعمل السرّي. أمّا الآن، فأفغانستان لم تعد جزءاً من التوجيه التشغيلي للوكالة، ليس بالمعنى الحرفي فحسب، لكن بمعنى أوسع بكثير.

لم يكن المنحى المتدهور عقب الحرب الباردة أكثر انحداراً في رواندا أو الكونغو، منه في أفغانستان. إلّا أن صاعقة أفغانستان، بالنسبة إلى الأميركيّين، هي التي ضربتهم صبيحة 11 أيلول/ سبتمبر. وها إنّ حرباً بالكاد يعرفونها، وعدواً بالكاد التقوه، يعبران المحيطات التي لم تجتزها يوماً القوّات الجوّية النازيّة أو القوّة الصاروخيّة الروسيّة، ليحصدا أرواح عشرات آلاف المدنيّين في مدينتين في عقر أراضي البلاد.

وفي السجل الطويل للهجمات المفاجئة عبر التاريخ، تتميّز 11 أيلول/سبتمبر بالدور الذي اضطلعت به وكالات الاستخبارات والشبكات السريّة غير الرسميّة في الأحداث السابقة. ومع تقديم بن لادن ومساعديه الدعم لهجمات 11 أيلول/سبتمبر، تمّت مطاردتهم سرّياً من قبل ضبّاط مأجورين في «السي.آي.إيه.». وفي الوقت نفسه، تلقّى بن لادن وأقرب حلفائه الحماية عبر الطالبان من ضبّاط مأجورين في مديريّة المخابرات الباكستانيّة.

كان ذلك النمط لمدّة عقدين من الزمن: مجموعة تلو الأخرى من التحرّك السرّي الرسمي وغير الرسمي، الإرهاب السرّي، ومكافحة الإرهاب السرّية، تراكمت الواحدة فوق الأخرى، لتولّد منظومة الحرب غير المعلنة التي طفت على السطح في العام 2001.

اللاعب الأميركي الرئيسي في هذه الحرب الروائيّة الباطنيّة، كان «السي.آي.إيه.»، التي حدّدت مسار الجهاد ضدّ السوفيات في أفغانستان في الثمانينيّات، ثمّ شنّت حملة سرّية لقطع الطريق على بن لادن، أو أسره، أو قتله، بعد عودته إلى أفغانستان في أواخر التسعينيّات. وفي السنتين اللتين سبقتا 11 أيلول/سبتمبر، عمل مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، من كثب، مع أحمد شاه مسعود وأفغان آخرين، ضد بن لادن، لكنّ الوكالة عجزت عن إقناع بقية الحكومة الأميركيّة بالذهاب بعيداً في الحرب ضد بن لادن، بقدر ما رغب فيه مسعود وبعض ضبّاط «السي.آي.إيه.».

وفي خضم هذه الصراعات حول الطريقة الفضلى لمواجهة بن لادن - كما في نقاط حاسمة سابقة في تاريخ تورّط الولايات المتّحدة في أفغانستان -، كافحت الوكالة للتحكّم في تحالفاتها المهزوزة من حيث الثقة، والمسمومة أحياناً مع الاستخبارات الباكستانيّة أو السعوديّة. إنّ الأعمال الروتينيّة السرّية الذاتيّة التحريك لهذه الروابط الرسميّة، وافتراضاتها غير المدروسة، قد ساعدت على ولادة أفغانستان التي أصبحت ملاذاً لبن لادن. وقد أجّجت

أيضاً صعود الإسلام الراديكالي في أفغانستان الذي أفرز طموحات عنفية وصدامية عالميّة.

المكانة المركزيّة التي احتلّتها «السي.آي.إيه.» في هذه القصّة غير اعتياديّة، بالمقارنة بفصول كارثيّة أخرى في التاريخ الأميركي. إنّ قصص ضبّاط الوكالة وقادتها، وصراعاتهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم، تساعد على تفسير الحروب السرّية التي سبقت 11 أيلول/سبتمبر، بالطريقة التي وصفت فيها قصصُ الجنرالات والجنود ذوي الوجوه القاسية، الحروبَ التقليديّة في الماضي. لا شك في أنّ أميركيّين آخرين رسموا مسار هذا الصراع أيضاً: رؤساء، ودبلوماسيين، ومسؤولين عسكريين، ومستشاري أمن قومي، ولاحقاً، اختصاصيين متفرّقين في الحرب الجديدة المعروفة باسم «مكافحة الإرهاب».

انضمّ الجواسيس الباكستانيّون والسعوديّون، ومعهم المشايخ والسياسيّون الذين أعطوهم الأوامر، أو حاولوا عبثاً السيطرة عليهم، إلى القادة الأفغان، مثل أحمد شاه مسعود، في حرب إقليميّة تقلّبت إلى درجة أنّها بقيت ضمن ستار دائم من الغموض. وكان بعض هذه القوى وهؤلاء الجواسيس المحليين شريكاً لـ «السي.آي.إيه.». وقد تبع بعضهم جداول أعمال منافسة. والعديد منهم كانوا على خطٍّ مزدوج. قصّة سوابق 11 أيلول/سبتمبر هي قصّتهم أيضاً. وقد دارت بينهم شبكات سلسة من الإسلاميّين الراديكاليّين الذين لا يتبعون أيّ دولة، والذين أدّت عمليّة إعادة إحيائهم بعد العام 1979 إلى ولادة تنظيم «القاعدة» التابع لبن لادن وغيره من المجموعات العديدة. وبمرور الأعوام، اعتمدت هذه الشبكات الإسلاميّة الراديكاليّة بعضاً من أسرار حرفة الخداع «اللادنيّة» (نسبة إلى بن لادن) الخاصّة بأجهزة الاستخبارات الرسميّة، وهي مناهج اكتسبوها أحياناً من التدريب المباشر.

في الثمانينيّات، أطلق عليهم المجنّدون الروس المحاصَرون من المتمرّدين الأفغان المدعومين من «السي.آي.إيه.»، اسم «دوخي»، أو الأشباح. لم يستطع الروس يوماً الإمساك حقّاً بعدوّهم. وبقي الأمر على هذه الحال بعد وقت طويل من رحيلهم. ومن الأيّام الأولى قبل الاجتياح السوفياتي حتّى الساعات الأخيرة في أواخر صيف العام 2001، بقي هذا الصراع صراعاً بين الأشباح.

# الجزء الأوّل
# أخوّة الدم

**تشرين الثاني/نوفمبر 1979 حتّى شباط/فبراير 1989**

## 1
### سنموت هنا

كانت مجرد تظاهرة شغب صغيرة في سنة حبلى بالانتفاضات، وليس أكثر من صاعقة عابرة وسط سماء ملبدة بسحب متسارعة.

حين اندلعت القلاقل، كان المدقّق المالي لحساب الحكومة الأميركيّة، وليام بوتشر، البالغ من العمر 32 عاماً، يتناول شطيرة نقانق. كان قد قرّر أن يتناول الغداء في النادي قرب بركة السباحة الواقعة داخل مجمّع السفارة الأميركيّة الهادئ في إسلام آباد، عاصمة باكستان. كانت السفارة تضمّ حوالى 150 موظّفاً، منهم الدبلوماسيّون والجواسيس وعمّال الإغاثة واختصاصيو الاتّصالات والإداريّون، بالإضافة إلى مجموعة من جنود المارينز الأميركيّين. وراح المتظاهرون يهتفون «كارتر أيّها الكلب!»، بالإشارة إلى الرئيس الأميركي جيمي كارتر؛ و «اقتلوا الأميركيّين!». ترك بوتشر وجبته، واختبأ في مكتب صغير، إلى أن أُرغم على الخروج بفعل الدخان الخانق المتصاعد من البنزين المحترق والقنابل الدخانيّة. وعند خروجه، قذفه متظاهر غاضب بحجر في وجهه، وأصابه آخر في مؤخّرة رأسه بأنبوب معدني. سرقوا خاتمين من يده ومحفظته، وأجبروه على الصعود في سيّارة، ونقلوه إلى بعد ثلاثة أميال إلى مباني المنامة المصنوعة من الخرسانة في جامعة القائد الأعظم. وهناك، عمد القادة الطلاب في كلّية النخبة في باكستان، وقد تأجّج في نفوسهم توق إلى قيام مجتمع إسلامي، إلى الإعلان أنّ بوتشر سيُحاكَم لجرائم «ضدّ الحركة الإسلاميّة». بدا لهذا الأخير أنّ «تهمته الوحيدة هي أنّه أميركي»(17).

كان ذلك يوم 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1979. ومع اندلاع التظاهرات العنيفة في باكستان، وجد تسعة وأربعون أميركيّاً أنفسهم محتجزين داخل السفارة الأميركيّة في طهران على أيدي الطلاّب الإسلاميّين الراديكاليّين، وميليشيا حرس الثورة الإيرانيّة (الباسدران)، الذين أعلنوا في ذلك اليوم خطّة لقتل الرهائن بتفجيرات انتحاريّة في حال قامت واشنطن بأي محاولة لإنقاذهم. أمّا في مدينة مكّة المكرّمة في المملكة العربيّة السعوديّة، وهي أقدس مدن العالم الإسلامي، فقد حاصر رجال الحرس الوطني السعودي الجامع الكبير لملاحقة طالب دين أعلن أنّه المهدي (أي المخلّص) الذي أرسله الله إلى الأرض، كما هو مكتوب في القرآن الكريم. وإظهاراً لإيمانهم، كان أتباع «المهدي

الطموح» قد فتحوا النار على المصلّين من أسلحة أوتوماتيكيّة. وعند تخوم واشنطن، كان الرئيس جيمي كارتر يُعِدّ العدّة للاحتفال بعيد الشكر في منتجع كامب ديفيد. ومع نهاية النهار، كانت قد وصلت إليه الأنباء المحزنة عن مقتل أوّل جندي بنيران معادية في عهده(18).

داخل فرع الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة، «السي.آي. إيه.»، في الطابق الثالث المميّز بنظافته وسجّاده من مبنى السفارة في إسلام آباد، تحقّق نائب رئيس المركز بوب ليسارد، ومعه موظّف شاب مسؤول عن الأرشيف يدعى غاري شروين، من جهاز إحراق، واستعدّا لإضرام النار في الوثائق السرّية. كان المركز، استعداداً لحالة من هذا النوع، مجهزاً بالإضافة إلى آلة تمزيق الأوراق، بجهاز إشعال نار صغير الحجم يعمل على الغاز، مزود بمدخنة خاصّة به. راح ليسارد ينتقي الملفّات من الخزائن، بالإضافة إلى مواد سرّية أخرى، ممهداً للبدء بعمليّة الإحراق عند الضرورة.

كان كل من ليسارد وشروين من مخضرمي الخدمة في إيران في السبعينيّات، ويتكلّمان الفارسيّة. فشروين الذي نشأ في شرق سانت لويس، هو ابن عامل كهربائي في النقابة، وكان أوّل شخص من عائلته يدخل الجامعة. انخرط في الجيش العام 1959، وتمّ تسريحه بشكل مشرّف بصفة جندي. وفي شرح له عن رتبته الأخيرة، قال لأصدقائه: «أعاني مشكلة مع السلطة». راح يمارس وظائف غير اعتياديّة قبل أن ينضوي إلى لواء «السي.آي.إيه.» العام 1969، وهي وكالة تكتظ بالأشخاص الذين يعانون مشاكل مع السلطة. وبصفته نائب رئيس فرع، كان بوب ليسارد رئيس شروين، لكنّهما تعاطيا فيما بينهما على أنّهما زميلان. كان ليسارد رجلاً وسيماً طويل القامة ذا شعر خفيف وسالفين طويلين. وقد وصل إلى إسلام آباد، ويراوده شعور بأنّ مهنته قد أصبحت في وضع سيّئ. كان قد تمّ نقله من كابول حيث فشلت محاولة تجنيد عميل سوفياتي. تمّ تحويل وسيط في العمليّة إلى عميل مزدوج من دون علم ليسارد، فأخفقت عمليّة التجنيد. أجبر ليسارد، على الخروج من أفغانستان. وفي حين أنّ فشل العمليّة لم يكن مسؤوليّته، فقد حطّ في إسلام آباد معتقداً أنّه بحاجة إلى
إنقاذ سمعته.

أجبرت حياة المهام السرّية ضبّاط «السي.آي.إيه.» على عقد الصداقات فيما بينهم. كانت هذه العلاقات الوحيدة الآمنة، وقد توطّدت بفعل عضويّتهم في مجتمع خاص، وخلت من التشويش بفعل الحاجة الدائمة إلى السرّية. وفي حين كان الضبّاط يتكلّمون اللغة نفسها ويخدمون في أقسام المنطقة نفسها، كما هي حال شروين وليسارد، كانوا يعيشون رابطاً وثيقاً غير اعتيادي. كان ليسارد وشروين يمارسان الجري في الأدغال الدائمة النضارة في التلال والأودية المحيطة بإسلام آباد. وكانا في السفارة يعملان في الجناح نفسه. وشاهدا، عبر التلفاز والقنوات السريّة، بذهول وأسى، وضع اليد على السفارة الأميركيّة في إيران قبل بضعة أسابيع. وتعقّبا معاً إشاعات عن هجمات مماثلة متوقّعة على السفارة الأميركيّة في إسلام آباد. وفي صبيحة الأربعاء ذاك، كانا قد توجّها بالسيّارة معاً إلى قلب العاصمة الباكستانيّة لمعاينة الحشود المتجمّعة، ولم يريا ما يستدعي الحذر.

أمّا الآن، فها إنّ المشاغبين الباكستانيّين اليافعين قد بدأوا يتدفّقون عند جدران السفارة.

كان رئيس فرع إسلام آباد في الوكالة، جون ريغان، قد ذهب إلى منزله لتناول الغداء، شأنه شأن السفير الأميركي في باكستان، آرثر هامل. لقد فوّتا الإثارة داخل السفارة بعد ظهر ذلك اليوم، لكنّهما سرعان ما بدآ يحشدان الدعم من مركز قيادة داخل السفارة البريطانيّة المجاورة.

رأى شروين وليسارد عبر النافذة، حافلات تصطف أمام الباب الرئيسي. تدفّق المئات من المتظاهرين وقفزوا إلى أقسام من محيط السفارة المسيّجة بقضبان معدنيّة. وراحت إحدى العصابات ترمي الحبال فوق القضبان، وبدأت تشدّ الجدار بأكمله إلى أسفل.

حمل بعض المتحمّسين من الطلاّب المتظاهرين بنادق لي إنفيلد ومسدّسات عند المساحات العشبيّة المقابلة لواجهة السفارة المصنوعة من الحجر الأحمر. وحاول متظاهر تقليد أفلام هوليوود عبر إطلاق النار من مسدّس على أحد أقفال مداخل السفارة. وبحسب ما أعاد الجانب الأميركي تشكيل الأحداث، فإنّ الرصاصة ارتدّت وأصابت متظاهرين بين الحشود. اعتقد المتظاهرون الآن أنّ جنود المارينز الأميركيّين المتمركزين على السطح يطلقون الرصاص عليهم، ففتحوا النار. وبحسب قواعد الاشتباك، فإنّ حرّاس المارينز الستّة الموجودين في السفارة يحقّ لهم إطلاق النار لإنقاذ الأرواح حصراً. وسرعان ما ازداد العبء عليهم، وتكاثرت الأعداد.

لطالما اعتبر المارينز إسلام آباد موقعاً هادئاً. فمن سطح السفارة كانت تتسنّى لهم مشاهدة الأبقار ترعى في الحقول القريبة. وكان الرقيب المسؤول عن المدفعيّة لويد ميلر، وهو مقاتل سابق في فيتنام، الضخم البنية، والفرد الوحيد في عائلته الذي غادر بلدته الصغيرة في كاليفورنيا، لم يسبق له أن رأى أيّ شيء يشبهه، ولو من بعيد، ميادين القتال حول دانانغ. تمّ تنظيم معارضة احتجاج في تمّوز/يوليو، لكنّها لم تكن بالأمر المهم: «أنشدوا بعض الأغاني، ورشقوا بعض الحجارة، ثمّ رحلوا». ولتمضية الوقت، كان ميلر وعناصر المارينز تحت إمرته، يقومون بالتدريبات بانتظام. تدرّبوا على إبقاء الحشود المتوسّطة الحجم، بعيدة عن مجمّع السفارة، حتّى أنّهم تدرّبوا على ما قد يحدث في حال أنّ دخيلاً أو اثنين تمكّنا من دخول المبنى. لكن، لم يكن من الممكن أن يتدرّبوا على ما يواجهونه الآن: موجة تلو الأخرى من المتظاهرين المسلّحين، تهجم مباشرة على موقعهم في البهو. كان ميلر يرى حافلة تلو الأخرى تتوقّف قرب ما بقي في المداخل الأماميّة، لكن بوجود كاميرتَي مراقبة فقط في المكان، لم يستطع تقييم المدى الذي بلغته أعمال الشغب، فأرسل اثنين من عناصر المارينز لاستكشاف الوضع.

ارتفعت الصرخات بعد دقائق فقط، داخل ممرّات السفارة: «لقد أصابوا عنصراً من المارينز!». أمسك ليسارد وشروين داخل فرع «السي.آي.إيه.»، بمستحضرات إسعاف، وهرعا إلى السلالم الخلفيّة قرب قسم الاتّصالات في السفارة. وعلى السطح، تجمهر حشد من موظّفي السفارة أمام العريف ستيفن كراولي الملقى أرضاً بطوله الذي يقارب المترين، وهو من فرع بورت جيفرسن،

لونغ آيلند، نيويورك. انخرط هذا الشاب الأشقر البالغ من العمر 22 عاماً، والذي يهوى لعبة الشطرنج والركض لمسافات طويلة، في صفوف المارينز قبل سنتين. صنع ميلر حمّالة بدائيّة من قطعة خشب معاكس كانت ملقاة قريباً. انحنوا إلى أقصى حد لتفادي الرصاص المتطاير فوقهم، وحملوا كراولي على الخشبة وهرعوا نحو السلالم. أمسك رجال «السي.آي.إيه.» برأس كراولي. شكّل الجرح خطراً على حياته، لكن كان من الممكن إنقاذه لو استطاعوا إخراجه من السفارة إلى مستشفى. بلغ حاملو الحمّالة الطابق الثالث وتوجّهوا إلى موقع الاتّصالات، حيث كان لكل من وزارة الخارجيّة و «السي.آي.إيه.» غرف مرمّزة آمنة للتواصل لإرسال البرقيّات والرسائل إلى واشنطن ولانغلي. فرضت إجراءات الطوارئ أنّه في حال مماثلة، على موظّفي السفارة أن يحجزوا أنفسهم خلف أبواب موقع التواصل المقوّاة بالفولاذ، وانتظار قوّات الشرطة أو الجيش الباكستانيّة لتخلي المكان من
المعتدين. باتت الساعة الواحدة بعد الظهر تقريباً. كانت أعمال الشغب تشتعل منذ حوالى الساعة. لا شكّ في أنّ الدعم الباكستاني لن يطول حتّى يصل(19).

يقع حرم جامعة القائد الأعظم في واد مظلّل يبعد حوالى ثلاثة أميال عن السفارة الأميركيّة. وأشارت قنطرة مربّعة الزوايا عند المدخل إلى توسّع ريفي لنُزُل الشبان المنخفضة وقاعات التدريس والمساجد الصغيرة على طول طريق الجامعة. لم تعكس إسلام آباد أيّاً من الفوضى العارمة في باكستان، فقد كانت مدينة مخطّطاً لها بعناية، ومعزولة، مقسّمة إلى شبكات هندسيّة. تعاون مهندس يوناني ومفوّضون باكستانيّون لتصميم العاصمة في الستّينيّات، فأكسبوها حداثةً بيضاء برّاقة، إشباعاً لرغبة حكومة متعطّشة إلى الاعتراف بها كأمّة ناشئة. وضمن الانعزاليّة الطهرانيّة التي كانت تتميّز بها إسلام آباد، كانت حتّى جامعة القائد الأعظم أكثر انعزالاً. وقد سمّيت إكراماً للقب المحبّب الذي أطلق على الأب المؤسّس لباكستان، محمّد علي جناح، «أبي الأمّة». كان طلاّبها يتوزّعون على ممرّاتها المظلّلة بالأشجار الحزينة تحت تلال مارغالا الجافّة والرائعة، على بعد أميال عديدة من المطاعم والمتاجر القليلة في إسلام آباد. وفي جزء كبير من السبعينيّات، كانت ثقافة الجامعة غربيّة في الكثير من نواحيها. كان يمكن رؤية النساء يرتدين سراويل جينز، والرجال يضعون أحدث النظارات الشمسيّة ويرتدون السترات الجلديّة. وعكس هذا الأمر جزئيّاً مظهراً مريحاً ومطمئناً لباكستان في زمن ازدياد التيّارات الدوليّة المتصارعة. وقد عكست أيضاً بشكل جزئيّ، الأنماط الثقافيّة المنفتحة والتزيينيّة للبنجابيّين الذين يشكّلون الإثنيّة السائدة في باكستان. وفي لاهور وراولبندي، تلألأت الفنادق والمكاتب بالأنوار الكهربائيّة الوامضة. كانت حفلات الزفاف تُشعل الليالي بجنون الموسيقى والرقص. وفي حين أنّ الخليط الإثني كان مختلفاً، فإنّ العادات الاجتماعيّة في كراتشي الساحليّة كانت على الأرجح أكثر علمانيّة، وخصوصاً بين نخب الأعمال في البلاد. وقد عبّر طلاّب «القائد الأعظم» عن الهوامش المدركة للموضة لهذا الخليط المتفلّت، الذي يقارب الارتداد على التقاليد الإسلاميّة ونمط العيش شبه القاري.

إلّا أنّه بدأت أخيراً قوّة مضادّة إسلاميّة بالتصاعد في الجامعة. وفي أواخر العام 1979، كان الجناح الطالبي في حزب إسلامي محافظ، يُدعى الجماعة الإسلاميّة، قد تمكّن من السيطرة على

الهيئة الطالبيّة في جامعة القائد الأعظم(20). وبالرغم من أنّ الناشطين الطالبيّين التابعين للجماعة كانوا أقلّية، إلّا أنّهم مارسوا الترهيب على الطلاب والأساتذة أصحاب الفكر العلماني، وعابوا النساء اللواتي اعتمدن الأنماط الغربيّة في اللباس، أو رفضن ارتداء الحجاب. وعلى غرار قادتهم السياسيّين الأكبر سنّاً، شنّ طلاّب الجماعة حملة من أجل تحوّل أخلاقي في المجتمع الباكستاني، من خلال تطبيق الشريعة الإسلاميّة. كان هدفهم المعلن هو إقامة حكومة إسلاميّة صرفة في باكستان. تمّ تأسيس الحزب العام 1941 على يد الكاتب الإسلامي الراديكالي البارز مولانا أبو الأعلى مودودي الذي دعا إلى مقاربة لينينيّة ثوريّة للإسلام السياسي، وحمل كتابه الأوّل المنشور في أواخر العشرينيّات اسم «الإسلام والجهاد». وبالرغم من دعوة قادة الجماعة إلى حمل السلاح، فقد بقيت بشكل أساسي عند هامش الحياة السياسيّة والاجتماعيّة الباكستانيّة، بحيث عجزت عن كسب الكثير من الأصوات عند إجراء الانتخابات، كما عجزت عن التوصّل إلى أيّ نفوذ في مراحل الحكم العسكري أيضاً. كان مودودي قد فارق الحياة قبل بضعة أسابيع في أيلول/سبتمبر 1979 من دون أن يشهد تحقيق حلمه بإقامة دولة إسلاميّة في باكستان. إلّا أنّه عند مماته، كان نفوذه قد بلغ ذروة جديدة، وكان أتباعه يزدادون. كانت الأسباب الدافعة وراء تصاعد هذا النفوذ، دوليّة ومحلّية، على السواء.

ونظراً إلى الروابط التي نسجتها الجماعة مع الشبكات الإسلاميّة غير الرسميّة في دول الخليج العربية وأماكن أخرى، وجدت نفسها على متن موجة متعاظمة أطلق عليها المفكر الفرنسي جيل كيبيل اسم «البترودولار الإسلامي»، وهو إدخال واسع للثروات السعوديّة المخصّصة للدعوة الدينية الآتية من المملكة العربيّة السعوديّة، والتي تراكمت بفعل الحظر على النفط الذي فرضته منظّمة الأوبيك في العام 1973. وقد أوصل الحظر أسعار النفط العالميّة إلى حدود جنونيّة. وبينما كان الأميركيّون الغاضبون يملأون سيّاراتهم الشفروليه بالبنزين مقابل دولار واحد للغالون، كانوا يملأون الخزائن السعوديّة وغيرها من بلدان الخليج العربي بثروات مفاجئة، لا تخطر في بال. كانت الحكومة السعوديّة تتألّف من تحالف غير مستقر بين العائلة المالكة ورجال الدين المحافظين وشبه المستقلّين. وكان رجال الدين السعوديّون يتّبعون عقيدة غير اعتياديّة متزمّتة في الإسلام، غالباً ما يُشار إليها باسم «الوهّابيّة»، نسبةً إلى مؤسّسها محمّد بن عبد الوهّاب، وهو داعية يرجع تاريخ دعوته إلى القرن الثامن عشر، وكان ينظر إلى أشكال الزينة والحداثة كافّة على أنّها ضرب من ضروب التجديف. تعارضت الصرامة الحادّة للوهابيّة مع العديد من التقاليد الفنيّة والثقافيّة للمذاهب الإسلاميّة القديمة. لكنّه كان إيماناً ثابتاً، وقد وجد نفسه الآن يتمتّع بثروة مذهلة بين ليلة وضحاها. بدأت المنظّمات الخيريّة وتلك التي تتولّى الدعوة، مثل الرابطة الإسلاميّة العالميّة المتمركزة في جدّة، تطبع نسخاً من القرآن بالملايين مع فورة أموال النفط. وراح القادة والمتمولون الداعمون لهذه المنظمات، يتبرّعون ببناء المساجد في أنحاء العالم، وينسجون روابط مع المجموعات الإسلاميّة المشابهة لها في التفكير، من جنوب آسيا إلى المغرب، موزّعين النصوص الإسلاميّة ذات التوجّه الوهّابي، ويرعون الدراسة الدينية الإسلامية، بحسب إيمانهم.

وفي باكستان، تبيّن أنّ الجماعة الإسلاميّة حليف طبيعي ومتحمّس للوهّابيّين. وفي حين أنّ كتابات مودودي معارضة للمؤسّسات أكثر ممّا قد تسمح به الملكيّة السعوديّة في أرضها، إلّا أنّها روّجت

الكثير من التحوّلات الأخلاقيّة والاجتماعيّة التي يسعى إليها رجال الدين السعوديّون.

في أواخر السبعينيّات، كانت الأحزاب الإسلاميّة، مثل الجماعة، قد بدأت تثبت نفسها عبر العالم الإسلامي، إذ دفعت أنظمة حكم القوميّين العرب الفاسدة والمتداعية، التجمّعات الشبابيّة إلى البحث عن سياسات تطهيريّة جديدة. وعزّزت الشبكات الدينيّة السرّية وغير الرسميّة والعابرة للبلدان، مثل الأخوان المسلمين، من قدرة التجييش للأحزاب الدينيّة ذات النهج الأصولي، مثل الجماعة. وانطبق هذا الأمر بشكل خاص على حرم الجامعات، حيث تنافست الأجنحة الإسلاميّة الراديكاليّة بين صفوف الطلاّب، في النفوذ من القاهرة وصولاً إلى عمّان وكوالالمبور(21). وحين عاد آية الله الخميني إلى إيران، وأجبر الشاه المدعوم من الأميركيّين محمّد رضا بهلوي، على الهروب في أوائل العام 1979، هزّ انتصاره المدوّي هذه الأحزاب وأجنحتها الشابّة، وأطلق جنوناً عارماً في حرم الجامعات. كانت معتقدات الخميني العائدة إلى الأقليّة الإسلامية الشيعيّة، متناقضة مع العديد من الإسلاميّين السنّة المحافظين، وخصوصاً أولئك في المملكة العربيّة السعوديّة، لكنّ إنجازاته الجريئة ألهمت المسلمين في كلّ مكان.

يوم الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر 1979، اجتاح طلاّب إيرانيّون السفارة الأميركيّة في طهران، وأحرقوا مكاتبها، وحجزوا موظفيها. وفي صبيحة اليوم التالي، داخل الحي الدبلوماسي الهادئ قرب الجامعة في إسلام آباد، وضع بعض الإيرانيّين على سفارتهم لافتات استفزازيّة تشجب الولايات المتّحدة، وتدعو إلى ثورة إسلاميّة عالميّة ضدّ قوى الاستكبار. كان القادة الطالبيّون في الجماعة من المتطوّعين المتحمّسين. وبالرغم من أنّ القادة الأقدم للحزب لطالما ركّزوا غضبهم على الهند - تؤجّجهم ذكريات العنف الديني الذي رافق ولادة باكستان -، كان الجيل الجديد يضع نصب عينيه هدفاً أبعد: الولايات المتّحدة. شجب الطلاّب اليساريّون العلمانيّون بدورهم الولايات المتّحدة. وكان رشق «الوحش الأميركي الكبير» طريقة سهلة لتوحيد المؤمنين المسلمين وغير المؤمنين من المعادين للولايات المتحدة، على السواء.

كان قادة الاتّحادات الطالبيّة يتمتّعون بسند إضافي: فقد برزوا أخيراً على أنّهم المحميّون السياسيّون المفضّلون للدكتاتور العسكري الجديد في باكستان، الجنرال محمّد ضياء الحق. كان قد استولى على السلطة في شهر تمّوز/يوليو 1977 بالانقلاب على السياسي الاشتراكي المنتخب ذو الفقار علي بوتو، والد رئيسة الوزراء المستقبليّة بنازير بوتو (جرى اغتيالها في باكستان إثر عودتها إليها بعد مرحلة نفي طويلة أرغمها عليها قائد الجيش الأسبق الرئيس الحالي لباكستان برويز مشرف. وما زالت الظروف المحيطة باغتيالها غامضة، برغم اتهام جماعات إسلامية بالوقوف وراءها). وبالرغم من الدعوات الشخصيّة للعفو التي أطلقها الرئيس كارتر والعديد من زعماء العالم، أرسل ضياء الحق، ذو الفقار علي بوتو إلى الإعدام في شهر نيسان/أبريل 1979. وفي الفترة نفسها تقريباً، أعلن محلّلون استخباريون أميركيّون أنّ باكستان قد بدأت برنامجاً سرّياً للحصول على أسلحة نوويّة. ألغى ضياء الحق الانتخابات، وحاول قمع الاختلاف بالرأي محلّياً. وبعد أن أصبح منبوذاً خارجيّاً، وفي وضع غير مستقر داخليّاً، بدأ يبشّر بالإسلام السياسي بحماسة، ويعزّز الجماعة الإسلاميّة سعياً إلى خلق قاعدة سياسيّة شعبيّة في باكستان. وفي الأعوام التالية، أصبحت

الجماعة الإسلاميّة، بفعل الأموال التي أغدقتها عليها السعوديّة وغيرها من الإمارات الخليجيّة، في طليعة جداول الأعمال الإسلاميّة لباكستان الرسميّة والسرّية في أفغانستان، ولاحقاً في كشمير.

يوم 21 تشرين الأوّل/أكتوبر 1979، أعلن ضياء الحق نيّته إقامة «نظام إسلامي» أصولي في باكستان. وفي وقت سابق من السنة، كان قد وافق على تطبيق تشريعات إسلاميّة مثل البتر للسارقين، والجَلد للزناة. وتحوّلت هذه إلى إعلانات رمزيّة على حدّ واسع، إذ إنّ العقوبات كانت تطبّق بقساوة لا مثيل لها. وبرغم ذلك، فإنّها أشارت إلى توجّه قوي وجديد للسياسة الباكستانيّة. وبناءً عليه، بما أنّ ضياء الحق كان قد ألغى الانتخابات الوطنيّة تواً، فقد أشار إلى أنّه «في الإسلام ما من أحكام حول إجراء انتخابات بحسب النمط الغربي»(22). ودافع عنه قادة الجماعة. أمّا جناحها الطالبي، فكانت عينه على احتفال النصر للطلاّب الإيرانيّين الراديكاليّين، ويستعدّ لعرض قوّته.

في هذا الموسم المشتعل، وصلت مجموعة من الأشخاص، للمشاركة في ما يبدو أنّه مسيرة تشييع، يضعون ربطات حمراء على أيديهم، ويحملون تابوتاً على أكتافهم، إلى الجامع الكبير في مكّة المكرّمة، في الصحراء الغربيّة للمملكة العربيّة السعوديّة. المشهد الذي كان يجري أمام أعين المصلّين الباقين عند فجر الثلاثاء من 20 تشرين الثاني/نوفمبر، لم يكن بالأمر غير المألوف، إذ إنّ الجامع كان مكاناً شعبيّاً للصلاة على الموتى. لكن، سرعان ما تبيّن أنّهم هنا لما هو أكثر من المباركة. وضع جمع المشيّعين التوابيت أرضاً، وفتحوا الأغطية، وأخرجوا ترسانة من البنادق والقنابل.

وُلدت مؤامرتهم من رحم مجموعة دراسة إسلاميّة في جامعة المدينة في المملكة العربيّة السعوديّة في أوائل السبعينيّات. كان قائد المجموعة، جهيمان العتيبي، قد تمّ تسريحه من الحرس الوطني السعودي. أقنع عدّة مئات من الأتباع - العديد منهم من اليمنيّين والمصريّين الذين يعيشون في السعوديّة منذ أعوام - بأنّ صهره السعودي، محمّد عبد الله العتيبي، الذي تابع دروساً دينيّة لفترة، هو المهدي العائد إلى الأرض لإنقاذ المسلمين كافّة من النهب الذي يتعرّضون له. هاجم جهيمان العائلة المالكة السعوديّة، واتهم الأمراء الملكيّين بأنهم قد أفسدهم النفط، و «صادروا أراضي» و «نهبوا أموال الدولة». كان يعتبر بعض الأمراء من «الثملين» الذين «يعيشون حياة فسق في القصور الفخمة». ويصوغ الوقائع بشكل فيه الكثير من المغالاة والتطرف. كان الهدف من عودة المهدي إلى الأرض «تنقية الإسلام» وتحرير المملكة العربيّة السعوديّة من العائلة المالكة. وكان جهيمان، الذي أظهر إشارات انشقاق سعودي جديد، أكثر تزمّتاً حتّى من المتزمّتين السعوديّين المحظورين رسميّاً. كان يسعى إلى حظر الراديو والتلفزيونات وكرة القدم. وفي صبيحة ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر، بعد أن عيل صبره من حركة الدعوة التقليديّة، أقفل مداخل الجامع الكبير بالسلاسل، حاجزاً داخله عشرات الآلاف من المصلّين المذهولين. وفي حين رفض إمام المسجد

مبايعة «المخلّص» الجديد، بدأ جهيمان وعصابته بإطلاق النار متسبّبين في مقتل عشرات الحجّاج الأبرياء(23).

لم تبذل المملكة الكثير من الجهد في الساعات الأولى التي تلت هذه الانتفاضة العجيبة، لتوضح للعالم الإسلامي من كان وراء الاعتداء. كان كلّ مسلم ملتزم في أنحاء العالم يسجد في اتّجاه الكعبة المربّعة السوداء في مكّة خمس مرّات في اليوم للصلاة. والآن باتت في قبضة غزاة يدنّسونها. لكن، من هم هؤلاء، وما الذي كانوا يريدونه؟ لم تكن حكومة المملكة على استعداد لنشر أزماتها علانية. كان المسؤولون السعوديّون أنفسهم غير أكيدين في الأساس من هويّة راعي الهجوم. تواترت الأخبار والإشاعات المتسارعة من بلد إلى بلد، ومن قارّة إلى قارّة، من إفادات مجتزأة لشهود عيان. أمّا في واشنطن، فقد أرسل وزير الخارجيّة سايروس فانس في تلك الليلة، برقيّة ليليّة إلى السفارات الأميركيّة في أنحاء العالم، يحثّها على اتّخاذ إجراءات مشددة من الحيطة مع اكتشاف حادث مكّة. كانت وزارة الخارجيّة قد علمت قبل أسابيع فقط عن هشاشة مجمّعاتها، والسرعة التي يمكن فيها أن يواجه الدبلوماسيّون الأميركيّون حشوداً، تؤججها شكاوٍ حقيقيّة أو من صنع الخيال.

راح السفير هامل في إسلام آباد يعاين برقيّات التحذير صبيحة اليوم التالي. لم يكن ينظر إلى الإسلام الراديكالي على أنّه خطر ملموس بالنسبة إلى الأميركيّين في باكستان. وبرغم ذلك، فإنّ فرع «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد كان قد التقط مؤشّرات من مصادره قبل أسابيع، إلى أن طلاّب جامعة «القائد الأعظم» قد يخطّطون لتظاهرات في السفارة دعماً لخاطفي الرهائن في طهران. ونتيجةً لذلك، كان هامل قد طلب الدعم، وتلقّى فرقة صغيرة من حوالى عشرين شرطيّاً باكستانيّاً مسلّحاً، بالإضافة إلى القوّة الأمنيّة المولجة حماية السفارة.

كانت تلك الفرقة مكانَها صبيحة الأربعاء، حين بدأت الشائعات تسري في إسلام آباد، ولاحقاً عبر محطّات الإذاعة المحلّية، بأنّ الولايات المتّحدة وإسرائيل تقفان خلف الهجوم على الجامع الكبير. وبحسب الشائعة، فإنّ واشنطن وتل أبيب قرّرتا الإمساك بإحدى قلاع الدين الحنيف لعزل العالم الإسلامي. وبالرغم من أنّ الإشاعة كانت تبدو تافهة، إلّا أنّها بدت قابلة للتصديق بالنسبة إلى الآلاف، إن لم يكن الملايين، من الباكستانيّين. وأفادت إذاعة «صوت أميركا» أنّه مع اشتعال أعمال الشغب في مكّة، أمر الرئيس كارتر سفن سلاح البحريّة الأميركيّة بالتوجّه إلى المحيط الهندي بمثابة استعراض للقوّة ضدّ محتجزي الرهائن في طهران. لم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من الخيال للربط بين الخبرين. وبينما كان الطلاّب في «القائد الأعظم» يجهّزون خطط تظاهراتهم، كانت صحيفة «المسلم» اليوميّة في إسلام آباد، تُصدر طبعة خاصّة تشير إلى «عملين معاديين ضد العالم الإسلامي... على أيدي الامبرياليّين وأزلامهم(24)».

كان الجنرال ضياء الحق قد وضع خططاً لذلك النهار لترويج التقدّم المدني عبر القيم الإسلاميّة. كان قد قرّر تمضية معظم فترة بعد الظهر متجوّلاً على درّاجة هوائيّة في راولبندي المكتظّة بالسكّان والملاصقة لإسلام آباد. كان ينوي توزيع مناشير إسلاميّة،

وترويج الفضائل البسيطة للتنقّل الذاتي، وذلك عبر إعطاء المثال. وبالطبع، حيثما يتوجّه الدكتاتور العسكري، ترافقه المؤسّسة العسكريّة والأمنيّة في باكستان. وحين انطلقت نداءات الاستغاثة الأولى من السفارة الأميركيّة في وقت لاحق من ذلك اليوم، كان معظم عديد الجيش الباكستاني غير متوافر. كانوا يتنقّلون على درّاجات هوائيّة خلف الرئيس.

وقف غاري شروين قرب نافذة مكتبه يستعدّ لإقفال الستار، حين صوّب متظاهر باكستاني في الأسفل مسدّساً في اتّجاهه، وحطّم الواجهة الزجاجيّة. كان وجندي مارينز يافعاً قربه، قد لمحا مطلق النار باكراً بما يكفي ليقفزا مثل مغامري الأفلام إلى ما وراء خطّ النار. تطايرت شظايا الرصاصة على جدران الجص في مركز «السي.آي.إيه.». لم يعد لديهما الوقت لتدمير الوثائق السرّية. أقفل شروين وليسارد خزائن ملفّاتهما، وموّها المواد في خزنة المركز خلف باب سرّي، وأمسكا ببندقيّتي «بومب أكشن ونشستر 1200» من حقيبة أسلحة المارينز، وتوجّها إلى مخبأ الغرفة السرّية في الطابق الثالث.

بحلول حوالى الساعة الثانية صباحاً، كان قد تجمّع في الداخل 139 فرداً من الجهاز البشري والموظّفين الباكستانيّين في السفارة، أملاً في الاحتماء من الحشود. وداخل المخبأ، كان مسؤول سياسيّ شاب قد أفرغ مكتباً، وانهمك في كتابة برقيّة عاجلة flash cable، لإبلاغ واشنطن بالهجوم. وفي هذه الأثناء، كان مسؤولو الاتّصالات في السفارة يتلفون ملفّات الشيفرة، واحداً تلو الآخر، لتفادي وقوعها بين أيدي المتظاهرين، في حين تردّد في الغرفة صدى مطرقة تضرب بوتيرة واحدة على معدّات الترميز الخاصّة بـ «السي.آي.إيه.».

بقي عنصر المارينز المصاب ستيفن كراولي ممدداً على الأرض، وقد فقد الوعي وراح ينزف. وتولّت ممرّضة من السفارة العناية به. كان يتنفّس بمساعدة خزّان أوكسيجين. كان كراولي قد أصيب في التظاهرة قبل لحظات، واجتاح الآن المتظاهرون حرم السفارة بغضب، وبأعداد كبيرة، وقد بدأوا يتسلّلون إلى كلّ زاوية من المجمّع. ألقوا قنابل مولوتوف في المكاتب السفلى الخاصّة بالمستشارين، فأشعلوا النار في الملفّات والأثاث. اجتاح اللهب أجنحة واسعة من المبنى، وخصوصاً قسم الميزانية والمالية المليء بالأوراق، والواقع فوق غرفة المواصلات التي أصبحت أشبه بمرجل يغلي. وقدّر المراقبون من السفارة البريطانيّة، أنّه، بحسب قوّة الحركة، فقد اجتاح 15 ألف باكستاني المكان.

أدار الرقيب أوّل في مدفعيّة البحريّة ميلر - أو المدفعجي كما كان يُلقَّب - عمليّة الدفاع من موقعه في البهو. ومن هناك، راح يراقب كيف كان المتظاهرون المحتجون يتدفّقون عبر المدخل الأمامي الذي بات محطّماً على بعد حوالى 15 قدماً فقط. هرعوا إلى البهو حاملين حزماً من الخشب، بالإضافة إلى وقود وكبريت. طلب ميلر بشكل متكرّر الإذن لرجاله بإطلاق النار على مشعلي الحريق، لكنّ المستشار الإداري في السفارة، ديفيد فيلدز، رفض الطلب على اعتبار أنّ إطلاق النار لن يؤدّي سوى إلى إشعال الوضع وجعله خارج السيطرة أكثر فأكثر. واضطرّ ميلر إلى

الاكتفاء بإلقاء المزيد من قنابل الغاز المسيل للدموع، بينما حاصرت النيران المبنى الذي أقسم على حمايته.

حين أصبح البهو مغموراً تماماً بالدخان، انسحب عناصر المارينز صعوداً للانضمام إلى الباقين داخل المخبأ في الطابق الثالث. وقبل دخولهم مباشرة، ألقوا بعض آخر القنابل المسيلة للدموع عند كلّ بيت سلالم، أملاً في ردع المتظاهرين عن التسلّق في اتّجاه المخبأ المتبقّي في السفارة.

أمّا في الخارج عند موقف السيّارات، فقد ألقى المتظاهرون الوقود على سيّارات السفارة، وأضرموا النار فيها، الواحدة تلو الأخرى، حتّى تخطّى عدد الآليّات المشتعلة الستّين. هاجم بعض المتظاهرين مساكن السفارة، وهي عبارة عن مجموعة من البيوت الحجريّة الصغيرة المتواضعة المخصّصة لسكن عناصر الجهاز البشري الأميركي المتوسّط الرتبة، وعائلاتهم. احتجز القادة الطالبيّون مجموعة من الرهائن من هذه المساكن، وأعلنوا نيّتهم سوقهم إلى حرم الجامعة لمحاكمتهم على أنّهم جواسيس أميركيّون. وبادر ملازم باكستاني كان قد رفض تسليم سلاحه إلى الحشود في اللحظات الأولى للتظاهرة، إلى الادعاء بمماشاة خطّة الطلاّب، فحمّل الرهائن داخل شاحنة، وانتقل بهم بسرعة إلى مكان آمن. لم يكن الباكستاني الوحيد الذي خاطر بنفسه لأجل الأميركيّين. ففي المدرسة الأميركيّة في إسلام آباد التي تبعد أميالاً عن السفارة، عمد كولونيل متقاعد في الجيش إلى تسليح فرقة حرّاس باكستانيّين، أخذوا على حين غرّة بمضارب كريكيت وعصي مكانس. نجحوا في طرد المتظاهرين الذين هاجموا المدرسة، في حين اختبأ الأولاد الخائفون في غرف مقفلة. وبالرغم من أنّ هؤلاء وآخرين تصرّفوا بشكل بطولي، إلّا أنّ حكومتهم لم تحرّك ساكناً. لم تصل أيّ قوّات من الجيش أو الشرطة الباكستانيّة لتفريق المتظاهرين، بالرغم من النداءات التي أطلقها السفير آرثر هامل ورئيس فرع «السي.آي.إيه.»، ساعة تلو الأخرى. ومع حلول منتصف فترة بعد الظهر، ارتفعت سحب ضخمة سوداء من الدخان العابق برائحة الوقود من المجمّع الأميركي، وكانت ظاهرة على بعد أميال.

انضمّ العديد من المتظاهرين إلى الحشد بشكل عفوي. لكن مع ظهور الزحف الهائل، انكشفت براهين حول وجود قدر مهم من التخطيط المنسّق. ففي أراضي السفارة، رصد موظّفو «السي.آي.إيه.» من بدوا أنّهم منظّمو التظاهرة يرتدون ملابس مميّزة، ويحملون أسلحة. كان بعضهم عرباً، والأرجح أنّهم ينتمون إلى الجالية الفلسطينيّة التي لها حضورها في جامعة «القائد الأعظم». وقد أشارت السرعة التي تدفّق فيها هذا العدد من المتظاهرين على السفارة، إلى إعداد مسبق للأمر. وصل الآلاف في شركات تعود إلى شركة البنجاب للنقل التي تملكها الحكومة. حاصر المتظاهرون كلّ موقع أميركي تقريباً: مجمّع السفارة، المدرسة الأميركيّة، المراكز الأميركيّة للمعلومات في راولبندي ولاهور، والعديد من المصالح الأميركيّة في إسلام آباد. وأفاد الأساتذة في جامعة «القائد الأعظم»، أنّ بعض الطلاّب قد اقتحموا الصفوف في وقت باكر جدّاً من

الصباح قبل أن تنتشر بقوّة الإشاعة حول التورّط الأميركي في أحداث الجامع الكبير، هاتفين بأنّ الطلاّب سيهاجمون السفارة للثأر باسم الإسلام.

حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، أرسلت قيادة أركان الجيش الباكستاني أخيراً طوّافة لاستكشاف ما يجري. حلّقت فوق السفارة مباشرة، وراحت مراوحها الدوّارة تحرّك اللهب الذي التهم المبنى. وما لبثت الطوّافة أن ابتعدت. وقال المتحدّث باسم ضياء الحق في وقت لاحق، إنّ الدخان كان كثيفاً إلى درجة أنّه لم يُتح تقييماً بصريّاً لما حدث. وأفادت «السي.آي.إيه.» أنّ مصادرها في أوساط ضياء الحق أخبرت قصّة مختلفة. فحين عادت الطوّافة إلى القاعدة، أشار الطاقم إلى ضياء الحق بأنّ النار في السفارة كانت منتشرة إلى درجة يستحيل معها أن يكون أحد من الجهاز البشري الأميركي في الداخل قد نجا. وبما أنّه بدا من المؤكّد أنّ الأميركيّين كافّة قد لقوا حتفهم، لم يكن من معنى للتسبّب في المزيد من هرق الدماء - وربّما إثارة زلزال سياسي محلّي - عبر إرسال قوّات الجيش للتصدّي المتظاهرين الإسلاميّين بالقوّة. ووفقاً لتقارير «السي.آي.إيه.» اللاحقة، قرّر ضياء الحق أنّه، كونه عاجزاً في كلّ الأحوال عن إنقاذ الأميركيّين من داخل السفارة، فسيكون من الأفضل أن يترك التظاهرة تحرق نفسها(25).

في هذه الأثناء، كان الأميركيّون والباكستانيّون داخل المخبأ قد أصبحوا على مشارف نهاية قدرتهم على التحمّل. مضى على وجودهم في الداخل أكثر من ساعتين، ولم تكن أيّ نجدة قد ظهرت. وفي غرفة وزارة الخارجيّة، استلقوا وقد بلّلهم العرق، وراحوا يتنفّسون بصعوبة عبر أوراق حمّام مبلّلة. كان دخان القنابل المسيلة للدموع قد ارتدّ إلى الطابق الثالث، وراح البعض يتقيّأ ويختنق. ارتفعت الحرارة مع ازدياد ألسنة اللهب في الطوابق السفلية، وتمزّقت أنسجة السجّاد بفعل الحرارة، كما تشقّق البلاط.

في غرفة الترميز الملاصقة الخاصّة بـ «السي.آي.إيه.»، حدّق كل من ميلر وشروين وليسارد وطاقم من ضبّاط «السي.آي.إيه.» وحرّاس المارينز، إلى فتحة مقفلة ببراغٍ في السقف تؤدّي إلى السطح مباشرة. تساءلوا عمّا إذا كان يجب أن يفتحوها بالقوّة، ويُخرجوا الجميع إلى الهواء. كان رئيس فرع سابق في إسلام آباد قد أنشأ الفتحة لهذا الهدف تماماً. لكنّ المتظاهرين كانوا قد اكتشفوا الممر بعد حوالى ساعة من الهجوم. وراحوا يضربون باستمرار على الغطاء الحديدي بقطع من الآجر أملاً في اقتحام المخبأ. وأدخل متظاهرون بنادقهم داخل منافذ التهوئة القريبة وأطلقوا النار. ازداد وقع الرصاص المتطاير من الأعلى إذ أصابت النيران خزّانات الأوكسيجين المخبّأة في مكان آخر من المبنى.

أصغت المجموعة المختبئة في غرفة الترميز، إلى القرقعة المعدنيّة على الفتحة لحوالى الساعة، ثمّ طرأت فكرة على بال أحد اختصاصيي المواصلات في «السي.آي.إيه.»، وهو يُعتبر مهندساً، تقضي بوضع خطّة ربط سلك بتمديد ذي عيار قوي بالغطاء الفولاذي. وبحسب ما يتذكّره غاري شروين، أعلن الاختصاصي هاتفاً: «سأتسبّب في صدمة كهربائيّة لأولئك الرجال فوق!». وكشف

عن معصمه، وبدأ يتعرّق بينما راح يربط الملاقط. «الآن، سأضع هذه الصغيرة هنا وستقتلهم الكهرباء». كان متّسخاً بأشلاء من وثائق ممزّقة. وضع القابس داخل الجدار. بدا كأنّ أربعمئة «فولت» تنطلق في اتّجاه الفتحة ثمّ ترتد لتنطلق في اتّجاه الجدار حيث انفجرت بشكل شرارات ودخان. «تبّاً! قوّة المقاومة كبيرة!».

بدت الفكرة مشكوكاً في أمرها منذ البداية - لم يكن الجهاز حتّى مركّباً بشكل صحيح -، وقد ساد الضحك للمرّة الأولى طوال فترة بعد الظهر، بعد أن فشلت الخطة. لكن ما كانت الخيارات الأخرى المتوافرة لديهم؟ كانت الحرارة قد ارتفعت إلى حدّ لا يطاق داخل المخبأ. وبدأ سؤال يراودهم: «ماذا سنفعل؟». «إنّهم هناك فوق. ماذا سنفعل؟».

مرّت ساعة أخرى. فجأة، التوت الفتحة تحت وطأة ضربات المتظاهرين. بدأت الخرسانة المحيطة بها تنهار داخل غرفة الترميز. قدّر ضبّاط «السي.آي.إيه.» وعناصر المارينز، أنّ أمامهم ثلاثين دقيقة قبل أن ينهار الغطاء. لكنّ صوت الضرب توقّف فجأة، وهدأت الأصوات على السطح. وبعد بضع دقائق قال «المدفعجي»: «لنفتح الغطاء وسنواجه ما يحدث». كان السفير قد أعطاهم الضوء الأخضر لإطلاق النار أوّلاً للحفاظ على الأمن في المخبأ، وكان
لديهم ما يكفي من السلاح لخوض معركة إن لزم الأمر.

تسلّق ليسارد وشروين السلالم وفتحا الغطاء بشكل نصفي. وبحسب ما يتذكّره شروين، جلس حوالى نصف دزينة من زملائهم القرفصاء في الأسفل مصوّبين أسلحتهم إلى الأعلى، جاهزين لإطلاق النار حالما يتدفّق المتظاهرون.

«أيّها الرفاق! حين نفتح الغطاء، إن كان من أحد في الأعلى، فسنقفز إلى الأسفل. أَطلقوا النار عندئذ! لا تطلقوا النار أوّلاً!». وضعوا خطّة لتبادل إطلاق النار.

نظر شروين عبر السلّم إلى ليسارد «سنموت هنا إن قام أحدهم...».

«نعم، أظنّ ذلك يا غاري».

لكنّهما عجزا عن فتح الغطاء. ضربا على البرغي، لكنّ الغطاء أو ما يشبهه، بات معوجّاً كثيراً إلى درجة أنّه لم يفتح. دفعا مراراً وتكراراً، لكن لم يكن بوسعهما فعل أيّ شيء.

غابت الشمس عن إسلام آباد، وبدأت الأصوات في الخارج تتلاشى في هواء تشرين الثاني/نوفمبر البارد. باتت الساعة حوالى السادسة والنصف مساءً. لعلّ المتظاهرين قد رحلوا، أو ربّما كانوا

مستلقين بانتظار أن يحاول الأميركيّون الهروب. قرّر المستشار الإداري ديفيد فيلدز أنّ الوقت قد حان لاكتشاف ذلك. أمر «المدفعجي» بقيادة بعثة إلى ممر الطابق الثالث، ثمّ صعوداً إلى السطح. قال فيلدز إنّ معهم الإذن بإطلاق النار على أيّ متظاهر يصادفونه.

تسلّل ميلر وفريقه المؤلّف من خمسة عناصر إلى خارج المخبأ، إلى ممرّ يعبق بالدخان. مرّروا أيديهم على الجدار المنحني للممر لئلاّ يضلّلوا مواقعهم، وتحسّسوا طريقهم إلى النهاية، حيث أوصلهم بيت سلالم إلى السطح. وجدوا أنّ الباب المعدني المقفل عادة، والذي يحمي النفاذ إلى السلالم، قد تمّ اقتلاعه من أساسه. كان المتظاهرون قد وصلوا إلى هناك بالفعل.

قاد ميلر فريقه صعوداً على السلالم بحذر، وقد حمل وجماعته الأسلحة المحشوة والجاهزة للإطلاق. عندما أطلّ «المدفعجي» برأسه داخل السطح، توقّع تبادلاً لإطلاق النار. وبدلاً من ذلك، وجد باكستانيّاً واحداً يهرع في اتّجاهه ويهتف: «صديق! صديق!». فتّش ميلر الرجل سريعاً، ووجد معه نسخة من «تعريف الشخصيّات المهمّة»، في «السي.آي.إيه.» Who’s in CIA داخل إحدى جيوبه، ما يشير إلى أنّ القادة الطالبيّين قد خطّطوا، على طريقة طهران، لتوقيف شبكة جواسيسهم الخاصّة. أخذ ميلر الكتاب وطلب من المتطرّف الرحيل. لم يطلق «المدفعجي»، أو أي من رجاله، النار في ذلك اليوم(26). كانت التظاهرة قد تفرّقت أخيراً. وفي خلال الساعة الأخيرة، كانت قد تحولت تدريجاً إلى مهرجان نهب متفرّق تحت غطاء الدخان.

بعد دقائق من خروج البعثة، سمع من بقي داخل المخبأ صوت اقتلاع الغطاء من الأعلى. اقتلعه عنصر مارينز ضخم الجثّة من أسسه بيديه الشبيهتين بالمطرقة. وسرعان ما صعد الجميع من غرفة ترميز «السي.آي.إيه.» إلى السطح، وراحوا يحدّقون إلى جدران مركز الاستشارة. وعبر سحب الدخان التي أحاطت بالمبنى، عاينوا حرم السفارة، ورأوا ألسنة لهب متحركة في المكان الذي كانت تنتصب فيه بعض منازلهم. كانت المباني الستّة التي يتألّف منها مجمّع السفارة، والتي تمّ بناؤها بكلفة 20 مليون دولار أميركي، قد تعرّضت للحرق بشكل يستحيل معه إعادة ترميمها.

عمد عناصر المارينز إلى وضع الشبكات المخصّصة لرَكن الدرّاجات الهوائيّة، واحدة فوق الأخرى، فصنعوا منها نموذج سلّم وقادوا المجموعة الكبيرة المتكدّسة في المخبأ إلى الأمان. بات المكان مظلماً وبارداً، ومواطئ القدم حسّاسة. أضاءت أنوار السيّارات وجمرات ما بقي من النار المكان بنور خافت. كانت قد وصلت أخيراً بعض القوّات العسكريّة الباكستانيّة. اكتفى عناصرها في معظم الوقت بالوقوف في ساحات السفارة يراقبون.

حين تمّت مساعدة آخر الموجودين في المخبأ، استدار «المدفعجي» لارتقاء السلّم. سأله رجال «السي.آي.إيه.» إلى أين يذهب. أجابهم «يجب أن أذهب لإحضار ستيف. لن أترك رجلي في الأعلى».

ظهر بعد دقائق حاملاً على كتفه جثة كراولي الهامدة والملفوفة في ملاءة. كان كراولي قد لفظ الروح حين نفد مخزون الأوكسيجين في المخبأ. أنزل «المدفعجي» الجثّة على السلالم إلى الأرض تحت ضوء خافت.

وفي وقت لاحق من ذلك النهار، أعلن المتحدّث باسم وزارة الخارجيّة أمام المراسلين «تشير التقارير كلّها إلى أنّ الأشخاص كافّة في المجمّع تمّ إخراجهم ونقلهم إلى مكان آمن بفضل القوّات الباكستانيّة». وفي اتّصال هاتفي، شكر الرئيس كارتر على مساعدته، وعبّر
الرئيس الأميركي عن أسفه لسقوط ضحيّة. تقبّل السفير الباكستاني في واشنطن الامتنان الأميركي، وأشار إلى أنّ القوّات الباكستانيّة قد تحرّكت «بسرعة وفعاليّة». استدعى وزير الخارجيّة سايروس فانس سفراء ثلاثين دولة إسلاميّة لمناقشة الهجوم على السفارة في باكستان وسياقه. وعند سؤاله عن الموجة الجديدة من النشاط الإسلامي في الخارج، أجاب: «يصعب التحديد عند هذه المرحلة، ما إذا كنّا نشهد تطوّر نمط ما»(27).

احتاج الأمر إلى يوم أو يومين لتبيان عدد القتلى والمفقودين. أطلق طلاّب «القائد الأعظم» المدقّق المخطوف بوتشر عند حوالى منتصف الليل. نعتوه بـ «الخنزير الإمبريالي»، واعتبروه مسؤولاً «عن الاضطرابات في مكّة ومشاكل العالم»، لكنهم قرّروا في النهاية أنّه بريء من الناحية الشخصيّة. عاد هائماً على وجهه إلى السفارة، مصاباً ومضطرباً.

وجد عمّال الإغاثة موظّفين باكستانيّين من السفارة في مكتب في الطابق الأوّل. يبدو أنّ سبب وفاتهما كان الاختناق، وقد احترق جسداهما بشدّة. وفي القسم السكني من المجمّع، وجد العمّال طيّاراً أميركيّاً يدعى براين إليس، عمره 29 عاماً، جثّة هامدة على أرض شقّته التي التهمتها النيران. كان إلى جانبه مضرب غولف. ويبدو أنّه تعرّض للضرب حتّى فقد الوعي، وتُرك ليحترق.

يوم الجمعة، أخلت طائرة جامبو تابعة لخطوط «بان أميريكان 309» موظّفين غير ضروريّين من جهاز بشري ومتعاقدين وغيرهم من الأميركيّين من باكستان، وعادت بهم إلى الولايات المتّحدة.

* * *

تمكّن الجنود السعوديّون بمعاونة رجال الكوماندوس الفرنسيّين، من القضاء على المهاجمين المسلّحين في الجامع الكبير يوم السبت في معركة دامية بالأسلحة. لم يقدّم السعوديّون أيّ جردة عن مجموع القتلى. حدّدتها معظم التقديرات بالمئات. وقلّل المسؤولون السعوديون من أهمّية

الانتفاضة، واعتبروا أنّ المتمرّدين السعوديّين «مجرّد منحرفين، وبعيدون كلّ البعد عن أيّ خلفية سياسية». تعرّض أتباع «المهدي» للقتل بالرصاص، أمّا الناجون منهم فقد فرّوا إلى الشبكة الداخليّة المعقّدة من الأقبيّة والأنفاق تحت الجامع. وقضت عليهم القوّات السعوديّة بعد أسبوع إضافي من القتال. وقد أفيد أنّ متعهّد البناء الذي أعاد بناء الجامع في الأصل للعائلة المالكة، وفّر الخرائط التي ساعدت القوى الأمنيّة في هذه المرحلة الأخيرة من المعركة. كانت شركة «بن لادن أخوان» للتعهدات والصناعة في نهاية المطاف، واحدة من أكثر الشركات الخاصّة في المملكة ولاءً وازدهاراً(28).

انتقل وزير الماليّة الأميركي وليم ميلر إلى المملكة وسط المعمعة. أمل إعادة طمأنة المستثمرين السعوديّين الذين يملكون ودائع بقيمة 30 مليار دولار في المصارف الأميركيّة، إلى أن الولايات المتّحدة ستبقى حليفاً وفيّاً. وحثّ أيضاً العائلة المالكة السعوديّة على استخدام نفوذها لدى الأوبك لتجميد أسعار النفط(29). كانت أسعار الوقود المتصاعدة قد زادت طين التضخّم بلّة، وثبّطت عزيمة الشعب الأميركي.

خشي الأمراء السعوديّون أن تكون انتفاضة مكّة، تعكس السخط الشعبي على الميول الغربيّة الصغيرة التي تمّ السماح بها في المملكة في الأعوام الأخيرة. وسرعان ما حظروا صالونات تصفيف الشعر للنساء، وطردوا المعلنات من البرامج التلفزيونيّة الرسميّة. ومنعت القواعد الجديدة الفتيات السعوديّات من متابعة دراستهنّ في الخارج. واستنتج رئيس الاستخبارات السعوديّة الأمير تركي الفيصل، أنّ انتفاضة مكّة كانت احتجاجاً على سلوك السعوديّين كافّة: المشايخ، والحكومة، والناس بشكل عام. وأخبر زائريه أنّه يجب ألّا يحدث خطر أو صراع مستقبلي بين التقدّم الاجتماعي والممارسات الدينيّة التقليديّة، ما دامت العائلة المالكة تحدّ من الفساد وتولّد فرصاً اقتصاديّة للجمهور.

أمّا في طهران، فقد قال آية الله الخميني إنّها «كانت فرحة كبرى أن نعلم بأمر الانتفاضة ضدّ الولايات المتّحدة الأميركية. إنّها أنباء سارّة لأمتنا المستضعَفة. يجب ألّا تشكّل الحدود فاصلاً بين قلوبنا». وبحسب الخميني، فإنّه «نظراً إلى البروباغندا، يخاف الناس القوى العظمى، ويحسبون أنّها لا تُمَس». وقد تنبّأ بإثبات خطأ هذا الأمر(30).

رسمت التظاهرة نمطاً سيتكرّر لأعوام. وقد عمد الدكتاتور الباكستاني الجنرال ضياء الحق، لأسباب تعود إليه، إلى دعم شريك راديكالي إسلامي وتعزيزه - وفي هذه الحالة الجماعة وجناحها الطالبي -، كانت لديه نظرة معادية بشراسة للأميركيّين. كان هذا الشريك الإسلامي قد خرج على السيطرة. فمن خلال مهاجمة السفارة الأميركيّة، كانت الجماعة قد تخطّت بأشواط تعليمات ضياء الحق. إلّا أنّ الرئيس الباكستاني شعر بأنّه لا يستطيع تحمّل التخلّي عن حليفه الديني. وشعر الأميركيّون بدورهم بأنّهم لا يتحملون تضخيم المسألة،

فالرهانات كبيرة على العلاقات بين باكستان والولايات المتّحدة. ففي أمّة إسلاميّة غارقة في الفقر والأزمات بينما هي على شفير اكتساب أسلحة نوويّة، لطالما بدا أنّ للولايات المتّحدة هموماً أكبر من الناحية الاستراتيجيّة، مقارنة بأخطار انبثاق إسلام سياسي مبهمة، وقابلة للإدارة والتعايش معها ظاهريّاً.

ليلة اجتياح السفارة، أنّب ضياء الحق المتظاهرين بلطف في خطاب تمّ بثه على الصعيد الوطني. وقال مشيراً إلى الانتفاضة في مكّة: «أفهم أنّ الغضب والألم حول هذه المسألة طبيعيان تماماً؛ إلّا أنّ الطريقة التي تمّ بها التعبير عنهما لا تتماشى مع التقاليد الإسلاميّة النبيلة لناحية الانضباط والتسامح(31)». وبمرور الأعوام، ازدادت شراكة ضياء الحق مع الجماعة الإسلامية تعمّقاً.

شعر الجهاز البشري التابع لـ «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجيّة، المتروك في المخبأ، بمرارة عميقة. فقد تمّ ترك عناصره مع أكثر من مئة من زملائهم لمصيرهم في مخبأ السفارة. واحتاجت القوّات الباكستانيّة إلى أكثر من خمس ساعات للتحرّك على طريق بالكاد يستغرق ثلاثين دقيقة من مقر أركان الجيش في راولبندي. لو أنّ الأمور اتّخذت منحىً إضافياً بسيطاً في اتّجاه الأسوأ، لكانت التظاهرة ولّدت إحدى أكثر الخسائر كارثيّة في التاريخ الدبلوماسي للولايات المتّحدة.

بات فرع «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد يعاني نقصاً في الآليّات لملاقاة عملائه، إذ إنّ المتظاهرين قد أحرقوا السيّارات كافّة. وجد غاري شروين سيّارة جيب تابعة لجامعة «القائد الأعظم» مركونة قرب السفارة، ويبدو أنّ المتظاهرين قد خلّفوها وراءهم. قام شروين بتشغيل محرّكها عبر وصل الأسلاك ليتمكّن من قيادتها ليلاً إلى اجتماعات سرّية مع عملائه رافعي التقارير. وسرعان ما أتى مسؤولون من الجامعة يسألون عن الجيب المفقود: تريد الجامعة الآن استرجاعه. قرّر شروين أنّه لم يعد بإمكانه متابعة القيادة في إسلام آباد. تم الإبلاغ عن عملية اختفاء الجيب. قاد الجيب ذات ليلة إلى بحيرة عند تخوم إسلام آباد، وهناك خرج من المركبة وتركها تنطلق حتّى غمرتها المياه. إنّه إرضاء خفيف للذات، لكنّه يبقى أفضل من لاشيء.

# 2
# لينين علّمنا

كان يوري أندروبوف قوّة صاعدة ضمن الحلقة المغلقة التي أحاطت بسيّد الكرملين المتهالك، الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتّحاد السوفياتي، ليونيد بريجنيف، صاحب الوجه الشبيه بكلاب الصيد. وكان أندروبوف في عمر الخامسة والستّين، يعلم، أو هذا ما حسبه، كيف يقمع تمرّداً. سطع نجمه، حين كان عضواً شيوعيّاً شابّاً، وبرز سفيراً في العاصمة المجرية، بودابست، حين سحقت القوّات السوفياتيّة الانتفاضة المجريّة في العام 1956. أصبح رئيساً لـ «الكي.جي.بي.» بعد حوالى عقد من الزمن، وأدار الجهاز الواسع للأمن الداخلي السوفياتي والتجسّس الخارجي. كان رجل الاستخبارات الأبرز في نظام سياسي مبني على الخداع، وحبك المؤامرات، وأشرف من مقرّ خدمته في اللوبيانكا على جادّة دزيرجينسكي في موسكو، على العمليّات الخارجيّة السرّية لـ «الكي.جي.بي.»، وقام بمحاولات لاختراق «السي.آي.إيه.»، وقاد حملات لقمع الانشقاقات داخل الاتّحاد السوفياتي نفسه. كان يتميّز بوجهه الشاحب، ويبدو أنّه تكيّف مع المعايير الشخصيّة القاتمة للقيادة الجماعيّة. وبما أنّه أيضاً قرأ أفلاطون، وقاد حملات ضدّ الفساد السوفياتي، وأدار المصلحين الأصغر سنّاً، مثل ميخائيل غورباتشيف، رأى بعض مراقبي الكرملين في الغرب ومضات ضئيلة من الاستنارة لدى أندروبوف، بالمقارنة برجال الدولة الأكبر سنّاً المتداعين، مثل وزير الخارجيّة أندريه غروميكو، أو وزير الدفاع ديمتري أستينوف(32). إلّا أنّ «الكي.جي.بي.» التي كان يرأسها أندروبوف، بقيت تعتمد القتل لغة وحيدة، وتعاملت بلا رحمة مع مناوئيها في البلاد وخارجها. وفي الفروع الخارجيّة في العالم الثالث مثل كابول، ارتكب مساعدوه التعذيب والقتل بدون رادع. أمّا الحلفاء الشيوعيّون الذين لم يعد مَرْضِيّاً عنهم، فقد واجهوا الموت والنفي.

لم يتوقّع أيّ من أندروبوف أو «الكي.جي.بي.» الثورة المضادّة للشيوعية في أفغانستان. اندلعت أعمال الشغب الحادّة الأولى في هرات في شهر آذار/مارس من العام 1979، بعد فترة وجيزة من إعلان الماركسيّين المستقرّين حديثاً في كابول مبادرة إلزاميّة لتلقين الفتيات القراءة. كانت هذه الحملات لمحو الأمّية من ركائز الملصقات الإعلانيّة السوفياتيّة الحمراء التي يتمّ تحميلها بالقطار إلى الدول الدائرة في الفلك السوفياتي، في العالم الثالث. «مسيرة النساء العاملات»: بعضلاتهنّ ووجوههنّ التي لا تعرف الابتسام، تقدّميّات وعازمات، ذقونهنّ إلى الأعلى، يحدّقن إلى المستقبل. وفي وقت سابق من القرن العشرين، مع تغلغل البولشيفيّين في الجمهوريّات التي أضحت وسط آسيا السوفياتيّة - أوزبكستان، طاجكستان، كازاخستان -، كانوا قد حوّلوا مجتمعات إسلاميّة ملتزمة إلى دول بوليسيّة لا تعترف بالدّين. وتدفّقت النساء إلى المعامل والمزارع الجماعيّة. وهذا ما دفع الخبراء والمحللين السياسيّين في «الكي.جي.بي.» إلى الاعتقاد أنّ الأمر نفسه سينطبق على أفغانستان.

كانت «الكي.جي.بي.» قد عمدت بشكل سرّي، لحوالى عقدين، إلى تمويل شبكات القيادة الشيوعيّة، وتغذيتها، في جامعة كابول والجيش الأفغاني، بحيث قدمت التدريب والتنشئة العقائديّة لحوالى 3725 من العناصر العسكريّة على الأرض السوفياتيّة. وراح الرئيس الأفغاني محمّد داود يلعب على الوترين السوفياتي والأميركي في السبعينيّات، بحيث قبل المساعدات الماليّة والمشاريع الإعماريّة من الطرفين، في عمل توازني دقيق. وفي شهر نيسان/أبريل 1978، سقط داود. فقد بادر إلى توقيف قادة شيوعيّين في كابول بعد أن نظّموا تظاهرة صاخبة. وبعد أيّام، أطلق متآمرون مدعومون سوفياتيّاً، ومزروعون داخل الجيش الأفغاني، النار عليه في إحدى قاعات استقبال قصره المتداعي، وأردوه. أنزل الأفغان اليساريّون المنتصرون العلم الأفغاني المخطّط بالأخضر، ورفعوا الرايات الحمراء في أنحاء دولة ريفيّة فقيرة غارقة في الدين، بالكاد تعرّفت إلى التكنولوجيا الصناعيّة أو الحداثة. تمركز المئات من المستشارين السوفيات العسكريّين والسياسيّين في المدن والبلدات الأفغانية لتنظيم شبكات سرّية من وحدات الشرطة والجيش والميليشيا، كما في المصانع الصغيرة والمدارس. وبناءً على نصيحة من «الكي.جي.بي.»، أطلق ماركسيّو كابول حملة ترهيب ضدّ القادة الاجتماعيّين والدينيّين الذين قد يتمتّعون بالشجاعة لتحدّي الحكم الشيوعي. وبحلول العام 1979، بلغ عدد السجناء السياسيّين 12 ألفاً، وبدأت عمليّات الإعدام المنهجيّة خلف جدران السجون(33).

لم يكن شيوعيّو روسيا المتقشّفون أفضل حالاً من رأسماليّي أميركا التجديديّين، لناحية التقليل من شأن الثورة الإيرانيّة. أخفقوا أساساً في رصد فيروس النشاط الإسلامي الذي راح يتغلغل شمال طهران وشرقها، عبر شبكات سرّية غير رسميّة. كان الكرملين والأكاديميّات الداعمة له، تضمّ قلّة من الخبراء حول الإسلام(34). وكان أقرب الحلفاء إلى الاتّحاد السوفياتي أنظمةً علمانيّة مثل نظامي سوريا والعراق. وعلى غرار الأميركيّين، وجّه السوفيات معظم مواردهم ومواهبهم نحو ميادين المعارك في أوروبا وآسيا، في العقدين الماضيين.

بادر الناشطون الدينيّون المتأثرون بثورة الخميني المظفّرة في إيران، في أوائل ربيع 1979، إلى حمل لواء التحدّي الخاص بهم عبر الحدود الصحراويّة المفتوحة بين إيران وأفغانستان، وخصوصاً إلى هرات، وهي تقاطع قديم على سهل مفتوح كان مرتبطاً لمدّة طويلة بإيران عبر التجارة والسياسة. وهرات هي بلدة صحراويّة تتكلّم لهجة فارسيّة، ويرويها نهر هاري رود. لم تكن ثقافاتها التقليديّة ومدارس الإسلام فيها - التي تضمّنت لمسات بارزة من الصوفيّة - صارمة تجاه النساء بقدر بعض المناطق الريفيّة نحو الشرق، إلّا أنّها كانت مدينة ورعة. كانت تضمّ بين سكّانها العديد من أتباع المذهب الشيعي السائد في إيران. وكما في كلّ مكان آخر، وجد غير الشيعة أنفسهم متأجّجين ومتحمسين في أوائل 1979 بفعل الفورة الدينيّة السياسيّة التي أطلقها الخميني. وفي خطوة تدلّ على نقص في الإدراك، ضغط شيوعيّو كابول ومستشاروهم السوفيات لتطبيق الإصلاحات العلمانيّة الواردة في النصوص الماركسيّة. وبالإضافة إلى حملات محو الأميّة للفتيات، جنّدوا العسكر، وصادروا الأراضي التي كان يملكها في السابق شيوخ القبائل والعلماء المسلمون. كذلك، أبطلوا أنظمة الإقراض الإسلاميّة، وحظروا المهر للعرائس، وشرّعوا حرّية الاختيار عند الزواج، وفرضوا التعليم الشامل بحسب العقيدة الماركسيّة.

دعا نقيب في الجيش الأفغاني يتمتّع بالكاريزما يدعى إسماعيل خان، إلى الجهاد ضدّ المستغلّين الشيوعيّين في شهر آذار/مارس من ذلك العام، وقاد حامية هرات المدجّجة بالسلاح إلى ثورة عنيفة. طارد أتباعه أكثر من عشرة مستشارين سياسيّين شيوعيّين روس، وضربوهم حتّى الموت، ولم يرحموا نساءهم ولا أطفالهم(35). عرض المتمرّدون الجثث الروسيّة على أوتاد على طول شوارع المدينة المظلّلة. حلّق طيّارون درّبهم السوفيات بقاذفات القنابل خارج كابول في ردّ انتقامي، وأمطروا المدينة بهجمات متتالية شرسة. ومع انتهاء الغارات، ليلة الذكرى الأولى لوجود إسماعيل خان في السلطة، كانت الحكومة الأفغانيّة الشيوعيّة قد قتلت حوالى عشرين ألفاً من مواطنيها في هرات وحدها. لم يجد بعدها إسماعيل خان مفراً إلا الهرب، وساعد على نشر التمرّد في الريف الغربي.

راح ضبّاط «الكي.جي.بي.» يغلون غيظاً مع احتراق هرات. وأمام جلسة حول الأزمة في اجتماع للمكتب السياسي السوفياتي، انعقد سرّياً خلف أسوار الكرملين في 17 آذار/مارس، 1979، قال أندروبوف: «حتى لو تم تصنيفنا معتدين، إلّا أنّنا لن نهتم بذلك، ولن نسمح بأن نخسر أفغانستان تحت أيّ ظرف من الظروف»(36).

أمّا سجلّات مناقشات الكرملين الخاصّة في موسكو في ذلك الربيع، التي لم يكن باستطاعة الأميركيّين الوصول إليها آنذاك، فقد صوّرت قيادة سوفياتيّة تطغى عليها آراء «الكي.جي.بي.». كان أندروبوف نجماً صاعداً مع أفول نجم بريجنيف. كان مركزه الأمامي في كابول، المعروف باسم مسكن «الكي.جي.بي.»، وكان قد عزز نفوذه في دوائر القرار، وبنى العديد من الاتّصالات والعلاقات الماليّة والسياسية مع القادة الشيوعيّين في أفغانستان، متخطياً الدبلوماسيّين السوفيات.

إلّا أنّ الأفغان كانوا من نوع العملاء الذين يسببون الإرباك والإحباط. وقد رأى أندروبوف وبقية معاوني بريجنيف، في رفاقهم الشيوعيّين الأفغان، مجرد قليلي الحيلة، ومحدودي السلطات، ومنشغلين فقط بأنفسهم، وليسوا محط ثقة. أخذ الماركسيّون الأفغان النصوص الثوريّة التي أرسلتها موسكو بحرفيّتها إلى حدّ كبير. بدوا أشبه بمنظّرين، وأكاديميين جامعيين، وليس سياسيين. كانوا يتحرّكون بسرعة مفرطة. وانقسموا، بسبب ذلك، إلى فصائل حزبيّة تستحيل مصالحتها، وتجادلوا حول الامتيازات التافهة والعقيدة العقيمة.

أشار يوستينوف في اجتماع للمكتب السياسي، إلى أنّ المشكلة «تكمن في أنّ قيادة أفغانستان لم تقدّر بشكل كاف دور الأصوليّين الإسلاميّين».

وأقرّ أندروبوف «من الواضح تماماً بالنسبة إلينا، أنّ أفغانستان ليست جاهزة في الوقت الحاضر لحل المسائل كافّة التي تواجهها، عبر الاشتراكيّة. فالاقتصاد متدهور، والدين الإسلامي سائد،

والتجمّعات السكنيّة الريفيّة كلّها غارقة في الأمّية تقريباً. نعرف تعليمات لينين حول وضع ثوري. ومهما يكن الوضع الذي نتحدّث عنه في أفغانستان، فهو ليس من هذا النوع»(37).

أوفدت المجموعة رئيس الوزراء السابق ألكسي للاتصال هاتفيّاً بالزعيم الشيوعي نور محمّد تراقي، وهو سفّاح تنقصه الخبرة. كانت القيادة السوفياتية تريد أن تعرف إن كان بإمكانها إقناعه باتّباع مسار مدروس أكثر. كان تراقي قد أمضى السنة الأولى من الثورة الشيوعيّة الأفغانيّة في التركيز على تعميم عبادة الزعيم. عمد إلى طبع الآلاف من الملصقات التي تظهر صورته وتصفه «بالمعلّم الأكبر»، وتوزيعها. ومع انتفاض مواطنيه
في ثورة جماعيّة، أرسل تراقي خصومه الشيوعيّين الأفغان إلى النفي. وقد أسرّ في حفل استقبال في كابول لبعثة «الكي.جي.بي.»، أنّه يرى نفسه يتبع مثال لينين مباشرة، فيرفض أيّ مساومات مع الأفغان غير الشيوعيّين، والإمساك بالفترات الأولى من ثورته لإنشاء «دكتاتوريّة البروليتاريا» مرتكزة على النموذج السوفياتي. وقال تراقي ذات مرّة لرعاته في «الكي.جي.بي.»: «إنّ جرائم قتل السجناء السياسيّين قد تكون قاسية لكنّ لينين علّمنا أن نكون بلا رحمة تجاه أعداء الثورة، وكان يجب التخلّص من ملايين الناس لضمان انتصار ثورة أكتوبر» في الاتّحاد السوفياتي في العام 1917.

قام كوسيغين بالاتّصال بتراقي يوم 18 آذار/مارس، وسط جلسات الأزمة في المكتب السياسي. وأقرّ حينها تراقي بأن «الوضع سيّئ، وهو يزداد سوءاً». سقطت هرات في يد المعارضة الإسلاميّة الناشئة حديثاً. كانت المدينة «تحت تأثير شبه كامل للشعارات الشيعيّة».

سأل كوسيغين «هل لديك قوّات كافية للتصدّي لهم؟».

أجابه تراقي: «حبّذا لو كان الأمر كذلك».

وقال إنّ الشيوعيّين الأفغان في حاجة ماسّة إلى المساعدة العسكريّة السوفياتيّة المباشرة.

فاستفسر كوسيغين مستتشيطاً «تدرّبَ مئاتٌ من الضبّاط الأفغان في الاتّحاد السوفياتي. أين هم الآن؟».

أجابه تراقي «معظمهم أصبح من الرجعيين المسلمين... ماذا يدعون أنفسهم أيضاً - الإخوان المسلمين -. لا يمكننا الاعتماد عليهم. لا نثق بهم».

إلّا أنّ تراقي كان لديه حل. نصح بأن تعمد موسكو بشكل سرّي إلى إرسال كتائب من الجنود السوفيات من جمهوريّات آسيا الوسطى التابعة لها. وقال: «لمَ لا يستطيع الاتّحاد السوفياتي إرسال الأوزبكيّين والطاجيك والتركمان بملابس مدنيّة؟ لن يتعرّف أحد إليهم... يستطيعون قيادة الدبّابات لأنّ لدينا جنسيّات مختلفة هنا في أفغانستان. فليرتدوا الزي الأفغاني، وليضعوا الشارات الأفغانيّة، ولن يتعرّف إليهم أحد». وبحسب اعتقاد تراقي، كانت كل من إيران وباكستان تعتمد هذه الطريقة السرّية لدعم الثورة الإسلاميّة، وكانتا تُدخلان إلى أفغانستان قوّاتهما العسكريّة النظاميّة متنكّرة بشكل مجموعات مقاتلة.

رفض كوسيغين الاقتراح، واستخف به بالقول: «إنّك تُفْرط في تبسيط المسألة بالطبع». وأخبر تراقي بأن التمرّد الإسلامي الناشئ في أفغانستان يمثّل «مسألة سياسيّة دوليّة معقّدة»(38).

أرسلت «السي.آي.إيه.» اقتراحاتها السرّية الأولى من أجل الدعم السرّي للمتمرّدين الأفغان المناهضين للشيوعيّة إلى الرئيس جيمي كارتر في أوائل شهر آذار/مارس 1979، في الوقت الذي كانت الثورة في هرات قد بدأت تستجمع قواها. انتقلت ورقة الخيارات إلى اللجنة الخاصّة للتنسيق، وهي مجموعة فرعيّة غير معلنة تابعة للحكومة كانت تشرف على التحرّك السرّي باسم الرئيس. أفادت المذكّرة السرّية من «السي.آي.إيه.»، بأنّه من الواضح أنّ القادة السوفيات كانوا قلقين بشأن تجميع الثورة الأفغانيّة. وأشارت إلى أنّ الإعلام التابع للسوفيات قد أطلق حملة دعائية كبرى تتّهم الولايات المتّحدة وباكستان ومصر بدعم المتمرّدين الإسلاميّين في أفغانستان. لم تكن الولايات المتّحدة في الواقع، قد فعلت ذلك حتّى الآن. لعلّ هذا يمكن أن يكون وقتاً مناسباً للبدء بذلك(39).

أدّت الاضطرابات في إيران إلى ازدياد انتقاد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وقد تعمد الاستخبارات السوفياتية إلى استغلال هذه الفوضى. وشكلت هذه الأحداث فرصة لإبعاد النيران المنتشرة في معقل الخميني عن الولايات المتحدة في اتجاه الاتحاد السوفياتي. قد تعمل ثورة دائمة في أفغانستان على تضييق قدرة السوفيات على توجيه قوتهم إلى داخل حقول النفط في الشرق الأوسط، ما يسبب إحراج القوات الأفغانية وربما السوفياتية، وتقييدها، بينما تحاول سحق الثورة. إلا أنّ المسار كان صعباً، فالسوفيات على استعداد للأخذ بالثأر في حال رأوا يداً أميركية في قِدْر أفغانية. وبقي البيت الأبيض متردّداً في شأن أوراق الاحتمالات الأساسية الخاصة بوكالة الاستخبارات المركزية. وفي 6 آذار/مارس، طلبت لجنة التنسيق الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية إجراء دورة اقتراحات ثانية متعلقة بالأعمال السرية.

كتب رئيس تحليل القضايا السوفياتية في وكالة الاستخبارات المركزية، أرنولد هوليك، مذكرة تعبر عن بعض القلق، وأرسلها إلى الأدميرال ستانفيلد تورنر، مدير مركز الاستخبارات المركزية. خشي هوليك أن يكون نظام تراقي الشيوعي متحللاً، وحضّ السوفيات على التدخل. وقد يقود التوغل السوفياتي، كلاً من باكستان وإيران، وربما الصين، إلى زيادة

الدعم السري للثوار الأفغان، فيضطر الجنرال ضياء الحقّ في باكستان، إلى أن يطلب من الولايات المتحدة مواجهة السوفيات علناً، أو القضاء على الجيش السوفياتي المنتشر على طول الحدود الباكستانية. وقد هدد هذا السيناريو باندلاع الحرب العالمية الثالثة مع احتمالات مريعة بالتصعيد النووي. أما بالنسبة إلى موقف موسكو من الشيوعيين المتخبطين في كابول، فختم هوليك قائلاً إنه في بعض السيناريوهات «لا بدّ من أن يتهيأ السوفيات للتدخل، ممثلين الفريق الحاكم»(40).

وبينما كانت «السي.آي.إيه.» و «الكي.جي.بي.» مندفعتين إلى الأمام في ذلك الربيع، اطلعت كلّ منهما على دوافع الأخرى، لكن لم تفهم أيّ منهما حسابات الثانية تماماً.

طلب عملاء الخدمات السرية في قسم الشرق الأدنى في مركز «السي.آي.إيه.» الرئيسي في لانغلي، من مصادر باكستانية وسعودية، دراسة ما يمكن فعله في الأراضي الأفغانية. وشعر بعض ضباط «السي.آي.إيه.»، بأن الوكالة تتّخذ المبادرة. وتبدو دراسة خطة تحرك سرية أفغانية لهؤلاء العملاء في الشرق الأدنى، عملاً استثنائياً، لكنه كان مغرياً في تلك الفترة الكئيبة والدفاعية والخاملة التي تمرّ فيها «السي.آي.إيه.».

فضحت تحقيقات الكونغرس الأوليّة التي نُشرت منذ بضع سنين على نطاق واسع، مؤامرات الاغتيالات التي قامت بها الوكالة في كوبا، والعمليات السرية الشائنة التي نفّذتها في أميركا اللاتينية، وأسراراً أخرى مروّعة. فانقلب الشعب الأميركيّ والكونغرس على «السي.آي.إيه.» بعدما كانا حانقين، معاً، عليها جراء إساءة الحكومة استعمال قوتها بعد «ووترغايت». أصبحت البيئة السياسية معادية لعمليات الوكالة. تم حظر الاغتيالات رسميّاً وقانونياً بموجب أمر تنفيذيّ. كما تم سَنّ قوانين، واتخاذ إجراءات جديدة لضمان سيطرة الرئاسة والكونغرس على أعمال «السي.آي.إيه.» السريّة. لكن هذه الإصلاحات أثارت الغضب والفوضى داخل لانغلي بين جهاز الجواسيس المحترفين، وبين الذين رحبوا ببعض هذه التغييرات. كانت «السي.آي.إيه.» تقوم بأعمالها وفقاً للتعليمات الرئاسية التي تشكّل في بعض الأحيان خطراً كبيراً على حياة العملاء المتورطين، فقرر عدد كبير ممن في لانغلي الرحيل. ويسود الآن في واشنطن شعور بأنّ الوكالة لطالما كانت منظمة إجرامية، وثقباً أسود من المؤامرات الشائنة. ويعتقد ضباط في «السي.آي.إيه.» أنّ رد فعل الشعب والكونغرس العنيف في العام 1979، تجاوز ميزان الإساءات الأصلية. في تلك الفترة، أرسل جيمي كارتر فريقاً من ضباط لا ينتمون إلى الوكالة، يقودهم أدميرال في البحرية، يُدعى تورنر، لحثّهم على استعادة لياقتهم. وأصدر تورنر، بغية تخفيض ميزانية «السي.آي.إيه.» قصاصات زهرية لجمع نقاط ضباط الاستخبارات الذين يعملون في الخدمات السرية، وكانت عمليات صرف الضباط الفعلية الأولى في تاريخ الوكالة. وبدت الأمور داخل مديرية العمليات، كأنها تدهورت إلى أدنى مستوياتها(41).

وبينما كان الضباط في قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» يدرسون الخيارات في أفغانستان ذلك الربيع، أعلنوا أنّ الجنرال ضياء الحق في باكستان قد يكون مستعداً لتقديم دعمه

السري الضئيل إلى الثوار الأفغان. إلا أن الجنرال كان قلقاً من أنّ الباكستانيين «لا يستطيعون المخاطرة بإثارة غضب السوفيات» من خلال زيادة الدعم للثوار ضد الشيوعية، إلا في حال التزمت الولايات المتحدة حمايتهم من أي عملية انتقام سوفياتية(42).

بلغت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وباكستان الدرك السفلي في العام 1979، إلا أن «السي.آي.إيه.» أبقت على شبكات اتصالها مع إسلام آباد مفتوحة. وفهم ضياء الحق أنّه مهما عمل جيمي كارتر بصرامة على فضحه علناً بسبب سجله البائس في ما خص حقوق الإنسان، أو بسبب برنامجه النووي السري، فقد كان يملك تأثيراً سرياً في واشنطن من خلال «السي.آي.إيه.». أما الانتصار الذي حققه الخميني في وقت سابق من تلك السنة، فقد أدّى إلى خسارة محطات تنصّت إلكترونية أميركية حيوية متمركزة في إيران، وموجهة ضدّ الاتحاد السوفياتي. وافق ضياء الحق على اقتراح قدمته «السي.آي.إيه.» يقضي بتحديد مواقع إنشاءات جديدة في باكستان. وكان هذا نوعاً من تعدد الطبقات، موجوداً على مر السنين في العلاقة الأميركية - الباكستانية. ففي الستينيات، حلقت طائرة التجسس «يو 2» الأميركية الأولى سراً خارج قاعدة بيشاور الجوية. وفي بداية السبعينيات، كان هنري كيسينجر قد استخدم وساطة باكستانية ليصوغ انفتاحه السريّ على الصين. أما من جهته، فقد رأى ضياء الحق أن العمليات السرية هي الوسيلة الأضمن لمتابعة سياسته الخارجية الإقليمية، وأهدافه العسكرية. فباكستان كانت قد خسرت نصف أراضيها أثناء الحرب مع الهند قبل ثماني سنين. كان هذا البلد صغيراً مقارنة بالهند، وضعيفاً كثيراً، ليتمكن من تحدي جيرانه بالقوة العسكرية. ففضل ضياء الحق الضرب ثم الاختباء.

ترأس نائب مستشار جيمي كارتر للأمن القومي، دايفد آرن، جلسة سرية ثانية للجنة التنسيق الخاصة في 30 آذار/مارس للبحث في مسألة المساعدات الأميركية السرية والمباشرة للثوار الأفغان. جاء ذلك بعد أسبوعين على اتصال كوسيغين الهاتفي المحرج
بتراقي. شرح دايفد نيوسم من وزارة الخارجية، للمجموعة، أن إدارة كارتر تسعى الآن إلى «عكس نزعة السوفيات الحالية ووجودهم في أفغانستان، لنبرهن للباكستانيين اهتمامنا وقلقنا إزاء التدخل السوفياتي، ولنثبت للباكستانيين والسعوديين وغيرهم عزمنا على وقف امتداد التأثير السوفياتي في العالم الثالث». لكن، ما هي الخطوات التي لا بد من اتخاذها؟ أيجب أن يزودوا الوحدات العسكرية الأفغانية المتفككة بالأسلحة والذخائر؟ وكيف سيكون رد فعل السوفيات؟

طرح آرون السؤال الأساسي: «هل سنستفيد من دعم الثورة ومساعدتها؟ أم إنّ خطر استفزاز السوفيات كبير جداً؟».

قرروا الاستمرار في دراسة خياراتهم(43).

في غضون أيام، تبع ضباط الجيش الأفغاني في جلال آباد مثال إسماعيل خان، وتسلحوا ضد الشيوعيين، وقتلوا مستشارين سوفياتاً. وركب القادة الأفغان دباباتهم وهدروا في اتجاه خطوط

الثورة، وأعلنوا تحالفهم مع الجهاد. وجاء الرد السوفياتي الدموي سريعاً: في شمال جلال آباد، في قرية في مقاطعة كونار المعروفة باسم كيرالا، قامت قوات حكومية أفغانية بمؤازرة مستشارين سوفيات بذبح مئات الرجال والفتيان. وبينما انتشرت أخبار هذا الإعدام وإعدامات أخرى في ريف أفغانستان، بدأت وحدات من جيش الحكومة ترتدّ وتفرّ من المعركة. وما هي إلا فترة أسابيع قليلة في ذلك الربيع، يمكن عدها على أصابع اليد الواحدة، حتى ذاب الجيش الذي يقوده الشيوعيون مع الثلج، بينما انزلق المجنّدون في اتجاه الوديان الصخرية وجبال الصنوبر، حيث وحدات المجاهدين الثوار «المحاربين المقدسين» بدأت تستولي على مساحات شاسعة من الأراضي التي لا نزاع عليها(44).

تابع معظم المحللين في «السي.آي.إيه.» ووكالات استخبارية أميركية أخرى، التنبؤ بأن القوات السوفياتية لم تغزُ من أجل قمع الثورة. ومع اقتراب فصل الصيف، رصدت «السي.آي.إيه.» شحنات من المروحيات المهاجمة من الاتحاد السوفياتي إلى أفغانستان، وانتقدت بشدة تدخل المستشارين العسكريين السوفيات المتزايد على الأرض. لكن محللي لانغلي غادروا بوليتبورو، محاولين التخفيف من التدخل المباشر، تماماً كما فعلت السفارة الأميركية في موسكو. وتنبأت شبكة سرية من السفارة في 24 آذار/مارس، بأنه «نظراً إلى الظروف المتوقّعة، سيتفادى الاتحاد السوفياتي على الأرجح مساندة جزء رئيسي من المعركة ضد التمرّد»(45).

عكست الشبكة بدقة الوضع داخل الكرملين. شكل أندروبوف من «الكي.جي.بي.»، بالإضافة إلى غروميكو وأوستينوف، فريق عمل في ذلك الربيع، لدراسة الأزمات الطارئة في القيادة الشيوعية الأفغانية. ولم يبدُ أي من احتمالاتهم مثيراً للاهتمام. وأكملوا تقريراً سرياً جداً من أجل بريجينيف في 28 حزيران/يونيو، واستنتجوا أنّ الثورة الأفغانية كانت تكافح بسبب «التراجع الاقتصادي، وعدد الطبقة العاملة الصغير»، وضعف الحزب الشيوعي المحلي، بالإضافة إلى أنانية القادة الأفغان(46).

حرر فريق أندروبوف رسالة إلى «المعلم العظيم» تراقي، تحثه على وقف النزاع مع خصومه. وطلبوا منه إدخال المزيد من الرفاق في القيادة الثورية، والتخفيف من حدّة موقفه تجاه الإسلام. ونصحوه بالعمل على توظيف رجال الملا وفقاً لجدول الرواتب الشيوعي، و «إقناع الغالبية المسلمة بأن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية... لن تؤثر سلباً في معتقدات المسلمين الدينية». أما من جهته، فقد فضل تراقي استعمال السلاح. أراد ببساطة، أن تواجه القوات السوفياتية الثوار(47).

في ذلك الأسبوع في واشنطن، نصح مستشار الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي - وهو ابن دبلوماسي بولندي نُفيت عائلته عند الغزو النازي، ولاحقاً الاحتلال السوفياتي لبولندا - الرئيس كارتر بتقديم دعم سري «غير مميت» إلى الثوار الأفغان. كان بريجنسكي يعتقد أن فرص إحراج السوفيات في العالم الثالث قليلة جداً. وها قد برزت واحدة الآن في أفغانستان. وقد تكون المخاطر

مقبولة. كانت خطة بريجنسكي تقوم على تسوية تربط بين البراهين غير المحلولة داخل لجنة التنسيق الخاصة: ستقوم الولايات المتحدة بضخ المساعدات إلى الثوار الأفغان، لكنها لن تزودهم أي أسلحة الآن.

كتب كارتر في 3 تموز/يوليو 1979، اسمه على قانون رئاسي مطلوب بموجب القانون الحديث الذي يهدف إلى ضمان سيطرة البيت الأبيض على عمليات «السي.آي.إيه.»(48). ووفقاً للنظام الجديد، وفي حال حاولت «السي.آي.إيه.» الالتزام «بعمليات خاصة» مُعَدة للتأثير في الظروف السياسية الخارجية - المعارضة لعملها التجسسي اليومي، أو سرقة الأسرار -، فعلى الرئيس «وضع قانون» يؤكد أن العمل السري هو برعاية الأمن القومي الأميركي، أو إعلان ذلك رسمياً وخطياً. كما يجب على الرئيس إخطار قادة الكونغرس جميعاً
بقراره(49).

سمحت اكتشافات كارتر لـ «السي.آي.إيه.» بإنفاق مبلغ 500 ألف دولار على العمليات الدعائية والنفسية، بالإضافة إلى تأمين معدات لاسلكية ومساعدات طبية وأموال نقدية للثوار الأفغان(50). ولجأ استخباريو «السي.آي.إيه.» في قسم الشرق الأدنى، إلى الوسطاء في ألمانيا وبلدان أخرى، لإخفاء تدخلهم، وبدأوا ذلك الصيف بشحن المعدات الطبية والأجهزة اللاسلكية إلى باكستان، حيث سلموها إلى أجهزة استخبارات ضياء الحق، لتوزيعها على الثوار الأفغان.

بدت في ذلك الوقت كأنها بداية صغيرة.

وعلى الرغم من دعوة موسكو إلى التعقل، بدأ القادة الماركسيون في كابول استهلاك أنفسهم. في أواخر الصيف، كان «المعلم العظيم» تراقي في خصومة مميتة مع أحد أعضاء الحزب الشيوعي، حافظ الله أمين، وهو تلميذ سابق فاشل من جامعة كولومبيا في نيويورك، ومهندس قيادي في الثورة الأفغانية الشيوعية العام 1978. واستنتج كل منهما على الفور أنه يجب على الآخر الرحيل. وقد تمكن أمين من طرد تراقي من مكتبه في أيلول/سبتمبر، وأمر بعد بضعة أسابيع بقتله. فمات «المعلم العظيم» رمياً بالرصاص داخل مجمع محصّن في كابول.

أثار ارتقاء حافظ الله أمين مأساة هزلية من الشكوك والحسابات السياسية والأمنية داخل صفوف «الكي.جي.بي.». فعملاء «الكي.جي.بي.» العاملون في مقرّ كابول، أبقوا تراقي وأمين ضمن جدول رواتبهم أعواماً، وكانوا يقابلون عملاءهم السريين في بعض الأحيان في سيارات مركونة إلى شوارع المدينة(51). وبعد أن اكتسب أمين السلطة، أصبح ديكتاتوراً. فمن بين الانتهاكات العديدة التي قام بها، سعيه إلى الحصول على السلطة من «الكي.جي.بي.»، لسحب مبالغ مالية من حسابات أفغانستان الخارجية، التي تملك ودائع بقيمة 400 مليون دولار. ووفقاً لسجلات

«الكي.جي.بي.»، فقد استاءت قياداتها الاستخبارية، وأملت تشويه سمعته، فنشرت إشاعات مضللة فحواها أن أمين عامل في «السي.آي.إيه.».

ارتدّت هذه الإشاعات في الخريف، على «الكي.جي.بي.»، في قضية «تضليل» غريبة، وهو التعبير المستعمل من قبل الجواسيس لوصف الحملات الدعائية الكاذبة التي تتسرّب عائدة إلى ارتباك البلد الذي أطلق الإشاعة في المقام الأول. ولأسباب لا تزال غامضة حتى الآن، عقد أمين سلسلة من اللقاءات الخاصة في كابول مع دبلوماسيين أميركيين. وعندما علمت «الكي.جي.بي.» بهذه اللقاءات، خشي ضباطها أن تكون إشاعاتهم الخاطئة حول أمين صحيحة. ونشرت الهند ذلك الخريف مستنداً فحواه أنه عندما عاش أمين في نيويورك، انضم إلى المؤسسة الآسيوية التي لطالما كانت على اتصال بـ «السي.آي.إيه.». وبمرور الأسابيع، فكّر بعض ضباط «الكي.جي.بي.» في احتمال أن يكون أمين جاسوساً أميركياً أُرسل للتوغل داخل الحزب الشيوعي الأفغاني. كما جمعوا تقارير تفيد أنّ أمين يبحث عن تسوية سياسية مع الثوار الإسلاميين في أفغانستان. بالطبع، كانت هذه المقاربة التي ألحّت عليها «الكي.جي.بي.» من موسكو في وقت سابق من تلك السنة. والآن، فجأة، بدا الوضع مريباً. خشي ضباط «الكي.جي.بي.» أن يكون أمين يسعى إلى تقديم الخدمات إلى أميركا وباكستان(52).

قامت «الكي.جي.بي.» بإرسال تحذير خطي إلى بريجينيف حول أمين في تشرين الأول/أكتوبر. وخشيت رئاسة كابول حدوث «تبدّل مقصود» في السياسة الأفغانية الخارجية «إلى اليمين»، أي في اتجاه تحالف أقوى مع الولايات المتحدة. التقى أمين القائم بالأعمال الأميركي مرات عدة، لكنه لم يصرّح قط بموضوع هذه المحادثات في اجتماعاته مع الممثلين السوفيات(53).

أما من جهتهم، فقد رأى الأميركيون في كابول أن أمين ديكتاتور خطير، واعتبروه مسؤولاً جزئياً عن مقتل أدولف دابز، السفير الأميركي في أفغانستان، الذي اختُطف وأُردي في غرفة في فندق في كابول العام 1979. وبرغم ذلك، كان الدبلوماسيون الأميركيون داخل السفارة على علم
بالإشاعات التي تفيد بأن أمين عميل في «السي.آي.إيه.». أثارت هذه المسألة الكثير من القلق والإرباك بين صفوف دبلوماسيي وزارة الخارجية في السفارة، حول ما إذا كان السفير دابز، قبل مصرعه، طلب من رئيس مركز «السي.آي.إيه.» وجهاً لوجه، التحقق من صحّة هذه الإشاعات. وتمّ التأكيد له أن أمين لم يعمل قط لحساب «السي.آي.إيه.»، وفقاً لما قاله بروس أمستوتز، الذي كان نائب دابز في ذلك الوقت، وأصبح القائم بالأعمال بعد وفاته. وقال لاحقاً ضباط في قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، الذين كانوا ليترأسوا أمين لو كان مذكوراً ضمن جدول الرواتب، إنهم لم يكونوا على علاقة به عندما عاش في نيويورك، ولا بعد ذلك، باستثناء بعض المحادثات
العابرة التي أجروها في حفلات دبلوماسية. ولم تظهر أي أدلة تعارض هذه التأكيدات(54).

التقى أمستوتز في ذلك الخريف المصيري، أمين سراً خمس مرات. ويذكر أمستوتز بعد أعوام، أن هذه المحادثات كانت غير مجدية. وبعيداً عن انجرافه وراء الولايات المتحدة، وجد أمستوتز القائد الأفغاني الشيوعي عدائيّاً وعنيداً. كان أمين قد فشل مرتين في امتحانات الدكتوراه في كولومبيا. ووفقاً لتقديرات أمستوتز، فقد أثار هذا الإذلال غضبه وحقده على الأميركيين.

ركز ضباط «السي.آي.إيه.»، الذين يعملون في مركز كابول، معظم جهودهم على الأهداف السوفياتية، وليس على الشيوعيين الأفغان. فكانت المهمة الأساسية في كابول تقضي بسرقة الأسرار العسكرية السوفياتية، وخصوصاً الكتيبات التشغيلية التابعة لأنظمة الأسلحة السوفياتية، مثل الطائرة المقاتلة «ميغ 21». كما حاولوا إضافة عملاء من «الكي.جي.بي.» ودبلوماسيين من الحزب الشيوعي إلى لائحة رواتب الوكالة. ولهذه الغاية، انضم ضباط استخباريون من «السي.آي.إيه.» إلى مباراة دولية بين الجواسيس والدبلوماسيين يرعاها الألمان في كابول. لم يكن الضباط يقضون أوقاتاً طويلة في جمع المصادر الأفغانية، وتقديم تقارير عن السياسات الأفغانية السرية. وكنتيجة لذلك، فشلت «السي.آي.إيه.» في توقع الضربة الشيوعية الأساسية في أفغانستان العام 1978(55). إلا أنّ الوكالة ما زالت تملك بعض المصادر الأفغانية. والمذكرة السرية المشفّرة التي أرسلها توماس ثورنتن في أيلول/سبتمبر 1979 إلى مستشار الأمن القومي بريجنسكي، والتي جذبت اهتمام المخابرات الأميركية، طرحت سؤالاً بالغ الحساسية: «ماذا يفعل السوفيات في أفغانستان؟». وبدأت المذكرة بجملة: «بكلّ بساطة، لا نعرف»(56).

لم تقم «الكي.جي.بي.» بعمل أفضل في تقييم النيات الأميركية. كان عملاء «الكي.جي.بي.» يعرفون أنّ أمين يلتقي سراً دبلوماسيين أميركيين، لكنهم لم يتمكنوا من معرفة فحوى المحادثات، فاستنتجوا أنّ «السي.آي.إيه.» بدأت العمل مع أمين للسيطرة على حكومة كابول. ثم أقنع عملاء «الكي.جي.بي.» في أفغانستان رؤساءهم في موسكو، باتخاذ تدابير صارمة: لا بدّ من قتل أمين، أو تجريده من مركزه وسلطاته، لإنقاذ الثورة الأفغانية من التدخل الأميركي.

شرح القائد أندروبوف السبب في مذكرة شخصية إلى بريجينيف. «بعد الثورة ومصرع تراقي في أيلول/سبتمبر من العام الحالي، أصبح وضع الحزب والجيش وأجهزة الحكومة خطراً. فقد دُمّرت في المبدأ جرّاء عمليات القمع التي قام بها أمين. وفي الوقت نفسه، بدأت تصل معلومات مقلقة حول نشاطات أمين السريّة، مُنذرة بتحوّل سياسي محتمل في الشرق». وكتب أندروبوف أنّ هذه النشاطات تضمّنت: «اتصالات مع عميل أميركي حول قضايا بقيت سرية بالنسبة إلينا». ووفقاً لمخيلة أندروبوف المريضة والمتشككة، فقد وظّفت «السي.آي.إيه.» أمين جزءاً من مؤامرة جليّة كبرى تقوم بها الوكالة من أجل «إنشاء إمبراطورية عثمانية عظيمة جديدة»، تضمّ الجمهوريات الجنوبية التابعة للاتحاد السوفياتي. وبوجود قاعدة آمنة في أفغانستان، كتب رئيس «الكي.جي.بي.» سراً أنه يخشى أن تكون الولايات المتحدة قادرة على توجيه صواريخ برشنك النووية نحو القسم الجنوبيّ من الاتحاد السوفياتي، حيث قوات الدفاع الجوي ضعيفة. وقد تلجأ إيران وباكستان أيضاً إلى استعمال الأسلحة النووية بدعم من أميركا، فتشق طريقها نحو وسط

آسيا. وليمنع أندروبوف ذلك، نصح الاتحاد السوفياتي بالتصرف بحزم لإيجاد شخص يحلّ مكان أمين، وبدعم القاعدة الشيوعية الأفغانية(57).

استنتج أندروبوف ودائرة بريجينيف الداخلية في النهاية، أنّ الوسيلة الفضلى لتحقيق هذه الأهداف هي اغتيال أمين، والقيام باجتياح عسكري في أفغانستان، وتعيين قادة شيوعيين أفغان جدد، أكثر استجابة لمصالح موسكو. إلا أن مخاوف «الكي.جي.بي.» من مصداقية أمين، كانت العامل الوحيد وراء اتخاذ هذا القرار. ومن دون دعم عسكري مباشر من موسكو، عانت الحكومة الأفغانية انهياراً بسبب هجران جيشها لها. وإن أرادت القيادة السوفياتية إنقاذ الشيوعية في أفغانستان، فعليها اتخاذ قرارات حاسمة. فضلاً عن ذلك، أظهرت سجلات المكتب السياسي بوضوح، أنّ مخاوف «الكي.جي.بي.» حيال مصداقية أمين ووفائه، لعبت دوراً مهماً في هذا التحليل. وسرّعت هذه التساؤلات والشكوك في أمين، جدول اتخاذ القرارات، وشجعت دائرة المكتب السياسي الداخلية على الظن أن موسكو واجهت مؤامرات مراوغة من قبل «السي.آي.إيه.» في كابول، وساعدت على إقناع القيادة السوفياتية بأنّ الإجراءات الصارمة وحدها قد تنجح.

اجتمعت دائرة المكتب السياسي الداخلية في موسكو، واتخذت القرار المبدئي الأوّل بالغزو في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1979، أي بعد خمسة أيام فقط على قيام مجموعات طالبية بنهب السفارة الأميركية في إسطنبول، وبعد ثلاثة أسابيع على قيام طلاب إيرانيين بأخذ رهائن من السفارة الأميركية المحصنة في طهران.

بدأت الوحدات العسكرية السوفياتية السرية ووحدات «الكي.جي.بي.» تتوغل في أفغانستان في أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر استعداداً للهجوم. وفي 7 كانون الأول/ديسمبر، وصل ببراك كرمال، القيادي الشيوعي الأفغاني المنفي، الذي انتخبته «الكي.جي.بي.» ليحل مكان أمين، سرّاً إلى قاعدة بغرام الجوية على متن طائرة «تو 134» يحميها ضباط من «الكي.جي.بي.» وجنود سوفيات. بدأ مقاتلو «الكي.جي.بي.» بمحاصرة منزل أمين. أراد العملاء أولاً، تسميم أمين من طريق الدخول إلى مطبخه، إلا أنّ أمين كان قد أصيب بجنون الارتياب في تلك الفترة، فوظف عدداً كبيراً من متذوقي الطعام، بمن فيهم أفراد من عائلته. ووفقاً لسجلات «الكي.جي.بي.»، لم تنجح عملية التسميم سوى بإصابة أحد أولاد إخوة أمين بالإعياء. وفي اليوم التالي، حاول قناص إطلاق النار على أمين، لكنّه لم يصبه. فقدت «الكي.جي.بي.» عزيمتها، وقررت التخلي عن بقية الخطط للإعداد لهجوم كبير على منزل أمين فور بدء الغزو العسكري السوفياتي الواسع(58).

كانت «السي.آي.إيه.» تراقب انتشار القوات السوفياتية داخل أفغانستان وحولها منذ الصيف. وبينما كان محللوها منقسمين حيال تقييم النيات السياسية السوفياتية، كانت «السي.آي.إيه.» تقدّم تقارير بانتظام ودقة عن التحركات العسكرية السوفياتية. وفي أواسط شهر كانون الأول/ديسمبر، رصدت الاستخبارات الأميركية انتشاراً سوفياتياً مهدّداً على نطاق واسع في اتجاه الحدود

السوفياتية الأفغانية. فأرسل رئيس «السي.آي.إيه.»، تورنر، مذكرة «إنذار» سرية في 19 كانون الأول/ديسمبر إلى الرئيس كارتر ومستشاريه القدامى، لتحذيرهم من أن السوفيات «قطعوا عتبة هامة في تدخلهم العسكري المتزايد في أفغانستان»، وأنهم يقومون بإرسال قوات إضافية إلى الجنوب. وبعد ثلاثة أيام، اتصل نائب مدير «السي.آي.إيه.»، بوبي إنمان، ببريجنسكي ووزير الدفاع هارولد برلون، لإبلاغهما أن «السي.آي.إيه.» لا تملك أدنى شك في أن الاتحاد السوفياتي ينوي القيام بغزو عسكري كبير في أفغانستان، في خلال اثنتين وسبعين ساعة(59).

حطت طائرات النقل من طراز أنتونوف، التابعة للجيش السوفياتي، والمحملة بالقوات المجوقلة السوفياتية، في مطار كابول الدولي، مساء ليلة عيد الميلاد. وقامت أفواج بانتون العاملة مع «الجيش السوفياتي الأربعين»، بمد جسور عائمة عبر نهر عموداريا قرب ترميز في الساعات الأولى من صباح عيد الميلاد، وسمحت بذلك للدبابات السوفياتية الأولى باجتياز الحدود. وبينما انتشرت القوات السوفياتية العادية، بدأ أكثر من سبعمئة مقاتل من «الكي.جي.بي.» يرتدون زي الجيش الأفغاني، عملية لقتل حافظ الله أمين ومساعديه المقربين، وإنشاء قيادة جديدة للحزب الشيوعي الأفغاني. وقد قُتل عشرات ضباط «الكي.جي.بي.» قبل شقّ طريقهم داخل قصر أمين في كابول حيث أردوه بالرصاص(60).

في الساعات الأولى، بعدما أكدت شبكات من السفارة الأميركية في كابول أن الغزو السوفياتي قد بدأ، تساءل زبيغنيو بريجنسكي، المحارب الأكثر تصميماً وقساوة عند جيمي كارتر، إن كان السوفيات قد تمادوا هذه المرة. ولم يكن بريجنسكي وزملاؤه على علم بخوف «الكي.جي.بي.» من مؤامرات «السي.آي.إيه.»، وفسروا الغزو على أنه عمل يائس لدعم الشيوعيين في أفغانستان، والتقدم قدر المستطاع نحو الخليج العربي. وبينما كان بريجنسكي يحلل الخيارات الأميركية، شعر بصراع داخلي. أمل أن يُعاقَب السوفيات على غزوهم أفغانستان، وأن يهزموا وتسفك دماؤهم، كما جرى للولايات المتحدة في فيتنام. إلا أنه خشي أن يقوم السوفيات بسحق الأفغان من دون رحمة، كما سحقوا المجريين في العام 1956، والتشيكيين في العام 1968.

أبدى بريجنسكي، في مذكرة استطرادية سريّة إلى كارتر، كتبها في اليوم الذي يلي عيد الميلاد بعنوان «أفكار حول التدخل السوفياتي في أفغانستان»، قلقه من أنّ السوفيات قد لا ينزعجون من الشكوك والانتقادات الذاتية التي قيّدت في السابق التكتيكات العسكرية الأميركية في فيتنام. وقال: «لا يُفترض أن نكون متفائلين تجاه أفغانستان تحوّل إلى فيتنام سوفياتية، فالمحاربون (الأفغان) غير منظمين، وقيادتهم ضعيفة جداً. ليس لديهم ملجأ أو جيش منظّم أو حكومة مركزية، كما كانت تملك فيتنام الشمالية. كما أنّ الدعم الأجنبي محدود مقارنة بكمية الأسلحة الهائلة التي أرسلها الاتحاد السوفياتي والصين إلى الفيتناميين. وقد يعمد السوفيات إلى العمل بحزم على عكس الولايات المتحدة التي اتبعت في فيتنام سياسة «تلقيح» العدو».

ثمّ تساءل بريجنسكي: «ما العمل؟». رسمَ سياسة أفغانية جديدة لا بدّ من اتباع معظمها في السرّ، وحدد الخطط التي تمّ تطويرها منذ سنين في البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.» لمدّ الثوار الأفغان بالمعدات الطبية والمساعدات الأخرى. وكتب: «من الضروري أن تستمر المقاومة الأفغانية، وهذا يعني تزويد الثوار بالمزيد من الأموال وشحنات الأسلحة وبعض النصائح التقنية. ولتحقيق ذلك، لا بد من إعادة الثقة إلى باكستان، وتشجيعها على مساعدة الثوار. ويتطلب ذلك إعادة النظر في سياستنا مع باكستان، وتقديم المزيد من الضمانات
والمساعدات إليها واتخاذ قرار يقضي بعدم إخضاع سياستنا الأمنية تجاه باكستان لسياسة عدم انتشار الأسلحة النووية. ولا بد من تشجيع الصينيين على مساعدة الثوار أيضاً، والاتفاق مع الدول الإسلامية على إنشاء حملة دعائية وحملة عمليات سرية لمساعدة الثوار»(61).

طارد مقاتلو «الكي.جي.بي.» المتنكرون، حافظ الله أمين عبر أروقة قصر كابول، بينما وصلت الدبابات السوفياتية إلى مناطق التجمع الأولى. وقد ذكر بريجنسكي الحملة الأميركية التي تديرها «السي.آي.إيه.» في أفغانستان «التي قد تصمد حدودها الواسعة حتى عقد إضافي».

وكتب بريجنسكي في مذكرة سرية قبل أسبوع: «هدفنا الأساسي هو انسحاب القوات السوفياتية من أفغانستان. وفي حال لم يتحقق ذلك، فعلينا أن نجعل التدخل السوفياتي مكلفاً قدر الإمكان»(62).

ملأت ردود الفعل المضادة للسوفيات شوارع واشنطن، وأثارت الدعم لبدء مرحلة جديدة من التحالف الوثيق بين الولايات المتحدة وباكستان كي تستطيعا معاً، تحدي السوفيات في أرجاء خيبر باس (ممر خيبر)، كما تحدى البريطانيون القيصرية الروسية على الأرض الأفغانية نفسها قبل قرن.

إلا أنّه بالنسبة إلى الفريق الأميركي الذي بقي يعمل قرب المخيم المتفحم التابع للسفارة الأميركية في إسلام آباد، التي تبعد عن خيبر باس مسافة نصف نهار، كان الغزو السوفياتي أصبح مأسوياً جدّاً. فقد صُعِقَ الأميركيون بعنف الهيمنة السوفياتية، وغضبوا في الوقت نفسه بسبب استفادة الديكتاتور الباكستاني، ضياء الحق، من ذلك.

قضى الدبلوماسيون وعملاء «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد معظم شهر كانون الأول/ديسمبر وهم يحرقون وثائق تسويات، ويعيدون تنظيم مكاتبهم المحطمة في مقار موقتة في مجمع وكالة التنمية الدولية الأميركية قرب أراضي السفارة المحروقة. قلقت «السي.آي.إيه.» بشأن احتمال شن المشاغبين هجوماً آخر على مكاتبها، فنقلت إلى لانغلي بطاقات بيانات جمعتها على مرّ عقود، تحتوي على أسماء مصادر وعملاء وتفاصيل عنهم.

تطلّب ضمّ ضياء الحق إلى «السي.آي.إيه.»، بصفته شريكاً استراتيجياً، طاقة دبلوماسية أكثر مما يملك أي من العملاء. ورأى عدد كبير من العاملين في السفارة، أن الجنرال الباكستاني أحبطهم في عصر ذلك الأربعاء من شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وفي حين احتلت المدرعات السوفياتية أفغانستان، قدم مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد اقتراحات هزيلة لإيجاد بديل جديد عن السياسة الأميركية في باكستان: تصدير سري لمئات الآلاف من القواميس والكتب الروسية إلى إسلام آباد، لتستعملها الحكومة بعد إكمال الاحتلال السوفياتي الإقليمي. وقد يستعملون بعض هذه الكتب الروسية في اتحاد الطلبة في جامعة القائد عزام.

# 3
# أيقظ الشياطين

وقف هوارد هارت بمفرده في هواء بيشاور البارد، في ليلة يلفها الضباب، وحاول جاهداً أن يبقى في الخفاء. كان رجلاً أميركياً طويلاً يضع نظارات، ويجرّ قدميه في الطريق المظلم في مدينة حدودية قاحلة تعج باللاجئين الأفغان والمحاربين الثوار والمهربين والصرّافين والشعراء والمرشدين وبنات الهوى والمتآمرين من كلّ أقاليم البلاد. وصل هارت إلى باكستان في أيار/مايو 1981 بصفته مديراً لمركز «السي.آي.إيه.». ترأس برنامج الوكالة السريّ لتسليح المقاتلين ضد السوفيات في أفغانستان. ودبّر زميل له في الخدمات السرية البريطانية لقاءً بينه وبين قائد ثائر أفغاني شاب ومحنك وواثق بنفسه، يدعى عبد الحق. ضمّ مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد بعض العملاء الباكستانيين، لكن معرفته بما يجري في أفغانستان كانت محدودة. حدّد هارت اجتماعه الليلي مع عبد الحقّ في وقت يتزامن مع موعد تسليمه بعض الأموال إلى عميل هندي. كان يحمل حقيبة صغيرة في داخلها مئات آلاف الروبيات الهندية. وقد قطع، في وقت سابق من ذلك اليوم، مئات الأميال من إسلام آباد في طريق غراند ترانك الوعر في اتجاه الهضاب الجافة والقاحلة التي تعلو أفغانستان. وشقّ طريقه بتعرج تحت متاريس قلعة بالا حيسار، وعبر مجموعات من عربات الأحصنة في المدينة، وأكشاك الفاكهة السيّارة، وعربات النقل التي تعمل على الديزل، والدراجات والشاحنات المزينة. لم يشأ النزول في فندق في بيشاور، لأنّ جوازات سفر النزلاء تُنسَخ عادة وتسلَّم إلى الاستخبارات الباكستانية. وقف الآن مكشوفاً قرب شارع مظلم منتظراً، وهو على يقين أنّ حسّ الوقت بالنسبة إلى مقاتل أفغانيّ، قد يختلف عن مفهومه الخاص.

هدرت دراجة كبيرة صاخبة في أسفل الطريق يقودها رجل يرتدي بزّة الضغط الخاصة بطيار محارب أفغانيّ ومعطفه وخوذته. لم يكن يحقّ للجنود والطيارين السوفيات دخول الأراضي الباكستانية، لكن القوات السوفياتية الخاصة قامت في بعض المناسبات بالتوغل قليلاً وراء الحدود الأفغانية. وأكثر ما يخشاه ضباط «السي.آي.إيه.»، هو قيام الاستخبارات الشيوعية الأفغانية، أو «الكي.جي.بي.» باختطافهم. توقفت الدراجة بالقرب منه، ولوّح الرجل لهارت كي يركب في الخلف. وما أمكن هارت سوى النظر إلى الرجل، ونظرات الريبة بادية على وجهه. انتزع الرجل أخيراً خوذته، وكشف عن لحية كثيفة مثل لحية الحطاب. إنه عبد الحقّ. فقد أسقط المحاربون طائرة سوفياتية، وانتزعوا بزة الضغط عن جثة الطيار. ناسبت البزّة مقاس عبد الحق، وأبقته دافئاً في ليالي الشتاء القارسة. لم يكن يمانع في أن يبدو مثل بطل أفغاني. ركب هارت الدراجة، وانطلقا عبر الشوارع الموحلة والوعرة. قد يقول هارت في ما بعد: «لقد أمضينا ليلة جملية»، لكنه بدلاً من ذلك، قال للعميل الأفغاني الجديد: «إياك أن تفعل هذا من جديد»(63).

كانت هذه بداية علاقة طويلة وصاخبة بين عبد الحق و «السي.آي.إيه.». يذكر هارت أنّ عبد الحقّ كان شجاعاً ومستقلاً و «متأكداً من كل شيء، ومشكّكاً في كلّ شخص»، كان في السابعة والعشرين على الأرجح في ذلك الوقت، وقد اختبر كل شيء. يتحدر عبد الحقّ من عائلة بارزة في قبيلة باشتون المتجذرة قرب مدينة جلال آباد الأفغانية الشرقية، وأنشأ قوة مقاتلة بعد الغزو السوفياتي بقليل، وشنّ هجمات ضدّ القوات الشيوعية حول كابول. وعندما بدأت «السي.آي.إيه.» شحن الأسلحة، أصبح عبد الحقّ وسيطاً بين الوكالة ومصلحة الاستخبارات البريطانية والجبهة في كابول، إلا أنّه لم يكن مقاتلاً متديناً. لم يتبنَّ أياً من الخطابات المناهضة للأميركيين التي أطلقها المقاتلون الأفغان المتأثرون بالإخوان المسلمين الذين تدعمهم الاستخبارات الباكستانية. كبر عبد الحقّ ليصبح أهمّ عميل لهوارد هارت في الحرب ضد السوفيات. كانا رجلين صاخبين ومغامرين، ما أزعج بعض زملائهما. وتعلّقا بشغف صارم حدّد الأعوام الأولى من الجهاد الأفغاني.

قضى هوارد هارت السنين الأولى من حياته في معسكر اعتقال يابانيّ في الفيليبين. رحل والده إلى مانيلا في أواخر الثلاثينيات بصفته مصرفياً، واعتُقل هناك عندما بدأت اليابان الغزو مع بداية الحرب العالمية الثانية. أمضت عائلة هارت ثلاث سنين في سجن يابانيّ مع ألفي أميركيّ وأوروبيّ وأستراليّ. في بداية العام 1945، عندما انهار الجيش اليابانيّ، قرر آمر السجن البدء بعمليات الإعدام، وطلب من الرجال حفر خنادق في أرض السجن كي تتسع للقتلى. أمر، في ذلك الوقت، الجنرال دوغلاس ماك آرثر القوات الجوية بتحرير السجناء. ويذكر هارت أنّ جنديّاً أميركيّاً شاباً حمله على طول شاطئ في الفيليبين تحت إبطه الأيسر، وحمل رشيشاً في يده اليمنى، بينما ركضت والدة هارت خلفهما. تمّ وضعهما في طائرة، وانطلقوا في اتجاه البحر. كان هارت في الخامسة من عمره. عاود والده لاحقاً العمل في مجال المصارف، وانتقل أولاً إلى كالكوتا ثمّ عاد إلى مانيلا. كبر هاري مع أولاد فيليبينيين حارب آباؤهم اليابانيين في الغابات. والحرب من بين الألعاب التي لعبها في صغره، كما يلعب الأولاد الأميركيون الآخرون كرة المضرب.

درس العلوم السياسية الآسيوية، وتعلّم اللغتين الهندية والأردية في الجامعات الأميركية، وتخرج فيها مع اندلاع حرب فيتنام في العام 1965. فكر في الالتحاق بالبحرية، لكنه اختار «السي.آي.إيه.». في «المزرعة» في معسكر بيري، فيرجينيا، درس هارت في الوكالة مدة سنتين وتلقى تدريباته، كما تم استدعاء ضباط استخبارات خلّاقين لتعليم كيفية إدارة عميل مأجور، وكيفية مراقبة الأهداف، وتفادي مراقبتهم، وكيفية التعامل مع كتب الرموز، والقفز من الطائرة. وعندما تخرج هارت، انضم إلى مديرية العمليات في الاستخبارات السرية. تمّ تعيينه في كالكوتا التي شهدت على شبابه. وخدم لاحقاً في البحرين وطهران. وعندما هاجم طلاب إيرانيون السفارة الأميركية، تم تعيينه خبيراً في شؤون البلاد، وخبيراً في العمليات العسكرية في الفريق السري الذي قاد عملية الإنقاذ. انتهت المهمة، التي أُطلق عليها اسم «الصحراء واحد»، بكارثة عندما تحطم عدد من الطائرات الأميركية بسبب عاصفة رملية في منطقة صحراوية بعيدة عن طهران في 24 نيسان/أبريل 1980.

بالرغم من صغر سنّ هارت، تم اختياره تلقائياً لإدارة مركز إسلام آباد في العام 1981، بسبب شغفه بالأسلحة والتكتيكات العسكرية. أحبّ جمع السكاكين والمسدسات والبنادق وأسلحة هجومية ومدافع رشاشة والرصاص وقنابل مدفعية ومدافع البازوكا وقاذفات الهاون. وفي النهاية، جمع في منزله إحدى أكبر المجموعات الخاصة من الأسلحة الأميركية الأثرية والحديثة التابعة لـ «السي.آي.إيه.». لعب في إسلام آباد دور أمين الإمدادات والتموين للجهاديين الأفغان، وطلب إرسال أسلحة من مقر «السي.آي.إيه.» الرئيسيّ، وساعد على الإشراف على برامج تدريب سرية للجهاديين في المخيمات الباكستانية، وعمل على تقييم الأسلحة لاختيار التي تناسب الثوار.

لم تملك «السي.آي.إيه.» أي استراتيجية معقّدة لهذه الحرب. كان هارت يفهم أوامره بطريقة خاصة: «أنت شاب يافع، ها هي حقيبة المال، اذهب وأيقظ الشياطين. لا تُفسد الأمر، اخرجْ واقتل السوفيات، واعتنِ بالباكستانيين، واطلب منها القيام بما تحتاج إليه»(64).

في لانغلي، بلغ جيل جديد من ضباط الاستخبارات سنّ الرشد. كان عدد كبير منهم خبراء عسكريين من عهد فيتنام وضباط تطبيق القوانين. ينافس تأثيرهم الآن داخل «السي.آي.إيه.» تأثير ضباط «آيفي ليغ» الشمال شرقيين من عهد كنيدي، الذين سيطروا على الوكالة في الخمسينيات وبداية الستينيات. ويصف أحد لاعبي البولنغ المنتحلين لقباً، الوضع قائلاً: «حلّ لاعبو البولينغ مكان لاعبي التينيس».

في أوائل الخمسينيات، بحث عدد كبير من متخرجي «آيفي ليغ» عن الثروة في وول ستريت، وهي مهنة خدمات مدنية عالية الأجر، فرأى الأميركيون الليبراليون أن «السي.آي.إيه.» خسرت مصداقيتها. فبدلاً من متخرجي الجامعات الإعدادية، جاء رجال، مثل غاري شروين من الغرب الأوسط من طبقة متوسطة، وتطوعوا في الجيش، بينما تظاهر آخرون، في مثل سنهم، ضدّ حرب فيتنام. وقد حظي عدد كبير منهم، بمهاراته اللغوية في صفوف «السي.آي.إيه.» وليس في إجازات من جامعة السوربون. كان عدد كبير منهم جمهورياً أو مستقلاً، وترأسهم رونالد ريغن. وقد رأى بعض أعضاء هذا الفريق التابع لمديرية العمليات أنفسهم ثواراً مجدفين يشنون حرباً ثقافية وطبقية ضد نخبة «السي.آي.إيه.» القديمة. إلا أنّه عندما وصل هارت إلى إسلام آباد، ترأس جيل نخبة الضباط السريين في «السي.آي.إيه.»، عدد كبير منهم ديموقراطيون من الشمال الشرقي، وقد تقولبت وجهات نظرهم بفعل الحرب الباردة والأساليب الثقافية الخاصة بعائلة كنيدي. أشرف شارلز كوغان، المناصر للفرنسيين، على هارت في لانغلي، وقد تخرج في جامعة هارفرد ويلعب البولو، وله شاربان خفيفان، وشغوف بقراءة التاريخ مثل التلاميذ. وعندما كان رئيس مركز في باريس، قال أحد زملائه إنه «أمضى وقت فراغه يمتطي الأحصنة في غابات بولونيا مع أصدقائه الفرنسيين الأرستقراطيين». عاونه كلير جورج في إدارة مديرية العمليات. كان ابن ساعي بريد كبر في أجواء الطبقة العاملة في بنسلفانيا، لكنه تبنى أسلوب عيش مواطن ديموقراطي من الساحل الشرقي، وتمتع بطابع حماسي. وما لبث توماس تويتن أن أصبح الرئيس الأعلى للاستخبارات.

وبعدما تقاعد تويتن، أصبح بائع كتب قديمة في فرمونت. لم يكن أي من هؤلاء الرجال يلعب البولنغ بانتظام(65).

لم ينضم هارت إلى أيٍ من المعسكرين. قرأ كثيراً عن الخبرة البريطانية الاستعمارية في أفغانستان، وخصوصاً عن التعقيدات القبلية عند الباشتون، وذلك بغية تجهيز نفسه لتسلم مركز إسلام آباد. رأى نفسه ناشطاً فكرياً، لكنه كان أيضاً محافظاً سياسياً فظّاً، مولعاً بالأسلحة، ويُؤْثِر العمليات العسكرية المباشرة ضد السوفيات. لم يكن يملك وقتاً كافياً للمناورات السياسية الدقيقة التوازن والحسابات بين الأفغان. أراد فقط المضي بإطلاق النار.

عندما عاش هارت في طهران، وعمل لحساب الإيرانيين في المركز الرئيسي، ابتعد عنه بعض زملائه الذين اعتبروه متباهياً ولا يمكن الاعتماد عليه. وبسبب حدة «السي.آي.إيه.» وسريتها المَرَضية، وضعت في بعض الأحيان سياسات مكتبية صارمة، ونوعاً من المنافسة
الشديدة التي نمت بين الزملاء والإخوة. كان أحد خصوم هارت بوب ليسارد الذي كان نائب رئيس المركز أثناء نهب السفارة في إسلام آباد في العام 1979. عاود ليسارد إعطاء الدروس في مخيم بيري، مقتنعاً بأن أمر مهنته قد انتهى، ليس بسبب عدم اتفاقه مع هارت، بل بسبب مشاكله السابقة مع العميل المزدوج في كابول. لم يفهم سوى عدد قليل في قسم الشرق الأدنى، كم أصبح ليسارد مكتئباً. وفي صباح عيد الميلاد العام 1980، انتحر في مركز «السي.آي.إيه.» في المزرعة مطلقاً النار على نفسه(66).

وصل هارت في أيار/مايو 1981 إلى سفارة في إسلام آباد تخضع للترميم. كان مركز «السي.آي.إيه.» محشوراً في مبنى المساعدات الأميركية القديم. كان المركز صغيراً جداً، وضم رئيساً ونائب رئيس وثلاثة أو أربعة ضباط. خشي هارت وقوع اعتداء باكستاني آخر، وأعلن أنه يريد «محطة من دون أوراق ووثائق». سيتم حرق الوثائق السرية المطبوعة على الفور إن أمكن ذلك. ولحفظ عدد قليل من السجلات، علّم هارت فريقه طريقة كتابة سرية: عليهم وضع ورقة شمع عادية فوق ملاءاتهم البيضاء، وكتابة الوثيقة. ولقراءتها لاحقاً، على الضباط رش بودرة القرفة ونفخها، فتلتصق القرفة بالشمع ويظهر النص. وقال لهم هارت محرجاً: «هذا أفضل ما يستطيع المركز الرئيسي توفيره لي».

شددت تعليمات هارت على الحرب الأفغانية السرية، والتجسس المباشر على برنامج باكستان النووي. وأعلن أن مركز إسلام آباد لن يجمع معطيات عن سياسات باكستان الداخلية. فعلى دبلوماسيي وزارة الخارجية الاهتمام بهذه المسألة.

قرأ هارت بعض مذكرات عشرات العملاء السياسيين المستعمرين البريطانيين في القرن التاسع عشر، واعتبر أن الأفغان مثلهم لطفاء، ومولعون بالقتال، وشبه متحضرين، وصعاب المراس. قال لزملائه إن كلّ رجلين أفغانيين قد يشكلان حزباً. وعندما تحدث هارت عن الأفغان، قال: «كل

رجل سيصبح ملكاً». لا يمكن أن تمنع المهارة الأميركية هذا الميل السياسي. سعى هارت إلى تشجيع المجاهدين على محاربة السوفيات بمجموعات صغيرة غير منتظمة من خمسين أو مئة رجل. لم يرد أن يخطط لتكتيكات الثوار أو العمليات الميدانية. وقال لاحقاً: «إحدى الطرائق المناسبة لمعالجة الحرب، هي عدم الاكتراث للتفاصيل الصغيرة».

رأى هارت أن عدد المحاربين الجهاديين الذين يحاربون في الميدان في الوقت نفسه، قد يراوح بين عشرين ألفاً وأربعين ألفاً من المقاتلين في الوقت نفسه. ومئات الآلاف يقومون بزيارة عائلات في مخيمات اللاجئين الباكستانيين، أو يقومون بأعمال زراعية أو عمليات تهريب، أو ينتظرون تحسّن الطقس. لم ينزعج هارت من سلوك الجهاديين الفوضوي وغير المتفرغ. اعتمدت استراتيجيته على توفير مئات آلاف البنادق وعشرات ملايين الرصاصات للمحاربين، ثم الجلوس في إسلام آباد ومشاهدة ما يجري. كان موقناً أن ثمّة دوافع عديدة تحث الأفغان على محاربة السوفيات. وكان يدرك أنهم سيستعملون الأسلحة بفعالية ضدّ السوفيات والشيوعيين الأفغان على طريقتهم الخاصة، ووفقاً لجدولهم الخاص(67).

لم يصدق صانعو السياسات في واشنطن أنّ الثوار قادرون على هزم السوفيات عسكرياً. وتم تشريع مهمة «السي.آي.إيه.» في قانون رئاسي سري معدّل، وقّعه الرئيس كارتر في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر العام 1979. وسمح القانون لـ «السي.آي.إيه.» بشحن الأسلحة سراً للجهاديين. استعمل المستند كلمة التحرش لوصف أهداف «السي.آي.إيه.» ضدّ القوات السوفياتية. ورفعت عمليات «السي.آي.إيه.» السرية نفقات التدخّل السوفياتي في أفغانستان. وقد تمنع السوفيات من القيام بعمليات غزو أخرى في العالم الثالث. لكن، لم يكن من المتوقع أن تفوز «السي.آي.إيه.» في هذه الحرب في ميدان المعركة. وأوضحت القوانين أن «السي.آي.إيه.» ستعمل من خلال الباكستان وتذعن للأولويات الباكستانية. لن يكون برنامج «السي.آي.إيه.» الأفغانيّ «أحادي الجانب»، كما أسمت الوكالة عمليات قامت بها سرّاً، وبمفردها. وبدلاً من ذلك، تعزز «السي.آي.إيه.» «العلاقة» بالمخابرات الباكستانية(68).

تتضمّن الأسلحة الأولى التي تم شحنها حتى الخمسينيات، بنادق لي إنفيلد الأحادية الطلقة، والصاعق من عيار 303، وهو سلاح بريطاني نموذجي خاص بالتوغل، استعمل حتى الخمسينيات. لم يكن سلاحاً مناسباً كثيراً بسبب زنده الخشبي الثقيل وتصميمه القديم، لكنه كان دقيقاً وقوياً. اعتبر هارت أنّ هذا السلاح يتفوق على البندقية الهجومية المبهرجة المصقولة «إي كي 47»، التي صنعها الشيوعيون، فهذه الأخيرة أقل فتكاً، كما أنّها تُصدر أزيزاً عالياً، ويصعب التصويب بها. اشترى موظفو «السي.آي.إيه.» اللوجيستيون سرّاً من لانغلي مئات آلاف البنادق من عيار 303 من اليونان والهند وأماكن أخرى، وقاموا بشحنها إلى كاراتشي. كما اشتروا آلاف أجهزة إطلاق القاذفات والصواريخ من مصر والصين. كانت «الأر.بي.جي»، هذه التسمية التي أُطلقت عليها، رخيصة وسهلة الحمل، وتستطيع عطب دبابة سوفياتية(69).

وبينما وصلت تقديرات الأضرار في الميدان من مركز «السي.آي.إيه.» في كابول، ومن مصادر أفغانية مثل عبد الحق، بدأ هارت يفكّر في أنّ إمكانات الجهاديين أكبر مما توقّع بعض البيروقراطيين في لانغلي. كان رد الفعل الأفغاني الشعبي الأساسي حيال غزو القوات السوفياتية، قوياً ووجدانياً. وقد تجمع في ليالي كابول، عشرات الآلاف على سطوح منازلهم ليهتفوا «الله أكبر» بتحد غريب وموحد. قتلت الدبابات والقوات السوفياتية مئات المدنيين الأفغان لقمع التظاهرات في الشارع. وبمرور الأشهر، انضمّ المفكرون الأفغان والخدام المدنيون والرياضيون إلى المجاهدين. وفي أواخر العام 1981، تنقل الثوار بحرية في محافظات أفغانستان التسع والعشرين. غالباً ما كانوا يعدون مكايد للمواكب السوفياتية، ويشنون غارات على المدن والبلدات، بينما يتصاعد نمط هجوماتهم(70).

استنتج هارت بعد وصوله بأشهر، أنّه يجب توسيع نطاق الحرب. وفي خريف العام 1981، حضر مؤتمراً إقليمياً لرؤساء مراكز «السي.آي.إيه.» في بانكوك، وكتب على ورقة صغيرة وضعها في جيبه الخلفي لائحة جديدة بالأسلحة التي ستساعد الجهاديين. تضمنت الأسئلة التي تمت مناقشتها في بانكوك: «ماذا سيجيز الباكستانيون؟ ماذا سيجيز السوفيات قبل الهجوم على باكستان؟». خشي ضباط لانغلي أن تتطور الأمور كثيراً، وبسرعة.

بالعودة إلى إسلام آباد، جلس هارت في منزله في الليل، ورسم خطوطاً طويلة إلى لانغلي على أوراق صفراء قانونية، واصفاً موكب دبابات سوفياتية مدمرة هنا، أو مروحية محطمة هناك. وكتب هارت أنّ المقاتلين الأفغان تمكنوا، بمساعدة «السي.آي.إيه.»، من إلحاق الأضرار بعربات سوفياتية مدججة بالأسلحة، مستخدمين أسلحة قديمة وتكتيكات قتالية غير ثابتة. وفي كانون الثاني/ يناير 1982، اتصل هارت بالمركز الرئيسي لطلب المزيد من أسلحة أكثر تطوراً(71).

اعتبر هارت وبعض ضباط آخرين متورطين، أنه لو تعقّدت الحرب نسبياً لما استطاعت «السي.آي.إيه.» إدارتها بمفردها. لكن الولايات المتحدة لم تكن تملك إمبراطورية ضخمة كالإمبراطورية التي امتلكتها بريطانيا منذ قرن. وفي حال أرادت «السي.آي.إيه.» ضخ المزيد من الأسلحة الأكثر تطوراً إلى أفغانستان، فعليها التفاوض في مسألة الوصول إلى الحدود الأفغانية عن طريق ولاية باكستان المستقلة. وعندما بدأ الجهاد يحشد قواه في العام 1982، وجد هارت نفسه مُجبَراً أكثر فأكثر على أخذ مطالب باكستان في الاعتبار، ما يعني الرضوخ لأهداف الديكتاتور الباكستاني، الجنرال ضياء الحقّ، والتأقلم مع مخابراته الأساسية، جهاز المخابرات الباكستانية، أو «الآي.أس.آي.».

بعد حرب فيتنام وفضائح واشنطن اللاسعة التي حدثت في السبعينيات، خشي عدد كبير من ضباط الاستخبارات الإرباكات السياسية المحلية التي قد تحدث، خصوصاً في العمليات السرية العنيفة. وتوعد عدد كبير منهم بعد حرب فيتنام، بأنه لن تتم أي رحلات استكشافية خيالية تقودها

«السي.آي.إيه.» من أجل العالم الثالث. قالوا إن «السي.آي.إيه.» في أفغانستان التزمت سلطتها القانونية: البغال والأموال ومدافع الهاون(72).

بالنسبة إلى العديدين في «السي.آي.إيه.»، تمّ تخصيص الجهاد الأفغانيّ لقتل السوفيات أولاً وآخراً. وقد اقترح هارت أن يضع الباكستانيون جوائز مقابل القبض على الجنود السوفيات: عشرة آلاف روبية مقابل كل جندي في القوات الخاصة، وخمسة آلاف مقابل المجنّد، ويضاعف المبلغ في الحالتين، إن تم إحضار السجناء على قيد الحياة(73).

أتى ذلك انتقاماً بسبب المساعدة التي قدمها السوفيات إلى الفيتناميين الشماليين في فياتكونغ. وبالنسبة إلى عدد كبير من ضباط «السي.آي.إيه.» الذين خدموا أثناء تلك الحرب، كانت المسألة شخصية. وآثر هوارد هارت جملة: «ليتسلّح الجميع». لم يرد قادة مديرية العمليات في لانغلي تنظيف أحزاب أفغانية سياسية منفية داخل الأراضي الباكستانية. ولم يرغبوا في تشكيل حكومة أفغانية موقتة ضد الشيوعية، والمساعدة على اختيار الرابحين والخاسرين من بين قادة مقاتلي الجهاد، عدا الجدال الباكستاني بشأن السياسات الأفغانية لدرجة حتّمت ذلك.

اعتقد هارت أنّ هذه المقاربة غير المباشرة بدأت تأخذ مسارها. لكن مع تزايد مقاومة الجهاديين وتصلبها، ساعد عدم اكتراث الوكالة لمن يقود الثوار الأفغان، ولمن لديه أكبر كمية أسلحة، وأكبر مبلغ مالي وأكبر قوة، على أن يصبح جدول أعمال ضياء الحق السياسي والديني في أفغانستان، جدول أعمال «السي.آي.إيه.» نفسها أيضاً.

كان محمد ضياء الحق قائداً شاباً في وحدة البنجاب التابعة للجيش البريطاني الاستعماري عندما غادرت أخيراً حكومة لندن المنهكة الهند في العام 1947. وُلد وترعرع في الجهة الهندية من الحدود الجديدة مع باكستان، وما لبث أن حدّد هذا الخط الحدودي بدم أهرق جراء أعمال الشغب الدينية الهندية والإسلامية. كان والده موظفاً مدنياً مولعاً بالثقافة الإنكليزية، وأستاذاً إسلامياً متديناً. وتتحدّث عائلته بلكنة بريطانية، وتستعمل
تعابير إنكليزية كأنها تتردد في منزل ريفي في ويلتشاير.

حفر العنف الديني عند نشوء باكستان ذاكرة ضياء الحق كما فعل عند ملايين المسلمين في إقليم البنجاب. وعندما واكب قافلة من اللاجئين أثناء رحلتها التي امتدت طوال أسبوع من شمال الهند إلى باكستان في العام 1947، شهد على وجود مساحات رهيبة من الأراضي، ملأى بالجثث المشوّهة. «مشينا طوال الوقت تحت النيران. احترق البلد حتى وصلنا إلى لاهور. أصبحت الحياة رخيصة جدّاً بين الهنود والمسلمين». وقال لاحقاً إنّه ما إن وصل إلى باكستان، حتى «لاحظت أننا كنا نسبح في الدماء، لكننا أقله كنا مواطنين أحراراً»(74).

أصبح ضباط الجيش المسلمون في البنجاب المتدربون على أيدي البريطانيين مثل ضياء الحق، إحدى أقوى المجموعات الحاكمة في الأمة الجديدة. وقد اكتسبوا بعد ثلاث حروب مع الهند، لقب الحرس الأعلى في باكستان. وحّدتهم الخبرة في ميدان القتال ضمن أخوية منظمة. لقد حوّلت الحكومات المدنية الفاشلة ومجموعة الانقلابات التي قادها الجيش، هؤلاء الجنرالات الشبان إلى سياسيين.

تمّ إنشاء الأمة باسم الإسلام، إلا أنّها افتقرت إلى الثقة بهويتها. انتمى محمد علي جناح، مؤسس دولة باكستان، إلى حركة مفكرين مسلمين مدنيين غير متدينين، رأوا أن الإسلام مصدر ثقافة، لكن ليس قاعدة أساسية في النظام السياسي. حاول جناح بناء دستور ديموقراطي غير ديني في باكستان، مصبوغ بقيم الإسلام. لكنّه لقي حتفه، بينما كانت الأمة في طور نشوئها، وفشل خليفته في تخطي العقبات في باكستان: أراض منقسمة؛ طبقة وسطى ضعيفة؛ تقاليد إثنية عديدة؛ حدود غربية عاصفة مواجِهة لأفغانستان؛ وهند عدائية؛ وفجوات واسعة في الثروات.

عندما تسلم ضياء الحق القيادة، اعتنق إيماناً دينياً شخصياً أكثر من رفاقه في الجيش. واعتقد أيضاً أنّه يجب على الباكستانيين اعتماد الإسلام السياسي مبدأً منظماً لسياسة البلاد. قال ضياء الحق: «خُلقنا على أساس الإسلام». كان يشبّه بلده بإسرائيل، حيث «ديانتها وأيديولوجيتها المصدر الأساسي لقوتها»، ويعتقد أنّه من دون الإسلام «ستسقط باكستان»(75).

بعد العام 1977، حكم كديكتاتور، وتنازل عن بعض امتيازاته السياسية من أجل آخرين. لكنه لم يزيّن نفسه بزخرفات من السلطة. كان رجلاً لطيفاً في الجلسات الخاصة، صبوراً تجاه ولده المعوق، ومجاملاً لزواره وضيوفه. يصفف شعره نحو الأسفل مستخدماً مساحيق لتثبيت الشعر، تماماً كما كان يفعل الممثلون في أفلام تعود إلى حقبة سابقة. وكان شارباه مهندمين ومشمّعين. استخف الآخرون بسهولة بسلوكه. وقام ذو الفقار علي بوتو بترقيته إلى مرتبة قائد برتبة فريق في الجيش لاعتقاده أنّ ضياء الحق سيكون مطيعاً. لكن، لم يطح ضياء الحق بوتو فحسب، بل أعدمه شنقاً أيضاً.

لم يُعتبر ضياء الحق راديكالياً نظراً إلى الاضطرابات التي حدثت العام 1979. أعلن باكستان أمة إسلامية، لكنّه لم يحسم الأمور كما فعل الخميني في إيران. لم ينشئ أي شرطة دينية باكستانية على غرار النموذج السعودي العربي. لم يُحضر رجال دين إسلاميين باكستانيين إلى الحكم. وثق ضياء الحق بالقيم والتقاليد والمهمة الجغرافية - السياسية التي اعتنقها الجيش في العهد الاستعماري، وهي توجّه بريطاني بحت. وقال عنه أحد ضباط المخابرات الباكستانية: «مسلم متفان، أجل، لكنّه سياسي إلى درجة لا تسمح له بالتمتع بحماسة الأصولي»: «من دون ضياء الحق، لما كان الجهاد ناجحاً، لكن وراء الصورة العلنية يأتي دائماً السياسي الحذر الذي يضع مركزه الخاص أولاً». كما سعى ضياء الحق إلى الحفاظ على باكستان. وبدا، في بعض الأوقات، مستعداً لإقامة تسوية مع السوفيات حول أفغانستان من خلال المفاوضات(76).

شجّع ضياء الحق التقوى الدينية الشخصية بين الضباط في الجيش الباكستاني، فكان ذلك اختلافاً أساسياً عن نهج الماضي. شجّع على بناء مئات المدارس الدينية على طول الحدود الأفغانية، وموّلها لتعليم الأفغان الصغار والباكستانيين وفقاً للشريعة الإسلامية، وتهيئة بعضهم للجهاد ضد الشيوعية. وقد شكلت هذه المدارس الحدودية سياجاً عقائديّاً أيديولوجياً بين أفغانستان الشيوعية وباكستان. اعتنق ضياء الحق الجهاد استراتيجية تدريجاً. ورأى فيالق المحاربين الإسلاميين تتجمع على الحدود الأفغانية في بداية الثمانينيات، كأنّها سلاح تكتيكي سري: قبلوا مجد الشهادة. يستطيع إيمانهم أن يفوق القوة اللاهبة عند المحتلين السوفيات، الملحدين، الذين لا يؤمنون بالله. وأكّد ضياء الحق للرئيس ريغان في جلسة انفرادية: «سيحارب الشبان الأفغان الغزو السوفياتي بأيد فارغة إن استلزم الأمر»(77).

خشي الزعيم الباكستاني المتدين أن يمزق الشيوعيون في كابول ناشطي الاستقلال في الباشتون على طول الحدود الأفغانية - الباكستانية المتنازع عليها. ويضمّ الباشتون المجموعات الإثنية المهيمنة في أفغانستان، إلا أن عددهم أقل من عدد الباشتون الذين يعيشون في باكستان. وقد تقوم حملة انفصالية ناجحة على غرار تقسيم باكستان نهائياً. وبعد مرور سنة على الغزو السوفياتي، انتقل حوالى مليون لاجئ أفغاني إلى باكستان مهدّدين بإحداث اضطرابات اجتماعية. بدأت المخابرات السوفياتية والأفغانية إدارة عمليات إرهابية في الأراضي الباكستانية وصلت إلى مقاطعة السند. والسند هي حصن لعائلة بوتو ومهد المعارضة ضد ضياء الحق. استقر العملاء الأفغان التابعون لـ «الكي.جي.بي.» في كاراتشي وإسلام آباد وبيشاور وكيتا. واتصلوا بمرتضى أحد أولاد بوتو الذي تمّ شنقه، وساعدوه على خطف طائرات تابعة للخطوط الجوية الباكستانية(78). شكّك ضياء الحق في أن تكون المخابرات الهندية متورطة أيضاً. وفي حال تسلم الشيوعيون المدعومون من قبل السوفيات الحكم بأكمله في أفغانستان، ستصبح باكستان عالقة بين نظامين عدائيين، الإمبراطورية السوفياتية من الغرب والشمال، والهند من الشرق. ولتفادي ذلك، شعر ضياء الحق بأنه بحاجة إلى نقل الجهاد الأفغاني عبر خيبر باس (ممر خيبر) لإشغال السوفيات بحرب لا هوادة فيها. وقد تساعد مثل هذه الحرب التي تخاض وفقاً لمبادئ إسلامية، ضياء الحق على تعزيز قاعدة سياسية واسعة في بلده، واستقطاب الأنظار باتجاه قوميّة الباشتون.

عرف ضياء الحق أنه سيحتاج إلى المساعدة الأميركية، وطلب من واشنطن كلّ ما يستطيع طلبه. رفض عرض كارتر الأساسي الذي بلغ 400 مليون دولار من المساعدات، متجاهلاً إياها كما يتجاهل «الفستق»، وتم التعويض عليه بمبلغ 3,2 مليار دولار من إدارة ريغان، بالإضافة إلى السماح له بشراء طائرات «أف 16» المحاربة المتاحة لحلفاء شمال الأطلسي («الناتو») واليابان فحسب(79). إلا أنه عندما ملأ ضياء الحق عربة الشحن، حافظ على برودة أعصابه وعلى تعمّده الظهور على الحياد ما استطاع. كذب بوقاحة بشأن الجهود الباكستانية السرية لتطوير أسلحة نووية في اجتماعاته السرية مع الرئيس ريغان ونائب الرئيس جورج بوش ووزير الخارجية جورج شولتز وآخرين. تسلّم ريغان مركزه منتقداً كارتر لإبعاده حلفاء أميركا من خلال الضرب على وتر حقوق الإنسان. وأكّد الرئيس الجديد لضياء الحق أن واشنطن ستكون من الآن صديقة أوفى. وكتب

شولتز في مذكرة سرية عندما استعد الجنرال الباكستاني لزيارة واشنطن في أواخر العام 1982: «نظراً إلى الالتباسات والحساسية التي تحيط ببعض أوجه علاقتنا»، على الرئيس ريغن «أن يحاول إقناع ضياء بمصالحه الخاصة المتعلقة بهذه المسائل، وحساسيته حيال تطلعاته». وأضاف شولتز: «لا بد من أن نتذكّر أنه من دون دعم ضياء، لانتهى أمر المقاومة الأفغانية، وهي المفتاح الذي سيجبر السوفيات على دفع ثمن باهظ مقابل مغامرتهم في أفغانستان»(80).

سعى ضياء الحق ليسيطر سياسيّاً على أسلحة «السي.آي.إيه.» وأموالها، وتمكّن من الحصول على ذلك. أصرّ على أن يمر كلّ سلاح أو دولار مخصص للمقاتلين الأفغان، عبر أيدي الباكستانيين. فهو من يقرر أي مجموعة مقاتلة ستستفيد منها. لم يرد أن تنظم لانغلي عملياتها الأفغانية الخاصة والضخمة على الأراضي الباكستانية. أراد ضياء أن يدير عملياته الخاصة الشجاعة داخل أفغانستان. فناسب ذلك الأمر كثيراً ضباط لانغلي المتأذين من ذكريات فيتنام(81).

في السنين الأربع الأولى من الجهاد الأفغاني، أبقت «السي.آي.إيه.» على القليل من عملياتها المنفردة وعلاقاتها بأفغانستان. ولهذا السبب، تم إدخال هارت سراً إلى بيشاور من أجل لقائه الأوّل مع عبد الحق. وكانت هذه المقابلات المباشرة بين ضباط «السي.آي.إيه.» والثوار الأفغان، محظورة من قبل مخابرات ضياء الحق. عقدت «السي.آي.إيه.» الاجتماعات بكل الأحوال، لكنها حدَّت منها. وهدفت العمليات الأساسية والأحادية الجانب التي أعدّتها الوكالة في بداية الحرب، إلى سرقة أسلحة سوفياتية متطورة من أرض المعركة الأفغانية، وشحنها إلى الولايات المتحدة لإجراء الاختبارات عليها.

وكي ينجح ضياء الحق في علاقته المعقدة بـ «السي.آي.إيه.»، اعتمد على رئيس جهاز الاستخبارات لديه، واللواء الذي يثق به إلى أقصى حد. كان لضياء الحق داخل المؤسسة العسكرية والاستخبارية، عين يقظة على كل شيء: جنرال أرستقراطي ذو عينين رماديتين، يُدعى أخطار عبد الرحمن، المدير العام في المخابرات الباكستانية، منحه ضياء الحق كل ثقته ونفوذاً هائلاً. أعلم ضياء الحق الجنرال أخطار بأن عمله الجديد يقضي بالتعامل مع «السي.آي.إيه.» وإبقاء عناصرها على مسافة من الأمر، قدر الإمكان. شعر بأنه بحاجة إلى الوقت من بين أمور أخرى. لم يرد أن يخاطر كثيراً في الرهان على أراضي المعارك الأفغانية، فقد تزيد هذه المخاطر من الإرهاب الذي يدعمه السوفيات في باكستان، أو تؤدي إلى هجوم عسكري مباشر. قال ضياء الحق لأخطار مرة تلو الأخرى: «لا بد من أن تغلي المياه في باكستان على الحرارة المناسبة». لم يرد ضياء الحق أن يتفاقم الوضع الأفغاني أكثر من اللازم(82).

قطع هوارد هارت كلّ شهر مسافة عشرات الأميال من إسلام آباد إلى راولبندي ليتناول الغداء مع الجنرال أخطار في المركز الرئيسي للمخابرات الأفغانية للاطلاع على أخبار الجهاد الأفغاني. كانا يتحدثان في مكتب أخطار، أو في غرفة طعام صغيرة، بوجود خُدّام يرتدون زياً رسميّاً، بينما في

الخارج، يشذّب البستانيّون الشجيرات. قواعد الجيش الباكستاني هي الأنظف في البلاد، فحيطانها مطلية على الدوام. هي بمنزلة مأوى بارز من العشب الأخضر والجدران البيضاء.

تعاونت «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» سراً على مرّ العقود. إلا أنّ الشكوك المتبادلة بقيت. وضع أخطار قواعد ليضمن أن «الآي.أس.آي.» تسيطر على علاقاتها بالثوار الأفغان. لا يسمح لأي أميركي، سواء أكان في «السي.آي.إيه.» أم لا، بأن يقطع الحدود إلى داخل أفغانستان. تولى ضباط «الآي.أس.آي» حصرياً مسألة نقل الأسلحة إلى داخل باكستان، وتوزيعها على القادة الأفغان. وقامت «الآي.أس.آي.» وحدها بتدريب الجهاديين في مخيمات على طول الحدود الأفغانية. لم يُسمح لأي ضابط في «السي.آي.إيه.» بتدريب الأفغان مباشرة، حتى عند استعمال أنظمة حربية جديدة ومعقدة. فقد سمحت «الآي.أس.آي.» لـ «السي.آي.إيه.» بتدريب مدربيها الباكستانيين فحسب.

منع الجنرال أخطار الاتصالات الاجتماعية بين ضباط «الآي.أس.آي.» وضباط «السي.آي.إيه.». لم يكن يسمح لرجاله بالمشاركة في الوظائف الدبلوماسية. أجرى ضباط «الآي.أس.آي.» تفتيشاً روتينيّاً في منازلهم ومكاتبهم بحثاً عن أدوات تنصّت، وكانوا يتحدثون بلغة الرموز عبر الهواتف. كان رمز هوارد هارت هو «هـ 2»، وقد يطلقون على بعض الأسلحة التي يتم نقلها «أسماء» مثل «تفاح» و «برتقال». لم تعد «السي.آي.إيه.» تثق بأحد. وعندما زار أخطار ومساعدوه منشآت التدريب التابعة لـ «السي.آي.إيه.» في الولايات المتحدة، أجبرهم الأميركيون على عصب أعينهم أثناء الرحلة الداخلية إلى القاعدة(83).

بقي أخطار شخصياً بمنأى عن الأنظار. فنادراً ما تنقّل داخل إسلام آباد. ولم يلتق هارت سوى في مكاتب «الآي.أس.آي.».

الجنرال أخطار ابن طبيب من الباشتون من منطقة بيشاور التي تقع على الحدود الأفغانية (الباشتون هو الاسم الذي يستعمله الباكستانييون للدلالة على أفراد قبائل الباشتون الأفغانية المنتشرة على طول الحدود الأفغانية الباكستانية). انضم أخطار إلى الجيش البريطاني الاستعماري قبل الاستقلال كما فعل ضياء الحق. ترقيا معاً من رتبة إلى أخرى، ووثق ضياء به كثيراً. عندما كان أخطار ضابطاً شاباً في فوج المدفعية، كان بطلاً في الملاكمة والمصارعة. وقد رُقّي على مر السنين ليصبح جنرالاً، متعجرفاً وصعب المراس، ومفتوناً بنفسه. عمل داخل الجيش الباكستاني كأوفى زميل لضياء الحق. ويذكر هارت: «إن قال ضياء: «ستمطر السماء ضفادع الليلة»، يُخرج أخطار شبكة الضفادع». عيّنه ضياء رئيساً لـ «الآي.أس.آي» في حزيران/يونيو 1979، وبقي أخطار في هذه الوظيفة مدة ثماني سنين، كانت ذات تأثير كبير.

يقول زميل له في «الآي.أس.آي»، محمد يوسف: «كان ممتلئ الجسم وقويّاً، زيّه نظيف وعليه ثلاثة صفوف من أشرطة الأوسمة»، «بشرته شاحبة يعزوها بفخر إلى تاريخه الأفغاني، كما أن

عمره باد عليه. يكره أن يتم تصويره. ما من شخص مقرّب منه أو شخص يثق به. كان جنرالاً قوياً وبارداً وقاسياً وواثقاً بتمييزه الصحّ من الخطأ... في الواقع، كرهه عدد كبير من معاونيه»(84).

وجد هارت أنّ أخطار عنيد ولا يتمتع بأي خيال، لكنّه أُعجب به. «كان يعتبر أخطار نفسه مزيجاً بين جنكيز خان وإسكندر العظيم». اعتمد نجاح هارت كرئيس لمركز «السي.آي.إيه.» على قدرته على العمل بفعالية مع رئيس «الآي.أس.آي.». في لغة الجواسيس، سعى هارت إلى توظيف أخطار، ليس بطريقة رسمية كما يوظف عادة عميلاً ويدفع له أجراً، بل بطريقة غير رسمية كصديق وحليف محترف.

وبمرور الأشهر، طلب هارت من الكولونيل الذي يدوّن الملاحظات أثناء لقاءات أخطار السرية، أن يتركهما بمفردهما من أجل ما يسميه هارت «الجلسة التنفيذية». أصبح اللقاء شيئاً فشيئاً غير رسمي. أما المسائل التي يناقشانها، فلم تتغيّر قط: ما هو عدد أسلحة «السي.آي.إيه.» الذي ستسمح موسكو للثوار الأفغان بالحصول عليه؟ وما هو العدد الذي سيسمح به ضياء الحق؟

بدأت خزينة «الآي.أس.آي.» بالتضخم بفضل المساعدات المالية التي قدمتها «السي.آي.إيه.» والسعودية. كان مركز «الآي.أس.آي.» يقع في مجمع غير مشهور في راولبندي، وتقوم بحشد القوى في أنحاء باكستان. وطبقت المخابرات نظام ضياء الحق العسكري القاسي من بين أمور أخرى. تضمنت مهامها الأمن الوطني وعمليات القتال السرية والتجسس على الهند. وعملت «الآي.أس.آي.» كشعبة في الجيش الباكستاني. ضمّت
ضباطاً من الجيش وعناصر متطوعين. لكن بما أن جواسيس «الآي.أس.آي.» يحترسون من المشاغبين والثوار المحتملين داخل الجيش، فقد نظر عدد كبير من الضباط المنتظمين إلى الوكالة بازدراء. وقللت شخصية أخطار المتنمرة أكثر فأكثر من شعبيته داخل المؤسسة العسكرية.

أشرف مكتب «الآي.أس.آي.» في أفغانستان الذي يديره عدد من الضباط برتبة بريغادير، يومياً على المساعدات التي تقدمها باكستان إلى الجهاديين. وظّف المكتب، في العام 1983، حوالى ستين ضابطاً وثلاثمئة ضابط صفّ ومتطوّع. وغالباً ما عيّن ضباطاً برتبة رائد وكولونيل من الباشتون يتحدثون لغة الباشتون الأفغانية الشرقية والجنوبية. وينتمي هؤلاء الضباط إلى القبائل المنتشرة على الحدود، ويعملون بثياب مدنية على طول الحدود وداخل الأراضي الأفغانية، من دون أن يتم كشفهم. وقد عمل بعض الضباط، وخصوصاً ضباط الباشتون، عقوداً طويلة داخل مكتب «الآي.أس.آي.» في أفغانستان، من دون أن يتمّ نقلهم إلى وحدات عسكرية أخرى. أصبح المكتب في ذلك الوقت، مؤسسة سرية دائمة(85).

غالباً ما تبادل هارت وأخطار معلومات مخابراتية في جلساتهما. قدم هارت بعضاً من مكالمات الجيش السوفياتي التي تنصّتت عليها «السي.آي.إيه.»، وتقارير حول الأضرار في ساحة المعركة

في أفغانستان تلقتها الأقمار الاصطناعية. أمّا أخطار الذي يملك مصادر ممتازة داخل الحكومة الهندية، فيغيظ هارت عندما يخبره كيف أنّ الهنود يعبّرون سراً عن اشمئزازهم من أميركا، ويقول له، وهو يقرأ ملفاً رثاً: «لا بدّ من أن تسمع ما يقولونه عنكم».

تضمّن قسم كبير من عمل هارت والجنرال أخطار تفاصيل عن عمليات الشحن والتمويل. خصّص الكونغرس، في تشرين الأول/أكتوبر عند نهاية كل سنة مالية، ميزانيات سنوية لبرنامج «السي.آي.إيه.» الخاص بأفغانستان تحت إشراف الحكومة الأميركية. ازدادت المبالغ المتوافق عليها أثناء جولة هارت في إسلام آباد، وارتفعت من ثلاثين مليوناً في سنة 1981 المالية إلى حوالى 200 مليون دولار أميركي في سنة 1984 المالية. وقد تفاوض الرئيس ريغان والعائلة المالكة السعودية في توقيع اتفاقية لتعزيز التحالف بين واشنطن والرياض ضدّ الشيوعية، والعمل على تدفق النفط. ويجب على السعودية بموجب هذه الاتفاقية، أن تضاعف فعلياً هذه الأرقام من خلال موافقتها على مطابقة المساعدات المالية التي تقدمها «السي.آي.إيه.» مع مساعداتها المالية هي (وبرغم ذلك كان برنامج المساعدات التي قدمتها «السي.آي.إيه.» إلى الأفغان محدوداً مقارنة بمساعدات الاتحاد السوفياتي للشيوعيين في كابول التي تعدى مجموعها المليار دولار في العام 1980 وحده، واستمر في الارتفاع(86)). وكان هارت وأخطار يتشاوران عند اقتراب كلّ سنة مالية جديدة، ويدونان لوائح بالأسلحة التي يحتاج إليها الثوار الأفغان، بينما يرسل هارت اللائحة إلى لانغلي.

وغالباً ما أحبطت صفقات التمويل الغامضة والسرية، التي أبرمت داخل الكونغرس عند انتهاء السنة المالية، خططهما الحذرة، فتتمّ الموافقة فجأة على إدخال كمية هائلة من الأسلحة إلى باكستان، ما يفرض على «الآي.أس.آي.» وجود إمكانات تخزين ونقل ضخمة، ويوجب على ضباط الاستخبارات الأميركيين العاملين في مركز هارت ونظرائهم في «الآي.أس.آي.» الباكستانيين نقل الأسلحة عبر الحدود.

بدأت أسلحة جديدة أكثر فتكاً بالتدفق إلى الداخل، منها مئات آلاف بنادق لي إنفيلد عيار 303 والإي. كاي 47 الصينية الصنع، بالرغم من تحفظ هارت عن البنادق. اشتروا كميات كبيرة من صواريخ الأر.بي.جي، وقاذفات الهاون الصينية عيار 60 مم وأسلحة ثقيلة عيار 7,12، بمجموعات تضمّ كلّ واحدة ألفي قطعة سلاح أو أكثر. كما اشترى هارت لـ «الآي.أس.آي.» قافلة شاحنات لتتنقل في الليل على طول طريق غراند ترانك من مستودعات راولبندي إلى المخازن على الحدود الأفغانية.

تدفّقت أموال طائلة عبر النظام في العام 1983، ما صعّب على هارت عملية تحديد من يستفيد منها بطريقة معقولة، ومن ينهب «السي.آي.إيه.». وتفتخر قوات المهام في المراكز الرئيسية التي تولت عمليات الشراء، بشرائها أسلحة شيوعية من أسواق الأسلحة العالمية، ووضعتها بأيدي أفغان ليستعملوها ضد الشيوعية. وقبل ضباط منشقون في الجيش البولندي، رشى لبيع فائض الأسلحة

السوفياتية سراً إلى «السي.آي.إيه.». ثم قامت الوكالة بشحن الأسلحة البولندية إلى الأفغان ليستعملوها ضد القوات السوفياتية. وربح الشيوعيون الصينيون مبالغ طائلة من الأسلحة التي باعوها في اتفاقيات تفاوض فيها مركز «السي.آي.إيه.» في بكين. وعززت صفقات أسلحة سنوية بقيمة عشرات ملايين الدولارات، التعاون السري المتزايد بين «السي.آي.إيه.» والمخابرات الصينية ضد السوفيات (انفصل الشيوعيين الصينيون عن الشيوعيين السوفيات في بداية الستينيات، وأصبحوا ألدّ الأعداء. وسأل ضابط في «السي.آي.إيه.» معني بالبرنامج: «هل يمكن الوضع أن يتحسّن أكثر مما هو عليه عند شراء ذخائر من الصينيين واستعمالها لقتل الروس؟»). وسارع حلفاء أميركا في

العالم الثالث إلى كسب الأموال. باع المصريون «السي.آي.إيه.» أسلحة قديمة اشتروها سابقاً من السوفيات. كما باع الأتراك ستين ألف بندقية، وثمانية آلاف رشاش خفيف، وعشرة آلاف مسدس، ومئة مليون علبة ذخيرة، معظمها يعود إلى فترة ما بين العامين 1940 و 1942. وقد تذمّر الموظفون اللوجيستيون في «الآي.أس.آي.»، منها، لكنهم قبلوها، مرغمين(87).

علم هارت أن الباكستانيين يسرقون من المساعدات، لكنّه رأى أن هؤلاء السارقين متواضعون وعقلانيون. فقد كان الجيش الباكستاني، المنظمة الأقلّ فساداً في البلاد. ربما هذا لا يعني الكثير، لكنه نوع من التعزية. لقد شعر هارت بأنه ما من خيار أمامه سوى صرف مبالغ مالية طائلة في برنامج سري مثل هذا. يستطيع أن يعتبر أنّ أهداف البرنامج الكبيرة تبرر النفقات، ولا يمكنه بالتالي الاعتراض عليها كما يفعل مدقق الحسابات في المصرف. احتاجت «الآي.أس.آي.» إلى الأموال على سبيل المثال، لإدارة برامج تدريب الجهاديين. كانت حكومة ضياء الحق تمر في أزمة اقتصادية سيئة. وإن أرادت «السي.آي.إيه.» تدريب آلاف الثوار الأفغان على كيفية استعمال الأسلحة الجديدة، فلا بد من تخصيص رواتب للمدربين والطباخين والسائقين. لم تكن «السي.آي.إيه.» قادرة على توفير هذه الرواتب بنفسها. وفي العام 1983، شعر هارت والمشرفون عليه في لانغلي، بأن لا خيار أمامهم سوى تسليم ملايين الدولارات إلى الجنرال أخطار ثم مراقبة النتائج في مخيمات التدريب نفسها، آملين أنّ تكون «العمولة» التي تنتزعها «الآي.أس.آي.» من صناديق التمويل هذه متواضعة. وضخت السعودية المبالغ النقدية إلى «الآي.أس.أي.»، ولم تكترث أيضاً لمن يحصل عليها في النهاية.

أرادت «السي.آي.إيه.» أن تضبط سرقات الأسلحة التي جرت على صعيد كبير، فوظفت عبد الحق وبعض الأفغان الآخرين لمراقبة أسعار الأسلحة في الأسواق المفتوحة على طول الحدود الأفغانية. ويدلّ الانخفاض الكبير في أسعار بنادق لي إنفيلد عيار 303 أو الإي. كاي 47، على أنّه يتم التخلي عن الأسلحة التي توفرها «السي.آي.إيه.» مقابل المال.

تفوّق الباكستانيون برغم ذلك، على أنظمة «السي.آي.إيه.». فقد تم في كيتا، في العام إلقاء القبض على ضباط في «الآي.أس.آي.» وهم يتآمرون مع ثوار أفغان للاستفادة من بيع الأسلحة التي توفرها «السي.آي.إيه.». وفي مثال آخر، باع الجيش الباكستاني سراً لـ «السي.آي.إيه.» مخزونها الخاص، بنادق من عيار 303 و 30 مليون رصاصة. وتسلمت سفينة مسجلة في سينغافورة 100

ألف قطعة سلاح في كاراتشي، ثم أبحرت والتفّت وعادت إلى المرفأ وأفرغت الأسلحة، مدعية أنها أقبلت من الخارج. إلا أنه تمّ كشف الخطة، فالرصاصات تحمل دمغة مصنع باكستان للمعدات الحربية. ووجب على «الآي.أس.آي.» دفع مبالغ كبيرة بغية إزالة دمغة الرصاصات الباكستانية كي لا يستطيع الشيوعيون استغلالها دليلاً على دعم باكستان للمجاهدين في حال استعملها الأفغان أو التقطها السوفيات(88).

قال أخطار لهارت، والإحراج بسبب حدّة التزوير باد عليه، إنّه ينوي إنشاء نظام رسمي لتوزيع الأسلحة، مستعيناً بأحزاب سياسية أفغانية تدعمها «الآي.أس.آي.» لتسليمها، فبهذه الطريقة تستطيع «الآي.أس.آي.» إجبار قادة الأحزاب الأفغانية على تقديم تقرير بحساباتهم. كما أنّ هذه الوسيلة تسمح لـ «الآي.أس.آي.» بتحديد أي قائد في الفرق القتالية الأفغانية سيحصل على أكبر كمية من الأسلحة ليصبح الأقوى.

عدد كبير من القادة الأفغان الذين تدعمهم «الآي.أس.آي.»، مثل قلب الدين حكمتيار، إسلاميون مرتبطون بالإخوان المسلمين. وفي العام 1983، حاول أخطار وزملاؤه السيطرة على الأسرة المالكة الأفغانية التقليدية والقادة القبليين من خلال نزع السلاح منهم. وأخبر أخطار هارت أنه قام بذلك لأنّ عائلات الباشتون المالكة لم تحارب بضراوة كافية. قبلت «السي.آي.إيه.» مقاربة «الآي.أس.آي.» على امتعاض كما فعلت في كل جانب من جوانب الحرب السرية. فهارت وزملاؤه يعتقدون أنّ هذه السياسة لا تتوافق مع إيمان ضياء الحق الشخصي فحسب، بل إنّها تُضعف الثوار الأفغان، ما يؤدي إلى زعزعة قومية الباشتون داخل الأراضي الباكستانية(89).

أراد هارت أن تصل إمدادات «السي.آي.إيه.» إلى القادة الأفغان الذين قد يحاربون السوفيات بشراسة بغضّ النظر عن معتقداتهم الدينية. ويذكر هارت أنّه سأل أخطار: «هل قابلتَ شخصاً ما يستطيع توحيدهم؟»، «ستحاول فرض قوتك بواسطة جيبك، أقصد السلاح والمال، لإجبارهم على فعل شيء ما؟ لا بأس، إن كنت تستطيع فعل ذلك، لكن لا تعتمد كثيراً على هذا الأمر».

بدأ بعض الدبلوماسيين داخل السفارة الأميركية في إسلام آباد في العام 1983، بالقلق حيال اعتماد «السي.آي.إيه.» على «الآي.أس.آي.»، على نحو بدا أنه يؤدي إلى زعزعة الوحدة الأفغانية. وصرحت برقية سرية من السفارة إلى وزارة الخارجية: «قد يتطلب تغيير المقاربات التمييز بين سياستنا وسياسة باكستان»، «اكتفينا بالإذعان لقيادة باكستان منذ بدء الغزو السوفياتي لأفغانستان»(90).

لكن، لم يجد سوى عدد قليل من الضباط داخل «السي.آي.إيه.» سبباً لإثارة التساؤلات حيال اعتماد «السي.آي.إيه.» الكبير على «الآي.أس.آي.». بدأ السوفيات يغرقون في أفغانستان، واستمرت الحرب بإحراج موسكو على الصعيد الدولي. وفي العام 1983، تسبب برنامج «السي.آي.إيه.» السريّ، في خسائر فادحة وفقاً لحسابات هارت التي أرسلها إلى لانغلي. فقد

صرّح بأن المبالغ التي يجمعها الكونغرس سنوياً بالسرّ من أجل أسلحة الجهاديين، دمّرت معدات وقوات سوفياتية قيمتها أكثر بثماني أو عشر مرات.

سأل السيناتور دانييل باتريك موينيهان، هارت، في إحدى زياراته باكستان: «هوارد، كيف تستطيع مساعدة هؤلاء الرجال، وأنت تعرف أنّهم في النهاية سيُقتلون أو سيُدمَّرون على أيدي السوفيات؟».

أجاب هارت: «سيناتور، يستمرون في ترديد عبارة ونستون تشرشل: «أعطنا الأدوات، وسنقوم نحن بالعمل»».

قرر هارت رؤية أفغانستان بنفسه. كان ذلك العمل غير قانوني كليّاً. عرف هارت أنّه سيتم تأنيبه أو فصله إن كُشف أمره. لكن هذا هو العمل الذي يهبّ من أجله رئيس مركز تابع لـ «السي.آي.إيه.»، ويقوم به بنفسه. هذا جزء من ثقافة مديرية العمليات. تقرّب هارت من عبد الحق منذ لقائهما الأوّل في بيشاور، وأكّد له عبد الحقّ أنّهما يستطيعان القيام بجولة سريعة في الداخل من دون التعرّض لمخاطر كثيرة. كانت قوات عبد الحق المسلحة تتحكم في الطرقات والممرات، وخصوصاً الأودية الجبليّة المطلّة على بيشاور. تنقلوا في سيارات تويوتا لاند كروزر رباعية الدفع، ضد مجموعات مدجّجة بالأسلحة. كانوا بأمان بشكل خاص أثناء الليل، لأنّ السوفيات نادراً ما يقومون بعمليات في الظلام.

أعدّ هارت خطة تسمح لنائبه بأن يتسلّم إدارة المركز بضعة أيام. توجه نحو الحدود بسيارة عبد الحقّ وهو مسلّح. سيتمّ تعريفه إلى الأفغان الآخرين بصفته صحافياً كندياً. عمل هارت مسبقاً على اختلاق الأعذار لمركز «السي.آي.إيه.» الرئيسي: سيسافر إلى منطقة قريبة من الحدود مع عبد الحقّ لتفقّد إمدادات الأسلحة. لم يجدوا أيّ علامات في الطريق، فشردوا عن طريق الخطأ إلى أفغانستان.

قطعوا أميالاً عديدة على طول الحدود مع مجموعة من خمسين مقاتلاً مدججين بالسلاح. خيموا في الليل، وقابلوا وفوداً زائرة من الثوار. جرت الأحاديث بلغة الباشتون ولغة داري التي تمت ترجمتها من أجل هارت. وبينما كان هارت جالساً على صخرة يحلق ذقنه وينظر إلى الثوار المعتمرين العمائم والمنتشرين في كل مكان، شعر بأنه يمثّل في فيلم ما. أُعجب بصفوف الرجال الأفغان الذين يهيمون في البرد من دون أيّ غطاء يقيهم الصقيع، وقد توزّعوا على مجموعات من عشرة أو عشرين رجلاً، اعترف بعضهم سراً بأنهم لم يتناولوا الطعام منذ يومين.

علم هارت بأن القصف الجوي السوفياتي والهجمات على الطرقات صعّبت على المقاتلين عملية تأمين إمدادات الطعام بطريقة منتظمة. انتشرت بعض الأسواق خارج المدن الرئيسية، لكن لم يكن بحوزة الثوار أموال تكفي لشراء حاجاتهم. «أذكر أنّني شعرت بحرج شديد تلك الليلة لأنّهم نظروا

إليّ جميعهم، وتجاهلوني لأنهم اعتقدوا أنني صحافي... أردت إعطاء الرجال بعض المال لأنّهم لا يملكون أي شيء ويسيرون منذ أسابيع».

استغلّ الجهاديون الظلام ليشقوا طريقهم إلى داخل باكستان، أو إلى خارجها. ولينصبوا الفخاخ. لم يُشعلوا أي نار، كما كان الخبز والشاي باردين. رأى هارت أنّ هذه هي الحرب الحقيقية؛ الحرب التي عاشها عدد كبير من الأفغان، مكافحة وطنية ريفية عنيفة في الحقول يشنونها ضد الصخرة والجلمود. غذّت القوتان العظميان هذه الحرب، لكنهما في الوقت نفسه لم تكترثا لها.

بالنسبة إلى ضابط استخبارات في مديرية العمليات، جرت جولة هارت في إسلام آباد على أفضل ما يرام. لم تقع أي فضيحة علنية، ونجح في إتمام الاتصال بين أخطار و «الآي.أس.آي.». أما في لانغلي، فقد حصل على ترقية بفضل تقرير. كتب السفير دين هينتون، خَلَف سباير، في رسالة سرية تقييمية بينما كان هارت يستعد للرحيل: «علاقات هوارد مع الجنرال أخطار وثيقة ومثمرة في ما يتعلق بأفغانستان»؛ «من ناحية أخرى، يدير هارت عملية مخابراتية جماعية مدهشة ضدّ أفغانستان... جهوده لتحفيز المجهود الباكستاني لتطوير أسلحة نووية ناجحة ومزعجة في آن واحد. كنت سأرتاح أكثر لو لم يكتشف هو وجماعته ما حدث سرّاً، عكس ما أكّد الرئيس ضياء الحق لنا»(91).

سفينة تلو سفينة، وقافلة شاحنات تلو قافلة، أثناء جولة هارت، بلغت الإمدادات السرية التي أرسلتها «السي.آي.إيه.» إلى الجبهة الأفغانية مستوىً لم تعهده من قبل. كما أنّ البرنامج
لم يعد سريّاً. بدأ الرئيس ريغان بالتلميح علناً إلى أن أميركا تساعد «المحاربين من أجل الحرية» الأفغان، كما كانت تسميهم واشنطن. وسافر صحافيون من الولايات المتحدة وأوروبا إلى داخل أفغانستان مع مواكبة من قبل المقاتلين. وأوضحت قصصهم أنّ الثوار يحصلون على مساعدة خارجية جوهرية.

استمرّ ضياء الحق، برغم ذلك، بالنكران علناً. أمّا في الخفاء، فقد خشي انتقام السوفيات من باكستان. لم يذكر الديكتاتور صورته المجازية في عدد قليل من لقاءاته مع هارت أو مع ضباط آخرين من «السي.آي.إيه.»، وتمحورت الصورة حول إبقاء أفغانستان قِدْراً تغلي على الحرارة المناسبة أن تغلي أكثر من اللازم. بدأ هارت وأخطار تحويل الصورة التشبيهية إلى مزحة في لقاءاتهما في مقر «الآي.أس.آي.» الرئيسي، فيقول أحدهما للآخر بينما يدوّنان لوائح الأسلحة على استمارات الطلب: «المزيد من الحطب فوق النار!».

يعتقد هارت الآن أنّ السوفيات لم يكونوا مستعدين لتعزيز قواتهم المحتلة في أفغانستان، إلى درجة تسمح لهم بشقّ طريقهم جدياً إلى داخل باكستان. استنتج: «لا يتمتع الأغبياء بالشجاعة الكافية، لن

يفعلوا ذلك»؛ «لن يحدث ذلك، أيها الشبان والفتيات، لذا لا تقلقوا». لقد أحرزت «السي.آي.إيه.» فوزاً سمح لها بالاستفادة من تقدمها.

# 4
# أحببتُ أسامة

كانت جديدة ومستوردة من الولايات المتحدة في صناديق خشبية، وثقيلة جداً. نقل أحمد باديب، بالإضافة إلى أمتعته الخاصة، حوالى 8,1 ملايين دولار أميركي نقداً على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية السعودية التجارية إلى كاراتشي. وعندما تسلم حقائبه في باكستان، ندم على عدم وجود حمّال يثق به، وتورّمت عضلاته بفعل الجهد. وكي يصل باديب إلى إسطنبول، عليه استقلال طائرة تابعة للخطوط الجوية الدولية الباكستانية. أراد ضباط الجمارك وحرّاس الأمن أن يفتشوا حقائبه يدويّاً. كان باديب رجلاً حيوياً يطلق النكات بسرعة، فأخذ يماطل أمام طاولات الأمن. «هذه مستندات هامة جدّاً، لا أستطيع أن أريها لأي كان». فلم يمانع الحراس، وقرروا أن يمرروا الصناديق عبر مكنة الأشعة السينية. خشي باديب ممّا سيحدث في حال افتُضح أمره وأمر المال الذي سيعثر عليه ضباط جمارك باكستانيون زهيدو الرواتب، فبدأ يثرثر من جديد. لديّ أكثر من شريط مهم جدّاً في الداخل، فإذا أخضعتموها لصورة أشعة فستحترق. سمحوا له أخيراً، بالمرور. جرّ صناديقه عبر منضدة الاستقبال. بعد أن حطّ في إسلام أباد، شعر بالارتياح لرؤية أنّ مهمته جذبت حفلة استقبال عالية المستوى. رحّب الجنرال أخطار عبد الرحمن، رئيس «الآي.أس.آي.» بباديب ما إن خرج من الطائرة.

عندما حشد الجهاد ضدّ السوفيات قواه في بداية الثمانينيات، كان أحمد باديب في أواسط العقد الثالث من عمره، عربياً سعودياً مولوداً في الصحراء، درس في جامعة أميركية في سهول داكوتا الشمالية المكسوة بالثلوج. عمل لبعض الوقت أستاذاً بعد أن وظفته وزارة التعليم السعودية. وكان أحد تلاميذه شاباً جدياً، اسمه أسامة بن لادن. أصبحا صديقين. كان أحمد باديب رجلاً ضخماً ذا لحية وبشرة قاتمة يتمتع بثقة كبيرة وطبيعة هوجاء. وبفضل الحظّ ومعارف عائلته وماكينة رعاية الحكومة السعودية، تخرج أخيراً من الأكاديمية ليصبح كبير الموظفين في جهاز الاستخبارات العامة في المملكة العربية السعودية(92).

أوفد الأمير تركي الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية، بعد الغزو السوفياتي بوقت قصير، باديب إلى باكستان مع ورقة اتصالات المملكة: الدولارات النقدية. أصبح جهاز الاستخبارات السعودي، بالإضافة إلى الجمعيات الخيرية السعودية، التي تدير وكالة التجسس في بعض الأحيان أموالها، الراعي والداعم الأكرم لـ «الآي.أس.آي.»، متفوقاً بذلك على «السي.آي.إيه.» نفسها.

قاد الجنرال أخطار أحمد باديب إلى اجتماع مع الرئيس ضياء الحق في راولبندي، حيث أعلن باديب أنّ السعودية قررت تزويد «الآي.أس.آي.» المال كي يتمكن جهاز الاستخبارات الباكستاني

من شراء قاذفات صواريخ دقيقة من الصين وأسلحة أخرى. ستكون أموال باديب هي الأولى من بين دفعات عديدة.

يذكر باديب أنّه بينما كان يتحدث مع ضياء الحق في تلك الليلة، تطفّل خمسة جنرالات في «الآي.أس.آي.»، وفتحوا صناديقه في غرفة مجاورة وعدّوا النقود. حاول مراقبتهم بطرف عينه ومتابعة حديثه بتهذيب مع الرئيس الباكستاني. «اعذرني سيدي الرئيس، عليّ أن أرى إن كان الجنرالات...».

قال لهم في الغرفة الثانية وهو يمزح: «انتهينا من عدّها»، «هي جديدة والأرقام التسلسلية موجودة».

يتعود الجاسوس السعودي بسرعة أن تتمّ معاملته كأمين صندوق. قال الأمير تركي مرّة لزميل في «السي.آي.إيه.» في قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات: «لا نقوم بأي عمليات»، «لا نعرف كيف. كلّ ما نجيده هو كتابة الشيكات»(93).

كان تأثير الغزو السوفياتي في أفغانستان صاعقاً بالنسبة إلى لانغلي وإلى المركز الرئيسي لقسم الاستخبارات العامة السعودية، أو «الجي.آي.دي.»، وهو جهاز المخابرات الخارجية الرئيسي في صحراء المملكة. رأت العائلة المالكة في السعودية أنّ الشيوعية السوفياتية مجرّد هرطقة، وأن التوغل السوفياتي في اتجاه الخليج العربي يهدّد الثورة النفطية السعودية. واعتنق الأمراء السعوديون البارزون وجهة النظر الأميركية التي تقول إنّ باكستان هي الدولة المجابهة في المجهود الدوليّ الذي يسعى إلى الحدّ من طموح السوفيات. وقال أحد مساعدي الجنرال أختار القدامى، إن تركي وأخطار «يؤمنان بعمق بأهمية وجود جمعية الإخوان المسلمين التي تتجاهل الحدود الدولية». وبعد اضطرابات العام 1979، رأى الأمير فهد، الذي سيصبح عمّا قرب ملكاً للسعودية، أنّ باكستان في الجهة الشرقية، هي الحليف الأقوى والأكثر جدارة بالثقة بالنسبة إلى السعودية. وسمح لجهاز
الاستخبارات بفتح خزينته السخية لـ «الآي.سي.آي.» التي يديرها أخطار(94).

ترسَّخَ التحالف السري بين السعودية وباكستان في التاريخ. كانت الدولتان فتيّتين وغير آمنتين، وتريان الإسلام مركز هويتهما. وظّفت السعودية في الماضي قوات باكستانية من أجل انتشار أمني في المملكة، بينما وفرت القوات الجوية السعودية سراً التغطية فوق كاراتشي أثناء حرب باكستان مع الهند في العام 1971(95).

لعب جهاز التجسس السعودي دوراً محدوداً حتى بداية الثمانينيات. كان قسم الاستخبارات العامة، منظمة ضعيفة وغير محترفة لمدّة أعوام، وأُنشئ حول معارف العائلة المالكة. أرسل الملك الذي

أسس السعودية الحديثة، عبد العزيز بن سعود، الذي أنجب أربعين ولداً من سبع عشرة زوجة، وحكم من 1902 حتى مماته في العام 1953، أحد أبنائه الكبار، فيصل، إلى تركيا ليختار امرأة من سلالة ملكية في سنّ الزواج، وانتهى الأمر بزواج فيصل بالمرأة. وفي الستينيات، عيّن فيصل كمال أدهم، التركي الثري، أخا زوجته الجديدة الذي يملك معارف كثيرة في العالم العربي، رئيساً مؤسساً لجهاز التجسس السعودي. فتح أدهم مكاتب لـ «الجي.آي.دي.» في سفارات في الخارج. وتمّ فصله من عمله في أواسط السبعينيات، وتسلم ابن أخيه الشاب الذي يتمتّع بخبرة كبيرة، الأمير تركي الفيصل، المنصب من بعده. ويعتبر هذا التعيين نموذجيّاً في السياسة السعودية، حيث المحافظة على التوازن بين الجماعات المضطربة التابعة للعائلة الحاكمة، أمر إلزاميّ(96). منذ بداياته شبه العرضية، تسلم الأمير تركي إدارة «الجي.آي.دي.»، وبقي في ذلك المركز أكثر من عقدين، فأصبح أحد عملاء الاستخبارات الذين خدموا أطول فترة، وتمتعوا بأكبر تأثير في الساحة العالمية.

أصبح الأمير تركي، مثل أي شخص آخر، مهندساً لمصير أفغانستان، والتزامات أميركا مع الراديكالية الإسلامية مدّة عقدين بعد العام 1979. اختار الخاسرين والرابحين من بين القادة الأفغان، وموّل الثوار الإسلاميين عبر الشرق الأوسط، وأقام تحالفات مع هذه المجموعات، وقدّم مساعدات مالية كبيرة إلى جهاز الاستخبارات الباكستاني، ليساعد على ازدهاره كنوع من حكومة الظلّ.

الأمير تركي بطل في الإسلام السعودي المتزمّت، ومشجع لحقوق المرأة، وثري كبير، ومدمن العمل، ورجل ورع ومثقّف، وأمير وفيّ، وصديق صدوق للأميركيين، وممول سخي للقضايا ضدّ الأميركيين، في الوقت عينه. يجسد الأمير تركي تناقضات السياسة السعودية المتزايدة. أصبحت وكالة التجسس الخاصة به رابطاً مهماً بين الشيوعية التي تواجهها «السي.آي.إيه.» والإسلام الجهادي لاحقاً. وعلى خطى «الآي.أس.آي.» في باكستان، أصبحت وكالة الاستخبارات السعودية التي أنشأها الأمير تركي كأساً، سامة، في بعض الأحيان، ولذيذة، في أحيان أخرى، ولا بدّ من أن يشرب منها ضباط «السي.آي.إيه.» في الشرق الأدنى، العاملون ضدّ الإرهاب.

وُلد الأمير تركي الفيصل في المملكة العربية السعودية في 15 شباط/فبراير 1945، بعد يوم واحد على ركوب الملك السعودي عبد العزيز سفينة حربية أميركية راسية في البحر الأحمر لمقابلة رئيس الولايات المتحدة للمرّة الأولى، فرانلكين روزفلت، الذي كان عائداً من يالطا.

أحضر الملك، المتحدر من أسرة بدوية، معه إلى البارجة الحربية، قطيع الغنم الخاص به كي يتمكن من ذبحها أوقات الغداء. وشاهد فيلماً وثائقياً عن الجنود الأميركيين وهم يعملون، وأربك مضيفيه بالنوم ساعات طوالاً غير متوقعة. وبرغم ذلك، أُعجب الملك بروزفلت، الذي سعى قبل استسلام النازيين إلى الحصول على حلفاء من أجل مرحلة ما بعد الحرب. ناقشا قضيتي فلسطين والنفط. لم يكن عبد العزيز يعرف أشياء كثيرة عن العالم، إلا أنّه تضامن مع الصراع العربي ضدّ

الصهيونية. بدأ عملاء روزفلت في شبه الجزيرة العربية، وبعضهم منقّب عن النفط، بإلقاء نظرة خاطفة على الثروة الكبيرة الموجودة تحت الرمال السعودية، وحثوا رئيسهم على التحالف مع أمراء آل سعود قبل دخول البريطانيين على الخط، ففعل روزفلت ذلك، وأطرى عبد العزيز قدر إمكانه، وفاز بعربون محدود من التعاون العسكري والاقتصادي.




**حقوق الطبع: ريتشارد فورنو**

تحاشت عائلة آل سعود، العائلة الملكية السعودية التي ترأسها عبد العزيز، الأطماع الاستعمارية. عاشت في منطقة باردة ومنعزلة لم تُثر قطّ اهتمام القوى الأوروبية. خرجت من الصحارى الحارة القاحلة في منطقة نجد الوسطى في القرن الثامن عشر لشنّ حرب قبلية. كانت شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت أرضاً قاحلة جافة وفقيرة وقليلة السكان، يقطنها الرحالة الذين يربون الجمال. وكانت جدّة المكان الأقرب إلى الحياة المدينية، وهي مرفأ تجاري مفكك في يد الإمبراطورية العثمانية، وأصبحت لاحقاً جائزة متواضعة في المنافسات الاستعمارية. لم يجرؤ سوى عدد قليل من سكّان المدن على المغامرة بعيداً عن البحر الأحمر، فقد كانت الأراضي الداخلية جافة وقاحلة، والقبائل المحلية بعيدة عن الرحمة. لكنّ الحجاج المسلمين تهافتوا كلّ سنة إلى مكّة والمدينة، إلا أنّه كان عليهم الاحتراس من السرقة والسلب على الطرقات.

بقيت عائلة آل سعود تمثل إحدى القبائل الموجودة داخل الجزيرة العربية، وظل يُنظر إليها كقبيلة وليس كدولة، إلى أن شكلت تحالفاً استراتيجياً مع داعية ديني متشدد في الصحراء، هو محمد بن عبد الوهاب. كان عبد الوهاب يغضب كثيراً من النبلاء المصريين والعثمانيين الذين يحبون الزخرفة والفن والتدخين وتعاطي الحشيش والاستماع إلى الموسيقى وقرع الطبول، والذين يأتون إلى السعودية للحج في مكّة كل سنة. فمن خلال قراءته الخاصة للقرآن، لم يكن الحجاج العثمانيون مسلمين حقيقيين، كما يدعون، بل كانوا مشركين كافرين وعبّاد آلهة مزيفة. وزاد العرب المحليون أيضاً الأمر سوءاً، بالنسبة إلى عبد الوهاب، بعبادتهم قديسين على معالم أو بلاط ضرائح مزينة، وبمزج الإسلام بخرافات روحانية. كان يندّد عبد الوهاب بهذه الأفعال، ويصفها بالبِدَع المحرمة

من الله. فالأشخاص الذين يعبدون صوراً محفورة يعيشون خارج عبادة الله الحقيقية، وهم أعداء الله، ويجب أن يغيروا ديانتهم أو يقضى عليهم. ربح عبد الوهاب ولاء قبائل آل سعود على نظريته، أو ربحوه هم من أجل قضيتهم السياسية. يتوقف ذلك على العائلة التي تروي القصة. وفي كلتا الحالتين، اندمجت هداية عبد الوهاب بطموح آل سعود العسكري، والسياسي. وعندما دمرت الميليشيات الدينية الموحدة واحة خضراء، قضت على صانعي القبور والأشجار المقدسة، ونشرت كلمة الله غير الرحيمة، كما فسّرها عبد الوهاب. وفي مرحلة ما، صادف عبد الوهاب امرأة متهمة بالزنى وأمر رجمها بالحجارة حتى موتها. فانتشرت من ذلك الوقت أسطورة الداعية المخيفة.

انسحب عبد الوهاب في النهاية، ليعيش حياة تأمل ديني، ويحظى بزيجات عديدة بعدما حصل على مساحات أراض واسعة تكريماً له على استقامته. ازداد عدد المصريين في شبه الجزيرة بعد وفاته، ودفعوا بسلالته وبقبائل آل سعود في اتجاه منطقة نجد الفارغة (أعدم المصريون المتعطشون إلى الثأر أحد أحفاد عبد الوهاب بعدما أجبروه على سماع موسيقى صادرة عن كمان بوتر واحد). وعاش السعوديون هناك معظم القرن التاسع عشر حيث قاموا بتربية الحيوانات وتعزيز الشكاوى.

أسرعت عائلة آل سعود عائدة إلى البحر الأحمر عندما انهارت الإمبراطورية العثمانية وسط فوضى الحرب العالمية الأولى، وقادهم هذه المرّة القائد العظيم، عبد العزيز، وهو أمير محنك وذكي يتحدث باقتضاب، قام بتوحيد القبائل البدويّة العاصية في شبه الجزيرة، بفضل شجاعته العسكريّة وذكائه السياسي. وكتب سائح بريطاني قابل الملك: «على الرغم من أن حركاته المتعمّدة، وابتسامته البطيئة العذبة، والنظرة المتأملة من عينيه المثقلتين بجفنين، تزيد من وقاره وسحره، فهي لا تتوافق مع إدراك الغرب مفهوم الشخصية القويّة». «وعزا إليه قدرة تحمل جسدية نادرة حتى في الخليج العربي القاسي»(97). اعتنق عبد العزيز عقيدة عبد الوهاب، ورعى وحدة جديدة وشبه مستقلة ووحشية من المؤمنين المقاتلين يطلق عليها اسم الإخوان. ويعتمر الإخوان عمامة بيضاء فريدة في نوعها، ويطلقون لحاهم وشواربهم للتعبير عن التضامن الإسلامي. استولى الإخوان على قرية تلو الأخرى وبلدة تلو الأخرى. فرضوا باسم عبد الوهاب حظراً على الكحول والتبغ والحرير المطرّز والميسر والتبصير والسحر، ودانوا الهواتف وأجهزة الراديو والعربات، واعتبروها تحدياً لشريعة الله. وعندما رأوا لأول مرّة في أراضيهم شاحنة ذات محرّك، أضرموا النار فيها وأرسلوا سائقها مشياً على قدميه.

وظّف عبد العزيز بمهارة الإخوان للاستيلاء على مكّة والمدينة وجدة، بين عامي 1914 و 1926. لكن، سرعان ما شعر الملك بالتهديد من قبل راديكالية جماعة الإخوان التي لا تخمد. ثار الإخوان بينما زوّدهم عبد العزيز أسلحة حديثة. وبغية ربط شعبية الجماعة بالعدل الإسلامي، أسّس عبد العزيز الشرطة الدينية السعودية، فأصبحت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أعلن الملك أن عائلته الملكية ستحكم وفقاً لعقائد عبد الوهاب فحسب، فارضاً تديّناً أبويّاً صارماً مجرّداً من الزخرفة.

كانت هذه بداية استراتيجية فرضتها العائلة المالكة السعودية طوال القرن العشرين، بعد أن شعرت بالتهديد من قبل الأصولية الإسلامية على أمل أن تبقى هي المسيطرة. كانت مطالبة آل سعود بتسلم الحكم في شبه الجزيرة العربية ضعيفة، لكنها ازدادت كثيراً مع فتوحات حلفائهم الجهاديين. يحكمون الآن المقام الأكثر قدسيّة في العالم الإسلامي بأسره. وبالنسبة إليهم، ما من سياسات معقولة، إنّما ثمة تديّن رسمي صارم. وعدد كبير من أفراد العائلة المالكة مؤمنون حقيقيون. ففي النهاية، أمّتهم هي الأمة المعاصرة الوحيدة التي أسّسها الجهاد(98).

نشأ الأمير تركي الفيصل، رئيس جهاز الاستخبارات المستقبليّ، بعد أقل من جيل على ولادة الأمة السعودية، ولادة عسيرة غارقة في الدماء. بلغ سنّ الرشد قبل الازدهار العظيم في عائدات النفط في المملكة، وقبل حوافز التطوّر التي رافقته، وقبل بناء الطرقات السريعة الطويلة التي تشبه طرقات كاليفورنيا والمراكز التجارية الداخلية. في أواسط الخمسينيات، عندما كان تركي ولداً، عاش ثلثا العرب السعوديون حياة ترحال أو شبه ترحال. وبينما عاش ربع السكان في المدن أو البلدات، في أواسط الستينيات، عمل نصف العرب السعوديين في تربية الحيوانات من أجل كسب لقمة عيشهم. حُظرت العبودية منذ العام 1962، لكن استمرّ الأفريقيون والآسيويون بعد ذلك يخدمون بطريقة غير رسمية في منازل سعودية. وقد ربطت الثقافة البدوية الترحالية التقليدية العمل الثابت بالعار. بدأ الأميركيون وأجانب آخرون التنقيب بحثاً عن النفط في المقاطعات الشرقية، وباشروا بالاستثمار في خطوط النقل والهواتف، إلا أنّ المملكة التي عهدها تركي في طفولته، ما زالت عبارة عن أراض مقفرة يعيش فيها الرحالة وساكنو الخيام ومربو الجمال ورجال الدين، ويحكمهم تحالف مزعزع بين العائلة المالكة والعلماء الورعين، أو رجال الدين الإسلاميين الكبار(99).

كان والد الأمير تركي، الأمير فيصل، رجلاً عصريّاً نسبيّاً في بلاد شديدة المحافظة. كان رجلاً وطنيّاً كادحاً، ومثقّفاً وتكنوقراطياً قائداً ومصلحاً حكوميّاً، وأحد أولاد عبد العزيز الكبار الذين لم يتلقَّ بعضهم سوى القليل من العلم بينما كان تعطشهم إلى اللذات كبيراً. آمن الأمير فيصل بالميزانيات المتوازنة والاستثمارات الاجتماعية والفوائد التكنولوجية. اعتنق إسلاماً وهابياً، وادعى أنه على المملكة السعي وراء التغييرات الاجتماعية ببطء وحذر. وبصفته حاكماً إقليمياً متمرساً، بدا من المقدر له أن يتسلّم العرش السعوديّ، ويهيّئ أبناءه من أجل حياة جديّة، ما يعني تعليماً أميركيّاً.

عندما كان الأمير تركي في الرابعة عشرة من عمره، أرسله فيصل إلى مدرسة لورنسفيل، وهي مدرسة أجنبية إعدادية للفتيان الأغنياء في نيوجيرسي. لن تفي عبارة صدمة ثقافية، لوصف انتقال تركي الشاب إلى المدرسة الإعدادية. يذكر تركي بعد أعوام: «كنت وحيداً ومتوتراً جداً... عندما دخلت المهجع، شعرت بأحد يضربني على قفاي». قال له شاب: «مرحباً، اسمي ستيف كلاهان. من أنت؟». وقف تركي صامتاً «ففي السعودية، لا تضرب أحداً على قفاه». وأخيراً، نطق اسمه. أجاب كلاهان: «مثل اسم الديك الرومي؟»(100).

نادراً ما تحدث تركي علناً، في الأعوام اللاحقة، ونادراً ما تحدث عن حياته الشخصية، لذا من الصعب معرفة انطباعه عن أميركا من لورنسفيل، سواء أكان انطباعه جيّداً أم سيئاً. فقد أُرسل تركي بعيداً عن منزله، وقطع المحيطات في سن مراهقته، وانطلق من المملكة، أرض المراسم والتقاليد الإسلامية الصارمة، إلى أميركا، أرض كرة السلة والجنس والجعة. لكن أقله، تمتع زملاؤه في لورنسفيل بالثراء مثله تماماً. وتعلم معه تلاميذ أجانب آخرون. فأحد زملاء تركي في المدرسة الإعدادية، أصبح لاحقاً رئيس جمهورية هندوراس. وعند عودته إلى المملكة، وجد والده في صراع كبير مع أخيه الأكبر غير الشقيق، سعود، أوّل أبناء عبد العزيز الذي ورث العرش بعد وفاة والده. تزوج عبد العزيز بنساء كثيرات، وأنجب إخوة غير أشقاء، فأنشأ بذلك سلالات عدة متنافسة داخل العائلة المالكة. وما إن توفي، حتى نشبت معارك مربكة على السلطة. وأوقد تبذير سعود للأموال المشاكل. تدفق النفط وارتفع الدولار، لكن سعود وحاشيته تمكنا من تبذيره بأكمله، فقد أنفق سعود على القصر، وعلى الإسراف في التسوق، وعلى مشاريع التنمية الضعيفة الإدارة. وسرعان ما عينت العائلة موعداً لتتويج الأمير فيصل بغية فرض النظام من جديد. لكنّ سعوداً اغتاظ منه، فغضب فيصل واستقال من منصبه، بينما كان تركي في لورنسفيل.

بعد أن تحضّر تركي وفقاً لأسلوب الساحل الشرقي الأميركي، تسجل في جامعة جورج تاون في واشنطن العاصمة في العام 1964، في صفّ فتى طموح ومتحدث لبق، من منطقة هوب في أركنساس، اسمه بيل كلينتون. وأثناء قطع نادر في شبكة الرادار الخاصة بكلينتون، فشل في السعي إلى مصادقة ابن أمير ثري متوج مقدر له أن يتسلم السلطة (التقى الاثنان للمرة الأولى في البيت الأبيض بعدما أصبح كلينتون رئيساً). قال تركي في اجتماع بعد أعوام في جورج تاون، متحدثاً عن ادعاء كلينتون المخزي بأنه جرب الماريجوانا لكنه لم يستنشقها: «لم يكن الصفّ وحده من لم يستنشقها. إنه الصفّ الذي حاول تدخين قشر موز. أتذكر ذلك؟ هل يمكن أحداً ما أن يتخيّل نفسه وهو يدخّن قشر موز؟ هذه كانت موضة ذلك الوقت»(101). اقترب شخص من تركي في حرم الجامعة في سنته الأولى، وسأله: «أسمعت الأخبار؟». أجابه تركي بالنفي. فقال له: «أصبح والدك ملكاً».

تنحّى سعود أخيراً عن عرشه. طلب عميد جامعة جورج تاون رؤية تركي، وسأله إن كان يريد حراس أمن شخصيين. رفض تركي العرض لأنه، كما قال لاحقاً بتهكم: «لم يتبعني أحد في تلك الأيام، خصوصاً في جورج تاون»(102).

ترك الجامعة بعد سنته الأولى. عزا السبب في ما بعد إلى حزنه وخيبته بسبب خسارة العرب أمام إسرائيل في حرب الأيام الستة العام 1967. «لا يمكنك تخيل حالة الانهيار التام وشعور الفشل الذي ضرب العالم العربي». أنهى تركي بعد بضع سنين دراسته في إنكلترا، وعمل لاحقاً مستشاراً في إحدى الوزارات، قبل أن يخلف عمه ويصبح مدير «الجي.آي.دي.».

لكن والد تركي قُتل لاحقاً رمياً بالرصاص، ففاجأ أميركا. وبعد سنتين على ترؤسه عملية مقاطعة النفط ضدّ إسرائيل التي أدت إلى ارتفاع أسعار النفط في العالم، قُتل الملك فيصل على يد قريب له، قالت السلطات لاحقاً إنه كان مضطرباً عقلياً. وتعود جذور مصرعه إلى الصراعات التي جرت في المملكة حول التحديث. وفي العام 1965، حين بدأ التلفزيون السعودي بثّه، وقام متشددون إسلاميون من أتباع عبد الوهاب بالهجوم على مكتب حكومي محتجين بعنف على ذلك، قُتل أحد المحتجين، وهو ابن عم الملك فيصل، في عملية إطلاق النار. وبعد عقد، أي في 25 آذار/مارس 1975، رفع شقيق الضحية مسدسه في وجه الملك أثناء احتفال محليّ، وأرداه في محاولة واضحة للانتقام. خسر تركي والده في عملية إرهابية منبثقة جزئيّاً من محاولة سعودية لمزج تطور ما قبل الصناعة بالأصولية الإسلامية. قال تركي لاحقاً من دون أي تفاصيل: «كان ذلك الأمر الأكثر ألماً»(103).

عندما تسلم الأمير تركي مهامه في أواخر السبعينيات، كانت المخابرات السعودية في خضمّ انتشارها الهائل. دخلت عائدات النفط المتدفق كل زاوية وركن بيروقراطي في المملكة. وبلغت ميزانية الحكومة السعودية لخمس سنين، أي من 1969 حتى 1974، 2,9 مليار دولار. ووصلت في السنين الخمس التالية إلى 142 مليار دولار. انتشل جيل بأكمله من الفقر الترحاليّ، واتجهت السعودية قسراً نحو عصر الكومبيوتر. وصل تركي بين مكاتب قسم الاستخبارات العامة داخل المملكة، وداخل اثنتين وثلاثين سفارة وقنصلية في الخارج. إلا أن البرامج جميعها فشلت في اكتشاف المؤامرة العنيفة التي أعدها جهيمان العتيبي «المختلّ»، للاستيلاء على مكّة في تشرين الثاني/نوفمبر 1979. ومع انتشار أصداء ثورة
الإخوان التي قمعها عبد العزيز، أثيرت في مكّة اضطرابات داخل وكالات الأمن السعودية جميعها، ما ساعد على إقناع العائلة المالكة بحاجتها إلى استثمار المزيد من الأموال في قطاع الاستخبارات والشرطة(104).

لم يشعر السعوديون وحدهم بالقلق. فبعد سقوط شاه إيران، خشيت الاستخبارات الأميركية أن تكون العائلة المالكة السعودية هي التالية. حاول مركز «السي.آي.إيه.» في جدّة تحسين تقاريره حول سياسات المملكة الداخليّة المبهمة. فقد سلّطت الثورة في مكة، الضوء على المعلومات المحدودة التي تملكها الوكالة حول الراديكالية الإسلامية في شبه الجزيرة. والوسيلة الوحيدة للحصول على معلومات دقيقة هي تحسين وضع الاستخبارات السعودية من خلال توفير المساعدة التقنية. بعد العام 1979، ضاعف مركز «السي.آي.إيه.» في السعودية، جهوده لاستغلال عملاء داخل المملكة من جانب واحد. وفي الوقت نفسه، ساعدت «السي.آي.إيه.» «الجي.آي.دي.» في برامج الكمبيوتر وبرامج دقيقة لالتقاط الاعتراضات الالكترونية من مصادر سوفياتية، كجزء من علاقتهما الرسمية(105).

سافر تركي ومساعدوه إلى لانغلي بالإضافة إلى عواصم أوروبية وعربية لدراسة تنظيم وكالات الاستخبارات فيها. وعندما أنشأ «الجي.آي.دي.» نقل إلى عمل الاستخبارات السعودية، البرامج التي تعتمدها «السي.آي.إيه.». تسلم الأمير تركي مركز مدير الوكالة غير التابع للوزارة، وتلته

مباشرة 6 إدارات أخرى. وفي لانغلي، كانت إحدى هذه المديريات مديرية العمليات التي عُنيت بالأعمال السرية والعلاقات مع وكالات الاستخبارات الأجنبية. كما نظّم تركي مديرية للاستخبارات تُصدر تقارير سرية للعائلة المالكة السعودية حول مسائل أمنية، وتوزع ملخّصاً استخبارياً يومياً من أجل الملك السعودي والأمير المتوج، مثل الموجز الرئاسي اليومي الذي تنشره «السي.آي.إيه.» في البيت الأبيض(106).

ساهم إلمام الأمير تركي بالإنكليزية، وسلوكه المهذّب، وظرفه الماكر، وذوقه الراقي المترف، وقراءته الجديّة للتاريخ، وفوق كل شيء مهارته النادرة في التنقل بين السعودية والغرب، ومعرفة مقاصد السياسة الغربية، وإتقانه ترجمة الوثائق الإنكليزية إلى العربية، في مساعدته على الفوز بالحظوة عند الأميركيين. إنه رجل متواضع يتحدث بهدوء، إنّما بثقة جارفة وقاطعة. وبعد أن عمل معه عميل في «السي.آي.إيه.» يتحدّث العربية، وصفه بأنه المترجم الأكثر كفاية ودقة في ترجمته من اللغة الإنكليزية إلى العربية. استهلك تركي المصادر الغربية الجديدة بحماسة. أصبح مندوباً منتظماً في لقاءات النخبة الدولية السنوية التي تجري في دافوس في سويسرا، ومؤتمرات أخرى لا يتم تسجيلها، من أجل عملية تمويل السلطة ووضع استراتيجياتها والحفاظ على توازنها العالميّ. وأقر بعض عملاء «السي.آي.إيه.»، في الوقت نفسه، بأنه شخصية محكنة. ويذكر كلير جورج، وهو ضابط سابق في الخدمات السرية التابعة لـ «السي.آي.إيه.»، ترأس في النهاية مديرية العمليات، أن تركي: «مخادع». وأثارت ضخامة الثروات التي كان يحصل عليها تركي أثناء عمله، دهشة نظرائه الأميركيين. فكما يقول جورج: «لن تجد أي شخص أدار الاستخبارات من دون أن يسرق أموالاً طائلة». بالطبع في النظام السعودي، ما من حدود واضحة بين أموال الحكومة والثروات الملكية والثروات الخاصة. فجميع الأمراء القدامى في المملكة اغتنوا. لم يستعمل تركي أموال «الجي.آي.دي.» للعيش برفاهية فحسب، بل لتوظيف أصدقاء أميركيين وأوروبيين مستعدين للدفاع عن مصالح السعودية. وعندما تقاعد رؤساء مراكز تابعة لـ «السي.آي.إيه.»، ودبلوماسيون في وزارة الخارجية وضباط في «الأم. آي 6» (الاستخبارات البريطانية)، بعد أن حصدوا خبرات في السعودية، أو بعد أن تركوا العمل في الحكومة، انضمّ عدد كبير منهم إلى لائحة رواتب «الجي.آي.دي.»، وعملوا لدى الأمير تركي مستشارين خصوصيين مرتفعي الأجر، ووظفهم بمنزلة عينيه وأذنيه في واشنطن ولندن وأماكن أخرى. كما قدّم تركي مساعدات مالية إلى وكالات استخبارية في بلدان عربية فقيرة، فاشترى بهذه الطريقة معلومات وحلفاء(107).

كان أحمد باديب وشقيقه سعيد، مساعدين أساسيين لتركي. والدهما تاجر متواضع وناجح من جدّة. أحمد باديب عامل نشيط، توظّف عند تركي في قسم التنسيق وتحصيل الأموال، وعمل وكيلاً لأعماله، بينما كان سعيد رجلاً لطيفاً يضع النظارات ويقرأ الكثير من الكتب. حاز شهادة دكتوراه من جامعة جورج واشنطن في واشنطن العاصمة في بداية الثمانينيات، ثم عاد إلى منصبه من جديد رئيساً لمديرية الاستخبارات التابعة لـ «الجي.آي.دي.». تناولت رسالته للدكتوراه العلاقات السعودية مع اليمن ومصر، ثمّ نشر كتاباً عن العلاقات السعودية مع إيران. وتفاعل الأخوان باديب بانتظام مع نظرائهما في «السي.آي.إيه.»(108).

لم تُقم العائلة المالكة السعودية المعادية لـ «إلحاد» الماركسية، أيَّ علاقات دبلوماسية مع السوفيات، إنّما تعاونت سراً مع «السي.آي.إيه.» ضدّ موسكو عقوداً من الزمن. وفي فترة الحج السنوية، التي تقع في الشهر الثاني عشر من السنة وفقاً للتقويم الإسلامي، سمحت السعودية لضباط «السي.آي.إيه.» بإجراء مقابلات مع حجاج مسلمين من آسيا الوسطى السوفياتية، كانت تستفسر عن الأوضاع في بلادهم. وفي السبعينيات، عندما توقفت عمليات «السي.آي.إيه.» السرية في إثر فضائح الكونغرس، والحذر الذي خيّم على البيت الأبيض، انضمت «الجي.آي.دي.» التي يديرها تركي إلى بريطانيا وفرنسا والمغرب وإيران، لتشكيل «نادي السفاري» الذي عمل سرّاً ضدّ الحركات الماركسية التي يدعمها السوفيات في أفريقيا(109).

عندما غزا السوفيات أفغانستان، طلب تركي بسرعة مساعدة باكستان. فسافر الجنرال أخطار رئيس «الآي.أس.آي.» إلى المملكة في غضون أسابيع، وقابل تركي وأحمد باديب في مطعم في الرياض. حمل أخطار معه رسالة من الرئيس ضياء الحق يحذّر فيها السعودية التي تواجه بنفسها خطراً في حال لم يتمّ وقف الغزو السوفياتي. وما لبث أن بدأ باديب يتردّد إلى إسلام آباد وبيشاور، حاملاً في بعض الأحيان صناديقه الخشبية الملأى بالنقود.

رأى تركي أنّ الغزو السوفياتي يدلّ على سعي موسكو إلى إنشاء تكافؤ استراتيجي مع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. كان بيع الأسلحة حتى الآونة الأخيرة، بطاقة الاتصال الأساسية بين الشيوعيين والعالم العربي. والآن، يبحث الاتحاد السوفياتي عن وسيلة للسيطرة أكثر على أسعار النفط وإمداداته. استنتج تركي أن احتلال أفغانستان لم يكن هدف السوفيات، إنّما كان خطوة في اتجاه زيادة نفوذهم وسيطرتهم على المنطقة من خلال الأحزاب الشيوعية والحركات اليساريّة التفويضية. ورأى من الناحية الجغرافية، أن باكستان قدّمت النهج الأفضل لمواجهة طموح السوفيات. وصلت المساعدات إلى الثوار الأفغان عبر الجيش والمخابرات الباكستانية التي ساعدت أيضاً على تقوية باكستان كحليف إقليميّ بعد الدمار الذي حلَّ بها في إثر حربها مع الهند في 1971(110).

توصّل تركي إلى توقيع اتفاقية غير رسمية مع «السي.آي.إيه.» في تموز/يوليو 1980، تتكافأ مع تمويل الكونغرس الأميركي للثوار الأفغان. وأرسل السعوديون كل سنة حصتهم من المال إلى سفارتهم في واشنطن. ثمّ قام السفير السعودي في واشنطن، بندر بن سلطان، بتحويل المبالغ إلى حساب في بنك سويسري تتحكّم فيه «السي.آي.إيه.». استعملت الوكالة حساب المصرف السويسري للقيام بعلميات الشراء السرية في أسواق الأسلحة الدولية. وكان من الضروري أن يفاوض قسم الشرق الأوسط في لانغلي الذي يتولى شؤون العلاقات مع السعودية، باستمرار، مع «الجي.آي.دي.» التي يديرها تركي بشأن الدفعات المتأخرة. وبعد سحب الأموال من خزينة الرياض وتحويلها إلى واشنطن، تظل بحوزة بندر لأسابيع. وقد اعتقد ضباط قسم الشرق الأدنى،

أن بندر كان يستغل التأخير لزيادة ثروة السفارة أو ثروته الشخصية مع «التيار»، حيث إن فوائد بملايين الدولارات تتراكم يومياً من الودائع السعودية الهائلة المخصصة للمقاتلين الأفغان(111).

اهتمّ تركي شخصياً بالبرنامج الأفغانيّ، وسافر إلى باكستان في حدود خمس مرات في الشهر. ويذكر أحمد باديب أنّ تركي «لم يعارض الدخول إلى أفغانستان». أثار الأمير السعودي إعجاب العمداء التابعين لـ «السي.سي.آي» في باكستان: حلفائه الرئيسيين على الحدود الأفغانية. ويذكر محمد يوسف الذي أدار عمليات «السي.آي.إيه.» طوال أربع سنين في الثمانينيات: «بالرغم من أنّ طباعه مبنية على نشأته الأرستقراطية، كان الأمير العربي الأكثر تواضعاً وبساطة الذي قابلته في حياتي»، فقد «خلصه تعليمه وخبرته في الغرب، كليّاً من التعالي العربي الشائع تجاه من ليسوا عرباً»(112).

أصبح عبد الرسول سياف، أحد الثوار الجهاديين، العميل الأفضل عند السعوديين. عمل سياف، وهو رجل ضخم البنية ذو لحية بيضاء طويلة ومرقطة، أستاذاً للشريعة الإسلامية في جامعة كابول، ثم عاش خمس سنين في القاهرة، حيث أتقن اللغة العربية. وقد أجبرته حملات فرض النظام التي شنتها الشرطة الأفغانية السرية، بالإضافة إلى حكم طويل الأمد بالسجن، على الهجرة إلى باكستان.

عندما بدأت «الجي.آي.دي.» التوغل داخل حركات الجهاد الأفغاني في العام 1980، عقدت منظمة المؤتمر العربي، تحالفاً بين حكومات إسلامية، بغية دين التدخل السوفياتي في أفغانستان. ثمّ خطّط ياسر عرفات الذي كان يدعم عدداً من القضايا اليسارية، للتحدّث مدافعاً عن موسكو. حضر قادة الثورة الأفغان من بيشاور للدفاع عن قضيتهم، وطلب من أحمد باديب اختيار أحد قادة الثوار لإلقاء خطاب، مباشرة بعد عرفات، مهاجماً الغزو السوفياتي، معتبراً إياه إهانة للإسلام.

تحدّث عدد كبير من الثوار الأفغان اللغة العربية بطريقة مقبولة، لكن رأى باديب أنّ سياف، الذي كان في ذلك الوقت مساعداً لقائد آخر، هو أكثرهم تأثيراً وفعالية. ويذكر باديب لاحقاً: «اخترناه ليلقي الخطاب». إلا أنّ القادة الأفغان بدأوا على الفور «التشاجر في ما بينهم. إنهم رجال غير معقولين... ادعى كلّ واحد منهم أنّه يمثّل الأفغان، وأنّ عليه إلقاء
الخطاب». أصبح المشهد عاصفاً، فقرّر حبسهم جميعاً في سجن إلى أن يتّفقوا على متحدّث واحد.

بعد ست ساعات من الجدال في السجن، رضي الأفغان بسياف. فقرر باديب أنّ موكّله يحتاج إلى اسم أفضل على المسرح. ويذكر أنّه تمّ تعريف سياف بلقب «عبد الرسول سياف». قال إنّ الاسمين الأولين يعنيان في السعودية «خادم النبي»، مشيراً إلى أنّ أجداد سياف عملوا خداماً. لكن باديب أراد عند إضافة كلمة «عبد» إلى الاسم، أن يحوّر معناه إلى «عبد إله النبيّ»، ما يدلّ على

تفان دينيّ، وليس مركزاً اجتماعياً فحسب. وافتخر باديب لأعوام لأنّ الاستخبارات السعودية أعطت سياف حرفياً اسمه(113).

عاد سياف الذي زادت جرأته إلى بيشاور، وأسّس حزباً أفغانياً ثائراً خاصاً به، مستدراً أموالاً سعودية. ونشر سياف عقيدة محمد بن عبد الوهاب بين الثوار، ووفّر لـ «لجي.آي.دي.» إمكانية النفاذ إلى الحرب بعيداً عن سيطرة «الآي.أس.آي.»

عرض سياف على «الجي.آي.دي.» وسيلة للتنافس ضدّ رجال الدين التابعين لعبد الوهاب، الأثرياء في السعودية، بغية إحداث أكبر تأثير في أفغانستان. وكان للشيخ ابن باز، وهو رئيس المؤسسة الدينية الرسمية في المملكة وأحد أفراد سلالة مؤسس المذهب الوهابي، أتباع جهاديون خاصون به. أدار ابن باز مؤسسات خيرية أمّنت ملايين الدولارات لمئات المقاتلين المتطوعين العرب لمساعدة قائد أفغاني متدين ومتزمت، هو جميل الرحمن الذي أسّس «إمارة» مستوحاة من وهابي في واد منعزل في مقاطعة كونار الأفغانية. ورأى باديب أنّ سياف هو البديل الذي تدعمه «الجي.آي.دي.» لهذه المجموعة الوهابية ولمجموعات أخرى.

أصبح مزيج قسم الاستخبارات السعودي الغامض والمؤلف من الحلفاء والخصوم والعلماء الإسلاميين في المملكة، مزية تحدّد الجهاد الأفغاني مع توسعه وتمدده في الثمانينيات.

اعتنق السعوديون المؤمنون الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، والذين اغتنوا بفضل النفط، القضية الأفغانية، وتجاوبوا معها كما يتجاوب المصلون الأميركيون في الكنائس مع المجاعة في أفريقيا، أو زلزال في تركيا. فالصدقة إلزاميّة في الشريعة الإسلامية. ووصلت الأموال المتدفقة من السعودية إلى الحدود الأفغانية بأشكال وحجوم مختلفة: جواهر من الذهب وضعتها زوجات تجار على أطباق كانت تدور بين المصلين في مساجد جدّة؛ حقائب من النقود قدّمها رجال أعمال إلى مؤسسات خيرية في الرياض كزكاة، أي ضريبة ربع العُشر الإسلامية التي تُدفع سنوياً؛ شيكات ضخمة من حسابات حكومية شبه رسمية، حرّرها عدد قليل من الأمراء السعوديين؛ عائدات وافرة جمعها الأمير سلمان، أمير الرياض، بفضل حملات تلفزيونية سنوية. وأتت المبالغ الأضخم من التحويلات السنوية من حسابات سويسرية تديرها «الجي.آي.دي.» و «السي.آي.إيه.».

قال الأمير تركي بعد أعوام إنه لطالما تحكمت «الجي.آي.دي.» في اختيار أي أفغانيّ، هو مخوّل الحصول على مساعدات مالية شبه رسمية أو غير رسمية، لكن اعتبار قسم المخابرات أنّ عمليات التبرع والإحسان التي يديرها العلماء فعالة، أمر غير مؤكد. لم تكن المراقبة كافية في بداية الثمانينيات وأواسطها، فندم باديب لاحقاً على قلة سيطرته(114).

كان تهافت السعوديين لمساعدة الجهاد الأفغاني أكثر غموضاً من كميّة الأموال التي وصلت، فنادراً ما تبيّن من يعمل عميلاً رسمياً في الاستخبارات السعودية، ومن يعمل متطوعاً متديناً مستقلاً. وبالنسبة إلى الجنرالات الباكستانيين وضباط الاستخبارات الأميركية الذين عرفوا أحمد باديب، ما من سعوديّ جسّد ذلك اللغز، أكثر من تلميذ باديب القديم من جدّة: أسامه بن لادن.

هاجر محمد بن لادن إلى جدّة في العام 1931، تاركاً خلفه وادياً جافاً وفقيراً في اليمن. وصل قبل بضع سنين من تسلم عبد العزيز والإخوان المتشددين الحُكم في ساحل البحر الأحمر. كان بن لادن موهوباً وطموحاً وحريصاً ومصمماً. عمل في مجال البناء، فأنجز مشروعاً تلو الآخر في الأعوام الزهيدة من الثلاثينيات والأربعينيات. شيّد المنازل والطرقات والمكاتب والفنادق، وبدأ يشجّع العائلة المالكة السعوديّة. وكما سرت العادة عند الشيوخ السعوديين واليمنيين، تزوج بن لادن بشابات عديدات. وأنجب في النهاية قرابة 50 ولداً. وعندما وُلد ابنه السابع عشر، أسامه في العام 1957 من زوجة شابة سورية، كان محمود بن لادن قد تمركز في جدة، المدينة التي أمضى فيها أسامه طفولته، وفي الرياض. وأصبحت شركة المقاولات التي يملكها بن لادن، في عهد الملك سعود، ثمّ على الخصوص في عهد الأمير المتوج والملك لاحقاً، فيصل، الشركة الأولى في المملكة التي عُنيت بمشاريع طموحة وحساسة سياسياً، مثل بناء طريق سريع من جدّة إلى الطائف، وإعادة ترميم المدن المقدّسة، مثل مكّة والمدينة(115).
كان الأمير تركي ووالد أسامة بن لادن، صديقين، وشريكين في التجارة، وحليفين في السياسة. ويذكر الأمير تركي أنّ محمد بن لادن كان «رجلاً كفؤاً»، «هو بطل أصيل وحقيقيّ في نظر عدد كبير من السعوديين، بمن فيهم العائلة المالكة، بسبب ما فعله من أجل المملكة. لكنّه لطالما كان رجل البناء. فعند وجود عمل لا بدّ من إتمامه، يهبّ بن لادن للقيام بذلك»(116). عيّن الملك فيصل محمد بن لادن وزيراً للأشغال العامة. وتوّج مناصرو الملك عائلة بن لادن، وقدّموا إليها دعماً ملكيّاً مفتوحاً، وأكّدوا أنّ ثروتها المكتسبة من أعمال البناء ستبلغ مليارات الدولارات، بينما حصدت الخزينة السعودية فوائد النفط المخزنة بفضل تشغيل فيصل للأوبك.

ركب أسامة في طفولته جرّافات والده، وهام في مواقع البناء المكتظة في بلدات تشهد تطوراً كبيراً في الحجاز، المنطقة التي تحيط بالبحر الأحمر. لكنّه لم يتعرف إلى والده جيّداً. في العام 1967، بعدما تسلم فيصل الحكم بثلاث سنين، توفي محمد بن لادن في إثر تحطم طائرة. فتدخّل فيصل لإنشاء اتحاد يشرف على أعمال البناء في شركة بن لادن. أراد ضمان استقرارها إلى أن يكبر أبناء بن لادن الكبار، ويتسلموا الإدارة، وعلى رأسهم أخو أسامه غير الشقيق، سالم. في الواقع، أصبح أبناء بن لادن لبعض الوقت تحت وصاية المملكة السعودية، بفضل مبادرة والد الأمير تركي.

شقّ سالم وأفراد آخرون من عائلة بن لادن طريقهم إلى نخبة المدارس البريطانية والجامعات الأميركية في الخارج. وبفضل ثروتهم، تنقّل بعضهم برخاء وشجاعة بين المملكة والغرب. تزوّج بامرأة أرستقراطية إنكليزية، وتعلم العزف على الغيتار وقيادة الطائرات، وأمضى عطلاته في

أورلاندو. وتظهر صورة التقطت لأبناء بن لادن في شارع سويدي مرصوف بالحجارة في بداية السبعينيات، مجموعةً أولاد عصريين ذوي شعر طويل يرتدون سراويل واسعة. ربّما لأن والدة أسامة لم تكن إحدى زوجات محمد المفضلات، أو ربما بسبب اختيارات اتخذتها بشأن التعليم، أو ربما بسبب مصالح ابنها الشخصية، لم يستقلّ قط الطائرة التي نقلت إخوته وأخواته غير الأشقاء إلى جينيف ولندن وآسبن. فبدلاً من ذلك، دخل جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وهي جامعة راقية وفقاً للمعايير السعودية، ومنعزلة عن عالم الأعمال، يرتادها أساتذة إسلاميون من مصر والأردن، بعضهم ينتمي إلى الإخوان المسلمين، أو متصل بشبكاتها السرية المهدية.

كان أسامة بن لادن طالب سنة ثانية وتلميذاً جامعياً مثيراً للإعجاب. بلغ مصروفه السنويّ مليون دولار أثناء اضطرابات العام 1979. كان أحد أساتذته في جدّة عبد الله عزّام، وهو فلسطيني، وأصبح لاحقاً المؤسس الروحي لحركة حماس، الفرع الفلسطيني للإخوان المسلمين، والمنافس الإسلاميّ لمنظّمة التحرير الفلسطينية اليسارية البعيدة عن الدين. وعلّم أستاذ آخر بن لادن، هو محمد قطب، شقيق سيد قطب، وهو أيضاً راديكالي إسلامي مصري، أُعدم في العام 1966 لدعمه إسقاط الحكومة بطريقة عنيفة. ودرس بن لادن على يديه ضرورات الجهاد الإسلامي المعاصر وفروقه الدقيقة(117).

تاريخ زيارة بن لادن الأولى لباكستان لمقابلة قادة الجهاد الأفغاني، غير معروف تحديداً. وقال بن لادن في مقابلات لاحقة معه، إنّه سافر إلى باكستان بعد الغزو السوفياتي «بأسابيع». ويرى آخرون أنه قام بزيارته الأولى بعد تخرجه بوقت قصير في جامعة الملك عبد العزيز مع شهادة في الاقتصاد والإدارة العامة في العام 1981. قابل بن لادن قادة أفغاناً في مكة أثناء الحج السنوي (علم المقاتلون الأفغان بسرعة، بفضل علاقاتهم السعودية، بأنهم سيجنون مبالغ طائلة بعيدة عن سيطرة «الآي.أس.آي.» عن طريق بيع أكواب القصدير إلى الحجاج الأغنياء). ووفقاً لباديب، أخذ بن لادن معه في رحلته الأولى إلى أفغانستان، تبرعات إلى مكتب جماعة الإسلام، قوات الصدام السياسي التابعة لضياء الحق، في لاهور. وهذه الجماعة هي الشعبة الفلسطينية التابعة للإخوان المسلمين، التي دمّر أتباعها السفارة الأميركية في إسلام آباد في العام 1979. ويذكر باديب أنّ بن لادن لم يثق بالاستخبارات الباكستانية الرسمية، وفضّل نقل المساعدات الأساسية عبر شبكات دينية وسياسية خاصة.

منذ بداية الجهاد الأفغانيّ، استعملت الاستخبارات السعودية المؤسسات الخيرية الدينية لدعم عمليتها الخاصة الأحادية الجانب. وتضمّن ذلك في الأساس تحويل الأموال والمعدات إلى القادة الأفغان المفضلين بعيداً عن سيطرة «الآي.أس.آي.» أو «السي.آي.إيه.». أنشأ باديب منازل آمنة له ولرجال الاستخبارات السعوديين من خلال الجمعيات الخيرية السعودية التي تعمل في بيشاور. كما نزل باديب بشكل مستمر في السفارة السعودية في إسلام آباد. ويذكر باديب أن «المساعدات الإنسانية منفصلة كليّاً عن الأميركيين، وأصررنا على ألا يتمكنوا من الوصول إليها أو يتدخلوا

فيها، خصوصاً في البداية»، لأنّ بعض الجهاديين الإسلاميين اعترضوا على التواصل المباشر مع «الكفّار» الغربيين(118).

بنت المؤسسات الخيرية السعودية، بتشجيع من ضياء الحق، على طول الحدود الأفغانية، مئات المدارس والمدارس الإسلامية التي تعلم اللاجئين الأفغان الصغار حفظ
القرآن. وقدم محمد باديب مساهمات شخصية لبناء مدرسته الخاصة للاجئين على الحدود. وأصرّ على أن يتركّز منهج مدرسته على المهارات الحرفية والتجارية العملية، وليس على حفظ القرآن. «اعتقدت: لمَ على الجميع أن يكونوا طلاباً دينيين؟»(119).

في لغة الجواسيس، بدأت جميع وكالات الاستخبارات الأساسية التي تساعد الجهاد الأفغاني، مثل «الجي.آي.دي.» و «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.»، «تقسيم» أعمالها، كما أنّها تعاونت بعضها مع بعض عبر اتصالات رسمية. عملت معاً على شراء عشرات آلاف الأسلحة والذخائر، وشحنها إلى الثوار الأفغان. وتجسّست كلّ واحدة منها على الأخرى بشكل منفرد، وعملت وفقاً لجداول أعمال سياسية مستقلة. واعتبر هوارد هارت، رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد حتى العام 1984، أنّه «أسوأ سر»، فالسعوديون أمرّوا سرّاً الأسلحة والأموال النقدية إلى سياف.

أصر السعوديون على ألا يحصل أيّ تفاعل بين «السي.آي.إيه.» و «الجي.آي.دي.» في باكستان.

كانت تجري اللقاءات جميعها في الرياض أو لانغلي. حاولت «الجي.آي.دي.» أن تُبقي المساعدات المالية التي تقدمها إلى «الآي.أس.آي.» خارج برنامج شراء الأسلحة، سرية. أما من جهتهم، فقد حاول ضباط «السي.آي.إيه.» حماية علاقاتهم الخاصة مع القادة الأفغان، مثل عبد الحق(120).

انتقل بن لادن بين عمليات الاستخبارات السعودية المجزأة بعيداً عن مرأى «السي.آي.إيه.». لا يحتوي أرشيف «السي.آي.إيه.» على أي سجلات حول اتصال مباشر بين أيّ من ضباطها وبن لادن في الثمانينيات. وأكد ضباط «السي.آي.إيه.» الذين أدلوا بشهادات تحت القسم أمام الكونغرس في العام 2002، أنه لم يجر أي اتصال تماماً، كما فعل ضباط آخرون في «السي.آي.إيه.» ومسؤولون أميركيون في مقابلاتهم. أصبحت «السي.آي.إيه.» على يقين بأن بن لادن عمل مع الثوار الأفغان في باكستان وأفغانستان في وقت لاحق من الثمانينيات، لكنها لم تقابله في ذلك الوقت، وفقاً لما جاء في هذه الأبحاث والمقابلات المسجلة. ولو كانت «السي.آي.إيه.» على علاقة مع بن لادن في الثمانينيات، ثمّ تسترت على الأمر لاحقاً، فقد قامت بعمل رائع حتى الآن(121).

قال الأمير تركي وعدد من ضباط المخابرات السعودية بعد أعوام، إن بن لادن لم يكن قط عاملاً محترفاً في الاستخبارات السعودية. وبينما كانت طبيعة علاقاته مع «الجي.آي.دي.» وبرنامجها، غير واضحة، بدا أن بن لادن أقام علاقة جوهرية مع الاستخبارات السعودية. واستنتج بعض

ضباط «السي.آي.إيه.» لاحقاً، أنّ بن لادن عمل رابطاً شبه رسمي بين «الجي.آي.دي.» والشبكات الدينية الإسلامية الدولية، كالجماعة والقادة الأفغان الذين تدعمهم السعودية، أمثال سياف. ووصف أحمد باديب شراكة ناشطة وعملية بين «الجي.آي.دي.» وأسامه بن لادن، وكانت العلاقة بينهما مباشرة، إلّا أنّ الأمير تركي أو أي مسؤول سعودي آخر، لا يعترف بذلك بشكل واضح. ووفقاً لحسابات باديب، فإنّ بن لادن استجاب لتوجيهات معينة من وكالتي الاستخبارات السعودية والباكستانية، في أوائل الثمانينيات، وأواسطها. وربما لم يقبض بن لادن راتباً أو أجراً منتظماً، إلا أنه كان رجلاً ثرياً. ويذكر تقرير باديب أن بن لادن أبرم صفقات لشقّ طرقات والقيام بأعمال بناء أخرى مع «الجي.آي.دي.» في تلك الفترة، في عقود درّت على بن لادن أرباحاً هائلة. كان تقرير باديب غير مكتمل وغير واضح عند بعض النقاط، فمن المعروف أنه وافق على إجراء مقابلتين في هذا الخصوص، إلا أنه لا يتحدث بعمق عن جميع نواحي علاقته ببن لادن. لكن وصفه السطحيّ للعلاقة يدلّ على أنّها كانت علاقة تحالف وطيد ومحترف. قال باديب: «أحببت أسامة، واعتبرته مواطناً جيّداً في السعودية».

يقول باديب إن عائلته وعائلة بن لادن تتحدّران من المناطق نفسها في السعودية واليمن. عندما قابل أحمد باديب أسامة للمرة الأولى في المدرسة في جدّة قبل أن يصبح باديب أحد كبار الموظفين عند تركي، «انضمّ بن لادن إلى الهيئة الدينية في المدرسة المخالفة لأي لجنة من اللجان العديدة». «لم يكن متطرفاً على الإطلاق، وأُعجبت به لأنه رجل محترم ومهذب. كان في المراتب الوسطى في المدرسة، وفي الجامعة»(122).

حثّ الجهاد الأفغاني السعوديين على العمل، فقابل بن لادن بانتظام عدداً من الأمراء القدامى - بمن فيهم الأمير تركي والأمير نايف، وزير الداخلية السعودي - الذين «أُعجبوا به وقدّروه»، كما يذكر باديب. وعندما تردّد بن لادن إلى أفغانستان، طور «علاقات قوية مع الاستخبارات السعودية ومع سفارتنا في باكستان». وقد لعبت السفارة السعودية في إسلام آباد «دوراً مهمّاً وفعالاً» في الجهاد الأفغاني. وغالباً ما أقام السفير مآدب عشاء للدعاة السعوديين الزائرين والمسؤولين الحكوميين، ودعا بن لادن إليها. كانت «علاقته بالسفير والسفراء السعوديين الذين خدموا هناك ممتازة»(123).

اعترف الأمير تركي بأنه التقى بن لادن «مرات عدة» في هذه المآدب في إسلام آباد. ويذكر تركي أنه «بدا رجلاً لطيفاً جداً وخجولاً ومتحدثاً هادئاً. وفي الواقع، لم يكثر الكلام قط». إلا أن تركي اعترف بأن هذه اللقاءات كانت عابرة ونتائجها ضئيلة. كما قال إنّ علاقته ببن لادن انحصرت بهذه اللقاءات في بداية الثمانينيات(124).

قال باديب إنه لم يلتق بن لادن سوى «بصفتي أستاذه القديم». ونظراً إلى احتلال باديب منصب كبير الموظفين، وعمله بدوام كامل قي الاستخبارات السعودية، يصعب تصديق هذا الأمر. وقد

وصف باديب علاقة ناشطة أكثر بكثير من علاقة محصورة ببضعة أحاديث في مآدب دبلوماسية. ويذكر أن السفارة السعودية في إسلام آباد، «سألت بن لادن عن بعض الأمور، وردّ بالإيجاب»، كما أن «الباكستانيين رأوا فيه رجلاً يساعدهم على تحقيق مرادهم». وأنشأ باديب منازل آمنة بفضل أموال الجمعيات الخيرية، وكان «دور بن لادن في أفغانستان، وقد كان في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين في ذلك الوقت، يقضي ببناء الطرقات في البلاد لتسهيل عملية نقل الأسلحة إلى المقاتلين». ورأى الأفغان أن بن لادن «رجل لطيف وسخي، يملك الأموال، ولديه معارف كثيرة بين المسؤولين الحكوميين السعوديين».

ويصف كبير الموظفين في مديرية الاستخبارات السعودية الأمر ببساطة: «سررنا بالتعامل معه، كان رجلنا، ينفّذ كلّ ما نطلبه منه»(125).

حتى الآن.

# 5
# لا تجعلوا الحرب حربنا

أرسل مدير «السي.آي.إيه.»، ويليم كايسي، في كانون الثاني/يناير 1984، إلى الرئيس ريغان ومجلس الأمن القوميّ الأميركي، مذكرة حول تقدّم الحرب الأميركية السرية في أفغانستان. مضت أربع سنين على وصول أولى بنادق لي إنفيلد إلى كاراتشي. قتل المحاربون الأفغان، أو جرحوا، سبعة عشر ألف جندي سوفياتي حتى ذلك الوقت وفقاً لتقديرات «السي.آي.إيه.» السرية. وسيطروا على 62 في المئة من الريف الأفغاني، وأصبحوا أقوياء إلى درجة أجبرت السوفيات على زيادة انتشارهم في أفغانستان ثلاث أو أربع مرات لوقف الثورة. كما دمّر الجهاديون حوالى 2750 دبابة سوفياتية وناقلات مدرّعة، و8000 شاحنة وسيارة جيب ومركبات أخرى. وكلفت الحرب الحكومة السوفياتية خسائر مباشرة بقيمة 2,1 مليار دولار. وصرّح كايسي أنّ الأميركيين الخاضعين للضرائب قد دفعوا حتى الآن 200 مليون دولار ثمن هذا الدمار، بالإضافة إلى 200 مليون دولار أخرى ساهم بها الأمير تركي، مدير «الجي.آي.دي.». إلا أن برهان هوارد هارت، رئيس مركز إسلام آباد، الذي يؤكّد أنّ العمليات السرية في أفغانستان مكلفة جدّاً بصرامة، لم تُعرض أمام البيت الأبيض(126).

كان كايسي في بداية العام 1984، الأكثر اندفاعاً بين المؤمنين الحقيقيين بالجهاد. بعد وصوله إلى مقرّ «السي.آي.إيه.» الرئيسي في عاصفة من الخلافات والطموحات في العام 1981، استغرق كايسي سنة أو سنتين للتركيز على تفاصيل البرنامج الأفغاني. وقد أصبح الآن بطله. قطع المحيطات على متن طائرة «سي 141» لمقابلة تركي وأخطار وضياء الحق. وأبرم صفقات ضاعفت عند نهاية السنة المبالغ التي أنفقتها «السي.آي.إيه.» و «الجي.آي.دي.» على المقاتلين الأفغان. وبدأ يصادق على عمليات استفزازية تتجاوز حدود القانون الأميركي، أو أقله يسمح بها. قام الثوار الأفغان المزوَّدون صواريخ الهاون والمراكب وخرائط الأهداف، وحاملين القرآن الكريم الذي طبعته «السي.آي.إيه.» بلغة الأوزبك، بقطع نهر أموداريا لتنفيذ عمليات تخريب، ونشر الدعوة داخل وسط آسيا السوفياتية. وشكّلت التوغلات أول النشاطات الثورية العنيفة التي دعمها الخارج على الأراضي السوفياتية في أوائل الخمسينيات. وهذه العمليات هي الأحب إلى قلب كايسي(127).

واجه كايسي معارضة داخل «السي.آي.إيه.». فنائبه الرئيسي، بوبي راي إنمان، رأى أن العمليات السرية هي بمنزلة تسوية سريعة وساذجة. وبعد رحيل إنمان، خشي نائب كايسي الثاني، جون ماكماهون، وهو عسكري يتحدر من أصول أيرلندية، فظّ في قسم أقمار التجسس التابع للوكالة، باستمرار، أن يحدث شيء سيئ داخل البرنامج السري الأفغاني، وأن تتعرض الوكالة لانتقادات من الكابيتول هيل. تساءل عن أهداف الحرب الأميركية السرية في أفغانستان، وعن إمكانية مواصلتها، وعن تركيز إدارة ريغان الكافي على الوسائل الدبلوماسية لإجبار السوفيات على

الرحيل. أراد ماكماهون تنظيم خطوط إمدادات الجيش الأفغانية بطريقة دفاعية عبر إرسال الأسلحة الأساسية فحسب، وحفظ السرية إلى أقصى الدرجات الممكنة. ويذكر توماس تويتن، أحد زملاء ماكماهون القدامى في الخدمات السرية: «أثيرت بلبلة بين ما أسميه البيروقراطيين الحساسين الذين كنت من بينهم، واليمين المتطرف. وكما قال محلل «السي.آي.إيه.» في القسم السوفياتي التابع لمديرية الاستخبارات لكايسي، فإنه ما من كمية مساعدات للأفغان قد تجبر السوفيات على الانسحاب من أفغانستان. وورد في تقييم سري أن الجيش السوفياتي سيضغط على الثوار الأفغان إلى أن «ترتفع تكاليف المقاومة المتواصلة، إلى درجة لا يستطيع الثوار تحملها». واعتبر هؤلاء المحللون أنّ اقتصاد السوفيات وقوتهم العسكرية كبيران وواسعان، ولا يمكن أن يهتزا. ورأى كايسي من جهته أيضاً، أن الاتحاد السوفياتي عملاق جبار. لكنّه أراد مواجهة الشيوعيين في نقاط ضعفهم، فشكلت أفغانستان هذه النقطة(128).

سلّمت انتخابات ريغان السلطة في واشنطن إلى شبكة من المحافظين، من بينهم كايسي، الذي كان مصمماً على تحدي القوة السوفياتية في العالم. وشملت نظرتهم الناشطة والمتحدية للمخاطر، المنافسة القائمة بين القوتين العظميين بأكملها. وافقوا على استعمال نظام دفاع يشمل صاروخ «ستار وورز» للقضاء على خطر الصواريخ النووية السوفياتية. ودعموا انتشار صواريخ برشينغ الجديدة المتوسطة المدى في أوروبا، لزيادة خطر الغزو السوفياتي هناك. قادهم ريغان بنفسه، ولم يتحدثوا عن الاتحاد السوفياتي بلغة هادئة ومعتدلة، بل استخدموا عبارات دينية عن الخير والشر. استعدوا لإطلاق عمليات سرية حيثما يستطيعون، لزعزعة القوة السوفياتية، بغية دعم حركة العمال التضامنية في بولندا، وتسليح الثوار ضد الشيوعيين في أميركا الوسطى وأفريقيا. وبدا المسرح الأفغاني متأثراً بكايسي وحلفائه المحافظين بشكل خاص، بسبب اعتداء الاتحاد السوفياتي العنيف
واستعمال الجنود السوفيات وعنفهم بطريقة مباشرة، ومن دون تمييز ضد المدنيين الأفغان.

أراد بعض أعضاء الكونغرس في العام 1984، أن تقوم «السي.آي.إيه.» بالمزيد من أجل الثوار الأفغان. حصل برنامج العمليات السرية الأفغاني على موافقة سلمية من الكابيتول هيل مقارنة بالجدل والسجالات المشتعلة حول قضية نيكاراغوا. وكان بطل البرنامج المجنون، النائب تشارلي ويلسون، وهو ديموقراطي طويل وضخم من تكساس ينتعل حذاء راعي بقر مصقولاً، جزءاً مما أسماه لاحقاً «أزمة منتصف العمر الأطول في التاريخ». استغلّ ويلسون السكّير، امتيازات الحكومة للسفر إلى جميع أنحاء العالم في الدرجة الأولى بصحبة ملكات جمال سابقات فزن بألقاب، مثل ملكة جمال البحر والسماء، وملكة جمال النفط الوضيع. ثم أصبح ويلسون منجذباً إلى المجاهدين عن طريق الخطأ، أو بفعل القَدَر، كما يقول. وغالباً ما سافر ويلسون بصحبة مجموعة غريبة من الاشتراكيين الناشطين ضد الشيوعيين من تكساس، لرؤية ضياء الحق، وزيارة خيبر باس الذي يطل على أفغانستان. كان على علاقة ببعض الأفغان، ويعرف القليل عن تاريخ أفغانستان وثقافتها. ونظر إلى الجهاديين في عزّ سطوة الخمرة عليه، واعتبرهم يحاربون من أجل حريتهم، وصوّرهم كأنّهم تقريباً شخصيات مقدسة. واستغل ويلسون رحلاته إلى الحدود الأفغانية ليثير إعجاب مجموعة صديقات بمقدار قوّته.

تذكر ملكة جمال النصف الشمالي من الكرة الأرضية، التي تُعرف أيضاً باسم سنوفلايك، رحلة قاما بها إلى بيشاور: «من المثير جدّاً الجلوس في غرفة مع هؤلاء الرجال ذوي الأسنان الكبيرة البيضاء». لقد «كان الأمر سرياً جداً»(129).

بدأ ويلسون في العام 1984، إدخال المزيد من الأموال وأنظمة الأسلحة المتطورة، في الميزانية السرية التي تخصصها «السي.آي.إيه.» لأفغانستان، حتى عندما لم تكن لانغلي مهتمة بالموضوع. وحثت جماعات صغيرة ومتحمسة معادية للشيوعيين، ويلسون على البرهان أنّ سلوك «السي.آي.إيه.» غير المبالي تجاه الجهاد، يعود إلى سياسة محاربة السوفيات «حتى آخر أفغاني»، ضارباً المَثل بمكماهون. لقد أرسلت الوكالة كمية من الأسلحة تكفي لضمان قتل عدد كبير من الأفغان الشجعان في المعارك، إنّما لا تكفي لمساعدتهم على النصر. وقد أكد القرار الذي دفعه ويلسون إلى داخل الكونغرس، أنّه «ما من عذر يبرر تزويد «المحاربين عن الحرية» مساعدة تكفيهم ليحاربوا ويموتوا، ولا تكفيهم لتقدّم قضية حريتهم». وقال لأعضاء مجلس الكونغرس عشية تصويت حاسم حول مسألة التمويل: «لا علاقة للولايات المتحدة على الإطلاق بقرار هؤلاء الأشخاص الذي يقضي بالقتال. اتخذوا قرارهم عشية عيد الميلاد، وسيحاربون حتى النهاية، حتى لو اضطروا إلى المحاربة بالحجارة. لكن التاريخ سيلعننا لو سمحنا لهم بالمحاربة بالحجارة»(130).

لقيت هذه الحجج أصداءها عند ويليم كايسي. كان كايسي حفيد مالك حانة أيرلندية، وفي الواحد والسبعين من عمره، وقد أصبح مليونيراً كبيراً بفضل جهوده. تميّز بعقائده الشغوفة بالإيمان المسيحي، وحماسته ضدّ الشيوعيين، وبدا مختلفاً عن عدد كبير من الضباط الذين خدموا في لانغلي. استلهم المحترفون في قسم الخدمات السرية حماسة كايسي للعمليات السرية الخطيرة، لكن خشي بعضهم، مثل ماكماهون، أن يراهن على مصداقية «السي.آي.إيه.» ويخسر. لكن، بالرغم من ذلك، أحبوا طاقته وسلطته. وفي أواسط الثمانينيات، أصبح كايسي الرجل الأكثر تأثيراً في إدارة ريغان بعد الرئيس، فهو قادر على نص سياسات خارجية، والحصول على دعم، حتى من أجل المخططات الأكثر خطورة. انتهك ريغان قراراً قانونياً، وعيّن كايسي عضواً دائماً في إدارته. أصبح واضحاً أن كايسي سيكون أهمّ مدير «السي.آي.إيه.» على مدى جيل.

كان في بداية حياته صليبياً انتقائياً، فتنمّر على خصومه وتفادى التقيد بالقوانين. ركّز اهتمامه على الاتحاد السوفياتي. آمن بأن الصراع الزمني بين الولايات المتحدة والسوفيات لن يُحَل في سباق الأسلحة النووية وفي حرب في أوروبا. اقتنع كايسي من خلال قراءته عقيدة السوفيات وتاريخهم، بأن المكتب السياسي المعمّر الذي تسيطر عليه «الكي.جي.بي.»، والتابع لأندروبوف، حاول تفادي تبادل نووي مع الغرب. فبدلاً من ذلك، تبعوا عقيدة بريجينيف من خلال شنّ حملة بطيئة، عبر الأجيال إن استلزم الأمر، لإطاحة الديموقراطية الرأسمالية في أميركا، وتشويهها من خلال ترويج الماركسية في حروب «التحرير الوطني» القائمة في العالم الثالث. ورأى كايسي نفسه الشخص

الوحيد في إدارة ريغان الذي يفهم كلياً هذه الاستراتيجية السوفياتية المتماسكة. وقد هيأ نفسه لمواجهة الشيوعيين على الأرض التي اختاروها.

كان فارساً كاثوليكياً من مالطا، وتعلّم على أيدي اليسوعيين. ملأت تماثيل العذراء مريم قصره، ميريكنول، في لونغ آيلند. وشارك في القداس يومياً، وحفّز كلّ من طلب نصيحته على اعتناق الإيمان المسيحي. وما إن استقر في «السي.آي.إيه.»، حتى بدأ يجمع مساعدات للعمليات السرية من خلال الكنيسة الكاثوليكية ليقدّمها إلى محاربي الشيوعية في بولندا
وأميركا الوسطى، وقد اخترق في بعض الأحيان القانون الأميركي. آمن بشدة بأنه سيحدّ من تمدّد الشيوعية، أو يعكسه من خلال توسيع نطاق الكنيسة الكاثوليكية وقوتها(131).

شدّد كايسي، مثل ريغان، على دور الإيمان المسيحي بشكل خاص في المهمة المعنوية لهزم السوفيات، إلا أنه كان عملياً أكثر من الرئيس. أرسل جواسيس إلى ما بعد خطوط العدو في الحرب العالمية الثانية، وأنشأ تجارة بفضل صفقات بارعة وقضايا قانونية عديمة الرحمة. أحاطت به في لانغلي مجموعة من تلاميذ هنري كيسنجر، أنصار السياسة الواقعية. كان كايسي مهرّب أسلحة سريع الانفعال، وكاثوليكياً متديناً. لم يسعَ إلى إقامة أي نزاع، إنما عمل على فرض القوانين من أجل الخير الأعظم.

على أي حال، بدا أنّ تديّن كايسي قرّبه أكثر من حلفائه الإسلاميين المهديين في الجهاد الأفغاني. شعر عدد من المسلمين بالتقدير تجاه المسيحية في بنية إيمانهم، وقبلوا اعتبار بعض نصوصها بمنزلة كلام الله. أُنشئت مدارس كاثوليكية في باكستان، وتحمّل ضياء الحق على مضض الأقلية المسيحية في البلاد. كان الوهابيون السعوديون أقل ارتياحاً إلى هذا الأمر. وفي إحدى المرات، عندما كان كايسي مسافراً سرّاً إلى السعودية للتفاوض مع الأمير تركي، طلب من رئيس مركزه إيجاد قداس كاثوليكي له ليشارك فيه أثناء وجوده في الرياض في أحد عيد الفصح. حاول الرئيس إقناعه بالعدول عن ذلك، فالعبادة المسيحية الرسمية في المملكة محظورة. لكنّ كايسي أصرّ على ذلك، فعمل الأمير تركي جاهداً لإعداد خدمة قداس خاصة(132). رفض العلماء السعوديون التعددية الدينية، إلا أنّ عدداً كبيراً من أفراد العائلة المالكة، بمن فيهم الأمير تركي، احترموا الإيمان الديني غير الملزم، حتى الإيمان المسيحي. ربح كايسي ولاء «الجي.آي.دي.» إلى درجة أنّ الاستخبارات السعودية قبلت، بعد موافقة الملك فهد، تمويل مغامرات كايسي الأكثر خطورة ضدّ الشيوعيين في أميركا الوسطى بطريقة سريّة.

لحم كايسي التحالف بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات السعودية وجيش ضياء الحق، أكثر من أي أميركي آخر. ولم يرَ كايسي وحلفاؤه الإسلاميون أنّ الجهاد الأفغانيّ حنكة سياسية، إنما جبهة هامة في الصراع العالمي بين «الإلحاد» الشيوعي ومجتمع المؤمنين بالله.

كان زملاء كايسي في الجامعة، أبناء رجال شرطة وإطفاء في مدينة نيويورك. ستون في المئة من بينهم أيرلنديون كاثوليكيون، وآخرون إيطاليون. استقل كايسي الحافلة إلى جامعة فوردهام في البرونكس من منزل عائلته المتواضع في كوينز. وتسبب الحرمان المريع في بداية الثلاثينيات، أثناء فترة الكساد، في انجراف عدد كبير من الشبان الأميركيين المنتمين إلى الطبقات المتوسطة الأشدّ فقراً نحو الراديكالية التي بشّرت بالإنصاف الاشتراكي، وحتى الوحدة الشيوعية. لكن، ليس ويليم كايسي. كان والده موظفاً في قسم الصحة العامة في المدينة، وأحد عشرات آلاف الأيرلنديين الذين يَدينون بعملهم الحكومي لآلة الرعاية الديموقراطية. لكن كايسي انفصل باكراً عن إرث عائلته السياسي الليبرالي. فقد ملأ أساتذة فوردهام اليسوعيون رأسه بحجج قوية وعقلانية، تفيد بأن الكاثوليكية هي الحقيقة. قالت زوجته لاحقاً إنّ اليسوعيين «ساعدوه على اكتشاف ذاته». لم يكن صارماً. ففي فوردهام، أسرف في تناول المشروبات مع أصدقائه، وردد أناشيد الجيش الأيرلندي، وهو يترنح عائداً إلى منزله(133).

في 12 تموز/يوليو1941، قبل خمسة أشهر على واقعة برل هاربر، أسس الرئيس فرانكلن روزفلت مكتب منسق المعلومات، وهو وكالة الاستخبارات المدنية المستقلة الأولى في أميركا التي تركز على المخاطر الخارجية. وعين ويليم جوزيف دونوفان المدير الأول، وهو محام أيرلندي كاثوليكي ثريّ في نيويورك. أدار دونوفان مهمتي استقصاء خاصتين من أجل روزفلت في أوروبا، وحثّ الرئيس على إنشاء وكالة تجسس خارج نطاق الجيش، أو «الأف.بي.آي.» وبعد عام على تأسيس الوكالة، أطلق عليها روزفلت من جديد اسم مكتب الخدمات الاستراتيجية، أو «الأو.أس.أس.»

كان كايسي، في أيلول/سبتمبر 1943، ملازماً أدنى مرتبة في البحرية، وشغل منصب منسق إنتاج مراكب إنزال، يخلط الأوراق حول مكتب واشنطن المكتظ. قرّر عدم «تمضية فترة الحرب بحثّ بنّائي السفن على العمل». وعلم من خلال الإشاعات المنتشرة في مكتبه، بأمر التجهيزات التي يشار إليها بعبارة «سرية جداً». تعرف كايسي إلى محام يعرف دونوفان، وحاول فرض نفسه. تمّت مقابلته، ومارس ضغوطاً قدر استطاعته، ووجد نفسه في غضون أسابيع أمام دونوفان شخصيّاً، الذي كان رجلاً سميناً ممتنعاً عن تناول الكحول، وذا شعر أشيب، وعينين زرقاوين، ووجنتين حمراوين، وشهية كبيرة للأفكار الجديدة. لم يكن دونوفان يخشى أي شيء في معاركه ضدّ الخصوم، كما كان عنيداً في مسألة بناء إمبراطورية حكومته، وقد كسب ولاء روزفلت الشخصي. وظّف من أجل استخباراته القليلة الخبرة، دوبون ومورغان وميلونز، ومن يسمّيهم محرر في صحيفة في واشنطن
«لاعبي بولو سابقين، وأثرياء، وأمراء روساً، وفتياناً من المجتمع، ومحققين هواة». ومع احتدام الحرب في شمال أفريقيا والمحيط الهادئ، ارتفع عدد موظفي «الأو.أس.أس.» إلى خمسة عشر ألف موظف. وقد فاز كايسي بوظيفة في المركز الرئيسي، غيرت حياته ومصيره(134).

قال كايسي لاحقاً: «كنت مجرد فتى من لونغ آيلند». «لم أكن يوماً على اتصال مباشر برجل من محيط دونافان. كان أكبر من الحياة... راقبت طريقة عمله. وبعد فترة، فهمت. لا تنتظر ستة أشهر

كي تبرهن دراسة ما أن الفكرة قابلة للتطبيق، عليك أن تراهن على نجاحها»(135).

انتقل كايسي إلى لندن. واستقل، بعد تسعة عشر يوماً على بدء معركة النورماندي، مركبة برمائية، وانتقل إلى شاطئ أوماها في النورماندي. منع البريطانيون «الأو.أس.أس.» من إدارة عمليات التجسس الخاصة بها في أوروبا. تحدّثوا بشكل خاص عن قيام الجواسيس على الأراضي الألمانية، بمهام محكوم عليها بالفشل، قد تسبب خسائر فادحة في أرواح العملاء. بعد غزو النورماندي، أظهر البريطانيون بعض الرحمة. وفي أيلول/سبتمبر 1944، كتب كايسي إلى دونوفان برقية سرية عنوانها «برنامج «أو.أس.أس.» ضدّ ألمانيا». أشار فيها إلى أنّ مئات آلاف العمال الأجانب في ألمانيا، بمن فيهم الروس والبولنديون والبلجيكيون والهولنديون، يتنقلون بحرية داخل البلاد وخارجها مستعينين بأوراق قانونيّة. قد يكون المنفيون من هذه البلدان عملاء منتشرين خلف الخطوط النازية، ومتخفين بهيئة عمّال. وفي كانون الأول/ديسمبر، قال دونافان لكايسي: «أعطيك تفويضاً مطلقاً... أَدخلْنا ألمانيا»(136).

عندما وظّف كايسي بعض العملاء ودربهم، استنتج على مضض أنّ عليه العمل مع شيوعيين. فهم الوحيدون المندفعون كفاية في معتقداتهم لتحمل المخاطر الجمّة. قال كايسي لاحقاً إنّ دونافان علّمه أنّ «الممتاز» ليس بالضرورة عدو «الجيد». ففي عهد هتلر، حارب شراً أعظم، ووظّف حلفاء بغيضين، عندما احتاج إليهم.

أنزل كايسي ثمانية وخمسين فريقاً، يتألف كلّ واحد من رجلين، بالمظلات داخل ألمانيا، في نهاية شهر نيسان/أبريل العام 1945. انطلقوا في الليل من مطارات في سوري في إنكلترا. توفي بعضهم في إثر تحطم طائرات، وأنزل فريق عن طريق الخطأ قرب وحدة من «الأس.أس.» تشاهد فيلماً في الهواء الطلق. لكن عدداً كبيراً منهم نجا وتابع تقدمه، بينما انهارت ألمانيا. في النهاية، رأى كايسي في تقييم سريّ، أنّ حوالى 60 في المئة من مهامه نجحت. أرسل رجالاً ليلقوا حتفهم، إنّما من أجل قضية صالحة. لم يقدم شكاوى كبيرة حول توغل عملائه، وقال لاحقاً: «أنقذنا بعض الأرواح». ربّما القيمة الكبرى هي «عملنا للمرة الأولى وفقاً لخطّتنا». واستنتج أنّه كان بإمكان «الأو.أس.أس.» إدارة عملاء في ألمانيا بطريقة ناجحة قبل سنة. انزعج لأعوام بسبب الحظر البريطاني على عمليات مماثلة. من يدري عدد الأرواح التي كان بإمكانهم إنقاذها؟(137).

ربح كايسي بعد الحرب، ثروة في نيويورك من خلال تحليل سقف الضرائب، ونشر أبحاث. انخرط قليلاً في السياسات الجمهورية، وقبل منصب رئيس لجنة الأمن والتبادل أثناء حكم الرئيس نيكسون. أبرم اتفاقيات سرية، وأبقى استثماراته مبهمة، وبالكاد هرب من واشنطن مع سمعته. ومع تقدمه في السن، تحرق شوقاً من جديد إلى احتلال مراكز عالية وتسلم مسؤوليات كبيرة. دُعي إلى ترؤس حملة رونالد ريغان الرئاسية، والمساعدة على انتزاع الفوز الأوليّ الشهير في العام 1980 على جورج بوش في نيو هامبشاير. وبعد الفوز على جيمي كارتر، انتقل إلى واشنطن للانضمام إلى الإدارة الأميركية. اختار أولاً وزارة الخارجية، لكن عندما عرضوا عليه إدارة

«السي.آي.إيه.» لم يستطع كايسي أن يقاوم، بسبب تاريخه مع دونافان و «الأو.أس.أس.». إنه يستطيع التغلب على الإمبراطورية السوفياتية بالأساليب نفسها التي ساعدته على التغلب على ألمانيا، وبالروح نفسه.

أطلّ موقع «السي.آي.إيه.» الرئيسي على نهر بوتوماك، وامتد على طول موقع حرجي خلف سياج من السلاسل والأسلاك الشائكة. ما كان بالإمكان تمييز المجمع من مركز رئيسي لشركة تصنيع أدوية لولا الصحون اللاقطة والهوائيات على سطح المبنى. أطلّ مكتب المدير الذي يقع في الطابق السابع في مبنى من الإسمنت والزجاج قرب وسط الحرم على غابة ريفية. كان المكتب كبيراً من دون أي زخرفة، ويتمتّع بمصعده الخاص، ويضم غرفة طعام وحمّاماً مع مكان للاستحمام. انتقل كايسي إلى هناك، وبدأ التنقل في المكان كما لو كان يملكه. وحضّ، في اجتماعات التاسعة صباحاً التي عقدها ثلاث مرات في الأسبوع، مساعديه الأربعة عشر الأبرز على العمل.

كتب لاحقاً لريغان أنّه «تمّ السماح [لـ «السي.آي.إيه.»] بتخفيض عدد الموظفين ذوي المراكز الرفيعة والقدرات العالية». وكما قال مساعد كايسي التنفيذي، روبرت غايتس،
عندما أخبر الرئيس الجديد بما أراد سماعه: «تحوّلت «السي.آي.إيه.» شيئاً فشيئاً إلى وزارة للزراعة». أراد كايسي توظيف المزيد من العملاء، ليعملوا خارج السفارات، مستخدمين ما تسميه الوكالة «تغطية غير رسمية»، بصفتهم رجال أعمال وأساتذة. وأراد التركيز أكثر على مجتمعات المهاجرين الأميركيين لإيجاد عملاء يستطيعون دخول مجتمعات أجنبية. كان يتصرّف كرجل مضطرب. ويذكر غايتس أنّه في لقائهما الأوّل: «اقتلع الرجل العجوز الأصلع والطويل والمحدودب قليلاً، مقبض الباب وهو يفتحه، وطلب من لا أحد «كأسي مارتيني»». انتشر «الذعر في المكتب الخارجي» لأنّ بذلة المدير كانت جافة تحت إدارة ستانسفيلد تورنر. فكر غايتس في سرّه في أنّ هذا هو كايسي. «يطلب تنفيذ أمر ما على الفور، بينما لا تملك الوكالة القدرة على القيام بذلك. ويُمطر أقرب شخص منه بالتعليمات، سواء أكان على علاقة بالمسألة أم لا. ولا ينتظر كي يؤكد له أي كان أنّه سمعه»(138).

كان من الصعب سماع كايسي لأنه يتمتم. كان مساعدوه التنفيذيون، في مجال الأعمال، يرفضون أن يُملي عليهم نصاً لأنهم لا يفهمون ما يقوله. تلقى ضربة على حلقه عندما كان يلاكم في صغره، كما لديه حنك سميك فترفض الكلمات أن تطفو بين هذين الخللين. كان أحمد باديب، قائد الأركان عند الأمير تركي، وأطلق عليه اسم «الرجل المتمتم». حاول باديب ترجمة كلامه في اللقاءات مع الأمير المتوج فهد، وما كان باستطاعته سوى الاستهجان. حتى الرئيس ريغان، لم يكن يفهم ما يقوله. قال ريغان لاحقاً لويليم باكلي، إنّه وضع في تلخيص سلمه كايسي إلى وزارة الأمن القومي، ملاحظة لنائب الرئيس بوش: «هل فهمت أي كلمة قالها؟». «مشكلتي مع بيل، هي أنّني لم أكن أفهم ما يقوله في الاجتماعات. تستطيع أن تطلب من شخص ما أن يكرر كلامه مرة، أو مرتين، لكن لا يمكنك طلب ذلك مرة ثالثة، لأنّك ستبدو فظاً. لذا أُومئ برأسي من دون أن أفهم ما يقوله في الواقع». هذا هو الحديث الذي دار مدة ستة أعوام بين الرئيس ورئيس الاستخبارات في بلاد مسلحة نووياً، تدير حروباً سرية على أربع قارات. كان كايسي حساساً تجاه المشكلة، فيقول:

«التمتمة موجودة في ذهن المستمع أكثر منها في فم المتحدث»، «فبعضهم لا يريدون معرفة رأي مدير الاستخبارات المركزية، في العالم المعقد والخطير»(139).

يعتقد كايسي أن مرشده، دونافان، قدّم «السي.آي.إيه.» إلى الولايات المتحدة «كإرث ليتأكّد من عدم تكرار برل هاربر». وبما أن كايسي يعتبر السوفيات وحدهم مسؤولين عن هجوم مفاجئ على مرفأ برل هاربر، ركز كلياً على نيات موسكو. اعترف كايسي بأن أقمار التجسس الاصطناعية ومجموعة الإشارات، سمحت بإنذار الولايات المتحدة قبل ضربة عسكرية سوفياتية. ومن هذا المنطلق، حقق دونافان هدفه. لكن كايسي رأى أنّه لا يجب أن ينحصر عمل «السي.آي.إيه.» بمراقبة السوفيات أو سرقة أسرارهم، وقال: «ساحة المعركة الرئيسية» في المواجهة الأميركية ضد الماركسية واللينينية «ليست على نطاق اختبار الأسلحة أو طاولات الحوار بشأن التحكم في الأسلحة، إنما في ريف العالم الثالث». اتّبع السوفيات استراتيجية «الامبريالية الزاحفة»، وسعوا وراء هدفين: «المضيق بين أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية» و «حقول النفط في الشرق الأوسط، التي تُعتبر حبل النجاة بالنسبة إلى التحالف الغربي». يعتقد كايسي أن الهدف الأخير يُبرر الغزو السوفياتي على أفغانستان(140).

وضع نيكيتا خروتشوف في العام 1961، خططاً سوفياتية للاستيلاء على أراضٍ في جميع أنحاء العالم، من خلال دعم حركات يسارية ثورية في حروب التحرير الوطنيّ. وقام الجيل التالي من القادة السوفيات بإعادة تأكيد عقيدة خروتشوف. وبينما فشل القادة الأوروبيون في فهم أنّ هتلر عنى حرفيّاً ما قاله عندما أعلن في كتاب «مين كامبف» أنّه يخطط للاستيلاء على البلدان المجاورة، وضعت الولايات المتحدة نفسها في خطر، بسبب فشلها في استيعاب طموحات الاتحاد السوفياتي المعلنة، ومواجهتها. قال كايسي: إن دور «السي.آي.إيه.» الآن يكمن في برهنة «أن اثنين يستطيعان المشاركة في اللعبة نفسها. ومع وجود صيغة كلاسيكية للتآمر والغزو الشيوعي، ثمّة وسيلة مضمونة لإطاحة حكومة قمعية يمكن أن تطبق بنجاح في العالم الثالث». حاول في أفغانستان «إنجاح» «الوسيلة المضمونة» التي تكمن في نشوب حرب العصابات ضدّ الشيوعيين. وأثبتت تقاريره السرية التي أرسلها إلى ريغان، أنّ «عدد الرجال الضروري لوضع الحكومة في حالة الدفاع، أقلّ من العدد المطلوب لحمايتها». وقال كايسي في مناسبة أخرى: «صعّب مقاتلو الحرية الأفغان على أيّ جندي روسي، أو موكب سوفياتي، الشرود عن طرق رئيسية، كما كان الوضع بالنسبة إلى الألمان في فرنسا العام 1944»(141).

رأى كايسي أن الإسلام السياسي والكنيسة الكاثوليكية حليفان طبيعيان في «الاستراتيجية المضادة الواقعية» للعمليات السرية التي صاغها في «السي.آي.إيه.»، بغية التصدي للامبريالية السوفياتية. وأثّر روبرت آيمز، أحد محللي «السي.آي.إيه.» في الشرق الأوسط، في رأي كايسي في الدور الذي يلعبه الدّين في هذه الحملة. وفي العام 1983، أطلع آيمز كايسي على بعض القضايا، مثل قضية جنوب اليمن حيث تحكّم السوفيات في

تعليم شبّان حذف القيم الدينية من أجل تمهيد الأرض للانتشار الشيوعي. ويذكر كايسي أن آيمز قال: إنّ السوفيات يسعون وراء أهدافهم في العالم الإسلامي من خلال توظيف «ثوار شبان» لديهم القدرة على تغيير أنظمة التعليم في أمّتهم من أجل «استئصال العناصر التقليدية من المجتمع وتغييرها في النهاية». و «عنى بذلك إضعاف تأثير الديانة، وإبعاد الصغار عن أهلهم من أجل تعليمهم الحكومي». وقد عارض التعليم الديني الذي تمتّع به كايسي، التكتيك السوفياتي، سواء أكان هذا التعليم مبنياً على معتقدات إسلامية أم مسيحية. وبما أنّ السوفيات اعتبروا الإيمان المسيحي عائقاً، فقد دمروا الكنائس والمساجد، على السواء. ومن أجل الردّ على ذلك، لا بدّ من تعاون المقاتلين الإسلاميين والمسيحيين في قضية واحدة(142).

تضمن معظم رحلات مدراء «السي.آي.إيه.» تبادل أحاديث مع نظرائهم. كانت طباع كايسي صعبة جداً. لم يُكثر الحديث. وكما يقول زميله دائماً «يأكل كأنّه جائع»، فيوقع في بعض الأحيان الطعام على صدره. لكنه عمل على تقاريره من دون تعب. زُوّدت طائرة ستارليفتر السوداء مقصورة من دون نوافذ، موضوعة في حجرة الحمولة الواسعة، في داخلها وسائد وسرير وطاولات عمل وخزانة مشروبات من أجل جولاته العالمية. وكي يحافظ على سلامته، عمد إلى السفر والعودة في الليل متى استطاع ذلك، وعمل على وضع جدول أعمال يرهق الشبان.

كانت رحلات كايسي التي ترتكز حول موضوع أفغانستان، تحضره أولاً إلى السعودية. فيلتقي بانتظام الأمير تركي، وفي بعض الأحيان وزير الداخلية الأمير نايف، وعادة الأمير المتوّج والملك. وعمل الوزراء السعوديون غالباً في الليل عندما تنخفض حرارة الصحراء، حتى أنّهم يُبقون زوارهم المهمين ينتظرون طويلاً في غرف انتظار مطلية بالذهب، وملأى بالأثاث في قصورهم ومكاتبهم، بحسب عاداتهم الأرستقراطية. كان كايسي يدمدم ويتمتم بفارغ الصبر. استدعاه الملك خالد ليُريه قطيعاً من الحيوانات المنتجة للألبان، تديره عائلة أيرلندية، ثمّ أرسله في سيارة جيب لرؤية قطيع من الجِمال المَلَكية. لم يكن كايسي يتحمل جولات مماثلة، واصفرّ وجهه عندما قدّم إليه الملك كوباً من حليب الناقة الساخن.

علم كايسي أن الاقتصاد السوفياتي يعتمد على الإيرادات النقدية الصعبة التي تنتج من تصدير النفط، وحث السعوديين على استعمال نفوذهم في الأسواق النفطية لتعديل الأسعار، وحرمان السوفيات من أي كسب مفاجئ تولده الأوبك. وبالطبع، ساعد انخفاض أسعار النفط الاقتصاد الأميركي. فهمَ السعوديون تأثيرهم في السوفيات والأميركيين، وقايضوا الخدمات النفطية ببرودة مثل الباعة(143).

في باكستان، حطت طائرة كايسي ليلاً في مطار إسلام آباد المدني والعسكري. انتظره الجنرال أخطار ورئيس المركز على المدرج لمقابلته. جرت لقاءات رسمية سابقة في مقرّ «الآي.أس.آي». الرئيسيّ، حيث راجع فريقا الاستخبارات تفاصيل حول إرسال الشحنات إلى المجاهدين. اعتبر جنرالات «الآي.أس.آي.» أنّ كايسي حليف متسامح يركّز دائماً على الصورة الإجمالية، ويسرّ

للسماح لـ «الآي.أس.آي.» باتخاذ القرارات التفصيلية على الأرض حتى عندما لا يوافق ضباط «السي.آي.إيه.» على هذه المسألة. شرح كايسي أن أخطار «متورط كلياً في الحرب، ويعرف متطلباتها أفضل من أي شخص آخر. وعلينا بكل بساطة دعمه». وقدم الجنرال أخطار، في إحدى الرحلات، إلى كايسي، سجادة بقيمة 7 آلاف دولار(144).

قال كايسي لزملائه: «ها هو جمال العملية الأفغانية». «يبدو عادة أنّ الأميركيين الكبار والأشرار يهزمون المحليين. لكنّ الوضع في أفغانستان معكوس. فالروس هم من يهزمون الصغار. لا نريد أن نجعلها حربنا. فالمجاهدون يملكون جميع الحوافز التي يحتاجون إليها. كلّ ما علينا فعله هو تقديم المساعدة إليهم، والمزيد من المساعدة»(145).

تضمّنت زيارات كايسي في الإجمال ولائم عشاء مع ضياء الحق في مركز الجيش في راولبندي، حيث يملأ الخدام الكؤوس بشرابَي الكوكا كولا والسِّفِن آب أمام نظرات كايسي الحائرة. فوجىء كايسي حقاً بتهذيب ضياء الحق ودفء الجنرال. تحدّثا عن لعبة الغولف ولعبة ضياء الحق الحديدية القصيرة، لكنّ الأحاديث السياسية الطبيعية هي التي تبعث فيهما الحيوية.

شدّد كايسي وضياء الحق على أنّ الطموحات السوفياتية تتعلق بالمكان. فبالنسبة إليهما، تكرر الاستراتيجية السوفياتية اندفاع القوى الأوروبية في عصر الاستعمار للحصول على موارد طبيعية، وممرات شحن، ومواطئ قدم في القارات. فهم الجنرالات في باكستان، أرباب رسّامي الخرائط الامبرياليين، هذه المنافسة جيّداً. وطوّر كايسي وضياء الحق، كل على حدة، عرضاً للزوار حول السياسة التوسعية السوفياتية يضمّ خرائط ملوّنة بالأحمر. استعمل ضياء الحق عرضه ليشرح تصوره أنّ موسكو غزت أفغانستان من أجل الاقتراب أكثر من النفط في الشرق الأوسط. وأبرز خريطة إقليمية، ثم سحب قالب سليوليد ذا
مثلث أحمر لتوضيح الدفع السوفياتي الجنوبي الغربيّ المتواصل في اتجاه مرافئ مائية دافئة، ومصادر جيدة. قال لكايسي في أحد الاجتماعات: إنّ الاستعماريين البريطانيين رسموا خطّاً راسخاً عبر شمال أفغانستان في القرن التاسع عشر، من أجل وقف الانتهاك الروسي. ونتيجة لذلك، لم تتحرك روسيا جنوباً منذ تسع سنين. والآن، أمام الولايات المتحدة «واجب أخلاقي» يقضي بتعزيز الخطّ ضدّ السوفيات. طوّر كايسي تقريراً مماثلاً حول الطموحات السياسية الطبيعية السوفياتية، إنّما على نطاق عالمي. طلب من مكتب «السي.آي.إيه.» المختص بالقضايا العالمية، التابع لمديرية الاستخبارات، رسم خريطة للعالم تُظهر الوجود السوفياتي وتأثيره. وأضيفت إليها ستة ظلال ألوان مختلفة لتصوير فئات الإنجاز الامبريالي السوفياتي، ممثلة بـــ: ثمانية بلدان يحتلها السوفيات كلياً، ستة بلدان تابعة للسوفيات، وثمانية عشر بلداً تقع تحت تأثير موسكو، واثني عشر بلداً تواجه التمرّد الذي يدعمه السوفيات، وثلاثة بلدان إضافية في حالة اضطراب كبير. وأظهرت خريطة ذات حواشٍ، كيف أن السوفيات زادوا تأثيرهم في بلد تلو الآخر، بين العامين 1970 و1982، مستخدمين «الكي.جي.بي.»، بالإضافة إلى المساعدات الاقتصادية والعسكرية(146).

ثمة بلد آخر باللون الزهري في عالم كايسي المطلي بالأحمر، هو الهند، التي وقّعت اتفاقيات ومعاهدات واسعة النطاق مع موسكو بينما احتفظت باستقلاليتها الديموقراطية. أرسل كايسي بانتظام تقارير إلى ضياء الحق حول التحركات العسكرية الهندية. وغالباً ما ذكر ضياء الحق في محاضراته أن الهند تمثل الخطر الحقيقي في المنطقة. قد يكون الأميركيون حلفاء يُعتمد عليهم ضدّ الشيوعيين، لكنهم أثبتوا أنهم متقلبون في ما يخصّ الصراع الهندي - الباكستاني. أخبر ضياء الحق كايسي أنّ التحالف مع الولايات المتحدة أشبه بالعيش على ضفاف نهر كبير. قال: «الأرض خصبة جداً، لكن كل أربع أو ثماني سنين، يغيّر النهر مجراه، وقد تجد نفسك وحيداً في صحراء»(147).

حاولت «الآي.أس.آي.» إبقاء ضباط «السي.آي.إيه.» بعيداً عن حدود المخيمات، حيث يتدرب الثوار الأفغان، إنما أصر كايسي على الحصول على إذن لزيارتها. وفي بداية العام 1984، عندما طلب ذلك للمرة الأولى، توجّه الباكستانيون المذعورون إلى مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، طالبين المساعدة لإقناعه بالعدول عن ذلك. بدأت القوات السوفياتية الخاصة تكثيف نشاطاتها عبر الحدود الباكستانية، وخشيت «الآي.أس.آي.» أن يعلم السوفيات بتحركات كايسي، فيحاصروه صدفة، وينصبوا له كميناً. صعب على الأمن القومي الباكستاني تخيل سيناريو أسوأ من احتمال أن تخطف «الكي.جي.بي.» مدير «السي.آي.إيه.» على الأراضي الباكستانية، بالرغم من أنّ هذا الاحتمال ضئيل. لكن كايسي رفض أن يتمّ إبعاده. وفي النهاية، تعاونت «الآي.أس.آي.» مع مركز إسلام آباد لإعداد مخيم تدريب مجاهدين موقت ومزيف على الهضاب التي تمتد شمالاً خلف إسلام آباد بعيداً عن الحدود الأفغانية. وضعوا كايسي في سيارة جيب ليلاً، ورفضوا في الأساس إخباره إلى أين يتجهون، ومشوا في دوائر على طول طرقات وعرة للمدّة التي يحتاجون إليها لبلوغ الحدود الأفغانية. ثمّ أبعدوه عن القافلة، وأروه فريقاً صغيراً من الأفغان يتدرب عناصره على أسلحة رشاشات مضادة للطائرات عيار 5,14 ملم، و7,20 ملم. كان المشهد كأنه حقيقة، وكأنه مخيم تدريب حقيقي: أصدر الأفغان أصواتاً كثيرة، ومسح كايسي دموع الفرح عند رؤية «مقاتلي الحرية»(148).

عندما عاد كايسي إلى واشنطن ذلك الصيف، سمع شكاوى متزايدة من قبل أعضاء الكونغرس والمحافظين الأيديولوجيين حول تدخل «السي.آي.إيه.» الحذر والهامد في الحرب الأفغانية، الذي قد يسبب الضرر للقضية الثورية. وزاد عدد وفود الكونغرس الزائرة باكستان والحدود، بعدما شجعتهم قصص تشارلي ويلسون الرومانسية، وشعروا بالغيرة عند سماعهم مغامراته في ساحة المعركة. سمع رجال الكونغرس الزائرون شكاوى من قادة أفغان، مثل عبد الحق، حول فساد «الآي.أس.آي.»، وسيطرتها على توزيع الأسلحة، ورداءة نوعية السلاح الذي يجري تسليمه. وطلبوا من كايسي أسلحة متطورة أكثر، والتمسوا تدخل الأميركيين المباشر في الجهاد. شعر ماكماهون في لانغلي بالإحباط. رصد ضباط الاستخبارات في قسم الشرق الأدنى انتشار «مرض» كلاسيكي في واشنطن: عندما يطبَّق برنامج حكومي بطريقة ناجحة، سواء أكان عملية سرية خارجية أم خطة تعليمية محلية، يرغب كلّ بيروقراطي أو عضو كونغرس في البلدة، بالتدخل فيه. وسرعان ما بدأ ضباط «السي.آي.إيه.» يسمعون همسات من البنتاغون تفيد بأن المقاتلين قد يحاربون بشكل أفضل في حال لعب الجيش الأميركي دوراً أكبر. لم يكترث زملاء

كايسي لهذه المناورات، ولم يُعِرْ هو أيضاً الأمر أي أهمية، وظنّ أن انتقادات «السي.آي.إيه.» قد تكون صحيحة. وفي 28 تموز/يوليو 1984، كتب كايسي لماكماهون في مذكرة، أنه بفضل الأموال الجديدة التي تتدفق عبر خطّ إمدادات أفغانستان والشكاوى المتزايدة، «تتم مراجعة البرنامج الأفغاني، ويعاد تقييمه بدقة»(149).

عيّن كايسي رئيساً جديداً ليخلف هوارد هارت في إسلام آباد. انتقل ويليم بيكني في ذلك الصيف من باريس، حيث كان نائباً، إلى باكستان. كان بيكني ضابطاً سابقاً في البحرية، وجندياً في مركزي «السي.آي.إيه.» في تونس وغينيا، وجاسوساً أكثر لطفاً وعقلانية من هارت. لم يكن يملك مرفقين حادين مثل مرفقي هارت، أو شغفاً بالأسلحة القديمة مثل شغفه. ولم يكن محافظاً حيوياً. اعتبر ماكماهون ضحية لطعم الجناح اليميني، وتعاطف مع استياء زملائه. كان بيكني موازناً جيّداً ومنظماً بارعاً ومنشئ فرق ناجحاً. استقبل أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ، وأدخلهم في «الفقاعة» الآمنة في سفارة إسلام آباد، حيث سلمهم تقريراً واضحاً عن مسار الحرب السري والعقوبات التي تنزل بالسوفيات. ومع ارتفاع عدد أعضاء البنتاغون الذين زاروا باكستان وعرضوا مساعداتهم، سعى بيكني إلى تهدئتهم بلطف، وإبعادهم عن أعمال «السي.آي.إيه.». فالتعامل مع البنتاغون ليس سهلاً بالنسبة إلى الوكالة. وبالإضافة إلى ذلك، يعمل البنتاغون على تحجيم موارد «السي.آي.إيه.» التي تعتبر أنّ ميزانيتها السنوية بمنزلة خطأ تدويري يقترفه. ويعتقد بيكني أنّه من مصلحة «السي.آي.إيه.» إبقاء العلاقة متوازنة معه(150).

ساعد كايسي، بموافقة من البنتاغون، على وضع خطة سنويّة للالتفاف على الميزانية، وسحب أموال وزارة الدفاع، وتحويل الأموال المتاحة للعمليات السرية في أفغانستان. وعند انتهاء كل سنة مالية في شهر تشرين الأول/أكتوبر، عمل أعضاء الكونغرس المتعاطفون مع الجهاد والذين ترأّسهم ويلسون، على التدقيق في خزينة البنتاغون الضخمة، بحثاً عن أموال تم تخصيصها العام الفائت من دون أن تُصرف. ثمّ طلب الكونغرس تحويل قسم من هذه المبالغ الباقية التي تساوي عشرات ملايين الدولارات إلى الثوار الأفغان. رفض تشارلز كوغان، الجاسوس الذي انتمى إلى المدرسة القديمة، والذي أدار قسم الشرق الأدنى، قبول هذه الأموال. لكن كما يذكر غايتس: «ضغط ويلسون على كوغان و «السي.آي.إيه.» من أجل تلك المسألة»(151).

كانت موجة التمويل في تشرين الأول/أكتوبر 1984 ضخمة، إلى درجة التهديد بإحداث تغيير في طبيعة عمليات «السي.آي.إيه.» السرية في أفغانستان. جرف الكونغرس في ذلك الشهر كمية أخرى ضخمة من أموال البنتاغون الباقية لـ «السي.آي.إيه.» لتستعملها دعماً للجهاديين، فبلغت بذلك ميزانية البرنامج الأفغاني للعام 1985 250 مليون دولار، أي ما يعادل قيمة الأموال المخصصة للأعوام السابقة مجتمعة. وفي حال ماثلت «الجي.آي.دي». في السعودية هذه المخصصات، تستطيع «السي.آي.إيه.» في تشرين الأول/أكتوبر 1985 إنفاق 500 مليون دولار على شراء الأسلحة والمؤن للمقاتلين، وهو مبلغ ضخم جدّاً مقارنة بالميزانيات السابقة، وكان من الصعب توقّعه. في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر، اتصل كايسي بالسعوديين والباكستانيين، ليخبرهم أن الولايات المتحدة خططت لإرسال 175 مليون دولار على الفور، وادخار 75 مليوناً

باقية بانتظار المزيد من المناقشات معهم. لقد زاد كايسي ثلاث مرات تمويل الحرب الأفغانية السرية في غضون أسابيع، وبتشجيع من ويلسون.

أراد كايسي توسيع طموحات الحرب إلى درجة مماثلة. وكتب في مذكرة سرية إلى ماكماهون وضباط آخرين قدامى في «السي.آي.إيه.» في 6 كانون الأول/ديسمبر 1984: «إن لم يُعَد تصميم السياسة الأميركية من جديد بغية شنّ هجوم أوسع على نقاط الضعف السوفياتية، فلن تحصل أفغانستان على استقلالها». و «ستسمح متابعة البرنامج الأميركي الحالي للسوفيات، بإرهاق المقاومة الأفغانية، بينما يكابدون هم خسائر معقولة ومحمولة». أصر على أن تُلقي «السي.آي.إيه.» نظرة عن كثب، على اقتراحات البنتاغون الأخيرة لجمع معلومات استخبارية عبر الأقمار الاصطناعية، حول الأهداف السوفياتية في أفغانستان. واستنتج كايسي أن «الزيادة البسيطة في التكاليف التي يكابدها السوفيات في اعتدائهم على أفغانستان، لن ترتفع كثيراً على المدى الطويل»(152).

أعاد كايسي تكريس سلطته الرئاسية الخاصة. لم تكن «إعادة الاستقلال إلى أفغانستان» هدف عمليات «السي.آي.إيه.» السرية الذي نصت عليه قوانين كانون الثاني/يناير 1980 الرئاسية، التي جددها الرئيس ريغان، أو احتمالاً وارداً عند محللين في مركز كايسي المختصين بالشؤون السوفياتية. قال كايسي: إن «السي.آي.إيه.» لم تعد تكتفي بتقييد السوفيات. تريد إخراجهم بالكامل.

عاد إلى باكستان في العام 1984. رأى هذه المرة معسكرات تدريب حقيقية للجهاديين عند الحدود الأفغانية، وليس مزيداً من عروض التدريب الزائفة، كما حدث من قبل. استقبل بيكني طائرة الستارليفتر على أرض المدرج، وركبوا مباشرة بعد بزوغ فجر أحد الأيام مروحيات باكستانية، وحلقوا في اتجاه أفغانستان. كانت المرة الأولى التي تحط فيها مروحية في مخيم لـ «الآي.أس.آي.». ارتدى كايسي كبسولة أفغانية مسطحة ومستديرة، ومعطفاً من النايلون الأخضر ذا زمام وقماش مقلم. بدا كأنّه ثائر غير مرغوب فيه. وكان الجنرال أخطار، رئيس مرافقيه، يضع نظارات شمسية. قدم المدربون في المعسكر الأول
إلى كايسي لوائح بعمليات المقاتلين في وسط دورة القتال التي استمرت عشرة أيام. تعلموا تكتيكات أسلحة الهجوم الأساسية، وكيفية التوغل والانسحاب، وأنظمة قاذفات الصواريخ، وأنظمة قذائف الهاون. وأكّد له أخطار أنّ أموال دافعي الضرائب الأميركيين، تُستثمر جيّداً هنا. وشدّد رئيس «السي.آي.إيه.» مراراً في الخطابات التي وجهها إلى القادة والمدربين الأفغان، على الحاجة إلى ممارسة الضغط على الشيوعيين السوفيات والأفغان في العاصمة وخارجها. وصرّح أخطار: «يجب إحراق كابول». وفي المخيّم الثاني، رأى كايسي أجهزة صينية لتفكيك الألغام، تملك القدرة على تفجير ثلم ضيق عبر حقل ألغام جهّزه السوفيات. وضغط ضباط عمداء في «الآي.أس.آي.» على كايسي ليزوّدهم معدات أفضل، فالطرقات التي فككوا فيها الألغام بواسطة النظام الصيني، لم تكن واسعة لتسهّل مرور المقاتلين، كما أنهم كابدوا خسائر غير ضروريّة(153).

وبالعودة إلى مركز «الآي.أس.آي.» الرئيسي في راولبندي، طرح كايسي مسألة العملية الدقيقة التي جرت في ذلك الوقت، بين وكالتي الاستخبارات الأميركية والباكستانية: دفع الجهاد الأفغاني إلى داخل الأراضي السوفياتية.

في أواخر السبعينيات، قدّم فريق العمليات السرية التابع لـ «السي.آي.إيه.» اقتراحات من أجل الجهود السرية لنشر المعلومات والإشاعات التي تستهدف المسلمين المقيمين في وسط آسيا السوفياتي، بالإضافة إلى الأوكرانيين. وكان مستشار كارتر للأمن القومي، زبيغنيو بريجنسكي، أحد المدافعين الشغوفين عن البرنامج الأميركي السريّ الذي يهدف إلى زعزعة الحسّ القوميّ داخل الجمهوريات الروسية الحدودية، التي لا تنتمي إلى الاتحاد السوفياتي. إلا أنّ وزارة الخارجية تردّدت في تنفيذ الخطط. فالتحريض على الثورة داخل الاتحاد السوفياتي، قد يؤدي إلى انتقام موسكو بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، وحتى إلى محاولة شنّ هجمات داخل أراضي الولايات المتحدة. وقد أثارت هذه الفكرة جدلاً في لانغلي(154).

تملك «السي.آي.إيه.»، منذ عقود، معارف قوية بين القوميين من البلطيق وأوكرانيا. لم تعرف سوى القليل عن آسيا الوسطى السوفياتية، السهل الشاسع الذي يقطنه عدد قليل من السكان، ومنطقة الجبال حتى شمال أفغانستان. حثّ كايسي العلماء الأميركيين ومحللي «السي.آي.إيه.»، في بداية الثمانينيات، على تفحص وسط آسيا السوفياتي، بحثاً عن إشارات عدم ارتياح بالنسبة إلى موسكو. فجاءت تقاريرهم تتمحور حول غضب قبائل الأوزبك والتركمان والطاجيك والكازاخستانيين بسبب الهيمنة الروسية العرقية، بالإضافة إلى تقارير حول ازدياد الاهتمام الشعبي بالإسلام الذي يدعمه جزئياً تهريب كتب القرآن وأشرطة الكاسيت الدعوية، والنصوص الإسلامية التي كتبها الإخوان المسلمون، وشبكات هداية أخرى. وكتبت «السي.آي.إيه.» تقريراً عن محاضرة ألقيت في أيار/مايو 1984 في موسكو، حيث قال المتحدث للحضور: إنّ الإسلام مشكلة داخلية جديّة. سافر الدبلوماسيون الأميركيون الذين يعملون خارج السفارة الأميركية في موسكو بانتظام، إلى أنحاء آسيا الوسطى بحثاً عن دلائل ومعارف جديدة، لكنّ «الكي.جي.بي.» تعقبتهم عن كثب، فلم يتمكنوا من اكتشاف الكثير(155).

استند كايسي إلى خبراته في ترؤس المنفيين البولنديين الذين أصبحوا عملاء خلف الخطوط النازية، وقرر إعادة إنعاش اقتراحات البروباغندا التي قدمتها «السي.آي.إيه.»، والتي تستهدف آسيا الوسطى. اقترح خبراء «السي.آي.إيه.» إرسال كتب حول ثقافة آسيا الوسطى، والأعمال الوحشية السوفياتية التاريخية في المنطقة. وقال ضباط «الآي.أس.آي.» إنّهم يفضلون شحن كتب القرآن المكتوبة باللغات المحلية، فوافقت لانغلي. سمحت «السي.آي.إيه.» لمنفي من قومية الأوزبك، يعيش في ألمانيا، بترجمة القرآن إلى لغة الأوزبك، وطبعت وكالة الاستخبارات الأميركية آلاف النسخ من القرآن الكريم، وشحنتها إلى باكستان لتوزيعها على المقاتلين. ويذكر العميد، الذي كان مسؤولاً عن التوزيع، أن القرآن المترجم إلى لغة الأوزبك، وصل للمرة الأولى في كانون الأول/ديسمبر 1984، بينما كانت حماسة كايسي بلغت ذروتها. وأرسلت

«الآي.أس.آي.» حوالى خمسة آلاف كتاب إلى شمال أفغانستان، وإلى داخل الحدود السوفياتية في أوائل العام 1985(156).

اختار، في الوقت نفسه، مكتب «السي.آي.إيه.»، المعني بشؤون أفغانستان، فرقاً صغيرة من بين المجاهدين، مستعدة لإعداد هجمات تخريبية عنيفة داخل وسط آسيا السوفياتي. قتل العملاء الذين تدعمهم «الكي.جي.بي.» مئات المدنيين في تفجيرات إرهابية داخل باكستان، وأرادت «الآي.أس.آي.» الانتقام. ويذكر محمد يوسف، الذي كان ضابطاً، برتبة عميد، في «الآي.أس.آي»، ومديراً للعمليات الأفغانية في ذلك الوقت، أنّ كايسي هو الذي أصرّ على هذه الاعتداءات عبر الحدود، في اجتماع في مقرّ «الآي.أس.آي.» الرئيسي في أواخر العام 1984، في الوقت الذي سافر مدير «السي.آي.إيه.» إلى مخيمات تدريب ثوار بواسطة المروحية.

يذكر يوسف أن كايسي قال إنّ عدد السكان المسلمين في أموداريا كبير، ويمكن حثّهم على العمل، كما أنّهم يستطيعون «تكبيد الاتحاد السوفياتي خسائر فادحة». وتحدث مدير «السي.آي.إيه.» عن جهود البروباغندا، لكنّه تخطى ذلك الموضوع. قال كايسي وفقاً ليوسف: «علينا أخذ الكتب، ونحاول تأليب السكان المحليين ضدهم، كما يمكننا التفكير في إرسال أسلحة وذخائر، إن أمكن ذلك». وقال يوسف في مذكراته إنّ الجنرال أخطار عبر عن رأيه في الاتفاقية المتعلقة بجهود تهريب القرآن، إلا أنّه بقي صامتاً بشأن عمليات التخريب. وأكّد روبرت غايتس، مساعد كايسي التنفيذي، الذي أصبح لاحقاً مدير «السي.آي.إيه.» (ويشغل حالياً منصب وزير الدفاع)، أنّ الثوار الأفغان «بدأوا العمليات عبر الحدود إلى داخل الاتحاد السوفياتي» في ربيع العام 1985. وتضمّنت العمليات «إثارة الاضطرابات من الجهة السوفياتية من الحدود». فوفقاً لغايتس، بدأت الاعتداءات «بتشجيع من كايسي»(157).

في حال لفظ كايسي حقّاً الكلمات التي ينسبها إليه يوسف، يكون قد خرق القانون الأميركي. لم يكن أحد مخولاً اتخاذ قرار بشنّ هجمات داخل الاتحاد السوفياتي سوى الرئيس ريغان، بعدما يُطلع الأعضاء القدامى في لجان استخبارات الكونغرس على الأمر. وقد تنتج مخاطر جمّة من عمليات مماثلة في عصر الأسلحة النووية، ولا حاجة إلى تعدادها. أعرب زملاء كايسي في «السي.آي.إيه.» والبنتاغون والبيت الأبيض، عن خشيتهم أن يسمح بالاعتداءات عبر الحدود(158). وقالوا إن يوسف على الأرجح قد مزج مذكرات دقيقة حول دعم كايسي تهريب آلاف النسخ من القرآن، والقيام بحملة بروباغندا ضخمة ضد موسكو، مع قرار «الآي.أس.آي.» المستقل حول بدء تسليح فرق أفغانية سراً، لتتوغل في وسط آسيا السوفياتي.

ربّما. لكن تقارير غايتس تبدو غير مبهمة، ومذكرات يوسف دقيقة. وليس من المستغرب أن ينظّم كايسي عمليات سرية خارجة عن حدود السلطة الرئاسية. شكّلت «الآي.أس.آي.» القاطع المناسب في العمليات التي جرت في الأراضي السوفياتية، بينما وفّرت لـ «السي.آي.إيه.» الغطاء الملائم. وعندما فكّر غايتس ملياً مستعيناً بحسّه المهنيّ، رأى أنّ كايسي لم يعمل في «السي.آي.إيه.»

«بغية تحسينها وإدارتها بفعالية أكثر، وإصلاحها، أو تحسين نوعية الاستخبارات... بل أتى كايسي إلى «السي.آي.إيه.» في الأساس ليشن حرباً ضدّ الاتحاد السوفياتي»(159).

على أي حال، علم محللو «السي.آي.إيه.» وضباط الاستخبارات الأميركيون، بما يفعله شركاؤهم الباكستانيون عبر الحدود السوفياتية. طلب يوسف من مركز إسلام آباد معدات مثل مراكب ذات محركات صامتة، قال إنّه يحتاج إليها لعبور نهر أموداريا. عاش بيكني، رئيس المركز الجيد، خوفاً من أن يتمّ القبض على إحدى الفرق الأفغانية، أو يتم قتل عناصرها داخل الأراضي السوفياتية، وبحوزتها معدات تعود إلى «السي.آي.إيه.»، ما قد يؤدي إلى توتر عسكري دولي كما جرى عندما أُسقطت طائرة «يو 2» في العام 1960.

وخشية أن تصيب كارثة مماثلة قطاع العلاقات العامة، اقتنع عدد من محللي «السي.آي.إيه.» في وزارة الخارجية، بأن هجمات «الآي.أس.آي.» القتالية داخل الأراضي السوفياتية، تهوّر كبير. وقرأ مورتون أبراموفيتز، رئيس الاستخبارات في وزارة الخارجية، تقارير سرية حول المقاتلين الأفغان الذين يتخطون الحدود، وأصر على إعلام «الآي.أس.آي.» بأن اعتداءات مماثلة غير مقبولة. ووفقاً لبيكني، سلم بيكني الرسالة في اجتماعات غير رسمية مع الجنرال أخطار. وأصر رئيس مركز «السي.آي.إيه.» على «ألا تسمح «الآي.أس.آي.» للأفغان بنقل المعركة إلى داخل الأراضي السوفياتية، أو تشجعهم على ذلك». ويذكر: «فهمنا جميعاً أن الأفغان سيستغلون الفرص المتاحة لفعل ما يريدونه». «شعرت [الاستخبارات الباكستانية] في سرها، بأن الوضع سيكون سيئاً» في حال ضرب الثوار الأفغان أهدافاً داخل الأراضي السوفياتية من وقت إلى آخر. «خيارنا الحقيقي الوحيد هو منع المصادقة الأميركية الرسمية على هذا النوع من النشاطات، وعدم تشجيعها عليه، وهذا ما فعلناه». على أي حال، كلما كانت التفاصيل التي تعرفها «السي.آي.إيه.» قليلة، كان ذلك أفضل. لا يستطيع أحد السيطرة على الأفغان المسلحين المصممين على قطع حدودهم الشمالية، وقد استعدت «السي.آي.إيه.» للمجادلة في حال باتت العمليات علنية(160).

تفصل بين شمال أفغانستان وباكستان سلسلة من الجبال الشاهقة، والممرات المكسوة بالثلج، والامتدادات السوفياتية الكثيفة حيث عاشت قبائل الأوزبك والطاجيك والتركمان وأنصار من الأقلية الشيعية الإسلامية (الهزارة). وكان قادة الجهاديين الذين عملوا على طول الحدود السوفياتية، على علاقة ببعض العقداء والعمداء في «الآي.أس.آي.» الذين يتحدثون لغة الباشتون، والذين تسلموا مسؤولية توزيع الأموال والأسلحة في بيشاور. وبالنسبة إلى السوفيات أيضاً، كان شمال أفغانستان مهماً جداً. فالمنطقة غنية بموارد الغاز الطبيعي، والطرقات الحيوية، والسكان القبليين الذين انتشرت قبائلهم في الجمهوريات السوفياتية. وعندما ساءت الحرب، فكّر السوفيات في بعض الأحيان، في التوغل داخل شمال أفغانستان لحماية المنطقة الجنوبية من الاتحاد السوفياتي.

إلا أن انسحاباً مماثلاً لم يكن في الحسبان. في أواسط الثمانينيات، أدار القادة الثوار الأفغان العسكريون والسياسيون الأكثر فعالية، العمليات في المقاطعات الشمالية في فناء الاتحاد السوفياتي الجبلي. وخلافاً للقادة الجهاديين الذين يبحثون عن عروض في مخيمات التدريب، نادراً ما سافر هذا القائد الأفغاني إلى باكستان، وعمل معظم الوقت تبعاً لخطته الاستراتيجية الخاصة. ووفقاً لتقارير «السي.آي.إيه.»، تُعتبر قواته مسؤولة عن بعض الاعتداءات الأولى التي حدثت داخل الاتحاد السوفياتي في ربيع العام 1985. أراد ويليام بيكني أن يرتّب لقاءً معه، لكنّه كان من المستحيل إدارة عملية التخطيط والتنفيذ. كان بعيداً جدّاً بحيث تستحيل زيارته.

يبدو أنّ أحمد شاه مسعود كان يفضّل ذلك.

# 6
# من هو مسعود؟

نشر أحمد شاه مسعود على سفح جبل علي آباد عند الجهة الغربية من كابول، فريقاً من عشرة جنود يخضعون جميعاً لإمرته. وعلي آباد هضبة مغطاة بالغبار والصخور المبعثرة. تقع وسط العاصمة، وترتفع 6200 قدم، فيستطيع مسعود من خلال احتلال قمتها، اكتساب مركز قيادي، وموقع استراتيجي. تشرف الهضبة جنوباً على حرم جامعة كابول، المكسو بأشجار الصنوبر، وهي المؤسسة التعليمية الأولى في البلاد. وتطل شمالاً على معهد كابول المتعدد الفنون، وهو المدرسة العلمية المشهورة التي يسيطر عليها السوفيات، بينما يمتدّ وسط المدينة من الناحية الشرقية. وترتفع من حول الهضبة قمم مسننة مكسوّة بالثلوج، تسيّج المدينة وتغمر وادي كابول بحنان. وقبل أن يصل مسعود إلى قمة الهضبة ويواجه عدوّه، أي الفصيل المنافس الذي يضمّ العدد نفسه من الجنود، أرسل كتيبة من الموالين من الجهة المقابلة من الهضبة. لم يرهم العدو قادمين فاستسلم بسرعة. وبعد أن تلذّذ مسعود بفوزه قليلاً، أنزل سجناءه عن الهضبة، ثمّ وضعهم في خندق إلى جانب الطريق، حيث كان يسجن أسرى الحرب. ثم بحركة من يده، صرف الجنود وحرّر الأسرى. كانت والدته في الجهة المقابلة من الطريق تناديه لتناول العشاء.

حدث ذلك في العام 1963، عندما كان في الحادية عشرة من عمره. فقد انتقلت عائلته حديثاً إلى كابول. لم يعتبر مسعود هذه المدينة منزلاً له، إنّما سيطر بسرعة على علو أجرافها وعمق وديانها. ولم يشكّ أي من أصدقائه، في من سيلعب دور القائد في لعبة الحرب في الحي(161).

كان والده كولونيلاً في جيش الملك زهير شاه، فهيأ له مركزه هذا مكانة مرموقة، وأبعده عن المخاطر. عرفت أفغانستان حقبة سلام أثناء مسيرة مسعود الأب العسكرية، التي امتدت بين ثلاثينيات القرن العشرين وبداية الستّينيّات. وعاش مسعود حياة عابر سبيل في العقد الأول من عمره. فقد أقام في هيلماند شمالاً وهيرات غرباً، ثمّ كابول. إلا أنّه اعتبر مع عائلته أن وادي بانشير، حيث وُلد مسعود، هو وحده منزلهما الحقيقي: جنغلاك في مقاطعة بازاراك، على بعد بضع ساعات شمال العاصمة.

يمتدّ نهر بانشير بخطّ مائل على طول مئة كيلومتر، ويعبر جبال هندوكوش قبل أن يصبّ في سهول شومالي، على مسافة خمسة وأربعين كيلومتراً فوق كابول. يبدو النهر على الخريطة كسهم يدلّ على الطريق المؤدي مباشرة إلى عاصمة أفغانستان من الجهة الشمالية الشرقية. أمّا على الأرض، فهو صدع بين أجرف جرداء ووعرة تنحدر في التيار الثائر، إلا أنّ انحدارها يقلّ إلى حد ما بين الفينة والأخرى، ما يسمح ببناء بعض المنازل وزرع المحاصيل عند جهتي مجرى النهر.

ويتفجّر الوادي عند تلك النقطة حقولاً خصبة خضراء متموّجة، بينما يركد النهر مثل بركة جليد مضفرة بالعشب.

المياه هادئة أمام منزل أجداد مسعود في جنغلاك، وتحديداً وسط الوادي. استقرّت عائلة مسعود في هذا الموقع من ضفة النهر الغربية في بداية القرن العشرين. فبنت العائلة الثرية نسبياً مجمعاً سكنيّاً منخفضاً من الطين والحجارة، يشبه عدداً لا يحصى من المنازل الأخرى في الوادي، التي تبدو جميعها كأنّها نبتت بطريقة طبيعيّة من الأرض البنية الخصبة. عندما ورث والد مسعود هذا المكان، أضاف جناحاً في الخلف، امتدّ في اتجاه سفح الجبل. وقد أنجبت والدة مسعود هناك أحمد شاه، ابنها الثاني، العام 1952.

لم تتغير كثيراً على مر العصور، منطقةُ بانشير، حيث وُلد مسعود. فعلى طول الطريق الوعر والدائم الاتساخ الذي يمر في خطّ مُواز لمجرى النهر، كان من الشائع سماع نهيق حمار مرتفع، قد أثقل كاهله بأكياس الحبوب بدلاً من سماع صوت محرّك عربة. يحصل السكان على طعامهم من حقول القمح والتفاح وأشجار اللوز التي تنبت على طول ضفاف النهر، أو من قطعان الماشية والماعز والدجاجات التي تسرح بحرية، غير قادرة على الابتعاد، لأنّ الوادي في أعرض نقاطه لا يتعدى الكيلومتر ونصف الكيلومتر.

يستطيع عدد قليل فحسب من سكان بانشير القراءة أو الكتابة، إلا أن والدي مسعود كانا استثنائيين. فقد تعلم والده رسمياً. أمّا والدته فلا، لكنها ابنة عائلة من المحامين البارزين من منطقة روخيه، البلدة التالية في جنغلاك. علّمت نفسها بنفسها القراءة والكتابة، وحثّت أبناءها الأربعة وبناتها الأربع على تطوير معارفهم، وتحسين أنفسهم بالطريقة نفسها. والدة مسعود امرأة متشددة، فرضت معايير صارمة، وأرادت أن يتعلم أولادها، وأن يبرعوا خارج المدرسة أيضاً. عاد مرة ابنها البكر يحيى مع علامات تضعه في المراتب الأولى في صفه، وهي مرتبة لطالما احتلّها أولاد مسعود. شعر والده بالغبطة، وتحدّث عن مكافأة ابنه بشراء دراجة نارية له. اشتكت والدته: «لا تسرني هذه الدراجات». وبّخت زوجها قائلة: «طلبت منك مراراً: علم أولادك أشياء يحتاجون إليها». وأعطته أمثلة: «هل يمتطي أولادك الأحصنة؟ أيستطيعون استعمال الأسلحة؟ هل هم قادرون على الحضور في المجتمع وبين الناس؟ هذه هي المزايا التي تحدّد صفات الرجل». فلم يحصل يحيى على الدراجة النارية.

حدّدت والدة أحمد شاه مسعود قواعد سلوك العائلة. وبما أنّه كان يميل إلى القيام بالأعمال السيئة، عملت باستمرار على تأنيبه. يذكر أولادها أنّها لم تضربهم قط، إنّما تحطّ من قدرهم بتوبيخها الشفوي. واعترف مسعود بعد أعوام لأخواته، بأن الشخص الوحيد الذي لم يكن يخشاه هو والدته.

عندما وصل مسعود إلى الثانوية العامة في أواخر الستينيات، تقاعد والده من الخدمة العسكرية، واستقرت عائلته في محيط مخصص للطبقة الغنية في كابول. عاشت العائلة في منزل من الحجارة

والطين يضمّ سبع غرف نوم، ويطلّ على مناظر خلابة. كان المبنى الأجمل في الحي. تعلّم مسعود في «الليسيه»، أو ثانوية الاستقلال الفرنسية، وهي مدرسة ممتازة ذات نظام فرنسي، فحصد علامات عالية، وتعلم الفرنسية، وفاز بمنحة لدخول جامعة في فرنسا. كانت هذه المنحة بطاقته للخروج من أزقة كابول القديمة الطراز، والمغطاة بالغبار، إلا أن مسعود رفضها مفاجئاً بذلك عائلته. أعلن أنّه بدلاً من ذلك يريد الالتحاق بالمدرسة العسكرية، ومتابعة خطى والده، ليصبح ضابطاً في الجيش الأفغاني. حاول والده التوسط ليُدخله المدرسة العسكرية الأولى في البلاد، لكنه فشل في مساعيه. فانتسب مسعود إلى معهد كابول المتعدد الفنون، وهو معهد يدعمه السوفيات، ويقع عند أسفل الهضبة قرب منزل عائلته.

اكتشف مسعود في خلال سنته الأولى في الجامعة، أنّه بارع في الرياضيات. أعطى زملاءه دروساً خصوصية، وأمل أن يصبح مهندساً أو مهندساً معماريّاً. وبما أنه حقّق هدفه هذا، قدر له هدم عدد كبير من المباني يفوق ما قد يبنيه يوماً.

ضربت الحرب الباردة أفغانستان مثل فيروس وبائي. وفي أواخر الستينيات، كانت جامعات كابول بأسرها في قبضة السياسات المضطربة. تآمرت النوادي الماركسية السرية ضدّ المجتمعات الإسلامية في الكليات والمساكن الجامعية. كان الجوّ مشحوناً: البلد ضعيف، والنظام الملكي الذي سيطر قروناً، في طريق عودته إلى الحكم. كانت أفغانستان تميل نحو سياسات جديدة. هل ستصبح ماركسية أم إسلامية، علمانية أم دينية، عصرية أم تقليدية، أم خليطاً منها؟ كان لكلّ أستاذ في الجامعة رأي خاص به. وقد ربى والدا مسعود ابنهما ليصبح مسلماً متفانياً، وزرعا فيه حقداً وازدراءً تجاه الشيوعية. وعندما عاد إلى المنزل بعد سنته الأولى في المعهد، أخبر عائلته عن مجموعة جديدة سرية انضم إليها، يطلق عليها اسم المنظمة الشبابية الإسلامية. لاحظ أحمد والي، أخو مسعود الأصغر، أنّه يشرح بثقة كبيرة، ليس لعائلته فحسب، بل لأصحاب المحال وكلّ المستمعين، أنّ مجموعته هذه ستشنّ حرباً ضدّ الماركسيين الذين يزيدون من هيمنتهم على حرم الجامعات في العاصمة والوزارات الحكومية والجيش. كان مسعود يتباهى بشكل واضح ولا جدال فيه. «يعطي انطباعاً بأنّه في الغدّ سيقوم مع أربعة أو خمسة من رفاقه بهزم الجميع»(162).

التدين الإسلامي الذي اكتسبه مسعود في معهد كابول المتعدد الفنون، لم يكن شبيه إيمان والده. كان إيماناً مناضلاً وثورياً، وعلى الأرجح عنيفاً. وصلت نصوصه إلى كابول في حقائب صغيرة، حملها أساتذة الشريعة الإسلامية العائدون إلى وظائفهم التعليمية في العاصمة الأفغانية بعد حصولهم على شهادات عالية من الخارج، خصوصاً من القلعة التعليمية الإسلامية العظمى، جامعة الأزهر في القاهرة. حضر إلى هناك عدد من المرشحين الأفغان لنيل شهادة الدكتوراه، المتأثرين بالإسلاميين المصريين الراديكاليين، بمن فيهم عبد الرب رسول سياف وبرهان الدين رباني، ليحاولوا استكشاف إصلاحات جديدة للسياسات الإسلامية. ومع عودتهم إلى كابول، بدأ الأساتذة الأفغان في أواسط الستينيات، تعليم العقائد المصرية في صفوفهم، مرسخين الأفكار الراديكالية في أذهان الطلاب الأفغان الأذكياء والناشطين، أمثال مسعود(163).

عكس الإيمان الديني في أفغانستان على مدى قرون، جغرافية البلد السياسية: فقد كانت أفغانستان متعددة ولامركزية ومرسخة في شخصيات محلية. وكانت الأرض التي أصبحت لاحقاً أفغانستان، منطقة عبور أو استعمار للبوذيين واليونان القدامى (الذين قادهم الإسكندر الكبير) والصوفيين والقديسين والسيخ والمحاربين الإسلاميين، وقد ترك عدد كبير منهم معالم أثرية أو مقابر مزينة. ومنعت سلاسل جبال أفغانستان الوعرة ووديانها المنعزلة، أي عقيدة دوغماتية أو روحانية أو سياسية، من السيطرة على شعبها بأكمله. وعندما رسّخ تدريجاً الفاتحون المتجهون شرقاً من إيران، وجنوباً من سهول وسط آسيا، الإسلام كديانة مهيمنة، وعندما عادوا من مهمات الاحتلال في الهند، أحضروا معهم نزعات انتقائية من الروحانية وعبادة القديسين، انخرطت بسرعة مع القبلية الأفغانية والسياسة العشائرية. كما شددوا على الخصوص على الولاء للزعيم المحلي.
وأصبحت النزعة الصوفية
في الإسلام بارزة جداً في أفغانستان. فقد علّم التصوف الناس التواصل الشخصي مع الله من خلال التفاني الروحاني. وأسّس زعماؤه حالة روحانية، وتمّت عبادتهم كأئمة وقادة. انتشرت ضرائحهم المزينة بإتقان في البلاد، وعبرت عن نزعة احتفالية شخصية وجدية في الإسلام الأفغاني التقليدي.

أغرقت الحروب الاستعمارية والدينية في القرن التاسع عشر، وديانَ البلاد المنعزلة بمزيد من العقائد الإسلامية الصارمة. وأسس العلماء الدينيون المسلمون المتمركزون في ديوباند والهند، والذين وصلت أصداء أفكارهم إلى الوهابيين في السعودية، مدارس، وفرضوا تأثيرهم بين قبائل الباشتون الأفغانية. ومن أجل تأليب الغضب الشعبي ضد السيخ الغازين، نصَّب ملك أفغاني منذ بداية القرن التاسع عشر، اسمه دوست محمد، نفسه أمير المؤمنين، أو قائد الإيمان، وأعلن أن قضيته حرب دينية. قام الامبرياليون البريطانيون، الذين سعوا إلى إيجاد مستعمَرة بعيداً عن روسيا المعتدية، بغزو أفغانستان مرتين، وهم ينشدون ترانيمهم المسيحية ويبشرون بحضارتهم المتفوقة. وقام رجال القبائل الأفغانية الثائرون والمؤججون بالحماسة الإسلامية، بذبحهم بالآلاف مع قوافل الفيلة، وأجبروهم على الانسحاب مهزومين. حاول عبد الرحمن، «الأمير الحديدي»، الذي دعمته سرّاً بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر، أن يجبر الأفغان على الانضمام إلى «مجتمع واحد كبير يخضع لقانون واحد وقاعدة واحدة». وقد أنشأت هذه الأحداث التي جرت على مدى قرن، نزعات جديدة من الرهاب في أفغانستان، وأعادت إحياء الإسلام كسياسة وطنية وعقيدة لمواجهة الحرب. وبرغم ذلك، لم يفكر حتى الإسلاميون الأكثر راديكالية، في شنّ حرب بين الحضارات، أو إعلان الجهاد في الأراضي البعيدة.

قطعت البلاد القرن العشرين بسلام، إنما بعزلة مفقرة، تحكمها خلافة من الملوك الحذرين في كابول، الذين اعتمدوا أكثر فأكثر على المساعدات الخارجية ليحكموا، بينما ضعفت سلطتهم الملكية في المقاطعات. وعلى المستوى المحلي وفي الميدان الأكثر أهمية، كانت السلطات السياسية والإسلامية تتبادل الخدمات فيما بينها.

ففي الستينيات، في حرم جامعات مدينة كابول التي تظللها الأشجار وفي ثكنات جيشها، مهّدت العقائد الراديكالية القادمة من خارج البلاد، ساحة المصائب. فبينما حشدت الماركسية التي تدعمها

«الكي.جي.بي.» جماعاتها وأتباعهم المتحفزين، نهض الإسلاميون الأفغان المحاربون لمواجهتهم. وواجه كل طالب جامعيّ خياراً: الشيوعية أو الإسلام الراديكالي. كانت المنافسة تزداد صخباً. ونظّم كلا الطرفين تظاهرات وتظاهرات مضادة، وعرضا الأعلام، وحملا مكبّرات الصوت، في حال قيام مناظرة مفاجئة إلى جانب الطريق. وفي غضون أعوام قليلة في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات، ذاب ما بقي في السياسات الأفغانية المعتدلة في كابول، بحكم احتكاك هذه الأيديولوجيات المتصدية المستوردة(164).

ركّزت النصوص المصرية التي تمّ شحنها إلى جامعات كابول على السياسة. انبثقت الكراسات الدينية الدعائية من أيديولوجيا الإخوان المسلمين، الشبكة الروحانية والسياسية التي تتعدى الحدود القومية، والتي أسسها أستاذ مصري للشريعة الإسلامية في العشرينيات من القرن الماضي، اسمه حسن البنّا، كحركة احتجاجية ضد الاستعمار البريطاني في مصر (كانت جماعة الإسلام في الواقع، الفرع الباكستاني من جمعية الإخوان المسلمين). آمن أفراد الإخوان المسلمين بأن الوسيلة الوحيدة لإعادة العالم الإسلامي إلى مكانته الصحيحة كقوة سياسية واقتصادية، هي من خلال الالتزام الجديّ بجوهر مبادئ الإسلام. وتعهّد الإخوان المنتسبون، العمل بسرية لإنشاء مجتمع إسلامي محض يجسّد ما اعتبروه حضارات إسلامية مفقودة ومنتصرة تمّ تأسيسها في القرن السابع (ربط عالم فرنسي الإخوان بالمنظمات الكاثوليكية المحافظة والعلمانية في الشرق، مثل أوبوس داي(165). وانجذب مدير «السي.آي.إيه.»، وليم كايسي، طوال حياته، إلى هذه المجموعات الكاثوليكية السرية العلمانية). وبينما انتشر عَلَم الحركة المميز ذو اللون الأخضر والسيفين الأبيضين المتشابكين والقرآن الأحمر، في أنحاء مصر، ارتفع عدد الإخوان المسلمين إلى نصف مليون منتسب في العام 1949. وسرعان ما ضاقت صدور المستعمِرين البريطانيين من الإخوان، فقمعوهم بعنف. ورد بعض الأعضاء الذين يُعرفون باسم الفرقة الخاصة، ونفذوا تفجيرات ضد منشآت بريطانية، وقتلوا جنوداً بريطانيين ومدنيين(166).

عندما تسلم القادة العسكريون المصريون المعروفون باسم «الضباط الأحرار» السلطة في الخمسينيات، تحت قيادة جمال عبد الناصر، تابعوا النمط البريطاني محاولين إضعاف جماعة الإخوان المسلمين، في حال فشلوا في قمعهم. ويذكر أيمن الظواهري، وهو طبيب مصري أمضى بعض الوقت في السجون، ثمّ أصبح لاحقاً أبرز مساعدي أسامة بن لادن، أنه في السجون المصرية، «كسرت عمليات التعذيب العنيفة العظام، وسلخت الجلد، وصعقت الأعصاب، وقتلت الأرواح»(167). وأثناء إحدى حملات الحكومة المصرية لفرض النظام،

كتب إسلامي راديكالي مسجون، اسمه سيد قطب، حاول أن يغتال عبد الناصر من دون أن ينجح، من زنزانته، بياناً رسميّاً بعنوان «علامات دلالية»، ناقش مقاربة لينينية جديدة للثورة الإسلامية. وبرر قطب العنف ضدّ غير المؤمنين، وألح على ضرورة المباشرة بعمل ثوري لتسلم السلطة السياسية. بدأت آراؤه تتبلور، أقله جزئياً، أثناء زيارته الولايات المتحدة في العام 1948 التي دامت سنة. أرسلته الحكومة المصرية إلى جامعة شمال كولورادو للمدرسين في غفريلي لتعلم النظام التعليمي الأميركي، لكنه وجد الولايات المتحدة منفرة: أميركا مادية ومهووسة بالجنس ومتعصبة ضدّ العرب، ومتعاطفة مع إسرائيل. وكتب قطب عند عودته: «تعيش البشرية اليوم في

بيت دعارة كبير. يستطيع المرء أن يلقي نظرة على صحيفته وأفلامه وعروض الأزياء ومسابقات الجمال والحفلات والحانات ومحطات البثّ».

حاول قطب أن يبرهن أنه لا بد من إطاحة الحكومات غير المتدينة في الإسلام. على المسلمين الحقيقيين الانضمام إلى «حزب الله» [غير تنظيم «حزب الله» اللبناني، الذي يلعب دوراً بارزاً حالياً في خريطة القوى السياسية اللبنانية، وخاض معركة المقاومة ضد جيش الاحتلال الاسرائيلي، وأنجز في العام 2006 نصراً غير مسبوق على جيشها - الناشر] . ربط قطب الثورة السياسية بالمتغيرات القسريّة التي طرأت على القيم الاجتماعية، تماماً كما فعل لينين. هاجم كتاب «علامات دلالية» القادة المسلمين الذين حكموا وفقاً لأنظمة غير إسلامية، مثل الأنظمة الرأسمالية والشيوعية. وكتب قطب أنّه يجب إعلان أنّ هؤلاء القادة غير مؤمنين، ليصبحوا بالتالي أهدافاً للجهاد الثائر(168).

أُعدم قطب في العام 1966، إلا أن بيانه الرسمي أصبح تدريجاً وثيقة الراديكاليين الإسلاميين من المغرب إلى إندونيسيا. وتم تعليمه لاحقاً في جامعة الملك عبد العزيز في جدة في الصفوف التي حضرها أسامة بن لادن. جذبت أفكار قطب المنتسبين المتحمسين في حرم جامعة الأزهر في القاهرة (في العام 1971، تعهد والد الأمير تركي، الملك فيصل، تقديم مبلغ 100 مليون دولار إلى عميد جامعة الأزهر لدعم كفاح الإسلام الثقافي ضد الشيوعية(169)). وحمل سياف ورباني وأساتذة آخرون في هذا السياق، أفكار قطب، التي اعتنقوها، إلى صفوف جامعة كابول.

ترجم رباني كتاب «علامات دلالية» إلى لغة داري، لغة التعليم الأفغانية. واتبع الأساتذة الأفغان العائدون، نموذج قطب اللينيني الخاص بالحزب الثائر على تقاليد الحركات الصوفية المحلية. وفي العام 1973، أثناء اجتماعهم الأول بصفتهم مجلس القيادة في منظمة الشباب المسلم، انتخبت المجموعة رباني رئيساً، وسياف نائباً للرئيس(170).

لم ينجح قلب الدين حكمتيار في الوصول إلى الاجتماع الافتتاحي لمنظمة الشباب المسلم في تلك الليلة من العام 1973. كان في السجن لتحريضه على قتل طالب يدعم أفكار ماوتسي تونغ. إلا أن الفريق اختاره على أي حال مديراً سياسياً، لأنه أثناء الفترة القصيرة التي أمضاها في كلية الهندسة في جامعة كابول، اكتسب حكمتيار سمعته كراديكالي ملتزم. أبدى استعداده للاحتجاج على أي شيء. وعندما حاولت الجامعة رفع معدل النجاح من خمسين إلى ستين، لعن حكمتيار مدراء الجامعة، ووقف في الصفوف الأمامية أثناء تظاهرات جماعية. اعترض على الأساليب الحكومية غير الإسلامية، وأشيع أنّه رش مواد حمضية على وجوه شابات سافرات، تجرأن على الظهور علناً من دون حجاب(171).

بقي مسعود على مسافة من حكمتيار، إلا أن تعاليم رباني جذبته. وكي يشارك في محاضرته، كان يأتي مشياً على الأقدام من خلف الهضبة، حيث المعهد، إلى كلية الشريعة في جامعة كابول، وهي

عبارة عن مبنى من القرميد والبلاط، يعود إلى حقبة الخمسينيات، يشبه مدرسة ابتدائية أميركية، ويرتفع وسط وادي مظلل قرب جبل علي آباد.

وفي الوقت الذي كان قريب الملك ظاهر شاه، محمد داود، يحظى بالدعم السوفياتي، ويسعى إلى الحصول على السلطة الوطنية بواسطة انقلاب في 17 تموز/يوليو 1973، احتلّ مسعود مكانة بارزة في منظمة الشباب المسلم.

أعلن رباني، في أحد الاجتماعات في كلية الشريعة بعد بضعة أسابيع: «يعتقد بعض إخواننا أنّ الجهاد الإسلامي ضروري لإسقاط هذه الحكومة المجرمة». حصلوا على أسلحة، وأقاموا علاقات بين صفوف الجيش الأفغاني، لكنهم افتقدوا طريق السلطة. وعندما اتخذ داود إجراءات صارمة بحق الإسلاميين بعد عام، هرب مسعود وحكمتيار ورباني وبقية أفراد المنظمة إلى باكستان التي حضنتهم. أقلق الدعم الشيوعي الناشئ لداود، الجيش الباكستاني. وعرض الإسلاميون المنفيون على الجيش وسيلة لمتابعة التأثير في أفغانستان. وبدأ مسعود وحكمتيار وحوالى خمسة آلاف شاب منفي تدريبات عسكرية سرية تحت إدارة مستشار رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو للشؤون الأفغانية، العميد نصر الله ببر(172). أصبح ببر وحكمتيار، وكلاهما من قبيلة الباشتون، واثقين بنفسيهما، ووضعا معاً خطة للقيام
بثورة ضد داود في العام 1975. واختارا مسعود ليتسلل إلى بانشير، ويبدأ الثورة من هناك. نفّذ مسعود ذلك على مضض، وانتهت الحقبة بشكل سيئ: هرب مسعود إلى باكستان للمرة الثانية في خلال سنتين(173).

أثارت الثورة الفاشلة شرخاً بين الأفغان المنفيين، وأدت إلى سفك الدماء. أنشأ حكمتيار منظمته الخاصة، الحزب الإسلامي، الذي يضم في الأساس أفراداً من قبيلة الباشتون، وأقام علاقات وطيدة مع «الآي.أس.آي.». وبقي مسعود مع رباني في جماعة الإسلام التي تضم في غالبيتها أفراداً من قبيلة الطاجيك. وعندما عاد مسعود سراً إلى وادي بانشير من جديد في العام 1978، فعل ذلك من تلقاء نفسه. لم يعد يثق بالقادة الأفغان الآخرين، ولم يعد يؤمن بباكستان. ظهر ببساطة في بانشير مع ثلاثين مؤيداً له وسبع عشرة بندقية، وما يعادل 130 دولاراً أميركياً نقداً، ورسالة تطلب من السكان المحليين إعلان الجهاد ضد حكومتهم التي يدعمها السوفيات(174).

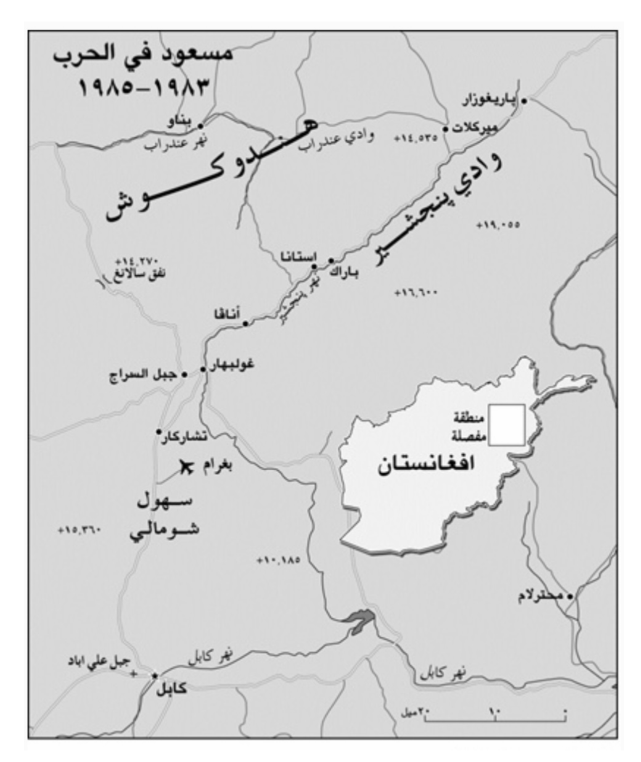
عندما بلغ مسعود الثلاثين من عمره، كان قد أفشل ستة اعتداءات شنها الجيش التقليدي الأكبر في العالم.

أمل المكتب السياسي والقيادة العليا في الجيش السوفياتي الأربعين أن تلعب القوات السوفياتية دوراً داعماً في أفغانستان، وتساند الجيش الأفغاني الذي يقوده الشيوعيون. وأكّد مسؤولو الكرملين مراراً لأنفسهم، أن الثوار ليسوا سوى أفراد من حزب بسماتشي، أو لصوص، وهو التعبير المستعمل لوصف الثوار المسلمين في آسيا الوسطى الذين لم ينجحوا في التصدي للسلطات السوفياتية عقب

الثورة البلشفية في العام 1917. لكنّ نسبة الفارين من الخدمة ازدادت بين صفوف الجيش الأفغاني. وضخم التجنيد الإلزامي الهائل حجم الجيش الأفغاني المعلن، لكنه لم يؤثر كثيراً في تحسين قدراته. فقامت الوحدات السوفياتية تدريجاً بأخذ الحرب على عاتقها(175).

احتلّ مسعود وثوار بانشير أعلى لائحة أهدافهم. فقد ضمّ وادي بانشير ثمانية آلاف مقيم فحسب، في بلد يبلغ عدد سكانه خمسة عشر مليون نسمة، لكن السوفيات اعتبروا الوادي، برغم ذلك، حيوياً. في شرق بانشير، عبر سلسلة جبال وعرة، شكّل طريق سلانغ العام ممراً بين كابول وترميز، مدينة التجارة السوفياتية على الحدود الأفغانية قرب نهر أموداريا. وبغية إحكام السوفيات سيطرتهم على أفغانستان، كان لا بد من إبقاء طريق سلانغ العام مفتوحاً، فما من طريق بري آخر يسمح بإمرار الإمدادات بين الاتحاد السوفياتي وكابول. وقد أتت الأطعمة والألبسة الموحدة والوقود والأسلحة والذخائر، وكلّ ما طلبه الجيش الأحمر والجيش الأفغاني، عبر طرقات سلانغ المخادعة والمحفورة والملتوية.

أبقى طريق سلانغ عيون قوات مسعود دائمة اليقظة، وحافظ مقاتلوها على أقصى درجات التأهب والتسلح. وعندما كان موكب سوفياتي يحاول عبور الطريق العام، اندفع مقاتلو مسعود من فوق الجبال وأطلقوا النار من رشاشاتهم وأغاروا على الموكب، ثم اختفوا من جديد في الظلال. كانوا يفككون كلّ ما غنموه من السوفيات، سواء أكان قذيفة مضادة للدبابات أم أجزاء من دبابات، فيوضبونها على ظهور الأحصنة، ويشقون طريقهم إلى بانشير حيث يعيد الميكانيكيون تجميعها كي يستعملها الثوار لاحقاً. وبما أنه كان بمقدور مسعود الوصول إلى سلانغ من بانشير، تمكن من قتل عدد كبير من جنود الجيش الأحمر بواسطة أسلحة تعود إليهم في الأساس، يستخدمها جهاديون يرتدون لباس الجيش الأحمر الموحد. وأخبر مسعود صحافياً زائراً في العام 1981: «لا نعتبر أننا نجحنا في اعتدائنا على قافلة، حتى وإن دمرنا عدداً كبيراً من الشاحنات والدبابات، إلا في حال أحضرنا ذخائر»(176). قرر السوفيات أن مسعود لص عليهم إيقافه بسرعة.




**حقوق الطبع :ريتشارد فورنو**

في كل اعتداء من الاعتداءات السوفياتية الستة الأولى على بانشير، بين ربيع العام 1980 وخريف العام 1982، بدا من المستحيل أن يحصل مسعود على أي فرصة لتحقيق أي نصر. كان لديه بالكاد ألف مقاتل في فترة الحملة الأولى. وتضاعف هذا الرقم بعد سنتين، إنما كان يفتقر إلى الأسلحة، بينما أحضر السوفيات في كل عملية غزو عدداً أكبر من الرجال والأسلحة. وأثناء عدوان خريف 1982، أرسل السوفيات عشرة آلاف رجل من قواتهم الخاصة، وأربعة آلاف جندي من الجيش الأفغاني، ومجموعة من الدبابات والمروحيات الهجومية والطائرات المقاتلة من كابول. لم يسعوا إلى تأمين سلانغ فحسب، إنّما كانت الاعتداءات جزءاً من خطة عسكرية كبيرة وغير معلنة. ووفقاً لسجلات «الكي.جي.بي.»، قرر السوفيات أن عليهم «تحقيق فوز في المناطق الشمالية الموجودة قرب حدود الاتحاد السوفياتي قبل كل شيء»، بغية السيطرة على أفغانستان على المدى البعيد(177).

أصبح مسعود تلميذاً جديّاً وقارئاً متعمقاً لماوتسي تونغ وتشي غيفارا والفرنسي الثوري ريجيس ديبري. اتبع أفكارهم ومبادئهم، ولم يحاول مواجهة السوفيات والتصدي لهم. حافظ منذ بداية الثورة على عملاء استخبارات متمركزين جيداً بين أفراد الجيش الأفغاني، فكان يكتشف قبل أيام أو أسابيع أو حتى أشهر، أن السوفيات يخططون للقيام باعتداء. وقبل بدء القصف الجوي، تختفي قوات مسعود في شبكة وديان معقدة منتشرة خارج بانشير مثل شرايين في ورقة نبتة.

كانت القوات السوفياتية والأفغانية تدخل الوادي بعد سقوط القذائف لتجده يعج بالنساء والأولاد والشيوخ وعدد قليل من مزارع الحيوانات، لكنها لا تجد أثراً لأي مجاهد. قد يسمح مسعود لقافلة

من الدبابات بالتقدم أكثر داخل الوادي قبل أن يأمر رجاله بالهجوم. وعندما يهجمون، لا يقفون أبداً، ويحاربون وجهاً لوجه. فبدلاً من ذلك، يرسلون بعض الجنود الشجعان ليطلقوا قذائف من المدفعية، فيصيبوا الدبابة الأولى والدبابة الأخيرة من القافلة،
ثم تقوم قوة أكبر من الثوار المحصَّنين جيداً خلف الصخور والأشجار، بإطلاق النار بغزارة على القافلة من رشاشات قبل العودة إلى أمان الوادي. وداخل وادي بانشير الضيق حيث لا يوجد سوى طريق واحد للدخول والخروج، لم يكن أمام جنود الجيش الأحمر خيار غير ترك دباباتهم والفرار منها. وغالباً ما كانت تتحوّل العربات المعطلة في غضون أسبوع إلى جزء من ترسانة المجاهدين بفضل تصليحات ميكانيكيي مسعود(178).

قلب مسعود جنود الحكومة الأفغانية ضدّ حلفائهم السوفيات. شعر قسم كبير من أفراد الجيش، بولاء للقادة الثوار أمثال مسعود أكثر من ولائهم لسائسيهم السوفيات. واضطر مسعود في بعض الحالات، إلى إقناع المتعاطفين معه من داخل الجيش الأفغاني بعدم الانشقاق لأنهم قيمون كمخبرين أكثر من كونهم مقاتلين. لطالما أرسل السوفيات أثناء غزواتهم بانشير، وحدات أفغانية قبل وحدات الجيش الأحمر، معتقدين أن زملاءهم الأفغان سيكابدون وطأة مفاجآت المجاهدين. ومع الوقت، فهم مسعود هذه التكتيكات، وبدأ يستغلها. عندما يرصد المراقبون قافلة معادية تتقدمها قوات أفغانية، يحاول رجال مسعود عزل الوحدات من خلال دحرجة صخور ضخمة عن الجرف، ودفعها في اتجاه الطريق بين آخر عربة للقوات الأفغانية وأول عربة للقوات السوفياتية. وفي غالبية الأحيان، كان جنود الجيش الأفغاني يفرون على الفور بدلاً من القتال، تاركين للمجاهدين جميع الأسلحة والذخائر التي بحوزتهم(179).

لم يملك السوفيات رفاهية الاستسلام. وعندما سئل مسعود عن عدم وجود أسرى من الجيش الأحمر في سجونه، أجاب: «كراهيتنا للروس عميقة جداً. فقد خسر عدد كبير من المقاتلين الأفغان عائلاتهم أو منازلهم بسبب الإرهاب الشيوعي، وأوّل رد فعل لديهم عند رؤيتهم روسياً يكون بقتله»(180).

في الوقت الذي تصدّى مسعود للهجوم السوفياتي السادس، كانت سمعته منتشرة في جميع أنحاء البلاد. كان «أسد بانشير». أصبحت كلمة بانشير صرخة استنجاد في أفغانستان، وفي الخارج، ورمز أمل للمقاومين ضد الشيوعية. كان مسعود داخل الوادي الضيق بطلاً مشهوراً جداً إلى درجة أصبحت لديه جماعته الخاصة من المعجبين بشخصيته، وما يمكّنه من ممارسة سيطرته. لكن بدلاً من ذلك، قاد ثواره من خلال مجالس أعطت كبار السنّ في بانشير والمدنيين والقادة الثوار، فرصة التعبير عن رأيهم في عملياته. ونتيجة لذلك، أصبح مقيداً بالرأي العام المحلي، أكثر مما تقيد بالقادة الثوار الذين عملوا من خارج المكاتب التي تمولها «الآي.أس.آي.» في المنفى الباكستاني. استغل القادة المتمركزون في باكستان مخيمات اللاجئين المنتشرة في بيشاور وكيتا. فقد تحكم حكمتيار وسياف ورباني وقادة آخرون من الجهاديين الذين تدعمهم «الآي.أس.آي.»، في حصص الطعام. واستعمل حكمتيار على الخصوص المخيمات كمزيج من مخيمات اللاجئين المدنيين والمخيمات العسكرية ومراكز العمليات السياسية. أما مسعود فقاد جيشه القتالي بالكامل من داخل الأراضي

الأفغانية، واعتمد على صبر المدنيين الأفغان الذين يخضعون مراراً للاعتداءات السوفياتية الوحشية. أدار مسعود الشرطة المحلية ولجان الشؤون المدنية قي بانشير، وفرض الضرائب على المنقبين عن الزمرد واللازورد. واعتمدت ميليشياته مباشرة على الدعم الشعبي. وثمة أمثلة أخرى كثيرة عن القيادة الثورية الفطرية التي نشأت في أنحاء أفغانستان. إلا أن مسعود أصبح القائد الأبرز لما يسميه العالِم الفرنسي أوليفييه روا «الحركة الإسلامية المعاصرة الوحيدة التي ترسخت بين القرويين». ففي حركة مسعود «المجموعة المقاتلة هي المجتمع المدني الذي يتبع القيادة نفسها، من دون أن يكسب المقاتلون أجراً مقابل عملهم»(181).

بدأت التكتيكات السوفياتية لتدمير العالم بالقضاء على الدولة وسكانها. حصد القصف السوفياتي العديم الرحمة، آلاف الأرواح المدنية. وتضرر في أواخر العام 1982، أكثر من 80 في المئة من مباني بانشير، أو دُمر. وفي محاولة لتجويع سكان الوادي، عمد السوفيات إلى تكتيكات الستار الحديدي الأكثر خزياً: بنوا جداراً. هدف الحاجز الإسمنتي الذي يرتفع ست أقدام عند فم الوادي الجنوبي، إلى منع الطعام والملابس من الوصول إلى سكان بانشير. لكن الأمر لم يفلح، فقد تمكن المجاهدون من تهريب كل شيء، من البسكويت إلى الألبان وأجهزة الراديو. لكن بعد تدمير محاصيل سكان الوادي، وذبح قطعانهم، وبعد احتمال وقف القتال، يصعب التنبؤ بمقدار المشقة الذي سيتحملونه بعد.

قرر مسعود إبرام صفقة. في ربيع العام 1983، أعلن هدنة لا سابق لها. ووفقاً لشروط الهدنة، يجب على السوفيات وقف اعتداءاتهم على بانشير في حال سمح مسعود للجيش الأفغاني بتسلم مركز عند الجهة الجنوبية من الوادي. أُقرت الهدنة بعد ثلاث سنين من المفاوضات السرية. وصعقت غالبية الأفغان المقيمين خارج وادي بانشير، عندما علموا بأن مسعود كان فتح قنوات اتصال مع السوفيات طوال فترة محاربته لهم. بدأت المحادثات عن طريق رسائل تبادلها مع القادة السوفيات عبر الصفوف الأمامية. تحاور بواسطتها مسعود
ونظراؤه الأعداء مثل الزملاء. ثمّ تقابلوا لاحقاً وجهاً لوجه. وفي الجلستين الأخيرتين، وضع مسعود الشروط بنفسه. ووقع من موسكو، يوري أندروبوف، رئيس «الكي.جي.بي.» الذي أصبح الآن خلف بريجنيف كأمين عام للحزب الشيوعي، الاتفاقية من أجل السوفيات(182).

رأى عدد كبير من الأشخاص داخل أفغانستان وخارجها، أنّ الهدنة استسلام جبان. وأعلن عالم أميركي أنّ اتفاق مسعود كان بالنسبة إلى الجهاديين بمنزلة كارثة تماماً، مثلما كان «بينيديكت أرنولد مصيبة بالنسبة إلى الأميركيين»(183). وشعر قادة الجماعة، الحزب الذي أسسه مسعود، بأنه خانهم لأنه لم يكابد عناء استشارتهم قبل اتخاذ القرار.

ساعدت صدمة هدنة مسعود على تقوية منافسه حكمتيار. استشهد ضباط المخابرات الباكستانية، الذين ازدروا لسنين زبائن شمال أفغانستان الذين لا ينتمون إلى قبيلة الباشتون، بالاتفاق عندما شرحوا لنظرائهم في «السي.آي.إيه.» سبب فصل مسعود نهائياً. ويذكر العميد سيد رازا علي الذي

عمل في مكتب «الآي.أس.آي.» في أفغانستان في الثمانينيات، أنّه «وضع سياسة وقف إطلاق نار محلية». وسأل «لمَ على رجل يعمل ضدّ الحرب على أفغانستان، أن يتعامل معهم؟»(184).

اكتسب حكمتيار في ذلك الوقت قوّة، وأصبح أحد أهمّ زبائن «الآي.أس.آي.» المتمركزين في باكستان، تماماً مثل تشارلز ويلسون وبيل كايسي والأمير تركي الذين أغدقوا فجأة على مخازن «الآي.أس.آي.»، إمدادات جديدة وفتاكة تبلغ قيمتها مئات ملايين الدولارات.

نضج حكمتيار ليصبح قائداً فعلياً صلباً لا يعرف الرحمة، ويرفض أي معارضة، ويأمر باستمرار بإعدام منافسيه. وعزز قوته من خلال إدارة المنظمة العسكرية الأكثر صرامة في بيشاور ومخيمات اللاجئين. ويذكر عميد «الآي.أس.آي.» يوسف، الذي عمل بشكل وثيق مع حكمتيار: «يستطيع المرء الاعتماد عليه بصورة عمياء». «عندما تعطيه الأسلحة، تكون متأكداً أنه لن يبيعها إلى باكستان، لأنّه كان صارماً إلى درجة عدم الرحمة». وأضاف يوسف وهو يضحك بمرارة: «حين تنضم إلى حزبه، يستحيل عليك تركه». وكما يقول العالم الأميركي برنيت روبين: «تبع [حكمتيار] النظام الاستبدادي الذي يقضي بإدماج القوى جميعها بالحزب»(185).

تتحدر عائلة حكمتيار التي تنتمي إلى قبيلة الباشتون، من سلالة قبلية أخرى أدنى مرتبة أُجبرت على الانتقال في القرن التاسع عشر من مناطق الحدود الباكستانية إلى مقاطعة شمالية في أفغانستان، في قندوز التي لا تبعد كثيراً عن بانشير. وبما أن عائلته كانت من الأقلية في مجتمع الباشتون، فقد جذب حكمتيار الاستخبارات الباكستانية التي أرادت أن تتعامل مع زبائن من الباشتون بعيدين عن القبائل الكبيرة التقليدية الأفغانية. تابع حكمتيار دروسه الثانوية في قندوز وفي المدرسة الحربية في كابول، قبل أن يلتحق بكلية الهندسة البارزة في جامعة كابول. وما إن نُفي إلى باكستان، حتى جمع المقاتلين الإسلاميين الأكثر راديكالية ضدّ الغرب، والذين يتخطون الحدود القومية، بمن فيهم أسامة بن لادن وعرب آخرون وصلوا متطوعين.

اعتبر القادة الكبار المتأثرون بجماعة الإخوان المسلمين، مثل رباني وسياف، أنّ جماعة حكمتيار هي مجموعة متهورة تابعة للإخوان. تحدث عدد أكبر من الأساتذة الإسلاميين الأفغان عن المجتمعات الأجنبية العالمية الإسلامية، وعن التطور الفكري التدريجي. لكن ليس حكمتيار، فقد كان يركز على السلطة. أصبحت منظمة الحزب الإسلامي الخاصة به، أقرب إلى جيش منفي انضم إلى قائمة التنظيمات الجهادية المتنوعة والمشتتة. التزم آراء سيد قطب حول الحاجة إلى هزم القادة المسلمين الفاسدين بغية إنشاء حكومة إسلامية حقيقية. وأخذ على عاتقه مسؤولية اختيار المؤمن الحقيقي من الكافر. كانت حرب أفغانستان على مر العصور، تهدف إلى «إعادة توازن القوة، وليس إلى تدمير العدو»، بحسب ما يقوله العالم أوليفييه روا. أما حكمتيار فقد أراد من الجهة الأخرى، تدمير أعدائه الذين لا يقتصرون على الشيوعية وقوات الاحتلال السوفياتي فحسب، إنما يضمون المنافسين الجهاديين أيضاً.

اعتبر حكمتيار أنّ مسعود هو منافسه العسكري الأكبر، وبدأ بمهاجمته في الميدان من خلال المناورات في باكستان والسعودية. قال حكمتيار لأحد داعميه من العرب، وكان قلقاً حيال منافسته المتزايدة مع مسعود: «لدينا مَثَل في لغة الباشتون يقول: «الديك المتعجرف يمشي على طرفي قائمتيه على السطح خشية أن يقع به». وذلك الديك هو مسعود»(186). وأثناء سعي حكمتيار إلى تسلم السلطة في أواسط الثمانينيات، غالباً ما هاجم مسعود وجهاديين آخرين، إلى درجة أن محللي الاستخبارات في واشنطن خشوا أن يكون جاسوساً لـ «الكي.جي.بي.»، مهمته تفرقة صفوف المقاومة ضد الشيوعية(187).

إلا أن ضباط «السي.آي.إيه.» في قسم الشرق الأدنى، المعنيين بالبرنامج الأفغاني، والعاملين في المقر الرئيسي أو في الميدان، اعتبروا حكمتيار حليفهم الأكثر جدارة بالثقة والأكثر فعالية. وشجع ضباط «الآي.أس.آي.» «السي.آي.إيه.» على التعامل مع حكمتيار، فاستنتجت الوكالة، باستقلالية، أنه الأكثر قدرة على قتال السوفيات. وقال ضابط عمل في المقر الرئيسي في ذلك الوقت، إنهم وصلوا إلى هذه النتيجة، لأنهم راجعوا تقارير الأضرار في ساحة المعركة، وتتبعوا حركات شحنات الأسلحة، وزاروا مخيمات اللاجئين لتفقد القوة التنظيمية في صفوف أحزاب المقاتلين، واكتشفوا «من خلال التحاليل، أن أفضل المقاتلين وأفضل المقاتلين المنظمين هم المتزمتون» الذين يقودهم حكمتيار(188).

كان وليم بيكني، رئيس مركز «السي.آي.إيه.»، يحضر من إسطنبول مع ضباط من «الآي.أس.آي.» أو أعضاء كونغرس زائرين، لمقابلة حكمتيار في معسكرات التدريب الواقعة على الحدود الصخرية. أُعجب بمهارات حكمتيار القتالية، إلا أنّه كان يخشاه أكثر من أي قائد جهادي آخر. «قد تضع يديك في يدي قلب الدين وتتعانقان كأنكما أَخَوان في المعركة، فينظر إليك بعينيه السوداوين بلون الفحم، وتفهم أنّ أمراً واحداً فحسب يُبقي هذا الفريق متماسكاً، هو الاتحاد السوفياتي»(189).

علم حكمتيار أقلُّه من هو العدو، فاطمأن ضباط «السي.آي.إيه.» والمحللون. لكن من الناحية الأخرى، كانت اتفاقية الهدنة بين مسعود والسوفيات، الدليل العلني الأول على أنه بالإضافة إلى كونه عبقرياً عسكرياً، كان مستعداً لعقد صفقة مع أي كان، وفي أي وقت، وفي أي اتجاه، في حال رأى أن ذلك يخدم أهدافه.

شعر مسعود بأن اتفاقية الهدنة سترفع من منزلته وستضعه على قدم المساواة مع قوة عظمى. وقال مساعده، مسعود خليلي، متبجحاً: «تفاوض الروس مع واد». واكتسب مسعود من خلال هذا الاتفاق، بعض الوقت لإعادة تنظيم قواته من أجل ما اعتبره معركة طويلة جداً في انتظاره. لم يسعَ إلى مقاومة السوفيات فحسب، بل إلى التنافس لتسلم السلطة في كابول، وعلى الصعيد القومي كما فعل الثوار الذين أُعجب بهم من خلال قراءاته. وبالرغم من الغموض الذي لفّ الحرب، فقد خطط

مسعود مسبقاً لتشكيل جيش تقليدي يستطيع احتلال كابول بعد خروج السوفيات(190). استغل فترة وقف إطلاق النار التي دامت أكثر من سنة لتخزين الأسلحة والمؤن والطعام من أجل قواته المسلحة الفقيرة والسيئة التغذية. وحصد فلاحو بانشير، الذين لم يتمتعوا بمواسم زراعة خارج نيران الحروب سنين عديدة، غلالهم من دون أي مضايقات. وانطلق عدد كبير من قواته إلى جهات أخرى من البلاد لإنشاء تحالفات بالنيابة عن مسعود مع قادة جهاديين لم يزوروا بانشير قط.

اعتمد مسعود على الهدوء ليتفرغ للهجوم على قوات حكمتيار. فقبل الهدنة، استعمل فريق منحاز إلى حزب حكمتيار وادي أندراب المتاخم لشن هجمات على جناح مسعود، وقطع خطوط إمداداته. وقاد مسعود هؤلاء المقاتلين إلى خارج الوادي بعيداً عنه للوقت الحاضر بواسطة غارة عسكرية واحدة مفاجئة. كانت بمنزلة ضربة الافتتاح في الحرب الناشبة داخل الحرب الأفغانية.

وفي الوقت الذي بدأت الهدنة تنحلّ في ربيع العام 1984، كان مسعود يتنزه في بانشير في عربة فولغا سوداء مميزة. كانت العربة هدية من السوفيات لوزير الدفاع الأفغاني، لكن مقاتلي مسعود استولوا عليها عندما كانت في طريق سالانغ العام، ونقلوها إلى بانشير هدية إلى قائدهم بعد أن فكّكوها إلى مئات القطع(191).

عبّر السوفيات عن استيائهم من خلال إرسال عميل سري أفغاني إلى بانشير. أطلق العميل النار على مسعود من مسافة ثلاثين قدماً، لكنه لم يصبه. وكشفت محاولة الاغتيال هذه عميلين شيوعيين أفغانيين آخرين وسط الثوار، بمن فيهم ابن عم مسعود الذي كان أيضاً أحد القادة.

بقيت شبكة التجسس الخاصة بمسعود متقدمة على الدوام. في ربيع العام 1984، علم بأنّ السوفيات ينوون إطلاق هجوم من عشرين ألف رجل على الوادي. لن يكون الغزو أوسع مما رأوه من قبل فحسب، إنما وفقاً لمصادر مسعود ستكون التكتيكات عديمة الرحمة أكثر من ذي قبل. خطط السوفيات لتعريض الوادي لاعتداءات جوية تدوم أسبوعاً، ثمّ تم نشر الألغام في الأراضي حيث أطلقوا القذائف ليجعلوها غير قابلة للسكن أعواماً.

أمر مسعود جميع سكان وادي بانشير بإخلائه في نهاية شهر نيسان/أبريل. وقبل ثلاثة أيام على تحليق الطائرات المقاتلة السوفياتية فوق ممرّ الوادي، قاد أكثر من أربعين ألف مواطن من بانشير إلى خارج الوادي، وخبأهم. وعندما دخلت القوات السوفياتية البرية، بالإضافة إلى عدد كبير من القوات الخاصة المعروفة باسم «سبيتسناز»، الوادي بعد أسبوع، وجدت وادي بانشير مدمَّراً بالكامل، وخالياً تماماً.

خطط مسعود بحذر لعودته من الكهوف المخفية والمحصَّنة التي تحيط ببانشير، حيث أعاد تأسيس منظمته. وأطلق رجاله عملياتهم من سلسلة الجبال مطلقين النار على المروحيات التي حطت على أرض الوادي. نصبوا فخاخاً للأعداء، ونظموا هجمات مضللة، وحاربوا في الليل عندما كان السوفيات أكثر عرضة للخطر.

عند إدخال قوات «سبيتسناز» البارزة مع مروحيات الهجوم المتطورة من طراز «مي - 24» ومعدات الاتصالات، تم تحويل تكتيكات القتال والمواجهة تدريجاً إلى مصلحة السوفيات. انتشر حوالى ألفي فرد من قوات «السبيتسناز» في أفغانستان في العام 1984، وتصدت مروحيات «مي - 24» المدرعة لجميع الرشاشات المضادة للطائرات التي كانت بحوزة الأفغان. وجد رجال مسعود أنفسهم ملاحَقين في معركة برية غير متكافئة، من قبل قوات «سبيتسناز» المدججة بالسلاح، والتي تستطيع تسلق أجرف الوادي الوعرة بسرعة السكان المحليين أنفسهم. ونقلت إذاعة كابول أنّ مسعود قد قُتل في الهجمات. وعندما سُئل الرئيس الأفغاني ببراك كرمال في مقابلة أُجريت في وقت لاحق ذلك الربيع، إن كان مسعود ميتاً أو حياً، رفض كرمال الإجابة. سأل بازدراء: «من هو مسعود الذي تتحدث عنه؟». «تنشئ البروباغندا الأميركية شخصيات وآلهة مزيفة... يعرف ريغان جيداً بصفته ممثلاً كيف يؤلف دمى على الصعيد الدولي... هذه الابتكارات هي معبودات طينية تتفكك على الفور. كان مسعود أداة في يد الامبريالية. لا أعرف إن كان حياً أم ميتاً، ولا أكترث لذلك. فقد حلّت مسألة بانشير»(192).

لم تُحَلّ المسألة، فقد كان مسعود يدور حول نفسه. اعترف القائد لأحد زائريه بين رشفات من الشاي بينما تحصّن داخل أحد كهوفه المنيعة التي لا تُعَد: «أصبحت الحرب صعبة جداً، أكثر بكثير من قبل». «تعلم قادتهم أشياء كثيرة عن الحرب في الجبال، وبدأوا يقاتلون بطريقة أفضل من السابق»(193).

صرح محللو «السي.آي.إيه.» عن الأمر نفسه، في التقارير التي نشروها في لانغلي. قال أحد التقارير إنّ الحملة السوفياتية التي أُطلقت في بانشير ذلك الصيف، أظهرت «ازدياداً في الاعتداءات المروحية»، بالإضافة إلى حملة «قصف عن علو مرتفع لا سابق له». إلا أن الإنذار المسبق الذي تلقاه مسعود بشأن الهجوم وعملية إخلاء المدنيين السرية، أحدث الفرق لأنّ «الاستخبارات السوفياتية فشلت في اكتشاف أن المقاتلين والداعمين المدنيين قد غادروا الوادي». وعلمت «السي.آي.إيه.» في الوقت نفسه، بأن بوادر الحرب الأهلية التي تفاقمت بين مسعود وحكمتيار، أضعفت المقاومة ضد السوفيات. وصرح تقرير «السي.آي.إيه.» السريّ أنّ المعارك الداخلية بين الفريقين «عرقلت العمليات وجهود إعادة تمويل متمردي مسعود داخل وادي بانشير»(194).

لم يتسلم مسعود سوى مساعدات خارجية قليلة في أواخر العام 1984 وبداية العام 1985. اتصلت الاستخبارات البريطانية، «أم. آي. 6»، التي أدارت أعمالها من مكتب صغير من دون

نوافذ في السفارة البريطانية في إسلام آباد، بمسعود في بداية الحرب، وزودته الأموال وبعض الأسلحة وأجهزة الاتصالات. وعلّم ضباط الاستخبارات البريطانية بعض مساعدي مسعود الذين يثق بهم اللغة الإنكليزية، مثل مسؤول العلاقات الخارجية، عبد الله. كما تمكّن الفرنسيون أيضاً من الاتصال بمسعود. وأرسلت وكالتا الاستخبارات، اللتان لا تخضعان لقوانين «السي.آي.إيه.» التي حظرت السفر إلى أفغانستان، ضباطاً إلى بانشير عن طريق البر، متظاهرين بأنّهم صحافيون. اعتمدت «السي.آي.إيه.» على الاستخبارات البريطانية للحصول على تقارير حول مسعود. في لانغلي «ارتفعت قليلاً حدة الحسد» بين الجواسيس الأوروبيين المتنقلين عبر الحدود. وكما يقول أحد الضباط: «سيقومون بالدخول». دعم الفرنسيون مسعود على الخصوص «محاولين إيجاد بعض طباع المنقذ» في شخصيته، ومظهرين إياه بمظهر «سيمون بوليفار» أو «جورج واشنطن» أفغانيّ(195).

أثار مسعود إعجاب زائريه البريطانيين والفرنسيين. كانت ملابسه أكثر أناقة من بقية الأفغان، وتعلم التحدث بالفرنسية. كانت طباعه هادئة، وثقته بنفسه كبيرة، وما تبجح أبداً. قال مساعده خليلي: «لم يكن قط عاطفياً أو ذاتياً، بل موضوعياً على الدوام»(196). كان يمتطي من وقت إلى آخر الأحصنة مع قادته القدماء الذين يثق بهم، ويدفعهم في المياه عندما يذهبون للسباحة، أو يغيظهم عندما يقومون معاً بمهام خطيرة. وبما أنّه كان يصلي خمس مرات في اليوم، ويحارب باسم الله مستنداً إلى النصوص الراديكالية التي تعلمها في معهد كابول المتعدد الفنون، بدا بالنسبة إلى الغرباء متسامحاً وإنسانياً ومتأصلاً في أرضه، أكثر من أي قائد آخر في المقاومة الأفغانية.

حافظت «السي.آي.إيه.» على الاتفاقية التي عقدتها مع ضياء الحق والتي تقضي بالعمل من خلال «الآي.أس.آي» فحسب، لذا لم تتصل بشكل مباشر بمسعود طوال فترة الثمانينيات. رأى ضباط «الآي.أس.آي.» في المكتب الأفغاني، أن البريطانيين «يلعبون لعبتهم الخاصة» مع مسعود، ما يعطي سبباً آخر لخفض دعمهم له. لكن «السي.آي.إيه.» بدأت في أواخر العام 1984، بإمرار بعض الأموال والإمدادات سراً إلى مسعود، من دون إطلاع باكستان على الأمر(197).

قال أحد ضباط «السي.آي.إيه.» المعنيين: «لم نواجه أي مشكلة، أو نشعر بأنه العدو، أو أنّه علينا استبعاده». كما لم تكن «السي.آي.إيه.» «مستعدة لإضاعة الوقت وصرف الطاقة»، محاولة دفع مسعود إلى الأمام. أقسم مسعود الولاء لرباني، لكن العلاقة بينهما كانت متوترة جداً. تسلم رباني إمدادات كثيرة من «الآي.أس.آي.» في مكاتبه في بيشاور، لكنه لم يقدم الكثير إلى مسعود. ويذكر يوسف الذي عمل في «الآي.أس.آي.»: «لم يكن رباني أخرق، بل سياسياً». «لا يستطيع أن يجعل أي رجل أقوى منه»(198). أراد رباني أن يكون له تأثيره الخاص بين الأفغان من خلال توظيف أفراد من الباشتون والأوزبك وقادة شيعة، ضامناً إخلاصهم بواسطة الأسلحة. فقد سعى من خلال ذلك إلى الحدّ من سلطة مسعود النسبية.

وكنتيجة لذلك، كل ما امتلكته قوات مسعود سلبته من العدو بما في ذلك ثياب مسعود نفسه: زي الجيش الأحمر العسكري، وأحذية الجيش الأفغاني. في بعض الأحيان. كان رباني يرسل إليه رزمة رعاية تعود إلى «الآي.أس.آي.» أو إلى السعوديين، وهي عبارة عن بعض الإمدادات التي تستطيع عشرة أحصنة نقلها فحسب. لكن الصحافيين الغربيين الذين أمضوا أشهراً برفقة مقاتلي مسعود في بداية الثمانينيات، عادوا من بانشير وبحوزتهم تقارير تفيد أنّه ما من أثر لأي مساعدة تمولها الولايات المتحدة، وتقدمها إلى الجهاديين.

ومع ازدياد حدة القتال، اعترف مسعود بأنه بحاجة إلى مساعدة خارجية. رفض ترك أفغانستان، لكنه بدأ إرسال أشقائه إلى خارج البلاد، إلى بيشاور ولندن وواشنطن، للاتصال بضباط «السي.آي.إيه.» والجنرالات في باكستان الذين يتحكمون في خطوط الإمدادات السرية.

أضاف إلى قائمة طلباته حصص طعام محمولة وفيتامينات ومقويات، لمساعدة قواته على الصمود واكتساب الغذاء، وآلات أشعة سينية لتشخيص حالات المصابين، ومناظير ليلية وأجهزة تصويب للمعارك الليلية. وأجهزة راديو واتصالات لتحسين التنسيق بين القادة... وفوق كل شيء قاذفات صواريخ مضادة للطائرات تُحمل على الأكتاف ضد المروحيات والطائرات. فكر مسعود في أنه يستطيع بواسطة هذا النوع من المساعدات إجبار السوفيات على العودة إلى طاولة المفاوضات في غضون ستة أشهر. ومن دونها «قد تدوم [الحرب] أربعين سنة»(199).

لم يكن مسعود على علم بذلك، لكن توصّل بعض المعجبين به، من الأميركيين في واشنطن، في ربيع العام 1985، إلى الاستنتاجات نفسها.

# 7
# سيسيطر الإرهابيون على العالم

مع ازدياد حماسة وليم كايسي لمتابعة الحرب الأفغانية، وفي خضم تصميمه على فرض أقصى عقوبة ممكنة على السوفيات، وجد نفسه بحاجة إلى حلفاء خارج مقر «السي.آي.إيه.» الرئيسي. لم يزعزع الوقت إيمانه بأن ضباط «السي.آي.إيه.» السريين، خجلون، إلا أن محادثات ذات تأثير كبير قد عُقدت في القسم التنفيذي، ما ساعد على دعم جهوده لتقوية الحرب السرية. ويذكر فرانك أندرسون، وهو ضابط في الخدمات السرية معني بالبرنامج الأفغاني، أن إدارة ريغان قد جذبت إلى واشنطن «عدداً كبيراً من قراء مجلة «سولدجير أوف فورتشون». كان من بين هؤلاء الشهود المرتزقين، أفراد شبه عسكريين مثل صديق كايسي، أوليفير نورث، وأفراد متوقدو الذهن، ومتشرّبون بالروح العسكري، وشديدو الفظاظة، للشيوعية، ومنتمون إلى خلايا التفكير اليمينية»(200).

تواصل كايسي مع هؤلاء الحلفاء، ورسم معهم خطة جديدة للجهاد الأفغاني. يُعرف برنامج العمل الذي وضعوه باسم توجيهات قرار الأمن القومي 166، التي تلاها ملحق سري مشفّر. وأصبحت هذه المسودة قاعدة قانونية للتصعيد الكبير الذي سيشهده دور «السي.آي.إيه.» في أفغانستان، بدءاً من العام 1985.

عرضت وثيقة السياسة الجديدة مسبقاً أسباب الزيادة الهائلة في التمويلات السرية التي أضافها تشارلز ويلسون إلى البرنامج الأفغاني في أواخر العام 1984. كما ترقبت عصراً جديداً يتّسم بإدخال التقنيات العسكرية الأميركية المتطورة مباشرة إلى أفغانستان، وتدريب المقاتلين المجاهدين بشكل مكثف على استعمال تقنيات التفجير والتخريب، والقيام باعتداءات تستهدف الضباط العسكريين السوفيات وتهدف إلى إضعاف معنويات القيادة العليا السوفياتية. ودفعت هذه التغييرات «السي.آي.إيه.» وزبائنها في المقاومة الأفغانية وفي الاستخبارات الباكستانية، إلى القيام بعمليات الاغتيال والإرهاب.

غيرت الاجتماعات التي نتجت منها توجيهات قرار مجلس الأمن 166، طريقة إدارة الولايات المتحدة برنامجها الأفغاني السري. فقد خسرت «السي.آي.إيه.» للمرة الأولى سيطرتها شبه التامة. وأصبح معهد واشنطن الاستثنائي الذي يعرف «بمنهجية العمل المشتركة بين الوكالات»، مهيمِناً. هذا الأمر نموذجي بالنسبة إلى صوغ سياسات الأمن القومي في الثمانينيات. فقد شكل ممثلون من مختلف الوكالات والوزارات، الذين تم اختيارهم وفقاً لصلتهم بقضية السياسة الخارجية القريبة المتناول، لجنة تحت إشراف مجلس الأمن القومي التابع للبيت الأبيض. وغالباً ما اختارت اللجنة اسماً مبهَماً للجنة مع تسمية مختصرة يصعب لفظها، ويتمّ تناقلها كرمز عضوية سري. عملت «السي.آي.إيه.» باستمرار تحت إدارة ريغان مع مجموعة مماثلة: مجموعة التخطيط والتنسيق، أو

«البي.سي.جي.»، وهي هيئة غير معلنة، وتابعة للرئيس معنية بالإشراف على العمليات السرية. وقام قسم تابع لـ «البي.سي.جي.»، هو فريق مراجعة السياسات، بإعادة النظر في العملية السرية الأفغانية بطريقة شاملة في بداية العام 1985 بالتعاون مع كايسي، وقد بدأ الفريق عقد اجتماعاته في جناح عالي السقف في مبنى المكتب التنفيذي القديم المجاور للجناح الغربي في البيت الأبيض.

مبنى المكتب التنفيذي القديم لافت للأنظار، فهو رمادي اللون وسقفه على شاكلة «جملون»، ما يعطيه طابع عصر النهضة الفرنسي، فتحاكي زواياه البارزة وأجزاؤه الرئيسية المنحدرة تفصيلاً، مكاتب الشارع الرقم 17 الرخامية المسطحة. ويضمّ المبنى عدداً كبيراً من موظفي الأمن القومي الذين لم يستطيعوا التكيف داخل الجناح الغربي، وقد شغل كايسي مكتباً فيه. تمركزت مديريات مجلس الأمن القومي المحلية وراء معظم أبوابه الكبيرة. يحضر إلى هنا مندوبون من لانغلي، ومن البنتاغون، ومن مركز وزارة الخارجية الرئيسي الموجود في منطقة مجاورة لواشنطن، تعرف باسم فروغي بوتوم، بغية مراجعة العمليات، ومتابعة النقاشات السياسية، وإعداد الوثائق من أجل التوقيع الرئاسي عليها.

قامت المجموعة الجديدة للتنسيق المشترك بين الوكالات المجتمعة في الغرفة 208 والمعنية بشؤون أفغانستان، بإجبار «السي.آي.إيه.» على مشاطرة الطاولة مع مدنيين وضباط باللباس الرسمي من البنتاغون. وفي بداية العام 1985، كان فريد إيكلي الشخصية الجديدة الأكثر تأثيراً، وقد كان مديراً سابقاً للوكالة الأميركية للحدّ من التسلح ونزع السلاح، ومتشدداً في ثياب عصرية، ومحارباً للشيوعية. وحضر معه مايكل بيلسبوري، وهو مساعد سابق في الكونغرس، متشوق إلى العمل.

حثّ بيلسبوري، بمساعدة من إيكلي، الرئيس ريغان على توقيع مشروع توجيهات قرار مجلس الأمن 166. كما حدّد مهمّته بأسلوب شيّق من أجل الحصول على مساعدة معتدلة، وبعض السلطة الرسمية التي تتعدى التصريحات الأمنية العالية المستوى. أراد تزويد الثوار بالأسلحة القتالية الفضلى والمعلومات الاستخبارية الهامة التي ترصدها الأقمار الصناعية، لمساعدتهم على تخطي الضغط السوفياتي العسكري. وكي يحصل بيلسبوري على مراده، كان بحاجة إلى سلطة قانونية جديدة لعمليات «السي.آي.إيه.» السرية تتخطى هدف سياسة كارتر الذي يقضي بـ «مضايقة» القوات السوفياتية المحتلة. لقد سعى إلى توسيع أهداف عمليات «السي.آي.إيه.» الأفغانية المعلنة، ووسائلها العسكرية.

رأى ضباط الاستخبارات في قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، أن بيلسبوري مجرد هاوٍ متهور. أمّا بيلسبوري فقد اعتبر نفسه محافظاً ذا مبادئ، يرفض أنّ يروَّع من قبل بيروقراطيي الوكالة الحذرين. أراد تحديد أهداف جهود «السي.آي.إيه.» في أفغانستان، على أنها «نصر» على القوات السوفياتية. بدت هذه اللغة متشددة كثيراً بالنسبة إلى ضباط «السي.آي.إيه.» والدبلوماسيين الحكوميين. تراجع بيلسبوري قليلاً، واقترح تحديد هدف الجهاد على أنّه عملية

«إخراج السوفيات». لكن هذا التعبير حمل بدوره استفزازاً، بحسب بعض أعضاء اللجنة. واستقروا في النهاية، على لغة دفعت «السي.آي.إيه.» إلى استعمال عبارة «جميع الوسائل المتاحة» لدعم نضال الجهاديين من أجل تحرير أفغانستان.

جذب بيلسبوري الدعم عن طريق تقديم شيكات مالية، على بياض خاصة بالميزانية، إلى كل وكالة معنية بالقضية الأفغانية، مثل وزارة الخارجية ووكالة التنمية الدولية ووكالة إعلام الولايات المتحدة والبنتاغون. وبقيت «السي.آي.إيه.» التي يديرها كايسي في الطليعة، وعملت بشكل أساسي من خلال «الآي.أس.آي.» في باكستان. لكن «السي.آي.إيه.» حصلت على سلطة جديدة تخولها العمل بمفردها بعيداً عن مراقبة باكستان. وتشجعت أقسام أخرى على وضع خطط طموحة قد تدمج بأعمال «السي.آي.إيه.». ويذكر بيلسبوري أن السياسة الجديدة تمحورت حول فكرة واحدة: «يستطيع أي كان أن يفعل ما يريده» لدعم المقاتلين الأفغان. و «وضع الجميع كلّ ما يريدونه في هذه الوثيقة، فتغيّر الهدف مقابل كلّ هذا التناغم»(201).

وقّع الرئيس ريغان توجيهات قرار مجلس الأمن 166 السرية التي تحمل عنوان «المساعدة الأميركية الموسَّعة للمقاتلين الأفغان» في آذار/مارس 1985، والتي غطت رسميّاً لهجتها العدوانية باعتبارها السياسة الأميركية السرية في أفغانستان. ووقّع مستشار الأمن القومي، روبرت ماك فارلاين، الملحق السري الذي يتألف من ست عشرة صفحة، ويحدد خطوات معينة جديدة يجب أن تتبعها «السي.آي.إيه.».

تستطيع الوكالة للمرة الأولى أن تستعمل صور الأقمار الصناعية لساحة المعركة الأفغانية لمساعدة الأفغان على التخطيط لشنّ هجمات على أهداف سوفياتية. وسرعان ما أرسلت الوكالة بطريقة آمنة، مجموعات من «وحدات الاتصالات» التي تتيح للثوار استعمال تقنيات أميركية متطورة تحدّ من تنصت السوفيات على اتصالاتهم اللاسلكية. بدأت «السي.آي.إيه.»، للمرة الأولى، بتوظيف أعداد كبيرة من العملاء «الأحاديي الجانب» في أفغانستان، وهم عملاء غير مصرح عنهم، وليسوا معروفين من قبل الاستخبارات الباكستانية. كما صدّقت الوثيقة للمرة الأولى، صراحة، على الاعتداءات المباشرة على ضباط منفردين في الجيش السوفياتي(202).

انحسرت بسرعة الأيام الوجدانية للاستعمار الجديد، التي عاشها هاورد هارت أثناء جولته في محطة إسلام آباد، وهي حقبة من الخمول ملأى بالبنادق الأثرية وعلاقات الصداقة وقائمات الشحن السرية الملطخة بالحبر. لم يشعر بعض ضباط الاستخبارات في قسم الشرق الأدنى التابع للوكالة، بالحماسة تجاه التغيرات التي حدثت، وخصوصاً أولئك الذين توقعوا حدوث اعتداءات على ضباط سوفيات. رأوا أن بيلسبوري وأسلوبه الذي يشبه أسلوب راعي بقر حضري، يجرّان «السي.آي.إيه.» بعيداً عن جوهر عملها التجسسيّ، في اتجاه ميدان موحل ومخادع في حرب قذرة متأزمة.

اقترح فريد إيكلي أثناء اجتماع لجنة التنسيق بين الوكالات الذي عقد في ربيع العام 1985، تجاوز الاستخبارات الباكستانية كلياً من خلال إرسال طائرة «سي 130» أميركية إلى أفغانستان، وإنزال الأسلحة إلى القادة الأفغان بواسطة المظلات. وسأل شخص ما: ماذا سيحدث في حال بدأ الروس إسقاط الطائرات الأميركية، وأشعلوا الحرب العالمية الثالثة؟ فورد على لسان توماس تويتن، وهو ضابط سابق في الخدمات السرية التابعة لـ «السي.آي.إيه.»، أنّ إيكلي أجاب قائلاً: «حرب عالمية ثالثة. هذه ليست فكرة سيئة». صرّح إيكلي لاحقاً، بأنه في حال قال شيئاً مماثلاً، فقد كان على الأرجح يمزح. لكن تويتن يذكر أنّ «الغرفة كانت تمتلئ بأشخاص مصعوقين»(203).

اعتبر بعض أفراد الوكالة أن إطلاق النار على ضباط سوفيات، قد يثير المشاكل. فقد عقدت «السي.آي.إيه.» و «الكي.جي.بي» في الثمانينيات، اتفاقية شفوية مزعزعة، سعت إلى عدم التشجيع على استهداف ضباط الوكالتين المحترفين بغية خطفهم أو قتلهم. وفي حال أُلغيت تلك الاتفاقية، فسوف تعم الفوضى مراكز «السي.آي.إيه.» المنتشرة في جميع أنحاء العالم. أوضح ضباط «السي.آي.إيه.» في باكستان، أنّه لا بدّ من معاملة السجناء السوفيات القليلين الذين أُسروا في ساحة المعركة الأفغانية، بطريقة جيدة. فقد اعتقد ضباط الوكالة أنّ هذا الأمر قد يساعد ضباط الجيش الأميركي والجواسيس في حال اعتقلتهم القوات السوفياتية في ساحات أخرى من ساحات الحرب الباردة(204).

لكن أعضاء الكونغرس الذين يحررون شيكات «السي.آي.إيه.» الخاصة بالميزانية، أرادوا البدء بقتل الضباط السوفيات الذين يخدمون في أفغانستان. سافر السيناتور غوردون همفري إلى كابول في مرحلة ما، وعاد إلى موطنه وهو يصيح كيف أن الجنرالات السوفيات يقفون خلف نوافذ مباني شققهم الإسمنتية المشققة، وكلّ ما يحتاج إليه المجاهدون هو بنادق قناصة بعيدة المدى، ليصطادوهم الواحد تلو الآخر(205).

حصل الأفغان، بشكل متزايد، تحت إشراف «الآي.أس.آي.»، على تدريبات ومواد تفجيرية مطواعة من أجل إعداد عمليات تفجير سيارات وجمال في المدن التي يحتلها السوفيات. وقد تمّ تخصيص هذه العمليات لقتل الجنود والقادة السوفيات. وقد صدّق كايسي على هذه التقنيات على الرغم من تأنيب الضمير الذي شعر به بعض ضباط «السي.آي.إيه.».

لم يجادل كايسي قط في مسألة الاعتداءات على الأهداف المدنية، إلا أنّه كان يميل إلى استعمال القوة العدائية. قدمت أفغانستان السبيل الوحيد لمهاجمة المعتدين السوفيات في الحملة العالمية ضد الرعب التي بدأ كايسي يتصورها في العام 1985.

سأل كايسي، في إحدى جولات النقاش التي جرت في تلك الفترة: «نحن نسلح الأفغان، أليس كذلك؟». أراد أن تبادر السلطة إلى القضاء على الإرهابيين في الشرق الأوسط. «كلّما قتل أحد الثوار الجهاديين مسلحاً سوفياتياً، هل نُعتبر مشتركين في عملية القتل؟ هذا العمل صعب جداً. إن

خشينا قتل الإرهابيين لأن شخصاً ما قد يصرخ «قَتَلة»، فلن يتوقف الإرهاب أبداً، وسيسطر الإرهابيون على العالم»(206).

بدأت حقبة جديدة في مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد على شكل وفود زائرة من واشنطن: ضباط من البنتاغون يحملون خرائط التقطتها الأقمار الصناعية، وقوات الكومندوس الخاصة تعطي دروساً في المواد التفجيرية المتطورة، وزوار من الكونغرس يحملون الحقائب، ويريدون القيام بجولات مترفة في معسكرات المجاهدين، والحصول على الوقت الكافي لشراء سجاد محبوك يدوياً. حاول وليم بيكني أن يدخلهم بفرح عبر الأبواب الدوّارة. أمّا الوفود الأرفع شأناً فقد يأخذها إلى مقر «السي.آي.إيه.» الرئيسي الذي لا يحمل أي علامة من أجل احتساء الشاي، والتحدث إلى الجنرال أخطار.

سافر إيكلي وبيلسبوري إلى إسلام آباد في 30 نيسان/أبريل 1985. لم يستطيعا أن يفصحا، بطريقة قانونية، عن وجود توجيهات قرار الأمن القومي 166. لكن أرادا أن يعي حكمتيار أهدافها التوسعية. قال بيلسبوري إنه أثناء لقاء خاص دام ساعتين في منزل رئيس «الآي.أس.آي.»، تمكّن إيكلي من «نقل الزخم الذي سينتج من توجيهات القرار الجديدة التي وقّعها الرئيس»(207).

أراد الزوار تضخيم طموحات أخطار عندما قدّم لوائحه الفصلية بالأسلحة التي يحتاج إليها المقاتلون الأفغان. اعتمد نظام الإمدادات التي قدمتها «السي.آي.إيه.» إلى الأفغان على هذه الطلبات الرسمية. وسرعان ما تضمنت اللوائح السرية القادمة من إسلام آباد، صواريخ مضادة للطائرات، وبنادق قناصة بعيدة المدى، ومناظير للرؤية الليلية، وأجهزة توقيت من أجل المتفجرات البلاستيكية، ومعدات تنصت الكترونية. وصعبت المطالب الجديدة عملية إنكار «السي.آي.إيه.» الدور الذي تلعبه في دعم الحركات الجهادية في أفغانستان. وشعر حافظو أسرارها المحترفون، بعدم الارتياح جراء هذا الأمر، وقد اضطر أكثرهم تخفيّاً إلى الاعتراف في العام 1985 بأن القيادة السوفياتية اطلعت على خلاصة برنامج «السي.آي.إيه.» الأفغاني عن طريق مقالات الصحف والمقاتلين الأسرى، والمكالمات التي قاطعوها، وعمليات التجسس التي أشرفت عليها «الكي.جي.بي.»، والتي قادتها بين الثوار. كما اطلع الشعب الأميركي على خلاصة أعمال لانغلي عن طريق مقالات الصحف والبرامج الوثائقية على التلفزيون. وبينما تجادلت «السي.آي.إيه.» مع خصومها المتحمسين حول مسألة إدخال المزيد من الأسلحة المتطورة، لم تنحصر القضية في إمكانية إبقاء الدعم الأميركي سراً، بل تعدتها لتبلغ إمكانية شنّ غارات سوفياتية وعمليات ثأر ضدّ الأميركيين بسبب إمدادات الأسلحة الأميركية الدقيقة.

بدأ المركز الذي يديره بيكني توظيف المزيد من عملاء الاستخبارات عبر الحدود الأفغانية. وتطلب تضخم عدد شحنات الأسلحة، وتزايد تساؤلات أعضاء الكونغرس الزائرين حول صفقات «السي.آي.إيه.» الفاسدة، والعنف المستشري في ساحة المعركة الأفغانية،

تقديم «السي.آي.إيه.» تقارير أكثر تعمقاً واستقلالية. كانت المسألة تتعلق إلى حدّ ما، بحماية «السي.آي.إيه.» من مراقبة الكونغرس المتزايدة: كانت الوكالة بحاجة إلى أن تبرهن أنّها تدقّق، باستقلالية، في تدفق الأسلحة الضخم والجديد. لن تستطيع الوكالة تنفيذ ذلك بمصداقية في حال اعتمدت فقط على الاستخبارات الباكستانية في تقاريرها.

كان بعض عملاء «السي.آي.إيه.» المخبرين، أفغاناً: فعلى سبيل المثال، انتقلت العلاقة التي ربطت هارت بعبد الحق إلى بيكني. إلا أنّ معظم العملاء الذين سافروا إلى أفغانستان بالنيابة عن «السي.آي.إيه.» في أواسط الثمانينيات، كانوا مغامرين أوروبيين، من بينهم صحافيون أوروبيون ومصورون وأفراد سابقون في الفيلق الأجنبي. وساعدت علاقات بيكني التي أنشأها أثناء جولته السابقة في باريس، في عملية التعيينات. قاد وارين ماريك عدداً كبيراً من العملاء الأوروبيين، وقد كان ضابطاً في «السي.آي.إيه.» غير مصرح عنه، يخدم في القنصلية الأميركية في كاراتشي بعيداً عن مراقبة «الآي.أس.آي.» في إسلام آباد. وبعد سفر العملاء من فرنسا أو بلجيكا إلى كاراتشي، كان ماريك يعرّفهم إلى دليل سياحي أفغاني موثوق به، ويزودهم في بعض الأحيان أوراقاً رسمية مزيفة وهويات سرية. وحصل عدد من العملاء الأوروبيين على وحدات اتصالات مؤمنة كي يتمكنوا من إرسال تقاريرهم من ساحة المعركة الأفغانية، بينما قطع معظمهم الحدود حاملين كراساتهم وآلات التصوير. وما إن يخرجوا من أفغانستان، حتى كان ماريك يساعدهم على السفر إلى أوروبا بسرعة من أجل تقديم التقارير. وقد وفرت الصور التي التقطها هؤلاء العملاء لـ «السي.آي.إيه.» أرشيفها الخاص الذي يحتوي على صور قريبة للأضرار في ساحة المعركة، وأنظمة الأسلحة السوفياتية، وانتشار القوات. كما أتاحت تقارير العملاء المباشرة حول القادة الأفغان، مراجعة ادعاءات «الآي.أس.آي.» بتسليم الأسلحة. كان الأجر الذي تقاضاه الأوروبيون زهيداً بمعدّل 1000 دولار شهريّاً. فهم لم يشاركوا من أجل المال، بل بحثاً عن المغامرة(208).

أما من جهتهم، فقد بدأ القادة الأفغان الخبراء بأمور السياسة في العام 1985، بفهم أن الطريقة الوحيدة للسعي وراء الأسلحة والقوة وتفادي عمداء «الآي.أس.آي.» المسيطرين، هي من خلال بناء علاقاتهم الخاصة المستقلة في واشنطن أو الرياض. مال الراديكاليون الإسلاميون إلى حصد زبائن أثرياء في السعودية. وغالباً ما ألقى سياف محاضرات هناك، وفاز بجائزة الملك فيصل الفكرية في العام 1985. اعتمد القادة الثوار الأفغان الذين يصفون أنفسهم بـ «المعتدلين»، والذين تربطهم علاقة بالعائلة المالكة، وبمراكز الدعوة والتصوف المنتشرة في البلاد، أكثر فأكثر على دعم أوروبا وواشنطن، وعلى دعم الكابيتول هيل بشكل خاص. وبدأت جماعة من «المجاهدين بملابس غوتشي»، كما يسمونهم ضباط قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» عندما يستهزئون بهم، بالقدوم من باكستان والتنقل من مكتب إلى آخر في واشنطن.

أصبح هؤلاء الأفغان، الذين شعروا بإهمال الاستخبارات الباكستانية، الأكثر نشاطاً في واشنطن. وقد ضموا رجالاً من قبائل الباشتون الملكية التابعة لمقاطعة دوراني القبلية، الذين كان يكرههم الجيش الأفغاني بسبب تاريخهم السياسي. أقسموا الولاء للملك ظاهر شاه السابق الذي عاش منفياً

في فيلا خارج روما. واستنكروا المساعدة التي تقدمها المخابرات الباكستانية إلى حكمتيار الذي ينتمي إلى مقاطعة غيلزاي القبلية المنافسة، والذي اعتبروه مصاباً بجنون العظمة.

باشر أشقاء أحمد شاه مسعود ومساعدون من بانشير القيام تدريجاً بجولات في واشنطن. وقد حظي مسعود، بفضل سجلّه المنتشر عالمياً، وبفضل اعتباره بطل حرب في بانشير القاسية، بنفوذ ومصداقية أكثر من الباشتون المنتمين إلى قبيلة دوراني، الذين غالباً ما تعرضوا للطرد، على الخصوص من لانغلي، باعتبارهم مروجين لسياساتهم الخاصة، وحاملين سجلات ضعيفة في ساحة المعركة.

شعر قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، بأنه تحت ضغط متزايد يحثه على تزويد مسعود المزيد من الأموال والأسلحة التي تدفقت جراء التصعيد الذي فرضته توجيهات قرار الأمن القومي 166. إلا أنّ علاقة الوكالة بمسعود كانت هشّة وهزيلة. فقد مالت «السي.آي.إيه.» إلى اعتبار عملية الاستمالة لواشنطن دليلاً على الحزبية الأفغانية الفطرية، بدلاً من اعتبارها تعبيراً عن معارضة سياسة الاستخبارات الباكستانية. وكتب رئيس مديرية الاستخبارات، روبرت غايتس لاحقاً: «كان منظر القادة المجاهدين السياسيين الذين يرتدون العباءات، ويربون اللحى، ويتنقلون من مكتب إلى آخر، ومن مبنى إلى آخر، عارضين قضاياهم الشخصية والمحدودة بحثاً عن الدعم، مثيراً للفضول». «لم يكن أحد ليتوهّم نشوء توافق سياسي بين هؤلاء الأشخاص، سواء أكان قبل الهزيمة السوفياتية، أم حتى بعدها»(209).

استمرت قيادة «السي.آي.إيه.» باعتبار الاستخبارات الباكستانية وكالة التنفيذ الأساسية للجهاد، حتى بعد وصول المزيد من المدربين الأميركيين إلى باكستان لتدريبهم على
الأسلحة والتقنيات الجديدة. وضمن ذلك كلّه فوز عملاء «الآي.أس.آي.» المتأثرين بالإخوان المسلمين، بأكبر حصص من الدعم، ومن بينهم حكمتيار وسياف ورباني، وقادة راديكاليون عملوا على طول الحدود الباكستانية مثل جلال الدين حقاني.

كانت الحرب الأفغانية منذ بدايتها عنيفة، وتميّزت بقصف جوي عشوائي وبمذابح مدنية واسعة النطاق. وبعد ست سنوات، أعادت «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» و «الكي.جي.بي.» والقوات السوفياتية الخاصة، تفحص تكتيكاتها. وكما جاء في مسودة السياسة الأميركية، فقد سعى كل فريق إلى إحباط أعدائه وتدميرهم وتخويفهم وإرباكهم، بجميع الوسائل المتاحة.

كان العميد محمد يوسف، بصفته مدير العمليات الأفغانية في الاستخبارات الباكستانية بين العامين 1983 و1987، «معالج شؤون [أخطار] البربري»، كما يصفه زميل في «السي.آي.إيه.»، مقتبساً لقباً صينياً قديماً. أدار يوسف معسكرات التدريب السرية، واحتفظ بسجلات تسليم الأسلحة، وتسلم خرائط الأقمار الصناعية الجديدة، ورافق من وقت إلى آخر مجموعات من الجهاديين في عملياتها الفدائية. اعتمد استراتيجيته «الموت بألف طعنة»، ووجه الاعتداءات ضدّ أهداف قيادية

سوفياتية في كابول. كما اعتبر أن العاصمة هي مركز الجاذبية بالنسبة إلى السوفيات. فإن أصبحت العاصمة ملجأً آمناً، فقد لا يرحل الجنرالات السوفيات أبداً(210).

فجّر المقاتلون الأفغان الذين يحصلون على الإمدادات من «الآي.أس.آي.»، حقيبة متفجرات تحت طاولة في غرفة طعام جامعة كابول في العام 1982، فقتلوا تسعة من السوفيات، بمن فيهم أستاذة جامعية. فقد رأى يوسف ووحدة تفجير السيارات الأفغانية التي قام بتدريبها، أنّ أساتذة كابول ضحية مثالية لأنهم يسممون عقول الشباب بالعقيدة الماركسية المعارضة للإسلام. واغتال الفدائيون الجهاديون لاحقاً عميد الجامعة. كما تمّ الإبلاغ عن مقتل سبعة ضباط عسكريين سوفيات على أيدي مجموعة أفغانية من كابول في سنة واحدة. ووفقاً لتقديرات يوسف، فقد قامت وحدات تفجير السيارات المدربة في باكستان والمزوّدة متفجرات وصواعق مولتها «السي.آي.إيه.»، بمحاولات «عديدة» لقتل رئيس الشرطة الأفغانية السرية، الطاغية المشهور نجيب الله، لكنها فشلت في ذلك(211).

خشي الضباط الروس والجنود الموجودون في كابول تعرضهم للتسمم، أو لاعتداءات مفاجئة، أو لعمليات اغتيال. فقد صمم الثوار قنابل على شكل فخاخ، واستخدموا متفجرات سوداء لاصقة تنفجر عند احتكاكها بأي جسم، قدمتها «السي.آي.إيه.» إلى الاستخبارات الباكستانية. كان من السهل قولبة هذه المتفجرات، وصنع أشكال عادية ومألوفة، أو سكبها في أدوات بسيطة. بدأ الجنود الروس العثور على قنابل مصنوعة من أقلام وساعات وولاعات وأشرطة تسجيل. وروى الكاتب الروسي المستقل، أرتيوم بوروفيك، أثناء رحلاته: «تمّ تمويه الموت المحجوب بطريقة عبقرية، ووحدها عين الخبير استطاعت رصده». وأضاف أصحاب المطاعم في كابول السم إلى الطعام الذي تناوله الجنود الروس، بينما تسللت فِرَق الموت الأفغانية إلى أزقة المدينة المبنية من الحجارة والطين. وقد عمل المجندون الروس في ذلك الوقت على تأليف قصيدة تقول:

«إن صادف في أفغانستان

أرض العجائب والغرائب

أن دخلت أي محل أو دكان

فستختفي وتصبح في خبر كان»(212).

رأى يوسف عبر الحدود الباكستانية، أنّه يطأ الخط الرفيع الذي يفصل بين الحرب القتالية والإرهاب. وقال لاحقاً: «نحن أمة متحضّرة صالحة أو طالحة، بقدر أي شخص يعيش في الغرب. فتنفيذ عمليات مماثلة سيف ذو حدين». وفجّرت قواته دُور السينما وصالات المعارض الثقافية في

كابول، إلا أنّ المقاتلين الأفغان المهاجمين كانوا يدركون أنّ معظم ضحاياهم «سيكونون من الجنود السوفيات». لكن من ناحية أخرى، قال يوسف: «لن يجد أحد أي قضية تتعلق بتسميم مياه أو استعمال مواد كيميائية أو بيولوجية». واعترف لاحقاً بأنه كان من المفترض أن تستهدف تفجيرات السيارات القادة العسكريين فحسب. لكن التقارير أفادت أنّ بعض التفجيرات استهدف المدنيين في تلك الفترة. وما إن بدأت عملية قصف قذائف الهاون بطريقة اعتباطية على كابول في العام 1985، وبعدما شحنت «السي.آي.إيه.» صواريخ مصرية وصينية يمكن إطلاقها لاسلكياً من مسافات بعيدة، حتى بدأت الإصابات العشوائية في صفوف المدنيين ترتفع بشكل مطرد.

فرض ضباط «السي.آي.إيه.» قاعدة واحدة على يوسف الذي عمل معهم عن كثب: يحظر استعمال كلمة تخريب أو اغتيال، أثناء التحدث إلى أعضاء من الكونغرس في خلال زياراتهم المنطقة(213).

لم تكن «الكي.جي.بي.» تخشى أي شيء. ففي العام 1985، لعب عملاء الاستخبارات السوفياتية والأفغانية، دوراً كبيراً في الحملة ضدّ الثوار أكثر من أي وقت مضى. وترقى نجيب الله، رئيس الشرطة السرية، وأصبح عضواً في المكتب السياسي الأفغاني في تشرين الثاني/نوفمبر 1985. وفي ربيع العام التالي، طردت موسكو بابراك كارمل، وعينت نجيب الله رئيساً على أفغانستان. كانت مجالس الشورى الحاكمة تعجّ بعملاء استخبارات عديمي الرحمة. وارتفع عدد عملاء الاستخبارات الأفغانية الذين دربتهم «الكي.جي.بي.» إلى ثلاثين ألف محترف، ومئة ألف مخبر يتقاضى أجراً. وافتقرت المديريات المحلية إلى تعاون أفراد من الشعب، فقامت باعتقال المدنيين وتعذيبهم يوميّاً، بحثاً عن معلومات حول عمليات الجهاديين. كما أدارت الاستخبارات الأفغانية عمليات سرية في إيران وباكستان، وأبقت على مقار سرية في كيتا وبيشاور وإسلام آباد ونيودلهي وكاراتشي وأماكن أخرى تتصل بكابول عبر السفارات والقنصليات السوفياتية. واخترقت الاستخبارات الأفغانية صفوف المقاتلين الأفغان عن طريق دسّ العملاء في مخيمات اللاجئين(214).

ضعفت معنويات الجيش السوفياتي بسبب الإمدادات الجديدة الوافرة التي تدفقت إلى أفغانستان، فقام بنشر فرق من الاستخبارات وقوات خاصة من وحدة «سبيتسناز»، نقلتهما المروحيات، محاولاً بذلك إقفال الحدود الباكستانية في العام 1985. فشل الجيش في محاولته، لكنّه تمكّن من التسبب في الدمار. وأرسلت وحدات «سبيتسناز» معدات عالية التقنية يُطلق عليها اسم «أومسك فانز» من أجل التنصت على الاتصالات، وتقفّي آثار تحركات المجاهدين من بيشاور أو كيتا. وعندما كانوا يرصدون قافلة ما، يرسلون مروحيات «مي 24 دي» الجديدة والمخيفة في مهمات تنصت عبر هضاب باكستان، القاحلة. كانت المروحيات تقطع مسافة 7 أو 15 كيلومتراً داخل باكستان، ثمّ تحلق في المكان وترتفع من وراء الجهاديين، بينما كانوا يمشون بترهل عبر ممرات الوديان الضيقة أو الصحارى. هجم جنود «سبيتسناز» وأوقعوا المقاتلين الأفغان في الفخ. واستولت القوات الروسية الخاصة على معدات المقاتلين الأفغان مثل الشاحنات الصغيرة اليابانية الصنع والواسعة الانتشار، التي شحنتها «السي.آي.إيه.» من أجلهم. بدأت القوات الروسية الخاصة العمل بطرائق

متخفية، مرتدية ملابس الثوار الإسلاميين. كما أدارت «الكي.جي.بي.» «مجموعات مزيفة» من الجهاديين في أنحاء أفغانستان، ودفعت لهم الأموال لمهاجمة مجموعات الثوار الحقيقية في محاولة لبث الخلافات(215).

أصيب الأفغان الذين حاربوا على طول الحدود الباكستانية بإصابات خطيرة في هجمات مروحيات «السبيتسناز»، لكنّهم أحرزوا نجاحات نادرة جداً. استولت الاستخبارات الباكستانية على مروحية «مي 24 دي» سوفياتية وسلمتها إلى بيكني. هذه هي المروحية الأولى من هذا النوع التي تحصل عليها «السي.آي.إيه.». أرسلت لانغلي فريقاً إلى إسلام آباد لشحن الجائزة المفككة على متن طائرة نفاثة ونقلها إلى الولايات المتحدة. وأفاد البنتاغون لاحقاً أنّ استغلالها وفّر على أميركا تكاليف أبحاث وعمليات تطوير تبلغ ملايين الدولارات(216).

ركزت الاستخبارات الباكستانية بتشجيع من «السي.آي.إيه.» على عمليات التخريب التي قد تؤدي إلى قطع خطوط إمدادات السوفيات. لكن، تبيّن أنّ هذه المهام صعبة جداً، لأنّه حتى الأفغان الأكثر تديناً وراديكالية، رفضوا القيام بعمليات انتحارية.

بذل يوسف جهوداً كبيرة، محاولاً تفجير نفق سلانغ شمال كابول، على طريقة شخصيات الرسوم المتحركة. وعمد بغية تحقيق ذلك، إلى إعداد مهام خاصة تقضي بتفجير شاحنات، بينما ساعدته «الآي.أس.آي.» على تحميل صهاريج الوقود بالمتفجرات. تحرك الجنود السوفيات بسرعة لإيقاف أي شاحنة تماطل في عبور النفق الاستراتيجي. لذا، كان من المستحيل إتمام هذه المهمة، إلا في حال أبدى سائق الشاحنة استعداده للموت من أجل القضية. رفض الأفغان الذين دربهم يوسف بانتظام، اقتراحات الهجمات الانتحارية التي اعتبروها معارضة لديانتهم. لم يدافع عن الاعتداءات الانتحارية سوى المتطوعين العرب القادمين من السعودية والأردن والجزائر وبلدان أخرى، والذين تربوا في حضارات وبيئات مختلفة كلياً، وتحدثوا لغاتهم الخاصة، وبشروا بتأويلاتهم عن الإسلام، بينما حاربوا بعيداً جداً عن منازلهم وعائلاتهم. لم تتبنّ أعداد كبيرة من الجهاديين الأفغان المرتبطين بشكل وثيق بشبكات عائلية وقبلية ومحلية اجتماعية، التكتيكات الانتحارية(217).

غالباً ما رفض المقاتلون الأفغان شنّ اعتداءات على الجسور والطرق التجارية التي تُعتبر ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى التجار المدنيين أو المزارعين. شعر الأميركيون الزائرون بالاستياء بسبب سماح الأفغان للمدنيين بالمتاجرة وسط هذا النزاع الرهيب. فعندما كان أعضاء الكونغرس يسافرون إلى أفغانستان أثناء جولاتهم، ويرون أنّ أحد الجسور لا يزال قائماً من دون أن يصاب بأي أضرار، يشتكون فور عودتهم إلى واشنطن، معتبرين أنّه كان لا بدّ من تفجيره. لكن، عندما تصل خطة هجوم مهندسة عبر الأقمار الصناعية إلى فريق معيّن من الجنود الأفغان عن طريق «الآي.أس.آي.»، غالباً ما كان الأفغان يخالفون الأوامر، أو يستعملون الأسلحة التي حصلوا عليها لضرب هدف آخر يختارونه بأنفسهم. وكانوا يتقاضون بالإضافة إلى

ذلك، رسوم عبور على الجسور، بينما اعتمدوا على الطرقات المفتوحة من أجل تأمين سبل عيش قبيلتهم.

شحنت «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة إلى الاستخبارات الباكستانية، أطناناً من متفجرات «سي 4» البلاستيكية من أجل عمليات التخريب. كما وفرت الاستخبارات البريطانية عبوات مغناطيسية تُستعمل في أعماق المياه من أجل ضرب أعمدة الجسور، وخصوصاً الجسر الذي يعبر فوق نهر أموداريا قرب تيرميز. بعد العام 1985، قدمت «السي.آي.إيه.» أيضاً أجهزة توقيت وصواعق الكترونية سهّلت عملية إطلاق المتفجرات عن بعد. الصاعق المتأخر المفعول الأساسي هو «القلم الموقت»، وهو عبارة عن جهاز كيميائي يتفتت تدريجاً، فيطلق القنبلة أو الصاروخ بعد فترة متوقعة قام بتطويره مكتب الخدمات التقنية. يستطيع المقاتلون استعمال هذه الأجهزة من أجل إعداد عبوة ناسفة في الليل، أو عند الانسحاب ليشاهدوها تنفجر عند الفجر. وشحنت «السي.آي.إيه.» أيضاً بعد العام 1985، صواعق متأخرة المفعول، «إي سيل»، تستعمل الكترونيات متطورة لإحداث تأثيرات مماثلة. ووزعت آلاف أجهزة التوقيت المتأخرة المفعول على الحدود.

في مقابلة أُجريت في تموز/يوليو 1992، قبل سبعة أشهر على الاعتداء الإرهابي الأول على مركز التجارة العالمي، طلب الكاتب من مسؤول أميركيّ له علاقة ببرنامج إمدادات «السي.آي.إيه.» إعطاء رقم تقديري لعدد المتفجرات البلاستيكية التي نقلتها الاستخبارات الباكستانية إلى الجهاديين الأفغان بدعم من «السي.آي.إيه.» والسعودية. اختار المسؤول عفوياً هذه الكلمات: «بإمكاننا على الأرجح تفجير نصف نيويورك بكمية المتفجرات التي وفرتها باكستان».

كان المحامون والعملاء الذين ينتمون إلى «السي.آي.إيه.» في لانغلي أكثر حساسية من أي وقت مضى تجاه انتقادات الكونغرس أو الصحافة. تدهورت عمليات كايسي في نيكاراغوا، بينما بدأت الحرب الأفغانية السرية بالتأزم. تعرضت الوكالة لانتقادات لاذعة بسبب نشرها الألغام في مرافئ نيكاراغوا. وبدأ أفراد مديرية العمليات في نهاية العام 1985 يشعرون بأن كايسي قد تمادى كثيراً، وأن الوكالة تتجه نحو انهيار سياسي آخر.

وفرت «السي.آي.إيه.» للبرنامج الأفغاني عدداً كبيراً من أنظمة الأسلحة «المزدوجة الاستعمال»، أي الأسلحة التي قد تُستعمل ضد الأهداف العسكرية الشرعية، أو في العمليات الإرهابية أو الاغتيالات. وتضمنت هذه الأنظمة الصواعق الالكترونية الجديدة والمتفجرات البلاستيكية المطواعة ورزماً من البنادق القناصة. وقال مسؤول معني إن القاعدة الصارمة في لانغلي، كانت تقضي بعدم تقديم أي سلاح يجوز «استعماله بشكل أساسي في عمليات الاغتيال أو المشاريع الإجرامية». وبما أن «السي.آي.إيه.» لم تقد عمليات المقاتلين بنفسها، بل اعتمدت بذلك على الاستخبارات الباكستانية، قد يكون «استعماله بشكل أساسي» أمراً تقريبيّاً. حاول رئيس قوات المهام الأفغانية في لانغلي، غاست أفراكاتوس، المعارض للشيوعية الصلب، والهجومي، التهرب من محامي «السي.آي.إيه.». قال أفراكاتوس لزملائه عندما طلب منهم وصف الأسلحة مثل

البنادق القناصة في التقارير والمذكرات: «هذه ليست أجهزة إرهاب أو تقنيات اغتيال»، «هذه الأسلحة هي من الآن وصاعداً أجهزة دفاعية فردية». قام بإحباط عزيمة الضباط، طالباً منهم عدم كتابة تفاصيل كثيرة. وعندما أرسل مركز إسلام آباد تقريراً يصف تكتيكاً قتالياً حدودياً، أجاب بأنه تمّ تحريف الرسالة، ولا يجوز أن يرسل المركز «أي شيء آخر حول هذا الموضوع من جديد». اشترى من مصر أجهزة تخريب مثل عربات مفخخة بالقنابل، تُستعمل لاستهداف ضباط سوفيات في كابول. ويذكر أفراكاتوس أنه سأل: «هل أريد أن أطلب من الدراجات الهوائية المفخخة أن تُركَن أمام مقار ضباط؟». «أجل، هذا ما ينشر الرعب». وقام بالإضافة إلى ذلك، بالتصديق على نظام وضعته الاستخبارات الباكستانية من أجل مكافأة القادة الأفغان مقابل عدد مشابك أحزمة السوفيات الفردية التي يحضرونها(218).

دخل القانون الأميركي المتعلق بعمليات الاغتيال والإرهاب في حقبة متقلبة أخرى. أقر الرئيس فورد قانوناً تنفيذياً يمنع الاغتيالات رداً على فضح مؤامرات «السي.آي.إيه.» في الستينيات، لكن لم تتم مراجعة هذا القانون لعقود. وحتى أن المتزمتين في إدارة ريغان، لم يرغبوا في رفع الحظر، لكنهم بدأوا يشكون في الالتباسات التي يحملها في طياته. متى أصبح استهداف جنرال أو رئيس دولة أثناء حرب، أو رداً على اعتداء إرهابي، تجاوزاً للحدود، ومتى تحول إلى اغتيال؟ هل قرار استهداف هذا الجنرال أو ذاك الرئيس، هو المشكلة، أم الوسائل المستخدمة لقتله؟ ماذا لو نُفّذ اغتيال احترازي لوقف إرهابي من مهاجمة الولايات المتحدة؟ كانت الأسئلة التي ناقشوها ذات ناحية استراتيجية وعملية.
وبالنسبة إلى الأمن القومي الأميركي، ما هي السياسة التي يمكن الدفاع عنها أخلاقيّاً، والتي تُعتبر فعالة عسكريّاً؟ علامَ تستّر حظر الاغتيالات في عهد فورد؟ أقر ضباط «السي.آي.إيه.» بأنه من الضروري الإفصاح عن هذه المسائل جميعها كي لا يعرّض العملاء وواضعو السياسات المدنيون أنفسهم للملاحقة القضائية.

اعتقد محامو ريغان في البيت الأبيض ووزارة العدل، أنّ الاعتداءات الاحترازية قانونية في حال تمّ شنها ضدّ أفراد بغية الدفاع عن النفس، أي على سبيل المثال ضدّ إرهابي على وشك توجيه ضربة. إلا أنّ أسئلة عديدة طُرحت حول المعايير التي يجب تحديدها وتطبيقها.

أدى إدخال البنادق القناصة ضمن البرنامج الأفغاني، إلى تولد شعور بعدم الارتياح. عُرفت هذه البنادق باسم «بنادق الإرهاب»، فهي تستطيع إطلاق رصاصات كبيرة وفعالة بدقّة من مسافة كيلومتر أو كيلومترين. واقترح ناشط في القوات الخاصة في واشنطن، يُدعى فوغان فوريست، فكرة تزويد الثوار الأفغان بالبنادق، وكتب تقريراً طويلاً لـ «السي.آي.إيه.» ومجلس الأمن القومي، يشرح فيه إمكانية تصدي المجاهدين لتكتيكات وحدة «السبيتسناز» السوفياتية عن طريق توجيه ضرباتهم ضدّ القادة السوفيات بشكل مباشر. قال فوريست: «لا يتطلب الأمر عبقرياً ليدرك ضرورة إصابتهم بقوة وعمق، وإصابة قلوبهم ورؤوسهم». ازدادت حماسة فوريست، فبدأ حملة واسعة النطاق تقضي بتنفيذ عمليات تخريبية مدنية اعتبرها بعض أفراد مجموعة التنسيق بين الوكالات التابعة لمجلس الأمن القومي، إرهاباً بحتاً. إلا أنّ فكرة استهداف قادة سوفيات بواسطة

بنادق قناصة، لقيت الدعم. ويذكر أحد المشتركين: تمّ استعمال عبارة «المسألة سهلة والربح مضمون». أراد المدافعون عن برنامج القنص «القضاء على الجنرالات الروس، واحداً تلو الآخر»(219).

صدّقت الاستخبارات الباكستانية من خلال مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، على طلب خطي رسمي للحصول على البنادق، بالإضافة إلى معدات دعم مثل نظارات الرؤية الليلية ومناظير الأفق المتطورة التي تسمح للقناص بإصابة هدفه عن بعد كيلومتر ونصف الكيلومتر تحت غطاء الليل. أثارت البرقية الواردة الريبة في مكتب الاستشارة العامة في «السي.آي.إيه.». فمعدات الرؤية الليلية والمناظير تُستعمل في مهام معينة، مثل عمليات الاغتيالات المباشرة أو مهام مشابهة لها إلى حدّ كبير. وفي حال تدهورت العملية، قد ينتهي أمر رئيس مركز إسلام آباد في السجن.

بعد جولات عديدة من المحادثات والمشاحنات، تم التوصل إلى تسوية: يمكن شحن البنادق إلى باكستان، لكن بعد تجريدها من مناظير الرؤية الليلية والمناظير التي يقتصر «استعمالها بشكل أساسي»، على عمليات الاغتيال. ولن تزوّد «السي.آي.إيه.» «الآي.أس.آي.» أي معلومات استخبارية من الأقمار الصناعية بشأن أماكن سكن الضباط السوفيات المستهدفين، أو كيفية الاقتراب من مبانيهم خلسة. حاول ضباط «السي.آي.إيه.» التشديد أمام «الآي.أس.آي.» على قيمة البنادق باعتبارها أسلحة «مضادة»، أي يمكن استعمالها لإطلاق الرصاص على إطارات قافلة شاحنات من على قمة جبل، أو إحداث ثقوب في صهريج وقود. وسافر اختصاصيون أميركيون إلى باكستان لتدريب ضباط «الآي.أس.آي.» على استعمال البنادق كي يتمكنوا بدورهم من تدريب فرق المقاتلين الثوار. وفي النهاية، تمّ شحن عشرات البنادق القناصة إلى أفغانستان(220).

شُنّت اعتداءات إرهابية متتالية في العام 1985، تم بثها مباشرة على شبكات التلفزيون، ليراها عشرات ملايين الأميركيين. وفي حزيران/يونيو اختطف لبنانيان طائرة «تي.دبليو.أيه.» الرحلة 847، وقتلا غواصاً بحرياً كان موجوداً على متنها، وأجريا مفاوضات أمام الكاميرات على مدرج في مطار بيروت. في تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه، خطف الفلسطيني أبو العباس السفينة السياحية أشيل لورو في إيطاليا، وقتل سائحاً في التاسعة والستين من عمره، يُدعى ليون كليغوفير، ورمى جثته من على متن السفينة، وهرب في النهاية إلى بغداد بمساعدة من مصريين وإيطاليين. وقام مسلحون فلسطينيون ينتمون إلى منظمة أبي نضال مباشرة بعد عيد الميلاد، بفتح النار على ركاب مصطفين أمام شبابيك التذاكر في فيينا وروما، فقتلوا تسعة عشر شخصاً، من بينهم خمسة أميركيين. كانت نتاشا سمبسون إحدى الضحايا الأميركيين، وهي فتاة في الحادية عشرة من عمرها، قُتلت بين يدي والدها بعدما أطلق مسلح رصاصة في رأسها ليتأكد من مصرعها. تناول المهاجمون، وهم نتاج صبياني لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، كميات كبيرة من منبهات الأمفيتامينات قبل اعتداءات الأعياد كانوا قد حصلوا عليها من رعاتهم.

أتت صدمة هذه الأحداث عقب عملية تفجير السفارة الأميركية في لبنان في العام 1983، التي حصدت حيوات عدد من ألمع ضباط «السي.آي.إيه.» في الشرق الأوسط، وعملية تفجير ثانية استهدفت مشاة البحرية الأميركية (المارينز) في بيروت، حيث قُتل 241 جندياً في البحرية. وأسرت المنظمة الشيعية في لبنان، حزب الله، رهائن أميركيين. صُعق كايسي وريغان بهذا العنف في لبنان ضدّ الشخصيات الأميركية والصحافيين الرسميين، فواجها موجة جديدة وواسعة من الهجمات ضد المدنيين والسياح الأميركيين.

في العام 1985، قطع 6,5 ملايين أميركي البحار. قُتل ستة آلاف من بينهم لأسباب مختلفة، أهمها المرض، وقتل سبعة عشر آخرون على أيدي جماعات راديكالية. وقد ألغى ملايين الأميركيين في نهاية العام مشاريع سفرهم، وطالبوا الحكومة باتخاذ الإجراءات المناسبة. استولى راديكاليون فلسطينيون ومن تنظيمات شيعية لبنانية على انتباه أميركا، تماماً كما أملوا.

قال القائد الفلسطيني الماركسي، جورج حبش، مرة: «كان تأثير خطفنا الطائرة أكبر بكثير من قتل مئة إسرائيلي في المعركة». «أصبح العالم بأسره يتحدث عنا». كما اكتسبت في أواسط الثمانينيات نظرة المحلل الأميركي، براين جينكينز، شهرة كبيرة: «يهتمّ «الإرهابيون» بالحصول على عدد كبير من المشاهدين والمستمعين، وليس على عدد كبير من القتلى». وصاغ جملة أخرى لطالما رددها: «الإرهاب مسرحية»(221).

الهجمات ضد المصالح الغربية، وخصوصاً الأميركية والإسرائيلية منها، تم توصيفها في الأدبيات الأميركية والغربية، على أنها أعمال إرهابية، وقد ألف هذه الهجمات الشتات الفلسطيني الذي سعى قادته اليساريون وراء وسائل درامية لجذب الانتباه نحو شكاواهم القومية. ويُعتبر خطف طائرة «العال»، التي كانت متوجهة من روما إلى تل أبيب في 22 تموز/يوليو 1968، الحدث الذي تم وسمه بالعمل «الإرهابي» العصري الأول في الدراسات الإرهابية التي تُعتبر تخصصاً أكاديمياً جديداً. بعد ذلك، هاجم فلسطينيون نقاط ضعف الطيران، واستغلوا انتشار محطات التلفزة عالمياً، حيث أحدثوا سلسلة من الهجمات الاستعراضية التي تشدد على الأداء. وفي الوقت نفسه، سعوا إلى الحد من عنفهم وتحديده من أجل إحداث أعظم وقع من دون إبعاد حلفاء سياسيين مهمين، لأن أحد أهداف حركتهم هو التفاوض على إنشاء دولة. وفشلت في بعض الأحيان محاولاتهم للتحكم في العلاقات العامة، كما جرى أثناء الألعاب الأولمبية في ميونيخ في ألمانيا في العام 1972، وفي مطاري روما وفيينا في أواخر العام 1985. وأصبحت السياسات المعادية للإرهاب ساخطة أكثر فأكثر على الخصوص في واشنطن.

بعد الاعتداءات على المطارات بوقت قصير، استدعى كايسي رئيس القسم الأوروبي التابع لـ «السي.آي.إيه.»، دواين كلاريدج، الملقب بـ «بدووي»، إلى مكتبه في الطابق السابع من مركز لانغلي. كلاريدج أميركي من نيوهامشاير تلقى تعليمه في جامعة براون. كان ضابطاً استخبارياً يحب مضغ السيجار، ويهوى الحركة، لكنه كبح نفسه عند تسلم الإدارة. خدم في نيبال والهند في

بداية الحرب الباردة، وأدار العمليات المضادة للسوفيات على حدود مجهولة. أثار إعجاب كايسي بروحه المغامر وشجاعته، وكافأه المدير بمنحه السيطرة المطلقة للتحكم في الحرب السرية في نيكاراغوا. دفع كلاريدج العمليات هناك إلى أقصى درجاتها من خلال استعمال قوارب سريعة لتهريب الأسلحة وزرع الألغام. وعندما حصدت عمليات زرع الألغام الاضطراب داخل الكونغرس، نقل كايسي كلاريدج إلى القسم الأوروبي التابع لمديرية العمليات. والآن يحتاج المدير من جديد إلى مساعدته.

أطلع كايسي كلاريدج على الضغوط المكثّفة التي مارسها ريغان على «السي.آي.إيه.» كي تتقدم بالمزيد من المبادرات في «المعركة ضدّ الإرهاب». أراد المدير أن يردّ على ذلك عن طريق تشكيل فريق عمليات يضع «السي.آي.إيه.» عند خط الهجوم في الحملة العالمية لمحاربة «المجموعات الإرهابية». وأخبر كلاريدج كايسي برأي المدير: إن أرادت «السي.آي.إيه.» الفوز، فعليها شن هجمات تحفظية على الخلايا الإرهابية. وفي حال لم تفعل ذلك، «فقد يزداد عدد الحوادث، وستصبح أعنف وأكثر دموية»(222).

هزّ «تفجير حيوي مفاجئ» كايسي، فطلب من كلاريدج محاورة مختصين في شؤون الإرهاب في جميع أنحاء واشنطن، ومن ثمّ تدوين اقتراح من أجل وضع استراتيجية سرية جديدة لـ «السي.آي.إيه.» بغية مواجهة الإرهاب. وجد كلاريدج في آخر الرواق مكتباً له، وبدأ العمل بعد رأس سنة العام 1986. وفي أواخر شهر كانون الثاني/يناير، كتب كلاريدج مسودته، وهي مذكرة من ثماني أو تسع صفحات ذات أسطر متباعدة، موجهة إلى كايسي تحديداً.

اعترف كلاريدج في المسودة بأنّ «السي.آي.إيه.» واجهت مشاكل عديدة أثناء تصديها لخطر الإرهاب العالمي. كانت المشكلة الكبرى تكمن في «ذهنيتها الدفاعية». قام الإرهابيون بعملياتهم في جميع أنحاء العالم «وهم يدركون أن فرص معاقبتهم أو إحالتهم على القضاء، ضئيلة». أراد كلاريدج وضع نظام تشغيلي قانوني جديد لـ «السي.آي.إيه.» يجيز توجيه ضربات هجومية ضد الإرهابيين. واقترح تشكيل «فريقي عمل» سريين جداً، يتمّ تمويلهما وتجهيزهما لتقفي آثار الإرهابيين ومهاجمتهم وخطفهم في جميع أنحاء العالم. يستطيع فريقا العمل قتل الإرهابيين إن كان ذلك يحول دون تنفيذ عملية إرهابية، أو يستطيعان
اعتقالهم وإحالتهم على القضاء إن أمكن ذلك. ويتألف أحد الفريقين من أجانب، غير أميركيين، يستطيعون الاختلاط بسهولة في الأراضي الأجنبية، أما الفريق الآخر فيتألف من أميركيين.

أوضح كلاريدج أن مديريات «السي.آي.إيه.» المحلية مع حدودها الجغرافية الصارمة، لا تضاهي على الإطلاق سهولة تحرّك المجموعات الراديكالية المتطرفة على الصعيد الدولي، وخصوصاً الفلسطينيين الذين لا دولة لهم. ورأى أنّ الإرهاب «لا ينحصر في رقعة واحدة من الأراضي فحسب». إنّه «فعّال تحديداً لأنّه ينتشر على الخريطة بأسرها». ليست «السي.آي.إيه.» وحدها،

بل «جميع المؤسسات الحكومية أيضاً، لم تكن منظّمة بشكل متكامل، يتيح لها التعامل حقّاً مع المشاكل التي تتعدى الحدود الدولية».

كما اقترح كلاريدج إنشاء مركز متعدد الاختصاصات تابع لـ «السي.آي.إيه.»، ويتمتع بتأثير عالمي، يُطلق عليه اسم مركز مكافحة الإرهاب. ويجمع «مركز الانصهار» هذا، بين مصادر من مختلف المديريات، ويزيل الحواجز ويُلغيها داخل الوكالة. ويتّخذ المركز مقراً داخل مديرية العمليات، إلا أنّه يضمّ أيضاً محللين من مديرية الاستخبارات، وباحثين من مديرية العلوم والتكنولوجيا. ويختلف تنظيم هذا المركز كثيراً عن تنظيم الوكالة التقليدي، حيث ينفصل وجود الجواسيس في مديرية العمليات وأمكنتهم، بواسطة حواجز في بعض أقسام مقرّ لانغلي، عن محللي الوكالة في مديرية الاستخبارات الذين يكتبون التقارير والتوقعات. ورأى ضباط العمليات السرية أنّ هذا الفصل ساعد على حماية هويات المصادر الجاسوسية. إلا أنّ التقسيم أصبح أمراً ثابتاً، ولا عودة عنه، ولم يُعَد النظر فيه على مرّ السنين.

أثارت المذكرة معارضة حادة من قبل مديرية العمليات. فقد خشي الضباط أن ينتهك المركز الجديد المصادر والمواهب من بين أمور أخرى. واعتبر بعض الجواسيس في مديرية العمليات، أن مكافحة الإرهاب «عمل الشرطة»، فمن الأفضل تركها لرجال الشرطة، أو مكتب التحقيقات الفدرالية «أف.بي.آي.». لكن روبرت غايتس الذي كان مسؤولاً عن مديرية الاستخبارات في ذلك الوقت، تدخّل لدعم أفكار كلاريدج، وانضمّ كايسي إليهما. وأنشئ مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» في 1 شباط/فبراير 1986، وعيّن كلاريدج أول مدير له.

ساعد كلاريدج على وضع مسودة قرار رئاسي جديد عالي السرية يتعلّق بالإرهاب، ويسمح لـ «السي.آي.إيه.» بالقيام بعمليات سرية ضدّ مجموعات إرهابية في جميع أنحاء العالم. وقّع ريغان القرار عند إنشاء المركز، كما وقع وثيقة سياسية أوسع، وهي توجيهات قرار الأمن القومي 207، بعنوان «البرنامج الوطني لمكافحة الإرهاب»، المصنَّف سرياً جداً(223).

طورت لجنة التنسيق بين الوكالات المعنية بقضايا الإرهاب والتابعة لمجلس الأمن القومي، تمويلات العمليات السرية. وأصبحت لجنة مجلس الأمن القومي الجديدة، تحت تسمياتها المتعددة، المقر الأساسي لاتخاذ القرارات الرئاسية حول القضايا الإرهابية في الأعوام التي تلت. وشددت توجيهاتها التأسيسية على القضايا المحاربة للإرهاب، التي قد تظهر بشكل متكرر في الأعوام المقبلة. هل الإرهاب مشكلة ناجمة عن تطبيق القوانين، أم مسألة أمن قومي؟ هل يجب على «السي.آي.إيه.» إلقاء القبض على الإرهابيين أحياءً من أجل مواجهة اتهامات جُرمية في محاكم مفتوحة، أم الهدف هو إحضارهم جثثاً هامدة؟ وبلغت السياسات المطروحة في توجيهات قرار الأمن القومي 207، جانبي هذه الأسئلة. أجل، يُعتبر الإرهاب في بعض الحالات مشكلة في تطبيق القانون، وفي حالات أخرى، لا بدّ من أن تتم معالجته كأنه مسألة عسكرية. يجب الإمساك بالإرهابيين ومحاكمتهم متى أمكن ذلك، لكن لن يكون هذا مطلباً أساسيّاً.

سمحت مسودة القرار الأساسية بتشكيل فريقي العمل الجديدين اللذين طالب بهما كلاريدج وكايسي، وخولت «السي.آي.إيه.» تولي العمليات السرية لهزم الإرهاب بمفردها، وبالتعاون مع الحكومات الأجنبية. وهدفت الأعمال السريّة المماثلة إلى رصد الضربات الإرهابية وتعطيلها واستباقها. ويتضمن ذلك إلقاء القبض على الإرهابيين ومحاكمتهم، أو شنّ هجوم عسكري في حال كان العدو على وشك تنفيذ عملية إرهابية.

يذكر روبرت باير، أحد أعضاء المركز الذين تمّ تعيينهم من قبل مديرية العمليات منذ البداية، أنّ كلاريدج اعتبر القرار الجديد بمنزلة سلطة «تسمح بالقيام بأي شيء تقريباً لمحاربة الإرهابيين». لكن فريقي العمل المقترحين - وعلى الخصوص الفريق المؤلف من الأجانب -، أثارا ردّ فعل عصبياً في الكابيتول هيل. وقد أطلق عليهما بعض الأشخاص سراً، اسم «فريقي الهجوم»(224).

كان على «السي.آي.إيه.» ومجلس الأمن القومي، تقديم ملخص إلى لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ الأعلى، حول القرار الرئاسي الجديد. ويذكر روبرت غايتس أنّه دخل غرفة استماع آمنة في الكابيتول هيل من أجل حضور جلسة مماثلة، و «تطرقنا إلى مسألة الوقت الذي يجوز فيه قتل إرهابي، فحصلنا على هذا الجواب شبه الديني. «حسناً، إن كان الرجل يقود شاحنة ملأى بالمتفجرات في اتجاه حواجز، أتستطيع قتله؟»، «أجل». «حسناً، ماذا لو كان في شقته يعدّ المتفجرات؟»، «لا أعرف»»(225).

واستمر الجدال على هذا النمط تقريباً، ومن دون أن يُحَلّ في السنين الخمس عشرة اللاحقة، حتى صباح 11 أيلول/سبتمبر 2001.

يذكر باير أنّه تمّ تأسيس مركز مكافحة الإرهاب في الطابق السادس في لانغلي، في فورة «طاقة جامحة بحتة». «عمل الجميع في فسحة مفتوحة وشاسعة. وبينما كانت الهواتف ترن من دون انقطاع، والآلات الطابعة تنقر، والملفات تتكدس في أرجاء المكان، وأخبار «السي.أن.أن.» تبث على شاشات التلفزيون المثبتة في السقف، ومئات الأشخاص يتحركون أو يعملون على الحواسيب، يخالجك شعور بأنك في غرفة حرب». لكن مع تضخم الفضائح السياسية والقانونية التي أحاطت بمغامرات كايسي في نيكاراغوا وإيران، والتي انتشرت في أرجاء واشنطن في العام 1986، أنتجت رؤية «غرفة الحرب» الأصلية بشأن فرق العمل، والوضعية الهجومية، ثقافة في كتابة التقارير أكثر حذراً وتحليلاً مما تخيله كايسي وكلاريدج.

يقول فنسينت كانيسترارو، الذي وصل إلى المركز مباشرة بعد تأسيسه بصفته ضابط عمليات: «كان كايسي يتخيله مختلفاً كثيراً عمّا أصبح عليه في الحقيقة». وشملت فضيحة إيران - كونترا جواهر حول الدعم غير القانوني الذي قدمه أوليفر نورث وكايسي وصانعو سياسات آخرون، إلى

الثوار في نيكاراغوا، بالإضافة إلى تهريب شحنات أسلحة غير شرعية إلى إيران في محاولة لتحرير الرهائن الأميركيين في لبنان. وقال كانيسترارو إنه كنتيجة لذلك «تمّ اعتبار كايسي مغامراً، ودووي راعي بقر». أمّا بالنسبة إلى المركز ولجان الكابيتول هيل المشرفة، فقد تراجعت بسرعة كبيرة رغبتها في المجازفة(226).

وبرغم ذلك، بقي كلاريدج مسؤولاً، وبدأ تشجيع زملائه.

نفذت المجموعات اليسارية العلمانية عمليات الخطف والتفجيرات الأكثر وضوحاً في العامين 1985 و 1986. ودافعت بعض هذه المجموعات عن قضايا وطنية والاغتيالات ضد المصالح الأميركية والغربية والإسرائيلية، مثل الراديكاليين الفلسطينيين والجيش الجمهوري الأيرلندي وانفصاليي إقليم الباسك في إسبانيا. وطارد آخرون أهدافاً ثورية ماركسية أكثر تجرداً، مثل عصابة بادير ماينهوف الألمانية ومنظمة الألوية الحمراء الإيطالية. لم يلحظ كايسي ومعظم الضباط والمحللين في «السي.آي.إيه.» أي علاقات مباشرة بين الاتحاد السوفياتي وهذه الجماعات المتطرفة اليسارية العلمانية. وبرغم ذلك، اعتبر هؤلاء أنفسهم طلائع عسكرية في الصراع الأيديولوجي بين اليمينيين واليساريين في الحرب الباردة. أقام كلاريدج علاقات تمحورت حول قضايا الإرهاب مع قوات أمنية في أنحاء أوروبا، بحيث يوفر المساعدة التقنية حيث أمكن، مثل المرشد اللاسلكي الذي أضيف إلى الأسلحة المدسوسة للمساعدة على تقفي آثار الخلايا الانفصالية الباسكية في إسبانيا(227). واكتسب ضباط «السي.آي.إيه.» ونظراؤهم في أوروبا، خبرة طويلة مع مجموعات مماثلة، وفهموا تركيبتهم الفكرية والذهنية، وارتادوا في بعض الحالات الجامعات نفسها التي ارتادها الراديكاليون، وعرفوا كيف يتحدثون إليهم، وكيف يعينونهم، وكيف يرشونهم.

ركّز مركز مكافحة الإرهاب في بداياته على هؤلاء المتطرفين اليساريين. وقسّم المركز إلى وحدات فرعية تستهدف مجموعات معينة. وركّزت إحدى الوحدات الكبيرة على منظمة أبي نضال التي تسببت في خسارة أرواح مئات المدنيين في ضربات عديدة في الثمانينيات. قرر كلاريدج وزملاؤه زرع الخلافات من خلال فضح عمليات المجموعة التمويلية، وزيادة الشكوك بين أعضائها. أصيبت منظمة أبي نضال بالارتياب، وأصبحت تضحي بنفسها على حسابها الخاص، لكن الوكالة ساعدت على تسريع انهيارها عن طريق التوغل، ونشر المعلومات الخاطئة. تلاشت منظمة أبي نضال الفعلية في خلال ثلاث سنين. كما حققت الوكالة انتصارات أخرى، على الخصوص في ألمانيا وإيطاليا، حيث بدأ الإرهابيون باستنزاف أنفسهم، بمساعدة من العمليات السرية في بعض الأحيان.

شكل حزب الله، من جهة أخرى، هدفاً صعباً جداً. كانت هذه المحاولة الأولى التي يقوم بها المركز لاختراق منظمة إسلامية أصولية تستهدف المواطنين الأميركيين. كانت هذه التجربة بمنزلة نذر شؤم للمستقبل. حزب الله فصيل شيعي إسلامي راديكالي في الحرب اللبنانية، بدأ يشكل امتداداً

سياسياً وعسكرياً للحرس الثوري الإيراني وقد أصبح منظمة حليفة للثورة الإيرانية التي ما زالت في أوجها.

لا تملك «السي.آي.إيه.» مصادر معلومات داخل قيادة حزب الله. لم يكن أعضاء حزب الله المتدينون والورعون يتسكعون في الفنادق والحانات التي جعلت أفراد منظمة أبي نضال أهدافاً سهلة. كانت مصادر «السي.آي.إيه.» الأحادية الجانب في الشرق الأوسط ضئيلة، ومن بينها باير، الوحيد الذي يتحدث العربية في مركز مكافحة الإرهاب إلى جانب شخص آخر. يذكر باير أنه بعد مرور سنة كاملة على خطف حزب الله رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في بيروت، وليم باكلي، في العام 1984، «لم تكن [الوكالة] تملك أدنى فكرة» عمن اختطفه أو اختطف الرهائن الأميركيين الآخرين في لبنان. وفي تلك الأثناء، كان على مركز مكافحة الإرهاب التعامل مع خدعة تلو الأخرى، تتعلّق بمكان وجود الرهائن، بعضها معلومات خاطئة ومضللة لفّقها حزب الله نفسه(228).

أراد كلاريدج شن هجوم، وسعى إلى تجنيد القوات الخاصة الأميركية من أجل إطلاق عملية دقيقة لإنقاذ الرهائن في بيروت. جهّز عدداً من الشاحنات المبردة في أوروبا، وموّهها، لتبدو كأنها ملك للتجار اللبنانيين. أمل أن يتم شحنها إلى لبنان واستعمالها للقيام بعمليات «قوات الدلتا» في غرب بيروت. إلا أنّ جنرالات البنتاغون، مستعينين بالمعطيات الضئيلة التي يملكونها حول مكان وجود الرهائن، قالوا إنهم لن يطلقوا عمليات مماثلة إلا في حال وجود «أعين أميركية على الهدف»، لتؤكد وجود الرهائن قبل أربع وعشرين ساعة على بدء العملية. فهم لن يثقوا بأي مراقب لبناني أو عربي، وأرادوا إرسال أميركي إلى المكان(229).

لم يكن أمام كلاريدج أي وسيلة واضحة لإدخال عميل أميركي إلى غرب بيروت. درّب مركز مكافحة الإرهاب جندياً في «قوات الدلتا» من أصل فيليبيني، من أجل التسلل إلى لبنان، متنكراً، على أمل أن يتمكن من تأمين «العينين الأميركيتين» المطلوبتين على الهدف. إلا أن هذه العملية الخطيرة فشلت. فقد كان المركز «غير قادر على جمع المعلومات عن حزب الله، لأننا لم نفهمه». «كنا نفهم الإرهاب العلماني والإرهاب الراديكالي، هؤلاء هم الأشخاص الذين نرتاح إليهم».

تساءل كلاريدج إن كانت التكنولوجيا غير قادرة هي أيضاً على حل المشكلة التي لا يستطيع الذكاء البشري تفكيكها. لقد أحب مهندسي مركز مكافحة الإرهاب العلميين والتقنيين، فقد اعتمدوا ما يسميه كلاريدج «مقاربة ذبذبات أجهزة اللاسلكي» لحل المشاكل. كلفهم كلاريدج العمل على بناء طائرة سرية جداً، تعمل من دون طيار، وتزوّد معدات تنصت وآلة تصوير تحت الحمراء، ومروحيات خشبية منخفضة الصوت. قد تحلق الطائرة على علو 2500 قدم، وترصد مكان وجود الرهائن، وقد أنفق 7 ملايين دولار لبناء خمسة نماذج لما أسماه «برنامج النسر».

يمكن الاستفادة من هذه الطائرات للقيام بعمليات تخريب في ليبيا. أراد كلاريدج تحميل إحدى الطائرات بمئتي باوند من المتفجرات البلاستيكية «سي 4» ومئة باوند من محمل الكريات. كانت خطته تقضي بتحليق الطائرة فوق مطار طرابلس الغرب، وتفجيرها، وتدمير «مجموعة كاملة» من الطائرات التجارية الشاغرة الموجودة على المدرج. كما حاول تحميل صواريخ صغيرة على متن الطائرات قد تُستعمل لإطلاق النار على أهداف تحدد سابقاً(230). لكنّ التكنولوجيا بأسرها كانت في بداياتها. وأثار كايسي توتر بعض زملائه، على الخصوص في عهد «إيران - كونترا».

أراد كايسي قتل من يتهمهم بالإرهاب علناً. ورأى أنّ موقف الحكومة الأميركية ضدّ اغتيال القادة الداعمين للمنظمات المتهمة بالإرهاب، «منافق». يسمح الرئيس للجيش «بشنّ هجمات جوية قد تصيب الهدف الحقيقي وتقتله أو لا تصيبه»، لكنّه لا يسمح لمركز مكافحة الإرهاب باغتيال الرجل نفسه في السرّ. وسأل: «لم يعتبرون الغارة العسكرية المكلفة التي قد تصيب الأطفال الأبرياء وتكبّد حلفاءنا أضراراً جسيمة ومباشرة، مقبولة أخلاقيّاً، أكثر من مجرد رصاصة في الرأس؟»(231).

في بداية العام 1986، أنشأ العميد يوسف بنية تحتية شاسعة ومتطورة وسرية من أجل المقاتلين الذين يتدربون على الحدود الأفغانية. انضمّ إلى مخيماته ما بين 16 ألفاً و18 ألف متطوّع سنويّاً من أجل متابعة التدريبات. وسهل بهذه الطريقة أيضاً عمليات التدريب القتالية والتخريبية المستقلة التي تقوم بها الفصائل الجهادية الأفغانية بعيداً عن سيطرة «الآي.أس.آي.»، ووصل عدد المقاتلين الذين تدرّبوا بهذه الطريقة كلّ سنة إلى ستة آلاف أو سبعة آلاف، بحسب تقديرات يوسف، وكان عدد منهم من المتطوعين العرب (أُسموا لاحقاً «الأفغان العرب»)(232).

أصبح المنهج الذي قدمته الاستخبارات الباكستانية أكثر تخصصاً. تابع مجندون جهاديون جدد تدريبات أساسية مدّة أسبوعين أو ثلاثة، وتعلموا استعمال الأسلحة الهجومية وإطلاق النار منها. ثم تم اختيار الأفضل من بينهم لمتابعة تدريبات المتخرجين
على أسلحة وتكتيكات أكثر تعقيداً. أنشأ يوسف مخيمات تدريب متخصصة بالأعمال التفجيرية والتخريبية المدنية، بالإضافة إلى عمليات تفجير السيارات واستخدام الأسلحة المضادة للطائرات والبنادق القناصة والألغام الأرضية. وانتشر آلاف المتخرجين الجدد في أفغانستان مع ذوبان الثلوج عن الجبال في ربيع العام 1986، وبدء موسم قتال جديد. وقد كانت غالبيتهم من الأفغان، لكن انضمّ إليهم بعض الجزائريين والفلسطينيين والتونسيين والسعوديين والمصريين. أنشأوا مخيمات جديدة عبر الحدود الأفغانية في الوديان الوعرة، واستولوا على مواقع عسكرية تعود إلى الدولة. وساعدهم ذلك على متابعة التدريبات بأنفسهم، وتجنيد مقاتلين جدد، وصقل تقنيات التخريب والقتال التي علمتهم إياها الاستخبارات الباكستانية.

كتب واضع «النظريات الإرهابية»، بروس هوفمان: «غالباً ما يمزجون الإرهاب أو يساوونه بالعمليات العسكرية». «هذا الأمر ليس مفاجئاً، لأن المقاتلين غالباً ما يستعملون التكتيكات نفسها (الاغتيال والخطف وتفجير أماكن تجمعات عامة وأخذ رهائن... إلخ)، من أجل الأهداف نفسها

(للتهويل أو الإكراه، وبهذه الطريقة للتأثير في السلوك من خلال إثارة مشاعر الخوف)، تماماً مثلما يفعل الإرهابيون»(233).

بعد مضي عشر سنين، كانوا لا يزالون في أميركا يستخدمون عبارة «بنية تحتية إرهابية» ليشيروا إلى البنية التحتية الشاسعة التي بناها يوسف وزملاؤه من أجل التدريبات، بفضل الميزانيات الضخمة التي صدقت عليها توجيهات قرار الأمن القومي 166. وضمت البنية التحتية المخيمات المتخصصة وكتيبات التدريب على التخريب وصواعق القنابل الالكترونية، وإلى ما هنالك. وخدمت البنية التحتية وقت إنشائها جيشاً جهاديّاً يحارب علناً في ساحة المعركة، محاولاً الاستيلاء على الأرض واحتلالها وممارسة السيادة على الشعوب المدنية. سعوا وراء قضية وطنية شفافة. وفي العام 1986، تشابكت تلك القضية الأفغانية مع الشبكات الإسلامية الدولية، التي كان يسعى قادتها وراء أهداف أكثر طموحاً: إطاحة الحكومات الفاسدة والمعارضة للنظام الإسلامي في أرجاء العالم الإسلامي.

لم يشدد مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.»، في سنته الأولى، على الشبكات المتأثرة بالإخوان المسلمين، إنّما ركزت ثاني أكبر شعبة في المركز على المجموعات الراديكالية اليسارية العلمانية، ومن بينها المجموعات الفلسطينية والمجموعات الماركسية - اللينينية في أوروبا، ومنظمة الطريق المنير في البيرو، والجيش الأحمر الياباني، بعد تركيزها على أبي نضال وحزب الله(234).

ولّدت الاضطرابات المتواصلة في طهران خوفاً لدى محللي «السي.آي.إيه.» من استسلام أنظمة ضعيفة أخرى في الشرق الأوسط للثورة الإسلامية. لكن بعد مضي ست سنين على الثورة الإيرانية، لم تتفجّر أي واحدة أخرى مشابهة. أثيرت نزاعات دينية في بعض الأماكن، مثل الجزائر، ووقعت تفجيرات إسلامية قليلة في فرنسا. وعيّنت الاستخبارات البريطانية القلقة بسبب تزايد الراديكالية الإسلامية، جاسوساً متقاعداً يتحدث العربية من أجل التنقل بضعة أشهر في العالم الإسلامي، من المغرب إلى إندونيسيا، بغية كتابة تقرير مفصل عن الإسلام المعاصر في الشوارع والمساجد(235). لكن هذه الخطوات لم تُعتبر سوى جهود مضنية جذبت اهتماماً ضئيلاً من داخل «السي.آي.إيه.»، أو خارجها.

ظهرت علامة ضوئية أخرى على شاشة مركز مكافحة الإرهاب. وصلت تقارير من باكستان حول مجموعة جديدة يُطلق عليها اسم منظمة الخلاص الإسلامية، تشكلت في بيشاور من أجل تجنيد المتطوعين العرب في الجهاد الأفغاني، ودعمهم، بعيداً عن سيطرة أي من الفصائل الأفغانية التي تدعمها «الآي.أس.آي.». أدارت الشبكة مكاتب الضيوف ومقارهم وسكنهم على طول الحدود الأفغانية. كان أسامة بن لادن، وهو شاب سعودي ثري، يوزّع مبالغ ضخمة من الأموال في بيشاور لمساعدة المركز الجديد على التوسع. وكان يستفيد من مخيمات تدريب المقاتلين التي تديرها «الآي.أس.آي.»، وذلك بالنيابة عن الجهاديين العرب الذين وصلوا حديثاً. ويذكر ستانلي

بيديغتون، وهو محلل قديم يعمل في المركز منذ تاريخ إنشائه، أن التقارير الأولى المتعلقة بنشاطات بن لادن التي وصلت إلى مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة، تؤكد أنه «لم يكن بالتأكيد ملتزماً أي قتال. لم يكن محارباً». وبرغم ذلك، «عندما يبدأ الرجل برمي الأموال في كل مكان بهذا الشكل، يلفت نظرك»(236).

علم المحاربون الأكثر حماسة في لانغلي، بأمر الجهود التي يبذلها بن لادن وحلفاؤه الإسلاميون لزيادة عدد المتطوعين العرب المحاربين للسوفيات، فرأوا أنّه لا بد من التصديق رسمياً على هذا المشروع وتوسيعه. وبرهنوا أنه كلما كان محاربو السوفيات أكثر التزاماً، كان ذلك أفضل. ويذكر روبرت غايتس أنّه مع وصول المزيد من العرب إلى باكستان في العامين 1985 و1986، قامت «السي.آي.إيه.» «بدراسة أساليب جديدة لزيادة مشاركتهم
على شكل «لواء دولي»، لكنها لم تصل إلى نتيجة»(237).

لم يكن أسامة بن لادن في مقر «السي.آي.إيه.» الرئيسي، مجرد اسم في ملف. إنّما بدأ في بيشاور المضطربة تصعيده الخاص للحرب الأفغانية.

# 8
# إن شاء اللـه، أُطلعْك على مخططاتي

حلّ ميلتون بيردان مكان كايسي، رئيساً لمركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد في تموز/يوليو 1986. بيردان رجل من تكساس ضخم البنية، ومكتنز ذو وجه طفولي، يستخدم العبارات العامية، ويطمح إلى كتابة الروايات، ويعيش حياته كأنه نجم من نجوم هوليوود. تقرب بيردان من كايسي قبل بضع سنين عندما كان رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في الخرطوم في السودان. هرّب هناك ضباط الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) المحاصَرين إلى خارج البلاد في صناديق خشبية عليها ملصق البريد الدبلوماسي، وهذه هي العمليات الجريئة التي أحبها كايسي. فعندما سافر إلى أفريقيا في طائرة ستارليفتر السوداء، رافقه بيردان إلى اجتماعاته الليلية مع رؤساء استخبارات مارسوا جميعهم مهنة القتل. كانا حالمين معاً في عالم التجسس. احتاج مدير «السي.آي.إيه.» إلى شخص بمقدوره السيطرة على التصعيد الهائل الذي ساهم في إثارته في أفغانستان. وطلب من بيردان موافاته إلى مكتبه الذي يقع في الطابق السابع في لانغلي، وأطلعه على سياسته الجديدة: «أريدك أن تذهب إلى هناك وتربح»(238).

فهم بيردان أن كايسي «يملك رؤية استراتيجية» حول الصراع العالمي ضدّ الاتحاد السوفياتي، من خلال العمليات السرية، وأنّ «أفغانستان تشكّل جزءاً منها». إلا أنّ كايسي أوضح أنّ الدعم الأخير الذي قدّمه على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية، هو بمنزلة مهمة معنوية طارئة. رأى بيردان أنّ كايسي يؤمن بأنّ التضحية بأرواح الأفغان من دون السعي وراء النصر التام على الشيوعية، استراتيجية «للعقول الصغيرة»، واعتبره «المدير الأفضل والأسوأ» الذي عرفته «السي.آي.إيه.».

كان بيردان، «العم ميلتي»، شخصية مشهورة في مديرية العمليات، وربّ عمل متساهلاً، وعميلاً بارعاً مفعماً بروح الفكاهة والصخب. حط في إسلام آباد الحارة والدميمة، محملاً بطموحات كايسي. كان المركز الذي يقع في الطابق الثالث المرمم في السفارة، لا يزال متواضعاً من حيث حجمه، مقارنة بالمبالغ المالية والمعاملات التي يديرها. قطع بيردان أجنحة المكاتب المعقمة مثل ممتطي الثيران. ويذكر أحد الزملاء أنه «كان يحمل بيده عصا ويهيم فوق السحاب». تحدث إلى الجميع، بمن فيهم المغرور المتكبر، الجنرال أخطار، رئيس الاستخبارات الباكستانية، كما لو كانوا زائريه الشخصيين في حفلة في تكساس. كان يمسك بالدبلوماسيين السوفيات أثناء ولائم رفيعة، ويقتبس شكسبير للتعبير عن السياسة الأفغانية، قائلاً: «لا تتحدثوا عن طريقة رحيلكم، إنّما ارحلوا على الفور». أما في مؤتمرات رؤساء مراكز «السي.آي.إيه.» الإقليمية، فيتباهى معلناً: «تحاولون جميعكم تجنيد السوفيات. أما أنا فأقتلهم وحسب». كان يرفض الإجابة عن اتصالات الجنرال أخطار مدّة أسابيع، ليجعله يقلق بشدّة في حال غضب من الاستخبارات الباكستانية بسبب

مشكلة في خطوط إمدادات الأسلحة. وبرغم ذلك، أصبح المفضل بالنسبة إلى بعض الضباط الباكستانيين. وعندما حوصرت عائلته في عاصفة ثلجية أثناء عطلة، حلّقت القوات الجوية الباكستانية في طائرة «سي 130» لإحضارها. تولد لديه انطباع بأن النخبة الباكستانية المهتمة بالتآمر، تميل إلى الاعتقاد أن «السي.آي.إيه.» هي القوة الحقيقية في الحكومة الأميركية. ولاحظ زملاء بيردان داخل مجمع السفارة الأميركية المحصن، اللمسات الصغيرة التي أضافها: ينتهي رقم اللوحة الدبلوماسي على سيارته الرسمية بـ «01»، الرقم الذي يخصص عادة للسفير(239).

حاول بيردان كبح تدفق المعدات والأموال الضخم القادم من باكستان. ساعد على طول الحدود بين باكستان والصين في تنظيم عملية نقل مئات البغال على متن الشاحنات بعد أن باعها الشيوعيون الصينيون لـ «السي.آي.إيه.» كي يستعملوها في تهريب الأسلحة التي ستُستعمل ضد الشيوعيين السوفيات. وبما أن عدد البغال لم يكن كافياً، طلب بيردان إرسال حيوانات من أماكن بعيدة، مثل تكساس وجيبوتي عبر الطريق البحري. وعندما فقدت سفينة شحن قادمة من جيبوتي في البحار المفتوحة، أرسل بيردان مدة أسابيع برقيات سرية طارئة تحمل عنوان «سفينة بغال» إلى جميع أنحاء العالم(240).

أطلق مركز إسلام آباد في مذكرة تموز/يوليو التقييمية الشاملة، إنذاراً بأن نمط اعتداءات الجهاديين قد خفّ تحت وطأة الهجمات الجوية العنيفة التي شنتها القوات السوفياتية الخاصة على طول الحدود الباكستانية(241). خشي محللو لانغلي والجنرالات الباكستانيون في العام 1986، أن تكون تكتيكات الهجوم السوفياتي الجديدة ترجّح كفة ميزان الحرب ضدّ الثوار المدعومين من قبل «السي.آي.إيه.». في 26 أيلول/سبتمبر 1986، أي بعد شهرين تقريباً على وصول بيردان، بدأ الميزان يميل في الاتجاه المعاكس.
قام قائد اسمه المهندس جعفر («المسامح») وزميلان ملتحيان جاثمان بين الصخور الصلبة في سهل قاحل قرب مطار جلال آباد في شرق أفغانستان، على بُعد مسافة ساعتين من بيشاور، بحمل أول سلاح مضاد للطائرات من نوع جديد قدمته «السي.آي.إيه.» إلى الثوار. ويعمل صاروخ ستينغر على البطاريات الكهربائية، ويقوده نظام البحث عن الحرارة الأكثر قابلية للحمل والأكثر فعالية حتى الآن. كان السلاح أعجوبة صنعها الأميركيون كجزء من الترسانة الحدودية الحديثة. وأصبح محصَّناً ضدّ الإجراءات المضادة التي يتخذها الطيارون السوفيات بفعل الأشعة تحت الحمراء في نظام التعقب الحركي.

كان جعفر مهندساً عسكرياً تلقى تدريبه في الاتحاد السوفياتي، واختارته الاستخبارات الباكستانية لاختبار مهمة صاروخ ستينغر الأولى، وتدرب على ذلك سرّاً في مجمع لـ «السي.آي.إيه.» قرب راولبندي. اقتربت ثماني مروحيات «24 دي» مزودة رشاشات من مطار جلال آباد. صوّب جعفر صاروخه، وضغط زر «الإطلاق» الأسود المطاطي الموجود على المقبض، وشدَّ على الزناد. أصدرت طلقته الأولى أزيزاً وانطلقت بطريقة خاطئة فسقطت بين الصخور على بعد بضعة

أمتار. لكن عبر صاروخ آخر السهل بسرعة البرق واصطدم بمروحية مفجراً إياها. أطلقت صواريخ أخرى متتالية وأسقطت مروحيتين أخريين، ما أدى إلى قتل طاقميهما الروسيين.

اتصل أخطار ببيردان فور تسلم التقرير عبر جهاز الإرسال. بعث رئيس المركز ببرقية إلى لانغلي يصف فيها الضربات، مشيراً إلى أنّ المسألة لم تؤكَّد بعد. وفي اليوم التالي، تحركت غرفة الاتصالات في سفارة إسلام آباد بسرعة، وأرسلت رداً مفاجئاً: كان قمر التجسس الصناعي الأميركي «كي.أتش.11» يمرّ فوق ذلك المكان مصادفةً، ليلتقط صوراً روتينية لساحة المعركة الأفغانية، فبثّ صورة واضحة لمطار جلال آباد تُظهر ثلاث كرات متفحمة من البقايا الفولاذية التي كانت في السابق مروحيات، وهي مصطفة جنباً إلى جنب على مدرج ناشط. كانت البرقية القادمة من لانغلي مبتهجة بالانتصار:

«تؤكّد صور القمر الصناعي وقوع ثلاث إصابات في جلال آباد، كما أعلن سابقاً.

تهانينا على العمل المنجز بإتقان».

علمت «السي.آي.إيه.» قبل سنين، أن رونالد ريغان لا يحبّذ القراءة كثيراً. فنادراً ما وصلت التقارير الكثيفة والمفصلة حول الأعمال العالمية إلى مكتبه، إلا أنّه أحب مشاهدة الأفلام. فقد شجّع كايسي زملاءه على انتقاء المعلومات الاستخبارية الهامة كي يتمكن الرئيس من مشاهدتها على شاشة الأفلام. وقبل أن يلتقي ريغان رؤساء الدول، كان يشاهد في بعض الأحيان على شاشة التلفزيون فيلماً سرّياً قصيراً أعدته «السي.آي.إيه.» عن حياة زائره. فكرت «السي.آي.إيه.» إلى حد ما في أهم زبائنها، فزوّدت فريق المهندس غفار آلة تصوير من ماركة «سوني» لتصوير إطلاقة الستينغر.

صاح مطلقو الصاروخ بأعلى صوتهم: «الله أكبر، الله أكبر»، عندما قذفوا أول صواريخ الستينغر في الحرب الأفغانية. وعندما أصاب غفار المروحية الثالثة، بدا الشريط المسجل كأنّه شريط «طفل في مباراة كرة قدم»، كما وصفه بيردان لاحقاً. «بدأ الجميع يقفزون، كل ما تراه هو أشخاص يقفزون في كل مكان، فتهتزّ الأرض تحت قدميك». ويظهر آخر جزء من الشريط، فريق غفار يُفرغ رصاصات سلاح الكلاشينكوف في جثث الطاقم السوفياتي المسحوقة والمنتشرة على مدرج جلال آباد. أُرسل شريط الفيديو السري في غضون أسابيع خارج إسلام آباد، فعرضه الرئيس ريغان في البيت الأبيض. عمّت الفرحة بالنصر أرجاء واشنطن، بينما وزّع شريط التصوير وصور «الكي.أتش.11» التي التقطها القمر الصناعي في مبنى المكتب التنفيذي القديم، وعلى بعض أعضاء الكونغرس.

اتُخذ قرار استخدام صواريخ ستينغر خلافاً لنصيحة «السي.آي.إيه.» الأساسية. وبعدما دخلت توجيهات قرار الأمن القومي 166 حيّز التنفيذ، بدأ أعضاء من مجموعة التنسيق بين الوكالات الداخلية المعنية بشؤون أفغانستان، السعي وراء استخدام الصواريخ، معتبرين أنّها قد تتصدى لتكتيكات اعتداء مروحيات «السبيتسناز». إلا أنّ إدخال سلاح أميركي الصنع ساحة المعركة الأفغانية، يُهدي إلى السوفيات نصراً في المعركة الدعائية، وهذا ما يخشاه قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.». إلا أنّ مورتن أبراموفيتز، مدير الاستخبارات في وزارة الخارجية، دعم الفكرة. وبعد جدال انفعالي طويل، أذعنت «السي.آي.إيه.» للأمر. تطلب الأمر في ذلك الحين أشهراً من المفاوضات السرية مع الصينيين ومع الرئيس الباكستاني ضياء الحق قبل أن يقتنع الجميع بأن مخاطر الانتقام السوفياتي تستحقّ تحمّل الأمر(242).

بعدما عُرض شريط غفار القصير في البيت الأبيض، بدأ عشرات القادة الأفغان في شرق أفغانستان إطلاق صواريخ ستينغر على المروحيات السوفياتية وطائرات الشحن التجارية، محدثين أضراراً جسيمة. وعملت الطواقم الروسية والأفغانية القلقة على التحليق قدر
المستطاع فوق مدى صاروخ ستينغر الفعلي بحوالى 12500 قدم، ما قلل من إمكانية شن غارات على علو منخفض. وتوقفت القوات السوفياتية عن نقل الجرحى بالمروحيات، وضعفت معنويات الضباط في الصفوف الأمامية. أرسل بيردان في غضون أسابيع، برقية إلى لانغلي يعلن فيها أن صواريخ ستينغر أصبحت في هذه الحرب «التطور الأعظم في ساحة المعركة»(243).

خشيت الوكالة استعمال صواريخ ستينغر سلاحاً إرهابياً ضدّ طائرات الركاب، في حال انتشرت خارج أفغانستان. فقد أدى ازدياد انتشارها في أفغانستان إلى ضرورة تعيين «السي.آي.إيه.» عملاء من أجل مراقبة القادة الثوار والاستخبارات الباكستانية. ماذا سيحدث في حال باع حكمتيار صواريخ الستينغر إلى مجموعات إرهابية؟ أو تعرضت الصواريخ للسرقة؟ هل ستعلم «السي.آي.إيه.» بذلك؟ احتاجت الوكالة إلى نشر المزيد من مصادرها الخاصة.

أصبح الجهاد الآن غارقاً في الأموال حتى بالنسبة إلى معاييره المترفة. خصص الكونغرس سراً 470 مليون دولار أميركي للعمليات السرية الأفغانية في السنة المالية 1986، ثم رفع المبلغ إلى 630 مليون دولار في السنة المالية 1987، من دون احتساب المبالغ المماثلة التي قدمتها السعودية. كما وسّع بيردان، بدعم من المقر الرئيسي، نطاق تعيين «السي.آي.إيه.» عملاء وقادة أفغاناً مستقلين من دون تدخل الاستخبارات الباكستانية. وتُعتبر المبالغ الضرورية من أجل جدول رواتب مماثل، ضئيلة مقارنة بالميزانيات الجديدة. طلب من القادة الذين تم تعيينهم مساعدة «السي.آي.إيه.» على تتبع عمليات توزيع الأسلحة والفساد الباكستاني، والتطورات في ساحة المعركة. وقسّم جدول الرواتب إلى أقسام عديدة. قد تقاضى القادة الإقليميون أجوراً من الوكالة بقيمة 20 ألفاً أو 25 ألف دولار أميركي في الشهر. أما القادة الأكثر تأثيراً فقد تقاضوا 50 ألف دولار أميركي، بينما القادة الذين يملكون تأثيراً منحصراً في مقاطعة أو أكثر، فقد حصلوا على 100 ألف دولار أميركي في الشهر، وفي بعض الأحيان أكثر. لم يستغل القادة الفعليون هذه الأجور من أجل اغتنائهم هم فحسب، بل أيضاً من أجل دعم ميليشيات العشائر أو المتطوعين التي

تستوجب دفع أجور ونفقات سفر ودعماً للعائلات التي تعيش في الغالب في مخيمات اللاجئين القذرة.

بقي عبد الحق على جدول رواتب «السي.آي.إيه.» الأحادي الجانب. وقد تابعت «السي.آي.إيه.» إرسال النفقات والإمدادات إلى أحمد شاه مسعود (تسلم مسعود مساعدات «السي.آي.إيه.» الأحادية الجانب للمرة الأولى في العام 1984). ثم أرسلت «السي.آي.إيه.» لاحقاً أجهزة اتصالات آمنة، ما سمح لمسعود بالتواصل مع قادة متفرقين وحلفاء في بيشاور من دون أن يخشى تنصت السوفيات.

أعرب مركز إسلام آباد الذي يديره بيردان، عن شكوكه حيال مسعود. رأى بعض الأشخاص المتورطين أنّ ذلك يعود جزئيّاً إلى الألاعيب القائمة بين «السي.آي.إيه.» والبريطانيين، والتي تغذيها الهرمونات الرجولية: فقد كانت بريطانيا تُؤْثِر مسعود، لذا، لم تكن «السي.آي.إيه.» تحبّه كثيراً(244). وبالإضافة إلى ذلك، بقيت ذيول عدم الثقة موجودة بعد أن عقد مسعود اتفاقات هدنة مع القوات السوفياتية في العام 1983. أخبر بيردان زملاءه أنه يحترم سجل مسعود المحارب، إلا أنه يراه يستعدّ من أجل الاستيلاء على السلطة في كابول بعد الحرب، وذلك عن طريق تخزين الإمدادات وحصر العمليات. كان جوهر رسالة بيردان ما يأتي: «أحمد، أعرف ما الذي تفعله، لا ألومك، لكن لا تفعل ذلك على حسابي». وقال ضابط في «السي.آي.إيه.» في لانغلي لنظيره الفرنسي، متحدثاً عن دعم الوكالة لحكمتيار: «قلب الدين ليس سيّئاً كما تخشى، ومسعود ليس جيّداً كما تأمل»(245).

ارتفع عدد العملاء الأفغان في شبكات «السي.آي.إيه.» إلى حوالى خمسين قائداً وعميلاً. وأدى ذلك إلى عدد كبير من الاتصالات التي كان لا بدّ من إبقائها سريّة مدّة طويلة عن الاستخبارات الباكستانية على أساس أنّه يجب على ضباط الاستخبارات في «السي.آي.إيه.» مقابلة عملائهم و «عيونهم» بانتظام. وقد راقبت «الآي.أس.آي» بانتظام ضباط الاستخبارات المعروفين في «السي.آي.إيه.»، بينما لم يكن بيردان مطلعاً على الاسم الحقيقي لكلّ عميل في النظام. وحمل القادة الذين تقاضوا أجراً، ألقاباً رمزية تُستخدم عند إرسال البرقيات. كان مسعود مشهوراً، فكان من الصعب إخفاء هويته تحت أسماء رمزية. لكن على الرغم من ذلك، انحصرت المعرفة بهذه العلاقة داخل السفارة الأميركية.

وصلت مبالغ طائلة في تلك الفترة إلى إسلام آباد، فحاول المركز تنظيم عمليات توزيع المبالغ النقدية للحدّ من رحلات الضباط الأميركيين على الطرقات الباكستانية، وهم محمَّلون بالثروات التي تجذب حتماً اللصوص والقتلة. بدأت الوكالة استعمال نظام التحويل الالكتروني من أجل إرسال دعمها المادي إلى الاستخبارات الباكستانية، أي عمدت إلى تحويل المال عبر وزارة المالية الباكستانية. فقد بدأت «السي.آي.إيه.» استعمال نظام

الحوالة من أجل تسليم الأموال النقدية إلى القادة. وهذا النظام عبارة عن شبكة مصرفية غير رسمية تستخدم في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، وتسمح للفرد بإرسال المال إلى كشك تبادل صغير - لنقل في كاراتشي على سبيل المثال - فيسلِّم على الفور إلى مستلم معيّن على بعد مئات الكيلومترات أو آلاف الكيلومترات. وبعدما انتشرت فضيحة «إيران - كونترا» في واشنطن في العام 1986، كابد مركز إسلام آباد عناءً كبيراً في تسجيل جميع الحوالات. ونظراً إلى المبالغ المالية التي باتت تُنفق في ذلك الوقت، كان من السهل جدّاً وضع ثلاثة ملايين دولار، أو أربعة ملايين دولار في غير مكانها، كما لو كنت تترك مفاتيحك على مكتبك(246).

ركّزت معظم التقارير التي بدأت تتدفق من العمال الأحاديي الجانب على وقع صواريخ ستينغر، وعمليات تسليم الأسلحة، والحملات الدعائية. إلا أنّ بعض المقاتلين الأفغان، قدموا للمرّة الأولى شكاوى ضدّ قوّة متزايدة في جهادهم: المتطوعين العرب («الأفغان العرب»). فقد وصل الآلاف منهم إلى أفغانستان.

أرسل القادة الأفغان ملاحظات إلى مركز إسلام آباد، وأضافوا إليها في بعض الأحيان صوراً تُظهر شاحنة ملأى بالمقاتلين الجهاديين العرب وهي تعبر أراضيهم. أطلق عليهم الأفغان اسم «الوهابيين»، بسبب انتسابهم إلى العقيدة الإسلامية السعودية المتشددة التي تحظر زخرفة المقامات وعبادتها. وتصادم المقاتلون الأفغان في وقت لاحق مع الجهاديين العرب حول مسألة تزيين الضرائح. فقد كان معظم الجهاديين الأفغان يدفنون موتاهم في التربة الصلبة والمقابر المصنوعة من الحجارة عليها أعلام خضراء وزخرفات متواضعة، مراعين التقاليد المتأثرة بالصوفية. وقد سحق الوهابيون هذه العلامات وانتزعوها، مدعين أنها تشجع على عبادة آلهة مزيفة، ومقلدين بذلك أساليب الإخوان السعوديين الذين تمركزوا قرب جدّة قبل أكثر من نصف قرن. هاجم الأفغان في بعض الحالات هؤلاء العرب المعتدين على المقابر، وقتلوا البعض منهم. ويذكر بيردان جوهر التقارير الأولى التي وصلت من القادة الأفغان في الميدان: «يقولون إنّنا مغفلون، وإننا لا نعرف القرآن. إنهم مصدر مشاكل أكثر مما هم مصدر فائدة»(247).

بعد أن تزوج أسامة بن لادن وأنجب أولاده الكبار، نقل عائلته من السعودية إلى بيشاور، في الوقت الذي وصل ميلتون بيردان إلى إسلام آباد وعيّن رئيساً لمركز «السي.آي.إيه.». استأجر مبنى من طابقين في قسم هادئ ومزدهر نسبيّاً ومعتدل البرودة بفضل أشجار الصنوبر، داخل مدينة يُطلق عليها اسم يونيفرسيتي تاون، حيث يعيش أعضاء الجمعيات الخيرية وجمعيات المساعدة الغربية والدبلوماسيون والدعاة العرب والمنفيون الأفغان الأثرياء، مثل جيران مرتبكين في فيلات مسوَّرة(248).

كان بن لادن شخصية معروفة جدّاً بين الثوار الأفغان المرتبطين بالإخوان المسلمين، بفضل زياراته المنتظمة وعمله مع أحمد باديب والاستخبارات السعودية، ورعايته الأعمال الخيرية العربية، واستيراده الجرافات ومعدات البناء الأخرى. كان الأقرب من حكمتيار وسياف. ويرى

معارف بن لادن في بيشاور، أنّه راع شاب ولين الطباع وحسن السلوك، وفوق كل شيء فهو راع ثري ومدهش للقضايا الجهادية المستحقة. عمل على تربية الشيوخ الصغار. لم يكن خطيباً، بل كان زائراً متبرعاً كريماً للمستشفيات ودُور الأيتام، ودائم التردد إليها والاطمئنان إلى أحوالها، وعضواً هاماً في مجموعة مناقشة داخل المجتمعات العربية الراديكالية في بيشاور.

كان بن لادن يمتطي الجياد من أجل المتعة، ويقوم بذلك أحياناً عند الحدود القبلية الشرقية. إلا أنّه كان في معظم الوقت، يحبّذ عيش حياة تملؤها اللقاءات وحفلات الشاي في منازل إسمنتية رطبة، حيث غرف الاستقبال التي تحيط بها الوسائد تعجّ بالتجار الكويتيين الزائرين وأساتذة الشريعة السوريين. قد تمضي الأيام وهم يسترسلون في النقاشات، ويكتبون مسودة الفتوى، ويطورون المشاريع الإنسانية. لقد كان خليطاً متبدلاً من الهندسة والصدقة واللاهوت.

ويذكر صحافي عربي قابل بن لادن مراراً في بيشاور، أنّه: «يتحدّث مثل أستاذ جامعي، «سنفعل هذا، سنفعل ذاك»، كأنه على رأس طاولة اللجنة السياسية». كان أسلوبه الهادئ غير اعتيادي: «ليس متحدثاً عربياً شعبياً نموذجياً».

كانت بيشاور في أواخر العام 1986 مدينة المستودعات الموقتة والأعمال الخيرية المتضخمة والمتفجرة، بفضل الأموال والأطعمة والشاحنات والبغال والأدوية التي يتم شحنها إلى الحدود الأفغانية بكميات تبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف الكميات التي أُرسلت قبل ستة أشهر. توسعت سمات الجهاد الإنسانية مع توسع الحملة العسكرية، وبالسرعة نفسها. كانت هذه الحرب نتيجة لتوجيهات قرار الأمن القومي 166 بشكل جزئي. إلا أنّ وكالات الأمم المتحدة والجمعيات الخيرية الأوروبية، مثل منظمة أوكسفام، والإرساليات المسيحية
ووكالات الإغاثة الحكومية، مثل الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، قامت بالاحتشاد في بيشاور بعد العام 1985 من أجل بناء المستشفيات والمدارس ومراكز التغذية والعيادات وتوفير خدمات سيارات الإسعاف عبر الحدود بعد أن دفعت الحكومة الأميركية معظم تكاليفها. انتشرت هذه المشاريع على نطاق لا سابق له: فقد تمّ اتباع برنامج مدرسي تديره جامعة نبراسكا في 1300 موقع داخل أفغانستان. وقام اختصاصيو التغذية الأميركيون العلمانيون في مجمع غباري في يونيفيرسيتي تاون، برمي أكياس البذور في شاحنات عليها علم أزرق، بينما جلس المبشرون المعمدانيون الأميركيون المجاورون على مقاعد خشبية يقرأون للأطفال الأفغان باللغة الإنكليزية من كتاب العهد الجديد، في وقت كان متطوعون شبان ملتحون من بلدان الخليج العربية يقومون بالركوع والصلاة عند الحائط التالي متجهين نحو مكة.

عملت الجمعيات الخيرية السعودية الرئيسية والمنظمات المماثلة في عزلة فرضتها على نفسها، بينما قام الهلال الأحمر السعودي والاتحاد الإسلامي العالمي والهلال الأحمر الكويتي ومنظمة الإغاثة الإسلامية الدولية، بإعداد مكاتبها الخاصة في بيشاور. وبنت هي أيضاً مستشفيات وعيادات ومدارس ومراكز تغذية وخدمات طبية في ساحة المعركة بواسطة الأموال التي استمرت بالتدفق

بشكل متزايد بفضل الاستخبارات السعودية ومساهمات الزكاة السنوية من المساجد والأفراد الأثرياء. ووظّفت الجمعيات الخيرية الأوروبية، مثل جمعية أطباء بلا حدود، جرّاحين متطوعين من بروكسل وفرنسا، من أجل تأمين مناوبات قصيرة لمداواة الجرحى المقاتلين في بيشاور. وبدأت الجمعيات الخيرية الإسلامية تجنيد أطباء من القاهرة وعمان وتونس والجزائر من أجل القيام بجولات طوعية. ومنذ أن أثبت الإخوان المسلمون وجودهم القوي وسط الطبقات العاملة العربية، وعلى الخصوص بين الأطباء والمحامين المصريين، أصبحت شبكة التجنيد من أجل الأعمال الإنسانية الطوعية متضافرة مع الشبكات السياسية - الدينية التي جمعت الأموال والأسلحة من أجل القادة الأفغان الإسلاميين، مثل حكمتيار وسياف.

كان أيمن الظواهري أحد المتطوعين النموذجيين الذين وظفهم الإخوان المسلمون، وهو طبيب شاب، نجل عائلة مصرية ثرية ناشطة منذ فترة طويلة في الحركة الإسلامية. قضى الظواهري فترة في سجن القاهرة في بداية الثمانينيات بسبب مشاركته في نسج مؤامرة لاغتيال أنور السادات. وبعد إطلاق سراحه، وجد طريقه بفضل المجتمع الطبي الإسلامي التابع للإخوان المسلمين في بيشاور، وتطوع طبيباً في مستشفى الهلال الذي تموّله الكويت عند الحدود الأفغانية. ويذكر الظواهري: «رأيت أنّ هذه فرصة مناسبة للتعرف إلى أحد ميادين الجهاد الذي قد يشكّل شعبة وقاعدة للجهاد في مصر والمنطقة العربية». وبما أنّه كان متعصباً عربياً، اعتبر مصرَ «قلبَ العالم العربي، حيث يتمّ خوض معركة الإسلام الأساسية». ورأى أنّه من أجل الانتصار في الموطن، «تحتاج الحركة الجهادية إلى ميدان يلعب دور الحاضن، حيث ستكبر بذوره، ويكتسب خبرة عملية في المسائل القتالية والسياسية والتنظيمية». اعتبر أن بيشاور هي المكان المناسب، فاستقر فيها في العام 1986(249).

كان عبد الله عزام، الإسلامي العربي الأكثر شهرة في بيشاور، في الوقت الذي استقر بن لادن والظواهري في تلك المنطقة. وقد ساعد على إدارة مجلس الجمعيات الخيرية العربية والإسلامية في بيشاور. وُلد عزام في قرية قرب مدينة جنين في الضفة الغربية الفلسطينية، وحصل على شهادة دكتوراه في الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر في مصر في السبعينيات. أصبح مقرباً من المصري المنفي محمد قطب، وبدأ العمل الدنيوي بالعقائد الجهادية الراديكالية التي وضعها شقيق قطب المتوفى، سيد قطب، كما أنه اعتنقها بنفسه. وبعد أن درّس في جدة في أواخر الستينيات، انتقل إلى العمل محاضراً في الجامعة الإسلامية الجديدة في إسطنبول أسفل الهضبة حيث حرم جامعة القائد عزام. وانتقل في العام 1984 إلى بيشاور عبر طريق غراند ترانك.

أطلق عزام على المنظمة الإنسانية الجديدة التي أسسها في تلك السنة، اسم مكتب الخدمات. وعبّر هذا الاسم عن رأيه الشخصي في الجهاد الأفغاني: أراد في الدرجة الأولى مساعدة الأفغان. سافر إلى دول الخليج العربية، وألقى محاضرات أثناء صلاة الجمعة في جوامع ثرية من جدة إلى مدينة الكويت. واستخدم المساعدات المالية الخيرية المتدفقة من أجل توفير الخدمات الطبية وخدمات الإغاثة بالإضافة إلى الدعم العسكري.

أصبح بن لادن، تلميذه السابق في جدّة، مصدر أموال رئيسياً، ثمّ شريكاً في العمليات منذ بداية العام 1984. جنّدا معاً متطوعين آخرين من جميع أنحاء العالم العربي. وأعلن عزام أن بن لادن سيدفع مصاريف أي عربي يريد القتال في ساحات المعارك الأفغانية، أي ما يعادل 300 دولار أميركي في الشهر. وافتتحا في العام 1986، مكتبهما الأول في الولايات المتحدة، وسط التجمع السكاني العربي الكبير في تكسون في أريزونا(250).

بدت الحكومة الأميركية في الإجمال مؤيدة لحوافز التجنيد العربي. وأكدت أنّ لواء المتطوعين الدولي، وهو نموذج عن المتطوعين الاشتراكيين الدوليين الذين شاركوا في الحرب الأهلية الإسبانية ضدّ نظام فرانكو في الثلاثينيات، قد يوفر وسيلة لتوسيع التحالف الرسمي بين الأمم المعنية بالجهاد ضدّ السوفيات. ويذكر روبرت غايتس الذي كان نائب مدير «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت، أنّه مع وصول المزيد من العرب إلى باكستان في العامين 1985 و 1986 «حاولت «السي.آي.إيه.» إيجاد وسائل لزيادة مشاركتهم». حاول أحد المختصين في الشؤون الأفغانية، وهو تابع لاستخبارات وزارة الخارجية، أن يبرهن «أنّه علينا التعاون معهم». كان من المفترض «ألا نعتبرهم أعداء». إلا أنّ الاقتراحات لم تتجاوز قط مرحلة المحادثات. شعر ميلت بيردان في مركز إسلام آباد، بأن بن لادن «قام ببعض الأعمال الجيدة». «أنفق أموالاً طائلة في الأماكن المناسبة في أفغانستان». لم يعتبر أحد أن بن لادن «شخص محارب للولايات المتحدة». تلقت «السي.آي.إيه.» تقارير سلبية عن المتطوعين العرب من شبكات عملائها في أفغانستان ومن منظمات الإغاثة الغربية والمسيحية. وعبرت شكاواهم أنظمة البرقيات في «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية، لكنّ المسألة كانت مجرد موضوع عرضي ورد في التقارير والرسائل، ولم يتمّ تطوير أي سياسة أو خطة عمل لمعالجتها(251).

ألقى عبد الله عزام خطباً صارمة معارضة للولايات المتحدة، وسرعان ما ساعد على تأسيس حركة حماس [داخل قطاع غزة، في فلسطين المحتلة] وأصبح الأمير تركي الفيصل والاستخبارات السعودية من أهمّ داعميه. تنقل عزام في عالم منفصل عن الأميركيين الرسميين في باكستان، وكانت علاقته بعمال الإغاثة الأوروبيين الحياديين المقيمين في بيشاور، متقطعة جدّاً.

لاحظ المنتمون إلى حلقات الجهاديين العرب المغلقة، في صيف العام 1986، إشارات خلاف بين بن لادن وعزام. كان عزام شخصية قيادية، وبن لادن تلميذاً قاصراً نسبيّاً (إنّما فاحش الثراء). ولا مجال ليقوم المحمي بتحدّ مفتوح على الخصوص في بيئة تحترم المستوى الطبقي والمستوى الثقافي. كان من الواضح أنّ بن لادن يسلك اتجاهاً جديداً. وقد نتجت هذه التغيرات من غروره المتزايد من ناحية، ومن النقاشات السياسية التي تطورت في القاعات العربية في يونيفرسيتي تاون من ناحية أخرى: من هم أعداء الجهاد الحقيقي؟ الشيوعيون؟ الأميركيون؟ الإسرائيليون؟ حكومة مصر؟ ما نوع العلاقة بين الحرب الأفغانية وأهداف جماعة الإخوان المسلمين العالمية؟(252).

بدأت الاستخبارات السعودية والباكستانية التعاون في مشاريع مكلفة لشقّ الطرقات وبناء المخازن على طول الحدود الأفغانية، آملة إنشاء بنية تحتية مادية للتصدي لهجمات السبتسناز السوفياتية. خصصت «الآي.أس.آي.» خلية كبيرة داخل مكاتبها في أفغانستان من أجل المشاريع الإنسانية ومشاريع الإعمار. وعندما شنّ السوفيات هجمات على طرق الإمداد على الحدود الباكستانية في العام 1984، غالباً ما كان الثوار الأفغان يفرون، فأوقف انسحابهم تدفق الإمدادات إلى القادة داخل أفغانستان، تماماً كما أراد السوفيات. صممت البنية التحتية الحدودية الجديدة، الطرقات والكهوف والمخازن ومخيمات التدريب العسكري، بطريقة تحميها من الاعتداءات السوفياتية. وسمح ذلك لـ «الآي.أس.آي.» بإنشاء مستودعات لتخزين الإمدادات وتطوير وسائل نقل ميكانيكية من أجل إدخال الأسلحة إلى أفغانستان. سافر الأمير تركي وقائد الأركان، أحمد باديب، إلى باكستان، بينما كانت المشاريع جارية على متن طائرة نفاثة من طراز غولفستريم تابعة لقسم الاستخبارات العامة. أقيمت ولائم في مقر «الآي.أس.آي.» الرئيسي على شرفهما، بينما تسلما تقارير عن تطورات الحرب أضيفت إليها رسوم بيانية وخرائط تم رسمها بمساعدة الأقمار الصناعية الأميركية. أمّا في المساء، فقد أقامت السفارة السعودية حفلات استقبال على شرف الأمير تركي، داعية الدبلوماسيين العرب ورجال الدين الإسلاميين المحليين، وفي بعض الأحيان أسامة بن لادن. وقد سافر تركي في بعض المناسبات إلى الحدود الأفغانية لتفقد المخازن والطرقات الجديدة. وبقي باديب فترة طويلة في المجمعات السكنية الآمنة التي أنشأها في بيشاور بفضل الجمعيات الخيرية السعودية الرسمية.

استعملت الجرافات التي استوردها بن لادن في هذه المشاريع المدنية والعسكرية بين العامين 1984 و 1986. وحصدت منطقتان أكبر نسبة من الاهتمام: منطقة حدودية يطلق عليها اسم باروت بيك، شرق بيشاور، حيث يقع جزء من الأراضي الباكستانية داخل أفغانستان؛ ومنطقة في الجنوب قرب ميرام شاه، وهي منطقة جبلية عبر الحدود من بلدة خوست الأفغانية. وقد عمل بن لادن في الأساس في المنطقة الأخيرة.

يذكر العميد في الاستخبارات الباكستانية، محمد يوسف: «الأموال العربية هي التي أنقذت النظام إلى حد كبير». أنفقت المبالغ الإضافية على عمليات النقل، وعلى البنية التحتية الحدودية، وعلى دعم القادة والأحزاب الأفغانية الإسلامية المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين. وجذب جلال الدين حقاني المتطوعين ونظّمهم وحارب في منطقة
حدودية «غارقة في الفساد»، تسكنها قبائل عدوانية ومحافظة اجتماعياً من الباشتون، كما وصفها أميركي سافر إلى هناك. كان حقاني رجلاً نحيلاً لا يحلق لحيته، ويتزنّر بحزام يضع فيه ذخيرة أسلحة هجومية، وأصبح في أواخر الثمانينيات القوة الهجومية الرئيسية المعارضة للشيوعية حول خوست. تغنى الدعاة الدينيون المتقاعسون في الجوامع المدنية الثرية في السعودية، بحقاني، معتبرين إياه مقاتلاً مؤمناً. وقد أصبح لاحقاً بطلاً عسكرياً زميلاً للناشطين الوهابيين. أدار مكاتب لجمع المساعدات المالية في دول الخليج العربية، واستقبل متطوعين جهاديين عرباً صغاراً في السن في أرضه القبلية. أصبحت المناطق الحدودية الأقرب إلى باكستان مقاطعة لشبكات متداخلة من ضباط الاستخبارات الباكستانية والمتطوعين العرب والمدرسين الوهابيين، ويعود ذلك جزئياً إلى رعاية حقاني.

رأى عبد الله عزام أن بناء بعض الكهوف والطرقات خسارة للأموال، بينما أراد بن لادن إنفاق مبالغ كبيرة على تشييد عيادة في قرية حدودية أفغانية بعيدة في مقاطعة باكتيا، يطلق عليها اسم جاجي. بنى العيادة البسيطة في كهف محصن في المنطقة نفسها حيث ساهم بن لادن في شقّ الطرق. ويذكر أحد المتطوعين العرب: «شعر عبد الله بأنه بوجود تسع وعشرين أو ثلاثين مقاطعة في أفغانستان، لمَ تبذير هذه الأموال في مكان واحد حدودي معقّد يقع تقريباً داخل باكستان؟».

توسعت طموحات بن لادن: أراد الحصول على مجمع جاجي كي يبني معسكره الخاص للمتطوعين العرب: مخيماً يخضع لقيادته. افتتح منشآته التدريبية الأولى في العام 1986، متبعاً نموذج المعسكرات المبنية على الهضاب القاحلة التي تديرها الاستخبارات الباكستانية. تعلّم الجهاديون العرب الحديثو السن استعمال الأسلحة الهجومية والمتفجرات وأجهزة التفجير، واستمعوا إلى قراءات تشرح سبب استدعائهم إلى القتال. وأعلنت بعض التقارير أنّ بن لادن أطلق على مخيمه الأول اسم «عرين الأسد»، بينما أكّدت تقارير أخرى أنه أطلق عليه اسم «الأنصار»، وهو اللقب الذي أُطلق على أتباع النبي محمد الأوائل. وعلى الرغم من تحفظات عبد الله عزام، أعلن أنّه سيمضي في مشاريعه الأخرى في جاجي.

قال بن لادن لمعلمه: «إن شاء الله، أطلعْك على مخططاتي»(253).

شارف الجهاد الأفغاني المحارب للسوفيات النهاية، لكن لم يدرك أحد هذا الأمر، أو فهم السبب، بمن فيهم بن لادن أو «السي.آي.إيه.».

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1986، التقت الدائرة الداخلية التابعة للمكتب السياسي السوفياتي، سراً خلف أسوار الكرملين، المصلح الغامض والمتبجح والطموح الذي تسلم الحكم قبل عشرين شهراً وفقاً لأوامر ميخائيل غورباتشيف.

شرح الماريشال سيرغي أخروميف، رئيس أركان القوات السوفياتية المسلحة، أن الجيش الأربعين نشر حتى الآن خمسين ألف جندي سوفياتي لغلق الحدود بين باكستان وأفغانستان، «لكنهم لم يتمكنوا من إغلاق جميع قنوات تهريب الأسلحة». واستمرت مجموعات البغال بالتدفق، وبدأ شق طرقات معبدة. لم تظهر أي بوادر حل عسكري واقعي.

لاحظ غورباتشيف أنّ «الناس يتساءلون: «ماذا نفعل هناك؟». هل سنبقى هناك إلى الأبد؟ هل علينا وضع حدّ لهذه الحرب؟».

وأجاب غورباتشيف نفسه: «سنُلحق العار بأنفسنا في جميع علاقاتنا» في حال لم ينسحب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان. فكر ملياً في المشكلة الأفغانية منذ توليه منصبه بحضور الدائرة الداخلية التابعة للمكتب السياسي ومستشاريه في عملية الإصلاح (البريسترويكا) المقربين منه. وأشار علناً إلى الحرب مستخدماً عبارة «جرح ينزف» في بداية العام 1986. وعندما فشل الجيش الأربعون في إحراز تقدم على الأرض، تجرأ غورباتشيف على طرح حل بديل: ترك أفغانستان بأكملها. بدت المسألة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر مسألة توقيت بشكل أساسي. أخبر غورباتشيف زملاءه في ذلك اليوم أنّ: «هدف الاستراتيجية هو إنهاء الحرب في سنة أو سنتين إلى أبعد حدّ، وسحب القوات من أفغانستان». «لقد وضعنا هدفاً واضحاً: المساعدة على تسريع العملية كي نحصل على بلد صديق حيادي، ومن ثم الانسحاب من هناك»(254).

كانت هذه إحدى محادثات المكتب السياسي الأكثر أهمية بشأن الحرب الباردة. لكن «السي.آي.إيه.» لم تكن على علم بالأمر. لم يطّلع الأميركيون على قرار غورباتشيف إلا بعد سنة. فهم محللو الوكالة وأقسام أخرى من المجتمع الاستخباري الأميركي، بعض الضغوطات القوية التي واجهها غورباتشيف والقيادة السوفياتية في ذلك الوقت. فقد كان اقتصاد الاتحاد السوفياتي على شفير الهاوية. وأصبحت إنجازاته التقنية متخلفة مقارنة بالغرب الذي يعتمد بصورة أساسية على أنظمة الحواسيب. وأخذ الشعب يتوق إلى سياسات طبيعية ومنفتحة أكثر من ذي قبل. وتحدث المحللون عن بعض هذه الضغوطات في تقاريرهم السرية. لكن في الإجمال، فهم محللو «السي.آي.إيه.» مشاكل الاتحاد السوفياتي
الداخلية، إنما لم يفهم صانعو السياسات في إدارة ريغان بسرعة، تصميم غورباتشيف و «مُصلحيه»، على فرض تغييرات جذرية. فقد اعتبر الطرفان أن أفغانستان حقل تجارب.

استحوذ مجلس الأمن القومي أثناء الجدالات التي جرت في وقت سابق في واشنطن حول الجهاد الأفغاني، على تقرير استخباري دقيق حول محادثات تجري داخل المكتب السياسي في أفغانستان. وفقاً لهذا التقرير، الذي صُنف سرياً إلى أقصى درجة، والذي عُرف في ذلك الوقت باسم «فايل»، قرر غورباتشيف عندما تسلم السلطة في ربيع العام 1985، أنه سيمنح جنرالات الاتحاد السوفياتي المتشددين سنة أو سنتين من أجل الفوز في الحرب. وبرّر هذا التقييم التصعيد الذي اتبعه الأميركيون في الردّ، لكن تبين لاحقاً أن المعلومات الاستخبارية التي وردت في «الفايل» مجرد جزء منعزل ومضلّل. ربما كان التقرير دقيقاً عندما نُشر، لكن في خريف العام 1986، تجاوزت مخططات غورباتشيف التي تقضي بالاحتشاد من أجل الانسحاب، سياسة المكتب السياسي التي يصفها التقرير(255).

فهم محللو «السي.آي.إيه.» الضغوطات التي يعانيها المجتمع السوفياتي أفضل مما فهموا القرار الذي تمّ اتخاذه. لم تعلم الوكالة بما جرى في الحقيقة داخل المكتب السياسي إلا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. اعترف روبرت غايتس، أحد محللي «السي.آي.إيه.» الرئيسيين المعنيين بالشؤون السوفياتية بعد سنين: «كانت تقاريرنا اليومية دقيقة، إنّما انحصرت في قلة المعلومات الداخلية التي

حصلنا عليها بشأن السياسات العالية المستوى». «أشرفنا على أحداث معينة، لكننا لم نتراجع في غالب الأحيان من أجل الحصول على نظرة أوسع»(256).

ساعد هذا الأمر على إدراك أنّ وضع الاتحاد السوفياتي في حالة تدهور إلى درجة أنّه شارف الانهيار. شكّك بعض محللي الوكالة باستمرار في مصداقية غورباتشيف كمصلح، تماماً كما فعل ريغان ونائبه جورج بوش وكايسي ووزير الدفاع كاسبار واينبورغر ومستشارون رئاسيون أساسيون آخرون. لم تأخذ واشنطن ولانغلي بالحسبان جميع الأدلة التي تشير إلى أن القوة السوفياتية تضعف، حتى وإن برزت المعطيات بشكل واضح. واستمرّ محللو «السي.آي.إيه.» المعنيون بالشؤون الأفغانية بكتابة تقارير تفيد بأنّ موسكو قوة موحدة تزداد قدرة أكثر فأكثر، ولم تفرض أي عقوبات أثناء حكم كايسي على الالتحاق باليمين الأيديولوجي. واعتبر بعض ضباط الاستخبارات أنّ كايسي سيّس جزئياً محللي «السي.آي.إيه.». أمّا في مديرية الاستخبارات التابعة لـ «السي.آي.إيه.» وعلى الخصوص في القسم المعني بالشؤون السوفياتية وقسم الشرق الأدنى، فقد ارتكزت حياة المحللين العملية وبرامجهم وميزانياتهم وخططهم المستقبلية على وجود عدو شيوعي قوي وصامد في موسكو. كما تقيدت إدارة ريغان بإيمانها بالقوة السوفياتية، وارتيابها من إصلاحات غورباتشيف.

وفي الوقت الذي كان غورباتشيف يقرر سرّاً بدء انسحاب قواته المسحوقة من أفغانستان، نشرت مديرية الاستخبارات التابعة لـ «السي.آي.إيه.» تقريراً يفيد أن الحرب الأفغانية «لم تكن بمنزلة استنزاف دائم للاقتصاد السوفياتي»، وأن موسكو «أبدت استعدادها المتواصل لتحمل الأعباء اللازمة». وفي مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، «تبيّن حتى الآن أنّ الحرب قد تستمر إلى ما لا نهاية، أو أن السوفيات قد يكونون على حافة الفوز فيها»(257).

استدعى غورباتشيف «رجله» الأفغاني، الرئيس نجيب الله، إلى موسكو نهار جمعة في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر العام 1986. كان نجيب الله طالباً في كلية الطبّ في جامعة كابول عندما كان حكمتيار يدرس الهندسة فيها. كان وطنياً أفغانياً مقبولاً أكثر من بعض الاختيارات التي قامت بها «الكي.جي.بي.» في السابق. كان ينتمي إلى قبيلة غيلزاي الباشتونية، بينما تعود جذوره إلى شرق أفغانستان. وتحدرت زوجته من عائلات قبلية ذات روابط ملكية. ازدادت ثقة نجيب الله بنفسه وأخذ يتحدث بفعالية. إلا أنّ العائق الأساسي الذي كان أمامه بصفته قائداً وطنياً، هو أن معظم المواطنين اعتبروه قاتلاً جماعياً.

طلب غورباتشيف سراً من نجيب الله محاولة تقوية موقفه السياسي في أفغانستان، مستبقاً الانسحاب الكليّ للقوات السوفياتية في فترة تراوح بين ثمانية عشر شهراً إلى سنتين(258).

وبينما بادر غورباتشيف إلى إقامة محادثات دبلوماسية هادئة لتمهيد طريق للانسحاب، صُعق عند اكتشافه أن الأميركيين قد لا يريدون التفاوض بشأن قضية أفغانستان، أو مستقبل آسيا الوسطى

على الإطلاق. بقوا مصممين على جهادهم العسكري، ولم يأخذوا احتمال الانسحاب السوفياتي على محمل الجدّ، ما أثار في بعض الأحيان غضب غورباتشيف. وقال لدائرته الداخلية: «وضعت الولايات المتحدة لنفسها هدف تعطيل عملية التسوية في أفغانستان بأي وسيلة». ماذا كانت خياراته؟ أراد بأي وسيلة وضع حدّ للتدخل
السوفياتي. شكك في إمكانية خوض الأفغان الحرب بمفردهم، لكنه أراد من خلال أي تسوية الحفاظ على قوة السوفيات واعتبارهم. رأى أنّ: «ملايين الجنود دخلوا أفغانستان»، «ولن نتمكن من أن نشرح لشعبنا لمَ لمْ نكمل الأمر. كابدنا خسائر فاضحة، من أجل ماذا؟»(259).

في 15 كانون الأول/ديسمبر العام 1986، نهار الاثنين الذي تلا لقاء غورباتشيف السري نجيب الله، وصل كايسي إلى مقرّ «السي.آي.إيه.» الرئيسي ليهيئ نفسه كي يشهد أمام جلسة مجلس الشيوخ المقبلة حول فضيحة «إيران - كونترا». عند الساعة العاشرة، بينما قاس طبيب «السي.آي.إيه.» ضغط دمّه في مكتبه، بدأت يد كايسي اليمنى ورجله بالارتعاش بقوّة. ثبّته الطبيب في كرسيه.

سأله كايسي بيأس: «ما الذي يصيبيني؟».

أجابه الطبيب: «لستُ متأكداً». حضرت سيارة إسعاف ونقلته إلى مستشفى جورج تاون. تتالت النوبات القلبية. وأظهر التصوير الطبقي كتلة عند الجانب الأيسر من دماغه.

لم يتعافَ كايسي قط. زاره نائبه روبرت غايتس في غرفته في المستشفى بعد شهر. قال مدير «السي.آي.إيه.»: «حان الوقت كي أتنحى». عاد غايتس في اليوم التالي بصحبة المحامي العام إيدوين ميسي وقائد الأركان في البيت الأبيض دونالد ت. ريغان، وهو مدير تنفيذي سابق في وول ستريت، ذو شعر فضي اللون.

اغرورقت عينا كايسي بالدموع، وبالكاد استطاع التحدث. حاول ريغان أن يسأله عن مستقبل «السي.آي.إيه.». ويذكر ريغان: «كلّ ما سمعته هو أصوات غير مفهومة». ففسرت زوجة كايسي، صوفيا، أقواله: «بيل، أنت تعني «أحضر أفضل رجل تستطيع إيجاده»، أليس كذلك؟».

تدخل ريغان: «بيل، ما تقوله هو أنّك تريدنا أن نحلّ مكانك، أليس كذلك؟». أصدر كايسي المزيد من الأصوات غير الواضحة. فقال ريغان: «هذا كرم كبير منك، وربما يأتي في مصلحة الجميع». فانهمرت دموع كايسي من جديد. يسترجع كايسي ذكرياته قائلاً: «أمسكت يده. كان الأمر قد انتهى». «إلا أنه لم تجر أي محادثة حقيقية»(260).

عمل كايسي مديراً لـ «السي.آي.إيه.» مدة ست سنين ويوم واحد. وبعد مضي أربعة أشهر، توفي في مقرّه في لونغ آيلند في سنّ يناهز الرابعة والسبعين.

بمرور السنة، خطط العميد محمد يوسف، رئيس العمليات الأفغاني في «الآي.أس.آي.»، الذي كان أحد الأشخاص الأكثر إعجاباً بكايسي، للقيام بهجمات جديدة داخل الأراضي السوفياتية عبر الحدود. قال يوسف إنه سمع كايسي يؤيدها.

في نيسان/أبريل العام 1987، مع ذوبان الثلج، عبرت ثلاث فرق مجهزة من «الآي.أس.آي.» أموداريا سراً إلى داخل وسط آسيا السوفياتي. أطلق الفريق الأول صاروخاً على مطار قرب تيرميز في أوزباكستان. وتلقى الفريق الثاني، وهو مجموعة من حوالى عشرين مقاتلاً مجهزاً بقاذفات صواريخ وألغام مضادة للدبابات، تعليمات من «الآي.أس.آي.» تقضي بنصب كمائن قاتلة على طول الطريق الحدودي، فتمكنت هذه المجموعة من تدمير عدد من العربات السوفياتية. أما الفريق الثالث، فقد أصاب موقع مصنع على بعد أكثر من عشرة أميال داخل الاتحاد السوفياتي بواسطة وابل من القذائف القوية المحرقة التي يبلغ عيارها 107 مليمترات. شُنّ الهجوم في الوقت الذي كانت «السي.آي.إيه.» تنشر في واشنطن صوراً التقطها القمر الصناعي تُظهر أعمال شغب في شوارع ألما آتا، عاصمة أوزبكستان في وسط آسيا السوفياتي(261).

رن بعد بضعة أيام، جرس هاتف بيردان الآمن في مركز إسلام آباد. كان كلير جورج، رئيس مديرية العمليات التابعة لـ «السي.آي.إيه.»، على الخط يتحدث بصوت رسمي وموزون.

قال: «أريدك أن تفكر ملياً قبل أن تجيبني عن سؤالي. هل كنت متورطاً بأي طريقة كان، بالاعتداء الذي شُن على موقع صناعي داخل الاتحاد السوفياتي... في أوزباكستان... في وقت ما من الشهر الفائت؟».

قال بيردان بتأنّ مماثل: «في حال حدث شيء من هذا القبيل، لا دخل لنا به».

علم أن القانون الأميركي يحظر تدخله في عمليات مماثلة تخطت كثيراً نطاق صلاحيات «السي.آي.إيه.». كانت قضية «إيران - كونترا» والتحقيقات المتعلقة بها في أوجها. تعرضت الوكالة للنيران السياسية بطريقة لم تعهدها منذ السبعينيات. زحف المحامون في جميع أنحاء مديرية العمليات، ورأى بيردان وكلير، اللذان واجها معضلات مماثلة من قبل، أنه ما إن تسلم «السي.آي.إيه.» الأسلحة إلى الاستخبارات الباكستانية، حتى تفقد ملكيتها وبالتالي المسؤولية القانونية المترتبة على استعمال هذه الأسلحة. وقال بيردان: «نؤكد من موقعنا أنه ما إن يتسلم الباكستانيون البضاعة، حتى نفقد سيطرتنا عليها».

ضاق السوفيات ذرعاً بالاعتداءات التي تُشَنّ على أرضهم. وبعدما أحصوا عدد القتلى في وسط آسيا في شهر نيسان/أبريل، أوفدوا مرسلين يحملون إنذارات صارمة إلى إسلام آباد وواشنطن. هددوا «أمن باكستان ووحدتها»، وهو تعبير لطيف يعني غزوها. أكّد الأميركيون لموسكو أنهم لم يسمحوا قط للجهاديين الأفغان بشنّ هجمات عسكرية على الأراضي السوفياتية. وأرسل ضياء الحق من مقر الجيش الرئيسي في إسلام آباد برقية إلى يوسف يُطلعه فيها على ضرورة سحب فرقه. أشار يوسف إلى أن هذا الأمر قد يكون صعباً، فلا أحد من بين مقاتليه الأفغان يملك جهاز اتصالات. إلا أنّ رؤساءه في «السي.آي.إيه.» اتصلوا به يوميّاً ملحين عليه: أوقف الاعتداءات.

اتصل بيردان بيوسف من أجل اتخاذ تدابير جديدة وعاجلة. قال له: «رجاءً، لا تبدأ حرباً عالمية ثالثة»(262).

انتهت الاعتداءات. وكانت هذه الانتصارات الأخيرة التي يشهدها كايسي.

في ذلك الشهر، وبعد أن تخلصت القوات السوفياتية في أفغانستان من ثلوج الشتاء، اتجهت شرقاً من جديد، وشنت هجمات على الممرات الجبلية قرب خوست. وفي 17 نيسان/أبريل 1987، أصابت المروحيات السوفياتية والطائرات الحربية مجمع بن لادن الجديد والمحصن في جاجي، وهو مجموعة من الفجوات والكهوف الصغيرة المحفورة في هضاب صخرية فوق القرية الحدودية.

استمرت المعركة مدة أسبوع تقريباً. واجه بن لادن وخمسون متطوعاً عربياً قوات روسية من مئتي جندي بمن فيهم قوات «سبيتناز». تعرض المتطوعون العرب لإصابات، لكنهم صمدوا تحت النيران الكثيفة أياماً عديدة. قُتل أكثر من عشرة رجال من بين رفاق بن لادن كما عانى بن لادن نفسه جرحاً في قدمه. واستدعت حالته حقنه مراراً بالأنسولين، وأُجبر على الاستلقاء من وقت إلى آخر أثناء القتال. وفي النهاية، استنتج بعض الناجين أنهم لن يتمكنوا من الدفاع عن موقعهم مدة أطول، لذا انسحبوا(263).

طبعت معركة جاجي ولادة شعبية بن لادن كمحارب بين الجهاديين العرب، وقد تحدث عنها يوميّاً عدد من الصحافيين العرب الذين راقبوا المعركة عن بعد ميل أو ميلين. عندما تحدث ونستون تشرشل عن معركة خاضها في العام 1897 مع الجيش البريطاني على مقربة من خيبر باس، لاحظ أنه ما من إثارة أكبر من تعرض المرء لإطلاق النار من دون أن يصاب. يبدو أن بن لادن عاش التجربة نفسها. وبعد جاجي، بدأ حملة إعلامية مخصصة لنشر قصص المعركة الشجاعة التي خاضها المتطوعون العرب الذين تصدوا لقوة عظمى. وفي المقابلات والخطب التي ألقاها بن

لادن في مناطق تحيط ببيشاور، وفي السعودية، سعى إلى تجنيد مقاتلين جدد للدفاع عن قضيته، وتأريخ دوره الشخصي كقائد عسكري. كما بدأ عرض أهداف جديدة توسعية من أجل الجهاد.

قام أيمن الظواهري، الطبيب المصري الذي اعتبر الحرب الأفغانية «حاضنة»، والذي كتب عن الشعب الأفغاني بتعال لم يكابد عناء حجبه، بمقابلة بن لادن للمرة الأولى أثناء حملته الإعلامية العام 1987. يذكر الظواهري أنّ بن لادن زار المستشفى الكويتي حيث يعمل، و «حدّثنا عن المحاضرات التي يلقيها». تحدث بن لادن علناً عن الحاجة إلى جهاد عالمي، ليس ضد الاتحاد السوفياتي فقط، بل أيضاً ضد حكومات الشرق الأوسط العلمانية «الفاسدة»، وضد الولايات المتحدة وإسرائيل. أصغى الظواهري إليه. ويذكر أنه قال لبن لادن: «بدءاً من الآن، عليك تغيير أسلوب حرسك. عليك تغيير نظام الأمن بأسره، لأنك مطلوب من قبل الأميركيين واليهود، وليس فقط من قبل الشيوعيين والروس، فقد ضربت رأس الأفعى»(264).

أرسل بن لادن شريطاً مصوراً مدته خمسون دقيقة يظهر فيه وهو يمتطي الأحصنة، ويتحدث إلى المتطوعين العرب، ويتكلم عبر الجهاز اللاسلكي، ويطلق النار من الأسلحة، وهي نشاطات يقوم بها عادة عدد كبير من القادة يومياً من دون تصويرها على أشرطة الفيديو. وسعى وراء الصحافيين العرب، وقام بمقابلات طويلة هدفت «إلى استغلال الإعلام من أجل جذب العرب، وتجنيد المزيد منهم، وحثّهم على القدوم إلى أفغانستان». كانت هذه ولادة استراتيجية بن لادن الإعلامية التي تتوجه أولاً إلى العالم الذي يتحدث العربية. استوحى جزئياً بعض التكتيكات الإعلامية التي أطلقها الراديكاليون والقوميون الفلسطينيون العلمانيون في السبعينيات والثمانينيات.

امتعض عبد الله عزام سرّاً من حملة بن لادن. واقتبس زميل كان في بيشاور في ذلك الوقت، كلام عبد الله عزام قائلاً: «أترى ماذا يفعل أسامة، إنه يجمع الشبان ويدرّبهم». «هذه ليست سياستنا أو خطتنا. أتينا لخدمة هذا الشعب، ولهذا السبب يسمى مكتب الخدمات... إنه يجمع الشبان الذين لا يحبذون مشاركة الشعب الأفغاني، وينظمهم». ويذكر هذا المشارك أنّ بن لادن «كان يسكن في بيشاور. ويصدر الفتاوى ضدّ هذا القائد وتلك الحكومة، ويلعب
في السياسات»(265).

انضمّ بن لادن إلى المعركة. لم يُظهر في الأشهر التي تلت اهتماماً كبيراً بالعودة إلى ساحة المعركة، إلا أنّه عثر على استراتيجية اتصالات أكثر توسعية من مكوثه في جاجي الذي دام أسبوعاً.

أدّت وفاة كايسي إلى حدوث تغييرات في الشراكة بين «السي.آي.إيه.» وباكستان. ضغطت الولايات المتحدة على ضياء الحق الذي بدأ التخفيف من حدّة القوانين والإجراءات العسكرية في باكستان. عيّن رئيس وزراء مدنياً، سرعان ما تحدى سياسات الجيش الأفغاني. وبعد مرور أعوام على تسلُّم أخطار مركز مدير استخبارات ضياء الحق، طالبه بترقية فكافأه ضياء الحق بلقب

رسمي تقديريّ. عيّن ضياء الحق القائد حميد غول رئيساً جديداً لـ «الآي.آس.آي.»، وهو شخص متقلّب ومتملّق يتحدّث الإنكليزية بطلاقة. رفض محمد يوسف الترقي إلى رتبة لواء، واستقال في الربيع نفسه من مركزه بصفته قائداً للعمليات في مكتب «الآي.أس.آي.» السري المعني بالشؤون الأفغانية. وتسلم مركزه العميد جانجوا، فورث عملية ذات تمويل لا سابق له، وذات إدارة على وشك الانهيار.

انتهت العلاقات الشخصية التي كانت تربط بين «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» في سنيّ الجهاد الأولى. وبالعودة إلى واشنطن، اتّخذت «السي.آي.إيه.» وضعية دفاعية سياسية. انهارت سمعة كايسي التي انتشرت بعد وفاته تحت وطأة التهم التي وُجهت إليه في قضية إيران وكونترا. بدا الآن أنّ كل ما لمسه كان ملوثاً بالفساد. تورط في الحرب الأفغانية عدد أكبر من ضباط البنتاغون وأعضاء الكونغرس وباحثون في مراكز دراسات استراتيجية وصحافيون ودبلوماسيون، فأصبح خطّ الإمدادات الجهادي الذي أسسه أربعة أو خمسة رجال، وأداروه سنين عديدة، عمليةً شارك فيها المئات.

طُرحت للمرةّ الأولى في واشنطن أسئلة حادّة حول اهتمام الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» بالقادة الأفغان الذين يتمتعون بعقيدة إسلامية راديكالية. طرحت هذه الأسئلة أولاً من قبل علماء وصحافيين وأعضاء مرتابين تابعين للكونغرس. لم يطرحوا أسئلة حول المتطوعين الجهاديين العرب، فبالكاد أدرك وجودَهم بعضُ الأشخاص من خارج لانغلي، وخارج المكاتب الإقليمية ومكاتب الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية. وبدلاً من ذلك، شككوا في قدرتهم على الاعتماد على حكمتيار، الذي تسلم مئات ملايين الدولارات كمساعدات من مسددي الضرائب في أميركا، لكنه رفض السفر إلى نيويورك لمصافحة رونالد ريغان، معتبراً إياه غير وفي. لمَ كانت «السي.آي.إيه.» تدعمه إذاً؟ أثار منافسو حكمتيار في المعارضة الأفغانية، هذه الأسئلة، ومن بينهم أفراد فصائل أفغانية وأبطال قضية مسعود.

أجاب ضباط في قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» عن هذه الأسئلة، متبعين وضعية دفاعية أثناء جلسات الاستماع والمحادثات المغلقة التي عُقدت بين الوكالات الداخلية في الكابيتول هيل. دافعوا بصرامة عن دعم «الآي.أس.آي.» لحكمتيار الذي حشد في ساحة المعركة المقاتلين الأكثر فعالية ضد السوفيات. عاملوا الأفغان الذين يتوقون إلى عودة الحكم الملكي إلى أفغانستان، والموالين لأميركا وأمثالهم، كسياسيين جبناء غير قادرين على إيجاد حلّ عمليّ لمعركة مسلحة. كما رفضوا التهم التي تفيد أن «الآي.أس.آي.» تخصص لحكمتيار موارد «متفاوتة». ومارس الكونغرس ضغطاً كبيراً نتجت منه سلسلة من التدقيقات السرية الثائرة والغامضة، فسافر أعضاء منه إلى إسلام آباد لدراسة السجلات التي يحتفظ بها مركزا «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» من أجل تحديد نوع السلاح الذي سيحصل عليه كلّ قائد أفغاني.

امتعض بيردان وقائد العمليات الأفغانية في «السي.آي.إيه.»، فرانك أندرسون، من هذه الانتقادات، وشعرا بأنّهما كرّسا ساعات طويلة ومملّة كي يتأكدا من حصول حكمتيار على خُمس مجموع الإمدادات التي تسربت عبر مخازن «الآي.أس.آي.»، أو ربعها. تسلم القائد التابع لمسعود والمتمركز في بيشاور، الأستاذ الجامعي السابق، برهان الدين رباني، من خطوط الإمدادات الرسمية، الكميةَ نفسها التي تسلمها حكمتيار، على الرغم من أنّه لم يمرر سوى كمية صغيرة منها إلى وادي بانشير. تسلمت الأحزاب الأفغانية المقربة من النظام الملكي السابق كمية قليلة نسبيّاً من الإمدادات، إلا أنّ ضباط «السي.آي.إيه.» أصروا على أنّ هذه الحرب لم تنتج من محاولة الباكستانيين التلاعب بالسياسة الأفغانية من خلال دعم الإسلاميين، بل بسبب ضعف حلفاء الملكية السابقة، كمقاتلين ميالين إلى الفساد.

كانت دفاعات «السي.آي.إيه.» الإحصائية دقيقة إلى حد كبير، لكنّها لم تحتسب من بين أمور أخرى كميةَ التمويلات السعودية والعربية الهائلة التي انحرفت عن مسارها في اتجاه الإسلاميين، والتي بلغت قيمتها 25 مليون دولار وفقاً لتقديرات بيردان. كما لم تحتسب الشراكة التكتيكية والاستراتيجية الوثيقة القائمة بين الاستخبارات الباكستانية والإسلاميين الأفغان، وعلى الخصوص على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية(266).

تخلصت «الآي.أس.آي.» في أواخر الثمانينيات من جميع الأحزاب العلمانية واليسارية والملكية السياسية التي تشكلت عندما هرب اللاجئون الأفغان من الحكم الشيوعي. وبرغم ذلك، دافع بيردان عن استراتيجية «الآي.أس.آي.» بصرامة أمام كلّ وفد زائر من الكونغرس، وأثناء المناظرات في السفارة، وولائم الغداء السياحية في الجبال المطلّة على بيشاور. بقي بيردان يردد أنّ المهمة تقضي بقتل السوفيات. قتل قلب الدين حكمتيار السوفيات، بينما ملك أفغانستان، الذي يلفّ المعكرونة على ملعقته خارج روما، لم يقتل أي واحد منهم. ولم تكن «السي.آي.إيه.» ستسمح «لسفلة الفن الليبراليين» بإدارة جهادها(267).

كانت مواقف باكستان متقلبة باستمرار. أصبح مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية، إحدى أقوى وحدات الجيش الباكستاني وأكثرها ثراءً، فغار المكتب على امتيازات الجيش وحرسها. رأى زملاء جونجوا في «السي.آي.إيه.»، أنّ رئيس العمليات الجديد، إسلامي مؤمن وأكثر تديّناً من الضباط النموذجيين في الجيش الأفغاني. أدار ضابط كبير من قبيلة الباشتون المكتب الأفغاني المحلي في بيشاور، فاكتسب لقب الإمام العقيد. كان مقرباً جدّاً من حكمتيار، وبدأ على مرّ السنين توضيح آرائه المتأثرة بالإخوان المسلمين في أحاديث خاصة مع نظرائه في «السي.آي.إيه.». أمّا في خطوط «الآي.أس.آي.» الأمامية، فقد أصبحت القضية الأفغانية مسألة إيمان حقيقي بالنسبة إلى الضباط الأفغان المعنيين، ومهمة متضخّمة مزجت بين الكفاءة السياسية والإيمان الديني(268).

بعد أن طبقت الاستخبارات الباكستانية نظرة ضياء الحق، صممت على إقامة نظام حليف في كابول يؤدي إلى إرساء الهدوء عند الحدود الباكستانية الغربية، غير المستقرة تاريخياً. كان الإسلام السياسي أيديولوجيا القادة العسكريين الباكستانيين التي يتعاملون من خلالها مع الفصائل الأفغانية، وكان حكمتيار حليفهم الرئيسي. تصور العمداء والعقداء في «الآي.أس.آي.» أن التأثير الباكستاني سينتشر شمالاً وشرقاً إلى ما وراء أفغانستان في اتجاه وسط آسيا السوفياتي. لم يحاول قط الضباط الرئيسيون من قبيلة الباشتون، أمثال «الإمام»، إدارة أعمالهم من خارج المكتب الأفغاني. بل بقوا فيه ولم يتزحزحوا من أماكنهم. لم ينجحوا في محاولاتهم جمع مئات الملايين وتكديسها في حسابات البنوك السويسرية، فقد كانت رقابة كل من «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» صارمة جدّاً في ما يتعلق بهذه المسألة. إلا أنه في حال انحرف ضابط ما، فسيجد فرصاً كثيرة تتيح له بيع إحدى شاحنات التويوتا التي استوردتها «السي.آي.إيه.» والاستفادة من ثمنها، أو تقاضي عمولة جراء تسهيل عمليات التهريب المحلية وعمليات تصنيع المخدرات. لم يكن تدفق المعطيات كافياً للتحقق مما إذا كان الرائد أو اللواء نفسه قد توجه إلى كاراتشي، أم إن كان يوجد احتمال أسوأ من ذلك، بالتوجه إلى وحدة سلاح مدفعي مواجهة للهند في منطقة رجستان الصحراوية المهجورة.

كان القائد الأفغاني، عبد الحقّ، أحدّ الذين أثاروا شكوكاً صارخة حول الاستخبارات الباكستانية، وقد أصبح لاحقاً شخصية معروفة بين الصحافيين الأميركيين الذين يغطون الحرب من بيشاور. منذ أن خسر عبد الحق إحدى رِجليه في حقل ألغام في مهمة قرب كابول، أصبحت أسفاره الداخلية محصورة أكثر من السابق. تعاون مع مصوري محطة «السي.بي.أس.» التلفزيونية من أجل تصوير الاعتداءات الصاروخية التي شُنّت حول كابول. ورافق الصحافيين إلى الحدود، وسافر إلى واشنطن سعياً وراء الدعم. كان القائد الأكثر مصداقية وانفتاحاً الذي أبلغ عن تلاعب «الآي.أس.آي.» في السياسات الأفغانية. طرح أسئلة عديدة، منها: لمَ على المرحلة الأخيرة من الجهاد أن تكون مصمَّمة لخدمة المصالح الباكستانية؟ خسر ملايين الأفغان حيواتهم، ونُفي مئات الآلاف من رجال الفكر ورجال الأعمال والقادة القبليين. لمَ صممت «الآي.أس.آي.» على منع القادة الوطنيين في البلاد من الشروع في وضع نظام سياسي أفغاني لفترة ما بعد الحرب، يحمي المصالح الأفغانية؟ استشاط بيردان غضباً لأنّ عبد الحق صبّ تركيزه على العلاقات العامة. ففضح رئيس مركز «السي.آي.إيه.» أمره سرّاً، وأقصاه عن شبكة الوكالة الأحادية الجانب. رأى فرانك أندرسون في لانغلي، أنّ عبد الحقّ «قائد جيّد، كما أنّه فعّال بشكل خاص في العلاقات العامة»، ولم يكن لديه «عدد كبير من جوائز النصر» مثل القادة المفضلين عند «السي.آي.إيه.» التي قلما صرحت عنهم، أمثال جلال الدين حقاني، الإسلامي المتدين المقرّب من بن لادن. شعر بيردان بأنّ عبد الحقّ يمضي أوقاتاً في بيشاور أكثر من وجوده في أفغانستان، وكان على الأرجح يتعامل مع وسائل الإعلام. «أظنّه سمع أنّني بدأت، لسوء الحظ، بمناداته «النجم عبد حقّ»، فبلغه هذا الأمر، وغضب مني كثيراً».

قابل بيردان حكمتيار ثلاث مرات في بيشاور. كان حكمتيار يتحدّث الإنكليزية بطلاقة. كان يتكلّم في المقابلات الخاصة بتملّق، في غالبية الأحيان. وبعد أن أصبح الجدال حول معارضته للأمركة جلياً، خشي أن تكون «السي.آي.إيه.» تسعى إلى قتله.

سأله بيردان: «لمَ قد أطلب قتلك؟».
أجابه حكمتيار: «لن تشعر الولايات المتحدة بالأمان، إن بقيتُ على قيد الحياة».

قال بيردان: «أظنّ أنّ المهندس الميكانيكي يمتدح نفسه»(269).

كتب وزير الخارجية السوفياتي، إدوارد شيفاردنادزه، تقريراً إلى فريق المكتب السياسي الداخلي في أيار/مايو حول الجهود التي بذلها نجيب الله في البداية سعياً وراء سياسة جديدة من «المصالحة الوطنية» التي قد تتفوق على الثوار الذين تدعمهم «السي.آي.إيه.». وأحرز البرنامج «نتيجة معينة، إنّما كانت متواضعة بعض الشيء».

شعروا جميعاً بالاستياء تجاه أفغانستان. كيف يُعقل وضع سياسة مصالحة وطنية من دون وطن؟ اشتكوا من عدم وجود شعور بالانتماء إلى أفغانستان، كما أنّ لا شيء يضاهي شعورهم حيال روسيا.

قال غورباتشيف: «لا يمكن أن ننسى على الإطلاق أنّه لا وجود لأفغانستان من دون إسلام». «لا بديل منه الآن. وإن بقي اسم الحزب كما هو، فلا بدّ من أن تضاف إليه كلمة «إسلامي». أفغانستان بحاجة إلى العودة إلى وضعها الطبيعي، كما يحتاج الجهاديون إلى تلقي دعوة من عامة الشعب إلى تسلم السلطة».

اتفقوا على أنّ الأميركيين يشكلون عائقاً كبيراً، إلا أنّهم كانوا بالتأكيد سيتحالفون معهم من أجل تنفيذ قرار الانسحاب السوفياتي، لو تأكدوا أن الأمر جديّ.

قد تكون بعض أهداف القوى العظمى مشتركة: رغبة في إحلال الاستقرار في منطقة آسيا الوسطى؛ ورغبة في الحدّ من التعصّب الإسلامي.

قال غورباتشيف: «لم نتقرب حقّاً من الولايات المتحدة الأميركية». «كانوا بحاجة إلى ربط اسمهم بالحل السياسي، وإلى أن تتمّ دعوتهم. هذه هي السياسة الصحيحة. ثمة فرصة هنا للنجاح»(270).

استعمل شيفاردنادزه في شهر أيلول/سبتمبر التالي في واشنطن، الثقة الشخصية التي تطورت بينه وبين وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز، من أجل الكشف للمرة الأولى عن القرار الذي اتخذه المكتب السياسي في الخريف الفائت. كان طاقماهما التفاوضيان مجتمعين في جلسة عمل لمناقشة الخلافات الإقليمية، عندما تحدّث شيفاردنادزه إلى شولتز، على حدة. ويذكر شولتز أن

ساكن ولاية جورجيا اعترف بطريقة مباشرة. قال شيفاردنادزه: «سنترك أفغانستان». «قد يتم ذلك بعد خمسة أشهر أو سنة، لكن لن يطول ذلك». اختار كلماته بطريقة تسمح لشولتز بفهم وقعها. «أقول بكل مسؤولية، إنه تم اتخاذ قرار سياسي بالانسحاب»(271).

كان وقع الأنباء على شولتز كبيراً إلى درجة أنّها صعقته. خشي أنّه في حال أطلع عملاء الجناح اليميني في إدارة ريغان على ما قاله شيفاردنادزه، وأكّد أنّ هذه المعطيات صحيحة، فسيتّهمونه بالتساهل مع موسكو. فأبقى الحديث لنفسه لأسابيع.

طلب شيفاردنادزه التعاون الأميركي من أجل الحدّ من انتشار «التعصب الإسلامي». كان شولتز متعاطفاً معه، لكن لم يُعِر المسؤولون الرفيعو المستوى في إدارة ريغان هذه المسألة أي أهمية. لم يفكروا قط في الضغط على الاستخبارات الباكستانية، من أجل توجيه الدعم بعيداً عن الفصائل التابعة للإخوان المسلمين، في اتجاه قيادات أفغانية أكثر اعتدالاً، سواء أكان ذلك لمصلحة السوفيات أم الأميركيين. لم تكترث «السي.آي.إيه.» أو غيرها في واشنطن للتحذيرات التي أطلقتها القيادة السوفياتية حول الراديكالية الإسلامية. فقد اعتقد المتعصبون الأميركيون، أن هذه التحذيرات وسيلة لتشتيت الانتباه بعيداً عن الهزيمة السوفياتية(272).

قلق السوفيات سرّاً بشأن تعدي الراديكالية الإسلامية على الجزء الجنوبي من البلاد، وأدركوا أنّه عند انسحابهم من أفغانستان ستشكّل تخومهم حدوداً جديدة للجهاديين الأكثر طموحاً. وبرغم ذلك، استمروا في شجب حكمتيار وإسلاميين آخرين علناً، بطريقة قاسية وغير دبلوماسية، ومبالغ فيها، بحيث يسهل صرف النظر عنها.

أصبح غورباتشيف يتحرك بسرعة تتعدى قدرة استيعاب «السي.آي.إيه.».

في 3 كانون الأول/ديسمبر 1987، في مطعم فاخر في واشنطن العاصمة يُطلق عليه اسم ميزون بلانش، جلس روبرت غايتس الذي تسلم مركز مدير «السي.آي.إيه.» بالوكالة إلى مأدبة العشاء برفقة نظيره في «الكي.جي.بي.»، فلاديمير كريوشكوف، رئيس وكالة التجسس السوفياتية. كانت الجلسة لا سابق لها. تحدثا عن نطاق العلاقات الأميركية - السوفياتية بأكمله. كان كريوشكوف في تلك الفترة، قد وظّف لديه عميلاً منتجاً من داخل «السي.آي.إيه.»، هو ألدريش آيمز، ما ساهم في توليد بعض العجرفة التي تجلت أمام ناظري
غايتس.

أما في شأن قضية أفغانستان، فقد طمأن كريوشكوف غايتس إلى أنّ الاتحاد السوفياتي يريد الآن الانسحاب، إنما يحتاج إلى مساعدة «السي.آي.إيه.» بغية إيجاد حلّ سياسي. خشي هو وقادة سوفيات آخرون، أن تتسلم حكومة إسلامية متعصبة أخرى السلطة في أفغانستان، فتكون تكملة

سُنية لإيران الشيعية. قال كريوشكوف لغايتس: «تبدو منهمكاً كلياً في محاولة التعامل مع دولة إسلامية متعصبة واحدة»(273).

أمل غورباتشيف أنّ يتمكن من إقناع «السي.آي.إيه.» بوقف تقديم المساعدات إلى الثوار الأفغان مقابل الانسحاب السوفياتي. فقال له ريغان في اجتماع قمة عُقد بعد خمسة أيام، إنّ ذلك مستحيل. وفي اليوم التالي، جرب غورباتشيف حظه مع نائب الرئيس جورج بوش. التمس غورباتشيف قائلاً: «إن بدأنا سحب قواتنا من دون أن تتوقف أميركا عن تقديم المساعدات، فستنشب حرب دموية في البلاد».

واساه بوش قائلاً: «لا نحبّذ إنشاء نظام في أفغانستان تدعمه أميركا وحدها. هذه ليست سياسة الولايات المتحدة»(274).

لم يمكن تأسيس أي سياسة أميركية مفروضة على السياسات الأفغانية في ذلك الوقت، بل فقط ترويج الأهداف الباكستانية الذي عززته الاستخبارات. توقّعت «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة أنّ تعمّ الفوضى العارمة أفغانستان بعد الحرب، وألا يتمكن أي كان من الحؤول دون ذلك. فقد رأى جيران باكستان أنّ عليها تدبّر أمر سياساتها الإقليمية بنفسها.

انضم غايتس إلى شولتز ومايكل أرماكوست ومورتون أبراموفيتز ونائب وزير الخارجية جون وايتهاد، أثناء مأدبة تبعث على البهجة ليلة رأس السنة. تبادلوا المزاح أثناء نقاش جدي لمعرفة إن كان شيفاردنادزه يقصد ما قاله عندما أخبر شولتز في أيلول/سبتمبر أنهم سينسحبون. وعكس غايتس وحده آراء عدد كبير من زملائه في «السي.آي.إيه.»، معتبراً أنّ ذلك لن يتحقق، فالانسحاب السوفياتي غير مرجح، وموسكو ملتزمة عملية تضليل سياسية.

راهن مديرُ «السي.آي.إيه.» أرماكوست بمبلغ 25 دولاراً على أنّ السوفيات لن ينسحبوا من أفغانستان قبل نهاية إدارة ريغان. وبعد بضعة أشهر، دفع لأرماكوست الرهان(275).

# 9
# انتصرنا

كان إدموند ماك وليامز ضابطاً أميركياً في مكتب الخدمات الخارجية، ذا شعر أسود، قوي البنية وحاد الطباع: صارماً ودقيقاً وجدياً. اشتهر بصفته مناهضاً للشيوعية، صلباً وعاملاً مثابراً ومتقناً للغات. انتقل من مرحلة الشباب إلى مرحلة البلوغ في رود آيلند في الستينيات. كان والده عاملاً في مطحنة، وجنت والدته حساباً مصرفياً متواضعاً من عملها نادلة في مطعم صغير. وفي خضم الاضطرابات التي أثيرت في أميركا حول قضية فيتنام في قمّتها، انتسب إلى جامعة رود آيلند، وركّز على الدراسات الآسيوية الجنوبية الشرقية، وأصبح متورطاً أكثر فأكثر في القضايا المحافظة. كان واثقاً في فترة الحرب، بأنّ تدخّل بلاده في فيتنام منصف، فتطوّع في الجيش، ودرس اللغة الفيتنامية مدّة سبعة وأربعين أسبوعاً، ثمّ انتقل إلى سايغون في العام 1972 ضابطاً استخبارياً في الجيش الأميركي. كان متخصصاً في استجواب الفيتكونغ والسجناء الفيتناميين الشماليين. فتنقل بين مراكز الاعتقال، وجمع معطيات دقيقة حول العمليات الشيوعية في ساحة المعركة، والإمدادات، والخطط الاستراتيجية، وقام بتحليلها. وعندما انتهت جولته، انضمّ إلى الخدمة الدبلوماسية. وسرعان ما أضاف اللغة الروسية إلى دائرة معارفه، وانتقل إلى سفارة الولايات المتحدة في موسكو في العام 1983. ركّز بصفته ملحقاً دبلوماسياً عسكرياً على قضايا انتهاك حقوق الإنسان السوفياتية. وتنقّل كثيراً داخل آسيا الوسطى، وكتب تقارير عن قمع السوفيات للقوميات الأخرى، غير الروسية، داخل الاتحاد السوفياتي، وقمع الإسلام. اعتاد العيش تحت مراقبة «الكي.جي.بي.» المتواصلة. درس لغة داري، وانتقل إلى كابول في العام 1986 عندما كانت الحرب الأفغانية في أوجها، فأصبح الرجل الثاني في السفارة الأميركية الصغيرة التي عاشت وقتئذ تحت ضغوط هائلة. ومع وجود عدد من ضباط الاستخبارات في مركز «السي.آي.إيه.»، تنقل في شوارع العاصمة الأفغانية الواسعة، واضعاً في غالبية الأحيان آلة تصوير مخبأة على المقعد ليصور المعدات العسكرية السوفياتية، وأماكن انتشار القوات السوفياتية، وحركة تنقلها، وأي شيء آخر قد يعود بالفائدة إلى واشنطن. وتضمنت البرقيات التي أرسلها من السفارة، تفاصيل حول الأعمال الوحشية السوفياتية والإخفاقات في ساحة المعركة والإساءات السياسية. أصبح ماك وليامز وزملاؤه في السفارة، الذين خضعوا لمراقبة «الكي.جي.بي.» وضباط الاستخبارات الأفغانية، ومُنعوا من السفر إلى خارج البلاد، وحُصرت تفاعلاتهم مع دبلوماسيين وجواسيس آخرين، «محاربين قساة القلوب إلى حد كبير»، و «شعر عدد كبير منا بذلك بطريقة سادية جداً... كنا نتقاضى أجراً لنكتب حملات إعلامية موجهة ضدّ السوفيات»(276).

طرحت السفارة الأميركية في كابول في بداية العام 1988، سؤالين مهمين جداً: هل سينسحب السوفيات حقّاً؟ وفي حال انسحبوا، ماذا سيحدث للحكومة الأفغانية الشيوعية التي سيتركونها خلفهم، والتي يترأسها رئيس الشرطة السرية السابق، نجيب الله؟

أوضحت تحليلات «السي.آي.إيه.» المصنفة سرية، التي تم تسليمها إلى صانعي القرار في واشنطن، وتوزيعها على شكل برقيات دبلوماسية في تلك الأسابيع، نقطتين أساسيتين. بقي غايتس والقسم المعني بالشؤون السوفياتية، التابع لمديرية الاستخبارات، مشككين في متابعة غورباتشيف عملية انسحاب القوات. وفي حال غادر حقّاً الجيش السوفياتي الأربعون أفغانستان، فسوف تنهار حكومة نجيب الله الشيوعية بسرعة فائقة. وأكّد محللو «السي.آي.إيه.» بثقة، في تقارير كثيرة قدّموها في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، أن الشيوعيين الأفغان لن يتمكنوا من الإمساك بالسلطة بعد مغادرة القوات السوفياتية. قد يتخلى جنرالات نجيب الله الذين يسعون إلى البقاء على قيد الحياة عنه، وينضمون مع عتادهم إلى صفوف الجهاديين، واحداً تلو الآخر.

حاول ماك وليامز أن يبرهن صحة هذه التحليلات أمام دبلوماسيين أوروبيين في حفلات استقبال ومآدب عشاء ذلك الشتاء في العاصمة المتجهمة المثلجة. وشاطر ماك وليامز «السي.آي.إيه.» اعتقادها، أن نجيب الله دمية بيد السلطة العسكرية السوفياتية، ولن يتمكن من المقاومة في أفغانستان بمفرده. إلا أنّ الدبلوماسيين البريطانيين والفرنسيين الذين تحدث إليهم، شككوا في افتراضات «السي.آي.إيه.». فقد انتشر القلق بين صفوف الجيش الأفغاني وسكان المدينة المدنيين بسبب انتقال السلطة إلى حكومة إسلامية راديكالية تدعمها باكستان على الخصوص: حكومة يترأسها حكمتيار. فالمدنيون الأفغان في كابول، على الرغم من حرمانهم وسحقهم، يتمتعون ببعض الامتيازات التي لم يرغبوا في التخلي عنها. وكانت الوظائف الحكومية غير المثمرة وافرة جداً. وعملت عشرات آلاف النساء في مكاتب، بحيث يصلن كل يوم مرتديات تنانير ذات طراز أوروبي شرقي وتسريحات شعر على النمط السوفياتي، ومنتعلات أحذية عالية الكعب. فكيف ستكون حيواتهن في ظل حكم الإسلاميين؟ شعر الشعب الأفغاني بالكره تجاه نجيب الله، إلا أن الأفغان كانوا يخشون أكثر
حكمتيار. ماذا سيحدث إن بدأ نجيب الله التفاوض مع القادة الثوار الطموحين من أجل وقف إطلاق النار؟ قد يتفاوض ربّما مع مسعود أيضاً. وفي حال بشّر بالقومية الأفغانية، ألن يتمكن من الصمود؟ وماذا لو قدّم السوفيات إلى كابول مساعدات اقتصادية بمليارات الدولارات، حتى بعد انسحاب قواتهم، فيوفروا بذلك لنجيب الله وسيلة لشراء أمراء الحرب من بين صفوف الجهاديين؟

جلس ماك وليامز في مكتبه، في شهر كانون الثاني/يناير من تلك السنة، وأرسل برقية سرية إلى واشنطن ولانغلي حول هذا «السيناريو الرهيب»، مشدّداً على أنّه ليس وجهة نظر السفارة في كابول، بل هو احتمال «تخشاه الشخصيات المخضرمة في كابول، معتبرة أنّه قد يتيح للنظام الحالي الصمود من دون أن يتعرّض لأي أذى». وبعدما وصف ماك وليامز بدقّة كيف سيحرص نجيب الله على أصدقائه، استنتج بالنيابة عن السفارة «نجد هذا السيناريو محتملاً بشكل قد يثير المشاكل. سيحقق السلم وانسحاب القوات السوفياتية على حساب عزم الأفغان»(277).

انضم غايتس إلى شولتز ومساعديه الأساسيين في فوغي بوتم في 19 شباط/فبراير. ورأى محللو «السي.آي.إيه.» أجمعون أنّ أفغانستان بعد انسحاب السوفيات «ستكون في حالة فوضى، وستكافح مجموعات الجهاديين للوصول إلى السلطة، ما سيؤدي إلى نشوء حكومة مركزية ضعيفة، وقادة قبليين أقوياء في الريف». أما بالنسبة إلى نجيب الله، فقد شكّك معظم محللي «السي.آي.إيه.» في إمكانية صمود حكومته من دون دعم عسكري متواصل من قبل القوات السوفياتية.

رأى جون وايتهاد ومورتن أبراموفيتز أنّ «السي.آي.إيه.» مخطئة، وأنّ نجيب الله سيبدأ عقد صفقات مع قادة ثوار، كي يتمكن من البقاء في السلطة مدّة أطول ممّا افترضت لانغلي.

قام كولين باول، الذي عُيّن حديثاً مستشاراً للأمن القومي في إدارة ريغان، بطرح سؤال مباشر على غايتس: «هل يستطيع نجيب الله أن يصمد؟ وإلى متى؟ وما مدى كفاءة الجيش الأفغاني؟» خشي باول أن تكون «افتراضات [«السي.آي.إيه.»] قوية جداً» بشأن هاتين «المسلَّمتين»، وأرادها أن تعيد النظر في هذه المسألة(278).

راجع مجتمع الاستخبارات الأميركية بأسره هذه المسائل تحت إشراف غايتس، وأصدر تقديراته الاستخبارية الوطنية الخاصة بعنوان «الاتحاد السوفياتي: الانسحاب من أفغانستان»، وقد صُنّفت ملفاً سرياً. وتم الإعلان في التقديرات: «نرى أنّ ظلم نجيب الله لن يصمد كثيراً بعد الانسحاب السوفياتي، حتى ولو استمر السوفيات في تقديم المساعدة»؛ «قد يسقط النظام حتى قبل إتمام الانسحاب».

توقعت «السي.آي.إيه.» أن تكون الحكومة البديلة «إسلامية، ومتعصبة جدّاً على الأرجح، لكن غير متطرفة بقدر إيران... لسنا واثقين بتوجه الحكومة الجديدة نحو الغرب. ففي أفضل الأحوال، ستكون ذات مواقف متعارضة، وفي أسوأ الأحوال عدائية ناشطة على الخصوص، تجاه الولايات المتحدة»(279).

إن تبين أن حكومة كابول التالية قد تكون «عدائية ناشطة» تجاه واشنطن، فلمَ لمْ تسع الولايات المتحدة بسرعة إلى إقامة مفاوضات سياسية قد تؤدي إلى إنشاء نظام أفغاني أكثر ودية واستقراراً، مثلما ألحّ عليها المفكرون وحلفاء النظام الملكي السابق الأفغاني؟ وفي حال استحال تفادي انهيار نجيب الله السريع كما توقعت «السي.آي.إيه.»، ألا تُعتبر الحاجة إلى وساطة سياسية مماثلة، ملحّة أكثر من أي وقت مضى، من أجل المساعدة على كبح حكمتيار وحلفائه الإسلاميين؟

انقسمت مؤسسات الإدارة الأميركية حول معظم المسائل الأساسية. لم تُوقَّع مبادرة غورباتشيف بشأن قضية أفغانستان، ولم تراجَع بدقة. جذب الأفراد والأقسام المسألة، كل من جهته، وفي الوقت نفسه. وركّزت «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية على غورباتشيف والاتحاد السوفياتي أكثر مما

ركزتا على أفغانستان. بدا فجأة أنّ ميزان الحرب الباردة النووي والسياسي بأكمله على المحك بعد العام 1988، ولم يحتل مستقبل وسط آسيا مركزاً متقدماً على لائحة الأولوية مقارنة بأهمّيته.

استمرّ غايتس في التشكيك في نيات غورباتشيف. أراد شولتز المنعزل في مكتبه الخاص، بعد أن دهمه الوقت، إيجادَ صيغة للانسحاب السوفياتي من أفغانستان، تضمن الخروج الأسرع والأقل تعقيداً من دون الحدّ من قدرة الجهاديين على القتال من أجل شقّ طريقهم إلى داخل كابول بعد خروج السوفيات. بدت محاولة التفاوض على حكومة انتقالية في أفغانستان غير واردة، لأنها تربط الانسحاب السوفياتي بنجاح الأميركيين في السياسات الأفغانية، وهذا رهان خاسر.

أمّا قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، الذي يترأسه مدير قوات العمليات الأفغانية فرانك أندرسون، فقد بدأ بالادعاء أنّ أعمال الاستخبارات الأميركية في أفغانستان انتهت. ولا بدّ من أن تخرج الوكالة من البلاد عند انسحاب السوفيات. هدفت العملية السرية إلى تحدي قوة السوفيات وعدوانهم. أما تحويل هذا البرنامج إلى مشروع إعادة إعمار، فيُعتبر خطأً فادحاً. ورأى ضباط قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» أنّه ما من وسيلة لإنجاح مشروع مماثل.

قال بيردان بعد أعوام: «هل اكترثنا حقاً لمستقبل ننغرهار البعيد الأمد؟ ربما لا. وبحسب ما تبيّن، احذروا ماذا جرى؟ لم نكترث على الإطلاق»(280).

شعر أفراد قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» بانزعاج متزايد من دبلوماسيي وزارة الخارجية الذين يتدخلون الآن في لحظة الانتصار، بعمل «السي.آي.إيه.»، ويشككون باستمرار في افتراضات الوكالة، ممعنين النظر في الدعم الباكستاني لحكمتيار والإسلاميين، ومتبلدين حول مسألة التسويات السلمية. ارتفعت الشكاوى في لانغلي: أين كان هؤلاء السفلة المتزمتون عندما كان وجودهم مهماً، وعندما شقت «السي.آي.إيه.» طريقها بصعوبة بعيداً وسط الشكوك في إمكانية نجاحها؟ أي جديّة ساذجة دفعت دبلوماسيي الخارجية وحلفاءهم في الكونغرس، إلى الاعتقاد أنّهم يستطيعون فكّ رموز الحرب الأفغانية، وعقد بضعة مؤتمرات في أوروبا، والترحيب بالملك الأفغاني المنفي وهو عائد إلى قصره في كابول مع فرقة موسيقية تعزف على العشب؟ على الأفغان أن يكتشفوا المسائل بأنفسهم. لم يستطع الأميركيون المساعدة، وليس من مصلحة الولايات المتحدة أن تجرب ذلك. كان من الصعب تحديد إلى أي مدى أخذ قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» هذا التفكير في الاعتبار، وإلى أي مدى تمّ اعتباره ثورة وجدانية ضد توقعات وزارة الخارجية والكونغرس. شعر قادة وكالة الاستخبارات الأميركية بأنّهم سمعوا ما يكفي من الكلام الفارغ حول برنامج العمليات السرية الأكثر نجاحاً في تاريخ «السي.آي.إيه.». فالسوفيات يقومون بالانسحاب، وهذا كاف.

أمّا بالنسبة إلى السياسات الأفغانية، فقد شعرت «السي.آي.إيه.» بالسرور عند سماحها للاستخبارات الباكستانية بتولي القيادة، حتى وإن عنى ذلك تعيين حليفها حكمتيار في كابول. ما

المانع؟ فقد شعر ضباط قسم الشرق الأدنى، بأن هيمنة باكستان على أفغانستان، سواء أتحققت من خلال عقيدة الإسلام السياسي، أم لا، لا تمثل أي تهديد للمصالح الأميركية. وفي حال ساورتهم شكوك حيال حكمتيار، وهذه حال معظمهم، لا يعلمون ما قد يفعلونه في هذه المرحلة للتصدي لخطط «الآي.أس.آي.». لذا، عملوا على مساعدتها لضمان نجاحها. وبعد استشارة الأمير تركي، سرّعت «السي.آي.إيه.» والاستخبارات السعودية عملية شحن الأسلحة إلى باكستان، على أمل استباق أي موعد دبلوماسي نهائي قد يحدّ من عمليات التمويل.

تسلم رئيس الاستخبارات الباكستانية الجديد، حميد غول، منصبه مع خطط جديدة من أجل دفع الثوار في اتجاه عمليات عسكرية منهجية قد تمارس الضغط على المدن الأفغانية الأساسية. شعر غول بأن وظيفته تقضي «بإخراج الروس. لست مهتماً بأي مسألة أخرى». لم يكن مقرباً من حكمتيار مثل بعض العقداء والعمداء، الذين أصبحوا موظفين ثابتين في مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية، وهو مكتب أكسب غول خبرة محدودة. وقد أصدرت وكالة الاستخبارات الدفاعية كتاباً عن سيرة حياة رئيس «الآي.أس.آي.» الجديد، ركزت فيه على سلوكه الداعم للغرب، معتمدة على الروابط العسكرية التي جمعتها بغول في إسلام آباد. تبين أنّ وصف شخصية غول خاطئ بالكامل. كان غول جنرالاً يتطلع إلى الأمام، ويتحدّث بسرعة، ويستخدم بسهولة جميع العبارات الاصطلاحية الأميركية، وكان قادراً على الترقي من رتبة إلى أخرى في وقت قصير.
عمل بدءاً من العام 1987 بشكل وثيق مع الأمير تركي وقائد الأركان أحمد باديب وضباط آخرين في الاستخبارات السعودية. ورأى السعوديون أنّ غول مسلم تقي وملتزم، فقدموا إليه هدايا عديدة من المملكة السعودية، من بينها تذكارات دينية من الكعبة المقدسة في مكّة. ورأى زملاؤه الأميركيون في العام 1988، أنه رجلهم المناسب. وقد قام غول بوصف نفسه لبيردان قائلاً إنّه «إسلامي معتدل»(281).

أعلن غول أنه سيقدّم الأموال والأسلحة إلى حكمتيار وإسلاميين، لأنّهم مستعدون للقتال. خطّط للعمل بناءً على قاعدة عسكرية محترفة. لم ينو بالتأكيد مساعدة المفكرين والتكنوقراط وأنصار الملكية والسياسيين الأفغان المنفيين. لقد صمم على منع أولئك الأفغان من العودة «لأنّهم يعيشون حياة بذخ [في الخارج] في عواصم العالم». حصد في قراره دعماً كاملاً من قبل رئيس مركز «السي.آي.إيه.». اعتبر بيردان أنّ القادة الثوار الأفغان المتأثرين بالغرب، أمثال صبغة الله مجددي، فاسدون وعديمو الجدوى. كما رأى أن «القوّة الحقيقية الوحيدة» التي يتمتع بها حزب مجددي «هي قدرته على إقامة علاقات عامة». حضر القائد الروحاني، سيّد أحمد غيلاني، اللقاءات التي جرت مع بيردان، مرتدياً «بذلة من الحرير والكشمير»، و «نادراً ما كان يشرد داخل أفغانستان»، ما أثار ازدراء بيردان. شجع بيردان
«الآي.أس.آي.» على توفير الأسلحة العالية التقنية مثل الستينغر وصواريخ ميلان المضادة للدروع، وتوزيعها على القادة الباشتون الإسلاميين الذين يحاربون على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية، وعلى الخصوص في مقاطعات باكتيا وننغرهار. فقد رأى بيردان أنّ هذه هي المناطق حيث «ما زال السوفيات يشنّون هجماتهم الأساسية»(282).

أراد الرئيس ضياء الحق أن يتمّ الاتفاق على حكومة أفغانية موقتة قبل خروج السوفيات، من أجل المساعدة على ضمان الاستقرار عند الحدود الباكستانية الغربية. وعندما تأكّد ضياء الحق أنّ الأميركيين غير مهتمين، قال علناً إن الجيش ورجال الاستخبارات الباكستانية سيعملون على إنشاء حكومة حليفة في كابول تحمي المصالح الباكستانية في تنافسها مع الهند، ومنع أي اضطرابات بسبب قومية الباشتون داخل الأراضي الباكستانية. شعر ضياء بأن هذا واجب باكستان، وحقها، وحدها: «اكتسبنا حق الحصول في [كابول] على سلطة متحالفة معنا. لقد خاطرنا كثيراً كدولة في الصفوف الأمامية، ولن نسمح بالعودة إلى الوضع الذي ساد قبل الحرب، والذي طبعته التأثيرات الهندية والسوفياتية والشكاوى الأفغانية على أرضنا. ستكون السلطة الجديدة إسلامية كجزء من النهضة الإسلامية، وسترون أنّها ستمتد في يوم ما إلى المسلمين السوفيات»(283).

بدأت في ذلك الشتاء، شبكة الأيديولوجيين المحافظين المعارضين، اليسارية، في إدارة ريغان والكابيتول هيل، التي كانت لا تزال ناشطة، بتحدي تحالف «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» في واشنطن، بدلاً من أن يقوم الليبراليون بذلك. خشي صانعو القرارات، الذين قام عدد كبير منهم برحلة في مرحلة ما إلى خيبر باس، وحدّقوا من فوق الجسر لبضع ساعات برفقة القادة الجهاديين، أن يكون انسحاب «السي.آي.إيه.» من أفغانستان بمنزلة خيانة لقضية الثوار الأفغانية: لا تستطيع أميركا الاستسلام الآن. يجب أن يرتكز هدفها على «العزم الأفغاني» وحكومة ينتخبها «محاربو الحرية». وفي حال صمد النظام الشيوعي العدائي الذي فرضه نجيب الله في كابول، تكون حملة الجهاديين الشجاعة قد تعرّضت للخيانة. تعارضت الآراء حول حكمتيار والإسلاميين في الدوائر الأميركية المحافظة، فقد أُعجب به بعضهم بصفته معارضاً شجاعاً للشيوعية، بينما خشي آخرون معارضته للأمركة. وسرى اعتقاد أنّ القوة المعارضة لمحللي «السي.آي.إيه.» وصانعي القرارات، أصبحت ضرورية داخل الحكومة الأميركية. تحرّك السيناتور غوردن هامفري من بين آخرين في ربيع العام 1988، من أجل تعيين مبعوث أميركي خاص لدى أفغانستان: المطلوب شخص قادر على العمل مع القادة الأفغان بعيداً عن نطاق «الآي.أس.آي.»، بحيث يقيّم احتياجاتهم، ويقدّم توصيات حول السياسة الأميركية. احتاجت أميركا إلى خبير: شخص يتحدّث اللغة، ويعرف المنطقة، ويملك في الوقت نفسه إثباتات على أنه معارض متعصّب للشيوعية.

أوصت وزارة الخارجية بإدموند ماك وليامز. تمّ تعيينه مبعوثاً أميركياً خاصاً لدى الثوار الأفغان، وأُرسل إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد في أواخر ربيع العام 1988. أنجز ماك وليامز مهمته بنشاط. سيكتب باستقلالية تقاريره عن المراحل الأخيرة من الجهاد الأفغاني، ويرسل برقيات إلى «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية والكونغرس، ويؤمن صوتاً جديداً ومستقلاً في الأوقات الحاسمة بشأن السجالات في السياسة الأميركية.

استغرق رئيس «السي.آي.إيه.»، ميلت بيردان، بضعة أسابيع فقط بعد وصول ماك وليامز إلى مجمع السفارة المبني من الحجارة الحمراء في إسلام آباد، كي يُطلق عليه لقباً تحبباً. فبدأ يناديه «ذلك الشخص الصغير الشرير»(284).

صدّقت اتفاقية جنيف التي وقّعها دبلوماسييون رفيعو المستوى في 14 نيسان/أبريل 1988، على الشروط الرسمية للانسحاب السوفياتي. كان اتفاق بين الحكومات، أي بين نظام أفغانستان الذي ترأسه الشيوعيون، وباكستان، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي. لم يشارك الثوار الأفغان في المفاوضات، واستنكر بعضهم الاتفاقية، واعتبروها مؤامرة ضدّ قضيتهم. في الواقع، ضمنت الاتفاقية بقاء الثوار أقوياء عسكريّاً في الأعوام المقبلة. وأمل غورباتشيف أن يؤدي استعداده للخروج من أفغانستان، إلى إقناع الأميركيين بوضع حدّ للمساعدات التي يقدمونها إلى المقاتلين الأفغان. إلا أنّ رونالد ريغان قام شخصيّاً، بطريقة ارتجاليّة، بإبلاغ محاور تلفزيوني في بداية العام 1988، أنّه لا يرى من العدل استمرار السوفيات في توفير الدعم العسكري والدعم الاقتصادي لنجيب الله، بينما أُجبرت الولايات المتحدة على وقف تقديم المساعدة إلى الثوار الأفغان. كان المفاوضون الدبلوماسيون في حكومة ريغان مستعدين للموافقة على وضع حدّ للمساعدة التي تقدمها «السي.آي.إيه.»، إلا أنهم الآن يناضلون لتغيير المسار. يفاوضون على صيغة جديدة، يُطلقون عليها اسم «التماثل الإيجابي»، تسمح لـ «السي.آي.إيه.» بتزويد المجاهدين بالأسلحة والأموال في حال استمرت موسكو بتقديم المساعدة إلى حلفائها في حكومة كابول.

انسحبت القوات السوفياتية الأولى خارج جلال آباد بعد مضي شهر. خرج من العاصمة حوالى اثني عشر ألف رجل مع عتادهم. وأمضى بيردان وضباط الاستخبارات، بالإضافة إلى عملاء «الآي.أس.آي» ساعات عديدة في ربيع العام 1988، يحاولون إقناع القادة الثوار بعدم ذبح السوفيات أثناء انسحابهم، كما فعلت الميليشيا الأفغانية مع الجنود المستعمرين البريطانيين المنسحبين قبل قرن. وباستثناء حالات نادرة، سمح القادة الثوار في المجمل للسوفيات بالمرور، بسلام.

ومع انسحاب القوات، تحدّث أندري سخاروف إلى مجلس نواب الشعب (الدوما). سخاروف عالم فيزياء، وناشط في مجال حقوق الإنسان، وقد أكدت حرية تعبيره بداية عصر جديد من الانفتاح في موسكو. قال لهم: «كانت الحرب في أفغانستان في ذاتها جريمة، مغامرة إجرامية». «أودت هذه الجريمة بحياة حوالى مليون أفغاني. إنّها حرب دمار شُنّت ضدّ شعب بأكمله... تثقل كاهلنا كخطيئة وعار رهيبين. علينا تطهير أنفسنا من هذا العار الذي يثقل كاهل قيادتنا»(285).

تلقى بيردان في بداية شهر آب/أغسطس اتصالاً في مركز إسلام آباد من ضباط متحمسين في «الآي.أس.آي.»: أصيبت طائرة عسكرية سوفياتية متطورة، من طراز «أس.يو.25» بنيران مضادة للطائرات قرب باروت بيك على الحدود الباكستانية. هبط الطيار السوفياتي بواسطة المظلة، بينما سقطت الطائرة برفق مُحدثة صريراً قوياً إلى أن توقفت من دون أن تصاب بأضرار جسيمة.

سأل ضباط «الآي.أس.آي.»: «كم أنتم مستعدون لأن تدفعوا؟».

استفسر بيردان إن كانت مقدمة الطائرة التي تضمّ الآلات وأجزاء المحرك في حالة جيدة، وإن كانت أسلحتها غير تالفة. فتمّ التأكيد له أنها في حالة جيدة، وبدأ التفاوض. في النهاية، باعت «الآي.أس.آي.» الطائرة لـ «السي.آي.إيه.» مقابل ست شاحنات بيك آب تويوتا وقاذفات صواريخ «بي.أم. 12». تدبر بيردان أمر معاينتها، واستدعى فريقاً مشتركاً من «السي.آي.إيه.» والقوات الجوية من واشنطن للمساعدة على تحميل الجائزة على متن طائرة شحن.

اتصلت «الآي.أس.آي.» ببيردان في صباح اليوم التالي. لقد نجا الطيار، وقد ألقى الثوار الجهاديون القبض عليه. قال بيردان: «يا إلهي، اطلبوا منهم ألا يتخلصوا منه». فآخر ما كانوا يحتاجون إليه هو ضابط سوفياتي معذب أو مقتول في خضم عملية انسحاب القوات السوفياتية. عرض بيردان تقديم عدد من شاحنات البيك آب مقابل الطيار، فقبلت «الآي.أس.آي.». استجوبت الاستخبارات الباكستانية الطيار الأسير مدة أربعة أو خمسة أيام. ولجأ بيردان إلى عرض «السي.آي.إيه.» الاعتيادي المتعلق بالطيارين الأسرى: «العربات الأميركية النموذجية، والقوارب السريعة، وشاحنات البيك آب التي تحمل لوحات أريزونا». إلا أنّ «الآي.أس.آي.» نقلت أنّ الضابط السوفياتي رفض العرض بسبب خلل ما. اتصل بيردان بالسوفيات ورتّب معهم مسألة التسليم. كان اسم الطيار أليكسندر روتسكوي، وقد قاد بعد بضع سنين، ثورة عنيفة ضدّ الرئيس الروسي بوريس يلسين(286).

رنّ جرس هاتف بيردان مرّة جديدة في منزله بعد مضي بضعة أيام على شراء «الأس.يو. 25». كان ذلك في 17 آب/أغسطس 1988. قال ضابط السفارة إنّ بحوزة استخبارات السفارة تقريراً غير مكتمل يفيد أن طائرة الرئيس ضياء الحق قد سقطت قرب بوالبور، حيث كان الرئيس الباكستاني والجنرال أخطار وأرنولد رافيل (السفير الأميركي في باكستان) وضباط عسكريون باكستانيون وأميركيون آخرون، يشاهدون عرضاً لدبابة جديدة أراد الأميركيون تسويقها، وإيجاد زبائن لها.

أرسل بيردان برقية «حاسمة» إلى لانغلي، كانت الأكثر إلحاحاً. في حال كان ضياء الحق قد مات، ستضطر الحكومة الأميركية إلى تجنيد جميع موظفيها بسرعة من أجل تقييم الأزمة. تأكد الخبر في اليوم التالي. وبعد انتهاء عرض الدبابة، دعا ضياء الحق أخطار ورافيل وجنرالاً أميركياً ومعظم كبار ضباطه القدماء، إلى حجرة الشخصيات الهامة داخل طائرة «سي 130» الأميركية الصنع، من أجل القيام برحلة العودة إلى إسلام آباد التي لا تستغرق وقتاً طويلاً. ارتطمت الطائرة بالأرض بعد دقائق من الإقلاع، بينما كانت محركاتها تدور بكامل قوتها. ترمدت الجثث ومعظم أجزاء الطائرة.

أرسلت لانغلي برقية إلى بيردان تقترح فيها إرسال فريق القوات الجوية من باكستان للتحقيق في حادثة تحطم طائرة ضياء الحق. كان الفريق مؤهلاً لتفحّص الحطام. أرسل بيردان برقية، وأجاب قائلاً: «اللجوء إلى التقنيين الزائرين أمر خاطئ. فعلى الرغم من النتائج الإيجابية التي قد يصلون

إليها، سيطغى عليها واقع أن «السي.آي.إيه.» أرسلت رجالاً لاختلاس الأنظار مكان تحطم طائرة ضياء الحق بعد يوم من سقوطها. ستتمحور الأسئلة حول سبب وجودنا في موقع التحطم، وحول الأشياء التي أضفناها أو أزلناها لنغطي صلتنا بالتحطّم». ما من داع لتصعيد الشكوك والتساؤلات حيال موت ضياء الحق عن طريق تدخل «السي.آي.إيه.» في التحقيق. يستطيع من الآن تخيّل أذهان «الآي.أس.آي.» المهووسة
بالتآمر، وهي تفكّر: «لمَ لمْ يكن السيّد بيردان على متن تلك الطائرة؟ كيف علم بأن عليه البقاء بعيداً؟»(287).

دعا باول إلى عقد اجتماع في قاعة الأزمات داخل البيت الأبيض في واشنطن. حضر توماس تويتن الاجتماع بصفته مدير قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات في «السي.آي.إيه.». وقام روبرت أوكلي، مدير مجلس الأمن القومي في المنطقة، بدعم باول. كما حضر ريتشارد أرميتاج من البنتاغون، ومايكل أرماكوست من وزارة الخارجية. خشي الباكستانيون أن يكون هذا اعتداءً مقصوداً، ربّما الأول من مجموعة هجمات موجهة ضدّ بقاء البلد من ذاته. قرّرت مجموعة التنسيق بين الوكالات إرسال فريق من الضباط القدماء إلى إسلام آباد على الفور «كي يدرك الباكستانيون أنّنا ندعمهم بقوّة مهما يكن الخطر الذي يهددهم من أجل القيام بالبحث الاستخباري الأكبر بغية معرفة ما الذي حدث للطائرة، وما الذي قد يحدث في المستقبل»، كما وصف أوكلي الوضع(288).

لم يكن الأميركيون أنفسهم متأكدين ممّا يجري. هل قام الروس بذلك، من خلال عمل انتقامي أخير أقدمت عليه «الكي.جي.بي.» ضدّ أفغانستان؟ هل قام الإيرانيون بذلك؟ أم الهنود؟ بدأوا إرسال برقيات تحذيرية إلى جميع أنحاء العالم، تقول وفقاً لصياغة أوكلي: «لا تعبثوا مع الباكستانيين، وإلا لاحقتكم الولايات المتحدة». أمروا كلّ جاسوس استخباري متاح، بالتركيز على عمليات التنصت وصور الأقمار الصناعية وأي شيء آخر قد يشكل دليلاً على المؤامرة التي أدّت إلى قتل ضياء الحق. لم يجدوا شيئاً، لكنّهم لم يكونوا واثقين كثيراً.

توجّه، في تلك الليلة، معظم الذين كانوا في قاعة الأزمات إلى مطعم بالم في الشارع 19 من أجل احتساء المشروب لإحياء ذكرى السفير رافيل، وهو ضابط معروف، ومحبوب في مركز الخدمات الخارجية. قام شولتز الموجود في نيو أورلينز من أجل الميثاق الجمهوري، بالاتصال بأوكلي في المطعم. طلب منه الذهاب إلى قاعدة أمدوز للقوات الجوية خارج واشنطن من أجل مرافقته إلى باكستان لحضور جنازة ضياء الحق، كما طلب منه أن يحزم أمتعة كثيرة لأنّ أوكلي ينوي البقاء في إسلام آباد بصفته السفير الاميركي الجديد الذي سيخلف رافيل.

سافر تشارلي ويلسون في الطائرة برفقة شولتز وأرميتاج وأرماكوست. احتشدوا معاً عبر الممرات يتحدثون عن الاحتمالات الواردة، ثمّ وضعوا مسودّة سياسة أميركية جديدة تتعلّق بباكستان، وهم على متن الرحلة. ستقوم الولايات المتحدة بتقوية علاقاتها بالجيش الباكستاني، بما في ذلك

الاستخبارات الباكستانية. فهي بحاجة إلى هذا التحالف الوثيق أكثر من أي وقت مضى، من أجل تخطي الفترة الانتقالية ما بعد ضياء الحق. قرّرت دعم الانتخابات الديموقراطية بغية تشكيل حكومة مدنية جديدة، وقد كان ضياء الحق يتحرّك في هذا الاتجاه على أي حال. وحددت، بالإضافة إلى ذلك، موعداً لإجراء الانتخابات الوطنية، وصممت على الدفاع عن باكستان ضدّ أي تهديدات خارجية(289).

استغرق المنفعلون أسابيع من أجل الاستقرار. أظهرت التحقيقات المشتركة بين القوات الجوية الأميركية والباكستانية، أدلة ظرفية تبرهن وجود عطل ميكانيكي أدى إلى تحطم الطائرة، على الرغم من أن السبب الحقيقي بقي مجرد تخمين في أفضل الحالات. لم يُظهر المسح الذي أجرته الاستخبارات أي علامة أو دليل، على أن الحادث هو مؤامرة اغتيال. وأعلن قائد أركان الجيش الذي خلف ضياء الحق، وهو جنرال معتدل ومثقف اسمه ميرزا إسلام بيغ، أنّ الجيش سيمضي قدماً بالانتخابات المُجَدْوَلة، ثمّ ينسحب من السياسة. لم يُظهر السوفيات إشارة تردد في خطة الانسحاب من أفغانستان. تبين في تشرين الأول/أكتوبر أنّ الانتقال من حكم ضياء الحق الديكتاتوري الطويل، سيكون أسلس مما توقعوه وقت قتله.

خسر الجهاد الأفغاني أباه المؤسس. توفي الجنرال أخطار أيضاً، مهندس الاستخبارات الباكستانية الحديثة. إلا أنّ ضياء الحق وأخطار تركا إرثاً ثميناً، ودائماً. في العام 1971، كان عدد المدارس في أنحاء باكستان تسعمئة. أمّا في العام 1988، فقد بلغ عدد المدارس الدينية الرسمية ثمانية آلاف، وحوالى خمسة وعشرين ألف مدرسة غير مسجلة رسميّاً، شُيّد عدد كبير منها على الحدود الباكستانية الأفغانية، وقد موّلها رعاة أثرياء من السعودية ودول أخرى في الخليج(290). وعندما ترأس أخطار «الآي.أس.آي.» قبل عقد من الزمن، كانت مجرد وحدة صغيرة وفاسدة تابعة للجيش الباكستاني، تركّز بشكل أساسي على أمن النظام وألعاب التجسس اللامتناهية مع الهند. أمّا الآن، فقد أصبحت «الآي.أس.آي.» جيشاً داخل الجيش، ومدعاة فخر عدد كبير من الرعاة الأثرياء، بمن فيهم الأمير تركي الثري وقسم الاستخبارات العامة السعودية. أقامت «الآي.أس.آي.»، بشراكة عمليّة نامية مع «السي.آي.إيه.»، ما منحها حرية الولوج إلى الأنظمة التقنية وأنظمة جمع الاستخبارات الأكثر تعقيداً. رحّب النظام بالفيالق الباكستانية التي تضم متطوعين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، والمتطوعين المستعدين لمتابعة جدول أعمال السياسة الباكستانية الخارجية،

ليس في أفغانستان فقط، إنّما بشكل متزايد عبر الحدود الشرقية في كشمير، حيث بدأ الجهاديون الذين تلقوا تدريباتهم في أفغانستان بسفك دماء القوات الهندية. تستطيع «الآي.أس.آي.»، باعتبارها المكتب السياسي المحلي الرئيسي داخل الجيش الباكستاني، التنصت على خطوط الهواتف، ورشوة المشرّعين، ومراقبة صناديق الاقتراع عبر البلاد، عندما ترى أن الدافع مؤات. أمّا خارج الجيش الباكستاني بحدّ ذاته، وبعد أقل من عشر سنين على الغزو السوفياتي لأفغانستان، فقد جعلت المساعدات المالية التي قدّمتها «السي.آي.إيه.» والسعودية، من «الآي.أس.آي»، المؤسسة الأقوى في باكستان. وباتت موافقتها ضرورية الآن قبل نشر أي معطيات.

انتقل ماك وليامز في سيارة جيب إلى الحدود الأفغانية بعد وقت قصير على وصوله إلى إسلام آباد في ذلك الصيف. عمّت الفوضى أرجاء السفارة الأميركية بعد وفاة ضياء الحق والسفير رافيل. كان النظام الجديد الذي يترأسه روبرت أوكلي يستقرّ تواً. بدا الوقت مثاليّاً بالنسبة إلى ماك وليامز كي يختفي داخل الميدان ويستخدم لقبه الرفيع المستوى بصفته مبعوثاً خاصاً، ومهاراته اللغوية من أجل التحدث إلى أكبر عدد ممكن من القادة ورجال الفكر واللاجئين الأفغان. سافر في عطلات نهاية الأسبوع ليتفادى المواكبات واللقاءات الرسمية التي تنظمها السفارة. أراد أن يطّلع على المشاكل التي يواجهها الجهاديون الأفغان بعد رحيل السوفيات، وعلى مصالح الأميركيين في أفغانستان بعد انسحاب السوفيات، وعلى ما حدث حقّاً في أرض المعركة.

سافر مدة شهرين إلى جميع المناطق القبلية الباكستانية. أمضى في بيشاور ساعات طويلة مع عبد الحقّ والقادة الأفغان القدماء، مثل بير سيد أحمد غيلاني ويونس خالص. في تلك الأثناء، انتقل يحيى، شقيق أحمد شاه مسعود إلى بيشاور، وأنشأ مكتباً لميليشيا بانشير. قاد ماك وليامز عربته في اتجاه الهضاب وتحدث إلى التجار والمسافرين على الطرقات والثوار المجندين في مخيمات التدريب. سافر إلى كيتا، وقابل في منطقة هزارا الوسطى، المنفيين الأفغان التابعين للقبائل الملكية في أفغانستان، وبعض الذين حاربوا قرب قندهار، المدينة الجنوبية التي كانت قديماً عاصمة أفغانستان الملكية التاريخية. وانتقل إلى بلدة شمان عند الحدود الأفغانية، وتحدث إلى تجار سجاد مسافرين ذهاباً وإياباً إلى أفغانستان. مضى وقت طويل منذ أن جلس أميركي ذو منصب يسمح له بصوغ سياسة حكومة، وشبك قدميه على بطانيات أفغانية عديدة، أو احتسى بعض فناجين الشاي الأخضر بالسكر، بينما طرح على الأفغان أسئلة منفتحة حول جهادهم. بدأت التقارير التي سمعها ماك وليامز بإزعاجه وإغضابه.

نقل إليه كل أفغاني قابله الرسالة نفسها: مع انسحاب السوفيات، تحرك قلب الدين حكمتيار بانتظام من أجل القضاء على منافسيه في المقاومة الأفغانية، وقد كان مدعوماً من قبل ضباط في قسم «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية، وعملاء من جماعة الإسلام التابعة للإخوان المسلمين، وضباط من الاستخبارات السعودية، ومتطوعين عرب من عشرات البلدان. وأظهرت المشاهد التي وصفها مخبرو ماك وليامز حكمتيار رئيس مافيا يستولي على أراضي منافسيه. عمد حكمتيار وقادته الرئيسيون، إلى خطف مجاهدين مناصرين للملك ظاهر شاه ورجال فكر وقادة أحزاب منافسة، وأي شخص يهدد القيادة البديلة القوية. كما أقدموا على قتلهم بشكل تسلسلي. وكانت الاستخبارات الباكستانية في الوقت نفسه، تستخدم شبكة البنية التحتية الحدودية التي أنشأتها حديثاً، مثل نقاط التفتيش ومخيمات التدريب والطرقات المنشأة حديثاً والكهوف والمستودعات حول بيروتس بيك وإقليم باكتيا، وذلك من أجل صدّ تقدم القادة الجهاديين المعارضين لحكمتيار، وإجبار القادة المستقلين على الانضمام إلى حزبه. وبالإضافة إلى ذلك، بدا الدليل الظرفي مخيفاً: فمع انسحاب جنود الاتحاد السوفياتي، وضع حكمتيار و «الآي.أس.آي.» خطة مشتركة سرية من أجل القضاء على منافسيه، وتأسيس حزبه الإسلامي الذي يسيطر عليه الإخوان المسلمون، ليصبح القوة الوطنية العظمى في أفغانستان(291).

قتل مسلحون على دراجات نارية في يونيفرسيتي تاون، الشاعر والفيلسوف الأفغاني، سيّد بهو الدين مجروح، الذي نشر بياناً ذا تأثير كبير، مروّجاً للملوك التقليديين والقيادة القبلية. وأفاد مركز المعلومات الأفغاني المستقل برئاسة مجروح، في استطلاع له، أنّ سبعين في المئة من اللاجئين الأفغان يدعمون الملك ظاهر شاه المنفي بدلاً من القادة الجهاديين المتمركزين في بيشاور، أمثال حكمتيار(292). لم تحدث أي عمليات اعتقال في قضية قتل مجروح، لكنّ الأفغان ومركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، استنتجوا أنّ الضربة مبكرة ومرعبة، وقد شنّها حكمتيار ضدّ اختيار ظاهر شاه رئيساً على أفغانستان بعد رحيل السوفيات(293).

طُرح اسم أحمد شاه مسعود للمداولة: في الفترة التي قُتل فيها مجروح، اختُطف شقيق مسعود الأكبر، دين محمد، وقُتل على أيدي معتدين مجهولين بعد ساعات على زيارته
القنصلية الأميركية في بيشاور من أجل تقديم طلب الحصول على تأشيرة سفر. اعتقد أشقاء مسعود لأعوام أن الخلية الأفغانية التابعة لـ «الآي.أس.آي.» هي التي نفذت العملية على الرغم من أنهم لم يستطيعوا تأكيد ذلك(294).

سمع ماك وليامز في كيتا تقارير مفصلة عن تحالف الاستخبارات الباكستانية مع حكمتيار بغية عزل القادة المنافسين وهزمهم حول قندهار. وتكفّل ضباط «الآي.أس.آي.» المحليون بدفع تكاليف الطعام والتبرعات المالية كي يحصل القادة الذين وافقوا على الانضمام إلى قوات حكمتيار، على إمدادات كافية للمقاتلين والمدنيين في المناطق التي يسيطرون عليها. أمّا القادة الذين لم يوافقوا على الانضمام إليه، فقد يعانون المجاعة، ولن يتمكنوا من دفع الأموال لرجالهم، أو توفير الحبوب لقراهم. علم ماك وليامز أنّ «الآي.أس.آي.» استخدمت نظام تصريح المرور لتتأكد أن القادة الذين يحملون تصريحاً هم الوحيدون الذين يحصلون على إمدادات عبر الحدود الأفغانية. وفي الوقت نفسه، استعملت الاستخبارات الباكستانية والمتطوعون العرب الذين يقاتلون حول باكتيا،
تصريحاتهم من أجل بناء الطرقات والعيادات ومخيمات التدريب، وإقناع القادة المحليين بأنهم لن يتمكنوا من إخراج جرحاهم بسرعة ومعالجتهم على أيدي أطباء أكفاء، إلا عن طريق الانضمام إلى القوات. ونقل شهود عيان أفغان أنّهم رأوا ضباط «الآي.أس.آي.» وقادة حكمتيار يشنون، جنباً إلى جنب، هجمات على المجاهدين المنافسين حول قندهار. اشتكوا إلى ماك وليامز من أن جماعة حكمتيار تحصل على تصريحات تفضيلية لدخول مخيمات التدريب المحلية ومخازن الأسلحة.
وقال الأفغان العلمانيون التابعون للقيادة القبلية الصغيرة المنفية، ولطبقات التجار، إنّهم حذّروا الأميركيين والسعوديين، منذ زمن طويل، من أنّهم «بحق الله، تقومون بتمويل قاتليكم». إلا أنّ الاستخبارات الباكستانية أقنعت الأميركيين بأنّ الإسلاميين الأكثر راديكالية وحدهم قادرون على المحاربة بتصميم.

كان ماك وليامز، طوال حياته، محارباً قاسياً وشغوفاً، واعتقد مثل رجال الفكر المحافظين في واشنطن أنّ كفاح «السي.آي.إيه.» الطويل كي تعقد أفغانستان «العزم»، عادل أخلاقيّاً، ومبرّر. وصُعق عندما اكتشف أنّ السلطة الأميركية ومليارات الدولارات التي قدمها دافعو الضرائب، قد

اختطفت في نهاية الحرب على أيدي إسلاميين عنيفين متآمرين ضدّ أميركا، وعلى أيدي ضباط في الاستخبارات الباكستانية مصممين على فرض إرادتهم في أفغانستان.

في أواسط شهر تشرين الأول/أكتوبر العام 1988، جلس ماك وليامز في القسم الدبلوماسي داخل السفارة الأميركية في إسلام آباد، وطبع على نظام التلكس البدائي والآمن برقية من ثمان وعشرين فقرة بعنوان ««آي.أس.آي.». وقلب الدين والعزم الأفغاني»(295). حملت البرقية التي تتحدث عن الدعم الأميركي للاستخبارات الباكستانية والاستخبارات السعودية والثوار الأفغان الإسلاميين، المعارضة الداخلية الأكثر تفصيلاً في تاريخ قنوات الحكومة الأميركية الرسمية في تلك المرحلة. وتمّ توزيع البرقية في وزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.» ومجلس الأمن القومي، وعلى بعض أعضاء الكونغرس.

يشعر الأفغان المنتمون إلى الإطار الأيديولوجي، وإلى خلفيات واسعة التمثيل، بخيبة أمل تتعدى حدودها لتصل إلى العدائية تجاه حكومة باكستان والولايات المتحدة... يبدو أن هذا الشعور لا سابق له كما أنه في ازدياد مستمر... وتؤكدّ معظم الملاحظات أن هذا المجهود (من قبل حكمتيار و «الآي.أس.آي.») يحظى بدعم الحزب السياسي الباكستاني الراديكالي، جماعة الإسلام، بالإضافة إلى دعم العرب الراديكاليين. قد تكون هذه التهم مبالغاً فيها، إلا أن الإدراك الذي تولده، عميق وواسع ومنذر بالسوء...

تحدّث ماك وليامز، في سياق كتابته التقرير، مع دبلوماسيين ومحللين أميركيين «ليسوا في موقع يسمح لهم بالتحدث بصراحة، لأنّ الأجواء كانت في الواقع مخيفة». شعر بأنه يصف آراءهم بشأن مشكلة «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» وحكمتيار والعرب، بالإضافة إلى آرائه الخاصة(296).

تفجرت برقيته داخل السفارة الأميركية في إسلام آباد كقنبلة قذرة. فعلى الملحقين العسكريين عادة أن يمرروا برقياتهم التحليلية عن طريق السفير، إلا أن ماك وليامز كان يتمتع بمركز شبه مستقل. شعر بيردان بالغضب بسبب «هذا النذل الصغير». ورأى ضباط «السي.آي.إيه.» أنّ المعلومات التي حصل عليه ماك وليامز خاطئة. فهو لم يكن قادراً على الولوج إلى جميع معلوماتهم السرية التي سجّلت كيفية إدارة «السي.آي.إيه.» شبكتها التقريرية الأفغانية الأحادية الجانب، ودعمها مسعود وعبد الحقّ، وكيفية تلاعب الوكالة في «الآي.أس.آي» سعياً وراء منع حكمتيار من السيطرة على خطوط إمدادات الأسلحة. بالإضافة إلى ذلك، أهمل بيردان الانتقادات التي تعرض لها حكمتيار كجزء من حملة «الكي.جي.بي.» الدعائية.

وجد ضباط «السي.آي.إيه.» على صعيد شخصي وحدسي، أنّ ماك وليامز غير متساهل،

وفاقد حس الفكاهة، وغير متعاون. تورط ماك وليامز داخل سفارة كابول بجدال إداري تضمن اتهام ضابط في «السي.آي.إيه.» بإقامة علاقات غير شرعية مع أفغان. وأفادت التقارير المرسلة إلى مركز إسلام آباد. أن ماك وليامز قدّ وشى بضابط «السي.آي.إيه.» المتورط. فرأى بيردان أن وليامز قد عرّض من خلال سلوكه هذا، حياة الضابط للخطر. وقد أثارت برقيته غضب أوكلي وبيردان، لأنها تحدّت افتراضات «السي.آي.إيه.» حول قضية الجهاد(297).

وجد ماك وليامز أنّ أوكلي ونائبته بيث جونز وبيردان، واثقون كثيراً بالسياسة الأميركية المتعلقة بالاستخبارات الباكستانية، من خلال توقيعهم إياها. ورأى أن أوكلي دبلوماسي كفوء وذكي، إلا أنه كان في الوقت نفسه مهولاً وفظّاً. أمّا أوكلي وبيردان فقد وُلدا في تكساس: تصبح المشكلة مزدوجة عند اجتماعهما معاً، فهما يثيران الصخب والضجيج، ويُظهران ثقة بالنفس تصل إلى حد العجرفة. أثار بيردان مرة غيظ أوكلي أمام مجموعة من الزملاء في الوكالة، فقال له: «يقر الجميع بأنك سافل غبي، لكنني صححت لهم، وقلت: «أوكلي ليس غبياً»».

شعر ماك وليامز من جهته، بأنه يبادر إلى إجراء نقاش سليم بشأن الافتراضات التي تحيط بالتحالف بين الولايات المتحدة و «الآي.أس.آي.»، فلمَ قد يُغضب ذلك زملاءه إلى هذا الحدّ؟ لكنهم غضبوا حقاً. ويذكر ماك وليامز أنّ حلفاءه السريين في السفارة الأميركية والقنصليات في باكستان، فتحوا قناة خلفية من أجل إبقائه مطلعاً على عمق الشرخ الذي خلّفه بين أوكلي وبيردان. وأفشى مخبرو المبعوث أنّ السفارة الأميركية في إسلام آباد بدأت تحقيقاً داخلياً سرياً حول نزاهة ماك وليامز مباشرة بعد تسلمها البرقية التي تحدث فيها عن حكمتيار و «الآي.أس.آي.». طرحت «السي.آي.إيه.» أسئلة جديّة حول معالجته المواد السرية، وراقبت السفارة سلوكه، وطرحت أسئلة على الذين عرفوه: هل كان ماك وليامز مثلي الجنس؟ يبدو أنه كان يفرط في احتساء الكحول. هل كان يعاني إدمان الكحول؟

تنقّل الكاتب الروسي أرتيوم بوروفيك برفقة الفيالق الأخيرة في الجيش السوفياتي الأربعين، بينما تهيأت للخروج من كابول وسلوك طريق سلانغ العام المغطى بالثلوج في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير من العام 1989. كانت هذه الفترة مدهشة بالنسبة إلى الصحافة السوفياتية والمؤسسة العسكرية، فهي مرحلة حديثة من المعارض العلنية والخطب غير المراقبة. قال المقدّم أوشاكوف لبوروفيك: «كانت الحرب غريبة، دخلنا عندما كان الركود في أوجه، وها نحن الآن نرحل بينما الحقيقة في قمة ثورتها».

تساقطت أوراق شجر الكينا في قعر حوض السباحة الفارغ في مجمع السفارة السوفياتية المبني من الباطون المسلح، والمزود بوابة من الحديد في كابول، في آخر الشارع، حيث تقع حديقة الحيوانات. أصر رئيس «الكي.جي.بي.» في السفارة على المشاركة في مباراة كرة المضرب التي تقام كل نهار جمعة بشكل اعتيادي. كتب بوروفيك أنّ الشوط الذي يستمر أربعين دقيقة «كان رائعاً جداً بالنسبة إلي، على الخصوص عندما كانت تحلق المروحيات المموهة التي توفر التغطية للقوات

الجوية فوق رأسه الأشيب». يبدو الآن أن نهاية الحرب الباردة تلقت أصداء خارج أفغانستان. تساءل السفير البولندي: «من يدري أيَّ مكان قد يشعر المرء فيه بالأمان، هذا المكان أم بولندا؟». واستمر الحرس السوفياتي القديم في مراقبة انسحاب قافلة الدبابات الأخيرة بمرارة. قرأ جنرال لبوروفيك مقطعاً من نسخة بالية من كتاب حول أسباب خسارة روسيا في حربها مع اليابان في العام 1904: «في الأعوام القليلة الأخيرة، ترأست حكومتنا بنفسها الحركة المعارضة للحرب».

كان بوريس غروموف، قائد الجيش الأربعين الأخير. كان قصيراً وسميناً، وكان الشعر يحيط بوجهه. كان يخشى وادي بانشير، فقال لبوروفيك: «مسعود هناك بصحبة قواته التي يبلغ عددها أربعة آلاف. إذاً، لدينا ما يكفي لنشعر بالقلق». أطلق قناص من الثوار في طريق سلانغ العام النار على جندي اسمه لاشينينكوف، وهو الضحية الروسية الأخيرة، فاخترقت الرصاصة رقبته. خرج من أفغانستان على نقالة مثبتة على سطح عربة مدرعة بينما كست الثلوج جثته(298).

في 15 شباط/فبراير، التاريخ الذي حددته اتفاقية جنيف من أجل انسحاب القوات السوفياتية الأخيرة، أقام غروموف احتفالاً من أجل وسائل الإعلام الدولية فوق جسر ترميز الذي بقي صامداً على الرغم من محاولات «الآي.أس.آي.» العديدة لإقناع القادة الأفغان بهدمه. أوقف غروموف دبابته وسط الجسر وخرج من القمرة ومشى في اتجاه أوزباكستان، بينما اقترب منه أحد أبنائه حاملاً باقة من القرنفل(299).

أقام مدير «السي.آي.إيه.» وليم وبستر، الذي عُيّن حديثاً، حفلة شمبانيا في المقر الرئيسي في لانغلي.

أقيم أيضاً احتفال في السفارة الأميركية في إسلام آباد. أرسل بيردان برقية إلى لانغلي كتب فيها: «انتصرنا». قرر تقديم الفصل الأخير من المسرح الخاص. أطلّ مكتبه الذي يقع في الطابق الثالث من مركز «السي.آي.إيه.» على مكاتب «الكي.جي.بي.» في السفارة السوفياتية التي تفصل بينهما أرض جرداء. كان بيردان يتأكّد من إبقاء أنوار مكتبه مضاءة، ويمزح مع نظرائه في «الكي.جي.بي.» أثناء الولائم الدبلوماسية حول العمل الشاق الذي يقوم به للقضاء عليهم. إلا أنّه أطفأ الأنوار في تلك الليلة(300).

سافر شيفاردنادزه إلى كابول المغطاة بالثلوج في تلك الليلة مع كروشكوف، رئيس «الكي.جي.بي.» السوفياتي. استضافهما نجيب الله وزوجته على مأدبة عشاء. عمل الرئيس الأفغاني طوال فصلي الخريف والشتاء كي تحظى قضيته بالدعم، آملاً استباق أي هجوم من قبل المقاتلين الأفغان، أو انهيار لحكومته سبق وتنبّأت به «السي.آي.إيه.» حديثاً. عرض نجيب الله على مسعود تسلّم وزارة الدفاع، وعندما أرسل مسعود رسالة يرفض فيها هذا المنصب، قرر الرئيس ترك المقعد خالياً، مشيراً إلى أنّه ملك لمسعود متى أبدى استعداده لذلك. دفع نجيب الله علاوات لقوات الحرس الخاصة المدربة من أجل الدفاع عن كابول، ونظم ميليشيات لحماية حقول

الغاز الشمالية التي تمدّ الحكومة بالدخل الوحيد الذي تعتمد عليه. قال لرعاته السوفيات إنّه يقوم بكلّ ما في وسعه.

رأت «الكي.جي.بي.» و «السي.آي.إيه.» أنّ نجيب الله هالك لا محال إن تخلّت القوات السوفياتية عن حمايته. عرض شيفاردنادزه على نجيب الله وزوجته في تلك الليلة أثناء العشاء، منزلاً جديداً في موسكو، في حال أرادا مغادرة كابول. خشي شيفاردنادزه على سلامتهما. أجابت زوجة نجيب الله: «نفضل أن نُقتل على عتبة هذا المنزل، بدلاً من الموت خزياً في عيون شعبنا إن اخترنا السفر والهرب من سوء حظّهم المرير. سنبقى جميعنا معهم هنا حتى النهاية، سواء أكانت سعيدة أم مريرة»(301).

لكنّ النهاية ستكون بالتأكيد مريرة.

# الجزء الثاني
# الرجل ذو العين الواحدة غدا ملكاً

**من آذار/مارس 1989 إلى كانون الأول/ديسمبر 1997**

## 10
## مخاطر جمّة

افتُتح مركزان تابعان لـ «السي.آي.إيه.» داخل السفارة الأميركية في إسلام آباد في أواخر فصل الشتاء من العام 1989، بينما انسحب آخر الجنود السوفيات عبر نهر أموداريا إلى خارج أفغانستان.

وصل غاري شروين، المنفي لفترة موقتة، إلى باكستان بعدما عُيّن أخيراً رئيساً لمركز كابول. عاش شروين بعيداً عن إسلام آباد منذ أن قام طلاب مشاغبون بالهجوم على السفارة قبل عقد من الزمن. عمل في عدد من دول الخليج العربية، وتولى العمليات الإيرانية التي أدارتها «السي.آي.إيه.». عُيّن في كابول في أواخر صيف العام 1988، إلا أنّه أُجبر على الانتظار في لانغلي بينما درس البيت الأبيض احتمال إغلاق السفارة الأميركية في العاصمة الأفغانية. وعندما صدر أمر بإنهاء المهمة لأسباب أمنية، سافر إلى إسلام آباد بغية الانتظار لبعض الوقت الإضافي. تجمهر بصحبة عدد من ضباط الاستخبارات المتجهين إلى كابول في مكتب ميلتون بيردان. منذ خسارة نجيب الله أمام المقاتلين الأفغان في ذلك الشتاء، وثق محللو «السي.آي.إيه.» في المقر الرئيسي، بأن شروين وفريقه سيتوجهان من باكستان إلى كابول ليساعدا على إعادة فتح السفارة وإعداد العمليات في بلد محرّر.

مرّت الأسابيع تلو الأخرى. صمد نجيب الله ومجلس وزرائه وجيشه بعزم. وشكّل الجيش الأفغاني وسط الثلوج الكثيفة، حلقة دفاعية جديدة حول العاصمة، أبقت الجهاديين عند أبعد نقطة من الخليج. أضاف نجيب الله عشرين ألف رجل دين (ملّا) على جدول رواتبه كي يتمكنوا من الإجابة عن رسائل الثوار الدينية. ولم يُظهر النظام الأفغاني، مع اقتراب شهر آذار/مارس، أي شقوق في صفوفه.

أخبر شروين زملاءه في إسلام آباد، أنّها لن تكون المرة الأولى ولا الأخيرة التي قد تخطئ فيها «السي.آي.إيه.». خرج من مهجع مزدحم داخل مجمع السفارة المحصن وهيأ غرفة في فندق لم يعرف اسمه، وأمر بتجهيز سيارات رباعية الدفع من أجل ضباط الاستخبارات، وطلب منهم

الاستقرار والاستعداد للرحلة الطويلة التي تنتظرهم. كان من الأفضل أن يعملوا بطريقة فعالة من داخل إسلام آباد.

وافق بيردان على تسلم فريق شروين في كابول مسؤولية قيادة الثوار الأفغان المدرجين على جدول رواتب «السي.آي.إيه.»، الذين بلغ عددهم الأربعين في الأشهر الأولى من العام 1989. تقاضى عدد من القادة الثانويين مبلغ خمسة آلاف دولار في الشهر، بينما تقاضى آخرون مبلغ خمسين ألف دولار. وقد عمل بعضهم لحساب حكمتيار. قامت «السي.آي.إيه.» بزيادة دفعاتها المالية لمنافس حكمتيار، مسعود، الذي تقاضى في السرّ أجراً شهريّاً بلغ مئتي ألف دولار. تضخم راتب مسعود جزئيّاً، فقد لاحظت «السي.آي.إيه.» أنّ الاستخبارات الباكستانية تسعى بانتظام إلى تخفيض المبالغ المالية المخصصة لتمويل قواته. أرسلت إليه الوكالة علاوة كبيرة بعدما تعرضت لضغط من مؤيديه في الكونغرس، آملة أن يضغط قائد بانشير بدوره على خطوط إمدادات الحكومة الأفغانية الشمالية. وقد حاولت «السي.آي.إيه.» إبقاء هذه الدفعات سرية عن الاستخبارات الباكستانية(302).

تسلم مسعود وقادة أفغان آخرون في شبكة «السي.آي.إيه.» الأحادية الجانب، أجهزة اتصالات مؤمَّنة ذات برمجيات متخصصة تتيح لهم إرسال تقارير مشفرة مباشرة إلى السفارة في إسلام آباد. تطلب نقل الرسالة وقتاً وانتباهاً من قبل ضباط الاستخبارات في السفارة. وتمّ تنظيم عدد من اللقاءات المباشرة مع مصادر في بيشاور وكيتا، وكان من المفترض التعامل مع كلّ مصدر بعناية كي لا تكتشف الاستخبارات الباكستانية أو الجهاديون المنافسون الأمر. فرضت الخطة على فريق ضباط الاستخبارات التابع لشروين، أن يأخذ معه عدداً من علاقاته مع العملاء الأفغان عندما يتسلم مركزه الجديد في كابول.

لكنّ ذلك كلّه اعتمد على النجاح في انتزاع العاصمة الأفغانية من قبضة نجيب الله. وضعت «السي.آي.إيه.» خطّة أخرى من أجل تحقيق هذه الغاية. تعاون بيردان وفريقه بشكل وثيق مع الاستخبارات الباكستانية في ذلك الشتاء، حتى عندما حاولوا منع رصد شبكة العملاء الأحاديي الجانب.

اقترح حميد غول، رئيس الاستخبارات الباكستانية، إسقاط نجيب الله عن طريق هجوم
الثوار على مدينة جلال آباد الأفغانية الشرقية التي تبعد مسافة بضع ساعات عن بيشاور عبر خيبر باس. وأعلن غول أنّهم سيتمكنون من إنشاء حكومة جديدة على الأراضي الأفغانية، وبدء التوجه نحو كابول، ما إن يستولي الجهاديون على جلال آباد. وسهّلت المسافة القصيرة والطرقات المفتوحة بين جلال آباد وبيشاور على «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» عملية نقل المساعدات(303).

أنشأت الاستخبارات الباكستانية حكومة أفغانية جديدة سيطرت عليها تنظيمات حركات الإسلام السياسي، وكان بإمكانها الانتقال إلى جلال آباد ما إن يتم الاستيلاء على المدينة. وتم، في شباط/ فبراير 1989، في فندق في راولبندي، استدعاء مفوضين أفغان لعقد مجلس شورى استشاري من أجل انتخاب قادة سياسيين جدد. بعدما قدّم قسم الاستخبارات السعودية التابع للأمير تركي الفيصل أموالاً بقيمة 25 مليون دولار أميركي، تمكّن حميد غول وزملاؤه في مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية، من لي بعض الأذرع، ونشر الأموال في كل مكان إلى أن توافق المفوضون على مجلس وزراء للحكومة الأفغانية التي نصبت نفسها بالوكالة. وكي يمنع المفوضون حكمتيار أو مسعود من السعي وراء السلطة، اختاروا شخصيات قيادية ضعيفة، ووافقوا على إعادة توزيع المناصب. جرت مشاحنات كثيرة، فغادر حكمتيار الجلسة غاضباً تماماً كما فعل آخرون. حاول حميد غول أن يبرهن لنظرائه الأميركيين أنّه أقله تمّ تسجيل حكومة ثوار جديدة رسمياً، وشعر بأن الضغط العسكري يجب أن يوجه بسرعة إلى المدن الأفغانية «من أجل تحقيق انتقال السلطة» إلى الثوار، وإن لم يتم ذلك، «فستعمّ الفوضى أفغانستان أثناء فترة الفراغ»(304).

أصبحت باكستان بالنسبة إلى «السي.آي.إيه.» مكاناً مختلفاً جدّاً عما كانت عليه أثناء الجهاد ضدّ السوفيات، ما صعّب متابعة العمليات السرية. اضطرت الوكالة الآن، إلى أن تأخذ في الاعتبار وجهات نظر غير وجهات نظر «الآي.أس.آي.»، فقد أصبح المدنيون والجيش يتقاسمون السلطة، والسياسيون الانتهازيون يناقشون جميع المسائل، بينما الصحافة المستقلة تعلن معارضتها للوضع. كانت بنازير بوتو رئيسة الوزراء الباكستانية المنتخبة حديثاً، وهي سياسية في السادسة والثلاثين من عمرها، جميلة المظهر وفاتنة الشخصية ومنهمكة بنفسها، ولا تتمتّع بأي خبرة في شؤون الحكومة. كانت في بلادها القائدة الأولى التي يتم انتخابها في عملية ديموقراطية منذ فترة تجاوزت العقد من الزمن. تسلّمت مركزها بدعم أميركي، وعملت على تشجيع العلاقات الأميركية مع بلادها. ترعرعت بوتو في عالم من الألقاب الأرستقراطية المطلية بالذهب، ودرست في كلية رادكليف في جامعة هارفارد، واكتسبت عدداً كبيراً من الأصدقاء في واشنطن. اعتبرت أنّ حلفاءها الأميركيين ثقل موازن لخصومها في قيادة الجيش الباكستاني، أي قيادة الأركان العسكرية التي أوصلت والدها إلى حبل المشنقة قبل عقد من الزمن.

لم تثق بوتو بشكل خاص بالاستخبارات الباكستانية. علمت بأن «الآي.أس.آي.» التي يديرها حميد غول تتنصت على خطوط هاتفها، وتحرّك معارضة ضدّها داخل مجلس النواب المنتخب حديثاً في البلاد. بعد أن صُعقت قيادة الجيش الباكستاني بخبر وفاة ضياء الحق، صدّقت في خريف العام 1988 على إعادة إرساء الديموقراطية، إلا أنّ الجنرالات توقعوا الاحتفاظ بسيطرتهم على شرطة الأمن القومي. تقبل قائد الأركان في الجيش، ميرزا إسلام بيغ، دور بوتو، إلا أنّ آخرين في قيادة الأركان، وعلى الخصوص بعض الضباط الإسلاميي النزعة الذين كانوا مقربين من ضياء الحق، اعتبروها علمانية واشتراكية ومعادية للإسلام. كان ذلك صحيحاً، على الخصوص داخل مكتب «الآي.أس.آي.»، المعني بالشؤون الأفغانية. قالت بوتو لمستشار السياسة الخارجية، إقبال أخوند، أثناء رحلة إلى الصين في العام 1989: «أتساءل إن كانوا سيقبلون إجراء الانتخابات لو علموا أنّنا سنفوز». أجابها أخوند وهو يسخر من كفاءة «الآي.أس.آي.»: «تدينين بفوزك برئاسة

الوزراء لوكالات الاستخبارات التي قدمت إلى الحكومة التخمينات التي تتوق إليها بشأن نتائج الانتخابات، أو ما يمكن أن تؤول إليه مثلما تفعل دائماً».

طلب السفير الأميركي، روبرت أوكلي، من زملائه في السفارة التحرك بحذر وخفة. لا بدّ من أن تستمر «السي.آي.إيه.» بالتعاون عن كثب مع «الآي.أس.آي.» من أجل هزيمة نجيب الله في أفغانستان. أمل أوكلي في الوقت نفسه دعم بوتو قدر استطاعته ضدّ الجهود السرية التي تبذلها الاستخبارات الباكستانية لإسقاطها(305).

برز الجهاد الأفغاني غير المنتهي تحدّياً أول ستواجهه بنازير في السياسة الخارجية، أي في محاولتها الأولى فرض السلطة على «الآي.أس.آي.» في قضايا الأمن القومي الرئيسية. طلبت في 6 آذار/مارس عقد اجتماع في إسلام آباد «للخلية الأفغانية» في الوكالات الداخلية من أجل مناقشة اقتراح حميد غول الذي يقضي بمهاجمة جلال آباد. لم يحضر أي أفغاني الاجتماع. شعرت بوتو بالقلق تجاه «الآي.أس.آي.»، فدعت أوكلي إلى حضور الاجتماع. لم يحصل أوكلي على أي تعليمات من واشنطن حول كيفية التصرف أمام مجلس
الأمن القومي الباكستاني، لكنّه حضر على أي حال.

ناقشوا مسائل عديدة: هل ينبغي لباكستان، أو ربما للولايات المتحدة، أن تعيد على الفور تنظيم الحكومة الانتقالية الأفغانية التي أنشأتها «الآي.أس.آي.»، أم الانتظار ريثما تستولي على أراض داخل أفغانستان؟ رأى يعقوب خان، وزير الخارجية في حكومة بوتو، أن الثوار بحاجة إلى أن يبرهنوا أنّهم «ليسوا مجرد رجال أنيقين يتنقلون في سيارات مرسيدس حول أفغانستان». هل عليهم تشجيع المقاتلين الأفغان على الاندفاع في اتجاه جلال آباد المحصنة جيداً، أم المضي ببطء أكثر؟ لقد وضعت الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» خطة عسكرية مفصلة من أجل الاعتداء على جلال آباد. أرادتا التحرك بسرعة. جمعت «الآي.أس.آي.» خمسة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل أفغاني قرب المدينة، ثمّ جهّزتهم من أجل تنفيذ هجوم عسكري تقليدي مباشر على الحاميات. اختلفت هذه المقاربة كثيراً عن تكتيكات الضرب والهرب التي اعتمدتها في الحملة ضدّ السوفيات. إلا أنّ حميد غول وعد بوتو بأن جلال آباد ستسقط في أيدي الثوار في غضون أسابيع إن كانت «مستعدة للسماح بإراقة الدماء إلى حدّ ما». وتذكر بوتو أنّ عيني رئيس
«الآي.أس.آي.» كانتا «تشعان بالشغف». تحدّث غول بصرامة إلى درجة أنّها اعتقدت أنّ جلال آباد «ستسقط في 24 ساعة، فكيف بالأحرى في أسبوع».

أعلن غول: «لا يمكن وقف إطلاق النار في جهاد ضد الملحد الماركسي»، «لا بد من أن تستمرّ الحرب حتى تنظف دار الحرب وتصبح دار أمان». كان أوكلي هو أيضاً متفائلاً(306).

هبّت «السي.آي.إيه.» لتقديم المساعدة. عقدت لقاءات متكررة في راولبندي وبيشاور بين ضباط الاستخبارات التابعين لبيردان وشروين وضباط عسكريين من مكتب «الآي.أس.آي.» المعني

بالشؤون الأفغانية بقيادة الإسلاميين الملتزمين، العميد جونجوا والكولونيل إمام. كشف ضباط «السي.آي.إيه.» عن خطة سرية لقطع خط الإمدادات الرئيسي بين كابول وجلال آباد. كان الطريق الوحيد الذي تستطيع أن تسلكه العربات بين المدينتين، هو طريق ساروبي الذي يمتدّ على طول كيلومترات عبر صدع ضيّق ويتقاطع مع جسور هشّة. استوردت «السي.آي.إيه.» عبوات متفجّرة مخروطيّة الشكل مصمّمة كأحواض أزهار منزليّة كبيرة، وقادرة على إحداث فجوات ضخمة في الأرض.

استدعت الاستخبارات الباكستانيّة حوالى اثني عشر قائداً من منطقة ساروبي لعقد اجتماع داخل ملجأ في بيشاور. وزّع عملاء «السي.آي.إيه.» على الأرض صوراً التقطتها الأقمار الاصطناعية لطريق ساروبي. تحلّق الجميع حول هذه الصوّر للأفغان الملتحين والمعتمرين عمائم، وضباط الاستخبارات في «السي.آي.إيه.» المرتدين سراويل جينز زرقاء، وعملاء الاستخبارات الباكستانيّة المرتدين لباس السالوار المدني. خطّطوا أين سيضعون المتفجّرات، وأين ينصبون مواضع الرشّاشات الآليّة، من أجل الهجوم المباغت الذي كانوا يعدّون له، ضد مواكب نجيب الله.

لاحظ الأفغان أنّ شبّاك مصرف «السي.آي.إيه.» مفتوح، وأنّ كل قائد متمركزٍ ضمن نطاق 150 كيلومتراً من جلال آباد أصبح فجأة بحاجة إلى شاحنات تويوتا مزدوجة المقاعد لإتمام دوره في الهجوم. اشترت «السي.آي.إيه.» ذاك الشتاء من اليابان مئات الشاحنات التي تمّ شحنها إلى كاراتشي، ثمّ نقلها إلى بيشاور من أجل دعم الهجوم على جلال آباد(307).

اضطرّ الثوار عند اقترابهم من مراكز محددة حول جلال آباد، إلى أن يعبروا حقول ألغام خلّفها السوفيات. لقد تدرّب الأفغان على إرسال البغال أمامهم لتمشيط الحقول. كانوا يربطون قطعاً خشبية طويلة بحبال تجرّها البغال خلفها، ويرسلونها عبر حقل الألغام لتفجير العبوات المدفونة.

شرح قائد أفغاني لغاري شروين فور اندلاع معركة جلال آباد: «أعرف أنّك لا تحبّذ هذه الطريقة، لكنّها أفضل من استخدام البشر».

ردّ عليه شروين قائلاً: «أجل، إنّما لا تلتقط أيّ صور، لا أحد في واشنطن يريد رؤية صور حمير صغيرة تتفجّر»(308).

لكنّ الصوّر التي شاهدوها كانت أسوأ: فما إن أذابت شمس الربيع الثّلوج عن الممرّات الشرقيّة، حتى تدفق مئات الفتيان والشبان الأفغان من سلسلة الجبال الصخرية بعدما تمّ تجنيدهم في مخيّمات اللاجئين للمشاركة في حملة جلال آباد العظيمة، فوقعوا ضحية وابل من نيران الأسلحة الرشاشة التي أطلقها مجندو الحكومة المرعوبون. حلّقت القوات الجوية الأفغانية من كابول على متن طائرات مقاتلة سوفياتية الصنع، وقصفت المهاجمين في السهول الواسعة من علوٍّ مرتفع. كما

أطلق مستشارون سوفيات بقوا سرّاً بعد الانسحاب السوفياتي الرّسمي، عشرات الصواريخ من نوع سكود التي انهمرت بعنف مصمّ للآذان على مواقع الجهاديين. واندفع المقاتلون الأفغان في اتجاه ضواحي جلال آباد، لكنّهم توقّفوا
بعدما أثير جدال بين القادة بشأن انتشار القوّات. شارك ضبّاط «الآي.أس.آي.» في الهجوم، لكنّهم فشلوا في توحيد قوّاتهم الأفغانيّة المهاجمة وتنظيمها. مرّ أسبوع ولم تسقط جلال آباد. ثمّ مرّ أسبوعان وثلاثة. لكنّ حميد غول أكّد لمساعدي بوتو المدنيّين أنها «ستسقط حتماً». ارتفعت حصيلة الضحايا بين صفوف المقاتلين الأفغان، بينما كانت سيّارات الإسعاف التّابعة للمنظّمات الخيريّة العربيّة والدوليّة تتسابق ذهاباً وإياباً إلى بيشاور. وعند حلول شهر أيار/مايو، كان عدد القتلى والجرحى قد بلغ الآلاف وفقاً للوائح، إلا أنّ جلال آباد ومطارها كانا لا يزالان في قبضة نجيب الله. وعلى الرغم من كمية المتفجرات والشاحنات التي تم شحنها، فشلت «السي.آي.إيه.» في إغلاق طريق ساروبي.

ظهر نجيب الله في كابول أمام الصحافة الدولية متحدّياً وجريئاً، فبدأ جنرالاته ورعاته السوفيات بالتشجع: ربما تفادي الانتصار الثوري في كابول ليس أمراً مستحيلاً في النهاية. سمح غورباتشيف بتقديم إمدادات ضخمة إلى نجيب الله في ذلك الربيع. أرسلت الحكومة السوفياتية المحتضرة على متن طائرات شحن ضخمة حطّت في قواعد جوية في أوزباكستان، أطعمة وأموالاً بلغت قيمتها الشهرية 300 مليون دولار، أي ضعف المساعدات التي قدمتها «السي.آي.إيه.» والاستخبارات السعودية إلى الجهاديين(309). وحلّقت طائرات الشحن النفاثة السوفياتية، «إيليوشن 76»، الواحدة تلو الأخرى، فوق وادي كابول، كأنها زواحف مجنحة تقذف بالونات حرارية مضيئة بغية تحويل مسار صواريخ ستينغر الحرارية لتتمكن من الهبوط في المطار الدولي، أو في قاعدة باغرام الجوية في الشمال. وعززت قذائف الهاون وصواريخ سكود التي أطلقتها يومياً القوات الحكومية معنويات المجندين في كابول، ودعمت سلطة الميليشيات الإثنية والقبلية الجديدة التابعة لنجيب الله التي كانت لا تزال في السلطة.

شعر ضباط «السي.آي.إيه.» العاملون من بيشاور بالخيبة، فجندوا قائداً شيعياً أفغانيّاً في شرق كابول معروفاً بعمليات التفجير المدنية الوحشية التي قام بها بغية زيادة حدة عمليات التخريب في العاصمة. زودوا مقاتليه الشيعة (الهزارة) صواريخ ستينغر من أجل محاولة إسقاط إحدى طائرات الشحن، إيليوشن، آملين إيصال رسالة إلى السوفيات تفيد أنهم سيدفعون ثمن هذه المساعدات المفرطة التي يقدمونها إلى نجيب الله. أدخل الفريق صاروخ ستينغر إلى ضواحي مطار كابول، وأطلقوه على طائرة إليوشن عند إقلاعها، إلا أن أحد البالونات الحرارية الدفاعية الموجودة في الطائرة رصد نظام التعقب داخل الصاروخ فلم يتمكن من إصابة الهدف. أرسل الثوار شريط فيديو الهجوم الذي فشل. جنّدت «السي.آي.إيه.» عملاء كي يضيفوا حمأة الكربيد والبورون في صهاريج الغاز أو خزانات النفط في سيارات النقل من أجل تعطيلها(310). إلا أنّ معظم هذه العمليات لم تؤثر كثيراً في خطوط إمداد نجيب الله. وبقيت الحاميات في جلال آباد قائمة.

وسّعت مكاتب «الآي.أس.آي.» في بيشاور وكيتا حملاتها الدعائية ضدّ نجيب الله. وتمكنت بمساعدة «السي.آي.إيه.» من إدخال إعلانات معارضة لنجيب الله في أشرطة فيديو مهربة لأحد أفلام رامبو التي حصدت شعبية كبيرة في أفغانستان في ذلك الوقت، وشحنت الأشرطة عبر الحدود(311). شنّ نجيب الله حملته الدعائية الخاصة. ملأ المحطات الإذاعية والتلفزيونية ببرامج تشوه سمعة حكمتيار وأتباعه الإسلاميين، معتبراً إياهم رجال كهوف شياطين وجواسيس باكستانيين يحاولون سلخ أفغانستان من جذورها الثقافية.

كان من الصعب تحديد ردّ فعل المدنيين الأفغان تجاه تجارة الرعب هذه. تدفق اللاجئون إلى خارج إقليم ننغرهار هرباً من القتال المريع في جلال آباد. لكن، مع استمرار المأزق طوال فصل الربيع، خمدت حركة معظم المدنيين واللاجئين الأفغان، بينما عاش عدد كبير منهم في بؤس فترة طويلة ومتواصلة. انتظروا فوز تطرف أو آخر كي يعودوا إلى منازلهم.

عمّقت الكارثة الدموية في جلال آباد اقتناع ماك وليامز بأن «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» تسيران في الاتجاه الخاطئ. لم يتمكن من فهم السبب الذي جعل أوكلي يقبل التعاون القائم بين بيردان والاستخبارات الباكستانية وحلفائه المعادين لأميركا، وعلى الخصوص حكمتيار وسياف. كما شعر بالرعب لأن الولايات المتحدة خاطرت بسياستها في ذلك الربيع بسبب الحكومة الأفغانية بالوكالة، «هذا الوهم السقيم»، كما اعتبرها ماك وليامز، بعدما اشتراها عملاء الاستخبارات الباكستانية والسعودية، ودفعوا ثمنها.

جددت إدارة بوش المنتخبة في شهر شباط/فبراير، السلطة القانونية التابعة لعملية «السي.آي.إيه.» السرية في أفغانستان (على كلّ رئيس جديد تأكيد استمرار برامج العملية السرية تحت توقيع جديد). وعدّل الرئيس بوش الأهداف الرسمية للسياسة الأميركية. فقد تحقق هدف حقبة ريغان الذي يقضي بانسحاب السوفيات. ووفقاً للقرار الذي تمت مراجعته، أصبح الهدف الرئيسي وراء استمرار عملية «السي.آي.إيه.» السرية، هو ترويج «عزم» الشعب الأفغاني. ترددت أصداء هذه الجملة منذ الثورة الأميركية، فروجها محافظو الكونغرس الذين أيدوا قضية الجهاديين الأفغان(312).

استنتج ماك وليامز أن تحقيق «العزم» الأفغاني الحقيقي يتطلب إنهاء العلاقة بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية. رأى شيئاً فشيئاً أنّ «الآي.أس.آي.» وجدول أعمالها الإسلامي، هما العائق الأكبر في وجه الاستقلال الأفغاني، وليس الشيوعية.

ازداد التوتر داخل سفارة إسلام آباد. توقفت التحقيقات بشأن احتساء ماك وليامز الكحول، وبشأن عاداته الجنسية. فقد تبين أنها غير صحيحة، إنما استؤنفت تحقيقات جديدة حول إقامته تسوية تتعلّق

بمعطيات سرية. أصر بيردان، بدعم من أوكلي، على أن يرافق ضباط استخبارات تابعون لـ «السي.آي.إيه.» ماك وليامز أثناء رحلاته التقريرية الدبلوماسية إلى بيشاور وكيتا. اعترض ماك وليامز على ذلك شاعراً بالإهانة والغضب، فصمم أكثر من قبل على التعبير عن آرائه.

أصبحت الآن جميع البرقيات التي تصل إلى واشنطن سبباً للألاعيب والأحاجي داخل جناح الاجتماعات في السفارة. كان أوكلي يكتب تقارير معترضة على مسودات ماك وليامز الذي يقوم بمحوها أو تجاهلها، ثمّ يتابع إرسال البرقية بصفته الشخصية. رأى ماك وليامز أن أوكلي أخفى مذكرة كتبها حول استيلاء إيران على صواريخ ستينغر. في مناسبة أخرى، عندما كان ماراً قرب جهاز إرسال البرقيات، رأى رسالة رفيعة المستوى أرسلها أوكلي إلى واشنطن يحاول فيها أن يبرهن أنه من مصلحة أميركا قبول التأثير الباكستاني في أفغانستان. صُعق ماك وليامز، ونسخ البرقية بهدوء، ووضع النسخة عنها بين ملفاته الشخصية كسلاح يستخدمه لاحقاً(313).

ازدادت الآن انتقادات ماك وليامز لـ «السي.آي.إيه.»، لتتعدى وجهات نظره السابقة التي تقول إن الاستخبارات الباكستانية وحكمتيار حليفان خطيران لأميركا. رأى ماك وليامز أنه من خلال الموافقة على الحكومة الأفغانية بالوكالة، التي هي بمنزلة لعبة في يد «الآي.أس.آي.»، أصبحت الولايات المتحدة متورطة في السياسات الأفغانية للمرة الأولى، وقد خانت المبادئ الأميركية ومصالحها الخاصة عندما قامت بذلك.

عندما استعدت القوات السوفياتية في وقت سابق للخروج من أفغانستان، قررت الولايات المتحدة عدم مساعدة الأفغان على التفاوض على مرحلة سياسية انتقالية سلمية، لأن «السي.آي.إيه.» تؤمن بأن نجيب الله سيسقط بسرعة. كما خشيت «السي.آي.إيه.» أن تخفف المحادثات السياسية من سرعة عملية الانسحاب السوفياتي. رأى ماك وليامز أن الأحداث تجاوزت الآن هذه الحجج. فبالنسبة إليه، يجب أن تسعى الولايات المتحدة الآن إلى تهدئة استراتيجيتها العسكرية السرية، والبدء برعاية تسوية سياسية أشمل كي تمنع باكستان من تنصيب حلفائها المعادين لأميركا داخل كابول، ولتحدّ من معاناة المدنيين الأفغان، وتبني سياسات مستقرة ومعتدلة في أفغانستان.

كتب ماك وليامز ذلك الربيع في برقية سرية أرسلها عبر قنوات وزارة الخارجية المعارضة، أن الحكومة الأفغانية بالوكالة، أي مجلس الوزراء الذي تشكل من أجل السيطرة على المدن التي احتلها الإسلاميون التابعون لـ «الآي.أس.آي.»: «هي الوسيلة الخاطئة لاستباق هدف السياسة الأميركية السديد الذي يقضي بإنشاء حكومة أفغانية نموذجية من خلال العزم الأفغاني» (القناة المعارضة هي نظام خاص لإرسال البرقيات يسمح للدبلوماسيين بالتعبير عن آرائهم الشخصية من دون أن يشرف عليها السفير). وكتب ماك وليامز أنّ عدداً كبيراً من الأفغان قاموا الآن «بالمطالبة بتسوية سياسية مبكرة للحرب». وحدها «حكومة مستقرة نسبياً، قادرة على مواجهة المشاكل الجمة التي ستنتج من إعادة التأهيل وعودة اللاجئين في الفترة التي ستلي الحرب الأفغانية». ستقوم مجموعة كبيرة من رجال الفكر الأفغان الذين يعيشون في الخارج «بالاستعداد من أجل وضع

مهاراتهم ومصداقيتهم في خدمة إدارة حيادية تلعب دور جسر يرتفع فوق الوضع العسكري الراكد والحوار العاقر الناتج من الحملات الدعائية المتبادلة». إلا أن الولايات المتحدة كانت تنوي انتظار طوال «فصل [الصيف] القتالي» قبل أن تفكر في إجراء محادثات سياسية مماثلة. «ستنتج [من هذا القرار] مخاطر جمة... [و] لا يمكن تبريره لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الإنسانية».
«علينا الإسراع الآن من أجل إيجاد تسوية سياسية»(314).

تنقلت برقيات ماك وليامز في أرجاء واشنطن. ومع انتشار إشاعات حول خلافاته الحادة مع بيردان وأوكلي، جذبت ادعاءاته المتعلقة بالسياسة مهتدين جداً. صادق مكتب استخبارات وزارة الخارجية على ماك وليامز سرّاً، مستشهداً بأجزاء من الدليل المفصل في برقياته. كما رجّح ضباط الاستخبارات البريطانية في إسلام آباد ولندن كفته. وبعدما دعموا الجهاد المناهض للسوفيات في وقت سابق، أرادوا الآن أن تبتعد «السي.آي.إيه.» عن حكمتيار وعن الحل العسكري الذي تترأسه «الآي.أس.آي.». كان لا بدّ من أن تستمر الإمدادات العسكرية بالتدفق إلى الجهاديين، وأن يتابع الضغط في ساحة المعركة على قوات نجيب الله الحكومية. كما حان الوقت للعمل مع الأمم المتحدة من أجل تطوير تسوية سياسية لأفغانستان. قد تتضمن التسوية حكومة انتقالية، حيادية، تتألف من شخصيات فكرية
أفغانية تعيش في أوروبا والولايات المتحدة، ومن تكنوقراط في كابول، ومقربين إلى الملك من قندهار وقادة ثوار محنكين سياسيّاً مثل مسعود(315).

بقيت «السي.آي.إيه.» عازمة على دعمها للاستخبارات الباكستانية. اعتبر بيردان أن ماك وليامز أكثر من مجرد مصدر إزعاج، وشعر بأنّه يأخذ نفسه ومكتبه على محمل الجدّ أكثر مما يجب. تم وضع مايكل أرماكوست وآخرين في الطابق السابع من المقر الرئيسي، حيث صاغ المسؤولون الأبرز، سياسة وزارة الخارجية المعنية بالشؤون الأفغانية. على أي حال، رأى بيردان أنّ ماك وليامز ومؤيديه المتوسطي الرتبة في وزارة الخارجية وفي بريطانيا (الذين خسروا حربين في أفغانستان وفقاً لما أشار إليه بيردان بوضوح)، ارتكبوا خطأً عندما آمنوا بوجود أفغانستان سياسية منفصلة عن باكستان «فقط لأنّ بعض الرجال البيض رسموا خطاً في الرمال» منذ قرن في شمال شرق الهند حيث تسيطر بريطانيا. وكلما تحدّث عدد أكبر من المسؤولين في وزارة الخارجية عن خطّ ماك وليامز، حاول مقرّ لانغلي أن يبرهن العكس. أصبحت الجدالات بين الوكالات لاذعة، بينما توقعت «السي.آي.إيه.» إحراز انتصار ثوري باهر على نجيب الله، ما أدى إلى حالة من الركود الساحق(316).

شعر عملاء الوكالة بأنهم عملوا على تعديل مقاربتهم في أفغانستان بوسائل متنوعة منذ بدء الانسحاب السوفياتي. ردوا على الانتقادات الخارجية عن طريق تخطيهم لـ «الآي.أس.آي.» وفتح خطوط سرية مباشرة مع قادة أفغان أساسيين، مثل مسعود. حولوا مسار التمويل والدعم اللوجيستي الذي زودتهم به «السي.آي.إيه.» في اتجاه الجهود الإنسانية المكثفة على الحدود الأفغانية، من أجل ملازمة سياسة الضغط العسكري. وأعلنوا للأشخاص الذين يملكون التصريحات المناسبة، أن مشكلة ماك وليامز تكمن في ابتعاده عن قنوات المعلومات الفائقة السرية التي تعرّض نطاق سياسة

«السي.آي.إيه.» السرية بأكمله. فعلى سبيل المثال، في أيار/مايو العام 1989، عندما كان ماك وليامز يكتب اعتراضاته الأكثر ثورية، سلّم غاري شروين شخصيّاً دفعة بلغت قيمتها 900 ألف دولار أميركي إلى شقيق مسعود، أحمد ضياء، بالإضافة إلى راتب مسعود الذي يلامس عتبة المئتي ألف دولار من أجل المساعدة على تمويل برنامج إنساني لإعادة إعمار شمال أفغانستان. وقدم مسعود إلى «السي.آي.إيه.» صوراً للطرقات التي رُممت ومشاريع الري التي يعملون على إنجازها على الرغم من أن ضباط الوكالة شككوا في أن المشاريع المصورة أُنشئت بطريقة مباشرة بفضل تمويلاتهم. على أي حال، حاولت «السي.آي.إيه.» أن تؤكد أن دفعاتها النقدية هي بمنزلة مبادرة سياسية جديدة: يملك مسعود الموارد اللازمة ليفوز بالدعم المدني من أجل الميليشيات والمجالس المحلية وإعادة إعمار بانشير. لم يكن ماك وليامز على دراية بهذه الأموال السرية. كما رأى بعض ضباط «السي.آي.إيه.» أن تحليلاته جاءت معارضة للأميركيين. اعتبروا أنّ تشريعات الحلّ السياسي التي يدعمها ماك وليامز والبريطانيون ووزارة الخارجية، ساذجة. لا يمكن إنشاء حكومة مستقرة في كابول من دون الدعم الباكستاني. لا يوجد أي حكومة مرجحة في جميع الأحوال. صمم الثوار الأفغان المنتمون إلى جميع الأحزاب، سواء أكانوا إسلاميين أم مؤيدين للملكية، متشددين أم معتدلين، على إنهاء جهادهم العسكري. هذا ما عناه «العزم» بالنسبة إليهم. كما رأوا أنه من الممكن إدارة شبكات حكمتيار والإخوان المسلمين، واحتواؤها(317).

شعر أوكلي بشكل متزايد بأنه محتجز في الوسط. تنقل بحذر بين الطرفين. رأى أوكلي أنّ مشكلة ماك ويليامز تكمن في محاولته إعادة هيكلة سياسة البيت الأبيض من مستويات البيروقراطية الوسطى. يستحيل تنفيذ ذلك، بكل بساطة. فمن الواضح أن وزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.» لا تتفقان حول قضية أفغانستان، إلا أنّه من الضروري أن يحلّ الرئيس وإدارته هذا الخلاف في واشنطن، وليس داخل سفارة إسلام آباد.

أصبح جايمس بايكر وزير الخارجية الجديد بعد أن عمل محامياً في تكساس في خدمة قائد الأركان في البيت الأبيض، ومن ثمّ وزيراً للخزانة (المالية) أثناء إدارة ريغان. لم يُظهر اهتماماً شخصياً بمسألة أفغانستان أو باكستان. رأى أوكلي أنّ بيكر لا ينوي تحدي «السي.آي.إيه.» حول سياستها المتبعة في أفغانستان. وفي حال لم يكن مستعداً للقيام بذلك، لا تستطيع السفارة في إسلام آباد سوى العمل وفقاً للوضع الحالي الذي يضع «السي.آي.إيه.» في موقع القيادة، ويبقي الولايات المتحدة أسيرة تشابكها مع الاستخبارات الباكستانية(318).

كان على ماك وليامز في هذه الأثناء الرحيل. فقد أغضب باستمرار الشخصيات الثلاث الأكثر نفوذاً في السفارة: أوكلي، ونائبته بيث جونز، وبيردان. حصلوا على فرصة جديدة في ذلك الربيع عندما عين أعضاء الكونغرس مبعوثاً خاصاً رسمياً لدى المقاومة الأفغانية من الطاقم الدبلوماسي، وهو مشروع صغير رعاه غوردن هامفري. كان ماك وليامز حديث العهد في مركز الخدمات لتتم ترقيته إلى هذا المنصب الجديد، لذا انحصرت المسألة حول اختياره نائباً للمبعوث الجديد، أم لا. تدخل أوكلي ودبر نقل ماك وليامز بشكل مفاجئ خارج

سفارة إسلام آباد، وإحضاره إلى واشنطن. علم وليامز بأمر نقله عندما تلقى برقية تفيد أنّه تمّ قبول «طلب تقصير» فترة عمله عميلاً في إسلام آباد، بينما لم يكن على علم بأنه قدّم طلباً مماثلاً. كان أوكلي وبيردان قد طرداه فعلياً من دون أن يتركا سوى بصمات قليلة وراءهما.

كتب ماك وليامز رسالة وداعية إلى أوكلي، قال فيها: «كان في نيتي أن أرحل من دون إبلاغك بشكل رسمي». «لم أكن أريدك أن تعتبر ذلك إهانة. لا أريد أن أُنهي علاقتنا بشجار إضافي». شرح أن مشاكلهم لم تكن شخصيّة، إنما جوهرية. «اعتقدت، وما زلت حتى الآن أعتقد أننا أخطأنا في الاقتراب كثيراً من بعض الأفراد في التحالف، وأخطأنا في إعطاء «الآي.أس.آي.» قوة مماثلة، وأخطأنا الآن بعدم بحثنا بفعالية عن تسوية سياسية». كان يدرك أن أوكلي عمل بكدّ لإنجاح الحكومة الأفغانية بالوكالة التي أنشأتها «الآي.أس.آي.»، إلا «أنني لا أعتقد أنّ تلك المجموعة استحقّت جهودك. أفغانستان تستحق ذلك بالتأكيد، لكنّ الحكومة الأفغانية بالوكالة غير قادرة على التوحد أو القيادة».

أنهى ماك ويليامز رسالته قائلاً: «أتمنى لكم التوفيق في عملية التعيين الصعبة»، «أعتذر لأنني أصبحت بالنسبة إليكم جزءاً من المشكلة بدلاً من أن أكون جزءاً من الحلّ. ربما أخطأت، لكنني لا أظنّ ذلك»(319).

في وادٍ على بعد 12 كيلومتراً أو 16 كيلومتراً من باروت بيك عبر الحدود الأفغانية، وفي مكان ليس بعيداً عن المخيمات الكبيرة، حيث يتدرب الجهاديون المتطوعون العرب، أنشأ ضباط «السي.آي.إيه.» مركز اتصالات ليتمكن الثوار من نقل المعلومات السرية، كما ساعدوا على بناء غرف محصَّنة تحت الأرض وكهوف بدائية لتخزين الذخائر. «منقار» الأراضي الباكستانية، الذي يمتدّ داخل أفغانستان في هذه المنطقة من إقليم باكتيا، يشير مباشرة إلى كابول. وجد الجهاديون و «الآي.أس.آي.» طوال فترة الحرب، أنّ جباله العالية التي تفصل بينها وديان عميقة، هي مثالية من أجل التوغل ونصب الكمائن. كما تشكّل مجموعة من المرتفعات تُعرف باسم تورا بورا، مدخلاً استراتيجياً قيادياً إلى جلال آباد. أما المسافة التي تُبعد الوديان المجاورة عن ضواحي كابول فهي قصيرة جدّاً. كانت المنطقة تعجّ بمخيمات الثوار التي يسيطر عليها قادة موالون لحكمتيار وسياف. وكان مخيم بن لادن لتدريب المتطوعين العرب يبعد مسافة 45 كيلومتراً ناحية الجنوب(320).

استمر ضباط «السي.آي.إيه.» في السفر إلى أفغانستان في بعض المناسبات مع نظرائهم الباكستانيين وبعض المرافقين الثوار الأفغان المختارين، على الرغم من أن قوانين الوكالة حظرت ذلك بصرامة. قطع غاري شروين وفريقه الحدود في باروت بيك تماماً كما فعل بيردان. لم تكن الحاجة ماسة إلى إجراء هذه الرحلات، إنّما أراد الضباط القيام بذلك، فهم لن يتعرضوا لأخطار جمة في حال سافروا برفقة ضباط بارزين في «الآي.أس.آي.» ومقاتلين أفغان.

سافر فرانك أندرسون، مدير قوات المهام الأفغانية في المقر الرئيسي في لانغلي، إلى باكستان لمقابلة بيردان والإشراف على التحديات اللوجيستية على طول الحدود. حاول أن يبرهن أندرسون مع اقتراب انسحاب السوفيات، أنه على «السي.آي.إيه.» وضع حد لتدخلها في أفغانستان، إلا أنه لم ينجح في ذلك. أمضى في وقت لاحق ساعات في اجتماعات واشنطن، محاولاً الدفاع عن علاقة «السي.آي.إيه.» بالاستخبارات الباكستانية ضدّ تهجمات داعمي ماك وليامز في وزارة الخارجية، وضدّ انتقادات أعضاء الكونغرس الذين يؤيد عدد كبير منهم مسعود. كان تحالف أندرسون وبيردان وثيقاً في حروب السياسة الأفغانية هذه. وقرر الرجلان، جنباً إلى جنب في ساحة المعركة، وبعيداً عن معذبيهما البيروقراطيين المثقفين، القيام برحلة ممتعة إلى موقع محطة الاتصالات الجديد الذي بنته «السي.آي.إيه.» في علي خيل برفقة عدد من ضباط «الآي.أس.آي.». ذهبا إلى الحدود الأفغانية ليتأكدا أن زيارة عضو الكونغرس، تشارلز ويلسون، ستنتهي من دون حوادث. كان مزاجهما انتصاريّاً. استوليا على ملصق دعائي يعود إلى حملة دعائية شنّتها «الآي.أس.آي.»، ويُظهر دباً سوفياتياً مجروحاً يدمدم بعدما أصابته مجموعة من صواريخ ستينغر. قرر أندرسون وبيردان أنّ عليهما تعليق الملصق على باب الحامية السوفياتية المهجورة في علي خيل كتصريح رمزي عن انتصارهما.

انتقلا عبر الحدود من دون أي مشاكل تُذكر، ووجدا طريقهما إلى حامية علي خيل القديمة، وسمّرا الملصق في احتفال خاص. اضطرا في طريق عودتهما إلى عبور أراضٍ يملكها سياف، وهي منطقة حافلة بالمتطوعين الجهاديين العرب. وسرعان ما اصطدما بحاجز للراديكاليين الإسلاميين العرب.

سمع أندرسون وبيردان من مؤخرة سيارة الجيب أن مرافقيهما الأفغان يتشاجرون مع أحد الثوار السعوديين، وكان حاملاً سلاحاً هجوميّاً. كانوا يصرخون باللغة العربية ولغة الباشتون. خرج أندرسون ومشى إلى الناحية الأخرى، ورأى على الفور أنّ العربي يهدد بقتلهم. تحدث العربي إلى أحد الجهاديين باللغة العربية، بلهجة تشير إلى أنه متطوع من الخليج العربي. وجّه العربي سلاحه مباشرة نحو ضابطي «السي.آي.إيه.»، معتبراً أنّهما غير مخلصين، ولا شأن لهما في أفغانستان. شعر أندرسون وبيردان بالتهديد على الفور، فبحثا عن أسلحة، واختبآ خلف الجيب هرباً من نيران العربي. بدأ أندرسون من هذا الموقع التحدث إلى العربي من خلال مرافقيه الأفغان. وقرر السعودي على مضض في النهاية، أنه لن يحاول قتلهما. عاد الأميركيان بسرعة إلى سيارات الجيب وانطلقا إلى باكستان(321).

كان هذا لقاءً مباشراً ونادراً بين ضباط «السي.آي.إيه.» والمتطوعين العرب الذين جذبهم جهادهم إلى الحدود، وكان بمنزلة إشارة إلى بداية تحوّل مصيري في الحرب السرية. إلا أنّ عدداً قليلاً من ضباط الوكالة تنبه إلى تداعيات هذا الأمر. جمعت «السي.آي.إيه.» المزيد من الوقائع عن المتطوعين العرب ونشاطاتهم، ونقلتها إلى لانغلي. وفي صيف العام 1989، وصفت شبكة العملاء الأفغان التابعة للوكالة العرب الذين يحاربون في باكتيا وفي الجنوب، بأنهم قوة نامية، ومشكلة متزايدة في آن واحد. فقد أقدم المقاتلون الجزائريون على نهب قوافل الإمدادات الأفغانية.

واستمر السعوديون بانتقاد طريقة بناء المقابر الأفغانية، مثيرين بذلك أعمالاً انتقامية عنيفة. وقد نقل عمال الإغاثة المسيحيون الذين عبروا الحدود، معلومات عن تعرضهم لتهديدات واعتداءات من قبل العرب والإسلاميين الأفغان التابعين لحكمتيار وسياف. كما تعرض الصحافيون الأميركيون والأوروبيون لمواجهات خطيرة ومميتة في بعض الأوقات مع المقاتلين الوهابيين في المنطقة. وقدّر مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد في برقية أرسلها في العام 1989 إلى لانغلي، أنّ حوالى أربعة آلاف متطوع عربيّ موجودون في أفغانستان بشكل أساسي، تحت إمرة سياف الذي كان بدوره مدعوماً على نحو كبير من قبل الاستخبارات السعودية والجمعيات الخيرية في الخليج(322).

شعر مركز إسلام آباد بعدم الارتياح تجاه العرب، وعزز تنامي هذا الشعور لقاء بيردان وأندرسون. لم تجرِ أي محادثات بشأن تغييرات في السياسة الأميركية، ولم تُبذَل أي جهود في البداية من أجل التحدث مباشرة إلى السعوديين بشأن تمويل شبكات المتطوعين العرب. علم مركز «السي.آي.إيه.» بأن قسم الاستخبارات العامة التابع للأمير تركي أرسل مبالغ هائلة من الأموال إلى الاستخبارات الباكستانية التي مرّرت بعضها إلى الجهاديين المتأثرين بجماعة الإخوان المسلمين. ورأى بيردان وزملاؤه في «السي.آي.إيه.» أن الشبكات الإسلامية التي تمتد خارج الحدود القومية ما زالت تخدم قضايا أكبر وأهم. قد يكون العرب سيئي الطباع، لكنّ حلفاءهم الأفغان - وعلى الخصوص حكمتيار - يترأسون المقاتلين الأكثر فعالية في الحركة المقاومة، وعلى الخصوص في المناطق الحاسمة حول كابول وخوست. وضخت «السي.آي.إيه.» في العام 1989 المزيد من الأسلحة والأموال والأطعمة والإمدادات الإنسانية إلى مناطق باكتيا الحدودية، حيث يستجمع العرب قواهم، وشجعوا الأمير تركي على القيام بالأمر نفسه.

وقف جلال الدين حقاني، القائد الأفغاني الثائر ذو اللحية الطويلة، وسط نقطة الترابط الحدودية هذه. لم يكن حقاني يخشى أي شيء، وقد تسلّح بمعتقداته الإسلامية القوية، وتقرب كثيراً من نظام الحكم في باكستان والاستخبارات السعودية في الأعوام الأخيرة من الحرب ضدّ السوفيات. وقد عمل في جنوب باروت بيك قرب مقرّ بن لادن.

اعتبره ضباط «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، وضباط آخرون، القائدَ الأكثر تأثيراً بين قادة الباشتون في ساحة المعركة أثناء الحرب. قام برعاية بعض المقاتلين العرب الأوائل الذين واجهوا القوات السوفياتية في العام 1987. وأصيب في إحدى المرّات بجروح عند اختبائه في كهف مدة أسابيع أثناء تعرّضه لاعتداء عنيف. تمت معالجته لاحقاً في المستشفيات الفضلى في السعودية، وأقام علاقات عديدة مع شيوخ المملكة الأثرياء أثناء أداء فريضة الحجّ، وعن طريق التعرف إليهم من خلال قسم الاستخبارات العامة. كان على اتصال دائم ببن لادن وجنرالات «الآي.أس.آي.». أما من جهة أخرى، فقد اعتمدت الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» على حقاني من أجل تجربة أنظمة الأسلحة والتكتيكات الجديدة واختبارها. حصل على كميات كبيرة من الإمدادات، فأصبح في مركز يسمح له بالمتاجرة بها، وتسليح المتطوعين العرب المحتشدين في منطقته. اعتبره ضباط «السي.آي.إيه.» الذين يعملون في إسلام آباد، قائداً أثبت نفسه وأثبت قدرته على

جمع عدد كبير من الرجال في وقت قصير، فحصد حقاني بذلك دعم «السي.آي.إيه.» الكامل(323).

كان الصيف غير سارّ بالنسبة إلى مخيمات التدريب البسيطة التي يديرها حقاني داخل باكتيا وداخل مجالس الجهاديين العرب في بيشاور. تفجرت الجدالات باستمرار بين المتطوعين العرب في أواسط العام 1989 بعد انسحاب السوفيات. ما الذي يوحد الجهاد الآن؟ ارتفعت حدّة التوتر بين بن لادن وأستاذه ومعلّمه عبد الله عزام، الداعية الإسلامي الفلسطيني التابع لجماعة الإخوان المسلمين.

امتدت الحرب الأهلية المتنامية بين حكمتيار ومسعود، فجذبت المتطوعين العرب وقسّمتهم. احتلّ حكمتيار منصباً أهمّ من منصب مسعود، ما ساعده على جذب أتباع عرب، وذلك بفضل تمركزه في بيشاور حيث أقام معظم العرب، وبفضل اتصالاته الواسعة النطاق بشبكات الإخوان المسلمين. إلا أنّ مسعود حظي بدعم من قبل المتطوعين العرب بمن فيهم عبد الله عزام، فقد كان صهره الجزائري منظم فِرَق المتطوعين العرب.

حاول عبد الله عزام وبعض أتباعه تنظيم مجموعة عربية دينية تضم مئتي شخص، وتهدف إلى التنقل في أرجاء أفغانستان من أجل التوسط بغية إحلال السلام بين حكمتيار ومسعود، مستعينة بالمبادئ الإسلامية، إلا أنهما لم يكونا بمزاج يسمح بالمساومة. تابع حكمتيار حملة الاغتيال والترهيب ضدّ المنافسين المعتدلين والمقربين من النظام الملكي السابق في بيشاور. هاجم قوات مسعود داخل أفغانستان. وفي 9 تموز/يوليو 1989، نصب رجال حكمتيار فخاً أثناء حفلة حضرها قادة مخضرمون تابعون لمسعود في شمال أفغانستان، فقتلوا ثلاثين ضابطاً من بينهم أهم ثمانية قادة من نخبة المقاتلين عند مسعود. وما لبث أن أطلق مسعود مطاردة بشرية من أجل ملاحقة القتلة، فاشتعلت معارك مفتوحة مع مقاتلي حكمتيار في الشمال، أدت إلى وقوع مئات الضحايا(324).

انتقل عبد الله عزام من بيشاور إلى إقليم طخار عن طريق البر في ذلك الصيف من أجل مقابلة مسعود. قارن عزام مسعود بنابليون مادحاً إياه، وحاول الاتفاق معه على هدنة جديدة. إلا أن حكمتيار استمر بالتنديد بمسعود في بيشاور أمام جموع من المتطوعين العرب، قائلاً إن مسعود تسلم مساعدات من الاستخبارات الفرنسية (وهذا أمر صحيح)، وإنه عبث مع ممرضات فرنسيات في المسابح في منتجعات فاخرة في بانشير (وهذه معلومات خاطئة). اتخذ بن لادن، في خضم هذا التوتر المتصاعد، بشكل متزايد صفّ حكمتيار مبتعداً عن معلمه الخاص عزام(325).

تجادل العرب في صالونات يونيفرسيتي تاون حول تفسير الشريعة أيضاً. رأى حكمتيار ومسعود أنّ نظامي الشيوعية والرأسمالية فاسدان لأنهما متجذران في الجاهلية، «دولة البربرية البدائية» التي طغت قبل أن ينير الإسلام العالم بالحقيقة. فمن هنا، يُعتبر الاتحاد السوفياتي شيطاناً تماماً مثل الولايات المتحدة. اعتبر حكمتيار ومسعود أن الإسلام ليس مجرد إيمان شخصي، بل نظام قوانين

وتشريعات، والقاعدة المناسبة للسياسات والحكومة. كان الجهاد يهدف إلى إنشاء حكومة إسلامية في أفغانستان من أجل تطبيق هذه القوانين والأيديولوجيات. كما وافق حكمتيار ومسعود على مبدأ سيد قطب الخاص بالتكفير الذي يساعد «المؤمنين الحقيقيين» على تمييز «المسلمين المنافقين» الذين ضلوا بعيداً عن الإسلام الحقيقي، ومن ثم الإعلان أن هؤلاء المسلمين المزيفين كفار، أو المطالبة بإخراجهم من المجتمع الإسلامي، ولا بدّ من إطاحة هؤلاء المنافقين على الرغم من الجهد الشاق الذي يبذلونه ليسبغوا على أنفسهم مظهراً إسلاميّاً بلباسٍ إسلامي. اتفقا، كلاهما، على أن نجيب الله هو أحد الحكام المنافقين.

بدأ مؤيدو حكمتيار في مجالس بيشاور التعبير عن وجهات نظر متطرفة في تلك السنة حيال من يجب اعتباره كافراً، وبالتالي جعله هدفاً للجهاد بعد انسحاب السوفيات من أفغانستان. جاهر الراديكاليون المصريون المنفيون، مثل الظواهري، بإعلان الحرب ضد النظام المصري. واعتبر آخرون أنّ بنازير بوتو هي كافرة. وبرغم ذلك، ندد آخرون بملك الأردن والأحزاب العلمانية التي تحكم سوريا والعراق. اعترض عبد الله عزام الذي كان لا يزال عالم الدين العربي الأكثر تأثيراً في بيشاور، على نهج إرسال الفتوى عبر جهاز الفاكس، واتبع نهج جماعة الإخوان المسلمين المصريين التقليدي والحذر والتطوري. كان قادة الجماعة الرئيسيون مسرورين بالتقدم تدريجاً نحو بناء حكومة إسلامية مثالية من أجل إحداث التغيير شيئاً فشيئاً. كما شعر عزام بأنه على المتطوعين العرب التركيز على أفغانستان بدلاً من البلدان البعيدة في أنحاء الشرق الأوسط. فلمَ المباشرة بالنداء لشن حرب ضدّ مصر أو باكستان، بينما القضية التي جذبتهم جميعاً إلى بيشاور لما تنتهِ بعد؟(326).

كان بن لادن أحد الذين طالبوا بتوسيع الحرب متأثراً بالظواهري. قال عزام لصهره: «أنا مستاء جدّاً من بن لادن». كان السعودي محسناً سخيّاً مع الجهاد، ولطيف الطباع، إلا أنه بدأ التأثر بالراديكاليين العرب الذين لم يهتموا كثيراً بالقضية الأفغانية. قال عزام عن بن لادن: «أرسلت السماوات هذا الرجل، إنه كالملاك»، «أنا قلق حيال مستقبله في حال بقي في صفوف هؤلاء الأشخاص»(327).

كان من البديهي أن يقلق عزام بشأن المستقبل. فعند ظهيرة الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1989، عند وصوله ليؤم صلاة الجمعة في مسجد صبا الليل في بيشاور، انفجرت سيارة مفخخة قرب المدخل، فتسببت في مقتل الداعية الفلسطيني واثنين من أبنائه. لم تُحَلّ قط قضية الاغتيال هذه. فقد كان عدد المشتبه فيهم الذين لديهم دوافع أكبر بكثير من الوقائع. كان عزام بصفته أحد مؤسسي حركة «حماس» الفلسطينية، ملاحقاً من قبل إسرائيل. وقد وضعته الاستخبارات الأفغانية، التي كانت لا تزال ناشطة، على رأس
لائحة أعدائها. وكان حكمتيار منشغلاً جدّاً بقتل أي منافس على السلطة يستطيع الوصول إليه. وقد تكون علاقات عزام ببانشير، بالإضافة إلى الرحلة التي قام بها في ذلك الصيف إلى الشمال، كافية لتشغيل الفرق القتالية الناشطة التابعة لحكمتيار. ولم توفر الشبهات بن لادن أيضاً، على الرغم من

أن العرب الذين كانوا على معرفة به في ذلك الوقت، استبعدوا هذا الاحتمال. لم يكن بن لادن محارباً ناشطاً في ذلك الوقت، بل كان يشعر براحة أكبر وهو يتحدث من فوق الوسائد أمام آلات التصوير، مجرياً مقابلات مع الصحافة التي تكتب باللغة العربية، أو يمتطي الجياد في الفناء. فقد كان له في ذلك الوقت أتباع مقاتلون، إلا أنهم في العام 1989 لم يكونوا بقوة مقاتلي حكمتيار، ولا بدرجة عنفهم.

انتهز بن لادن الفرصة التي خلّفتها وفاة عزام، فقام بهزم صهر عزام، حليف مسعود، في محاولة للسيطرة على الشبكة التي ترأسها عزام من أجل تجنيد المتطوعين وتقديم الدعم إلى الجهاد: أي كانت معركته منصبة على السيطرة على مكتب الخدمات. حوّل بن لادن وحلفاؤه المتطرفون المقربون من حكمتيار المكتب إلى مركز لتنظيم القاعدة الذي أنشأه بن لادن رسمياً قبل عام، مستعرضاً صور معركته الوحيدة والكبيرة ضدّ السوفيات في جاجي(328).

تابع بن لادن التطلع إلى ما وراء أفغانستان. قرر أنه حان الوقت لتوجيه الجهاد ضدّ حكام آخرين. سافر إلى موطنه في جدّة، فعاود الاستقرار مع عائلته في السعودية. استمر بالسفر ذهاباً وإياباً إلى باكستان، إلا أنه توقف عن تمضية أوقات كثيرة على الحدود الأفغانية، فقد صبّ اهتمامه على أعداء جدد.

# 11
# الفيل الضال

تسلَّم بيتر تومسون دور ماك وليامز في السياسة الأميركية المعنية بالشؤون الأفغانية في نهاية العام 1989، لكن على مستوى أرفع من البيروقراطية في واشنطن. أصبح لاحقاً المبعوث الأميركي الخاص لدى المقاومة الأفغانية بتفويض من الكونغرس، كما حصل بذلك على امتيازات سفير. كان تومسون دبلوماسياً ذا عينين براقتين، وسلوك حسن، وشعر فضي اللون، وكان نائباً لرئيس المهام في السفارة الأميركية في بكين عند تعيينه. أتقن تومسون لغات عديدة، واكتسب خبرة من خلال عمله في جنوب آسيا، وتلقى بطريقة غير مباشرة في أفغانستان، تدريباته أثناء حروب سياسة مجموعة التنسيق بين الوكالات الداخلية في واشنطن. كان يتمتّع بنفوذ بين زملائه، وبوجه بشوش، وبرع في إلقاء الخطب، كما كان في الوقت نفسه حاد الذكاء، وطموحاً، ومصمماً على الدفاع عن امتيازات منصبه الجديد. سعى تومسون إلى كسب سلطة واسعة من روبرت كيميت، مساعد وزير الخارجية الذي عُيّن من أجل متابعة السياسة الأفغانية بالنيابة عن وزير الخارجية جايمس بايكر. وقد وقع كيميت وثيقة «شروط صلاحيات» تومسون الرسمية والسرية التي تحدّد نطاق صلاحية المبعوث، وحقه في حضور الاجتماعات المتعلقة بالسياسة، وهو إجراء أساسي يُتّبع في السلطة في واشنطن(329).

خطط تومسون لمغادرة واشنطن والسفر باستمرار إلى باكستان، إلى أن استولى الجهاديون الأفغان أخيراً على كابول. قيل له إنّه سيعيّن سفيراً للولايات المتحدة في أفغانستان. وقد سافر للمرة الأولى إلى إسلام آباد في الوقت الذي طُرد ماك وليامز من السفارة.

اتّبع في بيشاور وكيتا المسار التقريري نفسه الذي اتبعه ماك وليامز قبل عام، حيث قابل عشرات القادة الأفغان المستقلين والناشطين السياسيين، وكان عدد كبير منهم معادياً علناً للاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.». قابل يحيى وأحمد شاه مسعود وأشقاء أحمد شاه، وسمع تقارير يملؤها الغضب حول حملة حكمتيار الساعية إلى ذبح قادة مسعود في الشمال. قابل عبد الحقّ الذي بات ينتقد علناً شركاءه السابقين في «السي.آي.إيه.». قام عبد الحق بتسوية الشكاوى التي أثيرت حول تفضيل الاستخبارات الباكستانية حكمتيار وإسلاميين آخرين راديكاليين. استمع إلى مفكرين أفغان منفيين وقادة قبليين معتدلين، بمن فيهم حامد قرظاي ومنظّم سياسي ثائر شاب، يطالبون بحماسة بالتزام أميركي مع الملك ظاهر شاه في روما، الذي يعتبره عدد كبير من لاجئي الباشتون رمزاً للوحدة الأفغانية التقليدية. أرسل تومسون إلى واشنطن برقية تشرح انطباعاته الأولى: تقيّد الأفغان الذين قابلهم بحقدهم على نجيب الله والشيوعيين السابقين الساعين إلى الوصول إلى السلطة في كابول، إلا أنّهم كانوا متحفظين بالقدر نفسه حيال الراديكاليين الإسلاميين أمثال حكمتيار، وشعروا بالغضب من تدخّل الاستخبارات الباكستانية في الحرب(330).

عندما عاد تومسون إلى واشنطن، عزّزت تقاريره الشكوك التي راودت الإدارة الأميركية حيال حرب «السي.آي.إيه.» السرية. شوّهت كارثة جلال آباد سمعة «الآي.أس.آي.» وداعميها في لانغلي إلى حدّ ما، وزادت من قوّة أعضاء وزارة الخارجية والكونغرس الذين دعموا تحاليل ماك وليامز. كما ضغط داعمو الجهاديين من أعضاء الكونغرس على «السي.آي.إيه.» بسبب مشاكل لوجستية عثّرت خطوط إمداد الأسلحة إلى باكستان. وبالإضافة إلى ذلك، أثارت الحرب الأهلية المشتعلة الآن علناً بين حكمتيار ومسعود، أسئلة حول إمكانية اتحاد الثوار في يوم ما من أجل إطاحة نجيب الله. لم يستولِ الجهاديون على أي عاصمة إقليمية منذ انسحاب القوات السوفياتية. وغيّر سقوط حائط برلين في تشرين الثاني/نوفمبر 1989 النطاق الجغرافي والنطاق السياسي للحرب الأفغانية، فبات واضحاً أنّه على الرغم من الخطر الذي قد يشكّله نجيب الله في كابول، لم يعد يحتلّ مركز الطليعة في الشيوعية العالمية المهيمنة. كما لقيت حجج ماك وليامز حول مخاطر الراديكالية الإسلامية صدىً في واشنطن. وسرت إشاعات داخل وزارة الخارجية حول نقل ماك وليامز من السفارة في إسلام آباد خلافاً لإرادته، وبسبب آرائه المعارضة على ما يبدو. فهل كانت السياسة الأفغانية مقدسة إلى درجة أنّها أصبحت اختبار ولاء؟ أم حان وقت مراجعة هجوم عسكري شامل بغية الانتصار عسكرياً على نجيب الله؟

ترأس تومسون ذلك الخريف في واشنطن، أثناء اجتماع في وزارة الخارجية، فريق عمل أفغانياً جديداً تابعاً لمجموعة التنسيق بين الوكالات بغية القيام بمراجعة عامة للسياسة الأميركية. حضر توماس تويتن الاجتماع بالنيابة عن لانغلي، وقد كان في ذلك الوقت رئيس قسم الشرق الأدنى في مديرية العمليات التابعة لـ «السي.آي.إيه.»، وشارك ريتشارد هاس من مجلس الأمن القومي في هذه الجلسات، كما حضر مندوبون من البنتاغون وأقسام متعددة
من وزارة الخارجية(331).

أصدر الفريق تحاليل استخبارية مبنية على جميع المصادر، وصنّفها سرية، معتبراً إياها خلفية للمناقشات الخاصة بالسياسة. قيّمت الوثيقة جميع التقارير الحكومية الداخلية حول السياسة الأميركية تجاه أفغانستان، بدءاً من صيف العام 1988 حتى صيف العام 1989. كما طرحت مشكلة الشرخ القائم بين المحللين الأميركيين حول دعم الاستخبارات الباكستانية للمصالح الأميركية أو تعارضها معها، بسبب روابطها الوثيقة بالإسلاميين التابعين لجماعة الإخوان المسلمين(332).

بحث أفراد من فريق العمل الأفغاني عن اتجاه جديد خاص بالسياسة، متأثرين بانتقادات ماك وليامز. لم يكونوا مستعدين كليّاً للتخلي عن انتشار عسكري بقيادة «السي.آي.إيه.». كانت الأغلبية الأفغانية لا تزال تسعى إلى إطاحة نجيب الله بالقوة إن استدعى الأمر، بينما استمرت السياسة الأميركية بدعم «العزم» الأفغاني، ومارست القوات العسكرية ضغطاً على حكومة غورباتشيف الإصلاحية في موسكو متحدّية المتشددين السوفيات في الجيش و «الكي.جي.بي.» الذين يشكلون خطراً على غورباتشيف والولايات المتحدة معاً، بنظر فريق العمل. لكن، بعد أيام من المناظرات، وافق الأعضاء على أنه حان الوقت لإدخال المفاوضات الدبلوماسية إلى الخيارات المتاحة. وفي النهاية، صاغ تومسون بشكل نهائي، سياسة سرية جديدة ذات مسارين، شكّلت أوّل تغيير أساسي

في المقاربة الأميركية للحرب الأفغانية منذ انسحاب القوات السوفياتية. لقد سعت السياسة الأميركية الجديدة إلى طرد نجيب الله، إلا أنها روّجت أيضاً حكومة وريثة معتدلة واسعة التمثيل.

فتحت وزارة الخارجية في المسار الأول من المقاربة الجديدة، باب مفاوضات يهدف إلى «تحييد المتطرفين»، أي ليس نجيب الله فحسب، بل أيضاً الإسلاميين المناوئين والمعادين لأميركا، أمثال حكمتيار وسياف. بدأ الدبلوماسيون الأميركيون بإجراء محادثات في الأمم المتحدة مع الاتحاد السوفياتي ومع حكومة بنازير بوتو والملك المنفي ظاهر شاه، حول احتمال إقامة تسوية سياسية في أفغانستان. تستطيع وزارة الخارجية الآن أن تبرهن أنّ السياسة الأميركية لم تعد أسيرة لحكمتيار ولا للاستخبارات الباكستانية.

تمكّنت «السي.آي.إيه.»، في الوقت نفسه، من حثّ الحرب السرية على زيادة ضغط الثوار العسكري على نجيب الله. فاستعمال القوة قد يجبر نجيب الله على التنحي عن منصبه كجزء من التسوية السياسية، أو قد يطيحه مباشرة. وستتابع «السي.آي.إيه.» تعاونها مع الاستخبارات الباكستانية، وستتجنب قنوات «الآي.أس.آي.» من خلال توفير الأموال والأسلحة بطريقة مباشرة للقادة الأفغان المحاربين في ساحة المعركة. لقد أمل تومسون أن يستولي على الحكومة الأفغانية بالوكالة المحتضرة والمنتهية الصلاحية والمفعول والفاقدة المصداقية بواسطة مجلس قيادة جديد يُعيَّن بمساعدة أميركية، ويتألف من قادة عسكريين ثوار مثل مسعود وعبد الحقّ وإسماعيل خان. ويعتقد فريق العمل الأفغاني أنه من خلال تقوية هؤلاء القادة في الميدان، تستطيع الولايات المتحدة تطويق علماء الدين الإسلاميين في بيشاور وحلفائهم في «السي.آي.إيه.». وقد أبعدت السياسة الجديدة الولايات المتحدة عن جداول أعمال الاستخبارات الباكستانية والسعودية السياسية الإسلامية، أقله من الناحية النظرية(333).

سافر تومسون إلى إسلام آباد في بداية العام 1990 لإطلاع الحكومة الباكستانية على المقاربة الجديدة. رتب أوكلي لقاءً في وزارة الخارجية الباكستانية. وكان ميلتون بيردان قد عاد أدراجه إلى لانغلي في الصيف السابق، بينما حضر الاجتماع رئيس مركز إسلام آباد الذي خلفه، والمعروف من قبل زملائه باسم هاري، بالنيابة عن «السي.آي.إيه.»، كان وجه هاري، وهو ضابط استخباري من المدرسة القديمة، لطيفاً، إنما غير تعبيري، كما كان من الصعب فهمه. اعتبره زملاؤه في وزارة الخارجية منغلقاً على نفسه، ومتكتماً إلى درجة غير اعتيادية، وحريصاً على سرية عمليات «السي.آي.إيه.». أرسلت الاستخبارات الباكستانية عميداً وعقيداً من ضباطها لتدوين الملاحظات. دعا تومسون «الآي.أس.آي.»، آملاً أن تقبل الدعوة وتطبّق مبادرته. وشرح السياسة الأميركية الجديدة السرية أثناء عرض رسمي دام أكثر من ساعة. أظهر الباكستانيون حماسة، وخصوصاً الدبلوماسيين من وزارة الخارجية الباكستانية برئاسة يعقوب خان الذي لطالما طالب بتسوية سياسية يُتفق عليها حول طاولة مستديرة، يكون في عداد المشاركين فيها الملك ظاهر شاه. وحتى ضباط الاستخبارات الباكستانية أعلنوا تأييدهم.

خطّط تومسون للسفر إلى الرياض من أجل تقديم العرض نفسه على انفراد أمام الأمير تركي في مقر الاستخبارات السعودية الرئيسي، على أن ينتقل من هناك إلى روما بغية إجراء محادثات مفتوحة مع الملك الأفغاني المنفي الهرم. لكنه استغرق بضع ساعات ليدرك أنّ موجة الدعم التي حصدها في وزارة الخارجية كانت مضللة. كان تومسون وأوكلي يتحدثان بعد العرض في جناح السفير في الطابق الثالث من مبنى السفارة في إسلام آباد، عندما دخل
رئيس مركز «السي.آي.إيه.».

أعلن هاري: «لن يتمكّن بيتر من الذهاب إلى روما». «هذا الأمر سيُفسد عملية الهجوم التي خططنا لها مع «الآي.أس.آي.»». وشرح الرئيس أنّه مع اقتراب فصل جديد من الحرب الأفغانية، عمل مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد في ذلك الشتاء مع الاستخبارات الباكستانية من أجل وضع خطة عسكرية جديدة بغية إطاحة نجيب الله. وخطط القادة الثوار المنتشرون حول أفغانستان لشنّ اعتداءات متزامنة على المدن الأفغانية وخطوط الإمدادات الرئيسية. كان الهجوم الجديد متوازياً وجاهزاً، والإمدادات في طريقها إليهم. إلا أنّه في حال تسربت الآن معلومات حول بدء الولايات المتحدة محادثات مع الملك ظاهر شاه، فسيغضب عدد كبير من قادة الفصائل الإسلامية في بيشاور، الذين يعتبرون أنّ الملك يمثل تهديداً. كما أعلن رئيس «السي.آي.إيه.» أنّ الجهاديين الإسلاميين لن يحاربوا إن علموا أنّ الملك «عائد». وساعتئذ، سيعمد حكمتيار وقادة إسلاميون آخرون بالتأكيد، إلى إحباط الهجوم المخطط له بعناية. استشاط تومسون غضباً. هذه هي الغاية تحديداً: يفترض أن تعزل المحادثات السياسية الجديدة القادة الأفغان في بيشاور. إلا أنهم اكتشفوا أنّ هاري قد اتّصل بقسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» في لانغلي، وأنّ توماس تويتن، رئيس القسم، اشتكى إلى الجنرال كيميت في وزارة الخارجية، مقنعاً إياه بأنه لا بدّ من تأجيل عرض الموضوع على ظاهر شاه. إذاً، لقد تعرّض تومسون للهزيمة من الناحية البيروقراطية. وقد سأل تويتن تومسون في وقت لاحق: «لمَ أنت موال لظاهر شاه إلى هذه الدرجة؟».

سافر تومسون إلى الرياض، وقابل الأمير تركي ليشرح له السياسة الأميركية الجديدة، أو أقله سياسة وزارة الخارجية الجديدة، إلا أن روما أصبحت خارج المعادلة في الوقت الراهن، أي إنه لن تجري مفاوضات مع الملك ظاهر شاه. كانت هذه بداية مرحلة أخرى من الصراع المضني بين وزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.»، وهي متابعة للمعركة التي شنّها ماك وليامز من نواحٍ عديدة(334).

إلامَ قد يمتدّ تأثيرها؟ كانت بنية أفغانستان بعد الحرب والشيوعية، على المحكّ. وبينما فكّر تومسون مليّاً في مستقبل أفغانستان، بحث عن نموذج سياسي في الفترة الأكثر سلماً وتحضّراً في تاريخ أفغانستان: العقود التي امتدّت بين العامين 1919 و 1973، عندما حكمت عائلة ظاهر شاه الملكية الضعيفة، والمعتدلة، من كابول، وانتشرت سياسات لامركزية في الريف موسومة بالإيمان الإسلامي وخاضعة للهرمية القبلية أو العشائرية. رأى تومسون أنّ حكم الملك أدى إلى نشوء حركة صغيرة في اتجاه التحضّر والسياسات الديموقراطية، وإلى وضع دستور وطني في العام 1963، وإجراء انتخابات برلمانية في العامين 1965 و 1969. أُعجبت وزارة الخارجية بظاهر

شاه كحاكم رمزي، وأملت فسح المجال في أفغانستان أمام السياسات الفدرالية التقليدية، لكنّ العودة إلى النظام الملكي القديم بعد سنين طويلة من الحرب، أمر شبه مستحيل، إلا أن القادة من زمن الحرب، مثل مسعود وعبد الحق، اللذين تتحدَّر عائلتاهما من مجتمعات سياسية تقليدية، قد يتمكنون من بناء مرحلة انتقالية سلمية نسبيّاً. رأى تومسون وحلفاؤه في وزارة الخارجية أنّ العقيدة الإسلامية العالمية البديلة التي وضعها الإخوان المسلمون، وطبّقتها القوة العسكرية السوفياتية، توعدت بمتابعة الحرب وعدم الاستقرار. إلا أنّ محللي «السي.آي.إيه.»، تطلعوا، من الناحية الأخرى، إلى أفغانستان بنظرة تشاؤميّة. رأوا أنّ عملية السلام بعيدة جدّاً عن متناولهم في الوقت الراهن، ورأى بعض الضباط في «السي.آي.إيه.» أنّ التأثير الباكستاني في أفغانستان ضروري، فإسلام آباد قويّة نسبيّاً، بينما كابول ضعيفة. شعروا بأن الولايات المتحدة لا تملك أي سبب وجيه لمعارضة توسع القوة الباكستانية في أفغانستان على الرغم من بيانات حلفاء «الآي.أس.آي.» الجهاديين المعادية للأميركيين.

يملك تومسون وثيقة سياسة خاصة بمجموعة التنسيق بين الوكالات، تُلزم «السي.آي.إيه.» بمقاربة جديدة للجهاد الأفغاني، وكان عليه إقناع ضباط «السي.آي.إيه.» بتطبيق هذه السياسة. اعتبر بعضهم أنّ تومسون مزعج، فقد اكتسب عادة سيئة، ربّما عن غير قصد، بحيث يسعل قصداً، ليُطلق في الوقت نفسه ضحكة مستهترة وسط أحاديث جديّة وأثناء تفاعلات رسمية وحادة مع قادة أفغان أو جنرالات باكستانيين رفيعي المنصب. رأى ضباط «السي.آي.إيه.» أن بعض الأفغان ينفرون من هذه العادة. وسعى تومسون إلى تقوية مركزه داخل السفارة من خلال إقامة شراكة مع أوكلي، إلا أن السفير كان حليفاً مراوغاً يتبنى المفوض وآراءه في بعض الأوقات، بينما يشجبه بازدراء في السرّ في أوقات أخرى. عملت «السي.آي.إيه.» في باكستان بسرية تامة، وباستقلالية كبيرة. كان مركز إسلام آباد متصلاً بلانغلي بواسطة نظام اتصالات منفصل بعيد عن متناول الدبلوماسيين. واعتبر معظم ضباط الاستخبارات الأميركية في المركز، وفي المقرّ الرئيسي، أنّ سياسة تومسون الجديدة مشروع ساذج، ومن غير المرجح أن تنجح. واعتبروا هذه السياسة مصدر إلهاء غير مرحب به، وحرفاً عن المسألة الأساسية التي تقضي بإنهاء الحرب السرية. أمّا بالنسبة إلى السياسات الأفغانية في فترة ما بعد الحرب، فقد شعر تويتن، رئيس قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، بأن الأفغان «عليهم حلّ المسألة بأنفسهم... وقد يصبح الأمر فوضويّاً». لا يجوز أن تتدخل الولايات المتحدة في اختيار المنتصرين والرابحين السياسيين في أفغانستان، أو في التفاوض على حكومة جديدة للبلاد. رأى تويتن أنّه ما من أحد قادر على إعادة رصف الصفوف في أفغانستان من جديد، بمن فيهم مسعود(335). وبرغم ذلك، كانت لـ «السي.آي.إيه.» مهمة يدعمها القانون الرئاسي: دعم «العزم» الأفغاني، على الرغم من الفوضى التي تعمّه، من خلال عملية سرية وتعاون وثيق مع الاستخبارات الباكستانية والسعودية. وقال ضباط قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، إنّهم لا يتعاطفون مع حكمتيار أو سياف، لكنّهم ما زالوا ملتزمين جديّاً الحل العسكري في أفغانستان، ومصممين على إنهاء المهمة.

سافر فريق عسكري باكستاني سرّاً إلى واشنطن بغية عرض «خطة معركة» من أجل شنّ هجوم في بداية العام 1990. تضمّنت الخطة تقديم دعم إلى جيش تقليدي جديد من الثوار، يُعرف باسم

لاشكار إيسار، أو جيش التضحية. وتابعت الاستخبارات الباكستانية جدول أعمالها الخاص، فبنت القوة الميليشيوية هذه، وجهزتها بالذخائر وعربات النقل، لتتنافس مع جيش مسعود غير النظامي في الشمال(336). أصبح جيش حكمتيار، الجناح العسكري الأكثر قدرة ضمن شبكات الحركات الإسلامية المتمركزة في باكستان، والتي تدعمها «الآي.أس.آي.»، قوّة قادرة على العمل في أفغانستان، وتطورت قدراتها العسكرية ليصبح في مستطاعها العمل أيضاً في كشمير بشكل متزايد.

ساعد مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد ذلك الشتاء على تنسيق الهجمات الواسعة النطاق على أهم المدن والطرقات الأفغانية. وتطلَّب بعض المخططات مشاركة «الآي.أس.آي.»، إلا أن «السي.آي.إيه.» تمكّنت من خلال شبكتها السرية الأحادية الجانب، من تحسين قدرة القادة الأفغان الرئيسيين، بمن فيهم مسعود. ففي حال اقتنعت الوحدات الثائرة المبعثرة بضرب خطوط إمدادات نجيب الله والمدن في الوقت نفسه، توفر الدفع الأخير الضروري للاستيلاء على كابول، حتى وإن كان بعضها متحارباً، مثل المجموعات الموالية لحكمتيار ومسعود. وقد ركّزت «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية على سقوط كابول، بدلاً من التركيز على من سيتسلم السلطة بعد رحيل نجيب الله.

التقى هاري وغاري شروين وضباط الاستخبارات في قسميها بشكل متكرر في شتاء العام 1989 - 1990 ضباطاً من مكتب «الآي.أس.آي.» للشؤون الأفغانية، للتخطيط من أجل الهجوم الجديد. قابل هاري حكمتيار وجهاً لوجه. ونظمت «السي.آي.إيه.» الإمدادات كي تتمكن قوات حكمتيار من قصف مطار بغرام شمال كابول عند بدء الهجوم(337).

ورد دور مسعود في جوهر خطط «السي.آي.إيه.» في ذلك الشتاء. سافر شروين إلى بيشاور في كانون الثاني/يناير للتحدّث مع مسعود عبر جهاز لاسلكي مؤمّن يحتفظ به شقيقه، يحيى. طلب شروين من مسعود قطع طريق سلانغ العام الذي يصل إلى كابول من الجهة الشمالية. رأى ضباط «السي.آي.إيه.» أنه في حال قطعت قوات مسعود الطريق العام بينما تتولى مجموعات ثائرة أخرى تدعمها «الآي.أس.آي.» قصف مدينتي خوست وكابول من الشرق، قد لا يتمكّن نجيب الله من المقاومة مدّة طويلة. فاوض مسعود على مبلغ 550 ألف دولار يُدفع نقداً، وقام شروين بتسليم الأموال إلى أحد أشقاء مسعود في 31 كانون الثاني/يناير 1990.

إلا أن قوات مسعود لم تتحرّك بحسب علم «السي.آي.إيه.»، فاستشاط هاري غضباً من «السافل الصغير»، كما أسماه، بعدما خيب أمله، وخفض راتبه الشهري من 200 ألف دولار إلى 50 ألف دولار. أرسل مركز إسلام أباد رسالة إلى بيشاور تشدّد على غضب «السي.آي.إيه.»، وتخوّفها.

أُوقف الهجوم في جميع أنحاء أفغانستان. بدا المجاهدون غير منسقين وغير محفَّزين، ويتلهون بالحرب الداخلية. لم يستولوا على أي مدن هامة، وبقي نجيب الله في السلطة في كابول من دون أن

يتعرّض لأي تهديد جدي بإطاحة حكمه.

بدأ مركز «السي.آي.إيه.» مع اقتراب فصل الربيع، تسلم التقارير من عملائه الأفغان الأحاديي الجانب، تفيد أنّ الاستخبارات الباكستانية تتحرّك الآن سرّاً وفقاً لخططها الخاصة من أجل تسليم كابول إلى حكمتيار، وتنصيبه حاكم أفغانستان الجديد. وكتب مخبرو «السي.آي.إيه.» تقارير تفيد أنّ شيخاً سعوديّاً متعصّباً وثريّاً، اسمه أسامة بن لادن، يدفع ملايين الدولارات من أجل دعم الخطة الجديدة التي وضعتها «الآي.أس.آي.» لحكمتيار. وقد نقل مركز إسلام آباد إلى لانغلي هذه التقارير حول بن لادن(338).

تفجّرت في 7 آذار/مارس 1990، وسط مدينة كابول، المؤامرة علناً. شنّ ضباط القوات الجوية الأفغانية التابعون لوزير الدفاع الشيوعي المتعصب في حكومة نجيب الله، شهنواز تناي، غارة على القصر الرئاسي بطائرات مقاتلة حكومية، وأطلقوا الصواريخ على سطح
المبنى وفنائه، آملين قتل الرئيس نجيب الله في مكتبه، إنّما فشلوا في ذلك. وتوجّهت القوات المدرعة المرتدة الموالية لتناي جنوباً خارج المدينة، محاولة إيجاد ممر آمن ومحصّن أمام جحافل لاشكار إيسار، («جيش التضحية») التابع لحكمتيار الذي أسرع في اتجاه كابول من الحدود الباكستانية(339).

أقام تناي وحكمتيار بمساعدة الاستخبارات الباكستانية، محادثات سرية مدّة أشهر تتعلّق بمحاولة الانقلاب هذه. ووحّدت المحادثات راديكالياً شيوعياً وراديكالياً إسلامياً مناوئاً للشيوعية. وجمع بين الاثنين إرث قبيلة غيلزاي في الباشتون، وسجل حافل بإراقة دمّ بربريّة. ترأس تناي فصيلاً تابعاً للحزب الأفغاني الشيوعي منافساً لفصيل نجيب الله.

أفادت تقارير «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت، أنّ بن لادن قدمّ جزءاً من الأموال اللازمة بغية رشوة وحدات الجيش الأفغانية، والفوز بدعم القادة الثوار. وعلى الرغم من أنّ هذه التقارير كانت غير مكتملة، إلا أنّها تلاءمت مع وصف الوكالة لبن لادن الذي اعتبرته مموّلاً سخياً للقضايا الإسلامية المحلية، ومانحاً أكثر من كونه عميلاً، وشيخاً ذا علاقة غير مستقرة، مع الطبقة الحاكمة السعودية. وقد تلقى تعليمه في بيشاور على أيدي المستفيدين من سخائه، الذين تملّقوه، وخصوصاً الراديكاليين أتباع حكمتيار وسياف(340).

عندما خطط تناي لإحداث انقلاب، في كانون الأول/ديسمبر 1989، طلبت الاستخبارات الباكستانية من بن لادن أموالاً لرشوة أعضاء البرلمان الباكستاني بغية إقالة بنازير بوتو من منصبها، بحسب ما جاء في التقارير التي وصلته لاحقاً. فوفقاً لبوتو، اتّصل ضباط
«الآي.أس.آي.» بين لادن في السعودية، وطلبوا منه السفر إلى باكستان ليساعد على حثّ البرلمان

على التصويت بحجب الثقة ضدّ حكومة بوتو، وهي الخطوة الأولى ضمن خطة الجيش الباكستاني من أجل إسقاطها بالقوّة من الحكم(341).

عمل بن لادن في ذلك الشتاء مع الاستخبارات الباكستانية ضدّ نجيب الله وبوتو، العدوين اللدودين للتنظيمات الإسلامية، بعد أن اعتُبرا ممسكين بزمام السلطة في كل من كابول وإسلام آباد. ففي حال سقطت بوتو في إسلام آباد ووصل حكمتيار إلى الحكم بمساعدة تناي في كابول، يكون الإسلاميون قد أحرزوا نتيجة مزدوجة.

هل عمل بن لادن على محاولة الانقلاب التي خطط لها تناي بمفرده، أم كصلة شبه رسمية مع الاستخبارات الباكستانية؟ يبقى الدليل ضعيفاً وغير حازم. كانت علاقة بن لادن بالحكومة السعودية جيّدة وقت تنفيذ محاولة الانقلاب، وجاء انفصاله الأول الواضح عن الأمير تركي والعائلة المالكة بعد بضعة أشهر. واعتبر مخبرو «السي.آي.إيه.» الأفغان أنّ بن لادن هو مموّل انقلاب حكمتيار - تناي، بينما أوردت تقارير أخرى أنّ الاستخبارات السعودية هي مصدر التمويل. فهل خطّا التمويل هذان منفصلان، أم لا؟ لم يستطع أي تقرير في ذلك الوقت أو لاحقاً، تأكيد الأمر(342).

كانت هذه بداية نمط جديد بالنسبة إلى محللي الاستخبارات الأميركية: بدا كأنّ بن لادن يتفاعل مع الحكومة السعودية من داخل كفن.

أعلن حكمتيار أنه عمل مع تناي على تشكيل مجلس ثوري جديد. لكن، بعد مضي ساعات قليلة على بدء عمليات القصف في وسط مدينة كابول، رأى القادة الأفغان المترددون، أنّ محاولة الانقلاب ستفشل. هزمت القوات الحكومية الموالية لنجيب الله في كابول ثوارَ تناي الذي هرب إلى باكستان حيث آوته الاستخبارات الباكستانية مع عصابته السرية. ولم يتمكّن قط مقاتلو لاشكار إيسار («جيش التضحية»)، الموالون لحكمتيار، من دخول ضواحي العاصمة.

لا أحد يعلم متى علم مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد بمحاولة الانقلاب التي قام بها حكمتيار وتناي، أو إن علّق ضباط المركز على هذا الموضوع أمام الاستخبارات الباكستانية أيّ تعليق داعم أو مثبط للعزيمة. ويذكر توماس تويتن الذي كان في ذلك الوقت الرجل الثاني في مديرية العمليات، أنّ عدداً كبيراً من عملاء «السي.آي.إيه.» اعتبروا أنّ ضباط الاستخبارات الباكستانية «لم يكونوا قط صادقين معنا حول موضوع حكمتيار»(343). فقد علم ضباط «الآي.أس.آي.» عندما خططوا للانقلاب أنّ «السي.آي.إيه.» تعاونهم من خلال تنظيم الاعتداءات على خطوط إمدادات نجيب الله. إلا أن «السي.آي.إيه.» أخفت عن الاستخبارات الباكستانية نطاق علاقاتها الأحادية الجانب مع القادة الأفغان، مثل مسعود، وتفاصيل هذه العلاقات. فعلى سبيل المثال، لم تُعلم الوكالة «الآي.أس.آي.» بأمر الخمسمئة ألف دولار التي دفعتها لمسعود، في 31 كانون الثاني/يناير، أي قبل خمسة أسابيع فقط من محاولة الانقلاب. وبقي توقيت الانقلاب محفوفاً بالألغاز. قد يكون تناي

استعجل، وسبق جدول الأعمال، لأن محاكمة بسبب خيانة عسكرية كانت تُعقد في ذلك الشتاء في كابول، وهددت بفضح مؤامرته.

بقي مسعود عقب هذه الأحداث في مكانه في الشمال. قد تكون «السي.آي.إيه.» غضبت منه بسبب فشله في ضرب طريق سلانغ العام في ذلك الشتاء. لكن، ماذا كان عليه أن يفعل بعدما علم بمؤامرة حكمتيار التي تقضي بالاستيلاء الاستباقي على كابول. كانت مؤامرة رعتها بشفافية الاستخبارات الباكستانية، شريكة «السي.آي.إيه.» وحليفتها في الحرب؟ ويملك مسعود أسباباً كافية ليتساءل عمّ إذا حاولت «السي.آي.إيه.» من خلال دفعها مبلغ الخمسمئة ألف دولار ذلك الشتاء، استعمال قواته في الشمال للمساعدة على تنصيب حكمتيار في كابول.

أخبر مسعود وسطاء عرباً أنه ما زال يأمل تفادي حرب مع حكمتيار تستنزف جميع الوسائل والموارد المتاحة، كما لم يرغب في مواجهة «الآي.أس.آي.» بطريقة مباشرة. أوضح مسعود طموحاته التي تقضي بلعب دور أساسي في أي حكومة مستقبلية في كابول، بينما توقّع استقلال مجالسه في الشمال. لم يطمح إلى حكم مناطق قبائل الباشتون الأفغانية بشكل مباشر، فقد علم أنّ هذا غير عمليّ بالنسبة إلى أي قائد من الطاجيك. وكان مقدار استعداد مسعود للتفاوض مع قادة الباشتون مفتوحاً للتساؤلات. وقد أمل بيتر تومسون أن يوفر مجلس شورى القادة الوطنيين، وسيلة لتنفيذ تسويات مماثلة بعيداً عن سيطرة الاستخبارات الباكستانية. كان أمر واحد أكيداً: لن يقف مسعود مكتوف اليدين بينما يسعى حكمتيار إلى الوصول إلى السلطة في العاصمة.

ضاعف مسعود إمداداته في ذلك الربيع، ووسّع تحالفاته في الشمال، وانتظر. فقد كان الفصل الأخير من الجهاد الطويل ضدّ الشيوعية في انتظاره.

جذب تعطّش حكمتيار إلى التآمر مع قائد شيوعي متعصب، واستعداد الاستخبارات الباكستانية لدعم هذه المؤامرة، عدداً كبيراً من الأفغان، وعزز دعم مقاربة السياسة الجديدة التي قدمها بيتر تومسون في واشنطن. وأظهرت محاولة الانقلاب أنّ شروخ الحرب الباردة الأفغانية تتلاشى بسرعة. فقد وحد المتشددون المنتمون إلى أقطاب معارضة متعددة، صفوفهم بعد انتهاء الحرب السوفياتية الأفغانية. ورأى تومسون وحلفاؤه أنّ الوقت حاسم لتقوم الولايات المتحدة بإنشاء قيادة معتدلة في حركة الثوار الأفغانية، ولتبحث عن سياسات مستقرة لفترة ما بعد الحرب.

أصبحت وزارة الخارجية الآن على يقين بأن الاستخبارات السعودية هي اليد الخفية الأهم في الحرب الأفغانية، وأنّه لا يمكن الاتفاق على أي مقاربة جديدة من دون دعم من الأمير تركي الفيصل شخصيّاً. لذا، كان بيتر تومسون وضباط فريقه يسافرون بشكل متكرر إلى الرياض(344).

بقي الأمير تركي شخصية مراوغة وغامضة. وفي العقد الذي تلا لقاءاته الأولى مع الجنرال الباكستاني أخطار وحلفائه الأفغان في العام 1980، تحوّل الأمير تركي إلى أحد القادة الأبرز في السعودية، وأصبح قيادياً عالي المستوى بين المسؤولين الأميركيين والعائلة المالكة السعودية، ومسافراً دائماً في مهمات استخبارية غامضة، إلى عواصم الشرق الأوسط. كان يمتلك أماكن سكنية فخمة في جدّة والرياض، ويقضي فصول الصيف في منتجعات فاخرة في أوروبا. بلغ تركي الآن الخامسة والأربعين، ولم يعد خبيرَ السياسة الخارجية الصبياني الذي كان عليه في بداية مهنته. فقد أصبح رجلاً محترفاً وأنيقاً، ومشاهداً متيقّظاً للأخبار على المحطات الفضائية، وقارئاً للصحف السياسية الجديّة. بنى علاقات شخصية مع ضباط سابقين في جميع وكالات الاستخبارات في أوروبا والعالم العربي. فبالإضافة إلى باكستان، قدّم مساعدات مالية إلى الوكالات الاستخبارية التابعة لحلفاء السعودية المعتدلين، مثل المغرب والأردن، واشترى حق الولوج إلى المعلومات والأشخاص(345). كان يشعر بأنه في منزله أثناء وجوده في دائرة السياسة الخارجية الفاخرة، وفي مؤتمرات الأمن الدولي التي تعقد في دافوس في سويسرا، أو في مؤسسة آسبن في كولورادو، حيث يناقش الدبلوماسيون والجنرالات مسائل التحديات التي سيواجهها العالم بعد الحرب الباردة بينما يدخنون سيجاراً كوبيّاً. كان تأثير تركي داخل العائلة المالكة السعودية محصوراً بصغر سنّه النسبي. ففي ظلّ نظام سياسي قبلي يعتمد على المستوى العائلي والمستوى الاجتماعي، انتمى إلى الثلث الثاني، بينما جمعته صلة الدمّ والآراء السياسية بالفرع الأكثر تحرراً وتحضراً من العائلة، إلا أنّ سنه أو منزلته لم تكن متقدمة كفاية ليصبح قائداً للنظام. وبرغم ذلك، تمكّن تركي من فرض سلطة خاصة به داخل الحكومة السعودية، أهم بكثير مما تتيح له سنّه. ومع إقرار «السي.آي.إيه.» ومسؤولين أميركيين آخرين، بأنه على الأرجح أكثر شخص يمكن الاعتماد عليه في مجلس الوزراء السعودي، ومع ازدياد انتشار سمعته وكفاءته بفضل عمله الجدي، أسّس تركي داخل الحكومة السعودية سلطة أقوى بكثير مّما تسمح به سنّه. فقد كان من دون شكّ، الرجل المناسب في أفغانستان ليتمّ الاجتماع به.

انطلق تومسون وفريقه الذي يضمّ عادة رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في الرياض، بسرعة إلى مقرّ قسم الاستخبارات العامة في الرياض في سيارة ليموزين طويلة، وقابلوا تركي
ساعات طويلة من ربيع العام 1990، من أجل التحدّث عن المقاربة الأميركية الجديدة المتعلّقة بالحرب السرية. عُقدت جلسات فاترة على أثاث منجّد يعود إلى حقبة الملك لويس الرابع عشر في مكاتب مكيفة، وملأى بالشاي والحلويات. بدا واضحاً أنّ تركي يستمتع بالأحاديث المماثلة، فتبدأ اللقاءات عند العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً وتستمرّ حتى بزوغ الفجر. أظهر الأمير لطفاً دائماً وفضولاً متواصلاً لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الحرب الأفغانية، وحتى التفاصيل الدقيقة. وتتبع أخبار القادة المستقلين والشخصيات الفكرية، وتعمّق في الفروق الدقيقة الأكثر تعقيداً في السياسات القبلية. وكان كثير الأسئلة حول السياسة الأميركية والسياسات المحلية. بدا مثل عدد كبير من متخرجي جامعة جورج تاون المتأثرين بالصرامة اليسوعية، مستمتعاً بالمسائل المعنوية والنظرية المتعلقة بالساسة.

حاول تومسون وأعضاء آخرون في وزارة الخارجية، إقناع الأمير تركي بأن مصالح السعودية، بالإضافة إلى المصالح الأميركية، تكمن في الابتعاد عن الإسلاميين المدعومين من قبل عملائه، ومن قبل الاستخبارات الباكستانية. أراد تومسون أن يساهم التمويل السعودي في بناء مجلس الشورى البديل الذي يضمّ قادة أفغاناً ثواراً، وأن يلعب دوراً مهماً في الحركة الجديدة لدعم مسعود بعيداً عن سيطرة «الآي.أس.آي.». رتّب تومسون لقاءً في واشنطن بين أحد ممثلي مسعود والسفير السعودي الأمير بندر بن سلطان، الذي يتمتع بتأثير ونفوذ كبيرين، على أمل أن يرسل بندر إلى الأمير تركي والآخرين برقية يؤكد فيها دعمه مجلس شورى القادة. عالج تركي المناشدة التي تقدّمت في الربيع، كما تعالج عادة الاستخبارات السعودية النزاعات الصعبة: فتح دفتر شيكاته وتلاعب بطرفي النزاع. قدّم تركي ملايين الدولارات من أجل دعم المبادرة الجديدة التي اقترحها تومسون(346). وفي الوقت نفسه، عزّز تركي دعمه قادة الاستخبارات الباكستانية، خصوم تومسون، متجاوزاً مساهمات «السي.آي.إيه.» للمرة الأولى.

في الفترة الممتدّة من تشرين الأول/أكتوبر 1989 إلى تشرين الأول/أكتوبر 1990، خفّض الكونغرس قيمة المساعدات السرية التي كان يقدّمها إلى البرنامج الأفغاني السري بنسبة 60 في المئة، فأصبحت 280 مليون دولار أميركي. إلا أن الاستخبارات السعودية أمنت في تلك الفترة 435 مليون دولار أميركي من خزينة المملكة الرسمية، و100 مليون دولار من ثروات عدد من الأمراء السعوديين والكويتيين. واستمر التمويل السعودي والكويتي بالتزايد في خلال الشهور السبعة الأولى من العام 1990، متفوقاً بذلك على مساهمة «السي.آي.إيه.». ونظمت الاستخبارات السعودية ما أسمته «خطة الملك فهد من أجل إعادة إعمار أفغانستان»، وهي مشروع مدني من أجل الإصلاح والإعمار، بلغت قيمته 250 مليون دولار. فحتى لو تعاون عملاء «السي.آي.إيه.» كليّاً مع السياسة الأميركية الجديدة التي تهدف إلى عزل المتطرفين مثل حكمتيار، عمل تسونامي الأموال الخليجية هذا على تحجيم جهود الوكالة بفضل الأموال غير المضبوطة المتدفقة من السعودية ودول الخليج(347).

ما كان الحافز الذي دفع الأمير تركي إلى متابعة هذه اللعبة المزدوجة؟ لم يتمكّن الأميركيون الذين تفاعلوا معه، وأُعجبوا به في الدرجة الأولى، من إيجاد جواب دقيق. تقبلوا فكرة أن يكون تركي منتمياً إلى الجناح المعاصر والموالي للغرب من العائلة المالكة السعودية، تماماً مثل الأمير بندر، السفير السعودي لدى واشنطن، وسعود الفيصل، وزير الخارجية. ومقارنة بأمراء آخرين بارزين، اعتنق تركي الثقافة الأميركية والأوروبية، وسعى إلى تقليد النماذج الغربية المتعلقة بالتنمية الاقتصادية. من الواضح أنه تخيّل أن السعودية في المستقبل ستكون مملكة حيث الاقتصاد يتفاعل بشكل وثيق مع الولايات المتحدة وأوروبا، وحيث الازدهار الاقتصادي يؤدي تدريجاً إلى توليد ثقافة دولية أكثر انفتاحاً وتساهلاً في السعودية، على الرغم من أنّ القيم الإسلامية ستستمر في الهيمنة عليها. إلا أنّ دعم تركي للإسلاميين الراديكاليين في باكستان وأفغانستان وأماكن أخرى عزز قدرات القادة والحركات المعارضة للأنظمة الغربية التي أعلن إعجابه بها. لماذا؟ تأخرت الحكومة السعودية، مثل «السي.آي.إيه.»، في إدراك امتداد التهديد الإسلامي الدولي وأهدافه العنيفة. كما رأى تركي أن السعودية في منافسة مستمرة مع جارتها الإسلامية الشيعية القوية،

إيران. كان بحاجة إلى حلفاء إسلاميين سُنة موالين للسعودية، وجديرين بالثقة، ليتنافسوا مع حلفاء إيران، وعلى الخصوص في بلدان مثل باكستان وأفغانستان اللتين تضمان نسبة كبيرة من السكان الشيعة. ورأى السعوديون مسعود وتحالفه الشمالي من خلال موشور اللغة: كان أتباع مسعود يتحدثون اللغة الفارسية بشكل أساسي، أو الأعجمية، أي لغة إيران. وبينما كان مسعود وجماعته من سنّة بانشير، عاش بعض الشيعة في منطقتهم الشمالية. وداخل السعودية بحدّ ذاتها، تعرّض جناح الأمير تركي المعاصر التابع للعائلة المالكة لهجوم مستمرّ من قبل علماء المملكة المحافظين، الذين اتهموا بعض أمراء العائلة المالكة سراً، وحتى علناً في بعض الأحيان، بممالأة الغرب المسيحي، والتنكر للدور الذي تلعبه السعودية بصفتها المشرفة على الأماكن الأكثر قدسية في العالم الإسلامي. كان الصراع الداخلي بين ميليشيا الإخوان العدائية وآل سعود الذين يحكمون المملكة، الذي لا يتعدى عمره المئة عام،
بعيداً كلّ البعد عن نقطة النهاية. وجد الأمير تركي وأمراء ليبراليون آخرون، أنه من السهل تهدئة منافسيهم الإسلاميين المحليين من خلال السماح لهم بتنفيس احتقانهم في الخارج، بدلاً من مواجهة هذه التوترات وحلّها في موطنهم.

كانت الدوافع الأميركية في تلك الفترة سهلة الشرح. فاللامبالاة هي العامل الأكبر. لم يكترث الرئيس بوش كثيراً لأفغانستان. وكتب ضباط «السي.آي.إيه.» الذين قابلوا الرئيس، تقارير تفيد أنّه بالكاد أدرك أنّ الحرب هناك كانت مستمرة. عقد مجلس الأمن القومي بضعة لقاءات عالية المستوى بشأن هذا الموضوع. كان الاتحاد السوفياتي يتفكك، وألمانيا تتحد من جديد مع سقوط جدار برلين: اليوم الأكثر حساسية وتأثيراً. فمع رحيل القوات السوفياتية، أصبحت أفغانستان فجأة مسألة سياسية خارجية تحتلّ المرتبة الأخيرة في سلّم اهتمام الإدارة الأميركية، وقد تمّ دفعها إلى هامش البيروقراطية في واشنطن. باتت سياسة العملية السرية التي صدّق عليها الرئيس رسمياً ذاتية الحركة إلى حد كبير في العام 1990. وبرغم ذلك، أوضح المفاوضون الأميركيون علناً أنّهم يحاولون جدولة توجيهات سياسة جديدة على الرغم من المسافة التي قد تفصل بينهم وبين مركز السلطة في البيت الأبيض. وأعلن مساعد وزير الخارجية، روبرت كيميت، أن الولايات المتحدة لن تعترض على مشاركة نجيب الله في الانتخابات التي تم تنظيمها من أجل وضع حد للحرب الأفغانية. وبعد التأخير الأساسي التي تسببت به «السي.آي.إيه.»، افتتح تومسون المحادثات المباشرة الأولى بين الولايات المتحدة والملك ظاهر شاه المنفي.

اعترف غورباتشيف لنجيب الله سرّاً في شهر آب/أغسطس: «يسري اعتقاد أن الأميركيين قلقون في الواقع بشأن مخاطر انتشار التطرف الإسلامي». «يعتقدون ويعترفون بأن ترسخ الأصولية الإسلامية في أفغانستان وباكستان وإيران اليوم، يعني أنّ هذه الظاهرة ستشمل العالم الإسلامي بأسره في الغد. وثمة دلالات على ذلك، إن نظرت إلى الجزائر، على سبيل المثال. لكنّ الأميركيين سيبقون على حالهم. ويكون المرء ساذجاً إن فكروا في أنّنا لا نرى سوى هذا الجانب من سياستهم، ولا نلحظ الجوانب الأخرى»(348).

تعرّضت الشراكة بين «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.» لضغوط في إسلام آباد. فقد استمرّ التقلب على رأس وكالتي الاستخبارات. طردت بنازير بوتو غول من منصبه كرئيس لـ «الآي.أس.آي»، بعد أن علمت أنّه يعد مؤامرة من أجل إطاحة حكومتها. وحاولت تعيين جنرال متقاعد موالٍ من عائلة بوتو من أجل إدارة «الآي.أس.آي.»، إلا أنّ الرجل الجديد لم يتمكن من إدارة المكتب المعني بالشؤون الأفغانية، فقدّم استقالته. اكتشف رئيس «الآي.أس.آي.» التالي، أسعد دوراني، بسرعة، ملخصاً عن شبكة مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد الأحادية الجانب الذي يضمّ قادة أفغاناً يتقاضون أجراً، بالإضافة إلى معلومات حول علاقة الوكالة المستقلة والشاملة بمسعود(349). وعزز هذا الاكتشاف شكوك ضباط الاستخبارات الباكستانية المتزايدة في أن الأميركيين في المأزق نفسه مع بوتو، وأنهم يلعبون الآن لعبتهم المزدوجة الخاصة.

عمّق بيتر تومسون هذه الشكوك الباكستانية عن طريق التنقل بين داخل إسلام آباد وخارجها، عاقداً اجتماعاً تلو الآخر من أجل حثّ «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية على دعم مجلس الشورى الوطني الجديد الذي يضم قادة «من عامة الشعب». عُقد الاجتماع للمرة الأولى في باكتيا، وقد جذب حوالى ثلاثمئة قائد معظمهم من الباشتون. وبغية مساندة هذا المجهود ودعم مسعود وتعزيز خطوط إمداداته، أنشأت وكالة التنمية الدولية الأميركية طرقات صالحة لجميع الفصول، تمتد بين باكستان وشمال أفغانستان. عارضت «السي.آي.إيه.» في البداية صبّ تركيزها على مسعود. فقد خفضت الوكالة تواً أجر مسعود بسبب فشله في الهجوم على طريق سلانغ العام (بسبب قواعد السرية الخاصة بالوكالة، لم يتمكن ضباط «السي.آي.إيه.» من إطلاع نظرائهم في وزارة الخارجية على ما جرى، ما زاد من حدة التوتر بين الفريقين). وبرغم ذلك، وافقت الوكالة على إعطاء مسعود فرصة جديدة بسبب الضغوط المستمرة التي تعرضت لها.

تابعت الاستخبارات الباكستانية إنشاء لاشكار إيسار («جيش التضحية»)التابع لحكمتيار، وضمت تناي وضباطاً عسكريين أفغاناً سابقين تحت إمرته. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1990، كتبت الشبكة الأفغانية الأحادية الجانب التي تعمل لمصلحة مركز «السي.آي.إيه.» تقريراً يقدم إنذاراً جديداً: قامت قافلة كبيرة من سبعمئة شاحنة باكستانية تحمل أربعة آلاف قاذفة صواريخ بعيدة المدى، بعبور الحدود من بيشاور، وتوجهت نحو ضواحي كابول. خطط حكمتيار لشنّ هجوم صاروخي مكثف على العاصمة كي يجبرها على الاستسلام نهائيّاً، وسيكون الهجوم الأضخم في هذه الحرب: وابل من النيران قد يحصد بالتأكيد مئات الضحايا المدنيين. في 6 تشرين الأول/ أكتوبر، قابل تومسون في بيشاور، عشرة قادة مستقلين، بمن فيهم عبد الحقّ وممثلو مسعود. حذّر القائد أمين ورداك من أنّ موجة الموت التي خطط لها حكمتيار في كابول ستكون «أسوأ من جلال آباد». ووصفت برقية سرية أُرسلت إلى واشنطن، لقاء تومسون قائلة: «القادة على يقين بأنه في حال كان الهجوم

العسكري غير ناجح، وتسبب بخسائر جسيمة بين المدنيين، فسوف يرتد على الجهاديين». سيعتبر العالم بأسره أنّ الهجوم بمنزلة تورط في قتل جماعي. وحذّر عبد الحقّ من أنه في حال سقطت كابول من دون حكومة بديلة، فستعمّ «الفوضى السياسية». قد يشنّ مسعود وقادة آخرون حرباً ضدّ حكمتيار لأنهم لا يقبلونه. كما أفادت برقية 10 تشرين الأول/أكتوبر أنّ ورداك يقدر حدوث

«المزيد من الدمار، ربما 200 ألف إلى 300 ألف بين قتيل وجريح». كان ذلك التكهّن حول مستقبل كابول دقيقاً وحادّاً، لأنّ هذه الخسائر قد وقعت بالفعل(350).

لم يوافق دوراني، رئيس «الآي.أس.آي.» على إلغاء الهجوم وإعادة الشاحنات، إلا بعد أن حذر أوكلي من خطورة النتائج على العلاقات الأميركية - الباكستانية، في حال لم تتخلَّ الاستخبارات الباكستانية عن الخطة. تمّ على الفور إلغاء قرار «تناي اثنين»، الاسم الذي أطلقته سفارة إسلام آباد على الهجوم بالصواريخ المكثف والمخطط له. إلا أنه كان إشارة واضحة إلى الشرخ المتزايد بين الجيش الباكستاني والأولويات الأميركية. قام أوكلي الذي يعارض الآن بصرامة الاستخبارات الباكستانية أكثر مما عارضها أثناء جولة ماك وليامز، بالتنديد بـ «الآي.أس.آي». ووصفها بـ «الفيل الضال»، في اجتماع مع الرئيس الباكستاني. هل كانت «السي.آي.إيه.» مطلعة منذ البداية على خطة حكمتيار التي تقضي بشن هجوم بالصواريخ؟ هل وافق هاري، أو أذعن، على الرغم من إمكانية وقوع آلاف الضحايا المدنيين في كابول؟ رأى تومسون وآخرون في وزارة الخارجية، أنه كان على علم بذلك. واعتبروا هذه المرحلة مثالاً على حرب «السي.آي.إيه.» المستقلة التي أمر بها مركز إسلام آباد، بينما اتبع دبلوماسيو وزارة الخارجية سياساتهم الخاصة. التقى تومسون وهاري في منزل رئيس المركز في إسلام آباد، فقام رئيس «السي.آي.إيه.» أثناء تناولهما شطائر التونا، واحتسائهما الشاي، برواية تاريخ خطة الهجوم بالصواريخ التي كانت ستُشن في تشرين الأول/أكتوبر، بحسب المعلومات التي كانت بحوزته. ووصف أحد الاجتماعات الذي حضره مع «الآي.أس.آي.» وحكمتيار الذي تفاخر بمهارته في الاستيلاء على كابول من أجل الجهاديين، وشرح: «أستطيع تحقيق ذلك!». قال رئيس المركز إنه أصرّ على أن يتعاون حكمتيار مع قادة أفغان آخرين. واستنتج تومسون أنّ مركز إسلام آباد وافق على العملية، وربما سمح بتوفير الأسلحة وإمدادات أخرى. واعتبر أنّ القرار «ليس مجرد قرار رهيب وسيّئ»، بل دليل على خطر أكبر. وكتب تومسون مرّة: «يعكس ذلك جميع العلل الموجودة في الانقسام الداخلي، وعجزها عن فهم السياق السياسي الأفغاني»(351).

بعد مضي أيام على الشعور بحماسة تجاه عملية الهجوم التي لم ينفذها حكمتيار، قاد تومسون عربته إلى بلدة شيترال الباكستانية الشمالية من أجل التمهيد لانتخاب مجلس شورى ثان يضمّ القادة الوطنيين. حضر مسعود وقادة آخرون بارزون من أنحاء أفغانستان. وقد حظر المنظمون، ومن بينهم عبد الحقّ، قادة حكمتيار من الحضور. أمر سياف قادته بالمقاطعة. لكن مئات القادة الأفغان الثوار تجمعوا لأيام من أجل إجراء محادثات سياسية وعسكرية. كان الاجتماع الأوسع منذ سنين، وضمّ القادة الأفغان الذين كانوا في ساحة المعركة أثناء الحرب. أصرّ رئيس «الآي.أس.آي.»، دوراني، على الحضور. وبرغم ذلك، تمكّن رئيس «الآي.أس.آي.» من بعث رسالة إلى مسعود، ودعاه إلى إسلام آباد من أجل عقد اجتماع(352).

قابل ممثلو مسعود الأمير تركي في الرياض للمرّة الأولى. وافق تركي على تسهيل عملية التقارب بينهم وبين «الآي.أس.آي.». وبعد أن تأذى مسعود بسبب تخفيض المساعدات المالية التي تقدمها «السي.آي.إيه.» إليه، وافق على السفر إلى باكستان للمرّة الأولى منذ عقد من الزمن. كان مستعداً

للتنافس مع حكمتيار من أجل الحصول على دعم الاستخبارات الباكستانية مع اقتراب المرحلة النهائية من الحرب. والتقى في إسلام آباد دوراني وهاري، رئيس مركز «السي.آي.إيه.»(353).

سعى دوراني إلى إقامة علاقة ثقة مع مسعود وضمّه إلى قتال الثوار الموحد ضد نجيب الله، ووعد بتزويد مسعود بالإمدادات العسكرية من جديد. ووافق هاري على إعادة جزء من راتب مسعود، فزاد راتبه الشهري من خمسين ألف دولار أميركي إلى مئة ألف دولار. أعطت «السي.آي.إيه.» الاستخبارات الباكستانية تعليمات كي ترسل إلى الشمال المزيد من قافلات الأسلحة عبر الطريق الأميركي الذي تمّ إنشاء نصفه. وتمكّنت بعض الشحنات التي أرسلتها «الآي.أس.آي.» إلى مسعود، وهي عبارة عن قوافل ضمّت حوالى 250 شاحنة من العبور. تسلم مسعود، بأمر مباشر من السفارة الأميركية في إسلام آباد، مجموعةً صواريخ الستينغر الأولى، على الرغم من أنها كانت مجموعة صغيرة. لكن اختفت في حالات أخرى، قوافل ثقيلة أرسلتها الاستخبارات الباكستانية إلى شمال أفغانستان بشكل غامض، ولم تصل قط إلى بانشير. وشكّك الأميركيون في أنّ الاستخبارات الباكستانية قامت بكلّ ما بوسعها من أجل التصدي للضغط الذي تتعرض له من أجل مساعدة مسعود(354).

برز نمط جديد في العلاقة بين «السي.آي.إيه.» و «الآي.أس.آي.». واجه ضباط «الآي.أس.آي.» في المكتب المعني بالشؤون الأفغانية، مطالب صارمة من قبل الأميركيين، فوافقوا عليها، ثم اتبعوا سياستهم الخاصة قدر استطاعتهم، بالتعاون مع «السي.آي.إيه.» في بعض الأوقات، وبمفردهم في أوقات أخرى.

رأى الجنرالات الباكستانيون أجمعون، سواء أكانوا إسلاميين أم علمانيين، أن حكمتيار هو الخيار الأفضل لقيام حكومة موالية لباكستان في كابول. كما شعر جنرالات البنجاب الأكثر ليبرالية، الذين أمضوا فترات بعض الظهر في ملاعب الغولف التابعة للجيش في راولبندي، بينما تنقل أولادهم بفرح في لندن، أنّ «علينا حلّ هذه المسألة. إنّها مصدر إزعاج»(355).

شعر مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد معظم الوقت، بالقلق حيال برنامج الأسلحة النووية الباكستانية. وفي العام 1990، بينما كانت الشراكة بين «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» على الحدود الأفغانية، مضطربة، بدأت مصادر «السي.آي.إيه.» بإرسال تقارير تفيد أنّ الجنرالات الباكستانيين دفعوا برنامجهم النووي إلى مستوى جديد وخطير. وبعدما زار روبرت أوكلي واشنطن، عاد إلى إسلام آباد ناقلاً معه رسالة خاصة إلى الجيش الباكستاني. كانت باكستان في ذلك الوقت على مسافة خطوة أو خطوتين من امتلاكها قنابل نووية، وكانت «السي.آي.إيه.» مدركة الأمر. ووفقاً لقانون أميركي يعرف بتعديل بريسلر، أدى استنتاج «السي.آي.إيه.» تلقائياً إلى وضع حدّ للمساعدة العسكرية والمالية الأميركية التي كانت تقدمها إلى الحكومة الباكستانية، والتي بلغت

قيمتها في تلك السنة 564 مليون دولار أميركي(356). وبعد عقد من التعاون المكثّف بين الأميركيين والباكستانيين، قررت الولايات المتحدة الانفصال.

كانت مخاوف أميركا من انتشار الأسلحة النووية في باكستان، مبنية على أسس واضحة. افتتح ميرزا إسلام بيغ، قائد الأركان في الجيش، محادثات في طهران مع الحرس الثوري الإيراني حول احتمال إقامة تعاون نووي بين باكستان وإيران. وناقش بيغ اتفاقية تقدّم بموجبها باكستان خبرتها في صنع القنابل مقابل النفط الإيراني. قابل أوكلي الجنرال الباكستاني ليشرح له «كم ستكون الكارثة كبيرة بالتأكيد على صعيد العلاقات مع الولايات المتحدة»، ونجح في إقناع بيغ بالتخلي عن المحادثات مع الإيرانيين(357). لكن بدا أنّ الضباط الأميركيين كانوا يتسارعون من نار إلى أخرى في علاقتهم مع الجيش الباكستاني.

تفجّرت ثورة شعبية في أواخر العام 1989 عبر الحدود الباكستانية في أراضي كشمير المتنازع عليها مع الهند. كشمير واد من البحيرات الجبلية، تقطنها نسبة كبيرة من المسلمين. وقد شكّلت ساحة معركة لثلاث حروب بين الهند وباكستان، استمرت أربعة عقود. استوحى ضباط الاستخبارات الباكستانية من نجاحهم في طرد القوات السوفياتية من أفغانستان، وحاولوا استنساخ تجربة الجهاديين الإسلاميين مع الهند، وأعلنوا لبوتو استعدادهم لاستعمال وسائل الجهاد السري نفسها من أجل إخراج الهند من كشمير. كانوا قد باشروا بتطوير شبكات مقاتلة تابعة لجماعة الإخوان المسلمين في وادي كشمير، مستعينين بالمدارس الدينية والمنظمات المحترفة. نظمت «الآي.أس.آي.» مخيمات تدريبية لمقاتلي كشمير المقيمين في مقاطعة باكتيا في أفغانستان، حيث أنشأ المتطوعون العرب في وقت سابق مخيماتهم الخاصة. تدرب مقاتلو كشمير في تلك السنة، جنباً إلى جنب مع الجهاديين العرب وفقاً لتقارير «السي.آي.إيه.». بدأ مقاتلو كشمير الظهور في أراضٍ تحكمها الهند، حاملين رشاشات كلاشينكوف صينية الصنع، وأسلحة أخرى استحوذوا عليها من خطوط الإمداد الأفغانية. خشيت «السي.آي.إيه.» أن ترسل الاستخبارات الباكستانية أسلحة عالية التقنية إلى كشمير، مثل البنادق القناصة التي تمّ شحنها في الأساس إلى باكستان، بغية قتل الضباط العسكريين السوفيات. وقد أرسلت الولايات المتحدة إلى الهند تحذيرات سرية من أجل حماية السياسيين والمسؤولين الحكوميين المسافرين إلى كشمير من اعتداءات القناصة البعيدة المدى(358).

عبر الجهاد الأفغاني حدود بلد جديد، وكانت القضيّة تتعلّق بالتوسع من جديد.

قام بن لادن في أواخر العام 1990، من جديد بإدارة أعمال عائلته في جدّة في السعودية. بقي على اتصال وديّ بأحمد باديب، قائد الأركان في الاستخبارات السعودية، الذي كان يقدّم إلى بن لادن «نصائح تجاريّة، كلّما طلب منه ذلك»(359).

علم باديب أنّ بن لادن بدأ تنظيم متطوعين سعوديين ويمنيين سابقين قابلهم عندما كان في أفغانستان من أجل الشروع في جهاد جديد في جنوب اليمن، حيث يسيطر الماركسيون المدعومون من السوفيات. فمن المباني السكنيّة في جدّة حيث كان يعمل، استطاع تمويلهم ماديّاً وتزويدهم بالأسلحة كي يتمكنوا من شنّ حرب قتاليّة ضدّ حكومة جنوب اليمن. وما إن عبر مقاتلو بن لادن الحدود حتى قبضت الحكومة اليمنية على بعضهم، واشتكت إلى الرياض، متّهمة بن لادن، وذاكرة اسمه تحديداً(360).

في خريف العام 1990، اضطرب بن لادن بسبب المخاطر التي تواجهها السعودية نتيجة اجتياح القوات العسكرية العراقية للكويت في آب/أغسطس واحتلالها له. أراد بن لادن قيادة جهاد جديد ضدّ الجيش والنظام العراقيين، فألقى خطباً في المدارس والتجمعات الصغيرة في جدّة حول سبل هزم صدام حسين من خلال تنظيم كتائب من المتطوعين الإسلاميين المؤمنين بالجهاد. اعترض بن لادن بعنف على قرار العائلة المالكة السعودية الذي يقضي بدعوة قوات أميركية للمساعدة في الدفاع عن المملكة، وطالب بعقد جلسة تضمّ أمراء بارزين من العائلة المالكة السعودية والملك فهد بنفسه لعرض خططه للجهاد الجديد.

سافر أمير سعودي بارز برفقة فقيه إسلامي موال للحكومة اسمه خليل خليل إلى جدة، من أجل الاستماع إلى بن لادن وتقييم حالته الذهنية بعدما تردد بالموقف الذي سيتّخذه حيال خطب بن لادن العنيفة، وقلق بسبب العنف الذي يثيره في اليمن. أحضر بن لادن حراساً شخصيين إلى الاجتماع الخاص. حمل معه اقتراحاً من ستين صفحة مطبوعة بالعربية يستعرض فيه أفكاره.

رأى خليل أنّ بن لادن «رسمي ومتوتّر جداً». طلب بن لادن مقابلة الملك فهد. قال: «أريد محاربة صدام الكافر. أريد شنّ حرب قتاليّة ضدّ العراق». سأله خليل عن عدد القوات التي جمعها، فتفاخر بن لادن قائلاً: «ستون ألفاً»، و «عشرون ألف سعودي». أدرك خليل والأمير أن هذا جنون، لكن بن لادن تابع: «لا أحتاج إلى الأسلحة، فلدي ما يكفي».

في النهاية، أعلن الأمير البارز لبن لادن أثناء الاجتماع، أن الملك السعودي لن يقابله. قال إن الملك لا يقابل سوى العلماء، العلماء الدينيين. لكن بما أن بن لادن يقدم اقتراحاً عسكرياً، وبما أنه سليل أسرة سعودية بارزة، وافق الأمير على ترتيب لقاء بين بن لادن والأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي.

يذكر خليل أن بن لادن أعلن عند انتهاء الاجتماع: «أنا قائد جيش إسلامي. لا أخاف أن يتمّ إلقاء القبض علي ووضعي في السجن. لا أخاف إلا الله».

أخبر الأمير البارز بن لادن أن ما قاله تواً «مخالف للشرع والمبادئ. لكن ليس من عاداتنا إلقاء القبض على شخص وافقنا على مقابلته بنية حسنة. أنصحك بالانتباه إلى ما تقوله. نحن لا نخافك، ولا نخاف جيشك. نعرف ما العمل».

أجاب بن لادن: «أنتم تستمعون إلى أميركا»(361).

وصل بن لادن إلى وزارة الدفاع في الرياض، وبحوزته خرائط عسكرية ورسوم بيانية. انضم عبد الله التركي إلى الاجتماع، وكان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، منظمة الدعوة السعودية الأكثر انتشاراً في العالم. لقد حضر الاجتماع ليشرح لبن لادن أنهم سيفرضون على القوات الأميركية المدعوة إلى المملكة عقوبات دينية. قال التركي إن النبي محمد أراد أن تكون الديانة الإسلامية وحدها المسيطرة في شبه الجزيرة العربية، إلا أنه لم يعترض قط على تنقل اليهود والمسيحيين في المنطقة، أو على مساعدتهم في الدفاع عنها.

شرح بن لادن أن المملكة السعودية تستطيع تفادي الاستعانة بجيش من الكفار الأميركيين، من أجل خوض حربها، في حال دعمت جيشه الذي يضمّ مقاتلين متمرسين خاضوا الحرب الأفغانية وتمّ اختبارهم في ساحة المعركة.

عامل الأمير سلطان بن لادن بلطف واحترام، لكنه اعترف بأنه يشكّك في نجاح الخطة، فبحوزة الجيش العراقي أربعة آلاف دبابة. قال الأمير سلطان: «لا نملك أي كهوف في الكويت. لا نستطيع أن نحاربهم من الجبال والكهوف. ماذا ستفعل عندما يقذف الصواريخ في اتجاهك، ويستخدم أسلحة كيميائية وبيولوجية؟»

«قال بن لادن: «سنحاربه بإيمان»»(362).

انتهى الاجتماع بتبادل التحايا الدالة على الاحترام، لكن من دون التوصل إلى أيّ نتيجة. فعلى الرغم من أن أفكار بن لادن جنونية، فهو ينتمي إلى إحدى العائلات الأبرز في المملكة، وقد عمل مع الحكومة السعودية بشكل وثيق. وفي حالات مماثلة، يشجع العرف السعودي على تفادي النزاع المباشر.

اعتبر الأمير تركي أنّ لقاء بن لادن في وزارة الدفاع، شكّل نقطة تحوّل. ولاحظ رئيس الاستخبارات السعودية منذ ذلك الوقت «تغييرات راديكالية» في شخصية بن لادن: «انتقل من رجل هادئ ومسالم ولطيف مهتم بمساعدة المسلمين، إلى شخص يؤمن بأنه قادر على حشد جيش وقيادته من أجل تحرير الكويت. وقد أظهر ذلك مدى عجرفته وتعاليه»(363).

لم يكن بن لادن وحده من أثار صدمة الأمير تركي في ذلك الخريف عندما رفض تحالف المملكة مع الولايات المتحدة ضدّ العراق. فقد رفض حكمتيار وسياف ذلك على الرغم من المساعدات التي قدّمتها إليهما الاستخبارات السعودية، والتي بلغت ملايين الدولارات. ألقى سياف بصفته رئيس الوزراء في الحكومة الأفغانية بالوكالة، خطباً علنية في بيشاور متهماً العائلة المالكة السعودية بمعارضتها للإسلام. أوفدت إدارة بوش دبلوماسيين لحثّ باكستان والعائلة المالكة السعودية على توجيه حلفائهم الأفغان. وأقرّت مذكّرة عمل أصدرتها وزارة الخارجية: «لم يكن لمعارضتهم أميركا في السابق سوى تأثير بسيط خارج النطاق الأفغاني، لكنّهم في الأزمة الحالية يقومون بإثارة المشاعر المعارضة لأميركا والسعودية في باكستان وأفغانستان، وخارج حدودهما». فاستشاط تركي غضباً وأرسل أحمد باديب إلى باكستان.

عندما وصل باديب إلى بيشاور، لم يتمكّن من السيطرة على غضبه. شرح لاحقاً: «عندما أغضب، أفقد أعصابي». أقحم نفسه في اجتماع علنيّ حيث كان سياف يندد بالسعودية بسبب مساوماتها مع «الشياطين الأميركيين».

سأله باديب: «الآن، ستقول لنا ماذا نفعل بديانتنا؟ فحتى اسمك، غيّرته لك ليصبح اسماً مسلماً». إن أرادت الحكومة الأفغانية بالوكالة إرسال وفد من الجهاديين للمساهمة في الدفاع عن السعودية ضدّ العراقيين، فستساعد بذلك العالم على «الاعتراف بوجود شيء في العالم يطلق عليه اسم الجمهورية الأفغانية الإسلامية». لكن في حال رفض سياف، «سأجعلك تندم حقّاً على ما قلته».

لم يوضح قائد الأركان في الاستخبارات السعودية ما يعنيه، وقال لسياف مباشرة: «اذهب إلى الجحيم أنت وعائلتك والأفغان»، ثمّ خرج غاضباً وحانقاً(364).

بدأت خيوط التحالف الجهادي في الحرب الباردة بالتفكّك.

# 12
# نحن في خطر

في بداية العام 1991، كانت السياسات الأفغانية التي سعت وزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.» إلى تطبيقها، في منافسة مفتوحة فيما بينها. أراد كلا الطرفين تغيير الحكومة في كابول، إلا أنّ الحلفاء الأفغان عند أحد الطرفين اختلفوا عن حلفاء الآخر. سعى بيتر تومسون ومؤيدوه في مكتب الاستخبارات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية، وراء ما اعتبروه استراتيجية جوهرية أو أساسية. زوّدوا مجلس الشورى الجديد الذي يضمّ القادة الثوار بالأسلحة والأموال، ما جذب أفراداً من خارج أفغانستان، كما شدّدوا على أهمية مسعود. وتابعوا التفاوض من أجل التوصل إلى تسوية سياسية شاملة، تتضمّن شخصيات سياسية مشهورة، مثل الملك المنفي. تعاونت «السي.آي.إيه.» في بعض الأحيان مع هذه الجهود، إنّما على مضض، كما استمرت في التعاون مع الاستخبارات الباكستانية في ميدان عسكري منفصل روّج في الدرجة الأولى حكمتيار وقادة إسلاميين آخرين يديرون العمليات قرب الحدود الباكستانية. لجأت «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» في ذلك الشتاء إلى استراتيجية اتبعت من دون نجاح في السنتين السابقتين: هجوم مكثّف على مدينة أفغانية شرقية بمشاركة القوات الباكستانية السرية بطريقة مباشرة.

حاولت «السي.آي.إيه.» في الحملة السابقة دعم هجوم مماثل من خلال حثّ مسعود على قطع طريق سلانغ العام، إلا أنّ الوكالة خاب ظنّها بشدّة. ابتكر ضباط قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات، هذه المرّة، فكرة جديدة. في بداية شهر آذار/مارس العام 1991، خلّف جيش صدام حسين المقهور والمنسحب مجموعات من الدبابات السوفياتية الصنع وأسلحة مدفعيّة في الكويت وجنوب العراق. وقد وفّرت هذه الأسلحة المهجورة إمكانية بدء لعبة سرية كلاسيكية: تستعمل «السي.آي.إيه.» سرّاً الغنائم التي تستولي عليها من أحد أعداء أميركا للهجوم على عدو آخر.

عيّن مركز «السي.آي.إيه.» في الرياض الذي يعمل مع الاستخبارات السعودية، فريقاً من الضباط اللوجستيين السريين من أجل جمع دبابات من طرازي «تي 55» و «تي 72» العراقية المهجورة وناقلات الجند المدرعة والأسلحة المدفعية. عمل فريق «السي.آي.إيه.» مع الجيش الأميركي في جنوب العراق للاستيلاء على مستودعات الأسلحة العراقية المهجورة ومتاجر الذخائر. رمّما المعدات التي حصلا عليها ونقلاها إلى المرافئ الكويتية بغية شحنها إلى كاراتشي، ثم قامت الاستخبارات الباكستانية بنقلها من هناك إلى الحدود الأفغانية. استعمل ضباط من مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية، هذه المعدات لدعم المعارك التقليدية الجديدة والمكثفة في الهجوم على مدينة غارديز الشرقية في إقليم باكتيا، الحصن الذي أمّنته «الآي.أس.آي.» لجلال الدين حقاني وحكمتيار والمتطوعين العرب(365).

توصل ضباط قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» إلى استنتاج أن قوات الثوار الأفغان بحاجة إلى أسلحة هجوميّة تقليدية كي تتكافأ مع القوة العسكرية التي يتمتع بها جيش نجيب الله الأفغاني. جرت محادثات سابقة من أجل شحن بطاريات مدفعية عيار 155 ميليمتراً أميركية الصنع، لكن يبدو الآن أن المناورات العراقية أفضل، فهي أرخص ثمناً، ولا يمكن تقفي آثار المعدات مباشرة إلى واشنطن. فالأسلحة العراقية السوفياتية الصنع هي من النوع نفسه الذي استولى عليه الجهاديون في بعض الأحيان من القوات الحكومية الأفغانية. ففي حال ظهرت فجأة قوّة من الثوار في ضواحي خوست أو غارديز مع سرية جديدة من الدبابات، لن يكون مصدر مدرعاتها واضحاً.

وافق بيتر تومسون وآخرون في وزارة الخارجية على دعم عملية نقل الأسلحة العراقية بطريقة سرية. شعروا بالقلق بشأن تدني معنويات الثوار بعد أشهر من الوقوع في مأزق عسكري، ورأوا أنّ المعدات الجديدة قد توفر لهم دفعة قويّة يحتاجون إليها بشدّة. وفي الوقت نفسه، لم يرغبوا في أن تقوي الدبابات وبطاريات المدفعية العراقية الإسلاميين الداعمين لحكمتيار، الفاقدين المصداقية، والمحاربين لأميركا.

بعدما فشل حكمتيار وسياف في دعم السعودية علناً في مواجهتها مع العراق، تعهّدت الولايات المتحدة والاستخبارات السعودية أولاً قطع العلاقات معهما. أعلن السفير السعودي في باكستان الذي التقى الدبلوماسيين الأميركيين ورئيس الاستخبارات الباكستانية في مركز «الآي.أس.آي.» الرئيسي، أنّه لا بدّ من قطع التمويل السعودي لحكمتيار وسياف. لكن الأميركيين أدركوا في غضون أشهر، أن السعوديين يسمحون سراً للأموال والأسلحة بالوصول إلى حكمتيار وسياف(366).

استمرت الميزانية التي حدّدتها «السي.آي.إيه.» للأفغان بالتقلص. كما انخفض مجموع تمويلات الكونغرس للجهاديين من جديد في خلال السنة التقويمية من العام 1991. رأى دبلوماسيو وزارة الخارجية أنّه يجب استعمال المساعدات القليلة المتبقية من أجل تقوية القادة الثوار المنافسين لحكمتيار. أقرّت «السي.آي.إيه.» أنها لم تتمكن قط من السيطرة على طريقة توزيع الاستخبارات الباكستانية للأسلحة التي تتسلمها. فبحسب الاتفاقية، تنتقل ملكية الأسلحة إلى «الآي.أس.آي.» ما إن تصل إلى الأراضي الباكستانية. اشتكى تومسون وآخرون في وزارة الخارجية من أن «السي.آي.إيه.» كانت بالتأكيد قادرة على السيطرة على وجهة أسلحتها، إلا أن ضباط لانغلي قالوا إن ذلك لم يكن ممكناً. وبالإضافة إلى ذلك، رأى أن محاولة الانقلاب التي قام بها حكمتيار مع تناي برهنت عن جرأته التكتيكية: جلس معظم القادة الأفغان عاجزين بانتظار انتهاء الحرب(367). قدّمت «السي.آي.إيه.» تقريراً يفيد أن الاستخبارات السعودية صدقت على مناورة الدبابات العراقية، ودعمت الخطة السرية دعماً كاملاً. سيحاولون إبقاء الدبابات بعيداً عن حكمتيار، وسيشجعون الاستخبارات الباكستانية على إرسالها إلى القائد جلال الدين حقاني. رأى

عملاء الوكالة أنّه بعد بدء موسمي القتال السابقين بطريقة خاطئة، سنحت أخيراً فرصة للمساعدة على ترجيح كفة الميزان العسكري في أفغانستان ضد نجيب الله.

تمكن ائتلاف الفصائل الجهادية الأفغانية من محاصرة خوست مع بدء فصل الربيع، بفضل مساعدة ضباط «الآي.أس.آي» في إدارة الهجوم من قمم تلال قريبة. سقطت حاميتها العسكرية الرئيسية في أيار/مايو العام 1991، بما شكل الانتصار الثوري الأبرز منذ انسحاب القوات السوفياتية. إلا أن أمل بيتر تومسون أن يحفّز الانتصار قوّة مجلس شورى القادة، قد أُحبط. وأكّدت الاستخبارات الباكستانية أنّ حكمتيار وصل إلى المدينة مع المجموعة الأولى من الغزاة. ادعى على الفور انتصاره في خطبه العلنية. قاد رئيس «الآي.أس.آي.»، دوراني، عربته عبر الحدود الأفغانية، وقام بجولة ناجحة في أنحاء خوست تماماً كما فعل القائد الباكستاني لجماعة الإسلام، قاضي حسين أحمد. وتجلّى من خلال ظهورهما هذا الدور المباشر الذي تلعبه شبكات الجيش الباكستاني والإخوان المسلمين في الهجوم(368).

تمّ توثيق الوجود المتزايد للأصوليين العرب والإندونيسيين والماليزيين والأوزبكيين، ومقاتلين متطوعين آخرين في إقليم باكتيا، في التقارير التي أوردتها الوكالة من ساحة المعركة. قامت البرقيات المرتكزة على تقارير العملاء الأفغان، والتي أرسلتها «السي.آي.إيه.» من باكستان، بتزويد لانغلي في تلك الفترة تقارير مفصلة عن مخيمات التدريب الجهادية في باكتيا. فقد كتبت «السي.آي.إيه.»، على سبيل المثال، تقريراً يفيد أنّ المتطوعين السعوديين الأصوليين يتدربون جنباً إلى جنب مع أصوليين من كشمير، بينما دربت الاستخبارات الباكستانية الكشميريين للتوغل داخل الأراضي التي تسيطر عليها الهند. كما كتبت «السي.آي.إيه.» تقريراً يفيد أنّ عدداً كبيراً من الجزائريين وأصوليين إسلاميين آخرين من شمال أفريقيا، يخضعون لتدريبات في باكتيا. بعضهم يحارب قوات حكمتيار الأفغانية، وآخرون يحاربون سياف(369).

أُهملت هذه التقارير الاستخبارية المفصلة حول الراديكالية الإسلامية الدولية ومرجعها في أفغانستان في مستويات البيروقراطية الوسطى. واستمرت الأزمات الضخمة والمستنزفة لجميع الموارد، أي حرب الخليج وإعادة توحيد ألمانيا واحتضار الاتحاد السوفياتي، بالاستحواذ على انتباه مجلس الوزراء في إدارة بوش. في العام 1991، نادراً ما تمّ ذكر أفغانستان على جدول الأعمال هذا، في حال تمّ ذكرها في الأساس.

وجد ميلت بيردان، رئيس مركز إسلام آباد السابق، نفسه يتحدّث بشكل عَرَضي عن الحرب الأفغانية مع الرئيس بوش. ويذكر بيردان أنّ الرئيس بدا مرتبكاً عندما علم بأن خط إمداد «السي.آي.إيه.» السري عبر باكستان، ما زال مفتوحاً. وفوجىء بوش أيضاً عندما علم بأن الأفغان ما زالوا يحاربون. سأل الرئيس: «ما زال هذا الشيء مستمراً؟»(370).

أنفقت العائلة المالكة السعودية أموالاً طائلة من أجل تهدئة الراديكاليين الإسلاميين في المملكة في الأعوام التي تلت ثورة الجامع الأكبر في العام 1979. تدفقت مليارات الدولارات إلى داخل خزينة علماء المملكة الرسميين، الذين أصدروا فتاويهم بطريقة متزايدة من مكاتب مجهزة بآلات تكييف الهواء ومزودة بأثاث خشبي فاخر من خشب السنديان. دعمت ملايين أخرى حملات بناء الجوامع في البلدات الإقليمية والقرى والواحات. وتمّ توظيف آلاف السعوديين الشبان العاطلين عن العمل في الشرطة الدينية المحلية، كما أرسل بعضهم إلى مراكز التسوق الجديدة المشعة والمبنية من الحجار الرملية والزجاج في المملكة. وعملوا هناك على مضايقة النساء في حال رأوا أنّ أحذيتهن العالية الكعب ظاهرة من تحت أثوابهن السوداء، واستعملوا عصياً من أجل زجر الرجال السعوديين لتأدية الصلاة اليومية. كما أنشأت عائلة آل سعود جامعات إسلامية جديدة في الرياض وجدة، حيث تسجّل آلاف التلاميذ من أجل دراسة القرآن. وعززت العائلة المالكة في الوقت نفسه آليات التحديث الخاصة بها، فأنشأت الطرقات العامة بين المدن، وشيّدت مباني سكنية ضخمة ومنشآت صناعية ومستشفيات. انتسبت النساء السعوديات إلى القوة العاملة بأعداد كبيرة على الرغم من أنهن عملن في عزلة تامة عن الرجال. وأمضى الأمراء والأميرات العلمانيون عطلات الصيف في لندن وكان وكوستا دال سول وسويسرا. شملت العائلة المالكة السعودية أمراء يحددون أنفسهم بأنفسهم، وقد بلغ عددهم ستة آلاف في العام 1990، وارتفع كثيراً بمرور الأعوام. وأولى عدد قليل من هؤلاء الأمراء اهتماماً بمجلس الشيوخ الإسلامي الذي حكم الحضارة السعودية الرسمية.

عاد أسامة بن لادن من باكستان إلى السعودية مع تزايد عدد الشقوق بين المؤسسة الدينية المتشددة والعائلة المالكة المختلفة والخارجة على النظام. وبالنسبة إلى عدد كبير من السعوديين، قام الغزو العراقي ووصول مئات آلاف القوات الأميركية من أجل الدفاع عن المملكة، بالقضاء على أسطورة الاستقلالية السعودية، وتأجيج جدال مفتوح حول هوية السعودية. بدت الحرب بمنزلة نقطة تحوّل بالنسبة إلى الإسلاميين والليبراليين، على السواء. واحتجت النساء السعوديات لأنّ المملكة حظرت قيادتهن للسيارات، وتحدينها عن طريق قيادة السيارات في شوارع الرياض والظهران. ورفع الناشطون السياسيون الليبراليون عريضة مطالبين بمجلس تمثيلي يستطيع تقديم النصائح إلى العائلة المالكة. ندد الإسلاميون بوصول القوات المسيحية معتبرين أن ذلك انتهاك للشريعة الإسلامية. وسجل داعيتان شابان متحمسان معروفان باسم «المؤذنين»، خطباً معارضة للأميركيين على أشرطة تسجيل، ونشروا ملايين النسخ في أرجاء المملكة في أواخر العام 1990 وبداية العام 1991. أعلن الشيخ سفر الحوالي، وهو حليف لبن لادن: «ليس العالم ضدّ العراق، إنما الغرب ضدّ الإسلام»؛ «إن غزا العراق الكويت، تكون أميركا غزت السعودية. العدو الحقيقي ليس العراق إنما هو الغرب». وبرهن أشهر كتاب للحوالي عنوانه «وعد كيسنجر»، أن «الصليبيين» الذين تقودهم أميركا يحاولون غزو شبه الجزيرة العربية من أجل الاستيلاء على مخزون النفط. وحذّر المواطنين السعوديين قائلاً: «لن يطول الوقت قبل أن تحصّن دماؤكم، أو ستضطرون إلى إعلان تخليكم عن إيمانكم بالله». وتحدث بن لادن عن هذه الموضوعات في محاضرات غير رسمية في مساجد جدة. تبنى سياسات الحوالي وبعض مصطلحات الداعية المقرب إليه. ووجد نفسه جزءاً من حركة متوسعة في المملكة. ويذكر الصحافي والكاتب السعودي، سعود أبو الريش، أنّ محرضين

آخرين معارضين للملكية اعتبروا مشاركته دليلاً على جدية الثورة لأن بن لادن «عضو في المؤسسة»، وأعلن نفسه «إسلامياً رديكاليّاً ضدّ النظام»(371).

حصلت شبكة سعودية سرية من الدعاة والناشطين الإسلاميين في أيار/مايو 1991، على تواقيع عديدة على عريضة عنوانها «رسالة المطالب» قُدّمت إلى الملك فهد. مزجت العريضة نداءات الإصلاح السياسي شبه الديموقراطي بالأيديولوجيات الإسلامية الراديكالية. وسعت إلى أولوية الاحتكام للشريعة الإسلامية من دون تقييد، وتوزيع متساو للثروة العامة، وتمويل أكبر للمؤسسات الإسلامية والمراقبة الدينية على وسائل الإعلام، ومجلس استشاري مستقل عن العائلة المالكة. صعق نشر الرسالة العائلة المالكة السعودية، لأنها تكشف عن وجود منظمة متمددة في المملكة تحتشد بالسر حول جدول أعمال مخالف لتوجهات العائلة المالكة. ازداد عدد أشرطة التسجيل التي تم نشرها في ذلك الصيف على أيدي دعاة إسلاميين سريين، وارتفعت حدّة نقدها اللاذع. وأعلم شريط شهير بعنوان «أميركا كما رأيتها» مستمعيه، بأن الولايات المتحدة «أمة وحوش تزني وتتناول أطعمة فاسدة»، وأرض حيث الرجال يتزوجون برجال، ويتم التخلي عن الوالدين عند تقدمهما في السنّ(372).

نفد صبر العائلة المالكة السعودية، فردت عن طريق القيام بعدد من الاعتقالات. إلا أنّ الحكومة سيطرت على رد فعلها بلطف. لم يرغب الأمراء البارزون في أن تعتبر حملة فرض النظام عنيفة وعشوائيّة، أو توليد موجات جديدة من المعارضات التي تعزز الاضطرابات. وُضع «المؤذنان» قيد الإقامة الجبرية، إلا أنّ الحكومة سرعان ما فتحت باب المفاوضات من أجل تلبية بعض مطالبهما. بعث الأمراء البارزون سرّاً برسائل إلى علماء المملكة يقرون فيها، أجل، أن وجود القوات الأميركية في المملكة غير مرغوب فيه، وأن عددهم وحضورهم سينخفضان في أسرع وقت ممكن. وخرج الأمراء السعوديون علناً للتشديد على ولائهم للقضايا الإسلامية، وعلى الخصوص في أماكن خارج السعودية، مثل أفغانستان والبوسنة. وأعلم وزير الحج والشؤون الدينية في المملكة، بأن الحكومة أنفقت حوالى 850 مليون دولار على بناء المساجد في الأعوام الأخيرة، وعينت فيها 53 ألف رجل دين، وخططت لتوظيف 7300 شيخ لإقامة الصلاة. وأعلن الملك فهد أنه ينوي شحن ملايين النسخ من القرآن إلى دول وسط آسيا المستقلة حديثاً، التي كانت في السابق مسلمة. وأوضحت العائلة المالكة أن المنفذ المناسب والقانوني لمذهب الفاعلية الإسلامي، لا يكمن داخل المملكة، إنما في الخارج حيث تقدم المساعدة إلى الأمة الشاملة، أو مجتمع المؤمنين المسلمين(373).

حثّ ظهور «المؤذنين» ورسالة المطالب، ضباط «السي.آي.إيه.» ودبلوماسيي وزارة الخارجية على مباشرة المحادثات مع العائلة الملكة السعودية حول مخاطر الرديكالية الإسلامية. صمم المحللون الأميركيون على التدخل باكراً إلى جانب الأمراء السعوديين من أجل تشجيع المواطنين السعوديين على التنبه إلى إشارات المعارضة الداخلية الجدية، والردّ عليها.

بدأت «السي.آي.إيه.» للمرة الأولى بالعثور على أدلة تفيد أنّ الجهاديين العرب الذين تلقوا تدريباتهم في أفغانستان، يمثلون تهديداً ضد السعودية. وناقش غاري شروين، الذي بات يعمل في مركز «السي.آي.إيه.» في الرياض، مع الأمير تركي مشكلة الراديكاليين السعوديين المتنقلين ذهاباً وإياباً إلى أفغانستان. قال شروين كما يذكر: «يقوم عدد كبير من المواطنين السعوديين بالقتال هناك». «تمّ تدريبهم على ذلك، إنّهم شبان متفانون جدّاً ومتدينون، وقرر عدد كبير منهم العودة، إنّهم هنا».

أكّد له تركي قائلاً: «نحن نتفهّم ذلك ونقوم بمراقبتهم. لا توجد أي مشكلة. سنهتمّ بالأمر». بدأت العائلة المالكة السعودية بالقلق. جلس السفير السعودي في باكستان مع مسؤولين أميركيين في مركز إسلام آباد، من أجل تحذيرهم من الجمعيات الخيرية الإسلامية الموجودة على الحدود الأفغانية، والتي تقوم بجمع الأموال في الولايات المتحدة، من أجل إنفاقها على القضايا الراديكالية الإسلامية العنفية في باكستان وأفغانستان وغيرهما. وحذّر المبعوث السعودي قائلاً: «عليكم التنبّه إلى ذلك». وأرسلت القنصلية الأميركية في بيشاور برقية سرية إلى واشنطن ترتكز على معلومات قدمها المبعوث السعودي. قدمت البرقية لائحة باسم الجمعيات الخيرية في كاليفورنيا وتكساس التي ترسل الأموال والمقاتلين إلى الشبكات الإسلامية الملتفة حول حكمتيار وسياف. وتمّ تحويل البرقية إلى «الأف.بي.آي.» و «السي.آي.إيه.»، إلا أنّ ضباط وزارة الخارجية الذين ساعدوا على كتابتها، لم يلحظوا قط أي متابعة(374).

ناقش بيتر تومسون وموفدون آخرون من واشنطن مع الأمير تركي، في صيف العام 1991، مشكلة التهديد الإسلامي المتزايد. استمع تركي إلى اهتماماتهم، وألقى بعض التعليقات، إلا أنّه كرر أنه يتابع المسألة. بالنسبة إلى الجواسيس والدبلوماسيين الأميركيين، كان الأمير تركي المصدر الأكثر انفتاحاً بشأن موضوع الإسلام السياسي، وقد بدا مطمئناً كما هي حاله في معظم الوقت. كان تركي أحد الليبراليين الذين يتعرضون دائماً لانتقادات من قبل إسلاميين سريين. اشتركت شقيقته في المحاولات التي قامت بها النساء في الرياض من أجل الفوز بحقوق أكبر وبقدرة على الظهور. وقام أحد الدعاة أثناء صلاة الجمعة في جامع الرياض، بانتقائها بشكل خاص من بين النساء الأخريات، واتهمها بالبغاء. وفي الأسبوع التالي، ذهب تركي إلى الجامع ونهض من بين الجموع وطلب إلقاء كلمة. ندد بالتشهير ضدّ النساء في عائلته، موضحاً أنّ الانتقادات ضدّ الليبراليين تخطت حدودها(375). أُعجب الأميركيون الذين قابلوه باستعداده لاتخاذ موقف علني، فرأوا بسرعة أنّ تركي إلى جانبهم، وأنه يسيطر على الخطر الإسلامي.

ورد اسم بن لادن صراحة في بعض اجتماعات تركي و «السي.آي.إيه.». تابعت الاستخبارات الأميركية تسلم تقارير تفيد أن الراديكاليين يموّلون، أمثال حكمتيار في أفغانستان. وانتشر ضباط تابعون لحكمتيار وسياف وحقاني في أنحاء السعودية، يجمعون الأموال من المساجد والشيوخ الأثرياء. وكان بن لادن جزءاً من نظام جمع التبرعات الشامل. طمأن تركي الأميركيين بشأن بن لادن، قائلاً: «لقد تنكرت له عائلته». تمّ بذل جهود كبيرة من أجل إقناع بن لادن بوقف احتجاجاته

ضدّ العائلة المالكة السعودية. اعترف تركي بأنّ هذه الجهود قد فشلت، وبأن المملكة استعدت لاتخاذ إجراءات صارمة(376).

علم بن لادن بهذا الأمر عندما حضرت الشرطة السعودية إلى مجمعه المجهز بأثاث متواضع ووسائد مبعثرة في جدة، لإعلامه بأن عليه مغادرة المملكة. ووفقاً لتقرير سلمته الاستخبارات السعودية لاحقاً إلى «السي.آي.إيه.»، أكد الضابط السعودي الذي تم تعيينه من أجل تنفيذ عملية الترحيل، لبن لادن أنّ ذلك لمصلحته الشخصية. ألقى الضباط اللوم على الأميركيين. قال بن لادن وفقاً لهذا التقرير، إنّ الحكومة الأميركية تخطط لقتله، لذا أرادت العائلة المالكة أن تقدم إليه خدمة وتخرجه من المملكة من أجل حمايته الشخصية. قدم شريكان لبن لادن لاحقاً رواية مختلفة أثناء الاستجواب: قالا إنّ فرداً مرموقاً من العائلة المالكة ساعده على مغادرة البلاد، فرتّب له حضور مؤتمر إسلامي في باكستان في ربيع العام 1991. ولم يعد بن لادن قط إلى المملكة(377).

حاول متشددون سوفيات، بمن فيهم قادة في «الكي.جي.بي.»، إطاحة ميخائيل غورباتشيف في 19 آب/أغسطس 1991، لكنّهم فشلوا في ذلك. وفي غضون أسابيع، انهار الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، خصم الولايات المتحدة مدة نصف قرن تقريباً، بصفته منظمة سياسية فعالة. تسلم الليبراليون والقوميون الروس وقوميو البلطيق والقوميون الأوكرانيون والكازاخستانيون والأوزبكستانيون، حكم ما تبقى من الاتحاد
السوفياتي. اندفعت الأمة المبنية على رعب ستالين في اتجاه انحلالها النهائي.

قرر مجلس وزراء غورباتشيف، الذي ضعف وبات يبحث عن تسويات مع واشنطن، التخلي عن مساعدة نجيب الله في أفغانستان. وشعرت إدارة بوش في المقابل، بأنه بات بمقدورها وقف دعم المقاتلين الأفغان. وفي 13 أيلول/سبتمبر، طالب وزير الخارجية الأميركي، جايمس بايكر، ووزير الخارجية السوفياتي بوريس بانكين، وقفاً متبادلاً لعمليات تسليم الأسلحة إلى نجيب الله والجهاديين والثوار الأفغان، بدءاً من الأول من كانون الثاني/يناير 1992(378).

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على اتخاذ المكتب السياسي قراراً بإرسال قوات عسكرية للدفاع عن الشيوعية في أفغانستان، وبعد اثنتي عشرة سنة وشهرين على تقديم زبيغنيو بريجنسكي إلى جيمي كارتر مشروع قرار رئاسي خاصاً بعمليات «السي.آي.إيه.» السرية التي هدفت إلى دعم الثوار المحاربين للشيوعية، اتفقت القوتان العظميان على وقف دعم الحرب الأفغانية. وبرغم ذلك، استمرت الحرب.

لم يثق العمداء والعقداء في الاستخبارات الباكستانية، بأن «السي.آي.إيه.» ستدعم الجهاد الأفغاني حتى النهاية. ولم يكن بعضهم يثق بالأميركيين. هنّأ الضباط العسكريون الباكستانيون أنفسهم بمرارة لأنّهم كانوا على حقّ.

بقي نجيب الله في السلطة في كابول، وبقي الملك الأفغاني السابق، ظاهر شاه، في دارته في روما. وتنقّل دبلوماسيو الأمم المتحدة في طائراتهم بين كابول وإسلام آباد طوال الأسبوع، إلا أنّ إمكانية التوصل إلى تسوية سياسية سلمية، بدت ضعيفة. زحف حكمتيار وإسلاميون آخرون مدعومون من قبل الاستخبارات الباكستانية في اتجاه كابول على متن دباباتهم العراقية التي استولوا عليها. وحشد أحمد شاه مسعود في شمال كابول قوة غزو منافسة في دبابات سوفياتية، قام بالاستيلاء عليها، واستعدوا من أجل تحرك حاسم في اتجاه العاصمة.

حذّر بيتر تومسون في برقية سرية أرسلها إلى واشنطن في أيلول/سبتمبر 1991: «هجوم المتطرفين الإسلاميين على كابول سيقود أفغانستان إلى حرب جديدة قد تؤثر في المناطق المجاورة لأفغانستان». «ما إن يصل حكمتيار أو سياف إلى كابول، سيبدأ متطرفون من العالم العربي بدعم كل منهما من خلال تعزيز الراديكالية الإسلامية في أفغانستان، بما في ذلك جمهوريات وسط آسيا السوفياتية، كما في السعودية وأماكن أخرى من العالم». وكرر تومسون في كانون الأول/ديسمبر تحذيراته في برقية أخرى سرية وُزعت في أرجاء دوائر الأمن القومي البيروقراطية في واشنطن. خشي حدوث «اندفاع نحو السلطة» قد يؤدي إلى «إضعاف السلطة المركزية أكثر فأكثر، وذلك لمصلحة أمراء الحرب المحليين... ولا بدّ من الاتفاق على تسوية سياسية بأسرع وقت ممكن من أجل إحباط سيناريوهات الاضطراب المتواصل ومنع إدراك الحرب الأهلية في أفغانستان».

لم يركز سوى عدد قليل ممن يوجدون في فوغي بوتوم أو لانغلي على مستقبل السياسات الإسلامية أو الاستقرار في وسط آسيا. لم تضبط المرحلة في أفغانستان على تصالح انتصاري في إحدى ساحات المعارك الأكثر دماراً في الحرب الباردة، بل على مرحلة جديدة مريعة من الحرب الإقليمية والأهلية. فلطالما تجادل محللو «السي.آي.إيه.» وعملاؤها بأنه بعد انسحاب القوات السوفياتية، سيضطر الأفغان إلى حلّ قضاياهم بأنفسهم. لا خيار أمامهم الآن سوى المحاولة(379).

انتهت صلاحية سلطة «السي.آي.إيه.» القانونية في تنفيذ عمليات سرية في أفغانستان بشكل فعلي في الأول من كانون الثاني/يناير العام 1992. كان الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت قد انهار رسميّاً. اقترح بيتر تومسون تطبيق قرار جديد يسمح باستخدام عملاء «السي.آي.إيه.» الأحاديي الجانب من أجل دعم مفاوضات الأمم المتحدة التي تهدف إلى انتخاب حكومة ائتلافية معتدلة في أفغانستان، إلا أنّ «السي.آي.إيه.» ودبلوماسيين آخرين في وزارة الخارجية، اعترضوا على الفكرة. أبقى مركز إسلام آباد على بعض عملائه الأفغان لأشهر بعد بدء السنة الجديدة. وباتت هذه العلاقات في خانة العلاقات التقريرية والتجسس التقليدي. وتمّ تحويل نشاط بعض القادة الأفغان التابعين لـ «السي.آي.إيه.» إلى برنامج إعادة شراء صواريخ ستينغر السرّي الذي بدأ بعد انسحاب القوات السوفياتية، والذي أصبح الآن برنامج العمليات السرية الوحيد الذي يسمح بمتابعته في

أفغانستان. وتمّ توجيه عملاء آخرين لكتابة تقارير حول الأولويات الجديدة بعد الحرب الباردة، مثل تجارة المخدرات.

من إقليم هلمند الخصب في الجنوب إلى الوديان الضيقة في الشمال الشرقي، اكتست أفغانستان كلّ ربيع بزهرات نبتة الأفيون التي كانت تتفتح لتشكّل أحد المحاصيل الأكبر في العالم. لم يتعرّض مزارعو الأفيون الأفغان لأي مضايقات من قبل الحكومة، وتلقوا تمويلات من مهربي المخدرات وشبكات الجريمة المنظمة المترسخة في أفغانستان، كما قاموا بتوفير
الهيروين للمختبرات المتمركزة في المدن، وعلى طول الحدود الأفغانية الباكستانية، التي لا تخضع لأي قانون. ومع حلول العام 1992، نقلت مئات الأطنان من الهيروين خارج هذه المختبرات في اتجاه الشرق عبر مطار كاراتشي، أو في اتجاه الشمال عبر طرقات المافيا الروسية البرية الجديدة لتصل في النهاية إلى المدن الأوروبية. في بداية التسعينيات، نافست أفغانستان كولومبيا وبورما في لقب نبع مخزون الهيروين العالمي. فعملت «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت على إنشاء مركز جديد لمكافحة المخدرات على نموذج مركز مكافحة الإرهاب، وخصص الرئيس بوش مبالغ سرية من أجل عمليات التجسس في أفغانستان التي تهدف إلى مكافحة تهريب الهيروين. وبعد مرور ستة شهور على الحظر الرسمي الذي بدأ في الأول من كانون الثاني/يناير، تلاشت عملية «السي.آي.إيه.» الأفغانية لتصبح مجرد ظلال لما كانت عليه قوتها السابقة.

تدهورت العلاقة بين مركز إسلام آباد و «السي.آي.إيه.». لم يكن بوسع «السي.آي.إيه.» سوى تقديم القليل. وجدت الوكالة نفسها في موضع غريب، وحتى منحرف، تسعى من خلاله إلى تطبيق القواعد القانونية الواردة في تعديل بريسلر على الشحنات السرية للدبابات والعتاد والمعدات العراقية التي تم الاستيلاء عليها، من أجل إرسالها إلى الثوار الأفغان في باكستان. فرض تعديل بريسلر على الولايات المتحدة وضع حدّ لتقديمها مساعدات على شكل معدات عسكرية، ووضع حدّ لعمليات بيع هذه المعدات. واستنتج محامو «السي.آي.إيه.» أنّ القانون يطبّق أيضاً على الإمدادات السرية، مثل الدبابات العراقية على الخصوص، إن لم تقطع المدرعات الحدود الأفغانية كما كانت حال عشرات الدبابات. وأعلم مركز «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد «الآي.أس.آي.»، بأنه عليها تدمير المدرعات المخزَّنة والأسلحة المدفعية. أرادت الوكالة نقل الأسلحة إلى حقل اختبار عسكري وتفجيرها بحضور ضباط من «السي.آي.إيه.» من أجل تأكيد عملية التدمير. اعتبر ضباط الاستخبارات الباكستانية أنّ نظراءهم في «السي.آي.إيه.» يمزحون بكلّ تأكيد. لم تكن باكستان ستفجر دبابات وأسلحة دفاعية بحالة جيدة فقط لأن أحد المحامين في لانغلي قلق بشأن أمر قضائي من الكونغرس. في النهاية، استسلمت «السي.آي.إيه.»، واحتفظت باكستان بحوالى ثلاثين أو أربعين دبابة وفقاً لتقديرات «السي.آي.إيه.» على الرغم من تحذيرات بريسلر(380).

تم تعيين ماك وليامز لافتتاح السفارة الأميركية في دوشنبي في طاجكستان، وهي جمهورية سوفياتية سابقة، مستقلة حديثاً، سكانها من الأغلبية المسلمة، تقع على الحدود مع أفغانستان. في شباط/فبراير العام 1992، قال المسافرون الذين وصلوا إلى عاصمة طاجكستان لماك وليامز، إن

أحد حلفاء نجيب الله الأبرز في شمال أفغانستان، وهو قائد ميليشيا شيوعي من الأوزبك، اسمه عبد الرشيد دوستوم، انضمّ إلى المجلس الأعلى التابع لمسعود في الشمال.

قال المسافرون إنّ هذا الخبر انتشر في أرجاء أفغانستان. كانت أيام نجيب الله المتبقية معدودة. لقد أدى التحالف المفاجئ بين جيش الطاجيك التابع لمسعود وميليشيا دوستوم من الأوزبك، التي تضمّ أربعين ألف مقاتل يتحكمون في دبابات وأسلحة مدفعية وطائرات حربية، إلى ترجيح كفة الميزان ضد نجيب الله مع توقف الإمدادات التي كانت ترسلها موسكو. وأرسل ماك ولیامز إلى واشنطن برقية تفيد أن سقوط كابول الذي لطالما توقعوه وانتظروه، بات الآن في متناول اليد(381).

قال نجيب الله للمراسلين في قصره مع اقتراب الجهاديين، إلى درجة تسمح لهم بإصابته بالقذائف: «لدينا مهمة مشتركة، نحن في أفغانستان والولايات المتحدة الأميركية والعالم المتحضر، وهو إطلاق نضال موحد ضدّ التعصب الديني». «ففي حال كانت أفغانستان مصدر التعصب، ستستمر الحرب أعواماً عديدة. ستتحول أفغانستان إلى مركز التهريب العالمي للمخدرات. كما ستتحول أفغانستان إلى مركز لتصدير الإرهاب»(382).

تمكن نجيب الله من توقع المستقبل، لكن لم يستمع أحد إليه. فقد خسر رعاته السوفيات ومصداقيته، وأصبح يائساً. أمضى الوسيط التابع للأمم المتحدة، بينون سيفان، ساعات طويلة مع نجيب الله في ذلك الشهر محاولاً حثه على الاستقالة ودعم حكومة انتقالية سلمية قد تتمكن من عزل الراديكاليين الإسلاميين العنيفين أمثال حكمتيار. وافق نجيب الله، وألقى عبر شاشة التلفزيون الوطني خطاباً كتبه له سيفان، قال فيه إنه سيتخلى عن الرئاسة ما إن تشكل حكومة بديلة تحت رعاية الأمم المتحدة.

اتخذت الولايات المتحدة موقف الحياد، وغادر أوكلي إسلام آباد، بينما فضّلت القائمة بأعمال السفارة، بيث جونز، الانتقال إلى باكستان. لم يتمكن تومسون من التأثير كثيراً في وجهة النظر الأميركية، لأن واشنطن قد أعلنت تواً سياسة جديدة: الحياد.

في جنوب كابول، في وادٍ فسيح مدسوس تحت قمم مسننة، أدخل قلب الدين حكمتيار قواته إلى قرية شرسياب، ومهد للقيام بعمليات عسكرية. أنشأ حواجز وغرفة اتصالات وجامعاً داخل غابة من الصنوبر. حلقت المروحيات الباكستانية ذهاباً وإياباً ناقلة ضباط «الآي.أس.آي.» من أجل إقامة غرفة عمليات، وتقديم الاستشارات اللازمة. وصلت الدبابات وناقلات الجند المدرعة وقاذفات الصواريخ المتعددة إلى القاعدة، واصطفت مستعدة لهجومها الأخير على كابول. عمل حكمتيار من مركزه على الجهاز اللاسلكي، وأعاد فتح المحادثات مع الشيوعيين الأفغان التابعين للفيلق الذي تحالف معه في السابق في محاولة الانقلاب. تدفق إلى شرسياب عشرات المتطوعين

الجهاديين العرب، حلفاء حكمتيار من أيام الثورة في بيشاور، وحضر معهم صحافيون عرب بدوا مستعدين لتسجيل الفصل الأخير من الثورة الإسلامية في أفغانستان(383).

صمّم حكمتيار على الاستيلاء على العاصمة، بينما كانت الحكومة الشيوعية الأفغانية تتفكّك بسرعة. واستعدّ فيلق تابع للحزب الشيوعي القديم لمحاصرة حكمتيار، بينما خطّط فيلق آخر للاستسلام لمسعود.

تتابعت المحادثات بشأن حكومة انتقالية خلف الأبواب الموصدة في بيشاور برئاسة مدير «الآي.أس.آي.»، دوراني، والأمير تركي. عاد رجال الدين السعوديون بسرعة من أجل المشاركة في المحادثات، وتقديم الموافقة الدينية. حاول بيتر تومسون وبينون سيفان إقناع تركي بدعم التسوية السياسية الشاملة، لكنهما وجدا تركي غير آبه. أيقنا أن الأمير تركي يستخدم نفوذه من أجل حبك تسوية بديلة قادرة على توحيد جميع القادة الإسلاميين في حكومة واحدة. وكان عليه منع أعمال العنف بين مسعود وحكمتيار من أجل تحقيق غايته.

سافر أسامة بن لادن إلى بيشاور وضم جهوده من أجل إقامة تعاون بين حكمتيار ومسعود. اتصل بحكمتيار عبر الجهاز اللاسلكي من بيشاور وحثه على النظر في إقامة تسوية مع مسعود(384).

رتب بن لادن ووسطاء إسلاميون آخرون اتصالاً لاسلكيّاً مباشراً بين مسعود وحكمتيار دام نصف ساعة. السؤال الأساسي الذي طُرح هو: هل سيتمكن القائدان من حكم كابول كحليفين، أم سيتحاربان عليها. استمر حكمتيار في إلقاء الخطب والعظات على مسعود، فقال له: «علي أن أدخل كابول وأرفع العلم الأخضر ليرفرف فوق العاصمة». وردّد مراراً لمسعود أنه لن يسمح للشيوعيين «بتلويث نصره»، في إشارة موجهة ضدّ شريك مسعود الجديد، دوستوم، الشيوعي الحديث. بالطبع كان لحكمتيار حلفاء شيوعيون سابقون.

يذكر صحافي عربي كان برفقة حكمتيار في شرسياب أثناء الاتصال اللاسلكي، أنّ مسعود كان هادئ الطباع ومتسماً بالاحترام. «كان مسعود يجيبه قائلاً: «أيها المهندس، مع كامل احترامي، لقد سقطت كابول ولا يمكن احتلالها مرتين. أصبحت كابول في متناول يدنا، إنّها في قبضتنا أيها المهندس. من فضلك. تعال إلى بيشاور، وعد إلى كابول مع بقية قادتنا. لن أدخل كابول قبل وصول بقية قادتنا»». لكنّ حكمتيار أعد في السرّ محاولة انقلاب أخرى. فعندما كان يتحدّث إلى مسعود عبر الجهاز اللاسلكي، تحرّكت قواته في اتجاه بوابات كابول، بينما كانت الأعلام الخضراء ترفرف فوق دباباته وعرباته. قاموا بغسل السيارت كي تلمع معلنة الانتصار أثناء دخول حكمتيار كابول في اليوم التالي. واعترف الناطق باسم حكمتيار في بيشاور بأن «حكمتيار لا يستطيع الموافقة على أي اقتراح يضمّ أحمد شاه مسعود»(385).

اتصل بن لادن بحكمتيار مرة أخرى عبر الجهاز اللاسلكي، وقال له: «عد مع إخوتك». طلب مرّة أخرى من حكمتيار أن يفكر في إقامة تسوية كبرى تضمّ مسعود. لكنّ الصحافي العربي الذي كان حاضراً في ذلك الوقت، يذكر أنّ حكمتيار تجاهله. فقد تفاوض في استسلام مقرّ وزارة الخارجية الرئيسي في كابول الذي يبتعد عن القصر الرئاسي الأفغاني مسافة بضعة أحياء. وأرسل عملاءه إلى كابول في تلك الليلة وخلد إلى الفراش ظنّاً منه أنّه سيدخل العاصمة منتصراً في الصباح. تلا الصلوات بصحبة العرب الذين حضروا إلى شرسياب، وقرأ آيات من القرآن الذي أُنزل على النبي بعد احتلاله مكّة.

يذكر الصحافي العربي: «خلدنا إلى الفراش في تلك الليلة منتصرين»، «كان الأمر رائعاً، شعر حكمتيار وجميع من في المخيم بالسعادة، وحلمت بأنني في صباح اليوم التالي بعد الصلاة سأجهّز آلة التصوير وأنتقل مع الفريق المنتصر إلى داخل كابول».

«كان الأفغان غريبي الطباع، فهم يُطفئون الجهاز اللاسلكي عند خلودهم إلى النوم كأنّ الحرب ستتوقف. إذاً، أغلقوا الجهاز وخلدنا إلى النوم، ثمّ صحونا باكراً في اليوم التالي. تلونا صلاة الفجر بمعنويات مرتفعة. وأقام حكمتيار صلاة طويلة جدّاً. أشرقت الشمس علينا ففتحوا الجهاز اللاسلكي، وبدأت الأنباء السيئة بالتدفق».

قرر مسعود استباق حكمتيار بعدما تأكّد أنّه لا ينوي المساومة. استولى الفيلق التابع للحزب الشيوعي الأفغاني، الذي وافق على الاستسلام لمسعود، على مطار كابول الذي يبتعد مسافة قصيرة عن المباني الحكومية الأساسية في العاصمة. تدفقت طائرات النقل إلى كابول محملة بمئات رجال الميليشيات الأوزبك والتابعين لدوستوم. استولوا على مبان استراتيجية في أنحاء وادي كابول، بينما وضعت قوات حكمتيار يدها بسرعة على بعض المباني. وفي نهاية اليوم الأول من التوغل، كان مسعود قد احتل مواقع استراتيجية جدّاً في المدينة. كان الوضع يشبه الألاعيب التي كان يمارسها في طفولته في جبل علي أباد المطلّ على جامعة كابول. قسّم قواته وأحاط ميليشيا حكمتيار في المدينة، وضيق عليها الخناق(386).

في صباح الانتصار الذي تخيله حكمتيار، تفجرت معارك دبابات وقتال شوارع في جادات كابول العريضة. أحرقت النيران أرض القصر الرئاسي. احتمى نجيب الله في مجمع صغير ومحصن تابع للأمم المتحدة، ثم أقيل من منصبه رسميّاً، ووُضع قيد الإقامة الجبرية، بينما لم يتمكن حكمتيار قط من الخروج من شرسياب.

دخل مسعود كابول منتصراً من جهة الشمال على متن دبابة مكسوّة بالزهور. أطلق مئات الجهاديين في تلك اللية عيارات نارية في الهواء احتفالاً بالنصر، فأضاءت رصاصاتهم السماء

كأنها مطر كهربائي. إلا أنّ مسار الذخيرة الخطاطة الذي كان عموديّاً اصبح أفقيّاً مع بزوغ الفجر. انتهت الحرب الأفغانية الأولى، وبدأت الثانية.

شنّت قوات بانشير التابعة لمسعود وميليشيا الأوزبك الصلبة والفتية التابعة لدوستوم، هجمات على من بقي من قوات حكمتيار، ولاحقت فلولها من حيّ إلى آخر، إلى أنّ فرت من كابول في اتجاه الجنوب بعد حوالى أسبوع. بدأ حكمتيار الغاضب واليائس قذف صواريخ على كابول بطريقة عشوائية. كانت هذه المحاولة الأخيرة التي يقوم بها حكمتيار والاستخبارات الباكستانية من أجل الفوز بجائزتهما الأفغانية التي يتوقان إليها بعد سلسلة من الخيبات: جلال آباد، محاولة الانقلاب التي شنها تناي، محاولة الانقلاب الثانية التي شنها تناي، والآن ما يحدث في كابول. ربّما ذاعت سمعة حكمتيار و «الآي.أس.آي.» بسبب طموحهما البربري، إلا أنه كان عليهما أن يثبتا كفاءتهما.

قابل يحيى مسعود في بيشاور مدربه في الاستخبارات الباكستانية. قال له الضابط البريطاني بصوت يملؤه الرضا: «كنّا على حقّ، فشل حكمتيار وانتصر مسعود»(387).

على الرغم من الوقت وجميع الأموال التي أنفقتها «السي.آي.إيه.» بانتظار هذا اليوم، لعبت دوراً صغيراً في سقوط كابول. سهلت الوكالة في السنتين السابقتين عمليات نقل الأسلحة الكبيرة إلى حكمتيار، وبعضها إلى مسعود. وضمنت مراعاة «السي.آي.إيه.» للاستخبارات الباكستانية تسلم حكمتيار كميات أموال وأسلحة في المرحلة الأخيرة أكثر من أي وقت آخر. إلا أن الضغط الذي مارسه بيتر تومسون وآخرون في واشنطن وإسلام آباد وبعض من في «السي.آي.إيه.»، أدى إلى تحويل إمدادات جوهرية إلى مسعود أيضاً. وعندما كان مسعود يستعد لسقوط كابول، تسلم أسلحة ثقيلة من بانشير نقلت إليه عبر الطريق الذي أنشأته وكالة التنمية الدولية الأميركية. حصل مسعود بفضل الرواتب الكبيرة التي قدّمتها إليه الوكالة على الرغم من تفاوتها في العام 1990، على أموال نقدية جوهرية في الوقت الذي كان حكمتيار يحصد هبات من شيوخ سعوديين أثرياء ومن الإخوان المسلمين. ومن هذا المنطلق، ساهمت «السي.آي.إيه.» في انتصار مسعود الأخير في كابول، بعد أن تعرضت لضغوط من قبل تومسون وأعضاء الكونغرس.

كان ثمن الانتصار باهظاً جدّاً. في العام 1992، تجاوز عدد الأسلحة الفردية في أفغانستان الأسلحة في الهند وباكستان مجتمعة. ووفقاً لبعض التقديرات، تسلمت أفغانستان في العقد السابق شحنات من هذه الأسلحة أكثر من أي بلد آخر في العالم. أرسل الاتحاد السوفياتي بين 36 و 48 مليار دولار على شكل معدات عسكرية تعود إلى فترة الثورة الشيوعية الأفغانية. أما مجموع المساعدات الأميركية والسعودية والصينية فقد راوح بين 6 مليارات و 12 مليار دولار. واعتمد حوالى خمسمئة ألف شخص في كابول على القسائم من أجل الحصول على الطعام في العام 1992، بينما عانى الملايين سوء التغذية. وضمنت خطوط إمدادات حكمتيار العميقة واستياؤه استمرار العنف(388).

مع سقوط نجيب الله ووصول حكومة ثورية إلى كابول، على الرغم من أن الحكومة كانت متحاربة في ما بينها، لم تعد المقاومة بحاجة إلى سفير أميركي. بقي مبنى السفارة الأميركية في العاصمة الأفغانية مغلقاً، وعُيّن بيتر تومسون في مركز جديد، فأدار السياسة الأميركية في آسيا الشرقية.

كتب تومسون، عند استعداده للمضي قدماً، مذكرتين سريتين. كان متأثراً بعملائه السابقين داخل المقاومة الأفغانية الذين باتوا يخشون المستقبل. كتب عبد الحق لتومسون في تلك الفترة: «تتعرّض أفغانستان لخطر الانقسام إلى خمسين مملكة أو حتى أكثر. ربّما سيرغب المتطرفون الأجانب في الدخول وشراء المنازل والأسلحة. قد تصبح أفغانستان
فريدة في نوعها بعد أن تتحوّل إلى أرض تدريب ومكب ذخائر للإرهابيين الأجانب، وفي الوقت نفسه إلى حقل الخشخاش الأكبر في العالم». خشي تومسون من خلال ما رآه في الميدان، أن تسيطر الحكومات المتطرفة على كابول في المستقبل، وأن تكون الولايات المتحدة لا تستغل فرصة ممارسة تأثيرها المعتدل. كتب في 18 كانون الأول/ديسمبر العام 1992، أنه من مصلحة واشنطن التصدي لجهود «المتطرفين الإسلاميين» واستعمال أفغانستان قاعدة تدريب ومنصة للإرهاب في المنطقة وخارجها. لمَ تخلت أميركا عن أفغانستان بهذه السرعة من دون أن تأخذ النتائج في الاعتبار؟ كتب تومسون بعد بضعة أسابيع: «إن السعي الأميركي إلى المحافظة على موقعنا في أفغانستان بأقل تكاليف ممكنة، يساهم بشكل كبير في الحصول على النتيجة المعتدلة المأثورة بما قد يعزل المتطرفين ويحافظ على الصداقة مع بلد ذي موقع استراتيجي، ويساعدنا على تحقيق أهدافنا في أفغانستان ومنطقة وسط آسيا الشاسعة، أي مكافحة المخدرات والإرهاب واستعادة صواريخ ستينغر... نحن في خطر التخلي عن الأصول التي جمعناها في أفغانستان في السنين العشر الأخيرة مقابل تكاليف باهظة... رهاناتنا هناك على الرغم من محدوديتها، مهمة جدّاً بالنسبة إلى النطاق الجغرافي الاستراتيجي اليوم. قد نتعرض لخطر خسارة اهتمامنا والتخلي عن أصولنا الاستثمارية في أفغانستان التي تقع في منطقة حيث نملك بعض الوسائل الثمينة لتحقيق مبتغانا»(389).

أشارت مذكرات تومسون إلى تلهف أخير من قبل الدبلوماسيين الأميركيين والجواسيس القليلين الذين أرادوا لمتابعة الولايات المتحدة التزامها المتواصل والجديّ في أفغانستان.

لم يتمّ تعيين أي سفير أميركي أو رئيس لمركز «السي.آي.إيه.» بشكل مباشر في أفغانستان، مدّة عقد تقريباً، حتى أواخر خريف العام 2001.

# 13
# صديق عدوّك

في العام 1992، خلال الحملة الانتخابيّة الأميركيّة، لم يأتِ الزعماء الديموقراطيون ولا الجمهوريون على ذكر أفغانستان في مسودات السياسة الخارجيّة الأميركية. تحدّث الرئيس جورج بوش الأب في بعض الأحيان عن الحرب الأهليّة المستمرّة بين حكمتيار ومسعود بطريقة عرضية ومبهمة سعياً منه وراء إعادة انتخابه. «يشعر الطرفان بالأسى، والمأساة تقع على كليهما». أمّا حاكم أركنساس، بيل كلينتون، الذي ركّز حملته على الوضع الاقتصادي الأميركي السيئ، فلم يذكر أفغانستان مطلقاً. كرّس كلينتون 141 كلمة فحسب للسياسة الخارجيّة في خطاب القبول الذي ألقاه في المؤتمر الديموقراطي، والذي وصل عدد كلماته إلى 4200 كلمة. شعر أنتوني لايك وأعضاء فريق السياسة الخارجيّة الذي يعمل لمصلحة كلينتون، «بأنّهم بعيدون تماماً عن المحور». كان المحور هو السياسة المحلية. كتب لايك كتاباً عن ساحات المعارك بعد الحرب الباردة، وأورد مقاطع عن أفغانستان. لكن مع انطلاق الحملة، يذكر أنّ المسألة كانت بمنزلة «إشارة صغيرة» على شاشة الرادار(390).

تحدّث كلينتون بوضوح عن التهديدات العالميّة التي تواجهها الولايات المتحدة، ولا سيّما الآن بعد زوال الاتحاد السوفياتي. فقد رأى كلينتون وبوش أنّ الإرهاب والاتجار بالمخدرات، خطران يُحدقان بالبلاد في عصر جديد وغير مستقرّ. قال كلينتون في بداية حملته: «الخطر النووي الأكبر الذي يهددنا في التسعينيات سيأتي من الإرهاب والمخدرات بدلاً من الاتحاد السوفياتي». وأراد «قوات عمليات خاصة وقوية للتعامل مع التهديدات الإرهابيّة». لكنّ، أتت هذه التنبؤات على شكل إشارات عابرة(391).

لم يسافر كلينتون قط إلى آسيا الوسطى أو الهند، وكانت معلوماته عن هذه المنطقة مبنيّة على انطباعات. أثارت رئيسة الوزراء الباكستانيّة الجديدة بنازير بوتو فضوله. لقد تلقت تعليمها في جامعة أكسفورد في الوقت الذي حضر كلينتون بصفته طالباً من رودس. اعترف كلينتون لزملائه بأنه رآها في السابق وقد أُعجب بجمالها وطلّتها وصيتها كمناظرة بارعة. وكان رفاقه يعلمون تماماً بأنه مفتون بالهند، بينما لم تكن هذه الانطباعات تربطه بأفغانستان. أخبر زملاءه لاحقاً أنه في الأشهر الأولى من تسلمه منصبه، لم يفكّر في أفغانستان كقاعدة رئيسية للإرهاب الدولي. فقد اهتمّ أكثر بالدول التي تتهمها إدارته بأنها «راعية الإرهاب»، مثل العراق وإيران والتنظيمات الإسلامية مثل حزب الله والجهاد الإسلامي اللذين قتلا عشرات الأميركيين خلال الثمانينيات. لم يعلم كلينتون أيّ شيء عن بن لادن في خلال الأعوام الأولى من رئاسته. أما بالنسبة إلى الحرب الأفغانيّة، فقد وهنت المشكلة بشكل أساسي من قصورها الذاتي، وقال لايك لاحقاً: لم تكن المسألة أساسية حتى في الفترة الأخيرة من حكم إدارة بوش(392).

بعد فوزه في الانتخابات، أنشأ كلينتون مكاتب انتقالية في ليتل روك، أركنساس. وأقام روبرت غايتس، الذي أصبح مدير «السي.آي.إيه.»، مركزاً موقتاً مزوّداً حراس أمن ومعدات اتصالات آمن في فندق كومفورت إنّ، قرب مطار ليتل روك. كان غايتس قد قرر الاستقالة من الاستخبارات، لكنّه عاد ووافق على البقاء ليساعد كلينتون على التكيف مع القضايا الاستخبارية، وليعطي الإدارة الجديدة الوقت لاختيار مدير جديد.

سافر غايتس ليقابل الرئيس المنتخب في منزل الحاكم. وجد كلينتون منهمكاً يحتسي كميات كبيرة من القهوة ليبقى مستيقظاً، لكنّه كان ملتزماً. كان غايتس وكلينتون محللين فطريين ومحققين ومركّبين للمعطيات المعقدة. شعر غايتس بأن كلينتون لا يملك نزعات معارضة للاستخبارات و «السي.آي.إيه.» كالتي كانت لدى جيمي كارتر أو المرشّح الديموقراطي في العام 1988 مايكل دوكاسيس. استهلك كلينتون بحماسة تحاليل «السي.آي.إيه.» في الأشهر الانتقاليّة. أرسل غايتس نائب مدير الاستخبارات إلى المركز الجديد في فندق كومفورت إن. بدآ على الفور بتقديم الموجزات الرئاسية اليوميّة إلى كلينتون، وطالبا بإجراء مجموعة من الدراسات الاستخبارية الخاصة، بناءً على طلبه. أصبحت «السي.آي.إيه.» القسم الوحيد في الحكومة الفدراليّة الذي يستطيع ضباطه البارزون فيه رؤية الرئيس المنتخب وجهاً لوجه كل يوم. وأصبح غايتس متفائلاً، فقد رأى أنّ الرئيس كلينتون سيكون على علاقة جيّدة بـ «السي.آي.إيه.»(393).

لكنّه أخطأ التقدير، لأنّ المشاكل ظهرت مع تعيين مدير جديد. تمّ تأجيل الاختيار فترة متأخرة من المرحلة الانتقاليّة. حثّ الديموقراطيون اليمينيون في الكابيتول هيل، كلينتون على تعيين شخص يمينيّ لإعادة التوازن مع الليبراليين في مجلسه. قام فريق كلينتون بالاتصال بجايمس ولسي، وهو رجل في الواحدة والخمسين من عمره من أوكلاهوما، وطلبوا منه السفر إلى ليتل روك على الفور. كان ولسي رجلاً نحيلاً ذا رأس مقبّب وعينين
رماديتين وصوت حادّ. كان قد قابل كلينتون مرّة واحدة في السابق، في خلال حملة تبرّع خيريّة أقيمت في منزل العاملة الاجتماعيّة باميلا هاريمان في واشنطن. لكن جذور كلينتون وولسي هي نفسها. فتماماً مثل الرئيس المنتخب، ظهر ولسي في الريف في الجنوب الغربي، وتقدّم في العلم ليحصل على منحة من رودس، ويُنهي تعليمه الجامعي في جامعة يال للحقوق. وحين كان ملازماً في الجيش الاحتياطي، شنّ حملة ضدّ الحرب في الفيتنام. وانجرف لاحقاً نحو اليمين السياسي، وانضمّ إلى صفوف الديموقراطيين المتشددين المعارضين للشيوعية، تماماً كالسيناتور هنري سكوب جاكسون(394).

أمضى ولسي ساعات عديدة مع كلينتون في منزل الحاكم. تحدثا مطولاً عن فريقي كرة القدم في جامعة أركنساس وجامعة أوكلاهوما، وأماكن صيد السمك الجيدة في أوزارك، وتطرقا بشكل سطحيّ إلى رؤيتيهما إلى مستقبل «السي.آي.إيه.». وفي مرحلة ما، قال كلينتون إنّه لا يظنّ أنّ

مدير «السي.آي.إيه.» يجب أن يكون مستشاراً سياسيّاً للرئيس. أما بالنسبة إلى ولسي، فوافق على أنّ مسؤوليات المدير تنحصر في «إعادة الاستخبارات إلى الطريق المستقيم»(395).

انتهى لقاؤهما من دون ذكر أيّ عرض عمل. لكن كريستوفر وارن اتصل في اليوم التالي بولسي في فندقه، ودعاه إلى حضور مؤتمر صحافيّ.

سأله ولسي: «هل يريدني الرئيس مديراً لـ «السي.آي.إيه.»؟».

- «بالطبع، لكن احضر المؤتمر الصحافي، وسنسوّي المسألة».

طلب ولسي من كريستوفر التأكد من جديّة العرض، فدخل كريستوفر مكتب كلينتون وعاد، وقال له: «أجل، هذا ما يريده».

وجد ولسي في إحدى الغرف عائلة كلينتون وآل غور والمرشح إلى منصب وزير الدفاع ليس آسبن، ومرشح وزارة الخارجيّة وارن كريستوفر وطوني لايك وصامويل («ساندي») بيرغر والعديد من المساعدين السياسيّين الذين كانوا يحاولون استباق الأسئلة التي من الممكن أن تطرحها الصحافة عندما قام كلينتون بتقديم فريق الأمن القومي الجديد. خشي المستشارون الإعلاميون التابعون للرئيس المنتخب، أن يتّهم المراسلون كلينتون بتعيين زمرة من قدماء زمن الرئيس كارتر. وقد تفهّم ولسي الأمر «لأننا كنّا بالفعل زمرة من قدماء إدارة الرئيس كارتر». حاول ولسي أن يكون مفيداً، فذكر أنّه خدم في إدارة بوش، وقاد فريقاً فاوض في تخفيض عدد القوى المسلّحة في أوروبا. نظر المساعد الإعلامي في إدارة كلينتون إلى ولسي، وقال له: «أيّها العميد، لم أعلم بأنك خدمت في إدارة بوش». تعجّب ولسي وأجاب بأنه لم يكن يوماً عميداً، بل كان نقيباً وحسب(396).

أشارت هذه الحادثة إلى نمط العلاقة التي ربطت كلينتون بـ «السي.آي.إيه.» في فترة ولايته الأولى: علاقة بعيدة لامبالية، إلى حدّ كبير، يسودها سوء تبادل المعلومات بين الطرفين. وقد طرأ التغيير بسرعة مذهلة في لانغلي: كان الرئيس بوش الخارج من السلطة، والذي خدم وقتاً قصيراً رئيساً لـ «السي.آي.إيه.» أثناء إدارة الرئيس فورد، راعي البيت الأبيض الأكثر اهتماماً منذ عقود. دعا ضباط الخدمات السرية البارزين إلى حفلات ميلاديّة وإلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع في كامب دايفيد. وسمح لمحللي الوكالة وعملائها بحضور الاجتماعات الرئيسية لاتخاذ القرارات. لكن، بعد مضي الأشهر الأولى على تنصيب كلينتون، فَهم ضباط «السي.آي.إيه.» البارزون أنّهم انتقلوا من قلب الرئاسة إلى الخارج، بشكل شبه كامل.

أصيبوا بالارتباك، ثمّ بالغضب. وفسّروا لامبالاة كلينتون بطرائق كثيرة ومختلفة. رأى رئيس مديريّة العمليات، توماس تويتن، أنّ كلينتون «خائف من أيّ ارتباط بـ «السي.آي.إيه.». ويعود ذلك إلى شكوك لطالما راودت الوكالة، وإلى رغبته في تجنّب الوقوع في مشاكل السياسات الخارجيّة(397)». كان ضباط الاستخبارات التابعون للوكالة، قد أصبحوا مؤيدين للفكر الجمهوري أكثر من أي وقت مضى. ونظر عدد كبير من هؤلاء الضباط إلى كلينتون بعين التأييد. بقي عدد من الديموقراطيين في الوكالة. كان من الصعب التعميم، لكن كثيرين في الوكالة اعتبروا أنّ كلينتون بسيط وعدائيّ قليلاً تجاه الاستخبارات. وامتعض بعض الضباط المحافظين الذين حاربوا في فيتنام من قرار كلينتون الذي يقضي بتفادي مشروع القرار، وتنبّهوا إلى أنّ مدير «السي.آي.إيه.» الجديد، ولسي، ومستشار الأمن القومي، لايك، احتجا علناً على الحرب الفيتناميّة.

أظهر كلينتون ولايك وآخرون من مجلس الأمن القومي الجديد، بعض التوتر المبطّن حول دور البنتاغون و «السي.آي.إيه.». بدا أنّهم يتجنّبون التفاعل المباشر. وبالكاد تمت دعوة أحد من «السي.آي.إيه.» إلى البيت الأبيض، ولم يزر كلينتون لانغلي على الإطلاق، ولا حتى من أجل الأحداث الرئيسية كإحياء ذكرى ضباط «السي.آي.إيه.» الذين قُتلوا أثناء تأديتهم واجبهم. كما تقلّص الإنفاق في الاستخبارات ووزارة الدفاع الأميركيّة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، بدءاً بإدارة بوش ووصولاً إلى إدارة كلينتون. وتفاقم وضع ميزانيّة «السي.آي.إيه.» بسبب ضعف علاقتها بالبيت الأبيض.

كانت بداية ولسي مضطربة. ففي وكالة كبيرة وسريّة كوكالة «السي.آي.إيه.»، مع العدد الكبير جداً من الضباط داخلها، لن يكون تأثير المدير الجديد إلا محدوداً. لكنّ المدير الجديد منوطة به ثلاث مهام حاسمة لا يمكن أحداً غيره القيام بها: كان عليه إرساء علاقة شخصية برئيس الولايات المتحدة الجديد، الذي يستطيع وحده السماح بعمليات «السي.آي.إيه.» السريّة. وكان عليه التلاعب بلجنتي الاستخبارات في الكونغرس اللتين تحددان ميزانية الوكالة، وتراقبان عملياتها، بالإضافة إلى الحفاظ على المعنويات عالية بين صفوف لانغلي وملفاتها. وبعد أشهر على وصوله، نجح في لعبة إخفاق ثلاثية مدهشة، فقرر في إثرها عدد من ضباط الوكالة البارزين، الرحيل. صاغ ولسي علاقات قوية مع بعض ضباط «السي.آي.إيه.» في لانغلي، وخصوصاً أولئك المطلعين على مجموعة الاستخبارات التقنية وتلك التي حصلوا عليها عبر الأقمار الصناعية، وهي نقطة التركيز المهنية الرئيسية بالنسبة إلى ولسي. إلا أنه أبعد آخرين، وخصوصاً أولئك التابعين لمديرية العمليات. وأثناء انتظاره موافقة مجلس الشيوخ، استشار ولسي أحد معارفه، دواين كلاريدج، مؤسس مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.». استنتج كلاريدج من حديثهما أن ولسي «مصاب بجنون الشكّ» حول مسألة «انتخابه» على أيدي المطلعين في «السي.آي.إيه.»، وعلى الخصوص ضباط التجسس في مديرية العمليات. فقد اعتبر بعضهم أن ولسي متحفّظ ومشكك. والأسوأ من ذلك هو أنّ ولسي تشاجر أثناء جلسات الاستماع المغلقة في الكابيتول هيل مع أعضاء بارزين في مجلس الشيوخ، كانوا يتحكمون في تمويلات «السي.آي.إيه.». والأسوأ من هذا كلّه، أنّ ولسي أبعد الرئيس كلينتون، أي أهمّ حليف عند «السي.آي.إيه.»(398).

لم يعقد ولسي اجتماعاً مغلقاً مع الرئيس في السنة الأولى من تولي كلينتون منصبه. فمن الناحية النموذجية، توافرت أمام مدراء «السي.آي.إيه.» فرصة تقديم تقرير إلى الرئيس كل يوم في الصباح الباكر، فيعرضون عليه المعلومات الاستخبارية الأحدث التي جمعوها حول الأزمات العالمية. إلا أن كلينتون كان مستهلكاً نهماً للمعلومات، وقليل الصبر مع مقدمي التقارير الذين كانوا يجلسون أمامه ليقرأوا وثائق كان بمقدوره قراءتها في وقته الخاص وبفعالية أكبر. كان الرئيس مثل البومة في الليل، يطوف في أرجاء البيت الأبيض حتى ساعات الصباح الأولى، وهو يقرأ تقارير، ويتحدّث عبر الهاتف، ويوقظ أحياناً أعضاء من الكونغرس أو صحافيين باتصاله بهم عند الثانية صباحاً. وعادة ما كان في الصباح حادّ الطباع وبطيئاً في استعادة طاقته. كان عدد كبير من أفراد طاقم البيت الأبيض البارزين يتفادونه إلى أن يصحو بشكل كامل. ورأى فريق الأمن القومي التابع لكلينتون، ويترأسه طوني لايك، أنّ ولسي شخصية مزعجة، فهو متعجرف وثقيل السمع وغير مبال. لم يرغبوا في الجلوس معه والتحدث إليه عند ساعات الفجر الباردة، كما لم يرغب كلينتون في ذلك أيضاً. قابل ولسي كل أسبوع لايك ونائبه ساندي بيرغر ووزير الخارجية وارن كريستوفر، لكن البيت الأبيض استنتج أنّ ولسي عدائي جدّاً. فقد كان يجادل بسرعة، محاولاً إثبات وجهة نظره حول مسألة ما، وغير قادر على تحليل المعلومات الاستخبارية المتاحة بهدوء(399).

لم يتمكّن ولسي من عقد اجتماع مع الرئيس على الرغم من محاولاته الكثيرة. وعندما حطّم طيّار في مهمة انتحارية طائرة سيسنا ذات محرك واحد في الحديقة الجنوبية في البيت الأبيض العام 1994، انتشرت فكاهة تقول إنّ منفّذ العملية هو ولسي الذي حاول بهذه الطريقة أخذ موعد مع كلينتون. غضب ولسي بسبب هذه الفكاهة عندما سمعها للمرّة الأولى، إلا أنه اعتاد مع الوقت وضعه المنبوذ، فبدأ يُخبرها بنفسه.

رأى ولسي أن البيت الأبيض غير مهتمّ بالشؤون الخارجية، واستنتج أنّه لا يملك رغبة في وضع الاستراتيجيات، ولا يتمتّع بطريقة تفكير منظمة حول المسائل الهامة، فقد انتصرت أميركا في الحرب، وأصبح بوريس يلتسين، رئيس روسيا، صديقاً لأميركا، وقرر فريق كلينتون ألا يقسو كثيراً على الصين. رأى ولسي أن طموح البيت الأبيض الأكثر إبداعاً في السياسة الخارجية، هو السعي عالمياً وراء التجارة الحرّة، وقد تمّت برهنته بواسطة الجهد الشخصي الذي قام به كلينتون لعقد اتفاقية أميركا الشمالية للتجارة الحرة (النافتا). ومن ناحية أخرى، اعتبر ولسي عدم قدرته على مقابلة الرئيس أكثر بكثير من مجرّد علاقة شخصية مقطوعة. رأى ولسي أن كلينتون ولايك يعتبران «السي.آي.إيه.» أداة إضافية «زائدة» من أجل صوغ السياسات المحلية، وأنّ عمل الوكالة يكمن في المساعدة على حل الأزمات، مثل أزمة البوسنة وهايتي والصومال، مع السعي إلى تقليص نتائجها السياسية في الولايات المتحدة. وبمرور الأشهر، ابتعد ولسي أكثر وأكثر عن البيت الأبيض، وشعر بالاشمئزاز بسبب ما اعتبره تشديداً تاماً على السياسات الانتخابية(400).

كان ولسي حرّاً في دفع «السي.آي.إيه.» في الاتجاه الذي يريده، لأنّه لم يكن مثقلاً بالتوجيهات أو المراقبة الرئاسية. وبينما استقرّ في مكتب المدير الاستخباري الأول في البلاد، ركّز على حملة من أجل تجديد نظام التجسس الوطني عبر الأقمار الصناعية. وقد رأى ولسي، في الثمانينيات، بصفته مفاوضاً معنياً بمراقبة الأسلحة يعتمد على صور الأقمار الصناعية من أجل مراقبة خصومه، أن قدرة أميركا على التجسس عبر الأقمار الصناعية تراجعت بشكل خطير، لكنه فهم المسائل برمتها. أعد في لانغلي عرضاً سريّاً يبرهن كم أنّ المشكلة أصبحت طارئة، وما هي الاستثمارات المطلوبة لمعالجتها. قدّم ولسي تقرير قمر التجسس الصناعي مرة تلو الأخرى في البيت الأبيض والكونغرس والبنتاغون، سعياً بكلّ قوته وراء تمويل جديد. كان مقنعاً(401). وأشار من خلال النقاط التي شدد عليها، إلى أن التحديات الأساسية التي تواجهها «السي.آي.إيه.» تكمن في البرامج التقنية، وليس في الكادر البشري التجسسي. ومن خلال التخلي عن «السي.آي.إيه.»، انحصرت الوسائل المتاحة أمام البيت الأبيض لتقييم تشديد ولسي على الاستخبارات التقنية، عوضاً عن الاستخبارات البشرية، وتحديد إن كان خياره هذا هو الصحيح.

ما إن تسلم ولسي منصبه، حتى تمكّن شابان من أصل باكستاني، يعيشان كلّ بمفرده في الولايات المتحدة، من حلّ المشاكل اللوجيستية الأخيرة التي واجهتها مؤامرتهما الإرهابية. لم يتقابل الرجلان على الإطلاق، لكن جمعت نقاط مشتركة بينهما. فقد نشأ في عائلتين كبيرتين تتمتعان بامتيازات نسبية، مع جذور تعود إلى مقاطعة بلوشستان الفقيرة في باكستان على الحدود الأفغانية. كانا ولدين لأبوين طموحين ومكدّين تمكنّا من توفير التعليم لأولادهما، والسفر إلى الخارج. وبرغم ذلك، عاشا حياة قاسية وممزقة. فقد تنقّلا على نحو مفاجئ بين منازل البلوش التقليديّة المعروفة بقوانينها الصارمة المتعلقة بالجنس والشرف العائلي، مباشرة إلى نمط مغاير تماماً، ضمن ثقافات أوروبا والولايات المتحدة العلمانية والمتحررة. واستمعا في خلال هذ الأعوام إلى خطب دينية تحريضية ألقاها رجال دين إسلاميون راديكاليون، ندّدوا بالولايات المتحدّة، معتبرين أنّها مضطهِدة للمسلمين. ابتعدا عن عائلتيهما وشعرا بالغضب عند مشاهدة المجازر التي يقترفها الإسرائيليون بحق الفلسطينيين على شاشات المحطات الفضائية. وقرر كلّ منهما في العام 1992، من دون معرفة من الآخر، التخطيط لشنّ هجوم على موقع مهمّ في الولايات المتحدة. وبينما كانا يخططان لضربتيهما، أمضيا ساعات طويلة في دراسة أسس عمليتيهما السياسيّة والدينيّة، وتوصّلا إلى نتائج شبه متقاربة حول شرعيّة عنفهما ضدّ المدنيين. إلا أنّ أسسهما العقائدية كانت متشابهة إلى حدّ كبير.

كان مير أمل قاسي في الثامنة والعشرين في ذلك الوقت. وصل إلى الولايات المتحدة الأميركيّة العام 1991. كان والده يملك فنادق وحقولاً فسيحة في كويتا وحولها، عاصمة بلوشستان التي تبعد ساعات قليلة في السيارة عن أفغانستان. وكان مير قاسي الولد الوحيد لأبيه من زوجته الثانيّة التي توفيت حين بلغ التاسعة عشرة من عمره. نال شهادة ماجستير في الأدب الإنكليزي من جامعة بلوشستان العام 1989، وحمل سلاحاً كالكثيرين من أبناء قومه الذين عاشوا على الحدود مع باكستان. وبعد وفاة والده في تلك السنة غداة ذبحة قلبيّة، بدأ بالسفر إلى الخارج. وصل أولاً إلى ألمانيا، ومن ثمّ إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، حيث عمل حاجباً لإحدى الشركات في الضواحي.

عاش وحيداً في فرجينيا، ويتيماً وبعيداً عن منزله، فأمضى ساعات طويلة في مشاهدة أخبار الشرق الأوسط عبر محطة «السي.أن.أن.»: حرب الخليج، الاضطرابات اللاحقة في العراق، والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. أخبر زميله في السكن أنّه ينوي تنفيذ «عمليّة ضخمة»، ربما ضدّ البيت الأبيض، أو ضدّ السفارة الإسرائيليّة في واشنطن. لكن قاسي استنتج أنّ الهدف الأبرز سيكون «السي.آي.إيه.»، فهو يمرّ بانتظام أمام مدخلها المنعزل أثناء تنقّله على الطريق السريع 123 في فرجينيا. اعتبر قاسي أنّ الوكالة مسؤولة مباشرة عن موت العديد من المسلمين. حصل من أحد متاجر الأسلحة في فرجينيا على بندقيّة «إي.كاي.47». لقد توقّع مواجهة مسلّحة مع الشرطة أثناء اعتدائه، لكنّه في حال تمكن من الهرب، اشترى تذكرة سفر إلى باكستان. وفي يوم قبل موعد رحلته المقرر، استفاق وارتدى معطفاً مدبوغاً، ولقّم سلاحه، وأخذ حوالى 500 رصاصة ذخيرة له، وقاد سيارته الستايشن حتى وصل إلى مدخل مركز «السي.آي.إيه.»(402).

كان الطقس صافياً وبارداً في الوقت نفسه، صباح يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير العام 1993. رُكنت السيارات أمام مدخل المقرّ الرئيسي بينما الدخان الدافئ المستنفد يتصاعد على شكل سحب دخانية. ركن قاسي سيارته قرب منعطف على جهة اليسار وتوقف ثمّ فتح باب السيارة وترجل منها. شاهد رجلاً يقود سيارة فولزفاكن فأطلق النار عليه من خلال الزجاج الخلفي، ثمّ اقترب منه وأطلق النار عليه من جديد 3 مرات. والنتيجة: توفي الضابط في مكتب الخدمات السرية، فرانك دارلنغ، البالغ من العمر 28 سنة، داخل سيارته وزوجته إلى جانبه. تقدّم قاسي وأطلق النار على 4 رجال آخرين فقتل واحداً منهم، هو لانسينغ بينيت، (66 عاماً)، وهو طبيب يحلّل صحّة القادة الدوليين لحساب
مديرية الاستخبارات. نظر قاسي من حوله فلم ير أي أحد في السيارات الباقية، وكان قد قرر قبل البدء بهجومه عدم إطلاق النار على النساء. عاد إلى سيارته مجدداً، وقاد بضعة أميال نحو متنزه ماكلين واختبأ حوالى 90 دقيقة. وعندما لم يأتِ أحد للبحث عنه توجّه إلى شقّته، وخبّأ «الإي.كاي.47» تحت الكنبة في غرفة الجلوس. ثمّ قاد سيارته إلى فندق دايز إن وحجز غرفة له(403). وفي اليوم التالي سافر إلى باكستان واختفى.

كان الرجل الذي عُرف لاحقاً برمزي يوسف، أصغر سنّاً، في الرابعة والعشرين فحسب. كان لعائلته أيضاً جذور في إقليم بلوشستان الباكستانيّ. وتماماً مثل مئات آلاف الباكستانيين الآخرين الذين بحثوا عن فرص للعمل في عصر ازدهار النفط، سافر والد يوسف، وقد كان مهندساً، إلى دول الخليج العربية. كان عدد العرب البدو في المملكة العربيّة السعوديّة والكويت، الغنيتين بآبار النفط، قليلاً، ويفتقرون إلى الخبرة التقنيّة اللازمة لبناء مجتمع اقتصاديّ حديث، فقاموا بتوظيف مسلمين من البلدان الفقيرة المجاورة لهم، مثل باكستان، عملوا سائقين وطهاة ولحّامين وبنائين ومهندسين وأطباء وطيّارين. وبالنسبة إلى سكان بلوشستان، مثل والد يوسف، فقد هيأ ميزان الرواتب المرتفعة في الخليج ولادة طبقة مدنية متوسطة المستوى. فقد كان بإمكانه إرسال أولاده إلى مدارس خاصة، وحتى إلى الجامعات الأوروبيّة.

كان سكان بلوشستان من المسافرين والمهاجرين لقرون عدّة، ولا يعتمدون إلا على أنفسهم. كانوا تاريخياً أقرباء سكان الباشتون، فاختلطوا معهم بسهولة تامّة، ومزجوا بين السلالات القبلية والإثنيّة. انقسم شعبهم عبر الحدود التي رسمها واضعو الخرائط الامبرياليون والمستعمِرون بلا مبالاة. في بداية التسعينيات، انقسم سكان بلوشستان، بين ثلاث دول: جنوب غرب باكستان، جنوب شرق إيران، وجنوب شرق أفغانستان. في باكستان، تزعّم قادتهم العشائريون السياسات والحكومات الإقليمية في بلوشستان، وهي صحراء شاسعة يقطنها الناس بأعداد ضئيلة، وتضم أرضاً جبلية تمتدّ على طول الحدود الأفغانية الإيرانية، وجنوباً حتى شط العرب. والتزم سكان بلوشستان، تماماً مثل الباشتون، نظم الشرف القبلي المحافظ، التي تعرّف الإناث كملكيّة، والانتقام كعدالة.

وُلد رمزي يوسف في الكويت في 27 نيسان/أبريل العام 1968، تحت اسم عبد الباسط محمود عبد الكريم. ونشأ في الإمارة الصغيرة التي ازدهرت مع الثورة النفطية، في أعوام تضخّم البترودولار الرائعة. في الأعوام العشرين من عمره، رأى مدينة الكويت تتحوّل من مرفأ صغير مليء بالنفايات، إلى مدينة تنيرها الأضواء الساطعة وتملؤها المراكز التجاريّة الرخامية ووكالات بيع السيارات الفخمة. تنقّل يوسف، مثل مير قاسي، بين العوالم، من دون أن ينتمي إلى أيّ منها. عاش بين الجاليات الباكستانية والفلسطينية والمصرية والبنغلادشية المتداعية التي تضمّ العمال الأجانب، وفي أتون الامتعاض بشأن القضايا الملحّة والأقلّ إلحاحاً، كما أتقن العربيّة والبلوشية والكرديّة والإنكليزيّة. كان لا يزال مراهقاً في الكويت حين بشّر عبد الله عزّام بضرورة الزكاة داخل المساجد الإماراتيّة الغنيّة، ملقياً خطباً حماسية حول الجهاد الأفغانيّ. انتشرت رسائل عزّام في كلّ مكان: على كاسيتات تسجيل سرية، وفي الجرائد والمناشير... ورُددت خطب ألقاها أفراد من عائلة يوسف. فقد كان عمّه الأكبر إماماً لأحد المساجد في الضواحي كان يرتاده العمال الباكستانيون. وبعد أن تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس الكويت، أُرسل يوسف إلى معهد مهنيّ في سوانسيا في ويلز بين العامين 1986 و 1989، للحصول على شهادة في الهندسة الكهربائية وبرمجة الالكترونيات. هذا هو العلم الإنكليزيّ العمليّ الذي أرادته العائلات الباكستانية المتنقلة الصاعدة التي تعيش في الخليج لأبنائها، لتتمكن الأجيال المقبلة من تحسين دخل العائلات في مدن النفط العربية الكبيرة. لا أحد يعلم ما النشاطات التي مارسها يوسف في حرم جامعة ويلز إلى جانب دراسته. كان عمّه خالد شيخ محمّد، ناشطاً في جماعة الإخوان المسلمين، وعمل مع سياف، القائد الأفغاني المدعوم من قبل السعودية، في باكستان. وحين عاد إلى الخليج من بريطانيا، وجد يوسف وظيفة مهندس اتصالات في مركز الكومبيوتر الوطني في وزارة التخطيط الكويتيّة: وظيفة حكومية توفر له حياة مترفة(404).

بعد عام، توقف تقدّم العائلة بشكل مفاجئ. غزت قوات صدام حسين الكويت في 2 آب/أغسطس 1990، واجتاحت المدينة، وأرسلت على الفور آلاف العمال الأجانب إلى المنفى. هربت عائلة يوسف إلى كيتا. كانوا لاجئين على الرغم من أنهم كانوا أثرياء نسبياً. وفي مرحلة ما بعد عودتهم، تمكن والدا يوسف من التسلل عبر الحدود، واستقرا في مقاطعة بلوشستان الإيرانيّة(405).

اعتبرت عائلة يوسف، أنه بصفته شاباً غير مرتبط يحمل شهادة متقدمة من بريطانيا، قد أصبح جاهزاً ليتمّ تزويجه. لم يكن يوسف مستعداً للاستقرار، فانجذب في اتجاه دعوة أخرى: تطوّع للجهاد. كان أحد المعجبين بالمجاهدين المحاربين للشيوعية. استشهد اثنان من أعمامه في المعركة ضدّ السوفيات. كان ليوسف تاريخه الخاص: فهو محاضر باللغة
العربية في الدول الخليجية العربية، وعلى علاقة بشبكات المتطوعين الإسلاميين العرب التي تتعدى الحدود القومية.

شكل أحد أعمامه صلة وصل له مع العالم الإسلامي في بيشاور: كان مديراً إقليمياً لجمعية خيرية مركزها الرئيسي في الكويت، ويطلق عليها اسم هيئة الإغاثة الإسلامية. دخل يوسف أفغانستان في أواخر العام 1990 من أجل متابعة التدريبات في مخيم جهادي للمبتدئين، يديره مجاهدون عرب لمصلحتهم الخاصة بدلاً من الأفغان، فبقي فيه مدّة ستة أشهر. تعلّم استعمال الأسلحة والمتفجرات الأساسية والمناورات العسكرية. ضمّ المخيم أربعين أو خمسين إسلامياً من العرب، يتدربون من أجل العودة إلى مواطنهم في الشرق الأوسط. انتقل يوسف بعد ذلك إلى مخيّم للمتخرجين مخصص لصانعي القنابل، حيث استطاع تطبيق مهاراته في الالكترونيات في فنّ المتفجرات التي يتمّ التحكّم فيها عن بعد. تعلّم تقنيات التفجير التي طوّرت في الأساس في مخيمات التخريب والقتال المتمركزة على الحدود التي زوّدتها «السي.آي.إيه.» أجهزة توقيت ومتفجرات بلاستيكية. نفّذ بضع عمليات في أفغانستان، ليس لأنّه كان يسعى إلى المشاركة في الحرب الأهلية الأفغانية، بل من أجل الحصول على خبرة، وفقاً لما قاله لاحقاً.

في بداية العام 1991، عاد يوسف إلى باكستان وتزوّج. عاش حياة منزلية مدّة ثمانية عشر شهراً، كان في خلالها على علاقة منتظمة بالإسلاميين الراديكاليين على الحدود الأفغانية. ربّما أمضى بعض الوقت في بيشاور في ربيع العام 1992، عندما عاد بن لادن فترة وجيزة من السعودية إلى باكستان، من أجل مشاركة الأمير تركي في محاولة التوسط في الحرب الأهلية الأفغانية. لكن، لم يكن يوسف وبن لادن مقربين كثيراً: كان وضع يوسف المادي سيّئاً، ويبدو أنه لم يتمكن من الحصول على راع ثريّ في السنتين اللتين قضاهما على الحدود الأفغانية(406).

سافر يوسف في أيلول/سبتمبر في العام 1992، إلى نيويورك بواسطة جواز سفر عراقيّ مزور، اشتراه في بيشاور مقابل مئة دولار. دسَّ له شريكه، أحمد عجاج، بين أمتعته، كتيبات وموادَّ لصناعة القنابل. قال يوسف لاحقاً إن خطته الأساسية كانت تكمن في رؤية معالم الولايات المتحدة، والحصول على جواز سفر أميركيّ، واختيار أهداف للتفجير، ثمّ العودة إلى باكستان من أجل جمع المساعدات لتنفيذ عمليته. لكن، ما إن وصل إلى نيويورك، حتى قرّر تنفيذ الاعتداء على الفور على الرغم من موارده المحدودة. ربّما اختار مركز التجارة العالمي منذ البداية، إلا أنّه صمّم على اعتباره هدفاً بعد وصوله إلى نيويورك. قرر صنع قنبلة تستطيع قوتها التدميرية تحطيم الدعامة الوسطى لأحد برجي المركز اللذين يرتفعان على علو 110 طوابق. أمل يوسف أن ينهار البرج الثاني عند انهيار البرج الأول. وأظهرت حساباته أنّ هذه العملية ستحصد 250 ألف ضحية.

فباعتقاده، هذا هو عدد الضحايا الذي حصده تفجيرا القنبلتين النوويتين الأميركيتين في هيروشيما وناكازاكي، في اليابان، أثناء الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من أن والده كان من بلوشستان، فقد حظي بإرث باكستانيّ من جهة والدته. فكّر في الهجوم ضد أهداف إسرائيلية، لكنّه وجد الوصول إلى هذه المواقع صعباً جدّاً بسبب الحراسة المشدّدة فيها. فقد كان الهجوم على العدو بشكل مباشر أمراً مستحيلاً، لذا أفضل ما يقوم به هو «الهجوم على صديق عدوك» كما وصف لاحقاً(407).

اتصل يوسف بإسلاميين في منطقة نيويورك، وبشبكة من الراديكاليين الإسلاميين أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن، وهو داعية مصري أعمى كان على علاقة بعبد الله عزام وإسلاميين آخرين متأثرين بالإخوان المسلمين في بيشاور في الثمانينيات. كان أفراد من مجموعة عبد الرحمن على اتصال هاتفي مع مراكز آمنة تابعة لتنظيم «القاعدة» في بيشاور، لكن لم يتمكن أحد منهم من توفير المعدات الضرورية لصنع قنبلة قوية تسمح بتدمير برجي مركز التجارة العالمي، ما أثار أسف يوسف.

في 26 شباط/فبراير 1993، بعد شهر على الهجوم الشهير الذي نفّذه قاضي على مركز «السي.آي.إيه.»، قاد يوسف شركاءه في موكب من عربتين من بروكلين إلى الطابق الثاني من موقف سيارات تحت الأرض في مركز التجارة العالمي. وضع يوسف جهاز توقيت الكترونياً على القنبلة، ثم قفز داخل سيارة شيفروليه - كورسيكا حمراء اللون. بلغت كلفة المواد التي احتاج إليها يوسف لصنع قنبلته 400 دولار فقط. فعندما انفجرت عند الثانية عشرة وثماني عشرة دقيقة ظهراً، تسببت في مقتل ستة أشخاص كانوا يتناولون الغداء في المقهى فوقها، وجرح ألف شخص يعملون في عدد من الطوابق الأعلى مستوى، كما نتج عنها دمار يتجاوز 500 مليون دولار. أما يوسف فقد سافر في تلك الليلة إلى كاراتشي على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الباكستانية الدولية، واختفى.

بعث برسائل عبر البريد الالكتروني إلى صحف نيويورك، يعلن فيها مسؤوليته عن الاعتداء. وأفادت الرسائل أنّ «جيش التحرير، الفيلق الخامس» قد نفّذ الاعتداء، وأصدر ثلاثة مطالب سياسية: وضع حدّ للمساعدات التي تقدّمها أميركا إلى إسرائيل، ووضع حدّ للعلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، وتوعّد بوضع حدّ للتدخل «بالشؤون الداخلية لأي دولة من دول الشرق الأوسط». وكتب يوسف وزملاؤه أنّه في حال لم تُلبَّ هذه المطالب، فستقوم المجموعة «بمتابعة تنفيذ مهماتنا ضدّ أهداف عسكرية ومدنية داخل الولايات المتحدة وخارجها. وقد يتضمّن ذلك بعض الأهداف النووية المحتملة». وادّعت الرسائل أنّ «جيش التحرير» يضمّ «150 جندياً «استشهادياً» مستعدين للمضي». «لا بدّ من مواجهة الإرهاب الذي تمارسه إسرائيل (والذي تدعمه أميركا) بإرهاب مماثل». ولا بدّ من أن يعلم الشعب الأميركي «بأن المدنيين الذين سيُقتلون ليسوا أفضل من الذين قُتلوا بواسطة السلاح والدعم الأميركيين»(408).

بالنسبة إلى خطبة متشددة كتبها متخرج في مخيمات التدريب الجهادية العربية في أفغانستان، أصابت هذه الرسالة صلب موضوعات سياسية علمانية بارزة. لم تأتِ على ذكر الإسلام على الإطلاق. قد تكون مطالبها منبعثة من الماركسيين الفلسطينيين. وردّد الحديث حول الثأر والانتقام ومبدأ العين بالعين والسنّ بالسنّ، وهي نظم قبيلتي البلوش والباشتون. بدت أنّها تصف أميركا كعدوّ فقط بسبب دعمها لإسرائيل. لم يكن يوسف في يوم تلميذاً مثابراً في العلوم الدينيّة. وأظهرت رسائله وتصريحاته غطرسة تقني وبرودة قاتل. تورط شركاؤه الذين ساعدوا على عملية الهجوم على مركز التجارة العالمي، في المؤامرة التي سعت إلى اغتيال الحاخام اليهودي ماير كاهان، مؤسس عصبة الدفاع اليهوديّة المحاربة. وركّز أفراد جمعية يوسف المقيمون في نيويورك، بشكل أساسي، على القضايا المحاربة لإسرائيل. ويبدو أنّ وجهة نظرهم صاغت بعض موضوعات الرسائل. وفي الوقت نفسه، تحالف يوسف وشركاؤه مع الإسلاميين المتأثرين بالإخوان المسلمين مثل الشيخ عبد الرحمن وبن لادن. وفوق كلّ شيء، بحث صانع القنابل في داخله عن عرض مثير. وربّما أظهرت لائحة مطالبه السياسية أنّه يعاني هوس الإحراق: أراد إحداث انفجار ضخم، ومشاهدة مبنى طويل يُسقط مبنىً آخرَ.

أججت مسودة مهملة لرسالة مطالب يوسف التي وجدها أحد المحققين الأميركيين على حاسوب أحد شركاء يوسف، موجة حذر أثارت استياء يوسف لأنّه لن يتمكن من التزوّد بقنبلة فعالة كفاية. وتقول الجملة المحذوفة: «لسوء الحظ، لم تكن حساباتنا دقيقة هذه المرّة. لكننا نعدكم بأننا في المرة المقبلة سنكون أكثر دقّة، وسيظلّ مركز التجارة العالمي أحد أبرز أهدافنا ما لم تتحقق مطالبنا»(409).

قام مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» بتعيين قوة خاصّة تعمل على مدى الساعة، وفي جميع أيام الأسبوع، من أجل جمع معلومات حول عملية تفجير مركز التجارة العالمي. كما أنشأ قوة مماثلة من أجل مطاردة مير أمل قاسي. بقيت مكاتب الطابق السادس في لانغلي تعجّ بالحركة والحالات الطارئة لأسابيع. وأصدر ولسي نداءً دولياً لجمع الاستخبارات حول التفجير من المصادر كافة. عززت وكالة الأمن القومي شبكة التنصت الهاتفي، وجمعت المعطيات من أجل الحصول على أدلّة. وراقب المتنصتون في وكالة الأمن القومي الهوائيات بحثاً عن أجزاء دالة: عميل مخابراتي أجنبيّ يتكلّم على القضيّة بنبرة احتفالية، أو رئيس حكومة أجنبية يفتخر في اجتماع خاص... اتصلت مراكز «السي.آي.إيه.» في جميع أنحاء العالم بعملائها المأجورين، طالبة منهم تقديم تقارير وجمع إشاعات حول من قام بتنظيم الاعتداء على نيويورك. مرّت أسابيع ولم يحصلوا على أي معطيات. لم تتمكن وكالة الأمن القومي من إيجاد اقتراحات موثوق بها تدلّ على وجود يد خفيّة خلف الاعتداءات(410).

ساد اعتقاد داخل «السي.آي.إيه.» أنّ حكومة أجنبيّة تقف وراء التفجير، ووراء الاعتداء على مركز لانغلي أيضاً. ويذكر مستشار الأمن القومي، طوني لايك، أنّ يوسف وقاضي يتمتعان

بماضيين غامضين، ولم تتوضّح سيرتاهما الذاتيتان إلا بعد فترة طويلة. كانت التفجيرات المدعومة من قلب الدولة، النمط المتّبع طوال فترة الثمانينيات: مهما تكن القضية المعلنة، يسعَ «المخربون» دوماً وراء الأموال، وجوازات السفر، واللجوء السياسي، والمساعدة التقنيّة من الحكومات الراديكالية، مثل إيران وليبيا.

احتلّ العراق هذه المرّة رأس لائحة المشتبه فيهم: فأثناء حرب الخليج، أرسل حزب البعث الحاكم التابع لصدّام حسين، فرقاً تتألف كلّ منها من رجلين محترفين من أجل ضرب أهداف أميركيّة. كانت العمليّة غير متقنة. أصدرت جوازات سفر ذات أرقام تسلسلية للعملاء العراقيين، وتمكّنت وكالة «السي.آي.إيه.» بسرعة من التعرف إلى معظم العملاء قبل تنفيذ عملياتهم، وعملت مع الحكومات المحليّة لإلقاء القبض على هؤلاء العراقيين أو ترحيلهم. لكنّ هذه العمليّة أشارت إلى رغبة صدام حسين الجامحة، في ضرب أهداف أميركيّة من خلال تفجيرات انتقامية داخل الولايات المتحدة. ولاحقاً، في العام 1993، حاولت استخبارات صدام اغتيال الرئيس السابق بوش في خلال زيارة له إلى الكويت، ولاحقاً ظهر دليل أشار إلى سفر أحد شركاء يوسف إلى بغداد بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي.

بدت إيران وليبيا على لائحة المشتبه فيهم في قضية تفجير مركز التجارة العالمي. وأنشأ مركز مكافحة الإرهاب قسماً دائماً يستهدف حزب الله. كان لديه ملف كبير من الأدلة حول رعاية طهران للهجمات التي يشنّها عناصر حزب الله الذين ينضوون في حرب استنزافية مع إسرائيل [ضمن فصائل المقاومة اللبنانية] . اعتبر محللو «السي.آي.إيه.» أنّ إيران هي راعية الهجمات الموجهة ضد الغرب وأميركا، الأكثر نشاطاً في العالم. ويذكر لايك: «كانت (إيران) الأولويّة لدينا». وكان السودان، حيث تسلمت حكومة إسلامية السلطة غداة انقلاب، موضع شكّ أيضاً. بعد أن عمل مكتب التحقيق الفدرالي مع أدلّة مبكرة وغير متّصلة حصل عليها من المخبرين ومن ساحة الجريمة في مركز التجارة العالمي، مستنتجين أنّها متّصلة بالمؤامرة التي حبكت ضدّ حكومة السودان، أطلق تسمية «سودافيد» على التحقيق، وهو اختصار يعني «الفدراليّة السودانيّة»(411).

عكست هذه اللائحة المبعثرة التي تحمل أسماء المشتبه فيهم، الطابع المقسّم لما تسميه السياسة الأميركية «النشاطات الإرهابية» حول العالم. فقد جرى في الواقع 15 حادثاً إرهابياً على أراضي الولايات المتحدة الأميركيّة بين العامين 1990 و1992. تورّط قوميون في بورتوريكو في عدد كبير منها، وجماعة ماركسيّة إيرانية في اعتداء آخر، بينما نفّذ متشددون أميركيّون اعتداءات أخرى. وتضمنت الفرق الإرهابيّة الأكثر نشاطاً في العالم الماويين من البيرو، والمنفصلين التاميل في سريلانكا. بدا أن النمط كان يرتكز على غياب النمط.

تطوّر مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» ليصبح منظمة مختلفة عن التي تصوّرها دواين كلاريدج وبيل كايسي أثناء أزمات الرهائن في العام 1986. ففي السنوات التي تلت فضيحة

إيران - كونترا ومحاكمة عملاء في «السي.آي.إيه.» بسبب شهادة زور وجرائم أخرى، كان من الصعب الحصول على دعم واشنطن في شنّ ضربات سريّة واحترازية ضدّ إرهابيين. بقي مركز مكافحة الإرهاب قريباً من مكتب الخدمات السريّة في «السي.آي.إيه.»، وتابع عمليات تجسس خطيرة للحصول على معلومات استخبارية. لكنّ «السي.آي.إيه.»، أو البيت الأبيض، لم يحبّذ أي منهما، استمرار أيّ عمليات سريّة شبه عسكريّة، سواء أكان ذلك في إدارة بوش أم في إدارة كلينتون. وانتقل مركز مكافحة الإرهاب شيئاً فشيئاً من نطاق العمليات إلى نطاق التحليل، وتعرض لضغوط هائلة بسبب تقلص الميزانية. وحين قاموا بالتحقيق في قضية تفجير مركز التجارة العالمي وجرائم القتل التي نفّذها قاضي، حضر رؤساء المركز اجتماعات مكثّفة لتخفيض الميزانيّة. لم يصرف المركز عدداً كبيراً من الموظفين، لكنّ موارده تقلّصت بانتظام. فحين يستقيل أحد المحللين أو العملاء أو يتقاعد، لا يتمكّن المركز من تعيين بديل له بسبب قيود في الميزانية(412). أصبح عدد العاملين في مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» لا يتعدى المئة في تلك الفترة، وقد تمّ تقسيمهم إلى حوالى عشر شُعَب. استمروا بالتركيز على المجموعات الراديكالية العلمانية مثل مجموعة أبي نضال. وتتبّعت إحدى الشعب التطرف الإسلامي في الجزء السُّني من العالم الإسلامي. لكنها ركزت بشكل أساسي حتى العام 1993 على الراديكاليين الإسلاميين العنيفين الذين تحدّوا حكومة الجزائر الاشتراكية(413).

كانت بيروقراطية مكافحة الإرهاب في واشنطن في العام 1993، مشتّتة ومتأثرة بالمنافسة بين الوكالات، ورازحة تحت وطأة الميزانية. وكان مكتب مكافحة الإرهاب التابع لوزارة الخارجية، النقطة المركزية للسياسة الأميركية، في حالة من الفوضى، وقد قوّضته التقلبات في القيادات المتحاربة فيما بينها، وتخفيضات الميزانية. وكان على مجلس الأمن القومي إصدار أيّ توجيهات رسمية تحدّد أي وكالة حكومية ستترأس قضية مثل قضية تفجير مركز التجارة العالمي، وعدد الوكالات التي يجب أن تتعاون معاً للتحقيق فيها. بقيت مسودات الاقتراحات المتعلقة بهذه القضايا في البيت الأبيض من دون بتها سنتين تقريباً(414). وفي هذه الأثناء، سعى مكتب التحقيق الفدرالي الذي يترأسه لويس فريه، إلى توسيع دوره في القضايا الإجرامية ذات الامتدادات الدولية، بما في ذلك القضايا الإرهابية. أراد فري توزيع عملاء تابعين لـ «الأف.بي.آي.» في السفارات الأميركية في جميع أنحاء العالم. اعترض بعض عملاء «السي.آي.إيه.» على تمدد «الأف.بي.آي.» العالمي، معتبرين ذلك تعدياً على نطاق الوكالة، وحتى أن موظفي لانغلي الذين رأوا أن «السي.آي.إيه.» قد تستفيد من شراكتها مع «الأف.بي.آي.»، لم يكونوا واثقين بكيفية عمل النظام الجديد.

بقي سؤال أساسي مطروحاً: هل تجب ملاحقة الإرهاب كمشكلة أمن قومي، أم كنوع من الحرب، أم كمشكلة في تطبيق القانون، مع الشرطة والمدعين العامين في الطليعة؟ بدا الإرهابيون في بعض القضايا كجنود أعداء، أمّا في قضايا أخرى، فكان من السهل نبذهم مثل المجرمين العاديين. وفي بعض الأحيان، أدّت اعتداءاتهم المتقنة التي أخذت في الاعتبار تصدُّرها وسائل الإعلام، إلى نشر الرعب، وتطلبت تحقيقات مكثّفة. لكن التأثير المباشر للإرهاب في المجتمع الأميركي، كان طفيفاً. ففي التسعينيات، كان من المرجّح أن يموت الأميركيون بسبب لدغة نحل أكثر من خوفهم بسبب

اعتداءات إرهابية. فمن هذا المنطلق، تمّ التعامل مع الإرهاب كمشكلة في تطبيق القانون. فمحاكمة الإرهابي وسجنه كقاتل عادي، يصرفان النظر بالفعل عن مطالباته بالمشروعية السياسية. فقد اعتبر عدد من المستشارين والباحثين الأميركيين في مجلس الأمن القومي، أنّ هذا الرد على الإرهابيين أكثر عقلانية من شنّ حرب شبه عسكرية، أو اعتبار بعض المجموعات الماركسية، بمنزلة الجنود الأعداء.

وفي الوقت الذي استقرت إدارة كلينتون في منصبها، ترسخت مقاربتها التشريعية بشأن الإرهاب داخل البيروقراطية الأميركية. في العام 1995، عندما اتّخذ كلينتون أخيراً قراراً بشأن سياسة «الحرب على الإرهاب»، أعلن رسميّاً أنَّ «الأف.بي.آي.» ستترأس القضايا الإرهابية التي يذهب الأميركيون ضحيتها. ربّما كانت العلاقة بين كلينتون ولويس فريه و «الأف.بي.آي.» أسوأ من علاقته مع ولسي و «السي.آي.إيه.». ويبدو أنّ كلينتون كان يعتبر فري صالحاً بحقّ نفسه، بينما حصر طاقم الفريق السياسي في البيت الأبيض دور «الأف.بي.آي.» في ما يعتبره تحقيقات تافهة ذات دوافع سياسيّة. وبرغم ذلك، كان كلينتون، المتخرج في كلية الحقوق في جامعة يال، والأستاذ الجامعي السابق في القانون، مؤمناً كبيراً بمبادئ النظام القانوني الأميركي. ومن الناحية السياسية، سعى كلينتون إلى حجب السلطة الأميركية بواسطة شرعية القانون الدولي كلّما أمكنه ذلك. بدا تعزيز عمل الشرطة ومحاكمة الإرهابيين بمنزلة مقاربة عمليّة وذات مبادئ.

لم تعمل «السي.آي.إيه.» بشكل نموذجيّ داخل النظام القانوني الأميركي. تخضع الوكالة لقانون أميركي، هو قانون الأمن القومي في العام 1947، بينما يخضع موظفوها لملاحقات داخل الولايات المتحدة في حال خالفوا الأوامر، أو نفذوا عمليات غير مصرّح لها، أو كذبوا تحت القَسَم. إلا أنّ عمليات التجسس والعمليات شبة العسكرية التي تتابعها «السي.آي.إيه.» في الخارج، تنفَضّ بسريّة، ولا تخضع لمراجعة المحاكم الأميركية. وقد سطا عملاء «السي.آي.إيه.» بشكل منتظم على السفارات الأجنبية من أجل الحصول على معلومات، ودفعوا الأموال لأمراء الحرب والقتلة من أجل الحصول على معلومات داخلية حول أعداء أميركا. لم تستطع المعلومات الاستخبارية التي جمعوها غالباً دعم التحقيق في محكمة أميركيّة. كما لم يرد الكونغرس أن تشارك «السي.آي.إيه.» في محاكمة المجرمين داخل الولايات المتحدة. فقد أُنشئت «السي.آي.إيه.» لمنع وقوع معركة أخرى مثل معركة بيرل هاربر. لكن، نتيجة للحرب المريعة ضدّ النازية، سعى الكونغرس إلى حماية الشعب الأميركي من نشوء أي شيء شبيه بجهاز الغستابو الذي أنشأه هتلر، أي البوليس السري الألماني الذي جمع بين التجسس وأساليب الشرطة. لذا، تمّ منع «السي.آي.إيه.» من التجسس على الأميركيين، أو استخدام المعلومات الاستخبارية التي تجمعها في الخارج بشكل مباشر في المحاكمات داخل نظام المحاكم الأميركي(415).

لم يتشجع المدّعون العامون والشرطة، بما في ذلك «الأف.بي.آي.»، على مشاركة «السي.آي.إيه.» الخيوط أو الأدلة التي جمعوها في القضايا الإجرامية المحلية. ففي حالات عديدة، إن قام عميل في «الأف.بي.آي.» أومدعٍ فدرالي بإعطاء «السي.آي.إيه.» ملفات أو تصريحات

شهود حصل عليها أثناء تحقيق في قضية إرهاب أمام هيئة المحلفين الكبرى، فسيذهب إلى السجن بغضّ النظر عن أهميّة الدليل بالنسبة إلى الأمن القومي الأميركي.

أصبحت ثقافة «الأف.بي.آي.» سيّئة السمعة في بداية التسعينيات: لم يُطلع عملاء «الأف.بي.آي.» الشرطة على ما يقومون به، وعارضوا بشدّة العمل مع فرق مجموعة التنسيق بين الوكالات، وكانوا يحجبون أدلة حاسمة عن عملاء آخرين في «الأف.بي.آي.». وتمركز بعض عملاء «الأف.بي.آي.» داخل مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» للمساعدة على تبادل المعلومات، وكانت علاقات «الأف.بي.آي.» بـ «السي.آي.إيه.» في بعض الحالات أفضل من علاقاتها بعدد كبير من الوكالات الحكومية الأخرى. لكن، على الرغم من ذلك، بعد عملية تفجير مركز التجارة العالمي وبدء «الأف.بي.آي.» التواصل مع «السي.آي.إيه.» بشأن قضايا الحركات الإسلامية الأصولية، اتبع عملاؤها بحذر القوانين التي تحظر فضح أي أدلة تعود إلى هيئة المحلفين الكبرى(416).

كبحت جميع هذه الأحداث ردّ فعل «السي.آي.إيه.» تجاه الاعتداء الذي وقع على مركز التجارة العالمي. منذ العام 1989، بدأت «الأف.بي.آي.» تجنيد مخبرين مأجورين داخل دوائر الراديكاليين الإسلاميين في نيويورك ونيوجرسي. وفي العام 1990، نقلت «الأف.بي.آي.» سبعة وأربعين صندوقاً من الوثائق وكتيبات التدريب من منزل السيّد نصير، قاتل الحاخام ماير كاهان. لم تترجم «الأف.بي.آي.» هذه المواد من الإنكليزية إلى العربية على مدى عامين، وحتى عندما ترجمتها أخيراً، لم تشارك «السي.آي.إيه.» في أي أدلة حاسمة حول شبكة الإرهابيين الدولية. وفرت الوثائق تفاصيل كثيرة حول مخيمات التدريب الأفغانية، ونمو القاعدة على طول الحدود الأفغانية، وفي الشرق الأوسط. ظهر اسم بن لادن في تحقيق «الأف.بي.آي.» الرئيسي، لأنّ أحد أقرباء نصير سافر إلى السعودية وتسلم أموالاً من بن لادن بغية دفعها لمحامي الدفاع عن نصير. لم تعلم «السي.آي.إيه.» بالأمر(417).
ولم يدرك محللوها غنى ملفات «الأف.بي.آي.» إلا بعد مضي أعوام عديدة على تفجير مركز التجارة العالمي. وسجلت ملفات مجلس الأمن القومي التي تعود إلى العام 1993، أقله لقاءً واحداً بين ولسي ولايك، حيث ناقشا موضوع بن لادن معتبرين إياه مموّلاً إرهابيّاً يستدعي الانتباه. إلا أنّ التحقيق في قضية تفجير مركز التجارة العالمي لم يركّز عليه. وانتشرت ورقة تعود إلى «السي.آي.إيه.» في 2 نيسان/أبريل العام 1993، تصف بن لادن أنه «عامل مستقلّ تعاون في بعض الأحيان مع أفراد آخرين أو حكومات»، من أجل ترويج «القضايا الإسلامية الجهادية». وتابعت الوكالة كتابة تقارير حول مخيمات التدريب الأفغانية، حيث ظهر بن لادن في بعض الأحيان. وأفاد إصدار جريدة الاستخبارات القومية السرية في 20 نيسان/أبريل، أنّ مئات المقاتلين الإسلاميين تدربوا في المخيمات في خلال السنة الفائتة. وأرسل مركز لانغلي في شهر أيلول/سبتمبر برقيات إلى مراكز «السي.آي.إيه.» في جميع أنحاء العالم، من أجل تقييم نقاط ضعف شبكات بن لادن، وحدّدت الوكالة في تشرين الثاني/نوفمبر، سلسلة من الأهداف المتصلة ببن لادن بغية جمع المزيد من المعلومات الاستخبارية عنه. وبرغم ذلك، لم يكن الدور الذي يلعبه بن لادن في عمليات العنف واضحاً في العام 1993(418).

لم يلحظ عملاء «الأف.بي.آي.» ولا عملاء «السي.آي.إيه.» بسرعة ظهور الجهاديين، كقوة مستقلة تتعدى الحدود القومية، فتحرّكوا ببطء في جمع المعلومات عنهم، بغية دراسة الراديكالية الإسلامية السنية ومحاربتها بشكل عام. اعتبروا إيران الشيعية منبع ما أسموه «الإرهاب المحرك دينياً». وطرح مستشار الأمن القومي في إدارة بوش، طوني لايك، سؤالاً بعد أعوام عندما تحدّث عن العرض الشامل للمشاكل، فقال: «هل نجد عندما نلتفت إلى الماضي، أنّنا أفسدنا الأمر؟». «بالطبع». بدأت الخلايا الإسلامية التي أنتجتها أفغانستان بالانتشار، بما أنّ العالم لم يفهمها جيّداً، ولم يتحدَّها بصرامة(419).

# 14
# المحافظة على مسافة حذرة

وصل بول بيلار إلى مركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية ليتسلم منصب رئيس التحاليل، بعد فترة ستة أسابيع على تفجير مركز التجارة العالمي. كان بيلار رجلاً طويلاً هزيلاً مع طرفة عين عصبية وصوت متيقظ وواضح كصوت أستاذ جامعي. ولكونه ضابطاً عسكرياً أميركياً في فيتنام، حصد شهادات من دارتماوث وأكسفورد، ودكتوراه من برينستون. وبعد أن تقدم بسرعة في مجال الإدارة والتحليل الاستخباري بعد انضمامه إلى «السي.آي.إيه.»، خدم بيلار مساعداً تنفيذياً لمدير الوكالة وليام ويبستر، وهو منصب عادة ما يُخصّص في لانغلي للنجوم الصاعدين. وقد عكس بيلار التقاليد الرفيعة المستوى للجناح التحليلي في «السي.آي.إيه.». لم يكن داعماً للعرب، إلا أنه درس الإسلام السياسي وقضايا الشرق الأوسط. كان مديراً ورجلاً مثقفاً ومؤلف كتب ومقالات أكاديمية. ومن مركز محاربة الإرهاب، ظهر خلال فترة ستة أشهر كواحد من أقوى محللي الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية(420).

انهمك بيلار بادىء الأمر، بقضية مركز التجارة العالمي، مثله مثل المكتب الفدرالي للاستخبارات. كانت المجموعة الأولى من المشتبه فيهم الذين تم اعتقالهم في منطقة نيويورك، طاقماً متلعثماً من جنسيات مختلفة، فكان من الأسهل تخيلهم آلات لتنفيذ مؤامرة حكومة أجنبية سرية أكثر من كونها خلية إرهابية مستقلة. وانبثقت تدريجاً، نظرية جديدة حول القضية مع ازدياد أدلة «الأف.بي.آي.». وتعرّف المخبرون بسرعة إلى الواعظ المصري الضرير الشيخ عبد الرحمن كمصدر إلهام للهجوم على مركز التجارة العالمي، وعمليات تفجير أخرى نفّذت في معالم أخرى في نيويورك. بدأ محللو «السي.آي.إيه.» مراقبة الراديكاليين الإسلاميين العابرين للحدود من مصر وجوارها.

اكتسحت نهضة سياسية إسلامية الدول العربية في شمال أفريقيا خلال السنين الأربع الماضية، كما بدأت خلية مسلحة تابعة للإخوان المسلمين في مصر، تعرف باسم الجماعة الإسلامية، حملة اغتيالات وتفجيرات ضد حكومة حسني مبارك العلمانية. وقد تهافت كوادر الجماعة الإسلامية من منطقة النيل العليا الفقيرة والمتشددة منذ زمن، فيما أحيت حملتهم تقاليد من العنف الإسلامي في مصر تعود إلى عشرات السنين. إلا أنّ المقاتلين العائدين من الجهاد الأفغاني بدأوا تحفيز الجماعة من جديد. وكان الأمر مماثلاً في الجزائر، حيث قامت جبهة الخلاص الإسلامية المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين بأسر المخيلة السياسية عند فقراء الجزائر، ثم بشكل متزايد، الطبقة الوسطى الغاضبة التي نظرت إلى قادتها العلمانيين والاجتماعيين على أنهم فاسدون وفاشلون سياسياً، وغير ممثلين للشعب. وبعد أن أوقفت الحكومة الانتخابات في العام 1991 لأنه بدا كأن الإسلاميين سيربحونها، قام عسكريون شبان، البعض منهم مقاتلون سابقون في الجهاد الأفغاني، بتشكيل حركة مقاومة عنيفة سرية أطلقوا عليها اسم الجماعة الإسلامية المسلحة. وبدأوا حملة إرهاب ضد

الحكومة. تسبب الطرفان في مقتل مئات المدنيين الجزائريين شهرياً، جراء متفجرات ومجازر واغتيالات(421).

قام بيلار ومحللون آخرون في وكالة الاستخبارات المركزية، بالإضافة إلى رؤساء مراكزهم، في القاهرة والجزائر العاصمة وتونس، بدراسة تحركات العصيان هذه، ومناقشتها بشكل مركّز في الأشهر التي تلت الاعتداء على مركز التجارة العالمي. وتساءلوا: ما العلاقة بين هذه الجماعات الإسلامية العنفية والقومية، وبين الإرهابيين الذين قد يهددون الولايات المتحدة أو حلفاءها؟ ما هي السياسة التي على الولايات المتحدة اعتمادها تجاه الإسلاميين المصريين والجزائريين؟ هل عليها أن تنظر إلى الإسلاميين المتشددين كلهم على أنهم خطرون، أم أنه يجب على واشنطن أن تحاول التواصل مع الفصائل السلمية والسياسية في جماعة الإخوان المسلمين، بينما تحاول عزل الفصائل العنيفة والمسلحة وقمعها؟ أعلى الولايات المتحدة أن تشجع الانتخابات الديموقراطية حتى في دول على مثال الجزائر أو مصر، حيث إمكانية فوز الإسلاميين في هذه الانتخابات كبيرة؟ كيف يمكن واشنطن أن تتأكد من مواصلة الإسلاميين اتباع نظام ديموقراطي بعد أن يفوزوا بالسلطة؟

اعتبر بيلار وزملاؤه أنّ سقوط الاتحاد السوفياتي في العام 1991، وسقوط شاه إيران في العام 1979، نموذجان للفشل السياسي، آملين أخذ دروس منهما. في هاتين القضيتين التاريخيتين، واجهت الحكومتان الفاسدتان والفاشلتان مع شبه انعدام للمصداقية، تمرداً شعبياً، وحاولتا إعادة إصلاح نفسيهما. إلا أنهما عادتا لتسقطا. وظن بيلار أن العبرة تكمن في تفادي الإجراءات غير الكاملة: فالحكومة الموضوعة تحت حصار إرهابي يجب إما أن تحارَب بلا رحمة، وإما أن تُفتَح أبواب نظامها السياسي على مصراعيه. وبرغم ذلك، رأى بيلار أن الجزائريين قد اقترفوا خطأً فادحاً حين قاموا بإلغاء الانتخابات، وجر الإسلاميين
إلى تشكيل تحركات سرية. فهم، من خلال ذلك، قد قوّوا المتطرفين، وعزلوا السياسيين المسالمين في جماعة الإخوان المسلمين.

احتار أيضاً محللو الاستخبارات وصانعو السياسات في وزارة الخارجية الأميركية ومجلس الأمن القومي. فقد اعتُبرت الجزائر وتونس، على الرغم من عدم تحالفهما المباشر مع الولايات المتحدة، حصناً علمانياً، وكان دعمهما للغرب يتزايد في مسائل الأمن. أما مصر، الدولة صاحبة الكثافة السكانية العليا في العالم العربي، والأكثر نفوذاً في العالم العربي من الناحية التاريخية، فقد كانت أحد أقرب حلفاء الولايات المتحدة، وثاني أكبر متلقية للمساعدة الأميركية بعد إسرائيل، وشريكة مهمة لواشنطن في عملية السلام بين إسرائيل وفلسطين. ورأى بيلار ومحللون آخرون في وكالة الاستخبارات المركزية، أنه على الولايات المتحدة أن تقوم بكل ما في وسعها لدعم حكومة مبارك ضد الإسلاميين، على الرغم من إخفاقات مبارك الواضحة.

إلا أن المحللين في الوكالة، تذكروا تجربة الثورة الإيرانية، حيث تمسكت وكالة الاستخبارات المركزية والبيت الأبيض بحليف استبدادي ضعيف مدة طويلة، وحرما نفسيهما من فرصة العمل

البناء مع الحكومة الإسلامية الثورية الجديدة في إيران. ورأى بيلار أن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، هي حركة إسلامية مسالمة مستعدة للمشاركة في السياسات السائدة على الرغم من تعبيرها عن سياسة راديكالية. ولربما تقتنع جماعة الإخوان المسلمين في الدول الأخرى بالاتجاه نحو الديموقراطية السلمية.

أما المشاركون في نقاشات الاستخبارات والسياسة في خلال ولاية كلينتون الأولى، فيعتبرون قادة الإخوان المسلمين منشقين وغير منظمين وغير حاسمين. وكان طوني لايك قد أعلن أن انتشار الديموقراطية عالمياً سيكون هدفاً أميركياً بارزاً في التسعينيات. لكن مع انطلاق العنف الإسلامي الآن في الجزائر ومصر، لم يكن كلينتون ولا لايك مستعدين لاعتبار الانتخابات الديموقراطية في العالم العربي أولوية. وقد حاولت السفارة الأميركية في القاهرة التواصل بحذر مع القادة الأدنى مرتبة في جماعة الإخوان المسلمين، إلا أن الحوار لم يوصل إلى أي نتيجة(422).

أما الاستخبارات الأكثر تفصيلاً التي جمعتها «السي.آي.إيه.» حول الحركات الإسلامية الراديكالية في الشرق الأوسط في خلال هذه الفترة المبكرة، فقد جاءت من مراكزها في مصر والجزائر وتونس وإسرائيل. وقد حافظت «السي.آي.إيه.» على صلتها اليومية بالاستخبارات المصرية والقوى الأمنية. كما طورت المحطة التابعة للوكالة في تونس صلة مشابهة بقوى الأمن التونسية، بينما ضيّقت الخناق على الحركة الإسلامية المتأثرة بجماعة الإخوان المسلمين. وقد أرسلت «السي.آي.إيه.» أول رئيس مركز معلن إلى الجزائر في العام 1985، وحافظت على علاقة عمل مع قوى الأمن الجزائرية حتى حين غاصت في حرب أهلية دامية. وأرسل رؤساء الاستخبارات العربية وقادة الشرطة تقارير مفصلة حول خطر الراديكالية الإسلامية المتزايد إلى رؤساء المراكز في الدول الثلاث، الذين قاموا بتسجيلها وإرسالها إلى لانغلي. واشتكى ضباط شمال أفريقيا تكراراً من دور المقاتلين العائدين من الجهاد الأفغاني، ومن تدفق تمويلات المملكة العربية السعودية، ومن الملاذ الآمن للراديكاليين على الحدود الباكستانية الأفغانية. كما اشتكوا من استعداد بريطانيا وفرنسا وألمانيا والسويد والدانمرك لوهب حقّ اللجوء السياسيّ(423) للقادة الإسلاميين المنفيين.

ساد نمط واضح من التعاون الدولي بين الراديكاليين الإسلاميين الذين تتعقبهم مراكز «السي.آي.إيه.» في شمال أفريقيا. واستولت قوى الأمن التونسية على أسلحة سرية نُقلت في موكب للجِمال من السودان عبر الصحراء إلى الجزائر. ويذكر ويتلي برونر، الذي كان قائد مركز «السي.آي.إيه.» في تونس في ذلك الوقت، أنّه في خلال الشهور التي تلت تفجير مركز التجارة العالمي «لم تُطرَح أي مسألة» للمناقشة بين التونسيين و «السي.آي.إيه.»، سوى مسألة التهديد الذي يشكله الراديكاليون الإسلاميون الذين يقطعون الحدود(424).

وقد تنبه ياسر عرفات تماماً، كما تنبهت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، إلى نشوء الشبكات المتأثرة بجماعة الإخوان المسلمين. وإثر تبنيها مناقشات عملية السلام مع إسرائيل، واجهت منظمة التحرير الفلسطينية تحدياً متزايداً من قبل حركة حماس، الفرع الفلسطيني لجماعة الإخوان

المسلمين. وجمعت منظمة التحرير الفلسطينية معلومات استخبارية حول حملات التبرّع لحماس من المملكة العربية السعودية، ومدارسها الدينية في اليمن، وشبكاتها المسؤولة عن تهريب الأسلحة والذخيرة في السودان. وقد أبلغت منظمة التحرير الفلسطينية مراكز «السي.آي.إيه.» في تل أبيب، أن عناصر تابعين لشعبة عسكرية من حماس، اسمها الجهاد الإسلامي الفلسطيني، قد تجمعوا حول خبير مالي سعودي منفي اسمه أسامة بن لادن. وأملت منظمة التحرير الفلسطينية أن تشاركها «السي.آي.إيه.» في معركتها ضد الإسلاميين بغية كبح تمدد نفوذ حركة حماس(425).

وقد تلطخت هذه التقارير الأولى بسبب السمعة السيئة التي تحيط بمصادرها. فمبارك في مصر، والشرطة السرية الداعمة للمجازر في الجزائر، وداعمو شرطة الدولة في تونس، والقادة الفاسدون في منظمة التحرير الفلسطينية، لديهم أسباب شخصية تدفعهم إلى المبالغة في وصف المخاطر التي قد يتسبب فيها خصومهم الإسلاميون الراديكاليون. كما أنّ الحكومات العربية العلمانية في شمال أفريقيا، لم تكن ديموقراطية أو شعبية. وقد تحدى الإسلاميون، وبعضهم مسالمون، شرعية هذه الحكومات. أحبط هذا الأمر بعض رؤساء مراكز «السي.آي.إيه.» الذين عملوا من كثب مع القوات الأمنية في هذه الدول، إلى درجة أن تقاريرهم حول الإسلاميين باتت تُهمَل في واشنطن.

أما فرانك أندرسون، المدير السابق لقوات المهام الخاصة في أفغانستان خلال الحرب السرية ضد الاتحاد السوفياتي، فقد رُقي ليدير قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات في «السي.آي.إيه.»، وأصبح المسؤول عن التجسس والعمليات السرية في جنوب آسيا والشرق الأوسط. وقد كان أندرسون مدافعاً قوياً عن دعم «السي.آي.إيه.» لحكمتيار خلال مرحلة الجهاد ضد السوفيات. فهو يعترف بأن المقاتلين الجهاديين العائدين من أفغانستان ليسوا بالأهمية التي تعطيهم إياها حكومات مصر والجزائر وتونس. ويضيف أندرسون إن الكثير من الإسلاميين الراديكاليين الذين يدّعون أنهم حاربوا في أفغانستان، إنما يبالغون في مصداقيتهم الجهادية. وبحسب أندرسون، فإن أي قراءة دقيقة لتاريخي مصر والجزائر، تُظهر أن الإسلام الراديكالي ليس بحاجة إلى أن يُستورَد من أفغانستان لإشعال عصيان عنيف(426).

إن هذه الأجزاء من الاستخبارات والنظريات حول المقاتلين الأفغان، كانت تنتقل عبر البرقيات بين لانغلي وساحات الميدان، ولم يتم التوصل إلى توافق حول معنى ذلك كله، أو كيفية الاستجابة له. وبرغم ذلك، بدأ مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» ومكتب الاستخبارات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية الأميركية تدريجاً، تطبيق نظرية تحليلية جديدة.

ابتكر بول بيلار عبارة «إرهابيون لأهداف خاصة»، لوصف رمزي يوسف ومخططي تفجير مركز التجارة العالمي. وبينما كان التورط الحكومي في التفجيرات أمراً وارداً، بدا الأمر غير مرجح بمرور الأشهر. فلم يكن يوسف وفريقه تابعين لأي مجموعة رسمية على الرغم من ادعاءاتهما وجود «جيش تحرير، الكتيبة الخامسة». فقد كان المخططون التابعون ليوسف مرتبطين

بشكل واضح بشبكات عالمية تدعم الجهاد في بيشاور والشرق الأوسط، إلا أن عمق هذه الارتباطات وأهميتها لم يكونا واضحين. وتخلى بيلار لاحقاً عن عبارة «إرهابيون لأهداف خاصة»، خشية أن تُعتبر غير رسمية على الإطلاق، كأن يوسف وأصدقاءه كانوا يشربون القهوة ذات مساء، وقرروا عفوياً تفجير أحد المباني. لكنّه أصرّ مع محللين آخرين بارزين في مركز مكافحة الإرهاب، على اعتقادهم أن المؤامرة على مركز التجارة العالمي، قد سجلت نقطة تحوّل للإرهاب العالمي، وبداية مزيج جديد من العنف الديني المتحرك والمستقلّ.

إلا أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت بطيئة في مواجهة هذا العدو الجديد، حتى بعد التعرف إليه. ونظر محللو الوكالة إلى الاستخبارات الإيرانية والقوى الحليفة لها، على أنها تهديد جدي للولايات المتحدة أكثر خطورة من المجندين الأفغان. فعناصر حزب الله المدربون في إيران، متهمون بتفجير المركز الثقافي الإسرائيلي في الأرجنتين. ولم تُخفف «السي.آي.إيه.» حدة المرارة التي شعرت بها إثر قيام عناصر تظن بقوة أنها تابعة لحزب الله، بخطف قائد مركزها في بيروت وليام باكلي وقتله في العام 1984.

تلقى الإسلاميون الجدد دعماً حكوميّاً، فوجدوا المال والأسلحة في المملكة العربية السعودية، وليس في طهران. وبرغم ذلك، تردّدت «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض في مواجهة الدور الذي لعبه الدعاة والممولون الماليون والوكالات الحكومية في السعودية. ففي الرياض، لم تبذل الوكالة سوى جهود بسيطة لتوظيف عملاء أو جمع استخبارات حول هذه التهديدات. وقلق الدبلوماسيون في وزارة الخارجية الأميركية من أن تضطرّ الولايات المتحدة إلى دفع كلفة باهظة في حال فضحت عمليات التجسس التي تنفّذها في المملكة، لأنها تعتبر هذه الأخيرة شريكة أمنية حاسمة وممولة نفطية رئيسية. استمرّت وكالة الاستخبارات المركزية بإدارة عمليات تجميع الاستخبارات في المملكة العربية المتحدة، لكنّها مالت إلى التصرف بحذر. وقد اعتمدت على وسائل التنصت التقنية أكثر مما اعتمدت على اختراق العملاء، كما ركزت على الموضوعات التقليدية، مثال الخلافة والمنافسة داخل العائلة الملكية السعودية(427).

بقي قائد الاستخبارات السعودية الأمير تركي الفيصل صلة الوصل الأساسية لوكالة الاستخبارات المركزية في المملكة العربية السعودية. فقد ربطته بالرئيس كلينتون علاقة غريبة، بدأت في جامعة جورج تاون. وبينما خطط كلينتون لترشحه إلى الانتخابات من
ليتل روك، جمع عناوين زملائه القدامى في الجامعة، وراسلهم يطلب منهم الدعم. ومن مكتبه في قسم الاستخبارات العامة في الرياض، فوجىء الأمير تركي، وشعر بالاستمتاع عند تلقيه هذا الطلب. تجاهله بادئ الأمر، فلم يستطع تذكر كلينتون من أيام الدراسة، وشك في أن يكون لحاكم ولاية صغيرة أي مستقبل سياسي كبير. ومع تقدم حملة كلينتون الانتخابية، أعاد تركي تقييمه، فسيكون من المفيد لقائد الاستخبارات في المملكة العربية السعودية أن يكون على اتصال شخصيّ برئيس محتمل للولايات المتحدة. فكتب إلى كلينتون وبدأ المراسلة.

في أواخر ربيع العام 1993، أقامت جامعة جورج تاون حفلة لإعادة شمل التلاميذ، حضرها الأمير تركي. بعد ذلك، رافق قائد الاستخبارات السعودية فرانك أندرسون من وكالة الاستخبارات المركزية والأمير بندر، السفير السعودي إلى واشنطن، إلى البيت الأبيض، حيث جلسوا مع كلينتون واستمعوا إليه، بينما كان يتحدث عن العولمة من دون هدف، مستعملاً عبارات عامة. ثمّ تحول حديث الرئيس إلى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، ووجه سؤالاً إلى الأمير تركي، فقال: ما هي السياسات التي يجب على الولايات المتحدة اتباعها في دول مثل أوزبكستان وكازاخستان؟

كانت جلسة كلينتون نموذجية، وبمنزلة محاضرة أكثر من كونها اجتماعاً رسمياً. فقد كان موجوداً بصحبة بعض الأشخاص المحنكين والمثيرين للاهتمام، وأراد أن يسمع رأيهم حول الطريق الذي يجب أن تسلكه السياسة الخارجية الأميركية. إلا أن بندر وتركي خرجا من البيت الأبيض منزعجين يهزان برأسيهما امتعاضاً. فسؤال كلينتون عن كيفية تعريف الولايات المتحدة سياساتها، سبب أزعج السعوديين، وسأل أحدهما الثاني: هل يسألنا نحن(428)؟.

وبرغم ذلك، قاما بعد الاجتماع في البيت الأبيض بوقت قصير، بإرسال شيكّ بقيمة 20 مليون دولار لتمويل برنامج دراسات الشرق الأوسط في جامعة أركانساس، وهو البرنامج الذي سعى من أجله كلينتون، إلى جمع تمويلات حين كان حاكماً(429). كانت هذه المبادرة بمنزلة مصافحة سعودية، وهدية صغيرة للترحيب بالصديق الجديد.

غرقت كابول في العنف والحرمان خلال العام 1993. وأمطر حكمتيار المدينة، من دون أي تفرقة، بمئات الصواريخ من مخازنه الوافرة، متسبباً في مقتل آلاف المدنيين وجرحهم. وقام القادة الجهاديون القدامى بالتحالف من جديد، وأقاموا علاقات شراكة غريبة موقتة، ودخلوا في مبارزة بواسطة السلاح المدفعي في شوارع كابول، فقسموا المدينة إلى رقع ومربعات محصّنة من الفصائل العرقية والعقائدية. فحاربت الميليشيا الشيعية ضد حكمتيار حول حديقة حيوانات كابول، ثم انتقلت إلى الجهة الأخرى وحاربت ضد مسعود. وتحالفت قوى سياف مع زميله القديم، رباني، فضربت قوات الشيعة بضراوة غير مقيدة، وقطعت رؤوس الرجال والنساء والأطفال والكلاب. وقامت ميليشيات دوستوم الأوزبكية بحملات اغتصاب وإعدام في ضواحي كابول. أما مسعود فقد تمركز في وزارة الدفاع المدمَّرة، وكانت عبارة عن قصر ملكي سابق كله ركام، ونقل جنوده شمالاً وجنوباً في معارك سريعة. انقطعت الكهرباء في كابول بينما وفر الدبلوماسيون القليلون المتبقون البترول للمولدات، وأقاموا المؤتمرات على ضوء الشموع. كما قطعت الطرقات، وتقلّصت مؤن الطعام وانتشرت الأمراض. وقُتل حوالى عشرة آلاف مدنيّ أفغاني في معارك مسلحة مع نهاية العام(430).

سافر الأمير تركي إلى إسلام أباد لعقد اجتماعات مع قادة الفصائل الأفغانية، وعيّن قائد الاستخبارات الباكستانية السابق حميد غول شريكاً في الوساطة، وحاول إقناع المحاربين بالتسوية. وعملوا مع رئيس المخابرات «الآي.أس.آي.» الحالي الجنرال جافيد نصير ذي اللحية الطويلة،

الذي بشّر علناً بعلم الدين الإسلامي في المساجد واللقاءات العامة. وقد كان هو القائد الديني الأكثر علنيةً في الاستخبارات الباكستانية في جيل بأكمله، حتى أن بعض زملاء نصير في «الآي.أس.آي.» قد تنبهوا إلى خطر دعوته الدينية العلنية، واعتبروه خرقاً لتقاليد الجيش المهنية(431).

في ذلك الوقت، تمّ نقل إدموند ماك وليامز إلى آسيا الوسطى، بعدما كان دبلوماسيّاً في وزارة الخارجية الأميركية، وشنّ حملات من داخل سفارة إسلام أباد ضد أهداف الجماعات الإسلامية التي وضعتها الاستخبارات السعودية والباكستانية في أواخر الثمانينيات. راقب ماك وليامز الحرب الأهلية المشتعلة باشمئزاز متزايد، وأرسل برقية سرية إلى واشنطن في أوائل العام 1993 بعنوان «تضمينات حول المأزق المستقرّ في أفغانستان». وقال: «فشل موقف الولايات المتحدة الذي يتمتّع بمبادئ، والذي يقضي بالسماح للأفغان بإيجاد حلول «لمشاكلهم»، في الأخذ في الاعتبار واقعاً مركزياً: التدخل الأجنبي المكثف والمستمر بشؤون الأفغان، من قبل حكومات صديقة، وأخرى غير صديقة، إضافة إلى عدد كبير من المنظمات الأصولية الممولة بشكل جيد، قد منع الأفغان من إيجاد «حلولهم الخاصة». فسياسة الولايات المتحدة غير الفعالة لا تخدم مصالح الأفغان ولا مصالحها... كما أن غياب حكومة
فعالة في كابول قد سمح لأفغانستان بأن تصبح أرضاً منتجة لعصيان ضد الحكومات المنشأة بشكل قانوني. إضافة إلى ذلك، هدّد المقاتلون الأصوليون الإسلاميون المدربون في أفغانستان، طاجكستان بشكل مباشر، وعملوا على الانتشار في دول الشرق الأوسط وجنوبي آسيا وأفريقيا، بغية إثارة المشاكل»(432).

لم تلقَ برقية ماك وليامز أيّ صدًى، ولم يَصغُ البيت الأبيض إلى أي سياسة تتعلّق بأفغانستان أثناء ولاية كلينتون الأولى، باستثناء إقرار غير واضح بالجهود المتقطعة والوهمية التي تبذلها الأمم المتحدة للمفاوضات حول السلام. وقد ترك هذا الأمر السياسة الأميركية في يد وزارة الخارجية الأميركية وحدها: الوكالة التي مثلت الولايات المتحدة في جميع دول العالم حتى عند غياب أيّ سياسة تستدعي التمثيل. فلم يكن لوارن كريستوفر أو أي من ممثليه، مصلحة في أفغانستان. فقد قال كريستوفر إنه ينوي الوقوف خلف «المكتب الأميركي»، ما يعني أنّه سيدير السياسة الخارجية أثناء ولاية كلينتون بطريقة تدعم السياسات المحلية. وعيّن كلينتون سيدة من أحد معارفه من جامعة أكسفورد، مساعدة لوزير الخارجية، معنية بشؤون جنوب آسيا، وأولاها المهام الدبلوماسية في الهند وباكستان وأفغانستان. كانت روبين رافل موظفة في قسم الشؤون الخارجية، وتمت ترقيتها لتصل إلى رتبة مستشارة سياسية في سفارة الولايات المتحدة في نيودلهي، إلا أنها كانت صغيرة في السن نسبياً لتسلّم هذه الوظيفة. كانت امرأة ذكية وأنيقة، ذات عينين زرقاوين، وشعر أشقر، وجسم رشيق، وثقة كبيرة بالنفس. وكانت فارسة محترفة. وبعيداً عن تاريخها الشخصي مع الرئيس، كان لديها بعض العلاقات في البيت الأبيض، أو مع الفريق الجديد الذي تسلم السلطة في وزارة الخارجية الأميركية(433).

سعت رافل إلى متابعة تقديم الدعم الإنساني إلى أفغانستان. لكن، بينما حاول كلينتون تحقيق التوازن في الميزانية الفدرالية بعد سنين من العجز، قامت إدارته بشكل قوي بتجميد تمويل وكالة التنمية الدولية، وهي المنظمة الحكومية الأساسية للدعم الخارجي. وحول كلينتون التمويلات المتوافرة بعيداً عن دول مثل أفغانستان، وفي اتجاه الحالات الأكثر حاجة في أفريقيا، التي اعتبرها لايك والمدير الجديد لوكالة التنمية الدولية، براين أتوود، قارة محتضرة، وشعرا بأنه تم تجاهلها مدة طويلة من قبل الإدارات الجمهورية. ويذكر أحد أعضاء فريق كلينتون في وكالة المساعدات، أنّه «لم يرغب أي أحد في العودة إلى النقاط التي أثارت جدلاً في أعوام ريغان وبوش» مثل أفغانستان. «لم يريدوا منها سوى الاختفاء». وكانت جنوب آسيا «مجرد هوّة سوداء أخرى». وقد واجه أتوود عدائية الجمهوريين في الكونغرس، الذين حاولوا إقناعه بأن المساعدات الأميركية كانت تذهب سدى في الدول الفقيرة التي تعمها الفوضى. وبعد مناقشات محتدمة داخل وكالة التنمية الدولية، وعلى الرغم من مقاومة رافل، أنهت الولايات المتحدة مساعدات التنمية الثنائية الأطراف كلها إلى أفغانستان، بعد أقل من سنتين على تسلم كلينتون منصبه(434).

في هذه الأثناء، اعتبر مدير وكالة الاستخبارات المركزية جايمس ولسي، أفغانستان في هذه الأشهر مجرد «مكان تكثر فيه سيادة الحرب». لم تبد له الحرب الأهلية هناك، أو معسكرات تدريب الجهاديين، عاملاً أساسياً في نشوء السياسة الإسلامية في شمال أفريقيا. وفي تحليله هذا، كان متأثراً بفرانك أندرسون، قائد عمليات الشرق الأدنى. أعجب ولسي بأندرسون، واعتمد عليه بشدة في تحليلات شؤون أفغانستان والعالم العربي(435).

كانت وكالة الاستخبارات المركزية ناشطة في آسيا الوسطى، وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي، انتقلت مديرية العمليات التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية إلى الجمهوريات السوفياتية السابقة، التي أصبحت مستقلة حديثاً. سعت «السي.آي.إيه.»، من بين أهداف أخرى، إلى إحباط الطموحات الإيرانية في آسيا الوسطى. وتعقّب ضباط الاستخبارات الإيرانيين، وحماية القنابل والمواد النووية المنتشرة في المنطقة. وفتحت الجمهوريات الغنية بالنفط، على طول بحر قزوين، أبواب احتياطي الطاقة الكبير لديها أمام الشركات الأجنبية. وسعت الشركات الأميركية إلى الحصول على حصة كبرى. ويذكر توماس تويتن، الذي كان في ذلك الوقت رئيس مديرية العمليات والمشرف على فرانك أندرسون، أن هذه الأسباب كلها دفعت ضباط «السي.آي.إيه.» «إلى الانتشار في أوكرانيا وآسيا الوسطى والدخول في أسرع ما يمكن، محاولين إيجاد فرص جديدة»(436).

إلا أن وكالة الاستخبارات المركزية تجاهلت أفغانستان وحربها الأهلية. وشعر تويتن بأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تقوم بشيء للتوسط في النزاع الأفغاني، أو لإعادة شمل الدولة. فقد كثرت التحديات في عالم تغير فجأة، وبشكل كبير، مع سقوط الشيوعية. وقد هددت الحرب الأفغانية بزعزعة استقرار دول آسيا الوسطى الجديدة، إلا أن ذلك الخطر بدا بعيداً جداً. أصبحت أفغانستان «فعليّاً في خلفية» شؤون مديرية العمليات بعد سنتين على احتلالها، ومركز اهتمام أحد برامج «السي.آي.إيه.» السرية الأكثر أهمية وتمويلاً(437).

تحدّث تشارلز كوغان، رئيس قسم الشرق الأدنى السابق الذي ساعد على إنشاء الفصائل الجهادية المحاربة للسوفيات، بحضور عدد كبير من أفراد الوكالة خلال هذه الفترة، حين وصف «السي.آي.إيه.» والثوار الإسلاميين الذين شكلتهم الاستخبارات الباكستانية بـ «شركاء موقتين»، فلم يكن لديهم أي مصالح ثابتة مشتركة. فالولايات المتحدة «لم تكن قادرة على تشكيل حكومة في المدينة المهجورة التي تحولت إليها كابول، ولا في دوشنبي أو في مقاديشو. وعليها ألا تحاول». فتدخّل الولايات المتحدة في الحروب الأهلية التي نشبت في الدول السابقة في الحرب الباردة، «سيؤدي إلى توسع مفرط وخطير للموارد والقوى الأميركية، [كما] ستفرض علينا كرهاً وغيرة أكثر. وستقدم إلينا، في معظم الحالات، نصائح جيدة تحثّنا على المحافظة على مسافة حذرة، بحسب ما قاله دوغلاس ماك آرثر في «مشاكل التنقية الداخلية» التي يواجهها الآخرون»(438).

في الواقع، كانت أفغانستان على وشك تنقية نفسها والتخلي عن ميليشيا إسلامية راديكالية نقية وغير ملزمة في نظام معتقداتها، كأي ميليشيا أخرى في العالم الإسلامي، منذ أن اكتسح الإخوان التابعون للملك سعود، شبه الجزيرة العربية منذ سبعة عقود.

# 15
# جيل جديد

انتقل كوفر بلاك من لندن إلى الخرطوم، عاصمة السودان، بصفته رئيساً لمركز «السي.آي.إيه.» في خلال العام 1993. استنتجت الولايات المتحدة أن حكومة السودان تدعم المنظمات المتهمة من واشنطن بالإرهاب. لم يكن السودان أحد البلدان التي يستطيع فيها رئيس مركز «السي.آي.إيه.» الوثوق بالحكومة المضيفة كفاية، ليقدم إشعاراً رسمياً بوجوده، فعمل كوفر وضباط الاستخبارات بصفتهم دبلوماسيين في السفارة. كانت العاصمة الخرطوم مركزاً صعباً، لكنها كانت أيضاً أحد تلك الأماكن التي يحب أن يعمل فيها ضباط «السي.آي.إيه.» الناشطون. عجّت طرقات المدينة بالحياة والعنف والفرص المهنية، ولم يكن للمركز سوى موضوع واحد ضمن توجيهاته العملية: الإرهاب. ففي أوروبا، قضى ضباط الاستخبارات معظم أوقاتهم في الملاهي أو المقاهي مع بيروقراطيين، محاولين إيجاد مخبر ما يعمل لمصالحهم أما في الخرطوم فقد عملوا في الطرقات، ممارسين ما تعلموه من مهارات، منها المراقبة والمراقبة المعاكسة والالكترونيات والأسلحة.

وجدوا في كوفر بلاك قائداً طموحاً. كان رجلاً أصلع، طويل القامة، وممتلئ الكتفين، وقوي البنية، يضع النظّارة ويتعمد التكلف بأسلوبه وكلامه، وقد خلفت خبرته الطويلة لكونه جاسوساً في المستعمرات البريطانية السابقة في أفريقيا، بعض التغييرات في صوته. عاش حياة ترف في كونكتيكت، وتلقى دروسه في مدرسة تحضيرية للصّبْية اسمها كانترباري. كان والده طياراً عالمياً يقود «بوينغ 747» لحساب شركة بان أميركان. وحين كان فتى، أخذه والده معه في رحلاته أثناء العطل المدرسية. كانا يسافران إلى أكرا أو غانا أو لاغوس أو نيجيريا، وكان كوفر يقضي أسبوعاً أو اثنين مع أصدقاء للعائلة، مستكشفاً الريف الأفريقي، بينما كان والده يطير من بلد إلى آخر عبر الخطوط الجوية. التحق كوفر في ما بعد بجامعة جنوب كاليفورنيا، حيث درس العلاقات الدولية. وكان قد حصل على شهادة الماجستير، وبدأ العمل على إعداد رسالة الدكتوراه حين انضم إلى وكالة الاستخبارات المركزية في العام 1974. وبعدما تدرب على العمليات السرية، تطوع للخدمة في أفريقيا، فأُرسل إلى لوساكا في زامبيا بصفته ضابط استخبارات، بينما كانت حرب روديسيا على الأبواب. ثم تم نقله إلى الصومال مدة سنتين خلال نزاع على خلفية الحرب الباردة، دار بين الإثيوبيين والصوماليين، في صراع على رمال صحراء أوغادن. عمل في جنوب أفريقيا أثناء نشوب الحرب القذرة التي شنها نظام التمييز العرقي ضد حركات التحرر التي تمثل الأكثرية السوداء. وحين تم تعيينه في كينشاسا في زائير، تورط بلاك في برنامج لإدارة ريغان السري، الذي كان يقضي بتسليح الميليشيات المعادية للشيوعية في أنغولا المجاورة. وإلى حين وصوله إلى الخرطوم، كان قد فهم بسرعة تعقيدات أفريقيا(439).

تحولت الخرطوم في خلال السنين الثلاث السابقة، إلى ملاذ للأصوليين والمناوئين لأميركا، وكانت هذه المدينة في حالة يائسة. تقع الخرطوم في سهل غباريّ عند ملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق، وقد كانت في ما مضى محمية بريطانية، حيث رُتبت شوارعها بطريقة شبيهة بالعلم البريطاني.
وفي بداية التسعينيات، كان تصميم المدينة قد تراجع نتيجة الحفر التي لا يمكن تجاوزها، والأسلاك الكهربائية المقطوعة، والعواصف الرملية الكثيفة، والأحياء الفقيرة المنتشرة. كما خلّفت عقود من الحرب الأهلية والتضخم المالي السريع والانقلابات العنيفة، شعب الخرطوم منهكاً. وكان قد تسلم السلطة أخيراً حزب سياسي متأثر بجماعة الإخوان المسلمين، يطلق عليه اسم الجبهة الإسلامية الوطنية، بقيادة رجل الدين المتخرج في جامعة السوربون، حسن الترابي. أعلن الترابي تضامنه مع الإسلام والمضطهدين في العالم، وأقرّ أن دولته قاعدة آمنة لحماس وحزب الله وجماعة الإخوان المسلمين في مصر وجبهة الخلاص الإسلامية الجزائرية. كما وهبت السودان حقّ اللجوء لبعض القيادات الشيوعية العالمية، مثال كارلوس الملقب بابن آوى. كما رحبت حكومة الترابي بأسامة بن لادن بعد ترحيله من المملكة العربية السعودية في العام 1991.

عمل مركز كوفر بلاك ضد هذه الأهداف كلها، إلا أنّ التوجيهات العملية في قضية بن لادن قد تم حصرها في جمع الاستخبارات. ولم يمنحه البيت الأبيض أي تفويض خاص بالعمليات السرية يسمح له بالهجوم على تنظيم القاعدة، أو تعطيله، كما لم تطور وكالة الاستخبارات المركزية أي خطة مماثلة(440).

وفر تفجير مركز التجارة العالمي والعنف الإسلامي المستمر في مصر والجزائر، خلفية فورية وحيوية لعمل العناصر الذين جندهم بلاك، فراقبوا الملاجئ في الخرطوم ومباني المكاتب، ووضعوا خريطة لعادات قادة المجموعات وعناصرها وتحركاتهم، ولاحقوهم بالسر حين حضروا الاجتماعات، وقاموا بتسجيل أرقام لوحات سياراتهم. كما اخترق المركز المصارف المحلية للحصول على أرقام الحسابات، وتفاصيل حول التحويلات المالية، بما في
ذلك حسابات أسامة بن لادن. وقام عناصره الاستخباريون بزرع وسائل التنصت، وترجمة الأحاديث الهاتفية ونوعية العلاقات القائمة في ما بين هذه القيادات، وماهيتها: من يعمل مع من؟ من الذي يرتشي داخل الحكومة السودانية (استنتج مركز الخرطوم أنّ كل من يعمل في الحكومة السودانية قد ارتشى)؟ من لعب دور عملاء الحكومة الإيرانية في هذه الصلة؟ ما كان دور العملاء العراقيين الذين حضروا إلى الخرطوم في مناسبات كثيرة خلال هذه الفترة؟ وأرسل بلاك وزملاؤه برقيات إلى القاهرة والقدس وتونس والجزائر والرياض، في محاولة لمطابقة الأسماء والدلائل(441).

كان بن لادن هدفاً هاماً، إلا أنه كان واحداً من بين ستة آخرين. وقد جذبت أمواله حشداً متعدداً إلى مجمّعه في الخرطوم. أعلنت باكستان إحدى حملاتها الصارمة والدورية لفرض النظام على الأصوليين العرب في ربيع العام 1993، وأرسل بن لادن المال ليسافر 480 من هؤلاء الجهاديين إلى الخرطوم، وقد أصبحوا لاحقاً جزءاً من الحرس الخاص له. وفي شهر أيار/مايو من ذلك العام، تلقت «السي.آي.إيه.» تقريراً استخبارياً من مصر والمملكة العربية السعودية، يفيد أن

أعمال بن لادن قد بدأت بشحن الأموال إلى الإسلاميين المصريين لاستعمالها في طبع المنشورات والتسلّح(442).

استطاع بلاك وضباط استخباراته من خلال هذا الدليل، وصف بن لادن بأنه قائد ناشئ، فبالنسبة إليهم، أراد أن يصبح لاعباً أساسياً في الحركة الإسلامية. كان ممولاً، لكنه لم يصبح عميلاً بعد. كان بن لادن مستعداً لأن يمول شريحة واسعة من الجماعات الإسلامية وأخرى إرهابية، ولأن يشجعها، إلا أن مركز الخرطوم ووكالة الاستخبارات المركزية لم يكن لديهما الدليل القاطع على اشتراكه المباشر في الهجمات الإرهابية(443).

كان بن لادن رقيقاً ومثقفاً وثرياً كبيراً، ومحاضراً أكثر من كونه خبير تكتيكات إرهابياً عديم الرحمة. فهو لم يكن يتصرف كقائد إرهابي سري نموذجي. كان الاتصال به وزيارته في الخرطوم في خلال تلك الأعوام، أمرين ممكنين، فهو لم يحاول الاختباء على الإطلاق. قضى بن لادن وقتاً طويلاً منكباً على أعماله، واشترى مزرعة في شمال الخرطوم مقابل 250 ألف دولار، ومزرعة أملاح قرب مرفأ السودان مقابل 180 ألف دولار. عمل بادئ الأمر من مقر إمبراطوريته الرئيسي في شارع ماك نمر، مركّزاً على شركة بناء باسم شركة الهجرة للبناء والتنمية. وضم جناح مكتبه ثماني أو تسع غرف مع كتيبة من السكرتاريين وموظفي الاستقبال. واشترى في ما بعد، مبنى في حي مترف يطلق عليه اسم مدينة الرياض. وراوحت رواتب مساعديه بين 300 دولار في الشهر للسودانيين، حتى 1500 دولار في الشهر لبعض المصريين والعراقيين المفضلين لديه. وقد عقد صفقات استيراد وتصدير من خلال شركات أخرى، بالشراكة مع القادة والمسؤولين الحكوميين السودانيين، الذين كان يرشوهم بسخاء. وأمن احتكاراً فعلياً للتصديرات السودانية للذرة ودوار الشمس والصمغ ومنتجات أخرى من المزارع. كما اشترت شركاته الزراعية الثانوية، مئات الأراضي قرب الخرطوم وفي شرق السودان. وامتطى الأحصنة مع ابن الشيخ الترابي. وزار مشاريع الطرقات والمشاريع التجارية التي طورها بالشراكة مع أعضاء في الحكومة السودانية. واستثمر مع بعض من هؤلاء الشركاء، ما يقارب الخمسين مليون دولار في مصرف سوداني(444).

تأكّد مركز الخرطوم أن بن لادن يمول عمليات العنف الإسلامي، وتنظيماته، في أفريقيا الشمالية، من خلال بعض أعماله، إلا أن الحصول على التفاصيل والأدلة كان صعباً جداً. وقد قام بن لادن، في مرحلة ما، بتحويل 210 آلاف دولار، إلى أحد معارفه في تكساس لشراء طائرة خاصة لنقل البضائع، بما فيها الأسلحة، بين باكستان والسودان. كما اشترى الجِمال لتهريب الأسلحة عبر الصحراء المصرية(445).

راقبوه بينما كان يتنقل في الخرطوم كأنه شيخ وقور زاهد مع حراس مساعدين مسلحين. كان يصلي ويحاضر في المساجد المحلية. عاش في مجمع من ثلاثة طوابق محاطاً بالجدران وبالجنود العرب الأفغان. ويذكر أحد مساعديه في تلك الفترة، أن بن لادن أحب الجلوس في الفناء الأمامي

«والتحدّث عن الجهاد والإسلام و «القاعدة» بشكل عام». كان يُلقي محاضرات حول السياسة والجهاد كل نهار خميس بعد صلاة المغرب، وكان حذراً جداً تجاه القادمين الجدد إلى دائرته الداخلية، حيث طلب من مساعديه مراقبة العملاء من خدمات الاستخبارات الشرق أوسطية الذين يدعون أنهم متطوعون(446).

كان بن لادن يملك أسباباً عديدة تستدعي القلق. فقد حاول أربعة متطوعين عرب في الحرب الأفغانية قتله في العام 1994. ومن الواضح أنهم اعتقدوا أن تفسيره للإسلام لم يكن نقياً أو أصولياً كفاية. وقد أطلق المغتالون النار داخل مسجد في الخرطوم، حيث كان بن لادن يلقي محاضرة. وقد تسببوا في مقتل عدد من المصلين، قبل أن يلاحظوا أن بن لادن لم يكن موجوداً هناك. فأسرعوا إلى سيارتهم وانطلقوا إلى مدينة الرياض حيث
تواجهوا مع حراسه الأمنيين في تبادل للنار. وقد قُتل عدد من المهاجمين، واعتُقل عدد آخر، وأُعدموا(447).

أكّدت محاولة الاغتيال الفاشلة تقدّم مكانة بن لادن يوماً بعد يوم في بيشاور، في العام 1980، تحول الاهتمام إلى عبد الله عزام. ففي المملكة العربية السعودية، لم يكن بن لادن سوى شيخ شاب غني بين مئات آخرين، أما في الخرطوم، فقد جعلته ثروته شخصية نادرة وقيادية. كان قوياً كفاية ليأمر بالإعدام، إلا أنه أعطى لنفسه صورة رجل الأعمال المحاضر، وعالم الدين الناشط على صورة عزام. لم يكن بن لادن قاسياً على وجه التحديد، فالكثير من القادة الراديكاليين المتشددين كانوا يفرضون سلطتهم على مجموعاتهم عن طريق إعدام المنافسين والمخالفين بشكل روتيني. وحين ضبط بن لادن أحد مساعديه الأمناء يختلس عشرات الآلاف من الدولارات، لم يطالبه سوى بإعادة المال على دفعات، وتكلم مع ذلك الرجل مطولاً حول تحسين تفانيه للجهاد(448).

بدأ بن لادن في ذلك الوقت، بالبروز كسياسي، وكقوة تكبر، ويتمدد نفوذها، في صفوف المعارضة السعودية السرية والمنفية. واستمر رد الفعل الإسلامي المناوئ للعائلة المالكة السعودية بعدما ظهر علناً بعد حرب الخليج في تجميع الزخم في العام 1994. تحالف بن لادن في مطلع ذلك العام مع مجموعة سعودية معارضة متمركزة في لندن، كانت تستعمل ماكينات الفاكس والكمبيوتر لتنتقد «الرغبات الجسدية النهمة» للعائلة الملكية. أسس بن لادن مجموعته الخاصة، وهي اللجنة الاستشارية والإصلاحية، التي وزعت بدورها عشرات المناشير المناوئة للسعودية، وقد ملأتها صور بن لادن. اقترحت مناشيره الحرب ضد الدولة السعودية. رأى بن لادن أن الحدود السعودية قد حدّدت حكم عائلة واحدة كان يعتبرها غير شرعية، وهي عائلة آل سعود، فاقترح إنشاء دولتين جديدتين، هما اليمن العظمى والحجاز الأعظم، على أن تتقاسما شبه الجزيرة العربية بينهما(449).

كانت الحكومتان البريطانية والأميركية مترددتين في مسألة تضييق الخناق على المراكز المنفية لسياسات المعارضة السعودية، وقد تبنت بعض هذه المراكز لغة الديموقراطية. وآمنت واشنطن

ولندن في بداية التسعينيات، بأن القليل من الضغط الخارجي، حتى لو كان من الإسلاميين، قد يساعد على انفتاح المملكة السعودية على أصوات جديدة، ما سيولد سياسات أكثر صحة واستقراراً على المدى الطويل(450).

حاولت العائلة المالكة السعودية ضمَّ المعارضة إلى جانبها. كانت قد نفت بن لادن، إلا أنها كانت مترددة في قطع علاقتها به كلياً. أرسل الأمير تركي مجموعة من المندوبين إلى الخرطوم لمحاولة إقناع بن لادن بالعودة إلى الوطن، وإرساء السلام، واسترجاع حصته الكاملة من ثروة العائلة. وأفاد المحققون الأميركيون في ما بعد، أن بن لادن قد تلقى، منذ العام 1970 وحتى العام 1994، مصروفاً سنوياً بقيمة مليون دولار من عائلته، إلا أن العائلة قد قطعت هذا المصروف عنه. وقد ذهبت والدة بن لادن وعمه الذي يبلغ الثمانين من عمره، وبعض أشقائه، لزيارته. ويذكر بن لادن في ما بعد، أنه تلقى «تسع زيارات تقريباً في الخرطوم» في خلال هذه الفترة، وكان كل واحد من أقاربه «يطلب منه التوقف والعودة إلى المملكة، وطلب السماح من الملك فهد»(451).

اغتاظ الأمراء السعوديون من الشكاوى التي تصلهم حول بن لادن، وكانوا ينزعجون من حملاته المعادية للمملكة. إلا أنه لم يكن من السهل على الأمير تركي وبعض كبار الأمراء السعوديين، تصديق أن بن لادن قد يشكل تهديداً لأحد. اعتبروه شاباً غنياً ضالاً، وابناً فاسداً لعائلة ثرية، ورجلاً متكبراً وغير ناضج، قد يقتنع مع تقدمه في السنّ، بأن عليه التصالح مع بلده الأم. إلا أن بن لادن كان عنيداً، وقد صد أقرباءه مراراً وتكراراً في العام 1993 والعام 1994. فقامت الحكومة السعودية أخيراً بإلغاء حقوقه كمواطن. وضمن حملة لعزل بن لادن، عبّر شقيقه بكر، الذي يدير الآن إمبراطورية أعمال العائلة، علناً عن «ندمه وشجبه وإدانته» سياسة أسامة المعادية للمملكة(452).

بدأت تحاليل وكالة الاستخبارات المركزية في أواخر العام 1994 بالتحرك في اتجاه معاكس. فالرؤية التي تمكن بلاك وزملاؤه من الحصول عليها من دائرة بن لادن الداخلية، كانت محدودة جداً، إلا أنهم علموا بأن بن لادن كان يتعامل عن كثب مع الاستخبارات السودانية. كما علموا بأن الاستخبارات السودانية، بدورها، كانت تدير عمليات شبه عسكرية في مصر، وفي مناطق أخرى. واستطاع بن لادن الوصول إلى الإذاعات السودانية العسكرية والأسلحة وما يقارب مئتي جواز سفر سوداني. وأضيفت جوازات السفر هذه إلى الوثائق المزوّرة التي وفرها بن لادن لمساعديه من أوراق سفر العرب المتطوعين الذين قُتلوا في الجهاد الأفغاني. وبالعمل مع الاستخبارات في شمال أفريقيا، استطاع بلاك وزملاؤه في الخرطوم أن يتعقبوا بن لادن إلى ثلاثة معسكرات تدريب في شمال السودان. وعلموا بأن بن لادن يمول هذه المعسكرات ويستخدمها لإيواء الجهاديين المصريين والجزائريين
والتونسيين والفلسطينيين. فأرسل مركز الخرطوم إلى لانغلي برقيات تضمّ أدلة تفيد أن بن لادن قد طور جيشاً خاصاً متعدد الجنسيات. بات بن لادن يشكل تهديداً.

ارتكز هذا التقييم بالنسبة إلى كوفر بلاك، على خبرته الشخصية. وفي الفترة الأخيرة من دورته في الخرطوم، حاول رجال بن لادن اغتياله. فقد اكتشفوا أنّ وكالة الاستخبارات المركزية تراقبهم فتتبعوا أثر المراقبين وصولاً إلى بلاك. علموا عن طريق معارفهم في الاستخبارات السودانية، بأن بلاك لعب دوراً أساسياً في اعتقال كارلوس الملقب بابن آوى وترحيله إلى فرنسا. على أي حال، أخذوا يسلكون طريقه إلى السفارة. فاكتشف بلاك وزملاؤه هذه الرقابة وبدأوا بمراقبتهم بدورهم.

تنبه ضباط «السي.آي.إيه.» إلى أن رجال بن لادن قد باشروا إعداد «حزام ناسف، قاتل» بالقرب من السفارة الأميركية، ولم يتمكنوا من معرفة ما إذا كان الهجوم سيتمّ على شكل اختطاف أو تفجير سيارة، أو كمين مع هجوم بالبنادق، إلا أنهم تمكنوا من رؤية جماعة بن لادن تتدرب على العملية في شارع في الخرطوم. وبمرور الأسابيع، أصبحت المراقبة والمراقبة العكسية أكثر فأكثر حدة. ففي إحدى المرات، وجدوا أنفسهم عرضة لملاحقة متواصلة ولصيقة، وفي أخرى رفع ضباط وكالة الاستخبارات المركزية السلاح في وجه العرب الذين كانوا يلاحقونهم. وفي النهاية، أرسل بلاك السفير الأميركي، ليشتكي أمام الحكومة السودانية، وحين وجد المخططون أنه تم اكتشاف أمرهم، تراجعوا(453).

أثناء اجتماع في البيت الأبيض في أوائل العام 1995، شبّه محللو «السي.آي.إيه.» مقرّ بن لادن الرئيسي في الخرطوم بمؤسسة فورد للأصولية السنية الإسلامية، ومصدر هبات مالية للعمليات العنيفة. كان الأصوليون المصريون والجزائريون والتونسيون والإسلاميون الآخرون، يقدمون اقتراحات إلى بن لادن بشأن العمليات. وفي حال وافق بن لادن، كان يسلمهم أموال التمويل(454). وبحلول العام 1995، لم يعد لدى مركز الوكالة في الخرطوم أي شك في أن مساعدي بن لادن لديه، يضمون قتلة ملتزمين ومدربين. وتساءل بلاك وزملاؤه متى ستواجه الولايات المتحدة بن لادن بشكل مباشر، ومتى قد يتم ذلك.

وقف براين بار في الظلمة إلى جانب طائرة شحن عسكرية أميركية على مدرج مطار إسلام آباد المدني والعسكري. كان بار عسكرياً، يعمل في الخدمات السرية منذ ست سنين وتم تعيينه في قوات مكافحة الإرهاب المشتركة التابعة لـ «الأف.بي.آي.» في نيويورك. كان خبيراً في نقل السجناء الخطرين. وقد تمّ استدعاؤه قبل أربع وعشرين ساعة إلى واشنطن، حيث طُلب منه السفر بسرعة إلى باكستان. اقتربت «جائزته» في عربة يقودها ضباط الجيش والاستخبارات الباكستانية. جرى ذلك مساء 8 شباط/فبراير العام 1995. نزل رمزي يوسف من مؤخرة العربة مرتدياً بذلة مظلي عسكرية خردلية اللون، بينما عُصبت عيناه وكُبّلت يداه ورجلاه بسلسلة التفّت حول خصره(455).

قام بار وعميلا «الأف.بي.آي.» برادلي غاريت وتشارلز ستورن، بمرافقة يوسف إلى الطائرة الأميركية. في اليوم السابق، اقتحم ضباط الاستخبارات الباكستانية والمارينز الغرفة 16 في منزل سوكاسا داخل إسلام أباد، واعتقلوا يوسف بينما كان يهم بمغادرة العاصمة. وافقت حكومة باكستان

مباشرة على تسليم يوسف إلى الولايات المتحدة ليواجه اتهامات بتفجير مركز التجارة العالمي. امتنع الباكستانيون عن تنفيذ الإجراءات الرسمية لتسليم المتهم، فتقنية «التسليم» هذه، التي يتم من خلالها نقل إرهابي محتجز من دولة إلى أخرى من دون الظهور في المحكمة، أصبحت أخيراً الطريقة التي تفضّلها «السي.آي.إيه.». فقد سمحت للوكالة بنقل المشتبه فيهم إلى دول حليفة من أجل استجوابهم، أو إعادتهم إلى الولايات المتحدة لمحاكمتهم، وذلك وفق هواها. واستقطبت هذه الممارسة، التي تُعتبر غير قانونية في الولايات المتحدة، والتي تسمح بها الدول، سياسة الأمن القومي التي تعود إلى عهد إدارة ريغان، والتي أعاد الرئيس كلينتون الالتزام بها. وإحياءها من جديد(456).

حين أصبحوا على متن الطائرة، قام فريق «الأف.بي.آي.» بتعرية يوسف من ملابسه، ثم تفتيشه وتصويره. كشف طبيب عليه، وأعلن أنه بصحة جيّدة. عاد العملاء وقاموا بإلباسه زيه من جديد، ثمّ قيدوه وأخذوه إلى حجرة في آخر الطائرة. تمّ تجهيز غرفة استجواب موقتة حيث غطوا الجدران والأرضية ببطانيات وجهزوها ببعض المقاعد.

كان يوسف قد بدأ بالتحدث إلى عدد من عملاء مكتب «الأف.بي.آي.». كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة، وبدا عليه الارتياح. أراد الاطلاع على الإجراءات الأميركية القانونية، وكان متحمساً لأن يعتبروه إرهابياً مبدعاً. وحين سأله غاريت إن نفّذ عملية تفجير مركز التجارة العالمي، أجاب يوسف: «لقد كنت العقل المدبر وراء الانفجار»(457).

تحدّثوا ستّ ساعات أثناء الرحلة التي استمرت أربعاً وعشرين ساعة. استجوب غاريت وبار يوسف حول دوافعه. فقد تناقشت «الأف.بي.آي.» و «السي.آي.إيه.» حول الموضوع. تكهنتا مدة سنتين بشأن الدور الذي لعبه يوسف في عملية تفجير مركز التجارة العالمي: هل
كان عميلاً حكومياً؟ أم جزءاً من شبكة من الإسلاميين الأصوليين؟ أم ماكراً منعزلاً؟ أم مزيجاً من جميع هذه الصفات؟ وأخيراً، تمكنوا من سماع الإجابة من يوسف وحده.

فسّر السجين أن بعض القادة المسلمين يؤمن بفلسفات شبيهة بفلسفته، إلا أنه اعتبر نفسه عاملاً مستقلاً. لقد استوحى من القادة المسلمين، إلا أن أحداً لم يسيطر على عمله. سأله غاريت عن القادة الذين يتحدّث عنهم، لكنّ يوسف رفض الإجابة(458).

قال يوسف إنه لم يفرح بقتل المواطنين الأميركيين، وشعر بالذنب تجاه الضحايا المدنيين. إلا أنّ ضميره كان مثقلاً برغبته القويّة في وضع حدّ للجنود الإسرائيليين الذين يقتلون العرب. وقال: «الأمر ليس شخصياً»، لكن تفجير الأهداف الأميركية كان «الطريقة الوحيدة لإحداث التغيير». فقد استنتج أن التصرفات المتطرفة هي وحدها القادرة على تغيير عقول الأشخاص وسياسات الشعوب. وذكر، كمثال، التفجير الانتحاري في ثكنة البحرية الأميركية في لبنان في العام 1984، الذي أدى في نهاية المطاف إلى انسحاب الجنود الأميركيين من ذلك البلد. وكمثال ثانٍ، ذكر

التفجير الأميركي النووي في هيروشيما وناغازاكي، الذي كان بمنزلة تكتيك مفاجئ أجبر اليابان على الاستسلام المباشر. وقال يوسف إنه «يود لو كان الأمر مختلفاً»، لكن العنف الرهيب وحده قادر على فرض هذا النوع من التغيير السياسي المفاجئ. قال إنه يؤمن فعلاً بأن تصرفاته كانت منطقية وواقعية، وهدفت إلى تغيير سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل(459). ولم يأتِ على ذكر أي دوافع أخرى خلال تلك الرحلة، ولم يتحدّث عن أي مسألة أخرى قد تهمه في السياسة الأميركية الخارجية.

أطلعهم على رغبته في تدمير أحد برجي مركز التجارة العالمي فوق الآخر، واعتبره عملاً بطولياً قد يحصد 250 ألف ضحية. لكن، لم تتوافر لديه الأموال والمواد المناسبة لصنع متفجرة قوية تكفي لتدمير البرج الأول، كما اشتكى من نوعية حلفائه. سأله عملاء «الأف.بي.آي.» لمَ أعاد أحد شركائه سيارة مستأجرة وتسلم الوديعة بعد التفجير، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله. فأجاب يوسف مع ابتسامة ساخرة، «لأنه غبي»(460).

اعترف بأنه حين هرب من باكستان، اشترى تذكرة في الدرجة الأولى، لأنه اكتشف أن ركاب الدرجة الأولى يخضعون لتدقيق أقل من ركاب الدرجة الثانية.

كان حذراً حين تحدّث عن الأشخاص الذين ساعدوه. لكن في شقة في مانيلا، حيث اختبأ يوسف كلاجئ، وجد المحققون بطاقة عمل تعود إلى محمد خليفة، وهو قريب أسامة بن لادن. وقال يوسف إن أحد زملائه قد أعطاه البطاقة في حال احتاج إلى أي مساعدة.

سأل العملاء يوسف عما إذا كان سمع باسم أسامة بن لادن، فقال إن بن لادن أحد أقرباء خليفة. ورفض أن يقول أكثر من ذلك(461).

في النهاية، علم المحققون الباكستانيون بأن يوسف عاش في فندق باكستاني صغير ممول من قبل بن لادن مدة أشهر بعد تفجير مركز التجارة العالمي. ونقلوا هذه المعلومة إلى «الأف.بي.آي.» و «السي.آي.إيه.»(462).

سأل يوسف في تلك الليلة غير مرة، عما إذا كان سيواجه حكم الإعدام في الولايات المتحدة. قال إنّه يتوقع إعدامه. أما همه الوحيد فكان الحصول على وقت كاف لتأليف كتاب حول أعماله «البطولية»(463).

كانت الخطة من البداية تقضي بمحاكمة يوسف علناً. قدّمت ماري جووايت، محامية الادعاء الأميركي المشرفة على الدعاوى القضائية الإرهابية في مانهاتن، دليلاً ضد يوسف إلى هيئة محلفين فدرالية كبرى. ومع كشف هذه التحقيقات وغيرها، جمعت «السي.آي.إيه.» و

«الأف.بي.آي.» وقائع أخرى حول شبكة دعم يوسف المتعددة الجنسيات. اكتشفتا بين أمور أخرى، أن يوسف وشركاءه في المؤامرة قد صبوا تركيزهم على الطائرات والمطارات مدة سنتين بعد الاعتداء على مركز التجارة العالمي.

ظهر الدليل على هذه الاعتداءات الجوية بادئ الأمر في الفيليبين. فقد عملت الشرطة على إخماد نيران شبّت في فندق تيفاني في مانيلا في 7 كانون الثاني/يناير 1995. كانت الشقة ملك خالد شيخ محمد، الإسلامي من بلوشستان وعمّ يوسف(464). وجدت الشرطة داخل الشقة أحد أفراد جماعة يوسف، واسمه عبد الحكيم مراد. كما وجدت بقايا مواد كيميائية استُخدمت لصنع المتفجرات، وحواسيب محمولة في داخلها ملفات مشفرة. اعترف مراد بأنه كان يعمل مع يوسف على عدد من الاعتداءات الإرهابية التي تقضي بتفجير حوالى عشر طائرات تجارية أميركية فوق المحيط الهادئ، واغتيال الرئيس كلينتون أثناء زيارة الفيليبين، واغتيال البابا حين يزور مانيلا، والسطو على طائرة تجارية وتحطيمها في مقرّ «السي.آي.إيه.» الرئيسي.

أما تخطيط تفجير طائرات الركاب الأميركية فوق المحيط الهادئ، فقد كان في مراحله الأخيرة. اخترع يوسف جهاز توقيت مستخدماً ساعة يد وخليطاً من المتفجرات لا تستطيع شاشات أمن المطار اكتشافها. وقد خطط لتحميلها على متن عدد من الرحلات المدنية. أراد أن يضع المتفجرات في الطائرة، ويضبط الوقت، ثمّ يخرج قبل انفجار القنبلة أثناء توقف الرحلة في المطار. وقد تسبب في وقت سابق في مقتل رجل أعمال ياباني عندما انفجرت قنبلة صغيرة تجريبية كان قد وضعها تحت أحد مقاعد الطائرة، بينما خرج هو من الطائرة أثناء توقفها في المطار. ولو لم تتعطل خطته الكبرى، للقي آلاف الأميركيين حتفهم في الهجمات خلال الأشهر الأولى من العام 1995.

أما خطة تحطيم طائرة في مركز «السي.آي.إيه.» الرئيسي، فقد تمّ وصفها في تقرير كتبته شرطة مانيلا وأرسلته إلى المحققين الأميركيين. قال مراد إن الفكرة خطرت له أثناء محادثة أجراها مع يوسف. وكتبت الشرطة الفيليبينية ذلك الشتاء، أن مراد قد خطط «لركوب أي طائرة تجارية أميركية، مدعياً أنه راكب عادي، ومن ثم السطو على الطائرة والسيطرة على ركن الطيار، ثم توجيهها نحو مركز «السي.آي.إيه.» الرئيسي. لم يكن ينوي استخدام المتفجرات في تنفيذه عمليته هذه، فهي ليست سوى عملية انتحارية، وهو على أتم الاستعداد لتنفيذها»(465).

لم تكن هذه الأحداث التي جرت في أوائل العام 1995 وحدها الدليل على أنّ الولايات المتحدة بصدد مواجهة تهديد قوي جديد نابع من العالم الإسلامي السني. فقد انتشر في جميع أنحاء العالم عنف إسلامي مرتبط بالمقاتلين العرب الذين حاربوا أثناء مرحلة الجهاد الأفغاني.

اختلفت الاعتداءات، وبقي مرتكبوها غامضين في معظم الأحيان. كما أصبحت العمليات الانتحارية حافزاً أكثر شيوعاً. شنّت الاعتداءات بطريقة متزايدة من قبل مجموعات متمردة في شمال أفريقيا ومصر والسودان وباكستان. كما ظهرت أدلة تفيد بأن الراديكاليين الإسلاميين قد قاموا بتجارب على أسلحة الدمار الشامل. وبالإضافة إلى ذلك، لاح أسامة بن لادن في خلفية الاعتداءات بصفته مصدر إلهام أو داعماً مالياً أو الاثنين معاً.

في شهر آب/أغسطس من العام 1994، قام ثلاثة أشخاص متخفين من شمال أفريقيا بقتل سائحَين إسبانيين في فندق في مراكش. وقد تابع المعتدون ورعاتهم التدريبات في أفغانستان. وأظهرت التحقيقات في قضية تفجير مترو باريس، في وقت لاحق من ذلك العام، أنّ المفجرين هم من الجنسية الجزائرية، وقد تمّ تدريبهم في المعسكرات الأفغانية. وفي كانون الأول/ديسمبر 1994، قام أربعة جزائريين تابعين للجماعة الإسلامية المسلحة بخطف طائرة تابعة للطيران الفرنسي. كانت الخطة تقضي بالسفر إلى باريس، وصدم الطائرة ببرج إيفل، إلا أن السلطات الفرنسية تمكنت من خداع الخاطفين، فأقنعتهم بأنه لا يوجد في الطائرة وقود كاف ليصلوا إلى باريس. عند ذلك قاموا بتحويل اتجاههم إلى مرسيليا، حيث قُتلوا أربعتهم عندما أطلق الجنود الفرنسيون النار عليهم. وفي آذار/مارس 1995، أمسك محققون بلجيكيون بكتيب تدريب إرهابي حصلوا عليه من محاربين جزائريين، وضّح كيفية صنع متفجرة عن طريق استخدام ساعة يد كموقت، بينما كانت مقدمة الكتيب مهداة إلى بن لادن. وفي نيسان/أبريل، قام جنود فيليبينيون أولياء لقائد المجاهدين الأفغان، عبد الرب رسول سياف، بنهب مدينة إيبل في جزيرة ميندناو، فقتلوا ستة وثلاثين شخصاً، وسرقوا أربعة مصارف، وأخذوا ثلاثاً وخمسين رهينة، ليقتلوا في ما بعدما حوالى عشرة منهم. وفي 26 حزيران/يونيو 1995، قام مصريون تابعون للجماعة الإسلامية، ومزودون جوازات سفر سودانية، بمحاولة فاشلة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أثيوبيا. وبعد شهر تقريباً، قال أحد أعضاء الجماعة المصرية المتطرفة التي يُطلَق عليها اسم الجهاد، أثناء مقابلة منشورة، إن بن لادن اطلع في بعض الأحيان على عملياتهم الإرهابية المحددة ضد الأهداف المصرية. وفي 13 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1995، انفجرت سيارة محملة بحوالى 113 كيلوغراماً من المتفجرات قرب مبنى مؤلف من ثلاثة طوابق، وهو المقرّ الرئيسيّ لمكتب مدير البرامج التابع للحرس الوطني السعودي في الرياض. وأدى الانفجار إلى قتل خمسة أميركيين وجرح ثلاثة وأربعين. وبعد مضي بضعة أشهر، اعترف أحد مرتكبي الجريمة في بث عبر التلفزيون السعودي، بأنه تأثر ببن لادن والجماعات الإسلامية المصرية، وأنه عرف كيفية إعداد متفجرة السيارة بسبب «خبرة التفجير التي اكتسبتها أثناء مشاركتي في عمليات الجهاد الأفغاني». وبعد أسبوع على عملية التفجير في الرياض، قاد إسلاميون شاحنة متفجرات انتحارية إلى داخل السفارة المصرية في إسلام أياد، فتسببوا في قتل خمسة عشر شخصاً وجرح ثمانين(466).

كانت خطة المستقبل مطبوعة في هذه الأحداث. تعرّف مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» والوحدات التحليلية التابعة لـ «الأف.بي.آي.» إلى أجزاء رئيسية من النمط الجديد، إلا أنها لم تتمكن من التعرف إلى هذا النمط ككلّ.

لم يلق اعتراف مراد بمخطط خطف طائرة مدنية وتحطيمها بمبنى «السي.آي.إيه.» اهتماماً كبيراً في قبل «الأف.بي.آي.» التي لم تعتبر المخطط جزءاً من القضية الإثباتية التي كان المكتب يبنيها من أجل المحاكمة. وكانت «الأف.بي.آي.» متحيرة، فقد تفوق الإرهاب المحلي على الاعتداءات الإسلامية في خلال العام 1995. وفي نيسان/أبريل، فجّر تيموثي ماك فاي شاحنة مفخخة خارج المبنى الفدرالي في مدينة أوكلاهوما، مسبباً قتل مئة وستة وثمانين شخصاً، وجرح مئات آخرين. لقد صدم التفجير إدارة كلينتون وحثها على التركيز على الإرهاب، إلا أن التحقيق الطويل استنزف مصادر «الأف.بي.آي.»، ولم يُجر المكتب أيّ تحقيق مفصل حول خطة تفجير الطائرة الانتحارية(467).

استمرّت «السي.آي.إيه.» بالتركيز على التهديدات الإيرانية والمنظمات الشيعية. وفي وقت لاحق من العام 1994، كتب مركز الوكالة في الخرطوم، تقريراً حول قيام عملاء إيرانيين وحلفاء لهم شيعة سعوديين أصوليين بمراقبة أهداف أميركية داخل المملكة. سافر ولسي إلى المملكة في شهر كانون الأول/ديسمبر واجتمع مع الأمير تركي، فناقشا الخطط المشتركة لمراقبة التهديد الإيراني وتعطيله في الشهور المقبلة. وواصلت «السي.آي.إيه.» كتابة تقارير حول التهديدات الممولة من إيران داخل السعودية خلال العام 1995. وفي تشرين الأول/أكتوبر، تلقى البيت الأبيض معلومات تفيد أن منظمة حزب الله المدعومة من إيران والتي يسيطر عليها الشيعة اللبنانيون، قد أرسلت فرقة لاغتيال مستشار الأمن القومي طوني لايك الذي انتقل موقتاً من منزله إلى منازل آمنة في واشنطن. ويذكر الأمير تركي أن انفجار الرياض الذي نفّذه أفغان متأثرون بين لادن في تشرين الثاني/نوفمبر «قد أتى من حيث لا ندري»، لأن الاستخبارات السعودية قد صبت تركيزها على الشيعة. لقد استمرت إيران حتى بعد ذلك الاعتداء بتشكيل تهديد كبير، فحصدت الاهتمام ووجهت المصادر بعيداً عن بن لادن وأتباعه(468).

كان قسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات في «السي.آي.إيه.» والمسؤول عن متابعة قسم كبير من دول العالم الإسلامي السني، ورصد الحركات الإسلامية فيها، منهمكاً بالعراق. وكانت عملياته السرية الطموحة التي تقضي بطرد صدام حسين من شمال العراق، قد بدأت بالانهيار ذلك الربيع.

استمرّ هذا الاضطراب الكبير أسابيع وشهوراً عقب اعتقال يوسف، ما وفّر للمحققين مخزوناً غنياً من الأدلة. بقيت الأسئلة التحليلية الأساسية على حالها أعواماً طويلة. هل يجب اعتبار الإرهابيين أمثال رمزي يوسف منظمين منفردين، أم عملاء ضمن حركة كبرى؟ أين تكمن نقاط اللقاء الرئيسية بين القيادة ودعم المصادر؟ هل مبدأ «لغرض ما بالذات» الذي قدمه محلل «السي.آي.إيه.»، بول بيلار، ما زال ملائماً حتى الآن، أم أن الولايات المتحدة تواجه الآن دائرة أكثر تنظيماً وفعالية من الجهاديين المسلمين السنة المنكبين على الاعتداءات المذهلة؟

بالكاد تمكن أحد في واشنطن أو لانغلي من رؤية كامل أهمية بن لادن وتنظيم القاعدة. وعندما وقّع الرئيس كلينتون الأمر التنفيذي الرقم 12947 في 23 كانون الثاني/يناير من العام 1995، فارضاً العقوبات على اثنتي عشرة مجموعة متهمة بالإرهاب، بسبب دورها في تعطيل عملية السلام في الشرق الأوسط، لم تكن القاعدة أو بن لادن ضمن تلك اللائحة(469).

عكست هذه النقاط المبهمة عند محللي «السي.آي.إيه.» الأدلة الناقصة والمتناقضة الذي توجب عليهم العمل بها. وأظهرت برقيات كوفر بلاك التي أرسلها من الخرطوم، تنوع حلفاء بن لادن الذين كانوا من مختلف الجنسيات. وكان واضحاً أن شبكة بن لادن لم تعمل على غرار مجموعة هرمية تقليدية.

تمسك عدد كبير من المحللين الأميركيين بأفكار مسبقة حول من يجب اعتباره حليفاً وفياً، ومن يجب اعتباره عدواً. وهدفت الاستراتيجية الأميركية التي صدق عليها الرئيس كلينتون في العام 1995، إلى احتواء إيران والعراق وإحباطهما. واعتُبرت المملكة العربية السعودية في هذه المهمة حليفاً مراوغاً، لكن دورها كان أساسياً. رأت سياسة الولايات المتحدة الخارجية أنّه يستحيل إدارة العراق وإيران من دون تعاون السعودية. لقد تمتعت السعودية بنفوذ حاسم داخل أسواق النفط العالمية، فترددت واشنطن كثيراً في شأن تحدي العائلة المالكة السعودية بسبب تمويلها الأصوليين الإسلاميين، أو استرضائها الدعاة الإسلاميين المعادين لأميركا، أو حتى نشرها حملة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم كافة. لم تكن أميركا تملك دوافع كثيرة للتراجع وطرح أسئلة كبيرة وغير مريحة، عما إذا كانت الجمعيات الخيرية السعودية تشكّل تهديداً أساسياً للأمن القومي الأميركي. وقد عمل السعوديون بدأب، للمحافظة على علاقات متنوعة مع «السي.آي.إيه.» خارج القنوات الرسمية. وأضافت السعودية إلى جداول رواتبها عدداً من قادة المراكز في الرياض، وعدداً من المدراء البارزين في قسم الشرق الأدنى، الذين عملوا لديها مستشارين في خلال أواسط التسعينيات بعد أن تقاعدوا(470).

درس الأميركيون الذين يتكلمون العربية، قضايا الشرق الأوسط على مدى عقود من خلال عدسة الحرب الباردة، وقد تحددت رؤيتهم بسبب التواصل المباشر والمستمر مع نخبة من العرب العلمانيين. ونادراً ما دخل الجواسيس أو واضعو الاستراتيجيات الأميركيون المساجد الخاصة بأبناء الطبقتين الوسطى والدنيا في الجزائر وتونس والقاهرة وكاراتشي وجدة، حيث كانت توضع كاسيتات مسجلة لخطب معادية للولايات المتحدة، على طاولات قرب المدخل وتباع مع حسومات كبيرة.

وعلى الرغم من هذه القيود كلها، طور محللو الاستخبارات الأميركية، في منتصف العام 1995، صورة أوضح للعدو الإرهابي الجديد، فبدأت صورة الشبكة العالمية تتبلور للمرة الأولى. وقد كتبت «الأف.بي.آي.» و «السي.آي.إيه.»، تقارير استخبارية سرية طموحة خلال النصف الثاني من العام 1995، فحصتا فيها الأدلة في قضية يوسف، وقدمتا تنبؤات جديدة قوية.

قامت «الأف.بي.آي.» بمراجعة طويلة وسرية لقضايا الإرهاب العالمي، وقد قيّم محللو المكتب التهديد الظاهر تحت فقرة بعنوان: «رمزي أحمد يوسف: جيل جديد من الإرهابيين الإسلاميين السنّة»(471). وكتب محللو «الأف.بي.آي» أن قضية يوسف «قد أدت إلى الاستنتاج أن جيلاً جديداً من الإرهابيين قد ظهر على مسرح العالم في الأعوام القليلة الأخيرة». فيوسف وشركاؤه «لديهم إمكانية الوصول إلى شبكة عالمية توفّر لهم الدعم والتمويل والتدريب والملجأ». كما «يعمل الراديكاليون الإسلاميون معاً للمضي في قضيتهم». ولم تتزايد عملياتهم التفجيرية والعنفية «مصادفة» مع انتهاء الحرب الأفغانية السوفياتية. كانت معسكرات التدريب الأفغانية حاسمة بالنسبة إلى يوسف، فقد وفرت له موارد تقنية، وسمحت له بتوظيف أصوليين يشاركونه في آرائه. وقد أصبحت باكستان والبوسنة قاعدتين أساسيتين للجهاديين.

تحدّث تقرير «الأف.بي.آي» عن ضعف الأرض الأميركية أمام الاعتداءات، كما ذكر على وجه التحديد الخطة التي اعترف مراد بها، والتي تقضي بخطف طائرة وصدمها بمقر «السي.آي.إيه.» الرئيسي.

كتب محللو «الأف.بي.آي»: «على عكس أنماط العمليات العسكرية الخارجية التقليدية، مثل النمط الذي تموله الدولة، أو النمط الذي تتبعه إيران أو حزب الله، فإن المتطرفين السنة لا يحلون مكان أمة أو يتأثرون بأمة»، «إنهم مستقلون وقوميون». وتجلت أسباب واضحة «للشك في أن يوسف وشركاءه يتلقون دعماً من أسامة بن لادن، فأصبح بمقدورهم استغلال شبكة بن لادن لدعم المجاهدين». وتمكنوا على الأرجح من الحصول على دعم الجمعيات الخيرية الإسلامية. واعتبر تحليل «الأف.بي.آي.» أنّ الجمعية الخيرية السعودية شبه الرسمية، التي يطلق عليها اسم منظمة الإغاثة الإسلامية العالمية، ومنظمة الدعوة الدينية السعودية المدعومة من قبل الحكومة، والتي يطلق عليها اسم رابطة العالم الإسلامي، مصادر مهمة لدعم الحركات الأصولية الإسلامية الجديدة التي تهدد مصالح الولايات المتحدة. وقد استنتجت البرقية: «أن مجموعة يوسف مطابقة تماماً للجيل الجديد من المتطرفين الإسلاميين السُّنة... فإن تفجير مركز التجارة العالمي، ومؤامرة مانيلا، واعتداء الجماعة الإسلامية الأخير على مبارك، تبرهن أن الإسلاميين المتطرفين يمكنهم العمل في أي مكان في العالم. نحن نؤمن بأن الخطر لم ينته بعد»(472).

رأت وكالة «السي.آي.إيه.» أن عصابة يوسف مستقلة عن أي نظام هرمي. وقد جاء في برقية سرية للوكالة في العام 1995: «حسب معرفتنا، فإن يوسف وشركاءه... ليسوا متحالفين مع أي مجموعة إرهابية منظمة، ولا يمكنهم أن يطلبوا من أي وحدة منظمة تنفيذ ضربات انتقامية ضد الولايات المتحدة، أو الدول التي عملت مع الولايات المتحدة على تسليم يوسف وشركائه». وعملت «السي.آي.إيه.» في العام نفسه، مع مجلس الاستخبارات الوطني، فقدمت إلى إدارة كلينتون تقييماً استخبارياً وطنياً سنوياً وسرياً حول الإرهاب. وكان عنوان التقييم «الخطر الإرهابي الخارجي في الولايات المتحدة». وقد استند إلى برقيات وتحاليل من المجتمع الأميركي الاستخباري. أطلق

التقييم على عصابة يوسف لقب «النسل الجديد» للإرهابيين الراديكاليين السنة، الذي كان بمنزلة صدى للغة «الأف.بي.آي.». وقد حذر التقييم من أن «الظاهرة الإرهابية الجديدة» تضم مجموعات مرنة ومتعددة الجنسيات من المتطرفين الإسلاميين الذين يعتبرون الولايات المتحدة عدوتهم. كما ذكر إمكانية وقوع اعتداءات مستقبلية داخل الولايات المتحدة. وأعلن التقييم أن «بعض الأهداف المعينة تقع في دائرة الخطر، مثل الرموز الوطنية، كالبيت الأبيض ومبنى الكونغرس، ورموز الرأسمالية الأميركية مثال وول ستريت». «نعتقد أن الطيران المدني سيبرز ضمن لائحة الأهداف الإرهابية المحتملة في الولايات المتحدة. وقد نجم ذلك عن الخطر المحلي المتزايد الذي يشكله الإرهابيون الأجانب واستهدافهم المستمر للطيران، وضعف نظام أمن الطيران المحلي، محطّ اهتمام وسائل الإعلام»(473).

من الواضح أنّ يوسف وزملاءه قد طوروا خططهم الإرهابية من خلال دراسة الإجراءات الأمنية للطيران الأميركي. «في حال كان الإرهابيون الناشطون في هذا البلد يتبعون المنهج نفسه، فسيتمكنون من تحديد نقاط ضعف جدية في نظام أمن الرحلات المحلية». ولم يأتِ التقييم الاستخباري الوطني على ذكر أسامة بن لادن(474).

# 16
# تورّطتُ شيئاً فشيئاً في المسألة

بدأ الرجل الذي عُرف باسم أحمد شاه دوراني، وهو ملك مشهور على أفغانستان، مهنته حارس شخصي غير ناجح. استولى سيّده، الإمبراطور الفارسي نادر شاه، على أراض وثروات في الشرق، وصولاً إلى الهند، لكنّه أصبح لاحقاً قاتلاً تعسفيّاً، حتى بالنسبة إلى معايير العصر الاستبدادي. فاعتدت عليه الدول الغاضبة في خيمته الملكية في الصحراء العام 1747. وجد دوراني جثة حاكمه في بركة من الدماء، وقد قُطع رأسه، فشعر بأنه الآن في الجهة الخاطئة من سياسات البلاط الملكي الفارسي، فامتطى مع زملائه الحراس أحصنتهم وانطلقوا شرقاً نحو قندهار، أرض قبائلهم التي يعرفها البريطانيون باسم أرض الباشتون(475).

تقع قندهار في سهل مكشوف شبه قاحل بين إمبراطوريتين إسلاميتين عظيمتين: الإمبراطورية الفارسية في الغرب، وإمبراطورية المغول التي حكمت من كابول حتى الشمال. وغطّت البساتين والمزارع الرائعة ضفاف نهر هيلمند الذي تلوّى عبر أراضي الباشتون. انتشرت في الوديان الخصبة قرى مبنية من الطين، لم تُنتهك، ولا أخضعتها، على مر تاريخها، أي سلطة استعمارية خارجية. وعززت الأنهار المنسابة بسرعة بسبب ذوبان الثلوج في الهضاب المجاورة، طاقة العابرين ذوي البنية الصلبة والإرادة القوية الذين يشربون منها. وحملت الطرقات العامة الصحراوية التي تعبر قندهار قوافل العربات الكبيرة بين الهند وإيران، وقد قام الحكام المحليون بجمع الضرائب على العبور، بينما وجد قطاع الطرق فرصة للسرقة والنهب. إلا أنّ قبائل قندهار كانت تفتقر إلى العمق الإداري والعسكري الموجود عند العرش الإيراني، وإلى وسائل الدفاع الطبيعية مثل الممرات الجبلية الصخرية الموجودة في كابول. كانت قبيلة غيلزاي التي يعيش أفرادها المشتتون والمبعثرون في الشمال في اتجاه جلال آباد، وقبيلة عبدليس المتمركزة قي قندهار، القبيلتين العظميين في المنطقة. وقد قام أفرادهما بسلب القرى المجاورة والجيوش العابرة. وعقد شيوخ القبائل مشاورات في مجالس اللوياجيرغا، المتساوية الحقوق والدائرية الشكل، حيث صاغوا التحالفات وسمحوا بنهضات قبلية دورية ومدمرة مثل الرياح الموسمية. لكن، كان عليهم الفوز بإمبراطورية يحكمونها بأنفسهم.

غير أحمد شاه دوراني حظهم. تروي حكايته موجة معقّدة من الوقائع التاريخية والخرافات الرائجة. في النسخة النموذجية، عندما انتقل دوراني من موقع قتل نادر شاه إلى قندهار، انضم إلى مجلس قيادة قبيلة عبدليس، الذي عُقد في مقام مقدّس في شار سورخ من أجل اختيار ملك جديد. في الجولة الأولى، تباهى عدد من الشيوخ بمؤهلاتهم الخاصة. أحمد الذي كان في الرابعة والعشرين، وينتمي إلى عشيرة صغيرة وضعيفة تابعة للبوبالزاي، بقي صامتاً. ومن أجل الخروج من المأزق، وضع رجل تقيّ مرموق سنبلة قمح على رأسه، وأعلن أنه لا بدّ من انتخاب أحمد ملكاً، لأنه لم

يتسبب في إغضاب أي شخص آخر. فقام بعدها رؤساء القبائل بوضع أوراق من العشب في أفواههم، والنير حول أعناقهم، دليل موافقتهم على أن يصبحوا قطعان أحمد. وأخفت الإشارات الروحانية قراراً عمليّاً: انتخب زعماء قبيلة عبدليس الأقوى نفوذاً، الأضعف بينهم، ليصبح قائداً، ما يتيح لهم فرصة التمرد كلما رغبوا في ذلك. كان هذا النمط يتّبع عند اتخاذ قبيلة الباشتون القرار بانتخاب الملوك والرؤساء، وقد بقي هذا النمط سائداً حتى القرن الواحد والعشرين(476).

أثبت دوراني أنه قائد متبصر، وثاقب الرؤية. نصّب نفسه ملكاً وسط قندهار، وهي مدينة مسطحة مغطاة بالغبار، ومبنية من الحجارة الطينية المنحدرة والبنية اللون. كانت جوامعها ومقاماتها المقدسة مزينة بالقرميد والجواهر المستوردة من إيران والهند. أطلق على نفسه اسم «در الدوراني»، أو لؤلؤة اللآلئ، بسبب شغفه بأقراط اللؤلؤ. أصبحت بالتالي قبيلة عبدليس تُعرف باسم قبيلة دوراني، وانطلقت إمبراطوريته مع أعمال السرقة على الطريق العام في قندهار. كانت قافلة محملة بالكنوز تنتقل من الهند في اتجاه إيران، فاستولى أحمد على الحمل، واستعمله كميزانية دفاع فورية. جمع جيشاً كبيراً من محاربي الباشتون الأشداء، وحصّن بهم حدود قندهار. اعتدى على الهند واحتل دلهي، وسيطر في النهاية على أراضٍ وصلت إلى التيبيت. خضعت قبائل غيلزاي في الباشتون لحكمه، فوحَّد الأرض التي عُرفت في القرن العشرين تحت اسم أفغانستان. أمضى عطلات الصيف في كابول، لكن قندهار كانت عاصمته. وعندما توفي في العام 1773، بعد مضي ست وعشرين سنة على وصوله إلى العرش، صنعت له قبيلة دوراني المفتخرة به والممتنة له، ضريحاً مزيناً تعلوه قبة فيروزية اللون وسط المدينة. كان ملكهم رمزاً للوحدة، فمزج بين الإسلام والملكية، فشيّدوا نصبه التذكاريّ إلى جوار الموقع الأكثر قدسية في قندهار، وهو جامع من ثلاثة طوابق مطلي باللون الأبيض ومرصّع بالموزاييك. حوى الجامع عباءة مقدسة ارتداها النبي محمد.

صاغ إرث أحمد شاه دوراني مدّة عقدين، سياسات أفغانستان، بينما استقرّ حكمه وسط سلطة الباشتون القبلية والروحانية في قندهار، فولّد بذلك توازناً صعباً بين تلك المدينة وكابول. اختفت إمبراطوريته الواسعة بسرعة، لكنّ أسطورتها ألهمت طموحات حكم الباشتون التوسعية. شكّل توحيد قبائل الباشتون في مملكة واحدة كبيرة، قاعدة صلبة للمطالبات المستقبلية بالمشروعية الملكية في أفغانستان. كان عدد كبير من الملوك الذين تبعوه، ينتمون إلى أفخاذ قبيلة مختلفة فيما بينها، لكنهم اعتبروا أنفسهم ورثته السياسيين. كان الأمير ظاهر شاه الذي أُطيح عن عرشه في العام 1973، أي بعد مئتي عام على موت دوراني، آخر حاكم يطالب بإرث مجلس اللوياجيرغا في شار سورخ(477).

في العام 1994، عمّت الفوضى قبيلة دوراني في قندهار. فعاش عدد كبير من القادة البارزين في المنفى، في باكستان وأوروبا والولايات المتحدة. خشي الجيش والاستخبارات الباكستانية قوة الباشتون الملكية، فمارسوا الضغوطات على قادة دوراني الذين قد يطالبون من جديد بالعرش الأفغاني. كانت الاستخبارات الباكستانية تفضل قادة الفصائل الجهادية، أمثال حكمتيار ورباني وسياف وخالص، على أي من قادة دوراني في الباشتون. كما أن جغرافيا ساحة الحرب ضدّ

السوفيات وضعت قندهار وقبائلها على الهامش. تدفق خط الإمداد الرئيسي أثناء النزاع شمالاً، من كابول إلى الاتحاد السوفياتي، أو شرقاً في اتجاه باكستان. ولم يكن أي منها تابعاً لأراضي دوراني. ونشبت في قندهار معارك ضارية أثناء الاحتلال السوفياتي، لكنها غالباً ما كانت في جغرافيا الحرب الاستراتيجية.

انقسم إقليم قندهار بعد انسحاب السوفيات، إلى رقع صغيرة متحاربة فيما بينها، لكنها لم تضاه وحشية كابول الجهنمية. أمّا قوات حكمتيار المسلحة والمحاربة للملكية، والمدعومة من الاستخبارات الباكستانية، فانتقلت ببطء نحو ضواحي المدينة كغيمة عاصفة. دعمت مافيات المقايضة أسياد الحرب، بعد أن حصدت ثروات هائلة من تجارة الهيرويين وعمليات التهريب وتبييض الأموال. فقد تمكنت أيّ مجموعة صغيرة من مقاتلين شبان من الباشتون يملكون أسلحة كلاشينكوف وبعض قاذفات الصواريخ، من نصب حاجز على الطرقات العامة، وسرقة أموال العابرين. وفي العام 1994، كان الطريق الرئيسي بين كيتا وباكستان الذي يمر بقندهار في اتجاه هيرات وإيران، يغص بمئات الحواجز غير الشرعية، تماماً مثل الطريق الذي امتد من قندهار إلى كابول. تجمع أصحاب المتاجر المتداعية حول ضريح أحمد شاه دوراني المدهش وسط قندهار التي باتت مدينة يخنقها الدخان ويقطنها 750 ألف نسمة، وحاربوا عمليات السلب العنيفة وعصابات السرقة. وقد أشعلت التقارير حول عمليات الاغتصاب والخطف، بما في ذلك اغتصاب الأطفال في ظل الفوضى التي عمت قندهار، جواً من الخوف والغضب المستكين. وازدادت مشاعر الغضب الممزوجة بالرعب بعدما أصيب أحد أقوى أمراء الحرب التابعين لدوراني في قندهار، الملّا نقيب الحقّ، بحالة من الجنون تم تشخيصها لاحقاً على أنها حالة طبية تتطلب تناول أدوية مهدئة. واعترف نقيب الله لاحقاً: «كنت مجنوناً»، «أخبرني الأطباء أنني أُرهق نفسي بعبء العمل، ما أدى إلى تضرّر خلايا دماغي»(478).

غالباً ما اعتبرت الولايات المتحدة وأوروبا، ولادة طالبان في العام 1994 وبروزها، وظهور القائد الأعلى للحركة، الملا محمد عمر، بمنزلة انتصار مجموعة متدينة وتقية ومصممة من الطلاب المتدينين الذين وصلوا إلى السلطة بعد انتفاضة شعبية على أمراء الحرب المجرمين في قندهار. وشدّدت طالبان بنفسها على هذا الموضوع بعد تسلمها السلطة. فعندما حبكت قصّة نشوئها، أضافت إليها أحلام الملا عمر الكثيرة الرؤى، التي تقضي بإنشاء نظام إسلامي في أفغانستان. ووصفت العملية الناجحة التي نفذها من أجل إنقاذ فتيات اختطفهن مغتصبون من أمراء الحرب، كما نشرت توقه إلى العدالة الشعبية التي تجلّت عن طريق شنق المختطفين الفاسدين علناً. ويذكر المذيع سبوزهماي مايوندي من الباشتون، الذي تحدّث بانتظام إلى قادة طالبان: «كان الأمر أشبه بخرافة»، «كانوا يحملون القرآن والسلاح، ويجولون من قرية إلى قرية ويقولون: «باسم القرآن، تخلوا عن أسلحتكم». وإن رفض أمراء الحرب الرضوخ، كانوا يقتلونهم». ويذكر مايوندي: «لم يكن الوضع غريباً بالنسبة إلينا». أرسى الطلاب الدينيون العدالة في ريف قندهار منذ عقود. «علمنا بأن هؤلاء الأشخاص ما زالوا موجودين»(479).

كانت قصص طالبان من دون شكّ متجذّرة في الوقائع، حتى وإن أثبتت شهادات صادقة أنّ الأحداث الخرافية التي جرت في العام 1994 مواربة، مثل شنق المغتصبين الذين ذاع صيتهم من على فوهة دبابة. إلا أنّه في النهاية، كانت الوقائع أقلّ أهمية من الادعاءات السابقة الواردة في الرواية. جمعت طالبان قصصها كي يتمكن سكان الباشتون من اعتبارها إعادة إحياء النصر القديم. وربطت طالبان القيم الشعبية والريفية الإسلامية بجذور قبيلة دوراني في الباشتون، وظهرت في وقت كان القادة الباشتون الأثرياء في قندهار يتوقون
إلى وجود قضية موحّدة. ولمّحت طالبان إلى أنّ ميليشياتها ستكون أداة لعودة الملك ظاهر شاه من منفاه في روما إلى أفغانستان. وبشرت بولادة تحالف جديد بين تقوى الإسلام وعظمة الباشتون.

كانت طالبان التي تعني «طلاب الإسلام»، أو «الباحثين عن المعرفة»، جزءاً من الحياة القروية التقليدية في «حزام القرآن» المحافظ في قندهار، حتى قبل ظهور أحمد شاه دوراني. كانت مألوفة عند القرويين في قرى الباشتون الجنوبية، تماماً مثل الرهبان الكاثوليكيين في الريف الأيرلندي الذين قاموا بلعب دور مماثل. علّم قادة طالبان طلاب المدارس، وأموا الصلوات، وأراحوا المشرفين على الموت، وتوسطوا في النزاعات المحلية. درسوا في مئات المدارس الصغيرة، وحفظوا القرآن، وعاشوا بتواضع من خلال صَدَقات القرويين وفريضتي الخُمس والزكاة، الواجبتين في الإسلام. عندما يصبح الطالب شاباً، يجب عليه السفر إلى مدرسة أكبر في مدينة أفغانية أو عبر الحدود إلى داخل باكستان من أجل إتمام دراساته القرآنية. ويستطيع بعد ذلك العودة إلى مدرسة أو جامع في قريته بصفته ملّا متبحراً في أمور الدين. وقد وفر هؤلاء المسافرون المتدينون خدمة إسلامية مدنية حرّة. تمّ تخليد طالبان في أغنيات فلكلورية أفغانية تقليدية، أشارت في بعض الأحيان إلى طهارتهم بطريقة ساخرة ومشككة، فقد تم اعتبار الطلاب طاهرين إلى درجة مكّنت نساء باشتون من المشاركة في مآدب الطعام من دون تغطية أنفسهن(480).

بعد الثورة الشيوعية في كابول العام 1978، حمل الطلاب الإسلاميون والملالي السلاح في مناطق الباشتون الريفية، وعززوا الجهاد ضدّ السوفيات من خلال توفير المتطوعين والمصادقة الدينية في القرى بعيداً عن تلاعب الاستخبارات الخارجية. إلا أنّ الحرب غيّرت سياق الدراسات الإسلامية ومناهجها في حزام الباشتون. وقد جرى ذلك بشكل خاص عبر الحدود في باكستان. شيّد مجمع العالم الإسلامي في السعودية، وشركاء الجنرال ضياء الحق في جماعة الإسلام، والاستخبارات السعودية والاستخبارات الباكستانية، عدداً من المدارس الجديدة في بيشاور وكيتا وكاراتشي وفي ما بينها. وأضاف العلماء نصوصاً جديدة ترتكز على تعليم المذهب الإسلامي السعودي الصارم، أو الوهابية، والمعتقدات المتعلقة بها. كانت المدرسة الحقانية إحدى هذه المدارس الأكثر نفوذاً في زمن الحرب، التي تتمركز قرب طريق غراند ترانك شرق بيشاور. وقد جذبت هذه المدرسة عشرات آلاف الطلاب الأفغان والباكستانيين بفضل تقديمها العلم ووجبات الطعام والمنامة مجاناً. وقد كان بين الطلاب باشتون منفيون من قندهار(481).

مزج منهج المدرسة الحقانية السياسات الإسلامية التي تتعدى الحدود الجغرافية، بعلم دينيّ يعرف باسم الحركة الديوباندية، التي سمّيت تيمناً ببلدة هندية تضمّ مدارس مبنية منذ قرون عديدة. ترأست

الديوباندية في القرن التاسع عشر، حركة إصلاح محافظة بين المسلمين الهنود. وطوّر عدد كبير من العلماء الإسلاميين مبادئ الإسلام من أجل التكيّف مع المجتمعات المتغيرة. رفضت الديوباندية هذه المقاربة، وحاولت أن تبرهن أنّ المسلمين مُلزَمون عيش حياة مطابقة لحياة أتباع النبي محمد الأوائل. وكتب علماؤها لوائح طويلة من القواعد الدقيقة المخصصة للقضاء على جميع التدخلات العصرية في حياة المسلم التقية. كما أضافت إلى هذه المقاربة ازدراءً مماثلاً لازدراء الوهابيين بشأن الزخرفة والعبادة والموسيقى(482).

تابع جميع قادة قبيلة دوراني في قندهار، المنتمين إلى دائرة طالبان الرئيسية، دروسهم في المدرسة الحقانية في الثمانينيات وبداية التسعينيات، فتعارفوا انطلاقاً من كونهم زملاء في دراسة العلوم الدينية، ومقاتلين في حركات الجهاد ضدّ السوفيات(483).

لم تتمتع القيادة في طالبان بأي منزلة قبلية أو ملكية مميزة. فقد كانت في البداية مجرد قوة عسكرية صغيرة تعمل قرب مدينة قندهار في ربيع العام 1994 وصيفه، وقد نفذت هجمات تطوعية ضدّ أمراء الحرب الضعفاء بعد أن لقيت دعماً مادياً بقيمة 250 ألف دولار جمعها رجال الأعمال الصغار المحليون. لكن بمرور الشهور ومع انتشار طالبان، بدأ عناصرها بالتجمع والمطالبة بدعم من التجار وشيوخ العشائر الأقوياء التابعين لقبيلة دوراني. فتبدلت حركتهم مع إنشاء هذه التحالفات.

أدار هشمت غاني أحمدزاي عمليات رابحة من الإنتاج والتصدير من باكستان إلى آسيا الوسطى. كان أيضاً قائد قبيلة أحمدزاي الواسعة النفوذ، فأقام علاقات وتحالفات مع بعض قادة طالبان، مثل المقاتلين الأقوياء حول قندهار أثناء الجهاد ضدّ السوفيات. وعندما قابل أفراد طالبان في أواخر العام 1994، «كان البيع عملياً جدّاً، وهذا منطقيّ. كانوا يقولون: «نهب جميع هؤلاء القادة البلاد. إنهم يبيعونها قطعة تلو الأخرى، كما أقاموا حواجز تفتيش واغتصبوا النساء». أرادوا إعادة الملك. أرادوا إرساء الوحدة الوطنية من جديد وإعادة نظام مجلس لوياجيرغا»، وهو مجلس كبير قادر على إقرار القيادة الأفغانية الوطنية. «لم يكن
بمقدورك رفض شيء مماثل». قدم أحمدزاي إلى طالبان دعمه(484). تماماً كما فعلت عائلة قرظاي وقادة بوبالزاي وأصحاب النفوذ الذين وُلدوا في قندهار، وقبيلة أحمد شاه دوراني بنفسه. فقد اعتبرت أفغانستان أنّ قرارهم دعم الطالبان في العام 1994، كون هذه الميليشيا الطالبية تقف في مقدمة حركة واسعة، ثورية، ضدّ أعداء الإسلام وأعداء الباشتون.

كان عبد الأحد قرظاي، ربّ العائلة. تمّ اعتباره هو وابنه حامد الذي كان وقتئذ في السادسة والثلاثين من عمره، شخصيتين مهمتين في المقاومة ضدّ السوفيات. عندما كان حامد قرظاي طفلاً، نشأ في ترف ريفيّ في ضواحي قندهار قبل الحرب. لعب مع أشقائه في الأزقة الملأى بالغبار التي تقاسموها مع الدجاج والماعز. كانت عائلتهم تملك مزرعة كبيرة، مترامية الأطراف،

فاعتُبروا أثرياء وفقاً للمعايير المحلية. لكنهم اضطروا إلى الهروب إلى كيتا بعد الغزو السوفياتي(485).

كان حامد قرظاي رجلاً حيويّاً ونحيلاً وأصلع، يشبه القزم، له عينان براقتان وصوت يتعذّر كبحه. عمل قرظاي في الثمانينيات منسقاً صحافياً ولوجيستياً ومساعداً في الخدمات الإنسانية في فصيل المجاهدين الملكي التابع لصبغة الله مجددي. كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة، وقد حافظ على علاقات عديدة مع الأميركيين، بمن فيهم دبلوماسيون، أمثال ماك وليامز وبيتر تومسون اللذان اعتبرا أن قرظاي أحد المتحدرين من السلالة الملكية، ووجداه جذاباً وعقلانيّاً ومتحدّثاً وسياسيّاً محنكاً، تماماً مثلما فعل مبعوثون من وزارة الخارجية. أدار اثنان من أشقائه مطعمين أفغانيين في الولايات المتحدة. وأتاح له إرث الباشتون الملكي وسهولة تعامله مع الأجانب، لعب دور الوسيط بين الصفوف السياسية والقبلية في أفغانستان بعد الانسحاب السوفياتي. كان دبلوماسيّاً بالفطرة، ونادراً ما خاض مواجهات، وغالباً ما أبدى استعداده للانضمام إلى حلقة نقاش ما، والتحدث عن موضوعات مختلفة. عُيّن نائباً لوزير الخارجية في حكومة كابول المنقسمة التي ترأسها مسعود في العام 1993.

حاول قرظاي إعادة توحيد الحكومة الأفغانية. تنقل أشهراً بين كابول المحاصَرة ومخيم قلب الدين حكمتيار العسكري في شراسياب. وسعى إلى لعب دور الوسيط بين مجلس وزراء كابول، ورئيس الوزراء الذي تم إقصاؤه حتى عندما ألقوا القذائف بعضهم على بعض.

في بداية العام 1994، تسلّم رئيس الأمن عند مسعود، محمد فهيم، وهو صاحب وجه يشبه وجه القزم، تقريراً يفيد أن حامد قرظاي يعمل مع الاستخبارات الباكستانية. وقد أثار فهيم سلسلة غريبة من الأحداث، أجبرت عائلة قرظاي على تقديم نفوذها ودعمها إلى طالبان.

كان فهيم مثل معظم قادة مسعود الأكثر جدارة بالثقة، فرداً من قبيلة الطاجيك في شمال شرق وادي بانشير. في العام 1994، اعتبر عدد كبير من السكان الباشتون في كابول، أنّ أهالي بانشير مافيا محاربة. فقد كانوا موحدين في خلال عقد من الحرب المتواصلة تحت قيادة مسعود، وكانوا متقاربين، وأقوياء يعملون بسرية مطلقة، وبمنزلة دولة داخل الدولة. وبقي مجلس وزراء كابول متعدد الإثنيات على الأوراق الرسمية، لكن مع احتدام الحرب الأهلية، ازدادت قوة وزارتي الدفاع والاستخبارات، اللتين يرأسهما أفراد من بانشير أثناء حكم مسعود، بينما تدهورت العلاقة مع قادة الباشتون.

بقيت قضية هامة من دون حل، وهي الحرب غير المنتهية مع حكمتيار. اعتبر مسعود أنّ حكمتيار من صنع الاستخبارات الباكستانية، وأن ولاءه لها، ولا يمكن إصلاحه. لم يكن متأكداً مع مساعديه من أين قد تأتي المؤامرة التالية الموجهة ضدّ قادة الباشتون التي تدعمها «الآي.أس.آي.». كانوا يسبحون في بحر من الإشاعات، ولا يملكون سوى وسائل قليلة يمكنهم الاعتماد عليها من أجل

تمييز الواقع من الخيال. تعرضوا لقصف متواصل عندما كانوا يعملون في مكاتبهم في كابول على ضوء الشموع. وقد حدد العنف والغشّ المزمنان أثناء الحرب، أحكامهم بشأن الصديق والعدو.

خطط فهيم لتنفيذ مؤامرة ضدّ الحكومة، فأرسل ضباط استخبارات إلى منزل حامد قرظاي في كابول، اعتقلوا نائب وزير الخارجية واقتادوه إلى مركز استجواب في وسط المدينة على مقربة من القصر الرئاسي. استجوب عملاء فهيم قرظاي لساعات، فاتهموه بالتآمر مع باكستان. لم يؤمن قرظاي على الإطلاق أي تقرير مباشر حول ما جرى داخل خلية الاستجواب. وقال عدد كبير من الأشخاص الذين تحدث إليهم بعد ذلك، إنّه تعرض للضرب، وإن وجهه قد نزف وتهشم. ويفيد بعض التقارير أنّ فهيم دخل بنفسه الخلية أثناء الاستجواب. ليس واضحاً إن كان مسعود يعلم بأمر الاستجواب أو سمح به، على الرغم من أنّ الضباط الصغار الرتبة ينفون معرفته بذلك.

انتهت الجلسة بسماع دويّ. فقد اصطدمت إحدى القذائف التي يطلقها حكمتيار بانتظام
على وسط كابول، بمجمع الاستخبارات، حيث يتمّ استجواب قرظاي الذي تمكن أثناء الفوضى من الهرب خارج المبنى والسير عبر شوارع كابول وهو يشعر بالدوار. تمكن من الوصول إلى محطة باصات في المدينة، فصعد إلى واحد متوجه نحو جلال آباد. استطاع أحد أصدقاء قرظاي التابعين للأمم المتحدة من التعرف إليه في الشارع، وقد كان وجهه الأرستقراطي مهشماً، فساعده على الوصول إلى منزل صديق. عبر حامد قرظاي خيبر باس إلى داخل باكستان، ولم يعد إلى كابول مدّة سبع سنين(486).

انضمّ إلى والده في كيتا في ربيع العام 1994، وسمع بعد شهور بثورة طالبان. كان على معرفة وثيقة بعدد من قادة هذه الحركة منذ أيام الجهاد ضدّ السوفيات. وشرح لاحقاً: «كانوا رفاقي»، «وكانوا طيبين»(487).

اعتبرهم وسيلة لتحدي حكومة كابول التي قام ضباطها بدفعه إلى المنفى. لم يكن قرظاي ثريّاً وفقاً لمعايير الغرب، قد كانت حساباته متواضعة كثيراً في معظم الأوقات، لكنه ساهم بمبلغ 50 ألف دولار من مدخراته من أجل دعم طالبان، بينما بدأوا تنظيم أنفسهم حول قندهار. كما سلمهم كمية كبيرة من الأسلحة التي خبأها في السابق، وعرفهم إلى قادة قبليين بارزين من الباشتون. في المقابل، قابلت طالبان بطريقة منفصلة عبد الحق المتحمس وعدداً من أفراد قبيلة دوراني الذين حافظوا على روابط وثيقة مع الملك المنفي ظاهر شاه. أمل أفراد قبيلة دوراني في الباشتون تحقيق ما فشل في تنفيذه مبعوثو الأمم المتحدة وأميركا، أمثال بيتر تومسون. خططوا لإعادة الملك الأفغاني من خلال دفع ميليشياتهم الريفية التي تلوح بالقرآن والأعلام البيضاء نحو الأمام(488).

كان محمد عمر وارثاً مستبعداً لمجد باشتون. وقد عكس الماضي عبر مرآة مكسورة ومشوهة بفعل عقدين من الحرب. وبالنسبة إلى رجل مقدر له إحداث هذا التأثير في الأعمال الدولية، لا أحد يعرف الكثير عن سيرته الذاتية. فقد وُلد في العام 1950 في قرية نودي في إقليم قندهار. احتلت

عشيرته الصغيرة وغير المهمة، منزلاً واحداً في الإقليم وفقاً لما ورد في تقرير حول حياته قدمته طالبان إلى دبلوماسيين أميركيين في بداية العام 1995. فقد عاش طفولة فقيرة ومنعزلة، أمضى معظمها في المدارس الدينية المظلمة، وهو يحفظ القرآن. تعلم من خلال النصوص الدينية القراءة والكتابة باللغة العربية ولغة الباشتون. لم يبتعد قط عن إقليم قندهار، وما من دليل على أنه سافر على متن طائرة، أو قضى الليل في فندق، أو شاهد فيلماً على قناة فضائية. تسنت له فرص عديدة في أعوام لاحقة للسفر إلى الخارج، لكنه رفض حتى الحجّ إلى المقامات الدينية المقدسة في السعودية، كما رفض السفر إلى كابول إلا في المناسبات النادرة جدّاً. فقد كانت قندهار عالمه(489).

خدم عمر أثناء الجهاد ضد السوفيات قائداً مساعداً محلياً في فصيل يونس خالص. تبع تاجراً بارزاً اسمه حاجي بشار الذي أسس مدرسة دينية في المنطقة. وأظهر مهارات خاصة في استخدام قاذفات الصواريخ، ودمر عدداً من الدبابات السوفياتية. وأفاد أحد التقارير أنه أصبح نائب قائد في فصيل خالص في إقليم قندهار، وهو مركز بارز نسبياً، على الرغم من أنه لم يكن «ذا شخصية جذابة أو خطيباً بارعاً»، وفقاً لما قاله لاحقاً زميل له في طالبان(490).

أصابت شظية متطايرة وجه عمر أثناء هجوم قرب قندهار، فأصابت قطعة منها عينه اليمنى. وتقول أسطورة طالبان إن عمر اقتلع عينه بنفسه من مقلتها بواسطة سكين، بينما تفيد نسخ أكثر واقعية أنه عولج في مستشفى للصليب الأحمر في باكستان، حيث أُجريت له جراحة من أجل إزالة عينه. وفي كلتا الحالتين، أصبح جفنه الأيمن مغلقاً ومقطباً(491).

تابع عمر في بداية التسعينيات، دراساته الدينية. عمل أستاذاً وإمام مسجد في قرية صغيرة وفقيرة اسمها سينجسار، تقطنها خمس وعشرون عائلة، وتبعد ثلاثين كيلومتراً عن قندهار، في واد واسع وخصب تغطيه حقول القمح وكروم العنب. قدم إليه القرويون الطعام مقابل تعاليمه الدينية، وكان هذا مصدر دخله الوحيد على الرغم من إبقائه على علاقته بالتاجر الثري، بشار. وقضى تلك الفترة، متنقلاً بين مدرسة الدين الصغيرة في القرية والجامع المبنيين من الحجارة والطين. وعاش في منزل متواضع يبعد حوالى مئتي متر عن مدرسة القرية(492).

الصور الوحيدة التي أُخذت لعمر تُظهره رجلاً طويلاً وضخماً ذا وجه نحيف وبشرة فاتحة ولحية سوداء كثيفة. كان يتحدث لغة الباشتون بلكنة ريفية، لكنّه كان يجلس في الاجتماعات بصمت ساعات طويلة. وعندما يتحدث، كان صوته لا يتعدى الهمس. رفض بكل تواضع أن يُطلق عليه اسم ملا، لأنه لم يُنه دراساته الإسلامية. وتكلم في بعض الأحيان على نفسه مستخدماً ضمير الغائب، كما لو كان شخصية في قصة شخص آخر.

آمن بنبوة الأحلام، وتحدث عنها في الاجتماعات السياسية والعسكرية، مستعيناً بها من

أجل تفسير القرارات الهامة. وفي العام 1994، بينما زادت طالبان تأثيرها حول قندهار، قال عمر مراراً إنه رأى حلماً حثّه على مباشرة مهامه، فقد تراءى له الوحي على شكل إنسان وطلب منه قيادة المؤمنين.

عندما بدأ مقابلة وفود من الباشتون حول قندهار، استقبل الزوار في الهواء الطلق، وأجلسهم على الأرض. وقد أفاد تقرير أنه تم انتخابه قائد مجلس الحركة الأعلى أثناء اجتماع تنظيمي لطالبان، لأن عمر لم يكن مهتماً بالسلطة الشخصية على خلاف بعض المرشحين المتمرسين(493). شكلت هذه القصة بنداً رئيسياً آخر في أسطورة طالبان التي تتحدث عن إعادة إحياء الباشتون: ردد الملا عمر المتواضع والهادئ صدى صمت أحمد شاه دوراني، الشاب في مجلس لوياجيرغا في شار سورخ.

نادراً ما تحدّث عن طموحاته، لكن عندما فعل ذلك استخدم لغة مباشرة. قال إنّ طالبان «مجموعة بسيطة من الشبان المتفانين والمصممين على إرساء شريعة الله في الأرض، ومستعدين للتضحية بكلّ شيء من أجل السعي وراء أهدافهم»، «ستحارب طالبان حتى لا تبقى أي دماء في أفغانستان لتُهدَر، وحتى يصبح الإسلام طريق عيش شعبنا»(494).

وعندما انتشرت حركة طالبان خارج قندهار، كانت مجرد لوح أملس كتب عليه الآخرون طموحاتهم. ولاحظ العالِم الفرنسي أوليفييه روا أنّ المشكلة تكمن في اختلاف طالبان عن بقية الفصائل الأفغانية الانتهازية: فهم يعنون كلّ ما يقولونه(495).

* * *

فصلت بنازير بوتو بين المستقبل والماضي. فقد اضطربت ديموقراطية باكستان أثناء حدوث معجزة صغيرة أخرى: انتخابات وطنية شبه شرعية أعاد فيها المنتخبون بوتو إلى منصبها رئيسة للوزراء. وقبل قَسَم اليمين، تنزّهت مطوّلاً في حدائق إسلام آباد برفقة حلفائها السياسيين السابقين. أرادت التحدث عن مخططاتها في مكان بعيد عن مسامع الاستخبارات الباكستانية. أخبرت زملاءها أنّها تريد تعلم العِبَر من ولايتها الأولى. صمّمت على المحافظة على علاقتها الوثيقة بالأميركيين، وأرادت إبقاء جيش باكستان مطمئناً إلى حجم نفوذه الكبير، قدر استطاعتها، فهي لم ترغب في خوض معارك جانبية غير ضرورية. كان عليها مراقبة «الآي.أس.آي.» من كثب، والاستماع إلى مطالب قيادتها وتلبيتها. وأملت بهذه الطريقة أن تبقى في منصبها فترة طويلة تسمح لها بإنعاش اقتصاد باكستان. فقد اعتقدت هي ومستشاروها، أنّه من خلال توفير الثروات للطبقات الوسطى، تستطيع ضمان استمرار قوة حزبها إلى المدى الطويل(496).

عانت باكستان فقراً مستشرياً، ونسبة أمية مرتفعة، وقاعدة موارد طبيعية ضعيفة. إلا أنّ الطبقة التجارية فيها كانت قوية، والمرافئ الدولية عديدة، والصناعات التصديرية مزدهرة. كيف ستتمكن البلاد من حصد ثروة جديدة مفاجئة من خلال التجارة الخارجية، كما فعلت دول آسيا في الثمانينيات؟ ففي الشرق تكمن الهند، ما يمثل سبب تعاظم نفوذ الجيش الباكستاني وسطوته، والمشكلة السياسية الخارجية التي لم تأمل بوتو حلّها بمفردها. لكنّ الغرب والشمال فتحا أمامها فرصاً جديدة لازدهار التجارة، وتقوية النفوذ. أرادت بوتو «تسويق باكستان دوليّاً مثل... الطرق المتقاطعة بالنسبة إلى طرق تجارة الحرير القديمة بين أوروبا وآسيا». ومثل أي طالب شاب في شبه القارة، نشأت مع النصوص التاريخية التي أرّخت الغزوات عبر خيبر باس. ألهمت طرق التجارة الرابحة التي امتدت من آسيا الوسطى إلى دلهي، هذه الفتوحات القديمة. «ففكرت: «حسناً، إنّ السيطرة على الطرق التجارية طريقة مضمونة لإعادة السلطة والاعتبار إلى بلادي»». استطاعت تخيّل المصدرين، وهم ينقلون أجهزة التلفزيون والغسالات إلى الجمهوريات المستقلة حديثاً في آسيا الوسطى، التي كانت في الماضي تخضع للسوفيات. وتخيلت القطن والنفط وهما يتدفقان إلى باكستان من آسيا الوسطى وإيران(497).

لكن، عندما نظرت مع مستشاريها إلى الخريطة في العام 1994، رأت أن أفغانستان تعترض الطريق، وقد اعتبرتها بمنزلة قَدَر كبير من أفراد الحرب لا يمكن تجاوزه، وبلد تكتسحه الحرب الأهلية المدعومة والمموّلة من قبل الاستخبارات الباكستانية. وتذكر بوتو أنها طلبت من عمداء «الآي.أس.آي.» الحضور، فأعلموها بأنهم يريدون متابعة الضغط على مسعود لأن حكومته «موالية للهند إلى حدّ كبير». رأت أن هذه السياسة لن تؤول إلى أي نتيجة، لكنها قررت التساهل مع الجيش أثناء ولايتها هذه، والإذعان لمطالبه متى استطاعت ذلك. أرادت إنشاء حوار حول سياسة أفغانية بديلة تضم وجهات نظر الجيش والاستخبارات الباكستانية(498).

نظمت مجموعة تنسيق بين الوكالات في أفغانستان، فجلس إلى جوارها إلى طاولة الحوار، الجنرال الباكستاني المتقاعد الذي بلغ السبعين من عمره، نصير الله ببار، الذي وافق على احتلال منصب وزير الداخلية في حكومة بوتو. كان ببار شخصية مرموقة من الباشتون، وقد نظم تدريبات قتالية سريّة لحكمتيار ومسعود عندما هربا إلى باكستان في السبعينيات. كان موالياً لوالد بوتو، فكانت بنازير تثق به. أقام ببار علاقات صداقة داخل مكتب الشؤون الأفغانية المستقل في الاستخبارات الباكستانية. وأحضر بعض عمداء «الآي.أس.آي.» إلى جلسات العمل الأولى من أجل وضع سياسة أفغانية. ناقشوا مسألة مخاطر وقف دعم حكمتيار. فمن دون الضغط الذي يمارسه ضباط «الآي.أس.آي.» على مسعود، قد تتمكن قبائل الطاجيك والأوزبك من السيطرة على كابول لأعوام، وتقوية علاقاتها بالهند، والإبقاء على عدائيتها تجاه باكستان، وإحداث اضطرابات بين شعوب الباشتون الكبيرة. فكيف ستتمكن بوتو في هذه الحالة من ملاحقة حلمها بإقامة علاقات تجارية مع آسيا الوسطى؟

تذكر بوتو أنّ ببار سأل: «لمَ نحتاج إلى كابول على أي حال؟ فهم يستطيعون الوصول إلى آسيا الوسطى من الطريق الجنوبي عبر قندهار وهيرات. اعتبرت بوتو هذه الفكرة واعدة. فبهذه

الطريقة تستطيع حكومتها بناء الطرقات وخطوط الهاتف وبنية تحتية أخرى عبر مناطق الباشتون في أفغانستان، وصولاً إلى آسيا الوسطى، متجاوزة كابول والحاجز الإثني في الشمال. وافقت بوتو على المقاربة الجديدة «في حال جاز تطبيقها عن طريق دفع الأموال لأمراء الحرب المحليين» بغية إمرار البضائع مجاناً عبر جنوب أفغانستان. ولم تعترض الاستخبارات الباكستانية على هذا الاقتراح(499).

باشر ببار بذل الجهود. جهّز علناً في تشرين الأول/أكتوبر 1994، قافلة تجريبية تحمل أقمشة باكستانية، أمل أن يُوصلها من كيتا إلى تركمانستان ليحاول عرض طموحات باكستان الجديدة. وصلت القافلة إلى الحدود الأفغانية فوق قندهار، بينما بدأ الملا عمر وتنظيم طالبان حملتهما الدعوية في المنطقة.

كانت المصالح الباكستانية التجارية تكمن في تزويد طالبان الأموال والأسلحة على أمل فتح طرق قندهار السريعة. ربما كان أسياد التبادلات التجارية هم من ساعد طالبان أثناء توغلها العسكري الأول، وليس الحكومة الباكستانية. وفي بلدة سبين بولداك الحدودية، حيث توقفت الشاحنات أثناء رحلتها، قام قائد أفغاني موال لمسعود بتقديم مفاتيح مخزن أسلحة كبير تدعمه «الآي.أس.آي.» قرب البلدة لطالبان مقابل مبلغ نقدي ضخم. تم إنشاء المخزن في العام 1991 من أجل تسلم الأسلحة والذخائر المتدفقة عبر الحدود من قبل ضباط الاستخبارات الباكستانية والسعودية الذين حاولوا الالتزام بالمهلة القصوى للتمويلات الخارجية للحرب الأفغانية. وقد ضمت الأنفاق السبعة عشر التابعة لمخزن سبين بولداك، كمية أسلحة تكفي عشرات آلاف الجنود(500).

فضحت طالبان العملية في أواسط شهر تشرين الأول/أكتوبر، فقد وجهت نداءات علنية إلى المتطوعين من المدارس المحلية، وسلمتهم أسلحة هجومية مغلفة بالبلاستيك. لم يكن واضحاً إن ساعدهم ببار في عملية تسليم الأسلحة أو التصديق عليها، أو ضباط «الآي.أس.آي.» هم من قاموا بذلك. استفاد ببار بسرعة من قوة طالبان الجديدة. في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، عندما اعترضت حواجز تفتيش قافلته التجريبية على بعد ثلاثين كيلومتراً خارج قندهار، استدعى طالبان للتدخل من أجل تحرير شاحناته(501).

نفذوا ذلك بسهولة تامة. قام الملا نقيب الله وأمراء حرب آخرون من قندهار متحالفون مع مسعود، بزرع الرعب في المنطقة أعواماً من دون منازع. وفجأة، في غضون أربع وعشرين ساعة فحسب، انتقلت طالبان إلى وسط قندهار واستولت على المدينة بأكملها. سيطر الملا عمر على المقرّ الرئيسي التابع للحاكم الإقليمي. تمّ بناء هذا المقرّ على شكل قناطر بواسطة حجارة رملية على مقربة من ضريح أحمد شاه دوراني. لم يتمكن نجيب الله وحلفاؤه من مقاومة المهاجمين الشبان والمندفعين، فتلاشوا بكلّ بساطة(502).

في أواسط شهر نوفمبر، لم يسيطر مجلس شورى طالبان الذي يضم ستة أعضاء على قندهار فحسب، بل على مطارها أيضاً حيث استولى على ست طائرات قتالية من نوع ميغ 21 وأربع مروحيات شحن من نوع مي 17. وضعت طالبان يدها على دبابات وناقلات جند مدرعة(503). كما أعلنت رفع جميع الحواجز عن الطرقات السريعة وتجريد جميع الميليشيات الأخرى من أسلحتها، وإخضاع جميع المجرمين للعقوبات الإسلامية السريعة، وقامت بإعدام عدد من عناصر الميليشيات من دون محاكمتهم بغية إثبات وجهة نظرها.

أصبحت بنازير بوتو فجأة قائدة فصيل أفغاني جديد. أملت أن تتمكن طالبان من ضمان سلامة فتح طرقات تجارية إلى آسيا الوسطى، إلا أنّها اعتبرت طالبان مصدراً لبعض التعقيدات.

تعاملت الاستخبارات الباكستانية مع حليف واحد من الباشتون، هو حكمتيار. كان مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية في حالة فوضى. فقد عينت قيادة جيش راولبندي جنرالاً علمانيّاً متأثراً بالبريطانيين، اسمه جافيد أشرف قاضي ليترأس «الآي.أس.آي.». فقد قاد سلف قاضي، الداعية الإسلامي الملتحي جافيد نصير، الاستخبارات باتجاه التدين العلني، لذا طلب كبار ضباط الجيش الآن من قاضي «إعادة «الآي.أس.آي.» إلى الطريق الصحيح» من خلال التخلص من الإسلاميين العلنيين. فأبعد قاضي الضباط الذين تمت ترقيتهم في عهد نصير، ما أثار صدمة المكتب الأفغاني. كانت علاقاته مع حكمتيار في حالة فوضى، فقد قادته معتقدات نصير الشخصية والمتّقدة نحو جدالات دينية غامضة مع حليفه المزعوم. كان من المفترض أن تساعد «الآي.أس.آي.» حكمتيار على ممارسة الضغوط على «ثعلب بانشير»، وهو الاسم الذي أطلقه قاضي على مسعود. لكن، بدلاً من ذلك، اختار جافيد نصير خوض معارك دينية(504).

كانت مصالح «الآي.أس.آي.» على المحك أكثر من مصير حكمتيار ذاته. ففي العام 1994، اعتمدت الاستخبارات الباكستانية على مخيمات التدريب الإسلامية في الأراضي الأفغانية التي يسيطر عليها حكمتيار من أجل دعم جهادها السريّ الجديد في كشمير التي تخضع للهند. ودربت الشبكات الدينية والسياسية من حوله المتطوعين الأجانب، وشحنتهم إلى كشمير. وتذكر بوتو أنّ ضباط الاستخبارات الباكستانية أخبروها مراراً أنّهم لا يستطيعون خوض حرب كشمير السرية، مستعينين بمقاتلي كشمير وحدهم، فعدد المقاتلين الفطريين الفعليين لا يكفي لسفك دماء القوات الهندية. كانوا بحاجة إلى متطوعين أفغان وعرب، وإلى ملاذ لمخيمات تدريب المقاتلين على أراضي أفغانستان(505).

عقّد هذا الوضع العلاقة الجديدة بين «الآي.أس.آي.» وطالبان. صمم الملا عمر على تحدي حكمتيار من أجل الفوز بالسلطة بين الباشتون. ففي حال وجهت الاستخبارات الباكستانية دعمها في اتجاه عمر، ستعرّض حرب كشمير السرية للخطر. وقد أراد العمداء الباكستانيون الذين عملوا بشكل وثيق مع حكمتيار من بيشاور، أعواماً عديدة، الإبقاء على حليفهم الذي يتعاملون معه منذ وقت طويل. لكن مكتبي «الآي.أس.آي.» في كيتا وقندهار المعنيين بشؤون السياسة السرية في

جنوب أفغانستان، أصبحا مهتمين بطالبان، وذلك وفقاً لتقارير جمعتها «السي.آي.إيه.» في وقت لاحق.

يذكر قاضي أنّ «الفجوة التي أحدثها في قندهار» حثت رئيس «الآي.أس.آي.» على لقاء بعض زعماء الميليشيات الجديدة. فدعا وفداً من طالبان إلى مقرّ «الآي.أس.آي.» الرئيسي في راولبندي. رفض الملا عمر السفر، لكنّ مجموعة بارزة حضرت الاجتماع. رفعوا أقدامهم القذرة المنتعلة الأحذية وجلسوا على وسائد الكنبات شابكين أرجلهم كما لو كانوا يجلسون على الأرض. كانت أجسام بعضهم تنقصها أطراف بينما زُوّد آخرون أرجلاً أو أيدياً اصطناعية. ويذكر قاضي: «صُعقت لمعرفتي أنهم ظهروا حرفيّاً من داخل القرى»، وشكلوا، في ما يشبه السخرية، ناتج النظام الثقافي «العالي المستوى» الذي صممته بريطانيا في باكستان. «لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الشؤون الدولية، أو ما يشبه ذلك، بل مجموعة أفكارهم غريبة. الأمر الوحيد الذي اكتشفته هو أنّ نيتهم كانت حسنة».

حثّ وفد طالبان قاضي على سحب الدعم الذي تقدمه «الآي.أس.آي.» إلى القادة الأفغان، أمثال حكمتيار. كانت وجوههم شابة وملتحية، إنّما الندوب التي غطتها، وملامحها التي ذبلت، أعطتها عمراً يفوق عمرها. أعلنوا أن القادة الأفغان الآخرين تسببوا في دمار البلاد، وأرادوا «شنقهم جميعاً، جميعاً»، كما طلبوا مساعدة «الآي.أس.آي.» اللوجيستية. أرادت طالبان استيراد البنزين من باكستان، وسعت إلى الحصول على إعفاء من القوانين التجارية. ويذكر قاضي أنه وافق على الأمر(506).

قالت بوتو في الأشهر التي تلت أوّل اجتماع لـ «الآي.أس.آي.» وطالبان، إن المطالب التي وجهتها الاستخبارات الباكستانية من أجل توفير دعم سري لحلفائها الجدد ازدادت تدريجاً. تذكر بوتو أنها «تورّطت شيئاً فشيئاً في المسألة». «بدأ الأمر مع كمية قليلة من النفط، ثم تحوّل إلى الأسلحة» وبعض قطع الغيار من أجل الطائرات والدبابات التي استولت عليها طالبان. وطالبت «الآي.أس.آي.» لاحقاً بامتيازات تجارية تؤدي إلى زيادة في ثروات طالبان ورجال الأعمال الأجانب الذين قاموا بتمويلها. «ثم أصبحت المسألة تتعلّق بالأموال»، مباشرة من الخزينة الباكستانية.

طالب ضباط الاستخبارات الباكستانية، كلّ مرّة، أثناء العام 1995، بالمزيد من المساعدات السرية. قالوا إنهم بحاجة إلى التمويل من أجل الوصول إلى سلطة تفوق سلطة طالبان. واشتكى عمداء «الآي.أس.آي.» لبوتو بسبب عناد قادة طالبان الذين لا يتبعون النصائح العسكرية والسياسية التي تقدمها باكستان. قالت الاستخبارات الباكستانية لبوتو إنّه من خلال توفير الأموال النقدية وقطع الغيار العسكرية، يستطيعون ضمان بقاء طالبان إلى جانب باكستان في وقت بدأت بتحدي مسعود.

قالت بوتو: «بدأت الموافقة على تقديم الأموال»، «وما إن أُعطيت الضوء الأخضر، حتى تدفقت عليهم الأموال... لا أعرف ما هو المبلغ الذي حصلوا عليه، لكنه كان كبيراً. كان لديهم تفويض مطلق»(507).

في ربيع العام 1995، أصبحت هذه الإمدادات السرية علنية عبر جنوب أفغانستان. أرسلت «الآي.أس.آي.» ضباطاً من الباشتون وقادة عسكريين منفيين من أجل الانضمام إلى تنظيم طالبان، بينما بدأ ضباط الجيش الأفغاني والشيوعيون السابقون والموالون لشاهنواز تناي، بإصلاح دبابات طالبان وطائراتها ومروحياتها. أعلن القادة المحليون البارزون في شرق أفغانستان، أمثال جلال الدين حقاني، أنهم يدعمون طالبان. ودعمت الأموال والأسلحة والشاحنات والإمدادات التي تمّ شحنها عبر الحدود الباكستانية، المحادثات السياسية، كما تدفق المقاتلون المتطوعون من المدارس الحدودية. وعندما سقطت هيرات بيد طالبان في شهر أيلول/سبتمبر، كانوا قد بلغوا نقطة اللارجوع. سيطرت ميليشيا عمر ودوراني على جنوب أفغانستان بكامله، وأعلنت نيتها التوجه نحو كابول(508).

شعرت بنازير بوتو بأنها بدأت تفقد سيطرتها على السياسة الأفغانية الجديدة. لم ترغب في أن تدعم الاستخبارات الباكستانية طالبان في تقدمها العسكري نحو كابول. رأت بوتو أنّه على باكستان استغلال قوتها المتزايدة واستعمالها كمحرّك جديد في المفاوضة حول إنشاء حكومة أفغانية ائتلافية. وافقها بعض أفراد الجيش و «السي.آي.إيه.» في الرأي، لكنّ طالبان لم تكترث لهذه الفروق الدبلوماسية الباكستانية. فقد بقيت على رأيها: لم ترغب في التفاوض مع قادة أفغان آخرين. أرادت شنقهم.

بدأت بوتو التساؤل إن كانت «الآي.أس.آي.» تُطلعها على جميع التفاصيل حول مساعداتها السرية لطالبان. فعندما سافرت بوتو إلى طهران، اندفع الرئيس الإيراني علي أكبر رفسنجاني الذي يدعم مسعود، في اتجاهها في اجتماع خاص، واشتكى بغضب بسبب المساعدة السرية التي تقدمها «الآي.أس.آي.» إلى طالبان. زعم رفسنجاني أنّ الجيش الباكستاني أرسل قوات متنكرة إلى أفغانستان من أجل المحاربة إلى جانب طالبان. أُخذت بوتو على حين غرة، وأنكرت الأمر في البداية، لكن لاحقاً، عندما علمت بأنّ مسعود احتجز ضباطاً باكستانيين في سجنه داخل مخيمات الحرب، تساءلت عما تجهله حتى الآن(509).

لكن طموحات «الآي.أس.آي.» كانت أعظم من سعيها إلى تحقيقها. عانى الجيش الباكستاني مشاكل مادية خطيرة في العام 1995، وطالب بتسلم حصة الأسد من الميزانية الباكستانية، لكن مع توقف الإمدادات الأميركية بسبب قضية الأسلحة النووية، لم يبقَ ما يكفيه. رزحت البلاد تحت عبء الديون، واستنزف سباق الأسلحة مع الهند جميع الموارد. أصبحت «الآي.أس.آي» بحاجة إلى مساعدة الاستخبارات السعودية، وإلى رعاة إسلاميين أثرياء من الدول العربية في الخليج الفارسي، تماماً كما احتاجت إليهم في الثمانينيات.

في بداية العام 1995، توجه أحمد باديب، قائد أركان الأمير تركي الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية، إلى مطار قندهار على متن طائرة نفاثة من نوع غولفستريم 2. وعندما كانت الطائرة على وشك الهبوط، رأى باديب بقرة وسط المدرج. رفع الطيار مقبض الطائرة بشكل مفاجئ، وحلق فوق المكان ليحاول الهبوط من جديد. تمكنت فرقة الترحيب التي أعدتها طالبان من إبعاد البقرة عن المدرج، ثم تجمعت حول باديب عندما وقف على المدرج.

سأله بعض أفراد طالبان الشبان والملتحين: «ألا تذكرنا؟»، فحدق باديب إليهم، واعترف بأنه لا يذكرهم على الإطلاق.

«كنا طلاباً في مدرستك»(510).

موّل أحمد باديب أثناء الجهاد ضدّ السوفيات، مدرسة مهنية مخصصة للصبيان الأفغان تقع على الحدود الباكستانية. كانت مدرسة خيرية تموّلها أموال الزكاة الإسلامية، أو ضريبة العُشر.

شرحت طالبان أنّها نقلت مدرسة باديب منذ ذلك الوقت إلى قندهار. كان الملا محمد رباني أحد المتخرجين فيها، وهو عضو بارز في مجلس شورى طالبان، ومؤسس وحاكم وشريك مقرّب من الملا عمر. أعرب رباني (الذي لا تربطه أي صلة بالرئيس رباني، حليف مسعود في كابول)، عن امتنانه الكبير لباديب. ثمّ قاد السعودي باديب إلى عربة كانت في انتظاره، وانطلقا لمقابلة الملا عمر وسط قندهار.

قام الأفغان بحمل قائد طالبان إلى اجتماعه، فقد كان يعاني مشكلة في إحدى رجليه. لكن عمر بقي واقفاً ليتمكن من حضن باديب مطولاً وبحرارة. أخبر عمر قصة ظهور طالبان في قندهار أثناء احتساء الشاي وتناول الطعام. وأخبر باديب أنّ الأسلحة الأولى التي تسلمها قد زودته بها وزارة الداخلية الباكستانية.

طلب قادة طالبان من باديب الإرشاد والدعم. كانوا بحاجة إلى أن يتعلموا من السعودية كيفية إدارة حكومة إسلامية مناسبة. كما طلب عمر من باديب إرسال جميع النصوص التي تستعملها المدارس السعودية ليتمكنوا من تسليمها إلى مدارس طالبان. وطلب منه توفير الطعام والمساعدة للاجئين الأفغان ليتمكنوا من العودة إلى ديارهم. قدّم باديب نسخة من القرآن إلى عمر الذي قال إنّه سيتبع تعاليمه على الدوام.

أعلن عمر لباديب: «سأنفّذ كل ما تطلبه مني السعودية»(511).

أرسل الأمير تركي باديب في هذه المهمة إلى قندهار. عرّف الباكستانيون عن طالبان للموفد السعودي، واصفين إياها بالقوّة الهامة الجديدة على الساحة الأفغانية. وأشار باديب إلى طالبان مستخدماً عبارة «أولادي»، وأعطى كلٌّ من باديب والأمير تركي انطباعاً بأنّه ساعد على نشوئهم، وأنّه الآن يقويهم بثبات(512).

سافر الأمير تركي إلى إسلام آباد وقابل الملا رباني، وهو تلميذ باديب السابق. أراد الحصول على دعم طالبان من أجل إرساء السلام الشامل في أفغانستان. بقي تركي متورطاً شخصيّاً في المفاوضات السياسية الأفغانية. وشعر عدد كبير من المسؤولين السعوديين عندما نظروا إلى الأفغان، بأن هذا الشيء مقدَّر لهم لحسن حظ النفط السعودي. انزعج تركي كثيراً بسبب تخلي الأميركيين عن أفغانستان. فالسلم الذي تمّ التفاوض فيه، قد يؤدي إلى نجاح السياسة الخارجية السعودية، ووضع حدّ لإيران والهند المنافستين، لكن اهتمام تركي بدا شخصيّاً ومهنيّاً على السواء.

كان رباني في العشرينات من عمره، لكنه كان منمقاً نسبيّاً بالنسبة إلى الأمير تركي، وتواقاً إلى معرفة المزيد عن السعودية والسياسات الدولية. رأى تركي أنّ رباني شخص تستطيع السعودية مساعدته، وعليها أن تساعده. يذكر تركي: «أخبرني أنّهم فخورون بالصداقة التي تجمعهم بالسعودية، وأنهم يعتبرون الملك فهد إمامهم، أو مرشدهم الروحي»(513).

تأكد تركي وباديب بمرور الأشهر، أنّ الاستخبارات الباكستانية قررت دعم طالبان على حساب حكمتيار. لم تعترض الاستخبارات السعودية على هذه الخيانة: فقد أغضب حكمتيار تركي من خلال التنديد بالسعودية أثناء حرب الخليج العام 1991(514).

ازداد عمق علاقة قادة طالبان بالسعودية، مع ازدياد قوتها العسكرية، بينما حافظت الاستخبارات السعودية على علاقتها الوثيقة والمباشرة بـ «الآي.أس.آي.» ما أتاح لها فرصة تجنب حكومة بنازير بوتو المدنية. استشار حميد غول وجنرالات سابقون في «الآي.أس.آي.» الأمير تركي، وسافروا مراراً إلى السعودية وشجعوا الاستخبارات السعودية على دعم طالبان. وأفاد تقرير أنّ الاستخبارات السعودية دفعت علاوات نقدية سنوية إلى ضباط «الآي.أس.آي.» البارزين الذين عينهم رئيس الاستخبارات الباكستانية. ودعمت المساعدات المادية وإمدادات النفط التي خفّضت الرياض أسعارها، خزينة الجيش الباكستاني واستخباراته في خلال أعوام الأزمة الاقتصادية عندما فرضت أميركا على باكستان عقوبات مادية. كما عززت العلاقة السعودية قوّة «الآي.أس.آي.» كحكومة ظلّ داخل باكستان، وساعدتها على مواجهة المراقبة السياسية المدنية(515).

قدّمت «الآي.أس.آي.» «تقارير عن الوضع» إلى الأمير تركي وفريقه، مع استيلاء طالبان على أراض جديدة. واستعرضت التقارير مخططات طالبان، وأظهرت مشاكلهم وإخفاقاتهم، بينما تلاشى التشديد على إجراء محادثات السلام بثبات، وازداد التشديد على النصر العسكري(516).

لم يفصح التقرير قط عن قيمة الدفعات والمساعدات المالية التي قدمتها السعودية إلى الجيش والاستخبارات الباكستانية في أواسط التسعينيات. لكن بناءً على ممارسات العقد السابق، بلغت قيمة التحويلات المباشرة والتخفيضات على أسعار النفط للجيش الباكستاني، في بعض الأعوام، بضع مئات آلاف الدولارات. وقد ساعد هذا الدعم الثنائي «الآي.أس.آي.» على بناء قواتها الجهادية التفويضية في كشمير وأفغانستان(517).

كما ساعدت الجمعيات الخيرية السعودية والوزارات الدينية، ثورة طالبان في العامين 1995 و1996. وأقر الأمير تركي أنّه قدّم دعماً «إنسانيّاً» إلى طالبان في تلك الفترة عبر المؤسسات الخيرية السعودية، مثل منظمة الإغاثة الإسلامية الدولية. كما قدّم الأفراد السعوديون الأثرياء مساعدات. وقال تركي: «لم نكن نعلم بأنه بمقدورنا التحكم في الأفراد الذين يقدمون أموالهم إلى طالبان»(518). كما وصلت الإمدادات إلى المدارس الواقعة على الحدود الأفغانية التي ارتادها قادة طالبان، والتي باتت تمدّهم الآن بمجندين جدد. تلقى عدد كبير من رجال الدين الباكستانيين الذين يديرون هذه المدارس تدريباتهم في السعودية. وأصبحت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر السعودية، أي الشرطة الدينية
في المملكة، وصية على طالبان، ودعمتها عندما أنشأت سياستها الإسلامية الخاصة. وكانت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التابعة لطالبان، تفرض عقوبات باسم الشريعة الإسلامية، وتضبط حياة النساء، وتجمع الرجال بالقوة، وتزجرهم من أجل تأدية واجب الصلاة، وقد ازدادت ثروتها بسرعة، وفاقت ثروة جميع شعب طالبان الأخرى. كان ذلك نتيجة للإمدادات المادية المباشرة والتدريبات داخل المؤسسة الإسلامية السعودية(519).

استمرت السعودية تخشى التأثير الإيراني في أفغانستان وآسيا الوسطى. فقد كانت طالبان حليفة مناسبة في تحقيق أهداف الدولة السعودية السياسية، إلا أنّها روجت أيضاً القيم الإسلامية بالتوافق مع التعاليم الدينية السعودية. وعلى الرغم من الاختلافات الهامة القائمة بين المعتقد التقليدي الإسلامي السعودي والقوانين الغربية، وفقاً لنمط المدرسة الديوبندية، كانت تجمع بينهما نقاط عديدة. وقد تمتعت طالبان بطهارة ساذجة جذبت عدداً كبيراً من المبلّغين السعوديين.

رأى الأمير تركي من جهته أنّ طالبان ستكبر وتتطور لتصبح قوة سياسية إسلامية عادية ومحافظة وعالمية. واعتبر أنّ جميع الحركات الثورية بدأت كشعبة راديكالية، ثمّ بدلت تدريجاً، وهذا ما سيحدث مع طالبان. وقد تمتعت طالبان في تلك الفترة بحسنات كثيرة جعلتها مقبولة من الجميع: فهي لم تكن فاسدة، كما عملت على إرساء النظام في المدن الأفغانية، وقبلت بامتنان الرعايتين السعودية والباكستانية.

وبينما وُلدت السعودية قبل سبعة عقود تحت سيف الميليشيا الإسلامية الراديكالية، أي الإخوان، وكبرت المملكة تدريجاً واستقرت وأصبحت أكثر حداثة، قدمت طالبان نفسها وفقاً للصورة السعودية أكثر من أي ميليشيا أفغانية أو حركة سياسية سابقة. وقد اعتقد الأمير تركي أن طالبان بدورها ستنضج(520).

اعتبر مركز السفارة في إسلام آباد أنّ ظهور طالبان لغز أفغاني منعزل. حقّق الدبلوماسيون الأميركيون في العاصمة الباكستانية وبيشاور، في إشاعات وتقارير متناقضة غير قادرة على تمييز مصادر تمويل طالبان. وقال قنصل بيشاور لواشنطن في برقية سرية أرسلها في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1994، بينما أحكم الملا عمر سيطرته: «تتميّز طالبان بكونها أداة باكستانية وأداة محاربة لباكستان في الوقت نفسه». وقال السفير إنّه «من المرجح» أنّ طالبان تلقت مساعدات من «عدد من المصادر، بمن فيها باكستان»، لكن «داعميها قد يدركون أنّهم ولدوا نمراً مستعداً أتمّ الاستعداد لتنفيذ أعمال مستقلة، ولن تقبل أن تكون أداة في يد أي كان». أرسل السفير إلى «الآي.أس.آي» تقريراً حول طالبان، إلا أنّه أقرّ بأن «جذور [الحركة] وغاياتها ورعاتها... بقوا غامضين». وأُرسلت برقية أخرى في تشرين الثاني/نوفمبر 1994 من بيشاور إلى واشنطن، تقتبس بسخرية كلمات أغنية فريق الروك «هو»، فتقول عن طالبان: «تعرفوا إلى المدير الجديد... هل سيكون مثل المدير القديم؟». كما أفادت برقية القنصل أنّ معدات الحركة العسكرية، التي أُفرغ بعضها حديثاً من الصناديق، بدت «مصادفة غريبة»، وأشارت إلى أنّ باكستان تتدخلّ سرّاً كما تدخلت مع حكمتيار في السابق معززة قوته. وحذّر عبد الحقّ دبلوماسيّاً أميركيّاً قائلاً: «يبدو أنّ الشيوعيين دمروا أفغانستان في البداية، ثمّ جاء دور الأصوليين، والآن قد يقضي رجال الملالي علينا». لم تكن وزارة الخارجية جاهزة للقفز إلى استنتاجات مماثلة. ففي التقارير التي أرسلتها في ذينك الخريف والشتاء، حول نشوء طالبان، وصفت الميليشيا مستخدمة كلمة «لغز»: «لا يخدم حصريّاً المصالح المبنية والراسخة»، إنما يتمتع بدعم شعبي عالمي. ومع امتداد طالبان غرب قندهار في تشكيلات عسكرية معقدة، نقلت السفارة الأميركية أن «استعمالهم الدبابات والمروحيات، يشير بكل تأكيد إلى وصاية باكستان، أو تحكمها المباشر». وبرغم ذلك، بقي مدى تدخل باكستان وطبيعة هذا التدخل «موضع شكوك». فسافر الدبلوماسيون الأميركيون إلى قندهار في 13 شباط/فبراير 1995، من أجل مقابلة قائد طالبان. بدأت الجلسة بصلاة تدعو إلى هداية الملحدين إلى الإسلام. رفض القائد الإجابة عن أسئلة طرحها الأميركيون حول قيادة طالبان أو تنظيمها. فأرسل المسؤولون الأميركيون برقية إلى واشنطن بعد الاجتماع، قالوا فيها إنّ قادة الحركة بدوا «مدرَّبين، لكن ساد شعور بالمكر وبالخيبة». كانت بداية سلسلة طويلة من الأكاذيب والمراوغات، لكن الحكومة الأميركية كانت تملك مصادر في المنطقة، فتمكنت من التعمق في القضية. كانت للملحقين في مركز «السي.آي.إيه.»، وفي وزارة الدفاع، أولويات أخرى. ولم تعد الحرب الأفغانية مسألة هامة تستدعي جمع المعلومات(521).

سمحت بنازير بوتو سراً بتقديم المساعدات إلى طالبان، إلا أنها لم تُعلم الأميركيين بذلك. زارت واشنطن في ربيع العام 1995، حيث قابلت الرئيس كلينتون، وروجت طالبان كقوة موالية

لباكستان، قادرة على إرساء الاستقرار في أفغانستان. وأثناء محادثاتها مع كلينتون، قالت بنازير: «لم تحتل أفغانستان مكانة مهمة في جدول أعمال أي كان». كانت البلاد «مسألة منتهية». لكنها وجدت آذاناً مصغية عند مسؤولي الطبقة الوسطى الذين استمعوا
إلى رسالتها حول احتمال إرساء السلام على يد طالبان. كذبت بوتو ومساعدوها مراراً على مسؤولي الحكومة الأميركية وأعضاء الكونغرس، بشأن حجم المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قدمتها باكستان إلى طالبان. فأفاد أحد تقارير وزارة الخارجية في تلك الفترة، أنّه أثناء اجتماع في واشنطن مع المسؤول في وزارة الخارجية، ستروب تالبوت، قام وزير الخارجية في حكومة بوتو ورئيس «الآي.أس.آي.» «بإنكار المعلومات التي أفادت أن باكستان قدمت الدعم العسكري إلى طالبان». حذر تالبوت في رده من أن سياسات باكستان في أفغانستان، قد تؤدي إلى «نتائج غير منتظرة»، لأن مجموعات مثل طالبان «لا يمكن السيطرة عليها». كذبت بوتو على السيناتور هانك براون، وعضو الكونغرس تشارلز ويلسون، أثناء مأدبة غداء في إسلام آباد، وقالت لهم إن الحكومة الباكستانية «تدعم الأمم المتحدة وليس طالبان أو أفغانستان». قررت بوتو أن تهدئة الجيش والاستخبارات الباكستانية أهم من التحدث بصراحة ووضوح مع الأصدقاء الأميركيين(522).

كان عدد المسؤولين الأميركيين في البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية، المتابعين للشأن الأفغاني، ضئيلاً نسبيّاً، إلا أنهم تقبلوا رواية طالبان: إنها قوة تطهير تتعدى الحدود الجغرافية، وتهدف إلى توحيد الباشتون وابتكار قاعدة جديدة للسلام. رحّب الاختصاصيون المحليون في وزارة الخارجية، الذين تأثروا بداعمي طالبان المحبين للغرب أمثال قرظاي، بظهور ميليشيا قد توحد من جديد قبيلة الباشتون المنقسمة. ويذكر أحد المسؤولين البارزين أنّ مجلس الأمن القومي قد اعتبر طالبان في مراحلها الأولى «قوة تستطيع وضع حد للفوضى». كما استنتج محللو «السي.آي.إيه.» أن طالبان قادرة على إحلال الاستقرار في أفغانستان. قد تتمكن طالبان من الحدّ من سفك الدماء بين الفصائل، ومن تهريب المخدرات، بينما تسعى إلى تهيئة ظروف جديدة من أجل إجراء محادثات سلام واقعية. وعبر بعض محللي «السي.آي.إيه.» عن إعجابهم بالسرعة التي حققت فيها طالبان انتصارات عسكرية. لكن طالبان بدت كفريق أفغاني خاص لا يتمتع بأي أهمية كبرى، فلطالما أعربت الحكومة الأميركية عن لامبالاتها بطالبان. وعندما حاول السيناتور براون، وهو ديموقراطي من كولورادو، تنظيم مبادرة جديدة خاصة بالسياسة تجاه أفغانستان، اصطدم «بحائط صمت» داخل وزارة الخارجية. يذكر قائلاً: «ليس لأنهم لا يدعمون طالبان، بل لأنهم لا يريدون الالتزام»(523).

وافقت مساعدة وزير الخارجية، روبين رافيل، صانعة السياسات الأفغانية الأكثر نشاطاً في إدارة كلينتون، على عدد من ادعاءات بنازير بوتو وحججها بشأن أفغانستان، ودعمت اندفاعة بوتو من أجل فتح طرق تجارية جديدة بين باكستان وآسيا الوسطى. كما دافعت عن بوتو علناً ضدّ اتهام باكستان بأنّها القوة السرية وراء نشوء طالبان. أرادت رافيل أيضاً إلغاء العقوبات الاقتصادية التي فرضتها أميركا على باكستان، فقد رأت أنّها تباعد بين أميركا وباكستان من دون أن تؤثر سلباً في طموحات إسلام آباد النووية. وتمكنت مع كلينتون من كسب دعم أميركيّ جديد لحكومة بوتو، فأملا

بذلك تقوية قبضة رئيسة الوزراء في صراعها مع «الآي.أس.آي.» والجيش. وبما أن حكومة بوش قد مولت بوتو، وبما أنّها أيّدت شخصيّاً دعم الولايات المتحدة لطالبان، لم تساور الشكوك أياً من أفراد واشنطن، عندما اندفعت الميليشيا شمالاً في اتجاه ضواحي كابول.

وجدت السياسة الأميركية في ذلك الوقت قوّة دفع أخرى في آسيا الوسطى: النفط والغاز.

بدأ المدراء التنفيذيون في شركات الطاقة الأميركية الكبرى في العام 1995 بتخيل المستقبل، من خلال دراسة الخرائط التاريخية، تماماً كما فعلت بنازير بوتو. فقد جمع المسافرون على طول طريق سيلك رود في أفغانستان، ثروات جراء نقل التوابل والجواهر والأقمشة إلى أسواق جديدة. وأصبح النفط والغاز الطبيعيّ لعبة رابحة ابتكرها انهيار الاتحاد السوفياتي. وقد بقيت الطرق التجارية الرئيسية هي نفسها على مدى العصور، بينما مرّ عدد كبير منها في أفغانستان.

رأت روبين رافيل وآخرون في وزارة الخارجية والبيت الأبيض، أن طالبان قد تشكّل بالنسبة إلى شركات النفط الأميركية جزءاً مهمّاً من حلّ أفغاني جديد.

# 17
# رمي الطّعم

بدأت رحلة مارتي ميلر الطويلة والغريبة داخل أفغانستان، خلال صيف العام 1995. كان في نهاية مسيرته المهنية، ويتوق إلى تحقيق إنجاز كبير. فقد قرأ أخيراً كتاب «الجائزة»، الملحمة التاريخية لدانييل يرغان، حول غزو النفط والسياسة، فألهب مخيلته. أمضى ثلاثة عقود في مجال النفط في شركة واحدة («أونوكال»)، وهي شركة أميركية تُعَدُّ بين أكبر اثنتي عشرة شركة في العالم من حيث إنتاج الطاقة. يملك ميلر منزلاً مريحاً بالقرب من ملعب للغولف خارج مدينة هيوستون - تكساس. وأصبحت ابنتاه بالغتين، والتحقتا بالمدرسة. لقد عمل طوال حياته في أماكن بعيدة مثل إندونيسيا والبحر الشمالي وتايلاند، وارتقى إلى منصب نائب المدير في قسم التنقيب والإنتاج في شركة أونوكال. أما الآن فهو يبحث عن المغامرة. يمكنه أن يواجه بعض المخاطر(524).

اليوم تحتاج أونوكال إلى بئر نفطية غزيرة. فهي تواجه أزمة في هويتها بعد مرور أكثر من قرن على عملها في مجال النفط. لقد خسرت 153 مليون دولار في خلال العام 1994، لكنها اعتمدت على قسم التكرير والتسويق في هذه الفترة، واستمرت في التلكّؤ خلف أضخم شركات النفط الأميركية(525).

اعتقد رؤساء ميلر أنها فرصة للقفز إلى المقدمة. مناطق شاسعة وأراض وبحار في بلدان شيوعية سابقة، كانت مغلقة سابقاً في وجه شركات النفط الأميركية، وانفتحت أمامها فجأة للتنقيب. وعوضاً عن دخول الحياة بـ «شركة نفط متوسطة الحجم ومتكاملة»، ادّعى المدير التنفيذي روجر سي. بيتش أن أونوكال ستراهن على أنها ستصبح «أكبر شركة لمصادر الطاقة في العالم». والوسيلة إلى ذلك، هي الذهاب إلى أماكن لم يجرؤ أحد من قبلُ على العمل فيها. فكانت أفغانستان(526).

أوكل بيتش قيادة هذه المناورة التي ستُقْدِم عليها أونوكال إلى نائبه وخلفه جون أف. إيمل جونيور، وهو رجل هوايته اليخوت ويتمتع بكاريزما قيادية. بدأ إيمل يبحث عن مدراء يشاركون الشركة في توقها إلى المخاطرة، فوجد في مارتي ميلر، العمّ، وهو رجل مستدير الوجه، متورده، وشعره أبيض يسرّحه إلى الخلف، الشريك المناسب. عندما كان ميلر صبياً، عمل في مناجم الفحم التي يملكها جده في كولورادو. وبالكاد كان قادراً على دفع تكاليف تعليمه حتى المرحلة الجامعية. وعندما عرضت عليه أونوكال العمل في فصل الصيف في منشأة نفطية، غيّر مجال دراسته إلى هندسة البترول. وبعد عقود من السفر في أنحاء العالم كمدير تنفيذي للنفط والغاز، بقي ذلك الإنسانَ البسيط والصريح والعادي. وظل رجل أعمال أميركياً مباشراً يؤمن بالرأسمالية وأعمال البِر ولعب

الغولف. إنه ببساطة رجل شفاف من تكساس. يتعاطف مع الناس أينما وُجدوا، لكن من دون الادعاء أنه عالِم بحضارتهم. كان ميلر يعلم بأن أفغانستان في حالة «فوضى»، لكنه لم يسمع بحركة طالبان، فراح يستفسر عنها، وعلم بأن رجالها لا يحبون أن يصوّرهم أحد، و «يضطهدون المرأة، ولا يستطيع أولادهم اللعب بالطائرات الورقية وأمور مشابهة».

بدأت استراتيجية أونوكال في أفغانستان في تركمانستان، وهي جمهورية استقلت حديثاً عن الاتحاد السوفياتي. لكن المشكلة - والفرصة أيضاً - كما يسميها رجال النفط، هي في «النفط المحصور». أتت تركمانستان بين المراتب العشر الأولى في احتياطي الغاز مدة أربع سنين، لكن أحداً لم يستثمر فيها. وعلى الرغم من أن البلاد حصلت على استقلالها منذ أربع سنين، إلا أن روسيا لا تزال تسيطر على أنابيب النفط كافة، التي تخرج من حقول الغاز. لذلك، كان الصراع بين روسيا وتركمانستان عنيفاً على كيفية استخدام هذه الأنابيب. وآلت صراعاتهما أخيراً إلى إقفال حقول الغاز. وبانتظار بناء أنابيب جديدة، أو الأحرى بانتظار حلّ الصراعات مع روسيا، علقت تركمانستان مع 159 ترليون قدم مكعب من الغاز، و32 مليار برميل من النفط، من دون أن تجد أحداً يشتري منها برميلاً واحداً(527).

واجهت بنازير بوتو في باكستان أزمة طاقة. وبحلول العام 2010، ستحتاج البلاد إلى حوالى ترليون قدم مكعب من الغاز بالإضافة إلى إنتاجها الخاص(528)، فوجدت أونوكال الحلّ في توجهات «سنترال أيجان» التجارية، التي استحوذت على انتباه بوتو. أعطى جون إيمل الأمر ببدء مشروع ستبني من خلاله شركة أونوكال خط أنابيب من تركمانستان إلى باكستان مرورا بأفغانستان التي تجتاحها الحروب. وأسهل طريقة إلى ذلك هي المرور بقندهار بمحاذاة الطريق الجنوبي، وهو الطريق نفسه المفضل أيضاً بالنسبة إلى بوتو للاستخدام في مجال الشحن والنقل. كانت هذه المنطقة قد أصبحت بلاد طالبان.

أوكل إيمل مشروع خط الأنابيب الأفغاني إلى مارتي ميلر. كان ميلر يعتقد أنه «صعب التنفيذ»، لكن في الوقت نفسه، وجده رومانسياً، وعلى مستوى كبير من العظمة. فخطوط أنابيب ميلر ستحذو حذو خطوات قديمة قام بها الإسكندر المقدوني الكبير وماركو بولو وجنكيز خان. وذات ليلة، سأل دانييل يرغن إلى مائدة العشاء إذا ما كان سيذكر في الإصدار التالي من «الجائزة»، إذا أنجز المشروع لمصلحة أونوكال. فأجابه يرغن(529): «ربما سيخصصون لك فصلاً كاملاً».

خرج مارتي ميلر من داخل طائرة أونوكال المكيّفة، إلى صيف تركمانستان اللاهب. كان شهر آب/ أغسطس من العام 1995، ولا يزال مطار عشق آباد العاصمة، البالغة تكلفته 89 مليون دولار قيد الإنشاء. سيتمكن قريباً أكثر من 5,4 ملايين شخص من دخول البلاد سنوياً. لم تشهد هذه المدينة الكئيبة هذا العدد من الزوار سابقاً، لكن رئيس تركمانستان الاستبدادي سابارمورات نيازوف، توقع أن ضيوفاً مثل ميلر سيجلبون الثروة إلى البلاد. قريباً سوف تزدحم تركمانستان

بالرأسماليين الأوروبيين المغامرين والأمراء والشيوخ العرب ومدراء شركات النفط الأميركية.
سوف تغتني البلاد من النفط والغاز، وتنعم بالمنتجعات الترفيهية على غرار «ديزني لاند».
يتفاخر نيازوف بأن تركمانستان ستصبح يوماً ما «الكويت الجديدة». لكن أمامها عقبات قليلة. ففي حماسته لبناء مطار متميز، بنى نيازوف برج المراقبة في الجانب الخطأ من المدرج. فعندما يريد مراقبو حركة الملاحة الجوية إرشاد ربان الطائرة إلى داخل مدينة عشق آباد، ينتصب البرج(530) المبهرج الجديد قبالة أعينهم ويمنع عنهم الرؤية.

تتركز مهمة ميلر في إقناع نيازوف بأن أونوكال هي الشركة المناسبة لضخ الغاز من تركمانستان إلى جارتها أفغانستان. لم يكن سهلاً تحديد سعر لرئيس مثل نيازوف. لقد صنعه النظام السوفياتي، وهو عضو في الحزب الشيوعي، يحاول أن يبدو بصورة القائد الوطني. أينما نظر ميلر، إلى اللوحات أو عربات الاستعراض أو زجاجات الفودكا، كان يرى وجه نيازوف المكسو بالشعر الفضي يبتسم له. لقد بنى تركمان باشا (والد الأتراك جميعاً)، كما يفضل تسميته، شخصية تشبه شخصية ستالين. لم يواجه أي معارضة في بلد يبلغ عدد سكانه 5,4 ملايين نسمة. لقد ترك النظام السوفياتي السابق بصماته في نواح عديدة: صحيفة تديرها الدولة تستمر في نشر خطب مزيفة تشيد بالقائد العظيم، وبرلمان يمدد لولايات الرئيس، وجهاز مخابرات يستمع إلى ما يريده نيازوف فحسب. غير أنه كان بطيئاً في إدخال الإصلاحات إلى السوق الحرّة، كما أنه حديث العهد في مجال التفاوض مع الشركات الغربية، وفي عقد الصفقات الكبيرة في مجال النفط والغاز.

شيّد نيازوف أربعة وعشرين فندقاً جديداً على شكل متدرج من الرخام الأبيض في القسم الجنوبي من عشق آباد. كل فندق يخص وزارة من وزارات حكومته. وكانت إقامة ميلر في الفندق المخصص لوزارة النفط والغاز. كانت الغرف تطل على الجبال الإيرانية. حجمها بحجم المطار، لكنها معطلة. فكل يوم خلال ذاك الصيف، كان ميلر يدير مكيف غرفته الصغير على درجة الدفع القوي للهواء، لكن من دون نتيجة. لقد تحمّص. إلا أن المفاوضات اليومية مع نظيره التركماني كانت تبرّد قلبه قليلاً، ثم يستدرك بالقول: «لا تسمع حول طاولة المفاوضات سوى صراخ وتهديدات وتخويف ووجهات نظر مختلفة كلياً عما اعتدناه، لكن في نهاية اليوم، تذهب وتحتسي كوب فودكا وتشرب نخباً فتنسى كلّ هذه الترهات. وفي اليوم الثاني تعود إلى طاولة المفاوضات من جديد».

اتصل ميلر بجون إيمل للخروج من هذا الوضع. وقام نيازوف بدعوة المدراء التنفذيين لأونوكال إلى قصره الصيفي الوردي، الإيطالي الطراز، الواقع عند أطراف أشخاباد. راحوا يشربون النخب تلو الآخر. وكما يذكر ميلر، كان إيمل وتركمان باشا «مرتاحين جداً».

قصد ميلر ثانيةً السفارة الأميركية في أشخاباد لطلب المساعدة. فالحصول على موعد لعقد صفقة خط أنابيب على أجندة السياسة الأميركية الواسعة، سيؤمن لأونوكال فائدة تنافسية. لجأت بعض الشركات الأوروبية والشرق أوسطية التي تسعى إلى عقد صفقات غاز ونفط في آسيا الوسطى،

إلى رشوة المسؤولين المحليين. وإلى جانب أونوكال، يتعامل نيازوف مع مجموعة مستشارين ووسطاء أميركيين يتمتع بعضهم بعلاقات غامضة مع تركيا وبلدان الشرق الأوسط. أونوكال نفسها لديها شريك سعودي غامض يدعى «دلتا»، لا يتمتع بخبرة كافية في حقلي الغاز والنفط. لذلك، يمكن القول إن دوره في الشركة هو لتسهيل مهمة الوسطاء، وإلا فمن الصعب تحديد دور آخر له. إلا أن قانون ممارسات الفساد الخارجية في الولايات المتحدة، يمنع شركة ضخمة مثل أونوكال من التورط في الرشى، لأن فيها مخاطرة وعقوبات مالية. وعوضاً عن ذلك، يمكن مدراء أونوكال أن يقدموا مصداقية التحالف الأمني مع الولايات المتحدة على أساس صفقات الطاقة المهمة. وكان نيازوف، في سبيل التخلص من الضغوطات الروسية، يبحث دائماً عن الاهتمام من قبل حكومة الولايات المتحدة. وكان مقتنعاً بأنه بعقد صفقة ضخمة مع أونوكال، سيحمي نفسه من التخويف الروسي. ومن جهتها، تعتبر إدارة كلينتون أن تنامي المصالح النفطية الأميركية في الدول المستقلة حديثاً في آسيا الوسطى، خطوة سليمة في السياستين الاقتصادية والخارجية.
فقد ارتفعت قيمة التبادل التجاري بين الولايات المتحدة والدول المستقلة حديثاً إلى 6,4 مليارات دولار أميركي خلال النصف الأول من العام 1995، أي بزيادة بنسبة 35 في المئة عن السنة السابقة. ويأتي الغاز والنفط في المقدمة. ففي تركمانستان وكازاخستان وأذربيجان وأوزباكستان، يوجد ما بين 50 ملياراً و100 مليار برميل من النفط، بالإضافة إلى حوالى 250 ترليون قدم مكعب من الغاز. فكانت حكومات الاتحاد السوفياتي السابق، بحاجة إلى مساعدة الشركات الأجنبية في استخراج النفط وتصديره(531).

تلخّصت سياسة إدارة كلينتون، وفقاً لخبير مجلس الأمن القومي، في «تعزيز استقلال الدول الغنية بالنفط، لوقف احتكار روسيا التحكم في نقل النفط في المنطقة؛ وبصراحة، لترويج أمن الطاقة الغربية من خلال تنويع العرض». كان البيت الأبيض برئاسة كلينتون يدعم «إنشاء عدة خطوط أنابيب» من آسيا الوسطى، لتسلك طريقاً لا تستفيد منه أي من روسيا أو إيران. أيقن كلينتون أهمية هذه الخطوط لتطوير سياسة أميركا في مجال الطاقة، والهادفة إلى تخفيف الاعتماد على مزوديها النفطيين الشرق أوسطيين. وبالإضافة إلى ذلك، كان عزل إيران عن ثروات آسيا الوسطى النفطية، هدفاً أساسياً للسياسة الأميركية، لكن لم يكن هناك سوى خطوط قليلة يمكن أن تمر بالقرب من إيران. لذلك، كانت خطة أونوكال في أفغانستان موافقة تماماً لسياسة كلينتون. فقد اقترحت أونوكال إنشاء خطّي أنابيب، واحد للنفط، والثاني للغاز، ويمكن أن ينحدرا من الحقول النفطية في جنوبي شرقي تركمانستان، ويمرا عبر غربي أفغانستان وجنوبها، وينتهيا في باكستان. فوافقت السفارة الأميركية في عشق آباد، ومسؤولون أميركيون آخرون، على دعم قضية أونوكال مع نيازوف(532).

كان مارتي ميلر، يقول دائماً إن مشروع خطوط أنابيب أفغانستان «سهل جداً»، لكن «من دون أي تدخّل سياسي». إلا أنه، بمرور الأسابيع، بدأ دور السياسة يكبر ويكبر.

* * *

لطالما اعتبر الأمير تركي الفيصل أفغانستان نقطة ارتكاز ومحور عبور في آسيا الوسطى. أما الاتحاد السوفياتي، فكان يعتبرها غرفة القيادة التي ستوصله إلى نفط منطقة الشرق الأوسط، وفقاً لرئيس الاستخبارات السعودي. أما اليوم، فتشكل هذه الدولة محوراً تجارياً ومصدراً للطاقة في دول الاتحاد السوفياتي سابقاً. لقد دعم تركي خطة بنازير بوتو القاضية بإعادة تشغيل الطريق الحريري التجاري القديم «سيلك رود» عبر أفغانستان. فالأمير السعودي يقدّر أي شخص يأخذ المبادرة للسير في تطوير أفغانستان والإسلام في آسيا الوسطى. وأخيراً التقى تركي هذا الشخص: كارلوس بولغاروني، وهو رجل نفط أرجنتيني أنيق يتحدر من أصل إيطالي.

يدير بولغاروني، الذي يصطبغ كلامه بلكنات متعددة، شركة نفط «بريداس» التي تعود ملكيتها إلى العائلة، ومركزها في بيونيس آيريس. انطلقت بفضل جهود خيالية، لتحقق بعدها ثروة في جمهوريات آسيا الوسطى الجديدة. وبحثاً عن شريك، اتصل بولغاروني بالأمير تركي في مقر الاستخبارات السعودية في الرياض. وتم اللقاء. أُعجب تركي بأفكار بولغاروني المذهلة حول تأسيس عمل في أماكن صعبة. فقد طوّر بولغاروني خططه الخاصة لاستخراج «الغاز المحاصَر» في تركمانستان، وضخّه عبر أفغانستان إلى باكستان، قبل أن تطرح أونوكال هذه الفكرة بأشهر عدة. أراد بولغاروني من تركي أن يكون شريكه في العمل: فالاستخبارات السعودية تتمتع في النهاية بنفوذ كبير في الدول كافة التي يطمح بولغاروني إلى إنشاء خطوط أنابيب فيها. رفض تركي أن يصبح شريكاً مباشراً، لكنه قدّم الأرجنتيني إلى رجل أعمال سعودي(533)، وإلى معارفه في باكستان.

اعتبر جافيد قاضي المسؤول عن جهاز الاستخبارات الباكستاني، مشروع الأنابيب فكرة عظيمة. أما بنازير بوتو فقد قدّرت أن يقوم شخص بهذه الأهمية، مثل الأمير تركي، بالتعريف عن بولغاروني، فطلبت إلى مستشاريها في مجال النفط والاقتصاد تقييم خطته. شككوا في بادئ الأمر، في نجاحها، لكن بوتو أخبرت زملاءها أنه لا ضير من توقيع مذكرة تفاهم تتعهد فيها باكستان شراء الغاز من بولغاروني إذا ما نجح في ضخه عبر أفغانستان(534).

قابل ميلر في ذلك الصيف في تركمانستان، كارلوس بولغاروني، وتحدثا حول إمكانية توحيد جهود أونوكال وبريداس، لكنهما لم يعثرا على أسس مشتركة. اعتبر ميلر صديق الأمير تركي «شخصاً مربكاً»، يتكلم «بالألغاز». وبالنسبة إلى التوتر الناتج من المنافسة، وجد ميلر من خلال خبرته، أن الأمور طبيعية بالنسبة إلى شركتين دوليتين متنافستين في الصفقة نفسها، ولهما خطة مماثلة تقريباً. لكن خطوط أنابيب أونوكال ستسحب الغاز من حقول غير حقول بريداس. كان ميلر يجد نيازوف مستعداً لعقد الصفقة مع أونوكال في أي مناسبة. وإذا تم إخراج الأمير تركي وبولغاروني من اللعبة، فليكن. هكذا تسير الأمور في صفقات النفط.

بعد جولات قليلة من الخلافات، جاء نجاح ميلر في عشق آباد في أواخر أيلول/سبتمبر 1995. أخبره المفاوض التركماني بأن نيازوف قرر بشكل نهائي أن يتخلى عن بولغاروني، ويتفق مع أونوكال. وفي صيغته النهائية، نص عقد أونوكال على تنفيذ مشروع بقيمة 8 مليارات دولار أميركي، يشمل خطّي أنابيب، سيعبر كل منهما أكثر من 800 ميل في الأراضي الواقعة جنوبي أفغانستان.

أصرّ نيازوف على أونوكال أن تعلن اتفاقهما. كان أبو التركمان جميعاً مسافراً إلى نيويورك لحضور الاحتفال بمرور خمسة وخمسين عاماً على تأسيس الأمم المتحدة، وأراد أن يعلن من هناك خبر إنشاء خطوط الأنابيب الجديدة التي ستحرّره أخيراً من قبضة الروس، فاستأجرت أونوكال مصمم حفلات، ورفعت رايات الاحتفال، ودعت هنري كيسينجر ليلقي كلمة.

لم تتم دعوة أي أفغاني إلى احتفال مانهاتن. وعد جون إيمل بأن تبدأ أونوكال المفاوضات قريباً مع «الجهات المعنية»(535).

لاحظ كيسينجر عدد الفصائل الأفغانية المتقاتلة على الأرض التي ستعبر فيها يوماً ما خطوطُ أنابيب أوناكول، فبدا مشكّكاً كونه عاجزاً عن المساعدة. فكان يقول ممازحاً ومستشهداً بقول د. صاموئيل جونسون: «الأمل تفوّق على الخبرة»(536).

بعد النجاح في تركمانستان، افتتح مارتي ميلر حملة لكسب التأييد في مدينتين: واشنطن وإسلام أباد.

كان الوقت مؤاتياً لمدير شركة نفط، أن يجتذب إليه المستمعين في البيت الأبيض في عهد كلينتون. فكلينتون فقد السيطرة على الكونغرس لمصلحة الحزب الجمهوري خلال انتخابات العام 2004، ففكر فريقه السياسي في شن حملة لجمع الأموال في محاولة للعودة مجدداً. كما أن كلينتون يملك بين يديه الرهان على انتخابات العام 2006. تم تسهيل عملية تمويل الحملة. والبيت الأبيض أراد أن يؤمن متبرعين مشتركين لتستمع الإدارة إلى مشاكلهم. شددت إدارة كلينتون على أن يكون الاهتمام بمصالح الشركات في الخارج من أولويات السياسات الأميركية. ودعمت شركات النفط الأميركية العاملة في آسيا الوسطى من جهتها، جهود إدارة كلينتون لاستيعاب إيران. ولهذه الأسباب كافة، عندما جاء ميلر ليطرق أبواب واشنطن، فُتحت أمامه بسرعة.

كان ميلر يسافر إلى واشنطن من هيوستن مرة أو مرتين في الشهر. وكان يلتقي في البيت الأبيض بانتظام، شيلا هيسلن، مديرة شؤون الطاقة في مجلس الأمن القومي، في القسم المجاور للجناح الغربي، حيث يتم استقبال الزوار من شركات النفط الأميركية. شعر ميلر بتجاوب من قبل هيسلن، ورأى أنها تتمتع بمعلومات وأفكار بنّاءة، وتدعم جدول أعمال أونوكال في أفغانستان.

في الجهة الأخرى من نهر لانغلي، رأى بعض المنشقين عن الـ «السي.آي.إيه.»، أن مكتب هيسلن كان يبدو في ذلك العام كأنه يطفو فوق «بحر من الانكماش على الذات»، كما وصفه رئيس فرع الشرق الأدنى روبرت بير. بالنسبة إليه، «أصبح البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي، محجاً للتجارة، حيث تتفوق مصلحة الأعمال الضخمة على مصلحة حماية المواطنين الأميركيين داخل وطنهم، وفي الخارج». وبسبب ما يدعوه ببعد النظر القذر لمنصبه، اشترى نائب مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر أسهماً بقيمة 90 ألف دولار في شركة أموكو، في الوقت الذي لاحظ أن لجنة مشتركة تعمل مع هيسلن لتدير السياسة الأميركية في اتجاه بحر قزوين، حيث تمتلك أموكو عقوداً كثيرة. حتى أن خصوم بيرغر السياسيين، يوافقون على أن تصرفاته تدل على أنه رجل فاسد، لكن يوجد الكثير من الأموال في الهواء إلى درجة التحدث عن عقود بمليارات الدولارات ومفاوضات سياسية حساسة حول آسيا الوسطى، كانت تملي على الولايات المتحدة أولوياتها(537). كان مكتب الدفاع في مركز كلينتون للتجارة يتحكم في عقود الشركات الأميركية المتنافسة في الخارج، حيث توجد شركة أميركية واحدة في صراع مع شركة أجنبية، تماماً كوضع أونوكال.

ومن جهتهم، رأى بيرغر وهيسلن وزملاؤهما في البيت الأبيض، أنفسهم متورطين في معادلة صعبة بين مصالح الولايات المتحدة التجارية وأهداف الأمن القومي. يريدون استغلال حوافز شركات النفط الأميركية لجني الأرباح، وإبعاد أحد ألد أعداء الولايات المتحدة في المنطقة، إيران، والاستمرار لاحقاً على المدى الطويل في طموحهم القاضي بإضعاف روسيا. كانت هذه «ألف باء» السياسة الأميركية التقليدية، وركيزتها. فالجيل السابق حقق الأمن الأميركي، وأبرم التحالفات النفطية مع السعودية ودول أخرى في الخليج. واليوم، تستطيع صفقات النفط والغاز أن تضمن للولايات المتحدة سلسلة جديدة من التحالفات، من تركيا إلى الصين.

وجد مارتي ميلر مساعدةَ وزير الخارجية، لشؤون جنوبي آسيا، روبن رافيل، المتتبعة للسياسة مع أفغانستان، «متعاونة جداً». كان يلتقيها كلما وجدا في واشنطن. وكانا يتبادلان الملاحظات حول رحلاتهما إلى المنطقة، والمحادثات التي أجرياها، وانطباعاتهما عن السياسات الأفغانية والباكستانية.

اعتقدت رافيل أن خطوط أنابيب أونوكال ستجلب السلام إلى أفغانستان، وتفتح أمام سكانها فرص العمل. باكستان والهند بحاجة إلى الغاز. والأفغان يريدون الاستفادة من عائدات ضرائب مرور خطوط الأنابيب في أراضيهم. لدينا هنا صفقة تجارية قد تُعيد اللحمة إلى أفغانستان عبر خلق حوافز جديدة للتعاون الإقليمي. ووسط إدارة تسعى فيها رافيل جاهدة إلى لفت الأنظار والموارد في اتجاه أفغانستان، قدّمت خطوط أنابيب أونوكال فكرة جديدة ورائدة للالتزام الأميركي في أفغانستان، الذي تشجعه رافيل لأسباب عديدة، وليس فقط بسبب خطوط أنابيب النفط(538).

إضافة إلى ذلك، يبدو أن العائدات المالية لخطوط الأنابيب، تشجع على مفاوضات سلمية مع الفرقاء كافة، بمن فيهم طالبان التي تفضلها رافيل وزملاؤها في وزارة الخارجية الأميركية. غير أن المصارف لا تميل إلى إعطاء القروض لتمويل مشروع له مخاطر كبيرة كهذا المشروع. وإذا فعلت فستفشل الصفقة بسبب الفوائد العالية. لذلك، اقترح ميلر أن أفضل طريقة أمام أونوكال لجمع المبلغ هو اقتراضه من مسلّفين متعددين، مثل البنك الدولي ومصرف آسيا للتنمية. فالهدف من إنشاء مصارف التنمية هذه وتمويلها من قبل الحكومات الغنية، هو تعزيز النمو الاقتصادي في البلدان الفقيرة. لكن للموافقة على إقراض أونوكال، يجب أن تعبر أنابيبها داخل أراضي دول، حكوماتها مستقرة.

وهذه ليست الحال في أفغانستان، حيث تسيطر حركة طالبان على قندهار، أو في كابول ورئيس وزرائها الذي دخل حرباً مع رئيس الجمهورية. وبالتالي، لا تستطيع أونوكال تحقيق مبتغاها إلا إذا قامت بإغراء الفصائل الأفغانية بعائدات خطوط الأنابيب للاتحاد حول حكومة واحدة تبارك قيامها الأمم المتحدة. وهذا كان أيضاً هدف سياسة الولايات المتحدة في أفغانستان، برغم أنه لم تتم دراستها جيداً أو تمويلها. وخلال دراسة تفاصيل خطوط أنابيب أونوكال، راحت رافيل وإدارة كلينتون تقنعان نفسيهما بأن ما فيه خير لأونوكال فيه خير لأفغانستان.

أما مهمة مارتي ميلر الثانية، فكانت تتلخص في إقناع بنازير بوتو بأن ما يعود بالخير على أونوكال يعود بالخير على باكستان. وهذه كانت صفقة أصعب، في وقت بدا، أنه بمساعدة الأمير تركي، تمكّن بولغاروني، من إقامة روابط وثيقة مع المسؤولين في حكومة بوتو.

كان ميلر على علم بأنه لن يتمكن من تمويل مشروعه ما لم توافق باكستان على شراء الغاز الذي سيمر في أنابيب أونوكال. لذلك، من الضروري أن تقتنع بوتو بالتخلي عن أنابيب بولغاروني، وتعقد الصفقة مع أونوكال، فطلب ميلر مساعدة روبن رافيل وشيلا هيسلن ومسؤولين آخرين في إدارة كلينتون في إسلام آباد. ووافقوا على بدء العمل.

في العام 1996، كان توم سايمونز سفير الولايات المتحدة إلى باكستان. كان مسؤولاً عن الخدمات الخارجية، وخبيراً في شؤون الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. وعلى غرار ميلر، كان في نهاية مسيرته المهنية. عندما كان صبياً أمضى سنة في كاراتشي من العام 1948 إلى العام 1949. كانت باكستان دولة حديثة الولادة، وتبحث عن مكانة لها. وكان سايمونز يعتبر نفسه ضيف شرف باكستانياً، ووصل إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد حاملاً بعض المفاهيم المسبقة. لم يتتبع أوضاع جنوبي آسيا من كثب منذ عقود. وآخر حقيبة له كسفير، كانت في بولندا، حيث شهد على التحولات الهامة في البلاد بعد الانتقال إلى النظام الرأسمالي. ويؤكد سايمونز أن باكستان تستطيع إيجاد طريقة للخروج من أفكارها القديمة، وتستغل فرص الاتحاد السوفياتي السابق(539).

وبالنسبة إلى مجاورتها لأفغانستان، كان يقول إنه «لا توجد سياسة بهذا الخصوص».

عندما استقر سايمونز في إسلام آباد، كانت تصله الأخبار بسرعة من مارتي ميلر وجون إيمل. كان يلتقيهما أو مدراء آخرين في أونوكال كل أسبوعين أو أربعة أسابيع في مجمع السفارة، وكانوا يطلعونه على معلومات محمَّلة على الحاسوب «مصممة بطريقة جميلة تثير إعجاب شخص في مثل عمري».

يقول سايمونز إن أحداً في واشنطن «لم يعترض» على إقناع بوتو بالتخلي عن الأرجنتيني وعقد الصفقة مع أونوكال. «لقد تستّرت على موضوع الصفقة، وحاولت إيجاد طرائق عملية». استعلم سايمونز عن الصفقة، وراح يقابل المسؤولين في وزارة النفط الباكستانية كل بضعة أشهر لإتمامها بالنيابة عن أونوكال. وتوصل سايمونز إلى أن بناء خطوط أنابيب النفط يمكن أن يجلب الاستقرار إلى أفغانستان، حتى أنه حاول إقناع
أونوكال بإنشاء محطات صغيرة للطاقة على طول مسار الخطوط لإعطاء المناطق الأفغانية مزيداً من الاستقلالية عن كابول.

لكن، لم تتضح بعدُ طريقةُ إقناع بوتو بتغيير رأيها لمصلحة أونوكال. لم تكن المشكلة في فائدة الأنابيب أو ضررها، لأن بوتو تؤيد الفكرة في المبدأ، لكن المشكلة في اختيار الشركة التي ستعقد الصفقة. فحكومة بوتو لديها شريك.

ارتبطت بوتو بزواج لطالما اعتبره أصدقاؤها الأجانب غير متكافئ. فزوجها آصف زارداري هو رجل أعمال من كاراتشي، يبدو أنه بنى طموحاته على غرار أفلام العرّاب. فساهمت الادعاءات عليه بتهم الفساد في إقالة بوتو للمرة الأولى من منصبها كرئيسة وزراء في العام 1990. وخلال ولاية بوتو الثانية، ساعدت روبن رافيل ومسؤولون أميركيون آخرون على إزالة هذه الشكوك لمصلحة بوتو. فقد افترضوا أن زارداري متورط في صفقات فاسدة، لكنهم لم يملكوا دليلاً قاطعاً على اختلاسه الأموال بمبالغ كبيرة. ومن جهتها، دانت بوتو هذه الادعاءات، واعتبرتها ابتزازاً سياسياً قام به خصومها السياسيون لتشويه سمعتها. لقد أظهرت الكثير من الاندفاع والعاطفة في الدفاع عن زوجها، مدّعية أنهم يستغلون زواجها غير التقليدي لتحقيق مآرب سياسية. وهو ادعاء يمكن أن تتفهمه إدارة كلينتون(540).

سمع مدراء أونوكال إشاعات حول قرار بوتو الالتزام بصفقة الأنابيب مع الأرجنتيني لأنه قام برشوة زوجها. بدأ المسؤولون في أونوكال يلقون على مسامع السفارة الباكستانية في واشنطن، أنهم على علم بهذه الرشوة. ففهمت بوتو الرسالة مباشرة: إذا أرادت بنازير بوتو تفادي المشاكل المتعلقة بالفساد، فيجب أن تُقْدم على إبرام الصفقة مع أونوكال(541).

في إسلام آباد، تلقى توم سايمونز مؤشرات حول رشوة أحد أعضاء حكومة بوتو حول عقد خطوط الأنابيب الأرجنتينية. وفي نهاية يوم ربيعي من العام 1996، زار رئيسةَ الوزراء في مكتبها مع جدول أعمال يتضمن ثلاثة مواضيع، كل منها يتعلق بشركة أميركية تريد تأسيس عمل في باكستان. فدخلت بوتو بعد الانتهاء من عدة لقاءات سياسية مزعجة. كانت عيناها محمرتين، ويبدو التعب أنه أنهك جسدها.

أوضح سايمونز لبوتو أنها يجب أن تلغي مذكرة التفاهم مع بريداس، وتوقّع العقد مع أونوكال. لكن بوتو لم تَرُقْها هذه النبرة. كان بعض أعضاء حكومتها يتعرضون لضغوطات من قبل الولايات المتحدة الأميركية، بسبب صفقة أنابيب أونوكال. بدا سايمونز كأنه يعطي أمراً ولا يوجه طلباً. أجابته بوتو: «لا نستطيع أن نفعل ذلك، وإلا فسنُخلّ بالعقد». فردّ سايمونز بقوة: «لكن هذا يُعَدّ ابتزازاً». لمّح سايمونز إلى أن زارداري زوجها سيساعد على إبرام هذه الصفقة إذا تمت رشوته، من دون أن يذكر ذلك بوضوح.

أثارت كلمة «ابتزاز» غضب بوتو. فأجابته فوراً: «لا يمكنك أن تقول ذلك، فأنت لا تمثل رئيسك. ربما ليست العبارة المناسبة، لكن، لو سمحت...».

فات الأوان. طلبت بوتو إلى سايمونز المغادرة. وفي تلك الليلة، أشارت إلى أحد مستشاريها بتوجيه رسالة إلى إدارة كلينتون تشتكي فيها من تصرفات السفارة الأميركية مع رئيسة الوزراء الباكستانية. وعندما عاد سايمونز إلى السفارة، تلقى على الفور اتصالاً من واشنطن. فكتب رسالة اعتذار بنفسه(542).

شرح سايمونز للمسؤولين في أونوكال أن الأمور لم تتيسّر مع بوتو. لن تدعم باكستان صفقة أونوكال في وقت قريب. ولو أراد مارتي ميلر ضمان الاتفاقات السياسية التي يحتاج إليها، فعليه البدء بالتفتيش عن أصدقاء جدد داخل أفغانستان.

في أواخر ربيع العام 1996، توجه ميلر على متن طائرة أونوكال إلى كيتّا. حجز وزملاءه في فندق مريح، وبدأوا يهيئون لتشكيل موكب إلى قندهار. استأجروا شاحنة صغيرة من نوع «تويوتا»، الماركة اليابانية المفضلة عند الـ «السي.آي.إيه.» وزبائنهم الأفغان خلال مرحلة الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي السابق. استأجر ميلر أربعة سائقين، وحوالى 12 مترجماً ومرشداً أفغانياً، ثم اتصلوا بحركة طالبان لإعلامها بقدومهم(543).

لم يمانع ميلر بالاعتراف بشعوره بالخوف. لم يكن يعلم بما سيأتي. بدا أن حركة طالبان تعتمد العديد من القواعد الغريبة، وهو لم يزر يوماً مكاناً مثل قندهار. لقد قام بتصميم عرض على برنامج الكومبيوتر وضع فيه خرائط وأرقاماً تبيّن عائدات مشروع الأنابيب. كما قام بترجمتها إلى

لغة الباشتون، وبطبعها لتقديمها إلى طالبان. وضع المطبوعات وبعض الهدايا في شاحنته، وبدأ رحلته عبر التلال الصحراوية في كيتا.

مرّوا في سبين بولداك، حيث بدأت حركة طالبان بالانتشار منذ 18 شهراً. وساروا عبر تلال الصخور الموحلة الجرداء في اتجاه كروم العنب شرقي قندهار. صُدم ميلر لما رآه. فبعد مرور كل تلك الأعوام لا تزال الأنقاض منتشرة هنا وهناك، وبقايا الحرب ضدّ الاتحاد
السوفياتي لا تزال شاهدة على المعارك التي شهدها المكان. لا توجد أعمدة لخطوط الهاتف. وفي قندهار، لا تتوافر المياه. كان يتراءى له حيثما نظر، وجود لافتة تقول «احذر الاقتراب... آبار نفطية».

كانوا يتوجهون إلى منزل للضيوف تابع لحركة طالبان لا يوجد فيه مفروشات، إلا بعض البسط الممددة على الأرض، فراح ميلر وفريقه يُخرجون أكياس النوم.

أخبروهم بأنهم لا يستطيعون مقابلة الملاّ عمر لأنهم ليسوا مسلمين. حاول بعض المسؤولين في حركة طالبان قراءة المطبوعات وفهمها. كان ميلر يتحدث عن مليارات الدولارات التي ستدخل أفغانستان. «هذه هي الأمور الجيّدة»، قال ميلر للطالبان، معدّداً الفوائد بحذر. شعر بأن البيع لهؤلاء الأشخاص هو بمنزلة «رمي الطّعم أمام الحمار لجرّه». وذات مساء، قصد ميلر حديقة عامة، ورأى أولاداً أفغاناً يلعبون. كان يعتقد أن طالبان تمنع اللعب بالكرة، لكن اليوم يبدو أن بعض الألعاب مسموحة. كان ميلر قد خبأ في صندوق شاحنته بعض الهدايا من مخلّفات حملة تسويق أونوكال في الولايات المتحدة، وكانت عبارة عن كرات قدم برتقالية مضيئة وصحون هوائية. عاد ليسأل مضيفيه إن كانوا يمانعون توزيعه الهدايا على الأولاد. ثم رجع إلى الحديقة، وبدأ بتوزيعها بعد موافقتهم. وما هي إلا لحظات حتى بدأت الحديقة تتلألا بالأضواء البرتقالية والصحون المتطايرة في الهواء.

وبعد قليل، كان ميلر يحاول تحديد موعد مع مساعد وزير خارجية طالبان، فقاطعه الوزير سائلاً عن موعد صلاة العصر، فهزّ بكتفيه استهجاناً. فصرخ من الخلف عنصر من طالبان، قوقازي الملامح، طويل اللحية يعتمر طربوشاً، بلكنة نيويوركية لاذعة: «أظن أن موعد الصلاة عند الساعة الخامسة». فالتفت إليه ميلر بذهول وسأله: «هل أنت أميركي؟».

نعم، إنه أميركي. وعندما اعتنق الإسلام أصبح اسمه سلمان. نشأ في نيوجرسي مع أمه وشقيقته. وعند بلوغه سن المراهقة، راح يقاتل في باكستان مع المنشقين في كشمير. وانتهت به الحال في مخيم تدريبي في أفغانستان، يديره كولونيل من الاستخبارات الباكستانية.

«نعم، اكتشفوا أنني أميركي، واندهش الكولونيل من الاستخبارات الباكستانية لذلك»، هذا ما قاله سلمان لاحقاً لشارلي سانتوس، شريك ميلر في صفقة خطوط الأنابيب. أُجبر سلمان على مغادرة مخيم التدريب، فالتحق بحركة طالبان التي لم تمانع وجود أميركي ضمن صفوفها. «هؤلاء الناس طاهرون، ويتمتعون بخصال نبيلة». راح سلمان يسأل سانتوس عن أخبار فريق «كفيكس» لكرة السلة، فأسف سانتوس لعدم متابعته الأخبار الرياضية.

أحضر ميلر معه رسالة اتفاقية غير ملزمة من ثلاث صفحات يريد من طالبان توقيعها، تنص على موافقة طالبان على عمل أونوكال في مشروع الأنابيب، وهي «تمهيد لمحادثات إضافية». كما تشير إلى أنه لا يمكن إكمال العمل في خطوط الأنابيب إلا بـ «تأسيس كيان واحد معترف به دولياً» يدير أفغانستان، أي حكومة «مخوّلة للتصرف نيابة عن الفرق الأفغانية كافة»(544).

أوضح ميلر وسانتوس أن أونوكال تريد التعاون مع الفصائل الأفغانية كافة. فأجابهم أحد المفاوضين من قبل طالبان: «لكننا نريد أن نسيطر». عندئذ، بدأت أونوكال تدرك أن الطالبان ليسوا مجرد قرويين بُلَهاء كما يظن الجميع. إنهم يريدون توقيع عقد خط الأنابيب، لكن وفقاً لشروطهم الخاصة، وباستبعاد فصيل أحمد شاه مسعود في كابول، أو أي منافسين آخرين. اعتقد المفاوضون الطالبان أن الوقت إلى جانبهم.

استسلم مارتي ميلر، وتوجه غرباً للاجتماع مع قادة الطالبان في هيرات.

الطريق إلى قندهار وعر وملآن بالحفر. كان في استقبال ميلر عند وصوله، الحاكم المحلي لطالبان، فرحّب به بالنظر إلى عينيه مباشرة، وسأله: «لماذا لا تعتنق الإسلام؟».

خلال رحلة العودة في الطريق الوعر والشاق، أجبرت قوات ميليشيا طالبان موكب ميلر على قضاء الليلة في كوخ موحل وضيق في الطريق العام. كانت هناك مشاكل في الطريق، ومن الخطر إكمال السير في الظلمة. كما تجمّع قرويون أفغان عند حاجز التفتيش أيضاً. كانوا ينظرون إلى ميلر بفضول. لكنه لم يكن يحب أن يلفت الأنظار، فركب في شاحنته واستلقى على المقعد الخلفي، ووضع سمّاعات المسجّلة في أذنيه محاولاً الهرب إلى موسيقاه. وبعد مرور دقائق قليلة، فتح عينيه فوجد عشرات الأفغان يحدّقون إليه من نافذة الشاحنة، فقضى ليلته في العربة.

توقف الموكب مرة أخرى في قندهار. لا يزال قادة طالبان يرفضون توقيع رسالة التعاون لشركة أونوكال. صعد ميلر وفريقه إلى شاحناتهما، وغادرا إلى كيتّا(545). وعندما عبرا إلى باكستان، ترجّل ميلر من الشاحنة وقبّل الأرض وأدّى رقصة احتفالية صغيرة. فهناك أماكن لا ينتمي إليها حتى منقّبو تكساس.

# 18
# لم نستطع إدانته

بعد عودة مارتي ميلر من رحلاته الطويلة في الخارج، كان ضابط من «السي.آي.إيه.» يزوره بشكل منتظم في مكاتب أونوكال في شوغرلاند في تكساس. لم يكن ميلر عميلاً في «السي.آي.إيه.»، ولا يأخذ أي مهمات أو أموال أو تعليمات من الوكالة. لكن أسوة ببقية مدراء شركات النفط الأميركية التي لها علاقات في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، كان يزود مكتب «السي.آي.إيه.» في هيوستن بعض المعلومات من تلقاء نفسه. أعاد كايسي خلال الثمانينيات إحياء علاقة «السي.آي.إيه.» برجال الأعمال الأميركيين. فبرأيه، كانت الوكالة تغالي في تقدير مصادر عملائها الذين تدفع لهم، وتنسى التفاصيل الداخلية التي يحصل عليها رجال الأعمال. قام ميلر بإطلاع مكتب هيوستن على المفاوضات التي جرت في تركمانستان وباكستان، والإشاعات حول قضايا الفساد، وما رآه وسمعه خلال رحلته إلى أفغانستان.

كانت تقارير ميلر تطغى على الجلسة برغم أن ضابط «السي.آي.إيه.» كان يتدخّل أحياناً، ويدلي في المقابل بمعلومات مهمة. أصبحت «السي.آي.إيه.» قلقة في إحدى المراحل من تهديدات الاستخبارات الإيرانية لمدراء أونوكال في آسيا الوسطى. فقامت الوكالة بدعوة ميلر إلى لانغلي لإعطائه بعض الإرشادات حول تحركاته لتخفيف المخاطر. استنتج ميلر بعد الاجتماع أن «السي.آي.إيه.» مهتمة بمشروع خطوط أنابيب أونوكال من دون أن يكون لديها أي مصالح معينة في المشروع أو في أفغانستان. وفي محاولته كسب الدعم لمشروع خطوط أنابيب أونوكال داخل الحكومة الأميركية، ركّز ميلر على المحافظة على علاقات ناشطة داخل البيت الأبيض ووزارة الدولة للشؤون الاجتماعية أكثر من «السي.آي.إيه.»(546).

كانت الوكالة في العام 1996 بعيدة عن التواصل مع معارفها والمتعاونين معها من الأفغان والباكستانيين، أكثر من أي وقت مضى، منذ اجتياح الاتحاد السوفياتي في العام 1979. وأصيب سفير الولايات المتحدة في إسلام آباد بالذعر عندما علم بأن «السي.آي.إيه.» ليس لديها أي شيء في أفغانستان. «لقد سحبوا موجوداتهم كافة. اعتبروها من الماضي»(547). ولم يبق سوى صاروخ ستينغر بمنزلة البرنامج السري الوحيد المدعوم في المنطقة. استمرت محطة اسلام آباد في جمع المعلومات الاستخبارية حول الإرهاب الإقليمي. وقد تعقب ضباطها مخيمات لتدريب جهاديين يتم إرسالهم إلى الجهاد في كشمير، وكشفوا مواقعهم. واستمروا في البحث عن مير أمل قاسي في المناطق القبلية على طول الحدود الباكستانية. لكن صلة الوصل بين «السي.آي.إيه.» في مركز إسلام آباد والاستخبارات الباكستانية - أي العمود الفقري للتحركات الأميركية السرية والاستخبارات التي تجمع المعلومات - قد تحطمت. تم استبدال جافيد قاضي الذي كان رئيس الاستخبارات الدولية بالضابط نسيم رنا من البنجاب من فصيلة الإشارة. وقال بعض الأميركيين الذين تعاملوا معه، إنه عنيد ولا يحيد عن مساره للتعاون مع الولايات المتحدة. قدمت الاستخبارات

الباكستانية بعض المساعدة في البحث عن مشتبه فيهم من كاراتشي قاموا بقتل مواطنيين أميركيين في العام 1995. وبعد مداهمة منزل عائلة قاسي في كيتّا بسبب معلومات غير صحيحة من الاستخبارات الأميركية، تخلت الاستخبارات الباكستانية عن القضية. لذلك، قال رنا إن الاستخبارات الباكستانية ستساعد على القبض على الإرهابيين إذا قدمت «السي.آي.إيه.» معلومات دقيقة ومقنعة حول مكان قاسي تتأكد باكستان من صحتها. وهكذا، انتهت المسألة. غير أن اللجنة المسؤولة عن الدفع إلى الاستخبارات الباكستانية مقابل العناصر المتخفين، شكلت النقطة الأساس في التعاون، لكن الاجتماعات بين «السي.آي.إيه.» في راولبندي والاستخبارات الباكستانية، لم تكن على نمط اللقاءات القديمة نفسها(548).

يعتبر غاري شروين، رجل «السي.آي.إيه.» منذ زمن في أفغانستان، وقد خدم مرتين في إسلام آباد، وأصبح رئيس المركز في كانون الثاني/يناير من العام 2006. وكان يخبر زملاءه بأن خطوط أنابيب أونوكال مهمة جنونية، وأنه لا يهتم بأمرها. فتوقع لها الفشل. بالإضافة إلى ذلك، لم تعد أفغانستان ضمن برنامج عمل مركز إسلام آباد. يعني هذا التعيين البيروقراطي أن شروين وضباطه لا يملكون أي صلاحية لتجميع المعلومات حول مكامن القوة في حركة طالبان ومصادر مواردها، أو قدرتها العسكرية، ولا حتى جمع المعلومات الاستخبارية عن ميليشيا حكمتيار أو حكومة مسعود في كابول. كان مركز إسلام آباد يوظف عملاء أفغاناً يفيدون بتقارير حول الإرهاب والمخدرات، أو صواريخ ستينغر. لكن التعيين الخطأ للأفغان المحسوبين على لانغلي، خلق ارتباكاً داخل «السي.آي.إيه.» فيما يتعلق بتتبع آثار الحرب الأهلية في أفغانستان(549).

كانت الفضيحة مستشرية في مراكز «السي.آي.إيه.» من الميزانيات التي تستمر في الانخفاض وموجة التقاعد المسبقة، ونتيجة خلافات في الكونغرس، وشغب في القيادة في مكتب المدير. ومنذ السبعينيات، لم يشعر أي من ضباط الوكالة بهذه التعاسة تجاه المركز.

قام كلينتون في بداية العام 1995 بطرد جيمس ولسي بعد فشل قضية تجسس ألدريتش آيمز. فقد عمل داخل روسيا في مراكز لانغلي عدة سنين، ولم يكتشف أحد خيانته. حاول الرئيس جاهداً إيجاد خلف له، فعين أخيراً جون دوتش، المسؤول في وزراة الدفاع، الذي أخبر كلينتون صراحة بأنه لا يريد العمل في «السي.آي.إيه.» لكن كلينتون أصرّ عليه، وقال إنه لا يوجد بديل سينعم بمباركته. جون دوتش كيميائي، قصد واشنطن في الستينيات محللاً في «روبرت ماكنامارا» في البنتاغون. كان رجلاً ألمانياً ضخماً وملتحياً. ولديه فكر العالِم المستقل والواثق بنفسه. يمكنه أن يكون معلماً، دافئاً، وفي الوقت عينه لاذعاً ومتمرداً ومتكبّراً. كان سعيداً في البنتاغون حيث عمل مع صديقه عالم الرياضيات وليام بيري. لقد راقب جيمس ولسي، الرجل القدير، وهو يفشل في لانغلي، لذلك لا يريد أن يتكرر معه الأمر نفسه. لكن، ما إن أقنعه الرئيس، حتى قرر الألماني أن يدخل «السي.آي.إيه.» بكل ما أوتي من قوة. كان الكونغرس والصحافة مستائين من قضية آيمز. لطالما شكك السيناتور دانييل باتريك موينيهان في دور «السي.آي.إيه.»، فقام بإدخال تشريعات من شأنها

أن تلغي الوكالة وتحيل دورها على مراكز أخرى. حتى عناصر «السي.آي.إيه.» لم يفهموا قضية خيانة آيمز. لقد اختفى صاحب الشخصية الغريبة في ثوان.

انضم دوتش إلى الإصلاحيين، وتعهد خلال جلسة اعتماده تغيير «السي.آي.إيه.» «من جذورها»(550).

كان دوتش يصف نفسه بصراحة «بالرجل التقني، رجل الأقمار الاصطناعية الذكي بالفطرة، ويفهم من الإشارة» في فن الاتصالات. استخدم طلبات ميزانيته المسبقة في لانغلي لإدارة الأموال بتساو في الوسط المخابراتي، مثل مكتب الاعتراف الدولي في البنتاغون ووكالة الأمن الدولية. اعتبر أن قوة «السي.آي.إيه.» هي في تجميع المعلومات التقنية، وأراد التركيز على هذا الجانب. لم يكن معجباً بعمليات التجسس البشرية في الوكالة، وأراد تغيير إدارة العمليات. كان يعتقد أن عمليات التجسس في «السي.آي.إيه.» لم تعد بالمستوى المطلوب في مجال تجنيد العملاء وجمع المعلومات. لقد نسوا مبادئ التجسس. لم يكن خائفاً من القول في وجوههم إنهم لم يعودوا في مستوى معاييرهم المهنية، فصرّح علانية: «بحسب علمي، ينتظر الضباط الصغار تعليمات جديدة. الآن، أنا متفاجئ بحزن»(551).

وبالفعل فوجىء. فقد ثار العديد من الضباط ضد رسائل التغيير التي ألقاها دوتش. واعتبروا حملة الإصلاح الإداري التي شنها مثل الهجمات الأخيرة التي شنت ضد مهمة الوكالة وثقافتها. وكانوا يعتقدون أن الرئيس كلينتون غير مبال بوضع «السي.آي.إيه.». استمرت ميزانية الوكالة بالانخفاض. وفي وسط العام 1995، لم يكن يتدرب على التجسس سوى بضعة ضباط في قضايا معينة. واليوم، لا تملك إدارة العمليات سوى 800 ضابط في العالم، أي إنها انخفضت بمعدل 25 في المئة عن أعوام الذروة في الحرب الباردة. تم إقفال المراكز في دول العالم الثالث كافة، وليس في أفغانستان فحسب. كانت إدارة العمليات على ثقة تامة بأن البنتاغون والـ «أف. بي.آي.» أعادا «السي.آي.إيه.» إلى الميزانية. بعد قضية آيمز، وضعت التحقيقات الداخلية في عمليات تجسس أخرى العديد من الضباط موضع شكّ، ما ساهم في خلق أجواء تشتت وضياع. وعندما وصل مدراء الرجل الاستخباري الألماني الجدد، كانوا يشددون على التنوّع الجنسي والعرقي كأحد أهم أهداف التجنيد في «السي.آي.إيه.»، ما أثار غضب قدامى العناصر البيض. دعمت إدارة التقنيات الجديدة انتقاد المراقبين والمناقشات المتعلقة بأهداف «السي.آي.إيه.»: مجموعات التركيز واتصالات أوسع مع الإعلام - «فريق الحوض الساخن في كاليفورنيا»، كما يسميه أحد العناصر المستائين القدامى -. راح مدراء «السي.آي.إيه.» يبحثون عن ضباط يتمتعون بالخبرة، اقتربوا من الحصول على رواتب تقاعدهم ليتمكنوا من التقاعد مبكراً، ومن دون مشقّة. كانوا يبحثون عن الضباط القدامى، ويشجعونهم على المغادرة. فقد أصبحت معاشات التقاعد حاجزاً أمامهم(552).

قدم محلل الشؤون السوفياتية فريتز إرميث طلب تقاعده مع مستشارته، وكان يملك خبرة كبيرة اكتسبها عندما كان ستانفيلد تورنير ووليام كايسي المسؤولين في «السي.آي.إيه.». استفسر إرميث

عن الموضوعات التي اعتاد أن يسأل عنها حول البيروقراطية السوفياتية: «أنت تقومين بإدارة حوالى 400 إلى 500 شخص في السنة من خلال هذا المركز، صحيح؟ فكيف تصفين هذا المكان؟». ترقرقت الدموع في عيني المستشارة. وأجابت: «لم أره قط بهذا السوء». فسألها: ماذا تقصدين بكلامك؟.

قالت: «الكلّ يُجمع على أنه لا تمكن معالجة الوضع. لكن المشكلة ليست في ازدياد أهمية فريق العمل، بل في فريق العمل نفسه»(553).

بدأ مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» بالتوسع على عكس المراكز الأخرى في الوكالة التي كانت تميل إلى التراجع. وخلال أول سنتين لرئاسة كلينتون، كانت الميزانية المخصصة للإرهاب والسياسات المتعلقة بها مشتتة ومربكة. غير أن الصدمة التي أصابت الجميع، إثر تفجيرات مدينة أوكلاهوما في ربيع العام 1995، ولّدت في مجلس الأمن القومي حساً جديداً حول حالة طوارئ. لكن تبين أن خلية محلية من الميليشيا المعارضة للحكومة، نفذت عملية التفجير. لكن ضربتها الخطيرة تزامنت مع هجوم مجموعة يابانية في طوكيو بواسطة أسلحة كيميائية. اعتقد المحللون في الشؤون الإرهابية في البيت الأبيض، أن قضية اليابان تشير إلى أن الولايات المتحدة معرّضة لعمليات إرهابية من جانب مجموعات تستخدم أسلحة دمار شامل. لذلك قام مجلس الأمن القومي بتشجيع من كلينتون، بصوغ أوّل نص لسياسة الإرهاب خلال الشهور الأولى من العام 2005.

وقّع كلينتون في حزيران/يونيو، القرار الرئاسي السّري الرقم 39، الذي يحمل عنوان «سياسة الولايات المتحدة لمكافحة الإرهاب». كان الملف نسخة مشابهة لقرار الرئيس ريغان الذي وقّعه خلال موجة مكافحة الولايات المتحدة الأخيرة للإرهاب منتصف الثمانينيات. كما شكل الملف أوّل اعتراف رسمي من قبل رئيس أميركي، بأن الولايات المتحدة معرضة لخطر إرهابيين يملكون أسلحة نووية وكيميائية وبيولوجية(554).

كانت مهمة «السي.آي.إيه.» «المباشرة ببرنامج هجومي لتجميع المعلومات من الخارج والتحاليل ومنع التجسس على الولايات المتحدة وعمليات التجسس السرية». وإذا ما اقتضى الأمر، تملك «السي.آي.إيه.» الصلاحيات لإعادة الإرهابيين المتهمين إلى الولايات المتحدة «بالقوة أو بالتعاون مع الحكومة المضيفة»، ليواجهوا العدالة الأميركية.

وينص القانون على أن «حيازة مجموعة إرهابية أسلحة الدمار الشامل، من خلال السرقة أو التصنيع، مرفوضة قطعاً». «فما من أولوية تعلو على منع حيازة الجماعات الإرهابية، التي قد تكون مناوئة للولايات المتحدة، هذه القدرات، أو نزعها منها»(555).

أخيراً، أصبحت الآن السياسة الأميركية أقوى وأوضح من أي زمن مضى، ولو نظرياً. فقد أعطى القرار، للمرة الأولى، السلطة في سياسة مكافحة الإرهاب إلى البيت الأبيض.

وأصبح التحدي هو تنفيذ هذا القرار على أرض الواقع.

افتتحت «السي.آي.إيه.» في كانون الثاني/يناير من العام 1996، مكتباً جديداً لمكافحة الإرهاب لتتبّع أسامة بن لادن. وهذه هي المرة الأولى التي تكرّس فيها الوكالة عمل وحدة بأكملها لشخص واحد. عُرفت القضية رسمياً باسم «مركز قضية بن لادن» تحت الرمز «أليك»، واستأجرت مركزاً لها في ضواحي فرجينيا على بعد أميال من مقر «السي.آي.إيه.».

اعتبر توظيف اثني عشر عنصراً ليشكلوا فريق العمل، «مركزاً وهمياً»، ما يعني أن هذه الوحدة ستتمتع بالإدارة والامتيازات والاستقلالية من قبل أكثر من محطة تقليدية في الخارج، من بينها ميزانية «السي.آي.إيه.» وأنظمة الاتصالات. نشأت الفكرة من المحادثات التي جرت بين المدراء داخل مركز مكافحة الإرهاب. وكانت «السي.آي.إيه.» لا تزال تعتبر بن لادن رجلاً صاحب ثروة، لكن أيضاً تصنّفه رمزاً لحركة الإرهاب الدولي. ويتذكر مستشار الأمن القومي توني لايك الذي وافق على إنشاء وحدة بن لادن في «السي.آي.إيه.»، أنه أصبح يدرك أن الرجل السعودي تحول إلى إرهابي خطير عندما بدأ يشار إليه في الملفات السرية بالرمز «أ.ب.ل» (أي اختصار الأحرف الأولى من اسم أسامة بن لادن). وأضاف بسخرية: «في واشنطن، يدل استخدام الرمز على الأهمية».

لقد شكّل بن لادن تحدّياً كبيراً لنظام «السي.آي.إيه.» القديم، الذي يتركز في بلد واحد لجمع المعلومات، بينما كان بن لادن يعمل في الخارج وفي دول متعددة. أراد مدراء «السي.آي.إيه.» تجربة نوع جديد من الوحدات، كمثال يمكن استخدامه لاحقاً في ملاحقة أهداف دولية. سيقومون بإدماج أنظمة الاستخبارات في مكتب واحد لإدارة العمليات، مثل التحاليل وفكّ الشيفرة، والتصوير وأمور مشابهة. استطاعت وكالة الأمن القومي الدخول إلى خطوط بن لادن الهاتفية عبر الأقمار الاصطناعية، وراحت تتجسس على مكالماته الدولية. ويمكن استخدام هذه التقنيات السرية في المركز الجديد لمراقبة مدفوعاته وعلاقاته في بلدان متعدّدة(556).

لقد وقع اختيارهم على بن لادن لاعتراف مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض بأهميته في بداية العام 1996. كانت أول مهمة للوحدة تتركز في رسم صورة واضحة لنشاطات بن لادن. جاء بعض الاهتمام بقضية بن لادن من قبل ريشارد كلارك، وهو موظف حكومي عين من قبل كلينتون مديراً لمكافحة الإرهاب في صيف العام 1995، في مجلس الأمن القومي، بموجب القرار الرئاسي الرقم 39. وكانت المعلومات حول بن لادن

بالإضافة إلى ذلك، تتجمّع وتنتشر وسط الاستخبارات. كان حجم المعلومات التي تصل من محطة الخرطوم ضخماً. وكان اسم بن لادن يظهر دائماً في التقارير الآتية من مصر والجزائر وتونس وإسرائيل وأماكن أخرى.

بدا في تلك المرحلة أن التقارير المتعلقة بالإرهاب كافة، ومصدرها شمالي أفريقيا، تنتهي بعبارة «أسامة بن لادن ممول الإرهاب». أصبحت «السي.آي.إيه.» ترى في بن لادن «أحد أهم ممولي الحركات الإسلامية المتطرفة في العالم»، كما ذكر مرة في تصريح علني. وخصصت ميزانية العام 1996 بعض الأموال لمركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»

ترأس توني لايك اجتماعاً داخل الوكالة، تمت بموجبه الموافقة على تخصيص الأموال لمركز بن لادن الوهمي في «السي.آي.إيه.». وقال ريتشارد كلارك لاحقاً إنه طلب إلى الـ «السي.آي.إيه.» والبنتاغون تطوير خطط «للعمل ضدّ القاعدة في السودان، عوضاً عن جمع المعلومات الاستخبارية فحسب، لكن أياً منهما لم يرسم خطة ناجحة».

بدأ العاملون داخل المركز الوهمي بوضع خطط لإلقاء القبض على بن لادن في وقت قريب، لكن المسؤولين والبيت الأبيض لم يوافقا على أي من هذه الخطط. فقد عرضت الوكالة اتّباع أسلوب جديد: «لنستأصل شبكة بن لادن هذه، وننتظر النتائج»، على ما يذكر أحد المشتركين(557).

لكن قبل أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليه، خرج بن لادن عن متناول أيديهم، وفرّ إلى أفغانستان.

كان مركز «السي.آي.إيه.» في السفارة الأميركية في الخرطوم عاصمة السودان، يتعرّض للتهديد خلال إدارة كوفر بلاك، بين العامين 1993 و 1995، من قبل أتباع بن لادن. وبعد محاولة إحباط اغتيال أو خطف بلاك، تطوع مخبر كان يمرّ بالقرب من السفارة بتقديم معلومات حول محاولة لقتل توني لايك في واشنطن (أوصل مسؤول موظف دولة في وزارة الخارجية الأميركية إلى لايك ضمانة من وزير الخارجية السوداني: «يقول إنه لا يريد أن يقتلك»، فأجابه لايك: «هذا ألعن ما سمعته، لكنني لا أحاول قتله أيضاً»). يتعرض ضباط «السي.آي.إيه.» والدبلوماسيون في القارة الأفريقية لمراقبة متواصلة من قبل السودانيين والأصوليين العرب في شوارع الخرطوم. وأفاد اثنان من عناصر «السي.آي.إيه.» عن تلقيهما تهديدات في شوارع الخرطوم، فتمت مناقشة هذه الحادثة داخل الوكالة. وحتى عندما تبيّن أن أحد العنصرين قدم إفادة كاذبة، لا يزال ملف التهديدات كبيراً ضد سفارة الولايات المتحدة وموظفيها.

يقع مجلس العدلية قبالة شارع مكتظ في وسط الخرطوم، وهو عرضة لتفجيرات السيارات، لكن الحكومة السودانية لم تستجب لطلب اتخاذ إجراءات أمنية جديدة. وخلال خريف العام 1995، قامت لجنة عمل الطوارئ في السفارة التي تضم مدير مركز الـ سي.أي.آيه. ومسؤول أمن وضابط

أمن وزارة الخارجية الأميركية ودبلوماسيين رفيعي المستوى، بإرسال برقية إلى واشنطن لطلب إقفال سفارة الولايات المتحدة في الخرطوم للحفاظ على أمن الموظفين الأميركيين. وفي هذه الحالة، سيتم إغلاق مركز «السي.آي.إيه.» في السفارة أيضاً، أي إن المركز سيخسر جمع المعلومات حول بن لادن(558).

اعتقد سفير الولايات المتحدة إلى السودان، تيموثي كارني، وهو ديبلوماسي واعد، أن هذه الفكرة رهيبة. وبرأيه أن زملاءه كانوا يبالغون في تصوير الخطر. فوافقه في الرأي كوفي بلاك، لكن تم نقل بلاك من الخرطوم إلى مهمة أخرى في صيف العام 1995، وكان خلفه في مركز الخرطوم يبدي حذراً كبيراً. شكك كارني في نزاهة بعض المصادر الاستخبارية حول مصدر معلومات لجنة عمل الطوارئ بخصوص التهديدات. ومن جهة أخرى، اعتقد أن إقفال السفارة سيعكس صورة خاطئة للسودانيين. فمن ضمن أهداف أخرى، اعتقدت الولايات المتحدة أنها يجب أن تضع حداً لدعم السودان لما تصفه بالإرهاب. وبرأي كارني، لن يتم ذلك إلّا بالتعاون المباشر مع حكومة الخرطوم. إذا قامت الولايات المتحدة بإقفال السفارة والانسحاب، فستترك السودان في عزلة ويأس.

إذا استطاعت الولايات المتحدة أن تتعامل مع الإسلاميين المتطرفين بحنكة مستفيدة من خبرتها معهم، ومميزة بين التحركات الدينية السلمية والجماعات المتشددة، فستتمكن عندئذ من تخفيف خطر الجماعات الموسومة من جانبها بالإرهاب. لكن عوضاً عن ذلك، استمرت في التحالف مع بعض الأنظمة في الشرق الأوسط، وإحباط التنظيمات الدينية في مصر، ما شجّع واشنطن على تجميع الجماعات الإسلامية كافة في مخيم «إرهابي» واحد. اعتقد كارني أن قصر البصيرة هذا من قبل الولايات المتحدة، سيدفع الحكومات مثل السودان إلى التطرف(559).

عندما أنشأ كارني مكتباً في الخرطوم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وجد برقية من لجنة أعمال الطوارئ تنص على إقفال السفارة. شعر بالرعب من أسلوب كتابتها وطريقة
انتهائها. لكنه كان دبلوماسياً في زمن حرب الفيتنام، وتعهد عدم مخالفة أمر أي برقية أميركية، حتى لو لم ترقه. فقد تعلّم كارني من الفيتنام أن الحكومة الأميركية تعمل بالشكل الأنسب عندما يملك صانعو القرارات الحجج كافة، حتى تلك التي لا يريد سماعها. فسمح للبرقية التي تنص على الإقفال بالوصول إلى واشنطن(560).

وبالاستناد إلى حججها الخاصة، نصح مدير «السي.آي.إيه.» جون دوتش البيت الأبيض بإقفال السفارة في الخرطوم. اجتمع مجلس الأمن القومي الخاص بكلينتون مرّتين أو ثلاثاً لمناقشة المسألة. واستنتج المجلس أن المحادثات السابقة مع السودان لم تسجّل أي تقدّم في تخفيف الإرهاب ومنع الحرب الأهلية ضد المتمردين المسيحيين في الجنوب. إذا كان إقفال السفارة سيساهم في عزل حكومة الخرطوم، فربما تكون هذه الإشارة المناسبة، برأي بعض المسؤولين المشاركين في المحادثات.

وركّز الألماني من جهته، على الجانب الأمني، فقال: «إن مخاطر البقاء في الخرطوم تفوق الفوائد»(561).

سافر كارني إلى واشنطن في محاولة لإقناع وارن كريستوفر بأن إقفال السفارة سيشكل خطأً فادحاً، شارحاً أن «السفارة هي الأداة»، و «يجب إبقاء الأداة في مكانها». لكن الألماني تشبث برأيه، مقتنعاً بأن مركز الخرطوم مكان خطير جداً للعمل. ولاحقاً، أذعن كريستوفر في شهر كانون الثاني/يناير 1996، لطلب الألماني. فعاد كارني إلى الخرطوم وأخبر وزير خارجية السودان بأن الولايات المتحدة ستنسحب بسبب التهديدات الإرهابية الموجهة إلى فريق عملها(562).

ثار غضب السودان. فالحكومة السودانية كانت تحاول أخيراً أن تحدّ من نفوذ الإسلاميين الأصوليين في البلاد. وبالتالي، فإن القرار الأميركي سيكون دلالة على أن السودان مكان غير آمن للاستثمار والسفر، وأنها دولة خارجة على القانون.

لا يستطيع كارني أن يفعل أي شيء. فقد تم اتخاذ القرار. في 6 شباط/فبراير من العام 1996، حضر احتفال عشاء خيرياً في منزل نائب الرئيس السوداني علي أسامة طه في الخرطوم. وفي تلك الليلة، دخل للمرة الأولى في نقاش جدي مع طه حول اتهام بلاده للسودان بدعم الإرهاب. قام كارني بإخباره أنه يجب على السودان أن تقدم دلائل على تعاونها إذا كانت تريد من واشنطن إعادة النظر في قرارها، مشيراً إلى أن بن لادن هو السبب الرئيسي في مشاكل السودان بالنسبة إلى واشنطن. كان القرار الأميركي حاسماً، لا لبس فيه: يجب على السودان أن تقوم بطرده، وتزوّد الولايات المتحدة المعلومات اللازمة حول مصادره المالية ودعمه للإرهاب في شمالي أفريقيا(563).

قامت السودان بمساعدة كارني، بإرسال مبعوث سري إلى واشنطن بعد شهر واحد، هو الجنرال الفتيح إروا، لإجراء المزيد من المفاوضات. اجتمع إروا بكارني واثنين من ضباط «السي.آي.إيه.» من فرع أفريقيا في فندق «هييات» في روسلين - فيرجينيا. وفي 8 آذار/مارس 1996، التقى ضباط «السي.آي.إيه.» إروا على انفراد، وسلموه لائحة مطالب عملت عليها ودعمتها مجموعة عمل في البيت الأبيض. لقد اشتركت كلّ من «السي.آي.إيه.» ومجلس الأمن القومي والبنتاغون ووزارة الخارجية الأميركية في وضع هذه اللائحة. وحملت اللائحة المؤلفة من صفحتين عنوان «الإجراءات التي يجب على السودان اتخاذها لتحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة». ويشدد البند الثاني في اللائحة على إعطاء المعلومات حول أتباع بن لادن في الخرطوم: «تزويدنا معلومات حول الأسماء والعناوين والتواريخ للوصول والانطلاق والوجهات وجوازات السفر الخاصة جميعها بالجهاديين الذين قام بن لادن بإدخالهم إلى السودان». كما طلبت المذكرة تزويد الولايات المتحدة تفاصيل حول أصحاب بعض السيارات والشاحنات التي كانت تقوم بمراقبة فريق عمل «السي.آي.إيه.» في الخرطوم(564).

لم تنصّ المذكرة صراحة على طرد بن لادن من السودان، لكن تجلّت الفكرة بوضوح خلال المفاوضات مع إروا والآخرين. يبدو أن بن لادن علم بشأن المحادثات. وللمرة الأولى، سمح لصحافي أميركي بإجراء مقابلة معه في مجمّعه في الخرطوم. قال بن لادن: «المذنب بريء حتى تثبت إدانته. لكن، لا ينطبق هذا المثل على المقاتلين الأفغان. إنهم إرهابيو العالم. لكن الضغط عليهم لن يفيد بشيء سوى بزيادة الإرهاب»(565).

في الأعوام اللاحقة أصبحت مسألة تسليم السلطات السودانية لبن لادن إلى الولايات المتحدة، موضوع جدل. كانت الحكومة السودانية تؤكد أنها قدّمت هذا العرض. ومن جهتهم، كان المسؤولون في الولايات المتحدة ينفون صحة هذا الكلام. لقد قال مسؤول في وزارة الخارجية السودانية: «أخبرنا الأميركيين بأننا مستعدون لتسليمه لو أنهم يملكون ضده أدلة قانونية».

«سنقوم بتسليمه شرط توافر قضية قانونية بحقه». لكن معظم المسؤولين الأميركيين المطلعين على المحادثات نفوا علمهم بهذا العرض. وتوصّل لاحقاً المحققون في اللجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية إلى عدم وجود أي «دليل موثوق به» يدعم ادعاء السودان تقديمها هذا العرض(566).

أما في البيت الأبيض، فعقدت لجنة المساعدة في مكافحة الإرهاب، مفاوضات افتراضية للبحث في الشرعية القانونية لاحتجاز بن لادن: هل ستقوم وزارة العدل بإدانته؟ هل تتوافر الإثباتات لإنشاء محكمة؟ وخلال الاجتماع، قال ممثل قضائي إنه يستحيل احتجاز بن لادن في الولايات المتحدة لعدم توافر دليل اتهام ضده، وفقاً لساندي بيرغر، ومن ثم مستشار نائب رئيس مجلس الأمن القومي. كان بيرغر يعلم من جهته، بعدم توافر أي معلومات استخبارية تبين أن بن لادن ارتكب جريمة ضد أحد المواطنين الأميركيين(567).

هذا كل ما تمكّن البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.» من الحصول عليه من الناحية القانونية. وبشكل خاص، كان المدعون الفدراليون يفكرون في فتح تحقيق قضائي كبير حول دعم بن لادن للإرهاب، وربما ستكون هذه الحجّة التي يستطيعون من خلالها توجيه اتهام إليه. غير أن القانون الأميركي يمنع المدعين أو عملاء الـ «أف.بي.آي.» الذين يعملون معهم، من إطلاع أي أحد في الحكومة حول التحقيق. فحافظوا على سرية الدلائل(568).

اعتقدت الولايات المتحدة أن المملكة العربية السعودية هي المكان الأمثل لإرسال بن لادن إليه واحتجازه هناك. لقد تم طرد بن لادن من المملكة بسبب أعمال شغب ضدّ الحكومة. وهناك فرصة أيضاً في أن تقبل دولة عربية أخرى، معرضة لخطر الإرهاب من الإسلاميين المتشددين وتتلقى

أموالاً من بن لادن، استقباله لمجرد المحاولة. لذلك، سألت الولايات المتحدة عبر قنوات «السي.آي.إيه.» المملكة العربية السعودية ومصر والأردن، كل واحدة على حدة، إذا ما كانت توافق على احتجاز بن لادن. لكن، لم تستجب أي منها. ويقول لايك إن استراتيجية الولايات المتحدة في ذلك الوقت، كانت تتلخص في «دفعه إلى الاستمرار في تحركاته». أخبرت الولايات المتحدة الحكومة السودانية، بأن المملكة العربية السعودية رفضت المحاولة مع بن لادن. لم يوضح السعوديون أسباب رفضهم، لكنه بدا واضحاً، لفريق الأمن القومي، أن العائلة الملكية تخشى حدوث اضطرابات ضد الحكومة إذا أقدمت على سجن بن لادن أو إعدامه. وفي هذا السياق، قال كلينتون: «السعوديون يخشون عدم قدرتهم على تحمّل هذه المشكلة الكبيرة، وأنا أفهمهم تماماً. لم نستطع إدانته لأنه لم يقتل أي شخص أميركي. لم يفعل أي شيء ضدّنا». أما بالنسبة إلى حكومتي مصر والأردن، فإذا كانت الاستخبارات السعودية والعائلة السعودية الملكية رفضتا إلقاء القبض على بن لادن وتحمّل مخاطر سياسية بسببه، فلماذا هما ستفعلان؟(569).

وعلى الرغم من ذلك، بدأت الحكومة السودانية المباحثات مع المملكة العربية السعودية حول طرد بن لادن إلى المملكة ثانية، بحسب معلومات من مسؤولين من الجانبين. وأثناء زيارة الجنرال إروا السرية واشنطن، كان الرئيس السوداني عمر البشير يسافر إلى السعودية لتأدية مراسم الحجّ في الأماكن المقدّسة في مكة. والتقى هناك ملك السعودية (حالياً، ولي العهد في ذلك الوقت) الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وهنا تختلف الوقائع بين الفريقين. فوفقاً لرئيس الاستخبارات السعودية الأمير تركي الفيصل، أخبر الأمير عبد الله البشير بأن المملكة العربية السعودية «يُسعدها» أن تأخذ بن لادن تحت وصايتها. لكن البشير أصرّ على عدم إقامة أي «دعوى» بحق بن لادن في المملكة. فأجابه عبد الله فوراً: «لا أحد فوق القانون في المملكة». ووفقاً لتركي رفضت السعودية استقبال بن لادن بسبب الشرط الذي وضعته السودان(570).

لكن مسؤولاً سودانياً أخبر ما دار في المباحثات بشكل مختلف. فبحسب أقواله، أعلن الأمير تركي والأمير عبد الله عدم اهتمامهما بالموافقة على محاكمة بن لادن في السعودية. وخلال لقاء البشير والأمير عبد الله في مكة، طلب إليه العفو عن بن لادن بسبب كتاباته وآرائه السياسية المستفزّة ضد العائلة المالكة. لكن السودان نفت أنها أصرّت على عدم إقامة أي دعوى ضد بن لادن. ويقول البشير إن السعوديين «لم يذكروا قط خلال محادثاته العديدة معهم، أنهم يتهمون بن لادن بأي شيء. لكن جلّ ما طلبوه منا هو إرساله بعيداً». ووفقاً لبعض المسؤولين السودانيين، تتصرف المملكة على أساس أن بن لادن «لم يعد مواطناً سعودياً. ونحن لا نكترث إلى أين يذهب، لكن بقاءه في السودان سيضرّ بعلاقاتنا»(571). فقد قال رئيس مجلس النواب السوداني شرف الدين بناكا، الذي كان مشاركاً في المحادثات، إن السعوديين أوضحوا لهم أن بقاء بن لادن في السودان يُعتبر «حاجزاً في وجه تطوّر علاقات البلدين»(572).

من الصعب تحديد ما جرى. وفي كلتا الحالتين، لا بد من أن العلاقات الشخصية الطويلة بين بن لادن والاستخبارات السعودية، كانت العامل الأساسي وراء الموقف السعودي. يذكر

أن رئيس فريق عمل الأمير تركي، أحمد باديب، حزن على مصير بن لادن عندما علم بنبأ طرده من السودان للمرة الأولى. وقام أحد أشقاء بن لادن بإخبار باديب بأن «أسامة لم يعد الشخص عينه الذي عرفته في الماضي»، ما دفع باديب إلى القول: «لقد أحببت أسامة واعتبرته مثالاً للمواطن السعودي الصالح»(573).

اعتبر المسؤولون في مكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، العرض السوداني بتسليم بن لادن إلى السعودية مخادعاً. فالسودان تعلم بأن المملكة العربية السعودية لن توافق على إعادة بن لادن. كان الأميركيون متيقنين أن العرض السوداني هو طريقة آمنة للتملّق لواشنطن(574).

وفي كل الجوانب، كانت المملكة العربية السعودية تمتلك فرصة حقيقية في بداية العام 1996 لتأخذ بن لادن تحت رعايتها. لقد قام الملك عبد الله بنفي الخبر عن الصحافة. كانت العائلة الملكية السعودية تعتبر بن لادن مصدر إزعاج، لكنها لم تكن قط مستعدة لمواجهته.

لم تتصرف السودان بالشكل المناسب في ما يتعلق بلائحة المطالب التي قدمتها «السي.آي.إيه.» في شهر آذار/مارس. وتوصل الرئيس البشير إلى أنه لن يستطيع كسب ثقة واشنطن أبداً وجذب الاستثمارات الأميركية ما دام بن لادن يتمركز في الخرطوم. قام البشير بإخبار بن لادن بالرحيل عن طريق وسيط. فأجابه بن لادن وفقاً لمسؤولين سودانيين مطلعين: «سأرحل إن كان في ذلك خير لك. لكن دعني أقل لك أمراً واحداً: لن يدعك الأميركيون في حالك، سواء أرحلتُ أم بقيتُ»(575). أصبح أسامة بن لادن واثقاً الآن بهوية مضطهِديه الأساسية. فعقيدته السياسية تولد الأعداء من حوله، لكن الولايات المتحدة هي من تدفعه إلى الرحيل اليوم. لا أحد يعلم إن كان بن لادن اكتشف أي محاولات لنفيه إلى أفغانستان. ويقول محمد المصري، وهو منشقّ سعودي، إنه حذّر بن لادن غير مرة من أن «السودان ليست المكان المناسب لإقامته. ففي يوم ما سيبيعونك للسعوديين». وطلب إلى بن لادن أن يجد قاعدة بديلة له. وفي مرحلة ما، خلال ذلك الربيع، اتصل بن لادن بأفغان في جلال آباد تعرّف إليهم خلال مرحلة الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي. «يقولون إنك على الرحب والسعة»، هذا ما نقله إليه أحد المسؤولين السودانيين. «لقد كانوا يعتبرونه رجلاً مقدّساً». استأجرت الحكومة السودانية طائرة أريان أفغانية، وسهّلت رحيل بن لادن. وبحسب أقوال مسؤول سوداني، يتطلب الأمر رحلتين ذهاباً وإياباً إلى جلال آباد لنقل بن لادن وزوجاته الثلاث وأولاده ومفروشاته وأتباعه(576).

وبحسب الأمير تركي ورئيس فريق عمله، أحمد باديب، اتفق بن لادن مع دولة صغيرة في الخليج العربي، هي دولة قطر، للهبوط فيها والتزود بالوقود. وقطر هي دولة خليجية صغيرة تقع على حدود المملكة العربية السعودية، كانت على خلاف مع جارتها الكبرى على مدى أعوام، وكانت في وسط دوامة خلاف مع العائلة الملكية السعودية. كان الأصوليون الإسلاميون يملكون مكتباً في وزارتها للشؤون الدينية. وقد وقع اختيار بن لادن على دولة قطر «لتمتّعها بعلاقات جيّدة مع السودان واليمن»، ولأنها «أكثر أمناً من أي بلد آخر» يقع بين السودان وأفغانستان وفقاً لباديب.

لكن المحققين الأميركيين أفادوا لاحقاً، بحسب خليل الشيخ محمد، بأن بن لادن لم يتزود بالوقود في دولة قطر، بل بالقرب من دولة الإمارات العربية المتّحدة. وفي جميع الأحوال، أقلع بن لادن إلى أفغانستان، ما إن تزوّد بالوقود(577).

لم تقم السلطات السودانية بإبلاغ كارني والبيت الأبيض برحيل بن لادن إلا بعد مغادرته البلاد. لم تراقب «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد وصول بن لادن إلى مطار جلال آباد لعدم توافر مصادر ناشطة لديها في تلك المنطقة(578).

قام بن لادن، الغاضب، بعد أسابيع من وصوله إلى جلال آباد، بإخبار صحافي بريطاني زاره في المخيم الجبلي في شرقي أفغانستان، بأن الأميركيين «هم الأعداء الأساسيون» للمسلمين في أنحاء العالم كافة. «أما السلطات في المملكة العربية السعودية فكانت بمنزلة «العدو الثانوي»». كان العالم، بالنسبة إلى بن لادن، سيشهد قريباً «بداية الحرب بين المسلمين والولايات المتحدة»(579).

كانت الرحلة الفريدة من السودان بداية مشؤومة لمركز بن لادن في «السي.آي.إيه.» ومكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض. بدأت الأمور تزداد سوءاً خلال الأشهر الأولى من العام 1996. كانت «السي.آي.إيه.» تبحث عن خليل الشيخ محمد منذ إلقاء القبض على رمزي يوسف في بداية العام 1995، واكتشاف دلائل حول تورطه في تفجير طائرات أميركية فوق المحيط الهادئ. اكتشف المحققون بعد إلقاء القبض على يوسف، مبلغاً بقيمة 660 دولاراً محولاً إلى محمد من قطر إلى نيويورك لمساعدة منفذي التفجيرات في مبنى التجارة العالمي. وعندما حصلت «السي.آي.إيه.» على التسجيل اللاسلكي وحقّقت فيه، تأكد المسؤولون أن محمد كان عم يوسف، وتزوج بأخت زوجته. ومن خلال العمل على
فكّ خيوط اكتُشفت بين أغراض يوسف، نجح المحققون في تتبع تحركاته. وحصلت «السي.آي.إيه.» على دلائل تفيد باختبائه في قطر. قامت الوكالة بتتبعه إلى قطر حيث كان يعمل مهندساً ميكانيكياً في مصلحة المياه. وسأل البيت الأبيض «السي.آي.إيه.» إذا كانت تستطيع إلقاء القبض على محمد بسرعة، وتطير به إلى الولايات المتحدة. فأوضحت الوكالة أنها لا تملك الضباط ولا العملاء اللازمين للقيام بهذه المهمة في قطر. كان يُعرف عن وزير المنح الدينية القطري، الشيخ عبد الله بن خالد آل ثاني، بإيواء أتباع بن لادن من أتباع الحركات الإسلامية. فإذا طلبوا مساعدة دولة قطر في إلقاء القبض على بن لادن، فسيتم تبليغ محمد بالتأكيد. استشار البيت الأبيض البنتاغون للتخطيط لإنزال القوات الخاصة لخطف محمد. قدم البنتاغون خطة على نطاق واسع تتضمن إطلاق طائرات من البحرين، ومن ثم إرسال قوّة جوية صغيرة بواسطة الهيليكوبتر إلى قطر. ترأس مستشار نائب رئيس مجلس الأمن القومي ساندي بيرغر اجتماعاً في البيت الأبيض لدراسة هذه الخطة. المشكلة الوحيدة التي واجهها البنتاغون هي أن البحرين وقطر كانتا على خلاف أخيراً بسبب التنازع على جزر في الخليج. فماذا لو اعتقدت قطر أن طائرات الهيليكوبتر قوة هجوم قادمة من البحرين؟ ففي محاولة للقبض على مشتبه فيه واحد بسرية، ستكون الولايات المتحدة قد بدأت حرباً عن غير قصد. أما وزارة العدل فنوّهت بمشاكل قانونية متعلقة بخطّة

البنتاغون. لفت البيت الأبيض إلى أنه كان في خضم التفاوض في اتفاقية تأسيس قاعدة جوية في قطر. لكن، في النهاية، تم التغاضي عن هذه الخطة. وراح المحققون ينتظرون صدور اتهام رسمي ضد محمد. حصلوا على الاتهام في كانون الثاني/يناير من العام 1996. وتحركت الـ «أف.بي.آي.» لاعتقاله بالطرائق الدبلوماسية الاعتيادية. أخبرت حكومة قطر الولايات المتحدة بفرار محمد. فكتب مدير الـ «أف.بي.آي.» الغاضب، لويس فريه، إلى وزير الخارجية القطري رسالة حازمة: «تلقّيت معلومات مزعجة حول فرار محمد مرة ثانية من مراقبة أجهزتكم الأمنية له، وأنه على علم باهتمام الـ «أف.بي.آي.» بأمره». لم تفهم «السي.آي.إيه.» قط إعجاب محمد بحرب بن لادن الشاملة: لم يوكل مكتب مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» قضيته إلى وحدة بن لادن، لكنه استمر في مطاردته على انفراد لكونه متطرفاً لا ينتمي إلى أي جماعة أو حزب(580).

كانت هذه بداية أسلوب جديد سيستمر عدة أعوام، بينما كانت تتعمّق حرب إدارة كلينتون السِّرية على بن لادن وشبكته الإرهابية. كان الإسلاميون يتمتعون ببعض التحالفات الجيدة في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. كان حجم القوة العسكرية التابعة لـ «السي.آي.إيه.» صغيراً جداً. وكان المسؤولون في البنتاغون يفكرون في العمليات الهجومية على نطاق واسع. أما الاستخبارات التكتيكية عن العدو فكانت غير متناسقة وسريعة الزوال.

إذا كانت الحملة ضد بن لادن ستكون واسعة بهذا الشكل، فعليهم أن يتعلموا أن يُسلكوا الخيط في خرم الإبرة.

في الوقت الذي وصل بن لادن إلى أفغانستان، كان يسيطر على جلال آباد، أو يحكمها مجلس شورى محلي من زعماء قبائل الباشتون الشرقية وقادة الحركات التي قاتلت الاتحاد السوفياتي السابق. ومعظمهم متورط في عمليات التهريب والابتزاز التجارية على الحدود الباكستانية. لقد قاوموا عروض الانضمام إلى طالبان، وبقوا على مسافة بعيدة من حكمتيار ومسعود أيضاً. أما معلّمهم الأبرز فهو حاجي قدير، الملقب بعمدة جلال آباد. وفي زمن الاتحاد السوفياتي، كان زعيمهم هو يونس خالص، وهو رجل في العقد الثامن من العمر كان يتزوج بنساء في سن المراهقة. حافظ خالص وزعماء الشورى الآخرون على علاقاتهم بالاستخبارات الباكستانية(581). وبالتأكيد، كان بن لادن على معرفة ببعض مجموعات جلال آباد منذ الثمانينيات وبداية التسعينيات، وبقي على اتصال بهم خلال سنيّ إقامته في السودان. قد يكون حافظ أيضاً على علاقة ما بالمخابرات الباكستانية. من الواضح أن بن لادن لم يسافر إلى المناطق التي تسيطر عليها طالبان في أفغانستان. وقد توصل بعض المحللين الأميركيين لاحقاً إلى أن بن لادن قام بإرسال الأموال إلى طالبان قبل مدة من عودته إلى أفغانستان(582). ويبدو أن بن لادن لم يكن يتمتع بعلاقات طيّبة مع قيادات الطالبان المنعزلة والصارمة والغامضة ليضع نفسه وعائلته تحت سلطتها.

كانت حركة طالبان تدخل في مرحلة جديدة من السلطة والطموح مع وصول بن لادن. لم تعد قياداتها ولا عناصرها قط أولئك القوم المتواضعين والاستشاريين من الباشتون من أواخر العام 1994 وأوائل العام 1995. لقد تطوّروا ليشكلوا حركة سياسية - عسكرية لها أهداف وطنية. استمر بعض قادتها مثل الملاّ ربّاني، وهو المفضّل بالنسبة إلى الأمير تركي، بالتلميح إلى زوّاره الأجانب والدبلوماسيين الأميركيين، بأن حركة طالبان ليست إلا قوة انتقالية. وكان يقول هو وقادة الطالبان الآخرون «المعتدلون»، كما بدأ يدعوهم بعض الدبلوماسيين الأميركيين، إن حركة طالبان ستنظف أفغانستان من مجرمي الحرب، وتخلق بداية سياسية جديدة، وربما تساهم في عودة الملك المنفي. لكن هذه الادعاءات لا تنطبق مع المشاهد المتنامية التي كانت تعكس نهم الطالبان إلى السلطة. وناصب قادتها العداء علناً
حكومة مسعود المصون في كابول، واعتبروها «سبب كل علّة في أفغانستان»(583).

في الأسابيع الأولى من ربيع العام 1996، دعا الملاّ عمر أكثر من ألف زعيم قبلي ورجل دين من الباشتون إلى قندهار، لاجتماع كبير (كان بمنزلة مؤتمر) مدة أسبوعين. واعتُبر أهم اجتماع سياسي علني للباشتون تحت قيادة حركة طالبان منذ تأسيس الحركة. اختار عمر المكان والرموز الدينية المناسبة له بعناية. وفي أوج الاجتماع، دعا الممثلين إلى الحجر العظيم ومربّع الآجرّ عبر مقرّ حكومة قندهار. وينتصب قبر الملك أحمد شاه درّاني وسط قضبان المربّع والجامع المطعّم بالآجر لعباءة النبي محمد.

تسلّق عمر سقف الجامع وكشف عن العباءة المقدّسة. وبينما راح الجمهور يهتف تشجيعاً له، لفّ نفسه بها، فأعلنته الجموع على الفور أميراً للمؤمنين. لقد نصّبوا قائداً جديداً على الأراضي الشاسعة التي تقع تحت سيطرة طالبان: إمارة أفغانستان الإسلامية. وراحوا يدعون إلى الجهاد ضد مسعود. وبعضهم راح يصف ظاهر شاه بالمجرم. لقد بايعوا ملكهم الأعور، محاطين ببقايا رموز إمبراطورية الدّراني الضائعة(584).

حاولت روبن رافيل بنفسها، أن تثير داخل إدارة كلينتون، حالة من الطوارئ تجاه محادثات السلام التي قامت بها الأحزاب الأفغانية كافة، ثم لقيت الدعم من الأمم المتحدة. كما حصلت رافيل على تشجيع بعض أعضاء الكونغرس، لكن من دون أي دعم من البيت الأبيض. واعتبر مكتب وزارة الخارجية لشؤون جنوبي آسيا، الذي تديره رافيل، أن الطالبان كفصيل، مقيتة، لكنها منظّمة أضيفت إلى لائحة الفصائل الأفغانية. أصبحت الولايات المتحدة الآن على اقتناع بوجهة نظر باكستان حول إشراك قادة الحركات في محادثات السلام. ومن خلال دعمها حركة طالبان وأكاذيبها العلنية المستمرة، استطاعت باكستان أن تفرض حركة طالبان أمراً واقعاً في السياسة الدولية، وتقبّلت الولايات المتحدة شرعيتها. وكانت رافيل، في الوقت عينه، تشير في تقاريرها العلنية باستمرار، إلى أن الولايات المتحدة تعارض الجهود كافة التي ترمي إلى حلّ المسألة الأفغانية من خلال انتصار عسكري حاسم لمصلحة أي جهة، إن كان على يد مسعود أو الطالبان.

سافرت رافيل إلى كابول وقندهار وإسلام آباد، في 19 و 20 نيسان/أبريل من العام 1996، فقال لها أحد زعماء الطالبان في عاصمة الباشتون «أن تخبر الرئيس كلينتون والغرب بأنهم ليسوا أشراراً». لكن رافيل وسفير الولايات المتحدة توم سايمونز استنتجا أن رسالة طالبان المتواضعة والبسيطة، قد تعكس «وعياً متزايداً، كان غائباً في الماضي، حول صلاحيتهم الخاصة». فقام سايمونز بإرسال برقية بذلك إلى واشنطن. أخطأت رافيل والسفير في اعتقاد «التوصل إلى إجماع» بين الحكومة الباكستانية المدنية والقيادات العسكرية حول الحاجة إلى توسيع سياساتها إلى أفغانستان. ومثلما فعلت سابقاً، قامت بوتو بالكذب على رافيل خلال الاجتماعات، وشدّدت على أن باكستان «لا تدعم حركة طالبان عسكرياً، وأصرّت على أنها قدّمت مساعدة صغيرة غير مؤذية». فهمت رافيل عدائية باكستان تجاه مسعود، وردّدتها خلال اجتماعاتها مع القائد الأفغاني في كابول. كان مسعود يخطط لإرساء الديموقراطية في أفغانستان، لكن رافيل وسايمونز صرفا النظر عن هذا «السيناريو المتفائل» في برقية سرّية إلى واشنطن، وأدانا حكومة مسعود المحاصَرة. فالأميركيون سيتجنبون مسعود ومساعديه بسبب نصيحة رافيل. وبرأي أحد ضباط الاستخبارات التابعين لمسعود، فإن رافيل تمثل تهديداً لأفغانستان «في تهديدها الاستقرار في باكستان». كان مسعود ومستشاروه في جهاز المخابرات، يخشون أن تكون «السي.آي.إيه.» قد وحدت جهودها مع المخابرات الباكستانية لتخطط لسيطرة حركة طالبان على كابول، لخلق أجواء مناسبة لمشروع خطوط أنابيب أونوكال. لقد وقّعت حكومة مسعود اتفاقاً مع خصوم أونوكال الأرجنتينيين الذين وضعوا في حساب أحد مستشاريه في نيويورك دفعة قدرها مليون دولار. لذلك، فهم يخشون أن يتم اعتبارهم أعداء لأونوكال، وبالتالي أعداء للولايات المتحدة(585).

في الواقع، لا أحد في واشنطن يكترث للتآمر ضد السياسات الأفغانية. لكن رافيل وزملاءها في وزارة الخارجية، استمرّوا خلال ذلك الربيع، بسماع اتهامات حول دور «السي.آي.إيه.» في مؤامرة أونوكال في أفغانستان، مراراً وتكراراً.

ساهمت العمليات السرية على امتداد عقود في الثمانينيات، في تصوير «السي.آي.إيه.» للباكستانيين والأفغان سلطة قوية تؤثر في شؤونهم. سمعت رافيل وزملاؤها بمؤامرة الطالبان وأونوكال و «السي.آي.إيه.»، وعرفوا عنها تفاصيل موثوقاً بها إلى درجة أن رافيل سألت لانغلي مرات قليلة للتأكد من عدم صحة هذه الإشاعات. كانت على ثقة بنزاهة «السي.آي.إيه.».

ذكرت رافيل علناً، أكثر من أي مسؤول أميركي آخر، الخطر الذي يشكله عدم الاستقرار الأمني في أفغانستان. فالبلاد أصبحت «طريقاً للمخدرات والمجرمين والإرهابيين الذين سيقللون من شأن باكستان ودول آسيا الوسطى المجاورة، وستتعدى آثارها أوروبا وروسيا». وحذّرت من أن الحوادث الإرهابية في الشرق الأوسط كافة، تعود إلى مخيمات التدريب الأفغاني. وراحت تبرهن أن معتقدات الطالبان المتشدّدة في الإسلام، تتحدّى القيم والتقاليد الأفغانية، لذلك يجب أن يتحول توازن القوى نحو عقائد معتدلة. لكن نصائحها السياسية كانت مبهمة، ولا تشمل المصالح التجارية. وخلال زيارة رافيل إلى كابول في ذلك الربيع، صرّحت بأن الولايات المتحدة

قلقة من عدم الاهتمام بالمصالح الاقتصادية في إرشاداتها. فأخبرت نظيرها الروسي خلال اجتماع خاص، أن الولايات المتحدة «تأمل أن يساهم إحلال السلام في المنطقة، في تسهيل مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية». فأعلنت في إسلام آباد، أن مشروع خطوط أنابيب أونوكال سيعود بالفائدة على تركمانستان وباكستان وأفغانستان أيضاً، ولن يوفر فرص العمل فحسب، بل سيبثّ الحياة في أفغانستان(586).

كان موسم العلاقات الدبلوماسية الأميركية رخيصاً. فبعد أعوام من الانسحاب وعدم الالتزام، اقتصرت السياسة الأميركية على لغة عقد الصفقات. وفي غياب البديل، اعتبرت وزارة الخارجية برنامج أونوكال كبرنامجها الخاص. لكن مهما تكن فوائد المشروع، فقد قضت الأهمية الكبيرة التي نعم بها في العام 1996، على رسالة السلطة الأميركية وفحواها. فتساهل الولايات المتحدة مع حركة طالبان، كان يعود إلى أهداف مالية لشركة نفطية بشكل علني، وكان معقّداً أيضاً. يصل عدد قتلى الحرب الأفغانية من زمن اجتياح الاتحاد السوفياتي حتى اليوم إلى حوالى 5,1 ملايين أفغاني. أصبحت البلاد مقفرة إلا من المناجم. ويبلغ معدل أمد حياة الأفغاني حوالى ستة وأربعين عاماً فقط، وتحتل البلاد المرتبة الـ 173 من أصل 175 بلداً على لائحة الأمم المتحدة للتنمية البشرية(587). وبرغم ذلك، كان المسؤولون الأميركيون كافة، المهتمون بأفغانستان، يتحدثون عنها من منطلق كونها منطقة إنعاش اقتصادي خالية من الضرائب، ومكاناً حيث التعليم المهني في مجال علم المعادن قد يقود إلى خرق سياسي.

بالنسبة إلى الأفغان أنفسهم، كان السؤال الجوهري خلال عودة بن لادن، هو القوة العسكرية لحركة طالبان. ولأكثر من عقد من الزمن، كان المفتاح الرئيسي إلى السلطة الداخلية في أفغانستان، هو النفاذ إلى الإمدادات العسكرية الخارجية والأموال، ولاسيما من باكستان. وهنا أيضاً كانت تتغيّر المعطيات.

أما في إسلام آباد، داخل المجالس السرية في مجلس الأمن القومي، فقد دخلت بنازير بوتو مرحلة جديدة من الصراع مع الاستخبارات الباكستانية حول حركة طالبان. ومع حلول ربيع العام 1996، استسلمت لطلبات الاستخبارات الباكستانية الملحة لدعم الميليشيا الإسلامية بشكل سري وغير محدود. لكن، مع ازدياد قوة الطالبان ومساحة الأراضي التابعة لها، تعلّقت بوتو وحلفاؤها المدنيون بأمل نجاحهم في استغلال الطالبان لإجراء مفاوضات تضم الأطراف السياسية كافة للتوصل إلى اتفاق تحت رعاية الأمم المتحدة. ووفقاً لبوتو، طلب مدير الاستخبارات الباكستانية، نسيم رنا، وعدد من جنرالاته الكبار، تزويد الطالبان بالأسلحة والعتاد، وتدريب عناصرها في محاولة للسيطرة على العاصمة كابول. إذا استطاع الطالبان السيطرة على عاصمة أفغانستان، برأي ضباط الاستخبارات الباكستانية، فستكون باكستان قد حققت أخيراً حلم الجنرال ضياء الحق: حكومة إسلامية مخلصة في كابول بقيادة الباشتون.

رفضت بوتو طلبهم. كانت خائفة من أن توسّع حكومة طالبان معاركها القتالية إلى داخل آسيا الوسطى، فتضرّ بالعلاقات التجارية التي أقامتها باكستان هناك. فرأت من الأفضل استغلال نفوذ طالبان للمضي في مفاوضات تؤول إلى اتفاق سلام في أفغانستان سيضم مسعود وميليشيات عرقية أخرى من الشمال تتمتع بعلاقات قوية مع دول آسيا الوسطى.

لجأت بوتو إلى طلب الدعم من قائد الجيش العلماني، الجنرال جيهانغير كرامات، القائد الأعلى للجيش الباكستاني. قالت بوتو في هذا السياق: «عندما تزداد الضغوطات علي، سأعقد اجتماعاً مع قائد الجيش ووزير الدفاع وكبار الضباط العسكريين، مثل قائد القوات الجوية وقائد البحرية، وهم سيدعمون قراري بالتعاون مع الأمم المتحدة»(588). لكن الاستخبارات الباكستانية كانت تلحّ وتلحّ في طلبها. كان جلياً نيتها دفع طالبان إلى السيطرة على كابول من دون علم بوتو. لكنها لم تعرف إذا ما كانت الاستخبارات الباكستانية تجنّبت أوامر كرامات، أو تلقت إشارة دعم من قائد الجيش. وخلال هذه الفترة، استمرت رئيسة الوزراء ومساعدوها في الكذب على الولايات المتحدة حول طبيعة الدعم السري الباكستاني لطالبان، وحجمه.

مع اقتراب طالبان من أبواب كابول، في نهاية ربيع العام 1996 وبداية صيفه، تحدّث سفير الولايات المتحدة إلى باكستان، توم سايمونز، غير مرة، إلى كرامات وإلى جنرالات آخرين رفيعي المستوى. بدا لسايمونز أن الجيش الباكستاني وقع ضحية زخم سياساته الخاصة في أفغانستان. أما العلمانيون البنجابيون الرفيعو المستوى، فينظرون إلى طالبان
بتهكّم، ويُبدون قلقهم من احتمال تمهيدها «لحرب لا تنتهي» و «استنزاف باكستان حتى تضعف». لكن الجنرالات أخبروا سايمونز «بأنهم يشعرون بأنه ليس لديهم بديل، أي بديل واقعي أمام البلاد»(589).

حلّ خريف كابول بسرعة كبيرة. استعجل معه أسامة بن لادن، الذي أصبح أغنى شيوخ أفغانستان.

شنت قوات طالبان في شهر آب/أغسطس، هجوماً مفاجئاً على «شورى» جلال آباد. هرب حاجي قادر والمرحبون الأساسيون بقدوم بن لادن عبر الحدود الباكستانية. سيطر الطالبان على المنطقة، وأصبح بن لادن في المناطق الخاضعة لسيطرتها. يُذكر أن المملكة العربية السعودية دفعت حولى 3 ملايين دولار من خزينتها للقادة الباقين في مواجهة طالبان وحكومة كابول، كما أن بن لادن كان يعاني ضغوطات مالية في ذلك الحين. وقد يكون الطالبان أيضاً قد جمعوا الأموال لهذه الرشى من مناصرين سعوديين وخليجيين آخرين، ومن مافيا قطّاع الطرقات وتجار المخدرات والاستخبارات الباكستانية ومصادر أخرى(590).

أمضى بن لادن صيفه الأول في أفغانستان في كتابة «فتوى» طويلة حول حلف الأعداء الذين أوصلوه إلى هذا المنفى. وتوصل بن لادن من خلال «إعلانه الجهاد المقدس ضد الأميركيين المحتلين المكانين المقدّسين»، إلى مهاجمة العائلة السعودية الحاكمة بسبب تحالفها مع الأميركيين.

واحتج على «ملاحقته في باكستان والسودان وأفغانستان». كان يسمي جنته الجديدة بـ «خراسان»، إشارة إلى مملكة إسلامية ضائعة سيطرت في ما مضى على آسيا الوسطى. وقام بإرسال إعلانه إلى الصحف في لندن بواسطة الفاكس، بينما توجهت حركة طالبان بشاحناتها السريعة إلى كابول(591).

خسر مسعود العاصمة الأفغانية بعد محاولته عقد تحالف مع عدوه السابق قلب الدين حكمتيار. وخوفاً من تخلي الاستخبارات الباكستانية عنه لمصلحة الطالبان، اتصل حكمتيار بمسعود لطلب المساعدة. لم يكن أمام مسعود متّسع من الخيارات. غير أن ميليشيا حكمتيار غير الجديرة بالثقة، ساهمت في توسيع مجاله الدفاعي شرقاً وجنوباً، وأبقت الطالبان على مسافة بعيدة عن كابول. لكن حكمتيار استمر في إلحاحه على مسعود بإخراج قواته من قلب العاصمة كابول لمهاجمة طالبان. كلما كان حكمتيار قلقاً، كان يقول وفقاً لمسعود: «إنهم ملتزمون بخطة. لقد سيطروا على باكتيا... وأنت لم تفعل شيئاً، أنت لا تتعاون ولا تحارب». فقال الرئيس ربّاني لمسعود: «حسناً، ربما حكمتيار على حقّ». لكن مسعود كان يقود قواته في ذلك الوقت في اتجاه الأراضي الشرقية والجنوبية التي لم تكن تحت سلطته يوماً خلال الحرب الطويلة ضدّ الاتحاد السوفياتي. لم يكن على معرفة بتضاريسها، فتحرك هو ومساعدوه للقاء طالبان، بينما يطلعون على خرائطهم. «لقد وصلنا» قال مسعود. «لكننا لم نتنبه إلى خط الدفاع»(592).

تم نصب الفخّ في 25 أيلول/سبتمبر في ساروبي، عند المدخل الشرقي لكابول. باع قادة حكمتيار المحليون أنفسهم لطالبان، ووقفوا على الحياد. أتقن عناصر طالبان القتال المتحرك بمساعدة أسطول شاحناتهم اليابانية الصنع، المزودة رشّاشات حربية قوية في مؤخرتها. فاقتحموا واجتاحوا الوديان الممتدة من ساروبي عبر سهول كابول الجنوبية المفتوحة. لم تتمكّن طائرات مسعود الهيليكوبتر ومضادات المتفجرات من صدّ تلك الهجمات العنيفة. وفي 26 أيلول/سبتمبر، أخبر مسعود مجموعة من جنرالاته بضرورة انسحابهم. وخلال الليل، سيّروا العديد من دباباتهم وآلياتهم المصفّحة شمالاً من العاصمة كابول في اتجاه وديان بانشير، وراح مسعود يتعزّز بصخور وديان بلاده(593).

انتشر عناصر طالبان في كابول في اليوم التالي. كانوا يعتمرون عمائم سوداء، ويلونون أعينهم بكحل أسود. راحوا يجولون في المباني الوزارية المنخورة بالرصاص من دون أي اعتراض، وينشرون أغطيتهم على الطرقات. وفي غضون أيام، تمّت السيطرة على جميع المباني والأماكن الحكومية والقواعد العسكرية في المدينة من قبل مقاتلي الباشتون.

بعد سقوط كابول في أيدي الجهاديين في العام 1992، تم احتجاز الرئيس الأفغاني السابق نجيب الله، في مخيم تابع للأمم المتحدة في المدينة. لم يقدّم مسعود وربّاني قائد الشرطة السرية السابق، الشيوعي، إلى المحاكمة، ولم يكونا على استعداد لنفيه. أمضى نجيب الله أعوامه في السجن يشاهد المحطات الفضائية على التلفزيون، ويتخلص من وزنه الزائد، ويترجم قصة تاريخية حول

أفغانستان في العصر البريطاني عنوانها «اللعبة العظيمة» من اللغة الإنكليزية إلى الباشتونية. أخبر مرة أحد زواره، بالاستناد إلى ترجماته، «أن الأفغان يستمرون في ارتكاب الأخطاء عينها»(594).

اقتحم عناصر حركة طالبان منزل نجيب الله في 27 أيلول/سبتمبر، عندما كان يزوره شقيقه. وبالنظر إلى حالتهما الجسدية عندما عُلِّقا فوق مستديرة بعد ساعات، يبدو أن الأخوين توفيا ببطء وألم بسبب ضربات بقبضة اليد والحجارة والعصي. أما رئيس أفغانستان السابق، الذي بدأت مهمته في غرف التعذيب عند الشرطة السرية، وانتهت إلى طاولات مستديرة مع دبلوماسيين دوليين، فربما توفي قبل أن يلتف السلك الحديدي حول رقبته لرفعه عشرة أمتار عن الأرض بواسطة المشنقة، التي اختارت لها حركة طالبان مكاناً في وسط كابول على مرأى من الجميع. قال الملّا عمر: «قتلناه لأنه كان قاتل شعبنا»(595).

تم إعلان القوانين الجديدة بموجب مرسوم عبر أثير إذاعة كابول، وذكّروا بسرعة بصوت الشريعة أو القانون الإسلامي. أُعلن عبر الراديو أنه يجب التخلي عن معجون الأسنان واستخدام النباتات الطبيعية التي كان يفضلها الرسول (السواك). وتم نشر لائحة المواد والنشاطات الممنوعة، وكانت تتضمن الامتناع عن ملذات الحياة الصغيرة: النحت والتدخين والموسيقى والغناء وتربية الحمام وتطيير الطائرة الورقية ومشاهدة التلفاز. وتم تحذير رجال الأعمال والتجار من عدم الاستمرار في توضيب بضائعهم في الأوراق في حال استخدموا عن غير قصد صفحات من القرآن الكريم. كما أعلنت الوزارة المنشأة على غرار الشرطة الدينية السعودية المعروفة باسم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منع أنواع السحر وقصّات الشعر الأميركية كافة.

أمر القادة الطالبان النساء بالاحتجاب داخل منازلهن. وأعلن في اليوم الأوّل عبر الراديو: «بموجب هذا الإعلان، نطلب إلى الأخوات العاملات في المكاتب الحكومية كافة عدم مغادرة منازلهن حتى إشعار آخر». وجاء أيضاً: «بما أن الحجاب فريضة مهمة في الإسلام، يُطلب إلى جميع الأخوات تغطية وجوههن وأعضاء أجسادهن كافة عندما يتوجهن إلى الخارج». ونتيجة لذلك، خسرت ثمانية آلاف امرأة مكانها في جامعة كابول. كما خسر عدد مماثل من المعلمات وظائفهن. ومنعت آلاف النساء الموظفات في المكاتب الحكومية، اللواتي كن يُعِلْنَ عائلاتهن برواتبهن الضئيلة، لكن الثابتة، من الذهاب إلى وظائفهن(596).

وبعد ستة أسابيع، أصدرت حركة طالبان لائحة أخرى عدّدت فيها الأنظمة التي ستفرضها بقوّة الشرطة الدينية. وكان البند الأول ينص على منع «العصيان والنساء السافرات»، فلم يجرؤ أي سائق سيارة أجرة على توصيل أي امرأة لا ترتدي الشادور على الطريقة الإيرانية. أما البند الثاني عشر، فينص على توقيف أي امرأة تغسل الثياب عند أي نهر بطريقة «إسلامية ومحترمة» وإعادتها إلى منزلها، ليُنزل بها زوجها أشدّ عقاب. وينص البند الخامس عشر على مدة السجن للخياطين الذين يأخذون مقاسات للمرأة، أو يعرضون مجلات عن الموضة(597).

هنأت وزارة الخارجية الأميركية كابول بقوانينها الجديدة مع قليل من الاعتراض. وأمل دبلوماسيوها تخفيف هذه القواعد الجديدة. فقد تم الإعلان في 28 أيلول/سبتمبر في برقية أُرسلت من واشنطن إلى السفارات كافة في الخارج: «نأمل أن نلزم حكومة طالبان الجديدة «الحكومة الانتقالية» في مرحلة مبكرة». راح الدبلوماسيون الأميركيون خلال اجتماعاتهم مع طالبان يكافحون «ليبرهنوا عن رغبة الولايات المتحدة في عقد اتفاق معهم بصفتهم ممثلي السلطات الجديدة في كابول، ويبحثوا عن معلومات حول خططهم وبرامجهم وسياساتهم، ويعبروا عن وجهات نظر (حكومة الولايات المتحدة) حول المناطق التي تستحوذ على اهتمامنا، وعن الاستقرار وحقوق الإنسان والمخدرات والإرهاب». كان بن لادن يحل في المرتبة الأخيرة على لائحة الموضوعات المطروحة للمناقشة في البرقيات، وركزت واشنطن في جميع مراسلاتها، على طرح سؤالين سهلين جداً على قادة طالبان. الأول هو: «نرحب بضماناتكم بالنسبة إلى إقفال مخيمات التدريب العسكرية والإرهابية التابعة لحكمتيار وسيّاف والمجموعات العربية. هل تستطيعون إخبارنا بوضع تلك المخيمات حالياً؟». والسؤال الثاني: «هل تعرفون مكان الممول السعودي السابق والإسلامي الأصولي أسامة بن لادن؟ لقد سمعنا أنه في المقاطعات الشرقية. فوجوده هنا، برأينا، لن يخدم مصالح أفغانستان». وسارع القادة الطالبان إلى الاتصال بالدبلوماسيين الأميركيين في إسلام أباد لإخبارهم أنهم لا يملكون أدنى فكرة عن مكان وجوده(598).

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر التقى السفير توم سايمونز في مجمع السفارة في إسلام أباد الملّا غوس، وزير خارجية طالبان بالإنابة، الذي له عين واحدة فقط مثل الملا عمر. قال سايمونز: «أرغب في قول بعض الأشياء عن الولايات المتحدة». وتابع قائلاً، ربما يخفف كلامه من حدة طباع الطالبان تجاه الولايات المتحدة: «الأميركيون هم أكثر الشعوب تديّناً في العالم الغربي، ويكنّون احتراماً كبيراً للإسلام، الذي يُعتبر الديانة الأسرع انتشاراً اليوم في المجتمع الأميركي. ففي الواقع، يفوق اليوم عدد الأميركيين المسلمين عدد المواطنين الأميركيين اليهود». وأضاف سايمونز قائلاً: «تعلم الأميركيون أنه من الصعب التنبؤ بمشيئة الله. وعلّمتهم التجارب أن فرض تفسير جماعة واحدة لإرادة الله على الآخرين، خطير جداً، ولاسيما باتّباع العنف. كان غوس يستمع إليه باحترام. وقال إن طالبان تطمح إلى تحقيق
السلام، لكنها لن تستسلم لأعدائها، ولاسيما لمسعود وحلفائه في الشمال. وفي 6 كانون الأول/ ديسمبر، قام سايمونز بتسليم رسالة إلى طالبان من وزير الخارجية، وارن كريستوفر، يعرض فيها الالتزام، لكنها تقول: «نريد التعاون معكم لطرد الإرهابيين كافة وكلّ من يدعم الإرهاب» من الأراضي الأفغانية. سلّمت روبن رافيل النسخة الأصلية إلى الرجل الذي ستوافق طالبان على أن يمثّلها في الأمم المتّحدة: حامد قرظاي(599).

حدّدت رافيل السياسة الأميركية خلال اجتماع مغلق لمجلس الأمن في نيويورك، وراحت تحاول إقناعهم بالالتزام مع طالبان من أجل إحلال السلام. قالت رافيل: «يسيطر الطالبان على أكثر من ثلثي البلاد. إنهم أفغان من السكان الأصليين، وقد برهنوا على قدرتهم على الاستمرار. ودافعهم

الحقيقي إلى النجاح كان إرادة الأفغان، ولاسيما الباشتون، لوضع حد لنزاع مستمر، وترويج السلام والأمن، على الرغم من وجود قيود اجتماعية عديدة».

استمرت رافيل في محاولة إقناعهم بأن حركة طالبان أصبحت واقعاً دولياً: «ليس من مصلحتنا أو من مصلحة الأفغان عزل طالبان في الوقت الراهن»(600).

# 19
# سنحتفظ بصواريخ ستينغر

اتّسمت زيارات رئيس مركز إسلام آباد، غاري شروين السرّية لكابول، والمحادثات الليلية التي أجراها مع أحمد شاه مسعود حول صواريخ ستينغر وحول بن لادن، في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1996، بولادة التزامات أحادية من جانب «السي.آي.إيه.» في أفغانستان بعد غياب أربع سنين(601).

نظّمت الوكالة ثلاثة برامج سرّية ستوفر الموارد اللازمة لشروين وضباط مركز إسلام آباد. وبالنسبة إلى قرار مجلس الأمن القومي في بداية العام 1996، المتعلق بإنشاء المركز «الوهمي» الجديد في مركز مكافحة الإرهاب لتعقّب أسامة بن لادن، أصبح اليوم يتوافر التمويل والمحللون وضباط موكلون بجمع المعلومات حول الرجل السعودي ونشاطاته. في أواخر العام 2006، أخبر جمال الفضل وحدة بن لادن بأنها استخفت بهدفها: بن لادن. واليوم تعلّمت «السي.آي.إيه.» الدرس، بعد أن خطّطت لعدّة عمليات إرهابية، وتطمح إلى المزيد. يحتاج «المركز الوهمي» إلى مساعدة إسلام آباد. حافظ فريق عمل شروين على علاقات الوكالة بالاستخبارات الباكستانية التي تعرف طرائق عديدة للاتصال بعالم بن لادن. وافتتح شروين من جهة أخرى، محادثات مع مسعود. واستمرّت البرقيات بالتدفق بين وحدة بن لادن في فيرجينيا، ومركز إسلام آباد بعد انسحاب مسعود من كابول. كما تم تخصيص قسم بأكمله، داخل مقر مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، لإيجاد مير أمل قاسي، الرجل الفار من بلوشستان، والذي هاجم مراكز «السي.آي.إيه.» في العام 1993. قام القسم المخصص لقاسي بتمويل مركز إسلام أباد لتوظيف عملاء أحاديين، بعضهم أفغان، للبحث عنه. إلا أن أهم وأكبر عملية تمويل، كانت في البرنامج الذي يديره لانغلي، والذي كان الحافز الأساسي لزيارة شروين في أيلول/سبتمبر مسعود في كابول: استرداد صواريخ ستينغر(602).

عندما احتلّت طالبان العاصمة كابول، اختفى حوالى 600 صاروخ من أصل 2300 صاروخ ستينغر كانت قد وزّعتها «السي.آي.إيه.» خلال الحرب ضد الاتحاد السوفياتي السابق. كانت تجارة الصواريخ ناشطة في مناطق وسط آسيا والشرق الأوسط. وكان الإيرانيون يشترون ما توافر لهم منها. وقدّر ضباط «السي.آي.إيه.» أن إيران حصلت على ألف صاروخ. واعتقدوا أن البقية منها لم تغادر أفغانستان. واعتبر بعض أفراد الحرب الأفغان، أن امتلاك مجموعة من صواريخ ستينغر يشكّل استثماراً مالياً أفضل بكثير من العملات الورقية المحلية. عرضت «السي.آي.إيه.» عبر وسطائها شراء رؤوس الصواريخ، بالإضافة إلى الأنابيب التي تطلق منها. نشأت سوق ثانوية للأنابيب الفارغة في أفغانستان. وحاول المزوّرون تقليد تصميم الصواريخ وبيعه للوسطاء. وراوح سعر الصاروخ الكامل بين 70 ألفاً و150 ألف دولار. طلبت الوكالة

مساعدة حلفائها في الشرق الأوسط. سافر أحمد باديب، رئيس فريق عمل الأمير تركي، إلى الصومال لإعادة صواريخ الستينغر التي تم تهريبها إلى أفريقيا. إلا أن البرنامج تمّت إدارته بعيداً عن مركز إسلام آباد، حيث تم توزيع الصواريخ. وحتى العام 1996، أبقت الولايات المتحدة على طائرتي «بي. 200 سيسنا» المزودة محركين في إسلام آباد لإعادة صواريخ ستينغر. كانت طائرات «السي.آي.إيه.» تحلّق فوق المنطقة لاستعادة الصواريخ، ثم كان يتم تخزينها في إسلام آباد بانتظار وصول طائرة نقل أكبر لحملها إلى الولايات المتحدة، حيث يتم تسليمها إلى الجيش الأميركي ليشرف على إتلافها.

كان ضبّاط «السي.آي.إيه.» في بعض الأحيان، يشترون الصواريخ في مكان يستحيل نقلها منه، فيحفرون حفرة ويقومون بتفجيرها بواسطة متفجرات بلاستيكية، ويلتقطون الصور دليل إثبات على عملية إتلافها(603).

قرّرت «السي.آي.إيه.» بعد سيطرة طالبان على كابول، تقديم عرض مباشر إلى قادة الميليشيات لشراء الصواريخ منهم. علمت «السي.آي.إيه.» بوجود 53 صاروخاً بحوزة الملّا عمر، قام بجمعها من زعماء الباشتون المؤيدين لطالبان. فكّر شروين في بداية العام 1997، في استئذان الوكالة للسفر إلى قندهار وشراء الصواريخ من رجال الملّا في طالبان. وافق مركز لانغلي. وبمساعدة دبلوماسيين في سفارة إسلام آباد، اتصل شروين بشورى الطالبان، فرحّبوا بالوفد الأميركي(604).

ستوفر عملية إعادة شراء الصواريخ من طالبان للميليشيات مبالغ نقدية تراوح بين 5 ملايين و8 ملايين دولار أميركي، أي حوالى ضعف المبلغ الذي أنفقه بن لادن لمساعدة طالبان على السّيطرة على كابول (عندما طلب شروين الإذن بالسفر إلى قندهار، لم تكن الولايات المتحدة تملك أدلة كافية حول علاقة بن لادن بطالبان). وخلافاً للمبالغ من برامج
المساعدات الأميركية، سيكون هذا المبلغ دفعة نقدية غير مشروطة للميليشيات التي يعلن قادتها مع طلوع كل فجر، قوانين جديدة من القرون الوسطى. وعلى الرغم من ذلك، شجّعت، في ذلك الوقت، السياسة الرئاسية الأميركية، «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت على شراء صواريخ ستينغر، أينما تكن.

لم يتّضح خلال خريف العام 1996 ما إذا كانت الولايات المتحدة تعتبر طالبان عدوة أم صديقة. فبعد أسابيع على سقوط كابول ، راح المسؤولون الأميركيون من الدرجة الثانية، يلقون تصاريح مختلفة، بعضها تهكّمي وبعضها الآخر داعم، بحيث بدا من المستحيل استيضاح موقف أميركي محدد من خلالها. أخبر الدبلوماسييون الأميركيون الصحافيين في إسلام آباد أن طالبان تستطيع أن تلعب دوراً مهماً في إعادة تشكيل حكومة قوية ومركزية في أفغانستان. أما قادة الطالبان، القلقون من الإشاعات حول تلقيهم الدعم من «السي.آي.إيه.» وبأنهم مناصرون للقوة الأميركية، فكانوا يرفضون مقابلة زائر صغير من وزارة الخارجية في كابول. فأوضح بالمقابل، المبعوث الرافض

هذا المبدأ، لي كولدرين، «أن الولايات المتحدة لا تدعم طالبان، ولم تدعمها ولن تدعمها، أبداً». وخلال أيام قليلة، ندّدت سفيرة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة، مادلين أولبرايت، بالمراسيم التي أصدرتها طالبان في كابول، مشيرة إلى أنها «غير مبرّرة، ولا يمكن الدفاع عنها». لكن، بعد ثلاثة أسابيع فقط، نقلت روبن رافيل رغبة طالبان في الحصول على الشرعية أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وطالبت بعدم عزلها. كان من الصعب معرفة أي من هؤلاء المسؤولين في وزارة الخارجية، يتكلم بالنيابة عن الولايات المتحدة، أو من منطلق شخصي(605).

لقيت دعوات رافيل إلى التعاون مع طالبان الدعم خارج إدارة كلينتون، ولاسيما من جانب أونوكال. كان مارتي ميلر وزملاؤه يأملون أن تساهم سيطرة طالبان على كابول في تسريع المفاوضات المتعلقة بخطوط الأنابيب. وفي غضون أسابيع من احتلال العاصمة، شكلت أونوكال شراكة مالية جديدة لبناء الأنابيب، وأعلنت تأسيس مجلس استشاري يضم خبراء أميركيين رفيعي المستوى بشؤون جنوبي آسيا ووسطها، وافتتحت مكتباً جديداً لأونوكال وسط بلاد طالبان، في قندهار. كان مارتي ميلر يصرّ علناً على أن أونوكال «تتخذ موقفاً محايداً» من السياسات الأفغانية، لكن بدا جلياً أن انتصار طالبان العسكري سيساعد على تخفيض عدد الفصائل في المفاوضات حول خطوط أنابيب أونوكال(606).

أعلن الخبراء الجمهوريون وخبراء الكونغرس من جهتهم، أنه يجب إعطاء طالبان فرصة. وكتب أحد المسؤولين عن الشؤون الأفغانية في الحكومة الأميركية، زالماي خليل زاد، بعد السيطرة على كابول بأسابيع قليلة: «لقد آن الأوان لتعود الولايات المتحدة إلى اللعبة. فطالبان لم تتبع سياسة معادية لأميركا مماثلة للنظام الأصولي الإيراني، بل هي أقرب إلى النظام السعودي»(607). لا يزال هذا الأسلوب في التفكير الأميركي تجاه الحركات الإسلامية السياسية قائماً: النظام في المملكة العربية السعودية محافظ، وتقي، وبالتالي لا يشكل تهديداً. أما النظام الإيراني، فهو نظام ناشط وعنيف وثوري. تمّت دعوة خليل زاد إلى الانضمام إلى المجلس الاستشاري في أونوكال إلى جانب روبرت أوكلي، السفير الأميركي السابق إلى باكستان. ووسط هذه الأجواء من النزاع المفكك حول مكانة طالبان، سافر غاري شروين وفريق من الدبلوماسيين من السفارة إلى قندهار في شباط/فبراير من العام 1997، وفقاً لجدول ميثاق الأمم المتحدة. حطّوا وسط سهل واسع من الطين تجتاحه آثار خطوط متآكلة بفعل الأنهر الجافة. خرج الفريق الأميركي من المطار إلى فسحة جافة، مسطّحة ومقفرة، حيث تتمايل الأجمة مع رياح الصحراء. كانت تتراءى لهم الهضاب الصخرية من الغرب، وفي الطريق الملتوي إلى المدينة، ومروا بالقرب من تعاونيات زراعية تابعة للحكومة، وبساتين خضراء وقرى زراعية مسيّجة. ووسط الضجيج والدخان وعربات الخيل والدرّاجات، دخلوا مدينة قندهار عبر قوس مطلي يدعى «بريد الدجاج»، يحرسه حرّاس من طالبان. تكتظ الطرقات بالمشاة من كل جانب، معظمهم طويل القامة، ملتح من الباشتون، يعتمر العمامة الملونة ويرتدي رداءً قطنياً فضفاضاً. كانت المدينة عبارة عن مجموعة أكشاك ومحال من الطين. يقع بيت الملّا عمر المتواضع، خلف حائط في طريق هيرات بازار وسط المدينة، بالقرب من جامعة قندهار التي حوّلها طالبان إلى مدرسة دينية. وفي ساحة المدينة غالباً ما تنظّم الميليشيا مراسم إعدام مزيفة لأجهزة راديو وتلفزيون، وتحطمها أجزاء بتعليقها من أسلاكها. قضى شروين

وزملاؤه ليلتهم في منزل الضيوف الخاص بالأمم المتحدة، وهو مجمّع صغير للأجانب، فيه أضواء مشعّة، وعلب كوكا كولا. قاموا بالاتصال بوزارة خارجية طالبان لأخذ موعد. رفض عمر مقابلتهم لأنهم ليسوا مسلمين، لكن الملّا وكيل أحمد، الحاكم المحلي ومساعد عمر، استجاب لطلبهم(608).

توجّهوا في اليوم التالي إلى منزل الحاكم، وهو مبنى لافت للانتباه من الحجر الرملي، مزيّن بالقناطر وسط حديقة من أشجار التنّوب وأجمة الورد. لا يبدو أن الطالبان يهتمون بالسقوف المنقوشة والفسيفساء الفارسية. لقد زيّنوا المباني بالمعادن والقنابل، وخبأوا صوارخ الستينغر داخل مخزن مقفل في قاعة المحكمة. حضر شروين اجتماعاً يتعلّق باللاجئين والمساعدات. جلس عدّة قادة محليين إلى جانب طالبان. لم يكن أحد من الطالبان ينتعل حذاءً أو خفّاً، فراحوا يسترقون النظر إلى أقدام الأميركيين.

كان حاكم طالبان في قندهار محمد حسّان، تلميذاً سابقاً في مدرسة كيتّا. وقد شارك في الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي في مقاطعة أوروزغان، فبُترت رجله وطرف إصبعه. وُضع له طرف اصطناعي مزوّد جهازاً للالتواء والتحرك. كان يلعب برجله طوال الاجتماع، فيُخرجها من مكانها لتصدر قرقعة مزعجة ويمسك بها ثمّ يعيدها برفق إلى مكانها.

التقى شروين بعد قليل حسّان ووكيل على انفراد. راح يشرح لهما بالاستعانة بمترجم، كيفية عمل برنامج استعادة صواريخ ستينغر. ستكون الولايات المتحدة شاكرة لطالبان إذا ما قامت ببيعها صواريخ الستينغر التي بحوزتها، وفي المقابل ستدفع لها مبلغاً جيداً. كان شروين يردّد أن أحد أهداف الولايات المتحدة هو الحؤول دون وصول الصواريخ إلى متناول إيران.

قال حسان ووكيل إنهما لا يرغبان في بيع صواريخهما. سيحتاجان إليها في المستقبل. «سيحتفظان بها لاستخدامها ضدّ الإيرانيين». كان هدفهما الأول القضاء على أحمد شاه مسعود والائتلاف في شمالي أفغانستان. ومن ثم كانا يتوقعان الدخول في حرب مع إيران. لذلك، سيستخدمون الصواريخ في إسقاط الطائرات الحربية الإيرانية. وهما على يقين بأن الولايات المتحدة تعي التهديد الإيراني(609).

عاد شروين إلى إسلام آباد فارغ اليدين.

بدأ أسامة بن لادن عملياته في الجنوب، في اتجاه قندهار، حيث مركز قوة طالبان. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1996، أجرى رئيس تحرير صحيفة «القدس العربي» الفلسطينية الصادرة في لندن، عبد الباري عطوان، مقابلة معه في كهف خارج قندهار. يحتفظ بن لادن بحاسوب محمول في مخزنه، وتضم مكتبته مجلّدات ضخمة. قال لعطوان إنه «يشعر بأنه عاد إلى موطنه، لأن العالم الإسلامي كلّه هو موطن للمسلمين جميعاً». وأوضح له أن الولايات المتحدة هي عدوّه. كما

«أثنى» بن لادن على التفجيرات التي وقعت أخيراً في المملكة العربية السعودية والرياض والظهران ضدّ الأميركيين «لأنها كانت تستهدف اللّصوص». وراح يتباهى بكفاحه: «وُلدنا ونحن نحارب الروس أكثر من عشرة أعوام، ونعتبر في المقابل أن معركتنا مع الأميركيين ستكون سهلة. لقد اشتدّت عزيمتنا اليوم للاستمرار حتى نقابل وجه ربّنا»(610).

أمضى بن لادن الشتاء يروّج سمعته عبر وسائل الإعلام الدولية. كان مصمّماً على إقناع الجمهور الواسع في العالم العربي، بأن نفيه إلى أفغانستان لم يهمّشه قط. توجّه إلى الفلسطينيين، مندّداً بدعم الولايات المتحدة لإسرائيل، برغم أنه لم يركّز على هذه القضية كبقية العرب. وكرر هجومه على العائلة المالكة في السعودية بسبب ما أسماه الفساد، والتقصير في تطبيق الشريعة الإسلامية، والأهم من كل شيء، بسبب السماح للجنود الأميركيين بالسيطرة على النفط السعودي. ولأولّ مرة، راح يتعرّض للأميركيين والصحافة الإنكليزية بعدائية، مُطلقاً تهديده ووعيده. أحياناً يصوغ رسالته إلى المستمعين. وأحياناً أخرى يُصدر خطب دينية طويلة من دون أي اهتمام بمستمعيه. كان يتحدث عن سخط الإسلام وتصميمه على طرد القوات المسيحية «الصليبية» من الأراضي الإسلامية، ولاسيما من المملكة العربية السعودية. وقال في مقابلة إذاعية: «إن التركيز على موضوع الجهاد موجّه بالتحديد ضدّ المحتلّين الأميركان»(611).

وبينما كان يروّج نفسه إعلامياً، راح بن لادن يعمل على التسلل إلى «مملكة» الملّا عمر. وصل خلال الشتاء إلى صحراء قندهار الدافئة للإشادة بحكمة الملا عمر وأفكاره «العظيمة» حول المشاريع المعمارية التي ستغيّر عاصمة الباشتون الروحية، متغنياً بإيمان الطالبان وقوّتهم.

قد تكون الاستخبارات الباكستانية سهلت تعرّف بن لادن إلى طالبان. كانت الاستخبارات الباكستانية تستخدم مخيمات تدريب الجهاديين التي يسيطر عليها الآن بن لادن، لتدرب المقاتلين، وترسلهم إلى كشمير. ويقال وفقاً لضابط سابق في «السي.آي.إيه.»، إن الاستخبارات الباكستانية قد سيّجت منزل بن لادن في قندهار بالأسلاك لحمايته. كما سهّلت أيضاً عبور الصحافيين الذين يستدعيهم بن لادن عبر الحدود الأفغانية.

لكن بن لادن، بالنسبة إلى الاستخبارات الباكستانية، وإلى طالبان أيضاً، كان يُعتبر حليفاً جديداً ومتبرعاً كبيراً يدعو إلى الريبة. فتنديده الدائم بالعائلة السعودية الملكية، كان يُغضب مسؤولاً نافذاً في الاستخبارات الباكستانية وحلفاءه الأفغان. لكن رئيس الاستخبارات السعودية الأمير تركي الفيصل، أوضح لطالبان بعد سيطرتهم على كابول، أنه لن يواجههم
لحسن ضيافتهم بن لادن.

قامت حركة طالبان بعد سقوط العاصمة الأفغانية بتوجيه رسالة إلى المملكة العربية السعودية: «أصبح الرجل عندنا. هل تريدوننا أن نسلمه إليكم، أم نُبقيه هنا؟ قدمنا إليه ملجأً». لقد تخلّى السعوديون عن فرصة أخذ بن لادن تحت رعايتهم من السودان في الربيع الفائت. ويبدو أن العائلة

المالكة تعتبر أنه من الأفضل بقاء بن لادن طليقاً في أفغانستان، عوضاً عن احتجازه أو سجنه في وطنه الأمّ، حيث سيجذب إليه المعارضين لحكم المملكة. كان السعوديون يمتلكون أدلة وافرة لاتهام بن لادن بجرائم خطيرة. فقد حكموا على أربعة من أتباعه بالإعدام لتفجير منشأة أميركية في الرياض في تشرين الثاني/نوفمبر 1995. لكنهم اليوم ليسوا على استعداد لتحمّل المخاطر السياسية التي ستنجم عن محاكمة بن لادن، أو اغتياله.

ويذكر الأمير تركي أن حكومته أخبرت الطالبان: «حسناً، إذا وفرتم له ملجأً، فاحرصوا على عدم قيامه بشيء ضد المملكة، أو التعرض لها كلامياً». شعر تركي بأن حركة طالبان مستعدة «لإسكاته»(612).

لكن بن لادن كان يملك خطّته الخاصة: سيجعل طالبان تتبنّى قضيته.

قامت أونوكال باستئجار منزل وسط قندهار مباشرة قبالة شارع واحد من أحد مجمّعات بن لادن الجدد. لم تختر المكان بإرادتها. فمعظم البيوت الأنيقة تنتشر في طريق هيرات بازار. وبالقرب منها، كانت السفارة الباكستانية التي تؤوي ضباطاً من الاستخبارات الباكستانية. وبينما تسعى شركة النفط الأميركية للتفاوض حول شروط عقدها، لجأت شركة دلتا، الشريكة السعودية الصغيرة لأونوكال، إلى الاستعانة بخدمات شارلي سانتوس، وهو دبلوماسي سابق في الأمم المتحدة في أفغانستان، لوضع تحليلات وتقديم خدمات استشارية حول الشؤون الأفغانية.

لم يكن زوار أونوكال ومستشاروها يملكون فكرة واسعة حول ظهور بن لادن في المدينة خلال الأشهر الأولى من العام 1997. اندفعت مواكب شاحنات الشيخ السعودي الفاخرة بنوافذها الحاجبة للرؤية في شوارع قندهار. كان يتنقّل محاطاً بالحرّاس الشخصيين العرب والأفغان. أتى من وسط المدينة بعباءته البيضاء الفضفاضة. وأثناء مرور موكبه، راح رجال الباشتون يشيرون إليه ويتهامسون «أسامة، أسامة». كان يؤدي صلاة الجمعة أحياناً في أكبر مساجد قندهار. قال الأفغان لسانتوس إنه في إحدى المرات دعا الملا عمر بن لادن من بين الحضور، ومدحه أمام الحشود كأحد أهم القادة المسلمين الروحيين. ووسط المديح والإطراء من العامة، راحوا يتكلمون على المشاريع المعمارية الباهظة لإعطاء قندهار وجهاً جديداً. فقد تم شراء الأرض بالقرب من منزل الحاكم لإنشاء جامع ممول من بن لادن وأتباعه. وهناك أيضاً مشروع لبناء جامع كبير مخصص للأعياد، للاحتفال بالإفطار في نهاية شهر رمضان، في ضواحي قندهار الجنوبية. سيكون جامعاً تحفة من العمارة، يُستخدم مرة في السنة. يسافر أغنياء رجال العرب من المملكة العربية السعودية ودول الخليج إلى قندهار لصيد الحُبارى في الصحراء المجاورة. كان العرب يأتون على متن طائراتهم الخاصة، ويجلبون معهم وسائل الترفيه لإقامتهم خلال أسابيع الصيد الطويلة. وكان بن لادن ينضمّ إليهم في بعض الأحيان. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من المتبرّعين لعملياته(613).

بالإضافة إلى مجمعات بن لادن المدينية، وضع عائلته وعشرات من أتباعه العرب، في السهول الصحراوية المسطّحة على بعد أميال من المدينة، بالقرب من مطار قندهار. وخلال الفترة الأولى للحرب الباردة، عندما بنى المتعهدون الأميركيون المطار، قاموا أيضاً بتشييد مبان لقواتهم المقاتلة ليتمتعوا بمراكز محصَّنة. واليوم، يعود تاريخ بناء هذه المراكز إلى 40 سنة تقريباً. لكنه لا يزال أفضل من المساكن المحلية، وقد سمحت طالبان لحاشية بن لادن بالسكن فيه. كما قامت بإعطائه مفاتيح مجمع التعاونية الزراعية التابع للحكومة، مزرعة تارناك، الواقعة في ضواحي المطار. وتتألف المزرعة من عدة مبان، وكانت منعزلة وآمنة في الصحراء القاحلة. أقامت فيها أقله إحدى زوجات بن لادن، وعدد من أولاده خلال الشهور الأولى من العام 1997(614). وأخبر الأفغان المحليون سانتوس والأمم المتحدة، بأن بن لادن أعلن خططاً لبناء مجمّع تدريبي للجهاديين العرب في مقاطعة أوروزغان، مسقط رأس الملّا عمر. كان بن لادن يخطط لتدريب المتطوعين الأجانب الذين سيساعدون طالبان في حملتها العسكرية المستمرة ضدّ مسعود.

لا تزال الولايات المتحدة لا تملك أي اتهام قانوني أو خطط عمل سرية لاستهداف بن لادن. نجح مركز بن لادن الوهمي في فرجينيا في تتبع عملياته المالية، وتحليل تصريحاته العامة، لكنه لم يتوصّل إلى تنظيم عمليات للقضاء عليه. التقت «السي.آي.إيه.» مدراء من أونوكال خلال ذلك الشتاء لتستوضحهم سياسات خطوط الأنابيب في آسيا الوسطى، لكنها لم تطلب مساعدتهم قط على مراقبة بن لادن في قندهار، أو القبض عليه، أو مهاجمته. في
أواخر العام 1996، أخبرت «السي.آي.إيه.» السيناتور هانك براون أن بن لادن أعلن خلال اجتماع في أفغانستان تخصيص مكافأة قدرها مليون دولار مقابل اغتياله. وبعد ذلك، تم تحذير براون من السفر إلى المنطقة. غير أن هذا التهديد لم يحفّز لإعداد خطة لمهاجمة بن لادن الذي كانت طموحاته العسكرية والإرهابية لا تزال حينئذ غامضة بالنسبة إلى «السي.آي.إيه.» ومكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض. في الواقع، لقد سبق وقام بن لادن بإرسال عملاء إلى أفريقيا وأماكن أخرى للإعداد لهجمات ضدّ أهداف أميركية، لكن الولايات المتحدة لم تكن على علم بها. فالبيت الأبيض لم يأمر بالقيام بعمليات سرية ضدّ بن لادن عدا تجميع المعلومات الاستخبارية حتى نهاية العام 1997، أي بعد سنة من تمركزه في عاصمة الملّا عمر، قندهار(615).

كان المسؤولون الأميركيون والسعوديون، خلال تلك الشهور، يلتقون باستمرار ومودة ممثلي طالبان.

وراحت أونوكال تنظّم زيارات لقادة لطالبان إلى الولايات المتحدة ليطّلعوا على عمليات شركة النفط، بينما ساعد الداعمون لها بتدبير الاجتماعات في وزارة الدولة للشؤون الخارجية.

ساعدت هذه الاتصالات على تعزيز الاعتقاد السائد في واشنطن بوجود معتدلين في حركة طالبان، بما أن الشبان الباشتون في قيادة الشورى كانوا مهتمين بالحوار الدولي الذي سيقود تيارهم في اتجاه المسؤولية السياسية. كان الملّا غوس وكذلك الملّا ربّاني يتمتعان بحماية المملكة العربية

السعودية. وخلال ذلك الربيع، سافر ربّاني إلى الرياض، وأعلن بعد اجتماع مع الملك فهد أنه: «بما أن المملكة العربية السعودية تشكل قلب العالم الإسلامي، يسعدنا تلقي المساعدة السعودية». و «أعرب الملك فهد عن سعادته للإجراءات التي اتخذتها حركة طالبان بفرض الشريعة في البلاد»(616). وخلال تلك الأشهر، تلقّت حركة طالبان الدعم أيضاً من الباشتون الدرّاني، مثل أفراد عائلة قرظاي. كان انتصار قوة الطالبان يعني الفرص التجارية والاقتصادية بالنسبة إلى الباشتون الدرّاني في الجنوب. وبالإشارة إلى الماضي القريب، أصبحت اليوم قندهار مدينة مزدهرة.

أعلن الملّا عمر الذي برهن أنه رجل يفي بوعوده، خططه المستقبلية. قام في شهر آذار/مارس من العام 1997، بإخبار زائر باكستاني بأن «الحرب لعبة مخادعة. فقد تبيّن لنا اليوم أن الحلّ العسكري خيار أفضل من المحاولات السابقة الفاشلة للتوصل إلى اتفاق سلمي»(617).

وبعد مرور أسابيع قليلة، أكّد ناطق رسمي باسم طالبان، أن أسامة بن لادن انتقل إلى قندهار. أصبح باستطاعة بن لادن «أن يقابل القائد مباشرة». وأضاف الناطق الرسمي: «ليس هناك ما تخافون منه. لن نسمح باستخدام أفغانستان قاعدة لإطلاق الهجمات الإرهابية»(618).

انسحب أحمد شاه مسعود وجيشه المهزوم من كابول إلى شتاء بانشير القارس. لقد تعرضا لهذا النوع من المصاعب سابقاً، وعانيا أسوأ منها أيضاً، خلال حملات الاتحاد السوفياتي في الثمانينيات. لكن خسارة العاصمة كانت فشلاً ذريعاً. ألقى مسعود باللوم على مستشاره السياسي، الرئيس برهان الدين ربّاني، مدة طويلة للفشل في تحقيق تحالفات سياسية في كابول، بينما كان مسعود يركّز على الأمن والحرب. ويقول مساعده هارون أمين: «شعر مسعود بأنه تعرّض للخداع لأنه لم يجد الوقت يوماً للتركيز على الموضوعات السياسية. وبرأيه، كان القادة السياسيون الآخرون غير أكفاء، وغير جديرين بالثقة»(619).

كان رجال مسعود يستجمعون قوتهم بعزم لأنهم على علم بأنهم سيخوضون حرباً طويلة مع ميليشيا متطرفة من الباشتون، وبالتالي سيؤدي الاستسلام إلى إبادتهم. كان مسعود يترك مجالاً للتفاوض مع طالبان، لكن همّه الوحيد في ذلك الشتاء كان استعادة ساحة المعركة. ويعترف شقيقه أحمد والي بأن «مسعود لم يفكّر يوماً في احتمال خسارة أفغانستان». ودعا خلال أسابيع إلى اجتماع الميليشيات العرقية المنهزمة في الشمال، وأعلن تحالفات جديدة، سمّيت أولاً المجلس الأعلى للدفاع عن الأرض الأم، وأصبحت لاحقاً الجبهة الموحّدة(620).

كان مسعود خلال الأعوام الأخيرة، معزولاً في كابول. وأصبح يدرك، هو ومساعدوه، أنهم بحاجة إلى الدعم الدولي. كانت روسيا وطاجكستان وأوزباكستان تشعر بالتهديد من خطط طالبان حول تحرير المسلمين في آسيا الوسطى. وقام مسعود بإرسال أقدم مساعديه في السياسة الخارجية والاستخبارات لإجراء محادثات مع مناصريه في الخارج. قدّم مسعود نفسه حصناً ضدّ الإسلام

الأصولي. ودخل في مفاوضات مع روسيا حول إمداده بالسلاح واستخدام مطاراتها، بينما أرسلت موسكو 28 ألف جندي إلى آسيا الوسطى، لصدّ غزو
الطالبان. وشاركت إيران في تقديم الأموال والأسلحة والمساعدات الإنسانية. أما الهند، المستعدة دائماً لدعم أي عدو أو ممثل لباكستان، فسوف تصبح مصدر تمويل جديداً.

يجب على مسعود أن يجمع الأموال والسلاح. بالنسبة إلى الأموال، يوجد منها الكثير في مخازن بانشير، من مناجم الأحجار الكريمة وتهريب المخدرات. فميليشيا مسعود مسؤولة عن تسويق الهيرويين من آسيا الوسطى حتى روسيا. وتبيع أيضاً أحجار اللازَوَرد والزمرد في معارض الأحجار الكريمة كافة، وصولاً إلى لاس فيغاس. وأعلن مسعود من قاعدته في تالوكان، وهي مدينة فقيرة غربي بانشير، تعيين قادة جدد ورؤساء في الاستخبارات ليبدأوا إعادة بناء قوّاته وشبكاته الاستخبارية عبر أفغانستان. وأخبر رجاله بأن مَواطن الضعف في طالبان ستزيد بمرور الوقت. وعندما علم مسعود بأن طالبان ستطبق نظاماً إسلامياً متشدداً، تنبّأ بأن تتشكّل المعارضة ضدها. يقول محمد نعيم «يوماً بعد يوم»، كان يلاحظ رؤساء جهاز الاستخبارات التابع لمسعود وجنوده من البانشير «أنهم يستطيعون الوقوف في وجه حركة طالبان»(621).

لم يكن مسعود ورجاله يثقون بالولايات المتحدة. فمن الصعب عليهم، التصديق أن الدعم الباكستاني لطالبان عند سقوط كابول، تم من دون أي دعم أميركي ضمني. وقد تمكّن مسعود من القبض على مواطنين باكستانيين أثناء القتال في المناطق المحيطة بكابول. ومن ثم كان السؤال عن مؤامرة مشروع خطوط أنابيب أونوكال. ما هو موقف الأميركيين؟ وقد تباحث مسعود ومساعدوه في الموضوع مطوّلاً، لكنهم لم يتوصلوا إلى جواب أكيد.

هل علموا بالحقيقة التي لم يستطيعوا تصديقها. حتى في هذه المرحلة المتأخرة، لم تفهم الولايات المتحدة وأجهزتها الاستخبارية الدعم الباكستاني السرّي لطالبان: تولّد جهل من عدم الاهتمام. وأفادت برقية في كانون الأول/ديسمبر 1996، من وزارة الخارجية، أن الاستخبارات الباكستانية تزوّد طالبان سرّاً بالأموال والعتاد والخبراء العسكريين، كما أن ضباطاً من الاستخبارات الباكستانية يقاتلون داخل أفغانستان إلى جانب عناصر تم تجنيدها من باكستان. وقد صرّحت السفارة الباكستانية بأنها «تلقّت أخيراً معلومات موثوقاً بها حول حجم المساعدات والدعم الباكستاني لطالبان». لكن الموضوع لم يكن واضحاً بالنسبة إلى القنوات السرية الداخلية في الحكومة الأميركية بعد أن قام السفير سايمونز بعد أسابيع، بإبلاغ واشنطن بأن المساعدات الباكستانية لطالبان «ليست خطيرة كما يتصورها البعض»، وربما ليست بالحجم الذي تم التكلم عليه. واستنتج سايمونز أنه من المحتمل أن تكون «باكستان قد قدّمت الاستشارة العسكرية، لكنها بالتأكيد ليست بهذه الأهمية». لقد تمكّن الباكستانيون، المتمرسون في البرامج السرية في أفغانستان، من خداع واشنطن على مدى سنتين بخصوص طالبان.

فكّر مسعود في لفت أنظار الولايات المتحدة إليه. فوسط أجواء الإقصاء، ولاسيما من قبل وزارة الدولة للشؤون الخارجية، أمامه محاولة واحدة: عرض غاري شروين و «السي.آي.إيه.» حول إعادة فتح قناة تعاون مباشرة بينهما. فوفقاً لممثله في واشنطن، داوود مير، فإن رد فعل مسعود الأول: «مستحيل، أريد البحث معهم في سياسة أفغانستان ومستقبلها». لكن، بحسب أقوال مساعده محيي الدين المهدي، ولّدت خسارة كابول عنده حافزاً جديداً: فإذا سمسر لبيع الصواريخ، «فسيستطيع التوصل إلى تفاهم وبناء علاقات جيّدة بين الولايات المتحدة والجبهة المتّحدة». لقد طلب مسعود إلى رجاله استفسار القادة في الشمال عن صواريخ ستينغر. أراد أن يحصل على معلومات لإثبات نفسه أمام الأميركيين(622).

معظم أرباب الحرب الذين تعاونوا معهم، كانوا سابقاً يكنّون الولاء لحكمتيار. وعندما سقطت كابول، قام الطالبان بطرد حكمتيار من أفغانستان إلى المنفى في إيران، فتحوّل ولاء معظم شبكات حكمتيار القديمة إلى حركة طالبان، لكن بعض القادة في الشمال كانوا بحاجة إلى الأموال. تمكّنت شبكة مسعود من شراء بعض صواريخ ستينغر من دون علم طالبان. وبالنسبة إلى مسعود، كانت مكافأته هي «لفت انتباه» «السي.آي.إيه.». فقد قال أحد مساعديه في الاستخبارات مرة: «نريد الاستفادة منها في إيصال رسالتنا - رسالة المقاومة ورسالة القضية - إلى واشنطن»(623).

في بداية ربيع العام 1997، سافر غاري شروين إلى تالوكان لتجديد مفاوضاته مع مسعود. لحق شروين وألان إيثام، ومن ثم نائب رئيس البعثة في سفارة إسلام آباد، ببرنامج ميثاق الأمم المتحدة. كان الطالبان يتوجهون شمالاً. وبينما كان شروين وإيثام يمهدان للقاء مسعود، راحت طائرة تابعة لطالبان تحلق فوقهما، وقامت بإلقاء قنبلة، ثم سُمع دويّ طلقات نارية من ضواحي تولوكان(624).

كان شروين وزملاؤه في فرع «السي.آي.إيه.» لشؤون الشرق الأدنى، مشكّكين في أهلية مسعود كحليف ضدّ بن لادن. كان مسعود صريحاً بخصوص المشاكل: كان قلقاً حيال حركة طالبان. أما مخيمات تدريب العرب التي تشغل بال «السي.آي.إيه.» فكانت آخر همومه. أعرب عن سعادته بالتعاون إلى أقصى حدّ، لكنه لم يشأ أن تتفاءل «السي.آي.إيه.» كثيراً في توقعاتها. لكن من جهته، كان شروين متأكداً أن مسعود لن يساعد الولايات المتحدة، على طرد بن لادن من الساحة الأفغانية فحسب، بل سيساعد على قضيته العسكرية الشخصية. كان مركز مكافحة الإرهاب في الوكالة يأمل تزويد مسعود أجهزة اتصالات آمنة ستسمح لأجهزة الاستخبارات التابعة له بنقل الرسائل والتحدث إلى لانغلي. قامت وحدة بن لادن، التي كانت تدير عمليات لجمع المعلومات في أفغانستان لاستخدامها في المستقبل، بإبلاغ لجنة من الكونغرس خلال جلسة مغلقة في 10 نيسان/ أبريل من العام 1997، إذا ما كانت الولايات المتحدة ستلقي القبض على بن لادن، أو تهاجم منظمته. وسيتمكن عملاء مسعود من نقل التقارير حول منازل بن لادن الآمنة وتحركاته، عبر أجهزة الاتصالات. لكن، لم يتم التخطيط النهائي لهذه العمليات، أو تمويلها بعد.

قام شروين بإخبار مسعود بأنه من الأفضل استخدام مراكز «السي.آي.إيه.» في آسيا الوسطى لمتابعة الاتصالات. وبدفع مسعود إلى أقصى الشمال، أصبح أسهل على ضباط «السي.آي.إيه.» مقابلته في طشقند أو دوشانبي، بدلاً من إسلام آباد. كما يفضّل مسعود نفسه، التواصل مع «السي.آي.إيه.» في آسيا الوسطى. فلطالما انزعج من تمركز اتصالاته مع الوكالة في مركز إسلام آباد الذي يقيم علاقات وثيقة مع أعداء مسعود في الاستخبارات الباكستانية. وخلال شهر آذار/مارس، تحدثوا في تالوكان، عن استخدام مخازن «السي.آي.إيه.» ومنشآت النقل في آسيا الوسطى لنقل صواريخ الستينغر المستردّة إلى الشمال. لا يزال مسعود ومستشاروه مستائين من الأميركيين. فالولايات المتحدة غير مدركة الخطر الحقيقي، الذي يشعر به حركة طالبان والاستخبارات الباكستانية والمتطوعون العرب. اعتقد مسعود ورجاله أن برنامج «السي.آي.إيه.» لا يهتم سوى بصواريخ الستينغر. كانوا يكنّون الاحترام لشروين، ويرون فيه رجلاً صلباً وصادقاً ومخلصاً، لكن المحادثات معه كانت مشتّتة ومتقطعة. فالمباحثات العسكرية والسياسية، بما فيها قضية بن لادن والإرهاب، لا تتعدّى تلك المباحثات الروتينية في السفارات الأجنبية. شعروا بأنهم بحاجة إلى المزيد(625).

عمل مسعود بنفسه على إعادة بناء شبكاته الاستخبارية، وعملياته العسكرية. وخلف خطوط الطالبان، كان يوجد العديد من الطاجيك المتعاطفين، ولاسيما حول كابول. كان التجار يتحركون بحرية بين المنطقتين. وقامت قوات مسعود الجوية الخاصة، التي يعيش بعضها كخلايا نائمة داخل العاصمة، بتفجير معدات في مطار كابول. وأسّست جماعته الاستخبارية وحدة خاصة خلال تلك السنة، مؤلفة من القوات الباكستانية والعربية، راحت تقاتل إلى جانب طالبان.

سمعت مصادرهم كلاماً حول عملية اغتيال ضدّ مسعود. تلقّوا تقريراً يفيد بإرسال قاتل لاغتيال مسعود من خلال وضع مسحوق عجيب داخل حذائه، ربما هو «الأنتراكس». ويقول نيم، رئيس الاستخبارات في العام 1997، في هذا السياق: «لقد قمنا بتعيين شخص واحد لحراسة حذاء مسعود مدة عام كامل»(626).

اندفع الطالبان خلال شهر أيار/مايو، في اتجاه مزار الشريف. كان مشهد الباشتون الملتحين بعمائمهم، والباكستانيين المتخرجين في المدارس الدينية، الذين انتشروا في شاحناتهم وسط المدينة، غريباً، مثل مشاهدة الروس بأعينهم الزرقاء يجتاحون الشوارع بدباباتهم السوفياتية منذ ثمانية عشر عاماً. تُعتبر مزار الشريف أهم وأكبر مدينة في شمالي أفغانستان، وهي مدينة علمانية ومدنية، مزدهرة نسبياً بوجود ست عشرة محطة تلفزيونية فضائية، ولوحات إعلانية لرجل ذي شارب طويل ومن دون لحية، هو زعيم أبناء مزار الشريف ومقاتليها، عبد الرشيد دوستوم، وهو جنرال شيوعي سابق، معتدل دينياً. أهم جامع في مدينة مزار، مشهور بقبّته الزرقاء، هو الجامع التاريخي، وهو مدفن صهر الرسول محمد، وهو رمز أساسي من الرموز الدينية عند الشيعة، بينما يكفّره الطالبان. أصبحت قوات الصدم التابعة لطالبان بعيدة عن قندهار. عناصرها لا يتقنون اللغة المحلية. لكن الملّا عمر ما زال يؤمن بأنه سيسيطر على كامل أفغانستان بواسطة القوة العسكرية. كان مستشاره الجديد أسامة بن لادن، يلحّ في إعادة إحياء إمبراطورية آسيا الوسطى الإسلامية

القديمة التي تصل إلى روسيا المعاصرة. ورأت الاستخبارات الباكستانية أنه يجب السيطرة على مزار من قبل طالبان للتمكن من الحصول على اعتراف دولي بطالبان، كحكومة أفغانستان الجديدة. وفي هذا السياق، كتب أحمد رشيد أخيراً، أن الاستخبارات الباكستانية توصلت في ربيع العام 1997، إلى «أن التعامل مع حكومة طالبان المعترف بها دولياً، سيكون أسهل من التعامل مع حركة طالبان». وسيتحتّم على البلدان المجاورة تقبّل طالبان كأمر واقع، وستلجأ إلى طلب مساعدة باكستان، ما سيزيد من نفوذ إسلام أباد(627).

قام الجيش الباكستاني والرئيس بطرد بنازير بوتو من الحكومة بعد سيطرة الطالبان على كابول بفترة قصيرة. فشلت خطتها القاضية بكسب الوقت من خلال الاستسلام لبرنامج الجيش بغية الحفاظ على منصبها رئيسة للوزراء. استطاعت تجنّب المشاكل مع الجيش والاستخبارات الباكستانية حول أفغانستان وكشمير، غير أنها لم تتمكن من التحكم في الفساد الذي كان يلاحق عائلتها وحزبها وحكومتها. ظلّت تعاني في ظل تضليل عائلتها الأرستقراطية، السياسية. طلبوا إليها ترؤس «حزب الشعب»، من أجل مساندتها في صراعها مع أعدائها. لكن عوضاً عن ذلك، اتجهت إلى منفاها في لندن، لتكون مرة ثانية الفتاة الضائعة في الأساطير اليونانية بسبب الجشع، أو مأساة عائلية. دعم الجيش انتخابات جديدة، ونظّم لترشيح رجل الأعمال البنجابي، صاحب العلاقات التجارية الطويلة مع الجيش، ليرأس الائتلاف العسكري الودّي. كان نواز شريف رجلاً مملاً، مقبولاً، شاحباً، يتحدر من عائلة في لاهور تملك مصانع. لم يكن ناجحاً في السياسة. وتعهّد مثل بوتو، عدم التدخّل في شؤون الجيش والاستخبارات الباكستانية.

كانت طالبان تقترب من مزار. أشارت الاستخبارات الباكستانية إلى شريف بالاعتراف رسمياً بشرعية حكومة طالبان في أفغانستان، ما إن تسقط المدينة. تم إعلان الحكومة في 26 أيار/مايو على لسان وزير الخارجية. سمع شريف بالخبر للمرة الأولى من موجز الأخبار عبر التلفزيون. وبحسب ما يقول مساعده مشاهد حسين، فقد «انتابه الغضب»، وراح يسأل «من اتخذ هذا القرار»(628).

التقى رئيس جهاز الاستخبارات السعودي التابع للأمير تركي، أحمد باديب، الاستخبارات الباكستانية في راولبندي بعد سقوط مزار، و «طلبوا إلينا الاعتراف بحكومة طالبان». لاحظ باديب أن قادة طالبان «لا يملكون أدنى فكرة عن إدارة البلاد»، غير أنه شعر بأن الاستخبارات الباكستانية تساعدهم بجدّية. عاد باديب إلى الرياض، وأخبر العائلة الملكية السعودية «بأنهم أناس متدينون... ويجب أن نعطيهم فرصة». اعتقد باديب أن اعتراف المملكة بطالبان سيفتح أمامها قنوات واسعة للاعتراف بها من قبل الدول الإسلامية والغربية. وكما يذكر باديب: قرّرت المملكة إصدار اعتراف رسمي بسبب الإصرار الباكستاني والافتقار إلى رأي آخر، أي «لملء الفراغ الواضح» في أفغانستان. وشاركت في القرار، الإمارت العربية المتحدة، التي غالباً ما يزور شيوخها بلاد طالبان من أجل الصيد(629).

لقد تسرعوا. فمدينة مزار أصبحت مقبرة طالبان. بعد ثلاثة أيام على إعلان الاعتراف الرسمي، ثار المواطنون الشيعة والأوزبك على المحتلين الباشتون. قاموا بقتل ثلاثمئة جندي من طالبان، وسجنوا مئة آخرين، وأجبروا الميليشيا على التراجع إلى خلف طريق سالانغ في اتجاه كابول. وفجأة، لم تعدّ طالبان تتحكّم في أي قطعة أرض مهمة في شمالي أفغانستان. لكن بالنسبة إلى باكستان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، فقد أنجزت المهمة: قامت الدول الثلاث بمباركة طالبان بصفتها حكومة أفغانستان الشرعية.

لتفوز طالبان بامتيازات الاعتراف كاملة، عليها الحصول على اعتراف الولايات المتحدة. وبينما كانت مدينة مزار تُدمّر، برزت محاولة انقلاب صغيرة في الطرف الآخر من العالم، داخل سفارة أفغانستان الفاسدة في واشنطن، العاصمة، وهي عبارة عن قصر على جادة وايومينغ، كان في السابق مركز محكمة العدل العليا الأميركية. ومثل الحرب الأفغانية البعيدة، لم يتعدّ الانقلاب في بادئ الأمر كونه إزعاجاً بالنسبة إلى الأميركيين، حتى وصل إلى مرحلة لا يمكن فيها تجاهل خطر العنف.

رفضت إدارة كلينتون الاعتراف بحكومة طالبان. وظلّت السفارة الأفغانية في واشنطن تتحدث باسم الرئيس ربّاني وأحمد شاه مسعود حتى بعد قيام حركة طالبان بطردهما من كابول. منذ أواخر العام 1994، كان يار محبّة، وهو مهندس من الباشتون ومقيم في ألمانيا منذ زمن، ومقرّب من رباني، يمثّل أفغانستان في الولايات المتحدة. كان محبّة مسيطراً داخل الكونغرس ووزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.»، حتى عندما سيطر الطالبان على قندهار. وفي وزارة الخارجية، كانت تتم دعوة محبّة إلى الاجتماعات الأدنى رتبة. «كانوا ينظرون إلى الأفغان من خلال باكستان» برأيه. كانت «السي.آي.إيه.» أكثر تعاطفاً. لقد قام بفتح قناة جديدة للتواصل عندما بدأ مسعود باسترداد صواريخ الستينغر. وأعطت الوكالة محبّة رقم هاتف طرف ثالث في واشنطن يستطيع الاتصال به عندما يريد التكلم إلى أحد ضباط «السي.آي.إيه.». كان الرجل الأساسي الذي يتصل به في لانغلي على معرفة وثيقة بمسعود، إذ يبدو أنه قضى وقتاً طويلاً معه في أفغانستان. عندما كان محبّة يتحدث عن الاستخفاف الأميركي بخطر طالبان، ويشكو من عدم الاعتراف الأميركي بمسعود حليفاً جديراً بالثقة، كان رجل «السي.آي.إيه.» يومئ برأسه، ويقول: «أخبرت وزارة الخارجية بالأمر نفسه. لكنهم لم يستمعوا إلي أيضاً. يعتقد الجميع أن مسعود هو المشكلة». في أحد الأيام قصدته امرأة من الـ «أف.بي.آي» لإجراء مقابلة معه حول تدريب المقاتلين العرب في أفغانستان. وعدا ذلك، لم يقم أحد آخر من الحكومة الأميركية بزيارة سفارته(630).

كان محبّة يمضي عطلة يوم الذكرى سنة 1997، بينما كان الطالبان يدمّرون مزار. أجرى نائبه، سراج جمال، مقابلة مع صوت الباشتون في أميركا، وأعلن فجأة أنه أصبح إلى جانب طالبان، وأن السفارة الأفغانية في واشنطن، بقيادته، تتلقى أوامرها منذ هذه اللحظة من الملّا عمر.

كان محبّة يخشى إصدار الولايات المتحدة اعترافاً رسمياً بطالبان، بسبب الانقلاب في السفارة. أسرع في اتجاه السفارة، ورأى علم طالبان الأبيض يرفرف على السارية في الخارج. وقف مذهولاً، وقال لسراج، الذي لم يذكر أي شيء عن الموضوع خلال محادثاتهما الطويلة في الأشهر المنصرمة، إنه سيقوم بإزالة علم طالبان، ورفع علم حكومة ربّاني الأسود والأبيض والأخضر ثانية.

تلقّى في تلك الليلة، اتصال تهديد بالقتل من قبل أفغاني يتكلّم بلغة الباشتون. فأجابه محبّة: «الأعمار بيد الله. نحن لسنا في أفغانستان، ولسنا في باكستان. نحن في الولايات المتحدة. لا يمكنك قتل أحد هنا».

فردّ عليه المتصل: «لا، بل من الأسهل تنفيذ المهمة هنا. كل ما علي فعله هو إعطاء المال لأحدهم، وسيقوم هو بقتلك»(631).

اندفعت في الصباح التالي، مجموعة من ضبّاط الـ «أف.بي.آي.» ومكتب الأمن الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية نحو السفارة، مصطحبة معها كلاب الكشف عن القنابل. أُرسلت الشرطة إلى منزل محبّة، وأمنت الحماية لزوجته. لكن محبّة عاد إلى مكتب في الطابق الأرضي في السفارة، يزاول منه أعماله، بينما احتل سراج الطابق الثاني لطالبان وحوّله إلى مساكن. راح سراج يحاول على مدى أسابيع مضايقة محبّة، ودفعه إلى ترك السفارة. كل يوم يتجدد الصراع: يقوم سراج بتعليق صور للملّا عمر، بينما يدعم محبّة ربّاني ومسعود. وعندما راح مسعود يجول في الطابق التابع لطالبان في السفارة، لاحظ وجود ملصقات على أجهزة الكومبيوتر والفاكس والطابعات كُتب عليها: أملاك سفارة المملكة العربية السعودية، واشنطن، العاصمة(632).

لم يكن مكتب جنوبي آسيا، في وزارة الخارجية يريد التدخلّ في الصراع الأفغاني - الأفغاني. رفض الأميركيون تأييد أي منهما. وحاولوا التوسط بينهما للتوصّل إلى تسوية، لكن من دون أي نتيجة. وأخيراً، في شهر آب/أغسطس، دعا رئيس مكتب أفغانستان في وزارة الخارجية كلاً من محبّة وسراج، وأخبرهما أن الولايات المتحدة قرّرت إقفال السفارة الأفغانية بقسميها. لقد تم تعليق الوجود الأفغاني حكومة ودولة في النظام الدولي(633).

انتقل محبّة إلى سان لويس أملاً في تجنّب انتقام طالبان. أما سراج فانتقل إلى المفوضية غير الرسمية لطالبان في الأمم المتحدة.

كان موسماً غريباً في الدبلوماسية الأميركية. أدركت الأمم المتحدة أن خمسين ألف أرملة أصبحن غير قادرات على العمل أو السير في الشوارع من دون التعرض للضّرب من قبل الشرطة الدينية، في ظلّ نظام طالبان الجديد. هؤلاء الأرامل كنّ أمهات لحوالى 400 ألف طفل. لذلك، طالبت الأمم

المتحدة بمساعدات إنسانية للأفغان بقيمة 133 مليون دولار خلال العام 1997، لكنها لم تحصل سوى على 56 مليون دولار أميركي(634). كانت الولايات المتحدة تشهد ازدهاراً اقتصادياً في تلك الفترة، لكن القيّمين على الكونغرس ووزارة الخارجية والبيت الأبيض، كانوا على اقتناع بأنهم لا يستطيعون تقديم المزيد، وبأن مساعدات الأفغان لن تساهم إلا في مساعدة أمراء الحرب. حتى خطر الإرهاب المنبثق من أفغانستان، لم يُثر اهتمامهم، في خريف العام 1997، أعلنت وزارة الخارجية التي كانت في صدد تطبيق نظام عقوبات اقتصادية جديد، أوّل لائحة رسمية بأسماء المنظمات الإرهابية الأجنبية. غير أن بن لادن والقاعدة لم يكونا ضمن اللائحة.

شهدت السياسة الأميركية مع بدء ولاية كلينتون الثانية، تغيرات مثيرة. قامت هيلاري كلينتون بزيارة الهند في العام 1995، وزاد تصميمها على دفع زوجها نحو مزيد من الالتزام تجاه المنطقة. وكانت مادلين أولبرايت التي أصبحت وزيرة الخارجية، تميل أكثر من وارن كريستوفر إلى إثارة قضايا انتهاك حقوق الإنسان. وضعت أولبرايت كل اهتمامها في عريضة ضدّ الطالبان، نظمتها «الأكثرية النسائية»، ومافيس لينو، زوجة الكوميدي الراحل جاي لينو. كما أن نائبها توماس بيكرنغ، السفير السابق إلى الهند، كان مصمماً على إعادة النظر في السياسة الأميركية في جنوبي آسيا. قام المبعوث الخاص السابق إلى المقاومة الأفغانية، بيتر تومسون، الذي أصبح اليوم سفير الولايات المتحدة إلى أرمينيا، بإرسال برقية إلى المسؤولين في وزارة الخارجية: «أسأنا تقدير حجم التهديد الجغرافي - السياسي الأفغاني للمصالح الأميركية فترة طويلة... لذلك، علينا اليوم إجراء مراجعة شاملة للسياسة الأفغانية والمباشرة بتطبيق سياسة حازمة تجاه أفغانستان. وإذا استمرت الولايات المتحدة في اتخاذ هذا الموقف السلبي، فستترك الساحة لباكستان والمجموعات العربية الداعمة للإسلاميين المتطرفين»(635).

خلال الأشهر الأولى من العام 1997، قام مجلس الأمن القومي بمراجعة سياسة الولايات المتحدة تجاه جنوبي آسيا، تبلورت في مذكرة إلى الرئيس في شهر آب/أغسطس، مباشرة بعد صدور أمر من البيت الأبيض بإقفال السفارة الأفغانية في واشنطن. تركّزت سياسة المذكرة بشكل أساسي حول الهند وباكستان، مناشدة الاستمرار في العلاقات الأميركية مع إسلام آباد ونيودلهي.

لكن، بالنسبة إلى أفغانستان، بالكاد لحظت مذكرة مجلس الأمن القومي المساعدة الأميركية لعملية السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة. كانت السياسة نفسها التي تطبّقها الولايات المتحدة في أفغانستان منذ وقف عمل «السي.آي.إيه.» السّري في خطوط الأنابيب في 31 كانون الأول/ديسمبر 1991.

بدأت تظهر خلال فصل الصيف، تحولات مهمة عبر نهر بوتوماك في مراكز «السي.آي.إيه.». استقال جون دوتش من منصبه كمدير لها بعد 19 شهراً فقط في الخدمة. وهو المدير الخامس خلال عشر سنين. يبدو أن التغيرات وعدم الاستقرار في قيادة الوكالة، يتجهان إلى الأسوأ. وعندما غادر دوتش، حاول الرئيس تعيين توني لايك لإدارة «السي.آي.إيه.»، لكن الحزب الجمهوري

المسيطر على الكونغرس هدّد بوقوع مجزرة سياسية إذا تم التعيين، فتسلّق جورج تينيت، نائب دوتش، منصب الرجل الأول في «السي.آي.إيه.»، وهو مساعد سابق في الكونغرس لا يتمتع بالخبرة اللازمة. ربما لا يتمتّع تينيت بالثقة التي تمتّع بها المدراء السابقون في «السي.آي.إيه.»، لكنه يتمتع بمزيتين تروقان إدارة كلينتون في البيت الأبيض، ترتبطان قليلاً بلانغلي: كان محبوباً من الجميع؛ ويمكن أن يحصل على موافقة الكونغرس بسهولة.

لم يتوقع أحد ممن دعموا ترشيح جورج تينيت خلال صيف العام 1997، أن يصبح أحد المدراء الذين خدموا أطول فترة في «السي.آي.إيه.»، وأحد أهم قادتها منذ أيام وليام كايسي، أو المخطط لعملية إعادة الوكالة السرية إلى أفغانستان.

# 20
# هل تحتاج الولايات المتحدة إلى «السي.آي.إيه.»؟

لم يحضر الرئيس كلينتون مراسم تعيين جورج تينيت في البيت الأبيض، في 31 تموز/يوليو من العام 1997، فأرسل نائب الرئيس آل غور ليمثّله. كان كلينتون يعيّن في لانغلي القادة الذين يقدّرهم ويثق بهم، مثل دوتش سابقاً، واليوم تينيت. وبرغم ذلك، لا يزال كلينتون مشكّكاً في دور «السي.آي.إيه.» كمنظمة. لقد ترك لديه صديقه الاستثنائي جون دوتش انطباعاً بأن مديرية العمليات فاشلة في التجسس. لقد تسببت عملية تجسس فاشلة على صدام حسين في صيف العام 1996، في إثارة استياء البيت الأبيض. كان كلينتون مشكّكاً في العمليات السرية بديلاً من السياسات الأجنبية العلنية بالفطرة، ولم تساهم المرحلة العراقية إلا في تعزيز حدسه.

كان تينيت على علاقة ممتازة بمستشار الأمن القومي الجديد ساندي بيرغر، ويمكنه الاعتماد على إثارة اهتمام كلينتون شخصياً متى احتاج إلى ذلك. لكنه خلال ذلك الصيف، تسلّم إدارة وكالة يشعر حليفها الأساسي، الرئيس، بعدم الاهتمام بها، والتحفظ عنها.

لم يكن تينيت البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً، المرشّح المثالي لتصحيح الوضع. فهو لم يكن يوماً مسؤولاً عن مكتب سياسي، أو مديراً لمنظمة كبيرة، أو حتى خادماً في الجيش، أو ضابطاً في الاستخبارات، أو واضعاً سياسة خارجية، أو مؤلفاً كتاباً، أو ناشراً مقالاً صغيراً في صحيفة. لقد تقلّد منصب رئيس التجسس الأميركي بمحض المصادفة السياسية إلى جانب موهبته في دبلوماسية التعامل مع الأشخاص. فبرأي زميله نيك بيرنز، كان رجلاً اجتماعياً صريحاً وطريفاً وغير مدّع، وعاملاً مكداً، وداعياً إلى الائتلاف و «الرجل المناسب للعمل ضمن فريق». كان جزءاً من الطاقم، يناسب واشنطن في أي وقت. لقد وصل إلى العاصمة منذ عقدين من الزمن لدراسة العلاقات الدولية في جامعة جورج واشنطن. وأول وظيفة له في المدينة في منصب مهم، كانت: مدير القوة المحركة الكهربائية والبرامج الدولية في مؤسسة صناعات الطاقة الشمسية. عمل في كابيتول هيل أكثر من عقد من الزمن خبيراً لفريق العمل للجمهوريين والديموقراطيين على السواء. فبعض أصدقائه المقربين لم يعرفوا انتماءه السياسي (كان محسوباً على الحزب الديموقراطي)، لأنه نادراً ما كان يتحدث عن موضوعات الموالين(636).

عُين في بداية العام 1995 نائباً لدوتش في «السي.آي.إيه.» للسبب عينه الذي دفع كلينتون إلى تعيينه في صيف العام 1997: ساعدت علاقاته الشخصية مع الفريقين في مجلس الشيوخ على

تأكيد تعيينه. كان تينيت وفياً لدوتش، لكنه فهم أنه عندما تسلّم مهامه في صيف العام 1997 كانت «السي.آي.إيه.» في الحضيض. لقد أدّى التغيير المستمر في إدارة الوكالة إلى ضياعها. توقف التوظيف في «السي.آي.إيه.»: أصبح 25 متدرّباً فحسب ضباطاً سرّيين في العام 1995. واستمرّ التفتت والتقاعد المُبكر في استنزاف المواهب والنشاط. كانت هذه الحال في كلّ قسم. لكن قسم مديرية العمليات كان الأسوأ، وإدارة الاستخبارات والعلوم التكنولوجية كانت تعاني أيضاً بسبب هذه المشاكل. أما ميزانية الوكالة فكانت تتقلص برغم الأموال المخصصة لمكافحة الإرهاب. والمشكلات الأخلاقية الناجمة عن قضية «ألدريخ آيمز»، كانت تزداد حدّة من اعتراض الكونغرس على التوظيف في وسط أميركا، وهذه المسلسلات كانت تزيد اقتناع لانغلي بأن كل ما تفعله الوكالة يتحوّل إلى فضيحة، أقله في نظر الكونغرس والصحافة.

فهم تينيت خلال عمله نائباً لدوتش مدة سنتين، كصلة وصل مع مديرية العمليات، طبيعة هذه المشكلات مثلما يمتصّ عداد «الجيجر» الإشعاعات. كان تلميذ الناس والمؤسسات، ويتمتّع بحدس غريب حول طباع الناس ومعاناتهم، ويعرف غالباً ما يجب قوله. وراح حدسه القوي، يؤثر في شؤون «السي.آي.إيه.» الداخلية. لم يحمل معه إلى مكتب المدير في الطابق السابع أفكاراً كبيرة ومهمة حول السياسات العامة.

تعكس نظرياته كافة، المتعلقة بتهديدات الأمن القومي والسياسة الخارجية، إجماع الرأسمالي الوسطي فعلياً. دخل بيل كايسي «السي.آي.إيه.» لشن حرب على الاتحاد السوفياتي. وكان جورج تينيت يقيس طموحاته وفقاً لحاجات «السي.آي.إيه.» المؤسسية: مهمّة محدّدة وواضحة، أخلاق عالية، تنفيذ مهمات التجسس وتحليلها بطريقة علمية وعملية، توظيف عملاء أكثر عدداً، وإجراء تدريبات أفضل والحصول على مصادر كبرى. فخلال اجتماع عقده لفريق «السي.آي.إيه.»، ليعلن لهم أولوياته، قال تينيت: «تقتضي سياستي التركيز على الأسس. ومن المؤسف أن نرى الوكالة تشهد تغيير ثلاثة مدراء خلال خمس سنين فقط. لكن المدير الحالي سيبقى». «وراح يشرح لهم أن مقاربته تتركز حول
العمل الجاد في سبيل الأهداف الصحيحة»(637).

هكذا نشأ. كان والده من أصل يوناني، لكن من جذور ألبانية. غادر جون تينيت ألبانيا وهو في الثالثة عشرة وأمضى السنين السبع الأخيرة يعمل في مناجم الفحم الفرنسية. وبقليل من الأموال والممتلكات، أتى عبر جزيرة إيليس عشية الانهيار الاقتصادي الكبير (يوم الجمعة الأسود). أما والدة جورج تينيت فهربت من النظام الشيوعي على متن غواصة بريطانية من إبيروس (منطقة على الحدود بين اليونان وألبانيا)، في نهاية الحرب العالمية الثانية. لم تر والديها ثانية. التقت جون تينيت في نيويورك وتزوجت به، وأنجبت منه في 5 كانون الثاني/يناير من العام 1953، ولدها وليام، وبعد ست دقائق وضعت شقيقه التوأم، جورج(638).

يعيش في منزل من طابقين في ماراتون بارك واي في ليتل نيك، كوينز. يقع منزله قبالة طريق سكني ثلاثي، هادئ، حيث يلعب الأولاد الغولف بالكرة والعصا. يشتهر جورج تينيت بقدرته على قذف الكرة الصغيرة إلى بعد مجرورين. كما كان يلعب في فريق لكرة السلّة في شارع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للقديس نيكولا. افتتح والده مطعماً صغيراً، أسماه «القرن العشرين»، بالقرب من المنزل. كان جورج وبيل يعملان مساعدين في الباصات خلال فترة مراهقتهما. لم يكونا متشابهين. كان بيل متحفّظاً، ومُجداً، وأراد أن يصبح طبيب قلب. بينما كان جورج صاخباً ومرحاً. عند العشاء كان يدعى «الثرثار». ويذكر صديق العائلة، سول ويندير، «هذا الولد، لا يسكت أبداً. ولا يستطيع الاحتفاظ بسرّ». كان يستمتع أيضاً بمشاهدة الأخبار. كتب في سنّ الثامنة مجموعة رسائل إلى مضيف برنامج حواري، فأرسل إليه بالمقابل توقيعه: «إلى محرّر الصفحة الافتتاحية في «النيويورك تايمز»». حمل والداه معهما مبادئ المهاجرين: العمل الجاد، التعليم، العائلة، الإيمان والطموح. كان والده يعمل ست عشرة ساعة في اليوم لينجح ولداه في أميركا. فقد تعهّد الوالدان أن يوصلاهما إلى النجاح، أو يقضيا حتفهما في المحاولة(639).

تسلّم جورج تينيت في العام 1982، وكان في سن التاسعة والعشرين، أول عمل له في كابيتول هيل مساعداً قانونياً للسيناتور الجمهوري جون هاينز، من بينسيلفانيا. يصف تينيت أحد أصدقائه بـ «الرجل الرياضي والصديق الوفي». فدائماً يحتفظ ببطاقات موسمية لكرة السلة في جامعة جورج تاون. كان يشجّع فريق «هوياس»، فكتب رسالة انتقاد ساخرة إلى «سبورتز إللوسترايت» بعد أن نشرت مقالاً ينتقد ممارسات توظيف الفريق. غير أن تينيت لا يتبنّى أيديولوجيا سياسية محدّدة، كما يذكر رفاقه، سوى المحافظة على المزايا التي تتمتع بها أميركا على بقية دول العالم. لقد برز لأنه قادر على الاتصال بشكل شخصي مع السيناتورات وفرق العمل. كان هاينز مديراً متطلّباً، يحبّ التفاصيل، والحصول على المعلومات، والضغط على فريقه للعمل بجهد. قام باختبار موظفين جدد ليرى ما إذا كانوا يتطابقون مع معاييره: إذا فشلوا يوقفهم عن العمل حتى يغادروا. فشل تينيت في الاختبار الأساسي. كان جديداً على قوانين «هيل»، يجهل دور فريق العمل، ولم يكن يتمتع بمواهب قوية في الكتابة. لكنه بذل جهداً للعودة إلى أحضان هاينز. فقد قال صديقه بيل رايخ إنه «الشخص الوحيد الذي نزل إلى أسفل الوادي، ثم اندفع إلى أعلى التلّة ثانية. لقد نجح في ذلك بسبب قوّة شخصيته وعمله الجادّ»(640).

كان فريق عمل هيل يخرج كلّ مساء، لاحتساء البيرة، لكن تينيت لم يكمل قط زجاجته الأولى. كان متزوّجاً بستيفاني غلاكاس، ابنة ضابط يخدم في الخارج. كانت مشرفة على المساكن في مدرسة ماري ماونت كوليدج للبنات في فوكس هول رود، بالقرب من جورج تاون. وعندما استقرّا معاً في واشنطن، انتقل تينيت للإقامة معها في المساكن. كانت أقلّ كلفة. اشتريا لاحقاً منزل ماريلاند في غلاكاس، حيث أمضيا عمرهما فيه. نظّم تينيت حياته لتتوافق مع عمله في كابيتول هيل: منزله في الضواحي، ومولوده الجديد، وكرة السلة في جورج تاون، ومباريات الغولف في ملاعب شعبية رخيصة. كان مجدفاً وهازلاً. لم يكن قط منافقاً أو ساذجاً، بل كان صريحاً ومباشراً. في المكتب أو خلال مروره في الشارع، كان يبدو سريعاً، «نيويوركياً نموذجياً» ممازحاً، وأيضاً «ودوداً، وليس عدائياً مطلقاً»، لا يجرح شعور أحد. كان يعمل في غرف استماع مجلس الشيوخ، كما كان يفعل

في مطعم «كوينز». كان رجلاً ضخماً، مدمناً الطعام السريع. كان رفاقه قلقين بشأن صحّته، لكنه كان مرتاحاً إلى وضعه. وبحسب ما يذكر أحد زملائه في مجلس الشيوخ، «يتمتّع جورج بشخصية قوية. كان يمكن أن يكون بحّاراً»(641).

كان يذعن لأوامر السيناتورات، ولا يحاول استغلال سلطتهم أو امتيازاتهم. يقول السيناتور وارين رودمان إنه كان «حذراً جداً في التعامل مع الأعضاء الذين ينتمون إلى الحزب الآخر». كان مباشراً، واستطاع الفوز بثقة رؤسائه من خلال نقل الأخبار السيئة بطريقة لا تزعجهم كثيراً. ويقول زميله إريك نيوسوم، إنه «أثبت داخل المجلس أن التجربة لا تهمّ، بل القدرة على التواصل بفعالية مع الناس. فأسلوبه في الكلام خال من البيروقراطية،
ومتنوع وشائق». اعتبر العديد من زملائه أن حديثه يبسّط المواضيع المعقّدة جداً، لكنها طريقة فعّالة جعلته مميّزاً من الجميع(642).

ترك تينيت في صيف العام 1985، العمل مع هاينز، وانضمّ إلى لجنة الاختيار في مجلس الشيوخ حول الاستخبارات مساعداً للسيناتور باتريك لايهي، وهو ديموقراطي ليبرالي. كان عضواً ثانوياً في فريق العمل المشرف على المفاوضات المتعلقة بمراقبة أسلحة الحرب الباردة. وعندما غادر تينيت اللجنة بسبب تغيير الموظفين الروتيني، كاد يخسر وظيفته، غير أن رئيس مجلس الإدارة الجديد، دايفيد بورين، وهو ديموقراطي محافظ من أوكلاهوما، وافق على بقائه على جدول الرواتب أشهراً قليلة. وسرعان ما فاز تينيت بحظوة بورين، وأصبح خلال سنة واحدة رئيس فريق عمل المجموعة: لجنة الشيوخ السرية لتتبع ميزانية «السي.آي.إيه.» وأنظمتها وبرامج عملها السرّية.

يذكر بورين أنه لطالما كان يسمعه يقول: «لست بحاجة إلى سماع ذلك، لكن يجب أن تعرف بهذا الأمر وذاك»... أو يقول «كان مستقيماً ووفيّاً بالدرجة الأولى»(643). لم يعمل تينيت يوماً في الاستخبارات، كما أنه لم يسافر كثيراً. وكل ما يعرفه عن الوكالة هو من الأقاويل، والأحاديث، والكتب. لكن عدا الأعضاء المنتخبين أنفسهم، يُعتبر تينيت اليوم أهم المراقبين لأوضاع «السي.آي.إيه.» في مجلس سيناتورات الولايات المتّحدة.

يمكن أن يكون قاسياً في تعامله مع الوكالة. لقد ساعد تينيت على الصياغة والتطبيق للقوانين التي تعزز إشراف الكونغرس على عمليات «السي.آي.إيه.». لقد اقتطع من الميزانية، وغالباً ما شعر بأن ضرائب المواطنين مهدورة على المجتمع الاستخباري. ووفقاً لبورين «كان تينيت يصنّف «السي.آي.إيه.» دائماً في المرتبة الثالثة». وفي أحد الأيام، احتدم النزاع حول تدقيق داخلي، «إلى درجة دعوا تينيت بصائد الساحرات». وفي جلسة مراقبة السيناتورات التالية، دخل وليام ويبستر ومدير «السي.آي.إيه.»، وارتدى كل منهما درعاً واقية، في محاولة منهما لتهدئته بروح الدعابة. لكن، عندما بدأ تينيت يتعامل مع جواسيس «السي.آي.إيه.»، بدأ يصبح مخلصاً لهم أيضاً، كما هو مع السيناتورات. راح الضباط القدامى، مثل توماس تويتين، يمضون ساعات طويلة في تزويد

تينيت المعلومات حول تفاصيل عمليات التجسس. وعندما تم ترشيح المحلل والمدير في «السي.آي.إيه.» روبيرت غايت، رئيساً للوكالة، دافع عنه تينيت في جلسات الاستماع لتعيينه، وحماه من هجوم الموالين. وبدأ منذ ذاك الحين بناء شبكة علاقاته في لانغلي(644).

نادراً ما يكشف تينيت عن وجهات نظره السياسية والخارجية. لكن يذكر أحد زملائه أنه سمعه مرة يندّد بدان كايلي، ويشجّع المرشح الديموقراطي لويد بينتسين خلال معركة انتخابات نائب الرئيس في العام 1988، كما سمعه يشكّك في زميل يوناني ديموقراطي ليبرالي، هو مايكل دوكاكيس. كان تينيت متحفظاً عن الإشراف على مراقبة الأسلحة، وتقدمياً في مجال حقوق المرأة، ووسطياً أو حيادياً في الموضوعات الأخرى. ويقول جون ديسبريس، زميله في لجنة الاستخبارات: «كان يتمتّع بصفات استثنائية يقدّرها بورين». «لم يكن تينيت يوماً مفكّراً عظيماً. إنه عامل». ويتعلّق دوره بوضع آراء الآخرين وتنظيمها، ليتمكّن المسؤولون المنتخبون من اتخاذ القرارات. وينتشر في واشنطن مئات ومئات الأشخاص الذين يتمتّعون بالأفكار والأيديولوجيات، وآلاف الخبراء في السياسات الخارجية والخبراء والتقنيين. لكن من النادر أن تجد رجلاً يعرف كيف يسير وسطهم، وينفّذ المهام(645).

لكن، يُذكر أنه قدّم نصيحة مهمة في إحدى المرات ولم تنجح. عندما واجه الكونغرس أزمة تصويت حول السماح لبوش بشن حرب على العراق لطرد جيش صدام حسين من الكويت، قام تينيت بنصح بورين بالتصويت ضدّ الحرب. وبرأي زميل له «كان بورين يعتمد على تينيت بدرجة كبيرة». كانت التقارير السرية لوكالة الاستخبارات الدفاعية تتوقع كارثة دموية. «وهناك قلق بشأن وقوع خسائر بشرية كبيرة. فكان التصويت حذراً». غير أن بورين الذي كان اسمه مطروحاً للرئاسة، تأذّى سياسياً من هذا القرار، بينما كان هناك ديموقراطيون في الكونغرس يعارضون ما تبيّن أنه تحوّل وحرب أهلية أودت بحيوات الآلاف من العراقيين، وأوقعت بعض الخسائر بين صفوف الأميركيين(646).

قرّر تينيت بعد هذا الموقف عدم تقديم نصيحة سياسية قوية ومباشرة، مفضلاً جمع الآراء والتحاليل والملاحظات، وترك اتخاذ القرارات للآخرين. واتبّع هذا النمط حتى العام 2001. لكن، عندما يتعلق الأمر بالتوصيات السياسية، يكون تينيت حذراً، ولاسيما عند وجود خطر وقوع خسائر بشرية ونتائج غير مؤكّدة.

بعد انتخابه في العام 1992، لم يكن كلينتون يستطيع الاعتماد سوى على بعض الخبراء في الاستخبارات. كان الديموقراطيون خارج الإطار التنفيذي اثني عشر عاماً، لا يمتلكون عناصر خبيرة في الشؤون الخارجية سوى في الكونغرس. ربما ساهمت المعايير
التاريخية في استئناف مسيرة تينيت، إلا أنه كان الشخص المناسب ليشغل منصب مدير الاستخبارات الانتقالي بعد انتخاب كلينتون. يقول زميل تينيت في لجنة الاستخبارات، إن «العمل الانتقالي هو حيث يبرهن عن قدرته على كونه عضواً في الإدارة. كان امتحاناً لقدرته على

النجاح»(647). نجح تينيت، ولحق ببلايك وبيرغر إلى مجلس الأمن القومي، كرئيس الاستخبارات. كان منصباً حسّاساً يديره من خارج مبنى المكتب التنفيذي القديم إلى جانب الجناح الغربي في البيت الأبيض. كان مكتب تينيت هو الصلة البيروقراطية بين «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض والكونغرس، في ما يتعلق بالعمليات الاستخبارية والشرطة. كان عمله يتضمن إلى جانب مناقشة الميزانية وموضوعات المراقبة، مراجعات قانونيةً للعمليات السريّة المقترحة. لقد عمل بجهد بين العامين 1993 و1994، إلى درجة أنه أصيب بذبحة قلبية، دفعته لاحقاً إلى التخلي عن التدخين، لكنها لم تؤثر في جدول عمله.

تتم متابعة مذكرات خطط العمليات السرية والجرائم الدولية وسياسة الاستخبارات بشكل مستمر بين مكتب تينيت ومكتب «السي.آي.إيه.» والمستشار العام ومجلس الأمن القومي ووزارة العدل والبنتاغون. وبصفته رئيس المشرفين على هذا النمط في العمل، ومساعداً في تنظيم الموضوعات وإعدادها لاتخاذ القرار الرئاسي، أصبح تينيت متمرساً في السياسات والأنظمة المتعلقة بالتّجسس، واستخدام تحاليل الاستخبارات وآثارها في البيت الأبيض، والبنية القانونية والمالية لوكالات التجسس الأميركية. ومن خلال المشاركة، بدأ يعرف في شؤون السياسات الخارجية، حتى في أدقّ تفاصيلها. كان يراقب عمليات اتخاذ القرار الرئاسية حول التجسس والعمليات السرية عن كثب.

ساهم تتبع تينيت للأوضاع من الداخل في تغيير جدول أعماله في لانغلي. وخلال صيف العام 1997، عندما ترقّى إلى مكتب مدير «السي.آي.إيه.»، أدرك تينيت برنامجه الإصلاحي فوراً من خلال مراجعة خطة «السي.آي.إيه.» الرئيسية. كان مهتماً «بعبقرية الوكالة الغريبة». كما كان عاطفياً، ويرى نجاحه الخاص وراء خلفية الأسطورة الأميركية: «يقف هنا اليوم ابن مهاجر، رئيساً للاستخبارات المركزية». وخلال مراسيم أدائه القَسَم، قال: «ببساطة، هذا أعظم بلد على وجه الأرض»(648).

تلقى خلال أسابيعه الأولى بصفته مديراً، دعوة من الرئيس السابق جيرالد فورد لترؤس فريق يدعوه «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»؟». وتشير هذه الحملة إلى الوضع السيئ الذي وصلت إليه هذه الوكالة. وبينما كان تينيت يعد خطابه، ذكر تأسيس «السي.آي.إيه.» من قبل هاري ترومان. كان هدف الوكالة تجنب كارثة أخرى مثل بيرل هاربر. كانت «السي.آي.إيه.» «ضمانة» في وجه المفاجآت المأسوية. لقد أخبر فريق فورد: «أعتقد أن احتمال وقوع مفاجآت خطيرة أقوى اليوم مما مضى. فأينما نظرت اليوم، ترَ المجموعات الراديكالية التي لا تملك هدفاً سوى إلحاق الضرر بالمصالح الأميركية، من الأسلحة البيولوجية التي يحاول صدام حسين تصنيعها وتخبئتها في العراق، إلى برامج إيران للصواريخ المتوسطة المدى والأسلحة النووية»(649).

تعهّد تينيت تحسين قدرة الوكالة على تحذير الرؤساء من أي خطر محتمل، ما يعني إعادة التركيز على جمع المعلومات، ولاسيما من المصادر البشرية، ضدّ «الأهداف الصعبة»، والولايات

والجماعات التي قد تخبّئ مفاجآت غير سارة. وقال بعض منتقدي «السي.آي.إيه.» إن الوكالة أصبحت مؤسسة إخبارية أخرى، مع عصر الإعلام الرقمي، حيث يستطيع أصحاب القرار معرفة أي معلومة من مصادر إخبارية متنوعة حول العالم في ساعة وقوع الحدث. واعتبر تينيت هذه الأقوال غبية ولا تصدّق. لكن لنقض هذه المزاعم يجب على «السي.آي.إيه.» أن تقدم ما لا يتوافر عند أي مصدر معلومات آخر في واشنطن. ولهذه الغاية، عليه سرقة الأسرار وتوظيف الوكلاء الذين يستطيعون استثنائياً النفاذ إلى الأهداف الصعبة.

اعتقد تينيت أنه يجب تحليل الوقائع والمعلومات بشكل أفضل كي لا تغفل عن تتبع التهديدات المستقبلية، كما جرى في المراحل الأولى. وأعلن أن تحليل المصادر سيشكّل «مهمة الوكالة الأساسية». كانت مهمة «السي.آي.إيه.» الأولى هي حماية المواطنين الأميركيين. وللتركيز على هذه الأسس، كان يجب أن تغيّر «السي.آي.إيه.» «أهدافها السهلة»، مثل الموضوعات الاقتصادية والهجرة البشرية. ومهما تكن أهميتها، فلن تنتج عن هذا النوع من الأزمات فضيحة أخرى مثل «بيرل هاربر». يجب أن تركّز الوكالة على التهديدات المميتة(650).

كانت الدروس من نظامي لانغلي السابقين، ومن فشل مدراء «السي.آي.إيه.» منذ أيام ستانسفيلد تورنير، واضحة جداً: «لا تحاول فرض التغييرات على أيدي غرباء من خارج المؤسسة. قم بإيجاد موظفين جديرين وأكفاء، واكسب تأييدهم لقضيتك، وأوكل إليهم المسؤوليات، واجعلهم يقوموا بالعمل نيابة عنك». خلال ذلك الصيف الأول له في الوكالة، طلب تينيت مساعدة مدراء سابقين مثل ريشارد هيلمز. وعيّن الجاسوس القديم جاك داونينغ رئيساً لمديرية العمليات. لم يكن ينتقد الوكالة أو موظفيها أمام العامة حتى عند
وجود سبب قوي. كان يجول في المبنى متبختراً، يسلم على هذا وذاك ويضع ذراعه حولهم ويجلس في الكافيتريا يتنقل بين طاولاتها ويحتسي قهوة الموكّا التي يطلبها كل من في الوكالة.

فكّر تينيت في الوقت عينه، في توطيد العلاقات مع البيت الأبيض والكونغرس. كانت عملية المراقبة تطغى على مهنته. لم يكن تينيت ينوي أن تتملّص «السي.آي.إيه.» من الأنظمة والقوانين، حتى لو تعارضت مع العمليات. وفي خطاب له، قال تينيت: «نحن اليوم أكثر شفافية في التعامل مما كنا مع أصحاب القرارات داخل القسم التنفيذي، وصرنا مشتركين في عملية اتخاذ القرارات أكثر. وأنا أجرؤ على القول إن «السي.آي.إيه.» هي أكثر وكالة بين الأجهزة الفدرالية تتعرض لمراقبة الكونغرس. وهذه ليست بشكوى. لكن، في الواقع، تشكل هذه المراقبة إحدى الروابط الحيوية المباشرة مع الشعب الأميركي، ومصدر قوة يميّزنا من بقية دول العالم»(651).

كان برنامج تينيت الإصلاحي يُرضي الجميع. كان المنتقدون في الكونغرس يخشون أن يكون متساهلاً كثيراً مع عدم كفاءة الوكالة. وذُهل أصدقاؤه السابقون من سرعة تمكّنه من قيادة «السي.آي.إيه.»، وراحوا يقولون إنه أشبه بمدير مبيعات من كونه قائداً. كان تينيت يتمتّع بقدرة على وضع لائحة بالأولويات من دون الإساءة إلى أي مكوّن مهم. وقد حدد في وقت سابق، أنه يريد

«وضع برنامج يعتمد على الحسّ المشترك الذي يزيد ويعمّق ما بدأنا تطبيقه من تحليل المصادر وجمع المعلومات السريّة». بتعبير آخر، «لا تعاني الوكالة مشكلة، لكننا سنقوم بإصلاحها»(652).

ركّز تينيت على العمليات السرّية المسلحة والبرامج العسكرية التي عرّضت «السي.آي.إيه.» لمخاطر سياسية جمّة. وأشار إلى أن من أهم مهام «السي.آي.إيه.»، «العمليات العسكرية التي تُعتبر الأصغر» و «الأكثر إثارة للجدل». وفي الوقت عينه، طمأن تينيت العملاء العسكريين في الوكالة، إلى أنه مصمم على «المحافظة على البنية التحتية اللازمة لنستطيع التحرك حالما يأمرنا الرئيس». كان يدافع عن مركز العمليات العسكرية الصغير في الوكالة، الذي يشبه، إلى حدّ ما، وحدات القوات الخاصة في البنتاغون، على أساس أن كل رئيس منذ عهد الرئيس ترومان، كان يلجأ إلى قدراته عند الحاجة. وفي محاولاته إقناع الطرفين، كان تينيت يقول إن العمليات السرية، كانت «وسيلة حساسة بيد السياسة الخارجية الأميركية»، لافتاً إلى عدم «اعتبارها الملجأ الأخير عند فشل السياسات»(653). كان يمكن تينيت أن ينجح في ذلك كله، بسبب شخصيته القوية والمقنعة. لم يوحِ شكله الانتقائي والشامل بأنه شخص مخادع. كان يعكس شخصيته الحقيقية(654).

طرح نظرياته حول التهديد العالمي الذي كانت تواجهه أميركا خلال صيف العام 1997 مباشرة، داخل مركز «السي.آي.إيه.» وتحاليل إدارة كلينتون. وحدّد المخاطر التي تواجهها الولايات المتحدة بخمسة «تحديات خطيرة»، هي: «التحولات في روسيا والصين»؛ خطر الدول مثل كوريا الشمالية وإيران والعراق؛ و «الموضوعات العالمية»، مثل الإرهاب وانتشار الأسلحة والمخدرات؛ والجرائم المنظمة؛ والأزمات الإقليمية، والأنظمة التي تسقط في أفريقيا مثلاً، ويوغوسلافيا سابقاً. لم تتضمن لائحة تينيت أي موضوع مثير للجدل. كانت تشمل مشاكل السياسة الخارجية، ولا يمكن انتقادها بأي شكل من الأشكال، إلى درجة أنها تقدم الخيارات. كانت لائحة بالأهداف الصعبة، ركّزت على المفاجآت الاستراتيجية. كما تضمّنت لائحة بتحاليل أشخاص آخرين، من بينهم، بشكل أساسي، آراء الرئيس. سلّم كلينتون إلى الوكالة، لائحة بأولوياته ضمن قرار رئاسي سرّي في العام 1995. وأول بند على لائحته هو مساعدة البنتاغون خلال العمليات العسكرية. والثاني هو «المعلومات السياسية والاقتصادية والعسكرية حول البلدان المعادية للولايات المتحدة». والثالث هو «التجسس في مجال التهديدات الدولية لأمننا، مثل انتشار الأسلحة والإرهاب وترويج المخدرات والجريمة المنظمة والممارسات التجارية غير الشرعية وموضوعات البيئة الخطيرة». كانت لائحة أوامر طويلة(655).

كان تينيت صارماً عندما يتكلّم على مهمة «السي.آي.إيه.» الأساسية في الحذر الاستراتيجي من الهجمات المفاجئة. كان يقول: «من السهل أن يشعر المرء بالرضا». ومع انهيار الاتحاد السوفياتي وبروز القوة الأميركية الاقتصادية والعسكرية الفريدة، «أصبح العالم مختلفاً، لكن لم يصبح مكاناً آمناً»(656). تتلخّص مهمة «السي.آي.إيه.» ببساطة، بإخبار الرؤساء مسبقاً بالمفاجآت الخطيرة. وقاد هذا المبدأ تينيت مباشرة إلى تهديد الإرهاب والصواريخ وأسلحة الدمار الشامل. واستطاع من

خلال المحادثات في البيت الأبيض استيعاب مخاوف كلينتون من الإرهاب، وتلخيصها، ولاسيما الأسلحة البيولوجية.

سأل السيناتور بوب كيري المرشّح، خلال جلسة استماع تعيين تينيت، إذا ما كان يتم «تضخيم» خطر الإرهاب. كان السؤال يعكس تشكيكاً واسعاً في دور الكابيتول هيل والصحافة. ووفقاً للحجج التي تتكرر غالباً، كانت «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» تروّجان خطر الإرهاب لزيادة مخصصاتهما المالية. إلا أن تينيت أخبر كيري بأن خطر الإرهاب حقيقي، وفي نمو مستمر. «إن الجماعات القادرة على ممارسة الإرهاب ضد مصالح الولايات المتحدة، منتشرة اليوم حول العالم، وتملك القدرة على تحريك الأموال والأشخاص والمتفجرات، ولا يزال حجم نشاطاتها يثير قلق الاستخبارات الأميركية بشكل متزايد. إنها جماعات متعصّبة، ولديها أسباب كافية للاستمرار في ما تفعل... إن النشاطات التي تجري في العالم، في هذه اللحظة، لم يسبق لها مثيل، ونسبة الخطر الذي تمثله على مصالح الولايات المتحدة مرتفعة جداً»(657).

كان من المتوقع أن يوجّه الإرهاب ضربة موجعة إلى الولايات المتحدة، أكثر من حكومتي روسيا والصين، أو حتى من العراق أو إيران. وسأل تينيت في وقت سابق فريق عمل «السي.آي.إيه.»: «ما هي القوى التي يجب أن نواجهها؟». وأجاب عن السؤال بنفسه: «أولاً، التهديد ضد البيئة متنوع وأكثر تعقيداً وخطراً؛ والعوامل البيولوجية والإرهاب؛ والمعلومات الحربية. أصبحت الأعمال الإرهابية للجماعات الصغيرة أسهل، مع انخفاض نسبة ملاحظتها وتحذيرها. وازداد عامل المفاجأة قوّة»(658).

مع حلول خريف العام 1997، أثّر موقف الغالبية النسائية ضدّ طالبان في أهم امرأتين داخل إدارة كلينتون: مادلين أولبرايت وهيلاري كلينتون. وعندما قامت أولبرايت بزيارة مخيّم للاجئين في بيشاور في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، غيّرت رأيها في سياستها القديمة، ونددت بسياسات طالبان تجاه المرأة. كانت أول مرة يصدر فيها عن أحد أعضاء إدارة كلينتون تصريح بهذه القوة حول انتهاك طالبان حقوق الإنسان. وبعد أسابيع قليلة، ألقت هيلاري كلينتون خطاباً حول حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، بالإشارة إلى طالبان. قالت كلينتون: «حتى اليوم، يمنع الطالبان في أفغانستان الفتيات من الذهاب إلى المدارس». وكانوا يضايقون «من يحاول الاعتراض على هذا الظلم». كانت المرة الأولى التي ينتقد فيها أحد من عائلة كلينتون حركة طالبان علناً(659).

شكل أصدقاء قدامى لأولبرايت وهيلاري كلينتون في شبكات السياسة النسائية في الحزب الديموقراطي، الحافز الأساسي لهما. لقد كنّ نساء محترفات من جيل النمو السكاني، تقلّدن اليوم مناصب مهمة لم تصل إليها امرأة في واشنطن سابقاً، أقله ليس بهذا العدد. كنّ على اتصال دائم بعضهن ببعض، ويشتركن في معالجة القضايا. عرفت طالبان بهذا البرنامج عبر الفاكس. لم يكن قادة الطالبان، المرتاحون داخل وزاراتهم المعزولة على بعد أميال من قندهار، على علم بأسباب هذا التحول في الموقف الأميركي. لم يبذلوا جهداً كبيراً لمعرفة السبب. وعندما تم الضغط عليهم

حول موضوع تعليم البنات من قبل الوفد الأميركي الاعتيادي، قالوا، كما يذكر ليونارد سينسني من وزارة الخارجية، إنها «شريعة الله. هكذا يجب أن يكون الوضع. اتركونا وشأننا»(660).

وعلى الرغم من خسارة سفارتهم في واشنطن، قام مساعدو مسعود المقربون في أنحاء العالم، بشن حملة للحصول على الدعم لحربهم ضد طالبان. وخلال ذلك الخريف، قام عبد الله، نائب وزير الخارجية الرسمي في حكومة مسعود، في واشنطن، بإخبار المسؤولين في وزارة الخارجية، بأن بن لادن يموّل حركة طالبان. حاول إقناع الخبراء الأفغان الذين التقاهم في فوجي بوتوم، بأنه يجب اعتبار طالبان جزءاً من شبكة إقليمية للإسلاميين الأصوليين يموّلها بن لادن وشيوخ أغنياء آخرون من دول الخليج.

كان عبد الله، يلاحظ من خلال تعليقات أولبرايت، «علامات تغيّر في السياسة الأميركية»، لكن كلّ ما كان يسمعه في وزارة الخارجية هو ضرورة تفاوض مسعود مع حركة طالبان. لم يكن هناك اقتناع كبير بخطر طالبان. والأهم من ذلك، برأي عبد الله، هو «الافتقار إلى السياسات». كانت وزارة الخارجية الأميركية تقاوم هذا الوضع عبر «قبول وجود طالبان» في أفغانستان، ومحاولة التفاوض لإيجاد حلول «من خلال باكستان». وعلى الصعيد الأميركي، يقول كارل «ريك» إندرفيرث، ومساعد وزيرة الخارجية لشؤون جنوبي آسيا: «كنا نسعى إلى إيجاد طريقة للتوصل إلى تسوية سلمية بخصوص الحرب الأهلية المستمرة». وفي أواخر العام 1997، اقتنع المحللون في وزارة الخارجية بأنه «يجب التعامل مع طالبان، لأنهم أمر واقع»(661).

راحت أونوكال تردّد النصيحة نفسها على مسمع فوجي بوتوم ومجلس الأمن القومي: حركة طالبان أمر واقع، ويمكن أن تشكل جزءاً من الحلّ الأفغاني. حاول مارتي ميلر جاهداً خلال العام 1997، إيجاد وسيلة لتحويل نصر طالبان في كابول إلى صفقة خطوط أنابيب نهائية. كان يلتقي باستمرار شايلا هيسلين في البيت الأبيض. وراح يعلن أن حركة طالبان يمكن أن تكسب 100 مليون دولار سنوياً من رسوم العبور إذا سمحت ببناء خطوط
الأنابيب.

قرّر ميلر في بداية العام 1997، التفتيش عن معارف أفضل في أفغانستان وباكستان بالنسبة إلى أونوكال، فبدأ يعتمد بشكل أكبر على روبرت أوكلي، سفير الولايات المتحدة سابقاً إلى باكستان، وعضو مجلس أونوكال الاستشاري. كانت زوجة أوكلي في تلك الفترة، رئيسة مكتب الاستخبارات والأبحاث، في قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية. وكانت تستطيع الاطلاع على التقارير الاستخبارية الحساسة في حكومة الولايات المتحدة(662). أشار روبرت أوكلي على ميلر، التعاون مع الحكومة الباكستانية للوصول إلى طالبان. واقترح على أونوكال الاستعانة بتوماس غوتيار، وهو خبير في الشؤون الأفغانية من جامعة نيبراسكا في أوماها، لتطوير برنامج تدريبي في قندهار لتعليم الباشتون المهارات التقنية اللازمة لبناء خطوط الأنابيب. في الأعوام الماضية، خلال الجهاد ضدّ الاتحاد السوفياتي السابق، عمل غوتيار داخل أفغانستان ضمن برامج مساعدات إنسانية من

الولايات المتحدة، وكان أوكلي في ذلك الوقت سفيراً في إسلام آباد. وافقت أونوكال على دفع 900 ألف دولار عبر جامعة نيبراسكا لتأسيس منشأة تدريبية على مساحة 56 فدّاناً في قندهار، لا تبعد كثيراً عن مجمعات بن لادن. وراح غوتيار يسافر إلى أفغانستان، ويلتقي قادة طالبان، بينما حصل أوكلي على دعم حكومة نواز شريف في إسلام آباد بالنيابة عن شركة النفط. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1997، عمل غوتيار مع ميلر لتدبير زيارة وفد آخر من طالبان إلى الولايات المتحدة، وهذه المرّة بقيادة الملّا وكيل أحمد، رئيس مساعدي الملّا عمر(663).

آن الأوان ليدرك الطالبان أن أونوكال هي ذراع حكومة الولايات المتحدة. إذ تتمتع حركة طالبان بعلاقات حميمة ودقيقة مع مدراء أونوكال ومستشاريهم بشكل أفضل من أي مسؤول أميركي آخر. فمدراء أونوكال لا يتحدثون عن خطوط الأنابيب فحسب، بل عن طريقة للمفاوضات السلمية في أفغانستان.

راح ميلر خلال شهر كانون الأول/ديسمبر يؤمّن الحراسة والمواصلات للطالبان، ويعمل على تدبير اجتماع لثلاثة وزراء من حركة طالبان في وزارة الخارجية. أعرب مساعد وزيرة الدولة للشؤون الخارجية أمام الزوار عن قلقه حيال وضع المرأة الأفغانية. كما نقل إليهم استياءه من تسامحهم في موضوع الاتجار بالمخدرات. وتكلم على الاستخفاف بعملية السلام وموضوعات أخرى، من دون أن يتطرق أبداً إلى موضوع الإرهاب وبن لادن. لم يتم ذكر الموضوع إلا بعد مغادرة إندرفيرث إلى اجتماع آخر. وأوضح أحد وزراء طالبان أن حركته ورثت مشكلة بن لادن، بينما كان سابقاً في أفغانستان «ضيف النظام السابق». وأضاف الوزير نفسه، وفقاً لمصادر سرّية من الاجتماع في وزارة الخارجية، إنه منع بن لادن من «الإدلاء بتصريحات ومقابلات علنية تثير استياء المحاولات الإيرانية والعراقية للتواصل معهم». وبالنسبة إلى خطوط أنابيب أونوكال، قام أحد ممثلي إندرفيرث بإخبار الوفد «بأنه يستحيل تمويل المشروع ما لم يتم التوصل إلى اتفاق سلام في أفغانستان»(664).

وقام ميلر أيضاً باستئجار غرفة للاجتماعات لوفد طالبان في فندق واترغايت. وشملت جولتهم زيارة إلى مراكز الناسا و «ماونت راشمور». والهدف من ذلك إثارة الطالبان وبهرهم بصور النجاح والحلم الأميركيين، لبناء روابط مع أقرب المساعدين إلى الملّا عمر، تتخطّى المال والعمل. استاء ميلر من تنديد أولبرايت العلني بانتهاك طالبان حقوق الإنسان. كان بحاجة إلى إقناع حركة طالبان بأنها تستطيع تأسيس عمل مع الولايات المتحدة.

أما باكستان، التي كانت قلقة بشأن نتائج هذه الاتصالات المباشرة بين طالبان والولايات المتحدة، فقد قامت بإرسال ضابط من الاستخبارات الباكستانية مع وفد طالبان لمراقبتهم(665).

حضر مارتي ميلر الاجتماع بين زلماي خليل زاد، الخبير الجمهوري في الشؤون الأفغانية (السفير الأميركي في العراق لاحقاً، وحالياً المندوب الأميركي لدى مجلس الأمن)، وطالبان في فندق

«الفور سيزنس» الفخم في هيوستون. وأثناء العشاء، دخل خليل زاد في جدل طويل مع وزير الاستخبارات في حركة طالبان، أمير خان متّقي، حول معاملة طالبان للمرأة. ودخلا في التفاصيل والتعاليم القرآنية في هذا السياق.

قام مارتي ميلر بدعوة وفد حركة طالبان إلى تناول العشاء في منزله المطلّ على ملعب الغولف في الضواحي. كان قلقاً من أن يشعر الطالبان بالإهانة من بعض الزخرفة في منزله. فدعا إلى منزله أحد مستشاري أونوكال، الأفغاني، د. إيزيمي، قبل موعد العشاء، للبحث في أرجاء المنزل عما قد يسيء إليهم. كانت جدران منزله مزينة بالرسوم والمقولات المختلفة، وكان قلقاً من أن يكون ما يعتبره أمراً عادياً، مهيناً بالنسبة إليهم. وجد إيزيمي بعض التماثيل بالقرب من حوض السباحة اشتراها ميلر من إندونيسيا. كانت التماثيل منحوتات لعراة من قبائل السكان الأصليين. وكما قال ميلر حرفياً: «كانت التماثيل تعكس بشكل واضح أيهما للرجل وأيهما للمرأة».

نظر إليها إيزيمي وقال: «لا أعتقد أن هذه التماثيل ستفسد الأمر».

فأجابه ميلر: «هل تريد أن أضعها في الطابق السفلي؟».

ردّ عليه إيزيمي: «كلا، سأخبرك ما سنفعل بها. لماذا لا نضع عليها الشادور؟».

دخلوا مطبخ ميلر ووجدوا بعض أكياس القمامة، فعادوا إلى المسبح وقاموا بربط الأكياس حول التماثيل.

كانت زوجة ميلر مشتركة في جمع التبرعات لمصلحة توكيل محامين للأطفال. وفي ذلك العام، كان منزل ميلر جزءاً من حملة تبرعات لسبعة أو ثمانية منازل مزينة بزينة الميلاد. لذلك، كان يوجد في منزل ميلر سبع أشجار، كل منها مزينة بالأشرطة المبهرجة والطابات البراقة والأضواء، وزينة أخرى لعيد الميلاد في أرجاء المنزل.

قال ميلر: «ذُهل الطالبان بكل تلك الأشجار المزينة». وراحوا يسألون ميلر عن معنى شجرة الميلاد في قصة يسوع المسيح وعيد الميلاد. في الواقع، لم يكن ميلر يملك أدنى فكرة عن كيفية تحوّل شجرة الميلاد إلى رمز في مولد الطفل يسوع، لكنه تكلم على قدر معرفته(666).

طلب قادة طالبان إلى ميلر أخذ صورة لهم أمام شجرة الميلاد. رفض شخص أو اثنان من الوفد المشاركة، معبرين عن التزامهما حتى في هيوستن بمنع طالبان الصور المجسّدة لشكل الإنسان. إلا

أن الملّا وكيل وبقية قادة طالبان الملتحين، وقفوا أمام إحدى أشجار الميلاد، متأبطين بعضهم أذرع بعض، ومبتسمين.

كان جورج تينيت مدركاً تماماً الخطر الذي يمثله بن لادن، فدعم وحدة تعقّب بن لادن الصغيرة في مركز مكافحة الإرهاب. لكن، مع نهاية العام 1997، لم يكن بن لادن على رأس لائحة أولويات مدير «السي.آي.إيه.»، أو الوكالة. وكان رأي الوكالة في بن لادن مشابهاً لرأي الأمير تركي: «رجل أناني ثري وخطير، وممول للأصوليين، غير أنه كان معزولاً في أفغانستان».

كانت «أكبر هموم» تينيت، انتشار الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية حول العالم، «بسبب تهديدها المباشر حيوات الأميركيين». وبحسب الإحصاءات، كان خطر الإرهاب مستقراً، على الرغم من ارتفاع عدد الهجمات ضدّ الأهداف الأميركية بشكل بسيط. فمقابل خطر الدمار الشامل للصواريخ النووية التي يمكن توجيهها نحو المدن الأميركية، لم يكن بن لادن أو الإرهابيون المستقلون يمثلون تهديداً كبيراً. وبينما راح تينيت يبحث في الأفق عن احتمال تكرار حادثة «بيرل هاربر»، رأى بلداناً غير مستقرة، مثل روسيا والصين، تملك القدرة على شنّ هجمات مفاجئة، ووجد أن حكومات كثيرة مثل إيران وكوريا الشمالية والعراق، لديها الحوافز اللازمة للإقدام على هذه الأعمال إذا توافرت لها الوسائل. وفي مواجهة كلّ هذه التحديات، كان بن لادن يعتبر ضباط «السي.آي.إيه.» وخبراءها، مجرمين خطرين، لكنهم لا يمثلون تهديداً لوجوده(667).

كانت «السي.آي.إيه.» تقع يومياً على أدلة عن اهتمام الجماعات التي تتهمها بالإرهاب، بأسلحة الدمار الشامل. لم يكن تينيت يتكلم على الموضوع علناً، لكن بن لادن، بدأ يظهر في تقارير «السي.آي.إيه.» المخيفة. في أواخر العام 1996، دخل مساعد ومخبر سابق لبن لادن، هو جمال الفضل، برنامج حماية الشهود، وأدلى بمعلومات حول عمليات بن لادن السابقة في السودان. اهتمّت «السي.آي.إيه.» بعملية استجواب الفضل السرّية. وتحدث الفضل عن محاولات بن لادن شراء اليورانيوم لصنع قنبلة نووية، لكن مساعيه باءت بالفشل، بحسب معلومات الفضل. لكن إذا كان يقول الحقيقة، ونجح الفضل في اختبار كشف الكذب، فستعكس شهادته حجم طموحات بن لادن. تمتلك «السي.آي.إيه.» تقارير حول اتصالات بين بن لادن وعملاء الاستخبارات العراقية خلال الأعوام التي أمضاها بن لادن في السودان، وهناك بعض المؤشرات على أن هذه الاتصالات بالعراقيين تشمل التدرب على تطوير الأسلحة الكيميائية واستخدامها(668). ولا يزال البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.»، لا يملكان برنامجاً سرياً يستهدف بن لادن يتعدّى جمع المعلومات والتحاليل. كان مركز مكافحة الإرهاب يحاول مراقبة بن لادن من دون أن تحاول قياداته إلقاء القبض عليه، أو قتله.

غير أن هذه الخطة أوشكت على البداية.

# الجزء الثالث
# العدوّ البعيد

**من كانون الثاني/يناير 1998 إلى العاشر من أيلول/سبتمبر 2001**

## 21

### اقبضْ عليه حيّاً

بدأت أول خطة رسمية لـ «السي.آي.إيه.» للقبض على بن لادن أو قتله، مع التخطيط لإلقاء القبض على مير أمل قاسي، وهو مهاجر بلوشي قام بإطلاق النار على مدخل مراكز الوكالة في العام 1993.

كان قاسي هارباً بين أراضي الحدود الأفغانية والباكستانية والإيرانية. وقد طلب مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي من مركز إسلام آباد توظيف عملاء قادرين على تتبّع أثره. اتصل المركز بمجموعة أفغانية من القبائل المحاربة التي تلقّى قادتها التدريب العسكري، وعملت لحساب «السي.آي.إيه.» خلال الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي. التقى ضباط «السي.آي.إيه.» الذين يعملون على القضية بالمجموعة، واتفقوا معها على الالتحاق بدوريات الوكالة للبحث عن قاسي. في لانغلي، وفر الضباط في وحدة قاسي داخل مركز مكافحة الإرهاب، الميزانية اللازمة لتوظيفهم. وقامت مراكز الوحدة بشحن مئات آلاف الدولارات، وبنادق من نوع أي.كاي.47 ومعدات للتسلق، ودراجات نارية وشاحنات وأجهزة اتصال آمنة، وأجهزة تنصّت الكتروني، لتهيئة عملائهم الأفغان الجدد للعمل. كما أرسل مركز لانغلي رادارات متنقلة يمكنها أن تحدد بدقة موقع المباني عبر الاتصال بالأقمار الصناعية، والتفتيش لأميال. سيتمكن فريق مكافحة الإرهاب الأميركي، بواسطة التكنولوجيا، من رصد موقع مظلم بسهولة حالما يُغِير عليه العملاء الأفغان. خلال الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، كان الفريق القبلي يحمل اسم «جي.إي. سينيور». أما اليوم فأعطوه لقباً جديداً، هو الرمز «أف.دي. ترودبينت». استقرّ الأفغان الذين اغتنوا وزُوّدوا العتاد فجأة، حول قندهار، وسافروا إلى باكستان ثم عادوا، وبدأوا بتتبّع الخيوط التي يمكن أن توصلهم إلى قاسي. لقد وافقوا على شروط العقد التي تشير إلى أن المهمة مُميتة، باستثناء عملاء «السي.آي.إيه.» صائدي الجوائز الذين يتم دفع مبلغ كبير لهم(669).

لقد دين قاسي بالقتل في الولايات المتحدة بموجب القانون. وبموجب القانون الفدرالي، يمكن اعتقال رجل فار من العدالة مثله في الخارج، وإعادته إلى الولايات المتحدة لمحاكمته. ومن خلال جمع

المعلومات في أي مكان في الخارج حول المتهمين، تستطيع «السي.آي.إيه.» تقديم المساعدة على إلقاء القبض عليه بموجب السلطات القانونية التي يوافق عليها الرئيس.

وبموجب هذه القوانين الفدرالية أيضاً، يجب عدم الكشف عن دور ضباط «السي.آي.إيه.» والعملاء الأفغان في تعقب قاسي. وإذا نجح فريق التتبع في إيجاد قاسي في باكستان، فعليه الاتصال بمركز «السي.آي.إيه.» في إسلام أباد. ومن ثم سيحاول الضباط التعاون مع الاستخبارات الباكستانية والشرطة لتنفيذ عملية إلقاء القبض على قاسي من دون الكشف عن العملاء الأفغان المأجورين.

لكن، إذا وجد العملاء القبليون قاسي مختبئاً في جنوبي أفغانستان، فسيصبح السيناريو أصعب بكثير. فحركة طالبان تسيطر على معظم أراضي البلوش، حيث من المفترض أن يكون قاسي. ونظراً إلى التكلف، وأحياناً العلاقات الغريبة بين المسؤولين الأميركيين وقادة طالبان في قندهار، من الصعب تصوّر مقاربة تعاون بينهما. فقانونياً، لا تعترف الولايات المتحدة بطالبان. وبرغم ذلك، لا تمتلك حكومة مسعود وربّاني، التي تتمتع بوضع قانوني، أي سلطة على بلاد طالبان. فإذا أرادت «السي.آي.إيه.» إلقاء القبض على قاسي في تلك المنطقة، فعليها إيجاد طريقة لتقوم بالمهمة بنفسها.

التقى ضباط الوكالة الموكلون بالقضية في إسلام آباد الفريق القبلي لتطوير خطة رسمية محددة لإلقاء القبض على قاسي في جنوبي أفغانستان، ومن ثم ترحيله إلى الولايات المتحدة، للمحاكمة. وتتطلب الخطة من العملاء الأفغان، إبقاء قاسي في مكان آمن حتى يأتي الفريق الأميركي، ويُلقي القبض عليه، ويُدخله سرّاً إلى متن طائرة أو هليكوبتر للإقلاع بأمان في اتجاه الولايات المتحدة.

كان الفريق القبلي حسن التدريب العسكري، وواثقاً بقدرته على تنفيذ عملية الأسر هذه. فهو يعرف جيداً كيف يستعمل الخريطة في مهمته. ويتمتّع بحسّ التسلسل الزمني والتسلسل العسكري. ويستطيع أعضاؤه التعرف إلى نقاط التجمع وطرق الهرب. لكن المشكلة الوحيدة هي كيف سيتم إنزال فرقة أميركية في أفغانستان بعد تمكّن فريق التتبع
من تحديد مكان قاسي واحتجازه بنفسه. قدم عملاء «السي.آي.إيه.» إلى العملاء الأفغان، صفات مكان الهبوط، وطلبوا إليهم تهيئته مسبقاً. يجب أن تكون الأرض الصحراوية صلبة وثابتة لتتحمل هبوط الطائرة وإقلاعها، وأن يكون المكان آمناً من قوات طالبان، في منطقة سهلية معزولة، قليلة السكان. باختصار، يجب أن تكون ملائمة للطيران. راح العملاء الأفغان يجولون على دراجاتهم النارية حول قندهار. كانوا يحملون أجهزة قياس مربوطة بالأقمار الاصطناعية للكشف عن مواقع لهبوط الطائرات. وعندما يشكّون في موقع يقومون بإرسال المعلومات إلى إسلام آباد، فيأخذ المركز له صوراً عبر الأقمار الاصطناعية لدراسة حيثيات الموقع من فوق. وقد وجدت «السي.آي.إيه.» مساحة واسعة من الأرض، تبدو مناسبة لتكون مهبطاً للطائرات، أقله هكذا بدت من الأقمار الاصطناعية.

لن تعتمد «السي.آي.إيه.» والبنتاغون على صور الأقمار الصناعية وتحرّيات العملاء الأفغان فحسب، لإرسال ضباطها الأميركيين إلى تلك الأرض الخطيرة. فماذا لو تبيّن أن التراب على أرض الموقع طريّ برغم تأكّد العملاء منه. هل ستعلق الطائرة بالرمال؟

اقترح ضباط «السي.آي.إيه.» في مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، تنفيذ «خطة دعم»، سرية فائقة الأهمية. وستزيل المهمة الشكّ في الموقع. وتكون بمنزلة تمرين على يوم إلقاء القبض على قاسي. توجّه فريق عمليات خاص إلى أفغانستان سراً، من دون علم باكستان، وحلق عناصره خلال الليل على مسار منخفض، وجرّبوا الموقع المشار إليه من قبل الفريق القبلي، فوجدوه مناسباً. تحققوا من منظم الأقمار الصناعية، وانسحبوا.

أصبحت خطة «السي.آي.إيه.» لإلقاء القبض على مير أمل قاسي، جاهزة الآن.

لكن، مرّت شهور غير قليلة بين العامين 1996 و1997، ولم يستطيعوا إيجاد قاسي. كان تدهور العلاقات بين الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» من الأسباب الرئيسية. استطاعت الوكالة النفاذ إلى بعض المصادر لدى الشرطة الباكستانية على الحدود، غير أن المشكلة الكبرى، هي التقاليد والعادات السائدة التي تفرض على أي عشيرة أو قبيلة، توفير الحماية لأي شخص من البلوش يواجه المتاعب في وطنه. حاول ضباط «السي.آي.إيه.» محاربة ولاء العشائر لقاسي بالمال، فعرضت جوائز بملايين الدولارات علناً، وبشكل خاص، لأي شخص يكشف عن مكان قاسي. لكن أحداً لم يستجب للعرض على مدى شهور. فوفقاً لنظام انتقام البلوش التقليدي، يجازف أي شخص يقوم بخيانة قاسي، ليس بحياته فقط، بل بحياة عائلته أيضاً. سمعت «السي.آي.إيه.» إشاعات حول وجود قاسي داخل مجمّع حصين بالقرب من الحدود الأفغانية، لكنها لم تتمكن من إقناع الشرطة الباكستانية بمهاجمة المكان. كانت العملية صعبة جداً، لأن المجمّع محصّن بدرجة كبيرة. حاول ضباط «السي.آي.إيه.» اللجوء إلى حلّ تقني: لقد جهّزوا تلفازاً مزوّداً كاميرا متحركة للمراقبة خلف شاشته. وجرّبوا إيصالها إلى داخل المجمّع أملاً في التقاط صورة لقاسي. لكن العملية فشلت، ولم يتّضح قط إذا ما كان قاسي داخل المجمع.

ابتسم الحظ أخيراً، لهم. في أواخر شهر أيار/مايو من العام 1997، دخل رجل من البلوش إلى قنصلية الولايات المتحدة في كاراتشي، وأخبر الحاجب أن لديه معلومات حول قاسي. تم اصطحابه إلى امرأة شابة من ضباط «السي.آي.إيه.» كانت رئيسة القاعدة في كاراتشي («قاعدة» الوكالة هي وحدة ثانوية تابعة للمركز في البلد). قابلت المخبر، واستنتجت أنه صادق. وراح ضباط «السي.آي.إيه.» وملحق الـ «أف.بي.آي.» في باكستان، سكوت جيسي، يجرون المزيد من المقابلات معه. ادّعى المخبر أن قاسي يتمتع منذ سنتين بحماية قائد قبيلة من البلوش. أصبحا صديقين وشريكين في العمل، وراحا يترافقان علناً في معظم الأحيان. أما اليوم، فقد قرّر قائد القبيلة، بحسب ما يقول المخبر، التخلي عن قاسي لمصلحة الولايات المتحدة مقابل الجائزة المالية.

قام المخبر بتسليم طلب رخصة قيادة باكستاني ملأه قاسي باسم مستعار، يحمل صورته وبصمة إصبعه، ويؤكد أنه الرجل المنشود. سافر قائد القبيلة الذي قام بخيانة قاسي، إلى كاراتشي ليتعاون مع «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» في وضع خطة لإلقاء القبض عليه. وسيقوم قائد القبيلة في زيارة عمل إلى وسط باكستان، إلى مدينة ديرا غازي خان، منتصف شهر حزيران/يونيو. ووعدهم بجرّ قاسي إلى فندق شاليمار حيث تستطيع الـ «أف.بي.آي.» إلقاء القبض عليه.

لطالما أخبر مدير الاستخبارات الباكستانية، نسيم رنا، مدير مركز «السي.آي.إيه.»، غاري شروين، بأن المخابرات الباكستانية ستساعد على إلقاء القبض على قاسي حالما تحدد الوكالة مكانه. التقى شروين وجيسي ضباط المخابرات الباكستانية، ووضعوا خطة محدّدة، وطلبوا إلى باكستان نقل فرق ضباط «السي.آي.إيه.» وعملاء الـ «أف.بي.آي.» على متن طائرة حربية إلى مولتان، أكبر مدينة باكستانية بالقرب من ديرا غازي خان. وستوفر الاستخبارات الباكستانية النقل البرّي إلى شاليمار، والحماية للمكان، بينما تدهم الـ «أف.بي.آي.»، ثم يعودون جميعاً إلى إسلام آباد حيث تسمح الاستخبارات الباكستانية بأخذ قاسي مباشرة إلى الولايات المتحدة. وافق رنا على الخطة بأكملها. سافر رئيس قاعدة «السي.آي.إيه.» في كاراتشي، وزعيم القبيلة إلى مولتان لليوم الموعود. وفي 15 حزيران/
يونيو 1997، راح المخبر قبل بزوغ الفجر، يطرق أبواب الفندق، ويصيح إيذاناً بموعد صلاة الفجر. أحاط به عملاء الـ «أف.بي.آي.» من جانبيه، بينما انتظر شروين وزميلان له في «السي.آي.إيه.» خارجاً، حاملين أجهزة راديو متصلة بالمقر في لانغلي عبر الأقمار الصناعية. اقتحم عميل الـ «أف.بي.آي.» الخاص براد غاريت، باب الغرفة، وثبّت قاسي إلى الأرض، ووضع إبهامه اليسرى في محبرة، وقام بدراسة النتيجة عبر زجاج مكبّر، ثم صرخ بابتهاج: «مطابقة!». تسارعوا إلى مطار مولتان داخل ست سيارات سياحية، يتدلى من نوافذها رجال الاستخبارات الباكستانية المسلّحون. وفي الطريق، بالقرب من هيليكوبتر «السي.آي.إيه.» قام ضابط من الوكالة بإيصال شروين عبر جهاز راديو آمن بمركز لانغلي، حيث اجتمع تينيت ومسؤولون آخرون لمراقبة العملية. أعلن شروين إشارة النداء: «هذا ضوء زولو الأحمر. تم تسلم الطرد بنجاح وتوضيبه ووضعه على متن الطائرة لنقله إلى إسلام آباد. فريق العمل بأمان. لقد تكلّلت العملية بنجاح كبير»(670).

تم أخيراً، إقفال قضية كانت تحتلّ قائمة أولويات «السي.آي.إيه.». قام جورج تينيت باستدعاء خمسمئة موظف إلى قاعة لانغلي لمشاهدة بثّ تلفزيوني في أنحاء المراكز كافة. جعلهم يستمعون إلى تسجيل بصوت شروين للرسالة «ضوء زولو الأحمر». وأعلن تينيت بانتصار: «لا يطمئننّ إرهابي ما دامت هذه الوكالة موجودة». ودعا زملاءه إلى تهنئة أنفسهم ومعانقة بعضهم بعضاً، «واحتساء مشروب كوكتيل قبل الظهيرة»(671).

تساءل الضباط في مركز مكافحة الإرهاب في الأسابيع التالية عن مصير موجودات فريق التتبع «ترودبرينت» الممول والمجهّز بإتقان. فمن المخجل التخلي عنها بسهولة. وإلى جانب الحواجز الحكومية الصغيرة وفريق تتبع قاسي، هناك مجموعة المحللين والعملاء الذين أسسوا وحدة بن

لادن (بعد أن كانت لفترة قصيرة في مكتب في فيرجينيا، أدمجت الوحدة داخل مقار مركز مكافحة الإرهاب). وبحلول صيف العام 1997، راحت الوحدة تنقل إلى صانعي السياسات بشكل منتظم، تقارير عبر قنوات سرّية حول تهديدات بن لادن بضرب أهداف أميركية، ولاسيما القوات العسكرية الأميركية في المملكة العربية السعودية. استمرت «السي.آي.إيه.» في وصف بن لادن بأنه ممول ناشط وخطير للجماعات الإسلامية المتطرّفة في مصر والسودان والجزائر وكشمير. غير أن «السي.آي.إيه.» لديها وسائلها الخاصة لتتبع بن لادن. فالفريق القبلي جاهز للمهمة. يستطيع العملاء الأفغان المأجورون مراقبة بن لادن، أو مضايقته، عن قرب، تحت إشراف «السي.آي.إيه.» المباشر.

أصبح اليوم بول بيلار، المحلّل المثقف من جامعة برينستون، الذي ساعد على صوغ سياسات «السي.آي.إيه.» حول خطر الإرهاب في الشرق الأوسط في بداية التسعينيات، نائب مدير المركز. كان رئيسه، مدير مركز مكافحة الإرهاب في صيف العام 1997، جيف أوكونيل، عميلاً قديماً في مديرية العمليات، يتمتع بالخبرة في شؤون اليمن ومصر، قام بدراسة مطوّلة لتهديد الإسلاميين المتطرفين الناشئ في الدول العربية(672). وافق خلال ذلك الصيف على نقل فريق العملاء الأفغان من خلية قاسي إلى وحدة بن لادن، التي كانت تطوّر خطة لمهاجمة منشآت بن لادن وموجوداته المالية منذ العام 1996.

غيّر المراقبون الجدد للعملاء في «السي.آي.إيه.» خطة إلقاء القبض على قاسي لاستخدامها في القبض على بن لادن وتقديمه إلى العدالة. وصلت هذه المبادرة إلى مركز إسلام آباد في صيف العام 1997 بواسطة البرقيات من لانغلي لتعطيهم الإذن بالاجتماع مع قادة الفريق القبلي، وإخبارهم بأنهم سيقومون بملاحقة بن لادن إذا أرادوا الاستمرار في العمل مع الوكالة. وافق فريق «ترودبرينت» (673)الأفغاني.

كان بن لادن هدفاً أسهل للأسر من قاسي. أقله يعرفون أين يعيش أحياناً: في المجمعات التي وفّرها له الملّا عمر داخل قندهار وحولها. وكما اكتشف مدراء أونوكال في بداية العام 1997، كان بن لادن يتنقل بحرية في أرجاء العاصمة، كما يعيش حرّاسه وبعض زوجاته وأولاده بحرّية بالقرب من مطار قندهار.

بدأت «السي.آي.إيه.» بالتعاون مع العملاء الأفغان، استخدام الأقمار الصناعية وتقنيات أخرى لوضع خريطة مفصلة بتحركات بن لادن في قندهار. وتعتمد الخطة بشكل أساسي على مهبط الطائرات في صحراء أفغانستان الجنوبية الذي تأكد منه فريق العمليات الأميركي الخاص. كانت الخطة تقضي بإلقاء القبض على بن لادن من قبل الفريق القبلي بالقرب من قندهار، ومن ثم استدعاء الأميركيين.

وحتى يقبض الأميركيون على بن لادن، سيكونون قد أعدوا الترتيبات القانونية التي تجيز القبض عليه. وتقضي الخطة بأن تقوم هيئة قضاة كبيرة بتوجيه اتهام ضد بن لادن، أو بأن توافق مصر أو المملكة العربية السعودية على محاكمته. غير أن مركز إسلام أباد كان مرتبكاً بسبب هذه التدابير القانونية غير المؤكدة والموقتة. وبينما تطوّرت خطتهم، استمر رئيس المركز غاري شروين بسؤال مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي: «هل نملك اتهاماً ضده؟». لم يكن الجواب واضحاً: كان مركز إسلام آباد متأكداً أن بن لادن «متهم». في واشنطن، في ربيع العام 1998، وافق مساعدو كلينتون على مبدأ خطة إلقاء القبض على بن لادن(674).

افتتحت هيئة قضاة فدرالية في نيويورك، تحقيقاً سرياً حول نشاطات بن لادن لتمويل الإرهاب قبل بضعة أشهر. كان تحقيق هيئة القضاة يعمل على توجيه تهم جنائية، لكنه لم ينجح في ذلك(675). وبموجب القانون الأميركي، يجب ألا يعلم أحد من خارج وزارة العدل بعمل هيئة القضاة، أو بإمكانية إصدارها تهماً جنائية. لكن، بدأت بشكل غير رسمي، تتسرب المعلومات حول التحقيق إلى العملاء المشتركين في خطط «السي.آي.إيه.». وفي حال لم ينجحوا في إصدار اتهام، سيطلبون مساعدة مصر. فقد تعاونت «السي.آي.إيه.» مع الاستخبارات المصرية والأجهزة الأمنية المصرية خلال العام 1997 على نطاق واسع، وفي حملات دولية لمنع عودة الحركات الإسلامية العنيفة. قام ضباط «السي.آي.إيه.» بأسر عدد كبير من الهاربين المصريين في بلدان أجنبية مثل أذربيجان وألبانيا، ونقلهم سرّاً إلى القاهرة لمحاكمتهم(676). ومن المحتمل أن يوافق المصريون على محاكمة بن لادن هذه المرة إذا قامت «السي.آي.إيه.» بإلقاء القبض عليه، برغم أنهم رفضوا سابقاً هذه الفكرة عندما غادر بن لادن السودان. كما يمكن أن تتمكن حكومة الولايات المتحدة، إذا سعت بشكل أفضل من العام 1996، من إقناع المملكة العربية السعودية بمحاكمة بن لادن إذا نجح الفريق الأفغاني في أخذه تحت عهدته.

وضع الفريق القبلي خطة مفصّلة لـ «السي.آي.إيه.»، تقضي بحجز بن لادن داخل كهف جنوبي أفغانستان مدة 30 يوماً قبل أن يأتي الأميركيون سرّاً لأخذه بعيداً. حدّد الفريق القبلي كهفاً حيث يستطيعون إخفاءه براحة. وطمأنوا الأميركيين إلى أنهم خزّنوا داخل الكهف كمية كافية من الطعام والماء ليبقى بن لادن على قيد الحياة معافىً خلال تلك المدّة. كان الهدف الأساسي من احتجاز بن لادن في الكهف، هو مرور بعض الوقت على عملية الأسر الأولى ليهدأ ضباط القاعدة الغاضبون، وحتى لا يتنبّهوا إلى تحرك الأميركيين بغية أسر بن لادن. كما أن الاحتجاز مدة 30 يوماً، سيفسح في المجال أمام السلطات القانونية. ووفقاً لهذه الخطة، وحالما يقوم العملاء الأفغان باقتياد بن لادن إلى الكهف المجهّز، سيقوم الفريق بإبلاغ مركز إسلام آباد، الذي يخبر بدوره مركز لانغلي وواشنطن لإعداد الاتهام أو أي إشارة من دولة عربية بالسرعة الممكنة. وحالما يصدر الاتهام أو يتم التسليم إلى دولة عربية، سيسافر فريق أميركي من العمليات الخاصة إلى مهبط الطائرات في المنطقة الريفية المجهّزة في قندهار، ويتسلم من الفريق القبلي الأسير السعودي.

وبموجب القانون الأميركي والسياسة المتبعة، كانت عملية الاختطاف هذه مقبولة لغياب الحكومة الأفغانية والقانون الأفغاني. سيقوم العملاء الأفغان المأجورون باحتجاز بن لادن مدة غير محددة في الأراضي الأفغانية غير الخاضعة لأي سلطة فعلياً. كانت عملية نقل المتهمين من مكان إلى آخر من قبل «السي.آي.إيه.»، مثل حالة التسليم إلى مصر أو المملكة العربية السعودية، موثّقة في مجموعة من الأنظمة التنفيذية السرية في البيت الأبيض ومذكرات الأمن القومي، تنقل بعدها إلى الكونغرس. ويتضمن ذلك مرسوم قرار رئاسياً، موقعاً من قبل الرئيس كلينتون في العام 1995، ينص صراحة على تنفيذ «السي.آي.إيه.» برامج «تسليم» سرّية من شأنها أن تعزّز الأمن القومي في الولايات المتحدة. وبالنسبة إلى سيناريو سفر ضباط «السي.آي.إيه.» وجلب بن لادن ليمثل أمام المحكمة الأميركية، فسيتم بموجب القانون التنفيذي 12333، الموقّع من الرئيس رونالد ريغان في العام 1981، والمجدد من قبل الرؤساء المتعاقبين. وينص القانون على أنّ الوكالة، إذا لم تشترك مباشرة في عملية تطبيق القانون، يمكنها هي أو موظفوها، أن توفر «المعدّات اللازمة والتقنيات والمساعدة والخبراء لأي مركز آخر أو وكالة»، ويمكنها «تقديم المساعدة إلى السلطات المسؤولة عن تطبيق القانون، أو تتعاون معها بما لا يتعارض مع القوانين المطبّقة». وهناك مذكرات كثيرة في وزارة العدل وقضايا في المحاكم، تؤيد حقّ العملاء الأميركيين في خطف فارّين في الخارج، وإعادتهم إلى المحاكم في الولايات المتحدة(677).

ويجب أيضاً على خطة «السي.آي.إيه.» المتعلقة بإلقاء القبض على بن لادن، أن تراعي قانوناً أميركياً آخر بخصوص العمليات السرّية: هو القانون الرئاسي الذي يحرّم القتل على يد «السي.آي.إيه.» أو أحد عملائها، أصدره الرئيس جيرالد أر. فورد في العام 1976، وجدّده ريغان في القانون التنفيذي نفسه الرقم 12333. وللتقيّد بهذا الجزء من القانون، كان ضباط «السي.آي.إيه.»، عندما يلتقون عملاءهم لتطوير الخطة، يشرحون لهم أن عملية إلقاء القبض على بن لادن يجب ألا تتحول إلى عملية قتل. كان يجب على الأفغان أن يأسروا بن لادن حيّاً. وكان ضباط «السي.آي.إيه.» مسؤولين عن توضيح هذه المسألة إلى قادة الفريق الأفغاني. قال رئيس المركز غاري شروين في وصفه لقاءه إياهم في البرقيات التي أرسلها إلى لانغلي وواشنطن: «أريد أن أشدّد على أمر واحد: يجب أن نأسره حيّاً»(678).

كان بن لادن يجول عادة مع حرّاس مسلحين لا يتهاونون في الدفاع عنه. كان هؤلاء المقاتلون العرب يراقبون مداخل أماكن إقامته المتعدّدة، ويملأون سيارته الـ «لاند كروزر» بالبنادق وقاذفات القنابل اليدوية. كان جميع أفراد «السي.آي.إيه.» المطلعين على الخطة متأكدين من حدوث عملية تبادل إطلاق للنيران عند محاولة اختطافه. لكن، ما دام العملاء الأفغان يبذلون جهدهم لإلقاء القبض على بن لادن حياً، وما داموا يستخدمون أسلحتهم في سياق محاولة قانونية لأسره، فلن يتسبب ذلك في أي مشكلة قانونية. حاول ضباط مركز إسلام آباد إيصال هذه الفكرة إلى الفريق القبلي خلال الاجتماعات، لكنهم لم يتأكدوا قط من رد فعل الفريق، لأن الأفغان كانوا بطبيعتهم مثل المحامين كثيري الانتقاد. ومن باب الاحتياط، كان مركزا لانغلي وإسلام آباد يوثّقان اجتماعاتهما وتعليماتهما في محاضر.

كان الأمر واضحاً تقريباً لجميع الأشخاص المعنيين بالخطة، سواء أكانوا في البيت الأبيض أم في «السي.آي.إيه.»: سيقول العملاء القبليون إنهم سيحاولون أسر بن لادن، لكن في الواقع، وبرأي شروين، سيبدأون ما يسميه ضباط «السي.آي.إيه.» الـ «الكمين الأفغاني»، الذي «سيتم استخدام ما توافر من أسلحة فيه، وقتل أي شخص هناك، ثم تركه لمصيره». كان شروين يعتقد أن العملاء سيعودون إليهم قائلين: «نحن آسفون، قتلنا الزعيم». لكن، على الرغم من قلق الجميع في «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض، إذا كانت التعليمات واضحة وصادقة، والمحاضر موجودة، ولم يحدث شيء خطير خلال تنفيذ العملية، فسوف تكون الأمور على خير ما يرام. وحالما يباشر الأفغان العملية، يجب أن يتّصلوا بمركز إسلام آباد ويشرحوا ظروفهم، غير أن القرار يعود إليهم لأخذ المبادرة في توجيه الضربة.

بلّغ الفريق خلال العام 1997، عن محاولة فاشلة لنصب كمين لموكب بن لادن بالقرب من طريق قندهار. كان موقع الكمين هذا خلال الحرب ضدّ الاتحاد السوفياتي مناسباً جداً بالنسبة إلى العملاء. لكن في هذه الحالة، لم ينجحوا في صدّ موكب بن لادن من خلال إحاطته بشكل «ل» في موقع الكمين. فعند نصب كمين بشكل «ل»، يحيط المهاجمون بالموكب من الجانب أولاً، ومن ثم يقطعون الطريق عليه من الأمام ويبدأون بإطلاق النار. ووفقاً للعملاء، تعرّض العديد من مرافقي بن لادن العرب للقتل، لكن بن لادن نفسه تمكّن من الفرار من خلال استمراره في التقدم وسط إطلاق النار. غير أن «السي.آي.إيه.» لا تملك أي معلومات لتأكيد الواقعة. واستنتج ضباطها أن بن لادن يمكن أن يكون داخل الموكب وتعرض لإصابة من إطلاق النار، لكنهم لم يتأكدوا قط. وتساءلوا إذا كان العملاء الأفغان، مثل الجاسوس بطل قصة «رجلنا في هافانا» لغراهام غرين، يختلقون القصص الجريئة كي لا يخسروا مستخدميهم.

قامت «السي.آي.إيه.» في بداية العام 1998، بدراسة المجمّع الذي يقيم فيه بن لادن غالباً خارج قندهار. لم يحاول الرجل السعودي تمويه زياراته. كما أنه كان يتكلم عبر هاتف موصول بالأقمار الصناعية، بحيث يستطيع الأميركيون تسجيل مكالماته. وفي هذه الحالة، يُطرح السؤال نفسه: هل يمكن تزويد العملاء الأفغان بالمعدات للإغارة على منزل بن لادن وسحبه من فراشه؟

راحت طموحات بن لادن تزداد كما توقّعت «السي.آي.إيه.». فقد استقرّ في أفغانستان. وأصبحت علاقاته الحميمة بقادة طالبان في قندهار، التي عزّزتها مشاريع بن لادن الهندسية وهباته الكريمة، لا تخفى على أحد في عاصمة الباشتون. وراح يتنقل بحريّة أيضاً عبر الأراضي الأفغانية الشرقية الواقعة تحت سيطرة طالبان، حول مدينة خوست حيث نشأت أسطورة جهاده ضدّ الاتحاد السوفياتي السابق منذ حوالى 12 عاماً. واستطاع بفضل رعايته مخيمات تدريب الباكستانيين ومقاتلين متطوعين آخرين لإرسالهم إلى كشمير والشيشان، أن ينظم قوته القتالية الدولية الخاصة خارج حركة طالبان، أكبر بكثير من مهمة تجميع الحرّاس الشخصيين التي عمل عليها في السودان. وساهم انفتاحه على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وقدرته على تمويل مكاتب

ترويج تقنيات بن لادن في لندن وأماكن أخرى، في إبقاء صوته مسموعاً في القضايا الأصولية الإسلامية في أنحاء العالم.

كان بن لادن يرى نفسه وهو في الأربعينات، كرجل القدر. كان شيخاً منفياً يحارب باسم الإسلام لتحرير الأراضي المحتلّة من القدس حتى آسيا الوسطى. أما شعوره تجاه ما رأى فيه «احتلالاً عسكرياً أميركياً» (القواعد العسكرية الأميركية في السعودية) للمملكة العربية السعودية، وطنه الأم، فلا يخفى على أحد. كان ينفعل علناً من كل ما يخصّ السياسة الأميركية في الشرق الأوسط: من دعمها إسرائيل، وتحالفها مع العائلة السعودية المالكة، وقتلها الجنود العراقيين والمدنيين خلال حرب الخليج. وراحت نتيجة ذلك، أفكار بن لادن السياسية وعملياته السرية تنتشر بسرعة.

كشف بن لادن في 23 شباط/فبراير من العام 1998، عن ائتلاف يعكس طموحاته وشخصيته التي برزت وانتشرت دولياً. أعلن مؤسسة جديدة: الجبهة الإسلامية الدولية للجهاد ضدّ اليهود والصليبيين. عمل بن لادن ساعات عديدة على بيانه، وتم نقل محتواه عبر الهواتف المتصلة بالأقمار الصناعية إلى محرّرين في صحف عربية مشهورة في
لندن(679). وتضمّن البيان تهديدات ضد الأميركيين، وتم توقيعه من قادة المقاتلين في مصر وباكستان وبنغلادش وكشمير. وشكلّت هذه المنشورات محاولات بن لادن الأولى والصريحة قيادة ائتلاف دولي من الإسلاميين الأصوليين لتوجيه هجمات عنيفة ضدّ الولايات المتحدة.

ويعود هذا العداء، لتعرضه شخصياً للإذلال في أواخر العام 1990. فقد حاول إقناع العائلة الملكية السعودية بقيادة الجهاد ضدّ نظام صدّام حسين في العراق، لطرد القوات العراقية من الكويت. لكن عوضاً عن ذلك، قامت العائلة الملكية بدعوة الجيش الأميركي إلى شنّ الحرب، وطردت بن لادن من المملكة لاعتراضه على ذلك. أعلن بن لادن اليوم، أن الولايات المتحدة «تحتلّ معظم الأراضي المقدّسة المسلمة منذ حرب الخليج في العام 1991: شبه الجزيرة العربية. إنها تنهب مواردها، وتتحكّم في زعمائها، وتذل شعبها، وتخيف جاراتها. إنها تستغل سيطرتها على شبه الجزيرة العربية كسلاح لإخافة الشعوب المسلمة المجاورة». لقد أعلن الأميركيون الحرب على «الله، ونبيّه والمسلمين». وبالتالي، أطلق موقّعو البيان الحكم التالي: «نحكم بقتل الأميركيين وحلفائهم ومحاربتهم، أيّاً يكونوا، مدنيين أم عسكريين. وهذا فرض عين على أي مسلم تسمح له الظروف بذلك في أي دولة»(680).

من بين التواقيع أسفل البيان، كان توقيع أيمن الظواهري، الطبيب المصري، والناشط الإسلامي الذي قابل بن لادن لأول مرة في العام 1987 في مستشفى خيري للمجاهدين ضدّ الاتحاد السوفياتي في بيشاور، وبقيا على اتصال خلال السنين العشر التالية، بينما أصبح كلّ منهما منفياً عن موطنه. في السودان، قام بن لادن بدعم فصيل الظواهري في الحركة الإسلامية المصرية، وهو مجموعة منشقّة تعرف بالجهاد الإسلامي المصري. وعلى مستوى شخصي، ثمة صفات مشتركة عديدة بين بن لادن والظواهري، بالمقارنة بالناشطين الإسلاميين اليافعين، من تونس

والجزائر وكاراتشي، الذين أسسوا قوّات المشاة في جبهة الجهاد الدولية. تلقى الاثنان تعليماً جامعياً، ويتحدران من عائلتين ثريتين ومتعلمتين ونخبويتين. فالظواهري هو ابن أستاذ جامعي وابن أخي إمام كبير في جامعة الأزهر في القاهرة، والمرجعية والحصن الديني للإسلام. كان شقيقه وأبناء عمه كيميائيين وصيادلة وقضاة وسياسيين. لكن برغم أنه نشأ بالقرب من نخبة المجتمع المصري، لم يشعر الظواهري بالانتماء إليها يوماً، مثله مثل بن لادن في المملكة العربية السعودية. اعتنق الظواهري الإسلام السياسي وهو مراهق، خلافاً لكثيرين في عائلته ممن كانوا علمانيين وغير متدينين. لقد صدم أقرباءه بطبعه الخجول والمنعزل، ففسّروا تديّنه نوعاً من الهروب، وخياراً تقليدياً كملجأ من تعقيدات العالم الحديث. كان بعض أقرباء بن لادن يصفونه بهذه الطريقة أيضاً(681).

أصبح اسم الظواهري يطغى على بن لادن بين محلّلي الاستخبارات الغربية. كان يوصف بالمفكّر وخليفة عبد الله عزّام، والشخصية الأبوية الفكرية في حياة بن لادن. كان المصري شاباً نحيلاً سمِحاً، تغطي وجهه نظارة كبيرة. وعندما كبر في السن، تميّز برأسه المستدير ولحيته الطويلة الرمادية. ولا يزال يضع نظّارة مربّعة داخل إطار بلاستيكي. كان الظواهري يكبر بن لادن بثمانية أعوام. وهو يتحدر من مجتمع مصري متطوّر أكثر، كما أنه سافر إلى أماكن كثيرة في العالم. كان طبيباً ناجحاً، لكن ملامح التقدم في العمر بدأت تظهر واضحة على وجهه. عذّب في السجن، فخرج أشد عناداً وكرهاً للنظام من السابق. إنه خبير في مناقشات السجون حول الإسلام والسياسات، ويتمتّع بقناعات متشدّدة غفل عنها بن لادن نفسه.

أصبح الظواهري بحلول العام 1997 عسكرياً خبيراً في أعمال القتال أكثر من صاحب الأخلاق الحميدة والبلاغة وممول المشاريع ومحبّ الظهور الإعلامي، بن لادن. لقد أشرف على التفجيرات المتنقلة من مصر إلى إسلام آباد مدة عقدين تقريباً. وتوحي بعض مظاهر شخصيتيهما ومهنتيهما، أن بن لادن هو القائد الحقيقي. أما المعلومات حول حياة الظواهري من أصدقاء العائلة وزملائه في السجن، فترسم له صورة رجل أخرق، منعزل، يحب المنازعات، قليل الرحمة، وميّال إلى العنف. أما بن لادن فهو من طوّر الحسّ بالسلطة وإثبات الوجود والطموح الشعبي. دخل الظواهري ورفاقه المصريون، في معارك داخلية لا تنتهي حول الأيديولوجيا والسلطة والقيادة، ما زاد في عزلة الظواهري حتى بين الأصوليين المصريين(682)، بينما لم يكن بن لادن يتّبع هذا الأسلوب. فقد استطاع من خلال ثروته وشخصيته أن يتمتع بحظوة عدد كبير من الإسلاميين حتى ممن كانوا يختلفون معه في المصالح والتطلعات. من الصعب إذاً التكهّن كيف يتعامل بن لادن والظواهري في الشؤون الخاصة، وإلى أي مدى علاقتهما قوية، وكم يبلغ حجم التوتر بينهما، ومتى يظهر.

بدأ الرجلان يعملان معاً في السودان ضد أهداف مصرية وأميركية، فضلاً عن محاولة تدريب رجال من الميليشيا الصومالية لقتل جنود أميركيين في الصومال. لكن عندما سافر
بن لادن إلى أفغانستان في ربيع العام 1996، لم يلحق به الظواهري. حاول في البداية السفر إلى الشيشان ليؤسّس فرعاً مستقلاً خاصاً به للجهاد الإسلامي، فتم إلقاء القبض عليه من قبل السلطات

الروسية في داغستان، وأمضى عدة أشهر في السجن، لكن لأنه كان يسافر بجواز سفر مزوّر، لم يكتشف الروس هويته فأطلقوا سراحه(683). ولكونه مطلوباً من السلطات المصرية، تسلّل إلى أفغانستان، وانضمّ مجدداً إلى بن لادن. وقد جسّد البيان الصادر عنهما في 23 شباط/فبراير 1998، إعادة إحياء شراكتهما علناً.

أمضى الظواهري معظم حياته في حرب شخصية ضدّ الحكومة المصرية. لكن، في بداية العام 1998، بعد نفيه إلى أفغانستان ونبذ العديد من زملائه المصريين له، لم يجد أمامه وسيلة لمتابعة المعركة. وعلى غرار بن لادن، قرر الظواهري إعادة توجيه جهوده وغضبه من «العدو القريب» في مصر، إلى الولايات المتحدة الأميركية، التي يدعوها «العدو البعيد»(684).

يتحدث بن لادن عن الأولويات للعنف الإسلامي بمصطلحات مخيفة، لكن عامة. لكن الظواهري، يتكلم كجندي متعطّش إلى الدماء عائد تواً من خنادق القتال. ومن كتاباته: «ملاحقة الأميركيين واليهود مستحيلة. لكن من خلال قتلهم برصاصة أو طعنة أو جهاز مصنوع يدوياً مما يتوافر من المتفجرات، وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فضربهم بقضيب حديد... أو بأي وسيلة متاحة، يمكن المجموعات الصغيرة أن تثير الرعب في نفوس الأميركيين واليهود»(685).

ويعتقد الظواهري، على غرار بن لادن، أنه حان الوقت لينقل الجهاديون الحرب إلى «العدو البعيد»، لأنه، ما إن يتم استفزازهم، سيردّ الأميركيون بهجمات انتقامية و «سيوجهون المعركة ضدّ المسلمين»، ما سيجعل الإسلاميين مستعدين «للجهاد ضدّ الكفرة».

وأحد مبادئ القتال الأساسية بالنسبة إلى الظواهري، هو «إلحاق أكبر عدد ممكن من الأضرار بالخصم، وهذه هي اللغة التي يفهمها الغرب، بغض النظر عن المدة التي تتطلبها هذه العمليات أو الجهد»، الذي يُبذل من أجلها(686).

أصدرت وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» مذكرة تحذير بعد أيام على صدور البيان. وأصبح المحللون المختصون في السياسات الإسلامية، ومعظمهم من النساء، تلاميذ متأثرين بتهديدات بن لادن وإطلالاته الإعلامية والفتاوي الخاصة التي يصدرها. لقد تنبّهوا إلى تصعيد في الهجوم على «الصليبيين واليهود» في 23 شباط/فبراير. وكتب المحللون في «السي.آي.إيه.» حول تلك التصريحات، أنها «أوّل إشارة تصدر عن تلك الجماعات، وتنصّ صراحة على مهاجمة المدنيين الأميركيين في أي مكان في العالم... وأول حكم ديني يقدّس هذه الهجمات»(687). وقامت وزارة الخارجية في خلال تلك الأسابيع، بإصدار تحذير عالمي من تهديدات بن لادن(688). غير أن تحذيرات الحكومة بشأن السفر لن توفّر أي تفاصيل. وستتحوّل إلى حظر عادي في الأشهر والأعوام القادمة.

خلال ذلك الشتاء في مراكز «فوجي بوتوم» التابعة لوزارة الخارجية، في الجهة الأخرى من نهر بوتوماك، لم يثر بن لادن أي اهتمام خاص حتّى في مكتب جنوبي آسيا الصغير. كانوا يركّزون على الموضوعات الإقليمية الأكثر شمولية وإلحاحاً: التخصيب النووي في الهند وباكستان، وبروز القومية الهندوسية في الهند، والفساد والانتهازية السياسية في باكستان. كان الدبلوماسيون في وزارة الخارجية مدركين للتحالف المتنامي الخطير بين طالبان والقاعدة والاستخبارات الباكستانية. وعندما قدّم دبلوماسي أميركي اعتراضاً رسمياً إلى باكستان حول تهديدات بن لادن في 9 آذار/ مارس، تطرّق إلى موضوع شحنة الأسلحة الباكستانية المُرسلة إلى طالبان، وقرارها القاضي بالسماح لطالبان «بملء خزانات طائراتها» بالوقود في قواعد باكستانية. لكن بن لادن كان يُعَدّ في مرتبة ثانوية في مجموعة موضوعات قليلة الأهمية أصلاً. كان موضوع نقاش روتيني في المحادثات الدبلوماسية الرسمية، لا يمكن اعتباره من الأولويات(689).

عندما أصبحت مادلين أولبرايت وزيرة للخارجية، تركت منصبها كسفيرة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة. عيّن الرئيس كلينتون خلفاً لها، بيل ريتشاردسون، وهو عضو سابق في الكونغرس من نيومكسيكو، مفعم بالحيوية، وصريح، ومن جذور لاتينية، يتمتع بروح المغامرة ومتحمس لوسائل الإعلام. درس ريتشاردسون في مدرسة جيسي جاكسون للشؤون الدبلوماسية الدولية. كان يقول عن نفسه إنه حلاّل المشاكل، يحبّ أن يوجّه ضربات مفاجئة إلى خلف خطوط العدو بحثاً عن مفاوضات دراماتيكية ناجحة، ولاسيما إذا حملت فرصة الظهور في برامج الأخبار الوطنية. لذلك كان منصب السفير إلى الأمم المتحدة المنصّة الأنسب لتلك الغزوات، وهو الباب إلى العالم وإلى بعض المشكلات السياسية الدولية. كان ريك إندرفيرث خلال وجود أولبرايت في الأمم المتحدة، أهم نوابها، وهو المراسل السابق في إذاعة «أيه.بي.سي. نيوز» الذي لحق بها إلى مركز «فوجي بوتوم» مساعداً

لوزيرة الخارجية لشؤون جنوبي آسيا. وخلال فترة تداخل وجيزة في الأمم المتحدة، اقترح إندرفيرث على ريتشاردسون أن يشمل أفغانستان في جولاته الخارجية. لم يعلن أحد من قبلُ أفغانستان كأولوية سياسية في وزارة الخارجية. لذلك، وكما يقول ريتشاردسون، «بدت سياستنا حائرة». لقد وجد الفرصة(690).

نظّم ريتشاردسون في شتاء العام 1998، رحلة إلى جنوبي آسيا. ودعا أندريا ميتشيل، مراسل إذاعة الـ «أن.بي.سي. نيوز»، إلى مرافقته. كان ريتشاردسون ينوي السفر إلى الهند وباكستان للبحث في موضوع التخصيب النووي، وإلى سريلانكا للبحث في الحرب الأهلية، وكان هدفه أن يقصد أفغانستان لمحاولة بدء مفاوضات سلام مع طالبان. وكان ميتشيل يتابع المحادثات ويكتب عنها تقارير خاصة إلى برنامج الأخبار» «نايتلي نيوز» في إذاعة الـ «أن.بي.سي.».

أصدر بن لادن والظواهري بيانهما ضدّ الأميركيين عندما كان ريتشاردسون يهمّ بالرحيل. عرفت «السي.آي.إيه.» ببرنامجه، فجهّزت موجزاً استخبارياً قبل رحيله. وكما يذكر ريتشاردسون، كان بن لادن «موضوعاً ثانوياً»، غير أن البيان ضد الصليبيين واليهود يعكس «قوة السعودي المتنامية»، ويقدم فرصة لإقناع طالبان بطرد بن لادن. لكن، لم يتّضح بعد إلى أين سيتم ترحيله،

بما أن هيئة القضاة في الولايات المتحدة لم تتمكن من إصدار اتهام ضدّه. واستمر ريتشاردسون في إجراء محادثات لإقناع الطالبان بـ «طرده... لأننا نملك دليلاً على أنه إرهابي يتآمر لإيذاء الشعب الأميركي»(691).

ناقش ريتشاردسون خطته مع الرئيس كلينتون خلال دردشة جانبية بعد اجتماع لمجلس النواب في البيت الأبيض. فقال له كلينتون ممازحاً: «أنا أشعر بالغيرة يا صديقي! هل ستذهب حقاً إلى أفغانستان.... ستستمتع كثيراً؟». ثم أضاف بنبرة جدّية: «لو أننا نستطيع نشر الاستقرار هناك... فعندئذ سيكون الوضع عظيماً».

أشار كلينتون إلى ريتشاردسون، وقال له: «تأكد من أن تأخذ التعليمات اللازمة من لانغلي. وكان الرئيس، برأي ريتشاردسون، يقصد بكلامه تهديدات بن لادن الأخيرة»(692).

قام بروس ريدال، وهو ضابط في «السي.آي.إيه.»، مفصول إلى مجلس الأمن القومي، بتعريف ريتشاردسون إلى القضية الأفغانية، بالإضافة إلى بن لادن، لكنه لم يطلعه على خطط مركز مكافحة الإرهاب واستخدام عملاء أفغان لخطف السعودي وتقديمه إلى العدالة. ولحماية مصداقية تلك العمليات وهوية العملاء المأجورين، صنّفت «السي.آي.إيه.» تلك المواد ضمن الموضوعات «السرية للغاية»، كي لا يتمكن أحد في وزارة الخارجية من اكتشافها.

كانت «السي.آي.إيه.» متخوّفة من استغلال بن لادن وجود عضو من مجلس النواب الأميركي في كابول لينفذّ تهديداته الصادرة في بيان شباط/فبراير. فطلبت الوكالة إلى ريتشاردسون إلغاء زيارته إلى أفغانستان. غير أن السفير الباكستاني إلى الأمم المتّحدة، الذي رأى في زيارته فرصة لإعلان طالبان حكومة شرعية، تعهّد أن تعمل باكستان على إنجاح زيارة ريتشاردسون. سينعكس عندئذ أي أذى يصيب ريتشاردسون بطريقة مدمرة على باكستان، التي أصبحت تُعَدّ الراعي الرسمي لطالبان. اعتقد ريتشاردسون أنه يستطيع الاتكال على تأثير باكستان في الملّا عمر ليقوم بسفر آمن.

لكن من باب الاحتياط، تبعت طائرات حربية أميركية طائرة ريتشاردسون التابعة للأمم المتحدة، وهي تعبر جبال «هندوكوش» القاحلة في اتجاه العاصمة الأفغانية. صرخ ريتشاردسون بتعجب لرؤية الجبال، مرتدياً سترته الزرقاء التي لم تفارق جسده خلال رحلته لحلّ المشاكل(693).
اصطحبه مضيفوه الطالبان بلحاهم الطويلة، بفخر، هو وإندرفيرث وأندريا ميتشيل إلى مستديرة كابول، حيث قاموا بشنق الرئيس الأفغاني السابق نجيب الله وأخيه قبل ثمانية عشر شهراً. وتابعوا جولتهم إلى السفارة الأميركية المقفلة. راح الموظفون الأفغان الذين يسيرون في ممرات المجمّع الفارغة يحيّون ريتشاردسون احتفاءً به، آملين أن تكون زيارته إشارة إلى عودة الأميركيين. تجمّع الطالبان حول حارس شرف يحمل سيفاً في ساحة استعراض في كابول.

دخل الملا ربّاني، رئيس شورى كابول، غرفة اجتماعات برفقة زملائه الملتحين حاملين رشاشات كلاشينكوف وبدأوا يصلّون. كانوا ودودين، لكنهم لم ينظروا قط إلى عيني ريتشاردسون مباشرة. أعرب السفير عن أمله بدء المفاوضات السياسية التي ستسفر عن وقف لإطلاق النار بين طالبان وحلف مسعود الشمالي. واستغرب استعداد الملا عمر للمشاركة في المحادثات. انتقلا إلى غرفة مجاورة. وتكلّم الملّا ربّاني وريتشاردسون على انفراد بخصوص بن لادن إلى مائدة الغداء وهي عبارة عن وليمة من الأرز الأفغاني ولحم الضأن وأنواع عديدة من الفاكهة موزّعة على الطاولة.

قال ريتشاردسون لربّاني: «بن لادن موجود على أرضك. وهو رجل سيئ. لدينا أدلة تبيّن أنه يدير شبكة إرهابية، وأنه قام بتنفيذ هجمات إرهابية، وأنه يستخدم بلادكم كقاعدة. لذلك نريد منكم تسليمه إلينا. سنجد وسيلة قانونية لتحقيق ذلك»(694).

استمرّ الحديث حول بن لادن مدة خمس وأربعين دقيقة تقريباً، كما يتذكّر ريتشاردسون وربّاني وإندرفيرث وسفير الولايات المتحدة إلى إسلام آباد توم سايمونز وضابطان من «السي.آي.إيه.»، كانوا جميعهم يستمعون بتركيز. لاحظ إندرفيرث وجود موسوعة «أعمال جورج واشنطن الكاملة» مرمية على رفّ للكتب خلفهم داخل غلاف من الجلد البالي، ربما حصلوا عليها عبر برنامج تبادل ثقافي مع وزارة الثقافة في الولايات المتحدة(695).

لم يقدّم الطالبان أي تنازلات ملموسة. ولم يعترفوا بأن بن لادن تحت سلطتهم المباشرة، وبأنه يمثّل تهديداً جدّياً للولايات المتحدة.

قال سايمونز لمسؤول في طالبان جالس إلى جانبه: «إنه بحوزتكم. لكنه لن يطيع أوامركم، مهما طلبتم إليه التوقف عن نشاطاته السياسية. فقد أعلن في الفتوى التي أصدرها في شباط/فبراير، أن قتل الأميركيين فرض عين». كان قادة طالبان يستمعون إليه، وترتسم على وجوههم علامات الارتباك. أكّدوا للأميركيين أن بن لادن ليس بالعالِم الإسلامي المؤهّل(696).

انتهت المسألة عند هذا الحدّ. عاد ريتشاردسون إلى مطار كابول بعد الظهر، وركب طائرته التابعة للأمم المتحدة، ليبدأ زيارة أخرى من جولته. حقّق الطالبان ورعاتهم السياسيون في باكستان مبتغاهم: زيارة مسؤول أميركي رفيع في إدارة كلينتون، تعكس أمام الإعلام صورة لحركة طالبان المتفهّمة والمنطقية والمستعدة لأي مفاوضات.

انهارت المحادثات السياسية التي بدأت مع ربّاني خلال أسابيع. استؤنفت حرب طالبان مع مسعود كأنها لم تتوقف قط. وفي حزيران/يونيو، ترك ريتشاردسون منصبه في الأمم المتحدة ليتسلم منصباً جديداً هو وزير للطاقة.

راح السفير توم سايمونز، في سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد، يراقب الفراغ بعد جولة ريتشاردسون بتهكّم. كان ريتشاردسون «رجلاً صالحاً»، لا يمكن إلا أن تحبه، ويتمتع بقدرة على حلّ المشاكل. غير أن الزيارة كانت نموذجية لمقاربة إدارة كلينتون حول أفغانستان. فقد قال سايمونز لاحقاً: «هذه ليست النهاية! أنت تعرف إدارة كلينتون. لنجرّب شيئاً جديداً!»(697).

يأتي ريتشارد كلارك بعد بيل ريتشاردسون بمرتبة أو اثنتين في سلّم واشنطن. وبالنسبة إلى الشخصية السياسية، فهو يمثل الطرف الآخر من طيف العاصمة. وصل ريتشارد إلى السياسة من خلال نشاطه في الحملات الانتخابية، وكان محبوباً على المستوى الشعبي، وخبيراً في الإعلام ومزاج الناس. ريتشارد كلارك عضو غامض ودائم الحضور في مجتمعات واشنطن البيروقراطية والاستخبارية. اكتسب «مدير الأمن القومي»، بشخصيته المميزة سلطة واسعة لأن أحداً لا يعرف من هو، أو ماذا يعمل بالتحديد(698).

بينما كان ريتشاردسون يجول مع فريق التصوير في أنحاء جنوبي آسيا خلال ذلك الربيع، كان كلارك يمضي ساعات طويلة في جناح فخم في الطابق الثالث من مبنى المكتب التنفيذي القديم، بالقرب من البيت الأبيض. كان يعمل على ثلاثة قرارات رئاسية سرّية ستُحدث تغييرات في إدارة الإرهاب والتهديدات والهجمات الكارثية والميزانيات واتخاذ القرارات في إدارة كلينتون. وبالتالي يمكن هذه القرارات أن تمنح كلارك المزيد من السلطة، من خلال تعيينه عضواً في مجلس نواب كلينتون حول القضايا الإرهابية بشكل رسمي. لكن بعض البيروقراطيين في واشنطن، كان على علم بما كان يهيّئ له كلارك خلال ذلك الربيع. كانت المذكرات التي يعمل عليها سرّية، والموضوعات المؤسسية غامضة، من حيث المصطلحات التقنية والرسوم البيانية المعقّدة للعمليات الداخلية في الوكالة التي لم تكن مفهومة، حتى لو سُمح بالاطلاع عليها. كانت خطط كلارك غامضة وطموحة. لقد وضع ملاحظة صغيرة على مكتبه تقول «فكّر وتصرّف بشمولية»(699).

تطلّ نوافذ مكتب كلارك العالية جنوباً عبر المبنى البيضوي، «إلّيبس»، على نهر بوتوماك والمطار الدولي. كان يشغل جناحه خلال الثمانينيات الكولونيل أوليفير نورث، وعلى الأرجح أن كلارك اختاره لهذا السبب، وليشعر أيضاً بجوّ من الغموض المشؤوم. كان يفضّل التواصل عبر رسائل البريد الالكتروني القصيرة داخل البيت الأبيض عبر قنوات سريّة تحمل توقيعه باللون الأحمر. كان كلارك، وهو ابن عامل في معمل شوكولاتة في بوسطن، رجلاً شاحباً، سميناً، تحوّل شعره الأحمر إلى رمادي بفعل ضغوطات العمل. لقد تقدّم من خلال العلم والعمل الدؤوب، ونجح عبر امتحان الدخول، في الالتحاق بمدرسة بوسطن اللاتينية، التي تعود إلى قرون، وتتضمن ست سنين للمرحلة الثانوية، وتشمل من بين متخرجيها
جون هانكوك وبول رفير، وبينجامين فرانكلين، وقد خرّجت أخيراً جوزيف كينيدي، عرّاب عائلة كينيدي، العائلة السياسية العريقة. التحق بها كلارك، وهو في الحادية عشرة من عمره، عندما

أصبح جون أف. كينيدي رئيساً. ويتذكّر كلارك أن خطاب الرئيس كينيدي حول أهمية الحكومة، أثّر فيه وفي رفاقه، إلى درجة «غسل أدمغتهم».

انتقل كلارك إلى جامعة بينسيلفانيا، ومن ثم إلى معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا. في الجامعة كان ناشطاً في هيئة الطلاب، وتم اختياره للانضمام إلى نادي «ذي سفينكس»، للطلاب المتميّزين في السنة الأخيرة. كان النادي الأول الذي ينجح فيه كلارك، من بين مجموعة الشبكات الاجتماعية السرية التي تختار أعضاءها بنفسها. وتم، بعد عمله محللاً للاستخبارات في البنتاغون، تعيينه في العام 1985، وكان في سن الرابعة والثلاثين، نائباً لرئيس قسم الأبحاث والاستخبارات في وزارة الخارجية. ووضع، في ذلك الوقت، خطة لإخافة الزعيم الليبي معمّر القذافي من خلال إلقاء قنابل صوتية فوق العاصمة طرابلس، وإرسال طوّافات مطّاطية عائمة إلى الشاطئ الليبي بشكل غامض، ونشر إشاعات كاذبة حول عملية عسكرية أميركية. لكن المخطط فشل عندما تعرّضت إدارة ريغان للفضيحة في إثر نشر قصص كاذبة في صحف أميركية. وتورّط لاحقاً في صراع أمرّ حول اتهامه بالتستّر على إرسال معدات عسكرية من إسرائيل إلى الصين. واستنتج رئيس المفتشين في وزارة الخارجية، أن كلارك اغتصب سلطة المسؤولين عنه، وحوّل نفسه إلى قيصر السياسة الخارجية ومركز لتجارة الأسلحة. لكن كلارك دافع عن نفسه، ونجح في الخروج من الأزمة، ونُقل إلى مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض. ذاع صيته كدبلوماسي مناور حاذق. حتى أن أصدقاءه يسلّمون بأنه فظّ ومتنمّر ومسيء أحياناً. أما أعداؤه فلا يعتبرونه شريراً فحسب، بل يهابونه، ويرونه خطيراً. وفي الحالتين، لم تكن فضيحة الأسلحة الإسرائيلية آخر عملية يُتهم فيها كلارك بإدارة سياسة الولايات المتحدة الخارجية من جانب واحد(700).

برز كلارك خلال ولاية كلينتون الأولى شخصية لا يمكن الاستغناء عنها في أهم مراحل السياسة الخارجية في الإدارة. لقد نظّم عملية الانسحاب الأميركي من الصومال، وحملة استبدال الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي، وأزمة اللاجئين في شرقي أفريقيا بعد مجزرة رواندا، وعشرات القضايا الأخرى المعقّدة التي تتطلّب تنسيقاً واسعاً وموزعاً بين المراكز الفدرالية. وخلال فترة وجوده عضواً رسمياً في المجلس التنفيذي الأعلى، أعلى درجة لوظيفة دائمة في حكومة الولايات المتحدة لموظف مدني، أتقن كلارك فنّ المناورات داخل الوكالة في شؤون الأمن القومي. وليس بسبب عمله بجدّ وإرهاب خصومه حتى يختاروا مناقضته، لكنه كان يفهم بطريقة دقيقة ومنضبطة، كيف يستغلّ موقعه في البيت الأبيض، ويتلاعب بالأموال في الميزانية الفدرالية لتعزيز أولويات سياساته التي يترأسها شخصياً. كما تعلّم كلارك كيف يدير رسمياً عملية اتخاذ القرارات الشاملة داخل الوكالة، كالتي تتضمّن اجتماعات منتظمة في أي لحظة، بينما يقوم بإعداد العملية شخصياً بطريقة غير رسمية عبر شبكة دعم من الاتصالات بالمعارف الشخصية. اعتقد خصوم كلارك أنه يتمتّع بقدرات راسبوتين غير المرئية، وأنه لا يبذل جهداً لدحض هذه الصفات عنه حتى عندما تتم المبالغة فيها. كان يومئ برأسه بتواضع، ويقول إنه يحاول التوفيق بين العالم ليس إلّا.

إحدى أهم مواهب كلارك هي التكهن بمصير موضوعات الأمن القومي قبل الآخرين، وتصوير نفسه خبيراً في التساؤلات والمشكلات الراهنة. وبحلول العام 1997، اتّجه نحو مكافحة الإرهاب.

وبعد تفجيرات مدينة أوكلاهوما وإسقاط طائرة «تي.دبليو.أيه.» الرحلة 800 (التي اعتقد للوهلة الأولى أنها عمل إرهابي)، طلب البيت الأبيض والكونغرس مخصّصات كبيرة جديدة لبرامج مكافحة الإرهاب في المراكز الفدرالية. ففي زمن الميزانيات الفدرالية المحدودة، كان الإرهاب صناعة بيروقراطية نامية ونادرة. ونصّ كلارك هذه القرارات المالية من جناحه في مجلس الأمن القومي. وسيطر على دراسة التهديدات الإرهابية وسياسات مكافحة الإرهاب داخل الوكالة. وبدعم من مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر، أعاد كلارك تنظيم السياسات الجديدة حول الإرهاب الذي سيُعرف لاحقاً بالدفاع عن الوطن(701).

أعلن كلارك أن الولايات المتحدة تواجه عصراً جديداً من التهديدات الإرهابية التي لم تتهيأ لمواجهتها. اقترح تأسيس المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب، ويترأسها مسؤول جديد في الأمن القومي، هو المنسّق القومي لحماية البنى التحتية ومكافحة الإرهاب. ولاحظ زملاؤه من خلال المذكرات ومؤهلات الوظيفة الجديد، أن ريتشارد كلارك هو الأنسب لتولي هذا المنصب.

وفي دوره الرفيع المستوى، سيترأس فريق عمل جديداً يتألف أعضاؤه من رؤساء مراكز مكافحة الإرهاب في الـ «أف.بي.آي.» والرؤساء المشتركين لفرق العمل، ووزارة الدفاع ووزارة العدل ووزارة الخارجية. وتقاعس المسؤولون عن إدارة برامج مكافحة الإرهاب
في البنتاغون والـ «أف.بي.آي.»، الذين لا يخضعون لمراقبة البيت الأبيض عن مهام كلارك. واعترضوا على أنه يرفع من شأنه ليصبح «أوليفر نورث» آخر، الذي «سيوافق» مجلس الأمن القومي عليه من خلال إدارة برامج سرّية لمكافحة الإرهاب. وصف كلارك هذه الانتقادات بأنها «جنونية»، لافتاً إلى أنه يحاول «تسهيل» عملية اتخاذ القرارات. وفي النهاية، أجبر خصوم كلارك، الرئيس كلينتون على الإيضاح في القرارات السرّية، أن كلارك لا يملك أي سلطة عملية لإدارة العمليات. غير أن بقية القرار الرئاسي الرقم 62، الموقّع من كلينتون في 22 أيار/مايو من العام 1998، ينصّ على تعيين كلارك قيصر مكافحة الإرهاب الجديد في البيت الأبيض، وتمتّعه بصلاحيات لا مثيل لها. وبمرور الوقت، اكتسب مقعداً في مجلس الأمن القومي في إدارة كلينتون «كمدير»، متساوياً في الرتبة مع وزير الدفاع أو وزير الخارجية، متى اجتمع المجلس لمناقشة الإرهاب. لم يتمتّع أي عضو سابق في مجلس الأمن القومي، في منصب كلارك نفسه، بهذا الوضع في تاريخ البيت الأبيض. إن القرار الرئاسي الرقم 62، تحت عنوانه الرسمي «الحماية من التهديدات غير التقليدية ضد الوطن والمواطنين الأميركيين في الخارج»، نصّ على مكافحة الإرهاب في عشرة مسارات متّصلة، يتم تكليف وكالة فدرالية متابعة كلّ واحد منها. كان هدف «السي.آي.إيه.» «إعاقة» المجموعات الإرهابية(702).

تعتبر ترقية كلارك بالنسبة إلى مدراء مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، أنه يجب عليهم إرضاء رجل جديد في البيت الأبيض. يتمتّع مدير «السي.آي.إيه.» تينيت بعلاقة عمل وثيقة مع ساندي بيرغر وآخرين في مجلس الأمن القومي بسبب سنيّ خدمته الطويلة في فريق عمل البيت الأبيض. غير أن مدراء «السي.آي.إيه.» الذين أصبحوا أقلّ بمرتبتين الآن، يجب أن يباشروا بناء علاقة فعّالة مع ريتشارد كلارك، وهي مهمة صعبة نظراً إلى قوة شخصيته. كان

مدراء «السي.آي.إيه.» يعتبرون كلارك حليفاً لهم في مواضيع السياسات فحسب. كان يتردّد في مركز مكافحة الإرهاب، أنه «يعي» خطورة تهديدات بن لادن. وكان كلارك بشكل عام يدعم برامج «السي.آي.إيه.» الجديدة المتعلقة بإلقاء القبض على بن لادن أو إعاقته في أفغانستان. وبالإضافة إلى ذلك، كان كلارك يشدّد أحياناً على التصرف حيال بن لادن أكثر من ضباط «السي.آي.إيه.» أنفسهم. لكن المشكلة هي أن كلارك يتحلّى بالقوّة إلى درجة أن مدراء «السي.آي.إيه.»، عندما يشعرون بأنه مخطئ لا يجرؤون على مناقشة الموضوع معه. وبالإجمال، كان هذا الوضع يناسب البيت الأبيض الحذر من بيروقراطية لانغلي الصعبة المراس. فقد قال بيرغر لاحقاً: «لطالما أردت قائداً».

لم يكن بن لادن الأولوية الوحيدة في مكافحة الإرهاب بالنسبة إلى ريتشارد كلارك. كان يردّد دائماً تحذيراته من هجوم على الولايات المتحدة بواسطة أسلحة بيولوجية، عاكساً بذلك مخاوف الرئيس كلينتون نفسه. لقد سعى إلى تجهيز معدات تلقيح جديدة ضدّ الجدري وأمراض أخرى، ودفع المراكز، مثل وكالة إدارة الطوارئ الفدرالية، للاستعداد لمواجهة أوبئة غير متوقعة ينشرها عمل إرهابي محتمل. كان كلارك يمضي في المقابل ساعات طويلة أيضاً للعمل على السياسات الجديدة لحماية الحكومة والأعمال من تهديد الإرهاب الالكتروني، أو «فضيحة بيرل هاربر الكترونية»، كما يدعوها(703).

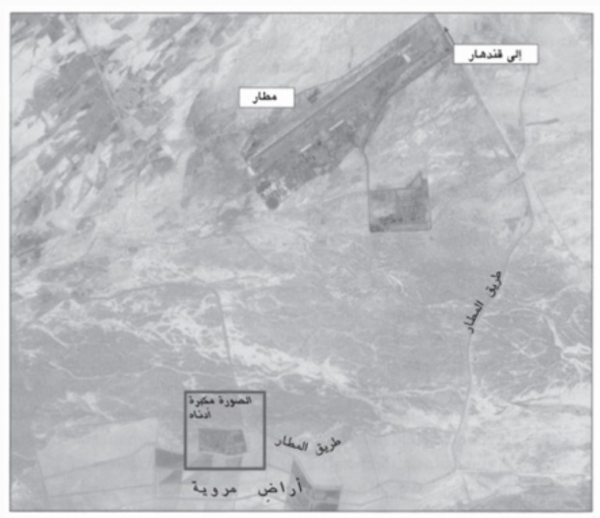
كان يُصدر تصريحات مخيفة باستمرار حول الخطر الإرهابي الجديد الذي تواجهه الولايات المتحدة لدفع عجلة العمل: «إن القوات العسكرية الأميركية تبيّنت خصوماً محتملين في المستقبل يبحثون عن وسائل لمهاجمتنا بطريقة غير تقليدية، أي الهجوم العسكري المباشر. كيف سيفعلون ذلك؟ من خلال تفجير السيارات، والهجمات البيولوجية، وغازات الأعصاب على المناطق المأهولة». كان كلارك يشبّه حملته بحملة وينستون تشرشيل التي أُهملت في الثلاثينيات حول الاستعداد لخطر القوّة النازية قبل فوات الأوان. لو أن تشرشل نجح عندما دعا إلى التحرّك في المرة الأولى، لذكره التاريخ «كصقر، أو كشخص بالغ في تصوير الخطر، تحرّك على الصعيد العسكري وقام بعمل غير ضروري»(704). وبمرور الوقت، راح كلارك يواجه التهمة نفسها. اتهمه المحللون في مجلس الأمن القومي وأعضاء الكونغرس، بترويج خطر الإرهاب لدفع الكونغرس إلى زيادة حجم المخصصات للصناديق الفدرالية، ليزيد بالتالي نفوذه الخاص وسلطته.

كان كلارك يجيبهم: «سيُسعدني أكثر أن أقول إنني أنفقت المال سُدىً، على أن أشرح للكونغرس وللشعب الأميركي سبب عدم استعدادنا والسماح بموت عدد كبير من الأميركيين»(705).

وبينما كانوا ينقّحون خطتهم حول الاختطاف في ربيع العام 1998، زاد اهتمام وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» في مزارع تارناك، وهي عبارة عن مجمّع تبلغ مساحته مئات الهكتارات، يقع في مكان صحراوي منعزل على بعد ثلاثة أميال من المبنى

الأميركي بالقرب من مطار قندهار. عرفت «السي.آي.إيه.» أن بن لادن كان يمضي ليالي كثيرة في تارناك مع إحدى زوجاته.

تشكّل تارناك عملية إغارة من دون تحديات من مناورات برية أو غيرها. قامت ببنائها الحكومة الأفغانية قبل أعوام كتعاونية زراعية. ويحيط بالمزرعة جدار من الآجرّ يبلغ ارتفاعه حوالى عشر أقدام. وفي الداخل ثمانون مبنى متواضعاً، يتألف كل مبنى فيها من طابق أو طابقين من الباطون أو الآجرّ. وتتضمن هذه المباني غرف منامة، ومنشآت للتخزين وجامعاً صغيراً ومبنى حوّله بن لادن إلى عيادة طبية صغيرة لعائلته وأتباعه. ويوجد عند طرف المجمع مجمّع منهار تتسرب إلى داخله المياه، ويحتوي على ستة طوابق كانت مخصصة أصلا مكاتب للبيروقراطيين من المديريات الزراعية في الحكومة. ويوجد خارج المجمع مباشرة مزروعات مروية على مساحات صغيرة وقنوات وخنادق لتصريف المياه. غير أن أبرز معالم مزرعة تارناك، كان عزلتها بشكل تام. تمتدّ السهول الرملية المسطّحة والأعشاب لأميال. وتزيّن كروم العنب والحقول المروية المنظر الطبيعي، من دون وجود لأي شجرة في أي اتجاه. ويبعد أقرب المباني التابعة لمجمّع المطار، أكثر من ميل، بينما تبعد أسواق قندهار المكتظة حوالى نصف ساعة قيادة في السيارة(706).







أُخذت هذه الصورة بعد القصف على مزرعة ترناك في عام ٢٠٠١ خلال الحرب الأفغانية.

تعديلات الصورة: رينشارد فورنو PHOTOS: SPACE IMAGING

أمضى الضباط في إسلام آباد ساعات طويلة مع الفريق القبلي يوزّعون الأدوار في خطة مهاجمة تارناك في منتصف الليل. سيقوم الأفغان بإلقاء القبض على بن لادن وسجنه حتى يتوصّل الأميركيون إلى حلّ. وقد قام تينيت بإخبار بيرغر في شهر شباط/فبراير بأنهم تدرّبوا مرّتين في الولايات المتحدة على المهمة في أواخر العام 1997. وتدرّبوا مرة ثالثة في شهر آذار/مارس. وعلى الرغم من ذلك، كان كلارك يكتب إلى بيرغر أنه يشعر بأن «السي.آي.إيه.» «لم تفعل شيئاً منذ شهور».

تمّت مراجعة تفاصيل الخطة بدقّة. واطلع الأفغان على تارناك عن كثب، ووضعوا لها خريطة. كما قامت «السي.آي.إيه.» بالتقاط صور لها من الأقمار الصناعية. نظّم الأفغان هجوماً من خلال مجموعة تضم ثلاثين مقاتلاً. واختاروا نقطة تجمّع حيث سيجمعون المعدات التي زودتهم بها «السي.آي.إيه.» من آليات ودراجات نارية وشاحنات ولاند كروزر.
سينطلقون من هذه النقطة إلى نقطة تجمّع ثانية تبعد بضعة أميال عن تارناك. وتقضي خطة الإغارة المجهزة بالبنادق الحربية والاتصالات الآمنة ومعدات أخرى، باجتياز السهل المنبسط في اتجاه تارناك في ظلام الليل الحالك، ليصلوا إلى حدودها حوالى الساعة الثانية صباحاً. اكتشفوا

طريقاً لتفادي المناجم، وسلكوا ممرات عميقة لإخفاء قدومهم. تمرّ تحت حائط تارناك الخارجي قناة لتصريف المياه من جهة المطار. قرّر المهاجمون الدخول زحفاً عبر القناة. وفي الوقت عينه، ستتقدم مجموعة أخرى ببطء وهدوء في اتجاه البوابة الأمامية في سيارتين من نوع «جيب». سيكون رجالها مزوّدين مسدّسات كاتمة للصوت، ليتخلّصوا من الحارسين على المدخل. وتقضي عملية الاقتحام بدخول كلّ الأكواخ الصغيرة حيث تنام زوجات بن لادن. وعندما يجدون الرجل السعودي الطويل الملتحي، يكبّلونه ويجرونه في اتجاه البوابة ويضعونه في سيارة «اللاند كروزر». وتتجمع مجموعة أخرى من الآليات عند نقطة التجمّع بالتسلسل، ويتوجه عناصرها جميعاً نحو الكهف المزوّد بالماء والطعام الذي يبعد ثلاثين ميلاً فقط. وقال رئيس المركز غاري شروين «إننا ندرك ما تستطيع فرقة الجنود الهواة عمله مع بعض التدريب». لقد كتب إلى لانغلي في 6 أيار/مايو، مؤكداً أن القبليين أصبحوا على «قَدْر من الاحتراف» يضاهي المارينز الأميركيين(707).

كانوا يضيفون اللمسات الأخيرة إلى خطتهم، حينما وجد ضباط «السي.آي.إيه.» أنفسهم وسط صراع عاصف حول السلطات القانونية واحتمال وقوع خسائر في الأرواح بين المدنيين إذا ما حدث إطلاق نار في تارناك. لقد أظهرت صور الأقمار الصناعية أن عشرات النساء والأطفال يعيشون في تارناك، فطلبت «السي.آي.إيه.» إلى الفريق القبلي توضيح خطته لتخفيف احتمالات إصابة النساء والأطفال أثناء الهجوم. التقى ضباط «السي.آي.إيه.» قادة الفريق، وراحوا يبحثون في عدة احتمالات: «حسناً، لقد قمتم بتحديد المبنى. ماذا لو أنه لم يكن داخل المبنى؟ أو أنه في المبنى المجاور؟ وما هي خطتكم لتخفيف الأضرار الجانبية؟». كان الجدل محبطاً لكلا الطرفين. يعتقد الأميركيون أن عملاءهم جدّيون، ومقاتلون محترفون يحاولون التعاون مع «السي.آي.إيه.» قدر استطاعتهم. فقد قال شروين لاحقاً: «لو أنكم تعرفون كيف يفكّر الأفغان، فستدركون أنهم أثناء الإغارة على تارناك، سيبدأون بإطلاق النار عشوائياً من دون أي تفرقة لإنجاز مهمتهم»(708).

لكن، كما يذكر شروين، كان الأفغان يجيبون أثناء تلك المحادثات، بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم ويختارون من سيطلقون النار عليهم. وبينما كانت البرقيات حول تلك المحادثات والتطمينات تصل إلى لانغلي، حيث تنتظر الخطة موافقة المدراء الرفيعي المستوى، بدأ بعضهم داخل لانغلي ينتقدون خطة مهاجمة تارناك، مدّعين أنها ضعيفة. راح شروين يرجو المسؤولين عنه أن «يتراجعوا ويتعاونوا»، ويأملوا أن «تبرهن القبائل عن جدارتها». غير أن نائب رئيس «السي.آي.إيه.» في قسم العمليات السرّية، كان شديد القلق بشأن الأضرار والتكاليف المالية. وصلت المذكرة السرّيّة للموافقة على الهجوم إلى البيت الأبيض في أيار/مايو. وأجرت «السي.آي.إيه.» آخر عملية تدريب في آخر ذلك الشهر، وراحت تنتظر القرار(709).

استمرّ بن لادن في لفت أنظار العالم إليه. فعندما اختبرت الهند أسلحة نووية بشكل غير متوقّع في شهر أيار/مايو، دعا بن لادن الأمة الإسلامية وباكستان «إلى الاستعداد للجهاد»، الذي «سيتضمن أسلحة نووية». وخلال مقابلة على إذاعة «أيه.بي.سي. نيوز»، تمّ بثها على شبكة يستطيع التقاطها مناصرو بن لادن، ومؤيدوه في العالمين العربي والإسلامي، أعلن بن لادن أن «حربه ضدّ

الأميركيين أعظم بكثير من حربه مع الروس». «إننا نتنبأ بمستقبل أسود لأميركا. وعوضاً عن بقائها الولايات المتحدة، ستصبح الولايات المجزَّأة، وستحمل جثث أبنائها إلى أميركا. لن ينسحب الأميركيون من المملكة العربية السعودية إلا عندما سنرسل جثث الجنود الأميركيين والمدنيين في صناديق خشبية أو داخل النعوش»(710).

راح ريتشارد كلارك عند صدور هذه التهديدات، يعقد اجتماعات تنسيقية مكثفة في البيت الأبيض ليدرس خياراته. كان مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» ممثّلاً في تلك الجلسات، غير أن ضباط «السي.آي.إيه.» كانوا حذرين من مناقشة الموجودات القبلية العائدة إلى الوكالة. لم يكن على اطلاع على خطة اختطاف بن لادن من مزرعة تارناك سوى عدد قليل من الناس.

كان هناك توتّر طبيعي بين خطة ريتشارد كلارك لمكافحة الإرهاب في البيت الأبيض ومركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.». فالوكالة كانت دائمة الشكّ في أن كلارك يريد السيطرة على إدارة عملياتها. لكن كلارك وفريقه يريان، من جهتهما، أن مركز لانغلي متكتّم على خطته لحماية نفسه، ويدافع عنها في بعض الأحيان. وكان فريق البيت الأبيض يشكّ في أن الـ
«سي.آي.إيه.» تسلّح نفسها بهذه السرّية ليس لحماية عملائها فحسب، بل لتستطيع الخروج على المسار الأصلي لعملياتها السرّية. غير أن كلارك وضباط مركز مكافحة الإرهاب في
«السي.آي.إيه.» كانوا يتفقون حول أمر واحد: جميعهم مقتنعون بأن بن لادن
أصبح يمثّل تهديداً خطيراً في ربيع العام 1998، وأن عملية اختطافه كانت مضمونة. لكن «السي.آي.إيه.»، بشكل خاص، كانت تنصاع دائماً «لحلفائها» المتحمسين في مجلس الأمن القومي. ففي الماضي، في قضية أوليفر نورث مثلاً، لطالما شعر مدراء «السي.آي.إيه.» بأن الوكالة تورّطت في عمليات خطيرة وغير قانونية بسبب حماسة رجال البيت الأبيض، السياسية. وعند فشل العملية، تُترك الوكالة لتتخبّط وحيدة في المشاكل. كان مسؤولو البيت الأبيض يزورون الوكالة باستمرار في المواسم الانتخابية. وفي المقابل، تريد «السي.آي.إيه.» حماية مصالحها المؤسسية الدائمة.

كان كلارك وفريقه في مكافحة الإرهاب مهتمين بخطة سريعة وناجحة ضدّ بن لادن، غير أنهم كانوا مشكّكين في خطة مهاجمة تارناك. كان حَدْسهم يقول لهم إن العملاء هم جهاديون
مخضرمون من أيام الاتحاد السوفياتي، ومضى وقت طويل على خبراتهم القتالية، وأنهم ربما يستغلون «السي.آي.إيه.» من أجل المال في محاولتهم إقناعها بأنهم سيخفّفون في المقابل المخاطر على الأرض. وقد اعتقد البعض في البيت الأبيض أن العملاء لن ينفّذوا هجوماً جدّياً على تارناك. والأسوأ من ذلك، عدم تمييزهم بين فتاة في السابعة من عمرها تلعب على دراجة، ورجل يشبه بن لادن حاملاً في يده بندقية خلال تنفيذ العملية. سيموت نساء وأطفال، ومن المحتمل أن يهرب بن لادن. ومجزرة كهذه ستضرّ بمصالح الولايات المتحدة القومية في العالم الإسلامي وبلدان أخرى(711).

قام قادة «السي.آي.إيه.» بدراسة الهجوم المقترح في أواخر شهر أيار/مايو. وكشف الجدل حوله شكوكاً بين المسؤولين الرفيعي المستوى في مديرية العمليات، في احتمال نجاحه. وفي النهاية، كما قال تينيت لزملائه في الأعوام التالية، فإن الإدارات المسؤولة عن «السي.آي.إيه.» كافة، من جاك داونينغ ورئيس مديرية العمليات ونائبه جيم بافيت، ورئيس مركز مكافحة الإرهاب جيم أوكونيل ونائبه بول بيلار، أخبروه بأن الهجوم على تارناك فكرة سيئة. كما أن أحداً لم يتحمّس لها في البيت الأبيض. فقد قال مرة مسؤول رفيع المستوى على اطلاع على العملية في إدارة كلينتون: «من وجهة نظرنا، ومن جهة نظر جورج، تبدو خطة غبية. فالسهل منبسط... لم أصدق أن هذه هي خطتهم العظيمة. إنه هجوم مباشر». لم يحاول ريتشارد كلارك أن يخفي رفضه هذه المواقف الرسمية. ففي إحدى المرّات، سأل زملاءه في البيت الأبيض وفريق «السي.آي.إيه.» في مركز مكافحة الإرهاب بتهكم: «هل فاتني شيء؟ ألن يزحف هؤلاء الناس في طريقهم إلى الحائط؟». لم يقدم تينيت خطة الهجوم على مزرعة تارناك إلى كلينتون بشكل رسمي. فقد طوّر تينيت حَدْسه السياسي خلال سني عمله في الكونغرس والبيت الأبيض. ولم يكن مستعداً لدعم أي عملية تُلحق خسائر كبيرة بين صفوف المدنيين. كما أنه كان يعد لمبادرة دبلوماسية سرّية ضدّ بن لادن، تتضمن المملكة العربية السعودية. وإذا فشل الهجوم على تارناك، فستذهب مساعيه سُدى.

تم إرسال القرار في برقية إلى إسلام آباد: «لن ننفذ الهجوم». وكتب رئيس وحدة بن لادن، مايك سكوير، إلى زملائه أن إدارة كلينتون تخاف «الأضرار الجانبية» والاتهامات بتنفيذ محاولة اغتيال. وتخوّف صانعو القرارات «من سوء فهم طبيعة العملية وهدفها... في حال لم ينج بن لادن، برغم نياتنا الحسنة وجهودنا الفضلى»(712). يجب وضع خطة الفريق القبلي جانباً، وربما العمل بها لاحقاً. غير أنه تم تشجيع العملاء على الاستمرار في إيجاد فرصة للإمساك ببن لادن بعيداً عن تارناك، أثناء سفره وحيداً مع حرّاسه.

استاء ضباط «السي.آي.إيه.» الذين كانوا يعملون على خطة تارناك كثيراً. لقد بذلوا مجهوداً كبيراً في عملهم، واعتقدوا أن خطتهم ستنجح. وإذا لم يتم توقيف بن لادن الآن، فسوف يزيد خطره في المستقبل.

ويبدو أن هذه لم تكن سوى بداية استيائهم.

# 22
# مصالح المملكة

يرى الأمير تركي الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية، الخطر الذي يمثّله بن لادن من منظار سياسات المملكة العربية السعودية. كان بن لادن والظواهري يحرضان ضدّ المملكة بلغتهما الخاصة: كانا يندّدان بمصداقية العائلة الملكية حول كونها الحارس الشرعي لأهم مكانين مقدّسين عند المسلمين السُّنة: مكّة والمدينة. كانا يعودان إلى القرآن الكريم كمرجع لاستلهام الثورة ضدّ النظام في السعودية. واستمر بن لادن في استخدام ثروته والقنوات العالمية ذات التكنولوجيا الرقمية للاتصال بمنشقّين إسلاميين سعوديين داخل المملكة وفي المنفى. وحاول السعوديون على مدى أعوام إقصاء بن لادن أملاً في عزله وإبعاده عنهم. وقال أمير سعودي في إحدى المرات إنه «لا يوجد أعداء دائمون داخل المملكة العربية السعودية»، مشيراً إلى مواقع الالتفاف لحلفاء العائلة وأعدائها في المملكة(713). غير أن بن لادن، بدأ يصبح، في إلحاحه الشديد ودعواته إلى الجهاد ضد المملكة، حالة استثنائية.

في أواخر ربيع العام 1998، بدأ الأمير تركي وأمراء آخرون، ومن بينهم عاهل المملكة، الملك عبد الله، يتنبّهون إلى خطر بن لادن. فقد ألقت قوات الأمن السعودية القبض على جهاديين من أتباع بن لادن قاموا بتهريب صواريخ أرض - جوّ إلى داخل المملكة. وفي شهر آذار/مارس، ضمن السعوديون ارتداد أمين الخزينة في قاعدة أفغانستان التابعة لبن لادن، محمد بن مصالح. وقد كشف عن أسماء سعوديين كانوا يموّلون بن لادن سرّاً. استمرّ بن لادن في خلال تلك الأثناء في عقد المؤتمرات الصحافية والمقابلات التلفزيونية للتنديد بالعائلة الحاكمة السعودية وأمراء آل سعود، بمصطلحات تهديدية شديدة اللهجة. تم بثّ المقابلات عبر الأقمار الصناعية في أنحاء العالم العربي والصحون اللاقطة المنتشرة على سطوح الأبنية في السعودية. تنبّه كلينتون إلى هذه الاضطرابات، وقام بإرسال تينيت إلى الرياض طلباً للتعاون مع السعودية، وكان نتيجتها أن سمح ولي العهد، الأمير عبد الله للأمير تركي بالقيام بزيارة سرّية إلى قندهار. ووفقاً للأمير تركي، كانت مهمته تقضي بمقابلة الملّا عمر ومناقشة الخيارات لوقف أعمال بن لادن(714).

كانت المهمة مقيّدة بتعقيدات السلطة الملكية للسعودية. لقد برز ولي العهد الأمير عبد الله، البالغ من العمر حينذاك أربعة وسبعين عاماً، قوة جديدة موثوقاً بها. شقيقه الأكبر الملك فهد، لا يزال عاجزاً بسبب ذبحة قلبية أصابته قبل أعوام. وبمرور الوقت، تركّزت السلطة الملكية تدريجاً حول الأمير عبد الله. رجل عريض البنية، ترتسم على وجهه لحية صغيرة، وعينان وملامح آسيوية. نجح الأمير عبد الله في الحصول على رضا المملكة بفضل كلامه الصريح وتعصّبه للقومية السعودية وتساهله مع الجنود والمواطنين السعوديين، وبسبب نمط حياته البسيط تقريباً. فهو لا يقضي عطلته الصيفية في كازينوهات مدينة «كان» الفرنسية، ولا ينغمس في الملذات أو يتهور في قيادة الطائرات بحثاً عن الإثارة. لذلك، وفي سياق العائلة الملكية السعودية، ساهمت كلّ هذه المزايا في

صنع صورة القائد. وبحسب التقاليد السعودية، راح يتزوج بنساء صغيرات وينجب الأولاد بينما كان يتقدّم في السّن. وبحلول العام 1998، كان يعيش في مجموعة قصور تشبه الجامعات الأميركية المتوسطة الحجم، تفصل بينها ممرات تنساب عبر العشب المروي وجفنات الكرمة.

يحافظ عبد الله على برنامج مميّز، فينام على مرحلتين، مدّة كلّ منهما أربع ساعات، الأولى بين التاسعة مساءً والواحدة صباحاً، والثانية بين الثامنة صباحاً والثانية عشرة ظهراً. يمارس في ساعات الصباح الأولى، هواية السباحة في مسبحه الملكي، ويشغل نفسه ببعض الأعمال المكتبية. يسافر كل يوم سبت إلى جدّة مع أشقائه، ويبحرون على متن يخت في البحر الأحمر عدة ساعات، يتناولون الغداء ويستمتعون بقيلولة وهم يترجحون مع الأمواج. ويذهب كل يوم أربعاء في الباص إلى مزرعة صحراوية خاصة به، حيث يربّي الأحصنة العربية. إنه رجل جدّي ومجتهد في ما يتعلق بمسؤولياته السياسية، لكنه بسيط من حيث طريقة عيشه بالنسبة إلى ملياردير يملك القصور الفخمة واليخوت ومزارع الخيل(715).

كان عبد الله مشككاً في لهفة بعض الأمراء السعوديين للتمتع بحظوة الولايات المتحدة بأي ثمن. يدرك ولي العهد أن المملكة العربية السعودية لا تتمتع بالقوة العسكرية الكافية ليتخلّى عن تحالفه الدفاعي مع واشنطن، لكنه يريد أن تنطبع علاقاتهما باستقلالية أكبر.

وبرأيه، يجب أن تتّبع المملكة العربية السعودية سياسة خارجية متوازنة تتضمن الوصول إلى أصدقاء أميركا المنقسمين في أوروبا، ولاسيما فرنسا. أراد تقارباً بين المملكة العربية السعودية وإيران برغم معارضة الولايات المتحدة ذلك. وأراد مساعدة الولايات المتحدة على تحقيق سلام دائم بين إسرائيل والفلسطينيين مع رفضه الدعم الأميركي للحكومة الإسرائيلية. اتّبع الأمير عبد الله نمطاً مستقلاً من القومية السعودية، فهو لم يكن يعادي
المصالح الأميركية ولا يهتم بأمرها بقدر الملوك السابقين. لم يعد الخوف من الشيوعية يوحّد الرياض وواشنطن. واعتبر عبد الله أن بإمكانه استئناف التحالف من دون الاستخفاف بقدرته الأساسية(716).

أثّر بروز الأمير عبد الله في وضع الأمير تركي داخل العائلة الملكية. بالنسبة إلى الثقافة السياسية السعودية، التي تبجّل الأقدمية والعائلة، بقي تركي شخصية غير أساسية. وبسبب دراسته في جورج واشنطن وأكسفورد، كان أحد أكثر الأمراء تأييداً للسياسة الأميركية داخل العائلة الملكية، وإنما لم يكن بالضرورة صاحب نفوذ حاسم في عهد عبد الله. كانت ثروات الأمير تركي الشخصية التي ساهم مساعدوه في تجميعها، مثل أشقاء باديب، تزعج بعض خصومه في العائلة الملكية. لقد شعروا بأن قسم الاستخبارات السعودي تحوّل إلى بؤرة تمتص المصادر المالية. وفي استمرار دعوات الأمير عبد الله إلى زيادة الكفاءة في الحكومة السعودية، راح خصوم تركي يطالبون بمحاسبة قسم الاستخبارات العامة.

كان يجب على تركي، على صعيد قضية بن لادن، أن يتنافس في النفوذ مع عمّه، وزير الداخلية السعودي الأبرز الأمير نايف، وهو النظير السعودي للمدّعي العام ومدير الـ «أف.بي.آي.» معاً. كان نايف وأبناؤه الأقوياء يقومون بحماية السيادة السعودية من التدخل الأميركي. ولطالما أظهروا مواقف معادية للولايات المتحدة. وكانوا يرفضون باستمرار التجاوب مع طلبات مساعدة الـ «أف.بي.آي.» في التحقيقات. كانوا يفسّرون القوانين السعودية بحيث يخفّفون نفاذ الأميركيين إلى ملفات سياستهم وتحقيقاتهم. وفي بعض المناسبات، يقوم نايف ببعض الاستثناءات ويتعاون مع الـ «أف.بي.آي.»، غير أن سياسته العامة التي تقضي بعدم التعاون مع الأميركيين كانت تضع تركي في موقف محرج. كان تركي صلة الوصل الأساسية بين «السي.آي.إيه.» والحكومة السعودية، وحاول المحافظة على الاتصالات مع مركز لانغلي. تعاون مع تينيت في عملية السلام في الشرق الأوسط، وحاول تأسيس فريق عمل سرّي لتبادل المعلومات الاستخبارية حول الخطر الذي يمثّله بن لادن. غير أن الأمير نايف وجّه جهوده نحو الانفتاح. لم يستطع تركي أن يوفّر معلومات كافية لـ «السي.آي.إيه.» أقله فيما يتعلّق بالإرهاب. وخلال رحلة للتخييم في الصحراء، تعرّض الأمير لتسمّم بثاني أوكسيد الكربون بعد تعطّل المكيف في خيمته، وقد تساءل زملاؤه في لانغلي عم إذا كانت هذه الحادثة ستُضعفه بشكل دائم. فبينما انهار تركي صحّياً وسياسياً، راحت «السي.آي.إيه.» تراقب علاقاتها بنزاعات المملكة العربية السعودية، وهي علاقة شكّلت جزءاً مهماً في عمليات الوكالة السرية حول العالم أكثر من عقدين من الزمن(717).

في أحد أيام حزيران/يونيو من العام 1998، حلّقت طائرة الأمير تركي فوق مطار قندهار. نظر من نافذة الطائرة ووجد مزرعة تارناك. لقد علم باستخدام بن لادن للمجمّع، وطُلب إليه مراقبته أثناء هبوطه. يستطيع الآن رؤيته على السهل المنبسط، يشبه معسكراً مستحلاً وفقاً للمعايير السعودية. وبالمقارنة بالرفاهية التي يتمتّع بها تركي في جدّة والرياض وباريس وبلدان أخرى، لم تعد منشآت المجمّع الأولية موجودة بالنسبة إليه منذ قرون. كان تركي يشير دائماً إلى التوتّر المتأصل في مسيرة المملكة العربية السعودية النفطية نحو الحداثة. إن التفاعل بين الثراء والإيمان الإسلامي، والعادات البدوية والثقافة العامة، تسبّب في ظهور تيّارات متطرفة داخل المملكة. وقد انساق أسامة بن لادن في أحد هذه التيارات، فانتهت به الحال، داخل جدران المجمّع الطيني في ضواحي قندهار، يدعو إلى الثورة.

في الطائرة إلى جانب الأمير تركي، يجلس الشيخ عبد الله بن تركي ووزير الشؤون الإسلامية والأوقاف السعودي. قام رئيس الاستخبارات بدعوة الشيخ، وهو عالم إسلامي، أملاً بالاستشهاد بالآيات القرآنية والفلسفة الإسلامية للتأثير في الملّا عمر لإقناع زعيم طالبان بالتصرف حيال ضيفه السعودي المثير للمشاكل(718). وتشكل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف الدينية السعودية جزءاً من المؤسسات السعودية التي حافظت على علاقات وثيقة مع طالبان من خلال الأعمال الخيرية والجماعات الوهّابية. كان الأمير تركي يأمل إقناع الملا عمر بأن طالبان ستستفيد من عدة نواحٍ إذا تخلّت عن بن لادن. وستحرص الجماعات السعودية الدينية والخيرية على الإيفاء بهذا الوعد.

لم يلتق الأمير تركي الملا عمر سابقاً. أخبره القادة الطالبان الذين التقاهم، مثل الملّا ربّاني، بأن عمر رجل شجاع ومتديّن جدّاً. حاول أفغان آخرون إقناع تركي بأن عمر منعزل، ومتطرّف دينياً، وعديم التسامح، ولا يغيّر قراراته متى اتخذها مهما تكن المخاطر. لكن تركي، إلى جانب آراء الزوار الأفغان، يعرف بعض الطرائق الأخرى لتقييم عمر. لا تربط تركي بالمؤسسات السعودية المقرّبة من طالبان سوى علاقات رسمية. أثارت الفتاوي والتصاريح الجديدة التي أطلقها بن لادن اهتمام تركي، غير أن المحلّلين قاموا بدراسة النصوص المنشورة وتعدادها. ويقدّر مركز تركي عدد أتباع بن لادن العرب من غير الأفغان
بحوالى ألفي عنصر. ويعتبر رئيس الاستخبارات السعودي أن بن لادن نفسه هو صاحب القرار الأساسي في الحركة. غير أن معظم العمل الجاد في تتبع المتعاطفين مع بن لادن في المملكة العربية السعودية واستجوابهم والتحقيقات معهم، كانت تقوم بها «مجموعة» نايف في وزارة الداخلية. لم يكن تركي على علاقة بهذا العمل برغم أنه غالباً ما يطلع على نتائجها(719).

التقى عشرات رجال الملا من حركة طالبان بقيادة أميرهم الأعور، حاشية تركي في مراكز طالبان وسط المدينة. رحّب عمر بضيوفه بتبادل العناق الحارّ والمجاملات وبأكواب الشاي الأخضر. ودارت بينهم محادثات طويلة، تمحورت بشكل أساسي حول بن لادن كما كان يخشى تركي.

أقرّ تركي لاحقاً بأنه «أخبر» قادة طالبان بخطب بن لادن المستمرة ومقابلاته للتنديد بالمملكة السعودية. كما ركّز الأمير تركي على ما «ارتكبه بن لادن ضدّ مصالح المملكة». كان خطأ بن لادن الدعوة إلى إسقاط الحكومة الإسلامية في المملكة العربية السعودية، التي تضطلع بمسؤوليات محدّدة تجاه المسلمين في أرجاء العالم. طلب تركي إلى الملا عمر طرد بن لادن من الأراضي الأفغانية، أو تسليمه إلى السعودية، ليكون في عهدتها. وقال الأمير لاحقاً: «أوضحنا لهم أنهم إذا أرادوا إقامة علاقات جيّدة مع المملكة العربية السعودية، فيجب عليهم طرد بن لادن من أفغانستان». وأكد تركي ومرافقوه من علماء الدين للملا عمر، أن المهمة ستنفّذ وفقاً للمبادئ الإسلامية(720).

وافق قادة طالبان على طلب تركي مبدئياً، لكنهم اقترحوا أن تشكّل المملكة العربية السعودية وقادة طالبان لجنة مشتركة من علماء الدين لإيجاد طريقة لمحاكمة بن لادن وفقاً للشريعة الإسلامية. واعتبر تركي أن تشكيل اللجنة سيحفظ ماء وجه طالبان لاحقاً، ويبرّر طرد بن لادن أمام الرأي العام. اعتبر تركي كلمات الملا عمر قراراً واضحاً لطرد بن لادن خارج أفغانستان. ويقول تركي إنه «سأل الملا عمر مراراً»: «هل توافق على مبدأ تسليم هذا الرجل وأننا سنناقش الشكليات فحسب؟». فأجابه: «ليطمئن الملك وولي العهد بأنني موافق»(721).

اتّفق كلّ من حضر الاجتماع على صحّة المعلومات التي أدلى بها تركي حول المحادثات، غير أن الخلافات والشكوك في حقيقة ما جرى لاحقاً في قندهار استمرّت أعواماً. فقد نشرت معلومات في باكستان حول الاجتماع تفيد مثلاً بمناقشة تركي استراتيجية عسكرية مع طالبان، لتمويل حملة ضد

مسعود ومنشقين آخرين في الحلف الشمالي. لم يُعلم تركي الولايات المتحدة مسبقاً بزيارته، ولم يُفدها بمعلومات حولها لاحقاً. كان مراقبو الشؤون السعودية في «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض على اقتناع بأنه، بالإضافة إلى الموضوعات الدينية التي تمّت مناقشتها، لجأ الأمير تركي إلى عادته المعروفة، ففتح دفتر شيكاته أمام الملا عمر، وعرض عليه مساعدة مالية ضخمة إذا نجحت طالبان في حلّ مشكلة بن لادن بما يُرضي تركي. وقدّر البعض عرض تركي بمئات ملايين الدولارات(722).

تساءل المحللون الأميركيون، المعتادون مكر السعوديين، إذا ما كان تركي التقى بن لادن نفسه في قندهار، وربما جدّد جهود المملكة للتفاوض معه حول عودته السلمية. كما شكّك بعض المحللين في مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.»، في أن تكون زيارة تركي محاولة صادقة لسجن بن لادن بأي شكل من الأشكال. لا يملك هؤلاء المحللون أدنى فكرة عما يعد له تركي، لكنهم يشكّون في أن نياته حسنة. وقد عكس شكهّم هذا انهيار ثقة «السي.آي.إيه.» بالمملكة العربية السعودية، ولاسيما داخل مركز مكافحة الإرهاب في وقت تزداد قوّة بن لادن. إلا أنهم لم يقعوا على دليل دامغ لدعم شكوكهم في أن تركي التقى بن لادن في قندهار. وبالنسبة إلى الدعم المالي لطالبان في حال تعاونها، فكانت المعلومات التي أدلى بها تركي أمام الرأي العام، تلمّح إلى هذا الموضوع. ويتّفق هذا العرض مع أجندة تركي التي اتّبعها في قندهار: أراد أن يقدّم الحوافز والحجج والتهديدات لإقناع طالبان بالتخلي عن بن لادن.

لا يزال المسؤولون في مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض على اقتناع بأن المملكة العربية السعودية ترغب في محاكمة بن لادن. غير أن الأمر سيكون أسهل بكثير بالنسبة إلى العائلة الملكية، في أن يتولى الأميركيون مهمة إلقاء القبض على بن لادن، ثم يقوموا بترحيله. عندئذ، ستتبرأ العائلة المالكة منه، لكنها ستتحمّل العواقب السياسية. كما أنهم سيبعدون الغضب السعودي الشعبي لمعاقبة بن لادن عنهم، وسيتحول كله ضد الولايات المتحدة الأميركية.

وفقاً للأمير تركي، قام الطالبان بإرسال وفد إلى المملكة في شهر تموز/يوليو 1998 ليبدأ المحادثات حول كيفية طرد بن لادن من أفغانستان. وعاد الوفد إلى قندهار بمزيد من الاقتراحات.

غير أن الأمير تركي لم يتلق رداً من قائد طالبان. انتهى شهر تموز/يوليو وبدأ شهر آب/أغسطس، ولم يسمع أي جواب منه.

كان أسامة بن لادن متأكداً أن سياق محادثات الأمير تركي مع طالبان سيتغير مع بداية شهر آب/ أغسطس. لم يكن واضحاً ما إذا كان بن لادن قد قام بإخبار الملا عمر بخطته خلال ذلك الصيف.

لقد حمله تحالفه مع الظواهري ومع مقاتلين مصريين آخرين إلى مرحلة جديدة من طموحه. سيصبح أشهر متشدد إسلامي في العالم في غضون أيام.

تم تدريب المتآمرين جميعاً والتأثير فيهم وتجنيدهم في أفغانستان. وديع الحاج، هو لبناني مسيحي نشأ وسط الشعوب الإسلامية المنفية في الكويت. لقد وُلد بتشوه وضعف في يده اليمنى. اعتنق الإسلام أثناء سن المراهقة. وخلال ذروة الجهاد ضدّ الاتحاد السوفياتي، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، سافر إلى الحدود الأفغانية للعمل مع اللاجئين. كما عرف محمد عدي بالجهاد الأفغاني أثناء دراسته في جامعة في جنوبي شرقي آسيا. كان طالباً جامعياً مدة أسبوع، ومتطوعاً في ساحة القتال الأفغانية في الأسبوع التالي. سافر محمد إلى أفغانستان من بلده الأم تانزانيا بعد أعوام من الدراسات الإسلامية. وفي العام 1994، سأله صديق له، في مخيم تدريب أفغاني للمتطوعين المتعددي الجنسيات، إذا كان يرغب في «التطوع للجهاد»، فوافق على الفور. كانوا يقسمون بالولاء المباشر لأسامة بن لادن ومنظمته القتالية المعروفة باسم «القاعدة». اعترف آخرون بأنهم لم يلتقوا بن لادن قط، ولم يعتبروه يوماً قائدهم. كانوا يعرفون بأنهم جزء من قتال إسلامي ديني بالنيابة عن الأمّة أو مجتمع المؤمنيين(723).

عاش بعض المتآمرين بهدوء أعواماً في أفريقيا بعد تدريبهم في أفغانستان. كانوا أوّل الأشخاص المنضمين إلى مجموعة خلايا القاعدة النائمة المنتشرة في العالم، ويديرها بن لادن وحلفاؤه المصريون من المنازل الآمنة التابعة لطالبان في قندهار وكابول، أو من المخيمات القاحلة في جبال أفغانستان الشرقية.

في 7 آب/أغسطس من العام 1998، قبل الساعة العاشرة والنصف صباحاً بقليل، فجّر فريقان انتحاريان نفسيهما في عاصمتين أفريقيتين. في مدينة نيروبي، اقتحمت شاحنة ملأى بالمتفجرات مخرج موقف للسيارات خلف السفارة الأميركية، واقتربت من حاجز حديدي. قفز أحد المهاجمين من الشاحنة ورمى قنبلة يدوية باتجاه الحرس الكيني وأسرع في الفرار. وعندما انفجرت الشاحنة تضررت الواجهة الخلفية للسفارة الأميركية. تطاير الزجاج المتكسر، والباطون والمفروشات في أرجاء المكاتب الداخلية، فتسبب في قتل الأميركيين والأفارقة وجرحهم داخل مكاتبهم. انهار المبنى المجاور، فأودى بحياة العديد من الأفارقة في داخله، ومن بينهم الطلاب. وتضررت الجامعة الإدارية. كما أنه حتى المارّة الذين كانوا محتشدين في الشارع بالقرب من السفارة، لقوا حتفهم.

بعد حوالى تسع دقائق، انفجرت شاحنة ثانية في دار السلام في تانزانيا، في موقف سيارات السفارة الأميركية. ولحسن الحظ، كان يفصل بين المبنى وشاحنة المتفجرات خزّان مياه تابع للسفارة. طار خزان المياه في الهواء على علو ثلاثة طوابق، وسقط على الأرض بالقرب من مكاتب السفارة، وامتصّ أكبر أثر ممكن للمتفجرات. في الهجوم الانتحاري في نيروبي، لقي 213 شخصاً حتفهم، من بينهم 12 أميركياً. و32 آخرون من القتلى كانوا كينيين يعملون في السفارة الأميركية. وجرح حوالى 4000 شخص. كان أكبر هجوم مدمّر ضدّ أهداف أميركية منذ التفجير الانتحاري لقوات

«المارينز» البحرية في لبنان من قبل تنظيم «حزب الله» اللبناني الشيعي، في العام 1983(724).

لم يتلق أحد أي تحذير. أصدر مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» تحذيراً في 29 تموز/يوليو حول احتمال حدوث هجوم كيميائي من قبل بن لادن، لكنهم لم يعرفوا أي شيء عن خطته في أفريقيا. لقد دفعت تهديدات بن لادن خلال مؤتمراته الصحافية في بداية السنة، المسؤولين في المكتب الأمني في وزارة الخارجية، إلى إصدار عدة تحذيرات من عمليات إرهابية ضد المصالح الأميركية، علناً وعبر القنوات السرية، لكن لم يساعد أي منها على درء الخطر. اعتبروا التهديدات في نيروبي ودار السلام من الدرجة المتوسطة، فضباط الأمن كانوا قلقين بشأن عمليات السطو المسلح أو السطو على السيارات، أكثر من الإرهاب(725).

تعلم «السي.آي.إيه.» أن بن لادن لديه أتباع في نيروبي. قام مركز مكافحة الإرهاب وفرع أفريقيا، بالتعاون مع الـ «أف.بي.آي.» بتعقّب أتباع بن لادن المدرّبين في أفغانستان، ومن بينهم وديع الحاج، إلى داخل مكتب للتبرعات المالية بين العامين 1996 و 1997. وتضمنت التحقيقات علاقتهم بالشرطة الكينية، وشملت زيارات عملاء في الـ «أف.بي.آي.» خلال صيف العام 1997 لمنازل المقاتلين المشتبه فيهم. شعر الحاج بكثير من الضغوطات، فسافر إلى الولايات المتحدة. تبعته الـ «أف.بي.آي.»، وسحبته من على متن الطائرة في نيويورك، وقدّمته إلى التحقيق أمام هيئة للقضاة. إلا أن المتهم نفى علاقته ببن لادن، فأطلق سراحه. انتقل إلى تكساس، ربما للابتعاد عن المشاكل، فاقتنع المحققون الأميركيون بأن رحيله عن نيروبي يعني أنهم نجحوا في إزعاج الخلايا التابعة لبن لادن في شرقي أفريقيا، إلا أن بعض الخلايا الأفغانية النائمة المدربة في أفغانستان بقيت هناك.

نجح الراديكاليون الإسلاميون في تشتيت الأنظار عنهم أثناء تجهيز الشاحنات المزودة بالمتفجرات في الفناء الخلفي لمنزلين فقيرين مستأجرين بمساعدة عملاء بن لادن الذين أتوا من باكستان. قبل سبعة أشهر من التفجيرات، لم تتبيّن مراكز «السي.آي.إيه.» لا في نيروبي ولا في دار السلام، أي تهديدات تشير إلى احتمال وقوع هجوم. هذا هو النمط النموذجي للعنف الإرهابي. وعلى مرّ عقدين من الزمن وحتى اليوم، لا تزال «السي.آي.إيه.» تعلم بأنها لا تستطيع الاعتماد على قدرتها على الكشف عن أي هجوم محتمل بشكل مسبق فحسب. وبغض النظر عن التحذيرات التي تبيّنوها أو الخلايا الإرهابية التي فكّكوها، سينجح أقله بعض المهاجمين في تنفيذ أعمالهم التخريبية. ويشبّه الضباط في مركز مكافحة الإرهاب أنفسهم بشكل خاص، بحارس المرمى في لعبة كرة القدم: يريدون أن يكونوا الأفضل في الاتحاد، ويصدوا أكبر عدد من الكرات الممكنة، لكنهم يعلمون بأنهم سيسمحون لخصومهم بتسجيل الأهداف. وفي النهاية، يعتقد غالبيتهم أن الطريقة الوحيدة للتغلب على الإرهاب، هي الخروج من مخبئه، والتغلب على العدو على أرض المعركة(726).

كانت وحدة بن لادن التابعة لمركز مكافحة الإرهاب تتوقّع هذه الأحداث. كان المحللون والضباط في المركز يعملون من ثماني ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة داخل المكاتب الحكومية، يقرأون ويحللون النصوص المترجمة من مؤتمرات بن لادن الصحافية، ومقابلاته التلفزيونية، والرسائل التي يعترضونها والمكالمات الهاتفية. كانت غالبيتهم على اقتناع بأن بن لادن يقصد ما صرّح به: لقد قرر إعلان الجهاد ضدّ الولايات المتحدة، وسيقوم بمهاجمة أهداف أميركية أينما تمكّن من الوصول إليها. وعلى الرغم من ذلك، لم ينجح الضباط في وحدة بن لادن في إقناع رؤسائهم بمباشرة العمل بخطة مهاجمة مزارع تارناك.

انتابت بعضهم مشاعر الإحباط والغضب أثناء مشاهدة صور القتلى وأعمال الإنقاذ في أفريقيا عبر التلفاز. وواجهت إحدى المحللات في وحدة بن لادن مدير «السي.آي.إيه.» تينيت مباشرة، وقالت له: «أنت المسؤول عن تلك الأرواح لأنك لم تتصرف وفقاً لمعلوماتنا، عندما كان بإمكاننا النيل منه». وأضاف مسؤول أميركي مطلع على هذا الاتهام، إن المحللة «كانت تبكي وتندب. كان المشهد مؤثراً»(727).

وقف تينيت وتقبّل اتهامها. كان رجلاً صلباً، وعاطفياً، لا يحيد عن المواجهة الشريفة، برأي زملائه. وفي الأسابيع التالية، ضاعف تينيت التزامه حملات الوكالة السرية ضد بن لادن، ربما بدافع من هذا التحدي، أو رغماً عنه.

كانت أسئلة عديدة تساور من عملوا على خطة مهاجمة تارناك: لماذا لم ينصح تينيت قط ساندي بيرغر والرئيس كلينتون بهذه الخطة؟ لماذا رفضوا المخاطرة بأرواح المدنيين من بين أتباع بن لادن في المخيم، بينما كان جلياً أنه ستقع ضحايا بين صفوف المدنيين أثناء الهجمات الإرهابية، كما حدث الآن في أفريقيا؟ هل قام القادة في مركز مكافحة الإرهاب بمهاجمة تينيت بما يكفي؟ من الصعب التكهّن بسبب أو كيفية اتخاذ قرارات مماثلة داخل الأوساط البيروقراطية المحاطة بالسّرية. وزادت الإشاعات وضغوطات العمل اليومي من حدّة الاستياء.

اكتسب كلينتون خلال ست سنين في الرئاسة، خبرة واسعة في اتخاذ القرارات المتعلقة بالردّ على الهجمات الإرهابية. اعتاد فريقه في الأمن القومي هذه القضايا، على الصعيدين المحلي والدولي: محاولة اغتيال الرئيس بوش في العام 1993، وهجوم قاسي على «السي.آي.إيه.»، وتفجيرات مبنى التجارة العالمي، وتفجير المبنى الفدرالي في مدينة أوكلاهوما. في ذلك اليوم، الجمعة في 7 آب/أغسطس، أصبحت غرفة الأوضاع في البيت الأبيض مكاناً مسعوراً للإغاثة واستغاثات النجدة. وراح كلينتون في الطابق العلوي في المكتب البيضوي، يتحدث بشكل غير رسمي مع مستشاريه المؤتمنين في مجلس الأمن القومي، بعدما شكل دائرة داخلية عرفت لاحقاً بـ «المجموعة الصغيرة»: ساندي بيرغر وجورج تينيت ومادلين أولبرايت وجانيت رينو ووزير الدفاع وليام كوهين ورئيس مدراء الفريق المشترك، الجنرال هاغ شيلتون. ووسط ذلك كله، كان كلينتون أقرب إلى بيرغر، صديقه القديم ومستشاره. كان يعمل براحة مع تينيت. أما علاقة كلينتون ببقية أعضاء

«المجموعة الصغيرة»، فكانت رسمية وفاترة. وعلى الرغم من ذلك، عندما يناقشون الخلافات المزمنة والتوترات، يشعر بيرغر بأن رينو يتخذ موقفاً دفاعياً وغير متعاون، وأولبرايت وكوهين يتجادلان في المسائل السياسية: غالباً ما كانا يعملان معاً. كان كلينتون يشجّع الحوار الجدلي المفتوح. كانت تشغله دائماً «المجموعة الصغيرة»(728).

تتضمن المرحلة الأولى من اجتماعاتهم ما يعرف في مصطلحات الأمن القومي، بسؤال «النسبية»: أي جماعة إرهابية قامت بتنفيذ الهجوم؟ هل تلقت المساعدة من حكومة أجنبية؟ ولمثل هذين السؤالين أوجه قانونية وسياسية. إذا قرر كلينتون الردّ على تلك الهجمات، فيجب عليه أن يحدّد أهدافه ودرجة العنف التي سيكشفها للشعب الأميركي والحكومات الحليفة والأمم المتحدة. وكمحام ومدافع عن المؤسسات الدولية، يتنبّه كلينتون إلى الأدلة والمعايير القانونية المتعلقة باستخدام القوة العسكرية، بما في ذلك عقائد القانون الدولي المعروفة. وعندما يتقدم «بالنتائج» الرئاسية لعملية عسكرية سرّية، مثلاً، يعيد كلينتون كتابة تفويض «السي.آي.إيه.» بخطّ يده، كأنه محام ينقّح دعواه. وعلى صعيد القضية الأفريقية، كان السؤال الأول والأهم، هو إذا كانت الولايات المتحدة تملك الدليل المناسب لإدانة الشخص المسؤول عن الهجوم على السفارات. وفي القضايا الإرهابية المحلية، يعتمد الرئيس على الـ «أف.بي.آي.» ووزارة العدل لجمع الأدلّة ومحاكمة المذنب. وإذا تبيّن لكلينتون أن الدليل غير صحيح، يقرر عندئذ إذا كان سيردّ بقوة عسكرية، بقيادة البنتاغون، أم من خلال عملية سرية ليوكل المهمة إلى «السي.آي.إيه.»، أم من خلال تطبيق القوانين التقليدية التي تكون وزارة العدل مسؤولة عن إصدارها وتطبيقها.

بعد مرور أسابيع على الهجمات، كان تينيت ومساعدوه الكبار يخبرون كلينتون يومياً بالأدلة الجديدة. منذ البداية اعتقدوا أن بن لادن وراء تلك الهجمات. فمحاولات «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» السابقة لتفكيك خلية نيروبي مدوّنة كلها في الأرشيف: التحقيق مع المحتجزين المشتركين في الهجمات؛ الأدلة التي رُفعت في نيروبي؛ تبادل الفاكسات والاتصالات الهاتفية عبر الأقمار الصناعية بين أفريقيا وأفغانستان؛ وعمليات الاعتراض الالكتروني. لقد تمت إزالة الشكوك، واعتبرت «السي.آي.إيه.» أن بن لادن قام بالتخطيط للتفجيرات وتمويلها وإعطاء الأمر بتنفيذها. وقام تينيت، يوم الجمعة في 14 آب/أغسطس، بعد أسبوع على التفجيرات، بإبلاغ «المجموعة الصغيرة» بحكم «السي.آي.إيه.» الرسمي بمسؤولية بن لادن ومساعديه المصريين عن العملية. ويروي بول بيلار، نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، أن «المعلومات كافة من المصادر البشرية والتقنية، من اعترافات الموقوفين والتصريحات العامة لمنظمة بن لادن، تشير كلها إلى أنه هو المسؤول». كما قال شخص اطلع على الملفات إن «الأدلة واضحة كعين الشمس». «كانوا على ثقة تامة من الفاعل». وقد قال كلينتون إنه «أوّل دليل مقنع على مسؤولية بن لادن عن قتل الأميركيين»(729).

أصبح السؤال مع تحديد هوية الفاعل: كيف سيتصرفون؟ كان بن لادن مقاتلاً إسلامياً غامضاً وخطيراً يعيش داخل الكهوف المعزولة في النصف الثاني من الكرة الأرضية. وأصبح قائداً ملهماً للحركات الإسلامية المسلحة في الجزائر ومصر. كان يتحكم مباشرة في الخلايا الإسلامية المتفرقة في الدول الأخرى. تعاقد مع الاستخبارات الباكستانية لتدريب المقاتلين الإسلاميين وإرسالهم إلى كشمير، وتآمر مع طالبان لتدريب المقاتلين ضد حلف الشمال، وحضن المقاتلين المتطوعين من الشيشان وأوزباكستان والصين. بعبارة أخرى، كان بن لادن عدوّاً معقداً وواسع الانتشار. هل كان عدوهم بن لادن شخصياً؟ أم شبكة القاعدة الغامضة التابعة له؟ وأين طالبان من هذا كله؟

لم يُبد كلينتون و «مجموعته الصغيرة» اهتماماً كبيراً بالمسألة الأفغانية التي وقعت بسببها تفجيرات السفارات. يملكان فكرة متطورة عن عقيدة الإرهاب ومكافحة الإرهاب، لكن أفغانستان ونزاعاتها القبلية والعقائدية كانت تبدو بالنسبة إليهما فوضى عنيفة، ولم يكن في عداد هذه «المجموعة» خبير في الشؤون الأفغانية. كانا يعتبران طالبان ميليشيا جاهلة وغريبة في أرض بدائية وشريرة، نجح مقاتلوها أخيراً في استنزاف قوة الجيش السوفياتي الأحمر. وكانوا يعرفون بالعلاقة بين طالبان وبن لادن والاستخبارات الباكستانية والمقاتلين المتعددي الجنسيات الذين تلقوا تدريباً في أفغانستان. لكن الصورة الكاملة لهذه العلاقات لم تكن واضحة بالنسبة إليهم. لم يُبد أي رئيس أميركي، منذ ولاية رونالد ريغان، أي اهتمام بأفغانستان في سياق السياسة الخارجية. واليوم، طرحت هذه الدولة نفسها بالقوة من ضمن أولويات برنامج المكتب البيضوي، كبؤرة للجريمة الإرهابية.

لم يبحث الأميركيون في ذلك الصيف، في شهر آب/أغسطس، في احتمال شن عملية عسكرية واسعة النطاق ضدّ طالبان. فقد قال ساندي بيرغر لاحقاً إن الكونغرس والشعب الأميركي لن يوافقا على الحرب كردّ على تفجير السفارتين. كانت الفكرة خارج المعادلة نهائياً. كما أخبر كلينتون زميلاً له بأنه «مهما بلغت فظاعة التفجيرات»، فهو على يقين «بأن أقرب حلفائنا لن يدعمونا»، إذا طلب المساعدة لمهاجمة أفغانستان. وبالإضافة إلى ذلك، وبقدر ما كانت مادلين أولبرايت مشككة في حركة طالبان، اعتقد العديد من الخبراء الإقليميين في وزارتها، ومن الخارج أيضاً، مثل الأمير تركي، أنه يمكن إقناع الملا عمر بالتخلّي عن بن لادن من خلال التهديد والتحفيز (سياسة العصا والجزرة). كان هؤلاء المحللون الأميركيون، يتفقون في الرأي مع الأمير تركي والاستخبارات الباكستانية، على أن
حركة طالبان ستتحول في النهاية إلى حكومة إسلامية معتدلة على غرار المثال السعودي. وخلال ذلك الأسبوع، قامت «المجموعة الصغيرة» بمراجعة خيارات البنتاغون لقيام القوات الخاصة بهجوم على أفغانستان. غير أن حجم القوة العسكرية اللازمة التي أوصى بها رئيس المدراء المشتركين شيلتون، والمدة الطويلة لجمع هذه القوة، والنقص الواضح في الأهداف التي يجب مهاجمتها داخل أفغانستان، دفعت المجموعة إلى التخلي عن هذه الفكرة(730).

كانت تلك الأيام شديدة الغرابة على جادة بينسيلفانيا. فبين جلسات المكتب البيضوي الطارئة مع «المجموعة الصغيرة»، كان كلينتون وأصدقاؤه المقربون يهيئون أنفسهم لاتخاذ قرار صعب. فبعد

ثمانية أشهر من الأكاذيب على المستوى الشخصي والعام، استنتج الرئيس أنه لا خيار أمامه سوى الاعتراف لزوجته وللشعب الأميركي بعلاقته الجنسية بالطبيبة السابقة المقيمة في البيت الأبيض مونيكا لوينسكي. اعترف كلينتون في 17 آب/أغسطس، في البيت الأبيض، قبل الوقوف أمام عدسات الكاميرات والمثول أمام الادعاء، بتاريخ علاقته القذرة. وفي اليوم نفسه، قام تينيت بإطلاع «المجموعة الصغيرة» على أهداف تُشكّل «البنية التحتية» لبن لادن في أفغانستان والسودان لضربها بصواريخ موجّهة. ظهر الرئيس في تلك الليلة على شاشات التلفاز الوطني للاعتراف لشعبه، بأنه كان يكذب حول علاقته بمونيكا لوينسكي أشهراً عديدة. وبعد الموجة الإعلامية العنيفة، سافر لقضاء بعض الوقت مع أصدقائه إلى مارتا فاينيارد. وبعد يومين، أتمّ كلينتون الخمسين عاماً من عمره(731). وقد أكد لزميل له، في خلال وصف هذه المرحلة لاحقاً، أن رد الفعل الشعبي في شهر آب/أغسطس ومعاناته الشخصية «لم يؤثرا قط» في عزمه على التحرك ضد بن لادن.
وبرأي كلينتون، كان واضحاً بالنسبة إلى كل عضو في فريق الأمن القومي، أنه ينوي الانتقام من السعودي لتفجير السفارتين. ويروي أصدقاء كلينتون أنه كان يبدو خلال الاجتماعات المتعلقة بأفغانستان، قوياً ومركّزاً وقادراً على الفصل بين قضايا الأمن القومي الخطيرة، والفضيحة السياسية المتعلقة بلوينسكي. لن يسمح كلينتون للاعتبارات السياسية بإلهائه عن معالجة مشكلة بن لادن. ويذكر أحد مساعديه أنه قال مرة : «أنا جاهز لتحمّل المزيد من الانتقادات إذا اقتضى الأمر»(732). لكن، حتى لو كانت هذه المعلومات صحيحة، فقد كان واضحاً للجميع أن رئاسة كلينتون ضعفت بعد الفضيحة. وخلال شهر آب/أغسطس وللأشهر الستة التالية، وبينما أصبح ثاني رئيس في تاريخ الولايات المتحدة يواجه تهمة، فقد كلينتون المصداقية والقوة السياسية اللازمة لقيادة الولايات المتحدة في صراع عسكري دائم، حتى لو كانت حرباً ضيّقة ومحدودة، أو غير تقليدية بقيادة القوات الخاصة. كانت خياراته الفعلية محدودة. وكان على يقين بأنه سيتعرض لانتقادات قاسية في جميع الأحوال.

كان الهجوم بواسطة الصواريخ الموجّهة الوسيلة الفضلى. فقد أقدمت الولايات المتحدة على هجوم من هذا النوع في السابق عند قصف رونالد ريغان مدينة طرابلس الغرب في ليبيا في العام 1986 بعد تأكده من تورط ليبيا في هجوم ضدّ جنود أميركيين في ملهى ليلي في برلين. كما أطلق كلينتون صواريخ موجّهة ضد مراكز الاستخبارات العراقية في بغداد بعد حصوله على دليل واضح على تورّط صدام حسين في محاولة اغتيال الرئيس بوش في العام 1993. لا يبرر القانون الدولي الهجوم الإرهابي كعقاب أو محاولة للثأر، إلا أن قوانين الدفاع عن النفس المألوفة تجيز مثل هذه الهجمات، إذا كانت مُعَدة لمنع قدرة العدو على مواصلة هجمات مستقبلية، أو إعاقتها. وساعد هذا المبدأ على تغيير لائحة أهداف البنتاغون: سيركزون على عمليات بن لادن الجارية والخطر الذي سيمثّله على الولايات المتحدة في المستقبل، وعلى قدرته على إعطاء الأوامر. خلال فصل الربيع، في الوقت عينه الذي كانت «السي.آي.إيه.» ترسم خطتها السرية لمهاجمة مزرعة تارناك، كان البنتاغون يدرس احتمال مهاجمة أهداف أفغانية أخرى. وساهمت تهديدات بن لادن المتلفزة في تحفيز هذه الأفكار(733). ساعد التقاط الصور للمواقع الأفغانية بواسطة الأقمار الاصطناعية من قبل «السي.آي.إيه.»، على فتح ملف جديد للأهداف الأفغانية. وبتعبير البنتاغون، لم تكن أفغانستان من الأماكن الغنية «بالأهداف» (مخيمات تدريب بن لادن، مثل مزرعة تارناك حيث تنتشر الجدران الترابية وأكواخ الآجرّ وعدد قليل من الأسرة المصنوعة من الحبال)، لكن أقله كان

البنتاغون و «السي.آي.إيه.» يعرفان موقع المخيمات، ولديهما صورة مسبقة جيدة للتصرف حيالها. كانت هناك خرائط لبعض هذه المخيمات من أيام الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي في الثمانينيات.

تلازم تخطي كلينتون أزمته العائلية، مع تسريع المعلومات الاستخبارية من «السي.آي.إيه.» خطة الهجوم. تلقّت «السي.آي.إيه.» بعد أيام من تفجير السفارتين تقريراً بأن القادة الكبار للمقاتلين الإسلاميين والجماعات المتصلة ببن لادن، يخططون للاجتماع في 20 آب/أغسطس في مجمع مخيم ظوهر كيلي الواقع على بعد سبعة أميال جنوبي مدينة خوست شرقي أفغانستان. وأوضحت المعلومات أن بن لادن نفسه سيحضر الاجتماع. تقع
ظوهر كيلي بالقرب من مسرح النصر الملحمي لبن لادن، حيث حارب الجيوش السوفياتية. إنه المكان الذي أعلن منه في شهر شباط/فبراير الجهاد ضد «الصليبيين واليهود». وهو المكان الذي عقد فيه مؤتمره الصحافي في شهر أيار/مايو وإحدى مقابلاته التلفزيونية. فبضرب المجمّع، سيهاجم الأميركيون مكان ولادة حرب بن لادن ورمز سلطته. يُستخدم المجمّع عادة لتدريب الجهاديين المدعومين من الاستخبارات الباكستانية. وكانت بعض هذه الجماعات ترسل مقاتلين متطوعين إلى كشمير. وتقوم جماعات أخرى بشن حملات طائفية عنيفة في المدن الباكستانية الكبيرة ضد القادة الدينيين والسياسيين حيث توجد الأقلّية الشيعية المسلمة (الهزارة). كما أن الجهاديين من الدول العربية والشيشان ومن آسيا الوسطى، يستريحون في المجمّع. وتوجد في المنشأة مراكز أساسية وخمس مناطق تدريبية مجهزة بمعدات بدائية. وبسبب قربها من الحدود الباكستانية، يستطيع ضباط مديرية الاستخبارات الباكستانية الوصول إليها بسهولة لحضور الاجتماعات والتدريبات وإجراء عمليات التفتيش.

اختلف المشتركون لاحقاً حول نوعية معلومات «السي.آي.إيه.» المتعلقة باجتماع ظوهر كيلي. فوفقاً للتقرير، سيضم الاجتماع حشداً كبيراً، من مئة إلى ثلاثمئة مقاتل وقائد. واعتبر المسؤول العسكري عن منطقة الشرق الأوسط وأفغانستان، الجنرال أنطوني زيني، أن المعلومات «لم تكن بهذه القوّة». لقد شعر بأن إطلاق الصواريخ الموجّهة إلى داخل المخيّم خلال اجتماع 20 آب/ أغسطس، سيكون «بمنزلة ضربة طويلة نتائجها غير أكيدة». وكما يذكر بول بيلار من «السي.آي.إيه.» ومدراء رفيعو المستوى من مكتب ريتشارد كلارك لمكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، فإن المعلومات أشارت إلى وجود بن لادن في الاجتماع. لكن هناك آخرين يخالفونهم في الرأي، ويقولون إن التقرير لم يقدم أي ضمانات تؤكد وجود بن لادن في الاجتماع. لكن، بغض النظر عن المعلومات، لا شك في أن الهدف من الهجمات الأميركية، بالنسبة إلى كلينتون وبقية المسؤولين، هو قتل بن لادن(734).

لم يكن اجتماع 20 آب/أغسطس سرّياً: كانت الاستخبارات الباكستانية على علم به. فقد أقرّ رئيس الاستخبارات الباكستاني السابق حميد غول لاحقاً، بأنه حذّر طالبان مسبقاً من الهجوم الأميركي، وفقاً لتقارير داخل الحكومة الأميركية. وفي 19 آب/أغسطس، كان مشاهد حسين، وهو وزير في حكومة رئيس الوزراء الباكستاني المدنية نواز شريف، في زيارة رسمية إلى المملكة العربية

السعودية، فاتصل بمكتب الاستخبارات الباكستاني على خط مكشوف للاطمئنان إلى الأوضاع في الوطن. قال: «ماذا يجري؟»، فأجابه: بن لادن سيعقد اجتماعاً غداً. لقد دعا إلى قمة. فقال له: هل يعرف الأميركيون؟ أجابه: بالتأكيد(735).

أخبر حسين في الصباح التالي، مضيفه السعودي أن «الهجوم سيقع هذا المساء». ثم أضاف قائلاً: «لو أن بن لادن يتوقّع الهجوم مسبقاً، لاستطاع هو ومصادره كافة معرفة ما سيحدث»(736).
وفي إسلام آباد، قام الجنرال جوزيف رالستون، نائب رئيس فريق المدراء المشتركين، بتناول العشاء مساء 20 آب/أغسطس مع الجنرال جيهانغير كرامات، قائد جيش شريف. قام الأميركيون بدراسة الهجوم على أفغانستان في الأسابيع الماضية، وهم يخشون أن تعتقد باكستان أن صواريخهم هي ضربة نووية من الهند. كان دور رالستون يقضي بطمأنة كرامات إلى أن الصواريخ أميركية(737).

سقط خمسة وسبعون صاروخ «توماهوك» موجّهاً، قيمة كل واحد منها 750 ألف دولار أميركي، في وديان ظوهر كيلي الصخرية، حوالى الساعة العاشرة بالتوقيت المحلي. قُتل أقله 21 متطوعاً باكستانياً، وجرح عشرات آخرون. لم يكن بن لادن من بينهم.

أبلغت «السي.آي.إيه.» لاحقاً الرئيس كلينتون بأنها تلقّت معلومات تفيد بوجود بن لادن في ظوهر كيلي ومغادرته قبل ساعات من الهجوم بالصواريخ. لكن لا توجد وسيلة للتأكد(738). لقد نفّذوا ردّاً رمزياً على تفجير السفارتين، وربما تمكّنوا من قتل بعض الباكستانيين المجهّزين للذهاب إلى كشمير أو الأحياء الشيعية الفقيرة، إلّا أنهم لم يتمكنوا من النيل من بن لادن وقيادته القوية.

وبالتزامن مع الهجمات على ظوهر كيلي، وقع ثلاثة عشر صاروخاً على معمل كيميائي في الخرطوم، في السودان، يدعى منشأة الشِفا. كان هناك منذ البداية ضغط داخل «المجموعة الصغيرة» لتحديد بعض المواقع الإضافية خارج أفغانستان، لأسباب عديدة. بدأت مجموعة ريتشارد كلارك الأمنية لمكافحة الإرهاب، منذ الربيع الماضي، بتتبّع عمليات بن لادن المالية. كانت الأموال السعودية إحدى أهم مزاياه كإرهابي. وكانت شبكة بن لادن محط اهتمام هيئة القضاة الفدرالية للتحقيق، التي تمكنت أخيراً من إصدار اتهام في حزيران/يونيو الماضي. توصّلت إلى أن بن لادن هو المتهم الوحيد في «مؤامرة تقضي بمهاجمة منشآت دفاعية تابعة للولايات المتحدة الأميركية». لذلك، سيتعدّى أي هجوم أميركي بواسطة
الصواريخ يستهدف عمليات بن لادن المستقبلية، التعرض لبعض المواقع شرقي أفغانستان. كما أصر كلارك ومساعدوه على أنه يجب أن يستهدفوا شبكته المالية أيضاً. وكشفت تقارير «السي.آي.إيه.» عن وجود علاقة بين بن لادن ومنشأة الشفا. كما قام عميل مصري يعمل مع «السي.آي.إيه.» بتقديم عينات من تربة الشفا تحتوي على مواد تعود إلى أسلحة كيميائية. أبلغت «السي.آي.إيه.» البيت الأبيض بهذه النتائج في أواخر تموز/يوليو، قبل تفجير السفارتين في أفريقيا. وأشارت تقارير «السي.آي.إيه.» السابقة المتعلقة بإقامة بن لادن في السودان، والمعلومات

التي أدلى بها الجهادي الفار جمال الفضل أيضاً، إلى اهتمام بن لادن بالحصول على الأسلحة الكيميائية والنووية. وإلى جانب ذلك، كوّن كلينتون اقتناعاً شخصياً بأن الولايات المتحدة تواجه خطراً وجودياً يتمثل في إرهابيين يسعون إلى حيازة أسلحة بيولوجية وكيميائية ونووية. لقد قام ريتشارد كلارك بتمارين سرية مطوّلة قبل أسابيع في «بيت بلير»، حيث يراجع المسؤولون الكبار في إدارة كلينتون رد فعلهم على هجوم إرهابي بواسطة أسلحة الدمار الشامل. لقد طرحت «السي.آي.إيه.» مسألة الشفا للبحث كهدف شرعي بسبب الأدلة التي جمعتها حول الملكية والبوادر الكيميائية. وكما يذكر أحد مساعديه، وافق كلينتون على الهدف، لأنه «كان يتحدث تقريباً طوال الوقت عن أسلحة الدمار الشامل، وكان الموضوع يراوده كثيراً»(739).

أعلن كلينتون للشعب الأميركي أن بن لادن أطلق «حرباً إرهابية» ضد الولايات المتحدة، وأنه قرّر الردّ عليه. قالت مادلين أولبرايت: «من الضروري، برأيي، أن يفهم الشعب الأميركي أننا متورطون في صراع طويل الأمد». غير أن كلينتون ومساعديه تعرّضوا في الأسابيع التي تلت الهجوم بالصواريخ، لانتقادات حادة في واشنطن. اتهمهم الجمهوريون والإعلام بإطلاق الصواريخ الموجّهة لمحاولة تحويل الاهتمام الشعبي عن اعتراف كلينتون بعلاقته بلوينسكي. وبدأ عرض فيلم جديد بعنوان «واغ ذي دوغ» (أو هزّ ذيل الكلب) عن رئيس أميركي خيالي يشن حرباً على ألبانيا لتحويل الانتقادات السياسية. تم التنديد بالهجوم بواسطة الصواريخ الموجّهة على نطاق واسع. كما أطلقت حكومة السودان حملة دعائية لتبرهن أن «السي.آي.إيه.» اعتمدت على معلومات غير صحيحة في اختيارها ضرب منشأة الشفا. نزل مؤيدو بن لادن إلى الشوارع احتجاجاً على الاعتداء الأميركي. وألقى السياسيون الباكستانيون باللوم على الولايات المتحدة للتخلي عن أفغانستان بالدرجة الأولى. فقد قال السفير الباكستاني إلى واشنطن، رياض خوخر: «تركتمونا مع الطفل. في هذه اللعبة علينا الاهتمام بمصالحنا الخاصة»(740).

بدأ نائب المدير بول بيلار، في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، يشعر بأنه يعيش في فيلم «واغ ذي دوغ»، مشككاً في أن الهجوم بالصواريخ كان مقصوداً. وأن «التأثير المادي للهجوم بالصواريخ... كان محدوداً بطبيعة المنشآة البدائية، وأن الهجمات يمكن أن تنعكس في المزيد من الخطط لهجمات إرهابية مؤجلة، برغم أن هذا الاحتمال غير مؤكّد»(741).

تعزّزت سمعة بن لادن في العالم الإسلامي. لقد تم استهدافه بقوة خارقة عالية التقنية، وقد أخفقت هذه التقنية. وظهر في المكتبات الباكستانية كتابان يتناولان سيرة حياة بن لادن. صنع بن لادن إحدى أنجح استراتيجياته إعلامياً، من دون أن يبذل أي جهد. كان الهجوم بالصواريخ أكبر حملة دعائية له في التاريخ.

لقد وضعت هذه الانتقادات حدّاً لخيارات كلينتون بشن «حرب» ضدّ القاعدة، التي أعلنها سابقاً أمام الرأي العام. كان الرئيس مرتبكاً بسبب الانتقادات حول الهجوم بالصواريخ على منشأة الشفا في السودان، فأمر بمراجعة مفصّلة للدليل الذي دفع الـ «السي.آي.إيه.» إلى وضعه ضمن أهدافها.

وبالنسبة إلى رئيس متأثر بصديقه جون دوتش، وبخبرته الخاصة للتشكيك في أهلية «السي.آي.إيه.»، بدأت مرحلة جديدة تزيد شكوكه. لقد عانى تينيت بسبب الضجة حول منشأة الشفا. كان على اقتناع بأنها هدف شرعي، لكن يجب أن يسعى جاهداً هو وفريقه إلى إثبات صحة ادعاءاته. كان «المدراء المشتركون» في البنتاغون، يخططون لمزيد من الهجمات بواسطة الصواريخ الموجّهة، ويعملون تحت الاسم السري «عملية العزم النهائي» (أوبرايشون إنفينيت ريزولف). أخبر كلارك المسؤولين في مجلس الأمن القومي بأن كلينتون ينوي إطلاق صواريخ جديدة قريباً. إلا أن المسؤولين في البنتاغون كانت لديهم شكوك. فقد كتب المسؤول المدني الثالث في وزارة الدفاع، والتر سلوكومب، إلى وزير الدفاع وليام كوهين عن النقص في الأهداف المهمة في أفغانستان. فقد عزّز فشل الهجوم الأول بالصواريخ الموجّهة «أهمية تحديد عملية عسكرية منطقية واضحة»، يمكنها أن تحدث تغييراً. في الوقت عينه، بلغت أزمة كلينتون الشعبية بخصوص لوينسكي ذروتها. وقد أصدر بعد أسابيع من إطلاق الصواريخ، مكتب المدعي الخاص، ما أصبح يعرف باسم «تقرير النجم»، كينيث ستار، يذكر فيه تفاصيل حول سلوك الرئيس شبه الإباحي.

لم يكن من المتوقع في ظل جوّ الصراعات السياسية والحالة الهستيرية التي نشأت عنها، أن يعود كلينتون إلى إطلاق جولة صواريخ موجّهة جديدة. لا يستطيع أن يتحمّل أي حسابات غير صحيحة.

وفي ظل ظروف العملية السرية التي تقوم بها «السي.آي.إيه.» في أفغانستان، برزت فرصة واعدة. ستساعد جهود الوكالة من خلال أعمالها السرية، على إلقاء القبض على بن لادن أو قتله، ليتجنّب كلينتون المشاكل السياسية التي ستنتج من حملة عسكرية، ولو محدودة، خلال أزمة الفضيحة الشخصية تلك. قام تينيت بإخبار لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ في جلسة سرية في 2 أيلول/سبتمبر، بأن «العامل الرئيسي» في استراتيجية «السي.آي.إيه.» السرية سيتضمن ضرب البنى التحتية لبن لادن، بالتعاون مع الاستخبارات «لتفكيك الخلايا وتنفيذ عمليات الاعتقال»، في خطة «لتجنيد المتعاملين معه، أو فضحهم»، وكذلك الضغط على قادة طالبان وبذل الجهود لتحسين «قدرتهم الخاصة لإلقاء القبض عليه»(742).

كانت هذه العملية، في بعض النواحي، تشبه حملة العمليات السرية التي حذّر منها تينيت. وخلال توليه إدارة لانغلي، كان تينيت حذراً من استخدام برامج عمليات «السي.آي.إيه.» السرية وسيلة بديلة للسياسات العلنية الفاشلة. غير أنه لاحظ للمرة الثانية، أن الرؤساء في التاريخ الأميركي يلجؤون إلى «السي.آي.إيه.» لحلّ مشاكلهم في السياسية الخارجية في السّر. وبقدر ما تمنّى كينيدي قبل عقود أن تحلّ «السي.آي.إيه.» مشكلته المتعلقة بفيديل كاسترو برصاصة فضية، يحتاج اليوم الرئيس كلينتون إلى أن تقوم «السي.آي.إيه.» بالمبادرة في قضية بن لادن. إلا أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة لتتقبل حرب أفغانستان الإقليمية الواسعة التي أصبح بن لادن لاعباً أساسياً فيها، كتحد جدي في السياسة الخارجية. تتطلب تلك الحرب اتخاذ مواقف ضد طالبان

ومواجهة من يدعمون الحركة داخل الاستخبارات الباكستانية، بالإضافة إلى العديد من التعقيدات الأخرى. لذلك من الأسهل أن تقوم «السي.آي.إيه.» بالتسلل إلى أفغانستان وتحميل بن لادن داخل كيس من الخيش.

عاد الأمير تركي إلى قندهار منتصف شهر أيلول/سبتمبر. رافقه نسيم رنا، رئيس الاستخبارات الباكستانية. وضابط من الاستخبارات الباكستانية من الباشتون للقيام بمهمة الترجمة(743). هبطوا مرة ثانية بالقرب من مزرعة تارناك، وتوجهوا عبر الصحراء إلى وسط المدينة. كان تركي يأمل أن تكون صدمة التفجيرات في أفريقيا وعداء الردّ الأميركي زعزعا موقف طالبان ودفعا الملا عمر إلى إعادة التفكير في احتساب ثمن استضافته بن لادن. وأصدر كلينتون خلال ذلك الصيف قراراً بتنفيذ أول مرحلة من العقوبات ضد طالبان، بتوقيع أمر تنفيذي بتجميد موجودات الميليشيا في الولايات المتحدة الأميركية. وبدا الأمير تركي مقتنعاً، أكثر من أي وقت مضى، بأن طالبان تستحق أن تستفيد من الجوائز الاقتصادية إذا تخلّت عن بن لادن.

أثناء احتسائهم الشاي، بدأ الأمير السعودي الحديث موضحاً أن الأميركيين لديهم إثباتات دامغة بأن بن لادن هو المسؤول عن التفجيرات في أفريقيا. قال الأمير تركي: «كنا بانتظارك. لقد قطعت علينا وعداً بأن تسلمنا بن لادن»(744).

احتال عليه الملا عمر. لم ير تركي الملا عمر بهذا الاضطراب مسبقاً. ويروي البعض أنه راح يغسل وجهه بالماء من شدة غضبه في محاولة لتهدئة أعصابه. كان عمر يسأله: «لماذا تفعل ذلك؟ تضطهد هذا المسلم الشجاع الجريء، وتضايقه؟». تابع وهو يتشدّق بالكلام، متوجهاً إلى الضابط من الاستخبارات الباكستانية الذي يترجم للأمير السعودي إهاناته إلى اللغة الإنكليزية. أضاف عمر: «لماذا لا تنضم إلينا لنتعاون ونحرر شبه الجزيرة العربية من هؤلاء الجنود الكفّار؟»(745).

وقف الأمير تركي غاضباً، وقال للملا عمر وهو يغادر المكان: «لن أستمع إلى المزيد من أقوالك. إن موقفك اليوم سيجلب الأذى ليس لك فحسب، بل لأفغانستان أيضاً»(746).

قامت المملكة العربية السعودية بعد أيام بسحب سفيرها من كابول. لكن، كما جرى في الحقب الماضية مع الاستخبارات السعودية والسياسة الخارجية، بدا افتراق تركي عن الملا عمر غامضاً بالنسبة إلى البيت الأبيض ولانغلي. ومشكوكاً في أمره أيضاً. كان نموذجاً من الاتصالات المتقطعة والمتبادلة غير الموثوق بها بين الحكومتين التي لم يعط الأمير تركي عنها أي تفاصيل إلى الأميركيين بعد عودته من قندهار. وخلال زيارة الأمير عبد الله إلى واشنطن، أخبر كلينتون وغور بمساعيه. وعلى الرغم من شعورهم بالريبة من الدوافع الأميركية، لا يزال السعوديون مقتنعين بوجود بعض الفائدة من تقاسم المعلومات الشفافة مع واشنطن. كانت وزارة الشؤون الإسلامية الدينية في المملكة والجمعيات الخيرية الدينية ورجال الأعمال المسلمون يديرون المبالغ

المخصصة للسياسة الخارجية، ويحوّلون مبالغ كبيرة للقضايا المفضلة بالنسبة إليهم في الخارج. وكان بعضهم يعتبر حركة طالبان وبن لادن
رفاقاً في الدين وأبطال اليوم أكثر من أي وقت مضى.

داخل وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب، ازداد التهكّم بالسعوديين. كان رئيس وحدة بن لادن، وهو محلل يعرفه زملاؤه باسم مايك، يدّعي بشدة أن «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض، أصبحا أسيري تحالفهما مع المملكة العربية السعودية والاستخبارات الباكستانية. كانت الولايات المتحدة في حرب ضد شبكة إرهابية خطيرة. وإذا شنّت تلك الحرب، فستكون كمن يضع ثقة كبيرة بحلفاء لا يمكن الوثوق بهم. يجب أن تتخلّى «السي.آي.إيه.» عن اعتمادها على علاقاتها تلك مع الاستخبارات الإسلامية الغامضة، مثل الاستخبارات الباكستانية، ومركز الاستخبارات السعودية العام. وإذا لم تفعل، فستدفع الولايات المتحدة و «السي.آي.إيه.» الثمن غالياً.

تعارضت حججه مع اعتقادات «السي.آي.إيه.» السائدة والممارسات الطويلة الأمد. وخشي بعض زملائه أنه يشن حملة صاخبة ضد السعوديين وباكستان إلى درجة سيعرض فيها منصبه في الوكالة للخطر(747).

# 23
# نحن في حرب

كانت مهمة «السي.آي.إيه.» تقضي بمنع وقوع أي هجمات مفاجئة. هذا ما اتفق عليه مجلس الأمن القومي وفروع الاستخبارات في البنتاغون ووزارة الدولة للشؤون الخارجية والـ «أف.بي.آي.» ومراكز أخرى. يمضي آلاف المحللين والتقنيين وخبراء الاتصالات وضباط العمليات الذين يعملون في مكاتب الاستخبارات معظم وقتهم في الموضوعات التحليلية السهلة، مثل المقاربات السياسية والعلمية. ولا تقوم سوى قلّة منهم بتقييم الأدلة الموثوق بها والمتعلقة بالتهديدات الفعلية للمنشآت الأميركية وحيوات المواطنين الأميركيين ونشرها. لقد تم تكريم هذه المجموعة البيروقراطية التحذيرية خلال الحرب الباردة لحماية الولايات المتحدة من ضربة نووية مفاجئة. وبحلول العام 1998، ركّزت اهتمامها على الأدلة التي حصلت عليها من أماكن مختلفة حول خطر الإرهاب. كان النظام عبارة عن شبكة أنظمة حاسوب سرّية، وأجهزة فاكسات ومعدات للمؤتمرات المصوّرة ووسائل اتصالات آمنة تربط بين السفارات الأميركية والقواعد العسكرية في أنحاء العالم، وبين المكاتب الحكومية داخل واشنطن، ومن حولها. وتؤمن الشبكة توزيع التقارير التحذيرية السرية بين «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض وإدارة الطيران الفدرالي وآلاف الوكالات الأميركية المحلية لتطبيق القانون بشكل سريع وآمن. أما قواعد كتابة تلك التقارير اليومية وتصنيفها وتوزيعها، فكانت محددة ومعمّمة على الجميع. يتم إرسال ما يسميه المحللون المعلومات «الخام» أو غير المنقّحة، مثل مخطوطات الاعتراض والملاحظات من تقارير التحقيقات، إلى لائحة من المحللين المحترفين، ثم يتم توزيع المنتج «النهائي»، الذي يُكتب ويحرَّر بعناية أكثر، برغم أنه يكون أحياناً شاملاً ومتجانساً، على صانعي السياسات.

كانت شبكة واسعة، ومتعبة، ومستهلكة للذات، وعلى درجة عالية من الحساسية، ومتنبّهة بشكل دائم. كانت مواقع الاستماع فيها تستجيب لأكثر الأدلّة عزلة وريبة على الهجمات المعلّقة. والمحللون متحمسون دائماً لتقاسم المعلومات على أوسع نطاق مع أولئك المطلعين على الموضوعات الأمنية. لقد علّم التاريخ المحترفين الذين يعملون داخل شبكة التحذيرات، بأنه حتى أسخف الأدلة يمكن أن تقدم فكرة لوقف هجوم مدمّر. لكن، بحكم الطبيعة الإنسانية، كانوا يرتكبون الأخطاء في ما يتعلق بحذرهم عند إعداد تقرير بالمعلومات التي سيعملون وفقها. لم يشأ أي محلل أن يكون الشخص الذي لا يأخذ في الاعتبار رسالة يمكن أن توقف تفجيرات إرهابية مثلاً. من جورج تينيت إلى اللغوي الأقل أجراً داخل مركز مكافحة الإرهاب، كان النظام موجهاً للاستماع إلى التحذيرات(748). لم تكن إدارة كاملة برأي بعض العاملين فيها، إلا أنها الطريقة الوحيدة للتأكد أن المجتمع الاستخباري يبذل أقصى جهده للكشف عن المفاجآت قبل وقوعها.

كانت العمليات اليومية في شبكة التهديدات والتحذيرات تسيطر على ردّ الحكومة الأميركية على تفجير السفارات في أفريقيا. في الواقع، لقد ضغطت الحكومة الأميركية على نظام تحذير حساس

بطبيعته. راحت «السي.آي.إيه.» تفتّش في دفاترها لجمع معلومات حديثة عن شبكة بن لادن وخططه الهجومية. كان مركز مكافحة الإرهاب ينشر تقارير التهديدات عبر قنوات الكترونية سرّية، ويرسل في بعض الأحيان، رسائل خاماً وبرقيات بمعدل اثنتي عشرة برقية أو أكثر في الساعة. كان البيت الأبيض يشجّع هذه التحذيرات. صُدم مساعدو كلينتون في مكافحة الإرهاب والأمن القومي من التفجيرات وشعروا بالخوف من وقوع هجمات أخرى. كان المسؤولون في البيت الأبيض يخافون أن يقوم بن لادن وأتباعه بزعزعة قوة الولايات المتحدة وهيبتها فعلاً، إذا ما أقدم السعودي الأصولي بن لادن على ضرب أهداف أميركية خلال أزمة معاقبة كلينتون. كان واجبهم حماية رئاسة كلينتون من كارثة، وكانوا يشعرون بأنهم منعزلون بسبب معلوماتهم المفصّلة والسرّية حول درجة ضعف بلادهم وحماسة الراديكاليين الإسلاميين(749).

لقد تصرّف النظام، بحسب الطريقة المُعَدّ لها. وأشارت تفجيرات أفريقيا إلى تهديد خطير مستمر، فعدّل نظام التحذير الحكومي نفسه إلى حالة الطوارئ القصوى. لقد تمكن بن لادن، بتعبير آخر، من تحقيق نصر تكتيكي عن غير قصد. لقد ساعد التركيز الأميركي الفوري على تقارير التهديدات والتحذيرات والدفاع، على تحديد المرحلة القادمة من الصراع وفقاً للطريقة المفضّلة عند بن لادن. وأصدرت القاعدة عدداً هائلاً من التهديدات غير المحددة. وبسببها، كان تخصيص الوقت والمال واليد العاملة في الأنظمة الحكومية المتعددة ذات الطابع الدفاعي. وبرغم ذلك، كان الخبراء متفقين على أن هذا النظام ليس مناسباً بأي شكل لصدّ الهجمات الإرهابية. ويعتقد بول بيلار، نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب «أن التركيز الشديد على نقل التهديدات اليومية، لا يدل على أن التهديد الحقيقي التالي يمكن عدم التبليغ عنه فحسب، بل يعني أيضاً تشتيت الانتباه والمصادر»(750).

كان العمل اليومي على التهديدات الإرهابية صعباً ومحبطاً ومعقداً أيضاً. وبعد مدة قصيرة من الهجمات على أفريقيا، أسس ريتشارد كلارك وحدة مؤلفة من المجموعة الأمنية المسؤولة عن مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض للتركيز على التقارير الإرهابية الواردة فحسب. كانت مراكز «السي.آي.إيه.» المختلفة في الخارج لإعداد معظم تلك التقارير، وإرسالها إلى مكتب بيلار في مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.». ووفقاً لأحد المشاركين، كانت سياسة المركز تقضي «بالتصرف حيال أي تهديد يصل إليهم». كانت برقيات التهديد تصل من «السي.آي.إيه.» إلى البيت الأبيض، مرفقة ببعض الملاحظات التي قد تثير الشكوك في قيمة التقرير أو مصداقيته. لكن عملاء «السي.آي.إيه.» في مختلف الإدارات، بدأوا يشعرون بأنهم يغرقون في التهديدات التي لم يتم تحريرها. وراح مساعدو كلارك يتذمرون من المعلومات غير المنقّحة التي ترسلها «السي.آي.إيه.» إلى كلينتون، ولاسيما في «التقرير الرئاسي اليومي»، ومن التحذيرات غير الموضوعية أحياناً التي تتضمنها لتحمي «السي.آي.إيه.» سمعتها في حال وقوع أي هجوم جديد. وكان مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» يشتكي من جهته، من رد فعل البيت الأبيض المرعب والمخيف حول تقارير غير خطيرة. كان يتم الضغط عليهم لتبادل المعلومات، ويتلقون بالتالي اللوم على تقديمهم الكثير منها(751).

لكن، لم يسمح أي من الطرفين لهذا الخلل بالتدخل في واجباتهما الفعلية للوصول إلى الحقائق. كانت حياة المواطن الأميركي على المحكّ. إلا أن العمل التحليلي، والرسائل الهاتفية المتقطّعة، يمكن أن تكون غير مجزية. كان عليهم اتخاذ قرارات معقدة وعملية في كل مرة يجتمعون فيها في «غرفة الأوضاع» في البيت الأبيض، أو يتحدثون عبر الخطوط الهاتفية الآمنة أو المؤتمرات المصورة. هل يأمرون «السي.آي.إيه.» بمراقبة مقاتل عربي مجهول لمجرد تسميته من قبل أسير مشتبه فيه في مصر؟ أم يأمرون سفارة الولايات المتحدة في روما بإقفال مكاتبها ليوم واحد بسبب الشك في وجود تهديد؟ وهل يطلبون إلى الخطوط الجوية المتّحدة إلغاء رحلة قادمة من باريس من دون تفسير السبب للركاب، بسبب مكالمة هاتفية أشارت إلى مسار هذه الرحلة؟ وإذا فشلوا في إلغاء الرحلة ووقع الهجوم، فكيف سيبررون صمتهم؟

يقول أحد مبادئهم «لا للمعايير المزدوجة». لا يمكن هؤلاء المطلعين على التهديدات السرية، مثل بيلار وممثليه في «السي.آي.إيه.» وستيفن سايمونز ودانييل بنجامين في مكتب كلار في البيت الأبيض، والضباط في البنتاغون والـ «أف.بي.آي.»، الاستناد إلى تقارير التهديدات في خطتهم ورحلاتهم ونشاطاتهم، ما لم يتم استخدامها لتحذير المواطنين كافة. يجب عليهم أن يقرّروا متى يعلنون تهديداً محدداً للمواطنين، ومتى يتخذون إجراءات أمنية ضيقة سرّاً بالتأكيد، كان حكمهم اليومي على تقارير التهديدات موضوعياً. فما من طريقة ليتأكد أي منهم من أن المتهم الذي يتم استجوابه يكذب، أم إذا كان ناشطاً إسلامياً يبلغ عن وقوع هجوم عبر الهاتف ليتباهى أمام صديقه فحسب؟ كانت قاعدة «لا للمعايير المزدوجة» تعطي حدساً قبل اتخاذ أي قرار محدّد. فإذا وصلهم تهديد بتفجير ساحة عامة مجهولة في لندن يوم السبت المقبل، وشعروا بأنه تهديد صادق، وسيمنعهم من زيارة أماكن مماثلة لو أنهم في لندن، فمن واجبهم عندئذ أن يُصدروا تنبيهاً عاماً. وإذا تم توجيه التهديد ضد سفارة أميركية، فسيفكرون في تنبيه الموظفين فيها بطريقة سرّية وأكثر تحديداً. وقد قاموا بإصدار عشرات من تلك التحذيرات علناً وسرّاً بعد تفجيرات أفريقيا(752).

كانوا يعلمون بأن بن لادن ومجموعته ينشران المعلومات الكاذبة لصرف انتباههم. واعتبروا أنهم سيشجعون حملة المعلومات الكاذبة تلك إذا ما استمروا في إقفال السفارات وإصدار التحذيرات. لكنهم لا يملكون خياراً آخر. يجب عليهم أن يجمعوا ما استطاعوا من معلومات، ويقيّموها، ويتصرفوا بطريقة دفاعية إذا تبيّن لهم أن هذه المعلومات موثوق بها.

بدت معظم تلك التهديدات خطيرة جداً. راحت «السي.آي.إيه.» تضغط على الأجهزة الأمنية الأوروبية والباكستانية والمصرية والسعودية وحكومات أخرى، لاتخاذ إجراءات بحقّ شركاء بن لادن المعروفين. كان التعاون متداخلاً، لكنهم تمكنوا من إلقاء القبض على عشرات المقاتلين، ومن بينهم الناطق الرسمي باسم بن لادن في لندن. وكشفت أجهزة الحاسوب والتسجيلات الهاتفية التي ضُبطت في تلك الحالات، عن توسّع انتشار الخلايا التابعة للقاعدة. ولاحظت «السي.آي.إيه.» وجود معدل من الإجرام والخبرة والمخيلة الواسعة عند بعض هؤلاء الموقوفين الإسلاميين، ولاسيما المثقفين العرب المقيمين في أوروبا، وكانوا يشبهون المجموعات الفلسطينية العلمانية التي كانت منتشرة في السبعينيات. غالباً ما كانت تبدو الروابط بينهم وبين بن لادن ضعيفة. وراحت تلك

الخلايا الإسلامية تزداد وحدة في تصميمها على تنفيذ الفتاوي التي أصدرها بن لادن والظواهري من أفغانستان ضد الأميركيين.

وسط مستنقع المعلومات هذا، تكمن أنماط مشؤومة. أحدها اهتمام عملاء بن لادن باستخدام الطائرات. وصدر في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1998، تقرير سرّي يحذّر من أنه في ضربة بن لادن المقبلة سيحلق عملاؤه بواسطة طائرة متفجرة فوق مطار أميركي، ويقومون بتفجيره. كما صدر تقرير آخر خلال ذلك الخريف، اتسم بالسرية ولم يتم كشفه للعلن، حول مؤامرة تتعلق بطائرات في نيويورك وواشنطن. وأحبطت السلطات التركية، في حالة ثالثة، في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، خطة لجماعة إسلامية تقضي بتفجير طائرة ملأى بالمتفجرات عبر اصطدامها بقبر مؤسس الدولة التركية الحديثة، كمال أتاتورك، خلال احتفال بمناسبة ذكرى وفاته. وتضمنت قاعدة البيانات السرية حول بن لادن وأتباعه التي تمتلكها الـ «أف.بي.آي.» و «السي.آي.إيه.» بعض التهديدات المتعلقة بأهداف في الملاحة الجوّية(753). كما أضيفت هذه المعلومات إلى الأدلة حول الهجمات الانتحارية بواسطة الطائرات وتفجيرها منذ تاريخ إلقاء القبض على رمزي يوسف في العام 1995. وعلى الرغم من ذلك، لم تركز المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب في اجتماعاتها مع مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.»، بأي شكل خاص، على الملاحة الجوية المدنية، أو المؤامرات العديدة التي تم كشفها، حيث أراد أتباعه خطف الطائرات وتحويلها إلى صواريخ موجّهة. كانت الملاحة الجوية هدفاً لعمليات إرهابية طوال ثلاثة عقود. وكانت التهديدات بالخطف وتفجير الطائرات بعمليات انتحارية جزءاً من السياق التحليلي سنين عديدة. كانت تقارير التهديدات ونمط هجمات بن لادن تركز بوضوح على نوع آخر من الأهداف، مثل السفارات والقواعد العسكرية. لو يملك كلينتون وتينيت وكلارك أي حسّ تحليلي، لوجّهوا قلقهم نحو أسلحة الدمار الشامل بسبب الأضرار البشرية والخسائر الاقتصادية التي قد تنتج منها. وخلال فصل الخريف، حذّرت عدة تقارير سرية من تخطيط بن لادن لهجمات جديدة من خلال تسميم الأطعمة والمياه والنطاق الجوي للسفارات الأميركية. كانت الملاحة الجوية من ضمنها، لكن لم تكن من الأولويات(754).

أثار اهتمامهم أيضاً في خلال ذلك الخريف، نمطاً آخر من التهديدات: كان واضحاً أن بن لادن يخطط لهجوم داخل الولايات المتحدة. في شهر أيلول/سبتمبر، أعدت «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.أي.» مذكرة مشتركة للمستشارين في الأمن القومي في إدارة كلينتون، بالبنى التحتية لممتلكات القاعدة في الولايات المتحدة، من ضمنها الأعمال الخيرية ومجموعات أخرى تعمل أحياناً كغطاء لنشاطات يُشتبه في أنها إرهابية. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر، وقعت المؤسسة الاستخبارية تقارير تفيد بأن بن لادن يعد لتأسيس خلايا للعمليات في الولايات المتحدة من خلال تجنيد مسلمين أميركيين ومغتربين عرب. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، ظهر تقرير سري جديد يفيد بأن خليّة بن لادن تحاول تجنيد مجموعة من خمسة أو سبعة شبّان من الولايات المتحدة، ونقلهم إلى الشرق الأوسط لتدريبهم. وعندما أعلنت «السي.آي.إيه.» تقديم مكافأة بقيمة 5 ملايين دولار مقابل أسر بن لادن، عرفت «السي.آي.إيه.» أن بن لادن أعلن بدوره مكافأة بقيمة 9 ملايين دولار مقابل اغتيال كل من الضباط الأربعة الأعلى مرتبة في «السي.آي.إيه.». كانت معظم تقارير

«السي.آي.إيه.» مبهمة، غير أن النمط لا يزال واضحاً. فقد جاء في مذكرة سرية في شهر أيلول/ سبتمبر صدرت عن «السي.آي.إيه.»، وتم إمرارها إلى أرفع المستويات في الولايات المتحدة، «أن المجتمع الاستخباري لديه مؤشرات قوية على أن بن لادن يجهّز للقيام بهجمات داخل الولايات المتحدة، أو ينوي رعايتها»(755).

في أفريقيا، طلب مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر إلى البنتاغون بعد تفجير السفارتين، وضع سفينتين حربيتين وغوّاصتين مجهزتين بحاملات صواريخ موجّهة، بالقرب من المياة الإقليمية العربية لدول الخليج، إلى جانب الساحل الباكستاني. وقد تم التكتم على هذا القرار السرّي إلى درجة أن بعض المدراء الكبار في «السي.آي.إيه.» لم يعرفوا بأمر الغواصات. تستطيع الصواريخ الموجّهة أن تلتف وتجتاز مئات الأميال وفقاً لمسار مبرمج مسبقاً لتصيب هدفها. وتقودها البرامج إلى الإحداثيات التي تحددها الأقمار الاصطناعية في مدارات ثابتة. كان البيت الأبيض يأمل أن يتمكن العملاء القبليون التابعون لـ «السي.آي.إيه.» في الأراضي الأفغانية، ولاسيما القبائل العاملة بالقرب من قندهار، من العثور على بن لادن وإعطاء الإحداثيات حول مكان اجتماعه أو إقامته مثلاً. لقد تم إدخال بعض الإحداثيات حول مخيمات بن لادن المعروفة، مثل المباني في مجمّع مزرعة تارناك ضمن ذاكرة أجهزة حواسيب الصواريخ على متن الغواصتين الأميركيتين. ويمكن تحديد أماكن أخرى بواسطة أجهزة الليزر لتحديد الأهداف التي يحملها فريق التعقب المتنقل، ومن ثم إرسالها بسرعة إلى الغواصتين كإحداثيات لنظام الملاحة العالمي لتحديد المواقع (جي.بي.أس.). لقد أوضح كلينتون لمساعديه في البيت الأبيض، أنه سيصدر أمراً بالهجوم إذا تمكنوا من الحصول على معلومات دقيقة حول مكان بن لادن. وباشر مكتب مكافحة الإرهاب بإدارة كلارك، التمارين مع البنتاغون، واكتشف عناصره أنهم يستطيعون اختصار المدة بين إصدار الأمر الرئاسي وإطلاق الصواريخ على أفغانستان إلى أربع ساعات. وعلى الرغم من ذلك، وفي حال قرروا إطلاق الصواريخ، يبقى سؤال مزعج: إلى أيّ حد يجب أن يتأكدوا من وجود بن لادن فعلاً في دائرة الهدف؟ وفي سياق خطته العسكرية - السياسية التي يدعوها «دليندا» (نقلاً عن اللغة اللاتينية، أي «التدمير»)، كان كلارك يرى أنه يجب تخطي محاولة القضاء على قيادة بن لادن، وضرب البنى التحتية لشبكته على نطاق أوسع. تتطلب خطة «دليندا» مقاربات دبلوماسية، وتطرح مشكلات مالية، وتستدعي عمليات سرّية داخل أفغانستان وضرب أهداف القاعدة وطالبان بشكل مستمر بواسطة الصواريخ. كانت بعض أفكار كلارك محور جدل دائم حول كيفية الضغط على بن لادن، إلا أن أحداً من المستشارين في مجلس الأمن القومي في إدارة كلينتون، لم يوافق على مقاربة الاستهداف العسكري.

ويقول نائب مستشار الأمن القومي جايمس ستينبرغ الذي يشارك بيرغر في رأيه المعارض لاقتراح كلاك الذي يقضي بمهاجمة مخيمات القاعدة أو البنية التحتية لحركة طالبان، إن «ضربة واسعة على أفغانستان لن تكون فوائدها كبيرة، وسترتد بهجمات على الولايات المتحدة». وبرغم ذلك، يصرّ كلينتون ومساعدوه على أنهم مستعدون لضرب بن لادن وقادته البارزين بالصواريخ إذا تمكنوا من تحديد موقعهم(756).

أرسلت «السي.آي.إيه.» في أواخر العام 1998، تقريراً إلى البيت الأبيض بالاعتماد على أحد عملائها، يفيد بأنه تم تتبّع بن لادن إلى قندهار. ووفقاً للتقرير، سيقضي بن لادن الليلة في منزل حاجي حبش، وهو جزء من مجمّع إقامة الحاكم. كما أبلغت «السي.آي.إيه.» عن وجود اثنين وخمسين صاروخ «ستينغر» مخبّأ في المكان. تستطيع بذلك الولايات المتحدة أن تقتل بن لادن والملا عمر وقادة آخرين في طالبان، وتدمّر الصواريخ أيضاً، فتصيب ثلاثة أهداف في الوقت عينه. أرسل شروين برقية من إسلام آباد يقول فيها: «اضربه الليلة. فربما لن نحصل على فرصة ثانية». قام المسؤولون عن مكافحة الإرهاب في الإدارة، ومن بينهم تينيت وريتشارد كلارك، بدراسة التقرير(757). وكشفت خريطة الأهداف أن المبنى الذي يتوقعون أن ينزل فيه بن لادن يقع بالقرب من جامع صغير. يعرف كلينتون جيداً من التجارب المريرة، أن الصواريخ الموجّهة يمكن أن تخطئ الهدف على الرغم من دقّتها المذهلة. عندما قام الرئيس بإطلاق صواريخ ضدّ مراكز الاستخبارات العراقية في العام 1993، وقع صاروخ قبل الهدف ببعض مئات الياردات وتسبب في مقتل إحدى أبرز الفنانات في العالم العربي. لم ينس كلينتون ذلك قط. واليوم، يخشى كلينتون ومن معه، وقوع صاروخ قبل الهدف أيضاً، يدمّر المسجد ومن فيه. لم يكن كلينتون مهتماً بعدد الضحايا المدنيين الذين سيُقتلون نتيجة الهجوم بالصواريخ الموجّهة في شهر آب/أغسطس، لأنه كان يشعر بأنهم يملكون فرصة حقيقية لقتل بن لادن، كما أخبر صديقاً له بعد سنين. أما اليوم، فتبدو فرص النجاح قليلة برأي كلينتون. فقد قال الرئيس إنه لن يسمح بأن يكون تخفيف عدد الضحايا المدنيين أولوية على حساب إلقاء القبض على بن لادن، إلا أنه يسعى إلى تحقيق الهدفين معاً إذا أمكن. وفي تلك المرحلة، كتب كلارك مذكرة قال فيها إن كلينتون أُجبر على الوثوق بمعلومات «السي.آي.إيه.» بنسبة 50 في المئة، مقابل احتمال وقوع حوالى 300 ضحية. وبعد منتصف العام 1998، غالباً ما كانت المجموعة الصغيرة تناقش هذين الموضوعين: احتمال وقوع ضحايا مدنيين، وعدم التأكد من مكان بن لادن.

قال تينيت إن المعلومات التي يملكها حول مكان بن لادن، تعتمد على مصدر واحد فقط، أي إنها تفتقر إلى مصدر آخر مستقل يدعمها. كانت «السي.آي.إيه.» تبحث عن تأكيدات حول مكان بن لادن، لكنها لم تحصل عليها. لكن، وفقاً لمذكرة «دليندا»، اعتقد كلارك أنهم يجب أن يطلقوا الصواريخ في جميع الأحوال. وشعر بأنهم إذا لم يصيبوا بن لادن، فبإمكانه التصريح للشعب أنه كان يستهدف حركة طالبان و «البنية التحتية للقاعدة» و «مخيمات تدريب الإرهابيين»، بسبب تهديدها المتواصل. إلا أن كلينتون لم يكن متحمساً لتفجير مخيمات طالبان والقاعدة التي وصفها هاغ شيلتون بـ «النوادي البدائية». إذا كان احتمال قتل بن لادن وقادته الكبار، ضئيلاً، فاستهداف بن لادن، وتفويت الهدف، سيسيئان إلى الولايات المتحدة، برأي كلينتون(758).

قام بيرغر بإخبار زملائه بأن ثمن الهزيمة سيكون باهظاً. ففي كل مرة تطلق الولايات المتحدة أحد صواريخها الباهظة الثمن على بن لادن، وتفشل في استهدافه، تضعف صورة الولايات المتحدة، برأي بيرغر الداعم لوجهة نظر كلينتون. ويقول بيرغر: «إذا قمنا بضرب المخيمات من دون إصابة قادة بن لادن الكبار، فسيؤدي ذلك إلى إضعاف صورة الولايات المتحدة وتقوية بن لادن»(759). لم يطلب بيرغر إلى تينيت و «السي.آي.إيه.» معلومات أكيدة بنسبة مئة في المئة

حول موقع بن لادن، بل كان معياره لاتخاذ قرار بإطلاق الصواريخ هو وجود احتمال «مهم» و «كبير» للنجاح. لكن، هل كانت «السي.آي.إيه.» تستطيع أن تعد حتى بهذا القدر؟(760).

قام تينيت بإبلاغ المجموعة أنه لا يملك مصدراً آخر، ولا ينصح بإطلاق الصواريخ. وكان يعتمد على آراء العديد من مساعديه الكبار في «السي.آي.إيه.» والقادة من البنتاغون. لا تزال الغواصتان عند السواحل الباكستانية في حالة استعداد. لقد كتب رئيس وحدة بن لادن إلى غاري شروين: «أنا متأكد أننا سنندم على عدم شن الهجوم الليلة الماضية». فأجابه شروين: «نعم، كان يجب أن ننتهي منه الليلة الماضية». وبمرور الوقت، أصبحت «السي.آي.إيه.» تطارد شبحاً متنقلاً.

أصدر كلينتون بالإضافة إلى الغواصتين، مذكرة سرية جداً، «مذكرة تبليغ»، بعد أيام على تفجير السفارتين تسمح لعملاء «السي.آي.إيه.» باستخدام قوة السلاح إذا لزم الأمر، في محاولة القبض على بن لادن وأيمن الظواهري وقادة القاعدة الآخرين. كان كلينتون ينظر إلى قيادة بن لادن بطريقته الخاصة. كان يعتقد أن الظواهري شخص «على قدر مساو في الذكاء لبن لادن، لكن لا يتمتع بشخصيته القوية، برغم أن الاثنين عديما الرحمة». لا يزال الطبيب المصري عالقاً في ذاكرة كلينتون كأحد المتواطئين في عملية اغتيال أنور السّادات، الذي يعدّه كلينتون أحد الأشخاص التقدميين النادرين في الشرق الأوسط. ومنحت مذكرة كلينتون السلطة القانونية لعمليات «السي.آي.إيه.» السرية التي تستهدف إلقاء القبض على عدد من قادة القاعدة لإعادتهم إلى الولايات المتحدة، وتقديمهم إلى المحاكمة بتهم فدرالية بالإرهاب والقتل(761).

لقد أضافت المذكرة خصائص جديدة إلى برنامج عمليات «السي.آي.إيه.» الموافَق عليه سابقاً. تملك الوكالة السلطة القانونية لإعاقة عمل الإرهابيين وإلقاء القبض عليهم بموجب القرار الرئاسي الصادر في العام 1986 الذي قضى بتأسيس مركز مكافحة الإرهاب. وستشجّع أي نتيجة جديدة الخطوات البيروقراطية والمالية والقانونية المعقّدة كافة. ومن الأفضل، إذاً، استخدام المذكرة لتعديل السلطة القانونية التي يمتلكها المركز وتحديدها بشكل أفضل.

انتقل عمل المحامين في الحكومة بحلول العام 1998، إلى نظام التجسس والعمليات السرية. وعقب فضيحة «إيران - كونترا»، أعطى البيت الأبيض صفة جديدة لمستشار الأمن القومي الرئاسي، هي رئيس المجلس القانوني. كان هذا المكتب، الذي ترأّسه جايمي بايكر في فترة تفجير السفارتين في أفريقيا، يشغل جناحاً في الطابق الثالث من «مبنى المكتب التنفيذي القديم»، بالقرب من مستشار البيت الأبيض في السياسة الاستخبارية. كان بايكر يدير لجنة سرية داخل الوكالة تضم محامين ينصّون النتائج الرئاسية والمذكرات، ويقومون بدراستها والموافقة عليها، ويمضون ساعات طويلة في العمل على قضايا قانونية غير ملحوظة تبرز في برامج العمليات السرية الأميركية التي يستخدم فيها السلاح: متى يعتبر استهداف شخص عملية قتل، وليس عملية اغتيال؟ متى يجوز قتل متهم أثناء محاولة القبض عليه؟(762).

كانت أسئلة كثيرة من هذا النوع تُطرح في سياق برنامج «السي.آي.إيه.» السري لملاحقة بن لادن والقبض عليه في أفغانستان. أراد مدراء «السي.آي.إيه.» الكبار كافة، أن يوضّح المحامون ما يجوز وما لا يجوز فعله، من تينيت وصولاً إلى الموظفين الأقل شأناً. أرادوا كتابة قوانين الالتزام خطّياً وتوقيعها من الرئيس ليطمئنّ كلّ ضابط في «السي.آي.إيه.» يسلّم مسدساً أو خريطة إلى عميل أفغاني، إلى أنه يعمل بشكل قانوني(763).

هذا هو دور المذكرة. تتألف من حوالى سبع إلى ثماني صفحات مكتوبة في شكل مذكرة قرار رئاسي تحمل توقيع كلينتون. بدأت مذكرة آب/أغسطس من العام 1998، بما أطلق عليه المحامون «المسنَد»، أو التصريح الذي يشرح كيف هاجم بن لادن ومساعدوه الولايات المتحدة. كما أنه يشير إلى نتائج عمليات إلقاء القبض عليهم، السّرية، ويحللها. وأوضحت المذكرة أن الرئيس يدرك المخاطر الناتجة من تكليف «السي.آي.إيه.» عمليات سرية. فأي عملية اعتقال سرّية في أفغانستان قد تفشل وتودي بحياة العملاء أو المدنيين. كما يمكن أن تتعرض العلاقات الدبلوماسية الأميركية للمصاعب، إذا فشلت العمليات أو كُشف أمرها. ومن المواضيع التي تطرقت إليها المذكرة، موضوع الخسائر المدنية. لقد كانت هذه العبارة النموذجية التي تدعو إلى «بذل أقصى الجهود» من قبل «السي.آي.إيه.» لتفادي وقوع أي خسائر بين صفوف المدنيين(764).

تلحظ المذكرة أحد المواضيع الحساسة المتعلقة بالسماح باستخدام القوة المميتة. كان يجب على المحامين أن يوضّحوا لـ «السي.آي.إيه.» خطّياً، أنه يجوز لهم إطلاق النار على بن لادن أو حرّاسه الشخصيين، ما دامت هذه القوّة تُستخدم للدفاع عن النفس، وفي سياق محاولة شرعية لتنفيذ عملية اعتقال. فقد صرّح كلارك لاحقاً: «نريد أن نوضح للضباط والعملاء أننا نفضل تنفيذ عملية اعتقال، لكننا ندرك أنه أمر مستحيل». وعقب تفجير السفارتين في أفريقيا، أراد البيت الأبيض، كما أصرّ على الأمر مساعدو كلينتون في مجلس الأمن القومي، تشجيع «السي.آي.إيه.» على تنفيذ عملية لا تثير الشكوك والمشاكل للوكالة. إلا أن مساعدي كلينتون رفضوا كتابة التفويض كي لا يتم تفسيره على أنه رخصة مطلقة للقتل. ولسبب من الأسباب، أشارت وزارة العدل إلى أنها ستعارض هذه المذكرة إذا تم تقديمها إلى كلينتون للتوقيع. كانت اللغة المستخدمة في المذكرات، في سياق تعقّب بن لادن، غامضة ومبهمة في غالبية الأحيان. يجيز الأسلوب المتّبع لـ «السي.آي.إيه.» «الاعتقال باستخدام
قوة السلاح كما ينص القانون»(765). كان هذا النوع من العبارات المبهمة يترك فراغاً في داخلهم. كان بعض ضباط «السي.آي.إيه.» والمراقبين يقرأون مذكراتهم، ويحذرون من اتهامهم بالتصرف خارج نطاق المذكرة، إذا فشلت العملية في أفغانستان.

وبمرور الوقت، كثرت الاتهامات المتبادلة بين «السي.آي.إيه.» والبيت الأبيض. واعتاد المساعدون الكبار في مجلس الأمن القومي رؤية «السي.آي.إيه.» على درجة كبيرة من الحذر، ومكبّلة بالخوف من المخاطر السياسية والقانونية. لكنهم لم يكونوا وحدهم في هذا الجوّ. بعد ستة

أسابيع على تفجير السفارتين في أفريقيا، أعلن الضابط السابق في «السي.آي.إيه.»، بورتر غوس، الذي دخل الكونغرس وترأس لجنة الاستخبارات في البيت الأبيض، أن مديرية العمليات أصبحت «شديدة الحذر بما يتعلق باستخدام الأسلحة». وفي ذلك الوقت، كتب رئيس المفتشين السابق في «السي.آي.إيه.» فرِد هيتز، أن «السي.آي.إيه.» «أصبحت بحاجة إلى استعادة روح الفريق الذي تجلى خلال ذروة الحرب الباردة»(766). شاع هذا الانتقاد في أرجاء لانغلي. ولاحظ الضباط في المراتب المتوسطة أنهم طوّروا عملية الخطف من مزرعة تارناك بأنفسهم حتى قبل تفجير السفارتين في أفريقيا، لكن، تم رفضها. شعر مدراء «السي.آي.إيه.» الكبار بأن مساعدي كلينتون في البيت الأبيض، بشكل خاص، يفضلون هذين الاتجاهين. يريدون إلقاء اللوم على «السي.آي.إيه.» لافتقارها إلى العدائية، برغم أن المحامين في البيت الأبيض كانوا يكتبون تفاويض العمليات السرّية الملأى بالكلمات الملتوية. لقد حكم على مدراء «السي.آي.إيه.» عبر التاريخ بقراءة نتائجهم ومذكراتهم حرفياً. عندما تكون كلماتهم مبهمة، كانوا يوصون ضباطهم بالتزام الحيطة والحذر خلال العملية.

عكست المذكرات القانونية السرية غموضاً واسعاً لسياسة كلينتون السرية تجاه بن لادن، خلال ذلك الخريف. غير أن التساؤلات في مجلس الأمن القومي و «السي.آي.إيه.» لم تكن كثيرة، حيث يجوز قتل بن لادن ومساعديه الكبار بموجب القانون الأميركي، أقله بعدما أشارت الأدلة إلى أنه كان المسؤول عن التفجيرات في أفريقيا. وقد قرر سرّاً، المستشار القانوني في وزارة العدل، أن منع الاغتيال المنصوص عليه في القانون التنفيذي الرقم 12333، ينسحب على الأهداف العسكرية(767). كانت مزرعة تارناك والمعسكرات التدريبية الأخرى، تُعتبر أهدافاً شرعية بموجب هذا التعريف، برأي المحامين. وبالإضافة إلى ذلك، لا ينطبق منع الاغتيال على أي هجوم يتم تنفيذه من مبدأ وقائي دفاعاً عن النفس، حيث يبدو جلياً أن الهدف يهيأ لضرب الولايات المتحدة. ولا شك في أن هذا المعيار ينطبق على بن لادن. لذلك، بموجب القانون الأميركي، يمكن أن يُصدر كلينتون مذكرات لا تشير إلى إلقاء القبض على بن لادن أو أسره أو محاكمته بشكل مباشر. يمكنه أن يسمح للوكالة قانونياً بتنفيذ عمليات سرّية بغية قتل بن لادن والظواهري وقادة آخرين في القاعدة فحسب.

لكن كلينتون لم يسلك هذا الطريق. كانت المدعية العامة، جانيت رينو، التي لا تروق كلينتون كثيراً، تعارض المذكرات التي تسمح بشن عمليات بقوة السلاح ضد بن لادن من قبل «السي.آي.إيه.». كان موقف رينو الذي تم التعبير عنه في مجلس المحاماة السّري برئاسة جايمي بايكر، وفي اتصالات أخرى مع مجموعة ريتشارد كلارك لمكافحة الإرهاب، معقّداً وغامضاً، وفقاً لمسؤولين على اتصال بالمدعي العام ومساعديه. أخبرت البيت الأبيض بأنها ستوافق على توجيه ضربات بقوة السلاح ضد بن لادن. أصدر السعودي تهديداً بتنفيذ هجوم «وشيك» على الولايات المتحدة. لكن ما معنى كلمة «وشيك»؟ قال كلارك إن التقارير المتعلقة بتهديد بن لادن، أوضحت أن القاعدة تفكر في شن هجمات، لكن من المستحيل التأكد من توقيت عمليات بن لادن المحددة، ومكانها. وافقت رينو على أنه لا يمكن توقع الهجمات المحددة، لكنها جددت أحياناً اعتراضها

الشخصي على التصريح باستخدام قوة السلاح، عندما لا تتحقق مباشرة تحذيرات كلارك من الضربات.

كان رأي رينو مهمّاً، لأن مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر يسعى إلى الحصول على إجماع داخل الإدارة حول صيغة تعليمات «السي.آي.إيه.». وعلى الرغم من اعتقادهم أنهم يقفون على أرض صلبة، لم يتوافق الأسلوب الذي عملوا به شهراً بعد شهر، ومذكرةً بعد مذكرة، مع قرار منع استخدام الاغتيال الصادر عن البيت الأبيض. لا يريدون أن تجمع رينو حولها المعارضين لقرارات كلينتون المتعلقة ببن لادن في هذا السياق. ووسط فوضى الفضيحة، لم يرغب أي منهم في قراءة العنوان الرئيسي في الصحف باكراً: المدعية العامة تعترض على خطط كلينتون المتعلقة باغتيال الإرهابيين. لذلك، عمل جايمي باكر وفريقه على صوغ الأسلوب وتعديله مرات عديدة ليتناسب مع شكوك رينو. واعترف أحد المسؤولين الكبار المطلعين في البيت الأبيض، بأن تلك الصيغ التوافقية كانت غالباً ملتوية و «تلمودية».

كانت سياسة الرئيس السرية، التي صنعها ساندي بيرغر ونائبه جايمس ستينبرغ وريتشارد كلارك، ومجلس الأمن القومي، تهتم بشكل عام، بهدفين مختلفين في الوقت نفسه. فمن جهة، لقد أمروا غواصات مجهزة بصواريخ موجّهة لتجول على تخوم المياه الإقليمية لدول الخليج العربي. كانوا يأملون استخدام الغواصات لقتل بن لادن إذا تمكنوا من العثور عليه، لكن انتظارهم سيطول لشنّ تلك الضربة. ومن جهة أخرى، سمحوا لـ «السي.آي.إيه.» بتنفيذ عمليات، على الأقل نظرياً، لخطف بن لادن حياً. راحت المجموعة الصغيرة تتجادل، وفقاً لمادلين أولبرايت، «إذا كان يجب أن يعتبروا هذه التصاريح، تنفيذاً للقانون، تتطلب رداً قضائياً أو عملية عسكرية حيث يجوز استخدام القوة المسلحة. قررنا أن الأمرين ينطبقان معاً». وقال وليام كوهين إن الجدل حول الحرب مقابل تطبيق القانون كان «خياراً غير صحيح». يجب استخدام الوسائل كافة في القوة الأميركية في الوقت نفسه.

عكست هذه السياسة المزدوجة، انقساماً داخل إدارة مجلس الأمن القومي. فقد استرسلت المدعية العامة جانيت رينو ومدير الـ «أف.بي.آي.» لويس فريه، وأشخاص آخرون في وزارة العدل، في نظرية تطبيق القانون على الإرهاب. ركّزت السياسة الأميركية حيال مكافحة الإرهاب، منذ العام 1986، على تقديم الإرهابيين إلى المحاكمة. وعلى الرغم من أن قتل بن لادن سيكون شرعياً بموجب القانون الأميركي، فقد أبدى بعض الأشخاص في وزارة العدل والبيت الأبيض عدم ارتياحهم لهذه النظرية. ربما قد تؤدي إلى نتائج غير متوقّعة. كانوا على استعداد لدعم الهجوم بالصواريخ الموجهة في شهر آب/أغسطس فوراً بعد نتائج تفجير السفارتين.

كانت توجد علاقة نسبية بين تلك الهجمات. لكن اليوم، يفضل بعضهم عملية إلقاء القبض على بن لادن عوضاً عن شن حرب على نطاق ضيّق(768).

كان كلينتون نفسه يميل إلى الاتجاهين. يبدو الرئيس من خلال تصرفاته وقراراته، أنه يميل إلى استخدام القوة المسلحة ضد بن لادن والظواهري، شرط أن تكون ضربة مؤكدة. ويروي أحد مساعديه «أن رغبة كلينتون في قتلهما كانت واضحة». لكنه لم يلتزم هذا المبدأ دائماً. ففي المذكرة الأولى التي وقّعها في صيف العام 1998، سمح بالقيام بعمليات سرّية تهدف إلى محاكمة بن لادن ومساعديه. وربما تم استخدام الأسلوب المبهم للحصول على دعم جانيت رينو، لكن توقيع كلينتون هو المحفور على المذكرة. لذلك، سمحت مذكرة الرئيس الثانية بقتل بن لادن وفقاً لعدد صغير من الظروف الافتراضية من دون تجاوز الأمر العام في المذكرة الأولى.

خلال ذلك الخريف، في أحد اجتماعات المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب برئاسة ريتشارد كلارك، قاموا بمراجعة المعلومات المتعلقة بتحركات بن لادن داخل أفغانستان. في بعض الأحيان، يسلك الطريق في مواكب «لاند كروزر» مدجّجة بالسلاح. وأحياناً أخرى، يطير بالهليكوبتر والطائرات التي تملكها القاعدة بالاشتراك مع قوة طالبان الجوية الصغيرة. كانت «السي.آي.إيه.» تتلقى تقارير دورية من فريق التتبع القبلي ومصادر أخرى حول رحلات بن لادن الجوية. أرادوا التأكد من أن عملاءهم يستطيعون إطلاق النار على هليكوبتر أو طائرة إذا عرفوا بوجود بن لادن على متنها. كما أمر البنتاغون في أواخر العام 1998، بإجراء عمليات لإعاقة طائرة القاعدة. لا تشمل المذكرة الصادرة عملية إسقاط الطائرة، لأنها لن تؤدي إلى أسر بن لادن أو إلقاء القبض عليه. كما أن هذا الهجوم سيخرق المعاهدات الدولية حول خصوصية المجالات الجوية. وغالباً ما أثارت هذه المسألة قلق المحامين في مجلس الأمن القومي: تُعتبر العملية السرية قانونية بموجب قانون الولايات المتحدة المحلّي، لكنها قد تخرق المعاهدة الأميركية الملزمة في الخارج. ومن ناحية أخرى، أصدرت الولايات المتحدة قوانين تعتبر خرق أي معاهدة جريمة محلية. قد تجيز المذكرة ارتكاب الجرائم في الخارج، إلا أنها تعرّض ضابط «السي.آي.إيه.» شخصياً لخطر قانوني داخل الولايات المتحدة(769).

قدّم مكتب جايمي بايكر مذكّرة جديدة تحتاج إلى توقيع كلينتون. ستسمح لـ «السي.آي.إيه.» أو البنتاغون بإطلاق النار على الهليكوبتر أو الطائرة التي يستقلّها بن لادن في ظروف خاصة. لم تتضمن المذكرة أي ادعاء بإلقاء القبض على بن لادن أو محاكمته. قام كلينتون بتوقيعها.

سمح الرئيس لـ «السي.آي.إيه.» بأسر بن لادن ومحاكمته... وفي سياق آخر، بقتله. انقسمت خطط البنتاغون بالتساوي: صدر مرسوم في شهر كانون الأول/ديسمبر لدراسة خيارات إلقاء القبض على قادة القاعدة ونقلهم من قندهار، بينما ركّزت خطط أخرى على احتمال شن ضربات جوية حازمة. كان بعض مدراء «السي.آي.إيه.» يرون أن تعليماتهم من البيت الأبيض، قانونية ومقيّدة وغامضة. كانت مسودة التعليمات البسيطة التي يرسلونها من لانغلي إلى البيت الأبيض تعود إليهم ملأى بالجمل المجردة التي تحتمل عدة تفسيرات. وبحسب ما يذكر أحد الضباط المطلعين، «لم تتلق «السي.آي.إيه.» أي أمر خطّي أو شفهي للقيام بعملية مسلّحة. كان الهدف

محاكمة ذلك الرجل». وبموجب صلاحياتها المعطاة من البيت الأبيض، كان يجب على «السي.آي.إيه.» أن تقوم بتجنيد عملاء جدد «للإمساك ببن لادن ونقله إلى مكان آمن، ومن ثم تسليمه إلى الـ «أف.بي.آي.». رأى مدراء «السي.آي.إيه.» فرقاً كبيراً بين أسلوب كتابة مذكرة آب/أغسطس 1998، والعملية المسلحة. ويتابع الضابط قائلاً: لو أنهم ذكروا صراحة «العملية المسلحة» لاختلف الأمر كثيراً، ولأصبحت المسائل أسهل. يُعتبر التخطيط لعملية اعتقال بن لادن ومراقبته داخل أفغانستان، وتسليمه إلى عملاء الـ «أف.بي.آي.» ونقله إلى الولايات المتحدة، أكثر تعقيداً من التخطيط لضربة مسلّحة. وأشار أسلوب كلينتون في مذكراته المتعلقة ببن لادن، والمرسلة إلى لانغلي، إلى موضوع القوة المسلحة. ونصّ أوّل ملف بعد تفجير السفارتين على السماح لعملاء «السي.آي.إيه.» القبليين باستخدام السلاح خلال عملية الأسر في حالة الدفاع عن النفس فحسب. وأخبروا العملاء القبليين بأنهم لن يتلقوا أجرهم إلا إذا قاموا بإلقاء القبض على بن لادن، وليس بقتله. وفي نهاية العام 1998، بدّل كلينتون رأيه، ووافق على الدفع لهم في كلتا الحالتين، شرط ألا يقوموا بإعدام السجناء أو انتهاك القوانين. صدرت مذكرة جديدة في تلك الفترة سمحت أيضاً لعملاء «السي.آي.إيه.» بقتل بن لادن إذا تبين أن إلقاء القبض عليه غير ممكن. وبرغم ذلك، وقّع كلينتون لاحقاً مذكرتين سرّيتين حول العمليات ضد بن لادن تستخدم أسلوباً متسامحاً. أفسدت هذه التغييرات أخلاق ضباط «السي.آي.إيه.»، وشجّعتهم على الاعتقاد أنهم مع حلفائهم الأفغان، يمكنهم الاعتماد على الاختلافات القانونية(770). ورأى المساعدون في البيت الأبيض أن التعليمات يجب أن تنص بشكل واضح على ملاحقة «السي.آي.إيه.» لبن لادن ومجموعته القيادية، وقتلهم إذا لزم الأمر. كان الهدف الصريح في مذكرة شهر آب/أغسطس هو إلقاء القبض على بن لادن وتقديمه إلى المحاكمة، لكن المساعدين في البيت الأبيض يعتقدون أنهم كتبوا الملف ليسهّلوا عمل «السي.آي.إيه.» في قتل بن لادن أثناء عملية الأسر. يدرك الجميع، ومن بينهم مدراء «السي.آي.إيه.» والمحامون، أن بن لادن وحرّاسه سيقاومون عملية الأسر فعلياً. لقد كانوا مجاهدين ملتزمين. ربما يفضلون الموت، ويُقْدمون عليه، قبل إلقاء القبض عليهم. وبموجب سلطات البيت الأبيض، وحالما يردّ رجال بن لادن على إطلاق النار، يمكن عملاء «السي.آي.إيه.» القبليين أن يقتلوهم فوراً. وبمرور الأشهر، وكتابة العديد من المذكرات، تغيّر أسلوب تفويض «السي.آي.إيه.»، برغم أنه لا يزال غامضاً، وسمح باستخدام قوة السلاح. في البداية، تم السماح لـ «السي.آي.إيه.» باستخدام قوة السلاح في محاولة شرعية لأسر بن لادن أو أحد مساعديه الكبار فحسب. وسمحت المذكرة لاحقاً بتنفيذ عملية خطف أو هجوم مسلّح إذا تعذّر تنفيذ عملية إلقاء القبض.

اعتقد مساعدو كلينتون أن مدراء «السي.آي.إيه.» كانوا يستغلّون المسائل القانونية كخدعة. ويروي أحد الضباط في البيت الأبيض، أن الوكالة كانت تعتقد، بموجب المذكرة، «أنها لن تنفّذ العملية إلا في حال وجدوه يسير وحيداً، وغير مسلّح، ويضع لافتة تقول «أنا أسامة». كنا قلقين بشأن وجود أشخاص كثر في لانغلي لا يرون سوى السلبيات، ومن عدم وجود كثيرين متحمسين لتنفيذ العمل». وعلى الرغم من ذلك، كان قادة «السي.آي.إيه.» والمحامون أيضاً يفسّرون تعليماتهم بالطريقة نفسها: كأمر إلقاء القبض وليس القتل، إلا في ظروف معيّنة(771).

ويتذكر لاحقاً ساندي بيرغر استياءه من الجدل غير المعلن، المحصور أحياناً ببعض الضباط والمحامين حول التوضيحات الأمنية المناسبة: «لا شكّ في أن الصواريخ الموجّهة لن تقبض عليه. لم يكن هناك تقنيات لتطبيق القانون. قال بيرغر إن «مدير «السي.آي.إيه.» أو أي شخص آخر لم يقم بإبلاغه أو إبلاغ الرئيس بأي التباس واجههم»(772). يحتاج البيت الأبيض إلى «معلومات موجبة لإقامة دعاوى قانونية» حول مكان بن لادن بالتحديد. اعتمدوا على «السي.آي.إيه.» للحصول عليه. اعتقد بيرغر أن الوكالة لديها سلطة واسعة لتدفع عملاءها القبليين إلى العمل.

أصبحت التوترات مزمنة، ولن تُحَلّ قريباً.

خلال الأسبوع نفسه الذي قام به عملاء بن لادن بتفجير السفارتين في أفريقيا، تمكّن مقاتلو الملا عمر في حركة طالبان، الذين امتلأت صفوفهم بالمتطوعين الجهاديين من المدارس الباكستانية والضباط في الاستخبارات الباكستانية، من الفوز أخيراً بجائزتهم في شمالي أفغانستان: مدينة مزار الشريف الواسعة. وفي مكالمة هاتفية لرئيس مكتب الاستخبارات الباكستاني الكولونيل إمام، الذي كان شريكاً مقرّباً من «السي.آي.إيه.»، تم كشفها في ذروة المعركة، قال: «أجول أنا ورجالي في مزار الشريف»(773).

قال مسعود لرجاله أثناء اجتماع عسكري، إن القادة والمدافعين عن مزار، المتحالفين مع أحمد شاه مسعود، استسلموا لرشى الضباط الباكستانيين. أعلن مسعود أن سيّد الحرب المحلي الرئيسي، عبد المليك، «سلّم مدينته مقابل حفنة من الدولارات»(774). لا يزال مسعود وعناصر ميليشياه يتحكمون في مدينة تالوكان الشمالية، إلا أنهم راحوا يُحاصَرون في زاوية ضيقة شيئاً فشيئاً.

بعد أسابيع على تفجير السفارتين، كتب مسعود رسالة إلى مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة طالباً إليه المساعدة في حربه ضد حركة طالبان والاستخبارات الباكستانية وبن لادن. وبعد طرد القوات السوفياتية، كتب مسعود: «نحن الشعب الأفغاني تم إدخالنا في زوبعة من المؤامرات الخارجية، والخداع، ولعبة بين القادة السياسيين والنزاع الداخلي... نحن الأفغان أخطأنا أيضاً. وأخطاؤنا نتيجة براءتنا السياسية وعدم خبرتنا وضعفنا والتضحية بنا والمشاحنات والأنانية المتزايدة. إلا أن ذلك كله لا يبرّر ما فعله بعض الذين يدعون أنهم حلفاؤنا في الحرب الباردة للاستخفاف بهذا النصر». وكتب مسعود أن الباكستانيين والحلفاء الإسلاميين العرب حشدوا قوة عسكرية وشبه عسكرية مؤلفة من 28 ألف مقاتل في الأراضي الأفغانية لمساعدة طالبان على الانتصار في فتحها. تم تسليم أفغانستان إلى «المتعصبين والمتطرفين والإرهابيين والمرتزقة ومافيات المخدرات والقتلة المحترفين». يجب أن تساعده أميركا على تسليمهم. طلب إليهم مسعود أن تتوقّف واشنطن عن اعتمادها الضعيف على باكستان في صوغ سياساتها الأفغانية(775).

لكن إدارة كلينتون، ولاسيما الدبلوماسيون في وزارة الدولة، شعروا بالازدراء من مسعود والتماسه. ومع سقوط مزار، بدت طالبان أكثر من أي وقت مضى، قوة لا تُقهر داخل أفغانستان. نصحت مادلين أولبرايت ومساعدها توم بيكرنغ والخبراء الإقليميون في مكتب جنوبي آسيا داخل وزارة الخارجية، الإدارة بالاستمرار في سياسة الالتزام الدبلوماسي مع حركة طالبان. وقالوا إنهم سيمارسون الضغوطات على الملا عمر، ويعدونه بالمساعدات المستقبلية لإقناعه بالتخلي عن بن لادن. وراحت سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد تروّج هذه الحجة في برقياتها إلى واشنطن. كان معظم الدبلوماسيين في وزارة الخارجية، يعتبرون أحمد شاه مسعود قوة متلاشية، تتزود الأسلحة من إيران، وتعتمد على تجارة الهرويين كمدخول أساسي. وكان البعض في وزارة الخارجية، ومن بينهم إندرفيرث، يعتقدون أن بقاء مسعود قوة عسكرية في شمالي أفغانستان مهم لصدّ طموحات حركة طالبان الإسلامية في عبور الحدود في اتجاه وسط آسيا. لكن أولبرايت وجميع الموظفين في وزارة الخارجية، كانوا متفقين على أنهم غير مستعدين للانضمام إلى حملة مسعود العسكرية ضد طالبان(776).

حاول الدبلوماسيون في وزارة الخارجية إقناع قادة طالبان بأن الولايات المتحدة لا تعتبرهم أعداءها، وبأنها تستهدف بن لادن وقادته العرب فحسب. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر، أوضح لهم إندرفيرث أن الهجوم بالصواريخ في شهر آب/أغسطس «لم يكن يستهدف أفغانستان أو طالبان، وأن طالبان يجب أن تفهم أنها ستصبح مشتركة ومتورطة في الأعمال الإرهابية التي يرتكبها هؤلاء من خلال إيوائهم». لكن لا تزال أمام حركة طالبان فرصة لتغيير مسارها. وراح إندرفيرث يرجو طالبان للتجاوب معهم. «لأنها إذا رفضت، فستتصرف الولايات المتحدة وفقاً لذلك، وتعدّل سياستها»(777).

كان هدف هذا الطرح لهذه المبادرة، التي لم يتم إعلانها للمحافظة على موقع الولايات المتحدة للتفاوض، هو اعتراف الدبلوماسيين الأميركيين بحركة طالبان كالحكومة الشرعية لأفغانستان، مقابل أخذ بن لادن بعهدتها. ومن ضمن أمور أخرى، أمل الدبلوماسيون في وزارة الخارجية، أن تستخدم باكستان وجهاز استخباراتها سلطتهما على طالبان للمساعدة على إتمام هذه الصفقة. وفي الواقع، كانت هذه المبادرة استمراراً للسياسة الأميركية التي لطالما كانت مستعدة للموافقة على الهيمنة الباكستانية على أفغانستان باسم الاستقرار الإقليمي.

في صلب هذه المسألة، يكمن سؤال واقعي وسياسي عالق: من هو العدو؟ وسؤال آخر عالق أيضاً: إلى أي مدى تصل خطورة هذا التهديد؟

في أواخر التسعينيات، التي شهدت انتعاشاً تاريخياً في الاقتصاد وسوق السندات، استنتج بيل كلينتون أن الإرهاب، والحرب العرقية، والأمراض، مثل مرض نقص المناعة المكتسبة (الأيدز)، والأنظمة الدينية الارتدادية، مثل طالبان، تمثّل «الجانب المظلم» من «زيادة الاعتماد العالمي» منذ انهيار النظام الشيوعي. لقد ساهمت الأقمار الاصطناعية والسفر الجوي وشبكة الإنترنت

أخيراً، في تقصير الوقت والمسافات، وزيادة التفاعل بين الدول والديانات والثقافات المختلفة فجأة. واكتسبت الولايات المتحدة فوائد جمّة من تلك التغييرات. فقد شهدت ثراءً سريعاً من جراء «تحطيم الجدران، وتقصير المسافات، ونشر معلوماتها في أرجاء العالم»، كما قال كلينتون لاحقاً. لكن في الوقت عينه، «لا يمكنك إزالة الجدران والاختلافات ونشر المعلومات من دون تعريض نفسك لقوة الدمار». اعتقد كلينتون أن مهمة الولايات المتحدة هي تسريع هذه الاتجاهات، وليس الوقوف في وجهها. لقد فكّر في قيادة البلاد والعالم من مرحلة «الاعتماد» الدولي، إلى مرحلة «التكامل» في أنحاء العالم. وكانت الهجمات الإرهابية «مثلاً مؤلماً وقوياً على حقيقة أننا نعيش في عالم يعتمد بعضه على بعض، ولم يصبح بعدُ مجتمعاً متكاملاً». وبرغم ذلك، لا يريد كلينتون أن يبني الجدران. كان يرى رد فعل الإرهاب والقومية والأصولية، أموراً حتمية. كانت متصلة بشكل معقّد بمصادر التطور العالمي، ومصيرها الفشل. ويؤكد التاريخ «أنه ما من حملة إرهابية نجحت»(778).

يعتبر كلينتون بن لادن والأصوليين المسلمين أمثاله، جزءاً من استمرارية تاريخية طويلة «للمتعصبين» الذين يعتقدون أنهم «يعرفون الحقيقة، وإذا شاركتهم في حقيقتهم، سيكون لحياتك قيمة. وإن لم تفعل، تصبحْ هدفاً مشروعاً لهم». كان كلينتون، يصف إيمانه المسيحي غالباً - المتأثر جزئياً بالتقاليد اليسوعية في جامعة جورج تاون - كالمتجذر في البحث عن الله المقيّد بضعف الإنسان. كان يقول إن معظم الناس يعتقدون أن «أحداً يملك الحقيقة المطلقة». «وكأبناء الله، نحن محدودون بهذه الحياة بهذا الجسد وبعقولنا». يمكن أن تكون الحياة «رحلة نحو الحقيقة»، لا تكتمل أبداً حتى الخلاص. إلا أن طالبان وبن لادن والقاعدة، يمتلكون «أفكاراً مختلفة عن أفكارنا حول الحقيقة، وقيمة الحياة»(779).

كان كلينتون مستعداً «للتخلص من بن لادن». إلا أنه حدد الهدف من سياسته الخارجية «بنشر فوائد» التكامل الشامل و «تخفيف مخاطر» الإرهاب من خلال زيادة «الشركاء والتخلص من الإرهابيين في المستقبل». وكان يرى في بن لادن متعصّباً منعزلاً يوجه ضرباته الخطيرة إلى قوى التقدم العالمية(780).

كانت معظم الخلافات في إدارة كلينتون حول سياسة مكافحة الإرهاب، بعيدة عن الرأي العام. وأبرزها يجري داخل المجموعة الأمنية في مكافحة الإرهاب، حيث تكون كل مذكرة سرّية جداً. وهنا يشترك ممثل «السي.آي.إيه.» الرئيسي، بول بيلار، في التوتر الذي يتحول إلى عدائية أحياناً مع ريتشارد كلارك ومساعديه الأساسيين في مكافحة الإرهاب، ستيفن سايمون ودانييل بنجامين. وتتضمن مشاحناتهم اليومية بعض المواضيع الاستراتيجية الحساسة.

كانت حواراتهم بنّاءة وفكرية ومادية. وتشمل مواضيع أساسية، مثل الإرهاب الحديث وشبكة بن لادن وتهديداته والسياسة الأميركية. كان الرجال الأربعة على درجة عالية من الذكاء، ومتحدثين

لبقين. وكانوا مثقفين عصبيين وجدليين يتمتعون بطباع حادة ونظريات عديدة. تتسم خلافاتهم بشغف ثابت للنزاعات الأيديولوجية الشائعة وسط جامعة «إيفي ليغ».

كانوا يعملون ساعات طويلة لا يمكن إحصاؤها، ويحصلون في المقابل على أجر زهيد. وبرغم ذلك، يناقشون كل يوم أهم المواضيع في حرب بلدهم الشهيرة ضدّ بن لادن. يكاد الضغط الذي يتعرضون له لا يحتمل. فمكافأتهم ستكون صغيرة إذا صَحّت دراساتهم. لكن هناك احتمالاً كبيراً لوقوع كارثة في حال تبين أنهم مخطئون.

يتّفق الأربعة حول صفقة كبيرة. كانت خلافاتهم سطحية بالإجمال، برغم أنها مهمة جداً. وبصفته نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب منذ مدة طويلة، يتمتع بيلار بتأثير كبير في تحليلات «السي.آي.إيه.» المتعلقة بالإرهاب. وكان سايمون وبنجامين، إلى جانب كلارك، يتمتعون بدور فعال في سياسة البيت الأبيض في مكافحة الإرهاب خلال السنة الأولى بعد تفجير السفارتين في أفريقيا.

يعتبر بيلار الإرهاب بشكل أساسي «تحدياً تجب إدارته وليس التخلص منه». وبرأيه، أصبحت الهجمات الإرهابية صفة دائمة في التجربة الأميركية. اعترض على مبدأ شن «حرب» ضد الإرهاب لأنه «لا يمكن الفوز بهذه الحرب»، لأن أعداءها غير محددين «خلافاً لمعظم الحروب، ولا يمكن وضع حدّ لها». يمكن أن يشكل «سعي السلطات الصحية العامة إلى التحكم في الأمراض المعدية» مقاربة أفضل من الحرب. لقد استنتجت الولايات المتحدة من جهودها في مكافحة الإرهاب منذ الثمانينيات، أن خطر الإرهاب لا يمكن هزمه، بل «تخفيفه وإضعافه والتحكم فيه إلى حدّ ما». لذلك، لن يفيد برأي بيلار، السعي إلى التخلص نهائياً من الهجمات الإرهابية في السياسة الخارجية الأميركية، مثل تأثير التخلص نهائياً من البطالة في الاقتصاد. وبتعبير آخر، تتوافق نظرية بيلار مع كلينتون: الإرهاب وجه محتم من أوجه التغير العالمي(781).

شعر مساعدو البيت الأبيض بأن بيلار أنجز عملاً متماسكاً، برغم أن كلارك كان يوجه إليه الانتقادات بضراوة خلال الاجتماعات. لكنهم قلقوا بخصوص ألّا يدرك بعض المحترفين في «السي.آي.إيه.» مثل بيلار حالة الطوارئ، والضعف السياسي الذي يشعرون به بسبب الإرهاب. في بعض الأحيان، يشعر زملاؤه في البيت الأبيض بأن بيلار ينظر إلى خطر الإرهاب من مجمّع لانغلي بطريقة غريبة، كما يحدّق المحقق إلى جرائم القتل عبر نافذة مكتبه في المدينة المظلمة ويستمع إلى صفارات الإنذار الحزينة التي تنطلق من سيارات الإسعاف. وبرأي بيلار، أفضل طريقة لمهاجمة الإرهابيين، هي من خلال العمل المحترف الجاد، على كل خلية وكل قضية، وبالتعاون مع الاستخبارات الخارجية والشرطة. ربما لن
يكون هذا العمل عظيماً أو مثيراً، لكنه سيكون فعّالاً وأساسياً وواقعياً. ووفقاً لهذه النظرية، يقول بيلار «إن يد الولايات المتحدة ستبقى خفية، والهجمات الانتقامية الإرهابية قليلة». يجب أن تتعاون الولايات المتحدة في مواجهة خطر الإرهاب مع شركاء أجانب(782).

بدا تركيز كلينتون وكلارك وسايمون وبنجامين على الإرهابيين الذين يمتلكون أسلحة دمار شامل، مجهداً بالنسبة إلى بيلار. لقد اعتبره انحرافاً، أو نوعاً من الهستيريا، نتج منه «جدل عام حول الطرائق الأوسع انتشاراً التي قد يستخدم فيها الإرهابيون الإرهاب الكيميائي والبيولوجي، أو حتى النووي، لإلحاق أكبر عدد من الضحايا في الولايات المتحدة». كان فريق كلينتون مهووساً بأغرب السيناريوهات. كما أن اهتمام كلينتون الشخصي، برأي بيلار، قد حفّز تلك المناقشات، وحوّل المصادر عن طرائق استخدامها الفعّالة، مثل تمويل علاقات «السي.آي.إيه.» بالاستخبارات الأجنبية والشرطة. فالأفضل بالنسبة إلى البيت الأبيض أن ينفق المزيد من الأموال والوقت على مهمات «السي.آي.إيه.» الرئيسية من جمع المعلومات والعمل على مكافحة الإرهاب(783). كما أن أولئك الذين ينتقدون «السي.آي.إيه.» لعدم عدائيتها وفشلها في وضع عملاء سرّيين لها في الخارج، في البيت الأبيض والكونغرس وأماكن أخرى، لا يفهمون في العمل الاستخباري. وصف بيلار هذه الحالة لاحقاً بتهكم، «كمن يصطاد في الماء العكر، ولا يهتم بالتعليمات المزعجة من المراكز، كتحدي جايمس بوند للقيام بهمة إنقاذ أميركا من الإرهاب التي تروق مخيلتنا، لكن لا تمت إلى واقع العمل الاستخباري ومكافحة الإرهاب بصلة»(784).

كان بيلار قلقاً لأن بن لادن أصبح «الشغل الشاغل» للولايات المتحدة بعد تفجير السفارتين في أفريقيا. وأصبح إلقاء القبض على بن لادن «هدفاً صعباً» طغى تهديده المستمر على الأمور الباقية. يعترف بيلار «بأن بن لادن خصم مهم، يتمتع بقدرة كبيرة على تنفيذ دعواته إلى قتل الأميركيين»، وأن الإرهاب المحفّز دينياً مثل إرهاب بن لادن كان في ذروته، وأن هذا النوع من الإرهاب يهدد بإطاحة عدد من الضحايا أكبر من السابق. اعتبر بيلار أن القضاء على بن لادن سيُعَد «تطوراً إيجابياً»، برغم أن القاعدة ستستمر، ويظهر قادة آخرون، وسيستمر الإسلاميون المتطرفون السنة في أفغانستان والعالم العربي. يخشى بيلار أن «التركيز» على بن لادن شخصياً سيزيد من شهرة الرجل السعودي العالمية، ويمثّل «سوء تخصيص للمصادر والاهتمام» من قبل إدارة كلينتون في البيت الأبيض. ولخّص بيلار الوضع كالتالي: «إن تركيز مدراء مكافحة الإرهاب وضباطهم على عدو واحد، يُعتبر باهظ الكلفة عندما يجب على الأشخاص أنفسهم معالجة مواضيع إرهابية أخرى واستباق ظهور بن لادن آخر»(785).

أثار هذا النوع من الملاحظات الشكوك في البيت الأبيض بأن «السي.آي.إيه.» لا تستطيع الاهتمام بالمسألة. اعترف كلارك وسايمون وبنجامين لزملائهم بأنهم «غاضبون» من خوفهم من ضربة ثانية لبن لادن. كانوا يدعمون الكثير من تحليلات بيلار وخطته الجادة لمكافحة الإرهاب خلية بخلية، وفي الوقت عينه يستاؤون من عدم مشاركة أحد أهم المدراء والمفكرين في مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، في حسّهم بحالة الطوارئ أو الحذر. بعد تفجيرات أفريقيا، بدأ سايمون وبنجامين بلفت الانتباه إلى ما أطلقا عليه لاحقاً اسم «الإرهاب الجديد المحفّز دينياً»، الذي تُعَد إحدى أهم مزاياه «عدم الشعور بالتقيّد بحدود العنف التي وضعها رعاة الدولة أنفسهم». وحيث يرى بيلار حالة دائمة من المرض المزمن، يرى سايمون وبنجامين «روادأ لا يخطئون في إرهاب جديد وواسع وأكثر تهديداً؛ إرهاب يهدف إلى إلحاق أكبر عدد ممكن من الضحايا»(786).

ويستشهد سايمون وبنجامين بنظرية المحلل في الشؤون الإرهابية براين جنكينز في السبعينيات، حول أن الإرهابيين يريدون جذب أكبر عدد من المشاهدين لهجماتهم، لكن ليس عدداً كبيراً من الضحايا. لكن سايمون وبنجامين حذرا من أن أسامة بن لادن وأتباعه «يريدون أكبر عدد ممكن من المشاهدين، وأكبر عدد من الضحايا أيضاً»(787).

كانت معظم المراكز المتعلقة بمكافحة الإرهاب في الحكومة في خريف العام 1998، تمتلك نظريات بنّاءة حول بن لادن. أطلق البيت الأبيض، الذي يتأثر بالنتائج السياسية للإرهاب والعمليات السرية الفاشلة، بشكل كبير، جرس الإنذار حول التهديدات، وأبدى حذره من العمليات التي قد تفشل. وركّزت وزارة الدولة على الالتزامات الدبلوماسية وقيمة التحالفات المضنية مع المملكة العربية السعودية وباكستان. وروّجت وزارة العدل نظريات تطبيق القانون. إلا أن الخلافات كانت منتشرة بين المسؤولين في كل مركز. واختلف الزملاء في مكتب جنوبي آسيا التابع لوزارة الخارجية حول دخول حركة طالبان المفاوضات بنية حسنة، أو استحقاق أحمد شاه مسعود للمساعدة الأميركية. وتنبّه بعض كبار العملاء في الـ «أف.بي.آي.» إلى تهديد القاعدة، وبدأوا التصرف تجاهه، بينما تجاهله آخرون، معتبرين إياه مصدر تشتيت للانتباه، ومشكلة إرهابية من بين مشاكل عديدة.

عكس تشكيك بيلار جزئياً داخل «السي.آي.إيه.»، التقاليد الفكرية لمديرية الاستخبارات. لن يخضعوا للتقاليد السياسية، بل سيتبنون النظرية البعيدة. كان الجواسيس والعملاء في مديرية العمليات، متنبّهين أكثر إلى تهديد بن لادن ويتبنون نظرية أكثر عدائية. وينطبق ذلك أيضاً داخل وحدة بن لادن، في مركز مكافحة الإرهاب، حيث أصبح المحللون وضباط العمليات مهووسين بمهمتهم بعد تفجيرات أفريقيا. ولو أن أحداً عانى عقدة «الهدف الصعب» في ما يتعلق بإلقاء القبض على بن لادن، فهم زملاء بيلار في مجموعة تعقّب بن لادن في «السي.آي.إيه.».

راح جورج تينيت يميل إلى هذه المجموعة تدريجاً، أقله فكرياً. وكان مدير «السي.آي.إيه.» يتحدث غالباً إلى بيرغر وكلارك في البيت الأبيض. كان يمتصّ قلقهما، برغم أنه يشعر بخطورة التهديدات بنفسه. وكانت التقارير تتضمن أموراً مخيفة في أغلب الأحيان. لا تتطلب قراءة البرقيات اليومية، شهادة بيلار في الدكتوراه من جامعة برينستون، ليكتشف أن بن لادن يمكن أن يكون بسهولة مصدر هجوم مفاجئ وفظيع. كان تينيت يستدعي بيرغر بشكل منتظم، ويطلب إليه إطلاع الرئيس كلينتون على تقارير التهديدات المثيرة للقلق بشكل خاص(788).

لم يشارك تينيت بيلار في حذره من شن «حرب» على بن لادن. في الواقع، كان حدس تينيت يدفعه إلى التفكير في التحدي ضمن هذه الشروط فقط. وبمرور الأسابيع خلال ذلك الخريف، تخوّف من أن يفقد زملاؤه حماستهم. وفي 4 كانون الأول/ديسمبر من العام 1998، كتب تينيت

مذكرة إلى النواب الرفيعي المستوى في مركز لانغلي، أعلن فيها أنهم «يجب أن يدخلوا الآن في مرحلة جديدة من صراعهم ضد بن لادن». «يعتبر عملنا حتى اليوم مهماً، وأحياناً بطولياً. إلا أننا نعرف حقّ المعرفة أن الانتقام لا بدّ منه، وأن نطاقه قد يكون أوسع بكثير مما اختبرناه سابقاً... نحن في حرب. لا أريد توفير أي مورد أو شخص من هذا المسعى»(789).

لكن أياً من ذلك لم يحدث. بقيت الموارد - والأشخاص - في مركز مكافحة الإرهاب، مجمّدة. حاول تينيت ومدراء آخرون تحويل بعض الميزانيات لمساعدة وحدة بن لادن، لكنهم لم يحصلوا على المال لمواجهة أكثر من حرب كلامية. لم يكن تينيت مستعداً لفصل مراكز أخرى عن «السي.آي.إيه.» وإنفاق كل دولار على الحملة ضد القاعدة. فبرأيه، ثمة تهديدات أخرى عديدة وأولويات وطنية، تتطلب جمعاً مكلفاً للمعلومات. وضع تينيت، بصفته مديراً للاستخبارات المركزية، الأولويات بالنسبة إلى موارد المجتمع الاستخباري الأميركي كله نظرياً، بالإضافة إلى أولئك في البنتاغون. في الواقع، لا يستطيع التحكم إلا في ميزانية «السي.آي.إيه.» المتواضعة. في النظام البيروقراطي السرّي، الذي يحاول تحديد الأولويات بالنسبة إلى جمع المعلومات الاستخبارية في الحكومة، يتم تصنيف الأهداف ضمن فئات. وصنّف تينيت في أواخر العام 1998، تهديد بن لادن ضمن «الفئة صفر»، أي الفئة الأعلى خطورة. وبرغم ذلك، لم ينتبه إلى هذه المسألة سوى قلة من الاستخبارات الموزّعة والمتفرقة. اعتقد الكثيرون أن عملية الأولوية كانت واسعة وعامة، بحيث أصبحت عديمة النفع. والنتيجة كانت أن الحكومة الأميركية التي تنفق مئات ملايين الدولارات سنوياً على الدفاع والأمن القومي، لا تخصص سوى مبلغ ضئيل من المال لمحاربة مجموعة عدائية وصفها مدير «السي.آي.إيه.» بالمميتة، إلى درجة أنها تمثل تهديداً وجودياً للولايات المتحدة. في النهاية، من هو المسؤول؟ ربما يتمتّع الرئيس كلينتون بأكبر سلطة لتغيير تخصيص تلك الموارد. وفي المرتبة الثانية، يأتي الكونغرس الذي يسيطر عليه الجمهوريون. يتمتّع تينيت وبعض رؤساء مراكز الاستخبارات الأخرى، بالسلطة الاختيارية حول الميزانيات التي يملكونها. وقد تمنّى تينيت لاحقاً لو أنه «قام بتجزئة المؤسسة بأكملها، ووضع خمسمئة شخص إضافي في المركز في أقرب وقت». لكنه لم يفعل. ويذكر أحد الضباط في مركز مكافحة الإرهاب، أنهم «لم يحصلوا على العدد الكافي من الضباط من مديرية العمليات، وأن الضباط في وحدتهم كانوا يعملون فوق طاقتهم... لكنهم حصلوا على دعم تحليل هامشي من مديرية الاستخبارات». شعر تينيت بأنه يجب دعم ميزانية «السي.آي.إيه.» بحوالى مليار دولار سنوياً أقله على مدى خمس سنين، لكنه عندما راح يطالب بهذا المبلغ في البيت الأبيض، وفي جلسات الاستماع السرّية في «كابيتول هيل»، لم يحصل حتى على الموافقة المبدئية»(790).

حتى الحرب الضيقة، تتطلب عادة القتال مع حلفاء موثوق بهم. كانت «السي.آي.إيه.» تدير عملياتها السرية في أفغانستان من خلال علاقاتها بالاستخبارات الباكستانية على مدى عامين. لذلك، عليها إعادة إحياء شراكتها مع الاستخبارات الباكستانية إذا أرادت تفكيك شبكة بن لادن في أفغانستان، وإلقاء القبض على قادة القاعدة، أو إذا فشلت، يجب على «السي.آي.إيه.» أن تجد قريباً جهاز استخبارات آخر للتعاون معه في أفغانستان وجاراتها، التي يصعب التعامل معها.

# 24
# لنفجّر المخيم بأكمله

يعيش رئيس الوزراء الباكستاني نوّاز شريف في خوف دائم من جيشه الخاص. لقد اخترع الجنرالات العسكريون «عائلة شريف» كسلالة سياسية. ويدعمون نواز كوجه مدني لتحالفاتهم المفضّلة، وممثل للصناعيين وملاّك الأراضي ورجال الدين المسلمين والمستثمرين المستقلّين. وكان شريف يراعي مصالحه الخاصة ويسعى دائماً إلى تأمينها. ويعتقد أنه يخصص الملايين من الخزينة الباكستانية لمصلحة عائلته. ومن المعروف أن أي رجل سياسة باكستاني، ولاسيما من يختاره الجيش، يخاف أن يطيحه الجيش إذا ما شعر الجنرالات بأنه يمثل تهديداً لهم، باستقلاليته المدنية وشعبيته. وقد سعى شريف إلى إحباط هذه المحاولات من خلال التلاعب بتعيين القيادة العليا في الجيش. فعيّن في المناصب العليا جنرالات يعتبرهم أوفياء له ولعائلته. وتُعتبر أهم وظيفتين، قائد الجيش، الذي يُعد المنصب الأرفع في الجيش الباكستاني. ومنصب المسؤول عن عمليات التجسس، أو المدير العام للاستخبارات الباكستانية.

قام شريف بطرد قائد جيشه، بعد شهرين من إطلاق الصواريخ الموجّهة الأميركية إلى أفغانستان. كان جهانغير كرامات من المفكرين العلمانيين الداعمين للديموقراطية المدنية. وبرغم ذلك، قام شريف بتحليل خطب ألقاها كرامات حول العلاقة المدنية - العسكرية، وفسّرها كبوادر انقلاب عسكري. وتبيّن لاحقاً أن شريف لم يحلل الوضع بالطريقة الصحيحة. لا يزال النهج النموذجي في الحكم الباكستاني، أن يكون رئيس الوزراء في المقدمة. عيّن برويز مشرّف [الرئيس الحالي الباكستاني] ، وهو جنرال غير مشهور ومتحرر، قائداً للجيش. وبرغم أنه لا يتمتع بعلاقات وثيقة مع مشرّف، أعلن شريف في الصحف الباكستانية أنه اختار الجنرال مشرّف شخصياً، وأنه تحت رعايته الخاصة. وأدت هذه الدعاية للعلاقات الشخصية بمشرّف إلى الابتعاد عن شريف، للمحافظة على مصداقيته أقله أمام الجنرالات الآخرين(791).

عيّن شريف في الوقت عينه، الجنرال خواجة ضياء الدين مديراً جديداً للاستخبارات الباكستانية. وهذا القرار أيضاً كان قراراً سياسياً بحتاً. عمل ضياء الدين في الهيئة الهندسية، وهي قسم في الجيش نادراً ما يصنع قادةً عسكريين. لكنه صاهر عائلة ثرية في لاهور تتمتع بعلاقات قوية، وكان يزور بشكل دائم عقار «موديل تاون» الواسع العائد إلى والد نواز شريف. ويعدّ الظهور الاجتماعي، ولاسيما في ظل عائلة سياسية مدنية كعائلة شريف، انتهاكاً للبروتوكول العسكري بالنسبة إلى جنرال بارز. وبرغم ذلك، كان والد شريف يفضّل ضياء الدين، الذي حصل على منصب في مراكز الجيش، وعمل في برامج الدولة النووية السرّية. وعندما كلّفه شريف إدارة الاستخبارات الباكستانية في خريف العام 1998، كان يُعدّ كمبعوث رئيس الوزراء وحاميه(792).

أمل شريف حماية نفسه أكثر من الجيش عبر التقرّب من إدارة كلينتون. وقد أصبحت هذه الخطة نهجاً قديماً لرؤساء الوزراء المدنيين في باكستان. كان بيل كلينتون يميل إلى شريف. وفي ربيع العام 1998، أمضيا ساعات طويلة يتحدثان عبر الهاتف عندما راح كلينتون يسعى إلى إقناع رئيس الوزراء، من دون نتيجة، بالتخلي عن تجارب الأسلحة النووية رداً على تجربة مفاجئة من قبل الهند. كان العديد من المساعدين والدبلوماسيين في إدارة كلينتون، ولاسيما الذين يعرفون باكستان جيداً، يعتبرون شريف سياسياً غبياً وفوضوياً. وخلال الاجتماعات الخاصة، عندما يخطئ في قراءة بطاقات الملاحظات، كان يرمقهم بنظرة هادئة. وبرغم ذلك، يحاول شريف أن يصوّر نفسه رجلاً لا يمكن الاستغناء عنه في متابعة المحادثات الأميركية حول الأزمة النووية في المنطقة. وفجأة، وجد شريف طريقة أخرى ليبدو مفيداً بالنسبة إلى الأميركيين: يمكنه أن يدعم الجهود السرية لمحاولة إلقاء القبض على بن لادن، أو قتله.

كان سفير الولايات المتحدة الجديد إلى باكستان، دبلوماسياً نشيطاً، يدعى وليام ميلان، وعمل سفيراً سابقاً إلى ليبيريا وبنغلادش في أوج أزماتهما. كان ميلان رجلاً يرتسم على وجهه شارب وابتسامة خفيفة، وكان بديناً، تتقدمه كرش كبيرة. اعتاد ميلان التهديدات الأمنية والسياسات غير المستقرة، وكان يتفقّ جيداً مع رئيس مركز «السي.آي.إيه.» غاري شروين. بدأ الاثنان محادثات خاصة حول بن لادن وأفغانستان مع مشرّف وضياء الدين.

أملت «السي.آي.إيه.» إقناع ضياء الدين بخيانة بن لادن، وإلقاء القبض عليه، أو نصب كمين له. بقي مركز إسلام أباد غارقاً في العمل مع قوة التعقب القبلية من الجهاديين السابقين ضد الاتحاد السوفياتي. إلا أن بن لادن أصبح فجأة هدفاً صعباً. كان يتنقل باستمرار، وبشكل غير متوقّع. وبعد أن كشفت الصحف أن الأميركيين يسجّلون مكالماته
الهاتفية، توقف بن لادن عن استخدامها ليجعل تعقّبه أصعب بكثير. واستنتج شروين وضباط آخرون في «السي.آي.إيه.» أن أفضل طريقة لإلقاء القبض على بن لادن هي طلب المساعدة من ضباط الاستخبارات الباكستانية الذين يثق بهم. أرادوا من الاستخبارات الباكستانية أن تستدرجه إلى الفخ(793).

رأى ميلان وشروين وزملاؤهم في سفارة إسلام أباد أن ضياء الدين يتمتع بشخصية مستقيمة ومنفتحة. كان رئيس الاستخبارات الجديد رجلاً قوياً، يصل طوله إلى حوالى خمس أقدام وتسعة إنشات، وتبدو على وجهه آثار لكمات من بعض جولات الملاكمة. لم يكن خجولاً، كبعض الجنرالات، في التحدث مع «السي.آي.إيه.» حول السياسات الباكستانية. ويعترف أيضاً بأنه لا يستطيع، هو أو شريف، فرض رأييهما على الآخرين في الحكومة. أراد أن يتعاون عن كثب مع «السي.آي.إيه.» والأميركيين متى أمكن، لكنه يشير إلى أن «السي.آي.إيه.» يجب أن تعرف ما يمكن الحصول عليه سياسياً في باكستان(794).

أشارت عدة تقارير من «السي.آي.إيه.»، بحلول خريف العام 1998، إلى وجود علاقات عديدة بين الاستخبارات الباكستانية وطالبان وبن لادن ومقاتلين إسلاميين آخرين يعملون من أفغانستان. وأظهرت تقارير أميركية سرّية أن الاستخبارات الباكستانية أنشأت ثمانية مراكز داخل أفغانستان، يعمل فيها ضباط ناشطون من الاستخبارات الباكستانية أو ضباط متقاعدون يعملون بموجب عقود وظيفية. وكشفت تقارير «السي.آي.إيه.» أن ضباط الاستخبارات الباكستانية من رتبة عقيد، قابلوا بن لادن أو ممثليه للتنسيق حول وصول المقاتلين المتطوعين المتوجهين إلى كشمير إلى مخيمات التدريب. وشكّت «السي.آي.إيه.» في أن تكون الاستخبارات الباكستانية تزوّد بن لادن بالمال والمعدات كجزء من اتفاقيات التعاون في تلك المخيمات. إلا أنه لا توجد أدلة على تعاون الاستخبارات الباكستانية مع بن لادن في هجماته الخارجية، مثل تفجير السفارتين في أفريقيا. وتشير العلاقة التي تم التبليغ عنها إلى جدول الأعمال الإقليمي لباكستان: استنزاف القوات الهندية في كشمير، ومساعدة طالبان على هزم حلف مسعود الشمالي(795).

اعتقد المحللون في الاستخبارات الأميركية أنه من الصعب جداً على مراكز الاستخبارات الباكستانية في راولبندي الإشراف على الضباط الذين يعملون داخل أفغانستان. وهناك أمل ضئيل أن يُصدر نواز شريف، الذي يثور غضبه بسرعة على أي شخص في جيشه، أوامر للمحافظة على سرية عملائه في أفغانستان. ولا حتى ضياء الدين، الذي يفتقر إلى أي خلفية استخبارية ويُعرف بخادم شريف، يمكن أن يشرف عليهم من دون أي اعتراض.

«اعتبر» المسؤولون الكبار في إدارة كلينتون الذين اطلعوا على تلك التقارير المتعلقة بضباط الاستخبارات الباكستانية في أفغانستان، «أن عناصر الاستخبارات الباكستانية انتهازيون، ومتورطون في تجارة المخدرات والأسلحة». ولن يكون ضياء الدين الوحيد غير القادر على التحكم فيهم، إنما «المراكز أيضاً، لم تكن تعرف ما كانوا يفعلون، إلى حدّ ما». وفي الوقت عينه، كان هؤلاء الضباط الباكستانيون يطيعون الأوامر الصادرة من إسلام آباد بشكل عام. كانوا يتمتعون بدعم جيش بلادهم ودعم قطاعات الطبقة السياسية المدنية من خلال استغلالهم الجهاد لبسط النفوذ الباكستاني شرقاً وغرباً. وقال ضابط أميركي دائم الاطلاع على تلك التقارير خلال ذلك الخريف «إن سياسة الحكومة، غير المعلنة، تقضي برعاية حرب العصابات، ولاسيما في كشمير». ويعتقد ضياء الدين وزملاؤه، وكذلك ضباط الأركان في الميدان، «أنهم كانوا يديرون سياسة حكومتهم بالكامل». وفي البيت الأبيض، رأى فريق كلينتون للسياسة الخارجية «تحالفاً سيئاً مذهلاً لا يدعم كل الأعمال الإرهابية الموجهة ضدهم فحسب»، بل يهدد أيضاً «التسبب في حرب نووية في كشمير»(796).

برأي ضباط «السي.آي.إيه.» لا يزال أمام ضياء الدين فرصة للتعاون معهم في قضية بن لادن. ربما سيرضى هو أو رجاله بتسليم بن لادن إليهم مقابل المال. وربما سيقتنعون بفضل المكاسب السياسية التي ستحققها باكستان. وإذا نجحت الولايات المتحدة بالتخلص من بن لادن الذي يقف عائقاً في وجهها، فقد تعترف بحركة طالبان حكومة شرعية في أفغانستان. وبالتالي، سيتوج ذلك عقداً من السياسة السرية الباكستانية في المنطقة، ويضع الهند في موقع الدفاع. وبرغم أنهم كانوا

حذرين من عدم توضيح الأمور إلى هذا الحدّ، قام الأميركيون بإخبار جنرالات شريف بأن الجيش سيحقق أهدافه العسكرية الإقليمية بسهولة أكبر إذا قام بخيانة بن لادن عوضاً عن التعاون معه(797).

كان عرض شروين للعمليات الأساسية بسيطاً: ستمهد الاستخبارات الباكستانية لعقد اجتماع مع بن لادن في مطار قندهار. سيقوم الضباط في «آي.أس.آي.» بإخبار بن لادن بأنهم يحملون رسالة له شخصياً، ثم ستجهّز «السي.آي.إيه.» عملاءها القبليين على طول الطريق الصحراوي المفتوح إلى المطار. ثمة طريق واحد فقط للدخول والخروج، لذلك من السهل تقريباً نصب كمين. ومن المتوقع أن يسافر ضابط رفيع المستوى من الاستخبارات
الباكستانية إلى قندهار للاجتماع المقترح. وإذا لم يظهر بن لادن، لا يبدي الضابط الباكستاني أي اهتمام ويعود إلى إسلام آباد.

تقبّل ضياء الدين الاقتراح الأميركي باهتمام كبير. قال إنه سيتشاور مع شريف وآخرين في الاستخبارات الباكستانية حول إمكانية نصب الفخ. وبعد أيام، أخبر الأميركيين بأن الأمر مستحيل. قال للأميركيين إن الطبقة السياسية كانت معارضة جداً للاقتراح. فإذا فشل الكمين وافتضحت الخطة، فستدفع باكستان الثمن غالياً مع حركة طالبان والسياسيين الإسلاميين وضبّاط الجيش الباكستاني(798).

إذا أرادت الاستخبارات الباكستانية التعاون مع «السي.آي.إيه.» لأسر بن لادن، فيجب أن تتبنى مقاربة جديدة. وكان ضياء الدين يملك أفكاره الخاصة حول هذا الموضوع.

سافر نواز شريف إلى واشنطن في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1998 للقاء الرئيس كلينتون. رافقه ضياء الدين عضواً رفيع المستوى غير معلن في الوفد الباكستاني. كانت الرحلة تهدف جزئياً إلى دعم موقف شريف السياسي في باكستان عبر الظهور على أنه مقرّب من كلينتون، وبإمكانه الحصول على مكاسب لباكستان من خلال صداقته الأميركية. وافق كلينتون على رفع بعض العقوبات التجارية، وإعلان تحرير 500 مليون دولار أميركي في الحسابات الباكستانية التي قامت الولايات المتحدة بتجميدها في العام 1991 بسبب القضية النووية(799).

يوم الأربعاء في 2 كانون الأول/ديسمبر من العام 1998، التقى كلينتون وأولبرايت وبيرغر شريف وضياء الدين ومسؤولين باكستان آخرين في «المكتب البيضوي» في اجتماع سيتم أخذ محضر به. أوضح لهم كلينتون أن الموضوع الأهم بالنسبة إليه هو برنامج الأسلحة النووية الباكستاني. كان صديق الرئيس من أيام الجامعة، سروب تالبوت، الذي أصبح اليوم نائب وزيرة الخارجية، مسؤولاً عن المحادثات الجارية بين باكستان والهند، لإقناعهما بوقف برامجهما حول القنابل النووية، أو تفكيكها. وعصر ذلك اليوم في المكتب البيضوي، كان برنامج باكستان النووي، وفقاً لعضو مجلس الأمن القومي بروس ريدل، «الموضوع الأول على رأس جدول أعمال

الولايات المتحدة». والموضوع الثاني يتعلق بالاقتصاد الباكستاني. كان كلينتون يأمل أن تساعد التجارة الحرة على انتشال باكستان من الفقر والديون، وتخفّف أزماتها السياسية والاجتماعية المزمنة. وثالثاً يأتي موضوع الإرهاب وبن لادن(800).

لمّح كلينتون للقيادة الباكستانية العليا مراراً، إلى أن بن لادن أقل أهمية من برنامج التخصيب النووي. يعتبر الجيش الباكستاني مواجهته الهند مسألة حياة أو موت. إن المساومة على البرنامج النووي أو استخدام الجهاديين الفدائيين لتحجيم الجيش الهندي الكبير، سيدلّ على تغيير حاد في الاستراتيجية الباكستانية. ويذكر مسؤول في البيت الأبيض «أن أي أمر ثان على اللائحة» لن يجذب انتباه الجنرالات. كان المسؤولون الأميركيون من المرتبة الثانية في بعض الأحيان، يلتقون نظراءهم الباكستانيين ليتكلموا على انفراد حول بن لادن. لكن، عندما كان كلينتون يلتقي القادة الباكستانيين، كان برنامجه يتضمن عدة مواضيع، لم يكن بن لادن على رأسها. كما أن الحرب الأفغانية كانت تأتي في مرتبة دنيا أيضاً.

استمر الاجتماع عصر ذلك اليوم مدة ثلاثين دقيقة. طلب شريف الاجتماع بكلينتون على انفراد، والتقيا مدة عشرين دقيقة في المكتب البيضوي(801). اقترح شريف أن تتعاون الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» لتدريب فريق مغاوير سرّي بغية إلقاء القبض على أسامة بن لادن و «تقديمه إلى العدالة»، كما قال الجانب الأميركي.

لم تقم «السي.آي.إيه.» بإخبار باكستان بفريق التتبع القبلي. تم اقتراح تنظيم وحدة رسمية كبيرة من المغاوير يتم اختيار أعضائها من العناصر المتقاعدة منذ فترة قريبة من مجموعة الخدمات الخاصة والنخبة في وحدة القوات الباكستانية الخاصة. ويتم التعاقد مع الضباط والرتباء المتقاعدين من مجموعة الخدمات الخاصة وإرسالهم مباشرة إلى القوة الضاربة الجديدة لبن لادن. سيكون تدريبهم ومهاراتهم وفق المعايير الحديثة(802).

أوضح كلينتون أن مساعديه سيهتمون بالعرض ويبدأون بتنفيذ الخطة. وقال كلينتون لاحقاً إنهم «حاولوا إشراك باكستان، وعرفوا أن الأمر صعب من جهتهم». ويعتقد كلينتون «أنهما (واشنطن وباكستان) تمتلكان فرصة عظيمة لإلقاء القبض عليه، وتقدمان على مخاطرة سياسية كبيرة»(803).

كان الغداء فرصة للحديث عن بن لادن أيضاً. راح شريف يقول ممازحاً إن الولايات المتحدة قد بذّرت أموالها بإطلاق تلك الصواريخ الموجّهة المكلفة على الفارّ السعودي. كان عليها أن ترسل بعض الرجال إلى أفغانستان محملين بحقائب ملأى بالدولارات فتنال مرادها.

قدّم الباكستانيون تقريراً قالوا فيه إن بن لادن يعاني المرض. ووفقاً لمعلوماتهم يعاني بن لادن مرضاً في الكلية، ومرضه هو السبب في تواريه عن الأنظار أخيراً(804). لم يعرف الأميركيون منذ ذلك اليوم، كيف يتصرفون حيال تلك التقارير، والتقارير المماثلة من الاستخبارات السعودية حول صحة بن لادن. اعتقد البعض أن التقارير قد تكون صحيحة، بينما تغاضى عنها آخرون، واعتبروها مضللة.

راح الطرفان خلال الغداء، يتبادلان آراءهم المعروفة حول طالبان وأفغانستان. أقرّت أولبرايت بمواجهة الولايات المتحدة مشاكل جدية مع حركة طالبان، بما في ذلك تعامل الحركة مع الأطفال والنساء. فكرّر لها شريف مقاربته المعتادة: باكستان نفسها ضحية الحرب المستمرة في أفغانستان، ولاسيما الآثار الناتجة منها، كمشكلة اللاجئين وتجارة المخدرات. كما أشار إلى أن باكستان أيضاً ضحية الإرهاب.

قام بيرغر وأولبرايت بإخبار شريف أن «طرد أسامة بن لادن من أفغانستان لمحاكمته»، يُعَدّ من «أولويات» الحكومة الأميركية(805).

اختتم شريف زيارته إلى الولايات المتحدة ببعض التصريحات، وعاد إلى بلاده. وفي وقت لاحق، أبدى العديد من الأميركيين المطلعين شكهم في الاقتراح الباكستاني للقيام بعملية سرية مشتركة. اعتقدوا أن شريف يحاول إعداد شيء لتشتيت الأميركيين وإسكاتهم حول قضية بن لادن. واعترفوا لاحقاً بأنهم لا يصدقون أن الاستخبارات الباكستانية ستخاطر بإعطاء الأمر لفرقة مغاوير لتنفيذ المهمة.

إذا أرادت الاستخبارات الباكستانية مساعدة «السي.آي.إيه.» على إلقاء القبض على بن لادن، فلن تحتاج إلى فريق كبير ومُكلِف من المغاوير لتنفيذ المهمة. برأي العديد من الأميركيين المطّلعين، تستطيع بكل سهولة إخبار «السي.آي.إيه.» بمكان بن لادن، فتقوم الولايات المتحدة بضربه، إما بالصواريخ الموجّهة، وإما بخطفه على يد فريقها القبلي. كان الأميركيون يطلبون باستمرار هذا النوع من المعلومات حول بن لادن، ويكرّر الباكستانيون رفضهم باستمرار. كان ضباط الاستخبارات الباكستانية في بعض الأحيان يشتكون إلى «السي.آي.إيه.» سراً، من أن بن لادن لم يعد يثق بهم. ونتيجة لذلك، لا يملك الباكستانيون القدرة على تعقّب تحركات بن لادن، أو معرفة مكانه فعلياً. إلا أن الأميركيين يشكون في هذا الأمر. وحتى لو أصبح بن لادن اليوم أكثر حذراً من الاستخبارات الباكستانية من السابق، فإن لدى باكستان عدة حلفاء داخل الشبكات الإسلامية في أفغانستان، يستطيعون الإيقاع ببن لادن بسهولة، لو أن ضباطها يعتزمون ذلك بالفعل(806).

استنتج مساعدو كلينتون، أن الجيش الباكستاني والطبقة السياسية أدركا أن الفوائد التي تجنيها بلادهما من دعم المقاتلين الجهاديين في أفغانستان، ومن بينهم أولئك الذين يدربهم ويمولهم بن

لادن، تفوق التكاليف. وقال مسؤول في البيت الأبيض بوضوح، «إنهم بدأوا يتلاعبون منذ أن أخبروا الأميركيين بأنهم يرحبون بالتعاون معهم»، فلماذا ستغير باكستان استراتيجيتها؟(807).

قام ساندي بيرغر ونائبه جيم ستينبرغ وريتشارد كلارك وجورج تينيت بدراسة خياراتهم. اتفقوا على أن الباكستانيين «لا يملكون القدرة أو النّية» لتنفيذ خطة المغاوير. ومن جهة أخرى، ما هي الجوانب السلبية؟ ستنفق «السي.آي.إيه.» بعض مئات آلاف الدولارات على رواتب بعض الجنود الباكستانيين المتقاعدين بالإضافة إلى تكاليف التدريب والمعدات. لكن مشروع المغاوير سيشكل وسيلة لتوثيق العلاقات والثقة بين ضباط «السي.آي.إيه.» وضياء الدين وضباط آخرين في الاستخبارات الباكستانية. كما أنه سيفيد في تجميع المعلومات والاستخدام من قبل «السي.آي.إيه.». وعلى الرغم من أن فرص نجاح إنزال فريق مغاوير ضد بن لادن ضئيلة جداً، أي أقل من واحد في المئة، ما يدعو إلى السخرية في الحسابات الأميركية، إلا أن الأمر كان موضع دراسة ضباط «السي.آي.إيه.» من أجل تجربة كل الوسائل الممكنة للوصول إلى مبتغاهم(808).

وافق البيت الأبيض على الخطة بعد أشهر. وقامت «السي.آي.إيه.» من خلال مركز إسلام آباد، بدفع الرواتب وتزويد الباكستانيين أجهزة الاتصالات ومعدات أخرى، كما طلب ضياء الدين. وتبيّن لاحقاً، أن غالبية الأميركيين كانوا محقّين في السخرية من دوافع ضياء الدين. فنظرياً، قامت «السي.آي.إيه.» بتمويل فريق مغاوير سرّي وتدريبه، بغية التحرك ضد بن لادن في أفغانستان. لكن تبيّن لاحقاً أن ضياء الدين كان يرى دوراً آخر لهذا الفريق: قوة ضاربة صغيرة، من النخبة، وفيّة لرئيس الوزراء الباكستاني ورئيس جهاز الاستخبارات. وإذا تحرّك الجيش ضدّ شريف، فسيلجأ رئيس الوزراء إلى حرّاسه السرّيين للدفاع عنه.

لم تغيّر الاستخبارات الباكستانية سلوكها على الحدود الأفغانية. بعد أسابيع على الاجتماع في المكتب البيضوي، توقفت سيارة من نوع «لاند كروزر» في بيشاور، أمام
مجمع عبد الحق، القائد الأفغاني ضد الاتحاد السوفياتي سابقاً، والمتعامل السابق مع «السي.آي.إيه.». أصبح اليوم رجل أعمال في دبي، وبدأ ينظم معارضة ضد حركة طالبان بين عائلات الباشتون القبلية البارزة مثل عائلته. حذّرته الاستخبارات الباكستانية للتوقف عن إثارة المشاكل، لكن عبد الحق استمر في محاولاته. كان يعتبر نفسه منذ لقائه الأول رئيس مركز «السي.آي.إيه.» هاورد هارت، زعيماً مستقلاً يحتقر تلاعب الاستخبارات الباكستانية(809).

قام مهاجمون مجهولون ليل 12 كانون الثاني/يناير من العام 1999، بخنق حراس عبد الحق، واقتحام منزله، وقتل زوجته وأولاده. حقّق مساعدو عبد الحق في القضية، واستنتجوا أنه تم تنظيم الهجوم بمساعدة الاستخبارات الباكستانية. لم تُلقِ الشرطة الباكستانية القبض على أحد. ويذكر السفير الأميركي السابق إلى «الجهاديين»، بيتر تومسون، الذي بقي قريباً من عبد الحق، أن القتلة تلقوا تدريبهم على يد مدرسة الاستخبارات في طالبان التي يدعمها بن لادن في مزرعة تارناك(810).

هذه هي الحرب التي يعرفها كل أفغاني تحدّى حركة طالبان. لا يمكن اعتبار التعاون مع الاستخبارات الباكستانية ضد بن لادن معقولاً في تلك الحرب. وعلى العكس، كما يروي هؤلاء الأفغان، كان كل من يتحدّى بن لادن أو الاستخبارات الباكستانية علناً، يخاطر بكل ما يملك.

تلقى مركز إسلام آباد خلال أسابيع من زيارة شريف إلى واشنطن، أحد أهم التقارير الواعدة حول مكان بن لادن منذ الهجوم بالصواريخ الموجّهة في شهر آب/أغسطس. في بداية شهر شباط/فبراير من العام 1999، أفاد عملاء في أفغانستان أن بن لادن سافر إلى مقاطعة هلمند جنوبي أفغانستان للانضمام إلى مخيم صحراوي للصيد ينظمه المشايخ الأثرياء البدو من الدول الخليجية العربية(811).

أرسلت «السي.آي.إيه.» فريقها وزوّدته معدات للرؤية الليلية وجهاز إرسال للأقمار الاصطناعية لتحديد الحيثيات، وأجهزة اتصالات آمنة ومعدات أخرى للتجسس. راحوا يتسابقون على الطرقات الصحراوية الممتدة عبر الصحراء القاحلة. وبحلول 9 شباط/فبراير، أرسل الفريق تقريراً إلى مركز إسلام آباد يخبرون قيادته بأنهم وجدوا مخيم الصّيد. كان مكاناً مجهّزاً بعيداً عن المدينة؛ وقريباً في الوقت نفسه من مهبط للطائرات معزول يتّسع لطائرة بضائع سي. 130. تنتفخ الخيم المزودة بالمبردات والثلاجات بالرياح. أصبح فريق التعقّب مقتنعاً بأنه وجد بن لادن. قالوا إنه ضيف على مخيم المشايخ العرب، ويبدو أنه سيبقى مدة من الزمن. سيكون أمامهم متّسع من الوقت لتفجير المخيّم بأسلحة دقيقة أو إطلاق صواريخ موجّهة من باخرة أو غوّاصة في البحر العربي.

نشأ بن لادن وفقاً للتقاليد البدوية. كان صيد الصقور، ولاسيما الدجاج البرّي (الحبارى) المراوغ، من الرياضات المفضّلة في المملكة العربية السعودية والممالك المجاورة منذ أجيال. في كل سنة، يقوم المشايخ العرب الأثرياء بمطاردة الدجاج البري (الحبارى) خلال هجرته الشتوية. تقدم باكستان جوازات سفر خاصة لزوارها من المشايخ العرب، وتقسم تلالها الشمالية والصحراء الجنوبية الغربية إلى مناطق حيث ينصب الملوك المتنافسون خيمهم ويطلقون صقورهم عالياً(812).

كان الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، أحد أكثر الصيادين شغفاً. إنه ولي العهد [ورئيس دولة الإمارات حالياً] الملياردير لأبو ظبي في الإمارات العربية المتّحدة. ويشاركه في الحماسة نفسها الشيخ مكتوم آل مكتوم حاكم دبي [سابقاً] ، وهي إمارة أخرى في الاتحاد الغني بالنفط. تسافر شخصيات بارزة أخرى من الإمارات العربية المتحدة إلى باكستان كل موسم للصيد. وأدّى التحالف القوي مع باكستان فيما يتعلق بصيد الدجاج البري إلى موافقة القوات الجوية الباكستانية سرّاً على تأجير إحدى قواعدها الشمالية إلى الإمارات العربية المتحدة ليتمكن المشايخ من إنزال طائراتهم الخاصة والمعدات اللازمة للصيد بسهولة. اهتم الطاقم الباكستاني بالقاعدة الجوية، لكن الإمارات

العربية المتحدة كانت تدفع الكثير للمحافظة عليها. كانوا يسافرون على متن سي. 130 وطائرات أصغر تستطيع الوصول إلى مراكز الصيد البعيدة(813).

تُعَدّ أفغانستان من أفضل الأراضي لقضاء طائر الحُبارى شتاءه. استضاف رجال السياسة الباكستانيون رحلات صيد عربية هناك منذ أواسط التسعينيات. وعرّفوا المشايخ الأغنياء إلى قيادة طالبان ليؤسسوا علاقات لتمويل الميليشيا الإسلامية بشكل خاص في المستقبل. دخل بن لادن عالم الصيد في أفغانستان بعد وصوله إلى البلاد في العام 1996(814). لذلك، بدت المعلومات في تقرير «السي.آي.إيه.» حول انضمام بن لادن إلى مخيم ضخم مجهّز في غربي أفغانستان خلال ذلك الشتاء، متطابقة مع التقارير السابقة حول بن لادن.

حدّد فريق تتبّع «السي.آي.إيه.» مخيّم الصيد بإشارات لاسلكية، وحصل على إحداثيات نظام التمركز الشامل. وبدأوا المراقبة على الأرض من مسافة آمنة. طلب مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي تغطية من الأقمار الصناعية مباشرة: صور الخيم المنتفخة بالهواء يومياً في الاتصالات الآمنة في سفارة إسلام آباد. أكدت الصور ما أبلغ عنه العملاء. نقل مركز إسلام آباد الذي كان يعمل عن كثب مع مركز مكافحة الإرهاب «أن الهدف لا يزال قابلاً للتطور»(815).

راجع ريتشارد كلارك وساندي بيرغر وبعض المساعدين في البيت الأبيض الذين يتمتعون بسلطة أمنية، صور الأقمار الصناعية والتقارير التي أرسلها فريق التتبع القبلي. بدأوا إلى جانب المدراء الرفيعي المستوى في «السي.آي.إيه.» بطرح الأسئلة على مركز إسلام آباد: في أي خيمة هو؟ في أي وقت من النهار يوجد في الخيمة؟ أين يصلّي؟ وأفادت معلومات بأن بن لادن كان يزور باستمرار مخيماً مجاوراً لمخيم الصيد الرئيسي. قامت «السي.آي.إيه.» بإرسال البرقيات إلى فريق التتبع القبلي الذي كان يجول بالقرب من المخيم بحثاً عن أجوبة لأسئلتها. ويذكر شخص مطّلع أن «السي.آي.إيه.» تمكّنت من تحديد الخيمة التي ينام فيها بن لادن. لكن، لا يزال كلارك قلقاً من أن تكون الإحداثيات التي كشفها الفريق القبلي غير موثوق بها. فقد كانوا يجولون خارج نطاق أرضهم. أخبر كلارك نائب مستشار الأمن القومي دونالد كيريك في 10 شباط/فبراير أن البنتاغون يمكن أن يطلق صواريخ موجّهة في الصباح التالي، لكن الخيارات الأخرى، مثل اشتراك القوات الخاصة مثلاً، ستتطلب وقتاً أطول. استمرت الأسئلة في التدفق إلى مركز إسلام آباد. أراد مركز لانغلي والبيت الأبيض المزيد من الدقّة. مرّت الأيام. واعتقد بعض ضباط «السي.آي.إيه.» المطلعين أن الأدلة كانت قوية وكافية لشن الهجوم. وبينما كانت الأسئلة التي تبحث عن المزيد من التفاصيل تتدفق عبر شاشات الكومبيوتر، راح رئيس مركز إسلام آباد غاري شروين وزملاؤه الضباط الذين يعملون على القضية، يسألون بتهكم: «لكن، ماذا سيحدث إذا أراد بن لادن أن يخرج ليقضي حاجته؟»(816).

وصف شروين شعور الضباط الذين يعملون على القضية بشكل حازم: «لنفجّر المخيم بأكمله. وإذا قتلنا بن لادن وقُتل معه خمسة مشايخ آخرين، فلهم منا عميق الأسف. ماذا يفعلون مع بن لادن؟ إنه إرهابي. لا تنم بين القبور ولا تحلم بالكوابيس»(817).

كانت وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، بشكل خاص، تشجع تفجير المخيم أو قصفه بالصواريخ. هكذا هي حياتهم. لقد شعروا بأن بن لادن يفكر دائماً في استهداف الولايات المتحدة الأميركية. كانوا يجدون كل صباح رزمة من التهديدات الجديدة. لقد ارتكبوا أخطاء عديدة من هذا النوع سابقاً. واليوم يريدون إصابة الهدف.

اختلفت المعلومات بعد سنين، حول كيف، ومتى تبيّن للمرة الأولى أن مخيمات الصيد تم تنظيمها من قبل شخصيات ملكية من الإمارات العربية المتحدة. ويذكر عدة ضباط أن صور الأقمار الصناعية أظهرت طائرة من نوع سي. 130 على الأرض بالقرب من المخيم، وأن الطائرة ملوّنة بنمط مموّه تستخدمه القوات الجوية في الإمارات العربية المتحدة. ويذكر أحد المشاركين أن الأقمار الصناعية التقطت رقماً على الطائرة يعود فعلياً إلى حكومة الإمارات العربية المتحدة. يعرف ريتشارد كلارك العائلة الملكية في الإمارات العربية المتحدة حق المعرفة. لقد عمل لسنين مع جهاز الاستخبارات الإماراتي ومع العائلة الحاكمة والجيش. تفاوض مع جهاز الاستخبارات الإماراتي حول صفقات أسلحة واتفاقيات لإنشاء قواعد عسكرية، وتبادل معه النصائح والخدمات. لقد عاد تواً من ذلك البلد، حيث أجرى محادثات حول الإرهاب وشراء الأسلحة. ومن المحتمل أن يزيد وجود العائلة الإماراتية الحاكمة، من المخاطر. فالإمارات مزوّد مهم لأميركا وحلفائها بالنفط والغاز. وقد تعاونت مع الولايات المتحدة في اتفاقيات لإنشاء قواعد عسكرية. ويتلقى مرفأ دبي من البحرية الأميركية عدداً من الاتصالات أكثر من أي منطقة أخرى. كان المكان الوحيد في الخليج الذي يستقبل حاملات الطائرات الأميركية. تم استهداف العائلة الحاكمة في الإمارات أيضاً من قبل حملة «شجع البضاعة الأميركية» التي قامت بها إدارة كلينتون للفوز بعقود خارجية لتصنيع الأسلحة وشركات أخرى. دخل الشيخ زايد الصفقة من باب واسع: في شهر أيار/مايو من العام 1998، في صفقة سهّل لها تقريباً كلارك، وافقت الإمارات العربية المتحدة على عقد شراء 80 طائرة حربية من نوع أف 16 بقيمة 8 مليارات دولار أميركي. سيغني العقد شركات الدفاع الأميركية. سيتم تصنيع الطائرات في تكساس، لتوفر فرص عمل جيدة في بلد مهم سياسياً(818). إذا قامت الولايات المتحدة بتفجير المخيم وقتلت بعض الشيوخ الإماراتيين، فستخاطر بكل ما تقدّم، حتى لو نجحت في قتل بن لادن. وفي الواقع، لا يعتبر أي شخص في الخليج بن لادن تهديداً خطيراً إلى درجة المجازفة بموت حاكمه تسهيلاً لقتله، سيردون على تلك الضربة بغضب شديد، وستكون نتائجها غير معروفة على الولايات المتحدة. وفي النهاية، إذا تبيّن أن بن لادن لم يكن موجوداً في مخيم الصيد، ستثير ردود الفعل ضد الولايات المتحدة من جديد، الخلاف الذي نشأ في الصيف الماضي حول ضرب
منشأة الشفا في السودان بحدة لا مثيل لها.

تمّت مناقشة كل تلك الاحتمالات في البيت الأبيض قبل يومين فقط من تصويت مجلس الشيوخ نهائياً على معاقبة كلينتون. كان واضحاً أن كلينتون سيفوز في المحاكمة وينهي ولايته، إلا أن سلطته أصبحت ضعيفة جداً. لذلك، لم يكن الوقت المثالي لهجوم ضد إرهابي دفع بعض الأميركيين إلى الشعور بأنهم مهدّدون.

لم يفهم بعض ضباط «السي.آي.إيه.» المطلعين تردّد البيت الأبيض. تأكّد بعضهم من وجود بن لادن داخل المخيم بسبب تقارير «السي.آي.إيه.» والعملاء، وفريق التتبع القبلي خارج المخيم، وصور الأقمار الصناعية والبرقيات. نادراً ما يبقى بن لادن في مكان واحد مدة طويلة. اعتقد البعض في سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد أن التقارير الأخيرة حول مرض بن لادن صحيحة، وقد سافر إلى المخيم الفخم لاستعادة عافيته(819).

لكن، لا يضمن أي من مركز إسلام آباد أو مركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، وجود بن لادن في مخيم الصيد بنسبة مئة في المئة. لم يحصلوا على صورة لبن لادن يقف خارج خيمته. ولم تتمكن الأقمار الصناعية من التقاط صورة بتلك الجودة، ولم يستطع فريق التتبع الاقتراب من المخيم. لذلك ستراودهم بعض الشكوك إذا قرروا إطلاق الصواريخ. أما جورج تينيت فلم يكن مقتنعاً بأن التقارير موثوق بها بشكل كامل.

كان جيش الولايات المتحدة يعتمد على حلفائه الأغنياء في الخليج العربي على الرغم من دعمهم للإسلاميين أحياناً. وبرأي بعض الأشخاص المطلعين، يجب أن يكونوا متأكّدين بشكل تام لتوجيه ضربة إلى بن لادن. في الجيش الأميركي، وفقاً لغاري شرويت، «لم يشأ أحد أن يقول: «حسناً، لقد فجّرتم مخيماً ملآن بالشيوخ الإماراتيين، وقتلتم نصف العائلة الحاكمة، لكنكم لم تتمكنوا من بن لادن»(820).

كان مجلس الأمن في إدارة كلينتون يراقب المخيم أكثر من أسبوع. أصبحوا يعرفون ما يستطيعون فعله. لكن عليهم اتخاذ القرار. لم ينصح ريتشارد كلارك بتوجيه ضربة بالصواريخ الموجّهة؛ وكذلك تينيت أيضاً. وبحلول 12 شباط/فبراير، يوم تبرئة كلينتون من التهم الموجهة إليه، كان بن لادن قد غادر المخيم وفقاً للتقارير.

اتصلت السفارة الأميركية في أبو ظبي، عاصمة الإمارات العربية المتحدة، بعد ذلك، بحكومة الشيخ زايد، وطلبت إحداثيات دقيقة حول مخيم العائلة للصيد في أفغانستان. أكّدت خرائط الطيران ومعلومات أخرى حصلوا عليها من وزارة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة، وجود مخيم صيد للعائلة. لكن دولة الإمارات أبلغت البيت الأبيض لاحقاً أن أحداً من أفراد العائلة الملكية لم يكن موجوداً في المخيم. وبحسب معلوماتهم، لم يكن بن لادن موجوداً أيضاً. استنتج الأميركيون لاحقاً أنه كان يوجد مسؤولون رفيعو المستوى من دولة الإمارات في المخيم فعلاً، لكنهم رفعوا المخيم بسرعة في شهر آذار/مارس إثر اتصال كليرك بالمسؤولين الإماراتيين. غضب بعض

الضباط في «السي.آي.إيه.» الذين كانوا يفضلون مراقبة المخيم بهدوء أملاً في عودة بن لادن، من اتصال كلارك. بدأت سفارة الولايات المتحدة في أبو ظبي بالضغط على العائلة الحاكمة لوقف جميع رحلات الصيد. واحتجّ الأميركيون بأن تلك الرحلات تخرق عقوبات الأمم المتحدة لعزل طالبان. ووفقاً للأمم المتحدة وتقارير أخرى، اشتبه الأميركيون في أن طائرة السي. 130 التي أقلعت من دبي نقلت أسلحة إلى حركة طالبان. كانت دولة الإمارات العربية المتحدة إحدى الدول الثلاث التي اعترفت بطالبان، برغم أن مسؤوليها أخبروا الأميركيين بأنهم «يريدون التعاون ومعرفة ما يستطيعون أن يقدّموا للمساعدة»، كما يذكر ضابط في وزارة الخارجية مطلع على تسليم خريطة المعلومات حول مخيمات الصيد في أفغانستان.

من جهتها، كانت دولة الإمارات العربية المتحدة، قلقة بشأن إدخال المعلومات التي سلمتها إلى حواسيب الاستهداف الأميركية بشكل صحيح. ويذكر المسؤول نفسه أن العائلة الحاكمة كانت «لديها مخاوفها الخاصة حول «إساءة تفسير الهدف الحقيقي لمخيماتها» بعد نتائج ضرب الشفا»(821).

بالنسبة إلى بعض الضباط الذين يعملون في الميدان في مطاردة بن لادن، كان وقف الهجوم قراراً لا يُغتفر. فقد أضيف، بعد تفجير السفارتين في أفريقيا، إلى خطة مهاجمة مزرعة تارناك واختطاف بن لادن التي تم رفضها. كانت تلك الخطة تحتمل مخاطر كثيرة ونتائج غير أكيدة. أما خطة المخيم الصحراوي، كما يذكر شروين معبّراً عن رأي الضباط الآخرين، «فكانوا متأكدين من وجوده هناك. ولديهم المعدات في مكانها. ولن يخاطروا بحياة أحد من زملائهم الأفغان أو من الجانب الأميركي. كما أنهم على يقين بأنهم سينجحون. كان بمقدورهم التخلص منه. وبرغم أن بعض الأشخاص الآخرين سيقتلون، لكنهم سيتخلصون منه بشكل نهائي». راح بعضهم يلوم كلارك، معتبرين أنه مقرّب كثيراً من العائلة الإماراتية الحاكمة، بسب اتفاقيات الدفاع، وأنه لن يخاطر في مضايقتها(822).

خلال شهر أيار/مايو، كرّر مسلسل الإحباط نفسه. نقلت تقارير من «السي.آي.إيه.» معلومات حول تحركات بن لادن وأنماط نومه مدة خمس ليال في قندهار بدقة لا مثيل لها. تم إعداد خطة للهجوم بالصواريخ الموجّهة مرة ثانية. وراحت إدارة مجلس الأمن القومي تراجع مرة أخرى المعلومات لتتأكد من أنها كافية، كما كانت تتأكد من عدد الضحايا المدنيين المحتملين. وبينما كان البيت الأبيض يتردد، كتب مايك سكوير، رئيس وحدة بن لادن في مكتب مكافحة الإرهاب، إلى زميل له في السلك «بأنه يشعر بالغضب لتفويت ثلاث محاولات للنيل من أسامة بن لادن خلال 36 ساعة... وسيجد مدير «السي.آي.إيه.» نفسه وحيداً إلى الطاولة مع المسؤولين الآخرين الذين سيقولون «نحن نوافق على قرارك حضرة المدير»، لافتاً ضمناً إلى أن الوكالة ستبقى وحيدة إذا لم يقض الهجوم على بن لادن». من جهته، في حال كان «يعلم» مكان إقامة بن لادن الليلة، «أو يجهله»، يذكر كلينتون كيف تم إخباره أن بن لادن سيحضر اجتماعاً للقيادات في شرقي أفغانستان

بعد تفجير السفارات في أفريقيا، لكن بن لادن «غادر قبل ساعتين» من إطلاق الصواريخ. لذلك عندما يتلقى كلينتون تقارير حول مكان بن لادن، يقول فوراً: «ماذا لديّ إذاً؟ فرصة بنسبة 40 في المئة للنيل منه».

في تلك الأثناء كان شروين يبعث بالمزيد من الرسائل الالكترونية احتجاجاً على اعتماد الوكالة بشكل كبير على علاقاتها بحلفائها غير الجديرين بالثقة في الخليج العربي. ويجسّد رئيس وحدة بن لادن كل رد فعل ينشأ في مكاتب مكافحة الإرهاب المجزّأة. لقد كان فوضوياً غبياً لا يتمتع بحس المسؤول الدبلوماسي الذي يشعر بأن الولايات المتحدة تتعامل مع قتل بن لادن كمسألة طوارئ. كان البيت الأبيض يشتكي أحياناً إلى تينيت بأن سكوير ليس أهلاً لإدارة وحدة بن لادن. فهو لا يتحلّى ببعد النظر في مقاربته. وبرأي شخص دائم الاطلاع على رسائل سكوير الالكترونية التي أرسلها بعد حادثة مخيم الصيد، كانت الرسائل غريبة تعكس غضبه، وتم توزيعها على الجميع. وخلال أعوامه الثلاثة في وحدة بن لادن، قال سكوير إنه يعتقد أن مديرية المعلومات في «السي.آي.إيه.» «تكاد تكون المكوّن الوحيد في المجتمع الاستخباري الذي اشترك في الحرب التي أعلنها بن لادن على الولايات المتحدة في شهر آب/أغسطس من العام 1996. أما «السي.آي.إيه.» والمجتمع الاستخباري، فيعتبران جهودنا غريبة، وفي بعض الأحيان متطرفة». تم نقل سكوير بعد ذلك إلى منصب آخر في مراكز لانغلي. في مراكز «السي.آي.إيه.»، حيث لا يعرف الضباط عن عمل زملائهم سوى القليل، لم يتأكدّ زملاؤه قط مما جرى، لكنهم أقله يعرفون أن سكوير تم نفيه، لتحمسه الشديد لتهديد بن لادن، وغضبه من فشل الهجوم على مزارع تارناك ومخيّم الصيد في الصحراء(823).

لم يبرر تينيت دوافعه بشكل واسع. لكن بعد سنين، أوضح أنه في كل مرّة كانت إدارة كلينتون تناقش الهجوم بالصواريخ الموجّهة، كانت المشكلة عدم الجزم بوجود بن لادن. استنتج تينيت أنه يجب مراجعة استراتيجية «السي.آي.إيه.» ضد بن لادن. طلب تينيت في بداية العام 1999، إلى مركز مكافحة الإرهاب البدء بمراجعة «أساسية» لاستراتيجية «السي.آي.إيه.»: العملية ضد بن لادن. أراد تغيير العملية بأكملها، والنظر إليها من زاوية جديدة. راح كلارك من البيت الأبيض يضغط على تينيت للتغيير، مشيراً إلى أن سكوير في وحدة بن لادن والمدراء الكبار، مثل بول بيلار، على السواء، ليسوا القادة المناسبين لحملة ضد بن لادن(824).

أرسل تينيت في غضون أشهر مساعداً تنفيذياً معروفاً من الطابق السابع - الأرض الخصبة بقادة «السي.آي.إيه.» عادة - ليحل محل سكوير في وحدة بن لادن. وعندما ترك مدير مركز مكافحة الإرهاب جيف أوكونيل منصبه (ثم أصبح رئيس مركز «السي.آي.إيه.» في تل أبيب)، حصل تينيت على فرصة أخرى ليغيّر الأمور. من سيلاحق بن لادن، أو يملك الدوافع لحل هذه الأزمة أفضل من ضابط «السي.آي.إيه.» الذي حاول بن لادن قتله مرّة؟

# 25
# عائلة مانسون

كان تينيت بداية العام 1999، مقتنعاً بأن بن لادن يستطيع توجيه ضربة إلى الولايات المتحدة مرة ثانية في أي وقت. و «لا يملك أدنى شكّ» في أن بن لادن يخطط لهجمات جديدة. أصدر مدير «السي.آي.إيه.» هذا التحذير علناً وسراً. وحصل على أدلة تشير إلى أن بن لادن يتمتع بعلاقات داخل الولايات المتحدة. توقّع تينيت «محاولات تفجير باستخدام متفجرات تقليدية»، وأخبر الكونغرس والبيت الأبيض بذلك. وأشار إلى أن أتباع بن لادن قادرون على تنفيذ عمليات «خطف واغتيال». كان قلقاً من أن تحصل القاعدة على أسلحة دمار شامل، وتتمكن من استخدامها. واعتبر تينيت أن هجوماً كيميائياً أو بيولوجياً من قبل بن لادن أو حلفائه، أصبح اليوم «احتمالاً وارداً»(825).

زاد استياء تينيت من تقلّب مزاج إدارة كلينتون في اهتمامها بتهديد تنظيم القاعدة. لقد أمضى أسابيع يراقب ابنه يلعب كرة القدم في الضواحي، وكان يشتكي لزملائه في «السي.آي.إيه.» من أن سياسة الإدارة المتعلقة ببن لادن تشبه «أولاداً في سن السنتين يلعبون كرة القدم، يتوجهون جميعاً نحو الكرة»، ثم لا يلبث أن يتلاشى اهتمامهم، ويركضوا في اتجاه الجانب الآخر من الملعب لمطاردة شيء آخر(826).

وعلى الرغم من تحذيراته الشديدة، لم يصف مدير الـ «سي.آي.إيه.» بن لادن يوماً في العام 1999 كأهمّ وأخطر تهديد تواجهه الولايات المتحدة. كان تينيت قلقاً، مثل رئيسه، بشأن انتشار الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية، وبشأن الصواريخ البعيدة المدى التي قد تصل إلى قلب الأراضي الأميركية. لذلك، عندما أحصى تينيت التهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة، وضع بن لادن في المرتبة الثانية بعد تخصيب الأسلحة غير التقليدية. وفي بيان غير سري مؤلف من سبعة وتسعين مقطعاً، صدر خلال فصل الشتاء حول المخاطر الناشئة في عالم غير مستقرّ، لم يخصص تينيت لبن لادن سوى أربعة مقاطع. كما أنه لم يركّز على أفغانستان كسبب أو سياق لتهديد بن لادن. لم يصرّح تينيت يوماً بأن بن لادن أو القاعدة تشكل فصيلاً قوياً في الحرب الأهلية الأفغانية، وأنها تتمتع بعلاقات طيبة مع الاستخبارات الباكستانية، أو أنها تتلقى المساعدات من الأمراء والمشايخ السعوديين ومن دول الخليج والدُّعاة الإسلاميين. فعلى سبيل المثال، لم يذكر تينيت حركة طالبان في البيان الذي أصدره ذلك الشتاء، سوى كمصدر محتمل ليقتدي به المتطرفون الإسلاميون في باكستان. ولم يصف حركة طالبان كتهديد للولايات المتحدة أو الاستقرار في وسط آسيا وجنوبها، أو كأهم حليف عسكري لبن لادن(827).

ندم تينيت بعد سنين، بسبب أنه من بين «العوائق المروّعة» التي واجهت حملة «السي.آي.إيه.» ضد القاعدة خلال العام 1999، كانت «سياسة الولايات المتحدة التي توانت في استبدال نظام

طالبان، الذي يحدّ من قدرة حكومة الولايات المتحدة على ممارسة الضغط على بن لادن». لكن، مهما بلغت درجة استياء تينيت من السياسة في ذلك الوقت، أو تراءت له سياسات بديلة، لم يصرّح عن رأيه علناً، ولم يفرض وجهات نظره داخل الإدارة(828).

نضج تينيت في لانغلي ونجح في عمل تسبب في فشل الكثير من أسلافه المخضرمين. في بداية العام 1999، أثبت أنه مدير استثنائي وقائد للجماهير، وكسب ثقة كلينتون الشخصية. إلا أنه بقي إلى حدّ ما، ذلك المدير في كابيتول هيل، الذي يصوغ وجهات نظر الآخرين ويديرها. كان تينيت رجلاً عميقاً، وقد شعر بتهديد بن لادن، لذلك كان يُصدر التحذيرات ويحثّ على العمليات السرّية داخل فريق العمليات السرّية في مركز مكافحة الإرهاب. لكنه كان يتقبّل مشكلة بن لادن وفقاً لشروطه الخاصة، كمكافحة تقليدية للإرهاب، أو كمسألة سياسية تمكن معالجتها بعمليات الأسر السرّية، أو إطلاق الصواريخ. وأشار تينيت لاحقاً إلى أن مواجهة بن لادن وحركة طالبان بشكل أوسع، تتطلب سياسة خارجية جديدة.

قبل أكثر من عشر سنين ساعد ويليام كايسي، المناهض للشيوعية، على وضع سياسات الرئيس العامة من لانغلي، وتوجيهها. لم ير جورج تينيت نفسه أو «السي.آي.إيه.» بهذه الطريقة. وفي سياق تغيير منهجه في مركز مكافحة الإرهاب خلال ربيع العام 1999، أمر تينيت بإعداد «خطة جديدة شاملة وعملية» لمهاجمة بن لادن وحلفائه. تهدف الخطة إلى «إلقاء القبض على بن لادن ومحاكمته وقادته الأساسيين». ولهذه الغاية، تحتاج «السي.آي.إيه.» إلى معلومات أفضل حول تحركات بن لادن. طلب تينيت وجود موارد بشرية أكثر في أفغانستان، وتوثيق العلاقات بأجهزة الاستخبارات الإقليمية، وجمع المعلومات بفعالية أكثر، ومن ضمنها التنصت على الاتصالات وصور الأقمار الصناعية(829).

بدأ يشيع في جناح تينيت في الطابق السابع، وكذلك في مكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، أن مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» أصبح يتّكل بشكل كبير على مجموعة العملاء القبليين في جنوبي أفغانستان. ووصفهم أحد مساعدي تينيت بسخرية بـ «المحاربين في أيام العطلة»، في مرحلة متقدمة من العمر، أصبحوا اليوم مقاتلين أفغاناً واعدين مع بعض رشاشات الكلاشينكوف في خزانتهم. طُلب إلى العملاء القبليين أن يقوموا بدور حراس بن لادن المتدينين والشرسين الذين سيقاتلون في سبيله حتى الموت. كان هناك تساؤل صغير إذا كان الفريق سيتردد في الهجوم. كانت تقاريرهم حول تحركات بن لادن جيدة جيداً، برغم أنها تأتي متأخرة أحياناً يوماً أو يومين. كان العملاء ينقلون المعلومات بثقة. فخلال مخيم الصيد الصحراوي مثلاً، كانوا مستعدين للمخاطرة كفريق تعقّب، بالتجسسّ على بن لادن من مسافة قريبة. لكن في الأمر مبالغة عندما يتوقع منهم التصرف كقوة عسكرية حازمة ضد مقاتلي القاعدة العرب الأشدّاء، لاسيما منذ أن حذّرت قواعد الالتزام في البيت الأبيض من الهجمات العشوائية(830).

شجّع تينيت على وضع خطط جديدة مؤكّدة ضد بن لادن: تجنيد العملاء، إدخال أجهزة الجمع التقنية، والعمليات العسكرية السرّية. لكن وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب كانت تعجّ بالمحلّلين من مديرية الاستخبارات، وليس بالجواسيس من مديرية العمليات. وشكّل العنصر النسائي خلال ذلك الربيع، 70 في المئة من الخبراء في الوحدة، ويتمتع ثلث هؤلاء النسوة بخلفيات تحليلية. كان بإمكانهن استدعاء الجواسيس من مراكز «السي.آي.إيه.» البعيدة، لكن خبرتهن الشخصية كانت محدودة. كنّ على درجة عالية من الثقافة، ويعملن ساعات طويلة، وأصبحن متحمسات كثيراً جراء تهديد بن لادن. لقد قمن بدراسة فتاوي بن لادن، ووضع رسوم بيانية لشبكته الدولية، ودراسة تقارير التحقيقات بدقّة، ومراقبة الفروق الغامضة في الجدل اللاهوتي بين الإسلاميين المتطرفين السنّة. كانت تُعتبر مجموعات صغيرة نسبياً، تعود خبرتها إلى ثلاث سنين، مقارنة بالمعدّل الأساسي في مديرية الاستخبارات الذي يصل إلى ثماني سنين. لقد كافحن عدة مرات لإقناع الضباط في مديرية العمليات للعمل وفقاً لمطالبهن. لكن ضبّاط «السي.آي.إيه.» الذين يعملون خارجاً في الميدان، لم يرغبوا في «تلقي أوامرهم من نساء» يعملن في لانغلي، بحسب ما يذكر أحد المدراء في مركز مكافحة الإرهاب(831).

كان المحللون في وحدة بن لادن متحمسين كثيراً لعملهم، إلى درجة أنهم كانوا يزعجون زملاءهم في «السي.آي.إيه.». في صيف العام 1999، كانت الوحدة تضم 25 خبيراً. أطلقوا على أنفسهم اسم «عائلة مانسون»، لأنهم اكتسبوا شهرة بحذرهم الجنوني من تهديد القاعدة. طلب إليهم أحد الأشخاص المطلعين وصف الأجواء داخل الوحدة. اعتقد أحد زملائهم أنهم فقدوا رشدهم. ويقول أحد الضباط الأميركين إنهم «كانوا يشكلون طائفة، ويشعرون باستياء شديد، ويتساءلون: لماذا لا يشاركهم الآخرون في وجهة نظرهم؟»(832).

قدّر تينيت حماسة وحدة بن لادن، لكنه كان بحاجة إلى إنجاز. لقد أخبر مجلس الشيوخ في اجتماع سرّي في 24 حزيران/يونيو «بأنهم اطلعوا على تقارير متعددة حول تخطيط بن لادن وشركائه لشن هجمات إرهابية ضد مسؤولين أميركيين ومنشآت في مختلف البلدان، من بينها الولايات المتحدة الأميركية». في ذلك الربيع، قام المدير بتعيين أحد المساعدين التنفيذيين الأساسيين لنائبه، المعروف بـ «ريتش»، لإدارة وحدة بن لادن. عمل الرئيس الجديد ضابطاً في الجزائر خلال أوائل العام 1999، وسط نشأة أبشع الموجات الإسلامية المتطرفة العنيفة، التي كان بعض عناصرها من المقاتلين الأفغان. كان على اطلاع على قضية بن لادن، وعلى معرفة جيّدة بدول العالم الثالث، ولا يمانع أبداً بالقيام برحلات خطيرة. كان ريتش متحمساً هجومياً كزميله الجديد. منذ قدومه مباشرة من مجموعة تينيت القيادية، اعتبروا وصوله إشارة إلى تجديد الاهتمام البالغ بقضية بن لادن. ومن المتوقع أن تساهم علاقات الرئيس الجيدة، في جذب الموارد إلى القضية، وتسهيل عمليات اتخاذ القرارات.

أعقب تينيت هذا التغيير بتغيير جديد: عيّن كوفر بلايك مديراً لمركز مكافحة الإرهاب. لقد غادر بلايك مدينة الخرطوم في السودان منذ أربع سنين فقط. وبصفته رئيساً للمركز هناك، كان يشرف على عمليات جمع المعلومات السرية المشددة ضد بن لادن، مطارداً الرجل السعودي ورجاله في

الشاحنات والسيارات. لقد أحبط بلايك محاولات قادة بن لادن لنصب كمين له وقتله في طريق بالقرب من سفارة الولايات المتحدة. كان يأخذ قضية بن لادن على محمل شخصي.

ويروي ضابط مطلع على عملية النقل، أن تينيت قال لبلايك: «هذا العمل سيئ. هؤلاء الرجال يزدادون قوّة، ونحن سنتعرض لهجوم. علينا محاربتهم وتحقيق المزيد من النجاحات. علينا ملاحقة هؤلاء الرجال»(833).

خلق خطاب تنصيب بلايك، باللكنة البريطانية، المليء بالصور البيانية الحربية، أجواء عسكرية في مركز مكافحة الإرهاب. كان هو ورئيس وحدة بن لادن، يعرف كلاهما الآخر جيداً، من سنيّ عملهما معاً في مديرية العمليات. أرادا تغيير استراتيجية الوحدة. لم يكن بلايك شريكاً عادياً بالنسبة إلى بول بيلار، محلل الإرهاب الاستراتيجي الذي بقي فترة طويلة نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب. إن تركيز بيلار على إدارة التهديدات الإرهابية الدائمة، وتشكيكه في تحويل إدارة كلينتون للحملة ضد بن لادن كمسألة شخصية، يتعارضان مع طموحات بلايك الجامحة. وبعد أعوام من الإرهاق، والخدمة المضنية، غادر بيلار المركز بعد وقت قصير للالتحاق بمنظمة لوضع الدراسات في واشنطن.

أراد بلايك ورئيس مركز بن لادن الجديد «الدخول» إلى أفغانستان، واختراق ملاجئ بن لادن فيها. وصفا خطتهما بأسلوب يشبه أسلوب ضباط الجيش، واقترحا إحاطة أفغانستان بقواعد سرية آمنة - أكبر عدد ممكن من القواعد - لعمليات «السي.آي.إيه.»، ثم إطلاق العمليات من تلك القواعد في محاولة للتحرك داخل أفغانستان على مسافة قريبة من بن لادن لتجنيد العملاء، ومحاولة تنفيذ عمليات أسر.

أعلن بلايك أنهما سيتعاونان مع أجهزة الاستخبارات من حين إلى آخر، ويعملان وحدهما أحياناً أخرى. لن يحاولا اختيار شركائهما بصعوبة. قال بلايك إنه يريد تطوير العلاقات، ولاسيما بغية تجنيد العملاء من كل جهاز استخباري في الشرق الأوسط وجنوبي آسيا، بما قد يساعد على تقديم رؤية للنيل من بن لادن وقادته. أخبر بلايك زملاءه: «لا يهمنا من تكون، أعمى مشلولاً أم مجنوناً، نريد أن نكون على اتصال معك». وفي ملف تم تقديمه في اجتماع مغلق لمركز مكافحة الإرهاب في 10 كانون الأول/ديسمبر، أعلن أنهم «في حرب». يجب أن يستمروا في إثارة شكوك بن لادن حول «أمن عملياته». لم يشأ بلايك أن يجلس في المطاعم لتبادل التقارير الخطية، ويتّبع الأسلوب التقليدي في التركيز على العلاقات الاستخبارية. أراد أن يبدأ بتجنيد العملاء وتطوير فرق المغاوير أو الفرق التي تنفذ هجمات شبه عسكرية، وتتألف من رجال وضباط يستطيعون «الاندماج» في ما بين الشعوب الإسلامية(834).

على الرغم من دعم تينيت، كانوا يبحثون عن الموارد. في الأسابيع نفسها التي بدأ يتحدث إلى البيت الأبيض والـ «أف.بي.آي.» والبنتاغون حول «الخطة» لإعادة إحياء العمليات ضد بن لادن، كان بلايك مُجبَراً على اقتطاع 30 في المئة من ميزانية العمليات في مركز مكافحة الإرهاب، من بينها مركز بن لادن. بدأت «السي.آي.إيه.» بتعويض النقص في طاقمها. لكن، في نهاية العام 1999، كانت لا تزال تعاني نقصاً بنسبة 25 في المئة في ضباط العمليات مقارنة بعشر سنين إلى الوراء. غالباً ما يمكن تعويض العجز المالي في مركز مكافحة الإرهاب من خلال جرد الميزانية في نهاية السنة المالية، لكن هذه المحاولة غير نافعة وغير مؤكدة. وبينما كان يعد عرضاً موجزاً لتينيت والبيت الأبيض خلال ذلك الصيف، راح بلايك «يتباهى بأن الخطة» كانت شاملة وعامة وطموحة من وجهة نظر جديدة. لكن عرضه الملون كان يُخفي فاتورة مبتذلة. فتوصلت دراسة، بتفويض من بلايك، تم تقديمها إلى «السي.آي.إيه.» في 16 أيلول/سبتمبر من العام 1999، إلى أن مركز مكافحة الإرهاب لا يمكن أن يواصل خططه الطموحة ضد القاعدة من دون المزيد من الأموال والأشخاص(835).

والأسوأ من ذلك، أن الخريطة الجغرافية - السياسية التي وضعها بلايك ورئيس مركز بن لادن الجديد، لم تكن واعدة. كانت أفغانستان الواقعة تحت سيطرة طالبان «منطقة منكرة» بلغة «السي.آي.إيه.»، لا تتمتع بقواعد آمنة للعمليات الدائمة. وباكستان لا تبدو شريكاً أهلاً للثقة. كانت الاستخبارات الباكستانية برأي بلايك ورئيس مركز بن لادن الجديد، تتعاون كثيراً مع حركة طالبان ومؤيدي بن لادن، إلى درجة أنهما لا يمكنهما الاعتماد على العمليات المشتركة معها، مثل تدريب «السي.آي.إيه.» لفرقة مغاوير. كما أن لإيران حدوداً طويلة مع أفغانستان، لكنها موضوع غير قابل للنقاش من جهة الشراكة. أما تركمانستان، جارتها الأخرى، فلا تريد أي علاقة لها بالـ «السي.آي.إيه.». وفي الشمال الشرقي كانت الحرب الأهلية تقضي على طاجكستان.

لم يبق سوى أوزبكستان التي تحدّ أفغانستان شمالاً، بعيداً عن معقل طالبان جنوباً وشرقاً حيث يعمل بن لادن بشكل أساسي. رأى بلايك وزميله أن حكومة أوزباكستان لم يخترقها بعد أقله مؤيدو بن لادن. يحكم البلاد رئيس علماني شيوعي سابق مستبد، يدعى إسلام كريموف، ويتصرف كأنها ملكية خاصة به. لم يكن يتعاطف مع بن لادن. كانت مجموعة أصولية عنيفة باسم الحركة الإسلامية الأوزبكستانية تهدد حكم كريموف. تأثر قادتها بالدعاة السعوديين، واجتمعوا أخيراً في المنفى مع بن لادن في أفغانستان. وبحلول العام 1999، رأى بن لادن وقيادة طالبان في هؤلاء الأوزبكستانيين الإسلاميين حلفاء مهمين. فراحت العناصر الأوزبكستانية الإسلامية تحارب مع حركة طالبان ضد قوات مسعود شمالي أفغانستان في صفوف المواجهة. كانت هناك أيضاً بوادر لخطط بن لادن العظيمة لدعم
القوات الإسلامية لتشكل ضغطاً في وسط آسيا لخلع القادة العلمانيين في المنطقة، وتأسيس خلافات جديدة.

قام بن لادن بتزويد الأصوليين الأوزبكستانيين الأموال والأسلحة، وهيأ لهم التدريب في المخيمات. وقدمت إليهم طالبان القواعد والمنازل في كابول وفي الشمال. بدأت وحدات الأوزبكستانيين بالتسلل

عبر الحدود لتنفيذ عمليات ضد حكومة كريموف. في 16 شباط/فبراير من العام 1999، كشفوا عن أنفسهم من العاصمة طشقند: وبينما كان كريموف يتوجه في سيارته الليموزين لحضور اجتماع لمجلس النواب، قام الأصوليون بتفجير ست سيارات بواسطة القنابل في مركز وسط المدينة. تمكن كريموف من النجاة، لكن 16 شخصاً قُتلوا في الهجوم. وفي غضون أيام، اعتقل كريموف أقله ألفي ناشط إسلامي. كانت معظم عمليات الأسر عشوائية، فراح ضحيتها أيضاً الأحزاب الديموقراطية السلمية التي تعارض حكم كريموف المستبد. لكن كريموف وصف من جهته هذه الحملة بالحرب ضد حلفاء بن لادن(836).

وجد كوفر بلايك وزميله فرصة في هذا التحوّل. استطاعا الاتصال بحكومة كريموف من خلال مركز «السي.آي.إيه.» في طشقند، واقترحا تحالفاً استخبارياً جديداً يركز على أعدائهم المشتركين في أفغانستان. كان كريموف يحتاج إلى مساعدة «السي.آي.إيه.»، لكنه كان قلقاً حيال الثمن السياسي الذي سيدفعه إذا افتضحت علاقاته بمركز لانغلي. وافق على التعرف إلى اقتراحات «السي.آي.إيه.»، مع إصراره الشديد على المحافظة على سرّية أي صفقة بينهما.

توجّه بلايك ورئيس مركز بن لادن الجديد، ريتش، سرّاً إلى طشقند - وهي مدينة أُنشئت على النمط السوفياتي، بشوارعها الواسعة ومبانيها الحكومية الضخمة الممتدة في سهول آسيا الوسطى المنبسطة - لوضع برنامج جديد لـ «السي.آي.إيه.». اقترح بلايك أن تقوم «السي.آي.إيه.» بتمويل قوة لمكافحة الإرهاب، وتدريبها، على أن تكون بقيادة الجيش الأوزبكستاني. وأملت «السي.آي.إيه.» أن تتمكن الفرقة، متى تم تدريبها وتجهيزها، من القيام بعمليات خطف ضد بن لادن وقادته(837).

وافق كريموف على الخطة. وضع القواعد الجوّية الأوزبكستانية بتصرف «السي.آي.إيه.» للعمليات التي يتم التنقل فيها بمسافات قصيرة، والتي تستخدم فيها المروحيات. كما سمح لـ «السي.آي.إيه.»، ووكالة الأمن القومية بوضع أجهزة مراقبة للتنصت على اتصالات القاعدة وبن لادن. ووافق أيضاً على مشاركتها في أي معلومات تحصل عليها حكومته حول قواعد بن لادن في أفغانستان. كما لمّح كريموف ومساعدوه إلى استعدادهم للانضمام إلى «السي.آي.إيه.» في العمليات العسكرية عندما يجهز فريق المغاوير الجديد.

كان ضبّاط «السي.آي.إيه.» متحمسين ومتفائلين. وقدّروا تقبّل كريموف للمخاطر السياسية للنيل من بن لادن. لقد وجدوا أخيراً شريكاً جديداً لم يكن على علاقة قوية بطالبان، مثل باكستان، وأقلّ تعقيداً من المملكة العربية السعودية. وافق كريموف ومساعدوه من الاستخبارات على كل مطالب «السي.آي.إيه.» تقريباً(838).

هيأ مساعدو مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، الموافقة القانونية السرّية والميزانية للعلاقة الجديدة مع أوزبكستان في جوّ من الاشمئزاز والتشكيك أحياناً. ويذكر أحد الضباط أنهم كانوا

«يشكون بدرجة كبيرة في الدوافع الأوزبكستانية». وبالنسبة إلى هؤلاء المشككين، كانت علاقة «السي.آي.إيه.» تبدو «كخطة لا تتعدّى أي أمر يجري مع أوزبكستان». تقع طشقند على مسافة بعيدة من قندهار لكنها بالتأكيد «أقرب من لانغلي»، وهذه نقطة مهمة. كان البيت الأبيت يخشى من الفساد في أوزباكستان وانتهاك حقوق الإنسان والفضيحة. ورأى بعض المساعدين في البيت الأبيض، أن «السي.آي.إيه.» نفسها تتمتع بـ «حماسة خجلة» حول الوصول إلى أوزياكستان، بمعنى أن مركز لانغلي يضغط للمحافظة على استمرار العلاقة، ويشعر في الوقت عينه بالقلق الشديد بشأن القوانين والتدقيق المالي. ويذكر أحد المسؤولين في البيت الأبيض زميلاً له في «السي.آي.إيه.» كان يقول بملل: «علينا أن نخصص مئات المحاسبين لأوزباكستان للتأكد من احتساب كل جهاز أرسلناه إلى هؤلاء الأشخاص»(839).

تتسم العلاقات الرسمية بين «السي.آي.إيه.» والبنتاغون مثل العلاقة بأوزباكستان، بأسلوب بيروقراطي ونمط يتمحور حول الاجتماعات وساعات التدريب الطويلة وشراء المعدات والتدقيق والعروض الالكترونية. وغالباً ما يقضون معظم وقتهم في البحث في العملية والتخطيط، عوضاً عن العمليات السرّية.

خلال صيف العام 1999، لم يكن هناك في أفغانستان، في الميدان، سوى قائد واحد يخطط للحرب، ويجمع المعلومات الاستخبارية يوماً بيوم ضد حركة طالبان، هو أحمد شاه مسعود. لم تكن لحكومته غير المعترف بها عاصمة حقيقية أو مطار دولي، كما أنها لا
تتمتع بالمصداقية. كانت ميزانيته تكبر أسبوعاً تلو الآخر، بفضل صفقات تهريب الهرويين بشكل أساسي. لم يكن يملك مكتباً حقيقياً، أو يستطيع الاعتماد على العروض والمحاضرات الالكترونية بسبب عدم توافر التيار الكهربائي بشكل دائم. تمكّن من الحصول على بعض الدبابات ومدافع الهاون، وعدد من الأسلحة الصغيرة وبعض طائرات الهليكوبتر القديمة المجمّعة من أجزاء احتياطية لا تتناسب بعضها مع بعض ومراوح على وشك أن تفلت من مكانها وتطير بعيداً.

لا يزال أحمد شاه مسعود قوة مؤثرة بين شعبه، الطاجيك، ولاسيما في شمالي شرقي وادي بانشير. وهو أعظم قائد عسكري في أفغانستان لم يُهزم بعدُ على يد طالبان حتى اليوم. حافظت «السي.آي.إيه.» على علاقاتها بمسعود خلال السنتين اللتين زار فيهما غاري شروين القائد في تالوكان في ربيع العام 1997. ومنذ ذلك الوقت، قام عدد من فرق «السي.آي.إيه.» السرية المزودة أجهزة تنصت ومبلغاً صغيراً من المال، يصل إلى حوالى 250 ألف دولار في كل زيارة، بزيارة مسعود في وادي بانشير، غير مرة. في بعض الأحيان يقود هذه الفرق، ضباط من فرع الشرق الأدنى في مديرية العمليات، حيث أصبح شروين اليوم نائب الرئيس. عندما كانت الزيارات تحت إشراف فرع الشرق الأدنى، كانت المهمة تحمل اسم «ف.ع.ش.أ» أي الأحرف الأولى من «فريق علاقات شمالي أفغانستان». وعندما تسلم المهمة مركز مكافحة الإرهاب أصبح اسمها «جاوبرايكر». سافرت أول مجموعة «ف.ع.ش.أ.1» على متن إحدى طائرات مسعود الهليكوبتر من دوشانبي إلى بانشير في أواخر العام 1997. وتبعتها ثلاث فرق من «السي.آي.إيه.» بحلول صيف العام 1999. أقاموا في قرية باراك، بالقرب من مراكز مسعود مدة أسبوعين أو ثلاثة،

والتقوا القائد مرات عديدة. وتسمح أجهزة التنصت التي سلموها لمسعود بمراقبة البث عبر الراديو من قلب أرض معركة طالبان. وبالمقابل، طلب ضباط «السي.آي.إيه.» من مسعود إخبارهم بأي معلومات تلتقطها قواته عبر أجهزة طالبان وتدلّ على تحركات بن لادن أو قادته في مكان محدد بأسرع وقت ممكن. وأنشأت فرق الوكالة شبكة اتصالات آمنة مع لانغلي ليتمكن مسعود من إمرار تلك التحذيرات حول بن لادن.

كان فرع الشرق الأدنى ومركز مكافحة الإرهاب يدعمان تلك العلاقة بمسعود، لكنهما لا يتفقان حول الهدف والإمكانيات. لا يزال العديد من الأشخاص داخل فرع الشرق الأدنى، ومن بينهم شروين، يتذكرون تشبّث القائد باستقلاليته في الأعوام الماضية حتى عندما يدفع له مقابل اتباع تعليمات «السي.آي.إيه.». راحوا يتساءلون إذا كان مسعود شريكاً موثوقاً به ضد بن لادن. لكن في جميع الأحول، أرادوا دعم مسعود ضد طالبان للمحافظة على قدرة قواته الشمالية، ولضمان موطئ قدم لعمليات «السي.آي.إيه.» واستخباراتها في أفغانستان. لم يشكّ ضباط فرع الشرق الأدنى في كراهية مسعود لبن لادن ومتطوعيه العرب، إلا أن شروين كان يدّعي أن التقسيم الجغرافي والمواقع اللوجستية تجعل أي عملية يقوم بها مسعود ضد بن لادن شبه مستحيلة. كما أن فريق تتبع فرع الشرق الأدنى «ترودبينت»، الذي يعمل وسط موطن القاعدة حول قندهار، لم يستطع تقديم معلومات موثوق بها حول تحركات بن لادن. وكانت مراقبة تحركات مسعود أصعب بكثير من مراقبة الهدف.

إلا أن بلايك، ومعه ريتش، طالبا بتجديد جهودهما لجذب مسعود إلى الحملة ضد بن لادن. اعتبرا مسعود، ككثير من المعجبين الأوروبيين به، شخصية تاريخية، يتمتّع بمهارات وتصميم نادرين. ليس لديهم تاريخ شخصي معه، أو أي خلافات أو نزاعات تشمل الاستخبارات الباكستانية. وراحت «السي.آي.إيه.» تتساءل خلال ذلك الصيف، كيف ستنجح، إذا كانت تنوي حقاً استئناف خطتها لإعاقة بن لادن وأسره، إذا لم تبدأ التعاون مع مسعود بشكل جدّي؟

كانت الحرب الأفغانية تتغيّر. تسبب قتل عناصر طالبان عائلة عبد الله حق في بيشاور في أوائل التسعينيات، ببروز حركة معارضة جديدة ضد الملا عمر بين الباشتون. وبدأت خلال ذلك الربيع، عائلة قرظاي التي دعمت نشأة طالبان، بتشكيل معارضة مسلّحة.

كان استياء عائلة قرظاي من حركة طالبان يزداد منذ أشهر. وخلال حفلة زفاف أحمد قرظاي في شهر نيسان/أبريل في كيتّا، دعا والده، عبد الأحد قرظاي، وهو عراب العائلة وعضو في مجلس الشيوخ الأفغاني السابق، أبناءه وقادة آخرين من الباشتون إلى اجتماع في منتصف الليل، وقال لهم كما يذكر، شقيق حامد قيّام: «ضاعت بلادنا، ولم تعد لنا، وستبقى كذلك إذا لم نقاوم». أعلن عراب عائلة قرظاي: «أن خيارنا الوحيد هو البدء من الداخل. علينا أن نبذل جهداً كبيراً ونتحلّى بعناد شديد. علينا التحدث إلى مسعود». قرروا طلب المساعدة الأميركية، إلا أنهم رأوا أنها ستكون محاولة بعيدة المنال(840).

كان حامد قرظاي يعمل مع والده في مجمع العائلة في كيتّا خلال الربيع وبداية فصل الصيف لتنظيم مقاومة سياسية في وجه طالبان، بين الوجهاء والقادة الباشتون البارزين.
وراح ينسّق للاجتماعات بين قادة القبائل في باكستان وروما. وينشر معارضة رسمية تحت اسم «لويا جيرغا» لإعادة النظر في السياسات الأفغانية، بينما يسعى والده إلى عودة الملك الأفغاني ظاهر شاه. كتب حامد قرظاي رسالة إلى الملا عمر لدعوته إلى حضور تلك الاجتماعات السياسية، وتنبيهه إلى أن حركة طالبان يجب أن تتغيّر، «وأنهم يجب أن يتخلصوا من الأجانب الذين يشاركونهم في القتل والدمار في بلادنا وهدم حياتنا»(841).

بعثت طالبان بجوابها في 15 تموز/يوليو: بينما كان عراب عائلة قرظاي المسنّ يخرج من الجامع متجهاً إلى منزله عبر ممرات كيتا الترابية، ظهر بعض الأفغان على دراجاتهم النارية وأطلقوا النار عليه، فقتلوه على الفور.

راح حامد قرظاي، الخليفة السياسي لوالده، يسعى إلى الانتقام لقتله. خلال أسابيع من المأتم الكبير لعبد الأحد في قندهار، الذي جمع سياسيين محزونين ومعارضين لطالبان، كان حامد قرظاي قد ضاعف جهوده. كان يتمتع بعلاقات عديدة مع الأميركيين، ويساعد على إيصال المساعدات الإنسانية إلى أفغانستان من كيتّا. طلب إلى بيل ميلام، سفير الولايات المتحدة في باكستان، الحصول على أسلحة، فأجابه ميلام بأنه متهوّر وغير واقعي. ستقوم حركة طالبان وحلفاؤها العرب بذبحه إذا حاول القيام بمحاولة انقلاب. لم تتهيّأ بعدُ الأرض السياسية(842).

كان قرظاي يعرف هذا الأمر جيداً، لكنه استمر في المحاولة. اعترف لاحقاً بأنه كان يستعجل الأمور. يعرف ضباط «السي.آي.إيه.» في مركز إسلام آباد، أن القيام بانقلاب مسلح لم يكن واقعياً، لكنهم ركّزوا على استمرار المحادثات والتعاون. كان قرظاي «لاعباً صغيراً»، بحسب تعبير أحد المسؤولين الأميركيين، لكن حلفاءه السياسيين والقبليين يتمتعون بنفوذ كبير في قندهار، ويمكنهم تقديم معلومات مهمة حول طالبان وبن لادن. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن التزود بالأسلحة خياراً وارداً. يذكر قرظاي أنه «كان مستعداً للسفر إلى إسلام آباد كل أسبوع، ويقصد الأميركيين والفرنسيين والإنكليز والألمان والإيطاليين... ويخبرهم باستعداد الشعب الأفغاني للتحرك ضد طالبان». لكنه يستدرك قائلاً: «إنهم لن يثقوا به، ولن يصدّقوه. لم يشعروا بهم. حتى في واشنطن لا يشعرون بجهوزيتهم»(843).

لا يزال بعض المسؤولين في وزارة الخارجية وبعض المحللين في «السي.آي.إيه.» يعتقدون، على الرغم من الأدلة الصغيرة الداعمة، أن حركة طالبان قد تسلم بن لادن تلقائياً لمحاكمته مقابل الحصول على اعتراف دبلوماسي بها، وإلغاء بعض العقوبات الاقتصادية المفروضة عليها. ربما سيشجع الضغط الذي يمارسه قرظاي وبعض المنشقين الباشتون الآخرين، على قبول حركة طالبان المساومة، لكن ليس الضغط الذي تسعى إليه وزارة الخارجية بالتأكيد. وصرّحت أولبرايت

وتوم بيكرنغ وريك إندرفيرث علناً، مراراً وتكراراً، بأن الولايات المتحدة لن تنحاز إلى أي جانب في الحرب الأفغانية.

أفاد المحلّلون في قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية، خلال النصف الأول من العام 1999، أن حجم المقاومة ضد طالبان يكبر. لكن، على الرغم من ذلك، قال إندرفيرث: «إنهم يعتقدون أن الحل في هذا الصراع ليس عسكرياً. إن الولايات المتحدة لا تدعم أي فصائل أفغانية شخصية، لكن تحافظ على علاقاتها مع الجميع لمزيد من التقدّم نحو عملية السلام»(844).

أثناء الاجتماعات الداخلية للمسؤولين في «السي.آي.إيه.»، برز احتمال جديد لتحالف أميركي مع مسعود، يشمل تزويده سرّاً بالأسلحة. لكن خارج «السي.آي.إيه.»، بقيت إدارة كلينتون مشككة في القائد وحلفه الشمالي. وخلال اجتماع للسفراء في واشنطن في شهر أيار/مايو، توجّهت أولبرايت إلى مبعوثيها إلى باكستان ووسط آسيا، بالسؤال التالي: ما رأيكم في التعاون مع مسعود؟ عارض ميلام هذا الطرح بشدّة. فتزويد مسعود بالأسلحة سيؤجج الحرب، ويتسبب في مقتل الأفغان الأبرياء، فبرأيه ورأي زملائه جميعاً في سفارة إسلام أباد. لن يتمكن مسعود من هزم طالبان على أرض المعركة. فهو يخسر نفوذه على الأرض، محاصَراً في الشمال(845).

غير أن توم بيكرنغ كان يدعي أن السياسة الأفغانية لن تنجح إذا لم تضمّ الباشتون في الجنوب. وإذا توجّهت الولايات المتحدة إلى مسعود في الشمال، فستعمّق الانقسامات العرقية الأفغانية، في سبيل قضية عسكرية غريبة(846). ولا يزال بعض المسؤولين في وزارة الخارجية والبيت الأبيض يذكرون العنف ضد المدنيين في كابول في أواسط التسعينيات، بينما كان مسعود وزيراً للدفاع، ويشيرون إلى التقارير التي تبيّن أنه كان يعتمد على تهريب المخدرات. لم يكن حليفاً جديراً للولايات المتحدة الأميركية برأيهم.

أخبر مسعود مساعديه أنه واثق بأن حركة طالبان ستضعف، وستتوسع في سيطرتها أكثر من اللازم، وستزيد المعارضة ضدهم بين الباشتون تدريجاً(847).

تحدث مسعود إلى الملا عمر مرّتين عبر الهاتف. وكما علم مساعدوه، قام مسعود بإخبار قائد طالبان أن التاريخ أثبت أن فريقاً واحداً لا يمكن أن يحكم أفغانستان، وأن البلاد لا يمكن أن يحكمها سوى ائتلاف. لكن التاريخ الوحيد الذي يعرفه الملا عمر هو الموجود في القرآن، ويرفض المساومة.

استمرّ مسعود في إصراره. قام بإرسال مساعده في الاستخبارات، أمر الله صالح، إلى سويسرا، ليجتمع سراً بقادة طالبان. أجروا محادثات سرّية أيضاً في أوزباكستان وتركمانستان. إلا أن حركة

طالبان كانت مقيّدة بدعم الاستخبارات الباكستانية والسعودية وآخرين من المتبرعين من الخليج العربي. كان قادة طالبان «متعجرفين جداً»، كما وصفهم أحد المساعدين لمسعود.

لا يزال مسعود يتمتع بالصبر، ويتسلَّح به. تشبه استراتيجيته في العام 1999، الاستراتيجية التي اتبعها منذ عشر سنين عندما انسحبت القوات السوفياتية: إنه يتسلّح بالصبر ويخطط لهزم الاستخبارات الباكستانية. يقول مسعود إن الولايات المتحدة ستعترف في النهاية بأن حركة طالبان عدو لها. وعندئذ، سيكون مستعداً لتلقي المساعدة الأميركية. وفي تلك الأثناء، من خلال برنامج استرداد صواريخ ستينغر والاجتماعات المتفرقة مع ضباط «السي.آي.إيه.» في أماكن آمنة في طاجكستان وبانشير، يعمل مسعود على الحفاظ على علاقاته مع لانغلي.

قدّم بيكرنغ وإندرفيرث في وزارة الدولة، سياسة أكثر تمايزاً تجاه مسعود، خلال صيف العام 1999. ما زالا يعارضان بشدّة تزويد الأميركيين له بالسلاح، لكنهما أوضحا سراً لروسيا وإيران أن الولايات المتحدة لا تعترض على الأسلحة السرية التي تزود بها هاتان الدولتان مسعود. راحا يدافعان عن تلك السياسة، مدعيين أنهما لا يريدان أن يتم القضاء نهائياً على الحلف الشمالي. إذا تم طرد قوات مسعود من أفغانستان، فستبقى حركة طالبان من دون منازع، وتضعف رغبتها في التفاوض عن السابق(848).

سافر إندرفيرث خلال شهر تموز/يوليو، إلى طشقند للمشاركة في محادثات للسلام مع مختلف الجهات الأفغانية برعاية الولايات المتحدة. قرّر مسعود الانتظار مدة أطول. شكّل بيان إندرفيرث الافتتاحي مبادرة حسن نيّة لكل مجموعة، بالإضافة إلى طالبان. وكان مؤتمر «إعلان طشقند عن المبادئ الأساسية لوضع اتفاقية سلام للنزاع في أفغانستان»، بمنزلة إعلان السياسات المشوشة ونهاية المفاوضات. عبّرت مقدّمته عن «القلق العميق» تجاه وضع الأقليات والنساء في أفغانستان، وأعلن الموقعون عليها أنهم يشعرون «بالحزن العميق» تجاه تهريب المخدرات؛ وثالثاً «يشعرون بالقلق أيضاً» بشأن الإرهاب. وتعهّدت كل من إيران وباكستان وقف شحنات الأسلحة التي ترسلها كل منهما إلى ميليشياتها التي تدعمها، لكن الولايات المتحدة متأكدة أنها وعود لا تعتزم أي من الدولتين الإيفاء بها(849).

التقى إندرفيرث ليلة فشل المحادثات، مسعود في غرفة جانبية من القاعة الضخمة التي تعود إلى الحقبة السوفياتية، حيث كان يعقد المؤتمر. وكما يذكر إندرفيرث، كان مسعود يتبختر في رداء بلون بني فاتح وقبعة قطنية، ويشع «تألقاً وجاذبية». وبينما كان المبعوث الأميركي يراجع المسائل الدبلوماسية، بدا مسعود ضَجِراً، لكن عندما بدأ إندرفيرث يسأل عن الحرب، تنشّط مسعود وانحنى إلى الأمام ليشرح خطته ودفاعه(850).

سأل إندرفيرث مسعود إذا كان بحاجة إلى معدات عسكرية للقيام بعملياته في الصيف. رفض مسعود عرضه. وأوضح مساعدوه لاحقاً أنه لم يطلب السلاح لأنه يعرف أن إدارة كلينتون لا تزوّد

أحداً بمثل هذا الطلب. كما أن روسيا وإيران والهند «وجدت نفسها مرتاحة لتزويدنا بالوسائل لمحاربة طالبان لأن الولايات المتحدة لا تعترض على شحنات الأسلحة».

عبّر مسعود عن استيائه من عدم مبالاة الولايات المتحدة بأفغانستان، وفقاً لإندرفيرث. ويصرّ مساعدوه على أن شعوره كان يفوق الاستياء. كان يفضّل إندرفيرث على المسؤولين الأميركيين الآخرين، لكنه يعتبر أن السياسة الأميركية مخطئة كثيراً بحساباتها، ولم يفهم سبب تغيرها البطيء والتدريجي. وخلال الجلسات في طشقند، استمرّ الأميركيون في التحدث عن طالبان والحلف الشمالي «كفصائل متحاربة» ملومة بالتساوي. اعتبر مسعود هذا الحكم جائراً. فهو يعكس، بنظره، افتقار السياسة الخارجية الأميركية إلى بُعد النظر. لقد راحت الولايات المتحدة تميل برأي مسعود، إلى إرضاء حركة طالبان مع ازدياد قوّتها(851).

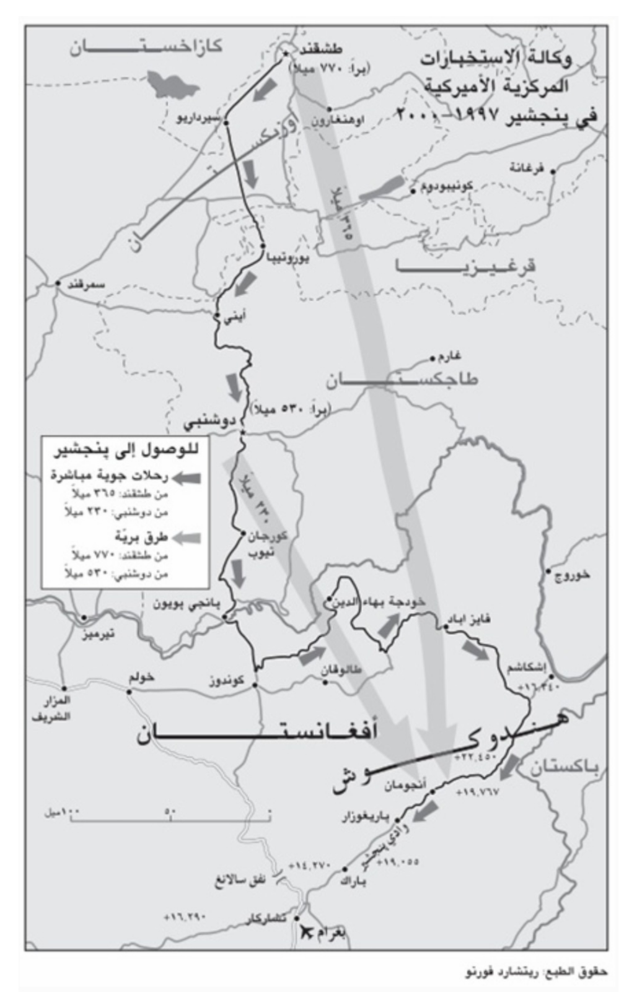
حاول مسعود إحصاء المجازر المدنية التي قامت بها قوات طالبان والقاعدة. وبحثاً عن حجة ستلقى صداها في واشنطن، وصف طالبان كأحد أبشع المنتهكين لحقوق الإنسان، وكنظام يقمع المرأة والأقلّية الشيعية. ويذكر أحد مساعدي مسعود الذين كانوا حاضرين، ما أعلنه مسعود: «نحن نقول إن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم التي تتبع سياسة تهتم بحقوق الإنسان. فلنرَ صحة ذلك». سعى مسعود إلى إقناع إندرفيرث بأن
طالبان بدأت تضعف. واليوم حان الوقت لتضغط الولايات المتحدة على باكستان لتقطع مساعداتها عن حركة طالبان.

كان إندرفيرث وبيكرنغ يبذلان قصارى جهدهما للضغط على باكستان، برغم أن سلطتهما محدودة في إسلام أباد. كان المسؤولون في مكافحة الإرهاب مثل المسؤول في وزارة الدولة مايكل شيهان، يدّعون في المذكرات الداخلية أن الولايات المتحدة تستطيع الضغط أكثر من خلال وضع مكافحة الإرهاب على رأس البرنامج الأميركي. لكن مصادر الثقة والعقل المدبّر في الدولة، وتحديداً أولبرايت وبيكرنغ وستروب تالبوت، شعروا بأن الولايات المتحدة لا تستطيع تبنّي تلك المقاربة الضيقة. فأميركا لديها مصالح مهمة أخرى: الأسلحة النووية وكشمير واستقرار المجتمع الباكستاني. لقد أصرّت قيادة وزارة الخارجية على التعامل مع الدعم المقدم إلى طالبان من الجيش والاستخبارات الباكستانية في سياق أوسع للاهتمامات الأميركية. كان كلينتون يوافقهم في الرأي. كان جدول أعمال الولايات المتحدة مع باكستان مزدحماً: بالتهديد بنشوب حرب مع الهند، والأسلحة النووية والإرهاب، والديموقراطية، وكشمير، وكلها مواضيع مهمة برأي كلينتون(852).

قبل حوالى عشر سنين، كان بيتر تومسون من وزارة الخارجية، هو من دفع «السي.آي.إيه.» المترددة إلى التقرّب من أحمد شاه مسعود والابتعاد عن الاستخبارات الباكستانية. أما اليوم، فقد انعكست المقاعد البيروقراطية. فقد أصبح الدبلوماسيون في وزارة الخارجية، بالاشتراك مع بعض ضباط «السي.آي.إيه.»، هم من يعارضون النداءات لتأسيس تحالف وثيق مع مسعود خلال العام

1999. ويدعم رأيهم هذا، مستشار كلينتون في الأمن القومي والحارس السياسي للسياسة الخارجية، ساندي بيرغر. كان المدافعون عن التحالف الجديد مع مسعود في وزارة الخارجية والبيت الأبيض والكونغرس، معزولين، وبشكل أساسي في مركز مكافحة الإرهاب، ولاسيما في مركز بن لادن، حيث يوجد أشد المتحمسين لمسعود.

ومهما تكن الشكوك التي تراودهم حول نظرته المستقلة، أو المخاوف من تهريبه المخدرات، كانت «عائلة مانسون» في «السي.آي.إيه.» متأكّدة من أمر واحد: أحمد شاه مسعود هو عدوّ عدوهم.



حقوق الطبع: ريتشارد فورنو

بدأ كوفر بلايك العمل على الملفات والموافقات مع ريتشارد كلارك من مكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض في أواخر فصل الصيف. أراد بلايك إرسال فريق من «السي.آي.إيه.» بقيادة رئيس وحدة بن لادن الجديد، إلى داخل أفغانستان، للاجتماع بمسعود وقادته بغية تنشيط جهود مسعود ضدّ بن لادن. وستكون مهمة «السي.آي.إيه.» الخامسة إلى بانشير منذ خريف العام 1997، تحت الرمز «جاوبريكر - 5». تهدف المهمة إلى تأسيس علاقات جديدة لمكافحة الإرهاب. وستقدّم «السي.آي.إيه.» التدريب والمعدات، وستوسّع قاعدة مسعود الاستخبارية الحالية في وادي بانشير وتساعدها على العمل على نطاق واسع وآمن في المدن والمقاطعات الأفغانية. ستقدم الوكالة المزيد

من الأموال إلى مسعود، وتوفر له الاتصالات الآمنة وأجهزة التنصت ومعدات التجسس الأخرى(853).

أمل بلايك ووحدة بن لادن تأسيس برنامج قويّ لتبادل المعلومات مع مسعود، يركز على تحرّكات بن لادن اليومية. قام تينيت وزملاؤه في سبيل جمع المعلومات تقنياً بشكل
أفضل، بتعديل موقع القمر الصناعي للحصول على تغطية أفضل لأفغانستان، وقامت وكالة الأمن القومي بتطوير أجهزة تنصّت لاستخدامها داخل البلاد. أملت وحدة بن لادن أن يعزز مسعود استخدام تلك المقاربات التقنية في الميدان. كان مسعود يستغل في حربه ضد طالبان وحلفائها، وجود الكتائب العربية في وحدة بن لادن والمتطوعين الأفغان والمرتزقة الشيشان. في النهاية، ترغب «السي.آي.إيه.» في أن تتمكّن ميليشيا مسعود من أسر بن لادن خلال إحدى تلك المواجهات، أو قتله، أو تسليمه إلى الولايات المتحدة.

شرح بلايك أن برنامج «السي.آي.إيه.» الجديد سيتمّم عملية تدريب فريق المغاوير في أوزباكستان وباكستان تلقائياً، وكذلك العمل المستمر مع فريق التتبع القبلي القديم في جنوبي أفغانستان. يتطلع مركز مكافحة الإرهاب إلى محاصرة عناصر تنظيم القاعدة بقوات مجهّزة ومدرّبة تضمّ عناصر من السكان المحليين، ثم سيسعى إلى تحديد مكان بن لادن أو قادته، واستدراجهم إلى الفخّ.

ونظراً إلى الشكوك في مسعود داخل إدارة كلينتون، كانت مهمات البانشير مراجعة قضائية وسياسية عميقة. يقول أحد المسؤولين في البيت الأبيض: «كانت كلها فكرة «السي.آي.إيه.»». يحتاج مركز مكافحة الإرهاب للحصول على الموافقة، إلى صرف المبلغ الصغير لمصلحة مسعود في كل رحلة. ويسأل المسؤول في البيت الأبيض: «إلى أي حدّ المبلغ صغير؟»، فتجيبه «السي.آي.إيه.» بأنه بضع مئات آلاف الدولارات. وقد أكّد كلارك وبيرغر صحّة هذه الإجراءات(854).

صاغت السياسة الاستخبارية والمكاتب القانونية في مجلس الأمن القومي، مسودة رسمية تشمل السياسة المتبعة في المهمة «جاوبريكر - 5». اشترك فيها بلايك. أراد أن يوضّح المسائل كافة خطّياً كي لا تبرز أي ادّعاءات لاحقاً إذا تبيّن أن مسعود أساء استعمال المعدات أو الأموال التي قدّمتها إليه «السي.آي.إيه.». كان بلايك يطلب إلى زملائه بسخرية «أن يكتبوها باللغة» الإنكليزية البسيطة، ليفهمها الجميع. كما أراد أن يستطيع رجاله الاحتفاظ بنسخ عن السلطات القانونية للبيت الأبيض وحملها بين أيديهم أثناء اجتماعاتهم مع مسعود ومساعديه في الاستخبارات في بانشير. أراد أن يتمكّن ضبّاط «السي.آي.إيه.» من قراءة إرشادات البيت الأبيض حرفياً بمصطلحات واضحة تسهل ترجمتها. وشدّد على أنه لن يكون هناك أي ارتجال. كان رئيس مركز مكافحة الإرهاب يستشهد دائماً بمحاولة الملك الإنكليزي هنري الثاني الشهيرة في العام 1170 لتلزيم مهمة قتل رئيس أساقفة كانتربيري، توماس بيكيت، من خلال توجيه سؤاله الملتبس. لقد سأل هنري

الثاني علناً: من سيخلّصني من ذلك الكاهن المتطفّل؟ كان بلايك يقول لزملائه بتهكّم: لا تعمل «السي.آي.إيه.» بهذه الطريقة. أراد الحصول على أوامر رئاسية محدّدة ودقيقة. كان يطالب البيت الأبيض بإصدار تلك الأوامر(855).

كان مسعود في حرب مع طالبان. أعلنت الولايات المتحدة سياسة الحياد في تلك الحرب، وأراد البيت الأبيض التأكد من أن مهمة «السي.آي.إيه.» في مركز مكافحة الإرهاب إلى وادي بانشير، لن تصبح كخطة حصان طروادة للتحايل على جهود «السي.آي.إيه.»، لدعم قوة مسعود وقدرته في المعارك ضد طالبان. أعرب كلينتون عن استعداده للتعاون مع مسعود في العمليات الاستخبارية على الرغم من تسجيل مواقف عدائية له، لكنه لم يكن مستعداً لتسليح الحلف الشمالي. وقدّم كلّ من البنتاغون والمجتمع الاستخباري تحليلات إلى كلينتون تؤكد أن مسعود كان يتلقى كل الأسلحة التي يحتاج إليها من دول أخرى، وأنه لن يستطيع هزم طالبان أو السيطرة على أفغانستان من كابول في جميع الأحوال. وهذا أيضاً رأي شيلتون الثابت من البنتاغون. وفي لانغلي، انقسموا بين مؤيدين ومعارضين للفكرة. وبعد دراسة التقارير، أوضح كلينتون أنه غير مستعد لانضمام الولايات المتحدة إلى جانب مسعود في الحرب الأفغانية ضد طالبان والقاعدة. وعدّل كلينتون بخط يده، المذكرة الصادرة في شباط/فبراير من العام 1999، للتشديد على أن رجال مسعود لا يستطيعون استخدام السلاح ضد بن لادن إلا في حالة الدفاع عن النفس. وافق مجلس الأمن القومي على التعليمات الخطّية للسماح بالتعاون الاستخباري مع مسعود، مع الإشارة إلى أن «السي.آي.إيه.» لا يمكن أن تقدم أي مساعدة «ستؤجج بشكل أساسي المعركة الأفغانية»(856).

نقل بلايك هذه الفكرة إلى مركز بن لادن، بينما كان رئيسه يستعد للسفر إلى آسيا الوسطى. اعتبرت «السي.آي.إيه.» أن سياسة البيت الأبيض هذه تشكّل خطراً عليها. ويتوقف الأمر على الجنرالات في الوكالة للتقرير، يوماً بيوم، أي نوع من المساعدات الاستخبارية، «ستغيّر بشكل أساسي» وضع مسعود العسكري ضد طالبان. وحذّرهم بلايك من أنه قد ينتهي بهم الأمر في محكمة فدرالية إذا لم يقوموا بذلك، على النحو الصحيح.

ترأس الخبير في الشؤون الجزائرية، ريتش، ورئيس مركز بن لادن، فريق «جاوبريكر» إلى بانشير، في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1999. سافرا سرّا إلى دوشانبي، وهي مدينة منعزلة تتعافى من آثار الحرب الأهلية الشيوعية السابقة. استقلّا طائرة سوفياتية قديمة من طراز «مي 17»، من مطار يحتفظ مسعود فيه بقاعدة سرية لوجستية، وتوجّها إلى جبال أفغانستان المتعرجة المكلّلة بالثلوج.

نزلا بعيداً عن ممر أنجومان، على ارتفاع ميلين، إلى واد عبر جرف نهري ضيّق يشكّل حصن مسعود. وافق على استقبال فريق «السي.آي.إيه.» في مقرّه الرئيسي، في مجمّع قريب من المكان الذي عاشت فيه عائلته على مدى أجيال، وحيث نشأت أسطورة مسعود كزعيم للثوار ضد الاتحاد السوفياتي. أقاما سبعة أيام. وعملا في معظم الأوقات، مع ضباط استخبارات مسعود على

العمليات، والمعدات والإجراءات اللازمة للاتصالات. وضعت «السي.آي.إيه.» خطوطاً آمنة بين مسعود وملاجئه في دوشانبي، ومركز مكافحة الإرهاب في لانغلي، بحيث يتم إرسال أي معلومات حول مكان بن لادن إلى مراكز «السي.آي.إيه.» فوراً، ومن هناك إلى البيت الأبيض(857).

اجتمع ريتش وفريقه مع مسعود مرّتين: المرة الأولى في بداية زيارتهما، والثانية في نهايتها. أُعجب ضباط «السي.آي.إيه.» بمسعود كثيراً. كانوا يعتبرونه صورة عن «تشي غيفارا»، وممثلاً عظيماً على مسرح التاريخ. كان مسعود، كما يصفونه، شاعراً، ونابغة عسكرياً ورجل دين، وقائداً شجاعاً يتحدّى الموت ويتقبّل حتميته. كان من بين زعماء دول العالم الثالث القلّة الذين يتمتعون بهذا الكمال، ممن التقاهم ضباط «السي.آي.إيه.». توجد مئات الكتب في منزله: الشعر الفارسي وتاريخ الحروب الأفغانية بلغات متعددة، وسير زعماء وقادة آخرين. وخلال اجتماعاته، كان مسعود يشير بطريقة مدروسة إلى التاريخ الأفغاني والسياسات العامة في حججه. كان هادئاً وقوياً ومتحفظاً، ويتحلى بكرامة النفس، وبروح دعابة أيضاً. دخل فريق «السي.آي.إيه.» بانشير من دون أن يُخفي إعجابه الشديد بمسعود. واليوم، زاد إعجابه به، حتى بعد أن عرفا، كلاهما، أن شراكة الوكالة الجديدة مع الحلف الشمالي ستكون ضعيفة ومحدودة، وربما لن تنجح.

كانت الاجتماعات مع مسعود رسمية، ويدون بها محضر أحياناً. يتكلّم كل جانب حوالى خمس عشرة دقيقة ويخصّص الوقت الباقي للأسئلة والأجوبة.

قال رئيس فريق «السي.آي.إيه.»: «لدينا عدوّ مشترك، فلنتعاون»(858).

أعرب مسعود عن استعداده، لكنه لم يُخف حدود ذلك التعاون. كان بن لادن يُمضي معظم وقته بالقرب من قندهار وفي جبال أفغانستان الشرقية، بعيداً عن مكان عمل قوّات مسعود. كان بن لادن يزور جلال أباد وكابول أحياناً، بالقرب من حدود مسعود. ويملك جهاز استخبارات مسعود، في تلك المناطق، عملاء ناشطين، وربما بإمكانهم تطوير مصادر أخرى.

كان فريق «السي.آي.إيه.» يأمل أيضاً، أن يتمكن مسعود من تنفيذ عملية خطف في النهاية، لأنه يملك عدداً من طائرات الهليكوبتر والكثير من القادة الميدانيين، بحيث يأمر مسعود بتنفيذ إنزال جوّي لخطف بن لادن حيّاً. كان الهدف من الزيارة الأساسية وضع نظام لجمع المعلومات، وتبادلها، حول بن لادن، ولإرساء العلاقات مع مسعود في العمليات المستقبلية.

أدرك رجال الوكالة أنهم، بتركيزهم على بن لادن، يسعون وراء «حلّ أميركي» ضيّق لمشكلة أميركية وسط حرب أفغانية واسعة ومعقدة. لكن، ما زالوا يأملون أن يدرك مسعود، أنه إذا استمرّ في التعاون مع «السي.آي.إيه.» في عملية الأسر، فسيؤدي ذلك بالتأكيد إلى تحالف سياسي وعسكري مع الولايات المتحدة(859).

أخبر مسعود وفد «السي.آي.إيه.» بأن السياسة الأميركية تجاه بن لادن لا تتسم ببُعد النظر، وسيكون مصيرها الفشل. بذل الأميركيون كل جهدهم ضدّ بن لادن شخصياً وبعض مساعديه، لكنهم فشلوا في إدراك السياق الأوسع الذي تكبر فيه القاعدة. ماذا عن طالبان؟ وعن الاستخبارات الباكستانية مثلاً؟ ماذا عن المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة؟

يعتقد مسعود، على الرغم من إمكان نجاح «السي.آي.إيه.» في أسر بن لادن أو قتله، أن الولايات المتحدة ستستمر في مواجهة مشكلة كبيرة في أفغانستان. لقد أصبحت القاعدة اليوم أكبر بكثير من بن لادن أو الظواهري. فبرعاية حركة طالبان، قد يكمل مئات وحتى آلاف الجهاديين من الجنسيات المختلفة، حرب بن لادن ضد الولايات المتحدة والحكومات العلمانية في آسيا الوسطى.

قال مسعود لوفد «السي.آي.إيه.»، بحسب مساعده ومترجمه عبد الله: «إن ذلك لن يحلّ المشكلة الكبيرة التي تزداد تعقيداً حتى لو نجحوا في مسعاهم»(860). إلا أن الأميركيين، اعتبروا هذا الجزء من الحوار صعباً. كان رئيس فريق «السي.آي.إيه.» وزملاؤه يوافقون سرّاً على انتقادات مسعود للسياسة الأميركية. ولاحظ رجال «السي.آي.إيه.» وجود فرق بسيط
بين طالبان والقاعدة. وكانوا يستاؤون من الدبلوماسيين في وزارة الخارجية الذين يراهنون على أن قادة طالبان المعتدلين قد يقومون في النهاية بطرد بن لادن سلميّاً.

قال الأميركيون لمسعود إنهم يوافقونه في الرأي بخصوص انتقاداته، لكنهم يجب أن ينفّذوا الأوامر. فسياسة الولايات المتحدة تركز اليوم على إلقاء القبض على بن لادن وقادته لمحاكمتهم جنائياً. إلا أن هذه السياسة لم تتقدّم. كانت «السي.آي.إيه.» تسعى إلى نشر مقاربة جديدة حول مسعود في واشنطن، وهكذا حصلت على الإذن لهذه المهمة في بادئ الأمر. إذا تعاون الأميركيون مع مسعود اليوم، وتركّز تعاونهم على جمع المعلومات، فستستمر «السي.آي.إيه.» أو أقله ضباطها في مركز مكافحة الإرهاب، في الضغط على الولايات المتحدة لتختار جانباً في الحرب الأفغانية، وتدعم مسعود. لا يمكن «السي.آي.إيه.» أن تعيد صوغ سياسة الحكومة، لكنها تتمتع بالسلطة. وبقدر ما سيتعاون مسعود ضد بن لادن، ستمتلك «السي.آي.إيه.» حججاً موثوقاً بها لتقدمها في واشنطن.

أجمع مسعود ومساعدوه على أنهم لن يخسروا شيئاً. ويقول عبد الله: «إنها، أولاً، جهود ضد عدوّ مشترك. وثانياً، يأملون أن تؤدي إلى إدراك الولايات المتحدة الوضع الأفغاني بشكل أفضل». واستنتج مسعود، كما يذكر عبد الله، «أن الولايات المتحدة قد تتدخّل في النهاية بشكل أقوى في الحرب الأفغانية «ربما في المراحل القادمة»، مع ازدياد حجم التعاون في مكافحة الإرهاب والاستخبارات»(861).

في تلك الأثناء، يشير عبد الله إلى «أن رجال مسعود لن ينتظروا موافقة الولايات المتحدة لقتل بن لادن إذا وجدوا أنفسهم في وضع يسمح لهم بقتله. فهم لا يفعلون ذلك لمصلحة الولايات المتحدة فحسب، بل لمصالحهم الخاصة أيضاً(862).

لم يعترض رجال مسعود في النهاية، على القيود القانونية بقدر ما اعترضوا على السياسة الأميركية الأنانية والمتركّزة على أمر واحد. يقول أحد مساعدي مسعود في الاستخبارات، الذي عمل عن كثب مع «السي.آي.إيه.» خلال تلك الفترة، «إن المزعج، أنه خلال كل تلك اللعبة ووسط كلّ تلك الفوضى، وفي الوقت الذي كانت تعاني أمة بأكملها، كانوا يتحدثون عن ذلك الجزء الصغير منها: بن لادن. من الصعب على أي شخص في مكاننا، أن يتقبّل أن تكون تلك هي المشكلة. بالنسبة إلينا. كان جزءاً من المشكلة، لكن ليس المشكلة»(863).

تعهّد ضباط «السي.آي.إيه.» إيصال حجج مسعود إلى واشنطن، لكنهم شعروا بعزلتهم في البيروقراطية الأميركية. اقتنعوا بسبب اعتراض وزارة الخارجية. فهم يعرفون أن دعم حرب مسعود ضد طالبان، يطرح مخاطر وتكاليف كثيرة، أقله بالنسبة إلى الضحايا المدنيين الأفغان المؤكّدين. يجب أن تكون قضيتهم، غير المعروفة وغير المؤكدة بالنسبة إلى العديد من المسؤولين الأميركيين، هي أن طالبان والقاعدة تشكلان خطراً كبيراً على الولايات المتحدة، ما يتطلب تغييراً جذرياً.

# 26
# اختفت تلك الفرقة

حلّق فريق «جاوبريكر» بعيداً عن دوشانبي، مغادراً أفغانستان سرّاً عبر حدود طاجكستان. خلال أسابيع قليلة، على بعد مئات الأميال جنوباً، دخل أربعة شبّان عرب من الطبقة المتوسطة، أفغانستان عبر باكستان. سهّلت حركة طالبان رحلتهم، ودبّرت مكان إقامتهم في مدينة كيتّا أولاً، ثم في قندهار(864).

كان محمد عطا في الحادية والثلاثين من عمره، وهو مصريّ، حادّ الطباع وقليل الكلام، متوسط القامة، والابن الوحيد لمحام مصري في القاهرة كان مستبداً في تعاطيه وعلاقته بعائلته. لقد حصل تواً على إجازة في التخطيط المدني من الجامعة التقنية في هامبورغ - هاربورغ، وقدّم أطروحة من 152 صفحة حول تخطيط التطوّر والمحافظة التاريخية في مدينة حلب التاريخية في سوريا. زياد جرّاح، كان الشاب الوحيد لعائلة لبنانية تقود سيارة من نوع «مرسيدس»، تملك شقة في بيروت، ومنزلاً لقضاء الإجازات في منطقة البقاع. هاجر إلى ألمانيا للالتحاق بجامعة العلوم التطبيقية في هامبورغ، حيث درس هندسة المطارات. كان يشرب الخمر، ويتعاطى الحشيش، ويخرج مع صديقته التركية، ثم فجأة ازداد تديّنه وانسحب. تحدّت صديقته معتقداته الدينية، لكنها يئست منه بمرور الوقت. ترعرع مروان الشحي في عزّ دولة الإمارات العربية المتحدة، في ذروة الازدهار النفطي للأوبيك. خدم في جيش الإمارات العربية المتحدة. وأهله قادرون على تحمّل كلفة تعليمه في جامعة ألمانية أيضاً. ومن بين المتآمرين الأربعة، رمزي بن الشيبة، وهو الوحيد الذي لا يستطيع الاعتماد على أموال عائلته. صغير القامة، نشيط، ومتحدث لبق، وذو شخصية قوية. برع في المدرسة وفاز بمنحة دراسية إلى جامعة بون، لكنه ترك والدته الأرملة تكافح في الوطن في ريف اليمن. أتى بن الشيبة من أمد، وهي مدينة في جبال مقاطعة حضرموت، المقاطعة التي توجّه منها محمد بن لادن منذ ستة أعوام، إلى المملكة العربية السعودية ليصنع اسمه وثروته(865).

عكس وصول الشبان الأربعة إلى أفغانستان تعقيد تحرّي هيكلية القاعدة عندما بدأت الاستخبارات الأميركية تواً باستعادة بنيتها وعضويتها. وصف المحلّلون في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، القاعدة بحلول العام 1999، في تقاريرهم السرّية ودراساتهم، بالعدو المتشعّب والمتعدد. وكشفت في أوساط التسعينيات المحاكمات في قضية تفجير مبنى التجارة العالمي والقضايا المرتبطة بها، والأدلة من التحقيقات في تفجيرات أفريقيا، أن المنظمة غارقة في التناقضات: فهي ضيقة في رأس الهرم وتخضع لمراقبة شديدة، لكنها تتفرع في الأسفل. وبحلول العام 1999، كان شائعاً في «السي.آي.إيه.» وصف القاعدة بمجموعة الكواكب الثابتة، أو الدوائر المركزية. حول المجموعة القيادية لبن لادن في أفغانستان، أي الهدف الأساسي لعمليات الخطف السرّية لـ «السي.آي.إيه.»، تكمن حلقات الحلفاء الإقليميين العسكريين. وتشمل تلك الحلقات حركة

طالبان، وعناصر من الاستخبارات الباكستانية والأوزباكستانية والمنفيين الشيشان والمتطرفين الإسلاميين الباكستانيين ضد الشيعة، والأصوليين في كشمير. وبالإضافة إلى ذلك، تكمن حلقات مرنة للدعم المالي والسياسي والتجنيد: مثل الجمعيات الخيرية الدولية وأهل الدعوة، والمساجد الإسلامية الأصولية، ومراكز التعليم والأحزاب السياسية من إندونيسيا إلى اليمن، ومن المملكة العربية السعودية إلى قطاع غزّة، ومن أوروبا إلى الولايات المتحدة(866). عرفت «السي.آي.إيه.» في أواخر العام 1999، أن القاعدة منظمة ناشطة في أكثر من ستين دولة. ويصل عدد أعضائها الأساسيين المحلّفين الرسميين إلى المئات(867)، بالإضافة إلى الآلاف من المنظمات الحليفة، مثل حركة طالبان ومجموعة الثوّار الشيشان، أو أبي سيّاف في الفليبين، أو الحركة الإسلامية في أوزباكستان. ويمكن تجنيد هؤلاء المتطوعين للعمليات السرّية في أماكن أخرى إذا كانوا مؤهّلين. كان يظهر في كلّ أسبوع مجاهدون جدد في المساجد التابعة للقاعدة ومراكز التجنيد في العالم. كان يؤثر فيهم أئمّة المساجد ونشرات الأخبار التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية، أو المواقع الالكترونية المخصصة للعمليات العسكرية في فلسطين والشيشان وأفغانستان. وكان العديد من المتطوعين من الدول مثل الجزائر واليمن فقراء، ولم يتلقّوا تعليماً جيداً. تتفوق جرأتهم على قدرتهم بدرجة كبيرة، وبالكاد يتحملون كلفة السفر إلى باكستان، على الرغم من أن بعضهم من الطبقة المتوسطة ويحمل شهادة جامعية. وقلة منهم أيضاً، مثل الشبان الأربعة الذين وصلوا إلى قندهار خلال خريف العام 1999 سرّاً، يحملون جوازات سفر وتأشيرات مرور تسهّل سفرهم إلى أوروبا والولايات المتحدة. كان هؤلاء المتطوعون النخبة يتحرّكون داخل مجموعة «كواكب» القاعدة كالشهب. وتختلف أسباب انضمامهم إلى القاعدة كاختلاف سير حياتهم. لقد لحقوا بذيول الأصولية التي بدأت في بداية التسعينيات على يد رمزي يوسف ومير أمل قاسي. كانوا
أذكياء ومثقفين، يتحدرون من عائلات طموحة وناجحة. هاجروا إلى أوروبا، ودرسوا في الاختصاصات التقنية، وحاولوا النجاح بعيداً، وتكوين أنفسهم كخبراء معاصرين بعيداً عن كنف العائلة والثقافة الإسلامية التقليدية التي عرفوها في شبابهم. لقد عهدوا بولائهم إلى رجال يشبهونهم تماماً من خلال انضمامهم إلى حركة متطرفة يقودها تلميذا سيد قطب، المقاول السعودي المغترب والجوال، والطبيب المصري الجدلي والمنفي.

تجتمع خلية هامبورغ، كما أصبحت تُعرف، في مسجد قديم في وسط مدينة المرفأ الشمالي الرمادي الصناعي في ألمانيا. يحيط بجامع القدس محل لبيع القهوة وناد لكمال الأجسام، حيث يلتقي الرجال العرب في المهجر للصلاة وتأدية المراسم وحبك المؤامرات. يشاركهم في الشارع نفسه، المومساتُ وتجارُ الهيروويين والمهاجرون العاطلون عن العمل أيضاً. يشيد في المسجد برسائل بن لادن، رجل سوري وزنه 330 رطلاً، هو ميكانيكي سيارات، كان مقاتلاً قديماً في الحروب الأفغانية. إنه محمد حيدر زمّار، واحد من مئات الواعظين للقاعدة الذي ينصّبون أنفسهم ويتوزعون على مساجد المدن والمراكز الإسلامية في العالم. كان ضباط «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» في مركز مكافحة الإرهاب في ألمانيا، يعرفون زمّار جيداً. فقد أصدرت «السي.آي.إيه.» تقارير حول زمار، وطلبت إلى الشرطة الألمانية التحقيق معه. إلا أن القوانين الألمانية التي صدرت بعد المجزرة بحق اليهود (الهولوكوست)، تحمي الحرية الدينية، كما أن

الشرطة الألمانية لا تعتبر أن القاعدة تشكل تهديداً خطيراً لها. وبالتالي يرى زمار قدراتهم فاعلة(868).

وحتى داخل المساكن الاسمنتية المظلمة والشقق المستأجرة في هامبورغ المتعددة التقنيات، يعتبر فريق القدس نفسه عضواً في شبكة إسلامية عالمية. كان أعضاؤه يستخدمون الهواتف الجوّالة والإنترنت والبطاقات الهاتفية المدفوعة للاتصال بالمساجد الأخرى وأماكن السكن في أفغانستان، والواعظين المعارضين في المملكة العربية السعودية، ومن بينهم سفر الحوالي وسلمان العودة، أحد «الشيوخ الأوائل» الذين حفّزت مهاجمته العائلة الملكية السعودية في العام 1991، طموحات بن لادن الثورية(869).

كان محمد عطا الأكبر سناً في مجموعة هامبورغ. وُلد في ريف مصر، وانتقل في سنّ مبكرة مع والديه وشقيقتيه إلى شقة صغيرة مكتظّة، في الأحياء الفاسدة من الحقبة الاستعمارية في القاهرة. يمكنهم تحمل مصاريف تمضية العطلات قرب البحر، لكنهم قلّما يفعلون ذلك. أسّس والده المكافح البسيط «منزلاً مناسباً للدراسة وليس للّهو أو التسلية، بل الدراسة فحسب»، كما يروي أحد أصدقاء العائلة. ينظر الأب إلى عطا، ببعض الاستخفاف، «رجل حساس جداً. حنون وشديد التعلّق بوالدته». بقي عطا يجلس في حضن والدته إلى سن العشرين من عمره. يقول عطا إن والده كان يوبّخ والدته «لأنها ربّته كفتاة». وبرغم أن لديه شقيقتين، لكنها لم تتوقّف قط عن تدليله. نجحت شقيقتا عطا الأكبر منه سناً تحت ضغط والدهما: فأصبحت الأولى عالمة نباتات، والثانية طبيبة. ابتعد عطا عن مصادر اللهو كافة ليلحق بهما ويحصل على إجازة جامعية، وليحقق آمال والده أو آماله الشخصية. عندما تظهر راقصة على التلفاز يغلق عينيه ويخرج من الغرفة. وخوفاً من أن يضعف ولده في مصر، بسبب دلال والدته، حاول والد عطا «التحايل عليه»، بإقناعه بإكمال دراسته في ألمانيا. متى يصل إلى تلك البلاد، سيكبر ابنه باستقامة أكثر وعنفوان واستقلالية. عمل طوال أربع سنوات رساماً، ولم يعترض يوماً على عمله، أو يقدّم أفكاراً جديدة. قال المشرف على عطا لاحقاً إنه «يجسّد فكرة الرسم». «هو الرسام. وهو يرسم». كان زملاؤه في السكن يعتبرونه، غير متسامح، نكداً، قذراً ومتهوراً. عندما يسافر إلى البلدان العربية، يبدو عطا أكثر ارتياحاً ومرحاً أيضاً، لكن الأوروبيين الذين عرفوه في ألمانيا وجدوه منعزلاً ومنغلقاً، فأصبح تدريجاً يلجأ إلى الإسلام وتعاليمه وصلواته واضطهاده المرأة وجدول طقوسه الدينية، كدرع بينه وبين هامبورغ(870).

التزم عطا وآخرون في مجموعة القدس في أواخر العام 1999، الشهادة في سبيل الجهاد المقدّس. ساعد رمزي بن الشيبة الذي يتحدر هو وبن لادن من الأصل نفسه، ويبدو أنه يعرف جماعته جيداً، الشبان على إجراء اتصالاتهم في أفغانستان. وخلال حفلة زفاف في شهر تشرين الأول/أكتوبر، حذّر بن الشيبة من «الخطر» الذي يمثّله اليهود على العالم الإسلامي. ويصف زياد الجراح، في ملاحظاته الخطّية، قبل قيامهم برحلتهم الرباعية خلال ذلك الخريف إلى قندهار، حماسة تجمعاتهم:

«طلع الصباح. سيأتي المنتصرون. نقسم أن نهزمك». وبعد أسبوع كتب: «أتيت إليك بصحبة رجال يحبون الموت بقدر ما تحب أنت الحياة... آه، بدأت تفوح رائحة الجنّة»(871).

كشفت الاعترافات خلال التحقيق مع بن الشيبة وخليل شيخ محمد، العقل المدبّر للخطة، أن بن لادن والمخططين الكبار عنده وقعوا على فكرة استخدام الهجوم على الولايات المتحدة بواسطة الطائرات عندما وصل جرّاح وعطا والشحي وبن الشيبة إلى قندهار في ذلك الخريف. وجد محمد، الهارب من حكم أميركي بسبب عمله مع قريبه رمزي يوسف،
ملجأً في أفغانستان منتصف العام 1996، عند وصول بن لادن من السودان. تعرّف إلى بن لادن في الثمانينيات أثناء الجهاد ضدّ الاتحاد السوفياتي، واستغلّ تلك العلاقة لتحديد موعد معه. عرض محمد على بن لادن وقائده العسكري المصري محمد عاطف، خططاً عديدة لمهاجمة أهداف أميركية. أخبر المحققين لاحقاً بأن إحدى أفكاره، كانت خطة طموحة لخطف عشر طائرات للركاب على أيدي طيّارين مدرّبين، يفجّرون أنفسهم عبر الاصطدام بالبيت الأبيض ومبنى الكابيتول ومراكز «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آيه.» وبرجي مركز التجارة العالمي وأطول مبنى في كاليفورنيا وولاية واشنطن، وربما بمنشأة نووية. قال محمد إنه اقترح خطف الطائرات العشر وقيادتها بنفسه. وعوضاً عن اصطدامها بهدف، اقترح قتل الركاب البالغين كافة من الذكور والهبوط بالطائرة في مطار أميركي وإصدار بيانات تندد بالسياسات الأميركية في الشرق الأوسط، ثم تحرير النساء والأطفال(872).

وفقاً لشهادة محمد، استمع بن لادن ومساعده إلى أفكاره، لكنهما رفضا الالتزام بدعمه. فبن لادن وصل إلى أفغانستان منذ فترة قصيرة. والبلاد تمرّ في أزمة، وأحواله الماديّة ليست جيدة، ولا يملك قواعد ثابتة. لكن بعد تفجير السفارتين في أفريقيا في العام 1998، أدرك محمد أن بن لادن قد يكون مستعداً لتجديد محادثاتهما الطموحة، وكان محقّاً. التقيا مجدداً في قندهار في بداية العام 1999، وأعلن بن لادن أن خطة محمد المتعلقة بخطف الطائرات وتفجيرها ستلقى اليوم دعم القاعدة. لكنه أراد تعديل الهجوم لتصبح إدارته أسهل. كما كان يفضّل البيت الأبيض على الكابيتول كهدف، وحبّذ ضرب البنتاغون أيضاً. ألحّ محمد على مبنى التجارة العالمي. لقد قام قريبه بتفجير البرجين منذ ستة أعوام، لكنه فشل في إسقاطهما، وهو اليوم يقضي عقوبته في سجن أميركي مشدد الحراسة. ففكّر محمد في إتمام المهمة.

قدّم بن لادن طيّارين انتحاريين من الجنسية السعودية، كانا من الجهاديين الإسلاميين في البوسنة، ومتطوعين من الجنسية اليمنية لم يتمكنا من الحصول على تأشيرة سفر إلى الولايات المتحدة. راح محمد يعلّمهم كيف سيعيشون ويسافرون في الولايات المتحدة، معتمداً على تجاربه الخاصة من أيام دراسته هناك. علّمهم كيف يستخدمون الإنترنت، ودليل السفر، وقراءة التعليمات الهاتفية، والاتصال بالمقار. تمرّنوا على برامج طيران مشابهة لتلك الحقيقة على أجهزة الكومبيوتر الخاصة بهم، وبدأوا يكتشفون كيف سيختطفون عدة رحلات تحلّق في الجوّ في الوقت عينه. وبينما يستمر هذا التدريب، وصل المتطوعون الأربعة من هامبورغ إلى قندهار، كلّ يسافر بمفرده. عهدوا بولائهم رسمياً إلى بن لادن. التقى بن الشيبة وعطا وجرّاح القائد العسكري عاطف، الذي طلب

إليهم العودة إلى ألمانيا والتدرّب كطيّارين. تم اختيار عطا قائداً للمهمة. التقى بن لادن شخصياً لدراسة الأهداف. كان فريق هامبورغ يعرف كيف يتصرّف داخل المجتمع الغربي، لكن قبل العودة إلى أوروبا، أمضى بعضهم الوقت مع محمد في كاراتشي، في دراسة مواعيد الرحلات ونمط الحياة في الولايات المتحدة(873).

عاد الأربعة إلى هامبورغ في أواخر الشتاء. أخبر جرّاح صديقته بأنه بعد سنين من الانحراف، اكتشف أخيراً طموحه في الحياة: أراد أن يصبح طيّاراً. استخدم عطا عنوان بريده الالكتروني لمراسلة مدارس الطيران الأميركية. كان يكتب فيها: «نحن مجموعة صغيرة (2 - 3) من الشبان من بلدان عربية مختلفة، ونعيش في ألمانيا منذ مدّة للدراسة. نودّ أن نبدأ التدرّب كطيّارين محترفين. لا نملك أي خبرة في هذا السياق، لكننا مستعدون للاشتراك ببرنامج تدريبي مكثّف»(874).

تزوّجت ابنة برويز مشرّف بمعد أفلام وثائقية، وعمل ابنه محللاً مالياً في بوسطن. كان والده موظفاً حكومياً علمانياً ناجحاً. لم تكن والدته ترتدي الحجاب. كانت امرأة مفعمة بالحيوية ومتحدثة لبقة تقود عائلتها بنظام. تمتلئ ألبومات عائلتها بصور الأطباء والدبلوماسيين ورجال الأعمال. كان مشرّف نفسه يُدعى بالمتحرر، ما يعني في اللغة السياسية الباكستانية أنه لا يمانع في شرب الويسكي ويرقص متى يحلو له، ويعتقد أن باكستان يجب أن تكون بلداً طبيعياً، إسلامياً في بعض الأوجه، وأن تكون أيضاً دولة رأسمالية وديموقراطية إلى حدّ ما. وعلى الرغم من ذلك، يعتقد برويز مشرّف، قائد الجيش الباكستاني، بضرورة بقاء طالبان في أفغانستان، مع كلّ ممارستهم المتخلّفة والمتشددة دينياً. كان يؤمن بالقيمة الاستراتيجية لحلفهم الجهادي المشترك، ولاسيما مع هؤلاء الذين يقاتلون في كشمير(875).

هذه هي صورة الضباط الباكستانيين الذين يحيّرون المحللين الأميركيين أحياناً، في رأي بعض المدنيين الباكستانيين المتحررين. كان كلّ ضابط باكستاني، متحرراً كان أم متديّناً، يؤمن بالجهاديين بحلول العام 1999، ليس من منطلق قناعته الشخصية، في معظم الحالات، بل لأن الجهاديين أثبتوا أنفسهم على مرّ السنين على أنهم القوة الوحيدة القادرة على إخافة الجيش الهندي الهندوسي بغالبيته، وإرباكه وهزمه. ففي أواخر التسعينيات،
دخلت عشرات الكتائب الهندية كشمير لقمع بضعة آلاف من الجهاديين الإسلاميين المدرّبين التوّاقين إلى الجنة. ماذا تريد باكستان أكثر من ذلك؟ كان الفدائيون الجهاديون يشكلون استراتيجية دفاعية يومية ضد الهيمنة الهندية أفضل من قنبلة نووية. وفي غربي أفغانستان، تشكل طالبان «عمقاً استراتيجياً» جغرافياً - سياسياً ضدّ الهند، وحماية من المتمردين من قبل الشعب الباكستاني، الباشتون نفسه. بالنسبة إلى مشرّف، والعديد من الجنرالات الباكستانيين المتحرّرين، لم يكن الجهاد دعوة، بل واجباً دينياً. كان هذا ما يقوم به داخل مكتبه. وفي نهاية الدوام، يثبّت الأوسمة على بذلته، ويعود إلى منزله إلى حياته الطبيعية.

كانت مسألة الهند مسألة شخصية وحساسة بالنسبة إليه. كان رجلاً قصير القامة، بشرته دكناء وخداه مدوّران، له وجه صبياني وشارب مشذب، والشيب يجلل وسط رأسه. كان مغروراً، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون بسيطاً وعادياً في المجالس الخاصة. ولد في نيودلهي في العام 1943. وهاجر هو وعائلته إلى باكستان وسط نزاعات الانفصال. التحق بمدارس النخبة المسيحية في كاراتشي ولاهور، ثم حصل على مقعد في الأكاديمية الباكستانية العسكرية. أثناء خدمته كضابط شاب، اشترك في المعارك المدفعية في الحرب الثانية من حروب بلاده الثلاث مع الهند. في الحرب الكارثية في العام 1971، عندما خسرت باكستان حوالى نصف أراضيها بينما حصلت بنغلاديش على استقلالها، خدم مشرّف رائداً في صفوف النخبة من المغاوير. وعندما سمع آخر نداء مهين لوقف إطلاق النار مع الهند، بحسب ما يروي أحد أصدقائه، «نزع سترة المغاوير التي يرتديها ورماها على الأرض... اعتبرها هزيمة. كلنا اعتبرنا أننا هُزمنا». وكمئات من زملائه، زاد تصميم مشرّف على الانتقام. وفي إجازته العملية في المدرسة الحربية البريطانية في العام 1990، عندما أصبح جنرالاً، ناقش في أطروحته أن باكستان «تريد فعلياً الحياة بكرامة»، بينما تسعى الهند بتعجرف لتكون «في موقع القوة المسيطرة» في جنوبي آسيا. وكقائد للجيش في العام 1999، كان دور مشرف، برأيه، يقضي بوضع خطة لبقاء وطنه، وتنفيذها، حتى لو تطلب الأمر الدفاع عن طالبان أو تحمّل وجود بن لادن، لكونه السعودي الذي يدرّب المقاتلين الانتحاريين في كشمير، ويلهمهم(876).

خلال ذلك الربيع، أثناء الاجتماعات السرّية مع قادته الكبار في راولبندي، تمادى مشرّف إلى أبعد من ذلك: ربما بسبب خلفيته كمغوار، أو بسبب نجاح جيشه والمتطوعين في القتال سراً مع حركة طالبان ضد أحمد شاه مسعود... أو ربما بسبب الضغط الشعبي المتواصل في باكستان لتحقيق انتصار ضد القوات الهندية في كشمير. في جميع الأحوال، وكما شرحت الوضع سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد، تخلّى مشرف عن خطته العسكرية القديمة لينفذ ضربة سرّية ضد منطقة تقع على علو استراتيجي بمعدل خمسة عشر ألف قدم في كشمير، تُعرف بـ «كارجيل». وتقضي الخطة بإرسال ضباط وجنود من الجيش الباكستاني متنكرّين بزيّ مدني إلى المنطقة، والسيطرة عليها، والاحتفاظ بها لصد الهجمات الهندية. وستمتلك بذلك باكستان موقع هجوم منيعاً، فوق طريق استراتيجي بين الهند وكشمير، يمرّ في منتصف منطقة متنازع عليها تدعى لاداخ. استنتج مشرّف، أنه بهجوم عسكري عنيف واحد، سيتمكن جيشه من استرداد جزء من كشمير من السيطرة الهندية(877).

أخبر رئيس الوزراء نواز شريف بهذه الخطة الجريئة، فوافق عليها. لكن محللاً في الجيش الباكستاني، وصف تلك الخطوة لاحقاً، بأكبر خطأ استراتيجي في التاريخ العسكري منذ كارثة بيرل هاربر. لكن، يبدو أن شريف ومشرّف لم يتوقعا قط كيف سيكون رد فعل الهند أو العالم على ذلك الهجوم(878).

تنكّر المغاوير الباكستانيون في بداية أيار/مايو، كجهاديين متطوّعين، واستولوا على كارجيل من دون قتال. غير أن الكارثة سرعان ما انفضحت. فقد دعا ضباط الجيش الباكستاني السفراء إلى

اجتماع في إسلام آباد، واعترفوا بأن المهاجمين ليسوا إلا قوات نظامية في الجيش الباكستاني، على الرغم من إصرار الناطق الرسمي باسم الحكومة علناً على أن تلك التوغلات ليست إلّا انتفاضة لثوار مستقلين. بدأ ستوند وبيل ميلام والسفير الأميركي يرسلون البرقيات إلى واشنطن للإفادة بأن باكستان بدأت تشنّ حرباً فعلية. بدأت الهند بإطلاق تفجيرات جوية وبشن حملة عالمية لإثارة الغضب على الاعتداء الباكستاني. وراح رجال السياسة الهنود يهددون بتوسيع الصراع للقضاء نهائياً على الجيش الباكستاني. وخوفاً من التصعيد النووي، قام كلينتون بإرسال عشرات الرسائل السرية إلى شريف والجنرالات الباكستانيين على مدى أسابيع عديدة، يناشدهم إدراك حماقتهم والتراجع عنها. ومن جهة أخرى، كان يمارس الضغوطات على شريف بخصوص طالبان والقاعدة. في 19 حزيران/يونيو كتب كلينتون إلى شريف، «أطلب إليك بشدّة أن تجبر طالبان على طرد بن لادن». لكن الأزمة ازدادت حدّة. في بداية شهر حزيران/يونيو، عرفت «السي.آي.إيه.» أن الجيش الباكستاني يعد لإطلاق صواريخ برؤوس نووية على الهند إذا لزم الأمر(879).

خشي شريف المغرور أن يخسر سلطته، فطار مسرعاً إلى واشنطن للاجتماع بكلينتون في 4 تموز/يوليو. وأحضر معه زوجته وأولاده، كأنه مسافر إلى المنفى(880).

في منزل بلير في جادة بنسلفانيا، وبوجود شخص واحد ليدوّن محضر الاجتماع من قبل مجلس الأمن القومي، راح كلينتون ينتقد رئيس الوزراء الباكستاني. لقد طلب كلينتون مراراً وتكراراً مساعدة باكستان لإخراج أسامة بن لادن من أفغانستان ومحاكمته. «وكان شريف يعده غالباً بالتعاون»، لكنه لم يفعل أي شيء. وعوضاً عن ذلك، راحت الاستخبارات الباكستانية تعمل مع بن لادن وحركة طالبان ليحرّضا الإرهابيين، ما أثار غضب كلينتون. كان ينوي أن يصدر بياناً ليلفت أنظار العالم إلى دعم باكستان للإرهابيين، فراح كلينتون يتساءل: أهذا ما يريده شريف؟ هل طلب شريف إلى القوة النووية الصاروخية الباكستانية الاستعداد للهجوم؟ أيدرك خطورة أعماله؟

وأضاف كلينتون: «اليوم، وضعتني في الوسط، وقدّرت فشل الولايات المتحدة، لكنني لن أدع ذلك يحدث. باكستان تهدد بالحرب النووية»(881).

استسلم شريف المراوغ. كان يتعاون مع المملكلة العربية السعودية وأوروبا، ولاستعادة علاقاته السابقة مع الهند، يريد أن يجد طريقة للانسحاب. أعلن انسحاب القوات الباكستانية من كارجيل. وبذلك ينهي تلك الأزمة، لكنه سيتعرّض لضغوطات شديدة في الوطن. كان شريف يلوم الجيش على تلك الورطة. إلا أن الجنرالات أخبروا الجميع بأنه خطأ رئيس الوزراء. وبلّغت سفارة الولايات المتحدة الأميركية عن احتمال وقوع انقلاب عسكري.

لكن مشرّف اعترض على ذلك. في أواخر فصل الصيف، سافر هو ورئيس الوزراء لحضور احتفال عسكري بالقرب من خطّ مراقبة كشمير. تناول الجنرال وشريف الطعام، وتحدثا ورقصا أيضاً، وحاولا أن يُصلحا الأمور. وفي طريق عودتهما إلى غرفتيهما في الفندق، استوقف شريف مستشاره جانباً «وسأله عن رأيه» في مشرّف باللغة الإنكليزية، فأجابه الوزير، مقتبساً قول مارغريت تاتشر في ميخائيل غورباتشيف: «إنه رجل تستطيع التعاون معه برأيي»(882).

أمل شريف أن تنقذه الاستخبارات الباكستانية. بقي رئيس الوزراء مقرّباً من رئيس جهاز الاستخبارات، ضياء الدين، صديق العائلة والابن السياسي، أكثر من مشرّف.

دفع كلام كلينتون في منزل بلير باكستان إلى تقديم خطّة لتدريب فرقة مغاوير وإرسالها إلى أفغانستان لخطف بن لادن. حاول شريف تعزيز علاقته بـ «السي.آي.إيه.». كان كل رجل سياسة باكستاني، أقله أحياناً، يعتقد أن «السي.آي.إيه.» هي التي تعيّن رئيس الوزراء الباكستاني. في شهر أيلول/سبتمبر، سافر ضياء الدين إلى واشنطن للقاء كوفر بلايك، رئيس مركز مكافحة الإرهاب الجديد، وغاري شروين. نقل إليهما رسالة محددة: «أريد مساعدتكما. نريد النيل من بن لادن... سنساعدكم إذا وجدتموه». وكما يذكر مسؤول أميركي، ازدادت وتيرة تدريب فريق المغاوير، واستطاعت الوكالة أن توصل الفريق إلى «مستوى جيّد». انتقل فريق المغاوير إلى الحدود الأفغانية، وتم بناء مخيّم انطلاق. ويذكر مسؤول أميركي أن مركز مكافحة الإرهاب كان يوزّع عملاءه، من لانغلي ومركز إسلام أباد، ويجمع موارده، «ويستعدّ لتقديم المعلومات للتحرك»(883).

قام شريف خلال الأسبوع نفسه، بإرسال شقيقه ومستشاره الأمين، شهباز، إلى واشنطن. ويذكر بروس ريدل من مجلس الأمن القومي، أن شهباز، الذي نزل في فندق ويلارد، أراد أن يعرف من الأميركيين «السبيل ليبقى شقيقه في السلطة. واعترف بأنه يعلم بأنهم [الباكستانيين] سيتعرضون لانقلاب عسكري»(884). حذّر ريك إندرفيرث من وزارة الخارجية في تصريحاته للصحافيين من أي إجراءات «تتخطى الدستور» يقدم عليها الجيش الباكستاني. أما في راولبندي، فقد كان مشرّف وضبّاطه غاضبين. هل يحتاجون إلى موعظة أخرى حول الديموقراطية من الأميركيين؟ ومن قال إنهم سينفّذون انقلاباً عسكرياً؟ فشريف يمثّل الخطر الأعظم على باكستان. وماذا يعد صديقه، الجنرال ضياء الدين، مع «السي.آي.إيه.»؟ وفي أروقة إسلام آباد وبين نخبة راولبندي، حيث ينتشر الحديث عن المؤامرات، بدأت تتزايد الشكوك مع نهاية شهر أيلول/سبتمبر.

سمع ضياء الدين في فوجي بوتوم من مساعد وزير الدولة بيكرنغ، تلميحات إلى أن يتدخل رئيس الاستخبارات الباكستانية شخصياً للوساطة مع الملا عمر حول بن لادن. وفي تعبير عن حاجتهما الماسة إلى الحلفاء، أراد شريف ورئيس جهاز استخباراته أن يبذلا جهدهما للتملّق لـ «السي.آي.إيه.». سافر ضياء الدين إلى قندهار في 7 تشرين الأول/أكتوبر والتقى الملا عمر لإخباره بشعور الأميركيين تجاه بن لادن. إلا أن قائد طالبان، كما كان يفعل سابقاً، صدّه(885).

حاول شريف مرة ثانية تهدئة الأجواء. عيّن مشرّف في منصب ثان رئيس فريق القادة المشترك في باكستان. لقد كان منصباً رمزياً، إلا أن شريف تركه شاغراً مدة سنة، ليترك انطباعاً بأنه قد يستخدمه ليتخلّص من مشرّف، كقائد للجيش. واليوم أراد شريف أن يوضّح أنه لا يريد من مشرّف أن يغادر. شعر الجنرال بالارتياح إلى درجة أنه أخذ زوجته في رحلة غولف إلى سريلانكا. توقّع بيل ميلان أن يسود السلام موقتاً، وسافر في عطلة إلى كاليفورنيا.

في 12 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1999، بينما عاد مشرّف إلى كاراتشي على متن طائرة تابعة للخطوط الدولية الباكستانية، أعلن نوّاز شريف أنه سيطرد قائد جيشه. عيّن ضياء الدين مكان مشرّف مخالفاً كلّ البروتوكولات. لم يكن لدى ضياء الدين الكثير من الأصدقاء بين قادة الجيش. فقد نشأ مهندساً على هامش الجيش، أما منصبه الأخير في الاستخبارات الباكستانية، فقد أكسبه الحلفاء في لانغلي وراولبندي فقط. لذلك كانت علاقاته بالمراكز العامة محدودة، إلى درجة أنه عندما عرض عليه شريف المنصب الجديد، قصد ضياء الدين متجراً في راولبندي، وفقاً لمعلومات وصلت لاحقاً إلى سفارة الولايات المتحدة، لشراء الكتيّفات المناسبة.

ساد الارتباك الساعات الأولى التي تلت قرار شريف. لقد استغرق قرار صرف مشرّف وقتاً ليسري بين الجنرالات، كما اتخذوا هم وقتاً طويلاً أيضاً ليدرسوا جوابهم. اتفّقوا على الحفاظ على الانضباط العسكري. لا يزال مشرّف في الخدمة، لكنه كان مسافراً، ويصعب الوصول إليه.

اختلّ توازن فريق المغاوير السري الممول من قبل «السي.آي.إيه.» ضد بن لادن على الحدود الأفغانية. وكقائد للجيش اسمياً، قام ضياء الدين باستدعاء فريق المغاوير إلى العاصمة للمساعدة على الدفاع عن منصبه الجديد وعن نواز شريف. لم يكن عددهم كبيراً، لكنهم يريدون أن يكونوا حرّاساً قتلة(886).

كان قادة فريق المغاوير يعرفون أنهم بالمعنى السياسي، هم رجال ضياء الدين. وإذا تحرّكوا الآن نيابة عنه، فسيحصلون على الجوائز. لكن إذا حاولوا الدفاع عن الجنرال من ضربة عسكرية عدائية، فسيجدون أنفسهم في الأسر أو ربما في وضع أسوأ. وخلال الساعات الأولى، انتقل العديد من الضباط في فريق المغاوير، بلباسهم الكامل، إلى راولبندي بسرعة لتقييم أداء فصيل ضياء الدين. لم يريدوا أن يلتزموا إلى أن يتأكّدوا من فرص النجاح.

ووفقاً لمعلومات وزّعتها لاحقاً «السي.آي.إيه.»، اكتشف قادة فريق المغاوير بسرعة، غضب الجيش الشديد من خلع مشرّف من منصبه. قرّرت القيادة العليا التحرك ضد شريف وحلفائه. تحرّك اللواء العاشر والوحدة السياسية الحساسة المتمركزة بالقرب من إسلام آباد، بسرعة، وانتشرت في

الشوارع لحجز شريف وحلفائه السياسيين، ومن بينهم ضياء الدين. ومن دون لفت الأنظار إليهم، اتّصل قادة فريق المغاوير برجالهم لإبلاغهم بأنها قضية خاسرة.

يذكر مسؤول أميركي «أن الوحدة اختفت» خلال الليل: أي «تبخرت». ووفقاً لمصدر باكستاني، أصبح بعض القادة في فريق المغاوير غير مرتاحين إلى مهمتهم ضدّ بن لادن. ويذكر مسؤول أميركي آخر كان يعمل على أزمة الانقلاب في واشنطن، «أنه سمع أخباراً عن توجههم إلى التلال، ولم يعرف عنهم شيئاً منذ ذلك الحين»(887).

طلب شريف، الذي كان يتملكه اليأس، إلى السلطات في مطار كاراتشي أن يُرفض السماح لطائرة مشرّف بالهبوط. أجاب الطيّار بأن الطائرة لا تستطيع التحليق أكثر من عشرين دقيقة بكمية الوقود المتبقّية. راحت الطائرة تنخفض وتترجّح أثناء تحليقها فوق البحر العربي. وتروي شيبا، زوجة مشرّف، أن «وجه المضيف أصبح لونه كلون الملاءة البيضاء». «تقدم حارسان مدربان على عمليات الخطف. كنا نترجح في الجوّ. ورأيت أضواء كاراتشي تنحسر»(888).

سيطر الجيش على المراقبين في المطار وسمحوا للطائرة بالهبوط. لم يجد مشرّف الوقت ليستوعب أنه أصبح القائد الأعلى لباكستان. وبثيابه المدنية غير المتناسقة التي استعارها بسرعة، قاطع الحشود الراقصة التي هدّأت المشاهدين على شاشة تلفاز الدولة خلال الأزمة. وأعلن مشرف، بدعم من الدبابات التي انتشرت في معظم المدن الباكستانية الكبيرة، بدء عصر سياسي جديد في باكستان وطرد شريف. وقام بعد يوم، بإصدار مرسوم طوارئ، وعيّن نفسه رئيساً تنفيذياً.

لقد عرقل الانقلابُ، حملةَ إدارة كلينتون السرّية ضد بن لادن. ألقى مشرّف القبض مباشرة على ضياء الدين. وأفادت الاستخبارات الباكستانية أن فريق المغاوير الذي درّبته «السي.آي.إيه.» ضاع. كان ريتشارد كلارك وآخرون في مجلس الأمن القومي يعوّلون في أملهم على الفريق، لكن بعض ضباط «السي.آي.إيه.» توقّعوا الحصول على فرصة بنسبة 25
في المئة للتحرّك حول قندهار.

ستشهد الاستخبارات الباكستانية ثورة جديدة في القيادة. فمشرّف يملك أسباباً شخصية للشكّ في جهاز الاستخبارات لديه. فقد اشتكى مشرّف بغضب من قيام الفريق الأمني الداخلي في الاستخبارات الباكستانية بالتحقيق في أهلية الجنرال إلى منصب رفيع عندما كان شريف ينوي تعيينه قائداً للجيش. لذلك، عليه اليوم أن ينظّف جهاز الاستخبارات الباكستاني للتأكد من أنه تحت سيطرته، ووفيّ لحكومته الجديدة، ولا يدير مهمات سرّية لكلينتون، أو «السي.آي.إيه.».

عاد بيل ميلام مسرعاً إلى إسلام آباد والتقى مشرّف على انفراد الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم الجمعة في 15 تشرين الأول/أكتوبر، في المراكز العامة في راولبندي. ارتدى مشرّف زيّه

وأحاط نفسه بالمساعدين. لم يبد مرتاحاً. كان ميلام يلتقي مشرّف شهرياً خلال السنين الماضية. في البداية، كانت المحادثات رسمية ومتكلّفة. وبدآ تدريجاً يدخلان في محادثات خاصة وصريحة. قام ميلام بتسليم مشرّف رسالة من الرئيس كلينتون، تُعاتب الجنرال على الاستيلاء على السلطة، وترجو منه وضع «خريطة طريق» لإرساء الديموقراطية. لم يناقشا أي مواضيع أخرى عدا الانقلاب العسكري. وشرح مشرّف أسبابه: لقد أوصل شريف باكستان إلى الحضيض، إلى أسفل المراتب في التاريخ. قدّم الجنرال معلومات وافرة حول الساعات التي قضاها على متن طائرة الخطوط الجوية الباكستانية حيث كان يجهل مصيره. وقال مسؤول أميركي مطّلع «إنه كان شديد الغضب من نوّاز، ويعتقد أنه كان يحاول قتله»(889). يعرف ميلام من خلال اجتماعاته السابقة مع مشرّف، أن قائد الجيش يتمتع بآراء تقليدية لا يساوم عليها حول أفغانستان وكشمير. وبمرور الوقت على الانقلاب، قال مسؤول باكستاني رفيع المستوى مقرّب من الجنرال إن مشرّف وقادته شعروا «بأن الأميركيين تبنّوا مقاربة محدّدة تجاه طالبان من دون أن يفهموا حقيقة طالبان». اعتقد مشرّف أنه من خلال «تهميش طالبان»، ستجعلهم إدارة كلينتون «يعتمدون بشكل أكبر على العرب»، لذلك «حصلت الولايات المتحدة في النهاية على نبوءة توافق معتقداتها» بازدياد الإرهاب. أراد مشرّف أن يلتزم كلينتون مع طالبان، ويبحث عن اعتدالهم، و «يفوز بقلوب الأفغان وعقولهم»(890).

انقسمت إدارة كلينتون حول كيفية التصرف حيال انقلاب مشرّف. لم يشأ ريتشارد كلارك وحلفاؤه في مركز مكافحة الإرهاب أن يُبعدوا مشرّف خوفاً من تصعيبه مشكلة بن لادن. لكن أولبرايت والآخرين، ادّعوا أنه من السخرية الموافقة على هذا الانقلاب العسكري ضدّ رئيس وزراء منتخب، بما أن كلينتون يشدّد على نشر الديموقراطية في العالم، على الرغم من عيوب شريف. فمشرّف كان المخطط لعملية كارجيل برأيها ورأي آخرين من المشككين فيه. كما سهّل للإرهاب في كشمير. ويذكر أحد المشاركين أن الجدل حول عيوب مشرّف «حوّل المناقشات» حول مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض والمجلس. لقد أوجد الانقلاب «موضوعاً جديداً في علاقاتنا الثنائية. فبالإضافة إلى كشمير، وبالإضافة إلى التخصيب النووي، يوجد اليوم موضوع العودة إلى الديموقراطية»(891).

ومع قضية باكستان، تراجعت مشكلة بن لادن والقاعدة إلى أسفل اللائحة.

أرسل جورج تينيت مع اقتراب الاحتفالات بنهاية الألفية وبداية العام 2000، يطلب معلّمه القديم من أيام الكابيتول هيل، السيناتور السابق من أوكلاهوما، دايفيد بورين.

طلب إليه تينيت «عدم السفر إلى أي مكان، وعدم الذهاب إلى أماكن توجد فيها حشود كبيرة».

ارتاب بورين، وقال لتينيت محاولاً تجاهل كلامه: «كفاك مزاحاً يا جورج».

فأجابه تينيت بجدّية: «لا، لا. أنت لا تفهم الأمر، ولا تعرف الأشخاص أمثال بن لادن». اعتقد بورين أن تينيت كان مهووساً، لكنه أخذ حذره(892).

حمل ذلك الخريف أوقاتاً صعبة إلى مدراء مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» بشأن تقارير التهديدات. اختاروا في بداية شهر أيلول/سبتمبر، عدة إشارات أوحى بها بن لادن بهجمات إرهابية ستقع مع بداية السنة. وراحت أجهزة جوردان الأمنية تسجّل المكالمات الهاتفية لعناصر القاعدة المشتبه فيهم، وبدأت تجمع الأدلّة حول مؤامرت محتملة لضرب أهداف أميركية وإسرائيلية. كانت هناك أجزاء مشؤومة أخرى عديدة في جدول تهديدات «السي.آي.إيه.» اليومي.

توجّه تينيت إلى البيت الأبيض لينقل خبراً: توقّع حدوث خمسة إلى خمسة عشر هجوماً إرهابياً مع حلول الألفية الجديدة. قال تينيت: «لأن الولايات المتحدة هي هدف بن لادن الأساسي، يجب أن نفترض أن العديد من تلك الأهداف ستكون داخل الولايات المتحدة»(893). حصل على اهتمام مجلس الأمن القومي بذلك التوقّع. لكن ما زالت
التوترات بين مكتب ريتشارد كلارك في البيت الأبيض ومركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» مستمرة حول حجم تقارير التهديدات. في ذلك الوقت، كتب مساعدا كلارك الرئيسيان، ستيفن سايمون ودانييل بنجامين، أن «السي.آي.إيه.» لا تزال «تحشو الموجز الرئاسي اليومي» خلال الخريف، بتقارير التهديدات المرعبة وغير الحاسمة، «إلى درجة أن الخوف من الفشل كان أفضل من إرسال تلك الملاحظات في كل لحظة». ويثير هذا النوع من التشكيك اللاذع في دوافع «السي.آي.إيه.»، إحباط ضبّاط لانغلي. سيكون البيت الأبيض برأيهم، ولاسيما مكتب كلارك، أوّل المهاجمين إذا فشلوا في إمرار تحذير مهم(894). جرت عمليتا أسر صدمتا الجميع، الأولى أُعلنت في الوقت عينه، والثانية بقيت سرّية مبدئياً، وأدخلتهم في تعاون مذعور. في 30 تشرين الثاني/نوفمبر، أفادت الاستخبارات الأردنية أنها سمعت أحد قادة بن لادن، ويُدعى أبا زبيدة، يعطي أمراً عبر خط هاتفي دولي لبدء تنفيذ هجوم أطلق عليه «يوم الألفية». دهمت الشرطة الأردنية المنازل التي تراقبها في عمان. وخلال الساعات الأولى من 5 كانون الأول/ديسمبر، قادهم مقاتل بعهدتهم إلى منزل بأرضية مزيّفة مغطاة بقوالب من الرماد. وجدوا تحت فتحة حديدية، أسفل سلّم، 71 مستوعباً بلاستكياً من حمض النيترات والحمض الكبريتي. كانت كمية كافية من المتفجرات تعادل ستين طنّاً من مادة «التي.أن.تي.»، تكفي لتدمير فندق في المنطقة المجاورة. اعترف الموقوفون الإسلاميون بأنهم اختاروا هدفاً لهم: فندق راديسون الذي سيستقبل سياحاً أميركيين وإسرائيليين للاحتفال بالألفية. واعترف المتهمون بخطة أخرى: أرادوا إطلاق غاز السيانيد داخل قاعة مسرح مكتظّة بالأجانب(895). كان مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر يعقد الاجتماعات لساعات طويلة يومياً في البيت الأبيض، لمراجعة كلّ تهديد تنقله الاستخبارات وأجهزة المراقبة والتحذيرات المتوافرة. وأصدر الفريق داخل الوكالة عدداً هائلاً من التحذيرات على الصعيدين الوطني والدولي. وراح تينيت وبلايك من لانغلي، يرسلان البرقيات إلى مختلف الدول، وطلبا جمع المعلومات بشكل مكثّف وشن حملات تنصّت ضد أي شخص أو مجموعة إسلامية معروفة تشير سجلاتها إلى أنها قد تكون متورطة في هجمات الألفية. وقال ضابط في

مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» لاحقاً، إنهم حاولوا استهداف «العمليات التي عرفوا أنها أُعدّت لهجمات الألفية، والتي شكّكوا في استمرارها إلى نهاية شهر رمضان عند المسلمين في بداية كانون الثاني/يناير من العام 2000»(896). وبعد تسعة أيام من الكشف عن المتفجرات المخبّأة تحت الأرض في الأردن، لاحظت عميلة مراقبة في الجمارك، رجلاً ملامحه شرق أوسطية، يتصبب عرقاً وهو يجلس خلف خطّ من السيارات الخارجة من نفق من كندا عبر «بورت أنجلوس» واشنطن. رفعت غطاء شاحنة الرجل ووجدت كمية من المتفجرات تكفي لتفجير مطار لوس أنجلوس الدولي، وقد اعترف لاحقاً بأنه كان هدفه المنشود. هاجر أحمد رسّام الجزائري الجنسية إلى كندا، وتورّط في خلية مونتريال الإسلامية، ثم سافر إلى أفغانستان ليلتحق بمخيمات تابعة لبن لادن. أُعجب المسؤولون عن التجنيد بقربه من أميركا، فالتحق بالمستوى العالي من التدريب على المتفجرات في درونتا، وهو مخيّم يقع بالقرب من جلال آباد. وفي منتصف شهر كانون الثاني/يناير 1999، غادر رسّام أفغانستان حاملاً معه مبلغاً نقدياً قدره 12 ألف دولار، ومزوداً برنامجاً مكثفاً حول كيفية تشكيل قنبلة مدمّرة(897).

اتّصل كلينتون بالجنرال مشرّف في باكستان، بعد إلقاء القبض على رسام. طلب إلى مشرّف إيجاد طريقة لإعاقة بن لادن أو توقيفه، وفقاً للملاحظات من الحوار الذي احتفظ به الجانب الأميركي. قدّم انقلاب مشرّف بداية محتملة جديدة في العلاقات الأميركية - الباكستانية، برأي كلينتون، إلا أن الفوائد المحتملة من أي تجديد للمساعدات الاقتصادية والتسهيلات التجارية، تعتمد على مساعدة الجيش الباكستاني على التخلص من تهديد بن لادن. أرسل السفير الأميركي وليام ميلام برقية تفيد بأن مشرّف تكفل بالتعاون، «لكنه لم يكن يرغب في تحمّل العواقب السياسية في بلاده»(898).

أمضى كلارك ومركز مكافحة الإرهاب رأسَ السنة في مراقبة دليل على حدوث هجوم للحظة الأخيرة. حلّ منتصف الليل، لكن لم يظهر أي إرهابي. وفي الواقع أنهم غفلوا عن إحدى المجموعات التابعة لبن لادن التي كانت على وشك تنفيذ اعتداء. تحرّك فريق من الانتحاريين في اليمن لمهاجمة المدمّرة الأميركية «ذي سولّيفان»، عندما كانت ترسو في ميناء عدن بعد يوم رأس السنة. إلا أن المهاجمين حمّلوا زورقهم الصغير بكمية كبيرة جداً من المتفجرات فغرق في المرفأ. تمكّنوا من انتشال المركب، لكنهم لن يستطيعوا التخطيط لعملية أخرى قبل أشهر. لم يلاحظهم أحد(899).

في مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.»، «كانوا مسعورين» كما يذكر بلايك. «لا أحد ينام. الجميع يعمل بأقصى سرعة». لقد أطلقوا «أوسع حملة لجمع المعلومات والتنصّت في تاريخ مكافحة الإرهاب»، مع «مئات» العمليات التي تجري في الوقت عينه(900).

وقعت الـ «أف.بي.آي.» في خضم تلك الموجة، على «دليل مهم» خلال التحقيقات في تفجير السفارتين في أفريقيا. أشار شريط مسجّل في الشرق الأوسط إلى أن رجلين عربيين على ارتباط بالقاعدة، يخططان لرحلة إلى كوالالمبور في ماليزيا. لاحظ ضابط في مركز مكافحة

الإرهاب العلاقة بينهما، وحاول الحصول على موافقة عمليات المراقبة ليكشف أسماء الشخصين، «ومهمتهما»، كما قال ضابط في «السي.آي.إيه.» لاحقاً(901).

حصلت «السي.آي.إيه.» بحلول 5 كانون الثاني/يناير من العام 2000، على نسخة من جواز سفر أحد المشتبه فيهما: خالد المحضار، سعودي من الطبقة الوسطى، ليس على علاقة معروفة بالإرهاب، حصل على تأشيرة دخول أميركية في جدّة في الربيع الماضي، لا تنتهي مدتها حتى 6 نيسان/أبريل، بحسب ما يظهر على جواز السفر(902).

استطاع الضباط بالتعاون مع وحدة الأمن الداخلي الماليزية التي تتعاون دائماً مع مركز الـ «سي.آي.إيه.» في كوالالمبور، التقاط الصور للمتهمين داخل ملعب مشترك للغولف، كان ملكاً للإسلامي الأصولي يزيد صوفات. تضمّ المجموعة عدداً من النشطاء الراديكاليين المعروفين أو المشتبه فيهم، التابعين للقاعدة. أعلن بلايك أنهم «يراقبونهم. إنهم يراقبون الرجال وهم هناك للاجتماع. لم يكونوا قريبين كفاية للاستماع إلى ما كانوا يقولونه، لكنهم يراقبونهم ويلتقطون الصور. كانوا يتصرفون كالجواسيس. لم يستخدموا الهاتف الموجود في الشقّة. كانوا يجولون بالجوار ويمشون في دوائر تماماً كالجواسيس الصغار. يتوجهون إلى كشك الهاتف ويجرون اتصالاتهم. فتتساءل في نفسك: من هؤلاء الأشخاص؟»(903).

قام مركز مكافحة الإرهاب بإطلاع تينيت ومدير الـ «أف.بي.آي.» لويس فريه، على تحركاتهم، لكن عندما غادر المحضار ورفاقه كوالالمبور، فقدت «السي.آي.إيه.» أثرهم. وكتب ضابط في «السي.آي.إيه.» رسالة إلى زميله خلال ذلك الأسبوع، أخبره فيها «بأنهم لاحظوا العديد من النشاطات المشتبه فيها، لكن لا شيء يدلّ على هجوم وشيك، أو منظمة إجرامية»(904).

تم اتباع نظام البريد الالكتروني في مركز مكافحة الإرهاب لتحسين الاتصال بالـ «أف.بي.آي.». قال الضابط إنهم أخبروا الـ «أف.بي.آي.» «أنهم سيطلعونها على أي تطور ما إن يحصلوا على دليل مادي يقودهم إلى نشاطات إجرامية أو قضايا معروفة للـ «أف.بي.آي.»(905).

لم يفكّر أي من ضباط «السي.آي.إيه.» في مركز مكافحة الإرهاب، الذين يعلمون بأمر تأشيرة سفر المحضار، أو أي من ضباط الـ «أف.بي.آي.» الذين تم إطلاعهم على قضيته، في وضع اسم المحضار على لائحة مراقبة الإرهابيين الأميركية الرسمية. لكن صدر تعميم في مركز مكافحة الإرهاب قبل عدة أسابيع، لتذكير الضبّاط بإجراءات لائحة المراقبة المناسبة. خُصّصت تلك اللوائح لتنبيه الجمارك وهيئات تطبيق القانون وضباط الهجرة، إلى أسماء هؤلاء الذين يجب منعهم من دخول الولايات المتحدة. وبمرور الوقت، كانت «السي.آي.إيه.» تضيف عدة مئات من الأسماء إلى لائحة المراقبة شهرياً.

اعترف تينيت لاحقاً بأن قضية المحضار كانت «هفوة» ارتكبتها الوكالة بسبب «التدريب غير المناسب لبعض الضباط، وتركيزهم الشديد على تحقيق أهداف العملية نفسها، لتتأكد مما إذا كان اجتماع كوالالمبور يشكل تمهيداً لهجوم إرهابي، والوتيرة الغريبة لنشاطاتها العملية في الوقت عينه». تضاعفت تلك الغلطة الأولى في شهر كانون الثاني/يناير بخطأ آخر بعد عدّة أسابيع، عندما اكتشفت «السي.آي.إيه.» أن الرجل السعودي المشتبه فيه الثاني في ماليزيا، نوّاف الحمزي، قد سافر إلى لوس أنجلوس في 15 كانون الثاني/يناير من العام 2000 ودخل الولايات المتحدة. وصلت برقية إلى لانغلي في 5 آذار/مارس من مركز تابع لـ «السي.آي.إيه.» في الخارج، تحمل تلك المعلومات، لكنها لم تدفع ضباط «السي.آي.إيه.» إلى إصدار مراجعة بشأن أيّ من السعوديين. ولم يضعوا اسم أي منهما على لائحة المراقبة في تلك الفرصة الثانية. في الواقع، كان الرجلان مقاتلين قديمين تابعين للقاعدة في أفغانستان والبوسنة(906).

كانت فرص خضوع المشتبه فيهما للتدقيق ضئيلة من دون لائحة المراقبة. وبموجب سياسات وزارة الخارجية القنصلية، «كانت المملكة العربية السعودية من بين الدول التي لا تلائم تقييم الإرهاب والهجرة غير الشرعية»(907). وعلى الرغم من تجاربها المريرة مع حكومة المملكة العربية السعودية حول ملاحقة قضايا الإرهاب، وعلى الرغم من الاستياء والشكّ المتبادل منذ أكثر من عقدين، لا تزال الولايات المتحدة متردّدة في مراجعة أي من الافتراضات السياسية التي تتحكم في تحالفها مع الرياض.

وعدا أسماء السعوديين الغامضين، والصور غير الحاسمة من كوالالمبور، لم تكن «السي.آي.إيه.» تعرف أي شيء في تلك المرحلة عن الخطط المتعددة التي وضعها بن لادن في قندهار في أواخر العام 1999، لمهاجمة الملاحة الجويّة الأميركية(908). ازداد خوف تينيت من القاعدة أكثر من أي وقت مضى بسبب المعلومات التي عرفها ذلك الشتاء. صُدم مدير «السي.آي.إيه.» وزملاؤه الكبار من المؤامرة في الأردن وعدد الشبكات الجزائرية في كندا وأوروبا. وبالإضافة إلى أمور أخرى، عززت القضايا الجديدة خوف تينيت من طموحات بن لادن لاستخدام أسلحة الدمار الشامل. وفي 2 شباط/فبراير، أخبر تينيت لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، أن الأدلة كلها «تؤكد قناعاتنا»، بأن بن لادن «يريد تنفيذ تفجيرات أخرى ضدّ أميركا»، وهو «يركّز على تطوير خطط بديلة لتنفيذ الهجمات ليتجنّب الكشف عنها». وحذّر تينيت من أن القاعدة أصبحت اليوم» شبكة معقّدة من التحالفات بين المتطرفين السنّة في أنحاء العالم، بالإضافة إلى الأفارقة الشماليين والفلسطينيين الأصوليين، والباكستانيين ومواطني آسيا الوسطى». فالأرباح غير المشروعة التي تجنيها حركة طالبان من تجارة الأفيون تصل إلى المتطرفين أمثال بن لادن «لدعم حملاتهم الإرهابية»(909).

وعلى الرغم من تلك المعلومات ومن اللّجان الاستخبارية خلال ذلك الشتاء، ومن إعلان تحذيراته على درجة من الأولوية، استمرّ تينيت في تقديم تخصيب أسلحة الدمار الشامل على خطر الإرهاب. وبرّر ذلك لاحقاً بالقول إنه «لا يكفي التركيز على القاعدة بمعزل عن المواضيع الأخرى». فقد شهدت أواخر التسعينيات «عدداً من الموجات المتضاربة والمتنافسة». فشعر بأنه

لا يستطيع التركيز على الإرهاب فحسب. يجب أن تقدّم «السي.آي.إيه.» معلومات إلى القوات العسكرية الأميركية المنتشرة حول العالم. ويجب عليها أن تراقب التخصيب النووي، والأسلحة البيولوجية والكيميائية، والتوترات في الشرق الأوسط، ومواضيع ملحّة أخرى... وكلّ ذلك، «بميزانية محدودة من الدولارات والطاقة البشرية أكبر بقليل» مما كانت عليه في الماضي(910).

كان السيناتورات من جهتهم، يمضون خلال شهر شباط/فبراير وقتاً أطول في سؤال تينيت عن التباين الكبير في استخدام المعلومات السرّية من قبل سلفه في «السي.آي.إيه.»، جون دوتش، أكثر من سؤاله عن بن لادن وأفغانستان، أو التهديدات الإرهابية.

ومن بين كل ما توصلت إليه «السي.آي.إيه.» خلال ذلك الشتاء، لم تكشف التسجيلات أو تقارير التحقيقات أي دليل حول الرجال الأربعة الذين غادروا هامبورغ ودخلوا بهدوء أفغانستان، ثم رحلوا عنها. كانت «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» تضغطان باستمرار على الشرطة الألمانية للمساعدة على مراقبة تجمعات المسلمين في البلاد، بالإضافة إلى هامبورغ، إلا أن القوانين والإجراءات الألمانية كانت تحبط جهودهما. لقد قيّدت المحاكم الألمانية صلاحيات تجسس الشرطة، بعد مرور نصف قرن على عصر الاستخبارات النازية (الغوستابو). اعتقد العديد من السياسيين الألمان أن الخوف الأميركي من الإرهاب الإسلامي مبالغ فيه وساذج. كما لم ينفع التعاون بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية في التبليغ يوماً بيوم عن الرجال العرب الذين يدخلون البلاد ويغادرونها في زيارات برعاية طالبان إلى أفغانستان. وفي جميع الأحوال، أنهى الرجال الأربعة من هامبورغ خطتهم للتدرّب على الطيران في الولايات المتحدة من دون إثارة انتباه الشرطة أو وكالات الاستخبارات(911).

دار خلال ذلك الربيع، حوار بين مروان الشحي وأنجيلا دويل، صاحبة مكتبة في هامبورغ، أثناء استعداده للسفر إلى أميركا. أخبرها «بأن شيئاً ما سيحدث وسينتج عنه آلاف القتلى». وقالت إنه ذكر مبنى التجارة العالمي. لكنها لم تعتقد أنه كان جاداً.

# 27
# لكم ذلك، أيها البِيض المجانين!

حصل مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» بعد مرور أسابيع قليلة على الألفية، على معلومات تفيد أن أسامة بن لادن وصل إلى مخيم درونتا، في وادٍ متعرّج بالقرب من جلال آباد.

أصبح المخيم محطّ اهتمام البيت الأبيض وهدف «السي.آي.إيه.» في جمع المعلومات. كان منشأة نموذجية لبن لادن: مخيّماً بسيطاً، من التراب والحجارة بشكل أساسي، مع بعض المباني المتواضعة تعزلُها النتوءات. وأفادت مصادر مسعود الاستخبارية أنه لا يُسمح للأفغان بالدخول إلى درونتا. كان مخصصاً للعرب. وكشفت اعترافات أتباع بن لادن والتحقيقات مع الجهاديين العرب، أن درونتا كان مدرسة لتجنيد النخبة. لقد تدرّب فيها أحمد رسّام. وقعت المجموعة الأمنية في مركز ريتشارد كلارك لمكافحة الإرهاب، على أدلة تفيد أن القاعدة تجري تجارب على الأسلحة الكيميائية والسموم في درونتا. وأفادت وكالة الدفاع الاستخبارية قبل سنة من الألفية، أن بن لادن ومساعديه يطوّرون أسلحة كيميائية في المخيّم. سلّط البنتاغون الأقمار الصناعية فوق درونتا وقام بالتقاط الصور. واستخدمت «السي.آي.إيه.» عملاء أفغاناً يسافرون إلى منطقة جلال آباد أو يعيشون فيها. كانت منطقة تتميّز بتنوّع الفئات الاجتماعية وضعف حكم طالبان فيها، وبالتالي لن تستغرق الوكالة وقتاً طويلاً لتطوّر الموارد. وضع مركز مكافحة الإرهاب من خلال علاقاته الجديدة مع بانشير، معدات جمع المعلومات التقنية على الخطوط الجنوبية لمسعود. وأدّت هذه الجهود إلى التنصت على أجهزة حركة طالبان في كابول وجلال آباد. وبالإضافة إلى ذلك، زرعت «السي.آي.إيه.»، جهازاً بصرياً، مشتقاً من التقنيات المستخدمة في التجسس في الخارج، التي تستطيع التقاط صور فوتوغرافية عن مسافة أكثر من عشرة أميال. وقام رجال مسعود بالتعاون مع ضباط «السي.آي.إيه.» بمراقبة درونتا من خلال منظار الوكالة العالي التقنية. لم تبيّن تلك الجهود المكثّفة إذا كان بن لادن يملك أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية، لكنها أظهرت أنه يريد الحصول عليها. لذلك عزّزت التقارير حول مخيّم درونتا مخاوف تينيت من أن الاستحواذ على أسلحة الدمار الشامل، كان «هدفاً جدّياً» بالنسبة إلى بن لادن(912).

قام مركز مكافحة الإرهاب بإخبار مسعود بأن بن لادن وصل إلى درونتا. كان بن لادن يزور غالباً مخيمات التدريب، حيث يلتقي قيادات تنظيمه. ويلقي خطباً ويطلق بعض الرصاص. كان يتنقّل باستمرار في أرجاء أفغانستان من دون إعلان مسبق: يعظ في المساجد، ويستقبل الوفود، ويبارك الولائم بحضوره، محاطاً بعشرات الحرّاس العرب. ومخيّم درونتا كان محطّة منتظمة.

أمر مسعود بتنفيذ مهمة بالاعتماد على تقرير «السي.آي.إيه.». قال مسؤول أميركي إنه جهّز «مجموعة من الدواب»، وحمّلها صواريخ «الكاتيوشيا» السوفياتية الصنع، وأرسل فريق مغاوير صغيراً إلى درونتا. كانت خطوط التحول الجنوبية لمسعود تسمح لرجاله بالتحرك ضمن مسافة قريبة نسبياً من كابول وجلال آباد. يستطيع المقاتلون الذين يعرفون المنطقة، أن يسيروا على أقدامهم عبر الجبال ليختاروا مواقع قتالية مرتفعة.

نقل مسعود خطته إلى مركز لانغلي، بعد أن غادر رجاله لتنفيذ المهمة. أصيب المستشارون القانونيون في «السي.آي.إيه.» بحالة من الهلع. فالسلطات القانونية في البيت الأبيض التي أصدرت تعليمات بشأن العلاقة الجديدة مع مسعود، لم تسمح باستخدام العمليات العسكرية ضدّ بن لادن، إذ تقتصر شراكة مسعود على تبادل المعلومات الاستخبارية. وفي الواقع، قدّمت «السي.آي.إيه.» معلومات لشن هجوم بالصواريخ على دورنتا. لذلك، تخوّف المحامون، من اعتبار «السي.آي.إيه.» شريكاً في عملية مسعود، علماً بأن الوكالة لا تملك الصلاحيات للاشتراك فيها.

أرسلت وحدة بن لادن في لانغلي رسالة إلى البانشير لتبلغهم بإعادة الاتصال بالمهمة. وشرح لهم ضباط «السي.آي.إيه.» أنهم لا يتمتعون بالصلاحيات القانونية لتقديم معلومات ستستخدم في هجوم لإطلاق الصواريخ ضد بن لادن، فأجابهم مساعدو مسعود، كما يذكر أحد المسؤولين الأميركيين: «أتعتقدون أنها «الكتيبة الثانية والثمانون المحمولة جوّاً»؟ نحن نستخدم الدواب، وقد انطلق الرجال عليها لا توجد طريقة للاتصال بفريق الهجوم. لم يكونوا مزودين هواتف متصلة بالأقمار الصناعية أو أجهزة لاسلكية. كانوا متوجّهين إلى موقع الهجوم، ليطلقوا صواريخهم ويعودوا أدراجهم(913)».

كان ضبّاط لانغلي ينتظرون بتوتّر. راح بعضهم يسخر من تداخل القانون الأميركي الغريب، ومن حرب سرّية سيهيئون لها. ولن يسوء الوضع أكثر إلّا إذا فشل الهجوم بالصواريخ، وتسبب في قتل مدنيين أبرياء. لكن، إذا تمكن رجال مسعود من قتل بن لادن
فستكون حالهم أفضل بكثير. يمكنهم تحمل نتيجة النجاح. مرّت الأيام والأسابيع. وأفاد رجال مسعود بأنهم قاموا بقصف مخيّم درونتا. إلا أن «السي.آي.إيه.» لم تتمكن من الحصول على أي تأكيد لوقوع الهجوم أو نتائجه. ارتاح المحامون، ومرّت الحادثة من دون ضجة إعلامية(914).

لم يركّز ضبّاط وحدة بن لادن إلا على المواضيع التي شدد عليها مسعود خلال اجتماعاتهم في بانشير. كانوا يتساءلون غالباً خلال محادثاتهم، عن السبب في عدم دعم الولايات المتحدة طرفاً محدّداً في حرب مسعود ضدّ طالبان؟ «وما هي سياستها تجاه أفغانستان؟». «أهي مكافحة الإرهاب؟ وهل هذه هي سياسة الولايات المتحدة؟»(915).

على الرغم من أن كلارك كان يمثل نسبياً «عرّاب» قضية بن لادن في إدارة كلينتون، ازداد استياء كوفر بلايك وزملائه في مركز مكافحة الإرهاب من الدور الذي تلعبه المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب في البيت الأبيض. كانوا متّفقين على خطورة تهديد بن لادن، إلا أن عملاء «السي.آي.إيه.» في الميدان، «الذين ينفّذون الأعمال فعلياً»، لا يطلبون من فريق كلارك في البيت الأبيض سوى الدعم المالي وإصدار سياسة متسامحة بالنسبة إلى صلاحياتهم. وبحلول العام 1999، ازداد شعورهم بأن كلارك وبيرغر لا يستطيعان أو لا يريدان تقديم أي من الدعمين. ويؤكّد أحد الضباط المطّلعين «أن تدخلهم في الأمور التي لا يملكون الخبرة فيها، يزيد الأمور سوءاً بالنسبة إليهم». لكن تينيت ورئيس الجهاز السرّي، جايمس بافيت، في مكاتب «السي.آي.إيه.» التنفيذية، كانا يشدّدان على أن لانغلي لن تصنع سياساتها بنفسها. أقله هذا ما تعلّماه من كارثة «إيران - كونترا». من جهتهم، كان كلارك وزملاؤه في البيت الأبيض، يشككون في قدرة «السي.آي.إيه.» على التصرف بشكل مبدع وحاسم ضدّ بن لادن. يشعر كلارك بأن الجيل الحالي من ضباط «السي.آي.إيه.» «تعلم درسه» في الستينيات والثمانينيات، بأن العمليات السرّية «خطيرة ويمكن أن تنعكس عليهم سلباً». تفتقر إدارة كلينتون إلى الثقة بجهاز التجسس. فمثلاً، كانت مادلين أولبرايت تقول لزملائها في الوزارة ممازحة، حول حذر «السي.آي.إيه.» في الميدان، إن سبب الفضائح والمحاكمات في العقود الماضية، يعود إلى الجيل الناشط من ضباط «السي.آي.إيه.» في الميدان، الذين لا يزالون يحاولون تخطّي آثار «طفولتهم المستغَلة».

لا يستطيع مسعود ورجاله بموجب إرشادات «السي.آي.إيه.» سوى وضع الخطط لإلقاء القبض على بن لادن. يجب أن يجدوا طريقة لتجهيز بن لادن وترحيله إلى خارج أفغانستان كجزء من الخطة. يستطيع رجال مسعود استخدام السلاح إذا واجهوا مقاومة من حرّاس بن لادن، ومن المؤكد أنهم سيفعلون. كما أنه يجب على «السي.آي.إيه.» أن تتجنّب أي عمل سيغيّر بشكل أساسي موقع مسعود العسكري ضدّ طالبان.

لا تزال أولبرايت وبيرغر يعتقدان أن توفير المساعدة العسكرية السرية لمسعود لن يؤدي إلّا إلى وقوع المزيد من الضحايا بين صفوف المدنيين الأفغان، وتمديد عمر الأزمة العسكرية التي تشهدها البلاد. اعتقدا والعديد من المحللين في وزارة الدولة، أن قوّات مسعودة صغيرة الحجم، وليست أهلاً للثقة بسبب الفظائع التي ارتكبتها في الماضي، لإقصاء حركة طالبان عن الحكم وتوحيد البلاد. وبمرور الوقت، ازداد أيضاً قلق البيت الأبيض ومدراء «السي.آي.إيه.» الكبار، مثل كوفر بلايك، بشأن الاستقرار في باكستان. فإذا أثاروا غضب الجيش الباكستاني بسبب تحالفهم مع مسعود، عدو طالبان، فسيقضون على محاولات إدارة كلينتون التفاوض حول مراقبة برنامج الأسلحة النووية في إسلام آباد. وكما كانت غالباً في الماضي، تستطيع النخبة الإسلامية في باكستان أن تبدو خطيرة ومفاجئة بتصرفاتها إلى درجة تخيف المسؤولين الأميركيين. شدّد البنتاغون، ولاسيما الجنرال أنطوني زيني في «سانت كوم»، المقرّب من مشرّف شخصياً، على الالتزام مع جنرالات باكستان. فتزويد مسعود بالأسلحة سرّاً أو بالمعلومات الاستخبارية حول ميدان المعركة، سيكون بمنزلة الانضمام إلى الهند في حرب الأعداء ضد باكستان. كما كان زيني يعارض أيضاً إطلاق المزيد من الصواريخ إلى داخل أفغانستان.

كوّن مسعود ورجاله على الخطوط الأمامية في وادي بانشير، فكرة سوداوية عن الأولويات الأميركية. شكل الهجوم على دروننا فترة ارتباك بالنسبة إليهم. اعترف أحد مساعدي مسعود «بأنهم كانوا يشعرون بالارتباك». وتساءل «عن معنى العمليات «غير المسلّحة» إذا كان عدوّك مدجّجاً بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه. كانوا يملكون كل أنواع السلاح. وبالتالي لا تكون مؤهلاً للقيام بعمليات عسكرية ضدهم؟». وعلى الرغم من ذلك، كان مسعود يدرك أن «السي.آي.إيه.» «تمثّل الالتزام بالنظم الديموقراطية، وتمثّل مجتمعاً منظماً، حيث تعمل المؤسسات بموجب قيود». كما يدرك مسعود أنه داخل البيروقراطية الأميركية «يكون رجال الاستخبارات عدائيين دائماً». كان مسعود ومستشاروه» على ثقة بأن «السي.آي.إيه.» تتمنى أن تفعل الكثير داخل أفغانستان، لكن يديها مكبلتان. لم تفشل الاستخبارات، بل فشلت السياسة». ويذكر مساعد مسعود الأعلى أنهم «عندما كانوا يلتقون ضباط «السي.آي.إيه.» الزوّار، أو يتبادلون الرسائل حول القواعد

المفصّلة للعمليات ضدّ بن لادن، وحتى بعد هجوم دروننا، «لم يسمعوا كلمة «قتل» من أي أميركي تحدّث إليهم. ويقول إن غالبية الأشخاص الذين قرأوا تلك الملاحظات القانونية، كانوا يضحكون أيضاً. فهم لم يصدروها»(916).

راقب مسعود باستياء اعتماد الولايات المتحدة على باكستان في سياساتها تجاه أفغانستان مدة عقدين من الزمن. لم تكن سياسة إدارة كلينتون جديدة في هذا السياق. لقد شرح أحد مساعدي مسعود أنه يدرك جيداً أن «علاقة واشنطن بباكستان تُعتبر استراتيجية». «كان التدخّل الباكستاني في أفغانستان موضوعاً ثانوياً»، لذلك تتجاهله الولايات المتحدة. إلا أن استمرار السياسة الأميركية بالرجوع إلى إسلام آباد زادت استخفاف مسعود بحملة «السي.آي.إيه.» ضدّ بن لادن. فقد قتل عشرات الأميركيين في تفجير السفارتين في أفريقيا. وذُبح مئات الأفغان المدنيين، وأقارب مسعود من ضباط وثوّار، على أيدي قوات حركة طالبان في هضاب شومالي شمالي كابول. وعلى الرغم من ذلك، لم يقم القانون الأميركي بإدانة مجازر حركة طالبان في شومالي. كما أن السياسيين الأميركيين نادراً ما يتحدّثون عن تلك المجازر. واعتبر بعض رجال مسعود التصرف الأميركي نفاقاً لا يُغتفر(917).

شاع تحريض جورج تينيت ضد بن لادن في «السي.آي.إيه.». نادراً ما يكرّس مدير الاستخبارات المركزية نفسه شخصياً لمهمة واحدة هي مكافحة الإرهاب، كما فعل تينيت. وكانت النتيجة بين العامين 1999 و 2000 موجة توظيف لعملاء يستطيعون العمل في أفغانستان أو السفر إليها. كانت أوسع حملة تقوم بها «السي.آي.إيه.» لتوظيف عملاء أفغان للعمل على مهمة واحدة منذ الحرب ضدّ السوفيات. حاول الضباط الذين يعملون في وحدة الشرق الأدنى، والضباط المفروزون من قبل مركز مكافحة الإرهاب، الاتصال بكل مصدر أفغاني يستطيعون الوصول إليه. كانت بعض المصادر غير الرسمية، تساعد «السي.آي.إيه.» بسبب معارضتها السياسية لطالبان. وآخرون يتم توظيفهم سرّاً وإدراجهم في جدول رواتب «السي.آي.إيه.». بدأ الضباط المكلفون بالقضية تسليم بعض قادة طالبان العسكريين، ومن بينهم قائد برتبة لواء شرقي أفغانستان. قام

ضابط نشيط موكل بقضية صغيرة، يعمل من إسلام آباد، بتجنيد ستة أو سبعة قادة من حركة طالبان يعملون في المنطقة الحدودية شرقي أفغانستان. كما قام عدة ضباط يعملون في مركز إسلام آباد بالاتصال بكل مجاهد قديم من أيام الاتحاد السوفياتي تعرفه «السي.آي.إيه.»، بالإضافة إلى القادة القدامى الذين عملوا مع عبد الربّ رسول سيّاف الذي أصبح حليفاً لمسعود ومعارضاً لطالبان، والقادة الشيعة الذين عملوا مع «السي.آي.إيه.» في كابول خلال أواخر الثمانينيات، والمشايخ الباشتون، والشخصيات السياسية التي تمضي معظم وقتها في باكستان وتمتلك شبكات من الأقارب شرقي أفغانستان وتسافر أحياناً عبر الحدود (إلا أن «السي.آي.إيه.» لا تزال لا تثق بعبد الحق فحسب، من بين حلفائها القدامى كافة). بقيت كل تلك التوظيفات والعقود سرّية ومن دون علم الاستخبارات الباكستانية بها، كما كان البرنامج الأحادي الجانب في أواخر التسعينيات تماماً.
لم يكن أي من العملاء الموظفين قريباً من بن لادن. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها «السي.آي.إيه.» على مدى أعوام، لم تتمكّن من توظيف عميل واحد داخل قلب قيادة القاعدة. وأفاد تقرير سرّي من مركز مكافحة الإرهاب إلى «مجموعة كلينتون الصغيرة» للأمن القومي في أواخر العام 1999، أن بلايك كان يعرف أن «السي.آي.إيه.» تواجه المشاكل «من دون تدخّل» من منظمة «تقرير مجلس المحاسبة». «وأعلن بلايك في تقاريره «أنهم يحتاجون إلى توظيف الموارد بقدر ما يحتاجون إلى عرقلة العمليات، على الرغم من صعوبة توظيف الموارد الإرهابية». واعترف تينيت لاحقاً بأن حجم شبكة عملاء «السي.آي.إيه.» الخاصة على حدود القيادة، يمكن أن يقاس بتقارير العملاء التي كانت تتدفق من مراكز لانغلي: في العام 1999، أصدرت «السي.آي.إيه.» للمرة الأولى، تقارير أحادية حول بن لادن من عملائها الخاصين، أكثر من التقارير المرسلة من وكالات الاستخبارات الأخرى التي تتعاون معها. فقد أصدرت وكالة الدفاع الاستخبارية بالتعاون مع عملائها الخاصين الباكستانيين ومصادرها الأفغان، نتائج من تقاريرها السرية الخاصة حول بن لادن(918).

كان أحد أهداف التوظيف جمع المعلومات المفصّلة حول تحرّكات بن لادن، ومخيماته التدريبية، والمنازل التي يقيم فيها، والمنازل التي تقيم فيها زوجاته، والبيوت التي يعيش ويعمل فيها الظواهري ومحمد عاطف وقادة كبار آخرون. جمعت «السي.آي.إيه.» تدريجاً خريطة مفصّلة لبنية بن لادن التحتية في أفغانستان. لقد تمّت مطابقة التقارير والصور من العملاء الأحاديين مع صور الأقمار الصناعية لخرائط المخيمات والجوار الحضري.

يطبّق بن لادن نظاماً أمنياً مشدّداً. كان حذراً من استخدام الخطوط الهاتفية. ولا يسمح للأفغان بالانضمام إلى فريق حرسه الشخصي الذي لا يضمّ سوى العرب الذين عرفهم ووثق بهم طوال أعوام عديدة. كان يغير مساره، ولا يقيم في مكان واحد مدّة طويلة، ولا يخبر أحداً بخطته سوى العرب المقرّبين منه. وقد حدّ هذا النمط من فعالية تجنيد العملاء من قبل «السي.آي.إيه.» لأن مصادر الوكالة وعملائها المأجورين، كانت بشكل أساسي من
الأفغان الذين تمركزوا في خطوط المواجهة وفقاً لتعليمات الحراس الشخصيين لبن لادن والمجموعة القيادية. لم تتمكّن «السي.آي.إيه.» من اختراق الدائرة الداخلية، إلا أنها لاحظت وجود نقطة ضعف في نظامه الأمني: تعدّد زوجاته. وعلى الرغم من معرفة الأميركيين بمزرعة تارناك

بالقرب من قندهار، مثلاً، أبقى بن لادن إحدى عائلاته هناك، وكان يزورها بانتظام. وكمسلم متديّن، حاول اتباع التعاليم الإسلامية في معاملة الزوجات بمساواة. كانت منازل النساء متشابهة تقريباً، إلى درجة أن «السي.آي.إيه.» اعتقدت في إحدى المراحل أن بن لادن لديه زوجتان في كابول. كان يزور منزلهما بانتظام. واستعان مركز إسلام آباد، من خلال عملائه القبليين في قندهار، بأفغاني للعمل حارساً أمنياً في أحد المنازل التي يستخدمها بن لادن في كابول. إلا أن العميل كان بعيداً كل البعد عن سلسلة معلومات القاعدة، إلى درجة أنه لم يعرف قط متى سيظهر بن لادن. كان مكلفاً مهام الحراسة عندما تأتي سيارات السعودي «اللاند كروزر»، وبالتالي من الصعب عليه معرفة أي معلومة قبل أن يغادر بن لادن ثانية. قالت مادلين أولبرايت: «إنهم لم يعرفوا دائماً أين يوجد بن لادن، أو إلى أين سيذهب، وأين سيوجد شخص يشبهه. كانوا يسمعون عن قوافل مشتبه فيها، أو عن رجل طويل ملتحٍ يتنقل محاطاً بالحرس الشخصي... كان أمراً يثير الجنون»(919).

اختلفت شبكة عملاء «السي.آي.إيه.» والمشكلات العملية بين كلّ منطقة حيث يقيم بن لادن. كانت الوكالة تتمتع بأفضل تغطية حول قندهار، حيث تعمل المجموعة الأساسية من العملاء القبليين منذ أعوام. أصبحت تقاريرهم الاستخبارية مدعومة اليوم من الشبكات الواسعة من الناشطين الباشتون المعارضين لطالبان الذين يستطيعون الدخول إلى المنطقة في أفغانستان والخروج منها بسهولة. وأعرب مسؤول أميركي عن «ثقته بمصادرهم الجيدة في قندهار. كانوا متأكدين أنهم سيعلمون متى يدخل قندهار في أي وقت كان. لكن المشكلة، أن أحداً لم يبلغهم أين سيكون عصر اليوم التالي». تُعتبر قندهار أيضاً معقل طالبان العسكري. لن تستطيع «السي.آي.إيه.» تنظيم عملية خطف بسهولة، حتى لو تمكنت من تحديد وسط مدينة بن لادن. فسيتعرض الهجوم لمقاومة قوية من وحدات طالبان. وإذا أطلق البيت الأبيض صواريخ على المدينة، فمن المحتمل وقوع ضحايا بين صفوف المدنيين. وبالإضافة إلى ذلك، لم تحدد سياسة مكافحة الإرهاب أياً من الملا عمر أو حركة طالبان كعدو لها. وبموجب السياسة التي كان يصرّح عنها كلينتون في الأمم المتحدة وأماكن أخرى، لم تكن طالبان تمثل مشروعاً لضربه بالصواريخ(920).

من الأسهل إلقاء القبض على بن لادن في مخيّم للتدريب، على أحد طرق قندهار الريفية، أو بالقرب من مقاطعة أوروزغان، موطن الملّا عمر. في صيف العام 1999، دَوت قنبلة خارج منزل الملا عمر وسط مدينة قندهار، أوقعت بعض القتلى والجرحى من أقاربه. وتبيّن في النهاية أن بن لادن استخدم ثروته لبناء مجمعات جديدة لقادة طالبان. لقد بنى للملا عمر قصراً فخماً مسيّجاً وآمناً في ضواحي قندهار. كما بدأ بتنفيذ برنامج معماري في أوروزغان ومجمع تدريبي للمتطوعين الأجانب في القاعدة. وعندما علمت «السي.آي.إيه.» بمشروع أوروزغان، أمرت بالتقاط صور الأقمار الصناعية وتقارير العملاء لإقامة دراسة عن المخيم. كما أمل ضباطها أن يأتي بن لادن لإجراء كشف عليها. ويذكر عبد الله، مستشار مسعود لشؤون السياسة الخارجية، أن «السي.آي.إيه.» أعطتهم خرائط مفصّلة عن مخيّم أوروزغان بالاستناد إلى صور الأقمار الصناعية، أملاً أن يشنّ عملاء مسعود هجوماً أثناء قيام بن لادن بزيارة المكان. وقد اقترب فريق عملاء «السي.آي.إيه.» الأفغان المؤلف من أربعة أو خمسة أشخاص بالتعاون مع مجموعة القبائل

الجنوبية، من المخيّم ليلاً لإلقاء نظرة من كثب على الموقع الأصلي. فأطلق عليهم حراس القاعدة النار، وجرحوا أحد العملاء. وقد افتتح بن لادن مخيماً مشابهاً بالقرب من نهر هلمند، غرب قندهار، لكن «السي.آي.إيه.» لديها بعض العملاء الذين يسمح لهم تاريخهم القبلي والعرقي بالسفر إلى تلك المنطقة بسهولة(921).

التجسس في كابول أسهل من قندهار. فالعاصمة الأفغانية تعجّ بمختلف الأعراق، والغرباء، والمسافرين، حيث يمكن أي أفغاني أن يدّعي انتماءه إليها. وفي إحدى المراحل، قام الفريق القبلي الجنوبي التابع لـ «السي.آي.إيه.» بالانتقال شمالاً إلى ضواحي كابول، واستئجار مزرعة كقاعدة لعناصره. راحوا يدخلون ويغادرون كابول لمراقبة المنازل التي يقيم فيها بن لادن. وضعوا خططاً لمهاجمة أحد منازل كابول حيث ينزل بن لادن وخطفه من فراشه، والانسحاب من المدينة بسيارات الجيب، لكن إذا حصلوا على المعلومات الصحيحة. وتختلف هذه الخطة عن خطة العام 1998 لمهاجمة مزرعة تارناك التي قام مساعدو كلينتون في البيت الأبيض بمراجعتها، وأصر مدراء «السي.آي.إيه.» على رفضها. لقد طلب الفريق القبلي إلى «السي.آي.إيه.» الحصول على بعض المتفجرات لأن خطته تقضي بتفجير جسور صغيرة فوق مجاري المياه في طريق هرب عناصره. لم يتصرف الفريق قط. لم تلق خطته المتقنة أي ترحيب لتنفيذها. لقد نقل العملاء حوالى ستة تقارير لأمر بإحباط الهجمات. كانوا يدّعون أحياناً أن بن لادن غيّر مساراته بشكل غير متوقّع. وفي إحدى المرات، قالوا إن بن لادن برفقة امرأة وولد، فأوقفوا مهمتهم تنفيذاً لتعليمات «السي.آي.إيه.». وفي البيت الأبيض، لطالما استخفّ مساعدو كلينتون بالفريق. وبين أواخر العام 1998 وبداية العام 2000 تغيّر موقف البيت الأبيض من فريق «ترود بينت» من «التشكيك المتفائل إلى السخرية اللاذعة»، كما وصفها أحد الضباط. واليوم، أدركت «السي.آي.إيه.» أيضاً، التي لا تزال تقدّر تقارير الفريق وتدافع عنه في وجه الانتقادات، أنه ليس أهلاً للقيام بهجوم خطير. واعتقدت «السي.آي.إيه.» أن الفريق القبلي يمكن أن ينجح في قتل بن لادن في هجوم، لكنه سيعاني خسائر كبيرة في قوّاته. في الواقع، تبدو محاولة خطف بن لادن من مدينة مكتظة ككابول، ونقله إلى مكان آمن بينما يطاردهم حرّاسه الشخصيون، وفقاً لسياسة الولايات المتحدة الأميركية الرسمية، مشهداً لا يُعقل من «المهمة المستحيلة». كانت المزرعة التي قام الفريق باستئجارها على نفقة «السي.آي.إيه.» عبارة عن كروم من العنب. كان سفير الولايات المتحدة إلى إسلام آباد، بيل ميلام، الذي عرف بالعملية، يسأل زملاءه في الاستخبارات بسخرية: «هل ينتظرون حتّى يتخمّر العنب؟». لكن، على الرغم من ذلك، ساعد العملاء على تحديد مكان ملاجئ القاعدة حول العاصمة، بالإضافة إلى ثلاثة أماكن مختلفة حيث يقيم بن لادن ومنازل يقصدها أهم مساعديه، المصري أيمن الظواهري(922).

كان ضباط فرع الشرق الأدنى مسؤولين مبدئياً عن مزارعي الكرمة القبليين التابعين لـ «السي.آي.إيه.». قدّمت العلاقة الجديدة مع مسعود فرصة لمركز مكافحة الإرهاب لمحاولة الإقدام على اختراق جديد لكابول بالعمل من خلال جهاز استخبارات الحلف الشمالي. كان نصف سكان العاصمة من الطاجيك. ومسعود يملك شبكة غنية من المصادر الاستخبارية بين السكان الطاجيك وبين بعض المسؤولين في حكومة طالبان أيضاً. لكن مسعود كان «مراوغاً كثيراً» أثناء بقائه في

كابول، بحسب ما يذكر مساعد مسعود في الاستخبارات، ذكر الله جاهد خان. يمكن أن يبقى السعودي في كابول مدة شهرين متتاليين، لكنه لن يقيم في قاعدة واحدة أكثر من ساعتين أو ثلاث. كان يقضي وقتاً أطول في الجبال الشرقية وقندهار من العاصمة. إن تعقّب الظواهري ومحمد عاطف أسهل بكثير. فالطبيب المصري يقضي معظم وقته في كابول. أما عاطف فيسافر دائماً إلى الخطوط العسكرية الأمامية حول العاصمة. وقد قال أحد المسؤولين الأميركيين مرّة: «نعرف أن بن لادن صعب المنال. لكن ماذا عن الظواهري وعاطف؟»(923).

بدأ مركز مكافحة الإرهاب بالتعاون مع شبكة مسعود الاستخبارية بالتركيز يوماً بيوم على تلك المسألة. وفرت لهما «السي.آي.إيه.» معدات لجمع المعلومات وصوراً التقطتها الأقمار الصناعية للمصادقة على الملاحظات التي كونها عملاء مسعود في الميدان. لقد طوّروا «فكرة جيدة عن مكان الأشرار». اعتمدوا على إشارة بصرية واحدة، هي تجميع الآليات الرياضية الفخمة. فمعظم الأفغان لا يملكون السيارات، الأقل قيمة من الآليات الرياضية. ويذكر أحد المسؤولين أن «السي.آي.إيه.» ستركّز أقمارها الصناعية لمراقبة كابول، وسيقول محلّلوها: «حسناً، توجد ثماني آليات من نوع «لاند كروزر». وأحد الأشرار موجود في ذلك المنزل». لكن حاشية الظواهري لم تكن كبيرة أو معروفة كحاشية بن لادن. كان من الصعب تتبّعه، بالإضافة إلى أنهم سيواجهون مشاكل مع السلطات القانونية للإقدام على عمليات مسلّحة، عندما سيقع رجال مسعود على حلّ. لم تكن «السي.آي.إيه.» مخوّلة بالتحليق فوق بانشير مع القنّاصات وخرائط الأقمار الصناعية لمنزل الظواهري حتى لو تمكنت من تصميم خريطة. فأي عملية مشتركة يجب أن تكون معقولة، ومحاولة محبكة لإلقاء القبض على المصري. اعتقد الأميركيون أنهم كانوا مراوغين عندما حاولوا مناقشة تلك الخطط مع رجال مسعود. فبرأي أحد المسؤولين الأميركيين «كان التحالف الشمالي يفكر في هذه الطريقة: حسناً، تريدوننا أن نلقي القبض عليه. لكم ذلك، أيها الرجال البيض المجانين»(924).

لكن التقارير من جهاز مسعود الاستخباري والعملاء الأفغان الأحاديين، أثارت بعض الأمل لجهة إمكانية وقوع بن لادن يوماً ما، صدفة، في فخّ الحلف الشمالي. قام مساعدو مسعود بإخبار «السي.آي.إيه.» أن بن لادن يزور قوات القاعدة بالقرب من كابول أو شمالي أفغانستان أحياناً. في إحدى المرّات، قصد بن لادن المكان غير المناسب. فقد أفاد رجال مسعود، أن بن لادن خرج في جولة تفقّدية خلال معركة شمالي شرقي كابول، فعلق في الجهة الشمالية لموقع مسعود. لم يستطع الخروج إلا عبر الطرقات الجبلية. وبعد أن حصلت «السي.آي.إيه.» على الإذن لتنفيذ عمليات مع مسعود، بدأ المسؤولون الأميركيون يأملون أن يضيع بن لادن خلف حدود الحلف الشمالي مرة ثانية.

تشجّعت «السي.آي.إيه.» والمسؤولون في البيت الأبيض، لمعرفتهم بسفر بن لادن، ولو أقله مرة واحدة، إلى الحدود الشمالية بين أفغانستان وأوزباكستان، ومرفأ المدينة في حيرطون على نهر أموداريا. ووفقاً للأفغان الذين شاهدوه، قام بن لادن بإلقاء الخطب حول النصر العسكري والسياسي

الإسلامي الآتي في وسط آسيا. أراد أن يرى مواقع فتوحاته المستقبلية بنفسه. كانت حركة طالبان تتحكّم في المنطقة الحدودية الشمالية، لكن القادة
المحليين لم يكونوا ملتزمين بالقضية دائماً. فلم يغيّر العديد منهم ولاءهم لحلف مسعود إلا أخيراً. أملت «السي.آي.إيه.» بشدّة أن يسافر بن لادن ثانية إلى أقصى الشمال. كان هذا أحد الأسباب التي دفعتهم إلى تخصيص هذا الحجم الهائل من التدريب والمعدات لفريق المغاوير الأوزباكستاني. سيكون توجيه ضربة عبر حدود أموداريا في المناطق الأوزباكستانية في باكستان أمراً سهلاً نسبياً إذا ما حصلوا على المعلومات الدقيقة. كان محمد عاطف يسافر أيضاً إلى الشمال لإدارة عمليات عسكرية. لم يكن بأهمية بن لادن أو شهرته، لكنه كان هدفاً أسهل(925).

إن التنبؤ بمسار رحلات بن لادن غرباً وشمالاً ممكن نسبياً: كان ينطلق غرباً من طريق قندهار ويتوجّه شمالاً وشرقاً عبر مقاطعة غور حيث يوجد واد يحبّ زيارته. قامت «السي.آي.إيه.» بوضع خرائط للمنازل في منطقة غور، إحدى المناطق الأفغانية الأكثر عزلة وفقراً. ينطلق السعودي من تلك المنطقة عادة، في اتجاه الشمال إلى كابول، وأحياناً إلى جلال آباد قبل التوجه جنوباً ثانية إلى باكتيا وقندهار. أطلق الأميركيون على ذلك المسار الذي قاموا بدراسته، اسم «الدائرة». حاولوا تقديم تقارير موثوق بها عن تحرّكات بن لادن بتفاصيل دقيقة. كما حاولت مجموعة ريتشارد كلارك الأمنية لمكافحة الإرهاب، تطوير معادلات رياضية للتنبؤ - بالاعتماد على التصرفات السابقة - بالمكان التالي الذي سيقصده بن لادن عندما يسلك «الدائرة»، في أي مرحلة لاحقة. فمع الوقت، يمكن أن يكرر معظم الأشخاص الحذرين أمنياً تصرفاتهم بسبب العادة، أو ربما الغريزة.

كانت الوكالة تحاول أن تبقي بن لادن خارج دائرة الـ «ك.ق.ج.»، وهو اختصار للمدن ذات الكثافة السكانية العالية، أي كابول وقندهار وجلال آباد. بدا مستحيلاً بعد العام 1999، أن تتمكن أي قوة بالنيابة عن «السي.آي.إيه.» من شنّ عملية خطف ناجحة في منطقة حضرية تابعة لطالبان، لكن بن لادن لم يكن يسافر إلى المناطق الريفية بالوتيرة نفسها خلال العام 2000. تلقّت «السي.آي.إيه.» تقريراً يفيد بأنه ورجاله تعرضوا لمضايقة من اللصوص وعصابات السرقة على بعض الطرقات الشمالية التي تعمها الفوضى ولا تطبّق وثيقة طالبان. لم يعد يُلقي أياً من خطب النصر على حدود وسط آسيا، كما اضمحلّ فريق المغاوير الأوزباكستاني(926).

وضعت «السي.آي.إيه.» خريطة بصرية محددة لمواكب سفر بن لادن: عدة آليات من نوع «لاند كروزر»، وعدد من الحراس الشخصيين العرب يراوح بين العشرين والمئة. كانت مهمة الضباط اليومية في مركز مكافحة الإرهاب تطوير خطة عملية محددة لمحاولة خطف مسلح ضد بن لادن ودراستها. بعد اختفاء فريق المغاوير الباكستاني، لم تبق أمامهم سوى ثلاثة خيارات واقعية: فريق المغاوير الأوزباكستاني؛ وقوات مسعود؛ أو فريق مزارعي الكرمة القبلي لتتبع بن لادن حول قندهار. كانت المشكلة تكتيكية واضحة: القوات المتعاملة مع «السي.آي.إيه.» متمركزة شمالي

أفغانستان، بينما يقضي بن لادن معظم وقته جنوباً وشرقاً. حاولت «السي.آي.إيه.» جاهدة إيجاد خطة مقنعة(927).

كان الجنرال هاغ شيلتون يجسّد الفكرة المدنية حول شخصية الجنرال بوجهه المربّع المرسوم، وطوله البالغ ست أقدام وخمسة إنشات. عيّنه وزير الدفاع وليام كوهين رئيساً لمجلس إدارة فريق الرؤساء المشتركين، وهو أعلى منصب في الجيش الأميركي، بعد مدة قصيرة من تفجير السفارتين في أفريقيا. بعد أن أصبح بن لادن أولوية ملحّة في الأمن القومي في خريف العام 1998، أصبح شيلتون الشريك المثالي للبنتاغون. لقد كان قائد فريق للقوات الخاصة في حرب فيتنام، وقائد نخبة من القوّات الجوّية، وأخيراً قائداً عاماً للقوّات الأميركية الخاصة كافة. وخلافاً للعديد من الجنرالات، يتمتع هاغ بخبرة مباشرة في التكتيكات غير التقليدية، وقمع الانقلابات، واستخدام فرق الهجوم الصغيرة في العالم الثالث. وبصفته قائداً عسكرياً، كان يفضّل العمل بالتوافق والتراضي. لم يعتبره زملاؤه المدنيون جنرالاً متسلطاً أو متميّزاً، إلا أن سجلاته في الشجاعة الميدانية والقيادة تميّزه كمحارب حقيقي، وليس كأحد جنرالات واشنطن الذين يصنعون مهنتهم كسياسيين نظاميين(928).

طلب البيت الأبيض إلى البنتاغون إعداد خطة عسكرية مفصّلة لمهاجمة بن لادن وإلقاء القبض عليه في خريف العام 1998. أخبر شيلتون ومساعدوه ساندي بيرغر في البيت الأبيض، أن «أي عملية عسكرية» تشمل مشاركة القوات الأميركية الخاصة أو الحرس العسكري، ستتطلّب عدداً كبيراً من الجنود (الآلاف)، وحاملات للطائرات، وطائرات للنقل، وناقلات للوقود. وبرغم ذلك كله، كانت فرص النجاح ضئيلة، برأي شيلتون. فهم يفتقرون إلى موطئ قدم في المنطقة، كقاعدة آمنة لعملياتهم. ويذكر ساندي بيرغر أن شيلتون اعتبر أنهم «لا يضمنون باكستان في صفّهم. كما أنهم لا يمكنهم الاتّكال على أوزباكستان وطاجكستان». اعتقد المخططون في البنتاغون، أنه من دون معلومات استخبارية أفضل من تلك التي تقدمها «السي.آي.إيه.»، «ستفشل» أي مهمة أخرى حتى لو حظيت
بدعم كبير(929). كان شيلتون وكوهين ومساعدوهما الكبار، يطّلعون على تقارير «السي.آي.إيه.» من أفغانستان يومياً. وعلى الرغم من ازدياد حجم شبكة عملاء الوكالة الأحاديين ونطاقها، لم يقتنعوا بالمعلومات التي يقدمونها لتشكل أساساً لالتزام الجنود الأميركيين في أفغانستان. ببساطة، لا يستطيع عملاء «السي.آي.إيه.» تعقّب بن لادن يومياً. ويذكر موظف مدني في البنتاغون كان يطلع على تقارير «السي.آي.إيه.» بانتظام، «أن كلّ ما كان يصلهم هو من شقيق لشقيق رجل كان ظاهرياً في محيطه الأمني، أو قريباً لشخص طلبوا إليه مرّة «إعداد وليمة، لأن الشيخ آت». كان كوهين يؤكّد لأصدقائه: «يمكننا النيل منه. الأمر خطير جداً، لكن إذا حصلنا على المعلومات التي تفيدنا بمكانه، فسنتدبّر تفويضاً لاستخدام القوّة». إلا أن كوهين كان حذراً بفضل خبرته السابقة في مراقبة ملاحقات القوّات الأميركية الخاصة التي لم تحقق نجاحاً كبيراً مع مجرمي الحرب الفارّين في البلقان. استنتج أن «تحديد موقع شخص ما يتقن مهارات التجسس وإلقاء القبض عليه على أرض العدو، أمر صعب، وأن مهارة بن لادن في التجسّس كانت أفضل من مجرمي الحرب الصربيين»(930).

لم يعرفوا كيف سيكون ردّ فعل قوّات طالبان على هجوم القوات الخاصة للولايات المتحدة الأميركية. فأي خطة حسّاسة يجب أن تأخذ في الاعتبار أن حركة طالبان ستكون عدائية. لذلك، يبدو الهجوم على منطقة مدنية، خطيراً جداً. فنظرياً، تبدو محاولة «السي.آي.إيه.» السرّية لتعقّب بن لادن خارج دائرة «ك.ق.ج»، والإيقاع به في مناطق لا تخضع حدودها لحماية مشدّدة، منطقية أكثر، إلا أنه لا يوجد أي تخطيط مشترك مع «السي.آي.إيه.» حول هذا الاحتمال. وفي جميع الأحوال، يتوقع البنتاغون حدوث مشاكل سياسية وتكتيكية هائلة إذا حاولت الولايات المتّحدة العمل من تلقاء نفسها في أي مكان بالقرب من باكستان(931).

اعتبر كلينتون وبيرغر وفريق مجلس الأمن القومي، وبيكرنغ في وزارة الخارجية، أن شيلتون شديد الحذر ومؤمن بشدة بعقيدة البنتاغون التقليدية حول الفنون اللوجستية وقوة الحماية. اطّلع بيكرنغ على دراسة شيلتون حول عدد القوات اللازمة لخطف بن لادن «كمعيار للوضع العسكري، طرح فيها مدة 48 شهراً وخمس كتائب. وهي نهائية غير قابلة للنقاش... اعتقدوا أن مجلس الأمن القومي ووزارة الدولة يريدان تصحيح كلّ مشكلة معهم، مع بعض التبرير، بالقوّة العسكرية». دخل كلينتون في جدل مع شيلتون بعد اجتماع وزاري حول هجوم رمزي. قال الرئيس للجنرال: «أتعلم، سنزرع الرعب في صفوف القاعدة كثيراً إذا تم إنزال مجموعة من النينجا السود من طائرات الهليكوبتر فجأة وسط مخيّمهم. وسنكسب قوة ردع هائلة، ونُظهر لهؤلاء الرجال أننا لسنا خائفين منهم». إلا أن شيلتون عندما عاد وقدّم عرضاً للخيارات، تضمّنت جميع خطته إنزالات عسكرية ضخمة وحذرة، وفرصاً ضئيلة لاحتمال نجاحها(932).

كان شيلتون يشعر بالضغط من ريتشارد كلارك بشكل خاص. فكلارك كان يضغط باستمرار على البنتاغون لوضع خطة صغيرة لمهاجمة بن لادن. شبّه شيلتون رئيس مركز مكافحة الإرهاب بـ «الكلب المسعور». واستنتج أن الحكومة «يلزمها شخص لا يقبل الرد على أي سؤال». وبرغم ذلك، شعر شيلتون والجنرالات ومدنيون آخرون في البيت الأبيض، بأن كلارك «يقدّم بعض الأفكار السخيفة، وليس الخطط العسكرية الممكنة. لقد قرأ رواية «تومي كلانسي»، واعتقد أنه يستطيع تجاهل المسافات وعامل الوقت»(933).

تحدّد نوعية المعلومات الاستخبارية في عقيدة القوات الخاصة، حجم القوة اللازمة لشنّ هجوم. وكلما كانت المعلومات غير أكيدة، وجبت زيادة حجم القوة العسكرية. وهذه الحسابات أقرب إلى الفنّ من قربها إلى العلم، وتعتمد على الحسّ المشترك. لو أن قوّة فريق ديلتا الأميركي للمغاوير، تستطيع مراقبة هدف بنفسها والتواصل عبر أجهزة الراديو الآمنة مع قوّات الهجوم، فسيكون القائد متأكداً من تاريخ إطلاق الهجوم بالتحديد، وسيكون واثقاً بإرسال قوّة صغيرة نسبياً. لكن، إذا كانت تلك المعلومات الاستخبارية مرتبطة بأشخاص أجانب لا يمكن الوثوق بكفاءتهم أو إخلاصهم، وإذا كانت معلوماتهم مجزّأة أو عرضة للتغيير المفاجئ، كما كانت الحال مع تقارير «السي.آي.إيه.» حول بن لادن في أفغانستان، فيجب أن يقيس القائد حجم قوّة الهجوم لمواجهة أي مقاومة غير

متوقّعة. لقد واجه شيلتون مشكلة في إقناع المدنيين في إدارة كلينتون في البيت الأبيض، بهذه الأفكار الواضحة(934).

يجب إطلاق أي هجوم أميركي على أفغانستان من البحر، وعبر المجال الجوّي الإيراني أو الباكستاني. فالبنتاغون لم يدبّر قواعد للهبوط قريبة من أفغانستان لتستطيع طائرة الهليكوبتر القيام بجولة. تستطيع طائرات الهيلكوبتر التابعة للقوات الخاصة وبعض طائرات النقل المجهزة من نوع سي. 130، أن تخترق أجهزة الرادار الإيرانية والباكستانية، لكن حاملات الطائرات يجب أن تدور في المياه على طول الشاطئ ولا يمكنها الاختباء. تراقب باكستان وإيران جيداً السفن التي تدخل المياه الإقليمية بالقرب من شواطئهما. راقبت
استخبارات البنتاغون الاتصالات الباكستانية بشكل كاف لتعرف أن باكستان تتعقّب السفن الحربية الأميركية وتفيد عن مواقعها عندما تقترب من الساحل الباكستاني. ولا يمكن سوى الغواصات أن تتفادى تلك المراقبة. لذلك، وضع البنتاغون غوّاصات مزوّدة صواريخ موجّهة عوضاً عن السفن التي ستظهر على الشاطئ الباكستاني في حال أمر الرئيس بشن هجوم آخر بالصواريخ ضدّ بن لادن. افترض البنتاغون أن باكستان تحتفظ بشبكات تجسّس في عمان والخليج لمراقبة الحشود الأميركية الداخلة والخارجة. واعتقد شيلتون أن باكستان ستنبّه حركة طالبان إذا كشفت أي مهمة إغارة أميركية بالصواريخ. وبالتالي، ستحذّر بن لادن وتتيح له فرصة للهرب من القوات الأميركية، أو نصب كمين لها. بدأت لائحة العمليات الكارثية السابقة تتردد في ذهن شيلتون: «عملية الصحراء»؛ هجوم القوات الأميركية الخاصة الفاشل في العام 1980 لإنقاذ رهائن أميركيين في طهران؛ كارثة مقاديشو، الصومال، في العام 1993 (التي ساعد عملاء القاعدة على تنفيذها)؛ الخسائر التي لحقت بالقوات الخاصة السوفياتية في أفغانستان في كمين أواخر الثمانينيات. وراح شيلتون يكرّر «عملية الصحراء» باستمرار على مسامع مساعدي كلينتون في البيت الأبيض، كمَثَل، لتوقّي الحذر. ونجح في التأثير فيهم. اعتقد بعض مساعدي كلينتون الرفيعي المستوى أن ذلك الهجوم الفاشل كان فعلياً السبب الحقيقي لإنهاء ولاية آخر رئيس ديموقراطي في البيت الأبيض: جيمي كارتر(935).

امتلكت «السي.آي.إيه.» بالعودة إلى الوراء جيلاً واحداً، قوّاتها العسكرية السرّية الخاصة، البحرية والبرّية والجوّية، التي استخدمت لمعالجة مثل هذه المشاكل. خاضت «السي.آي.إيه.» حرباً صغيرة في غواتيمالا، وهجوماً فاشلاً على «خليج الخنازير» في كوبا، وحرباً جوّية سرّية في لاوس. لا يزال فرع المهمات الخاصة في الوكالة يحتفظ ببعض الموجودات العسكرية، إلا أن الوحدة أصبحت أصغر بكثير مما كانت عليه. كانت تتمثّل قوّتها في مهمات جمع المعلومات والعمليات السرّية مع الميليشيات المحلية، والهجمات الصغيرة. واعتقد بعض المسؤولين الأميركيين أنها لا تمتلك طائرات أو منشآت دعم لتطلق عمليات عسكرية في أفغانستان من دون مساعدة البنتاغون. وعلى الرغم من ذلك، ينزعج بعض مساعدي كلارك من عدم اقتراح «السي.آي.إيه.» أبداً استخدام قوّتها الخاصة لملاحقة بن لادن(936).

اعتقد ضباط البنتاغون و «السي.آي.إيه.»، من جهتهم، أن كلينتون، بصفته القائد الأعلى، لم ينجح في دفع إدارته إلى اتخاذ قرار تكتيكي ثابت حول كيفية القبض على بن لادن ومساعديه، أو قتلهم. اعترفوا بأنهم لا يملكون خيارات جيّدة. كان البيت الأبيض يرعى عمليات وخططاً مجزّأة ومتفرقة ومعزولة في «السي.آي.إيه.» والبنتاغون. وكانت سياسة كلينتون تتابع سياسات عديدة في الوقت عينه. فلم يوضح كلينتون، ولو لمرة واحدة، إذا ما كان قتل بن لادن بواسطة الصواريخ الموجّهة أو عمليات الأسر المسلحة، من أولوياته. حاولت مجموعة كلارك الأمنية لمكافحة الإرهاب جمع التقارير الاستخبارية ومشاركتها وانتهاز الفرص لشن هجمات مفاجئة ضد القاعدة، لكن كلينتون نفسه تراجع. انتقد جهود كلارك ودعاه «إلى بذل المزيد من الجهد»، كالملاحظات على هامش مذكرات مجلس الأمن القومي، لكنه لم يصرّ قط على الخطط النهائية أو قرارات شن الهجمات. ونتيجة لذلك، حاول مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» تطوير الهجوم بالصواريخ الموجّهة وعمليات الخطف باستخدام القوات المتعاملة مع «السي.آي.إيه.»، إلا أن ضباطها لم يتعاونوا قط مع البنتاغون بطريقة تركّز على أحد الجانبين. إن التردّد وسط أزمة المعاقبة، كان يجب أن يقابله فعل إرادة من قبل الرئيس للسعي إلى إصدار قرار بالهجوم، نظراً إلى صعوبة الهدف والانقسامات داخل إدارته. في البيت الأبيض، اعتقد مساعدو كلينتون في مجلس الأمن القومي، أنهم كانوا أكثر المتحمّسين لقضية القاعدة، محاولين تجربة الوسائل كافة للنيل من بن لادن على الرغم من المقاومة المكثّفة، وعدم كفاءة البيروقراطيين في «السي.آي.إيه.» والبنتاغون. ومن الجهة الأخرى لـ «بوتوماك»، كان البيت الأبيض يبدو دائماً غارقاً في الفوضى والضياع والقلق، فلم تكن قضية بن لادن استثنائية قط(937).

أدت تلك السياسات إلى إغراق تلك الصراعات بمزيد من خيوط الشكّ. وفي سياق المعاقبة وعلاقات كلينتون السيئة بالجيش، شكّ المساعدون في البيت الأبيض في أن تردّد كلينتون في مهاجمة بن لادن كان سياسياً بشكل جزئي، إلى درجة أنه ليس مستعداً هو أو أحد من جنرالاته الآخرين، للمخاطرة برئاسة مستضعفة لا يثقون بها. ومن جهته، يخشى كلينتون من «مسؤوليته الشخصية تجاه الجنود وعائلاتهم»، بحسب شهادة أحد مساعديه الكبار. «لا يقدّر الناس حقيقة الوضع». وأسوأ الخيارات هو «مهمة فاشلة تخصص لها بضع مئات من القوات الخاصة وتوجّههم»(938).

كان الجميع يعودون إلى المواضيع نفسها، وأهمها وضع طالبان. وبحلول العام 2000، كان لا يزال هناك في مكتب الاستخبارات في وزارة الدولة بعض المحللين الذين يطالبون بالتزام مع حركة طالبان. إلا أن غالبية أعضاء إدارة كلينتون اعترفوا اليوم بأن القاعدة
استمالت الملا عمر إليها. فرض كلينتون العقوبات الاقتصادية على حركة طالبان، لكنه استمرّ في دعم المفاوضات معها، وأعلن سياسة حياد في الحرب الأفغانية وقاوم طلبات مساعدة مسعود.

أثّرت هذه السياسة المنقسمة في الخلافات الداخلية حول خيار الصواريخ الموجّهة. قال كلارك لبيرغر إن مقاربة إطلاق الصواريخ الموجّهة ستصبح أسهل إذا اعترف البيت الأبيض علناً بحركة طالبان عدواً له. ولن يحتاج كلينتون عندئذ إلى مصدرين دقيقين لتحديد مكان بن لادن. يمكن أن

يتّبع كلينتون مقاربة «التفجير والتراجع» مع طالبان، باختيار أهدافه بعناية وفقاً لأفضل المعلومات الاستخبارية عند «السي.آي.إيه.» حول بن لادن، وبالدفاع عن هجماته أمام الرأي العام باعتبارها هجوماً ضد حركة طالبان والبنى التحتية الإرهابية. يمكن ربط تلك الهجمات بالمطلب الأميركي القديم القاضي بتسليم حركة طالبان بن لادن وقادته، لمحاكمتهم. وفي حال رفضت حركة طالبان، يمكن الولايات المتحدة أن تقوم بهجوم ثان، ولاسيما عندما تحصل على معلومات أكيدة حول بن لادن والظواهري وعاطف وقادة آخرين. ويذكر شيلتون أن فكرة ضرب البنية التحتية لحركة طالبان والأهداف القيادية، تطوّرت إلى درجة أنه طُلب إليه مراقبة أماكن إقامة قادة طالبان وعملهم، وتطوير معلومات عن الأهداف «في حال اتّخذوا ذلك القرار»، بمهاجمة حركة طالبان مباشرة(939).

رفض ساندي بيرغر هذا العرض لمصلحة خيار حرب أوسع. وانعكس، في شهر آب/أغسطس من العام 1998، الهجوم بالصواريخ الموجّهة ضدّ القاعدة، كارثة سياسية في الوطن والخارج. فإطلاق الصواريخ الموجّهة باستمرار على أفغانستان، ذلك البلد الفقير، الغارق في المعاناة، وفقاً لمعلومات استخبارية قوية عن الشخص المستهدف وعدد الضحايا بين صفوف المدنيين، سيعزّز موقف بن لادن في العالم الإسلامي، ويشجّع التطوع في القاعدة، وقلب الرأي العام العالمي ضدّ الولايات المتحدة. كان بيكرنغ يوافق بيرغر على رأيه. قال بيكرنغ: «إنهم يمتلكون قوّة في المنطقة وهم مستعدون لاستخدامها إذا تمكّنوا من تحديد مكان بن لادن. ولكنهم لم يكونوا مستعدين لإطلاق صواريخ «توماهوك» يومياً، أو استخدام الطائرات الحربية، لتخترق المجال الجوّي الباكستاني، بينما لا يمتلكون في الواقع، المعلومات الدقيقة أو الأدلة الصحيحة للقيام بذلك». وأشار بيرغر إلى أن المتطرفين تسببوا في مقتل سبعة وستين أميركياً خلال ولاية كلينتون. لم تكن الحرب الأميركية على أفغانستان تتمتّع بأي مضمون سياسي. وعوضاً عن ذلك، اهتم بيرغر بالمواضيع التي شعر بأنها واقعية. بعد الفشل الوشيك في الألفية الجديدة، كتب كلارك أنه من الواضح أن حملة الولايات المتحدة ضدّ القاعدة «لم تُضعف بأي شكل» منظمة بن لادن، بل تشكّلت الخلايا النائمة على الأرض الأميركية. تعاون بيرغر مع مجلس الأمن القومي في 10 آذار/مارس لدعم جهود جديدة، وتعزيز عمليات «السي.آي.إيه.» في الخارج، والحذر من المجموعات الإرهابية الأجنبية على أرض الوطن، واتخاذ تدابير أمنية حدودية مشدّدة. كانت حملة لتخصيص الميزانية وتضييق القانون وبرامج العلاقات الأجنبية، العملية والمحدودة في آن(940).

من الأسهل أن يتولّى مسعود وحلفاؤه أمر بن لادن بأنفسهم. لكن، هل سيفعل مسعود ذلك إذا توافرت له الفرصة المناسبة؟ كان البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.» يختلفان حول دوافع مسعود. يعرف الضباط الذين التقوا القائد في بانشير، أو الذين عرفوه سابقاً، أن مسعود مسلم تقيّ يعتبر نفسه قائداً إسلامياً عاماً. لذلك، سيدفع الثمن غالياً في العالم الإسلامي، إذا هاجم بن لادن وقتله، أو الأسوأ من ذلك، إذا قام بتسليمه إلى الأميركيين. يجب أن يتبنّى مسعود قرار قتل بن لادن في أرض معركة، فيدّعي أنه في حرب. لكن خطف شيخ مسلم بالنيابة عن «السي.آي.إيه.» وتعريضه لمحاكمة مذلّة في محكمة أميركية، كفيلان بالقضاء على سمعة مسعود كأسطورة للثائر المستقلّ. ما هي دوافعه ليختار هذا الاحتمال حتى إذا كانت تلك العملية ممكنة؟ لن تقدّم إليه «السي.آي.إيه.»

أي مساعدة عسكرية، ولا أي دعم سياسي ضدّ طالبان. كان شيلتون وآخرون في البنتاغون يشكّكون أيضاً في مجرد الشراكة العسكرية السرّية مع مسعود. «يملك الحلف الشمالي خلفيته الخاصة» برأي شيلتون. «وستحاسَب الولايات المتحدة على كل أفعاله، عندما تشاركه وتتعاون معه». لذلك، كان شيلتون يرفض الشراكة مع مسعود(941).

وعلى الرغم من ذلك، استمرت «السي.آي.إيه.» في تعزيز شراكتها الاستخبارية مع رجال مسعود خلال العام 2000. اعتبر بعض مساعدي كلينتون في البيت الأبيض، أن مسعود سيخبر الوكالة بما ترغب في سماعه، ويأخذ حصته من المبالغ المالية الصغيرة نسبياً والمعدات المتوافرة، ويكمل عمله كالسابق. لكن، على الرغم من ذلك، لماذا لا يمنحونه هذه الفرصة؟ فخياراتهم لم تكن واسعة.

كان يدور جدل كبير حول القسم الذي سيقوم بالرحلات السرية القادمة إلى شمالي أفغانستان. هل أصبح مسعود متعاملاً مع مركز مكافحة الإرهاب، أم أصبح ينتمي إلى قسم
أفغانستان في فرع الشرق الأدنى؟ ونتج من تلك المحادثات قرار حكيم: ستتوزع المهمات المستقبلية للبانشير بين فريق «جاوبريكرز» في مركز مكافحة الإرهاب، وفريق «نالت» من فرع الشرق الأدنى(942).

سافر كوفر بلايك إلى طاجكستان مع فريق من وحدة بن لادن في بداية صيف العام 2000. في دوشانبي الفقيرة، أقلّه رجال مسعود بواسطة سيارة قديمة من نوع «مرسيدس» كانوا يتفاخرون بأنها كانت ملكاً للرئيس المخلوع نجيب الله، رئيس الشرطة السرية الأفغانية في العهد الشيوعي والرئيس المدين. نقلوا الفريق الأميركي إلى أحد ملاجئ مسعود الآمنة. عرض مسعود في الداخل، مع المساعدين والمترجمين، خريطة المعركة، وقام بمراجعة وضع طالبان. وكعادته، عندما يتوجه إلى المستمعين الأميركيين، يتكلم مسعود على التهديد الأوسع الذي تمثله حركة طالبان بالنسبة إلى العالمين الإسلامي والغربي. ويتحدّث عن معاناة الشعب الأفغاني تحت قمع حركة طالبان(943).

أراد بلايك تقوية شراكتهما وتطوير جهودهما في مشاركة جمع المعلومات الاستخبارية. سأل عن أي سجناء عرب لدى مسعود يمكن استجوابهم. أجابه مسعود بأن لديه عدداً قليلاً، لا قيمة له. لقد واجهوا صعوبة في الحصول على أسرى خلال معركتهم مع الكتيبة 55، قوّة بن لادن من المقاتلين العرب. وعندما حاصرتهم قوات مسعود، تجمّع الجنود العرب في دائرة، ونزعوا صواعق أحزمة ناسفة كان يتزنرون بها، وأقدموا على انتحار جماعي. أصبح مسعود دقيقاً في شأن «مشاكل المقاومة»، بالإضافة «إلى مشاكل شراء الأسلحة من روسيا»، ونوع المعدات العسكرية التي يمكن أن يوفّرها الأميركيون إذا أرادوا تغيير نتائج الحرب، كما قال أحد مساعديه الاستخباريين في خلال الاجتماع.

«أوضح مسعود للأميركيين أن الوقت مثالي، إذا أرادوا، معاقبة طالبان». كانت حركة طالبان تضعف سياسياً، لكن قوات مسعود لا تزال تقاوم. أخبر فريق «السي.آي.إيه.» زملاءه، بأن

مسعود وصف نفسه بالخلاص الوحيد والقوة الوحيدة التي تتحدّى حركة طالبان. أخبروا لانغلي، بأن مسعود طلب منهم دعماً حقيقياً أوسع.

قال فريق «السي.آي.إيه.» إنهم يعرضون طلبه بالنيابة عنه في المجالس داخل الوكالة في واشنطن. «حاولوا إقناع مسعود بأنه نجح في إيجاد مستمعين له في الولايات المتحدة، وأن مهمته وقضيته مطروحتان على جدول أعمال الولايات المتحدة... أرادوا أن يخبروه بأنهم سيقدمون إليه المساعدة في المستقبل»، برأي مساعد مسعود في الشؤون الاستخبارية.

يعلم رجال مسعود بأنه من الصعب على «السي.آي.إيه.» الإيفاء بذلك الوعد. كانت مساعدات الوكالة الاستخبارية مفيدة، لكن «السي.آي.إيه.» تُعتبر شريكاً محدوداً، لجهة كونها وسيلة لتغيير السياسة الأميركية في أفغانستان. يعترف مستشار مسعود في السياسة الخارجية «بأن الأمور كانت تسير بشكل جيّد، لكن ببطء... ببطء شديد. لم يكن يوافقهم على أنهم سيحصلون منها على فرص كبيرة»، على الرغم من مساعدة «السي.آي.إيه.» في السجال السياسي. «في نظام الولايات المتحدة، لا تتقدم الأمور إلا بعد وقوع أحداث دراماتيكية»(944).

# 28
# هل من سياسة لحماية أفغانستان؟

يأمل برويز مشرّف أن يبدو بصورة الديكتاتور العسكري العصري والتقدمي أيضاً. يسمي نفسه «الرئيس التنفيذي» لباكستان، ويظهر في الأماكن العامة بالبذلة الرسمية، ويُصدر الوعود بالإصلاح وإرساء الديموقراطية. قام بتوظيف لاني جي. دايفيس الذي يتمتع بالنفوذ في واشنطن، ولسان حال كلينتون خلال أزمة معاقبة إسلام آباد، لإقناع البيت الأبيض بوجهة نظره الليبرالية. لكن، في إسلام آباد، داخل مجالس جيشه الخاص، حيث يجب على مشرّف أن يؤسس نظاماً جديداً، لم يستطع تحمل نفقة توظيف خبير يتمتع بالنفوذ لمساعدته. كان يَدين بشكل خاص لجنرال واحد، هو محمود أحمد الذي كان قائد الصفوف الأمامية في الهجوم على كارجيل، والذي كان ينقل إليه التقارير مباشرة، وقائد الفيلق العاشر أثناء الانقلاب، أي الوحدة العسكرية المتمركزة في راولبندي والمسؤولة عن أمن العاصمة. مساء ذلك اليوم الخطير في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1999، وبينما كان رئيسه يحلّق على متن طائرة فوق كاراتشي، نشر محمود كتيبة في إسلام آباد لإلقاء القبض على نواز شريف وتأمين الحكومة للجيش. ومن ثم، وتكريماً للتسلسل القيادي، وقف محمود جانباً. تعرف النخبة السياسية كلها في باكستان، أن مشرّف يَدين بسلطته لقيادة محمود، وقد ترقبوا خلال الأسابيع الأولى بعد الانقلاب ليروا كيف سيردّ هذا الدَّين. لم ينتظروا طويلاً: أعلن مشرّف على الفور أن محمود سيصبح المدير العام للاستخبارات الباكستانية الجديد. سيحلّ محمود المشكلات التي خلّفها ضياء الدين، خادم شريف الخاضع للإقامة الجبرية في منزله في لاهور(945).

مع سقوط ضياء الدين خسر فرع «السي.آي.إيه.» جنوبي آسيا حليفاً له. كان الجنرال غبياً ويملك سلطة ضعيفة، لكن أقله كان متعاوناً، وعلى استعداد دائم لعقد اجتماع. يجب على «السي.آي.إيه.» أن تمهد اليوم لعلاقة جديدة مع محمود. إذا وافقت الاستخبارات الباكستانية على الأجندة الأميركية، فستكون أسرع وسيلة لاقتحام ملجأ القاعدة في أفغانستان، وإلقاء القبض على بن لادن، أو قتله.

بدأت «السي.آي.إيه.» التحري عن حياة محمود للبحث عن طريقة لإنشاء علاقة معه. كان ضابط مدفعية خدم مع مشرّف في الوحدة نفسها في بداية مهنته. اكتشف الضباط الذين يعملون على قضيته، أن محمود كتب أطروحته عندما كان تلميذاً في كلية نخبة الضباط الباكستانيين، عن «معركة غيتسبورغ». تحدّث رئيس مركز إسلام آباد الجديد الذي كان يناديه أصدقاؤه بـ «بوب»، إلى محمود لزيارة الولايات المتحدة ولقاء نظرائه في لانغلي، ومن بينهم جورج تينيت. ووعدت «السي.آي.إيه.» بأن تنظّم جولة إلى غيتسبورغ. ستكون فرصة لضبّاط الاستخبارات من الجانبين ليتعرف بعضهم إلى بعض بشكل أفضل(946).

تعرف سفارة الولايات المتحدة في إسلام آباد محمود معرفة سطحية. فالجيش الباكستاني يمنع السفراء أو رؤساء المراكز من القيام بزيارات رسمية إلى القادة، لكن الأميركيين تدبّروا مقابلة محمود. تتضمن واجبات الجنرال أحياناً في اللواء العاشر، استقبال المسؤولين في مطار إسلام آباد، والاختلاط بالسلك الدبلوماسي في العاصمة في المناسبات. كان جنرالاً ذا طباع باكستانية: بريطانياً في تصرفاته، منتظماً في مظهره، انضباطياً وصريحاً. شارباه مفتولان وملمّعان بحسب النمط الاستعماري. كان رجلاً قومياً ملتزماً، يعكس تنظيمه للهجوم على كارجيل عمق كراهيته للهند. لكن ظاهرياً، لم يبد جنرالاً متديناً. كان يتحدّث بصراحة مع الأميركيين حول الحاجة إلى نشر الانضباط العسكري والتسلسل القيادي في جهاز الاستخبارات الباكستاني. يمكن تفسير تلك الملاحظات الخاصة على أنها رفض لتسييس ضياء الدين جهاز الاستخبارات الباكستاني لحماية شريف والجيش لكنهم أعربوا أيضاً عن رغبتهم في إدارة الاستخبارات الباكستانية عن كثب، والتحكّم في العناصر الفاسدة، أو هذا أقله ما رغب في اعتقاده بعض الأميركيين الذين تحدثوا إلى محمود(947).

اختلف مستشارو كلينتون في الأمن القومي، الذين لا يزالون منقسمين حول كيفية الردّ على انقلاب مشرّف، حول زيارة الرئيس الأميركي إلى باكستان في بداية العام 2000. التزم كلينتون بزيارة الهند في شهر آذار/مارس. لكن جهاز الاستخبارات السري، أوضح أن التوقّف في باكستان سيكون خطيراً جداً، إذ لا يمكن الوثوق بالاستخبارات الباكستانية لحماية كلينتون في رحلته، كما أن المنطقة مكتظة بالجماعات المتطرفة المسلحة. ومن الممكن أن تقوم فرق من حركة طالبان أو القاعدة بإطلاق صوارخ ستينغر من قندهار في اتجاه طائرة الرئيس الأميركي. إلا أن حكومة مشرّف، التي لاحظت محاولة اللّوبي الهندي في واشنطن، إقناع كلينتون بتجنّب باكستان، راحت تطالب البيت الأبيض بزيارة متبادلة. تدبّر لاني دايفيس الأمر في الكابيتول هيل. وفي إسلام آباد، قامت الحكومة بمبادرات

لمكافحة الإرهاب. أعرب محمود عن استعداده لمساعدة «السي.آي.إيه.» لتتسلّم مقاتلين عربيين في عهدتها، يحمل أحدهما جواز سفر أميركياً، تم إلقاء القبض عليهما سرّاً على يد الشرطة الباكستانية. أعلن مشرّف أنه «يفكر بشكل جدّي» في زيارة قندهار لإقناع الملّا عمر بتسليم بن لادن إلى الأميركيين(948). كان يُعتبر من النواحي كافة، هجوماً ساخراً وساحراً لمنافسة الدبلوماسية الهندية. لكنه لم يدلّ قط على تحوّل في استراتيجية الجهاد الباكستانية. يعرف الجيش الباكستاني، منذ زمن بعيد، أنه يستطيع كسب رضا الأميركيين، ولاسيما «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.»، باتخاذ بعض التدابير تجاه عدد صغير من العناصر التابعين للقاعدة، الذين لا يؤثرون أبداً في سياسات باكستان في كشمير أو أفغانستان.

يبدو أن تكتيكهم نجح هذه المرة أيضاً: قرر كلينتون زيارة إسلام آباد في شهر آذار/مارس يوماً واحداً. يتّسم قرار كلينتون بعدة أوجه. يريد أن يُبعد باكستان عن الخطر النووي لتعزيز الالتزام الأميركي وإرساء الاستقرار في المنطقة. وبسبب وجود مواضيع حسّاسة كثيرة، لم يشأ فريق كلينتون أن يضغط على الجيش الباكستاني كثيراً بالنسبة إلى الإرهاب. وفي قراءة جدول الأعمال الأميركي بانتباه، سمح مشرّف للجماعات الأصولية في كشمير التي تربطها علاقة وثيقة

بالاستخبارات الباكستانية والقاعدة، ومن بينها جماعة قام قائدها بتوقيع فتوى بن لادن الأصلية في العام 1998 لإعلان الحرب على الولايات المتحدة، بإعادة تنظيم تجنيدها، وتوسيعه عبر باكستان عشية زيارة كلينتون(949).

اعتُبرت زيارة كلينتون إحدى أغرب الزيارات في التاريخ الرئاسي. كان أوّل رئيس أميركي يزور باكستان منذ ريتشارد نيكسون في العام 1969(950). وبتحدي نصيحة أجهزة الاستخبارات بالابتعاد عن باكستان، أدخل الجهاز السريّ في نظام أمني شامل لخداع بن لادن، بسبب توقفه في إسلام آباد في طريق عودته من الهند. أعلن عميل في جهاز الاستخبارات السرّي في تارماك في مومباي «أنهم سيتّبعون أسلوباً جديداً»، مقتبساً من لغة كرة القدم الأميركية لتحدّي مكافحة الإرهاب. تنقّل شبيه كلينتون بين طائرتين، وركب على متن واحدة تحمل العلامة الرئاسية. لكن الرئيس الحقيقي ركب في طائرة من دون علامات تابعة لـ «السي.آي.إيه.»، من نوع «جي 5»، سبقه مساعده إلى متن الطائرة، وأسدلوا ستائر النوافذ.

«هل سنغلق النوافذ كلّ الوقت؟»، سأل كلينتون. «لا أستطيع السفر بهذه الطريقة».

«سيدي الرئيس، حالما نرتفع في الجوّ...»(951).

لم يبدُ كلينتون مهتماً بخطر صواريخ الستينغر. أخذ قيلولة، وحلّ بعض الكلمات المتقاطعة، ومن ثم استمع إلى موجز من خبرائه في الشؤون الباكستانية. في إسلام أباد، على الأرض، استعد بديله للسير علناً إلى المدخل لتلقي أي رصاصة بالنيابة عنه من القتلة. وعندما يتبيّن أن الوضع آمن، يركب كلينتون في سيارة مصفّحة ليسلك طرقات إسلام آباد الواسعة للقاء مشرّف في مجمّع حديث للمكاتب. لم تنتظره الحشود المهلّلة، فقد أمر جهاز الاستخبارات بأن تكون الطرقات خالية تماماً(952).

نظر كلينتون إلى الخارج من على شرفة في وسط المدينة، وقال: «لا أرى أي شخص هنا».

فشرح له أحد مضيفيه من وزارة الخارجية الباكستانية، «أنه لا يرى أحداً، لأنه طلب إليهم التأكد من عدم وجود أي شخص حول المكان».

«حقّاً؟ لم أعلم بذلك».

«ألم تلاحظ عدم مصادفتنا أحداً في طريقنا من المطار إلى هذا المكان؟».

«نعم، لقد دُهشت لذلك». راحوا يمزحون حول كيف أصبح من الممكن زيارة بلد من دون رؤية سكانه. اعترف مسؤول باكستاني بأن «المسألة كانت مُهينة من دون أي شك». لقد شعر العديد من النخبة الباكستانية بأن كلينتون تعامل مع دولتهم بأكملها، كشعب يقيم في سجن وسط إجراءات أمنية مشددة(953).

تحدّث كلينتون ومشرّف حوالى ساعتين، ولم يفارقهما المساعدون سوى بضع دقائق. ذكر الأميركيون لائحة المواضيع كالعادة بالترتيب بحسب الأولية: التخصيب النووي؛ التوترات في المنطقة؛ والمواضيع الاقتصادية، ومن ثم الإرهاب ومشكلات أخرى. واعترف مساعدو كلينتون في مكافحة الإرهاب لاحقاً، بأنهم لم يكونوا متأكدّين مما إذا كان مشرّف سيستمر في منصبه مدة أطول، لذلك لم يطرحوا مسألة بن لادن أمام المساعدين الباكستانيين «المشكوك في ولائهم»(954).

يذكر مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر، أنه خلال جلسة قصيرة مع مشرّف، راح كلينتون «يضغط» على الجنرال «لاستخدام النفوذ الباكستاني مع طالبان للنيل من بن لادن». ويذكر مسؤول باكستاني أن كلينتون أعرب عن قلقه صراحة من حصول بن لادن على أسلحة الدمار الشامل. أجابه مشرّف بأنه سيبذل جهده. كما طلب إليه الالتزام مع حركة طالبان بتشجيع الممارسات الحسنة. وفي اليوم التالي، قام مشرّف بإخبار توماس بيكرنغ بأنه لا يملك سلطة كبيرة في جميع الأحوال(955).

تحدّث كلينتون عبر شاشة التلفزيون الباكستاني في بثّ مباشر مدة خمس عشرة دقيقة. وحذّر الناس الذين لم يرهم، عبر عدسة الكاميرا الآمنة نسبياً، من «خطر غرق باكستان في العزلة وإبعاد الموارد عن حاجات شعبها، والتوجه نحو صراع لا يستطيع أحد الفوز فيه»(956).

استغلّت «السي.آي.إيه.» تلك الزيارة لتضمن التزام محمود بالسفر إلى الولايات المتحدة. وحدث ما خططت له وكالة الاستخبارات الأميركية: سافر رئيس الاستخبارات الباكستانية إلى واشنطن في شهر نيسان/أبريل. ونظّمت الوكالة له جولة خاصة إلى أرض معركة غيتسبورغ، برفقة أستاذ من الكلّية العسكرية الحربية الأميركية في كارليسل، براكس في بنسيلفانيا. انضم إليهم غاري شروين وضباط آخرون من «السي.آي.إيه.»، وأمضى مرشدهم السياحي ساعات عديدة يمشي في أرض المعركة ليتتبّع قرارات روبرت إي. لي.، القيادي في العام 1863. تحمّس محمود وراح يتحدّث بحيوية عن تكتيكات المعركة وشخصياتها ونقاط التحول المصيرية في تاريخ الحرب الأهلية الأميركية. أبدى الجنرال الباكستاني ارتياحاً كبيراً والتزاماً جاداً على ما يبدو. لقد أسس رجال «السي.آي.إيه.» علاقات شخصية مع محمود، كخطوة أولى نحو مزيد من التعاون أو التجنيد(957).

لكن آمالهم كانت محدودة. لا يزال الضباط في وحدة بن لادن مشكّكين في استعداد مسعود أو أي جنرال باكستاني آخر لاتخاذ الإجراءات الصحيحة تجاه طالبان. وعندما تحدّث محمود إلى ضباط «السي.آي.إيه.» في لانغلي والمسؤولين في البيت الأبيض، كان يبدو في معظم الأحيان متعجرفاً، ويتجنّب ذلك الموضوع. ويقول أحد المسؤولين الذين التقوه بتهكّم «إن توجّهه تجاه الأميركيين هو لمحاولة إعلامنا بتعقيدات تلك المنطقة من العالم. وبقليل من الدفع، كان سيتكرّم عليّ بإخراج خريطة ليُطلعني على مدى ارتفاع الجبال وصعوبة العمل»(958).

لقد دفع هذا النوع من الإحباط المتكرّر مع جنرالات الاستخبارات الباكستانية، باقتراح بعض المسؤولين الأميركيين أن يصدر كلينتون إنذاراً نهائياً: إما توقف باكستان مساعداتها كافة عن حركة طالبان، وإما يتم وضعها على لائحة الدول الداعمة للإرهاب. إلا أن رئيس مجلس إدارة الرؤساء المشتركين، هوغ شيلتون، وآخرين في البنتاغون، طالبوا بتوقي الحذر. يذكر شيلتون أنه «تردّد مرتيّن» خلال تلك الأشهر، بينما كان يحاول التأكد مما إذا كانت الولايات المتحدة انتقلت إلى مرحلة مهادنة باكستان، أم أنها يجب أن تتقبّل الحواجز وتستمر في التزامها. أعلن الجنرال زيني من «سينتكوم»، أن باكستان «تحمل مفتاح الاستقرار في أفغانستان ووسط آسيا». واعتقد أنه يجب على الولايات المتحدة أن تتابع سعيها. سعى فريق كلينتون للأمن القومي إلى التوصل إلى مساومة غير رسمية: سيحاول فرع الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» ومركز إسلام آباد خداع محمود واستدراجه إلى شراكة، بينما سيحاول مسؤولون أميركيون آخرون الضغط عليه(959).

أصبح توماس بيكرنغ المهوّل الدبلوماسي لكلينتون، أو الشرطي السيئ المكلّف نقل الرسائل القاسية التي لا يتحمّل المسؤولون الآخرون مسؤولية نقلها. كان بيكرنغ دبلوماسياً أصلع وضخماً، يتسلّح بأعوام خبرة طويلة في المواضيع الاستخبارية والسياسية، ويميل غالباً إلى ضيوفه عندما يتحدث، ويمكنه التفوه بعبارات سريعة قوية وصريحة. وفي مكتبه فوق شارع سي. في 4 نيسان/أبريل من العام 2000، راح بيكرنغ يهاجم محمود بخصوص دعم باكستان لحركة طالبان. وحذّره من أن طالبان ترعى إرهابيين أقدموا على قتل مواطنين أميركيين. ردّد بيكرنغ «أن الأشخاص الذين يفعلون ذلك هم أعدء لنا، والأشخاص الذين يدعمون هؤلاء الأشخاص سيُعتبرون أعداءنا أيضاً». لا تجرؤ باكستان على «أن تضع نفسها في هذا الموقف». وبالتأكيد، لا تزال السياسة الأميركية المعلنة تقدّم إلى طالبان الأمل في المكافأة إذا غيرت سياستها ونفذت المطالب الأميركية، كما أن المسؤولين الأميركيين لم يشيروا إلى الملا عمر قط كعدوّهم علناً. وبعد تقارير حول توترات شديدة بين قادة طالبان وبن لادن، اكتشفت الاستخبارات الباكستانية أن مجلس وزراء حكومة طالبان، وافق بالإجماع على دعم تحالفه مع القاعدة في نهاية العام 1999. كما أن الملا عمر قام بمحاكمة هؤلاء المخالفين لهذا القرار. قام بيكرنغ بتحذير مسعود من أن سياسة الولايات المتحدة على وشك التحولّ: كما أن واشنطن قد تتوقف عن دعم أحمد شاه مسعود في الحرب الأفغانية إذا لم تتصرف طالبان قريباً بخصوص بن لادن(960).

عاد محمود إلى باكستان، ونظّم بسرعة رحلة إلى قندهار للقاء الملا عمر. أفصحت ملفات باكستانية سرّية، كُشفت أخيراً في كابول، عن المواضيع التي تمّت مناقشتها في الاجتماع. أخبر رئيس الاستخبارات الباكستانية الملا عمر، بأن الوضع زاد خطورة. عدّد محمود المطالب الأميركية: «لن ترضى الولايات المتحدة بأقلّ من إرسال بن لادن إلى مكان حيث تستطيع محاكمته». كما أن «واشنطن تريد نتائج فورية». وفي حال رفضت حركة طالبان الانصياع لهذا المطلب، يريد الأميركيون أن تتوقف باكستان عن دعمها(961).

والأسوأ من ذلك أيضاً، أن محمود أخبرهم أن الأميركيين يمكن أن يدعموا «هجمات بالصواريخ تستهدف المستودعات العسكرية لحركة طالبان. كما يمكن أن تستهدف أسامة وعمر نفسه». وبالإضافة إلى ذلك، يمكن إعطاء روسيا وحلفائها إشارة الانطلاق لينضموا إليهم في ملاحقة الحركات المناوئة لواشنطن، في أفغانستان. يمكنهم أن يفجّروا أهدافاً استراتيجية شمالي أفغانستان، وسيقضون بذلك على أي احتمال عسكري لتفوق حركة طالبان على أحمد شاه مسعود... ومن الممكن أن تنسّق الولايات المتحدة وروسيا إجراءاتهما لتنفيذ التدابير المذكورة أعلاه(962).

لقد كان ضرباً من المراوغة. فإدارة كلينتون لم تكن مستعدة للمضيّ في ذلك النوع من التهديدات. بدأ بيكرنغ عدداً من المحادثات مع الاستخبارات الروسية حول احتمال التعاون بشأن أفغانستان، لكن ليس إلى درجة متقدمة كالتي نقلها محمود إلى الملا عمر. طالب ريتشارد كلارك وآخرون بإطلاق الصواريخ الموجّهة ضدّ أهداف لحركة طالبان، لكن ساندي بيرغر، من بين آخرين، عارض الأمر بشدّة. غير أنّ الولايات المتحدة لا تزال قادرة على إصدار التهديدات، فربما تستسلم حركة طالبان.

طلب محمود إلى الملا عمر «حلّ قضية بن لادن قبل فوات الأوان... يجب أن يقدّم إلى الولايات المتحدة خطة عمل. فقضية بن لادن تؤثر أيضاً في باكستان لأن مساعديه يستخدمون باكستان نقطة عبور».

أجابه زعيم طالبان، وفقاً لتقرير محمود، بأنه «يريد التخلّص من أسامة، لكن لا يعرف كيف»(963).

يعجز الأميركيون عن التكلم على مدى ضغط مسعود على طالبان بصدق خلال ذلك الاجتماع. أكان لمجرد التباهي، أم أن محمود يعتقد حقاً أن التخلص من بن لادن أفضل لمصلحة باكستان؟ لاحظ الأميركيون أن الجيش الباكستاني استمر في اللّعب على موضوع باكستان من الجهتين خلال ربيع العام 2000، وصيفه. من الممكن أن يدعم محمود التهديدات الأميركية، لكن الاستخبارات الباكستانية لم تكن مستعدة لوقف النفط والمال والمعدات العسكرية عن حركة طالبان. عندما التقى مدير الـ «أف.بي.آي.» لويس فريه مشرّف في لاهور في 6 نيسان/أبريل، وطلب المساعدة بشأن بن لادن، وجد الجنرال «مهذباً، لكن غير متعاون». شرح مشرّف أن «لديه ضمانات شخصية من

الملا عمر» بأن «بن لادن بريء من الإرهاب». عندما التقى مشرّف وزير الداخلية في حكومة عمر في شهر أيار/مايو، لم يهدّد بأي عقوبات اقتصادية، ولم يطالب أيضاً بتسليم بن لادن. وعوضاً عن ذلك اقترح مشرّف أن يعيد إحياء فكرة تأسيس محكمة إسلامية لمحاكمة بن لادن، هذا الاقتراح الذي رفضته إدارة كلينتون منذ زمن. سافر جورج تينيت سرّاً إلى إسلام آباد، وقابل مشرّف في 21 حزيران/يونيو. وافق مشرّف على عرضه لتشكيل مجموعة عمل مشتركة حول الإرهاب. قال تينيت إنه لم يطلب إلى باكستان تسليم بن لادن يوم الثلاثاء المقبل. لقد كان «طموحاً وليس مجنوناً». حدّ الأميركيون من توقعاتهم، وقبلوا حيلة مشرّف(964).

كانت تدور في تلك الأثناء الحرب ضدّ مسعود: على أرض أفغانستان تدفق خلال ذلك الصيف، المتطوعون الباكستانيون عبر الحدود للقتال إلى جانب طالبان ضدّ الحلف الشمالي.

بدأ رئيس الاستخبارات الباكستانية في ذلك الوقت تقريباً، التحدّث علناً مع بعض زملائه عن التدين الإسلامي الجديد في حياته. وشرح محمود قصده، بمعنى أنه «مسلم مولود من جديد»(965). انتشر هذا الاعتراف الصادر عن رئيس الاستخبارات الباكستانية، في أوساط النخبة المهووسة بالثرثرة في صالونات إسلام آباد. وفي النهاية، علمت به السفارة الأميركية أيضاً. لم يتأكد الدبلوماسيون في السفارة أو المسؤولون الباكستانيون الذين عملوا عن كثب مع مشرّف قط، كيف سيتصرفون حيال تصريحاته الخاصة حول الإسلام. لم يطلق الجنرال لحيته، ولا تحوّل علناً إلى إظهار علامات التدين، أو طلب إلى زوجته ارتداء الحجاب في المنزل، وهي خطوة نادرة داخل صفوف النخبة الباكستانية تدلّ على تحوّل جذري. ولا تزال فكرة إدارة «مسلم مولود من جديد» للاستخبارات الباكستانية، في بحر الغموض الذي تغرق فيه الاستخبارات الباكستانية والجيش الباكستاني، وحملات الجهاد، تنذر بالشؤم. اعتقد بعض زملاء محمود أنه كان غاضباً ومجروحاً بسبب توبيخ بيكرنغ له في واشنطن. يتمتّع الجنرالات الباكستانيون بالكبرياء، لكنهم ينجرحون بسهولة. ويروي مسؤول باكستاني أنه «كان يشعر بالذلّ عند عودته». وقد أخبر قوّات
«السي.آي.إيه.» «أتيتم
بي إلى هنا، ولست بحاجة إلى سماع هذا الكلام. اعتقدت أنكم تريدون الالتزام والاستماع إلى ما لدينا»(966).

أيّاً تكن الأسباب، لاحظ ضباط «السي.آي.إيه.»، بعد عودة محمود مباشرة من واشنطن في ذلك الربيع، أنه بدأ يصدّهم. أصبحت العلاقة بين المسؤولين في الاستخبارات الباكستانية و «السي.آي.إيه.» فاترة. كان ضباط «السي.آي.إيه.» يستطيعون مقابلة ضياء الدين مرّة في الأسبوع، أو أكثر إذا أرادوا. أما اليوم، فبالكاد يستطيعون مقابلة محمود مرّة في الشهر. استمر تبادل المعلومات يومياً، لكن مستوى الشراكة الاستراتيجي بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية، أصبح ضعيفاً. لم تعد هناك أي فرصة، على سبيل المثال، لتجديد الجهود ليقوم فريق مغاوير باكستاني سرّي بإلقاء القبض على بن لادن. ألقى مشرّف خلال الصيف خطاباً أعلن أنه

راجع السياسة الباكستانية تجاه أفغانستان، وقرّر الاستمرار فيها كالسابق. لقد شاهد محمود أحمد غيتسبورغ. واليوم سيدير حربه الخاصة(967).

تتنافس المملكة العربية السعودية مع باكستان بشأن مركز الحليف الأكبر، والأسوأ، لأميركا في مكافحة الإرهاب. وكما في باكستان، سلكت «عائلة مانسون» في وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» أحد أصعب المسارات. طلبت «السي.آي.إيه.» مراراً وتكراراً، إلى وزارة الداخلية السعودية، أو مديرية الاستخبارات، مساعدتها على التحقيق مع عملاء محدّدين وخلايا تابعة للقاعدة. شعر الضباط الذين يتعاملون معهم مباشرة في الوكالة، بأنهم لا يتعاونون أبداً. لا يمكنهم سوى التكهّن بنيات السعودية. فهم يعرفون أن العائلة المالكة الضعيفة سياسياً، تتأثر بأي أخبار عن مساعدتها الأميركيين إذا انكشفت للعلن، وتتخوّف من أن تساعد تلك الدعاية المعارضة الإسلامية ضدّها. فحتّى التحقيقات السرّية حول الإرهاب تتسرب من النظام الأميركي بشكل مؤكّد إلى الصحافة. ربما هذا هو أحد الأسباب التي دفعت السعوديين إلى عدم الالتزام. بالإضافة إلى ذلك، تساءل البعض في «عائلة مانسون»، عن احتمال التزام السعوديين بميثاق بن لادن غير الرسمي الذي قرر فيه مهاجمة الولايات المتحدة بعيداً عن المملكة العربية السعودية. لا شكّ في أن هذا هو تأثير التعاملات السعودية مع بن لادن. وإذا افترضنا أن هذا التفاهم غير موجود، فإن السعوديين يعتبرون القلق من بن لادن مبالغاً فيه، ومجهداً(968).

طوّرت المملكة العربية السعودية، بحلول العام 2000، على غرار الجيش الباكستاني، طرائق متعددة لتحمي نفسها من الضغوط الأميركية حول مواضيع الإرهاب. وعلى غرار النخبة الباكستانية، يروّج اللبراليون في العائلة الملكية السعودية في واشنطن، كونهم الحلفاء الوحيدين لأميركا، ويبذلون ما في وسعهم، لحماية الولايات المتحدة من تداعيات كراهية الإسلاميين لها في بلادهم. وبرهن السعوديون عن ولائهم شهراً تلو الآخر، من خلال إدارة أسعار النفط العالمية وفقاً لمصالح الولايات المتحدة. وتمكّن السعوديون بالتعاون حول المواضيع الرئيسية للنفط والقواعد العسكرية، من متابعة جدول أعمالهم الخاص بالمواضيع الثانوية بالنسبة إلى السياسة الخارجية السعودية: مثل فلسطين، والتقرّب من إيران، وتهديد المتطرفين المسلمين الجدد في السعودية. لقد دفعوا قدماً بمتحدث لبق وأنيق هو عادل الجبير الذي يدافع عن السياسية السعودية، بأسلوب أميركي. في مملكة حيث ينشأ السياسيون من الروابط العائلية، وتُكتسب السلطة من العلاقات الشخصية، ركّزت العائلة الملكية السعودية جهودها كافة على شبكات الأصدقاء على أعلى المستويات في الإدارة الأميركية. وأدّت هذه المقاربة إلى إبعاد النخبة السعودية عن الانتقادات القاسية والمندّدة على مستويات العمل مع البيروقراطيين في الاستخبارات والشرطة الأميركية.

حاول الأميركيون جاهدين معرفة حجم المساعدة السعودية لبن لادن في أفغانستان. يبدو أنها كانت أساسية، حتى في العام 2000. لقد أظهر تدقيق قامت به الحكومة السعودية لبنك التجارة الوطني، الأكبر في المملكة، تدفّق 3 ملايين دولار أميركي على الأقلّ من حساباته إلى بن لادن. كما تؤكد

منظمة الإغاثة الإسلامية الدولية، إحدى أكبر المنظمات الخيرية في المملكة العربية السعودية، أنها أرسلت حوالى 60 مليون دولار إلى حركة طالبان(969).

لكن، عندما حاول رئيس مكافحة الإرهاب في وزارة الدولة، مايكل شيهان، الطلب إلى السفارات الأميركية، في برقية، الضغط على حكوماتها المضيفة لتتخذ تدابير تجاه المجموعات الخيرية الإسلامية، عمد دبلوماسيون آخرون في وزارة الخارجية إلى وقف البرقية، وإبطال فحواها. ادّعوا أن شيهان لا يدرك جميع الأعمال الإسلامية الخيرية المنجزة في العالم(970).

كان هذا النمط يتكرّر في مكان آخر وسط الطبقة البيروقراطية في الأمن القومي. فكلما هاجم خبراء مكافحة الإرهاب المملكة العربية السعودية لعدم تعاونها وخطورتها، كانوا يتلقون التوبيخ من زملائهم في وزارة الخارجية أو البنتاغون، واصفين إياهم بالشرطة
التي لا تتمتع ببعد النظر، ولا تستطيع استيعاب مخاوفها ضمن سياق الشراكة الأوسع بين الولايات المتحدة والسعودية. وفي وصف لتهديد الإرهاب الشامل في العام 2000، لم يذكر قط تقرير وزارة الخارجية الرسمي السنوي، الدُّعاة الوهّابيين السعوديين، وأشار إلى مجرّد «ادّعاءات»، بمساعدة الجمعيات الخيرية الإسلامية الحركات المتهمة بالإرهاب. وأفادت وزارة الخارجية أن العائلة الملكية السعودية «أكّدت التزامها مكافحة الإرهاب»، لكن الوزارة أضافت، «أنه لم يتّضح» ما إذا كانت الأنظمة الحكومية كافة «تطبَّق بالشكل المناسب». وأفاد المحققون الأميركيون لاحقاً بأنهم «لم يجدوا أي دليل على أن الحكومة السعودية، كمؤسسة، أو المسؤولين الكبار في الحكومة السعودية يموّلون القاعدة، وذلك برغم أن القاعدة تجد المملكة أرضاً خصبة لجمع التبرعات»، بسبب «الرؤية المحدودة جدّاً» للأعمال الخيرية الخاصة بشكل جزئي(971).

ازداد الأمير تركي ضعفاً. بعد خلافه مع الملا عمر في العام 1998، حاول تسهيل التعاون مع «السي.آي.إيه.» حول الإرهاب، لكنه لم يقدّم إليها الكثير، أقله في نظر الضباط من الدرجة المتوسطة.

«تزايدت» مخاوف الأمير تركي الخاصة من قدرة بن لادن على ضرب المصالح السعودية بين العامين 1999 و2000، «لأن قيادة حركة طالبان التزمت مع بن لادن بنسبة مئة في المئة. لذلك ستتوافر له حرية التصرّف بشكل أوسع من السابق». «فكّر تركي مرّات عديدة» في وضع عميل داخل دائرة بن لادن في أفغانستان، لكنه لم يتوصّل إلى خطّة منطقية. حاول إعادة العناصر الإسلامية الموقوفة إلى القاعدة كعملاء لحساب الاستخبارات السعودية «لكنه لم ينجح»، بحسب ما يدّعي. لن يقوم بإرسال ضباطه في الاستخبارات في تلك المهمة إلى أفغانستان بالتأكيد. «كانت مهمة خطيرة، ولمَ أنفّذها قط... لن أضحّي بأي من رجالي». استنتج المحققون من الكونغرس لاحقاً أن «السي.آي.إيه.» ووكالات الاستخبارات الأميركية «لم تطوّر المصادر البشرية وتستخدمها بشكل فعّال لتخترق الدائرة الداخلية للقاعدة» و «هذا الفشل، أقله جزئياً، كان نتيجة الاعتماد المفرط على خدمات العلاقات الخارجية»(972).

اعتقد مسعود بحلول العام 2000، أنه استعاد زخمه عسكرياً وسياسياً ضد حركة طالبان. لقد كرّر مفخرة صموده خلال الحرب ضدّ السوفيات في الثمانينيات. ومن خلال إرادته الشخصية القوية، ورفضه مغادرة الأرض الأفغانية، وقدرته على قيادة أتباعه الأوفياء من الطاجيك والمحافظة عليهم، تجاوز أسوأ فترات اليأس والعزلة بعد سقوط كابول بيد طالبان. واليوم، أصبحت لديه خطوط إمدادات سالكة مع إيران، وصفقات تجارية لشراء الذخيرة من روسيا. وقد دعمته الهند بحوالى عشرة ملايين دولار، وأنشأت مستشفى على أراضيه. هذا إلى جانب مساعدة «السي.آي.إيه.» المحدودة. لا يزال أعداؤه أقوياء. ولاسيما فصائل القاعدة الانتحارية، وموجات المتطوعين الباكستانيين المتخرجين في المدارس الدينية إلى أرض المعارك الشمالية، مباشرة. وعلى الرغم من ذلك، لاحظ العديد من الأفغان وجود أدلة كثيرة على ضعف حركة طالبان. وفي شهر شباط/فبراير من العام 2000، هرب من سجن قندهار، القائد المشهور للثورة الأفغانية الأساسية ضدّ الاحتلال السوفياتي في هيرات في العام 1979، إسماعيل خان، ودخل إيران، وأثار ثورات جديدة ضدّ حركة طالبان في غربي أفغانستان. وترافق ذلك مع تنظيم قادة الباشتون التظاهرات ضدّ تجنيد طالبان، وافتتح القادة الباشتون البارزون المنفيون مثل عبد الحقّ والملك ظاهر شاه وحامد قرظاي، مع ممثلي مسعود، تحالفاً سياسياً كبيراً ضد طالبان سيوحّد شمالي أفغانستان وجنوبها(973).

شجّع مسعود تلك المحادثات السياسية، لكنه كان مشكّكاً في المنفيين الذين يرفضون المخاطرة بحيواتهم بالقتال على الأرض الأفغانية. لا يزال هو وعبد الحقّ من المتنافسين. كما أن مساعدي مسعود لا يثقون بالباشتون أمثال قرظاي الذين عاشوا في الباكستان، وقاموا بدعم حركة طالبان في السابق. لكن بمساعدة الوسطاء مثل بيتر تومسون، السفير الأميركي السابق إلى الأفغان المجاهدين، تمكنت المعارضة الباشتونية ضد طالبان من الاتصال بمسعود. كان يرغب بعضهم في مشاركة مسعود في المحادثات السياسية التي ستؤسس حكومة أفغانية موحّدة في المنفى، بمباركة الملك بشكل رمزي، وسيتضرر منها القادة الطالبان الرافضون لهذا الوضع. أراد آخرون مثل حامد قرظاي، الحصول على مساعدة مسعود ليطلقوا الثورة المسلحة ضدّ حركة طالبان في مناطق الباشتون جنوبي أفغانستان.

كان مسعود خلال العام 2000، يعد لحملة عسكرية ضدّ طالبان ستنكشف فصولها على مراحل. كان هدفه الأوّل إعادة بناء قوّة الحلف الشمالي. بقيت حركة طالبان الأضعف في الشمال لافتقارها إلى قاعدة عرقية وقبلية. وأمل مسعود أن يتمكّن إسماعيل خان وعبد الرشيد دوستوم وقادة آخرون معارضون لطالبان، من تأسيس مجموعات صغيرة دائمة من الثوّار في المناطق الجبلية الدفاعية المعزولة. تعتمد استراتيجيته على افتعال معارك صغيرة
في أرجاء شمالي أفغانستان وغربها، حيث تكون حركة طالبان ضعيفة، ومن ثم توسيع تلك المعارك. وبينما تنشأ تلك المجموعات الصغيرة من الثوّار وتستقرّ، سيتوجّه مسعود إليها على رأس ميليشياه الرسمية المسلّحة، ويحاول الانضمام إلى من يصادف منها في طريقه، لاحتلال المدن والبلدات التابعة لطالبان، وتوسيع الأراضي الواقعة تحت سيطرته تدريجاً.

متى يتعزّز موقفه أكثر في الشمال، يخطط مسعود لاتّباع الاستراتيجية نفسها في الأراضي الجنوبية التابعة للباشتون، مساعداً الثوار أمثال قرظاي، لينظموا أنفسهم أوّلاً في مناطق الجبال الدفاعية، ومن ثم يهاجمون المدن والبلدات. أوضح مستشار مسعود في السياسة الخارجية، أن «فكرة القائد مسعود كانت تقضي بأن يرسل قرظاي قادته إلى تلك المناطق المتحررة، حيث يستطيعون الانتفاض». من الممكن أيضاً أن يؤسس قرظاي القواعد في الأراضي الآمنة التابعة للحلف الشمالي مثل البانشير «ويتوسع بعد ذلك». قام مسعود بإرسال عبد الله ومساعدين آخرين للقاء رجال قرظاي لتطوير هذه الأفكار. «اعتقد أن الأمر سيكون صعباً»، وفقاً لعبد الله. «لن تُحَلّ المسألة بين ليلة وضحاها. سيكون صراعاً طويل الأمد». «كان مسعود على ثقة تامّة بأنه سيحرّر الشمال عاجلاً أم آجلاً. وكان سيرسل قوّة إلى الجنوب لخوض صراع طويل»، بحسب ما أفاد أحد مساعديه الكبار في الاستخبارات(974).

يحتاج مسعود إلى طائرات الهليكوبتر وسيارات الجيب والشاحنات لتطوير هذه الخطة جدّياً. يجب إعادة تمويل الثوّار الذين تفصل بينهم مسافات شاسعة. كانت الطرقات القليلة السالكة، تحت سيطرة طالبان. أراد مسعود أن يسيطر بسرعة على الشمال لتفادي المعارك المباشرة، والتسلل إلى خلف خطوط طالبان والقاعدة، والظهور بين أتباع المدافعين في البانشير. لكن تنفيذ ذلك فعلياً، يحتاج إلى تحرك أكبر.

سافر منظّم هذا التحالف الناشئ ضد طالبان إلى واشنطن في صيف العام 2000، لطلب الدعم السياسي الأميركي والمساعدات الفعلية. تولّى إعداد جلسات الاستماع إليه السيناتور سام براونباك، وهو جمهوري من كنساس، كان أحد الأعضاء القليلين المهتمين بأفغانستان. لم يكن أحد يهتم بموضوع أفغانستان. في كل مرة تعد دانييل بليتكا، المسؤولة عن الموضوع الأفغاني في لجنة السيناتورات للشؤون الخارجية، لاجتماع مع قرظاي ومساعدي مسعود، كانت تتذلّل إلى المسؤولين لأنها تخاف عدم حضور أي عضو أو مساعد من الكونغرس، فتبقى وحيدة إلى طاولة المؤتمر، ينهشها الخجل. اعترفت بأن «أحداً لا يهتم بأفغانستان». لا يحضر إلى الاجتماعات النموذجية حول أفغانستان «أكثر من شخصين»(975).

قدّمت وزارة الخارجية دعماً محدوداً إلى المسار السياسي لتحالف مسعود - قرظاي. سافر إندرفيرث إلى روما والتقى الملك المنفي، ظاهر شاه. لقد ساهمت وزارة الخارجية ببضع مئات آلاف الدولارات لتنظيم الاجتماعات، لكن الوزارة لم تكن مستعدة لتقديم أكثر من ذلك. التقى بيكرنغ مبعوث مسعود الأنيق، عبد الله، في واشنطن، وأعرب أمام زملائه عن قلقه من أن يصبح الحلف الشمالي حركة ثورية ليبرالية أخرى، مثل المجلس الوطني العراقي، من الثوار والمنفيين المحترفين(976).

نقلت التقارير الاستخبارية والدبلوماسية الأميركية، ضعف قبضة طالبان خلال العام 2000. في 20 تموز/يوليو، شهد إندرفيرث أمام الكونغرس بأن «شعبية حركة طالبان وشرعيتها بدأتا تنحدران، وأن طالبان استنزفت كل طاقتها». وعلى الرغم من ذلك، لا تزال السياسة الأميركية مكبّلة حول مواجهة طالبان أو الالتزام معها. قال إندرفيرث إن استراتيجية إدارة كلينتون المتطورة، استراتيجية ذات «مصراعَين». فمن جهة، «تضغط» على حركة طالبان من خلال التهديدات والعقوبات الاقتصادية. ومن جهة أخرى، تفكّر في «الدخول في حوار جدّي مع حركة طالبان». وعلى الرغم من العلاقات الجديدة الواعدة التي نشأت بين مسعود والقادة الباشتون المعتدلين، ترفض الولايات المتحدة الانحياز إلى جانب محدّد. وقد شدّد إندرفيرث «على عدم تفسير انتقاده الشديد لطالبان طلباً لاعتراف الولايات المتحدة بالحلف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود»(977).

يتكرّر اليوم فشل الرؤية السياسية نفسها التي اتسمت بها السياسة الأميركية تجاه أفغانستان بين العامين 1988 و1992، في ظلّ إدارتين جمهوريتَين. وكما في العام 2000، رفضت الولايات المتحدة الالتزام بتحالف ناشئ ضعيف بين مسعود والباشتون المعتدلين. وكانت نتيجة هذا الرفض، في المرحلتين، ترك الميدان للأفغان المتطرفين: حكمتيار سابقاً، وحركة طالبان اليوم.

لم يعتبر فرع الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، والمسؤول عن السياسات الأفغانية، حركة المعارضة الناشئة ضدّ طالبان بين الباشتون، قوة جدّية. كانوا يحترمون قرظاي، لكن في الوقت نفسه، يعتبرونه متكبّراً ومتفاخراً. وقد حاولوا، أثناء توظيفهم الباشتون المعارضين لطالبان، إيجاد شخص يمكنهم الاعتماد عليه. كانت «السي.آي.إيه.»، خلال
الثمانينيات، تفضّل جلال الدين حقّاني، لكنه أعلن ولاءه لحركة طالبان. لم يكن أمراء الحرب القدامى أمثال غول آغا شرظاي متحمّسين أو قادرين. وقد جدّد ضباط الوكالة علاقاتهم مع العديد من قادة الباشتون بحثاً عن توظيف أشخاص جدد، لكنهم لم يكونوا متفائلين.

لا يزال العديد من الضباط في فرع الشرق الأدنى، بسبب خبرتهم الماضية وعلاقتهم القديمة بالاستخبارات الباكستانية، لا يثقون أبداً بمسعود على الرغم من تعمّق علاقة مركز مكافحة الإرهاب به. لم يجدوا أي إمكانيات في تحالف مسعود ومؤيدي الملكية الباشتون كأساس لثورة عسكرية. ووفقاً لمسؤول أميركي، شعر سفير الولايات المتحدة إلى باكستان بيل ميلام ورئيس مركز إسلام آباد التابع لـ «السي.آي.إيه.» «بأن مسعود والحلف الشمالي لا يمكنهما حكم أفغانستان أولاً، ولن يتمكنا من هزم حركة طالبان في جميع الأحوال ثانياً». كما استنتجت «السي.آي.إيه.»، وفقاً لغاري شروين، «عدم وجود أي معارضة بين الباشتون. فالباشتون كانوا غير منظّمين، ومنقسمين، كما عمدت حركة طالبان إلى نزع سلاحهم»(978). إلا أن هذه النظرية قامت بوضعها وتشويهها الاستخبارات الباكستانية. وكما في الماضي، من خلال رفض المخاطرة ومشاركة مسعود بقوة أكبر، سمحت الولايات المتحدة للشرطة الباكستانية، بشكل سلبي، بأن تصبح خاصة بها.

خلال صيف العام 2000، عارض ريتشارد كلارك، من مجموعة مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، الذي يضغط عادة لاتّباع أشد التكتيكات ضد بن لادن، تحالفاً عسكرياً عميقاً مع مسعود. ادّعى كلارك أن الحلف الشمالي «لم يكن مجموعة جيدة من الأشخاص، للالتزام معهم. إنهم تجار مخدّرات، ومغتصبو حقوق الناس. إنهم أقلية عرقية. لا يمكن تأليف حكومة وطنية منهم»(979).

تولّى مسعود وقرظاي أمورهما بنفسيهما من دون مساعدة أميركية مهمة. سافر قرظاي خلال ذلك الخريف إلى بانشير مع وفد من الأمراء الباشتون. أملوا أن يبعث اجتماعهم إشارة إلى الأفغان المتردّدين إلى ولادة حلف جديد ضدّ طالبان.

كان قرظاي يخبر مسعود خلال أحاديثهما الخاصة، أنه على استعداد للتسلّل إلى أفغانستان والقتال. لكن مسعود قال له: «لا تدخل أفغانستان، يجب أن تنتقل إلى مكان تستطيع إدارة قاعدتك منه»، كما يذكر قرظاي. كان يوجد العديد من العرب حول قندهار. حذّر مسعود من أن الوقت مبكر لشنّ ثورة في الجنوب. وربما يجب أن يفكر قرظاي في العمل خارج الشمال حتى تتطوّر ثورتهما المشتركة أكثر. وقد وعد قرظاي بدراسة هذا العرض.

قال قرظاي: «لقد كان حكيماً. أما أنا فكنت لجوجاً وطائشاً»(980).

حذّر أصدقاء قرظاي من عدم المجاهرة بمعارضته طالبان، لأن الاستخبارات الباكستانية ستنتقم منه. لا يزال قرظاي في منزله في كيتّا. قام أصدقاؤه بتذكيره بمصير والده بجريمة قتل عائلة عبد الحقّ في بيشاور التي لم ينكشف مرتكبوها بعد. ويذكر أفراسياب خطّاب، وهو رجل من الباشتون وناشط مدافع عن حقوق الإنسان، عرف قرظاي: «لقد ضغطت عليه ليترك البلاد لأنه سيُقتل»(981).

حاولت «السي.آي.إيه.» المحافظة على علاقتها مع مسعود. واجه ضبّاط الوكالة صعوبة وخطورة في الوصول إلى بانشير. وأفضل طريق كان عبر دوشانبي في طاجكستان. من هناك يستقّل فريق «السي.آي.إيه.» إحدى طائرات الهليكوبتر المخصصة للنقل من نوع «مي 17» التي حافظ الحلف الشمالي عليها لتستطيع التحليق. ووصف ضباط «السي.آي.إيه.» ظروف سفرهم في لانغلي عبر البرقيات. ففي إحدى الرحلات، راح الطالبان يطلقون النار من رشاشات «ماغ 21» لإسقاط طائرة مسعود. لو أنهم نجحوا، لاكتشفوا جثث الأميركيين بين الحطام. وحتى في أفضل حالاتها، كانت الطوّافات تترجح وتميل وتمتلئ الحجرة برائحة الوقود. لم تكن الطرقات البرية المؤدية إلى مسعود أفضل حالاً. أميال عديدة من الطرقات الصخرية الوعرة وسط أخاديد الجبال الأفغانية وبين منعطفات الأودية. وعندما أتى فريق من فرع الشرق الأدنى من دوشانبي، وتعطّلت إحدى عرباته، خرج ضابط قديم في «السي.آي.إيه.» ورئيس سابق لمركز في القاهرة، وهزّ كتفيه(982).

تراكمت تلك التقارير في لانغلي على مكتب مدير العمليات جايمس بافيت، المسؤول عن إدارة عمليات التجسّس كلّها في «السي.آي.إيه.». كانت عينا بافيت زرقاوين، وشعره أبيض، وهو ضابط سابق ورئيس مركز خدم في أوروبا خلال الحرب الباردة، قام بجولات إلى شرقي برلين وغربيها. عندما كان شاباً، كان يكتب خطابات لعضو في الكونغرس من الحزب الديموقراطي، ثم خدم في البيت الأبيض كصلة الوصل مع «السي.آي.إيه.»، خلال إدارة بوش الأولى. ومثل تينيت، الذي عيّنه، كان ضابطاً استخبارياً يتمتع بحسّ سياسي. بدأ بافيت يتساءل عن سبب تقبّل ضباط «السي.آي.إيه.» هذه المخاطر الجسدية للتعاون مع مسعود. أكانوا يحصلون على ما يكفي لتبرير الموت أو التعرض لإصابة جراء هذه العلاقة؟
إذا قُتل ضابط من «السي.آي.إيه.» خلال إحدى تلك الرحلات، فبافيت هو من سيزور أرملته ويشرح لها سبب موته. هل من المحتمل أن يساعد مسعود على قتل بن لادن أو إلقاء القبض عليه، أم أنهم يستغلون فرصاً غير ضرورية؟

أثارت أسئلة بافيت أحياناً ردوداً قوية من الضباط العاملين في مركز مكافحة الإرهاب. فرئيس وحدة بن لادن، الذي ركب على متن طائرة الهليكوبتر الخاصة بمسعود، ورئيس العمليات في المركز، الذي يدعوه زملاؤه «هانك»، يدافعان بشدة عن استمرار العلاقات مع البانشير، ويدّعيان أنها تستحق المخاطرة. وينتج من العلاقة مع الحلف الشمالي مئات التقارير الاستخبارية لـ «السي.آي.إيه.» كلّ سنة. ومن المهين التخلّي عن العلاقة مع مسعود بسبب مخاوف أمنية. هذه هي حماسة «عائلة مانسون» التي لا تقبل المساومة، برأي بعض المسؤولين الذين سمعوا الجدل. «كان هناك قلق كبير حيال التورط في أفغانستان لأنها على درجة كبيرة من الخطورة». ادّعى هؤلاء المعارضون لمهمات «السي.آي.إيه.» إلى بانشير «أنهم يرسلون رجالهم إلى الموت»، كما ذكر أحد المسؤولين الأميركيين. اتّخذ كوفير بلايك، الذي يتوسط مع بافيت، وجهة نظر متعاطفة أكثر مع مخاوف بافيت. قال إنه يدعم قلق بافيت بشأن طائرات الهليكوبتر. فضبّاط مكافحة الإرهاب هم من سيموتون إذا سقطت إحدى تلك الطائرات(983).

أرسلت الوكالة فريقاً من الميكانيكيين المختصين بطائرات الهليكوبتر الروسية لحلّ المشكلة. اصطحبهم رجال مسعود إلى مهبط الطائرات في دوشانبي وعرضوا عليهم طائرة «مي 17». أصيب الميكانيكيون بالدهشة: فقد وضع مسعود داخل طائرة «مي 17» المخصصة للنقل، محرّكاً مخصصاً لطائرة «هايد» الحربية. لم تكن ملائمة، كلّ قطعة من صوب، إنها معجزة في الطيران. كان الميكانيكيون الذين أرسلتهم «السي.آي.إيه.» مرعوبين، إلى درجة أنهم لم يريدوا أن يشغّل طيارو مسعود محرك الهليكوبتر. كانوا يخافون أن تتطاير أجزاء الآلة.

استمرّ الجدل في لانغلي حول المخاطر والمكاسب. واستمكر كوفر بلايك في إبداء قلقه علناً حول مسألة السلامة الشخصية، إلا أنه ادّعى أن مركز مكافحة الإرهاب يجب أن يحافظ على علاقته بمسعود، ليستعدوا لليوم الذي يعتبره هو وضباطه، أمراً مؤكداً، يوم تشنّ القاعدة هجوماً كبيراً ضد

الولايات المتحدة. عندئذ، سيغيّر البيت الأبيض سياسته تجاه طالبان، وسيحتاجون إلى مسعود. لم يكن بلايك من النوع الذي يُخفي أفكاره. لقد أخبر زملاءه بأن مهمة «السي.آي.إيه.» في بانشير تبدو على وشك «تهيئة أرض المعركة للحرب العالمية الثالثة».

وقّع تينيت مساومة: ستشتري «السي.آي.إيه.» سرّاً طائرات الهليكوبتر القديمة «مي 17»، وتحتفظ بها في طشقند وأوزباكستان، واستخدام الطيارين التابعين لـ «السي.آي.إيه.» لنقل الفرق السرّية إلى بانشير.

كان موضوع الهليكوبتر إشارة إلى مشكلة كبرى. لكن، في أواخر العام 2000، كانت علاقة «السي.آي.إيه.» بمسعود مضطربة من الجانبين. من الجانب الأميركي، كان أشد المتحمسين لمسعود من مركز مكافحة الإرهاب، ولاسيما وحدة بن لادن. كان الضباط الذين يعملون في الوحدة من خارج مركز إسلام آباد، يعدّون من قبل أصدقائهم «خارجين على المألوف». وبحسب ما يذكر أحد المسؤولين الأميركيين، تعاونت شبكة استخبارات مسعود على تجميع المعلومات والتخطيط، لكن أصبحت نية مسعود عدم شنّ هجوم ضد بن لادن واضحة.

أفاد مركز مكافحة المخدرات في «السي.آي.إيه.» عن استمرار مسعود ورجاله في تهريب كميات كبيرة من الأفيون والهيروويين إلى أوروبا. كما أكّد البريطانيون هذه المعلومات. يستطيعون تصوّر العناوين الرئيسية عن عملياتهم من الآن إذا انكشفت: «السي.آي.إيه.» تدعم تجّار المخدرات الأفغان. «لم يتم الالتزام» بمقاربة مركز مكافحة الإرهاب حول أهمية مسعود استراتيجياً بالنسبة إلى الولايات المتحدة. «لقد ساد جوّ من التوتر والقلق وصرير الأسنان»، بحسب ما يروي مسؤول أميركي مطّلع.

أما مساعدو مسعود، فقد أملوا، من جهتهم، أن يؤدي عملهم مع «السي.آي.إيه.» إلى دعم سياسي أوسع من واشنطن، وربما إلى حصولهم على مساعدة عسكرية، لكنهم لم يلاحظوا أي دليل على هذه المبادرات. وعوضاً عن ذلك، لم يسمعوا منهم سوى الإلحاح المستمر على مهاجمة بن لادن. واعترف أحد مساعدي مسعود «بأنهم لم يفكّروا يوماً في أسر بن لادن حيّاً على طريقة الأفلام الهوليودية. فهذا ليس احتمالاً بالنسبة إلى شعب يعرف الوضع الحقيقي في أفغانستان». بالكاد تستطيع طائرات الهليكوبتر التابعة للحلف الشمالي تأمين الممرات الجبلية. ليس لديهم أي تغطية جوّية. وقوّاتهم لا تتحرّك بسهولة على الأرض. كما أن بن لادن لا يكون محاطاً بحرّاسه الشخصيين فحسب، بل بآلاف من المقاتلين من حركة طالبان. وشبّه أحد مساعدي مسعود تلك المهمة التي كانت تلح عليهم بها «السي.آي.إيه.»، بلعبة الشطرنج، حيث يجب أسر الملك من دون تحريك أي قطعة أخرى على اللوح(984).

يحترم مسعود ورجاله العديد من ضبّاط «السي.آي.إيه.» شخصياً، وخصوصاً الذين تعاملوا معهم، لكن شعورهم بالاستياء من سياسات الوكالة وتكتيكاتها بدأ يزداد أخيراً. لقد سأل رجال مسعود نظراءهم في «السي.آي.إيه.»، كما يذكر ذلك المساعد في الاستخبارات: «هل من سياسة في الولايات المتحدة لمساعدة أفغانستان إذا قام الشعب الأفغاني بمساعدتها على التخلص من الشخص الأخطر المطلوب للعدالة عندها؟». لم تفارقهم قط فكرة تخلّي أميركا عن أفغانستان بعد الانسحاب السوفياتي. لم يكن باستطاعة «السي.آي.إيه.» أن تتكفل بذلك، بل كل ما يستطيعون قوله هو أن إلقاء القبض على بن لادن «سيؤثر حتماً في سياسة واشنطن»، ليبرهنوا عن حسن نيّتهم أمام الحلف الشمالي.

لم يكن هذا كافياً. غالباً ما يتصوّر رجال مسعود، ويتحدثون في ما بينهم، عن تنفيذ عملية مشتركة مع «السي.آي.إيه.» لقتل بن لادن بواسطة قنّاصة، أو انفجار، أو هجوم لفريق من المغاوير، إذا ما كان هذا كفيلاً بسياسة أميركية جديدة تعترف بالحلف الشمالي.

إلا أن «السي.آي.إيه.» لم تكن مخوّلة الالتزام بهذا النوع من التخطيط العسكري، كما أن الوكالة لم تستطع تغيير السياسة الأميركية بالنسبة إلى الحرب الأفغانية أيضاً(985).

# 29
# يتحدّاني لقتله

ازداد في أواخر ربيع العام 2000، استياء ريتشارد كلارك ومجموعة مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، من نوعية التقارير الاستخبارية المتعلقة بمكان وجود بن لادن. كما أصدرت الموارد البشرية الأحادية التابعة لـ «السي.آي.إيه.» وعلاقاتها مع باكستان وأوزبكستان ومسعود، عدداً من الإشاعات في أكثر من اتجاه، لم تشكل أساساً صلباً لشنّ هجمات بالصواريخ، أو تنفيذ عملية خطف. راح كلارك ومساعدوه يبحثون عن أفكار جديدة: أيستطيعون وضع جهاز تتبّع على إحدى طائرات بن لادن ليتمكنوا من تتبّع مسار الطائرة عندما يكون بن لادن على متنها، فيقوموا بإسقاطها من الجوّ؟ أم يضعون برجاً ضخماً للمراقبة مزوّداً كاميرات تجسّس على المدى البعيد بالقرب من الحدود الأفغانية لمراقبة بن لادن؟ راقب كلارك ومساعدوه القوات الخاصة للبنتاغون تدرّب فرقاً بريطانية وفرنسية تخطط لأسر مجرمي حرب فارّين من البلقان. هل يمكن إدخال إحدى تلك الفرق إلى أفغانستان؟

طلب كلارك إلى أحد معارفه القدامى في أوساط الأمن القومي، ويدعى شارل ألان، وكان يدير جميع عمليات جمع المعلومات الاستخبارية في «السي.آي.إيه.»، العمل مع الأدميرال سكوت فراي، رئيس العمليات في فريق الرؤساء المشتركين، على وضع مقاربات جديدة لقضية بن لادن. لم يتوقّف كلارك ومساعدوه عن التأمل في عرض البنتاغون لخطة تشمل الاستعانة بفريق المغاوير الأميركي في أفغانستان. يبدو أن خرائط تتبّع تنقلات بن لادن المفصّلة من قندهار إلى كابول إلى الجبال الأفغانية الشرقية، قدّمت إليهم فرصة للمتابعة قدماً. شعر كلارك ووحدة بن لادن في «السي.آي.إيه.» بأنهما علّقا آمالاً كبيرة على احتمال عودة بن لادن ثانية إلى مزرعة تارناك بالقرب من مطار قندهار. ألم يكن بمقدورهم نشر جواسيس موثوق بهم مزوّدين بأجهزة اتصال آمنة موصولة إلى الصواريخ في الغواصات حول المجمّع؟ ألا يمكن تزويد فرقة من القوّات الخاصة لتقبع في رمال الصحراء بالقرب من تارناك بضعة أسابيع، لتعطي إشارة لبدء الهجوم، متى يظهر بن لادن؟ وفي بحثه عن الأجوبة، توجّه كلارك إلى سلطة الرئيس كلينتون المباشرة. في شباط/فبراير من العام 2000، قدّم مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر مذكرة طويلة إلى كلينتون يصف فيها الجهود المبذولة كافة لأسر بن لادن، أو إعاقته. دوّن كلينتون استياءه من النتائج على الهامش. فصوّر البيروقراطي الذكي كلارك، خربشات الرئيس على نسخات عديدة، واستغلّها في الاجتماعات داخل الوكالة للضغط عليهم(986).

بعد أعوام عديدة، ادّعى العديد من الأشخاص المشتركين في هذه المحادثات السرّية، أنهم أصحاب الفضل في فكرة إرسال طائرات من دون طيّار إلى أفغانستان للتجسس على بن لادن. وعلى الرغم من الارتباك في الادعاءات التنافسية، من الواضح، بشكل عام، أن كلارك وفراي وبرغر وألان

وبلايك وضبّاطاً في وحدة بن لادن التابعة «السي.آي.إيه.»، اشتركوا في التآمر، وسط الصراع المستمر مع أنفسهم، لإطلاق تجربة الطائرات من دون طيّار الـ «بريداتور». ويذكر ألان أن مدراء «السي.آي.إيه.» الكبار كانوا متردّدين في بادئ الأمر، وأنه كان «صراعاً دموياً». أملوا أن يحلّوا المشكلة الأساسية التي لازمت مطاردتهم بن لادن منذ العام 1999، عندما بدأوا بالتقاط صور الأقمار الصناعية يومياً لمخيّم الصيد العربي غربي أفغانستان، من دون أن يتمكّنوا من التسلّح بالثقة الكافية لإطلاق الصواريخ. تستطيع الأقمار الصناعية وصور التعرّف «يو 2»، تحديد الأهداف الثابتة، كالمباني والمنازل ومخيمات التدريب، بدقّة عالية، إلا أنها لا تميّز الأهداف المتحركة أو أوجه الأشخاص. وفي قضية مخيّم الصيد، كانت مجموعة كلينتون لمكافحة الإرهاب مجبرة على الاعتماد على المعلومات التي زوّدهم إياها فريق التتبّع الأفغاني التابع لـ «السي.آي.إيه.». لم يستطيعوا مشاهدة صور حيّة أو أشرطة فيديو لبن لادن للتوصّل إلى توافق داخل مجلس الأمن القومي حول تبرير مخاطر هجوم بالصواريخ أو المتفجرات. لقد أملوا أن تتمكّن الـ «بريداتور»، من تعويض نقص الاستخبارات(987).

اختبرت «السي.آي.إيه.» والبنتاغون الطائرات من دون طيّار منذ بداية الثمانينيات. في الأعوام الأولى في مركز مكافحة الإرهاب، فكّر دوي كلاريدج في استخدام الطائرات للبحث عن رهائن أميركيين في المناطق المنكوبة في بيروت والمناطق الجبلية اللبنانية. وفي بداية العام 1987، طوّرت «السي.آي.إيه.» سرّاً طائرات ورقية مصنّعة في كاليفورنيا مزوّدة كاميرات ضمن مشروع يدعى برنامج «الصقر». أراد كلاريدج أن يشغّل الطائرات من خارج غرفة فندق في بيروت. اشترت الوكالة قاذفات خشبية مميّزة من ألمانيا كي لا تصدر الطائرات صوتاً أثناء طيرانها. كما جرّب تزويدها صواريخ صغيرة يمكن إطلاقها عبر جهاز التحكم عن بعد، لكن الصواريخ التي تم اختيارها لم تكن دقيقة قط(988). قام مختبر البنتاغون للتقنيات الأمنية التجريبية ووكالة الدفاع لمشاريع البحث المتقدّمة في الفترة نفسها، بالتعاون مع «السي.آي.إيه.» أحياناً، بتمويل نماذج طائرات من دون طيّار، تتمتع بقدرة على التحمّل، تدعى «آمبر». إنها عبارة عن طائرة خفيفة جداً (815 رطلاً) من دون طيّار، تشبه الحشرات الطائرة، اخترعها أبراهام كاريم، رئيس المصممين السابق في القوات الجوّية الإسرائيلية. كان كاريم مهندساً نشيطاً يتمتع بخيال خصب، هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية في أواخر السبعينيات، وبدأ بشركة طيران تجريبية في كاليفورنيا. تطير نماذج «آمبر» التي اخترعها، مسافة أطول وأفضل من أي طائرة أخرى من دون طيّار حتى اليوم. إلا أن شركة كاريم أفلست وسط الصراعات البيروقراطية في واشنطن. كان البنتاغون يستثمر طائرات من دون طيّار واسعة وسريعة تشبه الطائرات الحربية. كانت غالية الثمن، ومعقّدة تقنياً، وغير مرغوب فيها سياسياً. كانت «السي.آي.إيه.» تفضّل الطائرات الأصغر والأخفّ والأرخص التي تستطيع التقاط الصور والتنصت على الاتصالات الهاتفية، عندما لا تستطيع الأقمار الصناعية أو طائرات التجسّس التي تحلق على ارتفاع عال توفير التغطية الكافية. كان تمويل اختباراتها أسهل، إلا أن العديد في البنتاغون والكونغرس رفضوا فكرة النماذج الصغرى، واعتبروها كالألعاب، لا قيمة لها(989).

لحقت طائرة «بريداتور» بحياة البرمجة في بداية التسعينيات كولد غير شرعي لطائرة «آمبر». اشترى متعهد كبير موجودات كاريم، بالإضافة إلى تصاميمه، كما سعت البحرية الأميركية إلى الحصول على التمويل لشراء المزيد من النماذج. وقام مدير عمليات التجسس في «السي.آي.إيه.» في بداية إدارة كلينتون، توماس تويتن، بمراجعة تقارير الوكالة السرّية المتعلقة بالطائرات من دون طيّار، وكانت كلّها في مرحلة التجربة. وعندما عرض الخيارات على مدير «السي.آي.إيه.» جايمس ولسي، شعّت عينا الأخير. التقى ولسي أبراهام كاريم في إسرائيل، وكان يعرف عن طائرة «آمبر». قال ولسي لتويتن «إنه يعرف الشخص المناسب». سافر الاثنان إلى كاليفورنيا، ولحقا به إلى متعهد الدفاع الذي أنقذه. كانوا يبيعون النماذج إلى تركيا. أعلن ولسي أنه سيشتري خمساً لمصلحة «السي.آي.إيه.»، لكن المشكلة، بحسب ما يروي تويتن، أن طائرة الـ «بريداتور» الجديدة، الطويلة والغريبة، كانت تُصدر صوتاً «كآلة جزّ الأعشاب في السماء». طلب مدراء «السي.آي.إيه.» إلى كاريم خفض صوت المحرّك، ووافق على ذلك(990).

منذ بداية عمليات شراء «السي.آي.إيه.»، تطلّبت عمليات «بريداتور» تعاوناً وثيقاً بين الوكالة والبنتاغون. لم يكن الأمر سهلاً قط. احتجّت القوّات الجوّية عندما علمت أن ولسي اشترى طائرات الـ «بريداتور» سرّاً. ثار غضب «السي.آي.إيه.» أثناء ترتيب القوانين المالية والعملية مع القوّات الجوية. في بعض الأحيان، كان يبدو أن مخترعي طائرة الـ «بريداتور» يتمتعون بقدرة إثارة الإضرابات البيروقراطية داخل قاعات المؤتمرات في فرجينيا. وفي النهاية، كلّفت «السي.آي.إيه.» فرقاً من القوات الجوية المدرّبة من قبل «سرب الاستطلاع الحادي عشر» في قاعدة «نيلليس» الجوّية في نيفادا، لتشغيل طائرات الوكالة السرّية من دون طيّار. بدأ ضبّاط «السي.آي.إيه.» يلمسون أولى النتائج العملية لمحاولات استخدام الآلات الجوّية في جمع المعلومات: أوّلاً في البوسنة، وثانياً في كوسوفو(991).

كان ينبغي أن تقوم طائرات الـ «بريداتور» التي أُرسلت سراً إلى البوسنة في العام 1995، بالتمركز فوق الهدف مدة 24 ساعة. كانت تستطيع الطيران من قاعدتها الأساسية على مسافة خمسمئة ميل على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم. كانت بطيئة جداً، ومعدّل سرعتها سبعون ميلاً في الساعة، كما أنها كانت خفيفة إلى درجة أنها تتمايل مع الرياح. يجلس «طيّار» الـ «بريداتور» مع عدّة «معدات متخصّصة» داخل شاحنة مغلقة لا تحمل أي علامات بالقرب من مدرج قاعدة عمل الطائرات (في عمليات البلقان، أرسلت «السي.آي.إيه.» طائرات الـ «بريداتور» سرّاً من هنغاريا وألبانيا). وظّفت القوات الجوّية في البداية طيّارين منعوا من القيام برحلات جوّية لأسباب طبّية. كانت الشاحنة محاطة بالمولّدات والصحون اللاقطة. وفي داخلها، يمسك الطّيار بمقود أمام شاشة فيديو تعكس كلّ ما تلتقطه الـ «بريداتور». تتحكّم إشارات الراديو في مسار إقلاع الطائرة وانطلاقها المبدئي، ثم تتحوّل الاتصالات إلى شبكة الأقمار الصناعية العسكرية المتّصلة بطيّار الشاحنة. تحمل مقدّمة الـ «بريداتور» كاميرا متحرّكة من نوع «سوني» تشبه تلك المستخدمة في طائرات هليكوبتر المحطات التلفزيونية التي تنقل ازدحام السير. كما يمكن تزويدها راداراً للتصوير وأجهزة تنصّت إلكترونية(992).

في الرحلات الأولى إلى البوسنة، وصلت «السي.آي.إيه.» مركز لانغلي بطيّار الشاحنة. وفي إحدى المرات، أرسل ولسي رسالة الكترونية إلى طيّار أثناء مشاهدته صور فيديو تنقل إلى فيرجينيا. قال له ولسي: «في أي اتجاه موستار؟ أهذا هو النهر؟»، فأجابه: «نعم، أتريد أن ترى الجسر؟ هل هذا رجل يعبر الجسر؟ لنقترب منه أكثر، يبدو أنه يعتمر قبّعة كبيرة مضحكة»(993).

واجهتهم أخطاء كبيرة. بذل الطيّارون ما في وسعهم ليتعلموا كيف يطيّرون هكذا: طائرة خفيفة وغريبة عبر صور شاشات التلفزيون من الأقمار الصناعية. عندما يمسكون المقود لا تستجيب الطائرة إلا بعد عدة ثوان. كما أنهم لم يمتلكوا نظاماً مناسباً لإزالة الجليد عن أجنحة الـ «بريداتور». ويمكن أن تكشف وتستهدف بمضاد للطائرات. بعد البوسنة، دار جدل واسع حول المهمة الأنسب للـ «بريداتور». تم تشجيع فريق استخدام الطائرات من دون طيّار لجمع المعلومات الاستخبارية التقليدية: مثل التقاط الصور والتأكد من تقارير العملاء في الميدان. لكن، اعتبر آخرون أن الـ «بريداتور» يمكن أن تشكّل سلاحاً قوياً إذا تم إدماجها في ما يدعوه الضباط العسكريون «سلسلة القتل». سعت القوات الجوية منذ زمن بعيد إلى تطوير أنظمة أسلحة تستطيع تعقّب أهداف متحركة، مثل السيارات والشاحنات ومهاجمتها بدقّة. وتستطيع مجسّاتها الهوائية الجديدة ونظام التحكم فيها، المعروف بـ «جي. ستارز»، أن تتتبّع الآلية المتحركة في ميدان المعركة، وتحدّد مثلاً إذا كانت الآلية تسير على الدواليب أو مسيّر الدبابات. لكن نظام «جي. ستارز» لا يستطيع التعرف إلى معالم الوجه البشري أو تحديد رقم لوحة السيارة. لكن كاميرات الـ «بريدايور» تستطيع أن تحقق ذلك إذا تم وصل العدسة المتحركة في الطائرة في الوقت عينه إلى شبكة قيادة القوّات الجوية الأوسع. في هذه الحالة، يمكن أن تحوم الـ «بريداتور» فوق آلية متحركة، وترسل صوراً بأرقام اللائحة إلى ضباط «السي.آي.إيه.» أو قيادة البنتاغون في فرجينيا، وتحدد الآلية بأشعة الليزر، وتثبّت الأشعة على الهدف، بينما تنقضّ متفجرة من الذخائر المتصلة بالحاسوب على الشاحنة مباشرة، أو يمكن تجهيز الـ «بريداتور» نفسها بسلاح جوّ - أرض للتحكم عن بعد، إذا تمت معالجة مشكلة الوزن وسرعة الصاروخ. في بداية العام 1995، أجرت القوات البحرية اختبارات لتصل كاميرات الـ «بريداتور» المتحركة بالصواريخ الموجّهة على متن غواصات تقبع بعيداً عن الشاطئ. وخلال صراع كوسوفو في العام 1999، قامت القوات الجوية بتجهيز الـ «بريداتور» سرّاً بكاشف لايزر ووصلها بالأقمار الصناعية التي ستسمح بتنفيذ عمليات تفجير موجّهة من الطائرات من دون طيّار للمرّة الأولى، برغم أن هذه العمليات لم تنفّذ قط(994).

كل هذه القصة حول هدف الـ «بريداتور» وقيمتها والأسئلة التي بقيت من دون أجوبة، كانت موضوع الجدل وسط ضباط «السي.آي.إيه.» ومساعدي البيت الأبيض والبنتاغون عند تفكيرهم في استخدام الطائرات من دون طيّار لمطاردة بن لادن في صيف العام 2000. يُعتبر ثمن الـ «بريداتور» بخساً مقارنة بمعايير برامج أسلحة البنتاغون المسرفة. لكن ثلاثة ملايين دولار ثمناً للطائرة الواحدة، ستؤثر في ميزانية «السي.آي.إيه.» المحدودة. قلق المشككون أمثال توماس

بيكرنغ، من حكم المجتمع الاستخباري الداخلي حول «حلّ تقني قريب المدى، أكثر من التعزيزات البعيدة المدى»، للمصادر الموثوق بها والعملاء المجنّدين. خشي جيم بافيت أن تكون تلك الأموال المخصصة للـ «بريداتور» على حساب الأموال المخصصة للاستخبارات البشرية. أجابه ريتشارد كلارك ببرودته المعهودة: «إن برنامج الاستخبارات البشرية القيّم لم يأت بنتيجة على مدى أعوام. أريد أن أجرب أمراً جديداً». وقف كوفر بلايك من مركز مكافحة الإرهاب إلى جانب كلارك، محاولاً في الوقت نفسه عدم إهانة بافيت. وقام كلارك أخيراً، بعد استيائه من القلق والجدل المستمرين، بتكليف ساندي بيرغر رسمياً، ليأمر بإرسال الـ «بريداتور» إلى أفغانستان. ففعل بيرغر(995).

تعمّق جدلهم حول نطاق مهمة الـ «بريداتور». كان كلارك مأخوذاً بفكرة وصل كاميرات الـ «بريداتور» بالصواريخ الموجّهة على متن الغواصات المتوقفة سرّاً في بحر الخليج. وطالب بعملية مسلّحة في أفغانستان، وليس بالتقاط الصور فحسب. كان بيرغر مهتماً بالعرض، لكن ضبّاط «السي.آي.إيه.» كانوا مشككين في اقتراح الغواصات. هناك العديد من الأمور المبهمة. ستستغرق الذخيرة وقتاً طويلاً لتصل إلى الهدف، حتى لو تمكنت الـ «بريداتور» من رؤية بن لادن. يذكر مسؤول من البيت الأبيض «أن الوكالة كانت واضحة جداً. أرادت تنفيذ المرحلة الأولى كفترة تجربة. ولم ترغب في وصلها بالغواصات»، «أو أي خطة تفجير أخرى. وأشار هذا المسؤول إلى «تشكيك» «السي.آي.إيه.» «في الحصول على هذه الدرجة من الوضوح» من كاميرات الطائرات من دون طيّار لإطلاق هجوم بالصواريخ(996).

دافع بلايك عن فكرة تسليح الطائرة نفسها بصواريخ جوّ - أرض لإطلاقها فوراً إذا تمكّنت من تحديد مكان بن لادن. لكن الحقوقيين والمستشارين القانونيين في وزارة الخارجية، اعترضوا على هذه الفكرة، مدّعين أن الطائرة المسلّحة قد تخرق معاهدة القوات النووية المتوسطة، التي تمنع الولايات المتحدة الأميركية من حيازة صواريخ موجّهة جديدة طويلة المدى. هل تشبه طائرة الـ «بريداتور» الصواريخ الموجّهة؟ وبينما يتجادل المستشارون القانونيون، اقترح بلايك ومركز مكافحة الإرهاب، المكلفان رسمياً المهمة الجديدة التي أمر بها البيت الأبيض، نوعاً مختلفاً من التجارب(997).

في البلقان والعراق، كان طيّارو الـ «بريداتور» ومعداتهم (شاحنة الطيّار والصحون اللاقطة والمولّدات)، يتوقفون في القواعد العسكرية في بلدان صديقة مجاورة. كانت العمليات خطيرة وسرّية، إلا أن الحكومات المضيفة لم تكن خائفة من انكشاف أمرها. كان هنا الوضع مختلفاً. بينما كانت الخطة تتطور في بداية صيف العام 2000، سمحت أوزباكستان بإطلاق رحلات الـ «بريداتور» السرّية من إحدى قواعدها العسكرية لمدة محدّدة، إلا أن حكومة إسلام كاريموف شدّدت على المحافظة على سرّيتها. كان ضباط الوكالة يخافون أن تثير الشاحنات والصحون اللاقطة اللازمة لقيادة الـ «بريداتور»، انتباه الجنود والضباط الأوزباكستانيين. كان التعاون بين «السي.آي.إيه.» وأوزباكستان سرّياً، إلى درجة أن بعض الأشخاص داخل حكومة

كاريموف لا يعرفون بأمره حتى اليوم(998). اقترحت «السي.آي.إيه.» اختبار مرحلة جديدة في عمليات الـ «بريداتور» لمعالجة هذه المشكلة. أصبح من الممكن التحكم في الطائرة من دون طيار عن بعد من مسافات طويلة بفضل التحسينات في أنظمة الاتصالات، أقله نظرياً. لم يعد ضرورياً استخدام الإشارات القصيرة المدى خلال إقلاع الـ «بريداتور» وانطلاقها. ويمكن التحكم في الرحلة كلها بواسطة الأقمار الصناعية من أي مركز قيادة مزوّد بالأجهزة المناسبة. اقترحت «السي.آي.إيه.» اختبار أول عملية تحليق للـ «بريداتور» فوق أفغانستان بالتحكم فيها عن بعد، وقيادتها من لانغلي. سيتم وضع الطائرات نفسها وتصليحها في مستودعات داخل مدارج أوزباكستانية بعيدة، لكن سيتم التحكم فيها بواسطة مقود مثبّت على طاولة داخل مركز عمليات «السي.آي.إيه.» في فرجينيا.

وافق الرئيس كلينتون على «إثبات مفهوم محدود لمهمة إطلاق الـ «بريداتور» فوق أفغانستان»، في شهر أيلول/سبتمبر. كان المفهوم الذي سيتم إثباته، بحسب ما يروي مسؤول القوات الجوية ويت بيترز، هو قدرة «السي.آي.إيه.» على جعل الـ «بريداتور» تطير من «مدارج قاحلة وصعبة يتم التحكم فيها بواسطة الأقمار الصناعية من الأرض من مسافة آلاف الأميال». ستكمل «السي.آي.إيه.» المهمة من دون طياريها وضباطها القياديين الذين لم يغادروا قط ضواحي فرجينيا(999).

قامت وحدة بن لادن بوضع الخرائط والخطط لرحلات 15 طائرة «بريداتور»، مدةّ كل رحلة 24 ساعة فقط. قرر ضباط الوحدة التحليق فوق أماكن عرفوا سابقاً أن بن لادن كان يتردّد إليها، ولاسيما شرقي أفغانستان وجنوبها. كما حرّكوا شبكة عملائهم على الأرض. سعوا إلى الحصول على تقارير مفصّلة عن تحرّكات بن لادن أملاً في التحكم في طائرة الـ «بريداتور» في الجوّ وتصويره. ودعا كلارك البيت الأبيض إلى الاستعداد لمهاجمة بن لادن إذا عثرت عليه الـ «بريداتور». بينما خشي بيرغر أنهم سيحتاجون إلى أكثر من مجرد مكان بن لادن، وإلى نشرة موثوق بها خطته وتحركاته خلال أي هجوم بالصواريخ الموجّهة.

أظهرت عمليات سابقة في البلقان والعراق أن الـ «بريداتور» تعمل بفعالية أكثر خلال النهار. يمكن تزويدها معدات للرؤية الليلية، لكن تحليل الصور سيكون أصعب. تبدأ ساعات النهار في أفغانستان بتوقيت حلول منتصف ساعات الليل في فرجينيا. وتُظهر شاشة فيديو ضخمة وسط مركز عمليات تبديل رحلات التحليق التابع لـ «السي.آي.إيه.». تجمّع طيارو القوات الجوية وضباط «السي.آي.إيه.» من مركز مكافحة الإرهاب ووحدة بن لادن في الغرفة المظلمة في مجمّع لانغلي الكثيف الأشجار من منتصف الليل حتى الفجر، يراقبون صور أفغانستان المخيفة المنعكسة أمامهم.

بعد منتصف الليل يخرج ريتشارد كلارك ويتحقق من بوابات الأمن لـ «السي.آي.إيه.» ويتوقّف في مواقف السيّارات المظلمة ويجول في الأروقة الخالية إلى مركز الطيران. يصل زوّار

فضوليون أيضاً في هذه الأوقات الغريبة. كانوا أشبه بمنظمة سرّية لمدمني ألعاب الفيديو، وممثّلين في سيناريو مستقبلي، يدرك جميعهم دروه في ابتكار نوع من التجسس التقني يمكن أن تروجه هوليوود. يروي أحد المشتركين عما كان يدور بينهم: «انظر إلى تلك الشاحنة! إنها تشبه الشاحنات التي يستخدمها! اتبعها!». «كان الأمر مشابهاً لمسلسلات «أو.جي.» التجسسية مع طائرة هيليكوبتر تتتبّع سيارة في الطريق السريع». قام كلارك بإخبار بيرغر أن الصور كانت «مذهلة». فأجابه بيرغر بحماسة مشوبة ببعض الحذر: «للأسف، الضوء في آخر النفق هو بداية نفق جديد»(1000).

كانت وحدات طالبان الدفاعية الجوّية تراقب الرحلات عبر الحدود الأوزباكستانية. حلّقت في إحدى الليالي طائرة من دون طيار تابعة لـ «السي.آي.إيه.» فوق مهبط لطالبان حيث كانت تستعد طائرة «ميغ» مقاتلة للانطلاق في مهمة تجسس. استطاعت غرفة العمليات في لانغلي رؤية ضوء الكرة النارية تنطلق من ذيل «ميغ» بينما دوى صوتها على المدرج. تمكّنت أجهزة تنصت الـ «بريداتور» من التقاط دردشة بين طيّار الـ «ميغ» وبرج المراقبة. كان الطيّار يشتكي لقائده: «لا أستطيع إيجادها! لا يوجد شيء هنا!». وفجأة، التقطت كاميرات الـ «بريداتور» صوراً لطائرة «ميغ» تتوجّه نحوها بسرعة كبيرة. ويروي أحد المسؤولين الأميركيين الذي كان يراقب من لانغلي، «أن نصف الأشخاص الموجودين في الغرفة حجبوا أنظارهم عندما كانت تطير الـ ميغ» بقربهم». لم يتمكّن طيّار الـ «ميغ» من رصد الطائرة من
دون طيّار وعاد إلى قاعدته. غرق المشاهدون في لانغلي في كراسيهم تعبيراً عن ارتياحهم ودهشتهم(1001).

أثناء التحليق فوق مزرعة تارناك خارج قندهار، التقطت الـ «بريداتور» صوراً لرجل بدا أنه يشبه بن لادن. اعتقد أحد العملاء من قندهار أن الرجل السعودي كان يزور إحدى زوجاته. كشفت الصور عن رجل طويل ذي لباس عربي محاط بحرّاس شخصيين مسلّحين، يخرج من مبنى حدّدته «السي.آي.إيه.» سابقاً كمركز بن لادن، إلى مسجد صغير من الطين في الجهة المقابلة. لا يمكن الجزم أبداً أن الرجل هو بن لادن، لكن الأدلة كانت قوية. في مهمتين أخريين، التقطت الـ «بريداتور» صوراً لرجل استنتجت «السي.آي.إيه.» لاحقاً أنه قد يكون بن لادن، لكن ضباط «السي.آي.إيه.» لم يكونوا متأكدين بقدر ما كانوا في حالة مزرعة تارناك(1002).

استمرّ الجدل في ما بينهم حول المهمة حتى بعد إطلاق رحلات الـ «بريداتور». أحد المواضيع كان الأمن والسرية. قلقت «السي.آي.إيه.» بشأن افتضاح أمر أوزبكستان إذا تمكنت رادارات حركة طالبان من كشف الطائرات. كانوا يرفضون المخاطرة بعملهم مع فريق المغاوير الأوزباكستاني. كما أن إسقاط أي طائرة «بريداتور» سيشكّل حملة إعلامية لحركة طالبان. كانت الطائرات مزوّدة أجهزة حسّاسة، معظمها معدات الكترونية متطورة موجودة في لوحة مفاتيح التحكم فيها. وبرغم ذلك، يرفض الجميع أن يتم الإمساك بالـ «بريداتور»، فقد شعر ضباط «السي.آي.إيه.» أحياناً بأن البنتاغون يغالي في تصوير قدرة الطائرات من دون طيّار على تضليل رادارات العدو والمراوغة لتجنب إطلاق النار من الأرض. ويقلّل ريتشارد كلارك من أهمية

القوات الجوية لحركة طالبان: فالطيّارون لم يطلقوا قط أي صواريخ جوّ - جوّ من طائرات الـ «ميغ»، وإن حاولوا فربما سيفجّرون أنفسهم برأيه. كان يلحّ على «السي.آي.إيه.» لتتوقف عن القلق من حوادث الـ «بريداتور». كان يقول بسخرية: «إن الطيّار سيعود آمناً إلى القاعدة»(1003).

أما صراعاتهم حوال الأموال، فكانت أكثر حدّة. عندما تحطّمت إحدى طائرات الـ «بريداتور» أثناء الإقلاع، حاولت القوات الجوية تسجيل كلفة تغييرها على حساب «السي.آي.إيه.». اعترض تينيت وبافيت وبلايك. لم يخصصّوا المال لطائرة من دون طيّار محطّمة بثمن 3 ملايين دولار. كبرت المشكلة، وردّ عليهم البنتاغون. لقد شعر ويت بيتر في القوات الجوّية بأن مدراء «السي.آي.إيه.» «يريدون إدارة كلّ شيء من دون دفع أي كلفة». «يريدون الحصول على اللعب الجميلة التي تفعل أموراً مهمة ليكسبوا الفضل... وبالتأكيد، لا يريدون الدفع في المقابل». شعر ضباط «السي.آي.إيه.» من جهتهم، بأنهم يدفعون البنتاغون إلى الإبداع. أما القوات الجوية فستدفن تطوّر الـ «بريداتور» في برامج اختبار مكثّفة توسّع المواصفات الخطّية وتصنع العقود. لقد شعر ضباط الوكالة بأن «السي.آي.إيه.» يمكن أن تتحرّك بشكل أسرع. واعتقدوا أن القوات الجوية ملزمة بدفع تكاليف العمليات الأفغانية، لأن البنتاغون كان يتعرّف أكثر إلى قدرات الطائرة من دون طيّار في خلال شهر واحد أفضل مما يستفيد من التجارب في نيفادا على مدى نصف عام. كانت المذكرات والرسائل الالكترونية تتنقّل بين فرجينيا، ومن البيت الأبيض وإليه، ولا تزال مشكلة التمويل من دون حلّ(1004).

منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، تجمّعت الرياح العاتية شمالي أفغانستان. فواجه محرّك الـ «بريداتور» الضعيف مشكلة في دفع الطائرة عبر الجبال خلال بعض الرحلات. استمرّت الـ «بريداتور» بالتراجع إلى الخلف في اتجاه أوزباكستان. انخفضت درجات الحرارة، وأصبح تشكّل الجليد على أجنحة الطائرة مشكلة حقيقية. كانوا يعرفون من تجاربهم في البلقان، أن الـ «بريداتور» لا تطير بسهولة أثناء الطقس العاصف. أوقف البيت الأبيض ومركز مكافحة الإرهاب العملية. لطالما اعتبرت المهمة الأفغانية تجربة محدّدة(1005).

أمل بلايك وآخرون في الـ «سي.أي.آيه.»، خلال فرصة الشتاء، أن يحلّ المحامون مشاكل المعاهدة التي كانت تؤخّر اختبار نموذج مسلّح من الـ «بريداتور». وبعد رؤية صور بن لادن متوجّهاً إلى المسجد في تارناك، أصبح بلايك من المدافعين عن تزويد الطائرة بصواريخ. هذه هي الفرصة التي انتظروها أكثر من سنتين: تحديد هدفهم من دون تأخير أو تشكيك في المصادر البشرية.

في البيت الأبيض والبنتاغون أيضاً، أراد الأشخاص المشتركون أن تتمكن الـ «بريداتور» من التحليق مجدّداً في الربيع إذا توافرت الأموال اللازمة.

لقد حملتهم صور الطائرة مرة ثانية إلى مزرعة تارناك في الصحراء الواسعة خارج قندهار. في العام 1998، كانت تارناك أوّل هدف لخطة «السي.آي.إيه.» السرّية الأولى لخطف بن لادن. وبعد مرور سنتين، لا تزال الولايات المتحدة، التي أصبحت قوة عالمية من دون منازع، مسلّحة بجيش أكبر من كلّ أعدائها مجتمعين، وبمجموعة حاملات طائرات وصواريخ «بي. 2» قادرة على ضرب أي هدف في العالم خلال أربع وعشرين ساعة أو أقلّ، تجد نفسها عاجزة أمام هذا المجمّع الطيني الممتد على بضع مئات من الهكتارات؛ هذا الحصن الذي لم يوقف الفرسان الباشتون قبل قرون عديدة. يقع مبنى المكاتب المصدع في تارناك، الذي كان في ما مضى مكاتب زراعية إضافية لحكومة أفغانستان الشيوعية السابقة، وسط سهل فسيح يمكن خرقه من كلّ الجهات. لا توجد جبال لأميال عديدة، ولا جدران صخرية أو مغاور وأي عوامل دفاعية طبيعية من أي نوع. وبرغم ذلك، سببت مزرعة تارناك الارتباك لكلينتون ولأقرب المستشارين في الأمن القومي له. لقد كانت المشكلة تتعلق بالسياسة الخارجية بشكل كبير: وصف مساعدو مسعود الوضع لاحقاً، كإصرار الأميركيين على أسر الملك من دون إزعاج البيدق. لقد حوّل كلينتون وإدارته مزرعة تارناك إلى هدف معقّد من خلال رفضهما إعلان حركة طالبان عدوّاً لهما. لكن، بتعبير آخر، كانت المزرعة رمزاً للمشكلة السياسية - العسكرية التي أصبحت تعرف اليوم في واشنطن، بـ «الصراع العسكري غير المتناسق»، الذي يصف الفوائد التي يستغلّها الإرهابيون والثوار ضد قوة خارقة، نظراً إلى صغر حجمهم وتفرّقهم واختلاطهم بالسكان المدنيين.

أمضى فريق الاستخبارات والأمن القومي في إدارة كلينتون ساعات عديدة في دراسة صور الأقمار الصناعية لأسطح مزرعة تارناك المسطحة والمباني المؤلفة من طابق واحد، المجمّعة في عدة قرى صغيرة خلف جدران المجمّع. راح المسؤولون وفريق الرؤساء المشتركين في البنتاغون، يدرسون معادلات العلم المثلّث، ويجرون الحسابات المدمّرة لتحديد المبنى، الذي لا يعدّ أكثر من سقيفة بالمفهوم الأميركي، والذي سينهار على سكانه، إذا تم إطلاق صاروخ أو اثنين على المبنى الذي ينام فيه بن لادن. كان المسجد أحد تلك المباني القريبة، والآخر كان عيادة طبّية. تحظر العقيدة الأميركية ضرب مثل هذه الأهداف. وهذه هي الغاية من حسابات البنتاغون: تحديد الذخيرة الكفيلة بتدمير المنزل الذي يقيم فيه بن لادن في تارناك من دون إلحاق الكثير من الأضرار بالمنازل المجاورة. تملك الولايات المتحدة وحدها، من بين القوات العسكرية في العالم، الإجابة عن تلك الأسئلة. لقد كانت أوّل قوّة في تاريخ العالم أيضاً يتجادل قادتها يومياً في قاعات المؤتمرات حول الفروق الحسابية وقدرتها التدميرية(1006).

هناك مسألة الأطفال. كانت تعيش عائلات في تارناك. قدّرت «السي.آي.إيه.» وجود حوالى مئة امرأة وطفل بين عائلة بن لادن وأعضاء عائلات بعض مساعديه الكبار. كانت توجد حبال للغسيل، وأظهرت تقارير العملاء وصور الأقمار الصناعية بوضوح، وجود أرجوحة خشبية قرب أحد المباني السكنية. لم يلتقطوا أي صور لأولاد يلعبون على الأرجوحة، لكن من المفترض وجودهم في مكان قريب(1007).

لقد تركت الأرجوحة تأثيراً في كلينتون. أدرك الرئيس أن صراعه مع بن لادن متعدد الأبعاد. كانت الحرب الدعائية مهمة. لقد شعر كلينتون بالنسبة إلى الأطفال والنساء في تارناك «كمن يتحدّاه لقتله». لقد تعلم من تجاربه أن «لا يهتم بدقّة متفجراته أو أسلحته، لأن إطلاقها سيودي بحياة الأبرياء»(1008).

أصبحت تارناك محطّ أنظارهم لمراقبة عدوّهم المراوغ. قامت «السي.آي.إيه.» بنسخ صور بن لادن بردائه الفضفاض التي التقطتها الـ «بريداتور» في مزرعة تارناك على أشرطة فيديو. كانت دليلاً مذهلاً ومقنعاً وواضحاً أيضاً. أحضر تينيت الشريط إلى البيت الأبيض وعرضه على بيرغر وكلينتون. يبدوأن قدرة الشريط المخيفة حوّلت تينيت إلى أحد المدافعين عن قضية الـ «بريداتور». كان يحمل شريط الفيديو إلى الجلسات السرية في الكابيتول هيل ويتكلم بحماسة على إنجازات الطائرة من دون طيّار. وكانوا يقتربون من هدفهم. وكان كلينتون متحمساً أيضاً لتجربة الـ «بريداتور»، إلا أنه ما زال مهتماً بإرسال فريق من القوات الخاصة إلى أفغانستان لشن هجوم ضدّ بن لادن. أشار كلينتون لاحقاً إلى أن البنتاغون و «السي.آي.إيه.» كانا «مقتنعين بشدة» بأن تلك العمليات ستفشل من دون معلومات دقيقة وتوقيت مناسب. لقد كانت صور الـ «بريداتور» مثيرة للاهتمام، لكنها غير كافية(1009).

وبينما كانت طائرات الـ «بريداتور» تحلّق فوقه، كان بن لادن يدفع حربه على جبهتين ضدّ مسعود والولايات المتحدة.

انضمّ في شهر أيلول/سبتمبر، المتطوعون الجهاديون في الكتيبة 55 في القاعدة، المتمركزة في ريشيكور، وهو مخيم عسكري أفغاني سابق في ضواحي كابول الجنوبية، إلى طالبان في أواخر الصيف، لمهاجمة الحلف الشمالي. قدّرت «السي.آي.إيه.» ميزانية القاعدة السنوية بحوالى 30 مليون دولار يخصص معظمها لحركة طالبان والعمليات الحربية في أفغانستان. انضمّ آلاف الطلاب من «المدرسة» الباكستانية بمساعدة الاستخبارات الباكستانية، إلى قوات طالبان في ضواحي تالوكان، المدينة الشمالية المتداعية التي أصبحت اليوم مقرّ مسعود. لقد قاموا برشوة قادة الحلف الشمالي ليغيّروا ولاءهم. وفي
استخدام المدفعية الدقيقة، التي وجدها بعض المحللين الأميركيين، إشارة واضحة إلى مشاركة ضباط من الجيش الباكستاني، فجّروا المدينة وأرسلوا مسعود ورجاله مترنمين إلى مقاطعة باداخشان. خسر مسعود خطوط إمداداته البرية إلى طاجكستان فجأة. قد تستغرق طالبان صيفاً آخر للقضاء عليه نهائياً، لكن لو نجحت، فلن يكون أمام مسعود سوى البحث عن منفى في دوشانبي أو عزل نفسه في البانشير يعتاش مما يصطاده ويغزو عليه. ربما تكون حركة طالبان قد ضعفت سياسياً بين الباشتون، لكن مواردها، من أموال الرشى والذخائر والآليات، والمتطوعين من الخارج، والاستشارة العسكرية من الباكستان، لم تضعف(1010).

بعد مرور شهر على سقوط تالوكان في 12 تشرين الأول/أكتوبر، انزلق قارب صغير محمّل بالمتفجرات بالقرب من مدمّرة أميركية من نوع «آرلايت بورك» طولها 505 أقدام، مجهّزة بصواريخ موجّهة ترسو في مرفأ عدن في اليمن. كانت المدمّرة الأميركية «كول» سفينة قيادية حربية تساوي مليارات الدولارات، ومجهزة برادار موصول بكومبيوتر يستطيع تتبّع مئة طائرة وسفينة وهدف للصواريخ في الوقت نفسه. لكنها لم تتمتع بالدفاع الكافي ضد ثلاثة انتحاريين في قارب صغير بقيمة ألف دولار. أحدث المهاجمون فجوة بارتفاع عشرين قدماً وعرضها أربعون قدماً في جسم السفينة «كول»، وتسببوا في قتل سبعة عشر بحّاراً أميركياً وجرح ثلاثين آخرين. استنتج المحللون لاحقاً، أنه مع القليل من الاحتراف في التنفيذ، كان سيتمكّن المهاجمون من قتل ثلاثمئة شخص وإغراق المدمّرة في قعر البحر(1011).

لم يلاحظوا أي تحذير تكتيكي في استهداف «كول». نشرت «السي.آي.إيه.» تحليلاً سرّياً قبل يوم من تفجير المدمّرة، يشير إلى تنامي خطر القاعدة في المنطقة، لكنه لم يذكر أي تحذير بشأن «كول». في 13 تشرين الأول/أكتوبر استقال محلّل في الاستخبارات في البنتاغون، مدّعياً أن رؤساءه تجاهلوا تحذيراته من القاعدة في المنطقة. غير أن تحليلاته لم تتضمن أي تهديد محدّد ضدّ المدمّرة «كول». ادّعى لاحقاً دانييل بنجامين وستيفن سايمون، المساعدان السابقان في مكتب كلارك لمكافحة الإرهاب، اللذان غادرا الحكومة عند مهاجمة «كول»، أن البحرية الأميركية تجاهلت تهديد القاعدة بشكل واضح. لقد كتبا «أنه من الصعب تصديق الإنكار المستمر» للخطر الذي يمثّله بن لادن والقاعدة. كما ألقيا باللوم على أنطوني زيني القائد الإقليمي الأعلى، للسماح بعمليات التزود بالوقود في اليمن. دافع زيني عن سياسته في اليمن بحجج مشابهة لتلك التي ناشد بها للدفاع عن التزام الولايات المتحدة مع الجنرال مشرّف في باكستان. لقد ادّعى زيني أنه من مصلحة الولايات المتحدة تعزيز اتصالاتها وتحالفاتها مع الحكومات العربية الإسلامية، على الرغم من المخاطر(1012).

صدم هجوم «كول» ضباطاً ومحلّلين في مركز مكافحة الإرهاب بشدة. لقد شهدت فترة الألفية سلسلة متتالية من التهديدات، لكنهم خرجوا منها سالمين. واليوم عرفوا أول خسارة كبيرة على يد بن لادن منذ تفجير السفارتين في أفريقيا. انشغل المركز في الأسابيع الأولى، في البحث عن دليل عن المهاجمين وعلاقتهم ببن لادن. لقد وجدوا علاقة بين المهاجمين وعميل للقاعدة أمضى بعض الوقت أخيراً في منزل للضيوف في قندهار. لكنهم لم يتمكنوا من إثبات مسؤولية بن لادن الشخصية عن الهجوم. لم يكن الدليل بمستوى الإدانة الإجرامية. كما أنهم لم يتمكنوا من تقديم دليل محدد على دور لبن لادن يمكن أن يذكره كلينتون في تصريحاته الشعبية لتبرير الانتقام. وبرغم ذلك، أخبر ضبّاط «السي.آي.إيه.» زملاءهم بأنهم متأكدون من تورّط بن لادن(1013).

بعد حساباتهم، قرر رئيس وحدة بن لادن «تغيير قواعدهم». لقد حان الوقت لتحاول الوكالة تغيير سياستها تجاه حركة طالبان. كانت القاعدة تكبر، ويساهم ملاذها في أفغانستان في زيادة قدرتها على تنفيذ عملياتها الطموحة. وداخل «السي.آي.إيه.»، وخلال جلسات الوكالة في البيت الأبيض، كان ضباط مركز مكافحة الإرهاب يتحدثون بصراحة. لقد أعلنوا «أن القاعدة تقوم بالتدريب

والتخطيط في أفغانستان، وهدفها تدمير الولايات المتحدة. وإذا لم يهاجموا جنّتهم الآمنة فسيزدادون قوّة»(1014).

كان كلارك الوحيد الذي يوافقهم في الرأي من بين كبار المسؤولين في البيت الأبيض. لن يبقى كلينتون في رئاسة البيت الأبيض أكثر من ثلاثة أشهر. كان نائبه آل غور، الذي ازداد البعد بينه وبين كلينتون، منهمكاً في إدارة حملة انتخابية ضد حاكم تكساس الجمهوري، جورج دبليو بوش. من المؤكّد أن أي هجوم عسكري يشنه كلينتون اليوم سينعكس على آل غور. فإذا قام الرئيس بضرب بن لادن ولم يصبه، أو تسبب في قتل النساء والأطفال العرب والأفغان، فسيخاطر في إظهار البيت الأبيض بصورة المتهور والعديم الكفاءة عشيّة الانتخابات الرئاسية. لا شكّ في أن البرامج الحوارية ستوجّه الاتهامات إلى كلينتون، لكن من المؤكد أن إطلاق الهجوم سيقضي على فرص آل غور. وفي جميع الأحوال، لا يدعم «الهجوم الانتقامي» سوى قلة من مساعدي كلينتون الكبار في الأمن القومي. فقد عجز
كلارك عن إقناع وزير الدفاع وليام كوهين أو قائده الأعلى، هوغ شيلتون، بشن هجوم جدّي ضد القاعدة أو حركة طالبان، حتى بعد تفجير المدمرة «كول». وتذكر مادلين أولبرايت «أنهم لم يكونوا متأكدين أن الضربات الجوية المباشرة على مخيمات التدريب، ستتمكن من إعاقة عمليات القاعدة، على الرغم من أنهم يشاركون كلارك في غضبه وإحباطه». أصدر شيلتون مذكرة بعد الهجوم يصف فيها ثلاثين خياراً لاستخدام القوة العسكرية الأميركية في أفغانستان، من بينها خطط عديدة لشنّ هجمات من قبل القوات الخاصة لأسر بن لادن أو قتله. ووصف رئيس عمليات شيلتون هذه المذكرة لاحقاً، بأنها صُمّمت أساساً «لإطلاع» ساندي بيرغر ومساعديه أمثال كلارك على «التعقيدات» التي ستواجههم إذا قرروا فعلاً المضي في أي من الخيارات. لقد يئس كلارك من البنتاغون. وذكر لاحقاً أن «رسالتهم الشاملة» كانت «لا نريد أن نفعل ذلك». وحتى بعد الهجوم المباشر على المدمّرة الأميركية «كول» في الخارج، يذكر كلارك أن المدنيين في البنتاغون والقادة كانوا متّفقين «على عدم استخدام قدرتهم في عمليات المغاوير في أفغانستان»، ما ترك خيار استخدام «السي.آي.إيه.» وحلف مسعود الشمالي كقوّة تنوب عنهم في مهاجمة القاعدة. لقد تخلّى كلارك عن تشكيكه في مسعود. ووافق على تزويده بالمال والسلاح. وشجّع رئيس وحدة بن لادن، بلايك وريتش، على تنفيذ خطة جديدة في أفغانستان(1015).

كانت وحدة بن لادن والخبراء الأفغان في مديرية العمليات في فرع الشرق الأدنى يتبادلون الأفكار. يجب عليهم أن يواجهوا سؤالاً أساسياً: هل هم مستعدون للالتزام بشكل أكبر مع أحمد شاه مسعود؟

وافق غاري شروين، الذي أصبح نائب الرئيس في فرع الشرق الأدنى، على فكرة مجموعة مكافحة الإرهاب التي تقول إن مسعود أصبح خيارهم الوحيد. أما المعارضة المتفرقة من الباشتون ضد حركة طالبان، مثل حامد قرظاي وعبد الحقّ والباقين، فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً برأي شروين وزملائه. ومن جهة أخرى، اعتبر شروين أن الاستمرار في السعي نحو المعتدلين في حركة طالبان، كما طلبت وزارة الخارجية، ليس مجرّد «هراء». خلال ذلك الخريف، سافر

شروين مع فريق من وزارة الخارجية إلى أوروبا لعقد اجتماعات سرّية مع الوسطاء من حركة طالبان. لقد كانت كلها لعبة. حاولت طالبان مجاراة الولايات المتحدة وإحباط عزيمتها لإطلاق هجمات عسكرية. إذا كانت «السي.آي.إيه.» ستضغط على حركة طالبان بطريقة جديدة وسرّية، فعليها التعاون مع مسعود(1016).

لقد اتّفقوا على أن الهدف من مساعدة «السي.آي.إيه.» السرّية هو تقوية مسعود والمحافظة على استمراره في القتال بعد خسارة تالوكان، والضغط على القاعدة وقوّات حركة طالبان، وخلق ظروف أكثر فعالية لمكافحة الإرهاب الذي يديره بن لادن وقادته على الأرض. لقد فكّروا لاحقاً، كما قال بلايك، «من وجهة نظر استخبارية»، في أن «السي.آي.إيه.» «يجب أن تهاجم ملجأ الإرهاب الأفغاني الواقع تحت حماية طالبان لتحصل على فرص لمحاربة بن لادن»(1017)، ما يعني تنفيذ برنامج عمل سرّي جديد وكبير لدعم مسعود بالمال والعتاد. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر جلسوا في لانغلي ووضعوا لائحة محددة لاحتياجات مسعود بالاعتماد على تقييم فريقي «جاوبريكر» و «نالت» لمكافحة الإرهاب، اللذين كانا يسافران بشكل منتظم إلى بانشير. لقد اتّفقوا على أن مسعود يحتاج إلى الأموال النقدية لرشوة القادة، ولمواجهة خزينة حركة طالبان المتخمة بالأموال العربية. كان بحاجة إلى الشاحنات وطائرات الهليكوبتر والأسلحة الخفيفة والذخائر واللباس الرسمي العسكري والطعام، وربما بعض مدافع الهاون. لم يكن بحاجة إلى طائرات قتالية. فالدبابات تعتبر من الأولويات بالنسبة إليه. لم تكن خطتهم تقضي بمساعدة مسعود للسيطرة على أفغانستان أو تحدي سيطرة طالبان على كابول. كان هدفهم تعكير جنّة القاعدة الآمنة وتحسين موقع «السي.آي.إيه.» لمهاجمة بن لادن. ستكلّف لائحة المعدات المقترحة لمساعدة مسعود بين 50 مليوناً و150 مليون دولار، وفقاً لدرجة العدائية التي يريدها البيت الأبيض(1018).

ستنشئ «السي.آي.إيه.» بموجب الخطة، قاعدة دائمة مع مسعود في وادي بانشير. ادّعى رئيس وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب، ريتش، أن «السي.آي.إيه.» يجب أن تُظهر التزاماً جدياً أكثر مع مسعود. يجب أن يوجد ضباط الوكالة مع رجال مسعود في المعسكر، لوضع الخطط والبحث عن الفرص المناسبة للهجوم. يجب أن يوجدوا في الميدان وعلى الخطوط الأمامية كلّ الوقت وفقاً للملفات التي اقترحتها «السي.آي.إيه.»، وللتغلّب على الارتباك والتشكيك اللذين تولّدا لدى مسعود حول عمليات الخطف، أصبح باستطاعة ضباط «السي.آي.إيه.» الاشتراك مباشرة إلى جانب الحلف الشمالي إذا تمكنوا من تطوير معلومات استخبارية قوية تتعلّق بمكان بن لادن. لن يتعرضوا للإحراج ثانية، كما جرى معهم عندما حاولت «السي.آي.إيه.» الاتصال بمسعود لوقف هجومه على «درونتا».

استغرقت قيادات «السي.آي.إيه.» بعض الوقت للتوصل إلى تفاهم حول خطة مسعود. لا يزال هناك شعور في بعض مراكز لانغلي بأن وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب، أو «عائلة مانسون»، تبالغ. كان ريتشارد طويلاً ومتحمساً، كما يصفه بعض زملائه، ونموذجاً للعملاء الثابتين المفعمين بالحيوية الذين تنتجهم الوحدة واحداً تلو الآخر، منذ العام 1997. يتكلم

فريق وحدة بن لادن على تهديد القاعدة بمفردات افتراضية. وإذا لم تكن معهم فأنت ضدّهم.

حاول كوفر بلايك الحفاظ على توازن المحادثات والاطلاع على وجهات نظر الطرف الآخر، لكن في نهاية كل نقاش تقريباً، كان يدعم وحدة بن لادن. كانت هناك توتّرات بيروقراطية دائمة بين مركز مكافحة الإرهاب ومديرية العمليات. لقد كان المركز شبه مستقلّ، وعلى اتصال مباشر بتينيت، لكنه يعتمد على موارد مديرية العمليات وضباطها. كانت هناك أسئلة دائمة حول مصدر الميزانيات المالية والمسؤول عن التحكم العملي. كانت هذه التوترات تتأجّج بفعل الاضطراب المحيط بمشكلة بن لادن. فإذا قام رئيس مديرية العمليات، جيم بافيت، بالسؤال عن تفاصيل الخطة الجديدة لمساعدة مسعود، ينتفض في وجهه شخص من مركز مكافحة الإرهاب، متهماً إياه بعدم تقدير خطورة الوضع. كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً بعدائية، لكن في النهاية يضعون خطة نهائية بالخيارات للبيت الأبيض. وصلت «مذكّرة السماء الزرقاء»، كما يسمونها، إلى مجلس الأمن القومي في شهر كانون الأول/ديسمبر. وبرغم ذلك، كتب بافيت في إحدى نسخ المذكرة «أنه لا يجب تقديم عرض بهذا الحجم» إلى إدارة كلينتون في وقت متأخر. دفعت هذه الازدواجية التي يسميها «العدائية السلبية» لـ «السي.آي.إيه.»، ريتشارد كلارك إلى التشتت.

كانوا كمن ينتظر الفترة الانتقالية الرئاسية في البيت الأبيض. لقد توقّفت انتخابات تشرين الثاني/ نوفمبر الرئاسية، ثم عرفت أزمات وطنية استمرت أسابيع طويلة حول قضية فلوريدا والجدل الدستوري. كان يبدو أن جورج دبليو بوش سيفوز، لكن مساعدي كلينتون في البيت الأبيض كانوا يمرّون في أصعب فترة انتقالية تسبق الانتخابات شهدها هذا القرن عندما قدمت «السي.آي.إيه.» لائحة خياراتها.

اجتمعت إدارة مجلس الأمن القومي في 20 كانون الأول/ديسمبر. لم تلقَ اقتراحات عمليات «السي.آي.إيه.» السرية أي دعم إلا من كلارك. قدّم أعضاء الإدارة اعتراضات قديمة وجديدة. لقد كان مسعود تاجر مخدرات. لذلك، يخافون أي اشتباك مع تجارة الهيرويين إذا قامت «السي.آي.إيه.» بإنشاء قاعدة دائمة في بانشير. لا يزال بيكرنغ وآخرون في وزارة الخارجية مقتنعين بوجود فرصة أقله بنسبة 25 في المئة، من خلال المفاوضات، بأن حركة طالبان يمكن أن تسلم بن لادن لتقديمه إلى المحاكمة. اعتبر بيرغر أن الاختلاف مع باكستان لدعم مسعود سيكون خطأً فادحاً. في إسلام آباد في شهر آذار/مارس، وعد مشرّف كلينتون بأنه سيتصرف حيال مشكلة بن لادن. لم يفعل الجنرال أي شيء حتى هذه الساعة، لكنه تأخر لتغيير موقفه. وفضلاً عن ذلك، سيورثون الحكومة التالية حرباً بالوكالة في إحدى أخطر بقاع العالم من خلال تقديم المساعدة السرّية إلى مسعود. ماذا سيحدث لو أن باكستان ردّت على مساعدة مسعود بتصعيد هجمات الجهاديين في كشمير لافتعال أزمة نووية؟ ألا يجب أن تخشى الإدارة التالية هذا النوع من المخاطر؟ قاموا بمناقشة خيارات أخرى أعدها كلارك في مذكرة استراتيجية مفصّلة للضغط على القاعدة في محاولة لإعادتها ثلاث أو خمس سنين «إلى الخلف»، من خلال مساعدة مسعود بشكل جزئي. يتضمن ذلك الجهود الجديدة لتحقيق التعاون من الاستخبارات الباكستانية لمحاولة طرد بن

لادن. لا تزال إدارة كلينتون تتأمل وعود الشراكة مع الجيش الباكستاني وتخاف مقاطعته نهائياً(1019).

وصلت الفكرة إلى مركز مكافحة الإرهاب: لن يكون هناك برنامج مساعدة سرية لمسعود. لا يمكن تغيير مساعدة «السي.آي.إيه.» المستمرة لمسعود، من المبالغ الصغيرة المخصصة له وجمع المعلومات وبرنامج التبادل، «لتؤثر بشكل أساسي»، وبأي شكل من الأشكال، في الحرب الأفغانية.

أدّى هذا القرار إلى فتور العلاقة بين مسعود و «السي.آي.إيه.». شعر كلّ من ضبّاط «السي.آي.إيه.» ومجموعة مسعود القيادية بأن الطرفين يقتربان من نهاية تعاونهما في ظلّ قواعد البيت الأبيض الحالية. ويروي أحد قادة مسعود في الاستخبارات أن علاقته بـ «السي.آي.إيه.» كانت فاترة «قليلاً» في خلال ذلك الشتاء. توقّفت الزيارات من لانغلي إلى بانشير، لكن رجال مسعود لم يعرفوا السبب. اعتقد المساعد في الاستخبارات أنهم «كانوا يبحثون عن دليل واضح على عزمهم للقيام بعملية أسر» ضد بن لادن أو أحد قادته(1020).

سافر فريق من «السي.آي.إيه.» في بداية فصل الشتاء، إلى أوزباكستان. قاموا بفحص طائرة الهليكوبتر التي اشترتها الوكالة أخيراً من نوع «مي 17» وقرّروا تجهيزها لتبييتها خلال الشتاء. وبالحديث عن تلك الهليكوبتر يقول غاري شروين إن «السي.آي.إيه.» «أعفتها من مهامها». وفي كلامه إشارة إلى العلاقة مع مسعود أيضاً(1021).

انتهى صراع إدارة كلينتون مع أسامة بن لادن والقاعدة وأفغانستان الذي دام ثماني سنين. قال كلينتون لاحقاً: «أعِدْ شريط الأحداث في فكرك ثانية واسأل نفسك، أكان من الممكن فعل المزيد؟ حاولتُ التخلّص من بن لادن على مدى السنين الأربع الأخيرة من ولايتي... لا أعتقد أنني كنت غبياً أو غافلاً إلى درجة أنه خصم مذهل»(1022).

# 30
# بأي وجه سيقابل الملا عمر ربّه؟

لم يتحدث جورج دبليو بوش علناً خلال حملته الرئاسية عن أسامة بن لادن أو القاعدة. كما لم تذكر السياسة الخارجية للحزب الجمهوري أو خطته الدفاعية، أياً من بن لادن ومنظمته. وبالكاد طُرح موضوع الإرهاب في منافسة العام 2000. بعد الهجوم على المدمّرة الأميركية «كول» في شهر تشرين الأول/أكتوبر، سأل مراسل صحافي بوش عن أفغانستان: «إذا قام بلد بإيواء خلية إرهابية، فهل يُعتبر هذا البلد عرضة لردّ انتقامي؟»، فأجاب بوش بأنه «لن يجيب عن هذا السؤال» حتى يصبح الرئيس. لكنه أضاف قائلاً: «أريد أن أُخبر العالم بأننا سنحاسب الأشخاص المسؤولين... سيتحمّلون عواقب أعمالهم». وبالسؤال عمّا «إذا كانت إدارة بوش قد قامت بواجبها لأسر بن لادن وأمثاله، أو أي قادة إرهابيين مشتبه فيهم»، امتنع بوش عن الإجابة أيضاً، وقال إنه لا يمتلك تقارير استخبارية كافية(1023).

كان المراسلون يلحّون عليه بالأسئلة المعروفة عن السياسة الخارجية. أصبحت مؤهلات كلينتون وفكره تشكل مواضيع الحملة. لم يسافر بوش إلى الخارج كثيراً، كما أنه لا يتمتع بخبرة مباشرة في الشؤون الدولية. لا يمكنه أن يعرف بشكل عفوي أن برويز مشرّف هو زعيم باكستان. ودفعت أخطاؤه كاتباً في مجلة «غلايمور» إلى وضع لائحة أسماء، وسؤال بوش عمّا يخطر في باله: كريستين تود وايتمان، مادونا، «الجنس والمدينة»، وحركة طالبان. كانت وايتمان «صديقة وفية». وبالنسبة إلى البرنامج التلفزيوني، شرح بوش أنه «لا يشترك في خدمة المحطات الفضائية». وعندما ذكر «طالبان»، اكتفى الرئيس بهزّ رأسه بصمت. راح الكاتب يلمّح له: «بسبب قمع النساء... في أفغانستان». أشرق وجه بوش. «اعتقدت أنك تتكلم على فرقة موسيقية. حركة طالبان في أفغانستان! بالتأكيد... قمعية»(1024).

كان بوش يعتمد بشكل كبير على رئيسة المستشارين في السياسة الخارجية، كوندوليسا رايس خلال حملته. كانت رايس تصف نفسها بـ «المتخصصة في الشؤون الأوروبية». ألّفت كتباً حول العهد الشيوعي للجيش التشيكسلوفاكي وتوحيد ألمانيا. قامت بإدارة مديرية الشؤون السوفياتية في مجلس الأمن القومي في ظلّ إدارة بوش الأب. شرح بوش «أنه يحب الوجود إلى قربها، لأن صحبتها ممتعة. يحب الوجود بالقرب من شخص سهل المعشر يتفادى الأشخاص الجدّيين». كانت رايس إدارية واثقة بنفسها، تتمتع بنظريات متطورة عن أوروبا بعد الحرب الباردة. لكن خلال الحملة، كان عليها أن تدرس عن مناطق في العالم لا تعرفها جيداً. لقد وصفت إيران في إحدى المراحل، بـ «الدولة المحورية للتكنولوجيا والأموال والخدمات الأخرى الخاصة بالمجموعات الأصولية المتطرفة»، إلى درجة أنها أدرجتها مع طالبان. لكن إيران ذات النظام الشيعي وحركة الملا عمر السنّية المتطرفة، كانتا على درجة كبيرة من العداء، والافتراق، في ما بينهما. في الواقع، كانت

إيران ترسل الأسلحة والأموال إلى أحمد شاه مسعود لمساعدته في حربه ضد حركة طالبان. وعلى الرغم من ذلك، أصرّت رايس خلال مقابلة صحافية على أن الإيرانيين «يقومون بإرسال العتاد إلى المنطقة الواقعة بأيدي الأشرار في أفغانستان وباكستان». لم تحدد من هم الأشرار. وبسؤالها مرة ثانية عن تصريحها، قالت إنها تدرك بالتأكيد العداوة بين إيران وحركة طالبان(1025).

لم يكن أي من المستشارين الآخرين المقرّبين من بوش يتمتعون بالخبرة في شؤون جنوبي آسيا. يتمتع نائب الرئيس ديك شيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد بمعرفة كبيرة بالشؤون العالمية، لكنهما لا يمتلكان معرفة شخصية بأمور باكستان وأفغانستان. كان بول ولفوفيتز، الذي تم تعيينه نائب وزير الدفاع بعد انتهاء الانتخابات، خبيراً في شؤون جنوبي آسيا. لكن وزير الخارجية كولين باول ونائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج يتمتعان بالخبرة الأوسع في هذه المنطقة. فقد عمل كلاهما عن كثب مع الجيش والحكومة الباكستانيين خلال الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي. وكان أرميتاج مشتركاً من قبل واشنطن في المرحلة الأخيرة من الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي. عمل باول مع الجيش الباكستاني خلال حرب الخليج في العام 1999. لكن خبرتهما كانت محدودة بالروابط الوثيقة بين الولايات المتحدة والجيش وجهاز الاستخبارات الباكستانيين خلال أعوام الحرب الباردة. كان الرجلان خارج الحكومة خلال التسعينيات عندما وصل التحالف إلى نقطة جامدة، بسبب إرهاب بن لادن بشكل جزئي، وموضوع الجهاديين الذين يقاتلون في كشمير.

كان بوش ملزماً بالإيمان بمهمة الوكالة وعناصرها، نظراً إلى كونه ابن مدير «السي.آي.إيه.» السابق (قبل أن يصبح أيضاً رئيساً للبلاد). عمل خلال الجدل الواسع في فلوريدا، بنصيحة أصدقاء العائلة الذين طلبوا إليه إبقاء جورج تينيت في منصبه لمصلحة خبراء «السي.آي.إيه.». كان أهم مفكّر في مجلس الشيوخ، ديفيد بورين، الديموقراطي المحافظ من أوكلاهوما، صديقاً لعائلة بوش. كان بورين وابنته ينتميان إلى أخوية «يال»
السرّية، «سكول أند بونز»، مثل جورج بوش الابن وجورج بوش الأب. عملت ابنة بورين لاحقاً لحساب جورج بوش في حكومة ولاية تكساس. وبرأي بورين، «تثق العائلتان إحداهما بالأخرى». بعد رأس السنة في العام 2001، كان السيناتور السابق، الذي أصبح رئيس جامعة أوكلاهوما، في ميامي يشاهد لعبة كرة قدم بين فريقه المفضل «سونرز» وفريق الـ «أورينج بول». رنّ هاتفه وسط ضجيج الحشود. كان الرئيس المنتخب بوش «يسأله عن جورج تينيت». «أخبرني عن هذا الرجل»(1026).

راح بورين يتكلم على تينيت بحماسة. أخبر بوش بأنه «لا يعرف إن كان جمهورياً أم ديموقراطياً». «إنه رجل صريح. كل ما يحتاج إليه الرئيس، هو شخص يخبره بما يدور في ذهنه، ويملك الشجاعة لمخالفته في الرأي والنظر مباشرة إلى عينيه». هذه أحد مَواطن قوّة تينيت. وأضاف بورين: «إذا قدمت إليه فرصة البقاء، فأعتقد أنها ستكون لخير الوكالة لأنه رجل حيادي

غير مُسيّس. لقد عرفت الوكالةُ مدراء مختلفين، ومعنوياتها أصبحت ضعيفة. وأعتقد أن إبقاءه في منصبه سيكون لفتة مهمة للاستمرارية والاحتراف».

أجابه بوش: «سألتقيه وجهاً لوجه. وسأكون قادراً على الحكم عليه»(1027).

كان تينيت الشخص المثالي بالنسبة إلى الرئيس الذي يقدّر «الأشخاص الذين يسهل معشرهم» وغير الجدّيين. كان صريحاً يتمتع بظلّ خفيف وغير متكلّف. راق تركيز تينيت على مهمات «السي.آي.إيه.» التقليدية، كالتحذيرات والتحاليل الموضوعية، بوش الأب الذي أصبح تينيت في عهده رئيس مراكز لانغلي في «السي.آي.إيه.». أعلن البيت الأبيض في 16 كانون الثاني/يناير أن تينيت سيبقى في منصبه في «السي.آي.إيه.» «فترة غير محدّدة». وسيقرّر الرئيس بوش «في وقت لاحق» المدة التي سيبقى فيها تينيت في لانغلي(1028). نجح مدير «السي.آي.إيه.»، لكنه كان في فترة تجربة. يجب عليه الآن أن يبني بثبات، خلال الاجتماعات، مجموعة جديدة من العلاقات مع بوش ورايس ومجموعة الأمن القومي. بدأ ينقل إلى بوش التقارير الاستخبارية يومياً وجهاً لوجه. وافق الرئيس على القيام بزيارة مبكرة إلى مراكز «السي.آي.إيه.» في لانغلي. وأعرب تينيت أمام حشد كبير في المراكز «عن امتنانه للرئيس بوش لما أبداه من اهتمام بعملهم منذ اليوم الأول». أشار بوش إلى الاختلاف بين «السي.آي.إيه.» التي أدارها والده في العام 1976، وما أصبحت عليه الوكالة اليوم. لقد شهدت المرحلة التي تولّاها والده، «تهديداً كبيراً» من النظام الشيوعي السوفياتي. لكن اليوم «تحوّل هذا التهديد إلى مجموعة من التهديدات الجديدة والمختلفة» التي يصعب أحياناً تحديدها وصدّها: «مثل تهديد الإرهاب والحرب التكنولوجية وانتشار أسلحة الدمار الشامل»(1029).

تعهّد ساندي بيرغر، الذي شعر بأن الرئيس بوش فشل في إعداد التقارير الانتقالية المناسبة المتعلقة بالأمن القومي لفريق كلينتون القادم، إدارة انتقال من النوع الذي سيثير إعجابه. يذكر أن الموضوع «الأول» على جدول الأعمال، «كان الإرهاب والقاعدة... فأفادهم بشكل كامل عمّا كانوا يفعلون، وعن المواضيع قيد الدراسة. وعن نوع الخطر». طلب بيرغر إلى كل مديرية في مجلس الأمن القومي كتابة مذكرة بالمواضيع لرايس ونائبها، ستيفن هادلي. كانت المذكرات مرفقة بتقارير شفهية وعروض بصرية. لم يحضر بيرغر سوى جلسة واحدة من الجلسات التي كان ينظمها ريتشارد كلارك عن بن لادن والقاعدة. شرح بيرغر لرايس أن وجوده معهم «كان للتأكيد على أهمية الموضوع». ولاحقاً قام بيرغر في الجناح الغربي من البيت الأبيض، بإخبار سلفه «أنه سيمضي معظم وقته خلال السنين الأربع على موضوع الإرهاب عموماً، وبن لادن خصوصاً»(1030).

لم تؤخذ التحذيرات في الاعتبار. قامت «السي.آي.إيه.» بإخبار فريق بوش في الأمن القومي بخطر القاعدة، لكن ضباطها لم يهتمّوا قط. أمضت رايس وتشيني ورامسفيلد وولفوفيتز، الأشخاص الأربعة الذين يشكلون الاستراتيجية السياسية لعهد بوش، ويتمتعون بالنفوذ الأكبر، عدة

أشهر في التفكير والتكلم في المواضيع التي سيركّزون عليها خلال الفصل الأول من إقامتهم في البيت الأبيض. لقد شدّدوا على الدفاع بالصواريخ، والإصلاح العسكري، والصين، والعراق. لكن الإرهاب وجنوبي آسيا لم يكونا ضمن لائحة أولوياتهم.

وصف مكتب كلارك في تقاريره الأولى، بن لادن كمن يمثل تهديداً «وجودياً» للولايات المتحدة، ما يعني أن الخطر الذي يمثّله يتعدّى عشرات أو مئات الضحايا التي قد توقعها القاعدة في سلسلة من التفجيرات. اعتقد كلارك وضباط في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، أن بن لادن وأتباعه يسعون إلى إسقاط أعداد كبيرة بين صفوف الضحايا الأميركيين، وسيستخدمون أسلحة الدمار الشامل في المدن الأميركية إذا سمحت لهم الفرصة بذلك. قام تينيت وبافيت بإطلاع بوش وتشيني ورايس على المواضيع الاستخبارية، ومن بينها تهديد القاعدة، الذي وصفه بافيت بأخطر التهديدات على البلاد. سأل بوش إذا كان قتل بن لادن سيُنهي المشكلة، فأجابه تينيت وبافيت بأنه سيترك أثره،
لكنه لن يُنهي المشكلة. وعندما أرسلت «السي.آي.إيه.» تقارير إلى إدارة بوش في البيت الأبيض لاحقاً تتعلق بهذا الموضوع، أشار محلّلو الوكالة إلى أن الطريقة الوحيدة لإلحاق الضرر بالقاعدة، ستكون من خلال القضاء على ملجئها الآمن في أفغانستان. لكنهم فشلوا في إقناع بوش ومستشاريه الكبار. وخلال حملة العام 2000، اختار بوش وفريقه الصواريخ الدفاعية كأولوية بالنسبة إليهم. لقد حددا أهم التهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة بالأنظمة العدائية التي تملك أو تستطيع الحصول على صواريخ باليستية قادرة على ضرب المدن الأميركية. كان بوش وأعضاء فريقه يردّدون فيما بينهم، أن الصين وروسيا تطرحان تحدّياً أمنياً خطيراً. شعر المسؤولون عن نقل التقارير في «السي.آي.إيه.» بأن إدارة بوش في مجال الأمن القومي، تعتبر الإرهاب مثل العوامل التي كانت معروفة في الثمانينيات: فعّالة وغير محدودة، من نوع التهديد المسرحي الذي تنتج منه أزمات شعبية استطرادية، لكن لا يهدد الأمن المركزي للولايات المتحدة الأميركية. وقال أرميتاج لاحقاً: «لا أعتقد أننا أصبحنا مقتنعين بأننا لم نعد آمنين وراء هذين المحيطين العظيمين»(1031).

اعتبر كلارك الأسابيع الأولى لإدارة بوش فرصة لكسب جمهور محترم لسماع أفكاره حول تفجير طالبان وتحدّي بن لادن. توجد على مكتبه تحليلات وتوصيات وجداول أعمال الإدارة المستبعدة من الأسابيع الأخيرة لإدارة كلينتون. وجّه كلارك ومساعدوه مذكّرة من ثلاث صفحات إلى رايس في 25 كانون الثاني/يناير، تتضمّن مقترحات كلارك السابقة، من العام 1998 حتى أواخر العام 2000. طلب كلارك تقديم المساعدة السّرية إلى مسعود، وإطلاق رحلات جديدة لطائرة الـ «بريداتور». كما دعا هو ورئيس فريقه، روجر كريسي، الى عقد اجتماع على مستوى الإدارة حول تهديد القاعدة الناشئ «للضرورة القصوى». إنه «ليس موضوعاً إرهابياً محدوداً». كانت «الخلايا النائمة» التابعة للقاعدة داخل الولايات المتحدة، تمثل «تهديداً كبيراً في ذاتها»(1032).

أصرّ كلارك على اتّباع إدارة بوش سياسةً إقليمية جديدة في جنوبي آسيا. شدّد على عدّة اقتراحات رفضها بيرغر وإدارة كلينتون سابقاً، تشمل المساعدة العسكرية السرية لمسعود، وتفجير «البنية التحتية» لحركة طالبان، مثل مزرعة «تارناك». كما أشار كلارك في مذكّرته، إلى احتمال عقد

«صفقة» مع باكستان بشأن بن لادن. تقضي فكرته بأن يلمّح بوش لمشرّف بأن مواجهة القاعدة أصبحت أولى أولويات الولايات المتحدة اليوم. بالإضافة إلى ذلك، ستتوقف الولايات المتحدة عن الضغط على باكستان بالعودة إلى الديموقراطية إذا قام جيش مشرّف وجهاز الاستخبارات بحلّ مشكلة بن لادن نهائياً. واقترح كلارك أيضاً تخصيص المزيد من الأموال لمركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» لمهاجمة خلايا القاعدة حول العالم، والجمعيات الإسلامية الخيرية التي تموّل جماعات إرهابية. كما تضمّنت مذكرة كلارك أفكاراً عدائية من أجندة الإدارة السابقة، تمت الموافقة على بعضها، ورُفض البعض الآخر(1033).

كان كلارك في وضع غريب. لقد اكتسب سمعته كبيروقراطي نافذ في واشنطن. ويتم وصفه كأفضل خبير في الحكومة في سياسة الإرهاب وتهديد بن لادن. كان موظّفاً حكومياً حيادياً معروفاً ومحترماً من قبل بعض أعضاء فريق بوش. أخبرت رايس كلارك بأنها تريده أن يبقى في مجلس الأمن القومي. لكن من الواضح، منذ البداية، أن كلارك سيفقد جزءاً من سلطته داخل إدارة بوش. تمتلك كوندوليسا رايس أفكاراً قوية حول إدارة مجلس الأمن القومي. لكن تأثير كلارك الشخصي في المواضيع الإرهابية لم يناسب أسلوب رايس. وبالإضافة إلى ذلك، تأثّر بمستوى مشاركة فريقه في سياسات إدارة كلينتون، التي أصبحت في موسم التحوّل الحزبي في البيت الأبيض، محور شكّ تلقائي.

لم تأت مذكّرة كلارك في 25 كانون الثاني/يناير بأي نتيجة. كما لم يتم تعيين أي اجتماع للمجلس حول القاعدة أو أفغانستان أو السياسة الإقليمية. وبعد أسابيع، أكملت رايس المرحلة الأولى من إعادة تنظيم مجلس الأمن القومي، فخسر كلارك موقعه حول المواضيع الإرهابية على مستوى المجلس رسمياً. ونتيجة لذلك، طلب إلى رايس أن يتم نقله. ادّعى كلارك أنه سيتخلّى عن عمله حول بن لادن، ويركّز على خطر مهاجمة أنظمة الكومبيوتر الأميركية. وافقت رايس على طلبه، متعهدة استشارته في المواضيع الإرهابية. استغلّ هوغ شيلتون، الذي بقي في منصبه، رئيساً لفرق الرؤساء المشتركين، فترة الأسابيع الانتقالية لإعفاء البحرية من الحفاظ على الصواريخ الموجهة على الغواصات على مسافة مناسبة لقصف أفغانستان. لقد كان البرنامج مكلفاً جداً، كما أنه يعرقل الانتشار. ولم تتمكن «السي.آي.إيه.» من تقديم أي معلومات دقيقة للعمل بموجبها. كما أن رامسفيلد العنيد، كان مصمماً على متابعة الدفاع بالصواريخ. وخطة إعادة التنظيم العسكرية الطموحة، من خلال الإرهاب، «كانت مطروحة لكنها ليست قريبة»، كما يذكر شيلتون، «لذلك ربما هي مذكورة في أسفل اللائحة». أدرك رامسفيلد لاحقاً أنه كان يركّز على الأولويات في بداية العام 2001، وقال إن البنتاغون حينذاك لم يكن منظماً أو مدرّباً للتصرف مع عدوّ مثل بن لادن(1034).

لم يعترض كوفر بلايك، أو رئيس وحدة بن لادن على خسارة الغوّاصات. كانت الأولوية خلال ذلك الشتاء تسريع اختبارات القوّات الجوية لنموذج مسلّح من طائرة الـ «بريداتور»، التي قد

ترسلها «السي.آي.إيه.» لاحقاً لتحلّق فوق أفغانستان وتستهدف بن لادن وقادته الكبار. ستحلّ طائرة الـ «بريداتور» المسلّحة مشكلة تقارير العملاء البشريين التالفة المزمنة من أفغانستان وإطلاق الصواريخ الموجّهة، برأي ضبّاط «السي.آي.إيه.». ستقلّص طائرة الـ «بريداتور» فترة «التجسس والإطلاق»، التي كانت تقدّر بالساعات، إلى مجرد ثوان. وبحلول شهر شباط/فبراير، تخلّص المحامون في وزارة الدولة من قلقهم حيال انتهاك الطائرة المسلحة من دون طيّار، معاهدة القوات النووية المتوسطة. لكن القوات الجوية لا تزال تواجه مشكلات تقنية كثيرة يجب حلّها. لقد زوّد المهندسون في القوات الجوية الـ «بريداتور» نسخة معدّلة من الصواريخ المضادة للدبابات، «هيلّ فاير»، لكنهم لم يتأكدوا من تأثير إطلاقها في تحليق الـ «بريداتور». لقد كانت الـ «بريداتور» طائرة خفيفة لا يمكن التحكم فيها بسهولة، إلى درجة أن بعض المهندسين يخافون قوّة الدفع للصاروخ المشتعل الذي قد يدفع الطائرة إلى الخلف، وربما خارج السيطرة. لذلك، كان الاختبار في شهر شباط/فبراير في نيفادا مشجّعاً: أصابت صواريخ الطائرة برج دبابة على مسافة ستة إنشات من الوسط(1035).

لم تلحظ سياسة إدارة بوش أي أفكار إبداعية حول مهاجمة الإرهابيين بواسطة رجال آليين مسلحين يحلّقون في السماء. بالكاد تشكّل المجلس، ولم يُجر أيٌّ من المسؤولين أو ممثّليهم محادثات رسمية حول بن لادن. كانوا يتحدثون عن مراجعة سياسة الوكالة الداخلية حول أفغانستان والقاعدة، لكن لم يتم تنظيم أي شيء بالشكل المناسب. كان العراق وإيران والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني والصين وروسيا والصواريخ الدفاعية، تتقدّم على أفغانستان في لائحة مواضيع السياسة الأمنية.

ضغط بلايك على القوات الجوية لتشهد بأن طائرة الـ «بريداتور» المزودة بصواريخ «هيل فاير» قادرة على قتل بن لادن إذا أمضى ليلة في مزرعة تارناك من دون قتل عدد كبير من المدنيين الأبرياء. يجب أن تحصل الوكالة على أدلة تقنية ناجحة إذا أرادت أن تطرح مهمة الـ «بريداتور» المسلّحة على الرئيس بوش ومجلسه. لم يتم تصميم صواريخ «هيل فاير» لتدمير مبان طينية أو جدران اسمنتية. وتشير كل أدلة استعمال الصواريخ وخصائصها ونتائج اختبارها، إلى قدرتها على تدمير الدبابات. وفي زمن أنظمة الأسلحة ذات التقنية العالية والمكلفة، تشدّدت ثقافة البنتاغون في موضوع الدّقة، وإجراءات إطلاق النار السهلة، والتناسب العلمي الحذر للأسلحة والأهداف. إذا أراد البنتاغون أن يتّبع الأوامر الرئاسية في الحدّ من القتلى بين المدنيين في هجوم بالصواريخ على مزرعة تارناك، مثلاً، فيجب أن تتوقّع القوات الجوّية بالتحديد عدد الغرف التي ستنهار إذا تم إطلاق صاروخ «هيل فاير» على المبنى. ما يعني إجراء المزيد من الاختبارات. وقام فريق من القوات الجوية، بمساعدة «السي.آي.إيه.»، ببناء مجسّم في نيفادا مشابه لمزرعة تارناك حيث يقيم بن لادن بالحجم الطبيعي. وظلّ مركز مكافحة الإرهاب يلحّ على تسريع البرنامج، لكن لم تكن هناك طريقة لتنفيذ مثل هذه التجربة بين ليلة وضحاها(1036).

كان كلارك وبلايك وآخرون في «السي.آي.إيه.» في تلك الأثناء، يتجادلون حول إرسال الـ «بريداتور» مجدداً إلى أفغانستان عندما يتحسّن الطقس، بغية المهمات الاستطلاعية حصراً، وتزويدها بالكاميرات والمجسّات. وعلى الرغم من تضاؤل دوره، أراد كلارك تجديد مهمة الـ

«بريداتور» ثانية. لقد أكّد الخطة المتفق عليها في شهر تشرين الأول/أكتوبر. لكن تينيت وبلايك وضباط البنتاغون، ادّعوا أن إعادة التحليق بغية الاستطلاع والمعلومات، ستشكّل خطأً كبيراً. فقد تعرّفت حركة طالبان إلى علامة رادار الطائرة من دون طيّار خلال فصل الخريف. وفي بداية سلسلة رحلات الـ «بريداتور»، عرف بلايك من خلال تقرير أن رادار الطائرة لم يعد ملحوظاً قط، ويبدو كسرب صغير من الطيور. ادّعى بلايك أنهم اكتشفوا أن «البريداتور» تبدو بالنسبة إلى رادار العدو كطائرة تجارية تطير بسرعة بطيئة، ويمكن التعرف إليها بسهولة. قدّرت «السي.آي.إيه.» أنها تستطيع إطلاق خمس أو ست طائرات «بريداتور» قبل أن تُسقط طالبان إحداها. لا يريدون هدر تلك الطائرات قبل أن يتمكن البنتاغون من تسليحها. وبموجب اتفاق جديد مع القوات الجوية، وافقت «السي.آي.إيه.» على تحمّل نصف كلفة مهمات الـ «بريداتور» والخسائر المستقبلية، ما يعني أن الوكالة ستتكلّف حوالى 5,1 ملايين دولار مقابل سقوط كل طائرة من دون طيار. وادّعى بلايك وزملاؤه أن إسقاطها سيهدد التعاون بين أوزباكستان و «السي.آي.إيه.». وقد سألت الوكالة المحللين في الحكومة رسمياً إذا كانت مهمات الـ «بريداتور» الاستطلاعية تبرّر كلّ تلك المخاطر، وأجابها المحللون بأن صور الأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع تبرر ذلك فعلياً. اعتبر كلارك وضع «السي.آي.إيه.» دليلاً إضافياً على رفضها المخاطرة. لم يتم إرسال أي طائرات «بريداتور» إلى أفغانستان(1037).

كانت «السي.آي.إيه.» منقسمة حول تشجيع بلايك الطائرات الهجومية. بقي بعض الضباط في مديرية العمليات في فرع الشرق الأدنى مشكّكين في الفكرة. ويروي أحد الضباط أنهم كانوا يعتبرونها «إحدى أفكار هؤلاء الحمقى في مركز مكافحة الإرهاب». واعتقدوا أن «نتائجها ستكون كارثية». أبطأت الخلافات الداخلية والتشكيك سرعة الانتشار(1038).

لم تُعتمد أي سياسة خارجية تتعلق برحلات الـ «بريداتور» إلى وسط آسيا، في خلال ذلك الشتاء، ولا حتى في الربيع. وبقي مكتب جنوبي آسيا في وزارة الدولة من دون قيادة حتى شهر حزيران/يونيو. كان إثام ضابطاً في الشؤون الخارجية، وشكل استمرارية لكلينتون، يدير الشؤون الإقليمية يومياً بالإنابة. استمرّ إثام في التشديد على أن أميركا لن تنحاز إلى أي جانب في الحرب الأهلية الأفغانية. كما أن بوش، أو أياً من مستشاريه الكبار، لم يقدم أي إشارة علنية عكس ذلك. كرّر كلارك الطلب إلى رايس مساعدة الحلف الشمالي في شهر آذار/مارس، غير أن رايس ونائبها ستيفن هادلي أرادا انتظار برنامج أشمل سيتضمن الفرقاء الباشتون في طالبان. وافق كلارك على اشتراك الباشتون، لكنه أصرّ على مساعدة مسعود فوراً. لقد خسر حجّته(1039).

تلقّت رايس وأرميتاج البرقيات والمذكرات التي تتضمن نصائح متناقضة حول أفغانستان. قام سفير الولايات المتحدة إلى باكستان، بيل ميلام، بإرسال برقية طويلة في بداية شهر شباط/فبراير بعنوان «الخيارات للتعامل مع مشكلة الإرهاب الأفغاني»، اقترحت أن يقتنص بوش بدايته الجديدة ليقدم إلى حركة طالبان فرصة أخيرة للتفاوض: مساعدة اقتصادية على نطاق واسع، مقابل وصاية

الولايات المتحدة على بن لادن. إذا رفضت حركة طالبان، فستبدأ الولايات المتحدة بدعم الميليشيات المعارضة علناً، محاوِلة خلع الملا عمر من سلطته. وكالمعتاد، عارضت سفارة إسلام آباد أي مساعدة لمسعود، لكن محلليها السياسيين اعتقدوا أن إدارة بوش يمكن أن تستفيد من دعم الباشتون المعارضين لحركة طالبان مثل حامد قرظاي، إذا فشلت «الفرصة الأخيرة»(1040).

عرض زلماي خليل زاد، الصوت النافذ داخل مجلس الأمن القومي الذي يشكّله بوش، بعض نصائحه. ساعد المحلّلون الأفغان في السياسة الخارجية، على الإشراف على مرحلة بوش الانتقالية. عيّنته رايس لإدارة مديرية الشرق الأوسط. كان خليل زاد من أصدقاء حامد قرظاي القدامى. لقد تعارفا في باكستان وأماكن أخرى وبقيا على اتصال. بعد اغتيال والد قرظاي على يد طالبان، تحوّل خليل زاد إلى معارض لحركة طالبان في المقالات التي نشرها من مكتبه الاستشاري في شركة «راند» في واشنطن. وقد طلب إلى كلينتون محاولة القضاء على الحركة علناً.

كان خليل زاد، من بين الكثير من سلالة الملك الأفغاني المخلوع ظاهر شاه، الذين يخافون انتشار أيديولوجية حركة طالبان في أفغانستان وباكستان. لقد كتب قبل انضمامه إلى مجلس الأمن القومي، «أن احتمال اعتناق باكستان النووية عقيدة طالبان، خطر لا يمكن تجاهله». كما كان يعارض بشدّة أي تحالف أميركي مع أحمد شاه مسعود. وخوفاً من انقسام عرقي في الشمال والجنوب، شدّد خليل زاد على أن الباشتون، المنفيين والمتحدرين من سلالة ملكية، مثل قرظاي، يجب أن يكونوا محور أي استراتيجية ناجحة ضدّ حركة طالبان. إذا كان الهدف هو التخلص من الملا عمر، «فأي علاقة وثيقة مع الحلف الشمالي ستعيق الهدف بدلاً من دعمه». أراد خليل زاد مساعدة الباشتون المنشقّين «القادرين على تفكيك حركة طالبان داخلياً». تختلف نظرياته هذه عن نظرية كوفر بلايك ووحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب، اللذين يعتقدان أن مسعود هو حليف واشنطن المثالي ضد طالبان. لم يتمكنا من رؤية مدى فعالية الباشتون الضعفاء المنفيين سياسياً في التحريض على انقلاب على طالبان، أو تفكيك الحركة من الداخل(1041).

وتشير كل هذه الخلافات إلى عدم تمتع إدارة بوش باتجاه واضح. ستستغرق أشهراً لوضع مقاربة جديدة. لم تُظهر الإدارة سوى درجة صغيرة من حالة الطوارئ.

لطالما تمتّع الجيش الباكستاني بعلاقات مع الإدارات الجمهورية في واشنطن أفضل من الديموقراطيين، لكن لم يتضح اليوم إذا كان هذا التقليد لا يزال قائماً. يعرف مستشارو مشرّف في إسلام آباد، أن حملة بوش الانتخابية في العام 2000، حصلت على مساهمات كبيرة من رجال الأعمال الأميركيين من أصل هندي. لقد دفع هؤلاء المتبرعون بوش ومستشاريه إلى توجيه السياسة الأميركية نحو تأييد الهند. وتركّز خطة الحزب الجمهوري، الموجّهة جزئياً لإرضاء الداعمين الماليين، في علاقاتها مع الهند، على العلاقات مع باكستان. أما المفكرون المحافظون في

فريق بوش للسياسة الخارجية، مثل روبرت بلاكويل، المتخرج في جامعة هارفرد، فينصحون بتحول استراتيجي تجاه الهند لمواجهة خطر الصين الناشئة(1042).

أرسل مشرّف ومستشاروه في إسلام آباد رسالة سرية من ثلاث صفحات إلى بوش،
تشير إلى المصالح المشتركة بين باكستان والولايات المتحدة، وتطالب بعلاقات وثيقة أكثر. التقت كوندوليسا رايس سفيرة مشرّف إلى واشنطن، مليحة لدحي، وهي صحافية سابقة، استطاعت، مثل رايس، أن تحتل منصباً رفيعاً في أوساط السياسة الخارجية التي يسيطر عليها الذكور. اقترحت لدحي أن تتعاون الحكومتان لعزل بن لادن، لكن الجيش الباكستاني لا يزال مقتنعاً بأن واشنطن مخطئة بشأن طالبان. وادّعت لدحي أن حركة طالبان أتلفت أخيراً منتجات الأفيون، فأجابتها رايس ساخرة: «بالفعل، وستالين أيضاً أنجز أموراً كثيرة»(1043).

أرسل البيت الأبيض جواباً خطّياً سرّياً إلى مشرّف في بداية العام 2001، يحتوي على العديد من الإشارات المشجّعة حول مستقبل التحالف بين الولايات المتحدة وباكستان. لكن الرسالة ربطت أيضاً فرص تحسن العلاقات، وتخفيف الدين، وإزالة العقوبات، والتعاون الأمني، بالتوصل إلى حلّ مشكلة بن لادن. كتب بوش أن «أسامة بن لادن وتنظيمه «القاعدة» يمثلان تهديداً مباشراً للولايات المتحدة ومصالحها يجب معالجته». لافتاً إلى أن القاعدة «ستمثل أيضاً تهديداً لمصالح باكستان البعيدة المدى».

وصلت الرسالة وسط جدل واسع داخل الجيش الباكستاني حول دعم حركة طالبان. عزّز مشرّف القوانين العسكرية من خلال كسب ولاء الموظفين الحكوميين الحياديين، مثل الدبلوماسيين النخبة في الباكستان على الطراز البريطاني في حقل السياسة الخارجية. بدأ المدنيون في الحكومة يسألون اليوم علناً عن دعم الجيش للمجاهدين الأفغان. وخلال شهر يناير/كانون الثاني كتب المفوض الباكستاني الأعلى في الهند، أشرف جهنغير قازي، في برقية سرّية تم إعدادها قبل اجتماع السفراء في إسلام آباد: «وجدنا أسباباً عملية للاستمرار في سياسات نعرف أنها لن تتحقق، ونعرف أيضاً أن الثمن الفعلي لها سيكون باهظاً. لذلك حُكم علينا بالتخبّط في المشاكل». «لا تملك باكستان أيّ خيار»، لكن يجب عليها «بأي طريقة أن تحلّ مشكلة بن لادن قبل معالجة أي موضوع آخر»، برأي قازي. إذا رفضت حركة طالبان التعاون فيجب أن تخفف باكستان من إمداداتها و «وتقوّض سلطة هؤلاء القادة الطالبانيين الذين يرفضون التعاون». كما قام مدنيون مهمون حول مشرّف، مثل لدحي، والسفير إلى كابول، عريف أيّوب، ووزير المالية المدني، بطرح حجج مشابهة. رفض الملا عمر الموافقة على عرض الجيش الباكستاني، كما رفض الموافقة على أصغر المواضيع. وبرغم ذلك، تعتقد الولايات المتحدة والقوى الأخرى في العالم أن باكستان تتحكّم في حركة طالبان. وذكر مسؤول لاحقاً أن باكستان لم تحقق سوى «أسوأ النتائج في العالمين»(1044).

يدعم المنشقون في الحكومة الباكستانية مقاطعة حركة طالبان فترة من الزمن، لأن خطوة كهذه ستكون برأيهم في مصلحة باكستان الوطنية. أفزع الملا عمر وحلفاؤه المجاهدون الحكومات

السوفياتية السابقة في وسط آسيا، وأبعدوها عن باكستان، مجمّدين الحركة التجارية. عانى الاقتصاد عبء الديون والعقوبات ونقص الاستثمارات. لقد برزت آثار تطرف حركة طالبان في الأرض الباكستانية. قامت القاعدة برعاية متطرفين ضد الشيعة، وتم تدريبهم على تنفيذ الاغتيالات وإثارة الاضطرابات في المدن الباكستانية. وقد سمح الجنرالات الباكستانيون بكل ذلك باسم «العمق الاستراتيجي» ضد الهند. لكن أي عمق اكتسبوا في الواقع؟

وقف إلى جانب المدنيين عدد قليل من الجنرالات في وزارة مشرّف. كان أحدهم معين الدين حيدر، وهو ضابط متقاعد بثلاث نجوم، عيّنه مشرّف وزيراً للداخلية، ومسؤولاً عن الشرطة الباكستانية والأمن الداخلي. قُتل شقيق حيدر على أيدي متطرفين طائفيين مرتبطين بالقاعدة. وخلال الاجتماعات المغلقة مع مشرّف والجنرالات الآخرين، كان يشتكي من أنهم «يخسرون الكثير». قال حيدر إن طالبان «لا تستمع إليهم في مسائل التهريب والمخدرات والأسلحة. لا يأخذ قادتها المسألة على محمل الجدّ». والأسوأ من كل ذلك، أن حركة طالبان أصدرت تهديدات ضد مشرّف. كتب الملا عمر رسالة خاصة إلى القائد الباكستاني في 16 حزيران/يونيو 2001، داعياً إياه إلى «تطبيق الشريعة الإسلامية... خطوة خطوة»، لإرضاء الأحزاب الدينية الباكستانية، وإلا فستشهد البلاد «عدم استقرار أمني». حذّره عمر من أن هذه هي نصيحتهم ورسالتهم وفقاً للعقيدة الإسلامية. «يجب أن يعرف كيف يتعامل مع الأمر»(1045).

تدور السياسة الباكستانية في أفغانستان وفقاً لنمط منظم بشكل كبير. يدعم مشرّف التحالف مع حركة طالبان لأنه يعتقد أن باكستان تحتاج إلى حلفاء من الباشتون إلى جوارها. وقد حافظت الاستخبارات الباكستانية على نشاط الجهاديين المشتركين. كان المدنيون الليبراليون في الحكومة يشعرون أيضاً بالضغط المستمر من الإدارة الأميركية، فيما يتعلق بمسألة بن لادن وحركة طالبان، بسبب الإجراءات الرسمية المذلّة والعقوبات والخطب التي لا تنتهي. وعلى الرغم من اشمئزازهم من فلسفة طالبان، شعر بعض النخبة الباكستانية بين المدنيين ببعض الفخر لمعاقبة بن لادن وعمر للأميركيين وإثارة استيائهم.
استخدم الدبلوماسيون الليبراليون الباكستانيون كلّ نفوذهم لحماية حركة طالبان من العقوبات الدولية. كانوا يشوّشون، ويراوغون، ويبرّرون. لا يتطلب الأمر برأيهم سوى بعض المهارة. ومهما بلغت درجة بُغض الملا عمر، فقد ساعد في الدفاع عن باكستان من تهديد الهند الوجودي. اعتقد الليبراليون المدنيون أنهم يستطيعون العمل من أجل التغيير تدريجاً من داخل حكومتهم(1046).

لكن حركة طالبان استمرّت في الانتشار في اتجاهات جديدة وغريبة. في 1 آذار/مارس أعلنت الحركة نيّتها تدمير التماثيل كافة التي تصوّر هيئة بشرية في أفغانستان. بدأت الميليشيا المسلّحة بالصواريخ والبنادق بتفجير تمثالين صخريين لبوذا نحتا في القرن الثالث أو الخامس عندما كان المجتمع البوذي منتشراً وسط أفغانستان. يبلغ طول أحد التمثالين 120 قدماً والآخر 175 قدماً. لقد تم نزع حليهما منذ زمن بعيد وقُطع رأساهما من قبل الحكّام الإسلاميين السابقين. لكن بقيا منتصبين باعتزاز وشموخ، عبارة عن أرجل مطوّقة برداء. أثار هذا التخريب المتعمد والوقح الذي

أقدمت عليه حركة طالبان الإدانات من جميع أنحاء العالم، والصدمة التي قلما تتبع مجازر هذه الميليشيا ضدّ المدنيين الأفغان. ناشد القيّمون والناطقون الرسميون باسم الحكومات وقف الأعمال التخريبية. بدا الملا عمر مرتبكاً. فقال: «لا أفهم لماذا الجميع قلقون. فنحن لا نحطّم سوى الصخور»(1047).

ضغطت الدول البوذية الغنية في آسيا، التي كان العديد منها من الواهبين للخزينة الباكستانية الفقيرة، على مشرّف للتدخل قبل فوات الأوان. طلب الجنرال إلى معين الدين حيدر السفر إلى قندهار وإقناع عمر. استشار حيدر علماء الإسلام بسرعة لإصدار حجج دينية مفصلة يمكن أن تتقبلها طالبان. سافر إلى مطار قندهار على متن طائرة خاصة مصطحباً معه المترجمين ومدوّني الملاحظات والمستشارين الإسلاميين، وهبط في مزرعة تارناك. توجّه الزوار إلى مقرّ الملا عمر الجديد المسيّج في الضواحي خارج قندهار، الذي شيّده بن لادن بطريقة مترفة. يقع على تلة بين أشجار الصنوبر، أسفل جبل صخري. كان هناك قصر أساسي منمّق، ومنزل للخدم، ومنزل فاخر للضيوف، ومسجد أزرق ذو قبّة بيضاء.

عندما استقروا، شرح لهم عمر «أنهم تداولوا الموضوع مدة ستة أشهر، واستنتجوا أنه يجب تدميرهما».

ذكر حيدر آية من القرآن الكريم مفادها أن المسلمين يجب أن يحترموا الديانات الأخرى، وأن الله سيحدد من الجدير يوم الحساب.

وراح يروي عدة حوادث تاريخية، ولاسيما في مصر، حيث حافظ المسلمون على تماثيل الديانات الأخرى وفنونها. في الواقع، إن الديانة البوذية في أفغانستان أقدم من الديانة الإسلامية. لقد سافر آلاف الجنود المسلمين من أفغانستان إلى الهند، ولم يشعر أي منهم بأنه مجبر على تدمير البوذيين. وسألهم حيدر: «بماذا تختلفون أنتم عن سائر المسلمين الذين مرّوا على تلك التماثيل منذ ألف وخمسمئة عام، وتركوها منتصبة؟»

أجابه عمر: «ربما لم يملكوا التقنيات اللازمة لتدميرها».

ادّعى الملا عمر أنه يخاف ما سيسأله الله يوم الحساب. وأخذ يخاطب نفسه: «سيسألني الله، أنت يا عمر هزمت القوة الخارقة المسماة الاتحاد السوفياتي. ألا تستطيع تحطيم تلك التماثيل؟ فماذا سيجيبه الملا عمر عندئذ؟».

وتابع زعيم حركة طالبان حديثه وهو يحدّق إلى عين واحدة: «ستتحوّل كل هذه الجبال يوم الحساب إلى تراب وتتناثر في الهواء. لكن، ماذا سيحدث لو ظهرت تلك التماثيل أمام الله؟ بأي وجه

سيقابل الملا عمر ربّه؟»(1048).

نقل حيدر وجهة نظر الملا عمر إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد التي أرسلت بدورها برقية إلى واشنطن. لقد تخلّت السفارة بشكل نهائي عن إمكانية إقناع حركة طالبان بتسليم بن لادن طوعاً إلى الولايات المتحدة. ولم يساهم توبيخ عمر لحيدر حول رؤيته، إلا بتعزيز اقتناعهم.

وعلى الرغم من ذلك، استمرّ ميلام وآخرون في السفارة بالدفاع عن الالتزام الوثيق مع حكومة مشرّف. فقد اقتنعوا من أحاديثهم مع الليبراليين، مثل حيدر، بإمكانية تحوّل موقف باكستان تجاه حركة طالبان.

كان الدبلوماسيون والملحقون العسكريون وضباط «السي.آي.إيه.» في إسلام آباد، ينقلون التقارير بشكل مستمر حول بدء تأثير عقيدة حركة طالبان الإسلامية المتطرفة في الجيش الباكستاني، أو النخبة في الحكومة. فبالإضافة إلى أدلّة أخرى، وبمساعدة تبادل الطلاب بين أميركا وأوروبا في كلّيتين مهمتين للضباط العسكريين في باكستان، كانت الولايات المتحدة تجري «إحصاءً للّحى» بين صفوف الضباط الباكستانيين، فتحسب عدد الضباط المتخرجين والجنرالات في الخدمة الفعلية الذين حافظوا على لحاهم وفقاً للتقاليد
الإسلامية(1049). لكن العدد بدا مطمئناً. ففي العام 2001، لم يحافظ على لحاهم سوى جنرالين أو ثلاثة برتب عالية. أما النسبة بين الضباط النخبة المتخرجين في المدارس العسكرية، فكانت أقلّ من 10 في المئة.

لا يزال المولعون بالتعليم الإنكليزي والأعمال التجارية الناشطة والواسعة وأجهزة التلفزيون المتصلة بالقنوات الفضائية، وحرية الصحافة المحلية، والتقاليد المنفتحة للأكثرية البنجابية في باكستان، منعزلين في مجتمعاتهم عن التيارات الإسلامية السياسية المتشددة. لقد شعر البنجابيون المتحررون المسؤولون عن إدارة الحكومة الباكستانية، بشكل أساسي، بخطورة المواعظ الأميركية المخيفة التي سمعوها من المسؤولين في إدارة كلينتون السابقة، مثل ستروب تالبوت، الذي تحدّث علناً عن انتشار النمط الطالباني في باكستان. وعلى الرغم من ذلك، اعترف هؤلاء الليبراليون في بداية العام 2001، بأن دعم باكستان السري للميليشيات الجهادية الإقليمية على مدى عقدين، قد غيّر باكستان. لقد زُرع آلاف الشبان في كيتّا وبيشاور وكاراتشي داخل الخيم العسكرية الانتحارية. وأصبحت الأحزاب الدينية الأساسية في البلاد، والمجتمعات السلمية المتنازعة، ووكالات الخدمات الاجتماعية في العقود الأولى بعد التقسيم، أعضاء دائمين في مجالس دعم حرب الجهاديين السرّية. كانت الحماسة تلهب قلوبهم، والأموال الخيرية تملأ جيوبهم، والأفكار الأصولية المستوردة من الشرق الأوسط تسمّم عقولهم.

نشرت السفارة الأميركية البرقيات والملفات التحليلية المتعلقة باحتمال «التطبع بطالبان» في باكستان. واستنتج المحللون الدفاعيون والسياسيون أن الأمر سيبقى قيد التحقيق ما دام الخطر

يتنامى. وكما اعتقد هؤلاء المحللون الأميركيون، فإن الالتزام مع حكومة مشرف يجب أن يستمر على الرغم من خطر تسلم الأصوليين المسلمين السلطة(1050).

عرّف جورج تينيت بنفسه أمام إدارة بوش الجديدة من خلال إصدار تحذيرات كارثية من خطر توجيه بن لادن ضربات إرهابية جديدة. بدأت تقارير «السي.آي.إيه.» خلال شهر كانون الثاني/ يناير وشباط/فبراير، واستمرت حتى موسم الحجّ في آذار/مارس. كشف تينيت عن وجود «أدلة قوية» تشير إلى «تخطيط بن لادن عمليات جديدة»، وإلى قدرته على «شنّ عدة هجمات من دون تحذير، أو مع تحذير بدرجة صغيرة». وحذّرت «السي.آي.إيه.» الأمير تركي من حصولها على تقارير لهجمات إرهابية في مكّة. كما وزّعت القاعدة أشرطة فيديو في الشرق الأوسط، تُظهر بن لادن يقرأ قصائد تشيد بتفجيرات المدمرة «كول» أثناء تجواله في مخيمات التدريب الأفغانية القتالية. وضع تينيت الإرهاب على رأس لائحته، للمرة الأولى منذ توليه منصبه، بينما كان يراجع أهم التحديات الأمنية التي تواجهها الولايات المتحدة في تقريره السنوي الشتوي لمجلس الشيوخ. لقد أطلع رئيس «السي.آي.إيه.» رايس وآخرين على أشرطة فيديو لبن لادن في مزرعة تارناك، كما ذكر جهود الوكالة لإعاقة مساعيهم في أفغانستان وأماكن أخرى. طلبت رايس إلى تينيت إعداد مذكرة بنطاق العمليات السّرية في أفغانستان لتزيد من صلاحيات «السي.آي.إيه.» في الميدان. وعندما قدّم تينيت مذكرته، قرّر هو ومكتب رايس انتظار تطبيق الصلاحيات الجديدة حتى تطوّر إدارة بوش سياسات جديدة بشأن القاعدة ووسط آسيا. ويذكر بوش نفسه أن تينيت أخبره بأن «السي.آي.إيه.» تملك الصلاحيات اللازمة كافة(1051).

سعى زلماي خليل زاد، في مجلس الأمن القومي، إلى استغلال نفوذ إدارة بوش لتأسيس معارضة موثوق بها من الباشتون ضد حركة طالبان على الأرض الباكستانية. لكن حكومة مشرّف رفضت خلال ذلك الربيع تشكيل مجموعات أفغانية معارضة رسمية، كما طلب خليل زاد، «خوفاً من حرب أهلية»، بحسب مسؤول باكستاني. واستمرت المحادثات بحذر. قام الباكستانيون بإخبار الأميركيين بأن المنفيين الأفغان أخذوهم في جولة، وطلبوا منهم أسماء الباشتون «المعتدلين» المعارضين لحركة طالبان، والمفضّلين بالنسبة إلى الأميركيين. كان يجب على «السي.آي.إيه.» أن تحمي العلاقات الأحادية والتجنيد بين صفوف الباشتون المعارضين لطالبان، لكن من بين المقيمين في الباكستان(1052).

سافر تينيت سرّاً إلى إسلام آباد خلال ربيع العام 2001. لا يزال محمود بعيداً ومتمرداً منذ جولته في ميدان معركة غيتسبورغ برعاية «السي.آي.إيه.».

اعتبر تينيت أنه لن يخسر شيئاً إذا حافظ على العلاقات بينهما. تم التضييق على حرية وصول الأميركيين إلى كلّ قطاع في الجيش وجهاز الاستخبارات الباكستانيين. لقد قرّر تطبيق قوانين صارمة على علاقة الطرفين تمنع اتصال الأميركيين بقادة الأجهزة الباكستانية العليا، وقادة الألوية، والجنرالات الآخرين. ولا يزال اتصال «السي.آي.إيه.» بضباط الاستخبارات الباكستانية

محدوداً. وانقسمت الآراء داخل السفارة الأميركية، حول دوافع محمود. بدأت المعلومات حول تديّن رئيس جهاز الاستخبارات الجديد بالانتشار. لكن محمود بقي لائقاً، ورسمياً ومتنازلاً من اجتماع إلى آخر(1053).

أقام محمود عشاءً لتينيت إلى مائدة الاستخبارات الباكستانية في إسلام آباد. كان هناك نظام روتيني لتلك المآدب الرسمية: البذلات الرسمية البيضاء، والعمائم الغريبة، وعصير الفاكهة والبروتوكولات الصارمة. كانت جلسات العمل أفضل. حاول محمود طمأنة الأميركيين إلى أنه إلى جانبهم. طلب تينيت المساعدة الفعلية، وقال إن هدف «السي.آي.إيه.» هو خرق أمن بن لادن، والقبض على مساعديه وإفشال عملياته. لا يزال الأميركيون مقتنعين بأن الاستخبارات الباكستانية يمكنها أن تقدم المزيد من المساعدة في تحديد مكان بن لادن وإيقاف خطته الإرهابية.

تمكنت «السي.آي.إيه.» وإدارة مكافحة المخدرات من المحافظة على بعض التعاون مع الشرطة الباكستانية وأجهزة الاستخبارات في مجال تهريب المخدرات. لقد تكلم المسؤولون حول احتمال استخدام شبكة مكافحة المخدرات للنيل من بن لادن(1054).

وصل تينيت ثم غادر بسرعة. يبدو أن العلاقة الرسمية بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية اكتسبت زخماً مستمراً بعد تلك الأعوام. انعقد الاجتماع تلو الآخر، وتبادل الضباط الزيارات الرفيعة المستوى. ومع مغادرة تينيت، بدأ التخطيط لزيارة محمود القادمة إلى الولايات المتحدة الأميركية. اعتقدوا أن بداية شهر أيلول/سبتمبر تبدو مناسبة.

# 31
# سيلقى العديد من الأميركيين حتفهم

كان أحمد شاه مسعود يحتفظ بمصدر ضغط (أو لوبي) في واشنطن عندما تسلّمت الحكومة إدارة بوش. أراد شخصاً قادراً على تنظيم الاجتماعات في الكابيتول هيل لمستشاريه من البانشير. كتب رسالة إلى نائب الرئيس تشيني، يطلب فيها من الإدارة الجديدة إعادة النظر في تحالفها مع باكستان. وسافر سرّاً إلى روسيا وإيران لدعم إجراءات إمداده. التقى مسعود في موسكو، عاصمة عدوّه الشيوعي السابق، مسؤولين من وزارة الدفاع أعربوا عن قلقهم بشأن توغّل بن لادن في الشيشان وآسيا الوسطى. أما في البانشير، فكان مسعود يستقبل زوّاراً أوروبيين قلقين بشأن تقلص قدرته على المحافظة على أرضه. وجّه إليه سياسي بلجيكي متعاطف دعوة إلى السفر في بداية نيسان/أبريل إلى ستراسبورغ وفرنسا، للمشاركة في جلسة البرلمان الأوروبي، وإلقاء خطاب حول خطر القاعدة. وافق مسعود. بدت احتمالات نجاحه العسكرية ضعيفة بعد خسارة قواعده في تالوقان. لقد اعترف لمستشاريه وزوّاره بأنه لا يستطيع التغلب على حركة طالبان على الأرض الأفغانية، ما دام يموّلها بن لادن، وتدعمها المدارس الباكستانية الدينية. كان يسعى إلى تأسيس ائتلاف سياسي وعسكري جديد داخل أفغانستان، ليتمكن من الضغط على حركة طالبان وإزالة سيطرتها على الأفغان العاديين. لذلك، كان يعرف أنه سيحتاج إلى مساعدة الولايات المتحدة، عاجلاً أم آجلاً(1055).

ضعفت علاقته بالـ «السي.آي.إيه.»، لكن مساعديه في الاستخبارات لا يزالون يتصلون بلانغلي ويتبادلون المعلومات. عرفوا خلال الربيع أن مسعود سيتوجه إلى فرنسا، فقرّر غاري شروين من فرع الشرق الأدنى، وريتش رئيس وحدة بن لادن، السّفر أيضاً إلى باريس(1056).

تعود سمعة مسعود، وأسطورته، إلى رفضه مغادرة الأراضي الأفغانية في أصعب الأوقات. وفي منتصف العمر سمح، لنفسه ولعائلته بالتمتع ببعض مظاهر الراحة أكثر مما كان يحصل عليه في بانشير في أوائل الثمانينيات، لكن بحدود الرفاهية التي توفّرها مدن مثل طهران ودوشانبي. كان العديد من مستشاريه الكبار، مثل عبد الله، يسافرون إلى مدن أوروبية وأميركية بانتظام. لكن مسعود لم يفعل مثلهم. تعتمد قوّته السياسية بين الأفغان على ادعائه أنه أشجع مقاتل على الأرض الأفغانية وأكثرهم استقامة، وينبع ادعاؤه من الحقيقة البحتة. لقد تلقى مسعود تعليمه في مدرسة «ليسيه» كابول. ولا يزال يحتفظ بمهاراته في اللغة الفرنسية. كانت باريس في شهر نيسان/أبريل خياره الأفضل بعد تسعة وأربعين عاماً.

اكتشف شروين في الفندق أنه تم تسجيله رسمياً عنصراً من الوفد الأفغاني برئاسة مسعود. لقد اتّخذ هذا التدبير مسعود خليلي، مساعد القائد الذي رافق شروين في رحلته الأولى إلى كابول في العام 1996، وقام بتسجيل صديقه من «السي.آي.إيه.» على لائحة الوفد الأفغاني بكل براءة. لكن تم «التعريف» عن شروين علناً كضابط مرسل من «السي.آي.إيه.» إلى جهاز الاستخبارات الفرنسية. من المؤكد أنهم كانوا يراقبون لائحة الضيوف ويتحقّقون من الغرف. واليوم أصبح الفرنسيون، الذين غالباً ما يُزعجون فرع الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، يمتلكون المزيد من الأسباب للتساؤل عن علاقة مسعود(1057) بالـ «السي.آي.إيه.».

التقيا ضمن مجموعة كبيرة. كان ظهر مسعود يؤلمه، ولم يكن يبدو بحالة جيدة. لقد ظهر خط رمادي بين شعره. لم يتوان قط. لا يزال يعمل طوال الليل، ويسافر بفرح على متن طائرات الهليكوبتر المهملة في مهمات استطلاعية في بانشير. لكنه يشيخ كالأسد. وبرغم ذلك، لا يزال قوياً، وملكياً.

أراد الأميركيون أن يؤكدوا له أن «السي.آي.إيه.» ستستمر في إرسال دفعاتها المنتظمة من بضع مئات من آلاف الدولارات وفقاً لتبادل المعلومات الاستخبارية بينهم، على الرغم من توقف زيارات الوكالة أخيراً إلى بانشير. كما أرادت «السي.آي.إيه.» أن تعرف كيف يقيّم مسعود وضعه العسكري مع اقتراب موسم القتال الربيعي في أفغانستان. هل سيصمد هناك؟

ادّعى مسعود أنه يستطيع الصمود. اعتقد أنه يستطيع الدفاع عن مناطق نفوذه في شمالي شرق أفغانستان، وهذا كلّ ما يقدر عليه. لقد أصبح الهجوم المعاكس ضد طالبان أصعب مع ضعف موارده. لذلك، لم تكن السيطرة على كابول قط في حساباته. أخبر مسعود ضباط «السي.آي.إيه.» بهدوء، بأنه يجب على حكومة الولايات المتحدة أن تتصرّف قبل أن ينهار. فأجابه الأميركيون بأنهم سيستمرون في المحاولة. لقد تسلّمت إدارة جديدة في واشنطن، كما يعرف الجميع.
وستستغرق وقتاً لتستقر وتطّلع على المعلومات اللازمة، لكنها ستكون فرصة أيضاً لمراجعة السياسات(1058).

كان مسعود يشكّ في أنهم يمتلكون الوقت الكافي. فبعد أيام، صرّح في مؤتمر صحافي في ستراسبورغ، «سيُلحق هؤلاء الإرهابيون الأذى بالولايات المتحدة وأوروبا في القريب العاجل، إذا لم يساعده الرئيس بوش، وعندئذ سيكون الوقت متأخراً جداً»(1059).

يعتقد مسعود أن حركة طالبان تريد تدميره أو نفيه. لذلك ستحاول القاعدة الاتصال بالمقاتلين الإسلاميين في المناطق النائية في أوزبكستان وطاجكستان لتتقدّم نحو وسط آسيا، وتعزز أسطورة بن لادن كفاتح الأراضي الإسلامية الضائعة. لن تتمكن طائرات مسعود الهليكوبتر المتهرئة،

وخطوط إمداده المرقعة، والمتطوعون البانشير، من إيقاف هذه القوة الهائلة. يمكنه أن يرتدّ إذا قامت القوى الخارجية بالضغط على باكستان والإمارات العربية في الخليج المحافظتين لوقف الإمدادات عن طالبان أو تضييقها. ونظراً إلى عجز مسعود عن ضرب خطوط الإمدادات تلك عسكرياً، عليه مهاجمتها سياسياً. ولهذا السبب، حضر إلى البرلمان الأوروبي. ولذلك، ضغط على مساعديه لممارسة نفوذهم على الكونغرس الأميركي، واستمالته إلى قضيتهم(1060).

كان مسعود في الوقت عينه، يأمل استغلال ضعف حركة طالبان داخل أفغانستان. لقد أطلق على هذا الجزء من استراتيجيته «العودة الجديدة». أخذ مسعود يحاول على مدى عام كامل إعادة إحياء «الشورى» («لويا جيرغا») أو المجلس الحاكم، الذي يجمع خصوم طالبان من كل مجموعة عرقية صغيرة وكل منطقة: من كيتّا وباكستان استعدّ حامد قرظاي من بين مناطق قندهار التابعة لقبائل الدرّاني. دخل إسماعيل خان غربي أفغانستان من إيران، وكان يقود ثورة بالقرب من هيرات. كريم خليلي، أبرز قائد شيعي في البلاد، عاد من المنفى إلى مقاطعة باميان للعمل ضد طالبان. وتسلّل حاجي قادير، وهو سياسي سابق من الباشتون في جلال آباد، إلى مقاطعة كونار لقيادة ثورة محلّية. أما عبد الرشيد دوستوم، فعاد إلى أفغانستان من المنفى، وحارب خلف خطوط حركة طالبان في الجبال الشمالية القاسية(1061).

كان العديد من شركاء مسعود في «العودة الجديدة» جزءاً من حكومة الجهاديين الفاشلة في كابول خلال بداية التسعينيات، قبل ظهور حركة طالبان. كما كان العديد منهم سيئي السمعة بسبب حروبهم العنيفة بعضهم ضد بعض، خلال المراحل الأولى. لكنهم اليوم عادوا جميعاً إلى أفغانستان. اتفقوا أقله خطّياً، على تقاسم السلطة والالتزام بالمبادئ المشتركة وشبه الديموقراطية المتعلقة برؤية مسعود وشخصيته.

كان حائراً من عدم ملاحظة الولايات المتحدة، وسط صراع الحياة أو الموت هذا ضد القاعدة، القدراتِ السياسيةَ والعسكرية لتحالف الفصائل المختلفة ضد طالبان، التي كان ينظمها على الأرض الأفغانية. دعا مسعود خلال ذلك الربيع محاميته الجديدة في واشنطن، أوتيلي إنغليش، وكانت بمنزلة «اللّوبي» الأفغاني، بعدما عملت لحساب لجنة تحرير أفغانستان خلال الثمانينيات، للقائه شمالي أفغانستان. وبالتعاون مع مسؤول علاقاته مع «السي.آي.إيه.»، أمر الله صالح، الذي يلبي الترجمة، سجّل مسعود الجلسات على شريط فيديو لإنغليش حول تغيّر طبيعة أفغانستان الداخلية، ومواطن قوة القاعدة وضعفها، والتدخلات الأجنبية في الحرب، واستراتيجيته الخاصة. أمل مسعود ومساعدوه أن تستخدم إنغليش أفكار القائد لتغيير وجهات نظر الكونغرس أو وزارة الخارجية.

أخبرها مسعود بأن «الإجراءات المتطرفة التي تمارسها حركة طالبان قد حطّمت الباشتون». «يسأل الملا الباشتون العاديين اليوم، فهو يعرف القصة، لكنه يطرح الأسئلة ببساطة: لماذا لا توجد مدارس؟ لماذا يمنع تعليم المرأة؟ لماذا لا يسمح للمرأة بالعمل؟». لقد قال مسعود إنه تم استيراد

عقائد حركة طالبان الدينية من باكستان، وفرض تطبيقها بصلابة. لقد بدأ القادة الدينيون الأفغان التقليديون في القرى، بتحدّي تلك المراسيم(1062).

تابع مسعود قائلاً: إن العرب ومؤيدي حركة طالبان الباكستانيين، هم الأساس في تبدل نتيجة الحرب لمصلحة طالبان. قام مسعود بإخبار إنغليش «أن مسألة شعبية أسامة خارج أفغانستان قصة مختلفة تماماً، مؤكداً خلاف ذلك داخل أفغانستان». «نعتبر أنا وزملائي، بن لادن مجرماً. لقد ارتكب جرائم ضد شعبنا. ربما كنا نكنّ للعرب بعض الاحترام في ما مضى، ويعتبرهم الناس من المسلمين. لقد حلّوا علينا ضيوفاً. لكنهم أصبحوا اليوم مجرمين. إنهم طغاة ووحوش. وشعورنا لا يختلف أيضاً تجاه الباكستانيين الذين يؤيدون حركة طالبان». ونتيجة لذلك، كان يتنامى الاستياء من نظام طالبان ومن طروحات القادة الدينيين، «في عمق» المجتمع الأفغاني.

سألها مسعود «كيف سيواجههم؟». لقد طرح استراتيجية تعتمد على الضغط العسكري محلياً، ومناشدة الدعم السياسي عالمياً. وبينما كان حلفاؤه يكسبون بعض الثورات الصغيرة في أرجاء أفغانستان، كان مسعود يطرح قضيتهم حول العالم من منطلق «الإجماع الشعبي والانتخابات العامة والديموقراطية». «يسعى بن لادن وحركة طالبان إلى تأسيس إماراتهم وخلافاتهم، ما يتناقض تماماً مع ما نريده». كان مسعود يصرّ على أنه لا يسعى إلى إعادة إحياء حكومة كابول التي سقطت في بداية التسعينيات. لقد أوضح لإنغليش «أنه يجب مشاركة كل شيء». «هذا هو شعارنا، وما نؤمن به. نحن نؤمن بإسلام معتدل، بينما هم يؤمنون بالتطرّف».

كان زوّار مسعود يسألونه عمّا يريده من الولايات المتحدة، فيجيبهم «أولاً، الدعم السياسي»؛ وثانياً، «المساعدات الإنسانية» التي لا يتم «هدرها في باكستان». وبالنسبة إلى تكاليف الإدارة ونظام الأمم المتحدة، كان بحاجة إلى الغذاء والمساعدة الطبّية في الميدان شمالي أفغانستان، لدعم مؤيديه ومجموعته الضعيفة من الحلفاء الثوار. «كما يحتاج بالتأكيد إلى المساعدة المالية». سيتمكن من شراء معظم المعدات العسكرية التي يحتاج إليها من روسيا بواسطة الأموال النقدية، لكنه لم يكن يحصل على المساعدة الكافية من خلال التبرعات المباشرة. وأخيراً أخبر إنغليش بتوتر العلاقات بينه وبين «السي.آي.إيه.». وأخذ يشرح لها «أن بنيته الاستخبارية منهمكة بجمع المعلومات التكتيكية اللازمة في حربهم، لأنها من أولويته». وأعرب عن «استعداده لمواجهة الإرهاب مباشرة. لكن موارده محدودة جداً»(1063).

التقت إنغليش في طريق عودتها إلى واشنطن، ضابطاً من «السي.آي.إيه.» في أوزباكستان، وأطلعته على الرسالة التي تحملها إلى الكونغرس وإدارة بوش.

تمنّى لها رجل «السي.آي.إيه.» النجاح.

فتعجّبت، لأن مكتب اللوبي التابع لها لا يتمتع بعلاقات جيدة مع «السي.آي.إيه.».

«حقّاً؟ أتعني ما تقول؟».

«بالتأكيد. كنت أطالب بما تقولينه اليوم، منذ أشهر، ولا ألقى أي جواب. كنت أطالب به منذ سنين، ولا أحصل على أي ردّ»(1064).

وصل بيتر تومسون، سفير الولايات المتحدة السابق إلى المقاومة الأفغانية، إلى دوشانبي في حزيران/يونيو. تقاعد تومسون من سلك السياسة الخارجية، وأصبح اليوم يلقي المحاضرات وينشر التقارير المندّدة بالاستخبارات الباكستانية وحركة طالبان. تبعه حامد قرظاي وعبد الحقّ إلى فيلاً لقضاء الإجازة في توسكاني خلال ذلك الخريف. طلبا إليه السفر إلى طاجكستان لمقابلة مسعود والانضمام إلى حملتهم السياسية الشاملة. وافق تومسون، شرط أن تنتج من الاجتماع استراتيجية سياسية حقيقية. قبل عشرة أعوام، ترأس تومسون «قادة الشورى» حيث يقوم مسعود بدور أساسي، وهو مزيج من الضغط العسكري والمناشدة السياسية المشابهة لخطة مسعود الحالية. في ذلك الوقت، عارضت «السي.آي.إيه.» تومسون، وفضّلت التعاون مع الاستخبارات الباكستانية. واليوم أعاد تومسون إحياء أفكاره، بتشجيع من قرظاي وعبد الحقّ، ووضع استراتيجية سرّية لمسعود.

بقي تومسون على اتصال بزملائه السابقين، في خلال سنيّ خدمته في الحكومة، لكنه شعر بأن «السي.آي.إيه.» أصبحت تتوخّى السرّية أكثر من أي وقت مضى. استنتج تومسون على مرّ الأعوام، أن فشل السياسات الأميركية في أفغانستان ينبع جزئياً من عزلة الوكالة في السرية التامة التي تسعى «السي.آي.إيه.» دائماً إلى العمل بموجبها. اعتبرت الوكالة أن الرئيس زبون لديها. فهي تحافظ على حرّيتها في العمل من خلال إبعاد وزارة الخارجية وصانعي السياسات. وعندما ترتكب الوكالة بعض الأخطاء، مثل قضية «خليج الخنازير» وقلب الدين حكمتيار، لا يتم التدقيق كثيراً في تحليلاتها. وعلى العكس، عندما تكون في المسار الصحيح، كما كان الوضع مع مسعود في أواخر التسعينيات، فغالباً ما تواجه المشاكل في إيجاد الحلفاء في واشنطن المسيّسة(1065).

أخذ مسعود في منزله في دوشانبي، يشتكي لتومسون من أن الثوار من حلفائه المتفرقين في أفغانستان لا يحرزون أي تقدّم مهم، وأن الإمدادات لم تكن مناسبة. كانت عائلة قرظاي تتعرض للضغوطات في قندهار وباكستان. قام مسعود بإخبار تومسون أن «دوستوم يعتقد أن الأوزبكستانيين كافة سيشاركون في انتفاضة عند عودته». لكن ذلك لم يحدث. «لا أعتقد شخصياً أن انهيار حركة طالبان وشيك».

أراد مسعود بناء أكبر ائتلاف ضدّ حركة طالبان. ومن أجل ذلك، كان مستعداً للتخلّي عن خلافاته القديمة، ربط حلفه الشمالي بالملك المنفي ظاهر شاه في روما. طلب مسعود من تومسون إقناع الملك بالانضمام إلى حلفه. قال له أن «يتحدث إلى ظاهر شاه، ويخبره بأنه موافق على ترؤسه الدولة».

ربما سيقنع هذا التحالف الكبير بين الباشتون والطاجيك أخيراً الحكومةَ الأميركية بتغيير سياستها. بعد ظهر أحد أيام فصل الربيع، أطلع مسعود تومسون وعبد الحق «على وسيلتين لإنهاء الحرب: الأولى عسكرية، والأخرى هي الضغط الأميركي على باكستان»(1066).

أخبر بوش في خلال ذلك الربيع، كوندوليسا رايس في المكتب البيضوي بعد جولة من التقارير حول تهديد القاعدة: «تعبت من ملاحقة الإرهاب. أريد أن ألعب في الهجوم»(1067).

عقد مندوبو اللجنة اجتماعهم الأول، برئاسة ستيفن هادلي، لبحث قضية بن لادن وأفغانستان في 30 نيسان/أبريل. حذّرت «السي.آي.إيه.» خلال عرضها، من «المزيد من الهجمات». فالقاعدة «أخطر مجموعة واجهتها حتى اليوم». قاموا بمراجعة الخيارات المتبقية من جلسة إدارة كلينتون الأخيرة عن هذا الموضوع، التي جرت منذ أربعة أشهر. حدّد ريتشارد أرميتاج اتجاهاً سياسياً جديداً. طالب بأن يكون تدمير القاعدة هو الهدف الأول لأميركا في جنوبي آسيا، قبل التحكم في الأسلحة النووية. قال أرميتاج إن هدفه «ليس إعاقة القاعدة فحسب، بل ملاحقة عناصرها والقضاء عليهم». وطلب المندوبون إلى «السي.آي.إيه.» إعادة استخدام خطتها في تقديم المساعدة السرّية إلى مسعود على نطاق واسع، ليتم التوصل إلى لائحة نهائية بالمعدات والأهداف العسكرية، وإدماجها بأهداف سياسية أخرى، وتقديمها إلى المجلس كلّه(1068).

دعم المندوبون الاختبارات المستمرة على طائرة الـ «بريداتور» المسلّحة، على الرغم من وجود تساؤلات عديدة عن كيفية إطلاق الصواريخ بالتحديد إذا تم إرسال الطائرة من دون طيّار إلى أفغانستان. وطلبوا إلى البنتاغون مرة ثانية تطوير خطة عسكرية للطوارئ لمهاجمة أهداف القاعدة.

أصبح بول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع المؤثر في بوش، يدرك اليوم «أن الحرب ضد القاعدة تختلف عن ملاحقة أعمال إرهابية فردية». ويعتبر ذلك تغيّراً في إدارة الإرهاب منذ تولي الجمهوريين السلطة في آخر مرة. لاحظ ولفوفيتز «أنها تشمل عناصر القوى الوطنية كافة، وليست محدودة بالمجتمع الاستخباري فحسب». أما على الصعيد الإقليمي، فقد استنتج أنه يمكن تدمير القاعدة «من دون الاعتراف بالدور الذي تلعبه حكومة أفغانستان»(1069).

سجّل قرار المندوبين بوضع بن لادن على رأس أولوياتهم تغييراً عن أعوام إدارة كلينتون، حيث كان الرئيس ومساعدوه يصنفون الإرهاب في المرتبة الثانية أو الثالثة في أحاديثهم الخاصة مع مشرّف والآخرين. وبرغم ذلك، يجب على لجنة البيت الأبيض، التي استغرقت وقتاً لتبدأ، تصنيف العديد من الأسئلة القديمة نفسها حول باكستان التي حيّرت كلينتون.

يبدو هذا البلد خطيراً جداً. استنتج ولفوفيتز «أنه لا تمكن ملاحقة الحكومة الأفغانية من معرفة المشاكل في علاقتك بباكستان بشكل خاص، وكذلك بالدول المجاورة الأخرى». وبحلول شهر نيسان/أبريل أصبح الدبلوماسيون في وزارة الخارجية مقتنعين بأن باكستان لا تنوي بكل بساطة وقف مساعدتها لحركة طالبان. هل تحاول الولايات المتحدة مرة ثانية إصدار إنذارات دبلوماسية لإسلام آباد؟ وماذا سيحدث إذا لم تستجب باكستان؟(1070) والأهم من ذلك كله، كيف سيحاولون القضاء على القاعدة، التي تسلّلت إلى الجيش والاستخبارات الباكستانيين، من دون تقويض باكستان؟

قرّر المندوبون عدم الاستعجال ومراجعة تلك الأسئلة قبل تسليم أي أسلحة سرّية جديدة أو أموال إلى مسعود أو حلفه الجديد المعارض لحركة طالبان. وخلال اجتماع في أواخر شهر أيار/مايو، وجّهت رايس سؤالاً إلى تينيت وبلايك وكلارك حول «لعب دور الهجوم» ضد القاعدة. وبالاستناد إلى وجهة نظر خليل زاد، لم تشأ رايس الاعتماد على الحلف الشمالي حصرياً. ومن جهته كرّر كلارك، مطلبه الفاشل، المتعلق بتحويل الأموال إلى مسعود فوراً للمحافظة على نشاطه. في تلك الأثناء، أعلنت الإدارة أن سياستها تجاه أفغانستان لم تتغيّر. وبينما كان يخصص أولويات الميزانية أمام مجلس الشيوخ، بعد أسبوعين على اجتماع القاعدة، لم يذكر كولين باول أفغانستان سوى مرة واحدة لطلب 7 ملايين دولار أميركي. قال إن تلك الأموال ستُستخدم لتعزيز التعاون الإقليمي في الطاقة ومكافحة دعارة الأطفال(1071).

تدفّقت تقارير «السي.آي.إيه.» المتعلقة بخطر بن لادن في خلال ذلك الربيع، إلى مستوى لم يشهده مركز مكافحة الإرهاب سابقاً. اعتقد تينيت أن التهديدات التي يتعرضون لها من التنصت والعملاء، كانت مخيفة بحيث لم يشهد لها مثيلاً. واعترف كوفر بلايك لاحقاً بأنه أصبح مقتنعاً خلال ذلك الربيع، بأن القاعدة ستوجّه ضربة عنيفة. لم يتمكن من تحديد المكان، لكنه اعتقد أن شبه الجزيرة العربية وإسرائيل هما من الأهداف المحتملة. استمرّت عمليات التنصت على عناصر القاعدة المشتبه فيهم، تشير إلى هجمات متعددة، البعض منها في مراحل التخطيط الأخيرة. أخبر رايس في أواخر شهر أيار/مايو، أن معدل التهديد
هو«7» من أصل «10»، ويقترب من الـ «8»، لكنه ليس بحدّته التي شعر بها خلال الألفية. وخلال جلسة مغلقة للجنة الاستخبارات في البيت الأبيض في 4 حزيران/يونيو، اعترف نائب بلايك «بأن ما يثير قلقه، أنهم على شفير التعرض للمزيد من الهجمات التي تتصف بطابع مميت على نطاق واسع». وقد تشمل أسلحة الدمار الشامل . سيصبح المعدّل 200. فقد اقترب موعد الألعاب الأولمبية(1072).

بين شهري أيار/مايو وتموز/يوليو، أفادت وكالة الأمن القومي عن 33 عملية تنصّت مختلفة تشير إلى احتمال وقوع هجوم قريب من القاعدة. كانت التحذيرات السرية من الهجمات الإرهابية تظهر في نظام الرسائل الحكومية الآمنة كل يوم تقريباً. أصدرت الـ «أف.بي.آي.» 216 تحذيراً سرّياً داخلياً بين 1 كانون الثاني/يناير و 10 أيلول/سبتمبر 2001، من بينها ستة تحذيرات من هجمات محتملة على المطارات والخطوط الجوّية. أصدرت وزارة الخارجية تسعة تحذيرات منفصلة خلال الفترة نفسها إلى السفارات والمواطنين في الخارج، من بينها خمسة تحذيرات عامة للمواطنين الأميركيين حول العالم. وأصدرت إدارة الطيران الفدرالي 15 مذكّرة حول تهديدات إرهابية محتملة ضد الخطوط الجوية الأميركية(1073).

لقد سخر منهم بن لادن علناً. التقى بالقرب من الحدود الباكستانية في بداية شهر حزيران/يونيو مراسلاً صحافياً يدعى بكر عطياني، من شبكة تلفزيونية فضائية. قال عطياني بالنسبة إلى مقابلته مع بن لادن ومساعديه العرب، «إنهم تكلّموا على وقوع هجمات ضد منشآت أميركية وإسرائيلية في الأسابيع القادمة. من الواضح أنهم أحضروني إلى هنا لسماع هذه الرسالة». شعر بأن بن لادن واثق بنفسه. «ابتسم... كأن بن لادن يملك مملكته العربية الخاصة به في جنوبي أفغانستان. وبعد إجراء روتيني، التقى الدبلوماسيون في وزارة الخارجية ممثلي طالبان في باكستان في 26 حزيران/يونيو، وحذّروهم من تحميلهم مسؤولية أي هجمات مباشرة يقوم بها بن لادن»(1074).

ظهر شريط تجنيد بن لادن مدة 100 دقيقة في مدينة الكويت. وراح بن لادن يصرخ في نهاية الشريط: «الدماء والدمار، الدماء والدمار. نبشّركم بعودة القوّات الإسلامية»(1075).

خلال مراجعة تقارير التهديدات طلب بوش إلى مستشاريه «إيجاد طريقة للنيل من ذلك الرجل». لكن عندما التقت رايس وزير الخارجية الباكستاني في أواخر شهر حزيران/يونيو، كرّرت تحذيرها المملّ، من أن باكستان ستحاسَب على تصرفات حلفائها. وبعد أسبوع، طلب كلارك إلى المسؤولين في إدارة بوش التفكير في معدّل الضغط الذي سيمارسونه على باكستان بعد هجوم القاعدة التالي، وليطبّقوا تلك السياسة مباشرة. لكن، تم تجاهل مطالبه. كتب بوش إلى مشرّف عن خطر الإرهاب بعد أسابيع قليلة، إلا أن رسالته لم تختلف كثيراً عن التماساته السابقة(1076).

كان ملف السياسة الرئاسية المعدّ لصوغ استراتيجية الحكومة الشاملة ضدّ القاعدة، يتقدّم ببطء عبر قنوات البيت الأبيض. وعندما أصبحت الخطة النهائية المتكاملة، التي تشمل الإمدادات التجريبية لمساعدة مسعود السرّية، جاهزة ليقوم المجلس بدراستها، استغرقوا مدة شهرين لتحديد تاريخ اجتماع مناسب لجميع المشاركين.

أفاد مركز مكافحة الإرهاب بشكل مشؤوم، أن العملاء الأساسيين في شبكة بن لادن بدأوا بالاختفاء، وأن بعضهم يتهيأ لعمليات انتحارية. وأصدر مجلس المجتمع الاستخباري لمكافحة الإرهاب، تحذيراً سرّياً في شهر حزيران/يونيو «حول محاولة المتطرفين السّنة المرتبطين

بالقاعدة الإعداد لهجمات كبيرة ستوقع ضحايا بأعداد كبيرة». وأشارت إلى أن إيطاليا وإسرائيل وشبه الجزيرة العربية، هي من الأهداف المحتملة. أعلن قائد فريق مكافحة الإرهاب في الـ «أف.بي.آي.» أنه «متأكّد بنسبة 98 في المئة» أن بن لادن سيشن هجوماً في الخارج. وأظهرت مراجعة لاحقة أن «أغلبية» المحللين في الاستخبارات يؤيدون هذه النظرية. واستنتج مستشارون آخرون أن «القاعدة جاهزة لشنّ هجوم إرهابي أو أكثر في الوقت عينه». وقد لفت بعض التقارير إلى احتمال حدوث تلك الهجمات على أرض الولايات المتحدة. وأفاد إنذار استخباري في بداية شهر حزيران/يونيو أن خالد شيخ محمد يقوم بتوظيف متطوّعين لتنفيذ هجمات في الولايات المتحدة، حيث «سيؤسسون علاقات مع زملاء لهم يعيشون هناك». وفي شهر تموز/يوليو، أفاد مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» أنه قابل مصادر عدّة أخيراً من أفغانستان. وقالت تلك المصادر «إن الجميع يتحدّثون عن هجوم وشيك»(1077).

في 10 تموز/يوليو، هيأت «السي.آي.إيه.» موجزاً للمسؤولين الكبار في إدارة بوش: «بالاعتماد على مراجعة المصادر كافة التي كانت تنقل المعلومات في الأشهر الخمسة الأخيرة، نعتقد أن بن لادن سيشن هجوماً إرهابياً كبيراً ضدّ مصالح الولايات المتحدة و/أو إسرائيل في الأسابيع القادمة. سيكون الهجوم ضخماً ومعدّاً لإيقاع أكبر عدد من الضحايا
ضدّ المنشآت أو المصالح الأميركية. لقد تم تهيئة تلك الهجمات. وستحدث مع درجة صغيرة من التحذير، أو من دون أي تحذير نهائياً»(1078).

وفي منتصف شهر تموز/يوليو، أحضر تينيت إلى البيت الأبيض رسماً ضخماً ليطلع رايس على شبكة التهديدات وأعضاء القاعدة الذين يلاحقونهم من باكستان إلى الشرق الأوسط. اتّصل تينيت برؤساء التجسّس في حوالى عشرين بلداً لطلب المساعدة. واتّصل نائب الرئيس تشيني بوليّ العهد السعودي [حينئذ] الأمير عبد الله. اعترف تينيت لاحقاً بأن «درجة الخطر بدأت تميل إلى الضوء الأحمر»، وأن إدارة بوش تدرك خطورة الوضع(1079). لكن تقارير التهديدات بقيت مبهمة وشاملة، كما كانت منذ العام 1998. كانت جزءاً من رسم كبير للتقارير الاستخبارية التي يتم إرسالها بشكل منتظم إلى المسؤولين في المجلس. في شهر حزيران/يونيو، لم يشر إلى بن لادن أو القاعدة سوى 18 تقريراً استخبارياً سرّياً من أصل 298، تم إرسالها إلى المسؤولين في إدارة بوش(1080).

وعملاً بطلب تينيت وبلايك، تعاونت مراكز «السي.آي.إيه.» حول العالم خلال ذينك الصيف والخريف مع الشرطة المحلّية وأجهزة الاستخبارات لإلقاء القبض على عناصر القاعدة واستجوابهم. لقد كان الهدف، وفقاً لتينيت، «تصعيد هموم بن لادن الأمنية، وتأخير الهجمات التي تخطط لها منظمته، أو إلغاءها». لقد نجحوا في إيجاد صواريخ ومتفجرات في اليمن، وإفشال مجموعة تخطط لضرب مبان أميركية في اليمن، وتوقيف عناصرها، وكشفوا عدّة خطط لهجمات على نطاق صغير، وحصلوا على أسماء جدد لمتهمين لوضعها على لائحة مراقبة الحدود الأميركية. كما قاموا بتتبّع تقارير تتعلق بفريق تابع لبن لادن يحاول تهريب المتفجرات من الولايات المتحدة إلى كندا. جمعوا تقريراً حول مؤامرة لإسقاط طائرة في السفارة الأميركية في

نيروبي، أو تفجيرها بسيارة مفخّخة. لكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على معلومات كافية حول الهجوم الكبير الذي أشارت إليه عمليات التنصت الهاتفية لوكالة الأمن القومي. لقد شككوا في أن تكون القاعدة ترسل إليهم معلومات خاطئة من خلال عمليات التنصت تلك، لكنهم استنتجوا أن المؤامرات كافة صحيحة. إلا أنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي معلومات عن الجناة(1081).

انتاب ضباط مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» خلال ذلك الصيف، شعور متنام بالقضاء والقدر. كانوا يعملون ساعات طويلة، ويتبادلون الترجمات العربية عبر حواجز مكاتبهم «بنظرات رعب» في أعينهم. كانوا يخشون عندما يلقون القبض على عنصر من شبكة بن لادن، انضمام خمسين آخرين إليه. ويقولون بعضهم لبعض، بحسب ما يروي أحد الضباط: «إنهم سيفشلون في تحقيق الهدف. ولا يستطيعون المتابعة». قال قادة «السي.آي.إيه.» لاحقاً، مثل نائب المدير جون ماكلوفين، إن بعض المسؤولين في إدارة بوش الذين لم يختبروا موجات التهديد والذعر السابقة، لا ينفكّون يشككون في صحّة المعلومات الاستخبارية، متسائلين علناً إذا ما كانت مخطئة. وفي شهر تموز/يوليو، قام هادلي بإخبار تينيت بأن بول ولفوفيتز يشكك في التقارير المتعلقة بالتهديدات. كما قال ضابط قديم في «السي.آي.إيه.» في مركز مكافحة الإرهاب، إنه يخشى حدوث كارثة قد تؤدي إلى استقالته وافتضاحه أمام الرأي العام(1082).

شعر آخرون ممّن يتلقون تقاريرهم السرّية، بالإحباط نفسه. بقيت تقارير «السي.آي.إيه.» المتواصلة المتعلقة بالتهديدات، غير محددة وتكهّنية، أو تعتمد على مصادر غير موثوق بها في حالات عديدة. ونشر مركز مكافحة الإرهاب خلال ذلك الصيف تقريراً سرّياً بعنوان «خطر تهديد هجوم القاعدة مستمر بشكل غير محدد». واعترف تينيت لاحقاً بأن تقارير «السي.آي.إيه.»، كانت «ناقصة من حيث التفاصيل التي يمكن العمل بموجبها». والأسوأ من ذلك، أن التقرير الأكثر خطورة في خلال ذلك الصيف، الذي يشير إلى وقوع هجوم كبير، «كان مبهماً بشكل كبير»(1083).

حمل التقرير الرئاسي اليومي الذي قُدّم إلى بوش في 6 آب/أغسطس في مزرعته في كراوفورد، تكساس، عنوان «بن لادن مصمّم على تنفيذ هجومه في الولايات المتحدة». تطرّق التقرير إلى أسئلة طرحها بوش حول التهديدات المحلية، وتضمّن احتمال سعي عملاء بن لادن إلى خطف طائرات. كان تهديد خطف الطائرات، الذي ذُكر مرّتين، أحد الاحتمالات العديدة التي ذكرها التقرير. لم يحصلوا على معلومات محددة حول مكان حدوث مثل هذا الهجوم وزمانه، وإمكانية تنفيذه. وقال تينيت إن معلوماتهم تشير إلى أن القاعدة أجّلت هجوماً كبيراً(1084).

بعد مرور تسعة أيام، أخبر كوفر بلايك البنتاغون خلال المؤتمر السرّي السنوي حول مكافحة الإرهاب، «أنهم سيتعرضون قريباً لهجوم. وسيلقى العديد من الأميركيين حتفهم، ومن المحتمل أن يكون على أرض الولايات المتحدة الأميركية»(1085).

وفي منتصف شهر تموز/يوليو، طلب تينيت من مركز مكافحة الإرهاب البحث في ملفاته عن أي دليل أو اسم يمكن أن يقودهم إلى أكبر وأخطر مؤامرة لبن لادن. أراد إيجاد «روابط بين التقارير وأي علاقات بتهديدات واستراتيجيات إرهابية سابقة»(1086). ورجع ضباط «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» إلى صور المراقبة والبرقيات التي أُرسلت من كوالالمبور في ماليزيا في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2000. وللمرة الأولى، لاحظ أن خالد المحضار ونواف الحمزي، اللذين التقطت صورهما وتمّت مراقبتهما خلال تلك العملية، يملكان تأشيرة سفر غير مقيّدة ولا مسجّلة إلى الولايات المتحدة، ومن المحتمل أن يكونا دخلا البلاد، ولا يزالان مقيمين فيها. وعلى الرغم من ذلك، لم يتم وضع اسم أي منهما على لائحة المراقبة.

يبدو أن «السي.آي.إيه.» لم تبلّغ الـ «أف.بي.آي.» رسمياً بهذا الاكتشاف المهمّ. ولم يتم توجيه سوى طلب روتيني للبحث عن محضار، إلى مكتب نيويورك. ولم يتمكن المحقّقون لاحقاً من إيجاد أي دليل على تبليغ كلارك أو مجلس بوش أو الرئيس بهؤلاء المشتبه فيهم المفقودين من أي جهة(1087).

كان الرجلان في تلك الأثناء، يعيشان في نزل رخيص في لوريل، ويرتادان جامعة بارك، في ميريلاند، على بعد عشرات الأميال من البيت الأبيض.

دخل المهاجمون التسعة عشر إلى الولايات المتحدة بأمان منتصف شهر تموز/يوليو. كان خمسة عشر مهاجماً من المملكة العربية السعودية، من بينهم المحضار والحمزي واثنان آخران من الإمارات العربية المتحدة. وكان محمد عطا الوحيد من الجنسية المصرية، وزياد جرّاح الوحيد من الجنسية اللبنانية. كان أعضاء خلية هامبورغ الذين سافروا من ألمانيا إلى قندهار في أواخر العام 1999، ونجحوا في الالتحاق بمدارس الطيران الأميركية، من بين مجموعة القادة الذين تلقوا دروساً في الطيران. في بداية العام 2001، انضمّ المتآمرون المدربون على الطيران في الولايات المتحدة، إلى المجندين السعوديين الذين لم يتلقوا أي تدريب على الطيران، الذين وصلوا إلى فلوريدا ونيوجيرسي بين 23 نيسان/أبريل 2001 و29 حزيران/يونيو 2001، ثم استقرّوا في شقق وفنادق مدة قصيرة بانتظار إشارة الانطلاق. أتى السعوديون الذين قدموا أخيراً من المناطق المعارضة الجنوبية الغربية في المملكة. لم يلتحق بالجامعة سوى قلة منهم، بينما لم يتلق آخرون أي تعليم عال. كان بعضهم لديه تاريخ من إدمان الكحول والإحباط. ولم يُظهر معظمهم هذه الدرجة من التعصّب الديني قبل تعرّفهم إلى تلك الأفكار الأصولية التي غيّرت نظرتهم بشكل مثير. قام معظم خاطفي الطائرات بزيارة أفغانستان للمرة الأولى تقريباً في العام 1999 أو 2000، بينما بدأ محمد عاطف وخليل شيخ محمد بتنظيم النسخة النهائية من خطتهما الانتحارية لخطف الطائرات. قال جورج تينيت لاحقاً «إنه تم إخبار معظم السعوديين بأكثر من مجرد توجّههم إلى تنفيذ عملية انتحارية في الولايات المتحدة»(1088).

كانوا يعيشون بانفتاح ولم يثيروا الانتباه إليهم. لم يلتزموا أي عمل. وكانوا يتنقّلون بشكل دائم. عبَر اثنان أو ستة منهم الحدود الأميركية بجوازات سفر تحمل سمات مزوّرة أو معلومات غير صحيحة، لكن لم ينتبه ضابط الجمارك والهجرة، إلى نيات السعوديين عندما أمروا بترحيلهم. كان يسود بين المتآمرين جوّ من التوتر والاتهامات، وتغيّر في تصميمهم مع اقتراب موعد إطلاق الهجوم. اختلف جرّاح وعطا، بينما راح الأول يتصرف من تلقاء نفسه ويمضي وقته مع صديقته. اعتقدوا أن الجراح كان ينوي الانسحاب من المهمة عندما قام بشراء بطاقة في اتجاه واحد ليراها في ألمانيا خلال صيف العام 2001، لكنه عاد لاحقاً. عاش المتطوعون السعوديون الذين راقبتهم «السي.آي.إيه.» في ماليزيا بانفتاح في جنوبي كاليفورنيا منذ بداية العام 2000. افتتح أحدهم، وهو نواف الحمزي، المدرج على لائحة الهاتف، حساباً في مصرف محلي، وأبلغ الشرطة عن محاولة سرقة في شوارع ضواحي فيرفاكس في فيرجينيا في 1 أيار/مايو 2001، مع أنه قرر التخلي عن توجيه أي تهم لاحقاً. بدأ السعوديان المشاركان في المؤامرة بالتغيب عن دروسهما في اللغة الإنكليزية والطيران، واستفزّا زملاءهما. في باكستان، كان خليل شيخ محمد قلقاً مثل مدير شركة متوسطة مثقلاً بالمشاكل، يتعرّض للضغط المستمر من بن لادن لتسريع موعد الهجوم، لكنه لا يستطيع إبقاء الطيارين الانتحاريين في الخطوط الأمامية على استعداد دائم. قام بحماية عطا من إرهاب بن لادن حول الوقت والأهداف، وحاول إعطاء المصري وقتاً أكبر، بالإضافة إلى الموارد التي يحتاج إليها حتى ينتهي المشروع. اختار عطا بداية شهر أيلول/سبتمبر بعد أن تأكد أن الكونغرس سيعقد جلسة. وعلى الرغم من إصرار بن لادن على استهداف البيت الأبيض، لا يزال عطا يفضّل «الكابيتول» لسهولة استهدافه. وأشارت الأدلة إلى أن القرار لم يتّخذ حتى اقتراب موعد الهجوم(1089).

كانت الأموال تصل إلى خاطفي الطائرات من معارف القاعدة المقيمين في الإمارات العربية المتحدة. يُدعى أحدهم علي عبد العزيز علي، وهو ابن عم محمد، استخدم «الويسترن يونيون» لتحويل الأموال ومكاتب تبادل العملات في دبي ومدن أخرى في الخليج لإرسال مبلغ قدره 500,119 دولار إلى محمد عطا وآخرين في مجموعته خلال فترة ارتيادهم المدرسة في فلوريدا وأماكن أخرى. ومصدر مالي آخر هو مصطفى الحوصاوي، شقيق أحد خاطفي الطائرات، أرسل إليهم 18 ألف دولار أميركي عبر «الويسترن يونيون». كما تلقى بدوره تحويلات الأموال المتبقية عن المجموعة، أي حوالى 42 ألف دولار، عندما أنهى خاطفو الطائرات أعمالهم في أواخر شهر آب/أغسطس 2001، وراحوا يستعدون للموت.

اهتمّ الحوصاوي بإضافة فائض الأموال إلى حسابه في مصرف «ستاندارد تشارتيرد» عبر الفيزا كارد. ثم سافر من الإمارات العربية المتحدة إلى كاراتشي وباكستان، ومن ثم اختفى(1090).

قام مسعود بإرسال مستشاره في الشؤون الخارجية، عبد الله، إلى واشنطن في شهر آب/أغسطس. تدبّرت أوتيلي إنغليش، «لوبي الحلف الشمالي»، بعض المواعيد في الكابيتول هيل. كان من الصعب إثارة انتباه أي شخص. كان عليهم التنافس مع اللوبي والمحامين الباكستانيين المدعومين، الذين يتلقون أعلى الأجور، مثل عضو الكونغرس السابق تشارلي ويلسون، الذي جمع مبالغ كبيرة

من الأموال لمصلحة الحكومة الباكستانية خلال الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي. حاول عبد الله وإنغليش ربط جهود اللوبي الخاص بهما بحامد قرظاي وشقيقه، قايوم، ليبرهنوا أن مسعود يحارب حركة طالبان إلى جانب حلفاء متعدّدي الأعراق. إلا أن الأعضاء الذين التقوهم لم يتمكنوا من المحافظة على لباقتهم. لم يكن هناك مجال للحصول على أي دعم مالي أو عسكري. ففي الواقع، لم يسمع ببن لادن سوى قلة منهم. حاولوا التركيز على موضوع حقوق المرأة في أفغانستان مع الديموقراطيين، لكن حجّتهم هذه أصبحت خاسرة مع انتهاء إدارة كلينتون. كما شعر كلّ من مسعود وقرظاي، وفقاً للوبي هذا الأخير، «بالإحباط والاستياء» بعد أسبوع مليء بالاجتماعات في الكابيتول هيل ووزارة الخارجية(1091). وفي خلال أحد الاجتماعات التي عُقدت في شهر آب/أغسطس، سأل ضابط من الدرجة المتوسطة في وزارة الدولة قايوم قرظاي «أنه يطلب بشكل أساسي التخلص من حركة طالبان، لكنه ليس متأكداً من استعداد حكومته لهذا القرار»(1092).

استاء عبد الله من الاستماع ثانية إلى حجج «الطالبان المعتدلة والطالبان المتطرفة... لقد أصبحت مهزلة». لكنه لاحظ أيضاً تلميحات مشجّعة من البيت الأبيض ومسؤولين كبار في وزارة الخارجية، من بينهم ريتشارد هاس، مدير التخطيط السياسي. لقد دعوا عبد الله إلى العودة في شهر أيلول/سبتمبر. لقد شعر باحتمال وجود تغيير في المقاربات المستقبلية، لكنه لم يكن متأكّداً(1093).

وبينما كان عبد الله في واشنطن، وصلت رسالة الكترونية من حامد قرظاي في باكستان. وجّهت الاستخبارات الباكستانية أمراً بنفي قرظاي، وأفاد بأنه لا يستطيع تأخير تنفيذه. يجب أن يغادر البلاد في نهاية شهر أيلول/سبتمبر 2001، أو يتم إلقاء القبض عليه.

كانت الاستخبارات الباكستانية تراقب حملة مسعود ضدّ حركة طالبان. كان المكتب التابع لها في أفغانستان مصمّماً على معارضة أي جهود لتحريض الثوار ضد الملا عمر من الأراضي الباكستانية.

كان حامد قرظاي منزعجاً. أراد التسلّل إلى أفغانستان للانضمام إلى دوستوم وإسماعيل خان وآخرين يقاتلون في حلف مسعود. لكنه لم يكن متأكداً من الوجهة التي سيقصدها، ولم يتمكن من الحصول على الدعم العسكري من الأميركيين. وتساءل عن رأي مسعود في هذا السياق.

اجتمع عبد الله وقايوم قرظاي في مقهى «ستار باكس» في «دوبون سيركل»، لمناقشة خيارات حميد. كانا يخافان أن تكون الاستخبارات الباكستانية تراقب اتصالاته وتعرف بخطته للدخول إلى أفغانستان. لقد ساهم كلّ ذلك في زيادة خطورة وضعه. فلم يمضِ سوى سنتين على اغتيال والد حامد في أحد شوارع كيتّا(1094).

قام حامد قرظاي بعد عدة أيام، بالاتصال هاتفياً بمسعود، وأخذ يشتكي له من «أنه لم يعد له مكان للبقاء في باكستان»(1095). هل يجب عليه أن يعبر سرّاً من الباكستان إلى قندهار على الرغم من مخاطر مواجهة قوّات حركة طالبان أو الأصوليين العرب أتباع بن لادن؟ أم يسافر أولاً إلى دوشانبي ويدخل أفغانستان من الشمال، ثم يأمل أن يتمكّن رجال مسعود من مساعدته على الوصول إلى مقاطعة أفغانية جبلية، حيث يستطيع قرظاي منها تحدّي حركة طالبان؟

كان ينتاب مسعود شعور قوي بأن قرظاي يجب أن يتوجه إلى الشمال. سيلقى أشدّ الترحيب في مناطق الحلف الشمالي. لا يجب أن يحاول السفر مباشرة إلى قندهار، بحسب نصيحة مسعود. فبرأيه لم تتهيأ بعد الأرض لشنّ حرب وطنية واسعة ضدّ حركة طالبان والقاعدة(1096).

# 32
# يا له من بلد مشؤوم

نقل جهاز استخبارات مسعود في بداية شهر أيلول/سبتمبر، تقريراً روتينياً إلى مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، حول عبور مراسلين صحافيين عربيين حدود الحلف الشمالي إلى كابول. كان تبادل المعلومات بين مسعود و «السي.آي.إيه.» يتمحور بشكل أساسي حول العرب والأجانب في أفغانستان. وعندما تأسر قوات مسعود أي شخص، أو تعرف بتحركات وحدات عسكرية تابعة لقيادات عربية، تقوم تلقائياً بإرسال التقارير عبر الخطوط المخصّصة لها التي تصل وادي بانشير مباشرة بلانغلي. في تلك الحالة، قام الضباط المكلّفون بالقضية من وحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب، بتسجيل تحركات الصحافيين العربيين. لكنها لم تثر اهتماماً خاصاً لديهم(1097).

كان الصحافيان يحملان آلة تصوير تلفزيونية ومعدات أخرى، وجوازي سفر بلجيكيين، ويدعيان أنهما من أصل مغربي. كان أحدهما قصيراً، مفتول العضلات وبرونزيّ اللّون. قصة شعره قصيرة، وحليق الذقن، ويرتدي ملابس ويضع نظّارات أوروبية. أما رفيقه فكان طويلاً وأدكن البشرة. يتحدّث أحدهما قليلاً اللغتين الإنكليزية والفرنسية، والآخر لا يتقن سوى اللغة العربية. وأظهرت أوراقهما أنهما دخلا كابول من باكستان بعد وصولهما من الخارج(1098).

تبلورت المؤامرة التي يمثلانها في شهر أيار/مايو السابق. كتب أيمن الظواهري، الطبيب المصري الذي كان الشريك الأقرب إلى بن لادن، رسالة تعريف بتخطيط القاعدة بلغة فرنسية ركيكة على جهاز الكومبيوتر الخاص به. وتفيد الرسالة أنه، بالنيابة عن مركز المراقبة الإسلامية في لندن، يخطط «أحد أفضل الصحافيين لدينا» لتصوير تقرير تلفزيوني عن أفغانستان. سيسعى إلى الحصول على مقابلة مع أحمد شاه مسعود. تضمّنت لائحة الأسئلة المقترحة المكتوبة باللغة الفرنسية على جهاز الكومبيوتر، سؤالاً يتضمن سخرية لاذعة: «كيف ستتعامل مع قضية أسامة بن لادن عندما تتسلم السلطة، وكيف ترى الحلّ لهذه المسألة؟»(1099).

يعتبر دسّ عملاء متخفّين تابعين للقاعدة، من كابول الواقعة تحت سيطرة طالبان، في مراكز مسعود بالقرب من حدود طاجكستان، عملية مروعة. كانت قوات مسعود على حذر دائم من المتطوعين العرب. حاولت القاعدة تهريب عملاء مزودين بالمتفجرات إلى بانشير السنة الماضية، لكنه تم القبض على الفاعلين. أما هذه المرة فقد هيأ مخططو بن لادن الأساطير الماكرة لقتلتهم بحذر، وكرّسوا تاريخ الجهاديين العرب الطويل في أفغانستان لتنفيذ عملية التسلّل هذه.

في الأعوام الماضية، وقف إلى جانب مسعود، عبد الربّ رسول سيّاف، صاحب اللحية البيضاء، الأفغاني الإسلامي المتحدّث باللغة العربية الذي تم اختياره أولاً من قبل الاستخبارات السعودية في العام 1980. لقد أصبح حجم قوّته العسكرية اليوم أصغر مما كان عليه في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات، عندما كان المتلقي المفضّل لمئات ملايين الدولارات المقدّمة على شكل مساعدات وأسلحة من جهاز الأمير تركي الفيصل، والدعاة المستقلين من دول الخليج.

حافظ سيّاف على مجمّع مراكزه المتواضعة خارج العاصمة، بعدما أصبح غير نافذ سياسياً بمرور الوقت. لم يعد عنصراً فاعلاً في الحرب. ونظراً إلى ماضيه الطويل كمضيف للمتطوّعين العرب في أفغانستان وعلاقاته الواسعة مع رجال الدين المسلمين العرب، أصبح صلة الوصل بين مسعود والأصوليين العرب. لم يكن مسعود مرتاحاً إلى سمعته في العالم الإسلامي السياسي الواسع. لكن ما إن سعى إلى المساعدتين الأميركية والأوروبية لعزل حركة طالبان، نجح في استمالة الجمهور العربي والجمهور الإسلامي لمواجهة حملة بن لادن المثيرة للفتن(1100).

اتّصل مخطّطو القاعدة بسيّاف واستغلّوا رغبة مسعود في أن يفهمه العالم العربي. اتّصل به مصري حارب إلى جانب سيّاف خلال الحرب ضدّ السوفيات عبر الهاتف ليوصي بالزوّار الصحافيين العرب. اعتمد سيّاف على الدعم المقدم إلى مسعود. ومن خلال ذلك، وعبر قنوات أخرى، شدّد الصحافيان على أنهما يعتزمان عكس صورة إيجابية عن الحلف الشمالي لمساعدة إعادة تأهيل سمعة مسعود أمام الجمهور العربي، وتعزيزها.

سمح مسعود بنقل الصحافيين بواسطة هليكوبتر من شمالي كابول إلى «خوجة بهو الدين»، وهو مجمع داخل حدود طاجكستان، حيث أنشأ مسعود مقراً له بعد خسارة تالوقان. نزل العربيان في منزل للضيوف تابع لوزارة الخارجية، يقيم فيه عشرات الصحافيين الأفغان
الآخرين والزّوار.

لكن مسعود لم يكن مسعجلاً لمقابلتهما. وعلى الرغم من رسائلهما ودعمهما، ضعف طلب مقابلتهما. مرّت الأيام ولا يزال مسعود شديد الانشغال. قاما بالتصوير حول «خوجة بهو الدين»، لكن اهتمامهما بدأ يتلاشى. لقد سعيا بجهد إلى الحصول على المقابلة، وأظهرا مؤهلاتهما، وفي النهاية أخبرا مضيفهما أنهما سيغادران إذا لم يصورا مقابلة مع مسعود قريباً(1101).

أصبحت أفغانستان بعد العام 1979، مختبراً للرؤية السياسية والعسكرية المصنّعة في الخارج، والمفروضة بالقوة. برزت اللغة والأفكار التي تصف الأحزاب والجيش والميليشيا الأفغانية مع أصحاب النظريات في الجامعات والمحاضرات في أوروبا والولايات المتحدة ومصر وديوباند. يحارب الأفغان مثل الشيوعيين أو المناضلين في سبيل الحرية. انضموا إلى جيوش المجاهدين ليحاربوا باسم «أمّة» إسلامية عالمية وهمية. لقد قدّمت أفغانستان، كأمة يافعة وضعيفة، بعض

الرجال الوطنيين الذين يستطيعون تقديم بديل يمكنه أن يحدد أفغانستان من الداخل. لقد كان أحمد شاه مسعود استثنائياً.

وبرغم ذلك، لم يصنع مسعود أفغانستان التي أصبح بطلها. فهو فشل كسياسي في بداية التسعينيات. وكان محدوداً بجذوره الإقليمية، ولاسيما عندما عزّزت الحرب الأفغانية العنيفة التقسيمية التوحّد العرقي. والأهم من ذلك كله، أنه كان معوّقاً بالمصادر الكبيرة التي يتمتّع بها خصومه في باكستان والمملكة العربية السعودية.

وجد، في نهاية حياته، بينما كان يحارب طالبان والقاعدة، إمكانية لإحياء نظرته الوطنية بالنسبة إلى أفغانستان، من خلال التحالف مع الولايات المتحدة. كان يرى شراكته كخطة تكتيكية لامعة، لا تعتمد على الأيديولوجيا، بل على المصالح المشتركة، والحاجة إلى إيقاف أسامة بن لادن ومتطوّعيه الجهاديين، وهزمهم.

لقد حارب مسعود أيضاً من أجل الأفكار السياسية. لم يكن «ديموقراطياً» بالمعنيين الأميركي والأوروبي للكلمة، برغم أنه كان من الممكن أن يصبح ديموقراطياً في حقبة السلام بعد الحرب. لقد كان متسامحاً وسط موجة العنف الرهيبة، وصبوراً، ومستعداً للعمل ضمن ائتلافات.

شعر بن لادن وحركة طالبان بالاستياء من مسعود بسبب مهاراته التكتيكية المذهلة، ولأنه كان يتمتع بالأهلية في منافستهما للسيطرة على هوية أفغانستان السياسية. لقد أغرت استقلالية مسعود الثابتة الجيش السوفياتي و «السي.آي.إيه.» في السابق، وأعاقتهما. في الأعوام الأولى للجهاد، قرأ رؤساء المراكز التابعة للوكالة تاريخ الامبرطورية البريطانية، وأداروا أفغانستان وفقاً لما أوصى به الكاتب كيبلينغ. لقد دعموا قبائل الباشتون ضد أعدائهم الروس، ووقفوا على مسافة وراء ممر خيبر. ولاحقاً بين العامين 1988 و 1992، اعترض قادة لانغلي ضدّ أي تدخّل أميركي مباشر، مع فرصة لتنفيذ العمل الإمبراطوري، كإنشاء سياسات أفغانية وطنية ودائمة بعد الحرب. لم يتمكن أي من مدراء «السي.آي.إيه.» أو أي من الرؤساء الأميركيين المتوالين، من الحزب الديموقراطي أو الجمهوري، من تحديد رؤية لأفغانستان لتبرير مثل هذا المشروع المكلف وغير الأكيد. إن الحكومة الأفغانية التي قررت الولايات المتحدة في النهاية دعمها في أواخر خريف العام 2001، كونها تضم تحالفاً لمنظمة مسعود، والمنفيين الأكاديميين والمثقفين، ومؤيدي الملكية، كانت معروضة للرعاية قبل عشر سنين، لكن الولايات المتحدة لم تجد سبباً في ذلك الوقت لتحدي البديل، أي الرؤية الإسلامية الأصولية التي روّجتها باكستان والاستخبارات السعودية. لقد ساهمت شخصية مسعود وتصرفاته المستقلة، والعدائية تجاهه التي زرعتها باكستان في البيروقراطية الأميركية، في إنكاره كحليف دائم للولايات المتحدة. وأنكرت على أميركا فوائد قيادته قبل العام 2001. وعوضاً عن ذلك، وبسبب اللامبالاة أولاً، ومن ثم التخوّف، وبسبب دولة قاصرة مثيرة للاستياء أخيراً، راحت الولايات المتحدة تدعم طوال أعوام عديدة، برامج حليفيها الأفغانيين الأساسيين المتجهمين والمعقدين، باكستان والمملكة العربية السعودية.

في نهاية هذا الطريق الملتوي، تكمن أحداث أيلول/سبتمبر 2001، عندما اكتشف الجمهور الأميركي وتجار وادي بانشير من خلال كارثتين، أنهم مرتبطون أقله لجهة الأعداء الذين اختاروهم، إن لم يكن بالأفكار السياسية التي يشتركون فيها.

تتعدّى الفرص التي فوّتتها الولايات المتحدة وصولاً إلى أيلول/سبتمبر 2001، الفشل في استغلال تحالف كامل مع مسعود. لطالما اتّسمت السياسة الخارجية الأميركية في أفغانستان وجنوبي آسيا خلال التسعينيات باللامبالاة والكسل والعمى والشلل والمطامع التجارية. وإلى جانب مسعود، كانت الهند ستشكل الحليف الأميركي الأمثل ضدّ القاعدة في المنطقة، حيث يهدد عنف الإسلاميين المتطرفين شعبها المدني الديموقراطي. وعلى
الرغم من ذلك، عندما سعت الحكومة الأميركية إلى تعزيز روابطها بنيودلهي، كانت تفتقر إلى الإبداع والمعرفة المحلّية والصبر والمثابرة، لتواجه بنجاح المشاعر القومية المزعجة والسياسات الديموقراطية المعقّدة. لقد كان فشلاً مثيراً للسخرية نظراً إلى طبيعة القومية الأميركية المشاكسة، والتعقيدات الخاصة بديموقراطية واشنطن. ونتيجة لذلك، فشلت أميركا في أواخر التسعينيات في الدخول في شراكة فعالة لمكافحة الإرهاب مع الهند، التي توفّر مصالحها الإقليمية ومصادرها الأمنية وعدد سكانها المسلمين الكبير، إمكانية ضخمة لخروقات سرّية في أفغانستان.

كما أن الولايات المتحدة لم تملك استراتيجية ملزمة، ولم تعمل لإرساء الديموقراطية والتعليم العلمي والتطور الاقتصادي، وسط غالبية الشعوب المسالمة والمحبطة في العالم الإسلامي.
وعوضاً عن ذلك، راحت واشنطن تدلّل الحكومات الإسلامية المتشدّدة والفاسدة، برغم إثارة تلك البلاد استياء الطبقة الوسطى التي تتطلع دائماً إلى التحليلات الإسلامية المحافظة للقيم الاجتماعية والأفكار السياسية. وبهذه الطريقة، سهّلت إلى درجة صغيرة، عمل مجنّدي القاعدة.

وبسبب اللامبالاة والزخم البيروقراطي، بنت الولايات المتحدة إحدى شراكاتها الناشطة لمكافحة الإرهاب في المنطقة مع باكستان والمملكة العربية السعودية، على الرغم من الدليل على تورّط الحكومتين مع القاعدة. وبالاعتماد على النفط السعودي، وعدم الاستعداد لمراجعة حساباتها القديمة حول المملكة، استمرّت واشنطن في تحالفها مع الرياض على الوتيرة نفسها من دون أي اكتراث.
كما أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدّة لمواجهة العائلات الملكية في الدول المجاورة الغنية بالنفط، مثل دولة قطر والإمارات العربية المتحدة، حتى عندما كانت فئات داخل تلك الحكومات تمالئ القاعدة وتدلّلها. أما في باكستان، فأصعب القضايا تمثّلت في سماح إدارة كلينتون، لمتابعتها اللصيقة للاستقرار النووي والسلام في المنطقة، بأن تحجب بصيرتها عن الدعم المنظّم للجهاديين داخل الجيش الباكستاني وجهاز الاستخبارات. ولعدم استعدادهم لتقبّل الشكوك والتكاليف السياسية الباهظة لمواجهة عسكرية مع طالبان، أخذ الدبلوماسيون الأميركيون يؤجلون عدم تصديقهم الحجج السعودية والباكستانية حول نضج حركة طالبان واعتدالها، ويتقبلونها بسلبية. وفي أواخر العام 2000 أيضاً، عندما اعترف أعضاء كثر من مجلس الأمن القومي في إدارة كلينتون وفريق

الرؤساء المشتركين بأنهم يئسوا من فكرة تعاون حركة طالبان معهم ضدّ بن لادن، عارض مجلس الأمن القومي، في إدارة كلينتون، بتعنّت شنّ عملية عسكرية في أفغانستان. لقد ساد هذا الحذر بالرغم من تدفق البرقيات الاستخبارية السرّية التي تشير إلى خطط القاعدة الناشطة والمتقدّمة، وإنما غير المحددة، لإطلاق هجمات إرهابية كبيرة ضدّ المدنيين الأميركيين، أسبوعاً تلو الآخر. لم يكن الرئيس كلينتون مستعداً أو قادراً على إجبار البنتاغون الذي كان يتخذ موقفاً سلبياً من الدخول في عملية عسكرية، نظراً إلى ضعفه بسبب الدعاوى لمحاسبته وعزله من قبل الغالبية الجمهورية المعارضة له في الكونغرس. لكنه، كبديل عن العملية العسكرية، سمح لـ «السي.آي.إيه.» بتنفيذ عمليات سرية مسلّحة ضدّ القاعدة. تاريخياً، نفّذت «السي.آي.إيه.» أنجح عملياتها السرّية عندما كان زعيمها الأوّل بموجب القانون الأميركي، رئيس الولايات المتحدة، متحمّساً لدفع الوكالة قُدُماً، ومستعداً لتحمّل المخاطر التي ترافق عمليات «السي.آي.إيه.»، أو فشلها. لم ينطبق هذا الأمر على كلينتون. سمح الرئيس لـ «السي.آي.إيه.» بملاحقة القاعدة، وقام بدعم الوكالة إلى حدّ ما. لكنه لم يؤمن بأن «السي.آي.إيه.» أهل لهذا العمل، فعمد أحياناً إلى سحب بعض السلطات القانونية والموارد والقيادات الفاعلة التي كان من الممكن أن يقدمها أي رئيس آخر واثق بقدرات الوكالة.

هل كان تشكيك الرئيس الواضح بـ «السي.آي.إيه.» مبرّراً؟ منذ أن ظهر الإرهاب المتطوّر في أواخر الستينيات، كانت المعلومات المتعلقة بجهود الوكالات الاستخبارية لمنع الهجمات الإرهابية مُرضية كثيراً. في أواخر التسعينيات، كان خبراء الاستخبارات يعتبرون «السي.آي.إيه.» قوّية من حيث التكنولوجيا، وضعيفة نسبياً من حيث عمليات الاستخبارات البشرية ضدّ الأهداف الصعبة. تنجح عمليات تسلّل العملاء والعمليات السرّية حيث يشترك جهاز الاستخبارات مع عدوّه باللغة والثقافة والمجال الجغرافي، مثل العمليات البريطانية في شمالي أيرلندا. وفي هذه الحالة أيضاً، من المستحيل صدّ الهجمات الإرهابية كافة. كما أن نجاح الأجهزة الاستخبارية في خداع مجموعة إرهابية في سياق سياسات سلمية ومستسلمة، يتطلّب عقوداً من الجهود السرّية المثابرة. وتكمن الصعوبة عند تسلّح العدوّ بحوافز دينية متطرّفة، ويعتبر أن العنف يتفوق على السياسات ومبارك من الله. فمثلاً، لم تتمكّن أجهزة التجسس الإسرائيلية والأجهزة الأمنية، التي تُعتبر رائدة في مجال الاستخبارات البشرية وتسلّل العملاء والعمليات السرّية، من وقف التفجيرات الانتحارية من قبل الأصوليين الإسلاميين. وبالنسبة إلى محاولات «السي.آي.إيه.» لإعاقة قيادة القاعدة في أفغانستان، تمثّلت الصعوبات في الفجوة الثقافية الواسعة، والمسافات الجغرافية المحرّمة التي تفصل عملاء «السي.آي.إيه.» عن أهدافهم.

وعلى الرغم من تلك الحواجز، لم تبذل الوكالة كلّ جهدها. لم يعكس تخصيص الأموال والأشخاص سرّياً وداخلياً من قبل جورج تينيت، خطبه حول الحرب الشاملة كما اعترف لاحقاً. كان فشل مركز مكافحة الإرهاب في بداية العام 2000 في وضع اسمي عنصرين من القاعدة يحملان تأشيرتي دخول أميركيتين على جوازي سفرهما، أحد أهم الأخطاء الوحيدة الطوعية للوكالة، كما تبيّن لاحقاً. لو لم ترتكب هذا الخطأ، لتمكنت من تجنّب الهجمات ذات القوة التدميرية الهائلة في نيويورك وواشنطن. لقد كانت بعض عمليات الإعاقة التي قامت بها «السي.آي.إيه.»

في أفغانستان بعد العام 1998 مبدعة وماكرة، بينما كانت عمليات أخرى، مثل خطة فريق المغاوير الباكستاني في العام 1999، سخيفة وفاشلة. لكن في النهاية، من الصعب تقييم أداء الوكالة في العمليات السرية ضد بن لادن بعد العام 1998 بسبب بعض الأفكار المهمة التي قدّمها ضباط «السي.آي.إيه.»، ولاسيما خطتهم في التحالف مع مسعود بطريقة فعالة داخل أفغانستان، والتي لم يسمح البيت البيض بتطبيقها قط. في بداية شهر أيلول/سبتمبر، كشف كلارك عن استيائه في مذكرة وجهها إلى رايس. لقد أعلن في الربيع السابق، أن الرئيس تعب من «ملاحقة الإرهاب» في صراعه مع بن لادن. لقد شعر كلارك بأن هذا ما كانوا يفعلونه فحسب طوال ستة أشهر. كتب كلارك «أن صانعي القرارات يجب أن يتصوّروا أنفسهم في المستقبل عندما يفشل مجلس حكومات الولايات في وقف هجمات القاعدة، يسقط مئات الأميركيين قتلى في بلدان عديدة، من بينها الولايات المتحدة». «سيندم صانعو القرارات هؤلاء على ما لم يفعلوه سابقاً؟». كانت «السي.آي.إيه.» «خبيرة في مجال التصرفات العدائية السلبية»، وستقاوم تمويل مبادرات سياسية جديدة. لقد قال كلارك: «لم يبق أمامك سوى بذل جهد بسيط لمكافحة الإرهاب. لم يبق أمامك سوى انتظار الهجوم الكبير، الذي سينتج منه العديد من الضحايا وبعض الردود الأميركية الانتقامية»(1102).

اجتمع مجلس الأمن القومي لإدارة بوش في البيت الأبيض في 4 أيلول/سبتمبر. تم توزيع نسخة عن مسوّدة قرار رئاسي في الأمن القومي، هي مذكرة تنصّ على سياسة أميركية جديدة تجاه القاعدة وأفغانستان. كان الهدف الصريح للمسودة هو القضاء على بن لادن ومنظمته. وتضمّنت أحكامها خططاً سرية عديدة وغير محددة لتقديم المساعدة المالية إلى مسعود في حربه ضد طالبان. ستقدّم «السي.آي.إيه.» إلى مسعود الشاحنات والملابس والذخيرة ومدافع الهاون وطائرات الهليكوبتر ومعدات أخرى تحددها الوكالة والبيت الأبيض، أي لائحة المعدات نفسها التي وضعوها الخريف الماضي. يجب تخصيص الأموال أيضاً للقوات الأخرى المعارضة لحركة طالبان، على الرغم من انكشاف النطاق السري لعملياتها تدريجاً، المرتبطة بالجهود الدبلوماسية المتجددة. وبموجب الخطة، سيتلقى قريباً ائتلاف قادة مسعود والثوار المتفرقين في أفغانستان، تجهيزات أفضل من أي وقت مضى منذ بداية التسعينيات(1103).

وافق المجلس على هذا الجزء من العرض، برغم الشكوك في إثارة تساؤلات عن مصدر الأموال وحجمها.

تبع ذلك جدل واسع غير محسوم حول إطلاق طائرة «بريداتور» فوق أفغانستان. بقيت «السي.آي.إيه.» منقسمة داخلياً. أراد كوفر بلايك ووحدة بن لادن في مركز مكافحة الإرهاب المضي قدماً. كان جايمس بافيت في مديرية العمليات قلقاً بشأن النتائج العفوية إذا تورطت «السي.آي.إيه.» فجأة في إدارة عمليات مسلحة ضد أشخاص مستهدفين، أو الاغتيال بتعبير آخر. فعمليات القتل تلك التي تقوم بها «السي.آي.إيه.» مباشرة يمكن أن تعرّض العملاء في الميدان

للخطف أو القتل كفعل انتقامي. كما يمكن أن تعرض تلك المهمات الوكالة للانتقاد السياسي والانتقاد الإعلامي.

نفّذت «السي.آي.إيه.» مناورات سرّية حربية في لانغلي لتكتشف كيف ستستجيب سلسلتها القيادية المؤلفة من جواسيس يتمتعون بخبرة عسكرية محدودة أو معدومة، لطائرة من دون طيّار تستطيع إطلاق الصواريخ على المشتبه فيهم. راجع تينيت في بداية شهر أيلول/سبتمبر 2001، «مفهوماً للعمليات» قدّمه مركز مكافحة الإرهاب حول كيفية إطلاق طائرة «بريداتور» مسلّحة في الميدان، وكيفية اتخاذ قرار إطلاق النار. وخلال اجتماع المجلس الأعلى في 4 أيلول/سبتمبر، أعلن تينيت أنه يريد من صانعي السياسات في إدارة بوش أن يفهموا العرض: ستتحكّم «السي.آي.إيه.» في طائرة مسلّحة من نوع الطائرات التي تتحكم فيها القوات الجوية وسلسلة القيادة في البنتاغون. واقترح تينيت أن يقوم بوش ومجلسه الأعلى، إذا أرادا إعطاء «السي.آي.إيه.» دوراً عملياً، بإدراك احتمالات الفشل في حال وقوع أي ضربة خاطئة أو مثيرة للجدل. وأشار بعض المشاركين في الاجتماع إلى أن ملاحظات تينيت تدلّ على تردده في تولّي المهمة. اختلفت المعلومات حول قوة تحديد تينيت للمخاطر المحتملة. ومن جهته، اعتقد تينيت أنه حاول التوضيح والتسهيل لقرار رئاسي سيختلف عن سابقاته من خلال نقل التحكم في طائرة مسلحة من الجيش المنظم إلى «السي.آي.إيه.». لقد أصبحت طائرة الـ «بريداتور» المسلحة مشروع «السي.آي.إيه.»، واختراع الوكالة عملياً. لم تكن القوات الجوية مهتمة بالتحكم في هذا السلاح الضعيف والغريب، إذ تعتمد عقيدة القوات الجوية وخبرتها على استخدام قاذفات مختبرة وصواريخ موجّهة حتى عندما يكون الهدف المقصود شخصاً واحداً. لم تكن القوات الجوية مستعدة لإطلاق طائرات هجومية والتحكم فيها(1104).

أطلعت رايس المجموعة على الحاجة إلى استخدام الـ «بريداتور» الحربية، لكنها أوضحت أنها غير جاهزة للاستخدام. وافق المسؤولون على متابعة «السي.آي.إيه.» عمليات الاستطلاع لطائرة الـ «بريداتور» في أفغانستان، بينما سيستمر العمل. وقد عرض كلارك هذا الاقتراح، لكنه لم يلق نجاحاً في الشتاء السابق.

وبالنسبة إلى مسعود، بدأت «السي.آي.إيه.» في تجهيز الأعمال الروتنية. بدأ محامو «السي.آي.إيه.» الذين يتعاونون مع ضباط من فرع الشرق الأدنى ومركز مكافحة الإرهاب، في إعداد قرار رئاسي قانوني ورسمي لتوقيع بوش للسماح ببرنامج عمليات سرية جديد في أفغانستان، هو الأول من نوعه منذ عشر سنين يسعى إلى التأثير في مسار الحرب الأفغانية(1105).

كان مسعود يقرأ الشعر الفارسي في الساعات الأولى من 9 أيلول/سبتمبر. استعد صباح اليوم التالي للسفر في طائرته الهليكوبتر إلى كابول للإشراف على خطوطه الأمامية، وتقييم مواقع حركة طالبان. أخبره زميله بأنه يجب أن يقابل صحافيين عربيين قبل مغادرته لأنهما ينتظران منذ أيام عديدة. قال إنه سيقابلهما في مكتبه الاسمنتي الذي يستخدمه مساعده في الاستخبارات المهندس

عريف. عند الظهيرة، جلس في المنزل على مسند مخصص لتخفيف ألم ظهره. جلس إلى قربه صديقه، مسعود خليلي، السفير إلى الهند. وبينما كان الصحافيان العربيان ينقلان الطاولة ويثبتان المسند الثلاثي لآلة التصوير بمستوى صدر مسعود، تساءل خليلي ممازحاً: «أهو مصارع أم مصوّر؟»(1106).

تلقّى مسعود اتصالاً هاتفياً. أوقف جنوده ثمانية من العرب بالقرب من الخطوط الأمامية. طلب إلى المهندس عريف الاستفسار عن أمرهم فغادر عريف الغرفة.

راح المراسل الزائر يقرأ لائحة الأسئلة بينما يهيّئ زميله شريط التصوير. كانت نصف أسئلته تتعلّق بأسامة بن لادن. استمع إليه مسعود ثم أعلن استعداده.

تطايرت أشلاء المصوّر بفعل الانفجار. وتحطّمت نوافذ الغرفة واحترقت جدرانها، وامتلأ صدر مسعود بالشظايا. لقد سقط فاقداً الوعي.

هرع حرّاسه ومساعدوه إلى المبنى، وحملوا جثّته إلى الخارج، ووضعوها في سيارة الجيب، وتوجّهوا إلى مهبط الهليكوبتر. كانوا قريبين من حدود طاجكستان، وعلى بعد 10 دقائق في الطائرة من المستشفى.

تعافى الصحافي العربي النحيف ومساعدو مسعود الذين كانوا بالقرب من صوت الانفجار، وانتابتهم مشاعر حماسية، وأدركوا أنهم خرجوا من الحادثة سالمين. حاول العربي الهرب، لكن حراس مسعود تمكنوا من إلقاء القبض عليه. قاموا بحجز القاتل في غرفة مجاورة، لكنه تسلل من النافذة. فأطلقوا النار عليه حتى الموت عند محاولته الهرب.

على متن الهليكوبتر، كان حارس مسعود الشخصي القديم، عمر، يمسك برأس القائد ويراقبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان عمر يقول في نفسه «إذا مات فسأموت معه»(1107).

اتّصل أمر الله صالح بمركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» من طاجكستان. تحدّث إلى رئيس وحدة بن لادن، ريتش. كان صالح يبكي وينوح ويأخذ نفساً عميقاً بين الجملة والأخرى، وهو يشرح ما جرى.

سأله ضابط: «أين مسعود؟».

فأجابه صالح: «إنه في الثلاجة»، قاصداً المشرحة باللغة الإنكليزية(1108).

توفي مسعود، وبالكاد تقبّل محيطه الداخلي هذا الخبر. لقد صُدموا جميعاً، وراحوا يحاولون اتخاذ استراتيجية بسرعة. كان مساعدو مسعود الأحياء متأكدين أن حركة طالبان ستهاجم وادي بانشير ما إن تعرف بمصرع مسعود. وبالاعتماد على تصرفات طالبان السابقة في الأراضي التي استولت عليها أخيراً، سيتعرض الوادي للتخريب والمجازر. لذلك، يجب أن ينظم مساعدو مسعود أنفسهم. عليهم اختيار قائد جديد وتعزيز دفاعاتهم. كانوا بحاجة إلى الوقت.

لقد سبق أن روّجوا قصة كاذبة يدّعون فيها أن مسعود أصيب بجروح . في تلك الأثناء، أخبر صالح مركز مكافحة الإرهاب بأن الحلف الشمالي الذي أصبح فجأة من دون زعيم، يحتاج إلى مساعدة «السي.آي.إيه.» بينما تستعد لمواجهة القاعدة وطالبان(1109).

اعتبر العديد من ضباط «السي.آي.إيه.» أنها نهاية الحلف الشمالي. أثار موت مسعود المفاجئ الشكوك في الجزء الأساسي من استراتيجية الأمن القومي المعدّة لمواجهة القاعدة في أفغانستان، التي دعمها مجلس الأمن القومي الأميركي منذ خمسة أيام فقط. لم يشجّع أحد من الفريقين الوضع الحالي لمسعود. فقد كان تقييم «السي.آي.إيه.» السريع للوضع، أن ائتلاف مسعود لن يكون فاعلاً عسكرياً أو سياسياً من دونه(1110).

نقل ضباط مركز مكافحة الإرهاب إلى البيت الأبيض خبر موت مسعود. وخلال ساعات تسرّب الخبر إلى محطة «الـ «سي.أن.أن.»، عاود صالح الاتصال بلانغلي من طاجكستان يملؤه الغضب. فهو لم يؤكّد موت مسعود سوى لـ «السي.آي.إيه.». فكيف سمحت الوكالة بتسرّب الخبر بتلك السرعة؟

صباح 10 أيلول/سبتمبر، أطلعت «السي.آي.إيه.» في تقريرها اليومي المفصّل الرئيس بوش ومجلس الأمن القومي وصانعي قرارات آخرين، على موت مسعود، وحلّلت نتائج الحادثة على حرب أميركا السرّية ضدّ القاعدة. في البيت الأبيض، ترأس ستيفن هادلي اجتماعاً للجنة المندوبين لوضع سياسات جديدة تجاه أفغانستان وباكستان، وقرارات من شأنها إتمام القرار الرئاسي في الأمن القومي الذي وافق عليه أعضاء المجلس الأعلى قبل ستة أيام. وفي محاولته شرح سرعة إدارة بوش المتعمدة في صوغ سياسات جديدة تجاه القاعدة، شدّد ولفوفيتز على ضرورة التفكير بعناية في أفغانستان وباكستان. وتوصلوا تقريباً، بعد خمسة شهور من المحادثات والتأخير، إلى خطط حذرة وتدريجية تنطلق من سياسات كلينتون في أهدافها النهائية، لكن ليس في العديد من خطواتها الفورية. بالنسبة إلى حركة طالبان، وافقت اللجنة على متابعة مسار الإقناع الدبلوماسي بشكل مبدئي: سيقومون بإرسال موكب إلى أفغانستان ليطلبوا إلى الملا عمر طرد بن لادن أو مواجهة عواقب مروّعة، تماماً كما فعل الدبلوماسيون في إدارة كلينتون منذ أعوام عديدة من دون أي نتيجة. في تلك الأثناء، ستوفر إدارة بوش المساعدة السرية اللازمة لتحافظ على استمرارية

الحلف الشمالي، إذا أمكن، وستعد للمزيد من المساعدة السرية للباشتون المعارضين لحركة طالبان. وإذا فشلت الدبلوماسية، فستشجّع القوات المعارضة لحركة طالبان على مهاجمة وحدات القاعدة داخل أفغانستان. وإذا فشلت تلك الحرب السرية المحدودة، فستعمد إدارة بوش إلى التخلص بنفسها من حركة طالبان، من خلال توفير المساعدة الكافية لقوات المعارضة الأفغانية لتحقيق النصر. قدّر المندوبون في 10 أيلول/سبتمبر أن المشروع بالكامل سيستغرق حوالى ثلاث سنين إذا دعت الحاجة. كما وافقت المجموعة على محاولة تحسين العلاقات مع باكستان. لقد كان انطلاقهم من مقاربة كلينتون في هذا السياق، تصرفاً ذكياً جداً.

أخذوا يناشدون مساعدة ما بقي من الحلف الشمالي قبل القضاء عليه في أنحاء واشنطن، آملين المحافظة على موطئ قدم لهم شمالي أفغانستان لمهاجمة بن لادن.

حاول مستشارو مسعود واللوبي التابع له في واشنطن، الذين يعرفون الحقيقة، تجنّب الاتصالات الهاتفية قدر استطاعتهم ليحافظوا على التكهنات، التي ما زالت تظهر على شاشة التلفاز، غير متأكدة من موت مسعود. لكن، مع التوتر السائد في 10 أيلول/سبتمبر بشكل خاص، ومع كلّ اتصال، بدأ عدة قادة أفغان مقرّبين إلى القائد في دوشانبي وطهران وأوروبا والولايات المتحدة، يعلمون بحقيقة مصرعه(1111).

كان حامد قرظاي في باكستان عندما اتصل به شقيقه. لقد أصبح قرظاي ممزقاً بعد أقل من ثلاثة أسابيع من ذهابه قبل أن تخطط الاستخبارات الباكستانية لطرده. لم يعتقد أن جنوبي أفغانستان جاهز للثورة، ولم يرغب في أن ينتهي به الأمر مجرد أفغاني آخر منفي في أوروبا. تحدث قرظاي إلى مسعود منذ أيام قليلة. كان يفكر في السفر إلى دوشانبي ليدخل منها إلى أفغانستان عبر أراضي مسعود. من هنا يستطيع قرظاي أن يحاول بدء تمرده العسكري بين الباشتون المعارضين لحركة طالبان.

أكّد شقيق قرظاي خبر موت أحمد شاه مسعود. لم يردّ حامد قرظاي سوى بجملة واحدة مختصرة، كما يذكر شقيقه: «يا له من بلد مشؤوم!»(1112).

# الخاتمة

في العام الذي انتهيت من أبحاث الطبعة الأولى من كتابي «حرب الأشباح»، توسّعت القصة من خلال كشف ملفات كانت سرّية في حكومة الولايات المتحدة، ولاسيما من الولاية الثانية لإدارة كلينتون والأشهر التسعة الأولى لإدارة جورج دبليو بوش. وإلى هذه المرحلة، تم الحصول على أكبر عدد من تلك المذكرات والتقارير الاستخبارية والرسائل الالكترونية والملاحظات الخطّية، ونشرها من قبل فريق التحقيق القضائي للّجنة الوطنية حول الهجمات على الولايات المتحدة، المعروفة بلجنة 11/9، المؤلفة من 10 أعضاء من سياسيين أميركيين سابقين ومحامين، يترأسها توماس آيتش. كين، ولي آيتش. هاميلتون. تم تكليف اللجنة التحقيق في الحقائق والظروف المرتبطة بالهجمات الإرهابية التي وقعت في 11 أيلول/سبتمبر، وإصدار التوصيات لتجنّب مثل هذه الهجمات في المستقبل. لقد قدّمت تقريراً نهائياً مهيباً من 567 صفحة، في شهر تموز/يوليو. وبالإضافة إلى البيانات الانتقالية السابقة التي نشرها فريق التحقيق والشهادات الوافرة من كلينتون وبوش وضباط مجلسيهما ومسؤولين في «السي.آي.إيه.»، كشف تقرير اللجنة النهائي ملفات سرية لا مثيل لها، واتصالات من داخل الحكومة الأميركية والمجتمع الاستخباري. وتتضمن بيانات التحقيقات التي نُشرت أولاً مع قادة القاعدة المعتقلين، مثل مهندس عملية 11 أيلول/سبتمبر، خليل شيخ محمد. وبالإضافة إلى عمل اللجنة، نشر أرشيف مجلس الأمن القومي غير الحكومي خلال العام 2004، بعض البرقيات الدبلوماسية الأميركية السرية الجديدة المتعلقة بأفغانستان وباكستان وبن لادن.

إن الهدف من نشر هذه الطبعة من «حرب الأشباح»، هو إدماج تلك المواد الجديدة بأسلوب سردي لتعزيز القصة التي كتبتها في الطبعة الأولى، أو تصحيحها. لقد تمت معظم تلك الإضافات والمواقف في الجزء الثالث، وامتدّت من العام 1998 إلى العام 2001. أضافت غالبية المواد الجديدة في هذه الطبعة مقتطفات مباشرة مأخوذة من ملفات ورسائل الكترونية وتقارير لم تكن متوافرة سابقاً. لقد تمكنت من نقل أفكار مجلس الأمن القومي وضباط الاستخبارات الذين رفضوا الإدلاء بأي معلومات خلال بحثي الأوّل، لكنهم شهدوا أمام اللجنة تحت القَسَم. كما رجعت إلى مواضيع مقابلاتي الخاصة، ونجحت في إقناع عدد قليل منهم رفض في الطبعة الأولى الكشف عن اسمه، ليسمح لي بنقل بعض «المقتطفات الأصلية» التي أدلى بها هنا. وحاولت بذلك جعل مصادر الكتاب ووجهات النظر المختلفة، شفافة وكاملة بقدر الإمكان.

لقد سمحت لي أيضاً المواد التي انكشفت مجدداً بسرد الأحداث بدقة زمنية. وفي أثناء القيام بالبحث الأصلي، حاولت إقناع الناس بوصف العمليات الاستخبارية السرية، ولاسيما بعد العام 1998. وبشكل عام، وجدت أن مصادري كانت موثوقاً بها بالنسبة إلى القصة نفسها. لكن أقل ثقة من حيث تواريخ حدوثها. وحتى بالنسبة إلى أفضل المصادر، كان من الصعب الرجوع إلى غرف الملفات السرية للتحقّق من التاريخ المحدد، لذلك كنت أعتمد على عملية مرهقة وغير دقيقة في التحقق من استذكار التواريخ وتسلسل الأحداث من بين مصادر متعددة. لقد استفدت من التواريخ التي نشرتها

لجنة التحقيق المشتركة، إلا أن المحقّقين في اللجنة لم يتمكنوا من الحصول على معلومات عن عمليات مهمة في أفغانستان والكشف عنها. سيتعرف القراء الأذكياء إلى التغييرات الكتابية في الطبعة الأولى، حيث أدخل أحياناً في مرحلة متناقضة بجملة مبهمة حول الزمان، فأقول مثلاً: «في بداية تلك السنة...».

على العموم، أشعر بأنني محظوظ لأن الملفات والشهادات التي حصلت عليها من لجنة 11/9، تؤكّد أحداث قصتي الأصلية ولا تتعارض معها. وفي النهاية، تقاس جدارة الصحافي بجودة مصادره. واليوم بما أن اللجنة قدّمت مثل هذه المعلومات الكاملة، فأنا ممتنّ أكثر من أي وقت مضى لمصداقية غالبية المصادر وتوازنها ودقّتها خلال بحثي الأصلي. لكن، لا تزال ثمة بعض الأخطاء في التواريخ في الجزء الثالث من الطبعة الأولى. ويشمل بعضها التاريخ المحدد للمراحل العديدة التي فكّر فيها الرئيس كلينتون ومجلس الأمن القومي سرّاً في إطلاق الصواريخ الموجهة ضد بن لادن في أفغانستان. وأظهرت تحقيقات اللجنة أن آخر تلك المراحل حدثت في ربيع العام 1999، وليس في خريف العام 2000، كما ذكرتُ في المرة الأولى بالاعتماد على مقابلة مع كلينتون من أجل التاريخ. كما أوضح عمل اللجنة أن بعض مصادري، خلال إخباري بتلك الحوادث، كانت تتعارض أو تتوافق حول المراحل التي تذكرها، وتحدث بشكل منفصل. لكن عدا الفوائد الحقيقية لتلك الدقّة، تعتبر تلك التناقضات مهمة بشكل أساسي، بسبب تحديد الأوقات السياسية التي اتخذ فيها كلينتون قراراته المهمة في حملته السرية ضد بن لادن. ففي إحدى المراحل، مثلاً، كان يجب على الرئيس أن يتخذ قراراً بشأن إطلاق الصواريخ الموجهة خلال الأسبوع نفسه الذي كان يتعرض للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ الأميركي. ولا تزال جهود اللجنة تترك بعض الأمور
الغامضة الصغيرة في سجلاتها. فمثلاً، لا يزال تاريخ اقتراح الحكومة الباكستانية التعاون مع «السي.آي.إيه.» لتدريب فريق المغاوير لإلقاء القبض على بن لادن أو أسره، غير واضح، وهل هو في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1998، كما أشارت مصادر مقابلاتي، أم في الصيف التالي عندما بدأ التدريب بشكلّ جدّي؟ لقد أدخلت بعض التعديلات على هذه الفكرة وعلى مواضيع أخرى تتعلق بالتواريخ في النص الأصلي، وأوضحت مصادر الملاحظات. كما قمت بتصحيح عشرات الأخطاء العفوية المحرجة في الطبعة الأولى، مثل الأخطاء الإملائية والأرقام المحرّفة.

والسؤال المثير للاهتمام والأكثر موضوعية، هو ربما، إذا وجب إعادة طبع القصة في «حروب الأشباح» في ضوء نتائج اللجنة. وأقله في مجال مهم ساهمت الاكتشافات الأخيرة في تغيير إدراكنا بوضوح. فقد غيّرت اعترافات خليل شيخ محمد ورمزي بن الشيبة وأبي زبيدة، خلال تحقيق اللجنة، طريقة فهمنا لبدايات المؤامرة التي نفذتها خلية هامبورغ في 11 أيلول/سبتمبر. لقد أدلى بتلك الاعترافات شهود غير موثوق بهم بالإكراه، وفي ظلّ ظروف مجهولة، لذلك يجب التعامل معها بحذر. لكن تلك الاعترافات أُخذت بشكل منفصل. وبرغم ذلك، بدت متطابقة في المواضيع الأساسية، مثل كيفية التوصل إلى فكرة تحويل الطائرات المخطوفة إلى صواريخ موجّهة، ودور بن لادن، والنشاطات فيما بين الخاطفين أثناء إعدادهم للهجوم. لقد أدخلتُ كل هذه الاكتشافات إلى

نصّ هذه الطبعة. ولو تم إلقاء القبض على بن لادن وقادة آخرين من القاعدة، لأمكن تقديم قصة كاملة عن أحداث 11 أيلول/سبتمبر.

وبالنسبة إلى السياسة الخارجية الأميركية وعمليات الاستخبارات منذ عقدين من الزمن وصولاً إلى 11 أيلول/سبتمبر، أعتقد أن تقرير اللجنة النهائي تساهل مع حكومة المملكة العربية السعودية والجيش الباكستاني، إلا أن العديد من تلك الأحكام تتضمن نظريات تآمر لم أتطرق إليها قط في كتابي، مثل التساؤل عن مساعدة إحدى السفارات العربية في واشنطن خاطفي الطائرات في 11 أيلول/سبتمبر أثناء إقامتهم في الولايات المتحدة. كما اعتبر أعضاء اللجنة أنهم «يعودون إلى الماضي ليصلوا إلى الحاضر»، وربما عالجوا انتقاداتهم المنشورة عن الرياض وإسلام آباد مع شركاء أميركيين مستقبليين لمكافحة الإرهاب.

في جميع الأحوال، من المبكر إعادة تحليل مثل هذه القصة القريبة، أو إلقاء اللّوم وتحميل المسؤولية. لا تزال نتائج 11 أيلول/سبتمبر تدوي يومياً بالنسبة إلى من يعيش في واشنطن ونيويورك. في طريقنا إلى العمل نمرّ بالقرب من دوريات للشرطة المدرّعة مزودين خطط إنذار مشفّرة ملونة ستبدو غريبة حتى في قصص الخيال العلمي. وكشفت الرسوم البيانية لاستطلاع الآراء من أميركا وأوروبا والشرق الأوسط ووسط آسيا، عن عالم مندفع، منقسم بحدة، حيث تراجعت شعبية الولايات المتحدة خلال وقت قصير جداً. ينقل طاقم الجيش الأميركي (يومياً) القتلى والجرحى، اثنين أو ثلاثة، من العراق وأفغانستان، حاملين أعلامهم الاحتفالية بالسرّ. وبالنسبة إلى هذا الحاضر العاصف، يبدو الماضي مفعماً بالرفاهية. لقد أصبح اليوم شرح كيفية وقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر وأسبابها، أسهل بكثير بالنسبة إلى الباحث، من تفسير النتيجة.

**ستيف كول**

**واشنطن، العاصمة**

**آب/أغسطس 2004**

# Notes

**(1) إنّ سرد زيارة شروين إلى كابول في مقدمة الكتاب، وتفاصيل محادثاته مع مسعود، وما جرى بينهما قبل أكثر من خمس سنين، مقتطفة من مقابلات متعدّدة مع مسؤولين حكوميّين أميركيّين وأفغان، بمن فيهم غاري شروين، في 7 أيار/مايو و 19 أيلول/ سبتمبر 2002، واشنطن العاصمة.**

**(2) هاجت قوّات مسعود وفقدت السيطرة، فهجمت على الهزارة، وهي مجموعة أفغانيّة شيعيّة، في حي من كابول يدعى كارتي شيه في شهر آذار/مارس 1995، فارتكبت أعمال اغتصاب ونهب المتاجر. مراجعة تقرير «هيومن رايتس ووتش» في شهر تمّوز/ يوليو 2001، ص. 22 Afghanistan ,Crisis of Impunity’’.**

**(3) التوجيه التشغيلي لوكالة الاستخبارات، مشتقّ من تقييم سنوي لأولويّات الاستخبارات الأميركيّة، كما هو محدّد في اجتماع مجلس الوكالة في واشنطن. هدف المجلس هو التأكّد من أنّ جمع المعلومات يتطابق مع أولويّات السياستين الخارجيّة والدفاعيّة للبيت الأبيض. ويتلقّى كلّ مركز للوكالة توجيهه التشغيلي المحدّد. ومن الناحية النظريّة، يمكن تقييم أداء رئيس مركز من خلال مدى حسن اختياره واستخدامه للعملاء القادرين على الإفادة حول المسائل المدرجة في التوجيه التشغيلي. ومن ناحية الممارسة، تمتّع رؤساء مراكز الوكالة باستقلاليّة واسعة ولا يتمّ تقييمهم حصراً بناءً على التوجيه التشغيلي.**

**(4) معلومة أنّ أفغانستان موكلة للانغلي، مستقاة من مقابلة مع مسؤول حكومي أميركي.**

**(5) كان كريستوفر في خلال شهادة معدّة لجلسة استماع للتأكيد في 25 كانون الثاني/يناير 1993، كرّس 4 كلمات فقط من أصل كلماته الألفين لأفغانستان، قائلاً إنّ «إعادة السلام إلى أفغانستان» هي من مصالح أميركا. وبعد أربعة أشهر، قال كريستوفر لصحافي قابله من «السي.أن.أن.» «إنّنا قلقون بشأن الوضع في أفغانستان، وواقع أنّها تبدو أرضاً خصبة للنشاطات الإرهابيّة حول العالم، وأظنّ أنّنا سنعير اهتماماً خاصّاً لهذا الأمر هناك. لسوء الحظ، يبدو أنّ بعض البلدان في العالم ترعى الإرهاب فتستنزف بلداناً أخرى، إذ تغرز أنيابها في جنبها». ووفقاً لبحث من ليكسيس - نيكسيس، لم يعد كريستوفر إلى ذكر أفغانستان مرّة أخرى في خلال ولايته كوزير للخارجيّة إلّا أربع مرّات عابرة، ولم تتحدّث أيّ منها عن المصالح أو السياسات الأميركيّة هناك.**

**(6) حول كونها طائرة أريانا أفغانيّة، راجع: Rubin .xxvii Barnett R .p ,The Fragmentation of Afghnistan. ولجردة محدّدة عن الأفغان الذين رحّبوا به، مراجعة: كاثي غانون، «أسوشيتد برس»، 6 تمّوز/يوليو 2002.**

**Peter L .Bergen ,Holy War ,Inc .pp .93 -94(7)**

**(8) مقابلات مع مسؤولين حكوميّين أميركيّين. مراجعة أيضاً: «أسامة بن لادن: مموّل متطرّف إسلامي»، التقييم المنشور من «السي.آي.إيه.»، 1996.**

**(9) مقابلات مع مسؤولين رسميّين أميركيّين. تمّ أيضاً التحدّث عن وجود الوحدة في العديد من التقارير الإعلاميّة.**

(10) الأرقام المذكورة هنا، هي من مقابلات مع مسؤولين أميركيّين، شأنها شأن وصف برنامج استعادة الصواريخ. لجردة مبكرة عن البرنامج، مراجعة: مولي مور، «الواشنطن بوست»، 7 آذار/مارس 1994.

(11) الأسعار ونظام العمولة المذكورة، مستقاة من مقابلات مع مسؤولّين حكوميّين أميركيّين ومسؤولين استخباريين باكستانيّين، بما فيها مقابلة مع اللفتنانت جنرال جاويد أشرف قاضي (متقاعد) الذي كان مديراً عامّاً لأجهزة المخابرات من 1993 إلى 1995، 19 أيّار/مايو 2002، راولبندي، باكستان. قال قاضي إنّ الباكستانيّين طلبوا من الأميركيّين 80 ألف دولار لكلّ صاروخ مسترجع، وهو ما قال إنّ المخابرات اضطرّت إلى تسديده لشراء صاروخ من الأفغان.

(12) الأقوال مقتطفة من مقابلات مع شروين، 7 أيّار/مايو و 19 أيلول/سبتمبر 2002، وقد أكّدها مسؤولون أفغان معنيّون.

(13) غانون، «أسوشيتد برس»، 6 تمّوز/يوليو.

Anthony Davis ,'How the Taliban Became a Military Force' ,in :William Maley ,ed.,(14)
Fundamentalism Reborn, p. 68.

(15) غلين ديفيس، الاجتماع الدوري لوزارة الخارجيّة، 27 أيلول/سبتمبر 1996، المركز الفيدرالي لإخراج الوثائق. قال ديفيس خلال الاجتماع أيضاً، إنّ طالبان قد أعلنت أنّ «الأفغان يستطيعون العودة إلى كابول من دون خوف، وأنّ أفغانستان هي الموطن المشترك للأفغان، ونحن نأخذ هذه التصريحات على أنّها مؤشّر إلى أنّ طالبان تنوي احترام حقوق الأفغان كافّة». وعند السؤال عن فرض طالبان القانون الإسلامي الصارم في المناطق الأخرى تحت سيطرتها، أجاب ديفيس: «رأينا بعض التقارير حول كونهم (عناصر طالبان) انتقلوا إلى فرض القانون الإسلامي في المناطق التي يسيطرون عليها، لكن في هذه المرحلة لا نقرأ شيئاً من هذا القبيل. أعني أنّه ليس من - في الواجهة، أيّ شيء يثير الاعتراض في هذه المرحلة... تذكّروا، ليس لدينا أيّ مسؤولين أميركيّين في كابول. لم يكن لدينا أي منهم منذ خروج السوفيات، لأنّنا اعتبرنا أنّه من الخطر جدّاً إبقاء بعثة هناك. لذا يقوم ردّ فعلنا حتّى الآن على التقارير الإعلاميّة، والتقارير من الآخرين الذين لديهم مصادر هناك - تقارير من الدرجة الثانية أو حتّى الثالثة».

(16) مقابلة مع مسؤول حكومي أميركي. إنّ الدليل الظرفي على رحلة شروين السيّئة التوقيت، يبدو أيضاً مؤشّراً قويّاً على أنّ الأسرة الاستخبارية الأميركيّة لم تتوقّع سقوط مسعود بهذه السرعة. وقال السفير الأميركي لدى إسلام آباد آنذاك، توم سيمونز، إنّ السفارة لم تتوقّع سقوط كابول في أيّ من تقاريرها المرفوعة إلى واشنطن. مقابلة الكاتب مع توم سيمونز، 19 آب/أغسطس 2002، واشنطن.

(17) «أسوشيتد برس»، 22 تشرين الثاني/نوفمبر، 1979.

(18) «أسوشيتد برس»، 30 تشرين الثاني/نوفمبر، 1979.

(19) إنّ السرد المفصّل في هذا الفصل لمجرى الاعتداءات وكيفيّة تجاوب موظّفي السفارة، منقول عن مقابلات متعدّدة مع مسؤولين أميركيّين بمن فيهم لويد ميلر، (18 تشرين الثاني/نوفمبر، 2002، كوانتيكو) فرجينيا، وغاري شروين، (29 آب/أغسطس، 2002، واشنطن العاصمة). والسرد مقتطف أيضاً من مقابلات أجريت مع مراسلين في إسلام آباد آنذاك. وبين هذه المقابلات نجد إفادات شهود عيان أرسلتها «أسوشيتد برس» في 21 و 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1979؛ سرد

ستيوارت أويرباخ لليوم الأوّل في «الواشنطن بوست»، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1979؛ وطوم مورغانثو، كارول هونسا وفريد كولمان في «نيوزويك»، 3 كانون الثاني/ديسمبر 1979. أمّا مارسيا غوجر، وهي الصحافيّة الوحيدة التي شاهدت التظاهرة من داخل السفارة، فقد كتبت سرداً لما حدث في مجلّة «تايم» في 3 كانون الأول/ديسمبر 1979، وقد ناقضت فيه بشكل مباشر زعم إدارة كارتر أنّ الحكومة الباكستانيّة كان لها دور أساسي في إنقاذ الموظّفين الأميركيّين. والرجل الذي كان يفترض بغوجر أن تقابله على الغداء في ذلك اليوم، وهو المستشار السياسي هربرت ج. هاغرتي، قدّم لاحقاً إعادة صوغ شاملة للهجوم في فصل من كتاب «سفارات تحت الحصار»، الذي نشره جوزيف ج. ساليفان، مراجعة أيضاً: دينيس كوكس، «الولايات المتّحدة وباكستان: 1947 - 2000»، ص. 242 - 45.

(20) قابل ثلاثة مراسلين غربيّين مسؤولين في الهيئة الطالبيّة تابعين للجماعة في جامعة «القائد الأعظم»، وذلك بعد التظاهرات مباشرة. بدا المسؤولون مستعدّين لقبول المسؤوليّة عن تنظيم التظاهرة، وعبّروا عن أسفهم لقتل شخص، لكنّهم دافعوا بحماسة عن قضيّتهم. راجع: ستيوارت أويرباخ: «السياسة والدين، مزيج متطاير لضياء في باكستان»، «واشنطن بوست»، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1979؛ مايكل ت. كوفمان، «الطلاّب في إسلام آباد يشهدون تصاعداً إسلاميّاً»، «نيويورك تايمز»، 26 تشرين الثاني/نوفمبر. وتجدون أهمّ التفاصيل عن دور الجماعة في الجامعة في خلال هذه المرحلة في «ذي إيكونومست»، 1 كانون الأوّل/ديسمبر 1979.

(21) للحصول على سرد معمّق حول تأثير التمويل الإسلامي للجماعة وغيرها من المنظّمات المشابهة في الجامعات الرئيسة في العالم الإسلامي وأماكن أخرى، مراجعة: جيل كيبيل، «جهاد»، ص. 61 - 105.

(22) «أسوشيتد برس»، 21 نوفمبر/تشرين الثاني، 1979.

(23) Alexei Vassiliev, The History of Saudi Arabia, pp. 395-96, Fortune, March 10, 1980; Joshua Teitelbaum, Holier Than Thou, pp. 20-21; Newsweek, December 3, 1979

(24) «المسلم»، 21 تشرين الثاني/نوفمبر. إنّ عدد ذلك اليوم كان نسخة خاصّة، وقد قدّم بعض الإشارات الأولى إلى أنّ المتاعب كانت تتحضّر. فتحت الروايتين الأوليين «رجال مسلّحون مجهولون يحتلّون الكعبة» و «الولايات المتّحدة قد تستخدم القوّة»، كانت موضوعة قصّة ثالثة بعنوان «غضب في راولبندي». وأفادت القصّة أنّ أصحاب المتاجر في راولبندي قد أقفلوا أبوابهم «وخرجوا إلى الشوارع في حركة عفويّة. ومع حلول وسط النهار، كانت المتاجر كافّة في المراكز التجاريّة كافّة قد أقفلت أبوابها، وبدأت تتشكّل مسيرات كبيرة... كانوا يطلقون هتافات مناهضة للصهيونيّة والامبرياليّة».

(25) مقابلة مع مسؤول أميركي اعتاد التقارير.

(26) مقابلة مع مسؤولين أميركيّين. وضعت «السي.آي.إيه.»، في وقت لاحق، صياغة شاملة للهجوم على السفارة في إسلام آباد الذي أصبح مرتكزاً على محاضرات تعطى في مجال حماية السفارات للمسؤول.

(27) «أسوشيتد برس»، 21 تشرين الثاني/نوفمبر، 1979.

(28) حول كون الشركة وفرت خرائط الجامع الكبير للقوى الأمنيّة، راجع: «فايننشال تايمز»، 22 آب/أغسطس 1998. كان محمّد بن لادن، الشقيق الأكبر لأسامة ومؤسّس الشركة ورئيسها، قد تلقّى في وقت سابق عقداً كبيراً من العائلة المالكة لتجديد المسجد وتوسيعه. وتولّت شركته أيضاً بناء طرق سريعة تؤدّي إلى مكّة.

(29) «نيوزويك»، 3 كانون الأول/ديسمبر، 1979.

(30) ما استنتجه الأمير تركي من انتفاضة مكّة: «مذكّرة المحادثات بين سموّ الأمير تركي والسيناتور بيل برادلي»، 13 نيسان/أبريل 1980، ملفّات المؤلّف؛ «مقتبسات من طهران»، «نيويورك تايمز»، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1979؛ «واشنطن بوست»، تشرين الثاني/نوفمبر 23، 1979.

(31) ملخّص «البي.بي.سي» حول برامج البث في العالم، الذي تمّ توزيعه يوم 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1979.

(32) Robert G .Kaiser ,Why Gorbatchev Happened ,pp .53 –56 .

(33) عدد 3725 ضابطاً عسكريّاً تلقّوا التدريب على يد السوفيات مستقى من Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War, p. 51 و Barnett B. Rubin, The Fragmentation of Afghanistan, p. 71. أمّا رقم اثني عشر ألف سجين. سياسي فهو مستقى من Martin Ewans, Afghanistan, p. 42. يقدّم روبن جردات مفصّلة عن الحملات الأفغانيّة المبكرة لتدمير القيادات القبليّة والدينيّة التقليديّة عبر عمليات القتل والسجن الجماعيّة.

(34) سفيتلانا سافرانسكايا، ورقة عمل، «أفغانستان: دروس من الحرب الأخيرة»، 9 تشرين الأول/أكتوبر، 2001.

(35) قدّر روبرت غيتس مصرع أكثر من 20 ضابطاً سوفياتيّاً في مخطوطه غير المنشور، الفصل 11، ص. 36 - 37. ويشير إيوانز إلى التقدير الأكثر نمطيّة «حوالى مئة». لم يصدر السوفيات يوماً جردة محدّدة.

(36) «اجتماع المكتب السياسي للجنة المركزيّة للحزب الشيوعي في الاتّحاد السوفياتي»، 17 آذار/مارس 1979، نسخة عن المداولات، مصنّفة في الأساس غاية في السرّية، مترجمة وصادرة عن أرشيف الأمن القومي، واشنطن العاصمة. هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق المذكورة في هذا الفصل، تمّ جمعها أوّلاً بالإنكليزيّة تحت اسم «نحو تاريخ دولي للحرب في أفغانستان: 1979 - 1989»، وثائق جمعها كريستيان ف. أوسترمان وميرسو مونتيانو من المشروع التاريخي الدولي للحرب الباردة في مركز وودرو ولسن. تمّ إطلاق الوثيقة في مؤتمر صحافي عقده أوسترمان في 29 - 30 نيسان/أبريل 2002. وقد شارك أيضاً في المشروع برنامج آسيا ومعهد كينان للدراسات الروسيّة المتقدّمة في مركز وودرو ولسن؛ مجموعة جورج واشنطن للحرب الباردة في جامعة جورج واشنطن وأرشيف الأمن القومي، واشنطن.

(37) المصدر نفسه، 18 آذار/مارس، 1979.

(38) المصدر الرئيسي لهذه الكتابات موجود في «الكتيبة المحدودة» بقلم بوريس غروموف وهو الجنرال السوفياتي الذي قاد انسحاب الجيش الأربعين من أفغانستان وقد تمّ نشره بالروسيّة من قبل «التقدّم»، موسكو، 1994. النسخة المذكورة هنا تمّت

ترجمتها إلى الإنكليزيّة وإطلاقها من قبل المشروع التاريخي الدولي للحرب الباردة، جامعة جورج واشنطن، واشنطن العاصمة.

(39) ورقة الخيارات والمذكّرة السرّية موجودتان في كتاب روبرت غيتس «من الظلال»، ص 144. موقف الضبّاط في قسم الشرق الأدنى مستقى من مقابلات مع المؤلّف.

. Gates ,From the Shadows ,p.131(40)

(41) مقابلات مع ضباط عديدين خدموا في مديرية العمليات، وخصوصاً في قسم الشرق الأدنى أثناء تلك الفترة.

. Gates ,From the Shadows ,p.144(42)

(43) المصدر نفسه.

. Goodson ,Afghanistan’s Endless War ,p .57(44)

قدّر لاحقاً محمد يوسف، وهو عميد في مكتب أفغانستان التابع للمخابرات الباكستانية، أنّ الارتدادات الكبيرة تسببت في خفض عدد عناصر الجيش الأفغاني من 100 ألف رجل إلى حوالى 25 ألفاً حتى العام 1980. واستعمل غودسون أرقاماً مماثلة متوقعاً انخفاضاً من 80 ألفاً إلى 30 ألفاً في عدد الرجال في خلال الفترة نفسها بشكل أساسي بسبب ارتدادات الثوار.

(45) «أفغانستان: ترجيحات حيال التدخل السوفياتي»، من السفارة الأميركية في موسكو إلى وزارة الخارجية، موسكو 13083، تمّ نشرها من قبل مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة. ونظام الحكومة الأميركية الخاص بتنسيق المستندات، معقّد جداً ويتغير باستمرار. «خاص» هو أدنى مرتبة من مراتب تدرجات سرية المستندات؛ «سري» يأتي في المرتبة التالية، ثمّ «سريّ جدّاً». وقد يكون المستند السريّ محصوراً عن طريق الحدّ من تداوله في لائحة قراء قصيرة مزودة كلمة رمزية موقتة خاصة. ويعرف عادة هذا التحديد بسري جداً: كلمة رمزية. وتستمرّ تدرجات السرية حتى الآن لأنها تحقق نظاماً بسيطاً لتحديد أي طبقات من موظفي الدولة يجب تحريها، والإشراف عليها، واختيارها لقراءة بعض فئات المستندات السرية.

(46) «تقرير للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حول الأوضاع في أفغانستان»، 28 حزيران/يونيو 1979، «سري جداً»، «ملف خاص». تُرجم من قبل مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة. المصدر الروسي الأصلي هو ‘The Tragedy and Valor of the Afghani’ by A. A. Likhovskii, Moscow: GPI ‘Iskon’, 1995.

(47) «إلى السفير السوفياتي»، 28 حزيران/يونيو 1979، «سريّ جدّاً»، ترجم من قبل مشروع التاريخ الدولي للحرب البادرة. وتؤكّد سجلات الكرملين أنّ تاراكي استمرّ في طلب المزيد من القوات السوفياتية، سرّاً إن استدعى الأمر، طوال فترة صيف 1979.

(48) تاريخ العثور مستقى من: Gates, From the Shadows, pp. 143and 146. وقد صرح بريجنسكي بعد أعوام في مقابلة مع «لونوفال أوبسرفاتور» (15 و 21 كانون الثاني/يناير 1998، ص 76) أنه «زاد عن قصد من احتمال» تدخل السوفيات في أفغانستان من خلال سماحه بالمساعدة السرية. وأعلن بريجنسكي أنه استدرج بمكر السوفيات إلى فخ في أفغانستان. لكنّ مذكراته المعاصرة، وخصوصاً تلك التي كتبها في الأيام الأولى بعد الغزو السوفياتي، توضح أنه بينما كان بريجنسكي مصمماً على مواجهة السوفيات في أفغانستان من خلال عمليات سرية، كان يخشى فوز السوفيات. ولا تتضمن هذه المذكرات الأولى أي دليل على رضاه حيال إمساك السوفيات بالطّعم الأفغاني. ونظراً إلى التكاليف السياسية والأمنية الضخمة التي فرضها الغزو على إدارة كارتر، ما يجعل أي ادعاء أن بريجنسكي استدرج السوفيات إلى أفغانستان يثير ريبة كبيرة.

(49) تعديلات هاغز وريان التي أجريت على قانون المساعدات الأجنبية في العام 1961 وأصبحت سارية المفعول في العام 1974، شددت على الحاجة إلى سنّ «قانون» رئاسيّ رسميّ خاص بالعمليات السرية. وعدد من الأوامر التنفيذية اللاحقة والتعليمات الأمنية الرئاسية، يتم توفيرها من أجل العملية المفصّلة التي تتم من خلال نص قوانين العمليات السرية الرئاسية والموافقة عليها وتطبيقها داخل الشعبة التنفيذية، بما في ذلك «السي.آي.إيه.» التي يعتبرها القانون الوكالة الفدرالية الأساسية للعمليات السرية (في حال أراد الرئيس أن تشارك وكالة أميركية أخرى في عمليات سرية، فعليه نصّ ذلك في قانون، وإلا اعتبرت «السي.آي.إيه.» الوكالة الحصرية في مثل هذه البرامج). وأحكام هادجز وراين ملحقة بالقانون الأميركي من خلال قانون تفويض الاستخبارات للسنة المالية 1991. وينصّ هذا القانون على ما كان في السابق معايير غير رسمية، ما يعني أنّ العمليات السرية «ضرورية لدعم أهداف سياسات خارجية متجانسة». ولا بدّ من أن تكون مهمة للأمن القومي الأميركي. من أجل النظر في القانون الأميركي الذي يغطي الأعمال السرية، لا بدّ من مراجعة Michael W. Reisman and James E. Baker, Regulating Covert Action، الذي استقى منه الكاتب الاقتباسات والأقوال.

(50) Gates, From the Shadows, p. 146.

(51) Vasiliy Mitrokhin, The KGB in Afghanistan, English Edition, Working paper No. 40.

مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة، تم إصداره من قبل أود أرن ويستاد وكريستيان أوسترمان في واشنطن العاصمة في شباط/فبراير 2002. ميتروخين أمين محفوظات في «الكي.جي.بي.»، انتقل إلى بريطانيا العظمى عند انهيار الشيوعية السوفياتية. أورد في مستنده مقتبسات مفصلة عن ملفات «الكي.جي.بي.» والشبكات المتعلقة بأفغانستان، تعود إلى بداية الستينيات.

(52) هذا التقرير مبنيّ جزئياً على مذكرات مشاركين أميركيين وسوفيات في الأحداث التي تمّ ذكرها في مؤتمر «نحو تاريخ دولي عن الحرب في أفغانستان: 1979 - 1989» في العاصمة واشنطن، في 29 - 30 نيسان/أبريل 2002. وإشاعات «الكي.جي.بي.» التي تفيد أنّ أمين عميل لـ «السي.آي.إيه.» مستقاة من 50. والمستند الهندي مستقى Mitrokhin, KGB in Afghanistan, p. من مذكرات ضابط قديم كان يعمل في مديرية العمليات التابعة لـ «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت. مراجعة Charles G. Cogan, 'Partners in Time', World Policy Journal, summer1993, p. 76. وترأس كوغان قسم الشرق الأدنى في مديرية العمليات في أواسط العام 1979. كتب أنّه كان للسوفيات شكوك غير موثوق بها بأنّ أمين عمل مع «السي.آي.إيه.» بسبب «تواصل أمين المفترض مع «السي.آي.إيه.» (كان لديه صلة غير ثابتة بالمؤسسة الآسيوية)».

(53) Mitrokhin, KGB in Afghanistan, p. 93.

(54) عرض أمستوتز مذكراته في المؤتمر الذي عقد في نيسان/أبريل 2002. مذكرات ضباط قسم الشرق الأدنى مستقاة من مقابلات الكاتب.

(55) تقرير حول أولويات مركز كابول وفشله في تنبؤ الانقلاب العام 1978، مستقى من مقابلة الكاتب مع وارن ماريك في 11 آذار/مارس 2002، في العاصمة واشنطن. خدم ماريك ضابطاً يُعنى بملفات «السي.آي.إيه.» في كابول من أواخر سنة 1977 حتى بداية العام 1980. وقد تمّ تأكيد نقاط التقرير العامة من قبل ضباط أميركيين كانوا على اتصال مع مركز كابول في تلك الأعوام.

(56) مذكرة «ماذا يفعل السوفيات في أفغانستان»، قدّمها توماس ثورنتون، مساعد مدير الأمن القومي إلى زبيغنيو بريجنسكي في 17 أيلول/سبتمبر 1979، نشرها مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة.

(57) «مذكرة شخصية من أندروبوف إلى بريجينيف» في أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر 1979 مستقاة من الملاحظات التي جمعها دوبرينين، وقدمها إلى لجنة نوبل النروجية، ثم ترجمها مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة ونشرها.

(58) تذكر مراجع كثيرة سجلات المكتب السياسي المتعلّقة بالقرار المبدئي لشن غزو في 26 تشرين الثاني/نوفمبر، منها: Goodson, Afghanistan›s Endless War, p. 51؛ التوغل في كرمل في 7 كانون الأول/ديسمبر وتقرير حول محاولات تسميم أمين مستقاة من «أدلة روسية جديدة حول الأزمة والحرب في أفغانستان»، بقلم ألكسندر لياخوفسكي، ورقة عمل رقم 41، مسودة، مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة. خطط اعتداء «الكي.جي.بي.» مستقاة من KGB in Afghanistan ,Mitrohin, pp. 96-106.

(59) Gates ,From the Shadows ,p .133.

(60) Mitrokhin ,KGB in Afghanistan ,p .106.

(61) «أفكار حول التدخل السوفياتي في أفغانستان»، مذكرة للرئيس من زبيغنيو بريجنسكي في 26 كانون الأول/ديسمبر 1979، نشرها مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة.

(62) «مذكرة لوزير الخارجية»، 2 كانون الثاني/يناير 1980، نشرها مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة.

(63) مقابلات مع هوارد هارت في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في فيرجينيا، بالإضافة إلى اتصالات هاتفية ورسائل الكترونية لاحقة. قتل عبد الحقّ على أيدي قوات من طالبان داخل أفغانستان في تشرين الأول/أكتوبر 2001. دخل إلى شرق أفغانستان، مخالفاً نصيحة «السي.آي.إيه.» بغية تحريك المعارضة ضدّ الطالبان مباشرة عقب اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. حافظ هارت و «السي.آي.إيه.» على علاقتهما الوثيقة بعبد الحق حتى أواخر الثمانينيات، ولم يُستقَ ذلك من أقوال هارت فحسب، بل أيضاً من المقابلات التي أجراها الكاتب مع عدد من الضباط الأميركيين.

(64) مقابلات مع هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. كما وصف جورج كريل سيرة حياة هارت في كتابه Charlie Wilson’s War, pp. 117-121، الذي يعتمد أيضاً على مقابلات مع هارت.

(65) مقابلات مع ضباط سابقين في «السي.آي.إيه.» من تلك الفترة. المعلومات التي تفيد أن جورج ابن ساعي بريد من كريل مستقاة من Charlie Wilson's War, p. 62.

(66) صراع ليسارد مع هارت والمخاوف التي عبر عنها قبل وفاته، مستقاة من مقابلات مع ضباط أميركيين عرفوا ليسارد.

(67) الاقتباس ووجهة نظر هارت مستقيان من مقابلات مع هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

(68) مقابلات مع ضباط أميركيين مطلعين على القانون الرئاسي العام 1979. مراجعة ستيف كول، «واشنطن بوست»، 19 و 20 تموز/يوليو 1992.

Charles G .Cogan ,'Parteners in Time', World Policy Journal, Summer 1993(69)

كتب كوغان أنّ بنادق لي أنفيلد الأولى التي سمح قانون كارتر المعدلّ للجهاديين بالحصول عليها، وصلت إلى باكستان بعد عشرة أيام على الغزو السوفياتي. التفاصيل حول الأسلحة الأخرى التي تمّ تأمينها مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع هارت وضباط أميركيين آخرين.

Martin Ewans ,Afghanistan ,p .158(70)

يذكر أمين الأرشيف في «الكي.جي.بي.»، فازيلي ميتروخين في «الكي.جي.بي.» في أفغانستان»، إحصاءات حول «الكي.جي.بي.» لم تكن بحوزة «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت، وتظهر أكثر من 5 آلاف عملية قام بها الثوار في العام 1981، وضعف هذا العدد في السنة التالية. وأقرّ المركز الرئيسي للجيش السوفياتي الأربعين لموسكو في حزيران/يونيو1980: «يملك المعارضون للثورة الذين استعملوا وسائل الرعب والترهيب، ولعبوا على المشاعر الدينية والوطنية، تأثيراً قوياً في قسم كبير من الشعب في البلاد». مراجعة Excerpt from a Report of 40th Army HQ''، الذي نشره «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».

(71) اجتماع بانكوك وبرقيات هارت مستقاة من مقابلات مع هارت، جرت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. مراجعة 126. برقية كانون الثاني/يناير 1982 مذكورة في كتاب روبرت غايتس،-Crile, Charlie Wilson's War, pp. 125 From the Shadows, p. 251. قال غايتس إنّ مدير «السي.آي.إيه.»، وليام كايسي، قرأ هذه البرقية التي أرسلها هارت. قام مقر «الكي.جي.بي.» من دون علم «السي.آي.إيه.»، في الفترة نفسها التي كان في خلالها هارت يرسل برقيات طالباً أسلحة أكثر وأفضل، بإرسال تقرير إلى المكتب السياسي يقول: «القوات المضادة للثورة تمكنت من الحفاظ على مناطق تأثيرها، وضم جزء كبير من الشعب للنضال ضد النظام القائم». راجع: ميتروخين، KGB in Afghanistan, p. 132.

(72) مقابلات مع ضباط سابقين في «السي.آي.إيه.» كانت ملاحظة فريد «فريتز» إيرماث، وهو محلل سابق في «السي.آي.إيه.» للشؤون السوفياتية، نموذجية، وقال: «رحل نسل روزفلت ومايرز... كان الرجال القدماء عظماء... لكنهم رحلوا، أترى؟ أظنّ أنّ هذا

**التغيير في الأجيال من جديد مع التجربة السوفياتية هو جزء من الملحمة...». قال الرجال الجدد: «حسناً، سنلتزم بالمعنى التشغيليّ، وما نستطيع فعله هو إرسال البغال والأموال وقذائف الهاون».**

**(73) فكرة المكافأة مستقاة من مقابلات مع هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. وليس واضحاً إن طبقت «الآي.أس.آي.» النظام أم لا.**

**(74)Mary Ann Weaver ,Pakistan ,p .57 .**

**(75) المصدر نفسه، ص. 61.**

**(76)** «مسلمون متفانون، أجل»، من كتاب محمد يوسف، Silent Soldier, pp. 99-100.

**(77) «سيحارب الشبان الأفغان»، مستقاة من «مذكرة محادثة» الرئيس ريغان والرئيس ضياء الحقّ، 7 كانون الأول/ ديسمبر 1982، نشرها «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».**

**(78)Mitrokhin ,KGB in Afghanistan ,pp .151-152 ;Mohammed Yousaf and Mark Adkin ,The Bear Trap ,p .49.**

**(79)Denis kux ,The United States and Pakistan ,1947-2000 ,pp .256-257 .**

**(80) «اجتماعك مع الرئيس الباكستاني...»، مذكرة من شولتز إلى ريغن في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1982 و «زيارة عبد الحق» من شولتز بتاريخ 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1982 نشرهما «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».**

**(81) فهم محللو «السي.آي.إيه.» تناقض ضياء الحق حيال الولايات المتحدة. في تقييم خاص تم تحضيره في 12 أيلول/سبتمبر 1982، صرحت «السي.آي.إيه.»: «تدرك إسلام آباد أنّ الولايات المتحدة وحدها تستطيع التعويض عن الضغوط السوفياتية وتزويد باكستان بالأسلحة الدقيقة التي تحتاج إليها». إلا أنّ «الباكستانيين استمروا في التشكيك في مصداقية التزامات الولايات المتحدة وجهوزيتها في أوقات الأزمة». مراجعة: «تقديرات استخبارية وطنية خاصة حول باكستان»، 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1982، نشرها «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».**

**(82) مقابلات مع هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، ومع يوسف في حزيران/يونيو 1992 في داسيلدورف في ألمانيا. كان محمد يوسف، وهو عميد باكستاني متقاعد في فترة المقابلات أحد كاتبي The Bear Trap، وهو تقرير مفصل عن عمليات «السي.آي.إيه.» في أفغانستان بين العامين 1983 و 1987.**

(83) الرموز الهاتفية الخاصة بـ «السي.آي.إيه.» مستقاة من المقابلات التي أجراها الكاتب مع يوسف في حزيران/يونيو 1992. قوانين «الآي.أس.آي.» حول اتصال «السي.آي.إيه.» بالأفغان مستقاة من أقوال هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 وضباط أميركيين آخرين على اطلاع على العلاقة. قال يوسف إنّه تمّ عصب عينيه وعيني أخطار عندما زارا الولايات المتحدة. وقال مسؤول أميركي عندما أجريت معه مقابلة في العام 1992، إنّه «لن يبعدك عن ذلك. لدينا منشآت حساسة».

Yousaf, Silent Soldier, pp. 25-27.(84)

المعلومات المهنية حول الجنرال أخطار موجودة في الصفحات 27-32.

(85) حجم مكتب «الآي.أس.آي.» في أفغانستان مستقى من كتاب يوسف وأدكين، Bear Trap, pp. 1-3. النظرة إلى «السي.آي.أي.» مستقاة من مقابلات مع يوسف وجنرالات آخرين في الجيش الباكستاني و «الآي.أس.آي.»

(86) تقديرات منشورة حول المساعدات الأميركية السرية بين العامين الماليين 1981 و 1984 تضمّ بارنت روبن، Refugee Survey Quarterly، المفوض السامي للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، 1996. وتم تأكيد هذه التقديرات في مقابلات مع عدد من المسؤولين الأميركيين. كانت سنة 1984 المالية معقدة بشكل غير اعتيادي لأن الأموال الزائدة في البنتاغون أضيفت إلى خط الإمدادات في اللحظات الأخيرة. والأرقام السوفياتية المذكورة هنا مستقاة من: Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War, p. 63.

(87) التفاصيل حول أنظمة الأسلحة والتفاصيل المالية مستقاة من يوسف في حزيران/يونيو1992 وهارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 ومسؤولين أميركيين على اطلاع على الإمدادات في خلال تلك الأعوام. ووصف يوسف وأدكين عدداً كبيراً من هذه المشتريات في The Bear Trap. الحادث التركي مستقى من مقابلات مع يوسف. يذكر هارت أنّ «السي.آي.إيه.» دفعت للصينيين مبلغ 80$ لشراء نموذج عن كلاشينكوف كلفهم صنعه مبلغ 12 أو 15$. ولأنّ الصينيين يفرضون مراقبة عالية الجودة على عملية التصنيع، اتجهت معظم مشتريات «السي.آي.إيه.» السرية إلى بكين. بدت السفن الصينية التي تملكها الدولة تتبخر داخل كاراتشي في اليوم المطلوب، بينما يقف مساعد ملحق الدفاع الصيني في سفارة إسلام آباد من دون حراك عند الرصيف حاملاً ذاكرة تخزين موقتة في يده.

(88) مقابلات مع هارت، في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 ويوسف في حزيران/يونيو/حزيران 1992.

(89) مراجعة الفصل السابع من أجل معلومات مفصلة حول هذه المسألة.

(90) «زيارة وزير الخارجية إلى باكستان: أفغانستان»، تقرير من السفارة الأميركية في إسلام آباد لوزير الخارجية في 1 حزيران/يونيو 1983، نشره «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».

(91) حصل الكاتب على نسخة من الرسالة. رحلة هارت إلى أفغانستان مستقاة من مقابلات مع هارت جرت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. إنّه المصدر الوحيد الذي تضمّن معلومات حول الرحلة. ووفقاً لضباط أميركيين عايشوا الحرب، قام ضابطان آخران في مديرية العمليات على الأقل، أحدهما أصبح في ما بعد رئيس مركز إسلام آباد، برحلات غير مصرح لها إلى داخل أفغانستان أثناء الحقبة السوفياتية من الحرب.

(92) التقرير حول زيارة باديب إلى باكستان ولقائه ضياء الحق، مستقىً من مقابلة أجراها الكاتب مع أحمد باديب وسعيد باديب في 1 شباط/فبراير 2002 في جدّة في السعودية. ودامت المقابلة حوالى الساعتين، وكانت باللغة الإنكليزية. ثمّ قدّم أحمد باديب إلى الكاتب تسجيلات فيديو لمقابلات امتدّت على يومين أجراها في العام 2002، مع محطة إخبارية فضائية باللغة العربية مركزها لبنان، هي محطة «أوربت». واستعان الكاتب بشركة في واشنطن العاصمة، لترجمة مقابلات أوربت من العربية إلى الإنكليزية. وبعض الاقتباسات المأخوذة عن باديب في هذا الفصل، مثل تقرير زيارته باكستان حاملاً صناديق نقود، مستقى من مقابلة الكاتب. وتعود اقتباسات أخرى إلى مقابلات «أوربت»، كما تمّ تحويلها إلى الإنكليزية من قبل شركة ترجمة. والعلامات الفارقة مذكورة في الملاحظات. المعلومات حول ارتياد باديب مدرسة في شمال داكوتا، مستقاة من مقابلة مع مسؤول أميركي.

(93) مقابلة مع نات كيرن في 23 كانون الثاني/يناير 2002 في واشنطن العاصمة. كيرن على علاقة وثيقة بالحكومة السعودية بصفته محرراً في جريدة مختصة حول الأسواق النفطية والسياسات في الشرق الأوسط. ويعزو كيرن اقتباس تركي إلى شريكه، فرانك أندرسون، وهو ضابط سريّ سابق في قسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.» ومدير سابق لقوات العمل في أفغانستان التابعة لمديرية العمليات.

(94) نواف عبيد، «تحسين تحاليل الاستخبارات الأميركية حول عملية اتخاذ القرار السعودي»، تقرير شهادة الدراسات العليا، مدرسة جون كينيدي الحكومية، جامعة هارفرد، 1998. «آمن كلاهما بتقوى»، مستقاة من محمد يوسف، راجع: Silent Soldier, p. 87.

(95) التحليق الجويّ السعوديّ السريّ فوق كاراتشي مستقى من مقابلات باديب مع «أوربت».

(96) تاريخ «الجي.آي.دي.» مستقى من مقابلات مع مسؤولين سعوديين، ومن نات كيرن في 23 كانون الثاني/يناير 2002؛ ومن مقابلة هاتفية مع راي كلوس، وهو رئيس سابق لمركز «السي.آي.إيه» في جدة، عمل لاحقاً مستشاراً للأمير تركي، جرت في 10 كانون الثاني/يناير 2002 في واشنطن العاصمة. قدمت «الجي.آي.دي.» إلى أنور السادات، مدخولاً منتظماً في العام 1970، عندما كان نائب رئيس جمهورية مصر العربية. مراجعة: Bob Woodward, Veil: The Secret Wars of the CIA: 1981-1987, p. 352.

(97) Alexei Vassiliev, The History of Saudi Arabia, p. 213

، مقتبس من البريطاني جيرترود بيل المتخصص في اللغة العربية. يسلّط تاريخ فاسيلييف، المترجم من اللغة الروسية، الضوء على المصادر العربية والعثمانية الأصلية، بالإضافة إلى تقارير المسافرين. إنّه المصدر الأساسي الذي استقى منه «تاريخ شبه الجزيرة العربية» قبل القرن العشرين في هذا الفصل.

(98) تعود نظرية الكاتب حول أن السعودية أول أمة عصرية ينشئها الجهاد، إلى كاتب مجهول قام بتحقيق حول المملكة تم نشره في «ذي إيكونومست»، في 23 آذار/مارس 2002.

(99) الإحصاءات الديموغرافية مستقاة من Vassilliev, History of Saudi Arabia, p.421.

**(100) الاقتباسات مستقاة من الخطاب الذي ألقاه الأمير تركي في 3 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة، تمّ نقله ونشره على الإنترنت من قبل مركز الدراسات العربية المعاصرة. كما تحدّث الأمير تركي بإيجاز عن الوقت الذي أمضاه في لورنسفيل في مقابلة أجراها مع الكاتب في 2 آب/أغسطس 2022 في كانكون في المكسيك.**

**(101) لم يكن كلينتون على معرفة بتركي في جامعة جورج تاون، ولم يقابله سوى بعد تسلمه مهامه. وقد استقيت هذه المعلومات من مقابلة مع مسؤولين سعوديين قدماء، ومع كيرن في 23 كانون الثاني/يناير 2002.**

**(102) الاقتباسات مستقاة من خطاب تركي في 3 شباط/فبراير 2002.**

**(103) المصدر نفسه. اغتيال والد تركي مستقى من Vassiliev, History of Saudi Arabia, pp. 394-395.**

**(104) مقابلات مع مسؤولين سعوديين وأميركيين. إحصاءات ميزانية الحكومة مستقاة من «ذي إيكونومست» في 23 آذار/مارس 2002. توسيع شبكة كومبيوتر «الجي.آي.دي.» مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومن «البيزنيس ويك» في 6 تشرين الأول/أكتوبر 1980.**

**(105) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(106) مقابلة الكاتب مع أحمد باديب وسعيد باديب في 1 شباط/فبراير 2002.**

**(107) مقابلات مع مسؤولين سعوديين. اقتباس جورج مستقى من مقابلة أجراها الكاتب مع جورج كلير في 21 كانون الأول/ديسمبر 2001 في شيفي تشايس في ميريلاند.**

**(108) مقابلة مع سعيد باديب في 1 شباط/فبراير 2002. المعلومات حول والدهما الذي كان تاجراً ناجحاً ومتواضعاً في جدة، مستقاة من مقابلة مع محرر في جريدة سعودية.**

**(109) المعلومات المتعلقة بتدبير السعودية للقاءات بين «السي.آي.إيه.» والحجاج مستقاة من مقابلات مع مسؤولين سابقين في الاستخبارات الأميركية. أمّا «نادي السفاري»، فمستقى من خطاب تركي في 3 شباط/فبراير 2002.**

**(110) «مذكرة حديث بين الأمير تركي والسيناتور بيل برادلي»، في 12 نيسان/أبريل، 1980، من ملفات الكاتب.**

**(111) التوصُّل إلى الاتفاق مع السعوديين لملاءمة ادّخار كل دولار الذي تم في شهر تموز/يوليو مستقى من مخطوطات مذكرات روبرت غيتس الأصلية وغير المنشورة، ص 13 - 31. إن المعلومات المتعلقة ببندر والقائلة إنه كان يحتفظ بالودائع المصرفية وضباط «السي.آي.آيه.» شكوا أنه سعى إلى كسب الفائدة، مستقاة من مقابلات أجريت مع ثلاثةٍ من ضباط «السي.آي.آيه.»**

معنيين، يملكون معلومات مرتبطة بهذه المسألة. في مقابلات هارت الذي كان رئيس مركز إسلام آباد من عام 1981 وحتى عام 1984، صرّح أن السعوديين غالباً ما تأخروا في دفع فواتيرهم، غير أنه لم يعلّق على الدور الذي لعبه بندر.

(112) اقتباسات باديب مستقاة من مقابلته مع «أوربت». اقتباسات يوسف مستقاة من كتابه: Silent Soldier, pp. 88.

(113) تقرير مؤتمر الطائف ومقابلات باديب مع قادة جهاديين ومع سياف، بالإضافة إلى التقرير التالي حول علاقة «الجي.آي.دي» والمؤسسات الخيرية السعودية، تم اقتباسهما من مقابلة الكاتب مع باديب في 1 شباط/فبراير 2002.

(114) المعلومات حول تحكّم تركي في توجه المساعدات المالية، مستقاة من مقابلة مع تركي ومسؤولين سعوديين آخرين. اقتباس باديب مستقى من مقابلة أجراها الكاتب معه في 1 شباط/فبراير 2002.

(115) Peter L. Bergen, Holy War, pp. 41-48.

هو مصدر دقيق للمعطيات المتعلقة بجذور عائلة بن لادن ونجاحها التجاري.

(116) مقابلات مع تركي في 2 آب/أغسطس 2002. المعلومات حول إنشاء فيصل اتحاداً يضمن حسن انتقال شركة بن لادن إلى الابن البكر، مستقاة أيضاً من المقابلة.

(117) Bergen, Holy War, pp. 47-48.

مصروف بن لادن مستقى من إفادة فريق المفوضية الوطنية الرقم 15، ص. 3 - 4.

(118) مقابلة الكاتب مع باديب في 2 شباط/فبراير 2002.

(119) اقتباس باديب مستقى من مقابلة الكاتب في 2 شباط/فبراير 2002.

(120) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(121) مراجعة شهادة كوفر بلاك، مدير مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» بين العامين 1999 و 2002 التي أدلى بها في 26 أيلول/سبتمبر 2002 تحقيق الكونغرس باعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. «لم نكن على علاقة به (بن لادن) لكنّنا شاهدنا طفلاً غنيّاً في الثانية والعشرين من عمره، ومن عائلة سعودية بارزة، يتحول من مقاتل جهادي في الصفوف الأمامية إلى ممول

لشق الطرقات وبناء المستشفيات». وشهد مدير «السي.آي.إيه.»، جورج تينيت، تحت القَسَم في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002، أنه في الثمانينيات: «منذ أن تعرفنا إليه، لا نملك أي سجل حول اتصال مباشر بين الحكومة الأميركية وبن لادن في ذلك الوقت».

(122) «أحببت أسامة...»، و «لم يكن متطرفاً على الإطلاق...»، اقتباسان من باديب من مقابلاته مع «أوربت».

(123) المصدر نفسه.

(124) اقتباسات من خطاب تركي في واشنطن العاصمة في 2 شباط/فبراير 2002. تحدث عن علاقته ببن لادن في الثمانينيات في عدد من المقابلات.

(125) باديب، مقابلات مع «أوربت» (مراجعة: ملاحظة 1، الفصل العاشر). تحدث باديب في اليوم الأول من مقابلاته مع أوربت بصراحة ووضوح عن علاقته ببن لادن، وعلاقة بن لادن بالحكومة السعودية. وبعد بدء المقابلة في اليوم التالي، أوقف باديب محاوره لتقديم «توضيح»، وهو أن بن لادن لم يكن عميلاً في الاستخبارات السعودية، وأنه قابله فحسب «بصفته أستاذه السابق». ويزيد هذا التعاقب من احتمال أنّ المسؤولين الحكوميين السعوديين رأوا الجزء الأول من المقابلة، أو سمعوا عنه، فلم يعجبهم، وطلبوا من باديب إصدار هذا «التوضيح».

(126) محتويات المذكرة الموجهة إلى ريغان، مستقاة من مخطوط روبرت غايتس الأصلي الذي لم يُترجم، ص. 23 - 33.

(127) مقابلات مع ضباط سابقين في «السي.آي.إيه. وأيضاً:

Mohammad Yousaf and Mark Adking, The Bear Trap, pp. 193– 95.

(128) تساؤل مكماهون عن الغاية من الحرب السرية، مستقىً من Bob woodward, Veil, p. 104. واقتباس تويتن مستقىً من Kirsten Lundberg, Philip Zelikow and Ernest May, Politics of a Covert Action, p. 12. وتقييم مديرية الاستخبارات مستقى من «أفغانستان: الثورة بعد أربع سنين»، «السي.آي.إيه.»، مديرية الاستخبارات، تموز/يوليو 1982، كشفت في تموز/يوليو 1999، نشرها أرشيف الأمن القومي.

(129) «أزمة منتصف العمر الأطول في التاريخ»، مستقاة من George Crile, Charlie Wilson's War, p. 39. يضم الكتاب تقارير مفصلة وحيوية عن دور ويلسون في الصراع السوفياتي - الأفغاني، قدّمها ويلسون وضابط في «السي.آي.إيه.» اسمه غاست أفراكاتوس، واعتبرها كريل مصيرية.

(130) قرار الكونغرس مقتبس من كتاب Lundberg, Zelikow and May, Politics of a Covert Action, p. 20. لا علاقة للولايات المتحدة...» مستقاة من Crile, Charlie Wilson's War, p. 262.

(131) قدمت تقارير عديدة عن اتفاقيات كايسي السرية مع الكنيسة الكاثوليكية في الثمانينيات. وتم وصف بعض جهوده في أميركا الوسطى أثناء شهادة من محاكمة كلير جورج الإجرامية التي تلت فضيحة إيران - كونترا. للمعلومات حول «السي.آي.إيه.» والكنيسة في بولندا، مراجعة His Holiness ,Carl Bernstein and Marco Politi.

(132) مقابلة مع مسؤول سابق في «السي.آي.إيه.» مراجعة: Woodward, Veil, p. 130.

(133) اقتباس السيدة كايسي مستقى من Joseph E. Persico, Casey: From The OSS to the CIA, p. 26. مواد السيرات الذاتية السابقة لـ «السي.آي.إيه.» الواردة في هذا الفصل، تدل على عمل برسيكو الدؤوب الذي يعتمد بدوره على أوراق كايسي والمقابلات الكثيفة التي أجريت مع عائلته وزملائه في «السي.آي.إيه.»، كما ساعدت على ذلك تقارير كايسي الخاصة حول الخبرات التي اكتسبها أثناء الحرب ووجهة نظره السياسية الواردة في كتاب Scouting the Future الذي يضم مجموعة خطابات كايسي العلنية التي جمعها هربرت ماير.

(134) «حثُّ بنائي السفن على العمل» مستقى من Persico, Casey, p. 51، ولاعبي بولو سابقين، من ص. 56.

(135) «لم أكن يوماً على اتصال»، المصدر نفسه، ص. 57.

(136) المصدر نفسه، ص. 68 - 69.

(137) ثمانية وخمسون فريقاً، مستقاة من برسيكو المصدر نفسه، ص. 79. معدّل النجاح و «على الأرجح أنقذنا» و «من المرة الأولى»، من المصدر نفسه، ص. 83. مراجعة خطاب كايسي الذي ألقاه في 19 أيلول/سبتمبر 1986 الوارد في كتابه Scouting the Future, pp. 218-27.

(138) «تم السماح لـ «السي.آي.إيه.» بتخفيض»، مستقى من Robert M. Gates, From the Shadows, p. 210. مشهد المشروب الكحولي وعبارة «يطلب شيئاً ما»، تم استقاؤهما من المصدر نفسه، ص. 198.

(139) عبارة «الرجل المتمتم»، مستقاة من مقابلات الكاتب مع أحمد باديب في 1 شباط/فبراير 2002 في جدّة في السعودية. وملاحظة ريغان إلى بوش مستقاة من كتاب 228. اقتباس باركلي مستقى من المصدر نفسه، ص. 571. Persico, Casey, p. «أستطيع أن أؤكد ذلك» مستقاة من خطاب ألقاه في 26 حزيران/يونيو 1984، كتاب كايسي، Scouting the Future, p. 289.

(140) «كارث» مستقاة من خطاب كايسي في 21 أيار/مايو1982، من كتاب كايسي Scouting the Future, p. 11. «ساحة المعركة الأساسية» مستقاة من خطاب ألقاه في 30 تموز/يوليو، المصدر نفسه، ص. 26. وعبارتا «مضيق» و «حقول النفط»، تم اقتباسهما من خطاب ألقاه في 27 تشرين الأول/أكتوبر 1986، المصدر نفسه، ص. 35.

(141) مقارنة Mein Kampf مأخوذ من خطاب ألقاه كايسي في 1 أيار/مايو 1985، كتاب كايسي Scouting the

Future, p. 183. جملة «اثنان يستطيعان المشاركة في اللعبة نفسها»، مستقاة من الخطاب الذي ألقاه في 27 تشرين الأول/ أكتوبر 1986، المصدر نفسه، ص. 36. «عدد الرجال الضروري أقل» مستقاة من الخطاب الذي ألقاه في 19 أيلول/سبتمبر 1986، المصدر نفسه، ص. 299. «مقاتلو الحرية الأفغان» مستقاة من الخطاب الذي ألقاه في 23 تشرين الأول/أكتوبر 1981، المصدر نفسه، ص. 119 - 120.

(142) «استراتيجية واقعية مضادة» مستقاة من خطاب كايسي في 23 تشرين الأول/أكتوبر 1983، المصدر نفسه، ص. 199 - 120 وص. 144. محادثاته حول الشيوعية والديانة التقليدية، مستقاة من خطابه في 1 أيار/مايو 1985، المصدر نفسه، ص. 186 - 187.

(143) كايسي والأمير خالد من Persico, Casey, pp. 310 - 311. كايسي والنفط من مقابلات مع ضباط سابقين في «السي.آي.إيه.» ومسؤولين أميركيين.

(144) «متورّط كليّاً» مستقاة من Yousaf, Silent Soldier, pp. 80-81. المعلومات حول السجادة التي تبلغ قيمتها سبعة آلاف دولار، مستقاة من Persico, Casey, p. 507. أبلغ عن تسلُّم الهدية وقدّم السجادة إلى الحكومة الأميركية.

(145) Persico, Casey, p. 226.

(146) كايسي وضياء الحق ونموذج ضياء الحق الأحمر من CharlesG.Cogan, 'Partners in Time', World Policy Journal, p 79. «الواجب الأخلاقي» مستقى من Gates, From the Shadows, p. 252. خريطة «السي.آي.إيه.» التي رسمها كايسي مستقاة من مخطوط غايتس الذي لم ينشر، ص. 18، 63 - 65.

(147) Persico, Casey, p. 313.

(148) مقابلات مع هوارد هارت في 12 و26 و27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. أكّدت مصادر عديدة روايته، منها يوسف.

(149) اقتباس المذكرة مستقى من مخطوط غايتس، ص. 23، 37 - 38.

(150) مقابلات مع ضباط سابقين في «السي.آي.إيه.».

(151) Gates, From the Shadows, p. 320.

(152) قيمة المساعدات والاقتباسات مستقاة من مخطوط غايتس، ص. 23، 37 - 38.

(153) إصرار كايسي على رؤية المعسكرات الحدودية، مستقى من مقابلات أجراها الكاتب مع يوسف في العام 1992. جملة «يجب إحراق كابول» مستقاة من المقابلات نفسها. وصف كايسي وأخطار مأخوذ من صورة التقطت أثناء الزيارة، ونشرها يوسف في: Silent Soldier.

(154) مخطوط غايتس، ص. 12، 6 - 11.

(155) محاضرة أيار/مايو 1984 مذكورة في تقرير «السي.آي.إيه.»، مديرية المخابرات، «الغزو السوفياتي لأفغانستان: بعد خمس سنين»، أيار/مايو 1985 نشرها أرشيف الأمن القومي. سفر الدبلوماسيين الأميركيين إلى آسيا الوسطى مستقى من مقابلة مع إدموند ماك في 15 كانون الثاني/يناير 2002، في واشنطن العاصمة. كان ماك وليامز ضابطاً سياسياً في السفارة في موسكو أثناء تلك الفترة، وسافر إلى آسيا الوسطى مرات عدّة.

(156) مقابلات مع يوسف في العام 1992. وأيضاً Yousaf and Adkin, Bear Trap, pp. 189-95.

(157) مذكرات يوسف مستقاة من المقابلات التي أجراها الكاتب في العام 1992. اقتباسات غايتس مستقاة من مخطوطة غايتس، ص. 13 - 14، 26.

(158) مقابلات مع مسؤولين في الوكالات الثلاث في العام 1992.

(159) Gates, From the Shadows, p. 199.

(160) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. «ألا تسمح... وهذا ما فعلناه»، مستقاة من رسالة خطّية أرسلها بيكني إلى الكاتب في 6 تموز/يوليو 2003.

(161) يرتكز التقرير حول طفولة مسعود وحياة عائلته في الأساس، على مجموعة طويلة من المقابلات التي أُجريت في كابول في أيار/مايو 2002 مع يحيى مسعود وشقيق أحمد الذي يكبره بسنتين. كما أمن يحيى جولة دامت يوماً في وادي بانشير روى خلالها تاريخ عائلته في المنطقة، وناقش تكتيكات أخيه للدفاع عن الوادي ضد السوفيات. في الثمانينيات، خدم يحيى في جيش أحمد شاه مسعود مستشاراً وصلة وصل بين مسعود والاستخبارات البريطانية، «أم. آي 6». ثمة تقرير موجز عن الألعاب الحربية التي لعبها مسعود في شبابه في كتاب سيباستيان جانغر الذي أصدره في العام 2001 بعنوان Fire، الذي يحتوي على مقالة عن مسعود بعنوان «الأسد في الشتاء»، ص. 213.

(162) مقابلة مع أحمد شاه مسعود في 7 أيار/مايو 2002 في كابول، أفغانستان.

(163) Barnett R. Rubin, The Fragmentation of Afghanistan, pp. 83, 218 and 221.

(164) مقابلة مع ضياء مجددي في 14 أيار/مايو 2002 في كابول، أفغانستان. كان مجددي أستاذ زراعة في الستينيات والسبعينيات في جامعة كابول. وفي العام 1969، كان قائد أفغانستان المستقبلي، قلب الدين حكمتيار، أحد تلاميذه. يذكر مجددي أن هذا الطالب «متقلّب جداً». من أجل معلومات مفصلة عن الهوة المتزايدة بين الإسلاميين والشيوعيين في الستينيات والسبعينيات في أفغانستان، وعلى الخصوص في جامعة كابول، لا بدّ من مراجعة Rubin, Fragmentation of Afghanistan, pp.81-105.

(165) Olivier Roy, Afghanistan: From Holy War to Civil War, p. 38.

(166) التقرير حول جذور الإخوان المسلمين وتاريخ بداية المجموعة، مستقاة من: Mary Ann Weaver, A Portrait of Egypt, pp. 26-29 و Daniel Benjamin and Steven Simon, The Age of Sacred Terror, pp.57-59.

(167) Ayman al-Zawahiri, Knights Under the Prophets Banner.

نشرت جريدة «الشرق الأوسط» في كانون الأول/ديسمبر 2001، أجزاء من نسخة هذا الكتاب المطبوعة التي ترجمتها شركة «أف.بي.آي.أس.». انجذب ياسر عرفات إلى جمعية الإخوان المسلمين عندما كان ملازماً شاباً في الجيش المصري، وأُلقي القبض عليه مرتين بسبب نشاطاته الحزبية، واتجه لاحقاً نحو السياسات العلمانية اليسارية.

(168) Benjamin and Simon, Age of Sacred Terror, p. 65.

(169) Weaver, Portrait of Egypt, pp. 28-29.

(170) Rubin, Fragmentation of Afghanistan, p. 83.

(171) مقابلة مع علي أشغار بايمان في 7 أيار/مايو 2002 في كابول، أفغانستان. كان بايمان، نائب وزير التخطيط في الحكومة الموقتة في العام 2002، وزميل حكمتيار في جامعة كابول.

(172) Michael Griffin, Reaping the Whirlwind, pp. 17-18.

(173) Rubin, Fragmentation of Afghanistan, pp. 103-4.

(174) وردت بعض التقارير عن عودة مسعود إلى أفغانستان في العام 1978 في البرقية التي أرسلها ويليام برانيجين في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1983 من بانشير إلى «الواشنطن بوست»، وفي كتاب Jon Lee Anderson, The Lion's Grave, pp. 218-19.

(175) المعلومات حول عدم رغبة السوفيات في استعمال قواتهم الخاصة ضد المجاهدين، مستقاة من 'The Tragedy and Valor of the Afghani', Moscow, GPI, 'Iskon', 1995, pp. 176-77 ترجمتها سفيتلانا سافرنسكايا، وأخذت من أرشيف الأمن القومي.

Edward Girardet ,The Christian Science Monitor ,September 23, 1981.(176)

كان جيراردي الصحافي الغربي الأول الذي قدّم تقريراً مفصلاً عن حرب مسعود في بانشير.

. Vasiliy Mitrokhin ,The KGB in Afghanistan ,p .134(177)

. Sebastian Junger ,Fire ,p .201(178)

William Dowell ,Time ,July 5, 1982.(179)

رافقت مجموعة من رجال مسعود دويل في طريقه من باكستان إلى أفغانستان. وفي مرحلة ما، مرّ المجاهدون على بعد بضع خطوات من قوات الجيش الأفغاني. لكن بدلاً من أن يطلق الجنود داخل الحصن النار عليهم، لوحوا بأيديهم، وابتسموا ما أثار دهشة دويل.

Girardet, Christian Science Monitor(180)

، في 24 أيلول/سبتمبر 1981.

(181) يصف كتاب Rubin, Fragmentation of Afghanistan, pp. 234-37، منظمة مسعود العسكرية والمدنية في بانشير خصوصاً بالمقارنة بمنظمة حكمتيار في أفغانستان. المقتبسات من Roy, Afghanistan, pp. 63-64 .

. Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,p .220(182)

(183) «يونايتد بريس إنترناشيونال» في 24 أيار/مايو 1983.

(184) مقابلة مع العميد سيّد رازا علي التابع لـ «الآي.أس.آي» في 20 أيار/مايو 2002 في راولبندي في باكستان. عمل رازا في مكتب «الآي.أس.آي» للشؤون الأفغانية منذ بداية الثمانينيات وحتى الانسحاب السوفياتي.

. Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,p .232(185)

(186) مقابلة مع صحافي عربي، كان في ذلك الوقت في بيشاور.

(187) مقابلة مع غراهام فولير في العام 1992.

(188) مقابلة مع مسؤول أميركي.

(189) مقابلة مع وليام بيكني في 14 كانون الثاني/يناير 2002 في تايسنز كورنر، فيرجينيا.

(190) مقابلة مع عبد الله في 8 أيار/مايو 2002 في كابول، أفغانستان.

(191) المصدر نفسه. محاولة الاغتيال مستقاة من The ChristianScience Monitor في 2 أيار/مايو 1984 و «واشنطن بوست» في 2 أيار/مايو 1984.

Patricia I .Sethi ,Newsweek(192)

في 11 حزيران/يونيو 1984.

Edward Girardet ,Christian Science Monitor ,October 2, 1984.(193)

(194) «السي.آي.إيه.»، مديرية الاستخبارات، «الغزو السوفياتي لأفغانستان: بعد خمس سنين»، سري، أيار/مايو 1985.

(195) يرتكز هذا التلخيص حول علاقات مسعود بالبريطانيين والفرنسيين، على مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومع يحيى مسعود الذي كان مسؤولاً عن العلاقة مع البريطانيين، أُجريت في أيار/مايو 2002، وداود مير الذي عمل لاحقاً ممثلاً لمسعود في فرنسا. مراجعة George Crile ,Charlie Wilson War’s ,pp. 199-200. قال يحيى مسعود متحدثاً عن البريطانيين: «كانت علاقتنا وثيقة. أستطيع أن أؤكّد لكم أنّني سافرت أكثر من 14 مرّة إلى المملكة المتحدة بحثاً عن المساعدة. وقد ساعدونا كثيراً. قدموا إلينا معدات خاصة جداً، وتدريباً عسكرياً من دون تدخل باكستان». الاقتباسات حول «حدّة الحسد» و «محاولين إيجاد بعض طباع المنقذ» مستقاة من مقابلة مع مسؤول سابق في «السي.آي.إيه.».

(196) مقابلة مع سفير الهند في أفغانستان، مسعود خليلي في 28 أيار/مايو 2002 في كابول، أفغانستان.

(197) «يلعبون لعبتهم الخاصة» مستقاة من مقابلة مع سيد رازا علي في 20 أيار/مايو 2002. المعلومات حول بدء «السي.آي.إيه.» تقديم مساعدات من جهة واحدة إلى مسعود في العام 1984، مستقاة من مقابلة أجراها الكاتب مع رئيس سابق لقسم الشرق الأدنى التابع لـ «السي.آي.إيه.»، توماس تويتن في 18 أيار/مايو 2002 في واشنطن العاصمة. يذكر Crile, Charlie Wilson’War s, p. 202 رئيس قوات المهام الأفغانية، أفراكاتوس، وتواريخ بدء «السي.آي.إيه.» تقديم مساعداتها في أواخر العام 1984.

(198) «لم يواجه أي مشكلة»، مستقاة من مقابلة مع مسؤول أميركي. «لا يستطيع أن يجعل أي رجل أقوى منه»، مستقاة من مقابلة مع محمد يوسف في العام 1992.

Girardet ,Christian Science Monitor(199)

في 2 تشرين الأول/أكتوبر 1984.

(200) اقتباس أندرسون مستقى من كريستن لاندبورغ وفيليب زيليكو وإرنست ماي، «سياسات عملية سرية»، برنامج مدرسة كينيدي الحكومية. التقرير الوارد في هذا الفصل حول التداولات الداخلية التي أحاطت بتوجيهات قرار الأمن القومي 166، مستقى من هذه الدراسة المهمة، كما أن الملاحظات والوثائق مستقاة من تقرير الكاتب الأساسي حول توجيهات القرار التي نشرها في «واشنطن بوست» في تموز/يوليو 1992 ومن مقابلات أكثر حداثة أجراها الكاتب مع مشاركين.

(201) الاقتباسات في هذه الفقرة والفقرة السابقة، مستقاة من لاندبورغ وزيليكو وماي «سياسات عملية سرية».

(202) بقيت توجيهات قرار الأمن القومي 166 وملحقاتها سرية، ولم تنشر قط. ومن غير الواضح كم كانت التصريحات الأصلية في الملحقات دقيقة وعدد ممارسات «السي.آي.إيه.» الجديدة التي تمّ تطويرها بعد أن راجعتها مجموعة التنسيق بين الوكالات بعد توقيع توجيهات القرار. وحدد محمد يوسف في مقابلات أُجريت في العام 1992 تاريخ وصول مجموعات وحدات الاتصالات الأولى، الذي سُجّل على أنه في أواخر العام 1985. وأعلن مسؤولون أميركيون قابلهم الكاتب حديثاً، أنّ تاريخ عملية التوسع الكبيرة التي نفذتها «السي.آي.إيه.» بهدف توظيف عملاء لكتابة تقارير مقابل أجر في أفغانستان، يعود إلى العام 1985. وأضيف عدد قليل من العملاء إلى جدول الرواتب في وقت سابق، وفقاً للمقابلات، إلا أنه بعد العام 1985، ارتفع العدد إلى العشرات، وبدأت الرواتب الشهرية بالتضخم. لم يتضح إن كان توسيع عدد العملاء الأحاديي الجانب مطروحاً صراحة في ملحق توجيهات قرار الأمن القومي. أمّا بالنسبة إلى مسألة إطلاق النار على السوفيات، فقد تفيد «سياسات عملية سرية» التي كتبها لاندبورغ وزيليكو وماي، أنّ توجيهات القرار «صدّقت على عملية شنّ هجمات مباشرة على ضباط عسكريين سوفيات» (ص. 25). قابل الكاتب عدداً من المشاركين الذين يذكرون أنّ «السي.آي.إيه.» ومجموعة التنسيق بين الوكالات، ناقشتا هذه المسألة، لكن لم توضح هذه المقابلات إن صدقت توجيهات القرار بنفسها على عمليات الاغتيال المستهدفة. وتبدو المقابلات التي تقوم عليها الدراسة التي أجرتها جامعة هارفارد، رسمية. ولا يوضح تقرير جورج كريل حول هذه المسألة، وفقاً لوجهة نظر أفراكاتوس، ما هي السلطات الشرعية التي راقبت عمله.

(203) لاندبورغ وزيليكو وماي، «سياسات عملية سرية»، ص. 52.

(204) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(205) توصيات هامفري مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع عدد من المسؤولين الأميركيين معنيين بالجدال حول مسألة تزويد الجهاديين بالبنادق القناصة.

. Joseph E .Persico ,Casey :From the OSS to the CIA ,pp .428-429(206)

(207) اقتباس بيلسبوري مستقى من «سياسات عملية سرية»، بقلم لاندبورغ وزيليكو وماي، (ص. 32). تفاصيل أخرى مستقاة من الدراسة التي أجريت ومقابلات الكاتب مع مسؤولين أميركيين.

(208) توظيف «السي.آي.إيه.» ودفعها الأموال لصحافيين ومسافرين أوروبيين من أجل كتابة تقارير عن أفغانستان، مستقاة من مقابلات عديدة مع مسؤولين أميركيين، بما في ذلك مقابلة مع وارين ماريك في 11 آذار/مارس 2002 في واشنطن العاصمة. والمعلومات حول علاقة بين عبد الحق وهارت انتقلت إلى بيكني، مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع مسؤولين أميركيين. أصبح عبد الحق في ذلك الوقت قائداً معروفاً ومشهوراً. وأشاد الرئيس ريغان به أثناء عشاء رسمي في واشنطن، وقابل عبد الحقّ لاحقاً رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر. وعلى الرغم من أنه كان ينتقد علناً، وبشكل متزايد، الاستخبارات الباكستانية وحكمتيار، لم ينفصل عبد الحقّ عن «السي.آي.إيه.» حتى العام 1987.

Robert M .Gates, From the Shadows, p. 348.(209)

(210) «الموت بألف طعنة» مستقاة من: Mohammed Yousaf and Mark Adkin, The Bear Trap, p. 1.

(211) مقابلات مع محمد سياف في العام 1992.

. Artyom Borovik ,The Hidden War ,p .76(212)

أمثال الفخاخ المصنوعة من متفجرات بلاستيكية و «الموت المحجوب»، موجودة في الصفحتين 35 - 36.

(213) الاقتباسات الموجودة في هذه الفقرة والفقرة السابقة، مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع يوسف في العام 1992.

(214) رُقي نجيب الله إلى منصبه في المكتب السياسي، مستقى من Barnett R. Rubin, The Fragmentation of Afghanistan, p. 128. وحجم الاستخبارات الأفغانية مستقى من المصدر نفسه، ص. 133. موقع إقامة الأجانب واقتحام

الجهاديين المقر الرئيسي، مستقى من فازيلي ميتروخين، «الكي.جي.بي». في أفغانستان»، ص. 151 - 156.

(215) استعمال تكتيكات «سبيتناز» و «أومسك فان»، مستقى من مقابلات أُجريت مع مسؤولين أميركيين في العام 1992. كما تم وصفها بدقة في «سياسات عملية سرية» بقلم لاندبورغ وزيليكو وماي. وتكتيكات المروحيات على طول الحدود الباكستانية والمعلومات حول شاحنات قوات «السبيتناز» وحول العمل بتخفّ، مستقاة من مقالة كتبها تيموثي غوزينوف، وهو مستشار سابق في الجيش السوفياتي داخل أفغانستان، ونشرها في صحيفة «واشنطن تايمز» في 3 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. واستعمال «الكي.جي.بي.» عصابات مزيفة، مستقى من كتاب ميتروخين ««الكي.جي.بي.» في أفغانستان».

(216) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(217) المعلومات حول رفض جميع المقاتلين الأفغان العمليات الانتحارية، مستقاة من مقابلات أُجريت مع يوسف وهاورد هارت في 12 و 26 و 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في فيرجينيا، ومقابلات مع مسؤولين أميركيين آخرين.

(218) «يستعملونها على الأرجح»، مستقاة من مقابلة أُجريت العام 1992 مع مسؤول أميركي حول مسألة البنادق القناصة ورزم أجهزة التفجير وإمدادات سرية أخرى «متعددة الاستخدامات». «ما من إرهابي... على الإطلاق» مستقاة من George Crile, Charlie Wilson's War, p. 166. «هل أريد... نشر الذعر» مستقاة من المصدر نفسه ص. 318. التصديق على تقديم مكافآت مقابل مشابك أحزمة السوفيات، مستقى من المصدر نفسه، ص. 350.

(219) اقتباس فوغان فوريست مستقى من مقابلة هاتفية أُجريت معه في العام 1992. «المسألة سهلة والربح مضمون» و «القضاء على الجنرالات الروس واحداً تلو الآخر»، تم استقاؤهما من مقابلة أُجريت العام 1992 مع مشارك في الجدالات.

(220) مقابلات أُجريت في العام 1992 مع عدد من الضباط الأميركيين المعنيين بالجدال الذي قام حول البنادق القناصة، بالإضافة إلى مقابلات أجريت في العام 1992 مع يوسف الذي تسلم البنادق وفرض التدريب.

(221) الإحصاءات حول عدد الأميركيين في الخارج العام 1985، مستقاة من Bruce Hoffman, Inside Terrorism, p. 150. اقتباس جورج حبش من العام 1970 مذكور أيضاً في كتاب هوفمان ص 70 - 71. استقى صيغ جينكنز من مقالته «الإرهاب الدولي: أسلوب جديد من النزاع» التي وردت في كتاب David Carlton and Carlo Schaerf, eds., International Terrorism and World Security.

(222) «قد يزداد عدد الحوادث»، مستقاة من Duane R. Clarridge, with Digby Diehl, A Spy for All Seasons, . 320. تقرير إنشاء مركز مكافحة الإرهاب والمذكرة والاقتباسات في الفقرات الخمس اللاحقة، مستقاة من كلاريدج، المصدر نفسه، ص 320 - 329، ومن مقابلة مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001، في سان دييغو كاليفورنيا.

(223) حصل أرشيف الأمن القومي على نسخة من توجيهات قرار الأمن القومي بعد أن كُشف جزء منها، ونشرها.

(224) جملة «كل ما أراده تقريباً» مستقاة من Robert Baer, See No Evil, pp. 84-85. «فريقا هجوم» مستقاة من مقابلة أجراها الكاتب مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(225) مقابلة مع روبرت غايتس في 12 آذار/مارس 2002 في كليفلاند، أوهايو.

(226) اقتباس باير مستقى من Baer, See No Evil, pp. 84-85، اقتباس كانيسترارو مستقى من مقابلة أجراها الكاتب معه في 8 كانون الثاني/يناير 2002 في روزلين في فيرجينيا.

(227) استعمال مرشد لاسلكي داخل الأسلحة الموزعة، مستقى من مقابلة مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(228) المعلومات التي تفيد بأن «السي.آي.إيه.» لم تملك أي مصادر داخل حزب الله و «لم تملك أدنى فكرة» عن مكان وجود الرهائن، مستقاة من Baer, See No Evil, pp. 86-92. والمعلومات حول قيام حزب الله بحبك بعض الإشاعات بشأن تعرّض مركز محاربة الإرهاب لمؤامرات مستقاة من مقابلة مع كانيسترارو في 8 كانون الأول/ديسمبر 2002.

(229) الشاحنات وعملية تطوير العملية بواسطة «قوات الدلتا»، مستقاة من مقابلة مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(230) تقرير برنامج النسر والنماذج، ومجهود تزويدهم بالكاميرات والمتفجرات والصواريخ، مستقاة من مقابلة مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(231) Clarridge, with Diehl, Spy for All Seasons, p. 339.

(232) مقابلة مع يوسف في العام 1992.

(233) Bruce Hoffman, Inside Terrorism, p. 41.

(234) المعلومات حول الفروع المحاربة للإرهاب وأولوياتها، مستقاة من مقابلات مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001، ومع كانيسترارو في 8 كانون الثاني/يناير 2002، وستانلي بيدينغتون، وهو محلل سابق في المركز منذ تاريخ إنشائه، في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في روزلين في فيرجينيا.

(235) مقابلة مع كلاريدج في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(236) مذكرات بيدينغتون حول نشاطات بن لادن التي وردت أولاً في برقيات «السي.آي.إيه.» في العام 1985، مدعومة بسيرة حياة بن لادن المصنفة، التي أصدرتها الوكالة في العام 1996. واستناداً إلى تقرير الوكالة، تقول السيرة الذاتية: «في العام 1985، سحب بن لادن ثروة عائلته، بالإضافة إلى التبرعات التي قدمتها عائلات تجار متعاطفين في منطقة الخليج من أجل تنظيم جبهة الخلاص الإسلامية...».

Gates ,From the Shadows, p. 349.(237)

(238) مقابلة مع ميلتون بيردان في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في تايسنز كورنر في فيرجينيا. «أريدك أن تذهب إلى هناك وتنتصر»، مستقاة من Milt Bearden and James Risen, The Main Enemy, p. 214.

(239) «العم ميلتي» مستقاة من Robert Baer, See No Evil, p. 142. اقتباسات وطرائف أخرى مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(240) مقابلة مع ميلتون بيردان في 25 آذار/مارس 2002 في تايسنز كورنر في فيرجينيا.

. Robert M .Gates ,From the Shadows ,p .429(241)

(242) نُشرت تقارير حول أول صاروخ ستينغر تمّ إطلاقه، وقد وردت هذه المعلومات أيضاً في كتاب Mohammed Yousaf and Mark Adkin, The Bear Trap, pp. 175-176; Milton Bearden, 'Afghanistan ,Graveyard of Empires', Foreign Affairs, pp. 21-22، بالإضافة إلى Milton Bearden and James Risen, The Main Enemy, pp. 248-252. البرقية القادمة التي تم اقتباسها مستقاة من بيردان ورايزن. تسجيل الهجوم بواسطة قمر كي.أتش 11 الاصطناعي، مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. اقتباس بيردان الذي يصف التسجيل، مستقى من المقابلة التي أُجريت معه في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 ومن Bearden and Risen, Main Enemy, p. 525. المعلومات حول عرض ريغان سير حياة الزائرين وصورهم على شاشة التلفزيون، مستقاة من Bob Woodward, Veil, p. 249. يحاول جورج كريل في كتابه Charlie Wilson's War أن يبرهن أنّ ويلسون ومؤيديه قاموا بالأعمال التمهيدية الحاسمة من أجل إطلاق الستينغر.

(243) تحدّث غايتس عن البرقية في كتابه From the Shadows, p. 430.

(244) هذا التقرير حول شبكة عملاء «السي.آي.إيه.» مستقى من مقابلات أجراها الكاتب مع ثلاثة ضباط أميركيين سابقين وحاليين. ووصفت المقابلات التي أجراها الكاتب مع مسؤولين بريطانيين في العام 1992، علاقتهم مع أحمد شاه مسعود، إلا أنها لا تحتوي على أي تواريخ. ويبدو أن العلاقة البريطانية بدأت باكراً في فترة الحرب. ووفقاً لسجلات برنامج العمليات السرية الأفغانية التي ما زالت حتى الآن سرية، حصلت «السي.آي.إيه.» على سلطة تتيح لها توسيع شبكة عملائها الأحاديي الجانب بعد توقيع توجيهات قرار الأمن القومي 166 في آذار/مارس 1985، إلا أنّ مركز إسلام آباد حصل على سلطة دائمة سمحت له في وقت سابق، بتوظيف بعض العملاء من أجل أهداف تجسس روتينية. بدأت «السي.آي.إيه.» تساعد مسعود في العام 1984. ترجى مراجعة الملاحظة 37 في الفصل السادس.

(245) مقابلة مع مسؤولين أميركيين.

(246) المصدر نفسه.

(247) مقابلة مع بيردان في 15 تشرين الثاني/توفمبر 2001.

(248) المعلومات حول وجود منزل بن لادن في قسم يونيفرسيتي تاون في بيشاور، مستقاة من Holy War ,Bergen .Peter L, Inc, p. 56. ووصف الكاتب الجوار بعد أن قام بزيارة إلى ذلك المكان.

(249) الاقتباسات والتواريخ مستقاة من كتاب الظواهري s Banner’Knights Under the Prophet. النسخة الإنكليزية مأخوذة من ترجمة «الأف.بي.آي.أس.». كتب الظواهري الكتاب محاولاً نشر مذكراته الشخصية وبياناته السياسية، قبل احتمال أن يُلقى القبض عليه ويُقتل على أيدي القوات الأميركية أو قوات التحالف في أفغانستان. وربّما كتب بعض المذكرات في الكتاب بطريقة تتيح له ترويج جدول أعماله السياسي المعاصر، إلا أنّ عدد كبيراً من التواريخ والتفاصيل حول الحجج السياسية والأيديولوجية التي تحدث عنها، تتطابق مع تقارير أخرى.

(250) التفاصيل حول حياة عزام مستقاة من «نداء الإسلام» في تموز/يوليو - أيلول/سبتمبر 1996 ومقابلات مع صحافيين وناشطين عرب طلبوا عدم ذكر أسمائهم. مراجعة Bergen, Holy War, pp. . 51-و54Roy, Afghanistan: From Holy War to Civil War, p. 85 ، وماري آن ويفر من صحيفة «نيويوركر» في 24 كانون الثاني/يناير 2000. المعلومات حول افتتاح مكتب تاكسون في العام 1986 مستقاة من جوديث ميلير ودايل فان ناتا، «نيويورك تايمز» في 9 حزيران/يونيو 2002.

(251) اقتباسات غايتس مستقاة من كتابه From the Shadows, p. 349. «علينا المحاولة... نعتبرهم أعداء»، مستقاة من مقابلة مع مسؤول أميركي. «أدت في الواقع إلى بعض النتائج الحسنة... ضد الأميركيين»، مستقاة من مقابلة أجراها بيردان في 21 آذار/مارس 2000 مع كاتب مقال «اصطياد بن لادن» في مجلة «فرونتلاين». وصف وجهات النظر حيال هذه المسألة وكيفية مناقشتها داخل المجموعة الاستخبارية الأميركية، مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين سابقين.

(252) التقرير هنا ومتابعة النقاشات التي جرت بين بن لادن وعزام وعرب آخرين في بيشاور، تم استقاؤهما بشكل أساسي من مقابلات مع صحافيين وناشطين عرب كانوا في بيشاور في ذلك الوقت. وصف الأمير تركي علاقة بن لادن بعزام والظواهري مستخدماً العبارات نفسها في مقابلة أُجريت معه في 2 آب/أغسطس 2002 في كانكون في المكسيك، حيث قال: «أظنّ أن بن لادن أُعجب بعبد الله عزام كثيراً وجذبته فصاحة الرجل وشخصيته». ونشرت تقارير بشأن النقاشات التي جرت بين الناشطين العرب في بيشاور في تلك الفترة، والتي وردت أيضاً في صحيفة «نيويورك تايمز»، عدد 14 كانون الثاني/يناير 2001.

(253) «منطقة حدودية غارقة في الفساد»، مستقاة من مقابلة مع بيتر تومسون، مبعوث خاص سابق لدى المقاومة الأفغانية، أُجريت في 8 أيار/مايو 2003 في واشنطن العاصمة. «أطلعك على مخططاتي»، مستقاة من مقابلة مع ناشط عربي كان في بيشاور في ذلك الوقت.

(254) التقارير التي نُشرت في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1986، حول اجتماع المكتب السياسي لمناقشة قضية

أفغانستان، والتي تستشهد بأرشيفات المكتب السياسي، تتضمن مقالاً نشره مايكل دوبز في صحيفة «واشنطن بوست» في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1992. ويصف غايتس الاجتماع نفسه، إنّما من دون تفاصيل كثيرة في كتابه From the Shadows, p.

430. الاقتباسات هنا مستقاة من ترجمات إنكليزية لسجلات المكتب السياسي، قام بها أناتولي شنيابيف من مؤسسة غورباتشيف في موسكو، من أجل «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة» في جامعة جورج واشنطن في واشنطن العاصمة.

(255) وصف المسؤولون الأميركيون الذين قابلهم الكاتب في العام 1992 الاستخبارات المحجوبة كعامل هام في اتخاذ القرار من أجل دفع التصعيد الذي صدّقت عليه توجيهات قرار الأمن القومي 166. وتمّ وصف تقرير الاستخبارات بالتفصيل في الدراسة التي أجراها كيرستان لاندبرغ وفيليب زيليكو وإرنست ماي في جامعة هارفارد في العام 1999 تحت عنوان «سياسات العمليات السرية».

. Gates ,From the Shadows ,p .386(256)

(257) الاقتباسات مستقاة من «تكاليف التدخل السوفياتي في أفغانستان»، مكتب التحليلات السوفياتية في مديرية الاستخبارات التابعة لـ «السي.آي.إيه.»، المصنف سرياً في الأساس، شباط/فبراير 1987. نشرها أرشيف الأمن القومي، وأطلقتها «السي.آي.إيه.» نسخةً منقحة تمّ نشرها في العام 2000، وقد تمّ سحبها من مجموعات «السي.آي.إيه.» الخاصة. «بدا حتى الآن أنّ» مستقاة من Mealt Bearden and James Risen, The Main Enemy, p. 217.

(258) لقاءات غورباتشيف وأحاديثه مستقاة من أرشيفات ووثائق أُخذت من المكتب السياسي، وقد ترجمتها مؤسسة غورباتشيف إلى اللغة الإنكليزية، وقدمها أناتولي شنيابيف إلى مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة في جامعة جورج واشنطن، واشنطن العاصمة.

(259) المصدر نفسه.

(260) جميع الاقتباسات حول النوبة القلبية التي تعرض لها كايسي والمحادثات التي جرت في المستشفى، مستقاة من Joseph E. .557-551 .pp ,From the OSS to the CIA :Casey ,Persico

(261) التفاصيل حول فرق المقاتلين مستقاة من Mohammed Yousaf and Mark Adkin, The Bear Trap, pp. 200-205، ومن مقابلات مع يوسف في العام 1992. صُور القمر الصناعي لأعمال الشغب في كازاخستان مأخوذة من كتاب Gates, .385 .p ,From the Shadows

(262) الحوار الذي دار بين بيردان وكلير جورج، مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومن كتاب Bearden and Risen, 91. المعلومات حول اتصال بيردان بيوسف مستقاة من Main Enemy, pp. 290- Yousaf and Adkin ,Bear Trap ,p. 205. حرص بيردان في مذكراته على التأكيد أن كايسي لم يكن على علم بجميع العمليات العسكرية التي جرت على الأراضي السوفياتية. أخبر كلير جورج بيردان، عندما ذهب للمرة الأولى إلى إسلام آباد، أن كايسي يخطط لبث حملات دعائية عبر الإذاعات إلى وسط آسيا السوفياتي، وأن وزارة الخارجية اعترضت على الفكرة. ويلوم بيردان في مذكراته يوسف على العمليات العسكرية. وتدخل حكمتيار ثم رئيس الاستخبارات الباكستانية «بقي مشكوكاً فيه».

(263) ميلتون بيردان «أفغانستان، مقبرة الإمبراطوريات»، Holy War ,Bergen ,p. 57، ذاكراً في بعض الأجزاء ترجمات لكتاب عربي صغير يتناول سيرة حياة بن لادن، وقد تمّ نشره للمرة الأولى في العام 1991.

**Ayman al-Zawahiri ,Knights Under the Prophet's Banner(264)**

، ترجمة «أف.بي.آي.أس».

(265) الاقتباسات مستقاة من صحافيين وناشطين عرب.

(266) «بلغت 25 مليون دولار أميركي في الشهر»، تقدير من بيردان في أفغانستان. تمت مناقشة السؤال حول أي من الأحزاب الجهادية الأفغانية تسلمت هذه النسبة أو تلك من أسلحة «الآي.أس.آي.» لمدة طويلة في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات. وأكّد حميد غول ويوسف وأكثر من ستة مسؤولين أميركيين معنيين مباشرة، أنه في نهاية الثمانينيات تحكمت «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» في خطوط الإمدادات بصرامة وعن كثب: حصل حكمتيار على عشرين أو خمسة وعشرين في المئة، وسياف على نسبة مماثلة، بينما حصل يونس خالص على نسبة أقل. وتسلّمت الفصائل الثلاثة «المتواضعة» التي أعادت تنظيمها «الآي.أس.آي.» نسبة عشرة في المئة أو أقل لكل فصيل. وبعد العام 1987، اتبعت «الآي.أس.آي.» بتشجيع من «السي.آي.إيه.» نظام «الرزم العملية» الذي يسمح للقادة العسكريين بدلاً من القادة السياسيين، بتسلم الأسلحة مباشرة بين الحين والآخر. لكن، إلام تؤدي جميع هذه التغييرات في الإحصاءات وأنظمة الإمدادات؟ وفقاً لجميع التقارير، تسلّم الإسلاميون الأربعة الرئيسيون في المقاومة، حكمتيار ورباني وخالص وسياف، الحصة الكبرى من خطوط الإمدادات الرسمية التابعة لـ «الآي.أس.آي.» و «السي.آي.إيه.» و «الجي.آي.دي.»، وعلى الأرجح، لم يحصل حكمتيار على كمية من المواد الخام توازي ما أكدته في بعض الأحيان انتقادات «السي.آي.إيه.»، على الرغم من أنه تمكن مع سياف من الحصول على التمويلات والإمدادات العربية الخاصة. عامل المكتب الأفغاني المعني بالتدريبات والعمليات التابع لـ «الآي.أس.آي.» حكمتيار بطريقة مميزة على الخصوص في العام 1989. ولم تنشر أي إحصاءات تفصيلية حول خطوط إمدادات «السي.آي.إيه.» السرية بشكل رسمي من قبل الإدارة الأميركية.

(267) مقابلات مع مسؤولين أميركيين بمن فيهم مساعدون سابقون في الكونغرس، قاموا بزيارة باكستان عندما كان بيردان رئيس المركز.

(268) مقابلات مع مسؤولين أميركيين ترددوا في تلك الفترة إلى مكتب «الآي.أس.آي.» المعني بالشؤون الأفغانية.

(269) حوار بيردان مع حكمتيار، مستقى من Bearden and Risen, Main Enemy, pp. 282-283. جملة أندرسون «قائد جيّد... كعدد كبير من جوائز النصر»، وجملة بيردان «يمضي أوقاتاً في بيشاور أكثر... غضب مني كثيراً»، تم استقاؤهما من Afghan Warrior: The Life and Death of Abdul Haq، وهو فيلم من إنتاج شركة «تاتش بروداكشنز»، عرض على شاشة «البي.بي.سي.» في العام 2003. وكتب بيردان في مذكراته أنّ حواره مع حكمتيار كان عدائيّاً وقاسياً. قرأ الكاتب تقريراً آخر حول لقاءاتهما من مسؤول أميركي مطّلع. وتدعم التقارير التي نشرها بيردان هذه النسخة، إلا أن النبرة تختلف قليلاً. ويقول بيردان لحكمتيار في هذه النسخة: «أنت لا تحبني، وأنا لا أحبك. يتهمونني بإعطائك حصة الأسد. ما كنت لأعطيك أي شيء، إنّما لديك قادة كبار». وأجاب حكمتيار «لم أقل قط إنني لا أحبّك».

(270) الترجمات الإنكليزية مستقاة من سجلات المكتب السياسي التي قدمها أناتولي شينياييف الذي ينتمي إلى مؤسسة غورباتشيف لمشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة.

(271) يقتبس بارنت روبن في كتابه The Search for Peace inAfghanistan, pp. 83-84 ، بعض مذكرات شولتز.

(272) مقابلة مع غايتس في 12 آذار/مارس 2002 في كليفلاند في أوهايو.

(273) Gates ,From the Shadows ,pp .242-25 .

(274) الأرشيفات ووثائق المكتب السياسي مستقاة من أناتولي شينياييف الذي ينتمي إلى مؤسسة غورباتشيف لـ «مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة».

(275) Gates ,From the Shadows ,pp .430-31 .

(276) تفاصيل سيرة الحياة والاقتباسات مستقاة من مقابلات مع ماك وليامز في 15 كانون الثاني/يناير و 26 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة.

(277) برقية «من السفارة الأميركية في كابول إلى وزارة الخارجية في واشنطن العاصمة» في 15 كانون الثاني/يناير 1988، مستقاة من ملفات الكاتب.

(278) Robert Gates ,From the Shadows ,pp .431-32 .

(279) مديرية الاستخبارات المركزية، «الاتحاد السوفياتي: الانسحاب من أفغانستان»، تقرير استخبارات الأمن القومي في آذار/مارس 1988 الذي صُنف في الأساس سرياً، ثم نشره أرشيف الأمن القومي في واشنطن العاصمة.

(280) مقابلة مع ميلتون بيردان في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، في تايسونز كورنر في فيرجينيا.

(281) اقتباس غول مستقى من مقابلة أجريت معه في 23 أيار/مايو2002 في راولبندي في باكستان. أُزيلت السرية عن ملف وكالة الاستخبارات الدفاعية وسلم إلى الكاتب في العام 1992. المعلومات عن علاقة غول بالاستخبارات السعودية التي استمرت منذ ذلك الوقت، مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع أحمد باديب وسعيد باديب في 1 شباط/فبراير 2002 في جدة في السعودية. والمعلومات التي تفيد أن الأميركيين اعتبروه متعاطفاً، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين في سفارة إسلام آباد بين العامين 1989 و1992. «إسلاميون معتدلون» مستقاة من Milt Bearden and James Risen, The Main Enemy, p. 292.

(282) مقابلة مع غول في 23 أيار/مايو 2002. الجملة التي قالها بيردان «القوة الحقيقية الوحيدة... شرد إلى داخل أفغانستان»، مستقاة من Bearden and Risen, Main Enemy, pp. 235and 23. دعم بيردان لإرسال أسلحة عالية التقنية إلى شرق أفغانستان، مستقاة من المصدر نفسه، ص. 278 - 279.

(283) مقابلة أصلية مع سيغ هاريسون، نُشرت في صحيفة «لوموند ديبلوماتيك»، واقتبسها تشارلز كوغان في: Shawl of' Conflict ,'Lead.

(284) مقابلات مع ميلتون بيردان في 25 آذار/مارس 2002 في تايسونز كورنر في فيرجينيا.

(285) Martin Ewans ,Afghanistan :A Short History of Its People and Politics ,p .170.

(286) مقابلات مع بيردان في 25 آذار/مارس 2002، ومع مسؤولين أميركيين وباكستانيين آخرين. «أطلب منهم ألا يفعلوا ذلك»، مستقاة من مقابلة مع بيردان. «العربات الأميركية النموذجية.... لوحات من أريزونا»، مستقاة من Bearden and Risen, Main Enemy, p. 145.

(287) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. راجع: Bearden and Risen, Main Enemy, pp. 350-51.

(288) مقابلة مع روبرت أوكلي في 15 شباط/فبراير 2002. في واشنطن العاصمة.

(289) المصدر نفسه. مراجعة: Dennis Kux, The United States and Pakistan, p. 292.

(290) Ahmed Rashid ,Taliban :Militant Islam ,Oil ,and Fundamentalism in Central Asia ,p .89

، مستشهداً بتقرير استخباري قدم إلى رئيس الوزراء، نواز شريف، في العام 1992.

(291) المعلومات حول الأشخاص الذين قابلهم ماك وليامز والمعلومات التي أخبروه بها مستقاة من مقابلات مع ماك وليامز في 15 كانون الثاني/يناير 2002.

. Barnett R .Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,p .249(292)

(293) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(294) مقابلات مع يحيى مسعود في 9 و21 أيار/مايو2002 في كابول في أفغانستان.

(295) برقية في ملفات الكاتب. «حبّاً بالله»، مستقاة من مقابلة مع حميد غيلاني في 14 أيار/مايو2002 في كابول، أفغانستان.

(296) مقابلة مع ماك وليامز في 15 كانون الثاني/يناير 2002.

(297) التقارير حول ردّ فعل السفارة والجدال الذي أثير بشأن الفترة السابقة في كابول، مستقاة من مقابلات مع عدد من المسؤولين الأميركيين، بمن فيهم ماك وليامز في 15 كانون الثاني/يناير 2002. التحقيق الداخلي الذي تم وصفه بعد فقرتين، مأخوذ عن لسان ماك وليامز. آراء بيردان المقتبسة بشأن مسعود، مستقاة من Main Enemy ,Bearden and Risen, p. 279. اعتبر بيردان أن حكمتيار «عدو» وهذه المعلومة مستقاة من المصدر نفسه، ص. 283. لم يصف بيردان في مذكراته حكمتيار «كعدو وعدو خطير» فحسب، بل أضاف أيضاً «اتهامات تفيد أنّ «السي.آي.إيه.» كانت تفضّل هذا

الراديكالي المصاب بجنون العظمة». إلا أن السجلات لا تظهر أي دليل على أن «السي.آي.إيه.» مارست الضغوط على حكمتيار في تلك الفترة. ويقول مسؤولون أميركيون آخرون إن سجلاتها التي تعود إلى تلك الأشهر دليل على دفاعها المتواصل عن حكمتيار.

Artyom Borovik ,The Hidden War ,pp .161-162(298)

المعلومات حول حبّ رئيس «الكي.جي.بي.» لعب التينيس مستقاة من المصدر نفسه، ص. 242. السفير البولندي مستقى من المصدر نفسه ص. 239. ضابط يقرأ مقطعاً من كتاب حول الحرب اليابانية التي وقعت في العام 1904، مستقاة من المصدر نفسه، ص. 233. ما قاله غروموف عن مسعود مستقى من المصدر نفسه، ص. 246. الضحية الروسية الأخيرة من المصدر نفسه، ص. 278.

(299) بيردان، «أفغانستان، مقبرة الإمبراطوريات»، أيضاً: Foreign Affairs, pp. 22-23.

(300) مقابلة مع بيردان في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. أيضاً Main Enemy ,Bearden and Risen, pp. 358-359.

(301) من كتاب روبرت غايتس الأصلي الذي لم يتم نشره، ص. 20 - 31 مقتبس من مذكرات شيفاردنادزه.

(302) التقرير حول المركزين داخل السفارة والتفاصيل حول الدفعات التي تقاضاها القادة الأفغان، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(303) يصف عدد كبير من التقارير المنشورة حول الاعتداء الفاشل على إسلام آباد، الدور الذي لعبته «الآي.أس.آي.» والمحادثات داخل الحكومة الباكستانية والمشاكل التي واجهتها الحكومة الأفغانية بالوكالة. مراجعة Dennis Kux, The United States and Pakistan: 1947-2000, .pp298- بالإضافة إلى 299Mohammed Yousaf and Mark Adkin, The Bear Trap, pp. 227- و 231Barnett R. Rubin, The Fragmentation of Afghanistan, p. 250 و Olivier Roy, Afghanistan: From Holy War to Civil War, p. 72. وكتب روا: «اعتبر الجنود الباكستانيون الذين حثّوا المقاتلين على الانضمام إلى الحرب التقليدية في العام 1989، أنّ أفغانستان «خريطة لعمليات المقار الرئيسية» يحرك فيها المرء أعلاماً صغيرة زرقاء وحمراء وخضراء، في مساحة حيث الوحدات متبدلة فيما بينها، والأهداف قابلة للقياس. واعتبر الأفغان أن هذه كانت فسحة للقبائل والمجموعات الإثنية، أي نطاقات تأثير هذا القائد أو ذاك».

(304) رقم «حوالى 25 مليون دولار» مستقى من Rubin, Fragmentation of Afghanistan. واقتُبست تقارير دبلوماسيين أميركيين تفيد أنّ الاستخبارات السعودية أنفقت 26 مليون دولار. اقتباس غول مستقى من مقابلة أجراها الكاتب مع حميد غول في العام 1992.

(305) الخصائص في هذه الفقرة والفقرات السابقة، مستقاة من مقابلات مع روبرت أوكلي في 15 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة، وبنازير بوتو في 5 أيار/مايو 2002 في دبي في الإمارات العربية المتحدة، وميرزا إسلام بيغ في 23 أيار/مايو 2002 في راولبندي في باكستان، وحميد غول في 23 أيار/مايو2002 في راولبندي في باكستان، بالإضافة إلى مسؤولين أميركيين وضباط باكستانيين. الحوار بين بوتو وأخوند «أتساءل إن... تفعل دائماً»، مستقى من Iqbal Akhund, Trial and Error, p. 38.

(306) «ليسوا مجرّد رجال أنيقين» و «مستعدة للسماح» مستقاتان من Kux, The United States and Afghanistan, p. 298. «عينان تشعان شغفاً» و «أسبوع واحد» تم استقاؤهما من مقابلة مع بوتوفي 5 أيار/مايو 2002. «لا بدّ من أن تستمرّ الحرب... يصبح داراً آمنة» مستقاة من Akhund, Trial and Error, p. 177. كتب بيردان في مذكراته أنه سافر من خلال وكالة خيبر أثناء حصار جلال آباد ووجد المعركة «جهداً فاتراً كدّس من دون هدف خسائر من الجهتين». Milt Bearden and James Risen, The Main Enemy, p. 362. وكتب بيردان أيضاً أنّه عندما غادر باكستان ذلك الصيف قدّم هدية إلى حميد غول، وهي عبارة عن سيف فارس أميركي، وساعده على اختيار جامعة في أميركا كي يرتادها ابنه البكر. أقرّ بيردان بعد بضع سنين أن ««السي.آي.إيه.» وصفت الجنرال الصغير الشجاع مستخدماً عبارة «الرجل الأخطر في باكستان». وهذا أيضاً صحيح. المصدر نفسه، ص 367.

(307) المعلومات حول خطة ساروبي واجتماع بيشاور وإمدادات الشاحنات، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(308) مقابلة مع غاري شروين في 31 تموز/يوليو 2002 في واشنطن العاصمة.

(309) تقدير قيمة الدولارات التي قدّمها السوفيات في هذه الفترة، مستقى من Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War, p. 70.

(310) صواريخ ستينغر والحمأة التي استخدمتها «السي.آي.إيه.» مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(311) المصدر نفسه.

(312) المصدر نفسه. أثناء مقابلات مع بعض المسؤولين الأميركيين، أشاروا إلى قانون إدارة بوش الذي تم تجديده كـ «قانون الجسر»، ما يعني أنه يربط بين سياسة الولايات المتحدة السرية من فترة الاحتلال السوفياتي التي انتهت الآن، وهزيمة نجيب الله النهائية بصفته زبوناً عند السوفيات. ونصّ قانون بوش الجديد على الأهداف الإنسانية التي تسعى وراءها السياسة الأميركية تماماً كما فعلت توجيهات قرار الأمن القومي 166 من قبل، بالإضافة إلى تحديد «العزم» الأفغاني كأحد أهداف العملية السرية الأميركية. وتضمنت الأهداف عودة اللاجئين الأفغان الطوعية من باكستان وإيران. ونطاق القانون الكامل ليس معروفاً، لكن يبدو أنه مراجعة متواضعة لأهداف حقبة ريغان التي تمّ الالتزام بها من أجل انسحاب القوات السوفياتية.

(313) مقابلة مع إدموند ماك وليامز في 15 كانون الثاني/يناير 2002 في واشنطن العاصمة.

(314) «أولوية وزارة الخارجية في واشنطن العاصمة، قناة معارضة» في 21 حزيران/يونيو 1989.

(315) عندما كان الكاتب يحرّر التقارير في باكستان في تلك الفترة، وفي لندن في فترة لاحقة، سمع هذه الحجة مراراً على لسان دبلوماسيين بريطانيين وضباط استخبارات معنيين بالبرنامج الأفغاني.

(316) «فقط لأن بعض الرجال البيض» مستقاة من بلاغ أرسله ميلتون بيردان إلى الكاتب في 5 تموز/يوليو 2003.

(317) وصفُ وجهة نظر ضباط «السي.آي.إيه.» مستقى من مقابلات مع ميلتون بيردان في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في تايسونز كورنر في فرجينيا، ومع عدد من المسؤولين الأميركيين.

(318) قال أوكلي إن «مشكلته مع ماك وليامز» تكمن في رغبته الساذجة وغير الواقعية في تغيير السياسة الأميركية التي أقرها البيت الأبيض. وفي العام 1991، تبدّلت وجهات نظر أوكلي باتجاه ماك وليامز الذي كان قد غادر السفارة منذ وقت طويل.

(319) رسالة من ماك وليامز إلى أوكلي في 23 تموز/يوليو 1989.

(320) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(321) التقرير حول رحلة أندرسون وبيردان مستقى من مقابلة مع مسؤولين أميركيين بمن فيهم بيردان في 25 آذار/مارس 2002 في تايسونز كورنر في فيرجينيا. وكتب بيردان في العام 1998 رواية ونشرها. كانت تحمل عنوان Black Tulip: a Novel of War in Afghanistan. وارتكزت على جولته كرئيس لمركز إسلام آباد. قابل بطل بيردان الخيالي، ألكسندر، عن كثب،

مجموعة من المتطوعين الجزائريين في المنطقة الشرقية نفسها في أفغانستان. وتحدث بيردان في روايته عن انتقام جامح. قام قائد مجاهد أفغاني معارض للعرب بدعوة جزائريين إلى مأدبة حول نار المخيم، وقدّم إليهم معزاة مع «لغمين مخبأين بإتقان داخل القفص الصدري». قُتل معظم الجزائريين عندما انفجر اللغمان، ونجا متطوع واحد تعرض لاحقاً للتعذيب على أيدي الأفغان الذين انتهوا بقتله.

(322) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(323) المصدر نفسه.

(324) فضح تقرير ريتشارد مكانزي الذي نشره في «واشنطن بوست» قصة المذبحة في 11 تموز/يوليو 1989. مراجعة Barnett R. Rubin, The Fragmentation of Afghanistan, pp. 250-251.

(325) مقابلات مع ناشطين عرب مطلعين على تفاصيل زيارة عزام لمسعود في ذلك الصيف. يصف أوليفييه روا في كتابه Afghanistan: From Holy War to Civil War, p. 86، الرحلة التي قام بها عزام في ذلك الصيف، تماماً كما فعل داود مير، أحد مساعدي مسعود، أثناء مقابلات أُجريت في 31 تموز/يوليو و8 آب/أغسطس 2002 في واشنطن العاصمة. ومقارنة عزام لمسعود بنابليون مستقاة من مقابلات مع مير. بعدما قابل روا مسعود، كتب أنّ عزام «حاول توليد سلوك متوازن» بين مسعود وحكمتيار.

(326) تلخيص النقاشات مستقى بشكل أساسي من مقابلات مع مشاركين عرب. وأوضحت كتابات الظواهري المنشورة أنّه توقف مع بن لادن عن القضايا الأيديولوجية.

(327) قام صهر عزام، عبد الله أنس، باقتباسه في مقال نشرته صحيفة «نيويورك تايمز» في 14 كانون الثاني/يناير 2001.

(328) تصف تقارير عديدة منشورة، بما في ذلك تقارير أنس (المصدر نفسه)، شرخاً قائماً بين المتطوعين العرب في بيشاور بعد وفاة عزام. وتعود معظم التقارير إلى الفترة التي ظهر فيها بن لادن قائداً للقاعدة، وهو الاسم الذي أطلقه على المنظمة التي خلفت مكتب خدمات عزام. إلا أنّ نتائج هذا الشرخ والانقلاب تبقى غير واضحة. وتعزو الاستخبارات الأميركية تأسيس القاعدة إلى العام 1988. ويقتبس بيتر بيرجين في كتابه (Holy War, Inc, p. 60) الصحافي العسكري البريطاني والمسافر الأفغاني المتأصل بيتر جوفنال الذي رأى بن لادن يعيد بناء قاعدته في جاجي في شباط/فبراير العام 1989 قبل أشهر على قتل عزام. قال جوفنال: «شهدت على حفرهم كهوفاً ضخمة مستخدمين المتفجرات وآليات الحفر». وفي الوقت نفسه، وصفت تقارير عديدة، بما في ذلك تقارير قائد الأركان في الاستخبارات السعودية، أحمد باديب، رحيل بن لادن وعائلته عن باكستان من أجل الاستقرار في جدة في السعودية، في مرحلة ما من العام 1989. عاد بن لادن إلى جدة في أواخر العام 1990، ليُشعل الجهاد في اليمن. ليس واضحاً كيف تداخلت هذه التحركات والنشاطات التي قام بها بن لادن مع الانقلاب، وولادة تنظيم القاعدة من جديد تحت قيادته.

(329) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مقابلة مع بيتر تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002 في أوماها في نبراسكا. أيضاً «مبعوث خاص لدى المقاومة الأفغانية»، مذكرة عمل وزارة الخارجية في 19 نيسان/أبريل 1989 التي أزيلت سريتها، ونُشرت في 23 آذار/مارس 2000.

(330) مقابلة مع تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002، ومع مسؤولين أميركيين آخرين.

(331) المصدر نفسه. تعرضت «السي.آي.إيه.» لضغوطات من قبل داعمي الجهاديين في الكونغرس بسبب شكاوٍ قدمها القادة الأفغان جراء حدّة التباطؤ في عملية تسليم إمدادات الأسلحة. احترق مصنع صيني مخصص لصناعة صواريخ الاستخبارات الباكستانية، كما دُمر مخزن أسلحة رئيسي في راولبندي، ولا يعرف إن كان حادثاً أو عملاً تخريبياً. فنتيجة لذلك، تأخرت شحنات كبيرة عن الوصول إلى الاستخبارات الباكستانية في الوقت الذي كانت المجزرة في جلال آباد تستنزف إمدادات العتاد.

(332) قرأ الكاتب نسخة عن الوثيقة.

(333) التقرير حول تبدل السياسة الأميركية، مستقىً بشكل أساسي من مقابلات مع مسؤولين أميركيين بمن فيهم تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002. تمّ تلخيص السياسة في برقيات وزارة الخارجية التي يعود تاريخها إلى أواخر العام 1989 وبداية العام 1990، والتي راجعها الكاتب. بدأ تومسون مناقشة مخططاته المتعلقة بمجلس شورى القادة علناً في بداية العام 1990. ويوفر بارنيت روبن في كتابه The Fragmentation ofAfghanistan, pp. 247-280 ، تقريراً مفصلاً ودقيقاً حول التطور السياسي والتطور العسكري في أفغانستان، وحول التفاف السياسة الأميركية في تلك الفترة.

(334) سفر تومسون إلى باكستان، وتقديم التقارير إلى المسؤولين، والجدالات مع هاري، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. اقتباسات هاري - «العودة» و «لم أنت معارض لحكمتيار إلى هذه الدرجة» - مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. قال تومسون إن تويتن شارك في لقاء جمعية التنسيق بين الوكالات ووقع السياسة الجديدة بالنيابة عن «السي.آي.إيه.». اعتبر مع آخرين في وزارة الخارجية أنّ تغيير «السي.آي.إيه.» موقفها، هو بمثابة جهد تبذله لتهدئة الاستخبارات الباكستانية التي غضبت بسبب توجيهات السياسة الجديدة.

(335) مقابلة مع توماس تويتن في 18 آذار/مارس 2002 في واشنطن العاصمة.

Rubin ,Fragmentation of Afghanistan, pp. 261-262.(336)

(337) التقرير في هذا الفصل بشأن الدور الذي لعبته «السي.آي.إيه.» في الاعتداءات التي وقعت في شتاء العام 1989 - 1990، بما في ذلك التفاصيل حول الأموال التي دفعتها الوكالة إلى مسعود، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(338) المعلومات حول التقارير التي قدّمها عملاء «السي.آي.إيه.» الأحادي والجانب إلى إسلام آباد، والتي تفيد بأن بن لادن موّل محاولة انقلاب حكمتيار، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,p .253(339)

كان الكاتب في باكستان وقت محاولة الانقلاب، فقابل مسؤولين حكوميين وضباطاً عسكريين باكستانيين وأميركيين وأفغاناً، للحصول على معلومات عن هذا الحدث.

(340) المعلومات حول التقارير التي كانت بحوزة «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت، والتي تفيد أنّ بن لادن موّل محاولة الانقلاب في تناي، مستقاة من مقابلة مع مسؤولين أميركيين. كانت الوكالة في ذلك الوقت تملك مصادر من بين القادة الأفغان وداخل الاستخبارات الباكستانية، لكنّ مصدر التقارير حول دور بن لادن غير دقيق.

(341) مقابلة مع بنازير بوتو في 5 أيار/مايو 2002 في دبي في الإمارات العربية المتحدة. فشل التصويت على حجب الثقة عن بوتو، إلا أنّ الجيش أقالها بالقوة من منصبها بعد تسعة أشهر. ووفقاً لأوكلي، استنتجت السفارة الأميركية في إسلام آباد أنّ الاستخبارات الباكستانية شاركت في فصلي الشتاء والربيع بمؤامرات تهدف إلى إطاحة بوتو. راجع: مقابلة مع روبرت أوكلي في 15 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة.

(342) يذكر روبن في كتابه Fragmentation of Afghanistan, p. 253 تقارير تفيد أنّ «الآي.أس.آي» والاستخبارات السعودية مولت محاولة الانقلاب في تناي.

(343) مقابلة مع توماس تويتن في 18 آذار/مارس 2002. قال تويتن إنّه لا يذكر أنّ لانغلي تسلمت أي «ورقة» من مركز إسلام آباد تحمل أي معلومات أو مخططات حول عملية الانقلاب في تناي. ويقول إنه سيتذكر بالتأكيد «لو أنهم أطلعونا» على محاولة الانقلاب هذه. اعترف تويتن بأنهم «لم يكونوا قط صادقين معنا في الأمور التي تتعلق بحكمتيار»، «كانوا يرتبون لنا لقاءً معه عندما نصرّ على ذلك، لكن اللقاءات لم تكن كثيرة، ولا مثمرة، حتى في أفضل الحالات».

(344) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. عندما كان تومسون سفيراً لدى المقاومة الأفغانية، التقى الأمير تركي سبع عشرة مرّة.

(345) مقابلات مع مسؤولين سعوديين.

(346) المعلومات حول اجتماع ممثلي مسعود والأمير بندر وتمويل تركي مجلس شورى القادة، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومع أحد مساعدي مسعود.

(347) مستويات التمويلات وتقديرات الأموال الخليجية الخاصة مستقاة من Rubin, Fragmentation of Afghanistan, p. 182.

(348) مؤسسة غورباتشيف، وثائق واردة في «اتجاه تاريخ دولي لأفغانستان»، مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة في واشنطن العاصمة.

(349) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(350) المعلومات حول تقارير «السي.آي.إيه.» المتعلقة بالشاحنات التي سلحت حكمتيار مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. اجتماع تومسون والاقتباسات مستقاة من برقية أرسلت إلى واشنطن: «اجتماع المبعوث الخاص تومسون بمجلس شورى القادة في 6 تشرين الأول/أكتوبر»، يعود تاريخ البرقية إلى 10 تشرين الأول/أكتوبر 1990، وفقاً لملفات الكاتب.

(351) Barnett R. Rubin, The Search for Peace in Afghanistan, p. 115. ومقابلة مع تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002. اجتماع الغداء بين تومسون وهاري مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. «ليست مجرد قرار رهيب... السياق الأفغاني السياسي». مستقاة من المصدر نفسه.

(352) Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,p .254 ;Rubin ,Search for Peace ,p .121 .

(353) اللقاء الذي جرى بين تركي وممثلي مسعود مستقى من مقابلة مع داود مير في 31 تموز/يوليو 2002 في واشنطن العاصمة. يذكر مير أنّه عندما قابل أخيراً تركي في قصره في جدّة، بدأ يشتكي بصخب من الاستخبارات السعودية التي أساءت فهم مسعود أعواماً عديدة. وأخذ يتحدّث ويتذكّر إلى أن غطى تركي المحبط أذنيه بيديه مشيراً إلى أنّه سمع كفاية.

(354) المعلومات حول زيادة راتب مسعود والقتال لشحن الأسلحة إلى بانشير. مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(355) «مصدر إزعاج» مستقاة من مقابلة مع اللواء محمود علي دوراني في 20 أيار/مايو 2002 في راولبندي في باكستان.

(356) Dennis Kux ,The United States and Pakistan :1947-2000 ,p .309 .

(357) مقابلة مع روبرت أوكلي في 15 شباط/فبراير 2002.

(358) عندما تنقل الكاتب داخل كشمير في تلك الفترة، قابل مقاتلين إسلاميين محليين، فأخبروه عن تدريباتهم في أفغانستان، وعرضوا أمامه أسلحة تمّ تصنيعها في الصين. تحذير المسؤولين الهنود بشأن البنادق القناصة مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين في الهند في العام 1991.

(359) مقابلة أجرتها شبكة «أوربيت» الفضائية مع أحمد باديب في بداية العام 2002، وتمت ترجمتها من العربية.

مراجعة الملاحظة الأولى في الفصل الرابع.

(360) المصدر نفسه.

(361) التقرير حول لقاء بن لادن خليل والأمير البارز، مستقى من مقابلة مع خليل خليل في 29 كانون الثاني/يناير 2002 في الرياض في السعودية. رفض خليل الإشارة إلى الأمير باسمه، إلا أنّه قال «الملك فهد عمه المقرب»، ما يعني أنّه قد يكون الأمير تركي.

(362) دوغلاس جيهل، «نيويورك تايمز»، في 27 كانون الثاني/يناير 2001.

(363) الأمير تركي ومحطة «الأم.بي.سي.» والأخبار العربية في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. في مقابلة مع «الأيه.بي.سي» أثناء عرض برنامج «نايتلاين» في 10 كانون الأول/ديسمبر 2001، تحدث تركي عن اقتراحات بن لادن التي تقضي بقيادة جهاد ضد النفوذ الإيراني، واعتبرها «إشارات أولية على عقل مضطرب بنظري» ما يعني أن تركي لم يكن يشعر بالقلق حيال بن لادن قبل خريف العام 1990.

(364) «أما في السابق... وبعدها»، مستقاة من مذكرة «الطريق إلى باكستان استناداً إلى تصاريح حكمتيار وسياف في الخليج» في 28 كانون الثاني/يناير 1991. تمّ تحصيلها ونشرها في 6 نيسان/أبريل 2000. ألحت المذكرة على ضرورة «تقرب كلّ من الولايات المتحدة والسعودية من الحكومة الباكستانية» كما تحثّ على توضيح النقاط نفسها للأمير بندر، السفير السعودي في واشنطن. رحلة باديب مستقاة من مقابلة مع أحمد باديب في 1 شباط/فبراير 2002 في جدّة في السعودية.

(365) التقرير الوارد في هذا الفصل حول برنامج عمليات «السي.آي.إيه.» السرية الذي يقضي بشحن المدرعات والأسلحة المدفعية والمعدات الأخرى العراقية التي تمّ الاستيلاء عليها إلى باكستان من أجل الثوار الأفغان، مستقى من مقابلات أجريت مع عدد من المسؤولين الأميركيين والسعوديين. عندما كان الكاتب يعمل مراسلاً في باكستان وكابول، كتب تقريراً حول البرنامج بعد مضي بضعة أشهر على بدايته. ستيف كول في «الواشنطن بوست» في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1991.

(366) مقابلات مع مسؤولين أميركيين بمن فيهم بيتر تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002 في أوماها في نيبراسكا.

(367) كتب تشارلز كوغان، الرئيس السابق لقسم الشرق الأدنى التابع لمديرية العمليات، في العام 1990، أنّ محاولة انقلاب تناي «برهنت مرة أخرى أنّ قلب الدين على الرغم من صيته السيئ يتفوق على قادة المقاومة الآخرين في ما يتعلّق بالتكتيكات والمناورات». يقرّ كوغان أنّ ذلك «لم يجعل من قلب الدين بديلاً موثوقاً به لنجيب الله». لم يتقبّل جميع زملائه السابقين في «السي.آي.إيه.» النقطة الثانية. مراجعة Charles G. Cogan, ‘Shawl of Lead’, Conflict, p. 197.

(368) Barnett R .Rubin ,The Fragmentation of Afghanistan ,p .255 .

(369) هذا التقرير حول المعلومات التي قدمتها «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية عن الراديكاليين العرب، مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(370) مقابلة مع ميلت بيردان في 25 آذار/مارس 2002 في تايسونز كورنر في فيرجينيا.

(371) «هذا ليس العالم» مستقاة من Joshua Teitelbaum, Holier Than Thou, p. 30. «الصليبيون» مستقاة من المصدر نفسه ص. 29. «عضو في المؤسسة... ضدّ النظام» مستقاة من مجلة «فرنتلاين». «اصطياد بن لادن» في 21 آذار/مارس 2000. ترى ماري آن ويفر في «نيويوركر»، في 24 كانون الثاني/يناير 2000، أنّ بن لادن كان في تلك الفترة بشكل متزايد «تحت تأثير» الحوالي، ورجل دين آخر اسمه سلمان العودة.

Teitelbaum ,Holier Than Thou ,pp .32-36.(372)

(373) المبالغ التي أنفقتها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وأعداد الموظفين الدينيين، مستقاة من Teitelbaum, Holier Than Thou, p. 101Alexei Vassiliev, The History of Saudi. تقديم الملك فهد كتب القرآن المجانية مستقى من Arabia, p. 473. سافر وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل إلى أوزباكستان وتوركمانستان وطاجكستان وأذربيجان بعد بضعة أسابيع على انهيار الاتحاد السوفياتي الرسمي في بداية العام 1992، وافتتح سفارة سعودية في كلّ من أوزباكستان وكازاخستان. وشدّد سعود الفيصل على أنّ الإسلام هو أساس العلاقات السعودية في منطقة آسيا الوسطى. مراجعة: Saleh al-Khatlan, 'Saudi Foreign Policy Toward Central Asia,' Journal of King Abdulaziz University, 2000.

(374) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. الحوار بين شروين والأمير تركي مستقى من مقابلة مع غاري شروين في 31 تموز/يوليو 2002 في واشنطن العاصمة.

(375) مقابلة مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس 2002 في كانكون في المكسيك.

(376) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. المعلومات حول إنشاء حكمتيار وسياف وحقاني مكاتب في السعودية معنية بجمع التبرعات من الجوامع، مستقاة من بيان كتابيّ أرسله بيتر تومسون إلى الكاتب في 3 أيار/مايو 2003.

(377) التقرير حول المرافق السعودي الذي أخبر بن لادن أنّ الأميركيين يريدون قتله، مستقى من مقابلة مع «فينسنت كانيسترارو» في 8 كانون الثاني/يناير 2002 في روسلين في فيرجينيا. كان كانيسترار وقائد العمليات والتحاليل في مركز «السي.آي.إيه.» لمكافحة الإرهاب في تلك الفترة. قال إنّه حصل على التقرير من ضابط في الاستخبارات السعودية معني مباشرة بالقضية. أفاد تقرير نشر في «نيويورك تايمز» في 14 كانون الثاني/يناير 2001، وارتكز على مقابلات مكثفة مع مصادر أميركية وعربية، أن بن لادن قال لاحقاً لـ «شركاء» إن السعودية وظفت الاستخبارات الباكستانية لقتله على الرغم من أنه ما من دليل على حبك مؤامرة مماثلة. ونشرت تقارير عديدة حول رحيل بن لادن القسري عن السعودية يعود تاريخها إلى أواسط العام 1991، أي الفترة التي أثير فيها جدل في المملكة حول رسالة المطالب. وأعلن الضابطان السابقان في وكالة مكافحة الإرهاب الأميركية، دانيال بنجامين وستيفن سايمون، أنّ بن لادن سافر أولاً إلى أفغانستان ثمّ إلى السودان. مراجعة كتابهما The Age of Sacred Terror, 110. وأفادت تقارير أخرى أنّه سافر إلى باكستان. يقتبس بيتر بيرجين في كتابه Holy Warp, Inc, p. 29 شهادات أدلى بها شركاء سابقون لبن لادن تفيد أنّه وصل إلى السودان مع عائلته وأتباعه في طائرته الخاصة. من أجل مراجعة شهادات شريكي بن لادن، مراجعة تقرير المفوضية الوطنية النهائي ص. 57.

. Rubin ,Fragmentation of Afghanistan ,pp .266 -267(378)

(379) عبارة بيتر تومسون «الاعتداء المتطرف»، مستقاة من «السياسة الأفغانية والاستراتيجية الأميركية» في 26 أيلول/سبتمبر 1991 التي تمّ الحصول عليها وأزيلت سريتها في 23 آذار/مارس 2000 من ملفات الكاتب. «الاندفاع نحو السلطة» مستقاة من «أفغانستان: نماذج للعام 1992» في كانون الأول/ديسمبر 1991 التي تمّ الحصول عليها، وأزيلت سريتها في 23 آذار/مارس 200 من ملفات الكاتب. في العام 1993، كتب تشارلز كوغان عاكساً وجهة نظر مدعومة بشكل كبير في

«السي.آي.إيه.»، أن «مدة الشراكة بين الولايات المتحدة والمقاومة الأفغانية، إذا شئت تسميتها هكذا، كانت محدودة، وما أمكن سوى كذلك. الأهداف الواسعة النطاق في بلد حيث بدأ الإسلاميون فرض كلمتهم، لا تستطيع أن تتلاءم تماماً مع أهداف أمة غربية».

(380) مقابلة مع مسؤول أميركي. تقدير عدد الدبابات غير دقيق. أقرّ ضباط «الآي.أس.آي.» الذين قابلهم الكاتب أنّ «السي.آي.إيه.» مارست الضغوط عليهم ليدمروا الآليات العسكرية الأفغانية الباقية.

(381) مقابلة مع إدموند ماك وليامز في 26 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة. حجم ميليشيا دوستوم مستقى من Rubin, Fragmentation of Afghanistan, p. 270. قدّم روبن تقريراً نهائياً حول انهيار نظام نجيب الله الداخلي، والمفاوضات غير المثمرة التي أجرتها الأمم المتحدة في بداية العام 1992.

Michael Griffin ,Reaping the Whirlwind ,p .5(382)

مقتبس من صحيفة «هيرالد تريبيون» العالمية.

(383) التقرير حول عمليات حكمتيار في شرسياب في نيسان/أبريل 1992، مستقى بشكل أساسي من مقابلة مع صحافي عربي كان حاضراً. كان الكاتب في كابول في ذلك الوقت، وسمع تقارير مشابهة من مسافرين في المنطقة. زار الكاتب شرسياب في العام 2002. كان عبد الله أنس، صهر عبد الله عزام، ناشطاً إسلامياً جزائرياً مقرباً من مسعود، ونشر هو أيضاً تقريراً حول المفاوضات التي جرت بين مسعود وحكمتيار. والمعلومات التي قدمها حول الاتصال اللاسلكي من جهة مسعود، مشابهة للمعلومات التي قدمها الصحافي العربي في شرسياب.

(384) مقابلة مع صحافي عربي ومن ثمّ مع حكمتيار. أقر الأمير تركي أنّ بن لادن كان في بيشاور في ذلك الوقت، وشارك في محادثات السلام. أخبر تركي شبكة التلفزيون العربية، «أم.بي.سي»، في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 متحدثاً عن بن لادن: «ذهب إلى هناك للعمل مع شخصيات إسلامية أخرى كانت تحاول مصالحة الجهاديين الأفغان الذين اختلفوا على إنشاء حكومة. رأيته بين هذه الشخصيات».

William Maley ,'Interpreting the Taliban' ,in William Maley ,ed .Fundamentalism Reborn ,p.(385) .9

(386) كان الكاتب في كابول في ذلك الوقت، وشاهد قوات مسعود تهزم حكمتيار بعد قتال شوارع عنيف استمرّ بضعة أيام.

(387) مقابلة مع يحيى مسعود في 9 أيار/مايو 2002 في كابول في أفغانستان.

(388) أسلحة فردية مستقاة من Rubin, Fragmentation of Afghanistan, p. 196. تقديرات مجموع المساعدات الخارجية مستقى من Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War, p. 99.

(389) الرسالة التي بعثها عبد الحقّ إلى تومسون، مستقاة من The Life and Death of Abdul Haq :Afghan Warrior, Touch Productions. تمّ بثها على شاشة «البي.بي.سي» في العام 2003. مذكرات تومسون «أفغانستان: المصالح الأميركية والمساعدات الأميركية»، 18 كانون الأول/ديسمبر 1992 التي تمّ الحصول عليها وأُزيلت سريتها في 4 نيسان/أبريل 2000، مستقاة من ملفات الكاتب، و «وسط آسيا، أفغانستان والسياسة الأميركية» في 2 شباط/فبراير 1993 التي تمّ الحصول عليها وأُزيلت سريتها في 23 آذار/مارس 2000، مستقاة من ملفات الكاتب.

(390) «الأسى»، مستقاة من «أسوشييتد بريس» في 17 حزيران/يونيو 1992. «141 كلمة» و «متباعدة جدّاً» تم استقاؤهما من: David Halberstam, War in a Time of Peace, pp. 193and 22. «إشارة ضوئية صغيرة» مستقاة من مقابلة مع أنتوني لايك في 5 أيار/مايو 2003 في واشنطن العاصمة.

(391) «الخطر النووي الأكبر» مستقاة من «أركنساس ديموقراط غازيت» في 27 أيلول/سبتمبر 1991. «قوات عمليات خاصة عنيفة» مستقاة من «بوسطن غلوب» في 2 شباط/فبراير 1992.

(392) عبارة «لم تكن مسألة أساسية»، مستقاة من مقابلة مع لايك في 5 أيار/مايو 2003. آراء كلينتون بشأن الإرهاب وأفغانستان، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين بارزين مقربين من الرئيس.

(393) مقابلة مع روبرت غايتس في 12 آذار/مارس 2002 في كليفلاند في أوهايو.

(394) المعلومات حول رحلة ولسي إلى ليتل روك ومقابلته كلينتون مرّة واحدة، مستقاة من مقابلة مع جايمس ولسي في 20 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة. ونشاطاته بعد الحرب وتاريخه المهني، مستقاة من مقالة نشرها مايكل غوردن في «نيويورك تايمز» في 11 كانون الثاني/يناير 1993.

(395) مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002.

(396) المصدر نفسه. لقراءة تقرير مماثل حول هذا المشهد، مراجعة: Halberstam, War in a Time of Peace, p. 192.

(397) مقابلة مع تومسون تويتن في 18 آذار/مارس 2002 في واشنطن العاصمة.

(398) ما استنتجه كلاريدج مستقى من مقابلة أُجريت معه في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001 في إيسكونديدو في كاليفورنيا.

(399) رأي البيت الأبيض في ولسي، مستقى من مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون.

(400) مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002.

(401) مقابلات مع مسؤولين في إدارة بوش.

(402) خلفية قاضي مستقاة من مقال نشره جون وارد أندرسون وكمران خان في «واشنطن بوست» في 17 شباط/فبراير 1993. «شيء كبير» مستقى من مقال نشرته باتريسيا دايفيس في «واشنطن بوست» في 14 شباط/فبراير 2002.

(403) دايفيس في «واشنطن بوست» في 14 تشرين الثاني/نوفمير 2002. مراجعة تغطية «بوست» عمليات الإطلاق، حيث نشرت مقالات بقلم بيل ميلر وباتريسيا دايفيس وديفيرا كوهن وروبرت أوهارو جونيور وستيف بايتس في 26 كانون الثاني/يناير 1993.

(404) المصدر الرئيسي لجميع الوثائق التي تحدثت عن سيرة حياة يوسف، مستقاة من شهادات جمعتها «الأف.بي.آي» من ملاحظات كتبها بخطّ يده العميل الخاص في «الأف.بي.آي»، تشارلز ستورن، والضابط في الخدمات السرية الأميركية براين بار. حررت الملاحظات أثناء حوارهما مع يوسف الذي دام ست ساعات أثناء عودتهما إلى الولايات المتحدة من باكستان في 7 و 8 شباط/فبراير 1995. ووفقاً لشهادة بار في محاكمة يوسف، فقد رفض يوسف السماح لهما بكتابة الملاحظات أثناء تحدثهما في غرفة المقابلات الموقتة في مؤخرة الطائرة، لذا عمل ستورن وبار على الخروج من الغرفة بانتظام من أجل كتابة ملاحظات مختصرة في جزء آخر من الطائرة، بعيداً عن نظر يوسف. وأمليت هذه الملاحظات في 9 شباط/فبراير. المعلومات حول عمه، خالد شيخ محمد، وعمه الأكبر، والد محمد، مستقاة من فين وآخرين في «واشنطن بوست» في 9 آذار/مارس 2003.

(405) أثناء أحد استجوابات «الأف.بي.آي»، أقر يوسف بأنه بعد تفجير مركز التجارة العالمي عندما كان لاجئاً، علم أهله بأنه مسؤول عن الاعتداء وأنّه هارب من السلطات الأميركية. قال يوسف إنّ أهله انتقلوا إلى إيران. بالتأكيد سيكونون هناك بأمان أكثر من باكستان، وأقل عرضة لضغوطات الشرطة والحكومة. قال يوسف إنّ أهله عندما كانوا في إيران تلقوا اتصالاً من امرأة تدعي أنها من شركة اتصالات أميركة تحاول تحديد مكان مسعود من أجل تسديد فاتورة. أخبر يوسف القصة ليشير إلى أنّه افترض مع عائلته أنّ المتصل من «الأف.بي.آي» وكان عليهم تفادي الاستجواب.

(406) اشتكى يوسف بشكل متكرر أثناء استجوابه من قبل «الأف.بي.آي» من قلة التمويلات. قال إنّه «اقترض» المال من أصدقاء في بيشاور لم يكونوا على علم بالخطة. كان الهجوم على مركز التجارة العالمي عملية مبتذلة في نواحٍ عديدة. إلا أن يوسف تمكن من شراء تذكرة سفر في الدرجة الأولى إلى باكستان عندما تمكن من الهرب بعد التفجير.

(407) «الاعتداء على صديق»، مستقى من إفادة قدّمها العميل الخاص في «الأف.بي.آي»، ستورن والضابط في الخدمات السرية، بار، في 7 و 8 شباط/فبراير. وضعا الجملة بين علامتي اقتباس.

(408) استخدمت نسخة من الرسالة دليلاً في محاكمة يوسف. قصة الاعتداء الموجزة مستقاة من النسخ الأصلية للتصريحات الافتتاحية التي ألقيت في المحكمة.

Daniel Benjamin and Steven Simon ,The Age of Sacred Terror ,p .13(409)

كان هذان الكاتبان مسؤولين في مركز مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي في ولاية كلينتون الثانية.

(410) مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002، ومقابلة جرت في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 مع ستانلي بيديغتون، وهو محلل استخباري بارز في مركز مكافحة الإرهاب في تلك الفترة، في روسلين في فيرجينيا، ومقابلات مع مسؤولين أميركيين آخرين.

(411) المعلومات حول الأحداث الشخصية الغامضة التي جرت مع يوسف وقاسي، أن مهاجمة المصالح الأميركية التي تشجعها إيران «لها الأولوية»، مستقاة من مقابلة مع لايك في 5 أيار/مايو 2003. «سودافيد» مستقاة من مقابلة مع بيديغتون في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

(412) التقرير حول ضغوطات الميزانية التي تعرض لها المركز، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. ووفقاً لهذا التقرير، خفّت الضغوطات بعد العام 1996 عندما أجبرت الاعتداءات الإرهابية المحلية الكونغرس على فتح محفظته من أجل برامج للمكافحة للإرهاب على صعيد الحكومات. منذ اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، انتشرت تأكيدات متناقضة حول تمويل كلينتون والكونغرس الجهود المحاربة للإرهاب. وأكد بنجامين وسايمون أن البيت الأبيض زاد ميزانية مركز مكافحة الإرهاب. واقتبست تقارير جديدة عن مسؤولين في «السي.آي.إيه.»، وأفادت أنّهم لم يقوموا بعمل جيّد في النزاعات حول الميزانية حتى أثناء الولاية الثانية. وبما أنّ الميزانيات المناسبة عالية السرية، من الصعب حلّ التناقضات بثقة. من الواضح أن ولاية كلينتون الثانية كانت أفضل من الأولى بالنسبة إلى ميزانيات محاربة الإرهاب. طرحت مسألة منفصلة حول تخفيضات أخرى قامت «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة في مديرية العمليات التي يعتمد عليها المركز بشكل أساسي بتحويل مشاكل عبء الميزانية من مكتب في «السي.آي.إيه.» إلى مكتب آخر. هذه أيضاً مشكلة كبيرة يجب حلها ضمن إمكانية الوصول إلى الميزانيات السرية.

(413) المعلومات حول امتلاك المركز أكثر من مئة موظف في تلك الفترة وبنية شعبه، مستقاة من مقابلة مع بيديغتون في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

(414) مقابلة مع لاري جونسون الذي كان في تلك الفترة نائب مدير مكتب مكافحة الإرهاب التابع لوزارة الخارجية في 15 كانون الثاني/يناير 2002 في بيثيسدا في ماريلاند. وقع كلينتون وثيقتين سياسيتين مهمتين متعلقتين بالإرهاب: توجيهات القرار الرئاسي 35، وتوجيهات القرار الرئاسي 39، في الأشهر الستة الأولى من العام 1995. مراجعة الفصل الـ 16.

(415) هذا التاريخ مستقى من تقرير إليانور هيل، رئيسة لجنة التحقيق الاستخباري المشترك حول أحداث 11 أيلول/سبتمبر، وقدّ تمّ إصداره في 8 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(416) كان بنجامين وسايمون صارمين بشكل خاص في انتقادهما سياسة «الأف.بي.آي.» الداخلية. اقتبس مستشار كلينتون السابق للأمن القومي، صامويل بيرغر، ونائب مستشار الأمن القومي، جايمس ستينبيرغ، اللذان تذمرا من أنّهما لا يستطيعان الحصول على معلومات حاسمة من «الأف.بي.آي» حول مواضيع عديدة، من بينها الإرهاب. كتب بنجامين وسايمون «بالنسبة إلى فريق مجلس الأمن القومي الذي عمل على مكافحة الإرهاب، كان ذلك مخيّباً، لكن لم يكتشفا إلى أي درجة. فقد كان يصلهما أكثر من مئة تقرير كلّ يوم من «السي.آي.إيه.» و «الدي.آي.أيه.» ووكالة الأمن القومي ووزارة الخارجية بانتظار حضورهما إلى العمل. لكنّهما لم يتسلما أي شيء من «الأف.بي.آي.»، فهذا المكتب على الرغم من وفرة المعلومات لديه، لم يساهم في فهم البيت الأبيض للقاعدة. في الواقع، لم تصل أي من المعلومات التي كشفت عنها أعمال التحقيق التي قام بها المكتب إلى مجلس الأمن القومي».
راجع: Age of Sacred Terror, p. 304.

(417) إليانور هيل، تقرير فريق لجنة التحقيق الاستخباري المشترك في 8 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(418) سجلُّ النقاش الذي دار بين ولسي ولايك حول بن لادن، مستقى من مسؤولين بارزين سابقين في إدارة بوش.

ويذكر أحد المسؤولين أن مذكرة الحوار حضرها جورج تينيت أو ريتشارد كلارك اللذان برزا لاحقاً في حملة إدارة كلينتون السرية ضدّ بن لادن. ويرى هذا المسؤول أن الحوار دار حول أدلة تثبت أن بن لادن كان يمول قتال رجال الميليشيات الصومالية ضدّ القوات الأميركية. الاقتباسات ووصف تقارير «السي.آي.إيه.» والبرقيات حول بن لادن، مستقاة من ملحق التقرير النهائي الذي قدمته لجنة التحقيق المشترك ص. 5 - 6.

(419) «هل أخفقنا... بالطبع»، مستقاة من مقابلة مع لايك في 5 أيار/مايو 2003.

(420) بعدما عمل بيلار أولاً رئيس تحاليل، ثمّ نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» من العام 1993 وحتى العام 1999، قضى سنة في معهد بروكينغز في واشنطن بصفته باحثاً، وأنهى هناك كتاباً بعنوان S Foreign.Terrorism and U Policy، تمّ نشره قبل اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر بوقت قصير. الكتاب عبارة عن مراجعة شاملة وعلمية للخطر الإرهابي المعاصر، والآليات التي اتبعتها السياسة الأميركية في احتوائه، كما يؤمّن أرشيفاً وافراً حول وجهة نظر بيلار التحليلية. والتقرير حول آراء بيلار في هذا الفصل، يرتكز جزئيّاً على كتابه، وعلى مقالات صحافية أخرى، وعلى مقابلات عديدة أجريت مع مسؤولين أميركيين كانوا في تلك الفترة مطلعين على تحاليل مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.». ومن بين الذين تحدثوا عن الفترة التي تمتدّ بين العامين 1993 و 1994 كان مدير «السي.آي.إيه.» السابق توماس ولسي وستانلي بادينغتون، وهو محلل بارز في المركز حتى العام 1994، وتوماس تويتن الذي كان رئيس مديرية العمليات التابعة لـ «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة.

(421) تقدّم ماري آن ويفر في كتابها A Portrait of Egypt، تقريراً مفصّلاً حول ظهور الجماعة الإسلامية وجذورها في منطقة النيل الشمالية. وجمعت منظمة مراقبة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية سجلات شاملة حول الأعمال الدموية التي جرت أثناء الصراع الجزائري بعد إلغاء الانتخابات.

(422) الملخص حول النقاشات المشوشة التي جرت في واشنطن بشأن التحدي الذي يفرضه العصيان الإسلامي في شمال أفريقيا، مستقى من مقابلات مع عدد من المشاركين، بعضهم متمركز في البيت الأبيض، وآخرون في وزارة الخارجية و «السي.آي.إيه.».

(423) إحدى المشاكل التي وردت جراء هذه العلاقة، هي اتهام السلطات في السجون المصرية بالتعرض بشكل روتيني للمعتقلين من قبل الوحدات المصرية المكافحة للإرهاب. وقال مسؤولون معنيون إنّ «السي.آي.إيه.» ووزارة الخارجية حاولتا تنظيم تمويلاتهما من أجل تشجيع الإصلاحات المصرية من دون قطع العلاقة. وقال مسؤولان معنيّان في مقابلات أجريت معهما، إنّه في مرحلة ما في أواسط التسعينيات، أوقفت «السي.آي.إيه.» الإمدادات التي كانت ترسلها إلى وحدة معيّنة في القاهرة بسبب فرضها القيود على السجناء. وبقيت التفاصيل حول برامج المساعدات لمكافحة الإرهاب وقرارات السياسة المتعلقة بحقوق الإنسان سرية جدّاً، كما يصعب وصف الضغط الذي مارسته أميركا على وحدات الأمن المصرية بدقة. على أي حال، ووفقاً للمشرفين على تطبيق حقوق الإنسان، لم تخفف السلطات المصرية من قيودها بحق المسجونين، والمعلومات حول إرسال «السي.آي.إيه.» أول رئيس مركز مصرح عنه في الجزائر في العام 1985، مستقاة من مقابلة أجراها الكاتب مع ويتلي برونر في 26 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة. كان برونر رئيس المركز المصرح عنه. وغادر الجزائر في العام 1989 وخدم لاحقاً في مركزي تونس وتل أبيب قبل أن يتقاعد في العام 1997.

(424) مقابلة مع برونر في 26 شباط/فبراير 2002.

(425) المصدر نفسه.

(426) مقابلات مع مسؤولين أميركيين سابقين في قسم الشرق الأدنى.

(427) مقابلات مع مسؤولين أميركيين بمن فيهم مسؤولون استهلكوا المعلومات الاستخبارية لـ «السي.آي.إيه.» الواردة من السعودية، ومسؤولون آخرون مطلعون على هذه المعلومات. في مقابلة، أعلن ضابط استخباري بريطاني سابق عمل في مركز حكومته داخل السعودية، ثم عمل لاحقاً في المقرّ الرئيسي لقسم الشرق الأوسط، أنّ زملاءه في «السي.آي.إيه.» المتمركزين في الرياض في تلك الفترة، أخبروه أن سياسة المركز حدّت بشكل كبير من قدرتهم على تعيين عملاء وجواسيس في المملكة من أجل مواضيع حساسة، بما في ذلك الراديكالية الإسلامية.

(428) المعلومات حول تبادل الرسائل بين الأمير تركي وكلينتون مستقاة من مقابلات مع مسؤولين سعوديين. الاجتماع الذي عُقد في البيت الأبيض مستقى من مقابلات مع مسؤولين سعوديين وأميركيين. تقرير مماثل حول الاجتماع ورد في صحيفة «لوس أنجليس تايمز» في 14 تموز/يوليو 1996.

(429) «نيويورك تايمز» في 23 آب/أغسطس 1993.

(430) للاطلاع على التقرير حول المجازر التي جرت في كابول في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، مراجعة: Michael Griffin, Reaping the Whirlwind, p. 30. تقدير عدد القتلى المدنيين الذين سقطوا في المعارك في العام 1993 والذين بلغ عددهم عشرات الآلاف، مستقى من Ahmed Rashid, Taliban: Militant Islam, Oil, andFundamentalism, p. 226؛ ومراجعة Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War, pp. 74-75.

(431) المعلومات حول عمل الأمير تركي مع حميد غول في تلك الفترة مستقاة من تشارلز كوغان، رئيس قسم الشرق الأدنى في مديرية العمليات التابعة لـ «السي.آي.إيه.» الذي كتب Partners in Time'', World Policy Journal, p. 78، ومستقاة أيضاً من مقابلات مع مسؤولين سعوديين وباكستانيين وأميركيين. وصف وجهة نظر جافيد نصير الإسلامية مستقى من مقابلات مع عدد من المسؤولين الباكستانيين، بمن فيهم خلفه كمدير عام في «الآي.أس.آي.»، الفريق جافيد أشرف قاضي في 19 أيار/مايو 2002 في راولبندي في باكستان.

(432) إلى: وزارة الخارجية في واشنطن العاصمة في 5 شباط/فبراير 1993. «تضمينات حول المأزق...»، مستقاة من ملفات الكاتب.

(433) المعلومات حول عدم مراجعة سياسة البيت الأبيض المتعلقة بأفغانستان أثناء ولاية بوش الأولى، مستقاة من مقابلات عديدة مع مسؤولين سابقين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية. وجهة نظر كريستوفر وخلفية رافل مستقاة من مقابلات مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون. يقدّم دافيد هالبرستام في كتابه War in a Time of Peace تقريراً دقيقاً حول صناعة السياسة الخارجية أثناء ولاية بوش الأولى، والأولويات التي حدّدها جدول أعمال السياسة المحلية الذي وضعه كلينتون.

**(434) ما حاولت أن تثبته رافل، مستقى من مقابلات مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون. الاقتباسات مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع مسؤولين رفضوا ذكر أسمائهم.**

**(435) «مكان تكثر فيه»، مستقاة من مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002 في واشنطن العاصمة.**

**(436) مقابلة مع توماس تويتن، في 18 آذار/مارس 2002 في واشنطن العاصمة.**

**(437) «فعليّاً في خلفية»، المصدر نفسه.**

**Cogan ,'Partners in Time', World Policy Journal, p. 82.(438)**

**(439) سيرة حياة كوفر بلايك، والمعلومات حول مركز الخرطوم في العام 1993، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. أدلى بلايك بشهادته أمام لجنة التحقيق المشترك في 26 أيلول/سبتمبر 2002. تحدّث عن خدمته في السودان بطريقة عرضية أثناء شهادته. وأصبح لاحقاً منسق شؤون مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية.**

**(440) المعلومات حول انحسار التوجيهات التشغيلية بجمع الاستخبارات وعدم السماح بتنفيذ عمليات سرية تضع حداً لبن لادن، مستقاة من مقابلات أجراها الكاتب مع مسؤولين أميركيين. في شهادة محضرة للجنة التحقيق المشترك في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002، قال مدير «السي.آي.إيه.»، جورج تينيت: «منذ العام 1993، اقترحت وحداتنا التي تراقب بن لادن تنفيذ عملية تحدّ من قدرات منظمته». ويفيد التصريح أنّ ضباط استخبارات اقترحوا خطط عمل سرية معينة في الخرطوم على رؤسائهم في لانغلي الذين قاموا برفضها.**

**(441) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(442) تقرير الاستخبارات السعودية والمصرية، مستقى من «أسامة بن لادن: مموّل متطرّف إسلامي»، تقييم «السي.آي.إيه.»، المنشور في العام 1996.**

**(443) أظهرت الأدلة لاحقاً، أنّ بن لادن موّل العمليات الإرهابية وشبه العسكرية في اليمن ضدّ فندق نزل فيه جنود أميركيون، وفي الصومال ضدّ جوالة عسكريين أميركيين يحاربون الميليشيات الإسلامية الصومالية. لم تعلم «السي.آي.إيه.» و «الأف.بي.آي.» بتورط بن لادن في هذه المؤامرات إلا بعد مضي أعوام عديدة. تم تقدّم رئيسي في صيف العام 1996، عندما انشقّ مساعد مقرب من بن لادن، ويُدعى جمال الفضل، اختلس أموال كثيرة، عن تنظيم القاعدة، ودخل السفارة الأميركية في أريتريا من أجل الإدلاء بشهادته مقابل حقّ اللجوء.**

**(444) الوصف العام لنشاطات بن لادن التجارية واستثماره المصرفي الذي بلغ 50 مليون دولار، مستقى من «أسامة بن لادن: مموّل متطرّف إسلامي»، تقييم «السي.آي.إيه.» الذي نُشر في العام 1996. وعمليات شراء أراضٍ معينة وتفاصيل حول المكتب،**

مستقاة من شهادة جمال الفضل في المحكمة الفدرالية لأفراد القاعدة الذين هاجموا السفارة الأميركية في نيروبي في كينيا وفي دار السلام في تنزانيا في 6 شباط/فبراير 2001.

(445) شهادة فضل في 6 شباط/فبراير 2001.

(446) «التحدّث عن الجهاد»، من المصدر نفسه. تحركات بن لادن وحذره، مستقاة من شهادة فضل، ومقابلات أجراها الكاتب مع مسؤولين أميركيين.

(447) وصف عدد من التقارير محاولةَ الاغتيال التي جرت في الخرطوم، على الرغم من اختلاف التفاصيل في بعض الأحيان. النسخة هنا مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين يستطيعون الولوج إلى تقارير «السي.آي.إيه.».

(448) كان جمال الفضل هو المختلس. معاملة بن لادن له مستقاة من شهادة في 6 شباط/فبراير 2001.

(449) «رغبات جسدية نهمة» مستقاة من Joshua Teitelbaum, Holier Than Thou, p. 58. ووفقاً لإحصاءات «السي.آي.إيه.» الواردة في «أسامة بن لادن: المموّل المتطرف الإسلامي» في العام 1996، أصدرت لجنة الاستشارات والإصلاحات «أكثر من 350 كتيباً حاسماً للحكومة السعودية». «الحجاز الأعظم واليمن العظمى»، مستقاة من Teitelbaum, Holier Than Thou, p. 77-78.

(450) مقابلات مع مسؤولين أميركيين وبريطانيين.

(451) ناقش الأمير تركي مسألة الجهود في مقابلة أثناء برنامج «نايتلاين» على شاشة «الأيه.بي.سي.» في 10 كانون الأول/ديسمبر 2001: «ذهبت والدته لرؤيته. كان عمّه في الثمانين من عمره، وذهب هو أيضاً إلى السودان ليحاول إقناعه بالعودة». اقتباسات بن لادن مستقاة من Peter L. Berger, The Holy War, p. 89. مصروفه الذي بلغ مليون دولار مستقى من تصريح فريق المفوضية الوطنية الرقم 15 ص. 3 و4.

(452) اقتباس بكر مستقى من بيرغر، المصدر نفسه. رأي الأمراء السعوديين البارزين في بن لادن في تلك الفترة، مستقى من مقابلات مع مسؤولين سعوديين.

(453) أشار بلايك في شهادته أمام الكونغرس، في 26 أيلول/سبتمبر 2002، إلى المحاولة التي قام بها بن لادن لقتله، لكنّه لم يقدّم أي تفاصيل. هذا التقرير مستقى من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(454) Daniel Benjamin and Steven Simon, The Age of Sacred terror, pp. 242-243.

(455) خمسة تقارير متزامنة حول مقابلات مع شهود استُخدمت أدلة في محاكمة يوسف، توثق بالتفصيل الأحاديث التي جرت بين يوسف وعملاء فدراليين أميركيين، والحوارات التي دارت على متن الطائرة التي أحضرت يوسف من إسلام آباد إلى نيويورك. أدلى بار بشهادته في 12 آب/أغسطس 1996 في قضية تفجير طائرة تابعة لخطوط مانيلا الجوية، وفي 22 تشرين الأول/أكتوبر 1997 في محاكمة يوسف بسب قضية تفجير مركز التجارة العالمي. وصفُ تكبيل يوسف بالأصفاد واستجوابه على متن الطائرة، تم استقاؤهما من شهادة بار. استخدمت الاقتباسات فقط حيث تقدّم التقارير بحدّ ذاتها اقتباسات دقيقة.

(456) مقابلة أجريت مع فرد هيلتز، وهو مفتش عام في «السي.آي.إيه.» في تلك الفترة، في 8 آذار/مارس 2002 في برينستاون في نيوجرسي. يقدم ستيفان ديكوس في National Security Law تقريراً مفصّلاً عن القضايا القانونية.

(457) تقرير حول استجواب شهود كتبه العميل الخاص في «الأف.بي.آي.»، برادلي غاريت، أُمليَ في 7 كانون الثاني/يناير 1995 وسجّل في 10 شباط/فبراير 1995.

(458) تقرير حول استجواب شهود كتبه العميل الخاص في «الأف.بي.آي.»، برادلي غاريت، «المجال الجويّ من باكستان إلى الولايات المتحدة»، أُملي وسجّل في 8 شباط/فبراير 1995.

(459) المناقشات حول الدوافع والاقتباسات مستقاة من المصدر نفسه.

(460) تقرير حول استجواب شهود كتبه العميلان في «الأف.بي.آي.»، تشارلز ستورن وبراين بار في مكتب الخدمات السرية في الولايات المتحدة - «طائرة أثناء التحليق» أُملي في 9 شباط/فبراير 1995 وسجّل في 28 شباط/فبراير 1995.

(461) تعليقات يوسف حول سفره إلى باكستان ومن ساعده على تنفيذ عملية مانيلا ورأيه في بن لادن، مستقاة من المصدر نفسه.

(462) المعلومات حول الفندق الذي كان بن لادن يمتلكه، مستقاة من مصادر عديدة منشورة، من بينها Benjamin and Simon, Age of Sacred Terror, p. 237. أمضى يوسف ساعات عديدة في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد، حيث ألقى عبد الله عزام أولى محاضراته عندما قدم إلى باكستان، وفقاً لـ Mary Anne Weaver, A Portrait ofEgypt, p. 196 .

(463) تقرير ستورن وبار حول استجواب الشهود، «طائرة أثناء التحليق»، في 9 شباط/فبراير 1995.

(464) وصف مسؤولون أميركيون أخيراً خالد شيخ محمد كعقل مدبّر مشتبه فيه في اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. تمّ اعتقاله في راولبندي في 1 آذار/مارس 2003 من قبل ضباط الشرطة والاستخبارات الباكستانية. تصوّر معظم التقارير حياته على سكك متوازية لسكك رمزي يوسف: فهو من أصل باكستاني، ترعرع في الكويت، ودرس الهندسة في الغرب. ارتاد محمد لفترة قصيرة معهداً معمدانياً قبل انتقاله إلى جامعة «إي أند تي» في كارولاينا الشمالية، حيث درس الهندسة الميكانيكية، وهي جامعة يرتادها عادة طلاب من العرق الأسود. قال للمحققين الأميركيين إنه انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في سنّ السادسة عشرة.

(465) «نيويورك تايمز»، في 9 حزيران/يونيو2002.

(466) الهجوم الذي وقع في المغرب مستقى من «نيويورك تايمز»، في 24 كانون الثاني/يناير 2001. خطة اختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية وتنفيذ عملية انتحارية في برج إيفل، مستقاة من إليانور هيل، تصريح فريق التحقيق المشترك في 18 أيلول/سبتمبر 2002. الكتيب البلجيكي، «نيويورك تايمز»، في 14 شباط/فبراير 2001. الهجوم في ميندناو، آسياويك، في 5 أيار/مايو 1995. من أجل تقرير شامل حول محاولة اغتيال مبارك، مراجعة Weaver, A Portrait of Egypt, pp. 174-.177 .244. من بين التقارير العديدة Benjamin and Simon, Age of Sacred Terror, p. التهديد الذي تعرض له لايك مستقى من Teitelbaum, Holier Than Thou, pp. 73-.74 المنشورة حول التفجير الذي وقع في الرياض، نجد تفاصيل مادية في كتاب من بين التقارير العديدة التي تحدّثت عن تفجير السفارة المصرية في إسلام آباد، يقدّم كتاب الظواهري Knights Under the Prophet's Banner، منظور إحدى المؤامرات.

(467) إليانور هيل، تصريح فريق التحقيق المشترك، في 18 أيلول/سبتمبر 2002.

(468) الزيارة التي قام بها ولسي في كانون الأول/ديسمبر وتقارير «السي.آي.إيه.» حول التهديدات الإسلامية السنية في العام 1995، مستقاة من «تصريح فريق الاستخبارات التابع للجنة التحقيق في مجلس الشيوخ حول الاعتداء على أبراج الخُبَر» في 12 أيلول/سبتمبر 1996. المعلومات حول كون حزب الله المصدر المعني للتهديد الذي تعرض له لايك، مستقاة من مقابلة مع مسؤول في إدارة كلينتون. «من حيث لا ندري»، مستقاة من مقابلة أجراها الكاتب مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس 2002 في كانكون في المكسيك. فجر سعوديون شاحنة مفخخة قرب مجمع للقوات الجوية الأميركية يُطلق عليه اسم أبراج الخُبر في شرق السعودية في 25 حزيران/يونيو 1996، فتسببوا في مقتل تسعة عشر طياراً أميركياً وجرح المئات. ورصد مركز «السي.آي.إيه.» في الرياض ووكالة الاستخبارات الدفاعية والاستخبارات السعودية، التهديد الذي يمثله الشيعة للمملكة قبل أشهر على تفجير الخُبر. ووصف التقرير الذي نشره الفريق في 12 أيلول/سبتمبر التقارير الاستخبارية والتخطيط الوقائي في السعودية في العام 1995 مع بعض التفاصيل. بعد تفجير الخُبر، كان وزير الداخلية السعودي بطيئاً في تعاونه مع محققي «الأف.بي.آي.»، ما ولّد توترات جديدة في العلاقة السعودية - الأميركية.

(469) السجل الفدرالي والأمر التنفيذي 12947 في 25 كانون الثاني/يناير 1995. الإخفاق في إدراج القاعدة على اللائحة في العام 1995 أمر يصعب فهمه نظراً إلى تدفق التقارير التي تسلمتها «السي.آي.إيه.» في ذلك الوقت حول علاقات بن لادن في الخرطوم مع جماعات معارضة لإسرائيل مثل حماس وحزب الله وأخرى مثل الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر والجماعة الإسلامية في مصر وبعض الفصائل المصرية الأكثر راديكالية، إلا أنه في هذه المرحلة لم تعلن القاعدة رسميّاً الحرب على الولايات المتحدة أو إسرائيل، ولم تتورط مباشرة في أي هجوم ضد مصالحهما. ونشرت وزارة الخارجية لاحقاً في العام 1997، اللائحة الرسمية الأولى التي تحتوي على أسماء المنظمات الأجنبية المتهمة بالإرهاب، فلم تتضمن هذه اللائحة أيضاً اسم القاعدة. أصبح الدليل حول إرهاب القاعدة العالمي مادياً ومتوافراً في السجل العام أكثر من أيّ وقت مضى. وقال منسق مركز مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية، فيليب ويلكوكس، في شباط/فبراير 1995، إنه بينما «كانت علاقات غير رسمية قائمة بين الإسلاميين... لم يكن من دليل قاطع على وجود شبكة أو قيادة أو جهاز قيادة عالمي منسق بين هذه المجموعات». يقتبس بنجامين وسايمون في كتابهما Age of Sacred Terror، روبرت بليتزر الذي كان مسؤولاً عن قسم مكافحة الإرهاب الدولي التابع لـ «الأف.بي.آي.» حتى العام 1996 الذي استمر حتى ترحيله بتكرار أنّ «المجتمع يعتبرهم إرهابيين غير منظمين أو إرهابيين منتسبين، لكنني لم أوافقهم في الرأي... رأيت أنها شبكة رئيسية. لم نكن نملك قاعدة استخبارية كافية، ولم نعرف كيف كان بن لادن وآخرون يديرونها، وكيف يحركون الأشخاص والأموال. لم تكن هذه المعلومات بحوزتنا لنفهمها».

(470) مقابلات مع مسؤولين سعوديين وأميركيين. كان راي كلوز الذي أدار المركز في السبعينيات، أحد الرؤساء السابقين لمركز «السي.آي.إيه.» في الرياض الذين عملوا مستشارين لدى الأمير تركي. تقاعد رئيس آخر أدار المركز في فترة لاحقة، وذهب إلى إسبانيا بناءً على استشارة سعودية وفقاً لما قاله زملاؤه السابقون. استحوذ عدد من المستشارين في قضايا الشرق الأوسط التابعين للاستخبارات البريطانية على عقود توكيل. ترك فرانك أندرسون الوكالة في العام 1995، وقد كان رئيس قسم الشرق الأدنى التابع لـ

«السي.آي.إيه.». ورأى أن الجهاديين من أفغانستان لم يشكلوا عاملاً أساسياً في التوغلات الإسلامية التي جرت في شمال أفريقيا. وسرعان ما انضم إلى شركة استشارية في واشنطن أبقت على علاقاتها الوثيقة بالحكومة السعودية.

(471) الكاتب ممتن لوولتر بينكوس الذي كتب تقريراً عن هذه الوثيقة في «نيويورك بوست» في 6 حزيران/يونيو 2002، وقدم نسخة عن المقاطع التي تحلل الأصولية الإسلامية السنية.

(472) المصدر نفسه. جميع الاقتباسات مستقاة من الوثيقة.

(473) بقي التقرير سرياً، لكن مدير «السي.آي.إيه.»، جورج تينيت اقتبس جملاً منه في شهادته المعدة التي أدلى بها في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002 أمام لجنة التحقيق المشترك التي تحقق في اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. واقتبست إليانور هيل مقاطع من الشهادة في تصريح فريق التحقيق المشترك الذي كتبته في 18 أيلول/سبتمبر 2002. الاقتباسات هنا مستقاة من شهادة تينيت باستثناء «نسل جديد» المستقاة من التقرير النهائي الذي قدمته لجنة التحقيق المشترك (ص. 4) و «حسب معرفتنا... شركاؤه» مستقاة من التقرير النهائي، ص. 313.

(474) المصدر نفسه. «الظاهرة الإرهابية الجديدة» مستقاة من تصريح الفريق التابع للمفوضية الوطنية الرقم 5، ص. 1و 2. عنوان التقدير مستقى من تصريح الفريق الرقم 11، ص. 4.

(475) التقرير حول ظهور دوراني، مستقى بشكل أساسي من Olaf Caroe, The Pathans, pp. 254-55Martin و Ewans, Afghanistan: Caroe Short History of Its People and Politics, pp. 22-23 . وبصفته ضابطاً بريطانياً سابقاً في المناطق القبلية في باكستان وأفغانستان، استقى كاروي معطياته من مصادر عديدة أصلية وامبريالية.

Caroe ,The Pathans(476)

يعزو كاروي قصة انتخاب دوراني في مجلس اللويا جيرغا إلى سيرة حياة «الأمير الحديدي» في أفغانستان، عبد الرحمن، الذي نقل القصة كما وردت في «سجلات كابول». ومهما تكن أسس الرواية، فقد أصبحت مواضيعها، أي صمت دوراني المتواضع ومحاولة الخانات ذوي النفوذ اختيار ملك ضعيف، مجرد سرد مجسد للسياسات الأفغانية غالباً ما تمّ تناقله.

(477) المصدر نفسه، ص. 251 - 285. انتقلت سلالة دوراني الملكية الأولى من أحمد شاه إلى ابنه تيمور في شعبة سدوزاي بُبالزاي القبلية. أما السلالتان الثانية والثالثة اللتان انتهيتا عند الملك ظاهر شاه في العام 1973، فقد اختارتا قادتهما من شعبة محمدزاي برقزاي القبلية.

(478) اقتباس نقيب الله مستقى من جون لي... أندرسون، «نيويوركر»، في 28 يناير 2002. سافر أندرسون إلى جنوب أفغانستان في فترة الجهاد ضدّ السوفيات، وأمضى أسابيع في مخيم للجهاديين تحت إشراف نقيب الله. وبعدما خسرت طالبان قندهار في كانون الأول/ديسمبر العام 2001، قابل أندرسون نقيب الله من جديد، وأمضى بضعة أيام برفقته. رأى أنّ سيّد الحرب يحمل وصفة طبية مكتوبة بالألمانية، وتحتوي على أسماء أدوية الذهان، فسأل نقيب الله عنها، وحثّه على شرح مرضه.

(479) مقابلة في 28 آذار/مارس 2002 في واشنطن العاصمة مع سبوزهماي مايوندي، وهو مذيع من الباشتون يعمل في محطة «صوت أميركا»، وقد أرخ نشوء طالبان، وتحدث بانتظام إلى الملا عمر وقادة آخرين في طالبان. المقابلات العديدة التي أجراها مايوندي مع طالبان على إذاعة «صوت أميركا»، بلغة الباشتون، دفعت أفغاناً آخرين، وخصوصاً المخلصين لأحمد شاه مسعود، إلى اتهام الخدمة الإذاعية التي ترعاها أميركا، معتبرين إياها موالية لطالبان. فعززت سمعة الإذاعة بدورها الشكوك في المنطقة بأن طالبان أداة في يد السياسة الأميركية.

(480) التقرير حول جذور طالبان الريفية، مستقى بشكل أساسي من أوليفييه روا، «هل للإسلام مستقبل في أفغانستان؟» الذي ورد في William Maley, ed. ,Fundamentalism Reborn ,pp .204-211، ومن مقابلات مع ميوندي وباشتون آخرين في قندهار. كتب أحمد رشيد تقريراً حول الحركة بحجم كتاب، تحت عنوان «طالبان: الإسلام المحارب والنفط والأصولية في آسيا الوسطى». ويؤمن Michael Griffin, و Reaping the Whirlwind Larry P. Goodson, Afghanistan's Endless War، تقارير مفصلة حول أصل الحركة ونشوئها.

(481) يقول رشيد في كتابه Taliban, pp. 90-91، إن المدارس موّلت حوالى أربعمئة مدرسة دينية من أجل الطلبة الأفغان. وفي العام 1999 بلغ عدد المنتسبين إليها خمسة عشر ألف طالب. يقتبس رشيد قائد حقاني، السياسي الباكستاني سامي الحق، وهو يشتكي بسبب تجاهل الاستخبارات الباكستانية مدرسته أثناء الجهاد ضدّ السوفيات، بينما شجعت شبكة من المدارس الدينية التابعة للإخوان المسلمين والمتصلة بجماعة الإسلام وحكمتيار. كانت جماعة الإسلام المنافس السياسي الإسلامي لحزب عبد الحق السياسي.

(482) Martin Ewans ,Afghanistan :A Short History of Its People and Politics ,p .204

للحصول على تقارير دقيقة حول جذور معهد الدراسات الإسلامية في ديوباند ودوره في علم الدين الإسلامي والحركات المعارضة للاستعمار، ينصح إيونز بقراءة A. A. Rizvi, A History of Sufism in India وقد صدر في مجلدين في العامين 1978 و 1983.

(483) Rashid ,Taliban ,pp .87-94 .

(484) مقابلة مع حشمت غاني أحمدزاي في 12 أيار/مايو 2002 في كابول في أفغانستان.

(485) مقابلة مع قايوم قرظاي في 19 أيار/مايو 2002 في كابول في أفغانستان ومع حامد قرظاي في 21 تشرين الأول/أكتوبر 2002 في كابول أفغانستان.

(486) هذا التقرير حول اعتقال فهيم لقرظاي واستجوابه وظروف هروبه، مستقى من مقابلات مع مصادر عديدة متورطة في تلك المرحلة، بمن فيهم قايوم قرظاي في 19 أيار/مايو 2002، ونائب الرئيس الأفغاني هدايت أمين أرسالا في 21 أيار/مايو 2002 في كابول في أفغانستان. كان أمين أرسالا وزير الخارجية عند اعتقال قرظاي، ولم يعلم من أمر باعتقاله: «لست متأكّداً إن أمر الرئيس الأفغاني، رباني، باعتقاله. لكنني متأكد أن أفراد الاستخبارات برئاسة فهيم يعلمون هوية الفاعل».

(487) مقابلة مع حامد قرظاي في 21 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(488) المعلومات حول تأمين قرظاي مبلغ خمسين ألف دولار نقداً وكمية كبيرة من الأسلحة، مستقاة من مقابلة أجراها معه أحمد رشيد لصحيفة «دايلي تيليغراف» في 8 كانون الأول/ديسمبر 2001، أسباب دعم قرظاي طالبان وأمل السكان الباشتون بعودة الملك، مستقاة من مقابلات مع قايوم قرظاي في 19 أيار/مايو 2002 وهدايت أمين أرسالا في 21 أيار/مايو 2002 وحشمت غاني أحمدزاي في 12 أيار/مايو 2002، وزلماي رسول في 18 أيار/مايو 2002، في كابول في أفغانستان.

(489) لم يتمّ تأكيد العام الذي وُلد فيه عمر. يقول رشيد في Taliban, p. 23، إنّ عمر وُلد «في وقت ما العام 1959». وتصف ورقة وقائع كتبتها «السي.آي.إيه.»، من دون تحديد تاريخها، حول سيرة حياة عمر.

(490) ورقة الوقائع التي وضعتها «السي.آي.إيه.»، وروابط عمر مع بشار و «ذو شخصية جذابة أو خطيب بارع»، مستقاة من ''Finally ,a Talkative Talib، المصدر نفسه.

(491) «أسطورة طالبان»، «أسوشيتد بريس» في 20 أيلول/سبتمبر 2001. الصليب الأحمر، صحيفة «صانداي تايمز»، في 23 أيلول/سبتمبر 2001.

(492) «واشنطن بوست» في 27 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(493) صحيفة «تورونتو ستار» في 9 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(494) «مجموعة بسيطة... أهدافهم»، مستقاة من صحيفة «تايم» في 1 كانون الأول/ديسمبر 2001. «ستحارب طالبان... شعبنا» مستقاة من «أسوشيتد بريس» في 20 أيلول/سبتمبر 2001.

(495) روا «هل للسياسة الإسلامية مستقبل في أفغانستان؟»، ص. 211. كتب روا بعد ثلاث سنين حول ثورة طالبان الرئيسية: «بالطبع، المشكلة عند طالبان هي أنّهم يعنون ما يقولونه». «لا يريدون ملكاً لأنه ما من ملك في الإسلام... طالبان ليست عامل استقرار في أفغانستان».

(496) مقابلة مع بنازير بوتو في 5 أيار/مايو 2002 في دبي في الإمارات العربية المتحدة. هذا القسم مستقى أيضاً من مقابلات مع مسؤولين باكستانيين مقربين من بوتو.

(497) اقتباسات بوتو مستقاة من مقابلة أجريت معها في 5 أيار/مايو 2002.

(498) المصدر نفسه.

(499) جميع الاقتباسات، المصدر نفسه.

(500) مقابلة مع الفريق جافيد أشرف قاضي في 19 أيار/مايو 2002 في راولبندي في باكستان. كان قاضي، المدير العام للاستخبارات الباكستانية في ذلك الوقت. قال: «سبعة عشر نفقاً»، «سبعة عشر نفقاً مليئاً بالأسلحة والذخائر. كمية تكفي لدعم نصف حجم جيش باكستان». أنشأ مستودع الذخيرة قبل انتهاك حقبة الحرب الأفغانية المعارضة للسوفيات. «ضخّ الفريقان كميّة هائلة من الأسلحة... فأُنشئت المخازن». وكتبت تقارير أخرى مفصلة حول الاستيلاء على مخزن سبين بولداك، منها تقرير أنطوني دايفيس «كيف أصبحت طالبان قوة عسكرية» في ، ومقال رشيد45-46. Maley, ed. ,Fundamentalism Reborn ,pp ص. 27 - 28، ومقاله بعنوان «باكستان وطالبان»، في بعنوان TalibanMaley, ed. ,Fundamentalism Reborn ,p. 81. قدر رشيد أن المخزن ضمّ 18 ألف بندقية إي. كاي 47 و 120 سلاحاً مدفعياً، مستشهداً بمقابلات مع مسؤولين عسكريين ودبلوماسيين باكستانيين.

(501) مدى تورّط ببار مع طالبان عند ثورتها غير واضح. كان ببار رجلاً متبجحاً، وقدّ زاد الشكوك حول إنشائه الحركة وتسليحها من خلال تقديم قادة طالبان إلى أمثال الأمير تركي، رئيس الاستخبارات الباكستانية، وهو يطلق عليهم اسم «أولادي». لكن، قال عدد من شركاء ببار، إن هذه الاقتباسات غير متكافئة، وهي تعكس عادات ببار في التحدث بتبجح.

(502) قال الملا نقيب الله، أحد أسياد الحرب المهيمنين في قندهار في ذلك الوقت، إنه عندما كسحت طالبان المدينة، طلب حامد قرظاي وقادة آخرون من الباشتون والرئيس رباني في كابول منه ومن قوى محلية في الباشتون، عدم محاربة طالبان. فبالنسبة إلى رباني ومسعود، طالبان قوّة من الباشتون تستطيع تدمير عدوهما حكمتيار.

(503) دايفيس، «كيف أصبحت طالبان قوّة عسكرية»، ص. 48 - 49.

(504) مقابلة مع قاسي في 19 أيار/مايو 2002.

(505) مقابلة مع بوتو في 5 أيار/مايو 2002. كتبت «السي.آي.إيه.» تقارير عن الروابط بين مخيمات التدريب الأفغانية التابعة لـ «السي.آي.إيه.» والثورة في كشمير في تلك الفترة التي هددت في مرحلة ما بوضع باكستان على لائحة الدول التي تعتبرها أميركا راعية للإرهاب.

(506) الاقتباسات «الفجوة التي أحدثها في قندهار» إلى «جميعاً»، مستقاة من مقابلة مع قاضي في 19 أيار/مايو 2002.

(507) جميع الاقتباسات من «أصبحت شيئاً فشيئاً» إلى «تفويض مطلق» مستقاة من مقابلة مع بوتو في 5 أيار/مايو 2002.

(508) يصف رشيد في كتابه «باكستان وطالبان»، ص. 86، الجدال داخل «الآي.أس.آي.» حول طالبان في العام 1995. «تمحور الجدال حول ضباط من الباشتون متورطين في عمليات سرية على الأرض، أرادوا تقديم المزيد من الدعم إلى طالبان، وضباط آخرين معنيين بتجميع الاستخبارات والتخطيط الاستراتيجي الطويل الأمد، والذين أرادوا إبقاء دعم باكستان محصوراً كي لا تتأزّم العلاقة

**المتوترة مع آسيا الوسطى وإيران. ولعبت شبكة الباشتون التابعة لقيادة الجيش العليا، دوراً أساسيّاً في تحديد القرار العسكري وقرار «الأي.سي.آي.» الذي يقضي بتعزيز دعم طالبان».**

**(509) مقابلة مع بوتو في 5 أيار/مايو 2002.**

**(510) مقابلة مع أحمد باديب في 1 شباط/فبراير 2002 في جدّة في السعودية.**

**(511) المشهد والاقتباسات، المصدر نفسه.**

**(512) المصدر نفسه. مراجعة الملاحظة الرقم 27.**

**(513) مقابلة مع تركي على محطة «الأم.بي.سي» في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.**

**(514) بعدما نفت طالبان حكمتيار، زار الأميرَ تركي في السعودية آملاً الحصول منه على مساعدة، بحسب ما قاله مسؤولون سعوديون. وعندما سأل تركي المذهول حكمتيار لم ستساعده المملكة بينما شجب العائلة المالكة عند حاجتها إليه في العام 1991، هزّ حكمتيار كتفيه بخنوع، ثمّ قال في ذلك الوقت «إنها السياسة»، وفقاً للتقارير السعودية.**

**(515) المعلومات حول دفع الاستخبارات السعودية مكافآت نقدية لضباط «الآي.أس.آي.» مستقاة من مقابلة مع محلل سعودي. والمعلومات حول دعم السعودية باكستان بالنفط المخفضة أسعاره، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين سعوديين. والمعلومات حول تفضيل الاستخبارات السعودية التعامل المباشر مع الاستخبارات الباكستانية، مستقاة من مقابلة مع باديب في 1 شباط/فبراير 2002.**

**(516) «تقارير عن الوضع» وتطوّر العلاقة، مستقاة من مقابلة مع مسؤول سعودي بارز.**

**(517) قال الأمير تركي علناً إنّ طالبان «لم تتسلم منذ تأسيسها أي درهم نقديّ من المملكة»، فقد تسلمت مساعدات إنسانية فحسب. ولم يتمّ نشر أي سجل من سجلات المملكة، لذا يستحيل التأكد من الأمر، لكن كان من المستبعد أن تصمد ادعاءات تركي أمام التدقيقات، حتى ولو فسرّت بطريقة محدودة. وكتب نواف عبيد، وهو محلّل في الاستخبارات السعودية، رسالة ماجستير العام 1998 بعنوان «تحسين تحاليل الاستخبارات الأميركية حول عملية اتخاذ القرارات في السعودية»، قال فيها إنّ معظم المساعدات التي قدمتها السعودية إلى طالبان تمّ تمريرها عبر المؤسسة الدينية الرسمية في المملكة. ويقتبس عبيد من «مسؤول بارز في وزارة الإرشاد الإسلامي» قال إنه بعد هزيمة الانسحاب السوفياتي في أفغانستان، قام القادة الدينيون في المملكة «بالتركيز على تمويل طالبان وتشجيعها». واقتبست منظمة مراقبة حقوق الإنسان من صحافيين رأوا طائرات شحن سعودية من نوع هيركليس سي 130 مطلية بالأبيض في مطار قندهار في العام 1996 تسلمّ ذخائر أسلحة مدفعية وأسلحة صغيرة إلى جنود طالبان. ونشرت تقارير لاحقة بشأن علاقات تمويل الأسلحة الثقيلة بين طالبان والتجار الذين يعملون من داخل الإمارات العربية المتحدة. واستنتجت منظمة مراقبة حقوق الإنسان أن شرطة طالبان الدينية كانت «ممولة بشكل مباشر من قبل السعودية. وهذا التمويل السخي نسبيّاً... مكّنها من أن تصبح الميليشيا الأقوى داخل الإمارة الإسلامية».**

(518) مقابلة مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس 2002 في كانكون في المكسيك. قال تركي أيضاً «نتّبع منذ بدء الحرب الأهلية في أفغانستان سياسة تقضي بوقف دعم أيّ فريق أفغانيّ تابع للحكومة، من الناحية المادية أو غيرها، لكنّ المساعدات الإنسانية [التي تقدّمها السعودية] ستستمرّ. وقد انتقلت المساعدات الإنسانية إلى أفغانستان بشكل أساسي عبر هذه [المنظمات] الخيرية... لكن الآن لا أستطيع أن أنفي أن بعض الأشخاص قدموا الأموال إلى طالبان. أنا متأكد أنّ هذا الأمر قد حدث. لكن لم تفعل المؤسسات بنفسها ذلك».

(519) مراجعة الملاحظة الرقم 43.

(520) مقابلات مع مسؤولين سعوديين بارزين.

(521) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. جميع الاقتباسات مستقاة من برقيات كتبتها وزارة الخارجية بين 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1994 و 20 شباط/فبراير 1995، وقد أزيلت سريتها، ونُشرت من قبل أرشيف الأمن القومي.

(522) مقابلة مع بوتو في 5 أيار/مايو 2002. الاقتباسات من اجتماع تالبوت مستقاة من برقية وزارة الخارجية في 21 شباط/ فبراير 1996، وقد أزيلت سريتها وتم نشرها من قبل أرشيف الأمن القومي. وتعليقات بوتو لويلسون وبراون مستقاة من برقية كتبتها وزارة الخارجية في 14 نيسان/أبريل 1996.

(523) مقابلة مع السناتور السابق هانك براون عبر الهاتف في 5 شباط/فبراير 2003. كان براون أحد السياسيين المنتخبين القليلين في واشنطن الذين أبدوا اهتماماً بالقضية الأفغانية في تلك الفترة. ويذكر براون أنه قال: «أشعر بغصة في حلقي كلما أفكر في الأمر، لكن أفغانستان بحقّ هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير في الحرب الباردة»، «ففي حال كنا نَدين لأي شعب في العالم، فسيكون للشعب الأفغاني. والتخلي عنه يُعتبر بالنسبة إلينا عملاً إجرامياً. من بذل جهداً أكثر من الأفغان لمساعدتنا؟ هذا أمر مخز بحقّ بالنسبة إلينا».

(524) إن المعلومات المتعلقة بخلفية ميلر ووجهة نظره وعلاقته بصفقة خط أنابيب تركمانستان - أفغانستان - باكستان، مأخوذة من مقابلة أجراها الكاتب مع ميلر في أيلول/سبتمبر 2002 في هيوستن - تكساس.

(525) في أونوكال 1994 10 - كاي، شرحت الشركة أسباب خسارتها، بالقول إن مدخول العائدات من عمليات العام 1994 يعكس زيادة في إنتاج الغاز الطبيعي، وزيادة في إنتاج النفط الخام الأجنبي، وارتفاع المداخيل من المنتجات الزراعية، وانخفاضاً في إنتاج النفط المحلي وعمليات الغاز وانخفاض التكاليف. لكن هذه العوامل الإيجابية، لم تتمكن من تعويض انخفاض النفط الخام وأسعار الغاز الطبيعي والاحتياطي المنخفض في شركة «ويست كوست» للتكرير والتسويق. وبعد مرور عامين، سنة 1996، باعت الشركة عمليات التكرير والتسويق لتركز حصرياً على التنقيب الدولي والتطوير.

(526) حمل تقرير الشركة السنوي للعام 1996 عنوان «عالم جديد، أونوكال جديدة»، وتضمن شرحاً مفصلاً للتحول الكبير في استراتيجية عمل الشركة.

(527) لنقاش مفصّل حول احتياطي الطاقة في منطقة بحر قزوين والمعضلة التي واجهتها تركمانستان بشكل خاص، راجع: «طالبان: المقاومون الإسلاميون والنفط والأصولية في آسيا الوسطى»، ص. 143 - 56 لأحمد رشيد.

(528) المصدر نفسه، ص. 168

(529) المقابلة مع ميلر في 23 أيلول/سبتمبر 2002

(530) إن المعلومات حول بناء برج المراقبة على الجهة الخطأ، مأخوذة من ستيف لوفين، «واشنطن بوست»، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1994. ونقل لوفين عن دبلوماسي أجنبي قوله: «لقد حذرهم البناؤون، لكن التركمان قالوا إنه يبدو أجمل من هذه الزاوية». وتتضمن أيضاً رسومات نيازوف الملونة من الاتحاد السوفياتي السابق أليساندرا ستانلي، «نيويورك تايمز»، 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995؛ دانييل شنايدر، مراقب العلم المسيحي، The Christian Science Monitor، 25 آذار/مارس 1996؛ وروبرت جي. كايسر، «واشنطن بوست»، 8 تموز/يوليو 2002.

(531) إن الأرقام المتعلقة بحجم التبادل التجاري بين الولايات المتحدة وجمهوريات آسيا الوسطى، مأخوذة من شهادة جيمس جي. كولينز، المنسق الأعلى لوزارة الخارجية الأميركية للدول المستقلة حديثاً، أمام لجنة العلاقات الدولية في 14 تشرين الثاني/نوفمبر.

(532) «دعم الاستقلال...»، هذا هو نص شهادة شيلا هاسلن، عضو مجلس الأمن القومي السابقة، قبل لجنة الشؤون الحكومية، في 17 أيلول/سبتمبر 1997. إن مساعدة السفير الأميركي وآخرين من الحكومة لأونوكال، مأخوذة من المقابلة مع ميلر في 23 أيلول/سبتمبر 2002 ومع مسؤولين في الحكومة الأميركية. للاطلاع على استراتيجية الولايات المتحدة بالنسبة إلى الطاقة، راجع مقال دان مورغن وديفيد أوتوواي في «الواشنطن بوست»، تاريخ 22 أيلول/سبتمبر 1997.

(533) مقابلة مع مسؤول سعودي رفيع المستوى.

(534) مقابلة أجراها الكاتب مع بنازير بوتو في أيار/مايو 2005 في دبي، الإمارات العربية المتحدة. ولم تقل بوتو سوى أن بولغاروني صاحب شركة بريداس زارها «من خلال وساطة أحد الزعماء العرب المسلمين». وفي مقابلة ثانية قال تركي إنه هو من عرّف بولغاروني إلى القيادات الباكستانية.

‘Platt’ s OilgramNews’(535)

عدد 23 تشرين الأول/أكتوبر 1995.

(536) مقال لدان مورغان وديفيد أوتاوا في «الدايلي بوست»، 5 تشرين الأول/أكتوبر 1998. ذكر كيسينجر مقولة د. صامويل جونسون في «رجل تزوج لمرة ثانية بعد خروجه مباشرة من تجربة زواج فاشلة».

**(537) روبرت بير، راجع No evil''، ص.6 و244.**

**(538) إن آراء رافيل المتعلقة بخطوط الأنابيب ونشاطاتها الداعمة لإنشائها، مأخوذة من مقابلات مع مسؤول رفيع المستوى من إدارة كلينتون. قال المسؤول: «إننا على علم بأن الدفاع عن المصالح التجارية جزء من مسؤولياتنا. وهذا ما دفعنا إلى ذلك، وقد اخترنا أونوكال لأنها الشركة الأميركية الوحيدة».**

**(539) إن معلومات سايمونز، ومنصبه كسفير، ووجهة نظره بالنسبة إلى خطوط الأنابيب، مصدرها مقابلة أجراها الكاتب مع توم سايمونز في 19 آب/أغسطس من العام 2002، في واشنطن العاصمة.**

**(540) المصدر نفسه. بعد مرور أكثر من خمس سنين على الحادثة، كانت بوتو تتكلم بسخط على الذين حاولوا تشويه اسم زوجها لدفعها إلى تغيير مواقفها: «بدأوا يقولون إن زوجي مهتم (ببريداس)، لذلك لن ألغي (مذكرة التفاهم مع بريداس) التي دفعتني حقاً إلى الاستياء، لأنني شعرت بأنهم يريدون النيل مني عن طريق زوجي لأنني امرأة فحسب. لكن في الحقيقة، لا يتعلق الأمر بزوجي، بل بزعيم عربي، وبالبلد الذي يمثله. وفي الواقع بريداس تقدّمت أولاً، ويريدوننا أن نلغي العقد...».**

**(541) مقابلة مع مسؤول في الحكومة الباكستانية.**

**(542) مقابلات مع بوتو في 5 أيار/مايو 2002، ومع سايمونز في 19 آب/أغسطس 2002. وعلى الرغم من طبيعة اللقاءات المثيرة للخلافات، قدّمت بوتو وسايمونز المعلومات نفسها من دون أن يحاول أي منهما أن يُخفي حقيقة اللقاء الفاشل. لقد وصفه سايمونز بالاجتماع «الكارثي»، بينما وصفته بوتو بأنه «نقطة خاسرة في تاريخ علاقاتنا مع الولايات المتحدة».**

**(543) يعتمد سرد الحوادث المتعلقة ببعثة أونوكال - دلتا إلى أفغانستان على مقابلات الكاتب مع ميلر في 23 أيلول/سبتمبر 2002 ومقابلاته مع ممثل دلتا الأميركي، تشارلي سانتوس، في نيويورك 19 و 23 آب/أغسطس 2002، ومرة ثانية في 22 شباط/فبراير 2003.**

**(544) تم إعطاء الكاتب نسخة عن اتفاقية دعم أونوكال. تتضمن الاتفاقية تحذيراً من أن «الشرط لتنفيذ مشروع الأنابيب هو إنشاء كيان واحد مستقل يمثّل الأفرقاء الأفغان كافة». وتم عمداً استعمال «كيان» بدلاً من «حكومة» لإعطاء أونوكال فرصة للتلاعب بالقانون.**

**(545) في حزيران/يونيو، عاد سانتوس إلى قندهار من دون ميلر، وبقي فيها مدة أسبوع لمحاولة إقناع طالبان بتوقيع الاتفاق مرة ثانية. وأخيراً، تندفع سانتوس في إحدى جولات المفاوضات مع طالبان: «نحن هنا منذ 10 أيام وأنتم لا تزالون تقولون لنا أن ننتظر ليوم آخر. انتظروا ليوم آخر. أنا مغادر! هذه مهزلة! انسوا أمر هذا المشروع!»، ثم خرج واستقل سيارته مبتعداً. وأثناء ذلك، رأى عبر مرآة السيارة عنصراً من طالبان يناديه، ويطلب إليه البقاء. بعد ساعات عديدة على المفاوضات، وافق الطالبان أخيراً على توقيع تصريح من جملتين يفيد بأنهم يدعمون فكرة خطوط الأنابيب، ولا شيء غير ذلك.**

(546) مقابلة مع مارتي ميلر في 23 أيلول/سبتمبر 2002 في هيوستن، تكساس.

(547) مقابلة مع توم سايمونز في 19 آب/أغسطس 2002 في واشنطن العاصمة.

(548) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين كانوا مطلعين على العلاقات بين «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الباكستانية خلال هذه الفترة. أما خلفية رنا المهنية فهي من صحافي باكستاني، هوكامران خان. أما وجهة نظر رنا فمأخوذة من المقابلات مع مسؤولين أميركيين، ومن مقابلة مع سلفه. جافيد أشرف في 10 أيار/مايو 2002 في راولبندي، باكستان. يُذكر أن موجة من الاستهجان شُنت على الاستخبارات الباكستانية بسبب المداهمة في كيتا للبحث عن قاسي التي ارتكزت على معلومات غير صحيحة.

(549) من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(550) «من جذورها» مأخوذة من الـ «نيويورك تايمز» 27 نيسان/أبريل 1995. أما وصف الألماني فمأخوذ من مصارد إعلامية مختلفة ومقابلات مع زملائه في البيت الأبيض وتم إدخال تشريع «موينيهان» على «السي.آي.إيه.» في كانون الثاني/يناير 1995: «لوس أنجليس تايمز»، 8 تشرين الأول/أكتوبر 1995.

(551) «رجل تقني» منقولة عن مجلة الـ «نيويورك تايمز» 10 كانون الأول/ديسمبر 1995. وعبارة «بحسب علمي» من جلسة تنصيبه، نُشرت في الـ «نيويورك تايمز» في 27 نيسان/أبريل 1995.

(552) حصلنا على 12 قضية تدريب ضباط و 800 ضابط حول العالم من بوب وودهارد، «ذي واشنطن بوست»، 17 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، وتأكدنا منها خلال مقابلات مع مسؤولين أميركيين. أما المعلومات حول التراجع بنسبة 25 في المئة من أيام الذروة خلال الحرب الباردة، فحصلنا عليها من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. راجع أيضاً شهادة جورج تينيت قبل لجنة الاستقصاء المشتركة في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. أما «فريق الحوض الساخن في كاليفورنيا»، فمن مقابلة مع ضابط إدارة العمليات الذي تقاعد في خلال هذه المدة.

(553) مقابلة مع فريتز إرماث في 7 كانون الثاني/يناير 2002 في واشنطن العاصمة.

(554) وصف محلل في الشؤون الإرهابية في البيت الأبيض، اهتمام الرئيس كلينتون بالإرهاب البيولوجي. وسياسة الإرهاب خلال النصف الأول من العام 1995 مأخوذة من مقابلات سابقة مع المسؤولين السابقين في إدارة كلينتون.

(555) «سياسة الولايات المتحدة لمكافحة الإرهاب»، حزيران/يونيو.

(556) إن الرمز «أ.ب.ل» دلالة على الأهمية، ومأخوذ من مقابلة مع أنطوني لايك في 5 أيار/مايو 2003 في واشنطن

**العاصمة. أما إطلاق اسم «مركز قضية بن لادن» على وحدة بن لادن، فمأخوذ من شهادة جورج تينيت أمام لجنة الاستقصاء المشتركة في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. أما بدء العمل في وحدة بن لادن باثني عشر عميلاً، فمأخوذ من التقرير النهائي للّجنة الوطنية. وعن كونها «محطة وهمية» ومثالاً للإدارة، فمأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركين. والمعلومات حول أن وكالة الأمن القومية راحت تتجسس على خطوط الهاتف عبر الأقمار الإصطناعية خلال تلك الفترة، مصدرها جايمس بامفورد، «الواشنطن بوست»، 2 أيار/يونيو 2002. وتم إنشاء مركز بن لادن بسرية تامة وفقاً لتعليمات البيت الأبيض التي حدّدت نطاق مهماته. وليس واضحاً إذا ما كان القانون يسمح بالتجسس على شبكة بن لادن. لكن أقله، أعطى الرئيس كلينتون بعض الصلاحيات الي تتعدّى جمع المعلومات العادية في تلك المرحلة، لكن لا نعرف إطار هذه الصلاحيات بالتحديد.**

**(557) «أحد أهم الممولين»، مأخوذة من تقييم «السي.آي.إيه.» حول «أسامة بن لادن: ممول الإسلاميين المتطرفين» الذي نُشر عام 1996. أما أقوال كلارك فمأخوذة من شهادته الخطية إلى اللجنة الوطنية، 24 آذار/مارس 2004. راجع أيضاً: تقرير فريق اللجنة الوطنية الرقم 7، ص. 4. «لنستأصل شبكة بن لادن هذه»، من مقابلة الكاتب مع مسؤول سابق في إدارة كلينتون.**

**(558) إن المحادثات الأميركية الداخلية المتعلقة بإخراج بن لادن من السودان ترتكز على مقابلات مع ثمانية مسؤولين أميركيين على علاقة مباشرة بالموضوع، وكذلك مع مسؤولين سعوديين وسودانيين. ومن بين الذين وافقوا على إجراء مقابلة مسجّلة، سفير الولايات المتحدة سابقاً إلى السودان، تيموثي كارنر، في 31 تموز/يوليو 2002 في واشنطن العاصمة. وقدّم كارني الترتيب الزمني لعملية اتخاذ القرارات والبرقيات إلى واشنطن في لجنة عمل الطوارئ. أما بنجامين وسايمونز المدافعان بقوة عن اتخاذ القرارات في البيت الأبيض خلال تلك الفترة، فقدما إفادة مفصلة في Age of Scared Terror ص. 244 - 45. «قال إنه... لا يريد قتله أيضاً»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول سابق في إدارة كلينتون. بدأت المؤامرة ضد لايك مع «حزب الله» وليس مع بن لادن وفقاً لمسؤولين سابقين. وفي مرحلة من المراحل، بدت المؤامرة خطيرة، إلى درجة أنه انتقل من منزله في الضواحي وكلّف مراقبين البحث عمن يريدون اغتياله. وتتطلب هذه الجهود الأمنية أن يسمح لهم لايك بالاستماع إلى أشرطة التسجيل الهاتفية كافة. في العام 1970، كانت الـ «أف.بي.آي.» تتجسس على أشرطة تسجيل لايك بأمر من إدارة نيكسون بعد أن استقال من منصبه مساعداً خاصاً لهنري كيسينجر، ثم راح يعمل مع المرشح الرئاسي الديموقراطي إدموند موسكي. وفي العام 1995، جلس لايك خلف مكتب كيسينجر القديم في مبنى المكتب التنفيذي القديم، وهو يوقع أوراق الموافقة على التجسس على خطوطه الهاتفية الخاصة. نظر إلى العملاء الفدراليين، وفقاً لشهادة أحدهم، وقال: «أتعلمون، هذه مهزلة». فأجابه العميل الفدرالي بلا مبالاة: «نعلم ذلك سيدي».**

**(559) مقابلة مع كارني، في 31 تموز/يوليو 2002.**

**(560) المصدر نفسه.**

**(561) مقابلة مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون على اطلاع على المحادثات.**

**(562) «السفارة هي الأداة»، من مقابلة مع كارني في 31 تموز/يوليو 2002**

**(563) موعد العشاء في 6 شباط/فبراير 1996، مصدره من بارتون غيلمان، «واشنطن بوست»، 3 تشرين الأول/أكتوبر 2001. ونشر كارني موجزاً بالتعاون مع منصور إجاز، في «واشنطن بوست»، 30 حزيران/يونيو 2002.**

**(564) غيلمان، «واشنطن بوست»، 3 تشرين الأول/أكتوبر 2001؛ وكارني، «واشنطن بوست»، 30 حزيران/يونيو 2002؛ وأيضاً بنجامين وسايمونز Age of Sacred Terror ص. 246 - 47. تم نشر الملف الأصلي في «الواشنطن بوست» في تشرين**

الأول/أكتوبر 2001. وأكّد المسؤولون في إدارة كلينتون شرعيته خلال المقابلات، واصفين أن محتويات الملف هي من مجموعة اجتماعات لمجلس الأمن القومي.

(565) «تايم»، 6 أيار/مايو 1996.

(566) «أخبرنا الأميركيين» من مقابلة مع مسؤول سوداني. و «دليل موثوق به» من اللجنة الوطنية، بيان فريق العمل، الرقم 5، ص. 3.

(567) مقابلة مع مسؤولين أميركيين مطلعين. مراجعة بيان اللجنة الوطنية الرقم 5، ص. 4.

(568) المصدر نفسه.

(569) الاتصال بمصر والأردن من مقابلة مع مسؤول أميركي. «دفعه إلى متابعة تحركاته» مأخوذة من مقابلة مع لايك في 5 أيار/مايو 2003. «كانوا خائفين... لم يفعل أي شيء ضدنا»، من خطاب كلينتون في تشرين الأول/أكتوبر 2001، أمام جمعية مدراء واشنطن The Washington Society of Association executives، صدرت في USA Today في كانكون، مكسيكو.

(570) مقابلة مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس 2002، كانكون، مكسيكو SC().

(571) «لم يذكروا قط... إرساله بعيداً» من Hunting Bin Laden، «فرونتلاين»، 21 آذار/مارس 2000. أقوال المسؤولين السودانيين مأخوذة من مقابلة مع الكاتب.

(572) ملخّص «الـبي.بي.سي.» من أخبار حول العالم، ومقتطفات من «الشرق الأوسط»، 18 حزيران/يونيو 1996. ترجمة الـ «بي.بي.سي.»

(573) مقابلة باديب على «أوربيت» في بداية العام 2002. قام باديب بإرسال الشريط الأصلي باللغة العربية إلى الكاتب. مراجعة الملاحظات في الفصل الرابع.

(574) مقابلات مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون. بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 463 - 64. في حزيران /يونيو 1996، قام كارني بزيارة الألماني وتينيت في مقرّ «السي.آي.إيه.» لمناقشة إعادة افتتاح السفارة في الخرطوم. كان كارني في ذلك الوقت مقيماً في نيروبي، عاصمة كينيا، ويسافر إلى العاصمة السودانية بين الفترة والأخرى. ووفقاً لكارني، كان الألماني وتينيت مستعدين لدعم إعادة افتتاح السفارة. قال كارني: «لقد آن الأوان لتعود الولايات المتحدة، ويجب أن نباشر بذلك الآن». قال كارني إنه «لا يستطيع أن يتصور أن تجازف الإدارة خلال هذه السنة الانتخابية، بأن تصبح السودان موضوعاً انتخابياً» من خلال المخاطرة بإعادة فتح السفارة. وأضاف كارني: «لننتظر إلى ما بعد الانتخابات». لكن أجابه تينيت: «لا يجب أن نفتحها الآن»، غير أن السفارة بقيت مقفلة.

(575) مقابلة مع مسؤول سوداني.

(576) «السودان ليست مكاناً جيداً» من Hunting Bin Laden، «فرونتلاين» Frontline، 21 آذار/مارس 2000. المعلومات من المسؤولين السودانيين مصدرها مقابلات أجراها الكاتب. وتتوافق هذه المعلومات مع معلومات عديدة أخرى تم نشرها، وتشمل وصفاً في جلال آباد حيث حطّت الطائرات.

(577) مقابلة باديب على «أوربيت»، في بداية العام 2002. أكّد باديب معلومات تركي حول توقف الطائرة خلال مقابلة مع الكاتب في 2 آب/أغسطس 2002. وأدان تركي قرار دولة قطر حول قصة الإمارات العربية المتحدة المتعلقة بإزعاج جارتها الكبيرة، المملكة العربية السعودية. للحصول على النتائج التي توصل إليها المحققون الأميركيون، يرجى مراجعة بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم5 ص. 4 والتقرير النهائي ص. 63.

(578) مقابلات مع مسؤولين أميركيين مطلعين.

(579) روبيرت فيسك، The Independent، 10 تموز/يوليو 1996

(580) إن المعلومات حول فشل محاولة القبض على خليل الشيخ محمد، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مراجعة التقرير النهائي للجنة الاستجواب المشتركة ص. 310 - 13، وبيان اللجنة الوطنية الرقم 5 ص. 2 - 3. حول كيفية إلحاق محمد بمركز مكافحة الإرهاب، مراجعة تقرير اللجنة النهائي ص. 276. نشر جايمس ريزين ودايفيد جونستون تقريراً مميزاً في «نيويورك تايمز»، في 8 آذار/مارس 2003. والمقتطفات من رسالة فريه، منقولة عنهم.

(581) كاتي غانون، «أسوشييتد برس» 11 تموز/يوليو 1996. أفادت الحكومة السودانية رسمياً الأمم المتحدة في 3 تموز/يوليو 1996، بأن بن لادن غادر البلاد إلى أفغانستان. وذكرت التقارير الصحافية الأصلية في باكستان أن الاستخبارات الباكستانية وقادة الأحزاب السياسية يقولون إن حلفاء بن لادن السابقين أيام الجهاد ضد الاتحاد السوفياتي وقلب الدين حكمتيار والحزب السياسي الإسلامي سهّلوا وصوله إلى أفغانستان.

(582) مقابلة مع كنيث كاتزمان، محلل في مجمّع الأبحاث في شؤون الإرهاب، 27 آب/أغسطس 2002، واشنطن العاصمة.

(583) الصحافة الدولية المشتركة United Press International، 7 حزيران/يونيو 1996

(584) أحمد رشيد، طالبان: Militant Islam, OIL, and Fundamentalism in Central Asia، ص. 41 - 42؛ بارنيت ر. روبن، The Fragmentation of Afghanistan، ص. 15؛ ميشيل غريفين Reaping the Whirlwind، ص. 65.

(585) مقتطفات من اجتماعات رافيل وبرقيات سايمونز من «رافيل تحاور أفغانستان»، برقيات غير سرية، 22 نيسان/أبريل 1996، صدرت عن أرشيف مجلس الأمن القومي. وجهة نظر مسعود مأخوذة من مقابلات مع مساعديه.

**(586) «طريق للمخدرات» من شهادة روبن رافيل أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ حول شؤون الشرق الأدنى وجنوبي أفريقيا، 6 حزيران/يونيو 1996. «قلقة من عدم اهتمام» و «يعود بالفائدة»، من رشيد، طالبان، ص. 45 - 166. ملاحظات رافيل إلى نظيرها الروسي من برقية وزارة الدولة للشؤون الخارجية في 13 أيار/مايو 1996 أصبحت غير سرية، وصدرت عن أرشيف مجلس الأمن القومي.**

**(587) أمد الحياة منقولة عن بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 135. وأفغانستان تحتل المرتبة الـ 173، منقولة عن شهادة رافيل أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ، في 6 حزيران/يونيو 1996.**

**(588) مقابلة مع بنازير بوتو في 5 أيار/مايو 2002، دبي، الإمارات العربية المتحدة. واستمرار بوتو في الكذب طوال الوقت: خلال اجتماعات في إسلام آباد في ربيع العام 1996 مع أحد أهم داعميها أمام الكونغرس، السيناتر هانك براون، أنكرت بوتو ومساعدوها تقديم أي مساعدة إلى طالبان. وفي 26 حزيران/يونيو 1996، شهدت سفيرة باكستان إلى الولايات المتحدة، مليحة لودحي، في جلسة استماع أمام الكونغرس: «أؤكد أمامكم أن باكستان لم تقدّم أي سلاح أو ذخيرة إلى الفصائل».**

**(589) مقابلة مع سايمونز، في 19 آب/أغسطس 2002.**

**(590) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. أول من كتب عن المبالغ الضخمة التي يدفعها بن لادن إلى طالبان، هو ستيف لوفين في «نيوزويك»، في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1997. وصف محققو اللجنة الوطنية مشاكل بن لادن المالية خلال العام 1996 في بيان الهيئة الرقم 15، لكنهم لم يقدموا أي تقييم لدفعه مبالغ لطالبان. ونظراً إلى مخصصاته السنوية البالغة مليون دولار لأكثر من 10 سنين، فلن تؤثر 3 ملايين دولار في بن لادن حتى في أوقات الشدّة. لكن، لم تتضح المساهمات التي قام بها، أو مصدرها، إن وجدت.**

**(591) بيتر ل. بيرغين، Holy War «الحرب المقدّسة»، ص. 28؛ بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 134.**

**(592) مقتطفات مسعود والتفاصيل التكتيكية منقولة عن دايفيز، «كيف أصبحت طالبان قوة عسكرية» ‘How the Taliban Became a Military Force’ في: ويليام مالي Fundamentalism Reborn ص. 65-67. كتب أحمد رشيد في المجلد نفسه، ص. 87 المجلد، حول دور الاستخبارات الباكستانية خلال تلك الفترة: «لعبت الاستخبارات الباكستانية دوراً مهماً في السيطرة على جلال آباد وكابول، أولاً من خلال المساعدة على تدمير شورى جلال آباد وتقديم ملجأ لأعضائها في الباكستان، ومن ثم السماح لطالبان بتعزيز هجومها على كابول من خلال إمدادها بجنود من مخيمات للاجئين الأفغان على الحدود».**

**(593) المصدر نفسه.**

**(594) إن ترجمات نجيب الله وملاحظاته، مأخوذة من «الغارديان» theGuardian ، 12 تشرين الأول/أكتوبر 1996؛ ومن مقابلات مع مسؤولين في الأمم المتحدة قاموا بزيارة نجيب الله.**

**(595) غريفين، Reaping the Whirlwind ص. 3.**

(596) المصدر نفسه. ص. 7-6

(597) نانسي هاتش دوبري، ’Afghan Women Under the Taliban‘، في: مالي، نسخة، Fundamentalist Reborn ص. 156، تقرير الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

(598) جميع المقتطفات مأخوذة من Dealing with the Taliban in Kabul’’، برقية من وزارة الدولة للشؤون الخارجية في واشنطن إلى إسلام آباد وسفارات أخرى، تم إصدارها من قبل أرشيف مجلس الأمن القومي في 28 أيلول/سبتمبر 1996.

(599) ملاحظات سايمونز من Ambassadors Meet the Taliban’’، برقية وزارة الدولة للشؤون الخارجية في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1996، أصدرها أرشيف مجلس الأمن القومي. تحدث سايمونز عن الاجتماع في مقابلة - رسالة كريستوفر ورافيل - قرظاي حول «التزام الولايات المتحدة حول أسامة بن لادن»، مذكرة وزارة الخارجية أصدرها أرشيف مجلس الأمن القومي.

(600) رشيد، «طالبان»، ص. 178؛ وريشارد ماكينزي «الولايات المتحدة وطالبان» The United States and The Taliban في: مالي Fundamentalism Reborn ص. 91.

(601) تم وصف تفاصيل رحلة شروين إلى كابول ومحادثاته في المقدّمة.

(602) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(603) مقابلات مع مسؤولين في الاستخبارات الباكستانية والسعودية والأفغانية، مطلعين على برنامج صواريخ ستينغر.

(604) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(605) «الولايات المتحدة لا تدعم طالبان»، مأخوذة من وكالة الصحافة الفرنسية، 24 تشرين الأول/أكتوبر 1996. «غير مبرّرة» مأخوذة من دوبري، في ويليام مالي، Fundamentalist Reborn ص. 149

(606) تتخذ موقفاً محايداً مأخوذة من «نيويورك تايمز»، 23 تشرين الأول/أكتوبر 1996.

(607) الـ «واشنطن بوست»، 7 تشرين الأول/أوكتوبر 1996.

(608) المعلومات حول زيارة شروين إلى قندهار، مصدرها المقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(609) «سيحتفظان بها» مأخوذة من مقابلة مع غاري شروين في 7 أيار/مايو 2002، واشنطن العاصمة.

(610) بيتر بيرغن، «الحرب المقدسة Holy War، ص. 93؛ مايكل غريفن Reaping the Whirlwind ص. 137. المقتطفات منقولة عن فيرنون لوب، «واشنطن بوست»، 23 آب/أغسطس 1998.

(611) بيرغن، Holy War، ص. 1-23؛ لوب، «واشنطن بوست»، 23 آب/أغسطس 1998.

(612) مقتطفات الأمير تركي مأخوذة من Nightline 10، كانون الأول/ديسمبر 2001. وفي الفترة عينها، قال وزير الخارجية السعودي، الأمير سعود الفيصل، شقيق الأمير تركي، في مقابلة مع «الواشنطن بوست»، «سياسة مخطئة أو حادث، اختر ما يعجبك». «يبدو أن الاستقرار في أفغانستان أهم من وجود بن لادن... عندما استقبله الطالبان، أكّدوا أنه لن يسمحوا له بالقيام بأي نشاطات. ووعودنا لا رجوع عنها». في الفترة نفسها، كانت إدارة كلينتون في البيت الأبيض تجاهد للحصول على تعاون من الجانب السعودي في التحقيقات لإثبات تورط إيران في التفجيرات في حزيران/يونيو 1996، التي استهدفت أبراج الخُبَر شرقي المملكة العربية السعودية. غير أن السعوديين كانوا في خضم المحاولة للتقرب من الرئيس الإيراني المنتخب حديثاً، محمد خاتمي. لم يشأ السعوديون أن تحبط الولايات المتحدة هذه المحاولة من خلال الاستمرار في اتهام إيران بالتورط في التفجيرات، أو بإطلاق ضربات عسكرية انتقامية ضد إيران. وقام ساندي بيرغر بمقابلة الأمير بندر بن سلطان غير مرة في محاولة لكسب التعاون من الجانب السعودي، لكنه وصف المحادثات بـ «محاولة للتهرّب» السعودي.

(613) مقابلات مع تشارلي سانتوس في 19 و 23 آب/أغسطس 2002، نيويورك. ومن مقابلة مع مارتي ميلر في 23 أيلول/ سبتمبر 2002 في هيوستن، تكساس. ومقابلات مسؤولين أميركيين وأفغان وباكستانيين سافروا عبر قندهار في تلك الفترة.

(614) المصدر نفسه؛ وأيضاً مقابلات مع توماس غوتيار في 18 أيلول/سبتمبر 2002، أوماها، نيبراسكا. شغلت أونوكال مركزاً يديره غوتيار في جامعة نيبراسكا لتدريب الباشتون في قندهار ليكونوا عمالاً على خطوط أنابيب النفط، ليظهروا لطالبان الفوائد الاقتصادية المحتملة من الأنابيب.

(615) إن تهديد بن لادن باغتيال براون، مأخوذ من مقابلة مع السيناتور السابق هانك براون، في 5 شباط/فبراير، عبر الهاتف. قصد براون في آب/أغسطس 1996، قندهار في رحلة متعدّدة المحطات إلى أفغانستان، لإثارة الاهتمام بمحادثات السلام. في قندهار زار مسؤولين رفيعي المستوى من طالبان. وقامت طالبان بإلقاء القبض على عدة طيارين روس كانوا يهرّبون الأسلحة إلى حكومة مسعود. كان براون قبطاناً في البحرية في حرب الفيتنام، فقام بزيارة السجناء. قالوا له أن يسأل طالبان بالسماح لهم بإدارة محركات طائراتهم مرة في الشهر، لتبقى في حالة صالحة للطيران في حال تم إطلاق سراحهم يوماً. نقل براون طلبهم، وبعد أسابيع قليلة أخذ الطالبان مساجينهم للكشف على محركات طائراتهم فانطلقوا فيها بعيداً. كان الروس يستهينون بقوة حراسهم، ويضعون أملهم في طائراتهم، فانطلقوا بعيداً. ثار غضب الطالبان، وألقوا باللوم على براون لهذا الفشل الذريع. المعلومات حول عدم بدء الولايات المتحدة بالتخطيط بجدية لعمليات سرية لاختطاف بن لادن أو قتله، حتى أواخر العام 2007، مأخوذة من مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. من وجهة نظر البيت الأبيض، اعترف دانييل بنجامين وستيفن سايمونز في The Age of Sacred Terror بوجود إحساس بسيط بخطر بن لادن بين المخططين لمكافحة الإرهاب حتى كانون الأول/ديسمبر 1997. وإحساسهم كان يقول إن بن لادن مجرّد مموّل للمتطرفين الإسلاميين، وليس إرهابياً خطيراً.

(616) أحمد رشيد، «طالبان»: and Fundamentalism in Central Asia ,Militant Islam Oil ص. 201 - 2.

**(617) المصدر نفسه. ص 54. مقتطفات من مقابلة عمر مع رحيم الله يوسفزاي في الصحيفة التي تصدر باللغتين الباكستانية والإنكليزية: The News.**

**(618) «رويترز»، 10 نيسان/أبريل 1997.**

**(619) «شعر مسعود بالخيانة»، مأخوذة من هارون أمين، 9 أيلول/سبتمبر 2002، واشنطن العاصمة.**

**(620) «لم يفكّر يوماً» مأخوذة من مقابلة مع أحمد شاه مسعود في 7 أيار/مايو 2002، كابول، أفغانستان.**

**(621) يقول مسؤول أميركي قام بزيارة مسعود، إن الأخير يثق بالمهندس عريف، مساعده الاستخباري، الذي أرسله لبيع أحجار كريمة في لاس فيغاس في مرحلة ما. «يوماً بعد يوم» من مقابلة مع محمد نعيم في 27 أيار/مايو 2002، كابول، أفغانستان.**

**(622) «مستح» من مقابلة مع داوود مير في 31 تموز/يوليو و 8 آب/أغسطس 2002، واشنطن العاصمة. «يمكنه التوصل إلى تفاهم»، من مقابلة للكاتب مع محيي الدين مهدي في 27 أيار/مايو 2002، في كابول، أفغانستان. المقتطفات من تقارير وزارة الخارجية حول المساعدات الباكستانية إلى طالبان، مأخوذة من البرقيات التي تم إعلانها من قبل أرشيف مجلس الأمن القومي.**

**(623) مقابلة مع مساعد لمسعود رفيع المستوى في الاستخبارات.**

**(624) المعلومات حول هذه الرحلة، مصدرها مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومع مساعدي مسعود.**

**(625) المقتطفات من المصدر نفسه. في سرد لتاريخ العلاقات السرية مع مسعود خلال أواخر التسعينيات، كان المسؤولون الأميركيون يحاولون التركيز على دور مكافحة الإرهاب في الاجتماعات السابقة أكثر من مسعود ومساعديه. قال عبد الله، مستشار الشؤون الخارجية لمسعود في مقابلة، إنه في العام 1997 «لم تبدأ المفاوضات حول الإرهاب بعد». بينما كانت تدور محادثات عامة مع «السي.آي.إيه.» حول بن لادن: «لقد بدأت المسألة مع هذا الموضوع الضيق، صواريخ الستينغر، لكن سنتطور تدريجاً». وفي المقابل، اعتبر الأميركيون أن برنامج استرداد صواريخ الستينغر، طريقة لزيادة مدخول مسعود، وتعزيز قدراته العسكرية، وتطوير الثقة والاتصال المستمر للإفادة من المعلومات الاستخبارية عن بن لادن.**

**(626) مقابلة مع نيم في 27 أيار/مايو 2002 ومع مساعدين آخرين لمسعود، بالإضافة إلى ضباط في الاستخبارات رفيعي المستوى.**

**(627) مقتطفات رشيد مأخوذة من «باكستان وطالبان» في: مالي، Fundamentalism Reborn ص. 88. ويتابع رشيد قائلاً: «تتسم استراتيجية باكستان تجاه طالبان، بكونها انجرافاً أكثر من كونها تصميماً. كانت سياسة إسلام أباد تتسم بالفساد وعدم**

**الفعالية، لكونها تتركز على مساعدة الباشتون في أفغانستان».**

**(628) مقابلة مع مشاهد حسين في 21 أيار/مايو 2002، إسلام أباد، باكستان.**

**(629) «طلبوا إلينا الاعتراف» و «لا يملكون أدنى فكرة حول إدارة البلاد»، مأخوذتان من مقابلة باديب على «أوربيت»، في بداية العام 2002، ترجمها The Language Doctors’’، واشنطن العاصمة. «إنهم أناس متدينون» مأخوذة من مقابلات الكاتب مع باديب في 1 شباط/فبراير 2002، جدّة، المملكة العربية السعودية. «لملء الفراغ» من مقابلات باديب على «أوربيت».**

**(630) مقابلة مع يار محبّة في 20 أيلول/سبتمبر 2002، سانت لويس، ميسوري.**

**(631) المصدر نفسه.**

**(632) المصدر نفسه. ومقابلة مع مساعد في الكونغرس قام بجولة في السفارة خلال تلك الفترة.**

**(633) المصدر نفسه. ومقابلات مع مسؤولين في وزارة الخارجية. يقول ريك إندرفيرث، المساعد الجديد لوزير الخارجية في جنوبي آسيا، إنه فرح بقدرة وزارة الخارجية على منع طالبان من السيطرة على السفارة التي قد تزيد نفوذهم. فالطريقة الوحيدة لكبح نفوذهم كانت برأيه، إقفال السفارة كلها.**

**(634) إن عدد الأرامل المقدّر بـ 500 ألف امرأة، مأخوذ من إحصاء قام به الصليب الأحمر الدولي في كانون الثاني/يناير 1997، ونشر في Afghan Women under the Taliban لنانسي هاتش دوبري، في مالي Fundamentalist Reborn ص. 155 أرقام طلبات المساعدة في الأمم المتحدة من رشيد، «الطالبان»، ص. 108.**

**(635) برقية تومسون: «التسوية الأفغانية: تحليلات وملاحظات سياسية»، حزيران/يونيو 1997، نُشرت للعلن في 4 نيسان/ أبريل 2000، ملفات الكاتب.**

**(636) «الرجل المناسب للعمل ضمن فريق» من «نيويورك تايمز»، 20 آذار/مارس 1997.**

**(637) «ملاحظات مدير الاستخبارات المركزية جورج تينيت حول المسار الاستراتيجي»، نشرها مكتب «السي.آي.إيه.» للعلن في 5 أيار/مايو 1998.**

**(638) تاريخ العائلة منقول عن خطابين لجورج تينيت، ‘Acceptance of the Ellis Island Medal of Honor Forum Club Lunch’ 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1997، و «ملاحظات جورج تينيت في مراسم التعيين من قبل نائب الرئيس غور»، في 31 تموز/يوليو 1997، مكتب «السي.آي.إيه.» للشؤون الخارجية.**

(639) «لا يسكت أبداً» من «نيويورك ديلي نيوز» في 21 آذار/مارس 1997. «إلى محرّر الافتتاحية» من «نيوزداي». 21 آذار/مارس 1997.

(640) «صديق وفي» من مقابلة مع كليف شانون، مساعد هاينز السابق، في 8 آذار/مارس 2002 عبر الهاتف. «الشخص الوحيد... عمله الجاد»، من مقابلة مع بيل رايخ، مساعد هاينز السابق في 5 آذار/مارس 2002 عبر الهاتف.

(641) مقابلة مع غاري سوشكا في 8 آب/أغسطس 2002، واشنطن العاصمة.

(642) مقتطفات رودمان من The News Hour with Jim Lebrer'' «ساعة مع جيم ليبرير» في 19 آذار/مارس 1997. مقتطفات نيوسوم مأخوذة من مقابلة مع إريك نيوسوم في 8 آذار/مارس 2002، واشنطن العاصمة.

(643) مقابلة مع السيناتور السابق دايفيد بورين في 16 أيلول/سبتمبر 2002، نورمان، أوكلاهوما.

(644) المصدر نفسه. مقابلة مع كلير جورج في 12 كانون الأول/ديسمبر 2001، شيفي شايس، ماريلاند. مقابلة مع توماس تويتين، 18 آذار/مارس 2002 واشنطن، العاصمة.

(645) مقابلة مع جون ديسبريس، 28 شباط/فبراير 2002، عبر الهاتف.

(646) مقابلات مع أعضاء لجنة السيناتورات حول الاستخبارات Committee on Intelligence.

(647) مقابلة مع نيوسوم في، 8 آذار/مارس 2002.

(648) «عبقرية الوكالة الغريبة» من 'Acceptance of Ellis Island Medal' 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1997. «يقف هنا اليوم» من «من ملاحظات جورج تينيت خلال مراسيم أداء القسم»، في 31 تموز/يوليو 1997

(649) «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»»، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1997، مكتب «السي.آي.إيه.» للشؤون العامة.

(650) «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»»، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1997. «جورج تينيت في مسار الاستراتيجية» George Tenet on Strategic Direction''، 5 أيار/مايو 1998.

(651) «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»؟»، 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1997

**(652) «جورج تينيت في مسار الاستراتيجية» ‘George Tenet on Strategic Direction’ 5 أيار/مايو 1998.**

**(653) «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»؟» 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1997. «جورج تينيت في مسار الاستراتيجية» ‘’George Tenet on Strategic Direction 5 أيار/مايو 1998. «عدم اعتبارها الملجأ الأخير» من لجنة السيناتورات حول الاستخبارات، «جلسة استماع تعيين جورج تينيت مديراً للاستخبارات المركزية»، 6 أيار/مايو 1997.**

**(654) تمتدّ شخصيته هذه إلى إيمانه الديني أيضاً. ينتمي تينيت وعائلته إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية. كما كان يحضر القداس في الكنيسة الكاثولكية مع أعزّ أصدقائه، جاك ديدجيوا، وهو مفكر ورجل أكاديمي، أصبح رئيس جامعة جورج تاون، ومراقب شهادة الماستر لتينيت. كان يستطيع التنقل من دون أي إزعاج بين الاثنين، برأي ديدجيوا. مقابلة مع جاك ديدجيوا في 26 آذار/مارس 2002، واشنطن العاصمة.**

**(655) لجنة السيناتورات حول الاستخبارات، «جلسة استماع تعيين جورج تينيت»، 6 أيار/مايو 1997. ولجنة السيناتورات حول الاستخبارات، جلسة الاستماع حول «تقييم التهديد الدولي». 28 كانون الثاني/يناير 1998. إن إرشادات كلينتون لمجتمع الاستخبارات حول الأولويات، كانت قراراً رئاسياً سرياً ومأخوذاً من مقابلات الكاتب مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون. مقتطفات كلينتون حول تلك الأوليات مأخوذة من «ملاحظات الرئيس إلى فريق عمل «السي.آي.إيه.» وأجهزة الاستخبارات»، 14 تموز/يوليو 1995، البيت الأبيض، مكتب الشؤون الصحافية.**

**(656) «ملاحظات جورج تينيت إلى جامعة أوكلاهوما»، 12 أيلول/سبتمبر 1997، مكتب «السي.آي.إيه.» للشؤون العامة.**

**(657) لجنة السيناتورات حول الاستخبارات، «جلسة استماع تعيين جورج تينيت»، 6 أيار/مايو1997.**

**(658) «جورج تينيت في مسار الاستراتيجية» ‘George Tenet on Strategic Direction’ 5 أيار/مايو 1998.**

**(659) مقتطفات أولبرايت من دنيس كوكس، The United States of Pakistan، ص. 342. قالت أولبرايت: «نحن نعارض مقاربتهم (الطالبان) حول حقوق الإنسان. إننا نعارض معاملتهم المقزّزة للنساء والأطفال وعدم احترامهم كرامة الإنسان... لا يمكن أن تتحضّر أمة من دون مشاركة أكثر من نصف شعبها». مقتطفات هيلاري كلينتون مأخوذة من «ملاحظات السيدة الأولى في الولايات المتحدة الليدي هيلاري روهام كلينتون، المجلس الاقتصادي والاجتماعي في الأمم المتحدة»، 10 كانون الأول/ديسمبر 1997، المكتب الإعلامي في البيت الأبيض.**

**(660) ليونارد سينسني، «شيكاغو تريبيون»، 21 تشرين الأول/أكتوبر 2001.**

**(661) مقابلة مع عبد الله في 8 أيار/مايو 2002، كابول، أفغانستان. مقابلة مع ريك إندرفيرث، في 20 شباط/فبراير 2002 واشنطن، العاصمة.**

(662) مقابلة مع مارتي ميلر في 23 أيلول/سبتمبر 2002، هيوستن، تكساس. قال روبيرت أوكلي في مقابلة له، إن استراتيجية أونوكال يجب أن تكون استراتيجية لتليين الطالبان، وحثّهم في اتجاهها. قال أوكلي: «شعرنا بأن الأمر يستحق المحاولة». معظم الأفغان يقولون: «انظر، لقد فرضوا النظام. الوضع أفضل مما كان عليه». تسلم أوكلي مكتب الاستخبارات والأبحاث في خريف العام 1997، واشترك في محادثات حول كيفية التعامل مع طالبان. وصف وضع طالبان السياسي في المحادثات مع الحكومة الأميركية، على الوجه التالي: «إذا اعترفتم بنا وأسستم لنا سفارة، فسيسرنا التعاون معكم، باستثناء هذه المواضيع». كانت أهم المواضيع الحساسة، حقوق المرأة والإرهاب، لكن المحادثات لم تحقق أي تقدم. ووصف روبرت أوكلي محاولات أونوكال بتليين الطالبان بـ «المحبطة». وأشار إلى تأثير بن لادن وآخرين كسبب رئيسي. لقد أغرق بن لادن والمتطرفون العرب حركة طالبان بالمال والسلاح والمتطوعين. «كان أكثر بكثير مما تستطيع أونوكال تقديمه».

(663) مقابلة مع ميلر، 28 أيلول/سبتمبر 2002، مقابلة مع توماس غوتيار في 18 أيلول/سبتمبر 2002، أوماها، نيبرساكا.

(664) «أفغانستان: الاجتماع مع طالبان»، برقية وزارة الخارجية، 11 كانون الأول/ديسمبر 1997، كشفها أرشيف مجلس الأمن القومي.

(665) مقابلة مع غوتيار، في 18 أيلول/سبتمبر 2002.

(666) مقابلة مع ميلر، في 23 أيلول/سبتمبر 2002. إن وصف المنزل أثناء العشاء منقول عن ميلر.

(667) لجنة السيناتورات حول الاستخبارات، World ThreatAssessment ، كانون الثاني/يناير 1998. يتضمن نصّ جلسة تعيين تينيت في أيار/مايو 1997 المؤلف من 105 صفحات، نقاشاً مهماً حول الإرهاب في الصفحة 103، مع التطرق إليه بإيجاز في بقية النص من دون ذكر بن لادن.

(668) شهد الفضل أمام المحكمة لاتهامهم بالعمل بالنيابة عن بن لادن في الهجمات التي استهدفت سفارتي الولايات المتحدة في كل من كينيا وتنزانيا، آب/أغسطس 1998، بأنه حاول شراء اليورانيوم لبن لادن. إن السؤال عن العلاقات بين القاعدة والعراق مثير للجدل. لذلك، فإن الأدلة عليها في هذا النص غير أكيدة. وخلال المقابلات مع مسؤولين أميركيين في المجتمع الاستخباري، سمع الكاتب مراراً معلومات حول ما تم الحصول عليها خلال نفي بن لادن إلى السودن، حول زيارات بين ضباط عراقيين وإسلاميين من محيط بن لادن. وهذا في سياق اجتماعات عديدة بين أصوليين متعددي الجنسيات في الخرطوم مع برامج إسلامية وعلمانية. وإذا تمت فعلاً هذه الاجتماعات، فمن الصعب قياس أهدافها وجدّيتها. وفي ذلك الوقت، اعتقدت الاستخبارات الأميركية، وفقاً لأحد ضباطها، قبل وقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر، أو الجدل حول علاقة العراقيين ببن لادن، أن جماعة بن لادن طلبت عقد هذه الاجتماعات لاكتشاف تطوير خبرات الأسلحة الكيميائية. ومن الواضح أن كلتا الحكومتين العراقية والسودانية مهتمة بقدرات الأسلحة الكيميائية. ومن جهته، كان بن لادن قريباً من الحكم في الخرطوم. قال ستانلي بدينغتون، وهو محلل رفيع المستوى في مركز مكافحة الإرهاب حتى العام 2004: «كان العراقيون ناشطين في السودان لتقديم المساعدة إلى بن لادن. يعرف ذلك حقّ المعرفة صديق لي كان رئيس العمليات في أفريقيا. قال إن العلاقات بين السودان والعراقيين وثيقة جداً، جداً... ومبدئياً، كان العراقيون يبحثون عن أعداء للولايات المتحدة، ويستحوذون على الفرص في أماكن مثل السودان... غير أن نظام صدام علماني. لذلك فالعلاقات بين القاعدة والعراق انتهازية». ولاحقاً، بعد عودة بن لادن إلى أفغانستان، وتعزيز قوة القاعدة، اشترك بن لادن في تجارب الأسلحة الكيميائية في المخيمات، كما أن المعلومات حول تقدمه ومصادره التقنية الخارجية، لا تزال غير أكيدة. وفي ربيع العام 2004، اعتبر فريق اللجنة الوطنية للهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة أن السودان دبّر الاتصالات بين العراق والقاعدة منتصف التسعينيات، ومن بينها اجتماع بين ضابط في الاستخبارات العراقية وبن لادن العام 1994. لكن برأي الفريق، لم تُفض هذه

الاجتماعات المتقطّعة إلى «علاقات تعاون». «ليس لدينا دليل أكيد على التعاون بين العراق والقاعدة لشن هجمات على الولايات المتحدة».

(669) إن المعلومات في هذا الفصل حول عملاء «السي.آي.إيه.» القبليين، من حيث توظيفهم وخطط اشتراكهم في العملية، وتعاملهم مع ضباط «السي.آي.إيه.» والجدل حول عملياتهم في البيت الأبيض ولانغلي، مأخوذة من مقابلات مع ثمانية مسؤولين أميركيين مطلعين على الخطط. وبقيت الكثير من البرقيات والوثائق سرّية، ولم تكن متوافرة لدعم أقوال الضباط. وأفضل ما توصّل إليه الكاتب، هو الوصف الدقيق للخطط المأخوذ من مقال لجايمس ريزين، في 6 أيلول/سبتمبر 1998 في «نيويورك تايمز». إن كتابات بارتون غيلمان في «الواشنطن بوست» في 19 كانون الأول/ديسمبر 2001، تلقي الضوء على نشاطاتهم بشكل واسع. قام بوب ودوارد أولاً بوصف تركيبة الفريق ودور تجميع المعلومات في «الواشنطن بوست» في 23 كانون الأول/ديسمبر 2001. لم يصف أي من هذه المقالات، أصل الوحدة كفريق لإلقاء القبض على قاسي، أو خطة مهاجمة مزرعة تارناك أو خطة اختطاف بن لادن واحتجازه داخل كهف، أو الجدل المستمر حول المخاطر والإصابات. وفي 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002، شهد تينيت في جلسة استماع للجنة الاستجواب، أن «السي.آي.إيه.» كانت في العام 1998، «تتبع مقاربة متعددة المسارات، ليتقدم بن لادن بنفسه أمام العدالة وتتضمن العمل مع الاستخبارات الأجنبية وتطوير علاقة وثيقة بالمدعين الفدراليين وزيادة الضغط على طالبان وتعزيز قدراتنا على الإمساك به».

(670) «مطابقة» منقولة عن باتريسيا دايفيس وماريا غولد، «الواشنطن بوست»، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2002. المعلومات الأخرى من دايفيس وتوماس، «الواشنطن بوست»، 20 حزيران/يونيو 1997. ودنيس كوكس، The UnitedStates and Pakistan، ص. 340. المعلومات حول تلقي «السي.آي.إيه.» المعلومات الاستخبارية عن قاسي، وتعرض الهارب للخيانة من قبل شريكه في العمل، والتخطيط لعملية الاعتقال، وإشارة «ضوء زولو الأحمر» Red Light Zulu عبر الراديو إلى لانغلي، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(671) «السي.آي.إيه.»، 18 حزيران/يونيو 1997.

(672) هنا مثل أي مكان آخر في الكتاب، لم ينشر الكاتب الأسماء الكاملة لضبّاط «السي.آي.إيه.» في الخدمة السرّية، إلا إذا تم الكشف عنها سابقاً. وفي حالات قليلة، في مكان آخر من الكتاب، تم ذكر الاسم الأول للضابط فحسب أو لم يذكر قط للمحافظة على أمن الضابط الشخصي والمهني.

(673) فريق داخل وكالة الاستخبارات الأميركية، تم إنشاؤه لخطف أسامة بن لادن من غرفة نومه.

(674) مراجعة الملاحظة 1. المقتطفات مأخوذة من مقابلات مع غاري شروين في 19 أيلول/سبتمبر و 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، واشنطن العاصمة. موافقة مساعدي كلينتون منقولة عن التقرير النهائي للّجنة الوطنية.

(675) المعلومات العامة حول تحقيق هيئة القضاة بقضية بن لادن محدودة. وتشير المعلومات الصحافية إلى تاريخ بدء التحقيقات في العام 1996، عندما أنشأت «السي.آي.إيه.» وحدة بن لادن. ويؤكد المسؤولان السابقان في مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي، دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، في The Age of Sacred Terror ص. 239، ما ذُكر في سجلات المحكمة: تمّت المباشرة بإصدار اتهام ضد بن لادن من قبل المدعي العام لمقاطعة نيويورك الجنوبية، ماري جووايت، في حزيران/يونيو 1998. ربما عرف ضباط «السي.آي.إيه.» بطريقة غير رسمية عن التحقيق بسبب تعاملهم الوثيق مع عملاء الـ «أف.بي.آي.» الذين كانوا يجمعون الأدلة ضد بن لادن لتقديمها إلى القضاة.

(676) هذه المعلومات من مقابلات مع مسؤولين أميركيين مطلعين على برنامج التسليم. بعض هؤلاء المتهمين الذين سلمتهم «السي.آي.إيه.» إلى مصر خلال تلك الفترة، تعرض للمحاكمة من قبل السلطات المصرية في العام 1999. بلغت أعمال العنف الإسلامية ضد السياح والمصالح الأجنبية ذروتها في مصر خلال العام 1997. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، قام مسلحون إسلاميون بإطلاق النار على سبعة سياح، من سويسرا واليابان، في معبد حدشبسوت في لقصر، مصر.

(677) مايكل دبليو رايزمان وجايمس إي. بايكر، Regulating Covert ActionTerrorism، ص. 123 - 30، بول أر. بيلار، andU.S. Foreign Policy ص. 116 - 17. خلال الثمانينيات، بموجب حكم صادر عن مكتب الشؤون القانونية في وزارة العدل، لا يملك العملاء الأميركيون «سلطة تطبيق القانون في دولة أخرى، إلا بموافقة تلك الدولة». في العام 1989، رفضت وزارة العدل هذا المبدأ لمصلحة قانون جديد يخوّل القسم التنفيذي «انتهاك سيادة الدول الأخرى» لتنفيذ بعض التوقيفات في الخارج. وكما يقول رايزمان وبايكر «على الرغم من الأنظمة التنفيذية والمعايير الدولية ضد الاختطاف في الأراضي الخارجية، أقرّت المحاكم الفدرالية، بأنه ما إن يتم الإمساك بالمتهم، فلن تنظر في كيفية جلبه إلى المحكمة، إلّا إذا تبين أنه اقتيد بأسلوب «مخالف للضمير». واستمرت هذه المعايير في التطور مع كل قضية أسر هارب في الخارج وإعادته إلى المحاكم الأميركية واستئناف حكمه».

(678) المقتطفات من مقابلات مع غاري شروين، في 19 أيلول/سبتمبر و 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002.

(679) بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 26.

(680) فيرنون لوب، «واشنطن بوست»، 23 و25 آب/أغسطس من العام 1998، بيتر إل. بيرغين، Holy War، ص. 95 - 96.

(681) إن أوسع سيرة لحياة الظواهري وأكثرها اتزاناً، نُشرت باللغة الإنكليزية، موجودة في مقال طويل في، «ذي نيويوركر»، لورينس رايت في 16 أيلول/سبتمبر 2002.

(682) هيغينز وكوليزون، Wall Street Journal، في 2 تموز/يوليو 2002. مأخوذة من مسودة الرسائل المرسلة من الظواهري إلى الإسلاميين، اكتشفت على جهاز كومبيوتر تركوه في كابول. يوضح المقال طبيعة الجدل وعزلة الجهاديين المتزايدة. وكذلك في مذكرات الظواهري الخاصة قبل 11 أيلول/سبتمبر، s Banner’knights Under the Prophet. تم نشر مقتطفات منها في الصحيفة العربية «الشرق الأوسط». وينسب الظواهري في مذكراته، عدداً كبيراً من العمليات، إلى نفسه قبل تحالفه الرسمي مع بن لادن، بالإضافة إلى تفجيرات السفارة المصرية في إسلام آباد العام 1995.

(683) هيغينز وكوليزون، Wall Street Journal، في 2 تموز/يوليو 2002 يصفان سفريات الظواهري وهربه من الاحتجاز الروسي في داغستان. فلو تمكّن الروس من التعرف إليه أثناء سجنه، لربما تطوّرت القاعدة في أواخر التسعينيات بطريقة مختلفة.

(684) الظواهري s Banner’knights Under the Prophet.

(685) المصدر نفسه.

(686) المصدر نفسه.

(687) صدرت المذكرة عن مكتب السيناتور جون كيل، وتكلّم حولها والتر بينسوس في الـ «واشنطن بوست»، في 25 شباط/فبراير 1998.

(688) «تقرير مجلس مراجعة المحاسبة» Report of the Accountability Review Board، في 8 كانون الأول/ديسمبر 1999. وهذه هي اللجنة التي ترأسها ويليام كرو، وتعلّقت بمراجعة تفجيري سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا في آب/أغسطس من العام 1998، والتحذيرات التي سبقتهما.

(689) الاجتماع في 9 آذار/مارس والمقتطفات من «أفغانستان: (منقّح) وصف للفكر الباكستاني الحالي» Afghanistan: [Redacted] Describes Pakistan’s Current Thinking، برقيات وزارة الخارجية تم الكشف عنها وإصدارها من قبل الأرشيف الأمني القومي.

(690) مقابلة مع بيل ريتشاردسون في 15 أيلول/سبتمبر 2002، ألبوكيرك، نيوميكسيكو.

(691) المقتطفات كلها من المصدر نفسه. محادثات ريتشاردسون مدعومة من ريك إندرفيرث وسفير الولايات المتحدة في إسلام آباد في ذلك الوقت، توم سايمونز، اللذين رافقاه.

(692) المصدر نفسه.

(693) المصدر نفسه.

(694) المقتطفات كلها من المصدر نفسه. كان إندرفيرث وسايمونز أيضاً يجلسان إلى الطاولة مع ربّاني، ويذكران الحديث بالطريقة نفسها.

(695) مقابلة مع ريك إندرفيرث في 6 أذار/مارس 2002، واشنطن العاصمة.

(696) مقابلة مع توم سايمونز، 19 آب/أغسطس 2002، واشنطن العاصمة

(697) المصدر نفسه.

(698) المقتطفات من جوناثين لاندي، Christian Science Monitor، 1 تموز/يوليو 1998.

(699) تيموثي واينر، The New York Times، 1 شباط/فبراير 1999

(700) «غسل أدمغتهم» والتفاصيل الأخرى مأخوذة من مقابلة مع ريتشارد كلارك في 9 تموز/يوليو 2003، واشنطن العاصمة. ونقلت معلومات مهمة حول عمل كلارك من لاندي، Christian Science Monitor، واينر «نيويورك تايمز»؛ ومايكل دوبس، «واشنطن بوست»، في 2 نيسان/أبريل 200. أما وصف كلارك وأسلوبه فمأخوذان من مقابلات مع العديد من زملائه الذين عملوا معه عن كثب في أواخر التسعينيات، خلال ولاية كلينتون الأولى.

(701) مقابلات مع مسؤولين سابقين في إدارة كلينتون.

(702) «جنونية» و «لتسهيل» مأخوذتان من USA Today في 22 أيار/مايو 1998. أما عن وضعه كمدير في مجلس الأمن Age of Sacred Terror، ص. 233. المعلومات حول أحكام القرارالقومي لم يسبق له مثيل، فمأخوذة من بنجامين وسايمونز، 'Terrorism ,The Future ,and the U.S. Foreign Policy'الرئاسي الرقم 62 قدّمها بيرل، ، مركز البحوث في الكونغرس، 13 أيلول/سبتمبر 201، وتم وصفه في التقرير النهائي، للجنة الاستجواب المشترك ص. 234.

(703) جلسة كلينتون حول الإرهاب البيولوجي في حزيران/يونيو من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror ص. 252. «فضيحة بيرل هاربر الكترونية» من واينر، «نيويورك تايمز»، 1 شباط/فبراير 1999. «قائد» من تصريح فريق اللجنة الوطنية الرقم 8، ص. 3.

(704) مايكل دوبس، «واشنطن بوست»، 2 نيسان/أبريل 2000.

(705) جوناثان لاندي، Christian Science Monitor، 1 تموز/يوليو 1998

(706) الوصف من زيارة الكاتب في تشرين الأول/أكتوبر 2002، ومن مقابلات مع السكان المحليين.

(707) مقابلة مع غاري شروين في 19 أيلول/سبتمبر 2002. بريد كلارك الالكتروني وبرقية شروين من اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، ص. 112.

(708) المصدر نفسه

(709) اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، ص. 112 - 114.

(710) المقتطفات حول الأسلحة النووية مأخوذة من بيتير إل. برغن، Holy War، ص. 100. المقتطفات حول إذاعة «أيه.بي.سي. نيوز» من «الواشنطن بوست»، 23 نيسان/أبريل 1998 و 16 أيلول/سبتمبر 2000.

(711) بنجامين وسايمونز، مساعدا كلارك الرئيسيان لمكافحة الإرهاب، كتبا في مذكراتهما أنه «لا تبدو هذه الخطة عملية».

(712) التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 114

(713) مقتطفات الأمير سلطان بن سلمان، ابن أمير الرياض، منقولة عن أحمد رشيد، Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia، ص. 138

(714) قام بن لادن بوصف عملية توقيف أتباعه السعوديين في شهر كانون الثاني/يناير خلال مؤتمره الصحافي في أيار/مايو 1998. قال إنهم كانوا يحملون صاروخ ستينغر أميركياً وعدداً من صواريخ أرض - جو «أس.أيه. 7» ، مراجعة بيتر أل.SA7 Holy War,Afghanistan:، ص. 100 - 101. ارتداد المصالح والتوقيفات في المملكة العربية السعودية مأخوذة من: برغن، ، في تموز/يوليو 2001، ص. 33. قام تركي بالعديد من المقابلات حول Crisis of Impunity' ,Human Rights Watch مهمته إلى قندهار في حزيران/يونيو 1998. وأدلى بمعلومات مفصّلة إلى Los Angeles Times، 8 آب/أغسطس 1999.

(715) برنامج عبد الله من المقابلات مع مسؤولين سعوديين رفيعي المستوى. أما وصف سلوكه وشكله وقصوره فمن مقابلات مع ولي العهد الأمير عبد الله، في 28 كانون الثاني/يناير 2002، الرياض المملكة العربية السعودية.

(716) مقابلات مع مسؤولين سعوديين رفيعي المستوى.

(717) وصف أحد المسؤولين الأميركيين في مركز مكافحة الإرهاب وزارة الداخلية بقيادة نايف بـ «بؤرة تمتص الموارد المالية» التي يختفي فيها طلب الأسماء وأرقام الهواتف وأي تفاصيل أخرى ولا تظهر ثانية. ووصف عدة ضباط أميركيين الحادثة التي أصابت تركي في خيمته.

(718) وجود الشيخ تركي، مستقى من مقابلات مع مسؤولين سعوديين رفيعي المستوى. وتم وصف وجوده، في نشرة الاستخبارات، The Intelligence Newsletter في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1998.

(719) تقييم تركي للملا عمر وعضوي القاعدة ودور بن لادن القيادي، مستقى من مقابلات مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس من العام 2002. كانكون، ميكسيكو.

(720) «أخبر... مصالح المملكة»، من Associated Press في 23 كانون الأول/ديسمبر 2001، التي نقلت مقابلة تركي مع الفضائية العربية «أم.بي.سي.». «أوضحنا لهم» مستقاة من Los Angeles Times، في 8 آب/أغسطس من العام 1999.

(721) مقابلة تركي مع محطة «أيه.بي.سي. نيوز»، برنامج Nightline في 10 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(722) رشيد، «طالبان»، ص. 72، يصف لقاء تركي بالملا عمر، ويقول إنه ركّز على الدافع العسكري لطالبان ضد قوات حلف الشمال في مزار الشريف. أنكر السعوديون هذه المزاعم. إن المعلومات المتوافرة حول الاجتماع هي من تركي والملا عمر. في 24 آب/أغسطس 1998 أخبر قائد طالبان مجلّة Time بأن تركي أخبره بضرورة إسكات بن لادن. لم يُشر عمر إلى أي طلب سعودي لمحاكمة بن لادن. وفي المقابل، بعد الاستماع إلى تركي، قال عمر إنه أخبر بن لادن «بأنه كضيف لا يجب أن يتورّط في أعمال تثير المشاكل لنا».

(723) سيرة الحاج وعدي ومحمد والتدريب الأفغاني، منقولة عن تصريحات لمحامي الدفاع أثناء محاكمتهم في المقاطعة الجنوبية في نيويورك، 5 شباط/فبراير 2001.

(724) الإحصاءات حول الإصابات وتفاصيل الهجمات، منقولة عن: 'Report of The Accountability Review Boards: Bombings of The U.S .Embassies in Nairobi and Kenya and Dar es Salaam, Tanzania on August 7, 1998'، تقرير مجلس المحاسبة: «تفجيرات السفارات الأميركية في نيروبي وكينيا ودار السلام وتانزانيا في 7 آب/أغسطس 1998» الذي تم إصداره في 8 كانون الثاني/يناير 1999.

(725) المصدر نفسه. تحذير مركز مكافحة الإرهاب في 29 تموز/يوليو من التقرير النهائي للجنة الاستجواب المشتركة، الملحق، ص. 20. قام المحققون في مجلس المراجعة بدراسة المعلومات السرية والتحذيرات من التهديدات التي صدرت قبل الهجمات، واستنتجوا «أنه لم يوجد أي تحذير تكتيكي» حول تفجير السفارات. لم يُلق المجلس باللوم على «السي.آي.إيه.» أو الـ «أف.بي.آي.» لعدم اكتشاف خلايا بن لادن في أفريقيا. بل انتقدوا الاعتماد الكبير على التحذيرات من التهديدات غير الدقيقة والمتفرقة كدليل أساسي للإجراءات الأمنية في سفارات الولايات المتحدة. كتب المجلس: «نحن ندرك صعوبة مراقبة الشبكات الإرهابية، وندرك أن المهمات لا يمكنها الاعتماد على تلك التحذيرات. استنتجنا أن المسؤولين في الشرطة والاستخبارات اعتمدوا بشكل كبير على تحذيرات الاستخبارات لقياس التهديدات، بينما تشير التجربة إلى أن الإرهاب الدولي يوجه ضرباته عادة من دون أي تحذير مسبق ضد أهداف ضعيفة في مناطق نسبة احتمال وقوع هجمات إرهابية فيها منخفضة». في حوادث أفريقيا، أدت جهود «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.أي.» إلى تعقب نشاطات الحج في نيروبي، إلى إيهام الوكالة بأن الخلايا المحلية تفككت. وتجاهلت وزارة الخارجية التحذيرات المتكرّرة للسفير الأميركي إلى نيروبي، التي بدأت في شهر كانون الأول/ديسمبر 1997، وخصوصاً لجهة أن مكاتب السفارة قريبة جداً من الشوارع، وبالتالي فهي عرضة لتفجير بواسطة شاحنة، وهو ما كان يحدث في النهاية.

(726) مقابلات مع مسؤولين أميركيين، تعقّب خلايا بن لادن، المصدر نفسه.

(727) مقابلة مع مسؤول أميركي، يعرف برد فعل ترك المرأة.

(728) مقابلات مع العديد من المسؤولين الكبار في إدارة كلينتون.

(729) مقابلات مع مشتركين. «المعلومات كافة» مستقاة من بول بيلار Terrorism and U.S. Foreign Policy ص. 100 - 101. و «الأدلة واضحة... الفاعل» من مقابلة مع مسؤول في الإدارة الأميركية. «أول دليل...» من مقابلة مع مسؤول رفيع المستوى في إدارة كلينتون تحدث إلى كلينتون حول الحادثة في العام 2003.

(730) مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون. نظرية بيرغر حول العمليات العسكرية من الشهادة أمام لجنة الاستجواب المشتركة، في 19 أيلول/سبتمبر 2002. قال بيرغر: «لا أعتقد أن أحداً في الصحافة دعا إلى مهاجمة أفغانستان، في آب/أغسطس من العام 1998، أو في أي مرحلة لاحقة. «لا أعتقد أنه لدينا فرصة في أي مكان في الحصول على الدعم الدبلوماسي. لن نحصل على الدعم الأساسي». مقتطفات كلينتون «مهما بلغت الفظاعة... يدعموننا»، مستقاة من مقابلة مع مسؤول رفيع المستوى في إدارة كلينتون.

(731) معلومات تينيت في ذلك اليوم من فيرنون لويب، «واشنطن بوست»، 21 تشرين الأول/أكتوبر 1999. مراجعة تاريخ إعلان مادلين أولبرايت الهجوم بالصواريخ، ونصوص المؤتمرات الصحافية، في 20 آب/أغسطس 1998، «خدمة الأنباء الفدرالية» Federal News Service.

(732) دانييل بنجامين وستيف سايمونز The Age of Sacred Terror، ص. 358. قال المحققون في فريق اللجنة الوطنية لاحقاً، إنهم «لم يجدوا دليلاً حول أن الاعتبارات السياسية دخلت مرة في المناقشات أو عملية اتخاذ القرارات»، خلال تلك الفترة.

(733) مقابلة مع مسؤولين في إدارة كلينتون مطلعين على عمليات البنتاغون لاستهداف مواقع أفغانية، التي بدأت مع مؤتمر بن لادن الصحافي في شهر أيار/مايو ومقابلته التهديدية مع الـ «أيه.بي.سي. نيوز»، التي تم بثها عبر الولايات المتحدة بعد أسابيع قليلة.

(734) مقابلات مع عدة مسؤولين في إدارة كلينتون. مقتطفات زيني منقولة عن بوب وودوارد وتوماس ريك، «واشنطن بوست»، 3 تشرين الأول/أكتوبر 2001. في «الإرهاب وسياسة الولايات المتحدة الخارجية»، ص. 107، كتب بيلار من «السي.آي.إيه.»: «إن المعلومات حول اجتماع محدد لبن لادن وقادة إرهابيين آخرين... قد حددت توقيت الهجوم».

(735) مزاعم غول من اللجنة اللجنة القومية، تقرير الفريق الرقم 6 ص. 6. معلومات حسين من مقابلة مع مشاهد حسين في 21 أيار/مايو 2001، إسلام آباد، باكستان.

(736) المصدر نفسه.

(737) مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين مطلعين، من بينهم سفير الولايات المتحدة إلى باكستان في تلك الفترة، توم سايمونز، في 19 آب/أغسطس 2002، واشنطن العاصمة. وأشارت بعض المعلومات الصحافية إلى أن رالستون قام بإخبار كرامات مباشرة أثناء العشاء أن الصواريخ موجّهة في الهواء في الوقت الحالي. لكن مسؤولاً أميركياً مطلعاً قال إن رالستون لم يخبره بذلك في الواقع، بل قال له بشكل عام إن الولايات المتحدة تهيئ «لعملية انتقامية». ووفقاً لهذه المعلومات، غادر رالستون المجال الجوّي الباكستاني قبل وصول الصواريخ، ما أغضب كرامات الذي شعر بأن الأميركيين لا يثقون به. في تلك الأثناء، ثار غضب شريف أيضاً لأن الولايات المتحدة تحدّثت إلى الجيش مباشرة حول الهجوم عوضاً عن السلطة الباكستانية المدنية العليا، كما أنه استاء من كرامات لاعتقاده أن الجنرال خدعه وخذله. وعندما علمت السلطات الباكستانية بوقوع صاروخين داخل الأراضي الباكستانية، نددت بالهجوم بشكل علني وخاص.

(738) مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون، مستقاة من بيلار «الإرهاب وسياسة الولايات المتحدة الخارجية»، Terrorism and U.S. Foreign Policy.

(739) المقتطفات من مقابلة مع مسؤول رفيع المستوى في إدارة كلينتون. التمارين السرية في بيت بلير في شهر تموز/يوليو مستقاة من بنجامين وسايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 254 - 55.

(740) «حرب إرهابية» منقولة عن إلينور هيل، بيان فريق التحقيق المشترك، 18 أيلول/سبتمبر 2002. «من الضروري برأيي» مستقاة من «الواشنطن بوست»، 22 آب/أغسطس من العام 1998. «تركتمونا مع الطفل» من «الواشنطن بوست» في 2 أيلول/سبتمبر 1998.

(741) بيلار، «الإرهاب وسياسة الولايات المتحدة الخارجية»، Terrorism andU.S. Foreign Policy ص. 103-107.

(742) مقتطفات تينيت من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، الملحق، ص. 21. مذكرة سوسكومب وتوقعات كلارك من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6 ص. 3.

(743) المعلومات حول مرافقة رنا والمترجم للأمير تركي، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول سعودي رفيع المستوى.

(744) المصدر نفسه.

(745) مقتطفات الملا عمر منقولة عن تركي، «أيه.بي.سي. نيوز»، كانون الأول/ديسمبر.

(746) مقابلة مع مسؤول سعودي رفيع المستوى. بالحديث إلى Associated Press في تشرين الثاني/نوفمبر من العام، قال تركي: «أخبرته بأنه سيندم وأن الشعب الأفغاني سيدفع الثمن غالياً». وتمكن أيضاً مراجعة اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم ص. 9 - 10 التي تشير إلى أن تركي عاد إلى قندهار في حزيران/يونيو من العام 1999 في المهمة نفسها «من دون التوصل إلى أي نتيجة».

(747) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(748) في خطاب سابق قبل أن يصبح مدير الوكالة، وجواباً عن سؤال «هل تحتاج أميركا إلى «السي.آي.إيه.»؟»، وصف

تينيت الوكالة بـ «بوليصة تأمين» ضد الاستراتيجيات المفاجئة. نصّ الخطاب من 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1997، مكتب «السي.آي.إيه.» للشؤون العامة.

(749) مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون. ويروي أحدهم رد فعله على تفجيرات أفريقيا كالتالي: «أنا في البيت الأبيض، إذاً أنا أفكر في أمرين: الأول هو الفكر الفاسد في أنه ليس من مصلحة الرئيس أن يتم تفجير السفارتين، لذلك يجب أن نحدّ من هذه المسألة. والأمر الآخر هو أن الردع يعتمد على هذه الحوادث التي لا تقع، ومن الضروري تجربة القوة الأميركية».

**(750) «ميل... الانتباه والمصادر»، مستقاة من بول بيلار، «الإرهاب وسياسة الولايات المتحدة الخارجية»، Terrorism and Foreign policy .S.U ص. 115 - 16.**

**(751) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. ذكر دايفيد بنجامين وستيفن سايمونز شكاوى البيت الأبيض بخصوص المعلومات غير المنقّحة في كتابهما، The Age of Sacred Terror. لقد كتبا: «كان أثر التفجيرات في شرقي أفريقيا كارثياً في مراكز «السي.آي.إيه.» والاستخبارات الدولية، وفي كل شخص مرر أي معلومات». (ص. 261)؛ لقد قدّمت «السي.آي.إيه.» «إلى كلينتون كمية من المعلومات حول التهديدات التي لا تستدعي اهتمام الرئيس» (ص. 265).**

**(752) «لا للمعايير المزدوجة»، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. يقدّر بنجامين وسايمونز أنه تم إقفال «عدد» من السفارات خلال الأشهر الأخيرة من العام 1998 والأشهر الأولى من العام 1999.**

**(753) الملخصات السرية للتقارير المتعلقة بالتهديدات في سياق الملاحة الجوية في خريف العام 1998، مأخوذة من إليانور هيل، بيان فريق التحقيق المشترك، 18 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(754) المصدر نفسه، مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مراجعة التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، الملحق، ص 23.**

**(755) التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، 18 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(756) المعلومات حول أن إصدار أمر الغواصتين سريّ، وأنه تم إدخال إحداثيات تارناك مسبقاً، وأن التمارين قلّصت المدة بين إصدار القرار وإطلاق الصواريخ إلى أربع ساعات فقط، كلها مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين مطلعين. خطة «دليندا» ومقتطفات ستينبرغ مأخوذة من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6، 3 - 4، ورقم 8 ص. 4.**

**(757) تعتمد المعلومات التالية بشكل أساسي على مقابلات مع عدة مشتركين. لقد قام فريق المحققين في اللجنة الوطنية بتصحيح خطأين في المعلومات خلال هذه الحقبة في الإصدار الأول من: Ghost Wars. لقد حدث في كانون الأول/ديسمبر من العام 1998 وليس في شهر أيلول/سبتمبر. كما أن صانعي القرارات كانوا يخافون ضرب مسجد وليس مستشفى. مراجعة بيان الفريق الرقم 6 ص. 7.**

**(758) نظرية كلينتون ونصيحة كلارك مستقاتان من مقابلات مع عدة مسؤولين رفيعي المستوى في إدارة كلينتون، مطلعين على المحادثات.**

**(759) مقتطفات بيرغر من الشهادة أمام لجنة التحقيق المشتركة، 19 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(760) إن معيار بيرغر كان وجود احتمال نجاح «مهم» و «كبير»، وهو مستقى من مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون.**

(761) المعلومات في هذه الفقرة حول المذكرة التي وقّعها كلينتون، مستقاة من مقابلات مع عدد من المسؤولين المطلعين على الملف. قام بارتون بلمان بنشر أولى المعلومات حول المذكرة في «الواشنطن بوست»، في 19 كانون الأول/ديسمبر من العام 2001. وتختلف المعلومات في هذا النص عن معلوماته بفرق بسيط. ووفقاً للمسؤولين الذين أجرى الكاتب مقابلات معهم، فقد قام كلينتون بتوقيع أربع مذكرات على الأقل حول بن لادن. المذكرة الأولى استبقت تفجير السفارتين في أفريقيا، وسمحت باستخدام القوة في إلقاء القبض على أتباع بن لادن، وفقاً لهؤلاء المسؤولين. والمذكرة الثانية، صدرت مباشرة بعد تفجير السفارتين، وسمحت باختطاف بن لادن وبعض قادته. والثالثة تم توقيعها في أواخر فصل الخريف، وتتضمن طائرة بن لادن وفقاً لهذا الفصل. كما تم توقيع المذكرة الرابعة في أواخر العام 1999 وبداية العام 2000، وتضمنت علاقات «السي.آي.إيه.» بمسعود، كما جاء في الفصل الـ 25 والفصول التالية. وبالإضافة إلى السماح بتنفيذ عمليات الخطف من قبل مسعود، سمح كلينتون بالتحديد للفريق القبلي المتعاون مع «السي.آي.إيه.» في جنوبي أفغانستان، وفريق المغاوير الباكستاني، وفريق المغاوير الأوزباكستاني، لخطف بن لادن باستخدام قوة السلاح ضده وضد قادته. ولم يتأكد الكاتب إذا كانت هذه التصاريح لتلك الهجمات المختلفة، تقضي بإصدار مذكرة لكل منها، أو تم الاهتمام بها وفقاً لوثائق قانونية أخرى. لقد بقيت كل الملفات سرّية. «كما أن على قدر مساو... وعديمي الرحمة»، مستقاة من خطاب كلينتون أمام مجلس القيادة الديموقراطي في جامعة نيويورك، 6 كانون الأول/ديسمبر من العام 2002.

(762) بايكر هو الكاتب الثاني لكتاب «القضايا القانونية المماثلة»، Regulating Covert Action.

(763) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(764) المصدر نفسه.

(765) مقابلات مع مسؤولين أميركيين مطّلعين. «نريد... مستحيل»، واردة في التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، ص. 283.

(766) مقتطفات هيتز مستقاة من مقال نُشر في «الواشنطن بوست» في 15 أيلول/سبتمبر 1998. وصف غوس مديرية العمليات «بشديدة الحذر فيما يتعلق باستخدام السلاح»، وفقاً لوكالة الصحافة المشتركة، في 15 أيلول/سبتمبر من العام 1998.

(767) أكّد مستشار الأمن القومي في إدارة كلينتون، ساندي بيرغر، وجود نتائج لتلك القرارات في الشهادة أمام لجنة الاستجواب المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر من العام 2002. قال بيرغر: «تلقينا أحكاماً في وزارة العدل، لا تعيب قدرتنا، أو جهودنا في محاولة قتل بن لادن، لأنه (منع الاغتيال) لا ينطبق على الأوضاع التي تتصرف فيها دفاعاً عن النفس، أو ضد هدف قيادي عدو، وهذا ما هو عليه بالتأكيد».

(768) المعلومات حول الجدل المتعلق بنظريات تطبيق القانون على بن لادن مأخوذة من مقابلات مع عدة مسؤولين إداريين في إدارة كلينتون. والمقتطفات من أولبرايت وكوهين مأخوذة من شهادة خطّية إلى اللجة الوطنية في 23 آذار/

مارس من العام 2004.

(769) المصدر نفسه. مراجعة الملاحظة 14. أمر البنتاغون من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6، ص. 5.

(770) «لم تتلق... أسهل»، مستقاة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين مطلعين. في شهادة كوفر بلاك، أمام لجنة الاستجواب المشترك التي تحقق في هجمات 11 أيلول/سبتمبر، الذي كان مدير مركز مكافحة الإرهاب بعد العام 1999، قال في بيان، «مرونة العمليات: هذه منطقة سرّية للغاية. كل ما أريد قوله هو أنه يوجد مرحلة «قبل» 11/9 و «بعد» 11/9. بعد 11/9 انكشفت الأمور». انقسام التخطيط في البنتاغون مأخوذ من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6 ص. 5. وتغيّر أسلوب كلينتون مستقى من التقرير النهائي ص.126 - 133.

(771) «إنها تنفذ العملية... لتنفيذ العمل»، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين مطلعين في إدارة كلينتون.

(772) «لا شكّ» مأخوذة من شهادة بيرغر أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002. «أي التباس» منقولة عن بيان الفريق للجنة الوطنية الرقم 7 ص. 9.

(773) دوغلاس فرانتز، «نيويورك تايمز»، 8 كانون الأول/ديسمبر من العام 2001.

(774) مايكل غريفين، Reaping the Whirlwind، ص. 207.

(775) المصدر نفسه، ص. 203. تم تقديم الرسالة عبر اللجنة الفرعية للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ لشؤون جنوبي آسي.

(776) مقابلات مع عدة مسؤولين في وزارة الخارجية خلال تلك الفترة. لخّص إندرفيرث سياسة الوزارة في مقابلة: «كانت الولايات المتحدة متورطة، مثل كثيرين، في الفترة الممتدة بين العامين 1979 و 1989 في الانحياز إلى فريق. أما اليوم فلا يجب أن نختار أي فريق، إنما ندفع كل الفرق إلى التفاوض. وإذا انحزنا إلى فريق، فستضعف قدرتنا في الضغط على الأفرقاء كافة للتفاوض في ما بينهم. لقد قال أشخاص كثيرون تعاملوا مع أفغانستان على مرّ السنين، إن حلف الشمال والمشتركين معهم، ليسوا أفضل من المعارضة». قال إندرفيرث إنه شخصياً يعتبر التحالف مع مسعود أفضل من طالبان، وسيجد بين زملائه «من يوافقه في الرأي». ووصف إندرفيرث التوافق داخل وزارة الخارجية: «لقد سلكنا هذا الطريق مسبقاً. لا نريد أن نصبح شريكاً فاعلاً في النزاعات المدنية. سنسعى إلى التوصل إلى اتفاق بينهما».

(777) تصريح كارل إندرفيرث، لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، اللجنة الفرعية لشؤون الشرق الأدنى وجنوبي آسيا، 8 تشرين الأول/أكتوبر 1998.

(778) المقتطفات في هذا المقطع من خطاب كلينتون في جامعة جورج تاون في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. «مثل مؤلم ... متكامل» مأخوذة من خطاب كلينتون في مؤتمر حزب العمال البريطاني في بلاك بول، إنكلترا، في 3 تشرين الأول/أكتوبر 2002. وقد حقّق الجيش الجمهوري الأيرلندي والحركة الصهيونية اللذان انبثقا بعد الحرب العالمية الثانية، أهدافاً سياسية مهمة من خلال العنف، كما فعلت منظمة التحرير الفلسطينية.

(779) «المتعصبون... قيمة الحياة»، مأخوذة من خطاب كلينتون في بلاك بول في 3 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(780) «للتخلص من بن لادن» مأخوذة من USA Today في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. «تخفيف المخاطر... في المستقبل»، مأخوذة من خطاب كلينتون في بلاك بول في 3 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(781) بيلار المعلومات في هذه الفقرة حول الجدل بين بيلار من جهة ومساعديTerrorism and U.S. Foreign Policy كلارك، سايمونز وبنجامين، من جهة أخرى، مأخوذة من ضباط من مراكز مختلفة. والتشكيك يعود إلى تحديد مواقعهم في كارثة مثل 11 أيلول/سبتمبر في ضوء الإدراك المتأخر. لكن في هذه الحالة، يمكن توثيق آراء بيلار وسايمونز وبنجامين من دون أي تحريف. بعد مغادرته مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.» في العام 1999، أمضى بيلار عاماً في «معهد بروكينغز» حيث وضع نظرياته وخبرته في كتاب نُشر قبل أحداث 11 أيلول/سبتمبر. وفي الفترة نفسها، بعد أن ترك سايمونز وبنجامين البيت الأبيض، تعاون في كتابة مقال في المجلة الأمنية Survival حول الإرهاب والقاعدة. وفي توثيق نظرياتهما التنافسية هنا، اعتمدت على اللغة التي استعملها المشتركان قبل أن يعرفا بهجمات 11 أيلول/سبتمبر.

(782) بيلار، Terrorism and U.S. Foreign Policy، ص. 120.

(783) المصدر نفسه. «جدل عام» ص. 4. «الأولويات المنحرفة والمصادر الضالة» ص. 203.

(784) بول بيلار، «الاستخبارات والحملة ضد الإرهاب الدولي»، في الحملة ضد الإرهاب الدولي، صحيفة جامعة جورج تاون. هذا المقال، جاء خلافاً لعمله في «بروكينغز» بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر.

(785) كل المقتطفات في هذا المقطع مأخوذة من بيلار، Foreign Policy .S.Terrorism and U، ص. 56.

(786) ستيفن سايمونز ودانييل بنجامين، «أميركا والإرهاب الجديد»'America and the New Terrorism ، Survival'، ربيع العام 2000 ص. 59 - 75.

(787) المصدر نفسه.

(788) اتصال تينيت بالبيت الأبيض بشكل منتظم للإبلاغ عن تقارير تهديدات بن لادن، منقولة عن مقابلات مع عدة مسؤولين في إدارة كلينتون.

(789) نقلت مذكرة تينيت، إليانور هيل، في بيان فريق التحقيق المشترك، في 18 أيلول/سبتمبر 2002. في الشهادة أمام الكونغرس في اليوم نفسه، قالت هيل إن إعلان تينيت الحرب داخل «السي.آي.إيه.» لم يعرف به الكثيرون خارج لانغلي. قالت: «كان قرار مدير «السي.آي.إيه.»، وتم تمريره إلى بعض الأشخاص، لكن ليس بشكل واسع داخل المجتمع». وقالت إن الحذر تجاه خطورة تهديد بن لادن، كان أكبر وسط المسؤولين الكبار من العملاء في الميدان. وينطبق هذا الوضع بشكل خاص في الـ «أف.بي.آي.».

(790) «أصبح بن لادن الأولوية في «الفئة صفر»»، مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، ص. 40. «وتمنّى... في أقرب وقت» (ص. 42)، «لم يحصل حتى على الموافقة المبدئية» (ص. 46).

(791) مقابلات مع مسؤولين كبار في الحكومة الباكستانية.

(792) اجتماعات ضياء الدين مع والد شريف في لاهور، وسمعته كعميد سياسي، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين كبار باكستانيين وأميركيين.

(793) خطة «السي.آي.إيه.» باستخدام الاستخبارات الباكستانية للإيقاع ببن لادن ونصب كمين له أو إلقاء القبض عليه، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. هناك معلومات مختلفة حول كيفية تسبب الصحف الأميركية في توقف بن لادن عن استخدام خطوطه الهاتفية خلال خريف العام 1998. ويروي بنجامين وسايمونز من مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، في «الواشنطن بوست»، أن بن لادن «بقي على اتصال بالعالم عبر أجهزة الكومبيوتر والهواتف عبر الأقمار الصناعية». لكن هناك قصصاً أخرى عن المرحلة نفسها، من بينها واحدة نشرت في «الواشنطن بوست»، تذكر مقتطفات من أقوال مسؤولين ومحللين في «السي.آي.إيه.» حول استخدام بن لادن للاتصالات اللاسلكية.

(794) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(795) المصدر نفسه.

(796) «عناصر الاستخبارات... إلى درجة ما»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول في إدارة كلينتون. «سياسة الحكومة... لاسيما في كشمير»، مستقاة من مقابلة مع مسؤول ثان. «تحالف سيئ.. نووية في كشمير»، من مقابلة مع مسؤول ثالث في إدارة كلينتون.

(797) مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين.

(798) الاقتراح المقدّم إلى ضياء الدين وردّه، من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(799) لقد دفعت باكستان ثمن طائرات مقاتلة من نوع أف - 16 لكنها لم تحصل عليها قط عندما فُرضت العقوبات الاقتصادية من خلال تعديل «بريسلير» من قبل الكونغرس سنة 1991. كان المبلغ الأصلي المجمّد يبلغ 658 مليون دولار أميركي، لكنه وصل إلى 501 مليون دولار أميركي في كانون الأول/ديسمبر 1998، بسبب أشكال تحريره المتعددة، وفقاً للولايات المتحدة. راجع: «أسوشيتد بريس»، 2 كانون الأول/ديسمبر 1998.

(800) الزمان والمكان لاجتماع المكتب البيضوي، ومقتطفات ريدل، وتسلسل أهمية المواضيع على لائحة كلينتون، مأخوذة من نسخة الملفات الفدرالية لبيت المقاصة عن الملخّص الذي قدمه ريدل وكارل وإندرفيرث عصر ذلك اليوم.5

(801) المصدر نفسه، ومقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين.

(802) التفاصيل حول الاقتراح الباكستاني مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. ذكر مسؤول باكستاني ومسؤول أميركي الحديث حول فرقة مغاوير خلال اجتماع البيت الأبيض بشكل واضح. لكن الأدلة، التي جمعتها اللجنة الوطنية، أن الخطة رُفعت لاحقاً عندما التقى شريف كلينتون في تموز/يوليو 1999. وفي جميع الأحوال، لم يبدأ التدريب بجدّية حتى صيف العام 1999.

(803) مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين كانوا موجودين. «حاولوا... كبيرة» مأخوذة من USA Today، 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

(804) ما قاله شريف أثناء تناول الغداء ومزاحه حول الصواريخ الموجّهة والتقرير حول صحة بن لادن، مأخوذة من مقابلة مع مشاهد حسين وزير المعلومات في حكومة شريف، الذي كان حاضراً خلال الغداء في 21 أيار/مايو 2002، إسلام آباد، باكستان. يذكر أيضاً المسؤولون الأميركيون التقرير حول صحة بن لادن.

(805) ما دار بين شريف وبيرغر وأولبرايت وقت الغداء، منقول عن ريدل إندرفيرث. والمقتطفات منقولة عن إندرفيرث.

(806) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين.

(807) «بأنهم بدأوا»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول في إدارة كلينتون.

(808) «لا يملكون القدرة ولا النية»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول في إدارة كلينتون.

(809) مقابلات مع حاجي حبيب أحمدزي وسيّد خالد إشلواتي، مساعدي عبد الحقّ في 14 أيار/مايو 2002، كابول، أفغانستان.

(810) المصدر نفسه. مقابلة مع بيتر تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002، أوماها، نيبراسكا.

(811) المعلومات حول المخيّم الصحراوي تعتمد على مقابلات مع سبعة مسؤولين أميركيين مطلعين على الحدث. جرت مقابلات عديدة مع هؤلاء المسؤولين للحصول على معلومات عن تلك الفترة. ويضيف بيان فريق اللجنة الوطنية (الرقم 6 ص. 8)، تأكيدات عامة وتواريخ محددة. وأول من أشار إلى تلك الفترة علناً كان بارتون غيلمان، «الواشنطن بوست»، في 19 كانون الأول/ديسمبر 2001.

(812) ماري ويفير Of Birds and Bombs، مراسلة وكالة الصحافة الفرنسية، على الموقع الالكتروني: org.aliciapatterson.www.

(813) احتفاظ الإمارات العربية المتحدة بقاعدة جوية سرية في شمالي باكستان للصيد، مصدرها مقابلات الكاتب مع مسؤولين أميركيين. بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر، وضعت باكستان هذه القاعدة بتصرف الولايات المتحدة للاستخدام السري في حملتها

**العسكرية ضد القاعدة وطالبان في العام 2001. عندئذ، عرفت الولايات المتحدة عن الاتفاق بين باكستان والإمارات العربية المتحدة، وفقاً لأقوال ذلك المسؤول.**

**(814) أحمد رشيد، طالبان: Taliban Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia ص. 201، يصف الاتصالات الأولى بين قادة طالبان والصيادين العرب خلال شتاء العام 1994 - 95. قال الموظفون والمستشارون في أونوكال الذين راقبوا بن لادن يستقرّ في قندهار خلال شتاء العام 1996 - 97، إنه مشهور محلياً بأنه**

**صياد صقور طمّاع.**

**(815) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(816) المصدر نفسه. المقتطفات من مقابلة مع غاري شروين في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، واشنطن العاصمة.**

**(817) المصدر نفسه.**

**(818) AAP Newsfeed في 13 أيار/مايو 1998. أعلن نائب الرئيس آل غور الاتفاق مع الشيخ زايد في البيت الأبيض. وكذلك مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون.**

**(819) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(820) مقابلة مع شروين في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، واشنطن العاصمة.**

**(821) «يريدون التعاون... لمخيماته»، مأخوذة من مقابلة أجراها الكاتب.**

**(822) مقابلة مع شروين في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002.**

**(823) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. المقتطف من مايك، برغم أنه لم يتم التعريف عنه باسمه الأول، يظهر في ص. 237 في التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة.**

**(824) شهادة جورج تينيت أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 17 تشرين الأول/نوفمبر 2002. مقتطفات برقية مايك من التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 140. مقتطفات كلينتون من Newsweek، في 18 نيسان/أبريل 2002.**

**(825) تصريح مدير الاستخبارات المركزية، لجنة القوات المسلّحة في مجلس الشيوخ، «تهديدات الأمن القومي الحالية والمستقبلية» ‘‘Current and Projected National Security Threats’’، في 2 شباط/فبراير 1999.**

(826) «أولاد بعمر السنتين»، مستقاة من مقابلة مع مسؤول أميركي.

(827) بيان مؤلف من سبعة وتسعين مقطعاً: «تهديدات الأمن القومي الحالية والمستقبلية» 'Current and Projected National Security Threats'، في 2 شباط/فبراير 1999

(828) «العوائق المروّعة... الضغط على بن لادن»، منقولة عن شهادة تينيت أمام لجنة التحقيق المشتركة في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. أدلى كوفر بلايك بالحجج نفسها المتعلقة بالماضي خلال جلسة الاستماع: «بصراحة، من وجهة نظر استخبارية، وكي نحظى بفرصة لمحاربة القاعدة وحماية البلاد منها، يجب أن نهاجم الأراضي الأفغانية الواقعة تحت سيطرة طالبان. رحّبت «السي.آي.إيه.» بهذا الاقتراح. لذلك كنا مستعدين في 11 أيلول/سبتمبر لنكون أوّل من ينزل إلى الميدان».

(829) «خطة جديدة... إلى الأساسيين» منقولة من شهادة جورج تينيت أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. التفاصيل حول جمع المعلومات بشكل أفضل، منقولة عن مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(830) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(831) المصدر نفسه. خلال جلسات استماع لجنة التحقيق المشترك، نشأ جدل بين إدارة اللجنة، برئاسة إليانور هيل ومكتب «السي.آي.إيه.» حول عدد المحللين الذين أوكلوا بمتابعة بن لادن و «إرهابيين» آخرين قبل أحداث 11 أيلول/سبتمبر. قالت تحليلات هيل إن «السي.آي.إيه.» لديها 3 محللين فقط مختصين بالقاعدة يعملون بدوام كامل في مركز مكافحة الإرهاب، ارتفع عددهم إلى 5 خلال العام 2000. ادّعت «السي.آي.إيه.» أن هذا الإحصاء لا يعكس أبداً عدد المحللين الحقيقي الذين عملوا على قضية بن لادن وأهداف مشتبه فيها في مراكز أخرى. وقالت الوكالة في بيان صحافي إن 115 محللاً داخل الوكالة عملوا على الإرهاب خلال تلك الفترة، وإن وحدة بن لادن مسؤولة عن 200 ضابط حول العالم. لكن من الصعب تقييم هذه الادعاءات بما أن جميع الإحصاءات وأعداد الموظفين بقيت سرّية. إن التقدير بعمل 25 خبيراً في وحدة بن لادن منذ العام 1999، المنقول عن مقابلات مع مسؤولين أميركيين، يشمل الموظفين المفصولين إلى «السي.آي.إيه.» من وكالات أخرى مثل الـ «أف.بي.آي.» ووكالة الأمن القومية. ويقدّر التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، وجود «حوالى 40 ضابطاً من المجتمع الاستخباري كله» مخصصين للوحدة قبل أحداث 11 أيلول/سبتمبر. أما الإحصاءات حول الخبرة القليلة و «تلقي الأوامر من نساء»، فمنقولة عن التقرير النهائي، ص. 64.

(832) المصدر نفسه. المقتطفات كافة من مقابلات الكاتب.

(833) المصدر نفسه.

(834) المصدر نفسه. «إنهم في حرب... عملياته»، منقولة عن التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، الملحق، ص. 26 - 27.

(835) اقتطاع 30 في المئة من ميزانية العمليات، والإحصاءات حول طاقم مديرية العمليات خلال التسعينيات، مأخوذة من شهادة كوفر بلايك أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 26 أيلول/سبتمبر 2002. قال بلايك إنه يجب أن يُخصَّص «أشخاص بعدد ثلاثة كتيبات» في كل الأهداف التي يعالجها مركز مكافحة الإرهاب. بعض تلك الجماعات، مثل حزب الله، التي قتلت في العام 1999 جنوداً أميركيين بعدد أكبر من القاعدة، يتطلب موارد أساسية برأي بلايك. وبالإجمال، شهد بلايك: «أننا لا نملك الأشخاص أو الأموال الكافية أو قواعد التزام مرنة». وانتقد لاحقاً المحققون من الكونغرس، خطة بلايك في مواجهة بن لادن، «لنقص الكفاءة في عملية التخطيط».

(836) المعلومات حول تفجير طشقند ونتائجه، منقولة عن «الواشنطن بوست» في 17 شباط/فبراير 1999؛ وأحمد رشيد، «ذي نيويوركير» The New Yorker، في 14 كانون الثاني/يناير 2002. قال رشيد في هذا السياق في كتابه «جهاد»، إنه تم الإعداد لتفجيرات طشقند في الإمارات العربية المتحدة.

(837) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(838) التفاصيل حول تعاون كاريموف وموقفه من «السي.آي.إيه.»، مستقاة من المصدر نفسه. كان المسؤولون في إدارة كلينتون من البنتاغون ووزارة الدولة، متحمسين أيضاً لتلك العلاقة. كان الجنرال أنطوني زيني، قائد القوات البحرية والمسؤول عن القيادة المركزية، مضطلعاً بمسؤوليات البنتاغون في آسيا الوسطى، ويسافر مراراً لحضور الاجتماعات مع نظرائه، وتطوير التعاون

العسكري بين البلدين. كما سافرت أيضاً أولبرايت ومدير الـ «أف.بي.أي.» لويس فريه إلى طشقند بعد سنة على تفجير السيارات في شباط/فبراير 1999.

(839) مقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون. المقتطفات من مقابلات مع مسؤولين مختلفين.

(840) مقابلة مع قايوم قرظاي، في 21 أيار/مايو 2002، كابول، أفغانستان.

(841) مقابلة مع حامد قرظاي في 21 تشرين الأول/أوكتوبر 2002، كابول أفغانستان.

(842) المصدر نفسه ومقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(843) المصدر نفسه.

(844) شهادة إندرفيرث أمام اللجنة الفرعية للتخصيصات في مجلس الشيوخ حول العمليات الخارجية. «أفغانستان اليوم: ردّ الولايات المتحدة»، ''Afghanistan today :The US Response''، 9 آذار/مارس، في العام 1999.

(845) مقابلات مع مسؤولين في وزارة الخارجية مطلعين على المحادثات.

(846) حجة بيكرنغ، من المصدر نفسه.

(847) نظرية مسعود خلال تلك الفترة، والمكالمات الهاتفية مع الملا عمر، والاجتماعات مع ممثلي طالبان، مأخوذة من مقابلات عديدة مع مساعدي مسعود وأقاربه. مقابلات مع مستشار السياسة الخارجية، عبد الله، في 8 أيار/مايو 2002، كابول أفغانستان، و 26 شباط/فبراير 2003 في واشنطن العاصمة؛ وأحمد شاه مسعود في 7 أيار/مايو 2002 في كابول أفغانستان. وكذلك عدة مقابلات مع مساعدين لمسعود في الاستخبارات خلال تلك الفترة.

(848) مقابلات مع مسؤولين في وزارة الخارجية. مقابلة مع كارل «ريتش» إندرفيرث، في 7 أيار/مايو 2002، واشنطن العاصمة. ودفاعاً عن هذه السياسية، قال إندرفيرث: «كان واضحاً في محادثاتنا مع الدول الأخرى، أننا لن ندعم نظام حركة طالبان للسيطرة على البلاد، ولن نعترف به حتى تتم معالجة كل تلك المشاكل، ومن بينها الإرهاب وحقوق الإنسان والمخدرات... كما أوضحنا لهم، سواء أكان مع روسيا أم مع إيران، أنه من المهم أن يبقى مسعود قوة معارضة فاعلة. وهذا كل ما لدينا».

(849) «بيان كار إندرفيرث»، طشقند في 19 تموز/يوليو 1999. وأيضاً «إعلان طشقند عن المبادئ الأساسية لوضع اتفاقية سلام للنزاع في أفغانستان».

(850) مقابلة مع إندرفيرث في 7 أيار/مايو 2002.

(851) مقابلات مع مستشاري مسعود ومساعديه. مراجعة: الملاحظة 23.

(852) مقابلات مع العديد من المسؤولين في وزارة الخارجية وإدارة كلينتون. كتب شيهان مذكرة سرّية من ثلاثين صفحة خلال تلك الفترة، طالباً المزيد من الضغط على حلفاء الولايات المتحدة، مثل المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وباكستان، حول موضوع الإرهاب، وسط مذكرة باكستان بأساس مشكلة الإرهاب، واقترحت أن تحتل تلك المشكلة المرتبة الأولى في العلاقات الأميركية - الباكستانية. تجاهل تلك المذكرة، المسؤولون الكبار في وزارة الخارجية، الذين يعتقدون أن التخصيب النووي والتنمية الاقتصادية يجب أن يتصدّرا الأجندة الأميركية مع باكستان. مراجعة: «نيويورك تايمز»، في 29 تشرين الأول/أكتوبر 2001، والـ «واشنطن بوست» في 20 كانون الأول/ديسمبر 2001. نظرية كلينتون حول باكستان مستقاة من مسؤول إداري رفيع المستوى، قام بمراجعة المسألة مع كلينتون في العام 2003.

(853) المعلومات حول انفتاح «السي.آي.إيه.» تجاه مسعود، ورحلة مركز مكافحة الإرهاب إلى بانشير، مأخوذة من مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين، ومن مقابلات مع المستشارين في الاستخبارات والسياسة الخارجية عند مسعود.

(854) المبالغ السابقة التي دفعتها «السي.آي.إيه.» لمسعود بعد العام 1996، بتفويض من برنامج استرداد صواريخ ستينغر. افتتحت الزيارة في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1999، برنامجاً لمكافحة الإرهاب نتج عنه أيضاً مخصصات مالية لمسعود من «السي.آي.إيه.». حمل ضباط الوكالة أموالاً نقدية في أكثر من زيارة رسمية بعد العام 1999. وقدّر مسؤول المبالغ بمعدل 250 ألف دولار أميركي، بينما قال آخر إنها وصلت إلى 500 ألف دولار.

(855) المقتطفات كافة من مقابلات الكاتب. ذلك النوع من المبادلات يعزز نمط الشكوك المتبادلة بين إدارة كلينتون في البيت الأبيض و «السي.آي.إيه.».

(856) لغة المقتطفات من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. يستخدم العديد من الضباط في مختلف المراكز الحكومية الجملة نفسها في المقابلات عندما يصفون تعليمات السياسة. تؤكد جملة تم الكشف عنها في مقطع منقّح من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة: «لا يسمح لـ «السي.آي.إيه.» بإزعاج التوازن السياسي في أفغانستان». ما قاله كلينتون عن مسعود وما ذكره حول التحليلات التي تلقّاها منقول عن مسؤول رفيع المستوى في الإدارة قام بمراجعة الموضوع مع كلينتون في العام 2003، وبالنسبة إلى مذكرة شباط/فبراير، يرجى مراجعة التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 139.

(857) مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومساعدين لمسعود. كجزء من هذه الشبكة، وضعت «السي.آي.إيه.» خطاً هاتفياً آمناً في قبو داود مير، مبعوث مسعود إلى واشنطن، في الضواحي. سمحت الشبكة فعلياً باتصال «السي.آي.إيه.» مع عملاء مسعود الذين وضعوا أجهزة راديو في أراضي طالبان مثل كابول وجلال آباد، وفقاً لمساعدي مسعود في الاستخبارات.

(858) المقتطف من مقابلة الكاتب.

(859) «الحلّ الأميركي» مأخوذ من مقابلة مع مسؤول أميركي.

**(860) مقابلة مع عبد الله في 26 شباط/فبراير 2003.**

**(861) المصدر نفسه.**

**(862) المصدر نفسه.**

**(863) مقابلة مع مساعد رفيع المستوى لمسعود.**

**(864) تم استنتاج دور طالبان من شهادة عنصر في خلية هامبورغ أمام المحكمة، سافر إلى قندهار مباشرة بعد الرجال الأربعة المذكورين أعلاه. شهد منير المتصدّق أن عطا أخبره في شهر شباط/فبراير من العام 2000 عن كيفية السفر إلى أفغانستان للتدرب، وأن التعليمات الوحيدة التي أعطاه إياها هي الذهاب إلى مكتب طالبان في كيتّا. عندما وصل، لم يسأله الطالبان عن سبب مجيئه، ودبّروا له سفره إلى قندهار.**

**(865) سيرة عطا مأخوذة من ماك ديرمونت، Los Angeles Times، في 27 كانون الثاني/يناير من العام 2002. سيرة جرّاح Los Angeles Times، في 27 كانون الثاني/يناير من العام 2003. المعلومات حول بن الشيبةمنقولة عن لابز وماك ديرمونت، منقولة عن «النيويورك تايمز»، 10 شباط/فبراير 2003، Los Angeles Times، في 24 تشرين الأول/أكتوبر 2002، ووكالة «أسوشيتد بريس»، في 14 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(866) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. شهادة جورج تينيت، لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، في 2 شباط/فبراير من العام 2000.**

**(867) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(868) محاكمة منير المتصدّق وإدانته كمتواطئ في هجمات 11 أيلول/سبتمبر، اللتان تمتا في ألمانيا خلال شتاء العام 2003، أشارتا إلى دليل في المحكمة وبيانات شهادة توثّق نشأة خلية هامبورغ وتطورها. ماك درمونت (مراجعة الملاحظة 2) وبيتر فين في «الواشنطن بوست» نشرا مقابلات ريتش حول سيرة حياة عطا وجرّاح وزمّار وآخرين. تقارير «السي.آي.إيه.» والـ «أف.بي.آي.» حول زمّار مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة ص. 29 - 30.**

**(869) سوانسون وكرودسون، «شيكاغو تريبيون»، Chicago Tribune، في 20 شباط/فبراير 2003، نقلا أن «تقارير الشرطة» التي حصلا عليها تبيّن أن «المكالمات المطلوبة تعود إلى ثلاثة رجال دين سعوديين. وقد جرت المكالمات بعد أن تم إطلاق سراح رجال الدين الثلاثة مباشرة في العام 1999، وهم ناصر العمر، سفر الحوالي وسلمان العودة. وقد جرت الاتصالات من هاتف المتصدّق الشخصي.**

(870) «منزل مناسب للدراسة... التعلّق بوالدته»، مأخوذة من ماك ديرمونت، «لوس أنجليس تايمز»، Los Angeles Times، في 27 كانون الثاني/يناير 2002. «تربيته كفتاة» مأخوذة من «نيويورك تايمز» في 10 تشرين الأول/أكتوبر 2001. «التحايل عليه» و «يجسّد فكرة الرسم»، منقولتان عن ماك ديرمونت.

(871) «الخطر» مأخوذة من «الواشنطن بوست» في 15 تموز/يوليو 2002. «سيأتي... الجنّة» منقولة عن لابز وماك ديرمونت، «لوس أنجليس تايمز»، Los Angeles Times، في 27 كانون الثاني/يناير 2003.

(872) بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 16، ص. 2 - 4، 13 - 14، 18 - 19.

(873) المصدر نفسه.

Chicago Tribute(874)

، 26 شباط/فبراير 2003.

(875) المعلومات حول عائلة مشرّف مأخوذة من The New Yorker، في 12 آب/أغسطس من العام 2002. رأي مشرّف في طالبان منقول عن مقابلة مع برويز مشرّف في 25 أيار/مايو 2002، إسلام آباد، باكستان، ومن مقابلات مع مسؤولين وضباط باكستانيين كانوا على اتصال مباشر مع مشرف.

(876) «نزع سترة المغاوير التي يرتديها» و «تريد فعلياً»، مأخوذتان من The New Yorker، في 12 آب/أغسطس 2002.

(877) ما توصلت إليه السفارة مأخوذ من مقابلات مع ضباط أميركيين. وكذلك بروس ريدل، «الدبلوماسية الأميركية وقمة كارجيل في بيت بلير في العام 1999» ’American Diplomacy and the 1999Kargil Summit at Blair House‘، مركز الدراسات المتقدمة في الهند، جامعة بنسلفانيا، سلسلة ملفات السياسة 2002، Policy Paper Series.

(878) المعلومات حول أن مشرّف أخبر شريف بخطته وأن الأخير وافق عليها، مأخوذة من مصادر عديدة، من بينها ضباط أميركيون. لكن ذلك بقي موضوع جدل بين المعلقين والسياسيين الباكستانيين.

(879) المعلومات التي تم الحصول عليها من البرقيات المرسلة من إسلام آباد وعشرات الرسائل السرية، مأخوذة من المقابلات مع مسؤولين أميركيين. التقارير حول تحضير باكستان لترسانتها النووية لاستخدامها إذا دعت الحاجة، منقولة عن ريدل، «الدبلوماسية الأميركية وقمة كارجيل في بيت بلير في العام 1999» ’American Diplomacy and the1999 Kargil Summit at Blair House‘. يذكر ريدل ومن ثم مجلس الأمن القومي، أنه تبيّن من خلال «تقييم صحيح»، أنه «سيقتل حوالى 150 ألف شخص و 850 ألفاً» إذا قامت باكستان بضرب مومباي بسلاح [نووي] صغير واحد. رسالة كلينتون في 19 حزيران/يونيو من شهادة مادلين أولبرايت الخطّية إلى اللجنة الوطنية في 23 آذار/مارس من العام 2004.

(880) ريدل، المصدر نفسه. «يبدو أن شريف يحمي نفسه من أن تكون هذه الرحلة ذهاباً وإياباً».

(881) المصدر نفسه.

(882) مقابلة مع مشاهد حسين، في 21 أيار/مايو من العام 2002، إسلام آباد، باكستان.

(883) «أريد مساعدتكم»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي. «إلى مستوى جيّد... للتحرك»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي ثان.

(884) ريدل، «الدبلوماسية الأميركية وقمة كارجيل في بيت بلير في العام 1999» American Diplomacy and the1999 ' Kargil Summit at Blair'.

(885) ضياء الدين وبيكرنغ، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي. المعلومات عن اجتماع 7 تشرين الأول/أكتوبر بين ضياء الدين وعمر مأخوذة من مايكل غريفن، Reaping the Whirlwind، ص. 233، ومن مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين.

(886) «طلب ضياء الدين من فريق المغاوير التابع لـ «السي.آي.إيه.» حماية شريف من انقلاب»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي مطّلع على تفاصيل تقارير الاستخبارات الأميركية على الفور.

(887) المعلومات هنا عن ضياء الدين واللواء العاشر ونهاية فريق المغاوير الممول من «السي.آي.إيه.»، مأخوذة من مقابلات مع سبعة مسؤولين أميركيين. توقّعت بعض المعلومات التي نشرت حول الانقلاب في جنوبي آسيا وأماكن أخرى، أن مشرّف تحرّك ضدّ شريف ليمنع ضياء الدين من وقف دعم الاستخبارات الباكستانية لحركة طالبان، وبذلك تكون الاستخبارات الباكستانية هي سبب الانقلاب فعلياً. غير أن ضياء الدين كان شخصية ضعيفة ليشكل هذا التهديد. وبالإضافة إلى ذلك، تشير الأدلة بوضوح إلى أن مشرّف لم يكن يخطط لانقلاب في بداية تشرين الأول/أكتوبر. وإلا، لما ذهب في عطلة إلى سريلانكا. إن شريف هو من قضى على حكمه بيده، بسبب سوء تقديره للدعم في الجيش وفي صفوف الاستخبارات الباكستانية ومحاولة طرد مشرّف.

(888)The New Yorker

، في 12 آب/أغسطس من العام 2002.

(889) مقابلة مع مسؤول أميركي.

(890) مقابلة مع مسؤول باكستاني رفيع المستوى مقرّب من مشرّف.

**(891) مقابلة مع توماس بيكرنغ، في 24 نيسان/أبريل من العام 2002، روسلين، فيرجينيا. «حول المحادثات... العودة إلى الديموقراطية»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول آخر في إدارة كلينتون. كان قائد القوات البحرية الأميركية الجنرال أنطوني زيني، ورئيس «سينتوم»، لاعباً أساسياً في العلاقات الأميركية مع مشرّف، خلال أزمة كارجيل والانقلاب، في بداية العام 2000. أثناء السفر وسط آسيا، أخبر زيني الصحافية دانا بريست من «الواشنطن بوست»، أنه إذا فشلت باكستان فستواجهنا مشاكل أكبر. وإذا فشل مشرّف، فسيسيطر على الوضع المتطرفون أو الأصوليون، أو ندخل في فراغ. لذلك لن نسمح لمشرّف بالفشل.**

**(892) مقابلة مع دايفيد بورين في 16 أيلول/سبتمبر 2002، نورمان، أوكلاهوما.**

**(893) شهادة جورج تينيت، لجنة التحقيق المشتركة، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. والتقرير النهائي للجنة، الملحق، ص. 29.**

**(894) «إلى درجة أن الخوف»، منقولة عن دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، The Age of Sacred Terror ص. 311.**

**(895) جوديث ميلر، «النيويورك تايمز»، 15 كانون الثاني/يناير 2001.**

**(896) المعلومات حول اجتماع بيرغر منقولة عن شهادته أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 19 أيلول/سبتمبر 2002. «العمليات التي عرفوا... 2000»، منقولة عن شهادة «ضابط رفيع المستوى» لم تحدد هويته من مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.» أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 20 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(897) المعلومات حول المبلغ النقدي والبرنامج التدريبي، مأخوذة من «سياتل تايمز» The Seattle Times، في 28 حزيران/يونيو 2002.**

**(898) اتصال كلينتون بمشرّف مصدره مقابلة مع مسؤول أميركي رفيع المستوى قام بمراجعة الملاحظات حول الحوار. ميلام من التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 176.**

**(899) بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 31 - 32.**

**(900) مقابلة مع كوفر بلايك، 13 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(901) «دليل مهم ... ماذا يفعلان؟»، مأخوذة من شهادة ضابط في مركز مكافحة الإرهاب، 20 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(902) إليانور هيل، تقرير فريق التحقيق المشترك، 20 أيلول/سبتمبر من العام 2000.**

(903) مقابلة مع كوفر بلايك، في 13 أيلول/سبتمبر 2002. اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 2، ص. 4.

(904) تقرير إليانور هيل، 20 أيلول/سبتمبر 2002.

(905) المصدر نفسه.

(906) شهادة تينيت، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. خلال مراجعتها الخاصة هذا الفشل، استنتجت إليانور هيل «أن الإجراء الذي تتبعه «السي.آي.إيه.» في لائحة المراقبة يعتمد غالباً على الخبرة الشخصية لضابط واحد، وإدراكه كيفية تلقّي الوكالات الحكومية الأخرى تلك المعلومة واستخدامها. كما كانوا يركّزون كثيراً على أدنى معدّل من المعلومات المحدّدة حول شخص ما، قبل وضعه على لائحة المراقبة».

(907) تقرير إليانور هيل، في 20 أيلول/سبتمبر 2002.

(908) للحصول على المعلومات كاملة حول كيفية ربط المخططين في ماليزيا بالهجمات التي تم تنفيذها في 11 أيلول/سبتمبر، يرجى مراجعة بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 16 مع رسومات حول بيانات التحقيقات مع قادة القاعدة المحتجزين في الولايات المتحدة.

(909) شهادة جورج تينيت، لجنة مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، في 2 شباط/فبراير 2000.

(910) شهادة تينيت في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(911) ألقت السلطات في الإمارات العربية المتحدة القبض على زياد الجراح في كانون الثاني/يناير من العام 2000 لمخالفة في جواز سفره. لكن «السي.آي.إيه.» لم تكن معنية بتلك الحادثة قط، كما أن التوقيف لم ينتج عنه أي مراقبة أو إجراءات إضافية، وفقاً لإليانور هيل من فريق التحقيق المشترك.

(912) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين ومساعدي مسعود المتطلعين إلى جمع المعلومات حول «درونتا». بعد 11 أيلول/سبتمبر، أكّدت الأدلة الوثائقية التي ظهرت، اهتمام القاعدة بالأسلحة الكيميائية. فقد تبيّن على حاسوب أيمن الظواهري في كابول، أنه في صيف العام 1999، تبادل ملاحظات مع القائد العسكري لبن لادن، محمد عاطف، عن كيفية بناء مختبر لما يسمّونه برنامج «اللبن». لقد كانت محاولة متواضعة بمبلغ قدره 2000 دولار أميركي. وأشارت التقارير التي وجدها الصحافيون في رشيكور، وهو مخيم تابع للقاعدة يستخدمه الأوزباكستانيون وآخرون من كابول، إلى منهج وفقرة مخصصين لتصنيع «السموم والغازات المهمة»، من بينها حمض السيانيد والريسين. مراجعة: The Wall Street JournalThe New، في 2 تموز/يوليو 2002؛ و York times في 17 آذار/مارس 2002.

(913) «أتعتقدون أنها...»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي. «نحن نستخدم الدواب»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي ثان.

(914) مقابلة مع مسؤولين أميركيين.

(915) المصدر نفسه.

(916) مقابلة مع مساعد رفيع المستوى لمسعود كان على علاقة بالـ «السي.آي.إيه.». وفي الحديث عن أحداث 11 أيلول/سبتمبر، تابع المستشار قائلاً: «هؤلاء الذين ينتقدون الأجهزة الأمنية الأميركية للخسائر البشرية، والمادية والمعاناة، مخطئون. يجب أن ينتقدوا القانون وينتقدوا الناس الذين يقيدون الأشخاص الذين يعرفون كيف سيتصرّفون». جميع المقتطفات من المسؤولين الأميركيين في المقاطع الأربعة السابقة، مأخوذة من مقابلات الكاتب مع مسؤولين رفيعي المستوى مطلعين. بعد 11 أيلول/سبتمبر، قدّم مساعدو كلينتون في البيت الأبيض وضباط «السي.آي.إيه.» في لانغلي، وجهات نظر متعارضة حول أثر التعليمات القانونية المتعلقة بالعمليات السرّية مع مسعود وآخرين. وجاء في شهادة مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر، الذي كان مبدئياً المسؤول عن السلطات القانونية السرّية، أمام لجنة التحقيق المشتركة: «نحن لم نتّبع نموذجاً لتطبيق القانون... حاولنا قتل بن لادن وقادته». وذكر بيرغر رغبة الرئيس في إطلاق صواريخ موجّهة على بن لادن، إذا تم تحديد موقع السعودي، كدليل على نياته. لكن، خلال الجلسة نفسها، شدد كوفر بلايك على أن قوانين البيت الأبيض منعت عمليات «السي.آي.إيه.»، ولاسيما مع المفوضين من قبلهم مثل مسعود. قال: «لم تكن لدينا... قوانين التزام مرنة بشكل كاف». وفي سؤاله عما إذا كان يجب على الولايات المتحدة «أن تعيد النظر في منع استخدام قوة السلاح» في عمليات مكافحة الإرهاب، أجاب بلايك: «نعم».

(917) «علاقة... موضوع ثانوي»، مأخوذة من مقابلة مع مسعود في مركز الاستخبارات التابع له. إدراك المعيار المزدوج في السياسة الأميركية مأخوذ من مقابلات مع عدة مساعدين ومستشارين.

(918) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. المقتطفات من ملفات بلايك مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة ص. 387 - 88. التقارير الأحادية التي تجاوز عددها التقارير المشتركة في العام 1999: من شهادة تينيت أمام لجنة التحقيق المشتركة في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. شهد تينيت: «بحلول 11/9، ستبيّن خريطة أن برامج جمع المعلومات تلك والشبكات البشرية، كان عددها كبيراً إلى درجة أنه يغطي كل أفغانستان تقريباً». إن «السي.آي.إيه.» لم تتمكن قط من اختراق قيادة بن لادن قبل 11 أيلول/سبتمبر، من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة ص. 91. في العام 2003، اشتكى السيناتور شيلبي من هذا الفشل: «إذا استطاعت إدارة مكافحة المخدرات توظيف عملاء أميركيين متخفّين في منظمات للتجارة بالمخدرات في بلدان أجنبية، فبالتأكيد ستستطيع «السي.آي.إيه.» اختراق المنظمات الأصولية الإسلامية العدائية».

(919) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مقتطفات أولبرايت من شهادتها الخطية إلى اللجنة الوطنية، في 23 آذار/مارس من العام 2004.

(920) المصدر نفسه. «ثقته... اليوم التالي»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي.

(921) المصدر نفسه. يذكر عبد الله أنه حصل على خرائط الأقمار الصناعية لمخيم أوروزغان من «السي.آي.إيه.». مقابلة مع عبد الله في 26 شباط/فبراير 2003، واشنطن العاصمة.

**(922) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. التفاصيل حول العمليات التي تم وقف تنفيذها، موجودة في بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 7، ص. 4.**

**(923) مقابلة مع ذكر الله جاهد خان، في 28 أيار/مايو 2002، في كابول، أفغانستان. «بن لادن صعب المنال»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي.**

**(924) المقتطفات من عدة مسؤولين أميركيين ومساعدين في الاستخبارات لمسعود.**

**(925) مقابلات مع عدة مسؤولين أميركين وعدة مساعدين في الاستخبارات لمسعود.**

**(926) المصدر نفسه.**

**(927) المصدر نفسه.**

**(928) مقابلة مع هاغ شيلتون، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2002. ريستون، فرجينيا؛ دايفيد هالبرستام، War in a time of Peace، ص. 414.**

**(929) دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 294-96. «لا يضمنون... ستفشل»، مأخوذة من شهادة بيرغر أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(930) «كل ما كان... لأن الشيخ آت»، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول في البنتاغون. مقتطفات كوهين من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6، ص. 5، وشهادته الخطّية في 23 آذار/مارس من العام 2004.**

**(931) توقُّع هؤلاء المخططين حدوث مشاكل سياسية وتكتيكية بالقرب من باكستان، مأخوذ من مقابلة مع شيلتون في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2002.**

**(932) «كمعيار للوضع العسكري... القوة العسكرية»، مأخوذة من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 294 - 96. «سنزرع الرعب» مأخوذة من المصدر نفسه. ص. 318، ومن مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(933) مقابلة مع شيلتون في 31 تشرين الأول/أكتوبر من العام 2002.**

(934) المصدر نفسه.

(935) المصدر نفسه. ومقابلات مع مسؤولين في إدارة كلينتون.

(936) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(937) المصدر نفسه.

(938) المصدر نفسه. المقتطفات من مقابلة مع مسؤول كبير في إدارة كلينتون.

(939) المصدر نفسه. المقتطفات من مقابلة مع شيلتون في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(940) مقابلة مع شيلتون في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2002، وبالاعتماد على مقابلات مع عدة مسؤولين في إدارة كلينتون أيضاً. «بأنهم يمتلكون... للقيام بذلك»، مأخوذة من مقابلة مع توماس بيكرنغ في 24 نيسان/أبريل من العام 2002، روسلين، فرجينيا. ملاحظة بيرغر حول موت سبعة وستين أميركياً خلال ولاية كلينتون، وأنه لا يرى أي مضمون سياسي للحرب الأميركية على أفغانستان، مأخوذة من شهادته أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002. مذكرة كلارك واجتماع آذار/مارس، مأخوذان من بيان فريق اللجنة الوطنية، الرقم 8، ص. 5 - 6.

(941) مقتطفات شيلتون مأخوذة من مقابلة في 31 تشرين الأول/أكتوبر من العام 2002.

(942) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(943) المعلومات حول هذا الاجتماع مأخوذة من عدة مسؤولين أميركيين وأفغان كانوا موجودين أو مطلعين على تقارير المحادثات.

(944) مقابلة مع عبد الله في 26 شباط/فبراير 2003.

(945) توظيف لاني دايفيس: «الواشنطن بوست»، في 6 شباط/فبراير من العام 2000. دور محمود مأخوذ من مقابلات مع مسؤولين باكستانيين وأميركيين. مراجعة مايكل غريفن، Reaping the Whirlwind، ص. 234 - 35.

(946) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. حياة محمود أيضاً مأخوذة من الصحافي الباكستاني كامران خان ومسؤولين باكستانيين عملوا معه.

(947) مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين.

(948) المعلومات حول تسليم المسلمين العرب مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين. يذكر المسؤولون من الجانبين أن أحد المشتبه فيهم كان أردنياً يحمل جواز سفر أميركياً كان سيتم إطلاق سراحه لعدم توافر التهم ضده. «يفكّر بجدّية»، مأخوذة من «الواشنطن بوست» في 4 شباط/فبراير من العام 2000.

(949) المعلومات حول أن كلينتون نقض جهاز الاستخبارات، مأخوذة من دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 317 - 18، ومن مقابلة مع ريك إندرفيرث في 7 أيار/مايو 2002، واشنطن العاصمة. لقد وثّقت وزارة الخارجية التوسّع الشامل للمقاتلين الكشميريين المرتبطين بالقاعدة خلال أول سنة لمشرف في منصبه، في تقريرها «أنماط الإرهاب العالمي: 2000» 'Patterns of Global Terrorism :2000' ، الصادر في نيسان/أبريل 2001.

(950) «الأولى منذ نيكسون»، مأخوذة من دنيس كوكس، «الولايات المتحدة وباكستان»، The United States and Pakistan، 1947 - 2000 ص. 356.

(951) «إنهم سيتّبعون... حالما نرتفع في الهواء»، مأخوذة من مقابلة مع إندرفيرث في 7 أيار/مايو من العام 2000.

(952) المعلومات حول كلينتون في الطائرة مأخوذة من إندرفيرث، المصدر نفسه. المشهد في تارناك من إندرفيرث، المصدر نفسه، و «الواشنطن بوست» في 26 آذار/مارس 2000، ومن مقابلة مع مسؤول باكستاني كان حاضراً.

(953) مقابلة مع مسؤول باكستاني. الحوار منقول عن المسؤول.

(954) «المشكوك في ولائهم»، مأخوذة من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 317 - 18.

(955) معلومات بيرغر، المصدر نفسه. وكذلك مقابلة مع مسؤول باكستاني وبيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 5 ص. 13 - 14.

(956) «من خطر... الفوز به»، مأخوذة من «الواشنطن بوست» في 26 آذار/مارس 2000.

(957) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(958) المصدر نفسه. المقتطفات من مقابلة أجراها الكاتب مع مسؤول.

(959) «تردّد» مأخوذة من مقابلة مع هوغ شيلتون في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2002، روسلين، فرجينيا. «تحمل مفتاحاً» منقولة عن شهادة أنطوني زيني أمام لجنة مجلس الشيوخ المسلحة، في 29 شباط/فبراير 2000.

(960) «الأشخاص... في هذا الموقف»، مأخوذة من بارتون جيلمان، «الواشنطن بوست»، في 19 كانون الأول/ديسمبر من العام 2001. ومن مقابلات مع مسؤول أميركي ومسؤول باكستاني. التقارير حول طالبان وبن لادن مأخوذة من اللجنة الوطنية، بيان الفريق، الرقم 5، ص. 10.

(961) جيم جودا، 'Survival' و ,The Taliban Papers' ص. 69 - 80. استفاد مقال جودا المهم من ملفات وزارة الخارجية المكتشفة في السفارة الباكستانية المنهوبة في كابول فوراً بعد سقوط العاصمة في خريف العام 2001.

(962) المصدر نفسه. إذا كانت الملفات الباكستانية دقيقة، وتقارير جودا لا تترك أدنى شك في أنها صحيحة، فسيكون كل «السي.آي.إيه.»، أو بعضها، ومجلس الأمن القومي والمسؤولون في وزارة الخارجية الذين التقوا مسعود في نيسان/أبريل، قد نقلوا تلك التهديدات لدعم الهجمات الجوية الروسية والهجوم بالصواريخ الأميركية الموجّهة ضدّ أهداف لحركة طالبان.

(963) المصدر نفسه.

(964) المصدر نفسه. الشهادة الخطّية للويس فريه أمام اللجنة الوطنية في 13 نيسان/أبريل 2004. تينيت ومشرّف، مأخوذان من التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 503.

(965) مقابلة مع مسؤول باكستاني تحدّث مع محمود خلال ربيع العام 2000. قال المسؤولون الأميركيون إنهم لم يبدأوا باكتشاف تحوّل مسعود الديني حتى السنة التالية.

(966) من مقابلة مع المسؤول الباكستاني نفسه.

(967) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(968) المصدر نفسه.

(969) أقله 3 ملايين من حسابات بنك التجارة الوطني، مأخوذة من شهادة فينسينت كانيسترارو، لجنة العلاقات الدولية في البيت الأبيض، في 3 تشرين الأول/أكتوبر 2001. «بوسطن هيرالد»، Boston Herald في 14 تشرين الأول/أكتوبر 2001. وإن منظّمة الإغاثة الإسلامية الدولية أعطت حركة طالبان 60 مليون دولار، مأخوذة من أمينها العام، عدنان باشا، مذكورة في «الواشنطن بوست»، في 29 أيلول/سبتمبر 2001.

(970) وقف برقية شيهان، مأخوذة من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror ص. 294 - 95.

**(971) «ادّعاءات... تطبّق بالشكل المناسب»، مأخوذة من تقرير وزارة الخارجية «أنماط الإرهاب الشامل: 2000»، ‘Patterns of Global Terrorism :2000’، نيسان/أبريل 2001. ونتيجة التحقيقات الأميركية مأخوذة من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 15 ص. 10.**

**(972) مقابلة مع الأمير تركي في 2 آب/أغسطس 2002، كانكون، المكسيك. «لم تطوّر... الخارجية» مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، ص. 17.**

**(973) ما اعتقده مسعود في صيف العام 2000، مأخوذ من مقابلات مع مساعديه الكبار. خطوط إمداد مسعود مفصّلة في في تموز/يوليو 2001. المعلومات حول مبلغ الـ Human Rights Watch10، وAfghanistan, Crisis of Impunity ملايين دولار من الهند، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي مطّلع على التقارير المفصلة عن مساعدة مسعود. وهذا الرقم مقدّر لسنة واحدة كمساعدة من الهند في العام 2000. المعلومات حول هروب إسماعيل خان من سجن في قندهار، مأخوذة من لاري غودسون، Afghanistan Endless War، ص. 84. لقد وقع في أسر طالبان منذ العام 1997. كما ذكر مساعد وزير الخارجية إندرفيرث، في شهادته أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية للسيناتورات في تموز/يوليو2000، محاولة اغتيال حاكم طالبان في قندوز كدليل على تجمّع الثورة.**

**(974) مقابلة مع عبد الله في 8 أيار/مايو 2002، كابول أفغانستان. وأيضاً مقابلة مع مساعد لمسعود رفيع المستوى في الاستخبارات.**

**(975) مقابلة مع دانييل بليتكا، 27 آذار/مارس 2007، واشنطن العاصمة. في بداية العام 2000، قدّمت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت إلى الكونغرس بياناً من 24 صفحة بعنوان «أميركا والعالم في القرن الحادي والعشرين»، ‘America and the World in the21st Century’ ، خصصت منه جملة واحدة لأفغانستان، ولم تذكر بن لادن باسمه.**

**(976) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. قدّمت وزارة الخارجية مئات آلاف الدولارات خلال العام 2000 لمساعدة الجهود في المفاوضات السياسية التي نظمتها مكاتب الملك ظاهر شاه من المنفى في روما. لكن في السنة التالية، خفّت الصراعات بين الفصائل الملكية والتقدم البطيء للمسؤولين المخذولين والرواتب.**

**(977) «ملاحظات كارل إندرفيرث»، في جلسة استماع أمام لجنة العلاقات الخارجية للسيناتورات، واللجنة الفرعية لشؤون الشرق الأدنى وجنوبي آسيا. كان عنوان الجلسة: «حركة طالبان: التزام أم مواجهة؟». لا يمكن الكونغرس أو إدارة كلينتون أن تقرر في هذه المسألة.**

**(978) مقابلات مع مسؤولين أميركيين من بينهم غاري شروين في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2002 في واشنطن العاصمة.**

**(979) المصدر نفسه.**

(980) مقابلة مع حامد قرظاي في 21 تشرين الأول/أكتوبر 2002 في كابول، أفغانستان.

(981) مقابلة مع خطّاب في 23 أيار/مايو 2002، في إسلام أباد، باكستان.

(982) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(983) المصدر نفسه. المعلومات حول الصراعات الداخلية وحول السفر إلى بانشير في هذا المقطع، مأخوذة من مقابلات مع أربعة مسؤولين مطلعين على الموضوع.

(984) مقابلة مع مساعد لمسعود رفيع المستوى في الاستخبارات.

(985) المصدر نفسه.

(986) تفاصيل المحادثات حول الخيارات الجديدة لمطاردة بن لادن، مأخوذة من مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. شهد بيرغر حول المذكرة التي كتبها لكلينتون وأرّخها في شباط/فبراير أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002.

(987) مقابلات مع عدّة مسؤولين أميركيين. عمل كلارك داخل مجموعة من الائتلاف البيروقراطي، وكانت قدرته على خلق السياسات أو التغييرات المبرمجة بنفسه محدودة. كان جورج تينيت متنبّهاً بشكل استثنائي إلى تهديد القاعدة، ويحذّر البيت الأبيض من تهديدات محدّدة، ويضغط لعرقلة جهود مركز مكافحة الإرهاب التابع لـ «السي.آي.إيه.». لم يتّضح كثيراً دور تينيت في الخلافات الرئيسية في السياسة بعد العام 1998، حول تسليح الحلف الشمالي سرّياً أو دعم الطائرات من دون طيّار. ملاحظة ألان مأخوذة من بيان اللجنة الوطنية الرقم 7، ص. 5.

(988) التفاصيل حول برنامج «الصقر» مأخوذة من مقابلة مع دوي كلاريدج، في 28 كانون الأول/ديسمبر 2001، إسكونديلو، كاليفورنيا. أكّد مسؤولون آخرون في «السي.آي.إيه.» هذه المعلومات. لم يُظهر البحث عن قواعد الكترونية للأخبار أي معلومات نُشرت سابقاً عن برنامج «الصقر». كما أن كلاريدج لم يناقشه في أطروحته.

(989) المعلومات عن كريم ودوره مأخوذة من مقابلة مع جايمس ووسلي في 20 شباط/فبراير 2002، في واشنطن العاصمة. مراجعة Aviation Week and Space Technology، في 14 كانون الأول/ديسمبر 1987، 23 أيار/مايو 1988 و20 حزيران/يونيو 1988، للحصول على تفاصيل عن تاريخ آمبر ومواصفات تصاميمه Popular Science أيلول/سبتمبر 1994، يحكي عن تاريخ الطائرات من دون طيّار إلى هذه المرحلة، بالإضافة إلى معلومات عن دور كريم.

(990) مقابلة مع توماس تويتن في 18 آذار/مارس 2002، واشنطن العاصمة. مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002. المعلومات حول تمويل القوات البحرية مأخوذة من Aerospace Daily، في 28 كانون الثاني/يناير 1994. بين فترة ولادتها كـ «آمبر» وبدايتها العملية كـ «بريداتور»، كان يسمّى نموذج الطائرة من دون طيار «غنات» أيضاً.

(991) مقابلات مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002، وتويتن في 18 آذار/مارس 2002. مقابلة مع ويت بيترز في 6 أيار/مايو 2002 في واشنطن العاصمة. أعلنت القوات الجوّية أن «سرب الاستطلاع الحادي عشر» Eleventh Reconnaissance Squadron ستشغّل «بريداتور» في تموز/يوليو 1995، Aerospace Daily في 31 تموز/يوليو 1995.

(992) أربع وعشرون ساعة وخمسمئة ميل و 25 ألف قدم وآلة التصوير من نوع «سوني»، مأخوذة من Popular Science، Air force Magazine، أيلول/سبتمبرأيلول/سبتمبر 1994. دور الطيّارين في الشاحنة منقول عن مجلة «القوات الجوّية»، 1997، التي تصف «سرب الاستطلاع الحادي عشر» Eleventh Reconnaissance Squadron، وكذلك من مقابلة مع بيترز في 6 أيار/مايو 2002.

(993) مقابلة مع ولسي في 20 شباط/فبراير 2002.

(994) الجدل حول تجميع المعلومات مقابل سلسلة القتل، مأخوذ من مقابلة مع بيترز، في 6 أيار/مايو 2002. ومن مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين آخرين. تجارب القوات البحرية لوصل الـ «بريداتور» لمهاجمة الغواصات مأخوذة من Defense Daily في 7 حزيران/يونيو 1995. الاستهداف بواسطة اللايزر في كوسوفو وعدم استخدامه مأخوذ من مقابلة مع بيترز.

(995) مقابلة مع توماس بيكرنغ في 24 نيسان/أبريل 2002، روسلين، فيرجينيا. مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. مقتطفات كلارك مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي.

(996) المقتطفات مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(997) بارتون غيلمان هو أوّل من وصف الجدل حول معاهدة القوات النووية المتوسطة في «الواشنطن بوست»، في 19 كانون الأول/ديسمبر 2001. والمعلومات هنا أيضاً من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(998) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(999) مقابلة مع بيترز في 6 أيار/مايو 2002. مقابلات مع مسؤولين أميركيين آخرين. دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 322 - 23.

(1000) هذه المعلومات حول مهمة إثبات مفهوم الـ «بريداتور»، بالإضافة إلى المشاهد في مركز الطيران في لانغلي، مأخوذة من مقابلات مع خمسة ضباط أميركيين مطلعين على العملية. المقتطفات كافة من مقابلات الكاتب، باستثناء حديث كلارك إلى بيرغر، مأخوذة من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 8، ص. 7.

(1001) المصدر نفسه. أفاد بنجامين وسايمونز بمعلومات عن مهمة الخريف التي شملت حادثة «ميغ»، لكنهم لم يشيروا إلى مكان مركز الطيران وطبيعة المشاهدين.

(1002) المصدر نفسه.

(1003) المصدر نفسه. «الطيار سيعود» مأخوذة من مقابلة مع مسؤول أميركي.

(1004) مقابلة مع بيترز في 6 أيار/مايو 2002. مقابلات مع مسؤولين أميركيين. أفاد بنجامين وسايمونز أن بيتر حلّ المشكلة في كانون الأول/ديسمبر من العام 2000 من خلال تخصيص مبلغ كاف من المال لاستمرار برنامج الـ «بريداتور» في أفغانستان مستمراً.

(1005) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. ذكر أحد هؤلاء المسؤولين عن مشكلة الرياح: «مهما بلغت سرعة الطائرة كانت ستتراجع إلى الخلف. لذلك كان علينا التوقّف. وفكرنا في أن نبدأ مجدّداً في آذار/مارس أو نيسان/أبريل».

(1006) المعلومات حول المحادثات الطويلة حول أنماط التدمير في تارناك مأخوذة من مقابلات مع عدة مسؤولين أميركيين. وصف تارناك من مقالات وزيارات الكاتب في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(1007) المصدر نفسه. في العام 2001 راقبت «السي.آي.إيه.» بن لادن ينقل عائلته ومدنيين آخرين من تارناك، ويبدأ بتحويل المجمّع إلى مخيم تدريب عسكري. استنتج المحللون الأميركيون أن بن لادن عرف أخيراً أنه يخضع للمراقبة في مزرعة تارناك وأنها لم تعد مكاناً آمناً. لقد وضع مكان الأرجوحة حواجز عسكرية وميداناً للتدرب على إطلاق النار.

(1008) «نيوزويك» Newsweek، في 8 نيسان/أبريل 2002. أدلى كلينتون بهذه الملاحظات في مقابلة مع جوناثان ألتر. «لا يهتم... الأبرياء» مأخوذة من خطاب كلينتون في مؤتمر حزب العمال البريطاني في 3 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

(1009) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. وكذلك غيلمان، «الواشنطن بوست» في 19 كانون الأول/ديسمبر 2001، وبنجامين وسايمونز في Age of Sacred Terror. قال أحد المسؤولين في البيت الأبيض عن حماسة تينيت لصور الـ «بريداتور»: «لقد قال تينيت أثناء مشاهدة الشريط إنه أعظم ما توصّلوا إليه حتى اليوم. وإنها فكرته في الأساس». نظرية كلينتون «الاقتناع الشديد» مأخوذة من مقابلة مع مسؤول إداري رفيع المستوى قام بمراجعة الموضوع مع كلينتون في العام 2003.

(1010) لاري بي. غودسون، Afghanistan Endless War'Human Right Watch, ص. 84. مراقبة حقوق الإنسان Crisis of Impunity'، تموز/يوليو 2001. أفاد مراسلو مراقبة حقوق الإنسان، أن «حكومة الولايات المتحدة كانت قلقة جداً من احتمال تورّط باكستان» في السيطرة على تالوكان «إلى درجة أنها أصدرت عريضة إلى الحكومة الباكستانية في أواخر العام 2000 تطلب إليها ضمانات بعدم تورط باكستان. وتتضمن العريضة مزايا للهجوم على تالوكان تشير إلى أن حركة طالبان تلقّت مساعدة خارجية... من بينها القوة المدفعية، علماً بأن معظم العمليات القتالية جرت أثناء الليل». تقدير ميزانية طالبان بـ 30 مليون دولار، مأخوذ من بيان فريق اللجنة الوطنية، الرقم 15، ص. 11.

(1011) «الواشنطن بوست» في 13 تشرين الأول/أكتوبر 2000. و 15 تشرين الأول/أكتوبر 2000 و 19 حزيران/يونيو 2001. استنتاجات «السي.آي.إيه.» لاحقاً مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(1012) عدم وجود تحذيرات تكتيكية محدّدة مأخوذة من «الهجوم على المدمرة الأميركية «كول»: معلومات ومواضيع للكونغرس». خدمة الأبحاث في الكونغرس، في 30 كانون الثاني/يناير 2001. استقالة محلّل البنتاغون مأخوذة من «الواشنطن بوست» في 26 تشرين الأول/أكتوبر من العام 2000. و «النيويورك تايمز» في 26 تشرين الأول/أكتوبر 2000. بنجامين وسايمونز من Age of Sacred Terror، ص. 324. دافع زيني عن نفسه في شهادة أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ في 19 تشرين الأول/أكتوبر 2000. مراجعة «الواشنطن بوست» في 20 تشرين الأول/أكتوبر 2000.

(1013) شهد ساندي بيرغر أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002، أنه «عندما ترك عمله، لم يكن المجتمع الاستخباري أو المسؤولون عن تطبيق القانون قد توصّلوا إلى قرار حول المسؤولية عن مهاجمة «كول». لقد توصّلوا إلى القرار في الوقت الذي غادرنا فيه و 11 أيلول/سبتمبر». وأفاد فريق اللجنة الوطنية أن «المسؤولين الرفيعي المستوى» في إدارة بوش تلقّوا «التحاليل نفسها» التي تلقتها إدارة كلينتون في أواخر السنة، التي تبين تورط عناصر من القاعدة، لكنها تفتقر إلى دليل على دور بن لادن. وأظهر التقرير السنوي لوزارة الدولة حول الإرهاب الدولي، الذي وُضع من تقارير لـ «السي.آي.إيه.» ومجتمعات استخبارية أخرى، ونُشر في نيسان/أبريل 2001، عدم وجود أي «علاقة مؤكدة» بين الهجوم على المدمرة «كول» و «منظمة بن لادن». وذكر بيرغر ومسؤولون آخرون في إدارة كلينتون، أن نقص الأدلة المؤكدة على تلك العلاقة، كان أحد الأسباب الذي منعتهم من شن هجوم عسكري ضد بن لادن أو حركة طالبان قبل مغادرتهم البيت الأبيض. لكن، كشفت مقابلات تتعلق باقتراح عمليات مسعود السرية ومواضيع أخرى كانت موضوع جدل خلال أواخر خريف العام 2000، أنه لأسباب عديدة، من بينها السياسات الوطنية غير المستقرة والرغبة في عدم تقييد خيارات الرئيس الجديد، لم يهتم كلينتون وبيرغر بشن عملية عسكرية. وبالرغم من عدم تحديد المسؤول عن مهاجمة «كول»، كانوا سيجدون طريقة أخرى لتبرير هجومهم لو أرادوا شن هجوم عسكري. إن أسباب تردّد إدارة بوش تجاه موضوع بن لادن، مذكورة في الفصلين 30 و 31.

(1014) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. المقتطفات مأخوذة من مقابلات الكاتب.

(1015) الخيارات الثلاثون والمقتطفات من كلارك ورئيس العمليات شيلتون، مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة ص. 279 و 305 - 6. مقتطفات أولبرايت مأخوذة من شهادتها الخطّية المقدّمة إلى اللجنة الوطنية في 23 آذار/مارس 2004.

(1016) المصدر نفسه.

(1017) من شهادة بلايك أمام لجنة التحقيق المشتركة في 26 أيلول/سبتمبر 2002.

(1018) مقابلات مع خمسة مسؤولين أميركيين مطلعين على خطة «السي.آي.إيه.». المعلومات المتعلقة بتطور الخطة في المقاطع السبعة التالية، مأخوذة من هذه المقابلات.

(1019) كانت «النيويورك تايمز» في 16 كانون الثاني/يناير 2001، أوّل من وصف الاجتماعات الرئيسية في 20 كانون الأول/ديسمبر. وشدّدت تلك المعلومات على المحادثات خلال الاجتماع مع المسؤول عن تفجيرات المدمرة «كول». والمعلومات حول أن المجتمعين رفضوا رسمياً الخطة التي يدعمها كلارك و «السي.آي.إيه.» لمساعدة مسعود سرّاً، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. «إلى الخلف» مأخوذة من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 8، ص. 8.

(1020) «قليلاً... عملية أسر»، مأخوذة من مقابلة مع مساعد لمسعود في الاستخبارات.

(1021) وفقاً للمقابلة مع شروين، في 19 أيلول/سبتمبر 2002، واشنطن العاصمة، خرج آخر وسابع فريق لـ

«السي.آي.إيه.» من بانشير قبل 11 أيلول/سبتمبر في أوائل شتاء العام 2001، عندما تم تخزين الهليكوبتر.

(1022) «أعد... مذهل» مأخوذة من جواب كلينتون عن سؤال خلال خطاب في جمعية واشنطن لجمعية المدراء التنفيذيين في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2001، كما ذكرت في USA Today في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

(1023) المعلومات حول أن بوش لم يتحدث علناً عن بن لادن أو القاعدة، مأخوذة من بحث لقاعدة «لكسيس - نكسيس» الاخبارية. من الممكن أن يكون الكاتب قد غفل عن بعض المعلومات، لكن القاعدة مكثّفة جداً. خطة الحزب من الموقع الالكتروني www.rnc. orgBulletin Broadfaxing Network, Inc. من نسخة لمقابلة.. «إذا قام بلد... استخبارية كافية»، مأخوذة من مع بوش في «فوكس نيوز» Fox News في 12 تشرين الأول/أكتوبر 2000.

(1024) «الصحيفة الوطنية» National Journal في 4 أيار/مايو 2000. ذكره أيضاً ألان سيولينو في «النيويورك تايمز»، 16 حزيران/يونيو 2000.

(1025) المقتطفات كافة في هذا المقطع مأخوذة من سيولينو، «النيويورك تايمز»، 16 حزيران/يونيو 2000.

(1026) مقابلة مع السيناتور السابق، دايفيد بورين، 16 أيلول/سبتمبر من العام 2002، نورمان، أوكلاهوما.

(1027) المصدر نفسه. المقتطفات كافة مأخوذة من حديث بوش مع بورين.

(1028) «فترة غير محددة... في وقت لاحق»، مأخوذة من «النيويورك تايمز» في 19 كانون الثاني/يناير 2001.

(1029) «أعرب... أسلحة الدمار الشامل»، مأخوذة من تقرير الأخبار الفدرالية. تمت الزيارة في 20 آذار/مارس 2001.

(1030) «الأول... نوع الخطر» مأخوذة من شهادة بيرغر أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002. ما قاله بيرغر لرايس مأخوذ من مقابلات مع عدّة مسؤولين أميركيين. مراجعة بارتون غيلمان، «الواشنطن بوست»، في 20 كانون الثاني/يناير 2002، ودانييل بنجامين وستيفن سايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 328 - 29.

(1031) وصف كلارك تهديد القاعدة بالـ «وجودي» مأخوذ من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 328 - 29. تقييم «السي.آي.إيه.» السنوي حول التهديد، الذي قدّمه تينيت، يركز أيضاً على أولوية تهديد الصواريخ من الأنظمة العدائية. لقد كان هذا الخطر هوالأول على لائحة تينيت التي يذكرها علناً حتى العام 2001. وفي شهادته في 7 شباط/فبراير 2001، ذكر مدير

«السي.آي.إيه.» للمرة الأولى خطر القاعدة كأولوية. مقتطفات أرميتاج مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، ص. 39.

(1032) المقتطفات من مذكرة 25 كانون الثاني/يناير ذكرت أقله في ثلاث مقالات. غيلمان، «الواشنطن بوست»، 20 كانون الثاني/يناير 2000، ذكر «الخلايا النائمة» وتهديداً كبيراً بحدّ ذاته». بنجامين وسايمونز في Age of Sacred Terror، ذكرا «للضرورة القصوى» و «ليس موضوعاً إرهابياً محدوداً». مراجعة بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 8، ص. 9.

(1033) مراجعة الملاحظة 10. فكرة عقد «صفقة» مع مشرّف وتبادل القواعد العسكرية للمساعدة في قضية بن لادن، لم تذكر في المعلومات المنشورة في هذا السياق. إنها مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(1034) «كانت مطروحة... أسفل اللائحة»، مأخوذة من بنجامين وسايمونز، Age of Sacred Terror، ص. 335 - 36. أفكار رامسفيلد مأخوذة من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 6، ص. 11.

(1035) المحادثات حول تجارب الـ «بريداتور» المسلّحة و «التجسس والإطلاق»، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين. إصابة الصاروخ للبرج مأخوذة من «نيويورك تايمز»، في 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2001. مذكور في الأنظمة الفضائية الذرية العامة، البيان الصحافي الصادر في تاريخ الفحص.

(1036) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مراجعة غيلمان، «الواشنطن بوست»، 20 كانون الثاني/يناير 2002.

(1037) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. مراجعة بيان فريق اللجنة الوطنية، الرقم 7، ص. 6.

(1038) المصدر نفسه. «إحدى أفكار... كارثية»، مأخوذة من مقابلة.

(1039) في مقابلة مكثّفة حول سياسة الولايات المتحدة تجاه أفغانستان في 27 آذار/مارس 2001. طلب إلى إثام تلخيص السياسة الأميركية تجاه طالبان. قال: «نقيم علاقات مع الفصائل الأفغانية كافة، من بينها حركة طالبان. نتحدّث إلى طالبان عندما نحصل على الفرصة الملائمة، وعندما يكون لدينا ما نقوله، مثلما نتكلم إلى ممثلي الحلف الشمالي، ومثلما نتكلم مع ممثلي الملك السابق للفصائل الأفغانية خارج أفغانستان». The News Hour with Jim Lebrer، «ساعة إخبارية مع جيم ليبرير»، في 27 آذار/ مارس 2001. كلارك ورايس وهادلي من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 5، ص. 15.

(1040) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(1041) المصدر نفسه. «احتمال... الداخل» مأخوذة من ' لزلماي'Afghanistan :The Consolidation of a Rogue State خليل زاد ودانييل بايمان، The Washington Quarterly، شتاء العام 2000.

(1042) تقضي خطة الحزب الجمهوري بأن «تلتزم الولايات المتحدة مع الهند» و «تبقى حريصة» تجاه علاقتها مع باكستان. عيّن بوش بلاكويل سفيراً إلى الهند، في نيودلهي. وطالب بلاكويل مرة بسياسة أميركية أكثر حزماً تجاه مشرّف.

(1043) تبادل الرسالة والمقتطفات عن ستالين، مأخوذة من مقابلة مع مسؤول باكستاني.

(1044) «وجدنا... يرفضون التعاون»، مأخوذة من ملفات وُجدت في السفارة الباكستانية في كابول، أفغانستان، بعد 11 أيلول/سبتمبر 2001 ونقلها تيم جودا كـ ' في Survival'The Taliban Paper، ربيع العام 2002، ص. 69 - 80. «أسوأ النتائج في العالمين» مأخوذة من رسالة بوش من شهادة كولين باول الخطية إلى اللجنة الوطنية في 23 آذار/مارس 2004.

(1045) مقابلات مع مسؤولين باكستانيين مطلعين على المحادثات . «يخسرون الكثير... على محمل الجدّ»، مأخوذة من مقابلة مع مشترك باكستاني في المحادثات. رسالة عمر إلى مشرّف مأخوذة من جودا، ' في Survival'The Taliban Paper.

(1046) بعد أن فرضت الأمم المتحدة جولة أخرى من العقوبات الاقتصادية ضد طالبان في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر 2000، التقى وزير الخارجية الباكستاني نظيره من حركة طالبان للعمل على تجنّب العقوبات من دون لفت الأنظار. ووفقاً لمحضر الاجتماع الذي اكتشفه تيم جودا في كابول، اعترف مبعوث الملا عمر، الملا متوكّل، أن «حركة طالبان ليست متفائلة كثيراً بإدارة بوش الجديدة»، لأنها تعتقد أن «بوش وكلينتون وجهان لعملة واحدة». وأعرب الوزير الباكستاني عن غضبه من زلماي خليل زاد الذي اقترح «إعلان باكستان بلداً إرهابياً». أكّد المبعوث الباكستاني لحركة طالبان أن حكومته «لن تنتقص من قَدْر السفارة الأفغانية» في إسلام آباد كما تنص العقوبات الصادرة عن الأمم المتحدة، برغم أنها «ستجري بعض الانتقاصات الظاهرية لإظهار بعض الإذعان». وفي برقية أخرى اكتشفها جودا، التي تقدم مواضيع للسفراء الباكستانيين لاستخدامها في الدفاع عن طالبان، طلبت وزارة الخارجية «تجنّب أي تصريحات تسيء إلى حركة طالبان». جودا، ' في Survival'The Taliban Paper.

(1047) وصفُ التماثيل منقول عن جايسون إليوت، An Unexpected Light، ص. 336 - 37. «لا أفهم... الصخور»، مأخوذة من مولي مور، «الواشنطن بوست»، في 2 آذار/مارس 2001. ووفقاً لرمزي بن الشيبة، اشترك العديد من السعوديين الذين سيصبحون «خاطفي الطائرات» في 11 أيلول/سبتمبر في عمليات التخريب. مراجعة التقرير النهائي للّجنة الوطنية، ص. 527.

(1048) هذه المعلومات حول زيارة حيدر إلى قندهار مأخوة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين. المقتطفات كافة مأخوذة من مقابلة مع مسؤول باكستاني. ذكرت صحيفة «تايمز»، في 12 آب/أغسطس 2002، معلومات مشابهة حول الاجتماع الذي دام ساعتين وفقاً للأشخاص الذين تمت مقابلتهم.

(1049) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(1050) المصدر نفسه.

(1051) انتشار التقارير التهديدية خلال الأشهر الثلاثة الأولى من العام 2001، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين وباكستانيين وسعوديين. مقتطفات تينيت من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، الملحق، ص. 38. قال تركي في مقابلة إن

«الأميركيين أغرقوه بالتحذيرات. في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير وآذار/مارس». حصلنا على تقارير تقول: «نشتبه في حصول أمر. نرجو أن تبقوا حذرين». وذكر المسؤولون الباكستانيون الأمر نفسه عن تينيت. ملاحظات بن لادن عن «كول» التي تم تسجيلها خلال ذلك الشتاء خلال حفلة زفاف أفغانية عندما تزوج أحد أبنائه بكريمة قائده المصري، ليوثقوا الروابط بين الأسرتين، فتم بثّه على قناة «الجزيرة» في 2 آذار/مارس 2001. «في عدن استعد الشاب للحرب المقدسة، ودمّر المدمرة التي يخافها الأقوياء». لقد قال إن «كول» «أبحرت إلى هلاكها» إلى جانب مسيرة من «العجرفة المزيفة والغرور والعظمة». تبادُلُ رايس وتينيت مذكرة «السي.آي.إيه.» حول صلاحيات العمليات السرية مأخوذ من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 7، ص. 7. أقوال بوش من التقرير النهائي، ص. 199.

(1052) مقابلات مع مسؤولين باكستانيين. «خوفاً من حرب أهلية» مأخوذة من مقابلة.

(1053) مقابلات مع مسؤولين أميركيين.

(1054) زيارة تينيت إسلام آباد مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين باكستانيين وأميركيين. لم تحضر الاجتماع المصادر كافة التي وصفته. لا يزال جدول أعمال المحادثات مع مسعود ونطاقها غير واضحين، لكن، من المؤكد أن محمود لم يبذل جهداً لتغيير سياسات جهاز الاستخبارات الباكستاني وممارساته في أفغانستان. كما أن تاريخ زيارة تينيت غير مؤكّد، إذ يبدو أن زيارته تمت في أواخر شهر آذار/مارس أو نيسان/أبريل.

(1055) بدأت أوتيلي إنغليش بالعمل كمصدر ضغط مأجور لحساب الحلف الشمالي في 15 شباط/فبراير 2001. الرسالة إلى تشيني مأخوذة من مقابلة مع هارون أمين، القائم بالأعمال في السفارة الأفغانية في واشنطن في 9 أيلول/سبتمبر 2002. المعلومات حول سفر مسعود مأخوذة من مقابلات مع مساعديه. وجهة نظر مسعود خلال ذلك الربيع مأخوذة من حوار على شريط مسجل مع إنغليش وإيلي كراكوفسكي في حزيران/يونيو 2001 (المذكور أدناه بـ «شريط إنغليش») ونسخ عن أشرطة مصورة لمحادثات جرت بين مسعود وبيتر تومسون وحامد قرظاي وعبد الحقّ، كذلك في شهر حزيران/يونيو2001 (المذكور بـ «شريط تومسون»).

(1056) مقابلات مع مسؤولين أميركيين ومساعدين لمسعود.

(1057) المصدر نفسه.

(1058) المصدر نفسه.

(1059) «لوس أنجليس تايمز»، Los Angeles Times، في 12 حزيران/يونيو 2002.

(1060) شريط إنغليش، مقابلات مع عدة مساعدين لمسعود.

(1061) شريك إنغليش وشريط تومسون

(1062) المقتطفات كافة من شريط إنغليش. الترجمة من «داري» قام بها مساعد مسعود أمر الله صالح.

(1063) مقتطفات مسعود كلها من المصدر نفسه.

(1064) مقابلة مع أوتيلي إنغليش في 3 أيلول/سبتمبر 2002، واشنطن العاصمة.

(1065) مقابلة مع بيتر تومسون في 21 كانون الثاني/يناير 2002، أوماها، نيبراسكا، واتصالات تومسون الخطية المتتالية.

(1066) المقتطفات كافة مأخوذة من نسخة إنغليش عن شريط تومسون. كان دور عبد الحق في الاجتماع مصدراً لبعض التوتر. كان عبد الحق يعارض مقابلة مسعود على الأراضي التابعة للحلف الشمالي. كما عارض وحامد قرظاي

الاستراتيجية ضدّ طالبان وفقاً لمساعدي مسعود وقرظاي. اعتقد عبد الحق أنهم يستطيعون التفاوض مع حركة طالبان ويتجنبون الخسائر. كان قرظاي يفضل التفاوض لكنه مستعد أيضاً للاشتراك في عملية عسكرية. وفي النهاية، توفي عبد الحق لأنه اعتقد أنه يستطيع توحيد الباشتون شرقي أفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2001، لمجرد دعوة مؤيديهم الشخصيين والقبليين. لا تزال «السي.آي.إيه.» مشككة في عبد الحق. وعلى الرغم من تبني الوكالة لقرظاي، تخلّى ضباطها عن عبد الحق، باعتباره رجلاً لا يمكنه تحقيق أي نتيجة.

(1067) بارت غيلمان، «واشنطن بوست»، في 20 كانون الثاني/يناير 2002. «تايمز»، في 12 آب/أغسطس 2002، يؤرخ المحادثات في أول أيام ربيع العام 2001. ومن مقابلة مع مسؤول في البيت الأبيض أيضاً.

(1068) غيلمان، «الواشنطن بوست»، في 20 كانون الثاني/يناير 2002. و «التايمز» في 12 آب/أغسطس 2002، وصفت جدول الأعمال وبعض المحادثات خلال ذلك الاجتماع. مقتطفات أرميتاج مأخوذة من شهادته، «الأخبار الفدرالية»، في 19 أيلول/سبتمبر 2002. عرض «السي.آي.إيه.» مأخوذ من التقرير النهائي للجنة الوطنية، ص. 203.

(1069) شهادة بول ولفوفيتز أمام لجنة التحقيق المشتركة في 19 أيلول/سبتمبر 2002. دافع ولفوفيتز عن سرعة عمل مندوبي اللّجان المتعمدة، مشيراً إلى أن خاطفي الطائرات دخلوا الولايات المتحدة في شهر تموز/يوليو قبل تاريخ 11 أيلول/سبتمبر، لذلك لما استطاعوا منع الهجوم على البنتاغون ونيويورك حتى لو استعجلت إدارة بوش في خطتها دعم مسعود وضرب القاعدة. وبالتأكيد، يمكن الادعاء في المقابل أن هجوماً كبيراً على ملجأ بن لادن في أفغانستان كان سيؤخّر أو يعيق مسار الهجمات. تعتمد حجج الطرفين على التكهّنات.

(1070) مقتطفات ولفوفيتز من المصدر نفسه. استنتاجات المسؤولين في وزارة الدولة مأخوذة من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 5، ص. 10.

(1071) نسخة وزارة الخارجية، شهادة كولين باول أمام لجنة مجلس الشيوخ الفرعية حول العمليات الخارجية، في 15 أيار/مايو 2001. الاجتماع في أواخر شهر أيار/مايو، مأخوذ من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 7 ص. 7.

(1072) شهادة جورج تينيت، لجنة الاستجواب المشتركة، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. شهادة كوفر بلايك، لجنة التحقيق المشتركة في 26 أيلول/سبتمبر 2002. «ما يثير قلقه... واسع»، مأخوذة من تقرير اللجنة النهائي، الملحق، ص. 43. مقابلات مع مسؤولين أميركيين بلايك «7... 8» مأخوذة من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 10 ص. 2.

(1073) المعلومات حول عمليات تنصّت وكالة الأمن القومي مأخوذة من إليانور هيل، بيان فريق التحقيق المشترك في 18 أيلول/سبتمبر 2002. تقارير تهديدات الـ «أف.بي.آي.» مأخوذة من شهادة مايكل رولينس، العميل الخاص المسؤول في الـ «أف.بي.آي.»، واشنطن العاصمة، لجنة التحقيق المشتركة، 24 أيلول/سبتمبر 2002. تحذيرات وزارة الدولة، مأخوذة من شهادة ريتشارد أرميتاج، لجنة التحقيق المشتركة، في 19 أيلول/سبتمبر 2002. تحذيرات إدارة الطيران المدني، مأخوذة من «النيويورك تايمز» في 21 أيار/مايو 2002.

(1074) المقتطفات مأخوذة من «باميلا كونستابل»، «واشنطن بوست»، 8 تموز/يوليو 2001. إجراء 26 حزيران/يونيو مأخوذ من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة. ص. 120.

(1075) مقتطفات بن لادن مأخوذة من وكالة «أسوشيتد بريس»، 19 حزيران/يونيو 2001.

(1076) «إيجاد طريقة» مأخوذة من «نيويورك تايمز»، في 17 أيار/مايو 2002. رسالة رايس وكلارك وبوش من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 5، ص. 16.

(1077) المقتطفات كافة مأخوذة من إليانور هيل، بيان فريق التحقيق المشترك، في 18 أيلول/سبتمبر 2002، باستثناء «متأكّد بنسبة 98 في المئة» و «أغلبية» فهما مأخوذتان من التقرير النهائي للجنة التحقيق ص. 8. «سيؤسسون علاقات» مأخوذة من التقرير النهائي، ص. 29.

(1078) المصدر نفسه.

(1079) «تايمز»، 12 آب/أغسطس 2002. بيان فريق اللجنة الوطنية، الرقم 10، ص. 3.

(1080) إليانور هيل، بيان فريق التحقيق المشترك، 18 أيلول/سبتمبر 2002.

(1081) المصدر نفسه. وشهادة جورج تينيت، لجنة التحقيق المشتركة في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002. مقتطفات تينيت مأخوذة من شهادته.

(1082) شهادة ضابط غير معروف في مركز مكافحة الإرهاب في «السي.آي.إيه.»، لجنة التحقيق المشتركة في 20 أيلول/سبتمبر 2002. وجهة نظر ماك لوفلينز ومخاوف ضابط في مركز مكافحة الإرهاب من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 7. ص. 8. أقوال هادلي عن ولفوفيتز مأخوذة من التقرير النهائي ص. 259.

**(1083) «خطر... غير محدّد»، مأخوذة من «قدرات استخبارات مكافحة الإرهاب وأدائها قبل 11 أيلول/سبتمبر»، اللجنة الدائمة في البيت الأبيض حول الاستخبارات في 17 تموز/يوليو 2002. مقتطفات تينيت مأخوذة من شهادة اللجنة المشتركة، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002.**

**(1084) تم نشر نسخة عن ذلك التقرير الرئاسي اليومي من قبل اللجنة الوطنية. معلومات تينيت حول تأخير موعد الهجوم مأخوذة من بيان الفريق الرقم 7 ص. 8.**

**(1085) شهادة كوفر بلايك، لجنة التحقيق المشتركة، في 26 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(1086) شهادة تينيت أمام لجنة التحقيق المشتركة، في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2002.**

**(1087) هيل، بيان التحقيق المشترك، في 18 أيلول/سبتمبر 2002. وكذلك، التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة، ص. 15. بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 10، ص. 4. التقرير النهائي ص. 267.**

**(1088) بيان مدير الـ «أف.بي.آي.» روبرت مولير، لجنة التحقيق المشتركة، في 26 أيلول/سبتمبر 2002. المعلومات عن خاطفي الطائرات ومقتطفات تينيت مأخوذة من التقرير النهائي للجنة التحقيق المشتركة ص. 138.**

**(1089) بيان روبرت مولير، لجنة التحقيق المشتركة، في 26 أيلول/سبتمبر 2002. بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 16، بالاعتماد على اعتراف محمد وبن الشيبة خلال التحقيقات ص. 5 - 19. تصف اعترافاتهم الجدل بين قادة القاعدة حول صواب قرار مهاجمة الولايات المتحدة. ووفقاً لمحمد، اعتبر بن لادن أن الهجوم يجب أن يكون في الخارج لدعم المقاومين ضد إسرائيل وللاعتراض على وجود الجيوش الأميركية في المملكة العربية السعودية.**

**(1090) التفاصيل المالية كافة والسفر إلى كاراتشي مأخوذة كلها من بيان فريق لجنة التحقيق المشتركة في 26 أيلول/سبتمبر 2002.**

**(1091) مقابلات مع مساعدين لمسعود وقرظاي. «يشعرون باليأس» مأخوذة من مقابلات مع داود يعقوب، مستشار قرظاي والمدير التنفيذي السابق في «مؤسسة أفغانستان»، في 27 أيار/مايو 2002، في كابول أفغانستان.**

**(1092) المقتطفات مأخوذة من مقابلة مع يعقوب، المصدر نفسه.**

**(1093) مقتطفات عبد الله مأخوذة من «لوس أنجليس تايمز» في 12 حزيران/يونيو 2002.**

**(1094) مقابلة مع يعقوب في 27 أيار/مايو 2002، ومع مساعدين آخرين لقرظاي ومسعود.**

**(1095) مقابلة مع حامد قرظاي، في 21 تشرين الأول/أكتوبر 2002 في كابول، أفغانستان.**

**(1096) المصدر نفسه.**

**(1097) معرفة مركز مكافحة الإرهاب بعبور الصحافيين حدود مسعود، مأخوذة من مقابلات مع مسؤولين أميركيين.**

**(1098) تلك المعلومات حول القتلة وعن الخطة المذكورة في هذا الفصل، تعتمد على تحقيقات تم إجراؤها في مقتل مسعود: جون أندرسون، «ذي نيويوركر»، في 10 حزيران/يونيو 2002؛ وبايز ورامبل، «لوس أنجليس تايمز»، في 12 حزيران/يونيو 2002؛ «تايم»، في 12 آب/أغسطس 2002. وأضافت تفاصيل جديدة إلى المعلومات من خلال المقابلات. بالإضافة إلى ذلك، تعتمد المعلومات في هذا الفصل على مقابلات في كابول مع مساعدي مسعود، الذين كان العديد منهم شهوداً على الهجوم، وعلى مقابلات مع مسؤولين أميركيين قاموا لاحقاً باستجواب مساعدي مسعود.**

**(1099) «ذي وال ستريت جورنال» The Wall Street Journal، 31 كانون الأول/ديسمبر 2001، تم اكتشاف الرسالة على جهاز حاسوب حصل عليه مراسلو «جورنال» في كابول خلال خريف العام 2001.**

**(1100) أندرسون، «ذي نيويوركر» The New Yorker، في 10 حزيران/يونيو 2002، طرح احتمال تآمر سيّاف مع القاعدة لقتل مسعود. عن قصد أو غير قصد، كان سياف عنصراً مسهّلاً أساسياً في العملية.**

**(1101) مقابلات مع مساعدين لمسعود. أندرسون، المصدر نفسه. بايز ورامبل، «لوس أنجليس تايمز»، في 12 حزيران/ يونيو2002.**

**(1102) التقرير النهائي للجنة الوطنية ، ص. 212 - 213.**

**(1103) دانييل بنجامين وستيفن سايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 345 - 46، قدّما معلومات مفصّلة عن هذا الاجتماع. بارتون غيلمان، «واشنطن بوست»، في 20 كانون الثاني/يناير 2002، يصف أيضاً جدول الأعمال، وأشار بعض المشاركين إلى المحادثات في شهادة لجنة التحقيق المشتركة. أثار بنجامين وسايمونز الشكوك حول التزام المجلس بمساعدة مسعود السرّية وحلفاء واشنطن المعارضين لحركة طالبان. كتبا: «إن مكتب الإدارة والميزانية و «السي.آي.إيه.» سيحددان مسألة تخصيص مئات ملايين الدولارات لتمويل مسعود»، واصفين إياه بالقرار الذي يترك مواضيع كثيرة من دون قرار لأن وكالة الحكومة المكلفة تمويل برنامج «بالسرّ» ومن ضمن الميزانية «تدّعي دائماً أن الموضوع لا يشكل أولوية مهمة».**

**(1104) بنجامين وسايمونز، The Age of Sacred Terror، ص. 345 - 46. قال الكاتبان إن تينيت «تدخّل بقوّة» خلال المحادثات، وقال إنه «سيكون خطأً كبيراً... بالنسبة إلى مدير الاستخبارات المركزية في ما يتعلق بإطلاق مثل هذا السلاح». قال: «لن يتحقق ذلك إلا على جثّتي». وأنكر مسؤولون آخرون أن تينيت كان مطلقاً. قالوا إنه حاول شرح المخاطر، ولا يحاج لنتيجة محددة. بعد أسابيع من 11 أيلول/سبتمبر، أطلقت «السي.آي.إيه.» طائرات «بريداتور» مسلّحة وكذلك القوات الجوية بالاعتماد**

على إجراءات تم اتخاذها في صيف العام 2001. بعد 11 أيلول/سبتمبر، نجحوا في استخدام الـ «بريداتور» في الميدان الأفغاني، وفي إطلاق النار على متهمين في اليمن وقتلهم.

(1105) مقابلات مع مسؤولين أميركيين. قرار 4 أيلول/سبتمبر المتعلق بالـ «بريداتور» مأخوذ من بيان فريق اللجنة الوطنية الرقم 7. ص 7. قام هادلي بتكليف تينيت إعداد قرار لمساعدة مسعود السرية في 10 أيلول/سبتمبر.

(1106) مقابلات مع مساعدي مسعود. أندرسون، «ذي نيويوركر»، في 10 حزيران/يونيو 2002. بايس ورامبل، «لوس أنجليس تايمز»، في 12 حزيران/يونيو 2002. «أهو مصارع» مأخوذة من بايس ورامبل.

(1107) عدم كشف عملية الاغتيال مأخوذ من مقابلات مع مساعدي مسعود. أندرسون، «نيويوركر»، في 10 حزيران/يونيو 2002. «كان يموت» مأخوذة من «لوس أنجليس تايمز». المقتطفات التي أدلى بها عمر كاملة هي: «كنت أنظر إلى وجه قائدي وأقول في نفسي، إذا مات فسأموت معه».

(1108) الحديث مع صالح منقول عن مقابلة مع مسؤولين أميركيين.

(1109) مقابلات مع مساعدي مسعود ومسؤولين أميركيين.

(1110) المصدر نفسه.

(1111) مقابلات مع ثلاثة مساعدين ومستشارين لمسعود في واشنطن. 10 أيلول/سبتمبر، اجتماع المندوبين من اللجنة الوطنية، بيان الفريق الرقم 5، ص. 15 - 16.

(1112) مقابلة مع قايوم قرظاي في 19 أيار/مايو 2002، في كابول، أفغانستان.